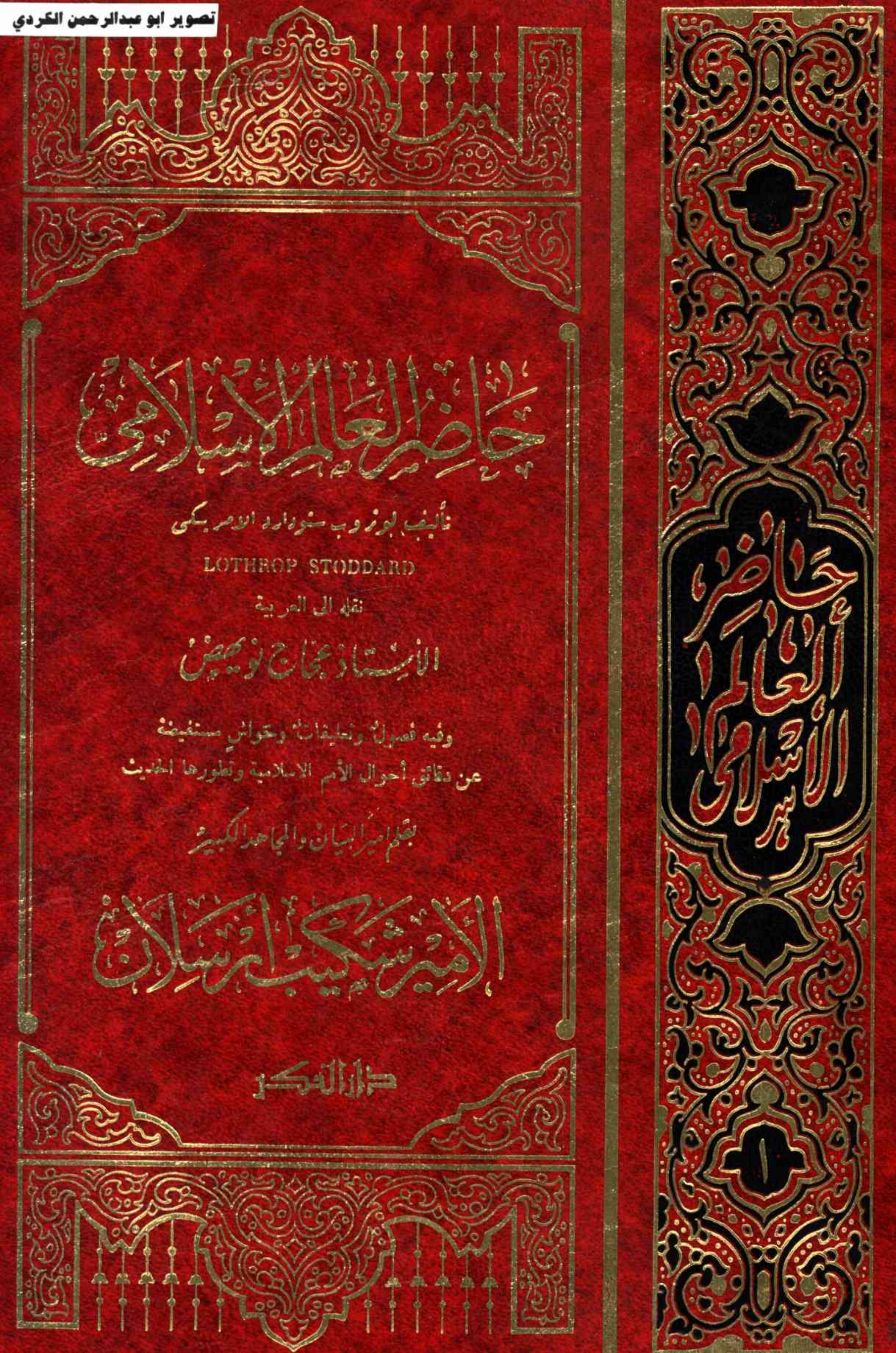


تصوير ابو عبدالرحمن الكردي
حاضر العالم الإسلامي
تأليف لوثروب ستودارد الامريكي
LOTHROP STODDARD
نقله الى العربية
الأستاذ عجاج نويهض
وفيه فصول وتعليقات وحواشٍ مستفيضة
عن دقائق أحوال الأمم الاسلامية وتطورها الحديث
بقلم أمير البيان والمجاهد الكبير
الأمير شكيب أرسلان
دار الفكر
حاضر العالم الإسلامي
١



حاضر العالم الإسلامي

تأليف لوثروب ستودارد الامريكي

Lothrop Stoddard

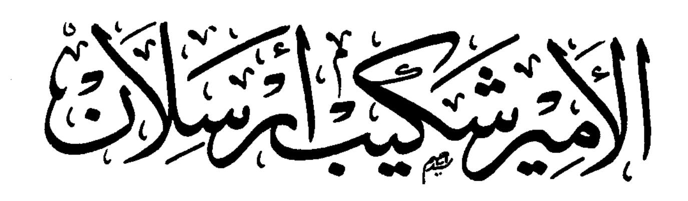
نقله الى العربية

الأستاذ عجاج نويهض

وفيه فصول وتعليقات وحواش مستفيضة

عن دقائق أحوال الأمم الاسلامية وتطورها الحديث

بقلم امير البيان والمجاهد الكبير



الأمير شكيب أرسلان

المجلد الأول

الجزء الأول

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِنْ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

« ربّنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا »

« لا عِلْمَ لنا إلا ما علّمتنا »

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبدالله الهاشمي القرشي العدناني ، المبعوث رحمةً للعالمين ، وعلى أصحابه وأنصار دينه الأولين ، ما ذرّ شارق ودرّ بارق ، ونودي في العالم الاسلامي في حاضره ، كما نودي في غابره ، ايام صلاح الدين : يا لثارات المسجد الأقصى وفلسطين !!

اما بعد ، فهذه الطبعة الثالثة من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » نقدّمها الى القرّاء الكرام في الآفاق الاسلامية في المشارق والمغارب ، آسيوياً وافريقياً ، وديارَ مهجرٍ في سائر القارات ، سنة ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١م بعد مضيّ ست واربعين سنة على صدور الطبعة الأولى في القاهرة،

« بالمطبعة السلفية »[1] ، وبعد مضيّ ٣٨ سنة على صدور الطبعة الثانية في القاهرة بمطبعة السادة « عيسى البابي الحلبي وشركاه » . وهـذه الطبعة الثالثة تصدر في بيروت ، تصدرها مؤسسة « دار الفكر » للطباعة والنشر والتوزيع .

وكنت اتمنى تمنياً حاراً ان يكون واضع المقدمة لهذه الطبعة الثالثة ، مَنْ وَضَع المقدمتين ، للطبعتين الأولى والثانية ، العَلَم الخطّار ، والكوكب السيّار ، أمير البيان الأمير شكيب ارسلان، المتغمّد بالرحمة والرضوان ، الراقد في مثوى الارسلانيين آبائه وجدوده، في «الشويفات» قرب بيروت ، وقد مضى على وفاته ربع قرن :

ولله الأمر من قبل ومن بعد .

فاني أستوحي من روحه،طيب الله ثراه . وشمعتي الضئيلة فيما أكتب الآن تستضيءُ من مناره، ولا سَفَر مهما يكن قريباً،دون الاهتداء بنجمه.

وممّا يغني عن شرح هذه المقدمة ، ان الطبعة الثانية تضمنت المقدمات التالية :

---

(١) لصاحبها الموقظ، صدر الكتاب الروّاد في النهضة الاسلامية في هذا العصر الاستاذ العلاّمة محب الدين الخطيب ؛ رحمه الله،منشىء مجلتي «الزهراء» الشهرية و«الفتح» الاسبوعية ، في القاهرة ؛ وناشر العدد الوافر من قيّم كتب السلف والتراث العربي الاسلامي ، والمجاهد بقلمه لا اقل من ستين سنة في دمشق الشام والآستانة والقاهرة ومكة المكرمة . وفاتـه في القاهرة قبل سنتين تقريباً عليه رضوان الله .

١) « مقدمة الطبعة الثانية» لامير البيان في ٣ صفحات يراهاالقارىء بعد هذا مباشرة . كتبت في جنيف في ١٥ ذي القعدة ١٣٥١ .

٢) « مقدمة الطبعة الأولى » لامير البيان في ٦ صفحات . كتبت في مرسين في ٢٥ شعبان سنة ١٣٤٣ ـ ٢١ مارس سنة ١٩٢٥ .

٣) مقدمة المترجم في صفحة واحدة.

٤) تمهيد المؤلف في اقل من صفحتين (لاتدخل في هذا مقدمة الكتاب للمؤلف لوثروب ستودارد وهي في ٢٣ صفحة)

* * *

أسباب صدور هذه الطبعة الثالثة بمادة الطبعة الثانية :

١ً ـ قبيل وقوع الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ كان يُراد إصدار طبعة ثالثة ، فحال دون ذلك القلق والاضطراب والثورات الدامية في فلسطين ، وفلسطين مستوطني الحبيب منذ ١٩٢٠ ، ثم وقوع الحرب واستمرارها ست سنين تقريباً.

٢ً ـ لم يقع في امر هـــذا الكتاب ان اجتمع المؤلف وأمير البيان ، والمترجم والطابع في بلد واحد للتعاون القريب . فامير البيان دائم المقام في اوروبا مع التنقل والسياحة احياناً في اوروبا نفسها ، وبعض سفرات الى الشرق عندما تتهيا الأسباب.ولم يكن من الممكن فنياً اخراج الكتاب في بلد غير مصر . فصلاتي بالأمير الجليل ومصر ، كان معظمها بالبريد . ولذلك حجزت الحرب الثانية بيننا وبين التفرغ للطبعـة الثالثة . ولما



الامير شكيب في الخامسة والعشرين من عمره - كانون الثاني ١٨٩٥



صاحب العطوفة الأمير شكيب أرسلان

انتهت الحرب وعاد امير البيان الى لبنان أواخر ١٩٤٦ ، وكان البريد قد توقف بيننا طول تلك السنين ، كان اقصى مرادي العمل لاصدار طبعة ثالثة ،ولكن الله جلّ وعلا وله البقاء،اختار عبده المؤمن المجاهد شكيباً الى جواره بعد وصوله الى لبنان بنحو من اربعين يوماً . وكان ذلك الخطب العظيم ، رزئت به العروبة والاسلام. ثم دخلت فلسطين في يومها العصيب الذي انتهى بما رآه العالم الاسلامي من امرها الجلل سنه ١٩٤٨ ، فانتقلتُ من القدس الى عمان قهراً و كرهاً ، وطال مقامي في عمان عشر سنين حتى عدت الى لبنان أواخر ١٩٥٩ ، وفي خلال وجودي في عمان روجعت من عدة جهات لاصدار طبعة ثالثة ، فلم تتهيأ الأسباب .

٣ ـ بين ١٩٣٣ و ١٩٧١ مدة ٣٨ سنة، وفي خلال هـذه المدة حدثت الاحداث الكبرى في العالمين العربي والاسلامي،فمحيت مصورات جغرافية واحدثت مصورات جديدة ، وما كان في « حاضر العالم الاسلامي » ماشياً للماضي والحاضر امسى في حكم الغابر : ونظرنا في امر يحتمه الزمن والتاريخ ، وهو ان نصنع شيئين اذا كان ذلك مستطاعاً :

الاول : ان نسجل لكل بلد اسلامي احداثه منذ ١٩٣٣فصاعداً حتى اليوم لكي يكون لكل بلد صورة تطوره من الوضع الذي كان عليه قبل ٣٨ سنة ، الى الوضع الذي آل اليه في يومه الحاضر ـ الحرية والاستقلال .

الثاني : ان نعيد ترتيب مادة الكتاب ، فصولاً للمؤلف

وتعليقات لأمير البيان ، ترتيباً أرعى لمصلحة القارىء تسهيلاً وتيسيراً .وهذا امر ملاحظته بادية لكل قارىء.

فلم يكن ذلك مع الأسف ممكناً . فمن جهة تسجيل الاحداث لكل بلد اسلامي ، وجدنا ان هذا العمل يحتاج الى اجهزة واسعة تستطيع الاتصال بحكومات العالم الاسلامي للحصول على المعلومات الضرورية من ينابيعها، وهذا الاتصال بحكومات العالم الاسلامي لا سبيل اليه الاّ بواسطة احدى الدول الاسلامية التي تتبنى معاونة هذا المشروع، او بواسطة جامعة الدول العربية . ولما عزمت « دار الفكر » في بيروت على اصدار الطبعة الثالثة، ضاق الوقت عن محاولة ذلك .

واما ما يتعلّق باعادة ترتيب مادة الكتاب ، فقد كان ذلك ممكناً ، ولكن هنا ضيق الوقت ايضاً حال دون ذلك كما في السبب الاول .

* * *

فلم يكن بدٌّ ، والحالة هذه من الابقاء على مادة الطبعة الثانية كما هي ، واخراج هذه الطبعة بطريقة « الاوفست » ، نقيـــة ناصعة على ما يرى القارىء . وتمتاز هـذه الطبعة بفهرست للاعلام ، خلَتْ منـــه الطبعة الثانية .

مزايا « حاضر العالم الاسلامي» اليوم :

نستطيع ان نوجز ذلك،والقارىء الكريم شريكنا في النظر والحكم:

١ً ـ كان المؤلف لوثروب ستودارد منصفاً عادلاً على الغالب في آرائه واحكامه ، كما شهد له بهذا أمير البيان . صبغة المؤلف في البحث علمية ، لا غير . واخطاؤه قليلة ، اشار اليها امير البيـان في مواضعها . والابحاث تغطي حركات الانتفاض والثورة ، ومجرى التطور في العالم الاسلامي في مدى القرن التاسع عشر الميلادي والعقدين الاولين من هذا القرن

٢ً ـ كان المؤلف يود ان يخرج بالانكليزية طبعة ثانية منقحة مزيدة، كما اخبرني هو بنفسه لما جاء فلسطين سنة ١٩٢٤ سائحاً مستطلعاً احوال العالم العربي وكان ينوي أن يضمّ الى ابحـــاثه الجديدة ما استفاده من مقابلاته لعددٍ كبير من رجالات العرب والمسلمين . والمؤلف وافر الحصافة بعيـــد النظر دقيق الملاحظة . واذكر اني لما سألته في احد مجالسي معه في بيت المقدس ما الذي جعله يكتشف تلك القيم في السيد جمال الدين الأفغاني ، قال : « كنت الاحظ في اثناء جمع مادة ترجمته وسيرته ، ان الرجل ما دخل بلداً الاواشعل النار فيه . ودك العروش عنده كدك الخيـــام . فجمعت كل ما استطعت جمعه من الاقوال فيه بجميع اللغات الاوربية ونخلته فاذا به اكبر ثاثر عقلي في المسلمين في القرن الماضي » . ولكن الله الذي توفى شكيباً أواخر ١٩٤٦ في لبنان ، توفى المؤلف ستودارد بعده باربـع سنين ، سنة ١٩٥٠ فحرم العالم الاسلامي المزيد من فضل هذين الرجلين. (ترى ترجمة ستودارد في نهاية هذه المقدمة).

٣ً ـ كان من مشيئة الله والقضاء والقدر ، ان تقـع الاسباب ، واذا اراد الله امراً هيّـأ اسبابه ، اتجتمع في هذا الكتاب العبقريتان : عبقرية



المؤلف لوثروب ستودارد

المؤلف المنصف ، وعبقريـة الموسوعي المتفرّد الأمير شكيب ارسلان . فلما اجتمعت العبقريتان معاً في صعيد واحد ، اكتسب الكتاب مـــا لم يكتسب مثله غيره في هذا العصر . امـا المؤلف فاني ساوجز ترجمته في سطور بعد قليل وقد تلقيتها مسهبة من رفيقة حياته في الدنيا منذ خمس سنوات ، وقد طلبتُ ذلك منها اذ كنت اعدّ الامور للطبعة الثالثة . اما امير البيان ، فاني اوجز هذه الناحية المتعلقة « بحاضر العالم الاسلامي » من جهته ، واحسب ان القارىء يلذّ له سماع هـــذا : « حديثه أو حديث عنه يطربني » .

٤ – اني بعون الله تعالى قدهيأتُ تاريخاً لحياة الأمير شكيب، طويته على المنار البارز من نضاله وجهاده ، في مراحل حياته كلها، مع مجمل القول في ارومته العربية ، كما هو وارد في سجـــل النسب الارسلاني المنذري اللخمي منذ الفتح . وفي « حاضر العالم الأسلامي » ، دع عنك سائر كتبه الواسعة العباب ، أرّخ الأمير وترجم لعشرات من الرجالات : من ملوك وامراء ورؤساء ، وامراء وقواد، ومصلحين وثائرين ومحررين ومجاهدين، وعلماء وشعراء ومؤلفين وادباء وغيرهم من هذه المعادن والطبقات في العالم الاسلامي الآسيوي والأفريقي ، وهو ، رحمه الله ، اول موقظٍ مسلم من هذا الطراز في عصرنا هذا ، عصر الغارة على العالم الاسلامي ، كَشَـف الستار عما كان يجري في افريقيا خاصة لتنصير المسلمين. وذكر انه لما كان يعدّ التعليقات المستفيضة على الموضوعات ومسائلها وقضاياها ، كان مضطراً الى مطالعة عشرات المصنفات بل مئاتها بلغات مختلفة ليستقي من

رأس الينابيع . فأقلّ ما يحق علينا لهذا الشهاب الثاقب بفكره وعقله ، المجاهد بقلمه وبدنه ، ستين سنة ، باطّراد ، ان نحاول بكل تواضع وفاءه رمزياً بوضع تاريخ لحياته ، مجمل ، ولله الحمد والمنة .

فالقارىء المستهام بارسلان لا يجد بغيته هذه في هذه المقدمة للطبعة الثالثة التي تصدر بعد مضيّ ربع قرن على وفاته ، اذ لا مجال لذلك هنا ، والأمر واضح . ولكننا نضع امام القارىء الكريم ، صفوة ما يتعلق من أمر امير البيان بكتاب «حاضر العالم الاسلامي» من جملة نواح ونعتقد ان القراء الذين اطلعوا على الكتاب في طبعتيه الأوليين يهمهم كشف الحقائق التي لم تكشف بعد ، ويقيننا ان في أنفسهم كل الشوق الى هذا .

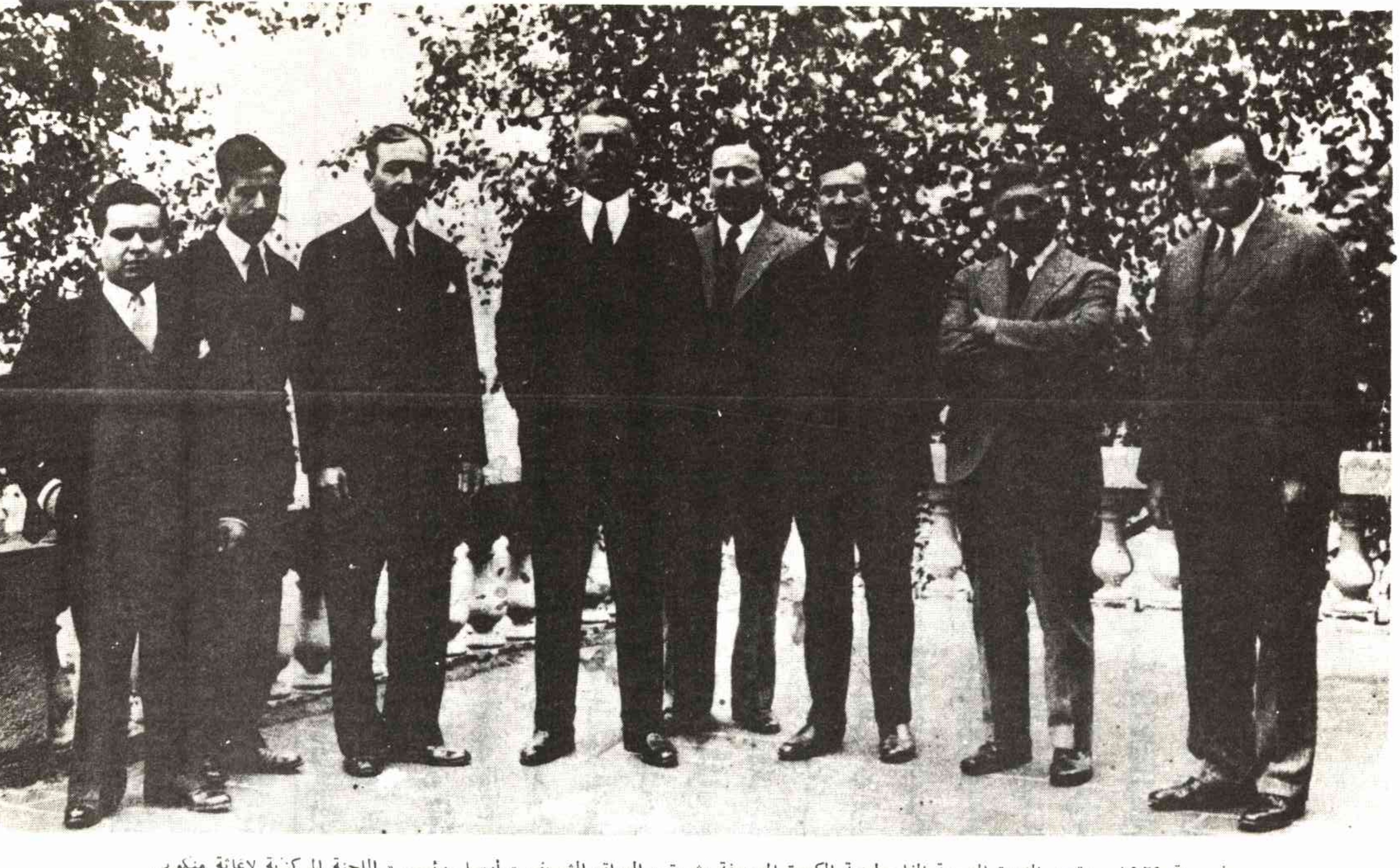
تاريخ حياة الأمير شكيب

اما تاريخ حياة الأمير شكيب ففيه تفصيل لمعظم ما رأى الرجل المجاهد ، الصابر المؤمن ، من مراحل ايامه من آلام وعبر ، وشدائد كادت تودي بحياته على يد احمد جمال باشا قائد الجيش الرابع ، وكان هذا القائد العسكري طوراني الغـــاية ، طاغيةً في كل ما يمتُّ بصلة الى المخطط الطوراني العنيف ، وقد استبد الرجل بحـــكم سوريا ولبنان وفلسطين والاردن قرابة ثلاث سنوات في الحرب العـــالمية الاولى . ونحن باذلون اقصى جهدٍ لاخراج هذا الكتاب باقرب وقت ممكن ان شاء الله .

* * *

قصة هذا الكتاب

جئت بيت المقدس من دمشق في خريف ١٩٢٠ ابتغي بلداً عربياً احلّ فيه ، بعد خروجي من لبنان وسوريا ، وفي هـذين البلدين امست فرنسا البطاشة . وفي دمشق اقمت الفترة العربية كلها من تشرين الاول ١٩١٨ ـ تموز ١٩٢٠ وكان مرادي ان اذهب الى العراق ، ولكن الوصول اليه في ذلك الوقت كان صعباً شاقاً ، فلا سيارة ولا طيارة ، ولا استطيع ركوب البحر لطول المسافة وتعقد وسائلها وكثرة نفقاتها . فاشار عليّ اخواني في دمشق ان آتي فلسطين ، فلعلّ وسائل الانتقال منها الى العراق اسهل . ولم اكن اعرف شيئاً من فلسطين عن كثب الى ذلك الوقت ، سوى ما احفظه في ذاكرتي من المعلومات التاريخية والجغرافية عنها ايام الدراسة في لبنان . ولكني منذ الصغر والنشأة الأولى كنت اشعر بهواجس في نفسي نحو فلسطين ولا ادري علة ذلك . وبيتنا في « رأس المـــتن » مشرف على ذلك الوادي الذي فتن الشاعر « لامرتين» الفرنسي لما زاره في القرن الماضي حتى صار يطلق عليه بلغة الشعر « وادي لامرتـــين » ، وهو بيننا وبين بحمدون وصوفر وبعلشميه،المصايف المشهورة. وطبيعة لبنان في هوائه ـ صيفاًوشتاءـ يستطيع اللبناني الصغير ان يفهم معجمها دون استاذ ومدرسة ، فكانت كل يوم تقريباً تطلع الغيوم البيضاء من الجنوب ، لا من جهة البحر للغرب ، وتنسحب وتتراكم في الجوّ ، وتتقطع وتتناثر ، وتتألف منها مناظر خلاّبة.فلما سالت الاستاذ في مدرسةالقرية عن هذا قال لي تلك الغيوم من البحر الميت . فازددت حباً لفلسطين عن



في سنة ١٩٢٩ ، وقعت الثورة العربية الفلسطينية الكبيرة المعروفة بثورة « البراق الشريف » أرسل رئيس « اللجنة المركزية لاغاثة منكوبي سورية » سماحة الحاج محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين ورئيس « المجلس الاسلامي الاعلى » وفدا عربيا الى اميركة للعمل من اجل قضية فلسطين واستنهاض همم المهاجرين العرب والمسلمين وكان الوفد مؤلفا من المجاهد بالسيف والقلم الامير عادل ارسلان شقيق الامير شكيب » في الوسط فارع الطول » ومن يساره الاستاذ البندك وبقية الوفد .

طريق الغمام اولاً .

ركبت القطار من دمشق الى حيفا ، فلما وصل بنا القطار الى وادي اليرموك اجتازه لأول مرة في حياتي ، ثارت هواجس نفسي من جديد ، ولكن الآن الذكريات محرقة : موقعة اليرموك ، وكانت بوابة الفتح ، كانت هنا ، وفي المساء وصلت حيفا وشاهدت « جبل الكرمل » فوجدته تلة بالنسبة الى جبال لبنان . فبتّ في حيفا ، وثاني يوم صباحاً ركبت القطار الفلسطيني الى القدس فوصلت بعد الظهر فهالنى ان ارى بيت المقدس مدينة ، على كتفيها لا اقل من خمسة الآف سنة ، وهي كلها من الحجر ، وفي دمشق مدينة الدهور والازمنة ، لم يكن فيها اكثر من عدة مبانٍ حكومية من حجر !! وبقيت بضعة الايام الاولى لحلولي في بيت المقدس اجتلي حسن تقاسيم وجهها ، ومرابض تلالها واوديتها ، وزرت الحرم القدسي الشريف فدهشت؟!! قبة الصخرة آية. المسجد الاقصى وتد الله المبارك . ولكنني ذعرت حقاً لما رأيت ما يسمون باليهود وهم بغاث يحاولون ان يستنسروا . فلم يكن في دمشق رائحة للصهيونية ، ويهود دمشق قبضة منكمشة في « حارة اليهود » شأنهم في مدن الشرق قاطبة.

ولما سألت عن الطريق البرية الى العراق ضحك الناس مني ! وكنت آخر ليلة لي في دمشق قد تعرفت مصادفة ، بمظهر (باشا) رسلان [1]

---

(١) من رجالات سوريا العاملين في الحركة الوطنية ، وكان من المخضرمين الذين ثقافتهم صبغتها تركية لتخرجه من معاهد الآستانة ، ولما تعرفت به كان ينوي العودة الى الصلط حيث مقرّه ، ثم عمل في الادوار الاولى من الحكم الاردني ايام حزب الاستقلال العربي وتوفي١٩٤٨ ابان معترك فلسطين رحمه الله.

(لا ارسلان) في فندق خوّام ، وهو وقتئذٍ حاكم البلقاء العربي مرجعه دمشق ايام فيصل والاردن كان تابعاً لسوريا ، ولكن بعد حوادث تموز ١٩٢٠ ودخول الجنرال غورو دمشق ، تغيّر الوضع ، اذ معاهدة « سايكس ـ بيكو » تفصل بين المنطقة العربية السورية التي خرج منها فيصل بن الحسين وبين المنطقة الجنوبية التي هي الاردن ـ بخط قرب (درعا ـ حوران) فبعد خروج فيصل من دمشق انقطعت المنطقة الجنوبية ـ شرق الأردن ـ عن دمشق ، فالقى الانكليز ظلهم عليها شيئاً فشيئاً ، وذهب هربرت صموئيل اليهودي الصهيوني أول مندوب سام بريطاني الى شرق الاردن ليدرس كيف تنشب المخالب فيه. فحار حاكم البلقاء العربي في أمره ، فلا دمشق بقيت كما كانت عربية ، ولا هو مستعد ان يستقبل الانكليز ليحلوا محل دمشق الاّ مغامراً ، والفرنسيون امسوا في سوريا ، فجاء مظهر ارسلان الى دمشق ليعلم مسيره ومصيره. فلما تعرفت به آخر ليلة سرني ذلك جداً ، وأنست بلقائه ، ولم اكن اعرفه من قبل ، ولما اخبرته خطتي ونيتي ، ووقف على صلتي بالامير عادل ارسلان ورشيد طليع ، طلب مني اني اذا بلغت القدس ان ازوره في الصلت لاعمل معه والحّ عليّ في ذلك الالحاح كله . وزاد في الفضل انه زودني من تلقاء نفسه بكتاب وصاة بالتركية الى السكرتير المدني « مستر ديدز » [1] في حكومة

(١) مستر ديدز هذا كان اول سكرتير مدني للمندوب السامي بعد الحكومة العسكرية التي انتهت في اول تموز ١٩٢٠ وانما هو يعرف التركية جيداً لانه كان قبل الحرب في بعثة بريطانية الى تركيا لتنظيم الدرك فأقام في تركيا عدة سنوات .

فلسطين ، وعرّفه بي وبنيتي العراقية . ولم اكن الى ذلك الوقت اعلم شيئاً عن أي «مستر» من «المساتر» في فلسطين .

* * *

لا يغيب عني اني لست هنا أدوّنُ ذكرياتي ولا تسجيـل مذكراتي ، ولكني معنيٌّ بالخيوط التي منهـا نَسَج لي القضاء والقدر ثوباً ألبسنيه بخير وبركة حتى اليوم -في فلسطين . من ذلك « حاضر العالم الاسلامي».

* * *

في بيت المقدس ١٩٢٠

وثاني يوم وصولي بيت المقدس ، ذهبت الى « جبل الطور » حيث مقر الحكومة [١] وقابلت نائب المندوب السامي وكان يقال له «السكرتير

(١) لما زار الامبراطور غليوم الثاني فلسطين وبيروت ودمشق سنة ١٨٩٨ اهداه السلطان عبدالحميد قطعة أرض قرب « علـّية صهيون» في القدس فانشأ الالمان اللاتين كنيسة ضخمة في هذا المكان . كما دشن غليوم في أثناء زيارته للقدس كنيسة المانية جديدة قرب « كنيسة القيامة » . وبمناسبة هذه الزيارة بنى الالمان في جبل الطور صرحاً عظيماً مؤلفاً من عدة مبان لاغراض دينية وغيرها . وهذا الصرح كان يقيم فيه القائد جمال باشا «السفـاح» ايام وجوده في القدس . والامير شكيب دخل هذا الصرح مراراً في ايام الحرب الأولى . وبعد ١٩١٧ اقامت السلطة العسكرية البريطانية فيه الى ١٩٢٠ ثم اقامت فيه بعد ذلك الحكومة المدنية الى ١٩٢٧ فانتقلت منه بسبب الزلزال ، وفي هذا المقر قابلت مستر ديدز في ايلول ١٩٢٠ .

المدني » مستر ديدز . ودهشت من لطفه وشدة ترحيبه بي وأنا آتٍ من دمشق ، فقال لي ان « مظهر باشا » سيعود الى الصلت بعد مُدة مديدة ، وهو سينتظرك هناك واما انت ، فكيف سبيلك الى العراق ؟ فهذا مستحيل اليوم . فابق في القدس ، ريثما يتيسر لك السفر البري الى العراق ، او الوصول الى الصلت ، وفي اثناء مدة بقائك في القدس ، لا بأس ان تتسلى بعمل حكومي مؤقت عندنا ، وهذا كتاب مني الى مدير المالية ، فاذهب اليه فوراً .

وبعد مناقشتي هذا الاقتراح مناقشة واقعية سريعة ، وجــدت ان عودة مظهر الى الصلت قد تتراخى الى اسابيع ، وكي لا اقع في ازمة مالية خاصة وانا غريب في بيت المقدس ، اجبت مستر ديدز بالشكر والقبول ، فكتب الكتاب فوراً وسلمنيه وودّعني الى الباب . وثاني يوم بدأت عملي في المالية على « جبل صهيون » .

* * *

أسال عن الأمير شكيب

قبل خروجي من الشام ، وفي اثناء ١٩٢٠ كنت اسأل في « أي دنيا » الامير شكيب في اوروبا ، اذ تقطعت الاسباب ، والعالم لم يزل كسفينة تغالب الريح . والحرب قائمة بين مصطفى كمال واليونان في الاناضول ، و « روسيا البيضاء » بمدد وعون من « الحلفاء » ثارت على روسيا التي كان

يقال لها وقتئذ « البولشفيكية » . وايران كانت تتخبط في امورها الداخلية . ومصر لم تسكن بعد الا سكون النار تحت الرماد .

وكنت اقرأ في تلك الغضون اخبار مجيء « سير برسي كوكس » الى بغداد ليمهد لفيصل بن الحسين ، وفي الجزيرة العربية ، وبعد قليل نرى عبد العزيز آل سعود يستولي على « حايل » ويصفي ابن الرشيد ، وهذا اول صعود ابن السعود الى المملكة العربية .

اما الامير شكيب فقد كان بلغني من اصدقائي في دمشق ان « المكاتبات الاخوانية » عادت الى مجراها القديم بينه وبين اصحابه ، ولكني بعد قليل في القدس علمت انه في المانيا ، وآخر مرة رأيته فيها في لبنان كان ١٩١٦ في « صوفر » ، وله في صوفر بناية وفيها مقهى وكان يجلس في هذا المقهى لمطالعة الصحف . وغدوت اتنسم اخباره بشوق ، فصار كثير من الناس في القدس اول ما يسألونني ، عندما يعرفون اني من لبنان : اين هو الامير شكيب ؟

اول صلتي بالأمير شكيب

وأوجز قصة صلتي بالامير شكيب في لبنان: فاني نشأت وانا اسمع وارى الناس في المجالس كلما أتوا على ذكره، تهللت منهم الوجوه ولوّحوا بالايدي اكباراً له باعتباره شاعراً لا يجارى ، ولم يكن غير المثقفين يدركون انه كان قبل بضع سنين يناغي محمود سامي البارودي في الشعر المنتفض من العصر العباسي . ولم يكن الامير شكيب ينشر من شعره في لبنان كثيراً،

الا في كبرى المناسبات . وكنت اول تذوقي الشعر اقرأ شعر امين ناصر الدين صاحب جريدة « الصفاء » في لبنان الجبل ، وشعر بشارة عبدالله الخوري الذي عُرف فيما بعد « بالاخطل الصغير » .

ولما وقعت الحرب صيف ١٩١٤ لم اكن قد رأيت الأمير شكيباً بالعيان بعد وانا مشتاق الى ذلك ، وانا طالب في المدرسة الداخلية في برمانا [١] . ولكنني كنت سنة ١٩١٤ قد قرأت ما استطعت من كتابات المنفلوطي وامين الريحاني ، وما قاله الاول عن شعر الامير شكيب وطبقته في « مختارات المنفلوطي » [٢] .

ولم تدخل الدولة العثمانية الحرب الى جانب المانيا الا في الخريف ، فجاء احمد جمال باشا قائداً عاماً أواخر ١٩١٤ بدلاً من زكي باشا الحلبي الذي نقل « ياوراً عسكرياً » الى بلاط الامبرطور غليوم . وما لبث احمد جمال طويلاً حتى اخذ بالتحريض على مهاجمة « الترعة » ـ السويس ـ وانتشرت الدعوة في البلاد الى هذا ، وكان الامير شكيب قد اعلن انه تطوع بكتيبة

(١) الى سنة ١٩١٤ لم يكن في لبنان الا المدارس الخاصة ، ومعظمها « تبشيري » انجليزية أو فرنسية ، وليس للحكومة اللبنانية مدارس تذكر ، وانما الأتراك حاولوا بعد ١٩١٦ انشاء مدارس حكومية على منهج تركي . وكذلك لم يعرف لبنان حتى ١٩١٦ شيئاً من معنى « دائرة الاشغال العامة » او « الصحة العامة » .

(٢) منذ الدستور العثماني ١٩٠٨ فصاعداً عمت سوريا ولبنان موجة الاقبال على الافكار الحديثة والاساليب الكتابية العصرية ، وكانت كتابات المنفلوطي في هذه الناحية في الطليعة .

لبنانية وهو زاحف مع الجيش . وآل ارسلان كان بيتهم وقتها يمثله « الامير مصطفى » ، ويناديه شكيب ابداً « بياعمي » ، وبعد الأمير مصطفى ، الامير شكيب ، الاديب ، الشاعر المفلق، « السياسي العثماني ». اذا مشى في الناس ، مشى بتؤدة ورزانة ، وعلى عينيه « نظارتان » (عويتات) ذهبيتا الإطار ، ومن احد الطرفين تتدلى سلسلة، ذهبية رفيعة الى صدره ، وقامته كالرمح . سنة ١٩١٤ كان في الخامسة والاربعين .

* * *

واخذ يجول في قرى لبنان داعياً الى التطوع . و « الشوف » و « المتن » في لبنان هما مسرح النفوذ الارسلاني والجنبلاطي . وقريتي المسماة « رأس المتن » باتت تنتظر وصول الامير شكيب ، فلما وصل بات ليلته عند الشيخ حسين تقي ،ودار جدي لوالدي ملاصقة لدار بيت، تقي، وامام الدارين ساحة . ولا نعلم المدة التي يمكثها الامير في القرية . ولكن في صباح اليوم التالى قيل ان الامير شكيباً يريد ان يجتمع بالناس في الساحة فاحتشد الناس من كبار وصغار ، وهمّهم ان يروا الامير ابن ارسلان اكثر من « الترعة » والتطوع . وكان الشيخ حسين ووالدي يعرفان الامير من قبل ، وكان الشيخ حسين يحفظ حصة من شعر الامير ، يتغنى بها امام الناس ، ولكنه لا يبالي بقواعد الصرف والنحو .

فذهبت مع والدي الى الساحة ، وحضر الشيوخ والشبان جميعاً من الحيّ كله فوقع نظري على الامير شكيب لأول مرة ، ولما بدأ يتكلم داعياً

الى نصرة « الدولة » احسست كان الكلام يخرج من قلبه لا عن طريق لسانه . فارتعشت . وكان جدي قريباً منه ، وانا واقف قرب جدي. فلما انتهى الأمير من خطبته ، تقدمت خطوة أو خطوتين حتى صرت في مقابلته ، والقيت خطبة (ارتجالية) بين يديه ضارباً على وتر التطوع ، مستمداً من رباطة جاشه كل ما قلت . ولما انتهيت ، وانا احسب نفسي نلت المنى برؤيتي الامير شكيب والخطابة بين يديه ، في اكبر حشد رأته القرية في ذلك الصباح ، ما رأيته الا يسال الشيخ حسيناً عني فلما علم اني ابن فلان ، واني في مدرسة (برمانا) غمرني بابتساماته الحلوة وبشاشاته المشجعة وقرّبني منه ، وكرمني بثناء لا استحقه على مسمع من الناس ، وجعل الناس يهتفون باسمه ، واوقفني في الحلقة الى جانبه مبالغة في تشجيعي وتكريمي ، فطرت من الفرح ، وها قد مضى على تلك الساعة ما مضى ، وما زلت اشعر ببهجتها وغبطتها. وسالني الى أي مدرسة تذهب بعد ان اقفلت مدرسة « برمانا » ابوابها (لأنها انجليزية) فقلت له اني ساذهب الى مدرسة « سوق الغرب » الاميركية . فدعا لي بالتوفيق .

انور وجمال والامير شكيب في عاليه

لما جاء انور باشا وزير الحربية الى لبنان وسوريا ، وتابع رحلته الى المدينة المنورة سنة ١٩١٦ ، وانور صديقه الحميم منذ أيام طرابلس الغرب (ليبيا) ١٩١١ ـ ١٩١٢ اقام الامير شكيب لانور استقبالاً حافلاً في «صوفر» ، ثم في «عاليه» وكان اخوه الأمير عادل «قائمقام الشوف» وقتئذٍ ومركزه عاليه ، وبين عاليه وسوق الغرب مرمى حجر وكان مع انور

احمد جمال ، وثلّة من كبار الضباط الألمان . وجئنا نحن طلاب المدرسة لنشترك في هذا الاستقبال الرسمي الشعبي الرائع ، والناس باسلحتها تملأ الأرض كلها يقدرون باكثر من عشرة آلاف ؛ فلما وصل انور بسيارته المكشوفة ، والآن ارى السيارة في حياتي لأول مرة ، ترجّل وترجل معه احمد جمال وكبار الالمان، فقلت : اغتنم هذه الفرصة لارى « انور »واحمد جمال ، والأمير شكيباً معاً . فدنا « انور » من احد الرجـــال المسلحين الواقفين صفوفاً على جانب الطريق ، يريد محادثته محادثـــة «تلطيف» وتشجيع ، فجاء الامير شكيب مع انور للترجمة ، وشاء حسن الحظ ان يكون ذلك الشخص الذي اقترب منه انور هو «عمي» وانا بجانبه ، فلما رآني الأمير بادرته بالتحية ، فهشّ لي وبشّ رغم دقـــة الثواني في هذه اللحظات، ، وكان حديث بين انور و« المسلح » لا يتسع المكان له هنا . ثم اني رأيت الأمير شكيباً في لبنان بعد هذه الحفلةالسنوية مرتين في صوفر، وانا مع صديق والدي الشيخ عباس صالحة من اعيان « المتن » واصدقاء الأمير. ثم بعد ذلك لم اره الا سنة ١٩٣٤ في بيت المقدس .

* * *

نفوري من اليهود في فلسطين

بعدنحو اسبوعين من مقامي في بيت المقدس،اعمل موظفاً في دائرةالمالية وأنا اسال عن مظهر باشا رسلان، وجدت ان النفوذ اليهودي في الحكومة شيء لا يطاق . غطرسة،وعجرفة وطاووسية يهودية لا نهاية لها.وصارت

ذكريات دمشق العربية تهيب بي الى الانعتاق ، فقدمت استقالتي الى المدير فلم يقبلها ، ثم دعاني الى مكتبه وراح يسألني عمّا انوي عمله بعد الاستقالة لو قُبلت ، فقلت له ، وهو بريطاني لا يهودي ، اني اريد الذهاب الى شرق الاردن ، الى حكومة عربية ، واذا تمكنت فالى العراق . وكان الأنجليز على الجملة في حكومة فلسطين الجديدة ويرأسها هربرت صموئيل اليهودي الصهيوني من اول تموز ١٩٢٠ ، في حيّزين : حيز يعطف على العرب عطفاً كامناً لا يستطيع الجهر بـه ، وحيز المماشاة للسياسة الصهونية . ونُقل كثيرون من الادارة العسكرية الفلسطينية التي كان يشرف عليها الجنرال اللنبي في مصر الى الادارة المدنية ، ومعظم هؤلاء كانوا يكرهون اليهـود .

فقال لي المدير : انى لا اقبل استقالتك ، ولكنى احتفظ بها في الدرج وامهلك بضعة ايام تذهب في خلالها الى السلط ، فان عدت الى القدس في خلال اسبوع ، عدت الى عملك ، وان لم تعد ، تقبل استقالتك . ثم زودني بكتاب وصاة الى المعتمد البريطاني الذي في السلت . فشكرته ، وذهبت ثاني يوم الى الصلت ، فبقيت النهار كله مع رفاقي الركاب في سيارة «فورد» من مخلفات الجيش ، حتى وصلت السلت[1] مساء فوجدت مظهر باشا لم يعد بعد ، وبتُّ في السلت ضيفاً على أحد الكرام ، وثاني ليلة عدت الى القدس ، وصباح اليوم الثالث جئت الى عملي في المالية ، فدخلت على المدير ، فلما وقع نظره عليّ قال مستغرباً : لمـاذا لم تذهب الى السلت ؟

---

(١) واليوم تقطع المسافة من عمان الى القدس بساعتين ، ومن السلت باقل.

فقلت له ذهبت وبت هناك ليلة ورجعت ، وسألني السبب فأخبرته ، فهزّ برأسه وقال : « لم تصدقني ان هنا احسن لك » . وبقيت نحواً من سنتين اعمل في حكومة فلسطين ، حتى ذقت الأمرين كل يوم عشرين مرة من تنمر اليهود وتعلبياتهم . في ربيع ١٩٢١ أو بعد حلولي بالقدس بنحو نصف سنة ، احتشد في عمان رهط من رجـــالات العرب الذين كانوا في دمشق . رجال هذا الرهط حاولوا العمل مع الملك عبدالله (الامير وقتئذٍ وحتى ١٩٤٦) الذي قدم من الحجاز في ذلك الربيع فاستقر في الاردن ، وكانت أول حكومة تالفت في الأردن بعد مجيء عبدالله ، هي التي ألّفها رشيد طليع « مدير الداخلية » « ووالي حلب » في الحكومة العربية في سوريا أيام فيصل ، وطليع من نبغاء الأمة العربية [1] . فكتبت اليه من القدس اعرض عليه خدمتي ، شاكياً له اشواك الخاصرة في فلسطين ، فاجابني بانه يطلبنى باول فرصة، ولكن حكومته الأولى هذه، وكانت لا تسلّم للانجليز بما يريدون ، لم تعش الا بضعة اشهر، فبقي في الأردنبعد الاستقالة مدة ثم جاء فلسطين ثم ذهب الى مصر ، ولما نشبت الثورة سنة

(١) هو صديق الأمير شكيب وخرّيج معاهد الآستانة . تولى في عهد الاتراك مناصب ادارية عديدة ، وسنة ١٩١٣ كان «متصرف حوران» ، فلما ترشح الامير شكيب للنيابة عن حوران قدّم له طليع كل مساعدة . وبعد استيلاء الفرنسين على سوريا انزوى في جبل العرب حتى دعاه الملك عبدالله ١٩٢١ لتأليف أول حكومة فألفها ولكن الانكليز عارضوه، توفي وفاة شهيد في اثناء الثورة في جبل العرب سنة ١٩٢٦ وهو في الأخلاق العالية قليل النظير ، وفي اتقان الادارة فريد .

١٩٢٥ في جبل العرب جاء من مصر من اجلهـــا ، وهو في الوقت نفسه صديق قديم لقائد الثورة سلطان الاطرش . فذهب الى الجبل وتوفي بعد بضعة أشهر .

القضاء والقدر ساقني الى حاضر العالم الاسلامي

كنت في المطالعة أوثر جريدة «التيمس الاسبوعية»،«ومجلة المجلات» الانجليزية . ولم أكن استطيع شراء الكتب أول امري في بيت المقدس اذ حالتي المالية لا تساعد على ذلك. فجعلت اتردد على «جمعية الشبان المسيحية»[1] في القدس لاستفيد من مكتبتها ، ولكنني كنت اخشى سوء المغبة من هذا التردّد ،لانني من ايام المدرسة في سوق الغرب لاحظت اني لا استطيع هضم وسائل التبشير لغير المسيحي .

وما كنت قد عرفت من وسائل التبشير حتى خروجي من لبنان الا البرتستانتي ، ومدرستا « برمانا وسوق الغرب » من هـــذا النوع . وحصلت امور بيني وبين الجماعة في سوق الغرب آلمتني ، فقلت : اظلّ اتردد على المكتبة ما دام الجوّ صافياً ، فاذا اعتكر ، فليس لي الا المفرّ ؛ وكان مدير الجمعية في بيت المقدس رجلا محنكاً ، طويل القامة، وفي باطنه غير ما تقرأ في ظاهره ، اسمه « مستر شيفرز » .

---

(١) سنة ١٩٢١ على ما أذكر جاء أمين الريحاني وخطب في هذه الجمعية فسمعته خطيباً لاول مرة وكنت معجباً بكتابة « الريحانيات » اعجـــابي «بنظرات» المنفلوطي .

و « مجلة المجلات » الانجليزية كانت تعني بتقريظ القيّم من الكتب ، ففي ذات يوم وانا في المكتبة اطالع هذه المجلة ، اتاني « مستر شيفرز » وكلمني بغاية الايناس : مستر فلان،هل لك ان تتفضل بأخذ هذهالبطاقة واعادتها موقعة اذا احببت ؟ ولما وقع نظري على البطاقة ادركت ما هي. ما يسمى « بالعهد » وبالانكليزية Pledge خلاصتها ان الموقع موافق على ان يكون عضواً مسيحياً في الجمعية ، مراعياً لنظامها ، غيوراً على غاياتها، مؤمناً.. .. ولما لاحظ مستر شيفرز انيلم ابال بالمسالة كثيراً عاد فسألني: ومتى يمكنك اعادة البطاقة موقعة ؟ فقلت له : بعد دراستها !! فتركني ومضى . فعدت الى المجلة اكمل مطالعة ما كنت بسبيله ، وهو كتابظهر حديثاً في بريطانيا واميركا اسمه The New World of Islam وكان التقريظ يملأ ثلثي الصفحة ، ولفتت نظري عبـــارة للمجلة في الثناء على المؤلف فقالت هو « ارميا القرن العشرين » .

فدوّنت في دفتر الجيب اسم الكتاب وعنوان دار النشر البريطانية وخرجت دون ان ارى مستر شيفرز . ونظرت في النهاية وقلت : اذا عدت الى المكتبة ، فان مستر شيفرز سيسألني عنالبطاقة، فبماذا اجيبه ؟ وبعد التفكير ، ابقيت البطاقة على حالها ووقعتها . ولكن بعد ان كتبت اسم « نبينا محمد صلعم » في المحل الذي ينبغي ان يكون فيـــه ، وجئت المكتبة وجلست اطالع حصة كبيرة ، وكدت اتمّ مطالعـــة ما اريد ثم اخرج ، فاذا بمستر شيفرز مقبل علي فقال : أوقعت البطاقة ؟ فقلت : نعم ، ولكن مع تبديل اسم باسم أو لفظة بلفظة . فاضطرب وقال : ما

الذي بدّلته ؟ وكنت جمعت اوراقي تحت ابطي ، فوقفت وقلت له: مستر شيفرز : كم سنة لك في الشرق ؟ فقال كذا وكذا من السنين ؛ فقلت له : انا اقدم منك بكثير في الشرق اوتدري كم عمري بالنسبة الى هذه البطاقة؟ فبهت واضطرب . فقلت له ان عمري هذه السنة ١٣٤٠ سنة . تفضل هذه هي بطاقتك Good bye Mr. Shivers .

* * *

اتفقت مع مكتبة انجليزية في القدس صاحبها اسمه « مستر كانن » على ان يحضر لي الكتاب بالطيارة . لمـــا وصل الكتاب استقلت من عملي في الحكومة صباح اليوم التالي ، ثم جئت « البانسيون » الذي كنت اقيم فيه وقلت للسيدة المسؤولة عنه : اريد مصباحاً (لم تكن الانوار الكهربائية قد عرفت في القدس بعد) يكفيني من المساء حتى الصباح فاني ساصاب بالارق هذه الليلة . فاعدّته وأتت به إليّ .

فخلعت ثيابي ، وهيأت مصباحي ، واعددت شيئاً لعشائي،والساعة الثالثة بعد الظهر جلست في سريري اطالع الكتاب مطالعة عامة لاقف على مطوياته ، ، مطالعة المام لا اكثر ، واذا بي اتلفت حولي فاجد النور قد خف والشمس في المغيب، فاشعلت المصباح ووصلت بياض النهار بسواد الليل ، وكاني مسافر على بساط ريح ، ثم تلفتّ ، فاذا بي ارى الصباح قد اطلّ ، وبعـــد ساعة كنت قد فرغت من الالمامة التي اردت . فاعجبت بالكتاب ..

* * *

«حقوق الطبع» محفوظة، كما هي العادة ، ولا سيما في مثل هذه الكتب التي يدرسها الناشرون دراسة وافية قبل اخراجها ، فكتبت الى السيدة البريطانية الرحّالة روزيتا فوربس اسألها ان تكون معرّفا لي لدى الناشرين الانجليز ، الذين طلبت منهم الاذن بنقل الكتاب الى العربية اذناً واحداً لا يتعدد ويشمل العالم العربي . وكنت قد عرفت السيدة روزيتا في دمشق سنة ١٩٢٠ [١] ، اذ جاءَت تدرس الأوضاع السياسية ، من عربية وانجليزية وفرنسية ، وشرح لها (الامير) فيصل الحقائق كلها . كان يترجم لها توفيق مفرج . واما صلتي بها فمن قبيل المصادفة اني كنت صاعداً الطابق الثاني من فندق خوام ، فاذا بي ارى شيخاً عربياً نازلاً وكانه حائر يفتش على شيء . فاستوقفني بعد التحية وسالني أأعرف الانجليزية ، ولما اجبته بنعم سالني ببهجة الذي يلقى الفرج بعد شدة ، ان اذهب معه الى الصالون اذ عنده سيدة بريطانية، واخبره الأمير فيصل أن يحدّثها فجاءَت قبل أن يجيءَ من يترجم بينهما . فكان هذا الشيخ هو الامير نوري الشعلان من أمراء البادية . فذهبت . وبعد هذه الجلسة كلفتني السيدة روزيتا فوربس بان اترجم لها الاناشيد القومية العربية

(١) قامت روزيتا فوربس بعدة رحلات الى اليمن وافغانستان وصحراء ليبيا وغيرها . وفي رحلتها الى صحراء ليبيا كان رفيقها الرحالة المصري احمد حسنين المشهور ثم هو بعد ذلك قام برحلة اخرى وحده وروزيتا فوربس مؤلفة روائية. وبلغني في هذه السنوات الاخيرة انها التوت في ميولها العربية.

التي كانت تنشد في المدارس والمعـاهد والتظاهرات والمواكب .ففعلت. ولم تترك هي دمشق آيبةً الى بلدها الاّ وقد تأكدت الحال بيننا،واعطتني عنوانها ، ولما جئت فلسطين كانت ترسل رسائلهــــا الى بعض السيدات العربيات اللواتي يعملن في المضمار القومي ، بواسطتي ، الى داخل سوريا. لذلك لمــــا اضطررت من جهتي الى الحصول على الاذن المتعلق بكتاب ستودارد ، كتبت اليها فجلبت لي الاذن موافقاً عليــــه من الناشرين الانجليز والاميركان جميعاً واخبرتني انه كان لدى الناشرين عدة طلبات من ادباء العر ب من مصر والعراق وسوريا ، فكان طلبي هو أول مــــا وصلهم فلبوه .

لما تسلمت الاذن من الناشرين ، رتبت امري أن اسير بالعمـل سيراً منظماً لا يوقفني عنه الا القواهر كالمرض والطوارىء. ولكنى كنت لا أملك من المال ما يكفيني بضعة أشهر وأنا لا أجني شيئاً في أثناء ما انقطع اليه من الترجمة في غرفتي (البانسيون) . فاستطعت ان أحل هذه العقدة بأن رضيت معي صاحبة البانسيون ، أم جورج الفاضلة ، أن تقدم الي وجبة الصباح فقط . فيحق لهــــا عندي اجارة البانسيون ومقابل هذه الوقعة ، لمدة أربعة أشهر ديناً، وذهبت الى السيد سليم الحداد ، لبنــــاني الأصل مقيم في فلسطين من قبــل الحرب العامة الأولى ، وهو صاحب « فندق فلسطين » و « مطعم فلسطين » وهو يعرفني جيــداً منذ جئت فلسطين ، وعرضت عليه مثل ما عرضت على أم جورج ، ولكن مطلوبي منه أن اتغدّى عنده الغداء فقط ولا عشاء، لمدة أربعة أشهر ديناً ، فرضي

بكل طيبة خاطر . وبهذه الطريقة يمكنني أن أتحمل السير بالعمل ، سواء تيسر العشاء بطريقة أخرى أم لم يتيسر .

* * *

ترجمته في مئة يوم :

سلخت في عمـــل الترجمة مئة يوم[1] بالتمام . وكنت أنهض صباحاً وارتب شؤوني الخاصة بحيث اكون في الثامنة الى منضدتي ، كأني اعمل في دائرة رسمية . فابيّـض مــــا ترجمته في اليوم السابق ، ثم اشرع في ترجمة الحصّـة المعينة لي ، وهي ٣ صفحات لا أكثر ولا أقل ، ولا حدود لوقت انتهاء عملي بعد الظهر أو العصر ، فقد انتهي في الثالثة ، وعلى أقصى حد في الرابعـــة . بعد هذا الوقت اخرج الى لقاء اصدقائي وعلى الغالب في « قهوة بريستول » عند السور في باب الخليل . وفي المساء آوي الى مخدعي فاطالع الصفحات الثلاث الجديدة وأنا في السرير ، وأحلّ عقدها اذا كان هناك من عقد، ثم أنام فانهض في الصباح لأستانف العمل على الوتيرة نفسها .

(١) لاحظت أن الاستاذ الفاضل احمد الشرباصي ذكر في كتابه المحيط القيّم « امير البيان شكيب ارسلان » في الجزء ٢ ص ٥٠١ اني امضيت في ترجمة حاضر العالم الاسلامي سنتين ، وذكر في الحاشية المصدر وهو جريدة الشورى عدد ١٦ ابريل ١٩٢٥ . والمدة التي انفقتهـا في الترجمة هي مئة يوم على مـــا فصلت هنا ، ولكن الامير شكيباً بقي يفيض على العالم الاسلامي تعليقات مدة سنتين ، ولعـــل المقصود هذا بالاصل . رحم الله امير البيان وأعلى مقامه في الجنان .

بكل طيبة خاطر . وبهذه الطريقة يمكنني أن أتحمل السير بالعمل ، سواء تيسر العشاء بطريقة أخرى أم لم يتيسر .

* * *

ترجمته في مئة يوم :

سلخت في عمـــل الترجمة مئة يوم[1] بالتمام . وكنت أنهض صباحاً وارتب شؤوني الخاصة بحيث اكون في الثامنة الى منضدتي ، كاني اعمل في دائرة رسمية . فابيّـض مـــا ترجمته في اليوم السابق ، ثم اشرع في ترجمة الحصّة المعينة لي ، وهي ٣ صفحات لا أكثر ولا أقل ، ولا حدود لوقت انتهاء عملي بعد الظهر أو العصر ، فقد انتهي في الثالثة ، وعلى أقصى حد في الرابعـــة . بعد هذا الوقت اخرج الى لقاء اصدقائي وعلى الغالب في « قهوة بريستول » عند السور في باب الخليل . وفي المساء آوي الى مخدعي فاطالع الصفحات الثلاث الجديدة وأنا في السرير ، وأحلّ عقدها اذا كان هناك من عقد ، ثم أنام فانهض في الصباح لأستانف العمل على الوتيرة نفسها .

(١) لاحظت أن الاستاذ الفاضل احمد الشرباصي ذكر في كتابه المحيط القيّم « امير البيان شكيب ارسلان » في الجزء ٢ ص ٥٠١ اني امضيت في ترجمة حاضر العالم الاسلامي سنتين ، وذكر في الحاشية المصدر وهو جريدة الشورى عدد ١٦ ابريل ١٩٢٥ . والمدة التي انفقتهـــا في الترجمة هي مئة يوم على مـــا فصلت هنا ، ولكن الامير شكيباً بقي يفيض على العالم الاسلامي تعليقات مدة سنتين ، ولعـــل المقصود هذا بالاصل . رحم الله امير البيان وأعلى مقامه في الجنان .

وأما أجوبة بريدي فاكتبها ليلاً . وأمـــا وجبات الطعام فقد الفتها على الترتيب الذي وصفت .

* * *

كنت مدركاً وانا اترجم الكتاب اني لا استطيـع الانفاق على طبعه ، واذا عرضته على المطابـع سخرت منك المطابـع اذ تعلم انك خالي الوفاض. والذين كان يقع لهم ان يطلعوا على الكتاب في اثناء الترجمة، كانوا يدهشون من محتوياته ويحاولون تزويدي بآراء خيالية تتعلق بالمال اللازم للطباعة . وبعد المئة يوم ، وضعت الاوراق مكانها في الغرفة ، وعلي ان اواجـــه شيئين : وفاء « المطعم » لسليم الحداد ، واجارة البانسيون لأم جورج ، ولكن المدة المتفق عليها اربعة اشهر فبقي من الأجل شهر تقريباً . وفي خلال هـــذه المدة زارني في فندق فلسطين عضو المجلس الاسلامي الاعلى عبد اللطيف صلاح ، (وكنت قد عرفته في دمشق سابقاً) وتكلم معي بشأن العمل في المجلس الاسلامي الاعلى ، ورئيسه سماحة الحاج محمد امين الحسيني . فاتفقنا وشرعت اعمل في المجلس ، وكتاب « حاضر العـــالم الاسلامي » حبر على ورق في غرفتي الخاصة. فاذا ما جئت ليلاً وراجعت بعض الفصول ، اقفلتها ثم قلت : ومتى يحل وثاقك ايتها الاوراق ! متى تجدين سبيلك الى المطبعة ؟

* * *

المطبعة « السلفية » في مصر

شرعت اتصل بالمطابع . في القدس ، مطبعة « دير الروم » وهي مطبعة كبيرة قديمة الطراز غـــير مناسبة . فطبعت فيها نشرة تعريف بالكتاب لاوزع هذه النشرة على الذين يريدون الاشتراك في نسخة يدفع ثمنها مقدماً ، فوجدت هذا الاسلوب عقيماً . والمطابع الاخرى في فلسطين لم اجد فيها بغيتي . فكاتبت « دار الهلال » في مصر ، واظن « المقتطف » ايضاً ، وبينما انا في هذا ، هبط القدس خالد الحكيم احد رجالات سوريا الوطنيين واخبرني ان المطبعة « السلفية » في مصر مستعدة لكل ما اريد وصاحبها الاستاذ محب الدين الخطيب نعم الأخ الصادق في هـــذا الباب . والاستاذ محب الدين كنت اسمع به في دمشق ايام فيصل ولم اجتمع به بعد.

* * *

ونظرت في النفقات الطباعية فبدأ لي من اهل الخبرة ان مشروع طبع هذا الكتاب لا يكلف اكثر من ١٥٠ ـ ٢٠٠ جنيه مصري (الجنيه الورق كان كالذهب) ، وتقلّ هذه التكاليف أو تزيد تبعاً المقدار المراد طبعه من النسخ .

وقررت اني مستعد بكل طيبة خاطر ان ابقى سنة أو سنتين أو ثلاثاً اعيش عيشة التقشف ، حتى أفي الدّين الذي يلزمني من وراء طبع الكتاب . وكنت اذا استرسلت في حسابات التكاليف المالية ملت الى الخوف لعلّي اعجز عن الوفاء ، واذا جئتُ الكتاب وقرأت منه طائفةً

من ايّ فصلٍ من فصوله ، انقلبتُ مستصغراً حساب ارقام التكاليف مهما تعظم واستسهلت الصعاب .

طلبي من الامير شكيب ان يضع مقدمة :

والأمير شكيب قبلتي في تفكيري وأنا في الترجمة . فقلت الآن (وصارت السنة ١٩٢٣ والكتاب ظهر ١٩٢١ وبقي عندي في غرفتي سنةً مكنوزاً اطلُّ عليه ويطلّ علي بصمت) اكتب الى الأمير شكيب اطلب منه مقدمة في عدة صفحات تكون قلادة في جيد الكتاب . فكتبت اليه ، وأرسلت نسخة من تلك النشرة التي ذكرتها . وكانت هذه المكاتبة مني اليه الأولى بعد ١٩١٦ . فاذا بالأمير على جناح السرعة يقول بعد المقدمة ما اوجزه في هذه الفقرات وما استمر في بيانه :

١ ـ بعيد أن وصله كتابي ، جاءَه شبلي الجمل [١] وقال له : يا امير شكيب !! صدر كتاب بالانكليزية يبحث في أحوال العالم الاسلامي لكاتب اميركي عبقري ، أليس من سبيل الى نقله ؟

٢ ـ وصادف أن الامير شكيباً كان ماراً في أحد شوارع جنيف فرأى في الواجهة الكتاب الذي حدّثه عنه السيد الجمل ، مترجماً الى الفرنسية .

---

(١) شبلي الجمل من أعيان فلسطين في بيت المقدس ، كان عضواً في الوفد الفلسطيني الأول الى لندن للدفاع عن قضية فلسطين ، وكان في جنيف وقتها في مهمة الوفد ، وهو يتقن الانكليزية ، مفكـّر ، كثير النظر في الكتب ، واسع الثقافة وكان معظم عمله العناية بفن السياحة وترقيتها .

٣ ـ فاقترح الأمير ـ بعد علمه باتفاقي مع السلفية في مصر ـ ان ارسل اليه الترجمة فيطـلع عليها ويقيّـد لديه ما يعنّ له من تعليق أو شرح أو ملاحظة بشكل حواشٍ حول النقاط التي تحتاج الى هذا . ثم يعيد اليّ الترجمة مع الحواشي فارتب ذلك وابعث به الى السلفية . واما المقدمة فامرها يسير ، تكتب بعد الفراغ من التعليق . ورقصت طرباً ، وحسبت أول الأمر ان التعليقات مهما تغزر وتتسع، فمرحباً بها اذ لا يعقل أن تزيد على ٤٠ ـ ٥٠ صفحة . واعلمت الاستاذ محب الدين بهذا الترتيب وشرعنا في العمل .

٤ ـ وبقي تقدير النفقات في نظري لا يحتاج الى تعديل يذكر حتى مع اضافة التعليقات . وليس بيدي شيء من فضلة المال . ومرتبي الذي اتقاضاه من المجلس الاسلامي الأعلى لم يكن فوق « المتواضع » ومع هذا لم يضعف من العزم . فسألت سماحة رئيس المجلس أن يمدني بقرض ٧٠ـ٧٥ جنيهاً لكي اقدمه عند ابتداء المشروع الطباعي الى السلفية ، فتفضل به ولم استطع أن افيه هذا القرض الاّ بعد سنتين أو أكثر ، ولا أنسى هذه اليد في سبيل « حاضر العـالم الاسلامي » فذهبت الى مصر وقرأنا بسم الله الرحمن الرحيم .

٥ ـ ولما جعلت التعليقات تطّـرد ، وتستطرد ، بقيتُ السنة الأولى غير هيّـابٍ حساب المطبعة . ولكن في السنة الثانية صرت أعجز من أن أستطيع جعل مدفوعاتي توازى المطلوبات مني ، فبتّ أخشى الانهيار قبل أن ينجز طبع الكتاب ، وأحياناً كان الأستاذ محب الدين يستنجزني

التعليقات ، ويسالني أيمكنني أن أنجده بشيء من الدريهمات ، مهما تكن قليلات ، وعندما تشتدُّ بي الأنواء ، ويجفّ من جراري الماء ، أجيبه بأن ليس عندي غير صلاة الاستسقاء . وسلخنا في هذا سنتين من ١٩٢٣ – ١٩٢٥ وغير المبلـــغ الأول الذي اقترضته من سماحة رئيس المجلس ، لم استطع أن ارسل الى الأخ محب الدين إلا ما هو في حدود العشرة جنيهات أو الخمسة عشر وأحياناً كنت ارسل اليه تتمة المبلغ طوابع بريد دولية . وفي مرتين أو ثلاث لا اكثر استطعت أن أرسل اليه كل مرة فوق الثلاثين جنيهاً .. وفي أثناء السنتين لم يسالني الامير شيئاً يتعلق بعسيري المالي ، ولا أنا شكوت اليه شيئاً من مصير يضعضع احوالى ، وبقيت الوقت كله استعذب الشدة الخرساء الصامتة ، وأجد لذّة ، في تحملها في سبيل الفيض الذي كان يفيضه الامير .

لما انتهى طبع الكتاب في ربيع ١٩٢٥ كان حساب السلفية قد بلغ مـــا يزيد على سبع مئة جنيه مصري وخمسين جنيهاً . وعجزت عن التسديد ، فرضي الاستاذ محب الدين أن نسدد الباقي من المبيع . وقد كان ذلك . وقد طبع من الكتاب ثلاثة آلاف نسخة[1] ، (النسخة جزءآن) وكانت ، التعليقات كلها من حرف صغير . عكس ما هو الحال في الطبعة الثانية ، وكنت احياناً استقرض من الاصدقاء ما أرسله الى « السلفية » في أثنـــاء الطباعة ، ومن هؤلاء الاصدقاء الشيخ عبد القادر المظفر والاستاذ عوني عبد الهادي رحمهما الله تعالى ، ولم استطـــع أن أفيهما

(١) كانت الطبعة ، الأولى تباع مجلدة،وثمن النسخة ٧٥ قرشاً مصرياً .

القرضين الا بعد مدة ليست بالقصيرة جزاهما الله في الجنان خيراً ٠ ولمّا انتهى طبع الكتاب سألت الامير كم يريد منه لنفسه فقال خمس مئة نسخة ، فتسلمها في القاهرة الامير عادل رحمها الله . هذه قصة « حاضر العالم الاسلامي » وكيف خرج هذا الكتاب من القوة الى الفعل ، احببنا بسطها بحقائقها على هذا الوجه لننتقل بعد ذلك الى الردّ على من قال من الفضلاء انه لو فصلت التعليقات التي وضعها الأمير عن المتن الاصلي الذي وصفه المؤلف الاميركي ، لكان ذلك اجدى على القارىء ، من حيث التيسير عليه أن يطالع كتاباً منسّق الجهاز ، ليست موضوعاته تفاريق في مواضع شتى ، وأجدى على الأمير إذ كان ينطلق بعبقريته الفيّاضة الموسوعية الى أفق مستقل في موكبه الوهاج الذي يكون منه هنا ، كما كان منه هناك في امهات كتبه الأخرى « كالحلل السنوسية » أو التعليق على ابن خلدون .

* * *

اسباب فوضى التعليقات على « حاضر العالم الاسلامي »

ونقول :

١ ـ هناك اسباب دعت الامير شكيباً أن يطلق لفوضى تعليقاته العنان في « حاضر العالم الاسلامي » وكان ذلك خيراً وبركة فاني في كتابي المخطوط لتاريخ حياته الذي وصفته ، وسيطبع قريباً ان شاء الله ، بيّنت هذا ، وانما هنا أوجز هذه الناحية ايجازاً إذ المقصود بيانها

لا تفصيلها. فان الامير بعد اصدار كتبه الأدبية الاولى[1] وآخرها سنة ١٨٩٨، وكان قد بلغ الثلاثين أو اجتازها، عند صدور الكتاب الرابع[2]، صارت « السياسة اللبنانية » « اليزبكية الجنبلاطية » تشغل باله اكثر فاكثر،

(١) وهي « الباكورة » او ديوان شعره ١٨٨٧ سنة وفاة والده الامير حمود — « الدرة اليتيمة » لابن المقفع ١٨٩٣ — « رواية آخر بني سراج » ١٨٩٧ — « رسائل ابي اسحق الصابي » ١٨٩٨ — ونعتبر في أمر هذه الكتب طبعاتها الاولى وان تجدد طبع بعضها بعد الحرب العالمية الاولى.

(٢) سنة ١٩٠٢ اتفق الامير شكيب وصديقه نجيب سرسق الثري اللبناني على القيام بمشروع انشاء جريدة عربية في القاهرة يتولى تحريرها الامير شكيب، ويعاونه فيها صديقه امين ناصر الدين صاحب « الصفاء » في « عبيه — لبنان » وناصر الدين من أئمة الأدب والشعر وتخرج اول أمره في الصحافة على شكيب ويعدّه استاذه. وتمّ كل شيء. ولكن حدث بعد ايام قلائل أن الأمير مصطفى ارسلان قائمقام « الشوف » اعتزل المنصب، فعين المتصرف نعوم باشا، صديقُ الامير مصطفى، الامير شكيباً للقائمقامية، وذلك لأول مرة، محل عمه الامير مصطفى، فوقف مشروع انشاء الجريدة في مصر. ولم يطل وجود شكيب في القائمقامية، اذ بعد قليل انتهت مدة نعوم باشا، وجاء المتصرف الجديد مظفر باشا (١٩٠٢ — ١٩٠٧) فتنكر لشكيب وما زال يضايقه حتى اضطره الى ترك المنصب غير آسف عليه. ويبدو ان المهاز الاول في هذه الفكرة، انشاء جريدة بمصر، كان رغبة شكيب في ان يكون في ملاذ استاذه الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في الدعوة والاصلاح والايقاظ، على نحو ما صنع صديق شكيب السيد محمد رشيد رضا من الهجرة الى مصر من طرابلس الشام وانشاء « المنار » سنة ١٨٩٨ ولو تم مشروع شكيب لكان للاستاذ الامام لسانان يترجمان افكاره: « المنار » الشهري، والجريدة اليومية. انتقل الاستاذ الامام إلى رحمة ربه سنة ١٩٠٥.

مساندا لعمه الامير مصطفى (ت ١٩١٤) كما تشغل باله في الوقت نفسه « السياسة العثمانية » بوجه الحصر والخلافة قائمة ، و « السياسة الاسلامية العامة » المراد تقويتها لصد المطامع الغربية . فكان الامير شكيب في لبنان يدور في فلك وحده تقريباً ، في متابعة هذه الاتجاهات ومناصرتها . نعم كان له اعوان وانصار ، ولكنه هو الحادي واليعسوب . ولما اعلن الدستور العثماني ١٩٠٨ انفتحت آفاق جديدة امام الامير ،وطلعت الحركة الطورانية فدعت الى خلق الحركةالعربية.وامتد هذا التيار ست سنين الى الحرب العامة ، ثم جاءت الحرب بويلاتها وكوارثها ، وكان هو قد اصبح نائب حوران في البرلمان العثماني منذ ١٩١٣! وشغلته فتكات « السفاح » احمد جمال باشا بالعرب فانتقل الى الآستانة اواخر ١٩١٦ وبقي هناك وفي اوروبا الى نهاية الحرب وما بعدها ، وسدت عليه طريق الرجوع الى سوريا ولبنان ، وحتى الى العالم العربي كله لتقاسم امر الأستعمار فيه بين الدولتين الكبيرتين فرنسا وبريطانيا .

فهذه مدة لا تقل عن ٢٤ سنة انقطع فيها الأمير عن التاليف[1] ، ولكنه بقي من حيث المراقبة لسير الأحوال في اوروبا والعالم الاسلامي ، عيناً ساهرة وقلباً تارة يئن وطوراً يطرب ، ونبضه أبداً كقطعة من

---

(١) الا ما كان من أشياء لا تعد تأليفاً ككتابه « مظفر باشا » الذي ينسب اليه قطعاً ، ووضعه سنة ١٩٠٧ وطبعه في الاسكندرية طواه على نقد عهد هذا « المتصرف » الذي حكم لبنان سبع سنين هوجاء ونال هذا المتصرف من الارسلانيين كثيراً فانتقم منه الأمير شكيب بهذا الكتاب .

نور الشمس . فاصبح صدره شديد الامتلاء بالمعلومات الاسلامية خاصة ، ولم تواته الفرصة بعد ، لينقل شيئاً من ذلك الى التسجيل أو التدوين أو التاليف . وأمسى كاساً دهاقاً ولم تكن لتفرّج عنه المقالات الصحفية مهما تطل وتتنوّع .

٢ ـ ان الاحتلالات الأجنبية المستعمرة لبلاد العرب الآسيوية باسم « انتدابات[١] » مزيفة ، بعد ١٩٢٠ زادت الأمير مشاغل ومشاده ابتلعته ابتلاعـــاً ، ولكنه لا يستطيع الانصراف الى التاليف لسببين : ضيق الوقت ، ولا فضلة مال لديه للانفاق على الطبع وما اليه . ولنلاحظ مـا يتعلق بردوده المفحمة بعد الحرب على النفر العاقّ الشارد الذين راحوا يتهمونه بانـه كان عوناً « للسفاح » احمد جمال باشا ايام الحرب من سوريا ولبنان في أعمال التنكيل والنفي . فان « السفاح » طلب من الاستانة بعد أن رأى شكيباً مجاهراً بجوره ، أن يبطش بالارسلانيين شكيب وأخيـه عادل كما بطش بغيرهما ، فلم توافقه الآستانة . واستطاع شكيب النجاة من الطاغية إذ أتاه خبر من صديقه عبد العزيز جاويش ان اخرج من سوريا فخرج وسَلِمَ ، ولا عبرة انه بعدئذٍ اجتمع بالسفاح في فروق ، فاحترق الأمير شوقـــاً الى الرد على اولئك المتنزّين عليه ، وبقي هكذا حتى لقي صديقه وأخاه القديم السيد محمد رشيد رضا في جنيف في المؤتمر السوري

---

(١) ان فكرة خلق طريق جديدة بعد الحرب الأولى للاستعمار ، وهي « الانتداب » هي من صنع الصهاينة ليتدرج مشروع التهويـــد تحت اسم « انتداب » .

الفلسطيني سنة ١٩٢١ وكانت التيـارات السياسية قد فرقت بينهما تسع سنين ، فاتفق الاثنان على أن تنشر مجلة « المنار » في مصر للأمير ما عنده من الكشف والبيان حول مآسي الحرب. وبقيت « المنار » تنشر هذا سنة ١٩٢٢ تحت عنوان « كوارث سوريـــة في سنوات الحرب من تقتيل وتصليب ومخمصة ونفي ـ مشاهدات ومجاهدات شاهد عيان ، هو الامير شكيب ارسلان » لمدة لا تقل عن سبعة أشهر . وكان أولى لو أن ما نشر في « المنار » عاد فطبع في كتاب على حدة ليعمّ انتشاره ، فلم يكن على ما يظهر من سبيل الى هذا ، واما فكرة هذا الكتاب فلا يعقل انها غابت عن الأمير . ولعل السبب الحقيقي عدم توفر المال .

٣ ـ فلمـــا كتبتُ اليه أرجو منه مقدمة للكتاب ، وبيّنت له اني مهاجر الى الله فيه ، واطلع على ما قال ستودارد في فصوله ، فكأني قـد قدّمت الى الأمير ندّى الله ثراه ، وجعـــل الجنان مثواه ، « مفتاحا » للسدّ العظيم الذي يحمله في صدره ، وارجو من القارىء ألاّ ينسى ما قلته من غبطتي بذلك .

نضيف الى هذا « المفتاح » :

١ً ـ حصافة المؤلف وعدله في الاحكام مما يغري القارىء المنصف بالسير في قافلته الى غاية الشوط ، فكيف اذا كان هذا القارىء هو الامير شكيب الصائم عن التاليف ٢٢ سنة وأكثر .

٢ً ـ ستودارد ليس بمسلم ليحيط بكل الدقائق ، مع اجادتـــه

التقرير والوصف . والأمير شكيب ميزان العـالم الاسلامي فمع ارتياحه الى ستودارد احب تصحيح النقاط التي تحتاج الى تصحيح .

٣ً ـ من فطرة الامير شكيب انه اذا لبّـى ، لبّـى من الألف الى اليـــاء .

٤ً ـ فاندفق يكتب سنتين ، وهنا انحلت معه عقدة الوقت لأنه أي عمل أقدس من هذا العمل ؟

٥ً ـ وأما نفقات الطبـع ، فما كانت من وقتها من جهتي تصطكّ لها الركب في السنة الاولى كما ذكرت .

٦ً ـ فعاد الى الكتابة وأي كتابة ؟ أحبُّ الكتابات اليه ـ جاء موعدها

٤ ـ لولا ان يسوق القضاء والقدر اليّ هذا كله ، لما كان هناك شيء من « حاضر العالم الاسلامي » سوى ستودارد ، ومهما علا في بابه وأثنى عليه الناس ، فانه يبقى ستودارد . ولكن لما اقترن الغرب بالشرق كان هذا الكتاب .

فكرة الفصل بين المتن والتعليقات

هندسة بعد البناء

اودّ من القارىء ان يتذكر ما قلته بشان « المقدمة » التي طلبتها من الامير ، وجوابه ، رحمه الله .

لما راح الأمير يفيض ، كانت امانينا ان يفيض ما شاء . والمهاز ، هو ستودارد ، فالصلة بين المتن والتعليق غير قابلة القطع أو العزل ، وليست هي هنا الاولى من نوعها في عالم الكتابة والتاليف . الا شيئاً واحداً كان بالامكان عمله لو كان الاطلاع على الغيب مستطاعاً : وهو ان نطبع كل تعليقات الامير ، بعد طبع الاصل لستودراد ، في اجزاء متتابعة ، مبتدئين بجزء حاضر العالم الاسلامي للمؤلف . ولكن الامير نفسه لم يكن يعلم اين يقف او اين ينتهي . ولا حصر قلمه في نطاق ستودارد . بل كان اما ان يحمل ستودارد على منكبيه ويطوف به من الصين الى غرب افريقيا، واما ان يدعه مستريحاً في عشه ، ويطير الامير وحده كل مطار . مهاميز ستودارد عادت لا تكفي ، ولكن هذا العالم الاسلامي الني يتغنى به شكيب منذ اكثر من ٤٢ سنة ، اصبح بين يديه « دار الاسلام » في رقعة متماسكة ، تتطلع الى غد واحد .

ولكن بعد ان انتهى الفيض، وجاء الكتاب في طبعته الاولى والثانية على ما رأينا ، ابتدأت « الفكرة » الهندسية تقترح ، واول من اقترحها

السيد محمد رشيد رضا طيب الله ثراه وعرض هذه الفكرة على الامير مراراً وتكراراً ، غير ان الامير لم يأخذ بهذه الفكرة . وقد وردت هذه المسألة في عدة مواضع من رسائل الامير الى السيد رشيد في كتاب « السيد رشيد رضا او اخاء اربعين سنة »[1]

واما طبع المادتين ، الاصل والتعليقات ، على الوجه الذي ذكرته هنا ، فامر ممكن في أي وقت متى ما تيسرت اسبابه المالية .

فكرة تنمية الكتاب الى « موسوعة او معلمة اسلامية » .

اني لا اعلم ان هذا الخاطر خطر ببال الامير وقت بدأ يكتب التعليقات ولكن لما جمعت هذه المعلومات القيمة ، من صدر الامير ومن الكتب التي اقتناها من اجل هذه الغاية ، صارت ذات صبغة موسوعية ضمن نطاق اسلامي محدود ، وليس قلب الكتاب كله ، اصلاً وتعليقاً ، الى شكل موسوعي ، امراً سهلاً ، ولكن مما يسهل الاستفادة منه والرجوع اليه هو الفهرست المنظم ، وقد احتوت عليه هذه الطبعة الثالثة ، اما الثانية فقد خلت من أي فهرست ، واما الاولى فقد اشتملت على فهرست كامل .

---

(١) علمت من الرسائل المتبادلة بين الامير والسيد رشيد مما هو منشور في « كتاب السيد رشيد رضا او اخاء اربعين سنة » للامير ، وفي كتاب « امير البيان شكيب ارسلان » للاستاذ الشرباصي ، ان السيد رشيد سأل شكيباً لو كنت اطبع الكتاب بمطبعة المنار ، فاجابه شكيب اني اتفقت مع السلفية وانتهى الأمر .

التعليقات كلها كتبت خصيصاً

« لحاضر العالم الاسلامي »

ذكر المؤلف الفاضل الاستاذ احمد الشرباصي حول « حاضر العالم الاسلامي » والتعليقات عليه ، والتوسع والاستطراد ، في الجزء الثاني من كتابه امير البيان شكيب ارسلان :

« وقد حدثني الاستاذ محب الدين الخطيب صاحب مجلة « الفتح » ان اغلب تعليقات شكيب على كتاب « حاضر العالم الاسلامي » لم تكتب خصيصاً للكتاب ، بل كانت عنده من قبل، والتمس لها المناسبات في الكتاب ووضعها »[1] .

ولما كانت هذه النقطة ذات بال ، وهي في نظرنا ضرب من الوهم ، فاننا مطالبون بحكم امانة التاريخ ان نزيل هذا الوهم بما لدينا من علم بالموضوع كله ، ولما كان لنا من صلة مباشرة بواضع التعليقات رحمه الله ، فنقول :

١ ــ بيّنت الطريقة التي كانت بها تقدّم الفصول والتعليقات الى المطبعة السلفية ، فكل ما خطه قلم امير البيان من تعليق كان يرسله إليّ أولاً (في بيت المقدس) فانسّقه ثمّ أبعث به الى الأخ محب الدين.لم يرسل الامير كلمة واحدةً ، منه الى المطبعة تواً . والكتابة كلها بخط يده ، وأما التصحيح فقد كان يتولاه الاخ محب الدين .

(١) كتاب « امير البيان ـ شكيب ارسلان» تأليف الاستاذ احمد الشرباصي الجزء الثاني ص ٥٠٣

٢ ـ والكتابة كلها بكر ، ونسجٌ جديد إلاّ ما كان سبق لامير البيان الكتابة في موضوعه طول حياتـــه الماضية ، فقد يشير اشارةً الى سبق علاجه الموضوع، وهذا يكون واضحاً ، وعلاجه الجديد بكلام جديد

٣ ـ الاّ مرة واحدة ، وهو يكتب عن « الاسلام في الصين » أرسل اليّ بضع صفحات من « المقتطف » تحتوي على بحث له في هذا الموضوع نشر في أول هـــذا القرن . وغير هذا لا أذكر شيئا آخر من قبيل تقديم تعليق مهيـأ من قبل . هذا في الطبعة الأولى، أما في الطبعة الثانية ١٣٥٢ فقد ازدادت ابحاث الاسلام و المسلمين في الصين زيادة كبيرة ، حتى بلغت على تنوع موضوعاتها ٨٩ صفحة . وقال الامير في حاشيته في ص ٢٢٩ من الجزء الثاني ان هذا البحث كان قد نشره في المقتطف سنة ١٩٠١ ثم اضاف اليه معلومات مستجدة .

٤ ـ لم يسالني الأخ محب الدين شيئاً يتعلق بهذه النقطة ، ولو سألني لأجبته بما لا يزيده علماً إذ كان هو رحمه الله ، يصحح الملازم ولو كان معظم التعليقات مهيئاً من قبل ، لما احتاج الامير الى سنتين وهو يكتب ، ولـكان الكتاب أنجز طبعه قبل ربيـع ١٩٢٥ بوقت طويل . رحم الله من علّـق وصحّـح . وكنت قد استعدت من « السلفية » جميع الاصول أو معظمها بعد الفراغ من الطبع لأبقيها من ذكريات الأمير عندي ، وسنة ١٩٤٨ ذهب كل هـذا مع مكتبتي وبيتي في القدس الى اليهود . حمى الله فلسطين من القوم الباغين .

وهذه الطبعة الثالثة نرجو أن يتقبلها العالم الاسلامي بقبول حسن

كما تقبل الطبعتين الأوليين ، فقد أمسى هذا الكتاب من كتب التراث الاسلامي ، وإذا لم يبلغ بحسن التنسيق في فصوله وتعليقاته المبلغ الذي يرضي فن التأليف ، فان مادته العلمية وهي التبر احياناً ، والذهب المصفى احيانا أخرى ، باقية على جوهرها . وكلما طال الزمن وامتدت الايام ، كثر البحث عن هذه الناحية أو تلك من نواحي الأمير شكيب. فالاحتفاء بكتبه ودراستها ونقدها [1] ، عسى أن يتسع حتى يشمل دراسة حياته في آماله وآلامه .

شكر « دار الفكر » في بيروت :

واني أشكر « لأصحاب دار الفكر » في بيروت ، مزيـد عنايتهم باخراج هذه الطبعة الثالثة على ما يرى القارىء من الاتقان . وما هو فوق هذا قيمةً ، تجنّدهم الروحي لخدمة العالم الاسلامي عن طريق نشر هذا الكتاب ، وبنشره يضاف سفر خالد الى مكتبة التراث الاسلامي .

(١) المحبّون « لحاضر العالم الاسلامي » خاصة ، ولكتب الأمير شكيب عامة ، وهم موزعون في العالم الاسلامي ، والقارات كلهـا ، يجدون طلبتهم على خير وجه في ثلاثة كتب تمشي في الطليعة :

١ً – « محاضرات عن الأمير شكيب ارسلان » القاها الدكتور سامي الدهان في معهد الدراسات العربية العالية في جامعة الدول العربية ١٩٥٨ .

٢ً – « أمير البيـان شكيب ارسلان » تأليف الأستاذ أحمد الشرباصي في جزءين مجموع صفحاتها ٩٣٣ صفحة ١٩٦٣ .

٣ً – « ذكرى الأمير شكيب » صنفها ووقف على طبعها الأستاذ محمد علي الطاهر – ١٩٤٧ وفي هـذا الكتاب اكبر مجموعة للأقوال والآراء في الأمير شكيب من عارفيه في العالم بعيد وفاته رحمه الله .

صفوة ترجمة لوثروب ستودار Lothrop Stoddard

مؤلف « حاضر العالم الاسلامي »

ولد سنة ١٨٨٣ في بروكلين ، في اميركا ، وكان ابوه خطيباً واعظاً جوالاً ، وبعد قليل وقع الفراق بين ابيه وامه ، فاحتضنته امه وهو صغير وكانت تحب الرحلات وتصطحب وليدها معها، وهي كانت عليلة فغلبت على الولد محبة العزلة والمطالعة الهادئة ؛ ولما ترعرع صار يميل الى دراسة البيئة وملاحظة حياة الناس ، وظهر منه ميل شديد الى تحصيل اللغات ولا سيا الالمانية في داخل جامعة هارفرد ١٩٠١ وامتاز بالآداب.

وكان ابوه يريده ان يكون محامياً ، فشاء الله ان يجعله كاتباً اجتماعياً ومؤرخاً لكثير من الثورات وحركات التطور في العـالم . وتخرج من هارفرد سنة ١٩٠٥ واضطر ان يتابع رغبة ابيه فدخل جامعة بوستن ونال شهادة دكتور في الحقوق سنة ١٩٠٨ وقبل ان يشرع في ممارسةالمحاماة قام برحلة الى اوروبا دارساً مدققاً ، فهاله اذ رأى ان اوروبا تقترب من فوهة بركان ، وبعد قليل كانت الحرب الاولى .

ورغم دفع ابيه له نحو ممارسة المحاماة فانه عاد الى ما هيـأه الله له ، وبدأ الكتابة ، فالف بين ١٩١٤ و١٩٤٠ سبعة عشر كتاباً،فـكان « حاضر العالم الاسلامي » الخامس من كتبه سنة ١٩٢١ .

من كتبه هذه وقد اشتهرت :

« الثورة الفرنسية في سانتو دومنجو » (١٩١٤)

« نهضة الشعوب الملونة » (١٩٢٠)

« الثورة على الحضارة » (١٩٢٢)

« الطبقات الاجتماعية في اوروبا بعد الحرب » (١٩٢٥)

« الانسانية تحت سيطرة العلم » (١٩٢٦)

« الحظ : شريكك الصامت » (١٩٢٩)

وسنة ١٩٢٤ قام بسياحة الى الشرق الأوسط وزار فلسطين والاردن ومصر وتركيا وغيرها . واجتمعنا به في بيت المقدس وكانت بيننـــا احاديث مفيدة ، ودعاه سماحة رئيس المجلس الاسلامي الاعلى الحاج محمد امين الحسيني الى وليمة فاخرة تكريماً له في بيت المقدس ، وصحبته الى الاردن ضيوفاً على الملك عبدالله اربعة ايام ، فعرفت فيه علو تهذيبه وبعد نظره وسعة علمه . ولما قفل راجعاً بطريق أوروبا ، زودته بكتاب الى الامير شكيب في سويسرة ، ولكنه لم يلقه اذ كان الامير خارج البـلاد ، فاجتمع به بعد ثلاث سنوات في اميركا لما لبى الامير دعوة الجالية العربية لحضور مؤتمرها هناك سنة ١٩٢٧ وكان لقاؤهما لقاء الصديقين العـــالمين جمعهما الله في كتاب واحد .

وكانت المـكاتبة بيني وبين ستودارد كل فترة واخرى تنبئني عن المزيد من الفضل فيه . وكان يهديني كتبه مما ذكرت هنا وغيرها ويرسل الي نسخة من كل مقالاته الفريدة في « ساترداي ايفنن بوسط » المشهورة . ولكن انقطعت الكتابة بيني وبينه في خلال الحرب الثانية ، فلما وضعت الحرب اوزارها ، عدت الى مراسلته، وكان ذا صلة حسنة برجال التمثيل الدبلوماسي العربي في اميركا .

تزوج مرتين . وسنة ١٩٥٠ انتهت حياته فرثاه كثيرون في الصحف والمجلات . اوسع كتبه انتشاراً هو « حاضر العالم الاسلامي » اذ ترجم الى التركية والالمانية والفرنسية ، فضلاً عن العربية .

وكان يريد اخراج طبعة جـــديدة منه ، مستوعبة صفوة التطور الاسلامي الى منتصف القرن ، اذ مساقه في علاج القضايا والمسائل يقف عند ١٩٢١ ، فعاجلته المنية ، جزاه الله خيراً .

ربيع الثاني ١٣٩١ — **عجاج نويهض**

حزيران (يونيو) ١٩٧١ — (رأس المتن – لبنان)

فهرست

المجلد الاول

من كتاب حاضر العالم الاسلامى



مقدمة

الطبعة الثانية

بقلم الامير شكيب ارسلان

ظهرت ترجمة هذا الكتاب الى العربية مع حواشيها سنة ١٣٤٣ هجرية وفق سنة ١٩٢٥ ميلادية ، فانتشرت فى جميع العالم العربى انتشاراً عجيبا ، ولم يمض على طبع الكتاب أربع أو خمس سنوات ، حتى نفدت نسخه بأجمعها ، وصارت تؤدّى على النسخة الواحدة أضعاف قيمتها الأصلية ولا ينزل عنها مالكها . ولقد نشدوا فى مصر ألف نسخة برسم المدارس ، فلم يجدوا ولا عشر نسخ . وعليه تقدم أناس يريدوننا على تجديد طبعه ، وتعميم نفعه ، فبادرنا الى الاجابة ووجدنا فى ذلك عين الصواب و بعد الأخذ والرد قسم الله للسادة الأماثل عيسى افندى البابى الحلبى وشركائه القيام بهذه النفحة الجديدة للعالم الاسلامى والطرفة النفيسة للحقيقة والعلم

ولما كان قد مضى على الطبعة الأولى سبع سنوات تامات ، جرى خلالها حوادث ومهمات ، ووقائع هامات ، وحصل مايسوء وما يسر ، وطرأ ماهو حلو وما هو مُرّ ، و بالاجمال تجددت قضايا تهم التاريخ العام ، فضلاً عن تاريخ الاسلام ، وذلك لأن الحرب العامة كانت أشبه بزلزال جيولوجى عام ، كاد يأتى الأرض من قواعدها ، فكثرت على أثرها الانقلابات والتحولات ، وازدادت قابلية الأمم للتأثرات ، وتمّ فى هذه السنين السبع بين طبعتى الكتاب الأولى والثانية ما لا يحصل أكثر منه فى الحقب الطوال ، كان لا مندوحة لنا عن مراجعة النظر فى الحواشى التى علقناها على الكتاب أول مرة ، لنضمَ اليها ما جدّ من الوقائع التى جرت خلال هذه الأعوام ، الأخيرة ونردف الأول بالآخر ، والأصل بالفرع ، وتكون الحواشى التى توخينا تعليقها على موضوع موضوع من مباحث العلامة ستودارد قد جاءت بتمام البحث ، ووفت بالغرض ، ونقعت الغلّة ، ولم تبق فى النفس حاجة ، وأتت بصورة الوقائع متسلسلة من الأول الى هذه الساعة . ثم انه لم ينحصر الأمر فى سرد الوقائع ، ولا فى تقييد

ماتجدّد فى هذه الاعوام الأخيرة من الحوادث ، بل تعداه الى اكمال مباحث كان ضيق الوقت قد قضى باختصارها، ومطالب ألجأ تحرُّج المكان دون استنزافها الى أصبارها . فاطلقنا هذه المرة فيها للقلم عنانا ، وأرهفنا للتحقيق سنانا ، وأكملنا ما كان قضى ضيق الوقت بابقائه ناقصا ، أو بردّه عن محله ناكصا . ولسنا ندعى مع ذلك ، أنّا لم نبق فى القوس منزعا ، ولم ندع الى الموضوع مرجعا ، ولا نقول ان كل مبحث قد استوفى من الاحفاء قسطه الأوفى ، فلا يجد القارئ للزيادة موضعاً . حاشا أن نقول ذلك ونحن ندرى وكل أحد من أرباب العلم يدرى ، أن كتابا يتوخى فيه صاحبه الاحاطة بأخبار العالم الاسلامى على وجهها ، والاتيان بالمسائل الاسلامية كلها من فصّها ، لا مناص من أن يملأ بالأقل ثلاثين مجلداً من قطع الجزئين اللذين ظهر بهما الكتاب فى طبعته الأولى ، والأجزاء الأربعة التى يظهر بها فى طبعته الحاضرة وعند ذلك يصح أن يقال ان فى اللغة العربية انسيكلوبيديا اسلامية أشبه بموسوعات العلوم التى عند كل أمة من الأمم الراقية التى يقتدى بها

وهذا الأمر وهو وضع معلمة اسلامية وافية ضافية ، لا يجوز أن يغيب عن نظر الحكومات الاسلامية ، التى تبغى الفلاح ، وتنشد الرقى والطيران الى النجاح بجناح، فانه وان كانت كتب التاريخ فى الاسلام أكثر من أن يحصيها العدّ وكان المسعودى ذكر فى مقدمة مروج الذهب نحواً من سبعين مؤرخاً مع أنه لم يكن مضى على الاسلام الا ثلاثة قرون ، وان كانت سعة التأليف فى الاسلام أعظم من أن يتصورها العقل [1] وكان الذين لهم مئات من التآليف فى الاسلام يحصون بالعشرات ان لم يكن بالمئات وكان الطبرى يعرض التاريخ على تلاميذه فى ثمانين ألف ورقة ، وكان ابن عروة الحنبلى يؤلف تفسيراً فى ١٤٠ مجلداً كبيراً، وكان المؤرخ سيديّو صاحب الكتاب الافرنسى المشهور عن مدنية العرب يقول : «ان منهم كالسيوطى مثلا — من صنف من الكتب أكثر مما قدر كثير من الافرنج أن يقرأوا فى حياتهم ، وكان صبح الأعشى فى عصره كتاباً نادر النظير فى بابه ، فلا نقدر أن نقول ان للاسلام انسيكلوبيديا متناسبة مع مقامه بين الأمم ، أو مع الدور الذى مثله فى التاريخ البشرى محشودةً فيها جميع الموضوعات المتعلقة بالاسلام والمسلمين ، بحيث يستغنى بها الباحث عن مراجعة المئات والألوف من المصنفات» . فهذا الذى ينبغى للمسلمين أن يهتمّوا بازاحة علته

(١) سبق لنا مقالة منذ ثلاثين سنة فى مجلة « المشرق » اليسوعية فى بيروت عنوانها « سعة التأليف فى الاسلام » أتينا فيها بأمثال مدهشة فى هذا الباب

وسد حاجته ، ولن يكون الا بتأليف لجان يكون فيها نخبة من الأفراد المتخصصين كل فى فنه والأفذاذ المبرّزين كل بين أهل قرنه ، ولا تقدر على ذلك فى رقعتنا الشرقية اليوم الا الحكومات والدول فأما الأفراد فليسوا له بمقرنين . وكذلك ليس فى العالم الاسلامى جمعيات خيرية ولا علمية تستطيع أن تبذل البذل الذى يسد هذه الخلة وان وجد فلا يزال فى مهد الطفولية .

أما كتابنا هذا فى أجزائه الأربعة هذه المرة ، فانه الى أن يتاح للاسلام حظ هذا العمل الكبير ، يكون من الكتب التى تفى بجانب من هذا العوز ، و يجوز أن يقال انه معلمة اسلامية صغيرة ، بل هو فى المباحث الجغرافية والتاريخية والاحصائية عن أقطار الاسلام النائية وبقاعه المجهولة فذّ فى بابه ، وكذلك يمتاز هذا الكتاب بالمباحث السياسية التى قيض لمحررها أن يعلمها من عين صافية ، وأن يقف على الرواية الوثقى منها بطول خبرته ، وقرب سنده ، واستمرار مزاولته لهذه الأمور من ٤٧ سنة . وفيه بعد تراجم وأخبار ، لم يسجلها كتاب ولا جرى بها قلم ، فلا يجدها الناشد فى غيره اذ هى نتيجة مشاهدات الكاتب وما رآه بالعين وما سمعه بالأذن وما كان له فيه أخذ وردّ . وعلى كل حال ففى هذا الكتاب من الطريف ما لا يسع انكاره الجاحد ، ولا يضيره مراء الحاسد . ولا شك فى أن الأمة الاسلامية الناهضة الى تجديد تاريخها ، النازعة الى النماء بجميع فروعها وشماريخها ، ستتفطن الى كل ما يعوزها من هذه المقاصد الجليلة ، ومن جملتها تأليف المعلمة الكبرى التى هى من ضرورات رقيها وأشراط نموها . وبالله التوفيق ومنه نستمد الهداية الى أقوم طريق وصلى الله على النبى العربى العريق وعلى آله وصحبه وسلم ؟

شكيب أرسلان

جنيف فى ١٥ ذى القعدة ١٣٥١

مقدمة الطبعة الاولى

للأمير شكيب

الحمد لوليّه ، والصلاة على نبيّه ، والسلام على كل هادٍ الى سَوِيّه . وبعد فانّ الاوربيين الذين يغورون فى كلّ أمر ، ويختتلون كل سرّ ، ويوسعون كل قضية درساً ، ولا يسأمون فى أطراف الأرض بحثاً ولا فحصاً ، يذهبون الى ان فى العالم الاسلامى حركةً شديدةً ، وغلياناً عظيماً ، وان آسية وإفريقية ماخضتان بحوادث خطيرةٍ يكون من الجهل تجاهلها ، ومن الخرقِ الاستخفاف بها . ومنهم من يغلو فى تقدير هذه الحركة وتوسيع دائرتها ، فيرى الاسلام من أقصاه الى أقصاه متحسحساً للقيام ، والشرقَ من أوله الى آخره متحفزاً للصراع ، ويجد العالمَ القديمَ كلّه مستوفزاً يريد ان يقتفى اثر اليابان ، ليستردّ مجداً سالفاً ، ويستجدّ عزاً آنفا ، ويشحط عنه كل غريب ، ويكشف كل مغير ، وان الشرقيين لا سيما المسلمين منهم ، يأبون الا استرجاع أملاكهم المغصوبة باصبارها ، واحراز حقوقهم المهضومة بحذافيرها ، كما أن نفراً تراهم بالعكس ، يقولون ان الاسلام جسم متفكك الاجزاء ، متقطّع الأوصال ، عاجزٌ عن الصراع ، فاقدٌ لأسباب الدفاع ، ينقصه العلم ، كما يعوزه السلاح ، لا يريش ولا يبرى ، ولا يقدر على ثورةٍ ذات بال ، فمن أحق الحق وأسفه السفه أن تقيم أوربا للاسلام وزناً ، وأن تحسب للشرق — حاشا اليابان — حسابا ، وأن تمهل الاسلام فى استصفاء ما بقى له على الاستقلال ، الى ان تكون عصت مقادته على الراكب ، وعست قناته على الغامز ، فالأحزم والأحوط هو مضاء أوربا فى سياستها المبنية على الفتح ، غير مباليةٍ بصخب ولا اعتراض ، ولا متحرجةٍ عن تفجير الدماء فى قمع ثورة أو منع انتقاض . ولهذا تجد هذه الفئةَ ممعنةً فى مطامعها ، مستمرةً فى غلوائها ، مطيعةً فى اختلاس الممالك دواعيَ أهوائها ، لاتنظر الى العواقب ، ولا تتصرّف فى أمر تصرف مُحاذرٍ ولا مُراقب . وكان الناس يظنون أن الحرب الكونية بما أتت به من المثُلات والعِبر ، وأجرته من جداول الدماء وسيول لعِبَر ، ونزفته من أمواه الحياة ، ونسفته من أركان العمران ، وأنفدته من القناطير المقنطرة ،

وطيرته من المجاهيد الموفرة ، ووضعته من الاعباء على كاهل البشرية ، وأورثته من الانسراق فى كل عضو من أعضاء الهيئة الاجتماعية ، قد تُنَبّه رجال الدول الى سير القصد ، ومراعاة الحق وايثار الرفق ، والصدوف عن تُرّهات الحيف ، والتكلم بغير نغية السيف ، لأنه من المقرّر أن هذه الكائنة العظمى ، والطامّة الكبرى ، كانت لها جملة عوامل أهمها التهافت على الاستعمار ، والتسابق على اقتسام الأقطار ، والظن بأن كل ما هو غير أوربى فانما هو آلة للاستغلال وموضوع للاستثمار . فخاب أيضاً الأمل بالاتعاظ بهذه الحرب التى لم يُرِ التاريخ لها مثالا ، وأخطأت الفراسة بأن هذه المصائب والأهوال تلهم ساسة الدول الغربية رشداً واعتدالا . بل رانت المطامع على البصائر ، وغلب الجشع على الحجى ، وطمست الاهواء الالباب . مع أنه كان يكفى هؤلاء مثلة معاهدة « ڤرساى » التى لو كانت مبنية على قاعدة الانصاف لما احتيج اليوم الى لجنة الخبراء ، ولما وقع ما هو واقع وما سيقع من الخصام والمراء ، وما سيفضى يوماً الى حرب ثانية ، ومصائب تالية . وكذلك معاهدة « سفر » التى اضطر واضعوها أن يمزقوها ، بعد تلك الدماء التى أراقوها ، والبلدان التى غادروها خرابا وزرعوها أسنّة وحراباً . فمع أنهم رأوا خطأهم صراحية ، ومع أن زرعهم لم يثمر الاّ شوكاً ، ومع أن العداوة قد لقحت من ذى أنف ، وان دواعى الحرب عادت أكثر مما بدأت ، لا يريدون أن ينتهوا عن ضلالهم القديم ، ولا أن يربعوا على ظلعهم الجديد ، ولا أن ينظروا الى ما عليهم من الديون المجهضة الاحمال ، ولا يفكرونَ فيما على ظهورهم من أمثال الجبال ، وانما يعولون فى حماية مطامعهم على النيران المحرقة ، والقنابر المصعِقة ، وعلى الحرب الجوية ، بأعداد الألوف المؤلفة من الطيارات التى يرونها أخصرَ طريقاً وأخفّ مؤونة وأوحى قتلا . ولا يلاحظون ما فى قتل النساء والأطفال من الفظاعة التى لا تليق الاّ بالمتوحشين الذين يأكل بعضهم لحم بعض ، وما فى تدمير المساكن على رؤوس الأبرياء والوادعين من مخالفة دعوى الانسانية التى يزعمون أنهم حماتها فى الأرض .

فالعالم الاسلامى الذى لا يزال محور سياستهم قهره واعناته ، وتجريده من السلاح بكل وسيلة ، والحيلولة بينه وبين الاتحاد والتماسك بكل حيلة ، احتياطاً من وراء رسَفَانه فى قيوده الحاضرة ، وأماناً على ديمومة خنوعه لسلطتهم القاهرة ، لا يصحّ أن يقال انه بلغ من النهضة الدرجة التى تكفل له حطم سلاسله الثقيلة ، واسترداد ممالكه العريضة الطويلة ،

واستئناف معاليه الخاليــة ، ومصيره مع العــالم الأوربى الى حالة متساوية . ولا أدرك بهذه السنين القلائل من اليقظة ما يكفى لتجديد ما أخلق من حاله ، واستشن من شأنه ، بل لا يزال و ياللاسف الجهل مخيماً على أكثر آفاقه ، وما برحت العصبيات الجاهلية عاملة عملها فى تفكيك عراه و بعثرة أجزائه ، كما أن الرعب من سطوة الأجانب الا من رحم ربك ملء الجوانح ، واليأس من استطاعة القيام فاش فى الأفكار والخواطر . وكأنه الى هــذه الحالة بعينها نظر النبى ﷺ حينما قال : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل جانب تداعى الأكلة على القصاع . قالوا : أو مِنْ قلة منا يومئذ يارسول الله ؟ قال : لا . ولكنكم غُثاء كغثاء السيل يُجعَل الوهل فى قلوبكم و ينزَع من قلوب أعدائكم ،من حبكم الدنيا وكراهيتكم الموت » أو كما قال . نعم صار المسلمون ، الا الأقل منهم الى زمان لا تغنى عنهم كثرتهم شيئاً بل صارت الفئة القليلة من غيرهم تتحكم فى الفئة الكثيرة منهم ، وتخبطهم بكل عصا ، وهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، وراح الأجنبى يفتح بلدانهم بهم و يسلط بعضهم على بعض ، و يقتل هذا بذاك مستفيداً من قتل الاثنين : الذى يقاتله والذى يقاتل معه . واذا سالت أحدهم لماذا اعطاء هــذه المقادة كلها واقتحام الموت فى سبيل الأجنبى الذى تغلب عليه ، أجابك انه انمــا يساق الى الموت رغماً . والحال أن الموت الذى يخشاه فى عصيان الأجنبى ، هو ملاقيه فى طاعته ، فهو من خوف الموت فى الموت ، ومن حذر العذاب فى أشد العــذاب . فلا بد لاستقلال الاسلام من زوال هــذه الأوهام ، ومن انتشار المعارف التى لا تجتمع مع الذل فى مكان ، ولا تــبرح دون تلك الغاية مصاعب وقُحَم ، ومصائب وغُمَم ، وليال مظلمة طوال ، ومعارك تشيب لها ذوائب الأطفال . وانما الذى يخطئ فيه سكارى العز ونشاوى الساعة الحاضرة من الأوربيين ، اعتقادهم أنها حالة ستبقى على الدهر ، وان ثلثمائة وأربعين مليوناً من المسلمين سيلبثون الى الأبد رهن اسارهم وفريسة استعمارهم ، ووقود نارهم ، واعتبارهم الشرقيين عَمَــلةً يسمن الغــربيون بهزالهم ، و يسعدون بشقائهم ، و يقوون بضعفهم ، و يحيون بحتفهم ، حقاً لقد تجاوزوا الحد ضلالاً وغروراً ، واستكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ، وظنوا أنهم انما كتبت لهم السيادة خالصة من دون الناس وأمنوا جفوات الأيام،وأخذوا الطريق على الفلك الدوّار فلا يدور لهم الا بحسب المرام .كلا هذا منهم خيالٌ زائل، ووهمٌ أرقّ من شَبَح باطل ، فلن يبقى الشرقيون أبد الدهر مَدَقَّةً

هينة عليهم نفوسهم ولن يصبروا أكثر مما صبروا على أن يلى أمورهم من ليس منهم ، ولا بد أن ياتى الزمن الذى يصبح كلٌّ فيه سيداً فى دياره ، مانعاً لذماره ، مساويا فى الارض لمن ظن سلطانه سرمداً ، ودوره مؤبداً ، وعمل اليوم عمل من لا ينظر ما يكون غداً ، لا سيما المسلم الذى يقرأ كل يوم فى قرآنه ما يجعله بكل جارحة من جوارحه رجلا ولا يرضى له بالاستقلال بدلاً ، وينفخ فيه من روح الانفة ما يصور الذل كفراً ، ويلقى فى روعه من حب العلم ما يصير الجهل وزْراً ، ويحتم عليه من الأخذ بأسباب القوة ما يخيل الضعف شركا . كلا لن يلبث الشرق لدى دول الاستعمار هو الشحمة الرُّقّى ، والامم التى لا تملك لأنفسها حقا ، ولا تنفض عن أعناقها رقاً ، ولا يمكن أن يظل الاوربى سيد الارض غير مدافع وصاحب الحكم غير مزاحم متسلطاً على ما فى الدنيا من الجهات النفيسة ، مستأثراً بما بين المشرق والمغرب من الجنَبَات الرئيسة ، فلم يبرح الدهر قلَّبا ، والدوام محالا ، والتاريخ يركب الامم طبقا عن طبق ، ويلحق من تأخر بمن سبق ، وما من بهشة الا وراءها جهشة ، وقد كذب من طمع فى صفو بلا كدر ، وصعودٍ بلا حَذَر . ومن أعظم الخطا الظن بأن الشرق لا يلمُّ على شعث ، وان آسية وافريقية لن تنهضا من عثار وهما ثلثا العالم ، ولقد سار الشرق فى مدة وجيزة عقبَاتٍ جِياداً ، واجتاز أزماتٍ شداداً ، وهو ماض فى سيره الى الأمام لا سبيل بعد اليوم الى تعويقه ، ولا حاجز يمكن أن يقف فى طريقه بدسائس تلقى ، ومبالغ سريّة تنفَق ، وأخلاق تُفسَد ، وذمم تشرى وأشراك تبثّ ، وأسياف تُسلّ . ولا المحلقات فى الجو تقدر على كم الأفواه ، ولا الغازات السامة تقوى على إطفاء نور الله ، وما تزيد هذه الوسائل تلك الأمم المستضعفة الا شوقاً الى الحرية ، ونداء الى الثارات واصراراً على الضغائن ، ومهما يكن من حيل العباد فللكون سَنَن هو سائره ولله أمر هو بالغه .

وقد كتب كثير من المؤلفين الأوربيين على الحركة الاسلامية بعد الحرب ، فمنهم مخطئ ومنهم مصيب ، ومنهم من خلط قولا سديداً وآخر بعيداً . ومنهم من تكهن بالشر وأنذر بالويل . ومنهم من أحسن الظن وهُدِى الى الطيب من القول . ولا شك فى كون خيرة ما ألف فى هذا الباب ، ونبلة ما خيض من هذا العباب ، هو الكتاب المسمى « بالعالم

الاسلامى الجديد (١) » تأليف العلامة الحصيف البليغ المستر ستودّارد الأمريكىّ الذى أخرجه كتابا جامعا وشهاباً لامعاً ، وحصيلة بحث دقيق ، ونتيجة احفاء عميق ، فهو فى هذا الموضوع أفضل المؤلفات على التحقيق . توخى صاحبه العدل فى الحكم والاعتدال فى الوصف والوقوف عند اعتراض الشك ، وأبى القاء الكلام على رَسْيَلاَته وازناً الأمور بميزانها غير مقصّر ولا مشطّ ، ولا مفرطٍ ولا مفرّط وهو الأمد الذى يكبو دونه جواد غيره من المصنفين ، والغاية التى لا تتاح الا للافذاذ من صيّابة المحققين . وضعه محرره باللغة الانكليزية وترجم بعضهم الى الفرنسية وربما ترجم الى غيرها من اللغات الاوربية ، ونقله أحد أدباء الترك الى التركية ، ولكن أكثر من أعجب بهذا الكتاب هم أدباء العرب ، فقد تبارى عدة من أفاضلهم فى تعريبه خدمة لقومهم ونصحاً ، وانبرت أقلامٌ مرهفة لجلاء عرائسه على منصة هذه اللغة الفصحى ، وانما سبق غيره الى الاتمام ، الشاب الأديب الكاتب الناهض عجاج افندى نويهض ، فأبرزه فى حلة من نسيج الضاد تشتد بها نُطق النطق ، وتقترن بها حلاوة العبارة بلسان الصدق . وكان قد كتب الىّ فى العام الماضى وأنا فى أوربا يلتمس منى تصدير هذا الكتاب بمقدمة تليق بمقامه الخطير ، وتكون فى أوله مقدمة وهى فى الحقيقة من ورائه ظهير ، وكنت قبل ذلك اطلعت على هذا الكتاب ووقفت على ما فيه من جمال مناحٍ ، وسداد آراء ، وسمعت حسن الاحدوثة عنه ممن يعرفون الجر من الخل من القراء ، فرأيته لاضطراره الى الاجمال ، وعدم تعرضه لكثير من المسائل الا على سبيل الايماء ومن قبيل الاستشهاد ، يحتاج فى بعض المظان الى الاكمال أو الايضاح . فعلقت عليه مما أملاه الخاطر الفاتر حواشى رجوت أن تكون طرازاً لحبره ، ونظاماً لدرره ، وأوردت فيه من أخبار العالم الاسلامىّ ما لا يزال مجهولا عند أكثر المسلمين ، ومعظم الشرقيين ، بعلة تنائى البلاد وتراخى الابعاد ، وضرب الدول المستعمرة بالاسداد فكانت طريقتى فى هذه التعليقات ترك ما استفاض العلم به وتواتر الخبر عنه ، ولو كان فى حد ذاته جللاً الى البحث عما خفى شأنه ، وعمى خبرُهُ ولو كان أمرهُ فُرُطا ، فاعتنيت بقدر الطاقة

(١) هو بالانكليزية The New World Of Islam وقد رأينا أن ترجمته ب « حاضر العالم الاسلامي » أوفى بالمراد فى العربية وأدل على الغرض من العالم الأسلامى الجديد ، أو العالم الاسلامى الحديث ، أو عالم الاسلام الجديد ، أو عالم الاسلام الحديث .　　(المترجم)

بتحرير المواضيع الغامضة والمسائل الغريبة ، وتحريت أنباء الاصقاع النائية ، دون البلدان القريبة . اذ ما من فائدة فى البحث عن قضايا تساوى الخاص والعام فى فهم معناها وسرد أخبار لم يبق قصرىٌّ ولا عمىٌّ الا رواها أو علم فحواها ، فتحاشيت فى هذه الحواشى التواريخ المشهورة المكرّرة ، والمعلومات التى فى كل يوم منها خبر فى الصحف المنشّرة ، فجاءت بابكار من المواضيع لم تجلها الاقلام لحداثة عهدها وأخرى من أخبار زوايا من بلاد الاسلام عميت أحوالها لانقطاعها و بعدها ، وقد اخترت فيها كلها التلخيص اذ لو أرخى فيها الكاتب عنان القلم لما حوتها اجلاد ، ولا وفى بها جلد ولا اجتهاد . هذا وان رأينا الذى نعول عليه أولا وآخراً ، ونرجع اليه باطنا وظاهرا ، ان الشرق أجمع سيتنبه من رقدته ، وينهض من كبوته ، وانه كما شهد القرن التاسع عشر استقلال أميركا باسرها ، فسوف تشهد بقية القرن العشرين استقلال آسية بعروتها وزرّها ، وانه لا تمضى الثمانون سنة الباقية لتمام هذا القرن حتى يلى الاسلام بلاده ، ويبلغ من نعمة الاستقلال مراده ، ليس هناك كهانةٌ ولا عرافة ، ولا هى مقاصد تدرك بالرقى أو العيافة ، ولكن يُعرف المستقبل من الحاضر ، و يدل الاول على الآخر . هذا وان نهوض الشرق هو الشرط الاول فى سؤدد السلام ، وراحة الانام ، وحقن الدماء الحرام ، وحفظ موازنة العالم واستواء الاقسام . وما دام الغربيون يرون الشرق لجيوشهم مجالا ، والاستعمار لدول أوربا دليلا تقفوه يمينا وشمالا ، فالحروب بين الدول قائمة متتابعة ، الى قيام الساعة ، والاختراعات التى تفتخر بها المدنية مصروفة الى استئصال البشر وناهيك ما فى مدنية كهذه من الشناعة ، وما دامت جمعية الامم مثل العروض بحراً بلا ماء ، ما وجدت الا لتلبس الاعتداء حلة قانونية ، وتسوغ الفتوحات بتغيير الاسماء ، لا يطيعها سوى ضعيف عاجز ، ولا تستطيع أن تحكم على قوى متجاوز ، فكيف يغطى الحق بالثرثرة والحق أبلج ، وكيف يستقيم الظل والعود أعوج ، فلا مندوحة للامم الشرقية عن الاقتداء باليابان فى التماس المنعة ، ومضارعة الدول الغربية فى ارتياد العلم واقتباس الصنعة ، حتى اذا قرع النبع بالنبع ، ووقع النصل على النصل اقتنع كل بدياره ، وأمسك الجار عن هضم جاره ، فان المال السائب هو الذى يعلم الناس الحرام . وان الخوان الممدود هو الذى يبعث الاشتهاء الى الطعام . فليحرص الشرقيون من كل فريق أن يكونوا أولى قوة مانعة ، وان يوحدوا كلمتهم فيجعلوها كلمة جامعة ، فان بقوتهم خلاص الغرب والشرق ، والادالة من الحرب للسلم ومن الباطل للحق ، بحول الله وكرمه ؟

مرسين ٢٥ شعبان سنة ١٣٤٣
٢١ مارس سنة ١٩٢٥

شكيب أرسلان

مقدمة المترجم

« حاضر العالم الاسلامى » كتاب حديث الوضع ، نُقل الى عدّة لغات أورو بية وشرقية ، و بعد إخراجه طُبع غير مرّة فى الانجليزية ، فذاع فى أمريكة وأور بة ،ذيوعاً عظيما ما كان مثله لكتاب غيره فى بابه ، فأحلّه كثير من الساسة والمنصفين وأهل البحث والعلم المحل الأرفع ، وأقبلوا عليه ، واهتدوا به فى الاحاطة الحقة بكثير من طبائع الاسلام ، والانقلاب الاسلامى على اختلافه فى آسية وافريقية قبل الحرب العامة و بعدها ، واتخذوا منه عونا على تدبر ما بين العالم الاسلامى و بين الدول الغربية المستعمرة من صلات وعلاقات، حق التدبر . وقد شهد المحقّقون للعلاّمة ستودارد الامريكى ، بصحة القول ، وإصابة العدل والحق فى الحكم . ومما قالته (مجلة المجلات) الانكليزية عند صدور الكتاب ان صاحبه « ارميا القرن العشرين » لكثرة مؤلفاته .

وقد رأيت فى نقل « حاضر العالم الاسلامى » الى العربيةخدمة بارّة ، رجوت اذا وفقت الى القيام بها أن يتقبّلها كل قارئ كريم بقبول حسن . فاستأذنت المؤلف فى الترجمة ، فأجابنى الى ذلك طيب الخاطر . وأمدنى باذن خاص منه ومن شركتى الطبع الامريكية والانكليزية فأشكر له هذا شكراً كبيراً

و بعد الفراغ من ترجمته طلبت من حضرة العربى الكبير ، والسياسى الشرقى الضليع الثقة فى الشؤون الاسلامية ، كاتب العصر صاحب السعادة الأمير شكيب أرسلان ، رعاه الله وأطال بقاءه ، أن يتفضل بكتابة مقدمة يُطرّز بها جيد الكتاب ، فتفضّل سعادته ، وهو على أسفار متلاحقة بين الشرق الأدنى وأوروبة ، بتلبية الطلب على النحو الذى مر بك فى المقدمة السابقة التى وضعها سعادته غير قاصر فضله على وشل ما طلبت ، دون فيوض الفصول الممتعة ، والتعاليق الجامعة ، التى منها ما هو تحت المتن ، ومنها ما هو وارد مستقلا مع سبق الاشارة اليه . فجاء الكتاب بعد ذلك جامعا للحسنتين : حسنة الوضع للعلامة ستودّارد الأمريكى الغربى ، وقد بلغ من التوفيق فى كتابه علماً و تحقيقاً ، مبلغاً عز على غيره من سبق الواضعين . وحسنة المزيد من فرائد الفصول والحواشى والتعاليق ، لصاحب السعادة الأمير شكيب ، الحجة السياسى الشرقى ، جزاه الله عما بذله فى هذا السبيل خير جزاء ونفعنا بعلمه الواسع ، واضطلاعه الجامع . وكان الكتاب مجلداً واحداً فغدا بعد المزيد أربعة مجلدات

عجاج نويهض

تمهيد للمؤلف

ان العالم الاسلامىّ من أقصاه الى أقصاه ، قد تغلغلت فيه عوامل الانقلاب أبعد متغلغل ، وانبثّت فى عروقه فواعل التبدّل أوسع منبثّ ، حتى كمل اختماره وتمّ استعداده ، فراح يجتاز هذا الدور الخطير فى التحوّل ، ثوّارَ القوى الى مالا حدّ له . فاذا ما سرّحت ببصرك نحو العالم الاسلامى رقعةً رقعةً ، من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان الى الكونغو رأيت ال ٣٠٠،٠٠٠،٠٠٠ من المسلمين ، قد ثارت نفوسهم مشتدّة الحركة والانفعال ، نازعة الى كل ضَرْب جديدٍ من ضروب الآراءِ والافكار ، والمطامح والآمال . وان عقبى هذا الانقلاب الشامل لعظيمة جداً ، وستتأثر بنتائجها العميمة أُمم الارض جمعاء ، ولله الامر من قبل ومن بعد .

على ان العامل الاكبر فى هذا الانقلاب هو الحرب العامة . ولكن منشؤه ليراه المستقصى اقدمَ عهداً وأبعدَ أصلا ، اذ انّ بذوره قد القيت فى تُرَب العالم الاسلامى قبل الحرب الكبرى بمئة سنة بل أكثر ، ومنذ ذلك الحين درجت هذه البذور تنمو مزدادة الاستعداد والقوة الحيوية ، نموّاً مستسرّ المنهج ، بطيء الحركة فى أول العهد ، ثم على التوالى أوضحَ سبيلاً وأوسَع انتشاراً ، وما زال الانقلاب الاسلامى على مسراه هذا حتى أدركته الحرب العامّة التى قد تضعضع منها الكيان ، فكانت عامل الثورة فجاةً فى المعمور الاسلامىّ ، فطفق يثور ويهتاج منتقلاً من حال الى حال ، مربدّ الجوّ بقاتم السحب ، لا يسمع فيه السامع الا القواصف .

وان وصف هذا الانقلاب العجيب ، ودورِ التحوّل العظيم ، وما اليهما من مختلف الاسباب والعلل والنتائج ، هو غرضنا الذى قد ابتغيناه من اخراج هذا الكتاب للناس . وقد كنا فى ذلك من الذين يصوّرون الشيء كاملا تاماً فأتينا على بيان كلّ صُور الانقلاب من دينيّة ، وتهذيبيّة ، وسياسيّة ، واقتصاديّة واجتماعيّة وفى كل من هذه تناولنا الكلام على سببها وتكونها ، ونشوئها وترقيها ، وعمومها وانتشارها ، وصفاتها وحالاتها ، وما فيها من قوة انسياق وعامل . أضف الى هذا أننا لم نُغفل ايضاح ما فى بعض المواضع من الاختلاف

بسبب الاقليم والبيئة ، من حيث اننا قد بسطنا تلك المضارعة العامة والصفة الكلية ، مما هو مصاحبٌ لجميع الحركات على اختلافها مصاحبة دالة على ما هناك من وحدة متوخاة فى هذا الانقلاب الاسلامى

ان موضوع الكتاب وان كان مختصاً بالعالم الاسلامى فى المقام الاول ، غير أنه تناول الكلام على غير المسلمين ، كالعناصر الهندوية (الهندوس) فى الهند وسواهم استيفاءً للغرض من جميع الوجوه التى لها صلة بالموضوع . لذلك جُعل الكلام كافياً وافياً فى شأن الشرقين الأدنى والأوسط . أما الشرق الاقصى فلم نتناول الكلام فى أحواله مباشرة ، ولكنا قد أشرنا الى ما هو مشاهد من الشبه والمماثلة بينه و بين العالم الاسلامى فى الماجريات العامة اشارة ينبغى للقارئ أن يقيم لها وزناً

لوثروب ستودارد

مُقَدِّمَة

للمؤلف

فى نشوء الاسلام وارتقائه وانحطاطه

يَفْـنَى الْبَرَايَا وَيأْتِى الْوقْتُ مُخْتَلِفاً
لِيُخْرِجَ الدَّهْرُ تاريخاً مِنَ الرِّمَمِ
« شيلر (فى وليم تل) تعريب الرافعى »

كاد يكون نبأ نشوء الاسـلام النبأ الاعجب الذى دوّن فى تاريخ الانسان . ظهر الاسلام فى أمة كانت من قبل ذلك العهـد متضعضعة الـكيان ، و بلاد منحطة الشأن ، فلم يمض على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر فى نصف الأرض ، ممزقاً ممالك عاليـة الذرى مترامية الأطراف ، وهادماً أدياناً قديمةً كرّت عليها الحقب والأجيال ، ومغـيراً ما بنفوس الأمم والأقوام ، وبانياً عالماً حديثاً متراص الأركان — هو عالم الاسلام .

كلما زدنا استقصاءً باحثين فى سر تقدم الاسلام وتعاليه ، زادنا ذلك العجبُ العجاب بهراً فارتددنا عنه باطراف حاسرة. عرفنا أن سائر الأديان العظمى انما نشأت ثم أنشأت تسير فى سبيلها سيراً بطيئاً ملاقيةً كل صعب ، حتى كان أن قيض الله لـكل دين منها ما أراده له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ثم أخذ فى تأييده والذبّ عنه حتى رسخت أركانه ومنعت جوانبه . بطل النصرانية قسطنطين ، والبوذية « اسوكا » ، والمزدكيـة قياكسرو ، كل منهم ملك جبار أيّد دينه الذى انتحله بما استطاع من القوة والأيد . انما ليس الأمر كذلك فى الاسلام ، الاسلام الذى نشأ فى بلاد صحراوية ، تجوب فيافيها شتى القبائل الرحالة التى لم تـكن من قبـل رفيعة المـكانة والمنزلة فى التاريخ ، فلسرعان ماشرع يتدفق و ينتشر وتتسع رقعته فى جهات الأرض ، مجتازاً أفدح الخطوب وأصعب العقبات ،

دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ولا أزر مشدود ، وعلى شدة هذه المكاره فقد نُصر الاسلام نصراً مبيناً عجيباً ، اذ لم يكد يمضى على ظهوره أكثر من قرنين ، حتى باتت راية الاسلام خفاقة من ﴿ البرانس ﴾ حتى ﴿ حملايا ﴾ ، ومن صحارى أواسط أسية حتى صحارى أواسط أفريقية .

كان لنصر الاسلام هذا النصر الخارق،عوامل ساعدت عليه،أكبرها أخلاق العرب ، وماهية تعاليم صاحب الرسالة وشريعته ، والحالة العامة التى كان عليها المشرق المعاصر فى ذلك العهد . ان العرب ، وان كان ماضيهم مابرح منذ عهد متطاول فى القدم حتى عصر الرسالة ماضياً غير مشرق باهر ، فقد كانوا أمةً استودعت فيها قوة عجيبة ، تلك القوة الكامنة التى بدأت منذ نشوء الاسلام تظهر جليةً الى عالم الوجود . فقد ظلت بلاد العرب أجيالاً طوالاً من قبل محمد ، مباءة يشتد فيها تزخار القوى الحيوية ، وجيشان العوامل الروحانية . كيف لا وكان العرب قد فاقوا آباءهم وأجدادهم ايغالاً فى الشرك والوثنية . وانقضى عليهم وهم على هذه الحالة عهد ليس بالقليل حتى استحالت عناصر أمزجتهم من شدة ذلك كله فصاروا توّاقين بفعل غرائزهم وأخلاقهم الى تبديل حالهم وتحسين شأنهم . هكذا كانت حالتهم العقلية والنفسانية ، حالة الاستحالة الكبرى ، والانقلاب العظيم ، والاستجداد الكبير ، لما صاح فيهم نفير الاسلام . ان محمدٌ وهو عربى من العرب ، الا روح قومه متجسدة ، ونفسهم متجسمة ، استطاع محمد ، وهو يبشر بالوحدانية تبشيراً عارياً عن زخارف الطقوس والأباطيل ، أن يستثير حق الاستثارة من نفوس العرب الغيرة الدينية ، وهى الغيرة الكامنة متمكنة على الدوام فى كل شعب من الشعوب السامية .واذ هبّ العرب لنصرة دعوة ابن عبدالله ، من بعد ماذهبت من صدورهم الاحن المزمنة ، والعداوات الشديدة التى كان من شأنها من قبلُ الذهاب بحولهم وقوتهم ، وانضم بعضهم الى بعض كالبنيان المرصوص تحت لواء الرسالة فى رأسه نور للناس وهدى للعالمين ، أخذوا يتدفقون تدفق السيل من صحاريهم فى شبه الجزيرة ، ليفتحوا بلاد الاله الأحد الفرد الصمد .

أجل ، هب الاسلام من شبه الجزيرة هبوب العاصف الزعزع ، فلاقى فى سبيله جوّاً روحانياً خالياً ، فى ذلك العهد كانت كلتا مملكتى فارس و بوزنطيه باديتين للعيان كأنهما اللحاء الجاف فارق عوده ، لا نموّ فيه ولا حياة ، وكان الدين فى كل من هاتين المملكتين صار

ديناً يزرى عليه ويسخر منه . أما فى فارس فقد كان دين « المزدكية » القديم قد انحط انحطاطاً كبيراً حتى أصبح مجوسية باطلة وصناعة خداعة بين أيدى الموابذة يظلمون به الخلق ويضطهدونهم بكل قسوة ، فكره الناس ذلك الدينَ فى الباطن كرها شديداً ومقتوه مقتاً عظيماً .

وأما فى القسم الشرقى من المملكة الرومانية،وهو مملكة بيزنطية فقد ألبس الدين فيها لباساً غير لباسه الأول فاستحال الى الأباطيل الشركية وانتشرت فيه الأوهام والخزعبلات التى كان يقوم بها علماء الدين اليونانيون ذوو العقول السخيفة والآراء الفاسدة ، فغدت النصرانية عبثاً وسخريةً . وعلى الجملة فقد كانت البدع والضلالات قد مزقت « المزدكية » الفارسية والنصرانية البيزنطية شر ممزق ، وبذرت فى كل منها بذور الاضطهادات الهمجية والعداوات الوحشية ، فنمت تلك البذور نمواً هائلا . ولاً يغربن عن البال انه كان على رأس كل من بوزنطية وفارس سلطان مستبدّ قاهر ، وملك عات أرهق الرعية ارهاقاً لاقبل لأمة باحتمال مثله ، فماتت كل عاطفة من عواطف حب الوطن والاخلاص للدولة . زد على جميع ذلك ان هاتين المملكتين كانتا على حال من الضعف شديدة بعيد حرب طاحنة التظت نيرانها بينهما خرجت كلاهما منها مفتوتاً فى عضدها ، منهوكة قواها .

هكذا كانت حالة العالم لما غشيهُ طوفان الاسلام ، وعلى هذا الاعتبار ترى أنّ العاقبة التى رآها العالم بعيد ذلك كانت مما لابد منه ولا منتدح عنه ، وجميع مافى الأمر ان كتائب المملكة الرومانية الشرقية، ومتدرّعة فارس ، كانت من قبل خوّاضة حرب فتّاكة ، لم تقو الآن على صد حملة الحاملين عليهما من أمة الصحراء المتعصبة ، فسقطت أمام الفاتحين العرب سقوط التلاشى والاعياء ، فلهذا لم يدافع المغلوبون عن أوطانهم حمساً أبطالاً ، بل ان هذه الأمم التى كانت حتى الفتح الاسلامى مدقوقة العنق من جانب ملوكها ، قبلت الفاتحين مستسلمةً ، فقام عديد أرباب البدع يتهللون فرحاً وسروراً لنجاتهم من نير المضطهدين المقوتين . ولم يمض سوى اليسير من الزمن حتى كان السواد الأعظم من هذه الأمم المغلوبة قد دخل فى دين النبى العربى أفواجاً ، ايثاراً له بجدته وسذاجته على ذينك الدينين اللذين صارا غايةً فى الانحطاط والتدنى . وقد عرف العرب بدورهم كيف يستدنى الحكم ويوثّق السلطان حتى دانت لهم أمور الملك واستقرت نقطة دائرتها فى أيديهم . فالعرب لم يكونوا

قط أمة تحب اراقة الدماء وترغب فى الاستلاب والتدمير ، بل كانوا ، على الضد من ذلك ، أمةً موهوبة جليل الاخلاق والسجايا ، توّاقةً الى ارتشاف العلوم ، محسنةً فى اعتبار نِعَم التهذيب ، تلك النعم التى قد انتهت اليها من الحضارات السالفة . واذ شاع بين الغالبين والمغلو بين التزاوج ووحدة المعتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعاً ، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة ـ الحضارةَ العربية ، وهى جماع متجدد التهذيب اليونانى والرومانى والفارسى ، ذلك الجماع الذى نفخ فيه العرب روحاً جديدةً ، فنضر وأزهر ، وألّفوا بين عناصره ومواده بالعبقرية العربية والروح الاسلامية ، فاتحد وتماسك بعضه ببعض ، فأشرق وعلا علواً كبيراً . وقد سارت الممالك الاسلامية القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ — ١٠٠٠ م) أحسن سير ، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارةً ورقياً ، وتقدماً وعمراناً ، مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة ، والحواضر العامرة ، والمساجد الفخمة ، والجامعات العامية المنظمة ، وفيها مجموع حكمة القدماء ومختزن علومهم ، يشعان اشعاعاً باهراً . طول هذه القرون الثلاثة ما انفك الشرق الاسلامى يضىء على الغرب النصرانى نوراً ، ثم غابت كواكبه ، وأفلت أنجمه ، حتى أدركته لياليه السوداء وأجياله المظلمة .

لم يكد يستهل القرن العاشر حتى تبدت الظواهر الواضحة تدل على حينونة العهد الذى أخذت فيه الحضارة العربية فى الانحطاط ، وما كانت تلك الظواهر لتكذب فيما دلت عليه ، غير ان تلك الحضارة انما كانت فى أوائل عهد الانحطاط تهبط دركةً دركةً ، وعلى هذه الحال المستمرة ، وانقضاء العصر العربى منذ القرن العاشر ، فقد دامت الحضارة العربية جلدة تنتزع حياتها من مخالب الفناء انتزاعا ، وسابقة للغرب النصرانى ، حتى حلول النازلة الكبرى التى حلت بساحتها فى القرن الثالث عشر . وكانت الأسباب فى انحطاط الحضارة الاسلامية جمةً ، أشدها أن روح الشقاق القديمة الأصل ، تلك الروح التى كانت على الدوام آفة سياسيةً تنخر فى جسم الدولة ، عادت فظهرت اذ نشأ التنازع على امارة المؤمنين ، وهذا التنازع قد أفضى الى فتن دموية ، وهذه الفتن وما فيها من حوادث الاغتيال وسلب الأرواح قد أفنت تلك الحرارة التى عرفت فى صدر الاسلام ، فقام مقام الأبطال الأول ، مثل أبى بكر وعمر حاملى لواء الاسلام الأولين ، أمراء دنيويون اتخذوا الخلافة وسيلة للجور والظلم ، والتباهى بمتاع الدنيا وأعراضها . وكانت الخلافة فى المدينة فى الحجاز ، ثم نقلت الى دمشق فى سورية ،

ثم الى بغداد فى العراق . أما فى الحجاز فلم يكن البغى ولا الاستبداد هناك مستطاعاً ، لأن عرب الصحراء الأشداء ، أهل الاستقلال والحرية ليس من شأنهم الخضوع لحاكم قاهر ولا الانقياد لآمر مرهق ، وقد أوصاهم النبي بالحرية والشورى ، فقال لهم قولا مبيناً : (انما المؤمنون اخوة)[1] وقد كانت الخلافة فى الحجاز شورورية قائمة على قواعد الاسلام الصحيحة وأركانه . فالأمة هى التى اختارت أبا بكر وعمر وولت كلا منهما عليها خليفة ، وكلاهما كان ينزل على رأى الأمة وحكمها ، وذلك على مقتضى الشريعة التى أوحى الله بها الى نبيه محمد وهى القرآن الكريم

وأما فى دمشق ، ولا سيما فى بغداد، فقد تحولت الأحوال وتبدلت الأمور، ولا يعجبن من ذلك والعرب الصرحاء الاقحاح،الجارى فى عروقهم الدم العربى البحت، الدم المتحدّر اليهم من أصلاب أبناء الجزيرة ، انما كانوا فئة قليلة فى أفواج الناس وطوائف الخلق الذين لا عداد لهم من أهل الشام وفارس وغيرهم من سائر المغلوبين المنتحلين الاسلام حديثاً ، فامتزج دم الغالب بدم المغلوب ، وجمع الاسلام بين الأجناس المختلفة والنحل المتنوعة . ولما كانت هذه الشعوب المغلوبة قد سئمت كلّها الذلّ من ملوكها السابقين فعادت بسبب ذلك لا تقوى على احتمال الارهاق والصبر على المحنة ، لحدثان مادانت خاضعة مصافية للخلفاء المسلمين الذين أخذوا على التوالى يصطنعون و يستكفون من هذه الرعايا عمالا وحاشية ، و بالتالى جنداً لحراسة سياج الملك والذب عن حياض الدولة . وما زال الأمر هكذا حتى عرا الملك العربى ماعراه من النوائب ، فأخذ ظل سلطان العرب ، وقد ولت غرر أيامهم، يتقاص الى الصحراء ، وأنشأت حكومتهم تنقلب الى مطية من مطايا الاستبداد الشرقى . ولما نقلت الخلافة الى بغداد بقيام دولة بنى العباس (٧٥٠ م) ازدادت كلمة الفرس نفوذاً وامتد شأنهم وسلطانهم الى كل زاوية من زوايا الدولة ، وما الخليفة الأعظم هرون الرشيد[2] ، بطل « الف

(١) هذه آية قرآنية وليست حديثاً نبوياً — المعرب

(٢) نعم كان هارون الرشيد جباراً سفاكا للدماء على نمط غيره من ملوك الشرق المستبدين . وقد كاد يبطش بالامام الشافعى لتهمة أنه يميل الى أولاد علي . كما ان ولده المعتصم أمر بضرب الامام احمد بن حنبل لانكاره القول بخلق القرآن . وكما ان مالك بن انس امام دار الهجرة ضرب في أيام المنصور لقوله ليس لمكره يمين . فاذا كان هذا هو العمل مع مثل اولئك الأئمة العظام؛ مصابيح الاسلام الذين أناروا براهينه وشرعوا قوانينه ، وكانوا من العلم والزهد والتقوى بالمكان الذى لايخفى ؛ فما ظنك بحالة غيرهم من الامة . والحقيقة

ليلة وليلة »[1] الا الملك العربي على شاكلة ملوك الفرس مثل قيا كسرو وكسرى أنوشروان، خلافاً كل الخلاف لما كان عليه أبو بكر وعمر. وفى بغداد كما فى غيرها من سائر حواضر المملكة الاسلامية كان الاستبداد مفوضاً لأركان الدولة أيما تفويض، فغدا خلفاء النبي وهم على هذه الحال طغاة موسوسين، وألاعيب بين أيدى الخطايا، لا يستطيعون القيام بعبء من أعباء السلطان ولا القيادة بزمام من أزمة المملكة الاسلامية

ما انفكت المملكة تهبط وتتقهقر حتى تقطعت أوصالها، وتفككت أجزاؤها، وسُلبت منتّها، فصارت الوحدة السياسية مما لا يستطاع دوامه لافتقار الدولة الى قواد محنكين، ولعفاء ذلك المزاج الاسلامى الصافى الجامع لسجايا عرب الصحراء الأول. وقبيل ظهور الاسلام كان أهل كل مصر من الأمصار التى انتشر فيها ظلم أكاسرة الفرس وقياصرة الروم، ينزعون منزعاً قومياً و يحاولون نهضة وطنية، فجاء الفتح الاسلامى طامياً، قاضياً على جميع هذه المنازع، أما الآن، والمملكة الاسلامية محتضرة فى النزع، فأنى يستطاع المجيء بمثل ما جيء به فى صدر الاسلام؟ استطاع الاسلام أن يجعل الملايين من الخلق على اختلاف عناصرهم وأمزجتهم ومعتقداتهم، ينتحلون الرسالة المحمدية ديناً، ولكنه لم يستطع أن يحيل هذه الملايين الى صورة اسلامية متماسكة البنيان ثابتة الصبغة، فاعترض الازدراد شجاً، وساء الهضم فساءت نتيجته. دعا محمدٌ العرب فلبوا دعوته حقاً، لأنه أتاهم بكتاب وآيات وآراء مما كانت عقولهم وطبائعهم مستعدة بالفطرة لقبوله أحسن قبول، وناداهم مستفزاً نعرتهم وحميتهم، وهم اخوان نخوة سجيةً وخلقاً، فاستجابوا نداءه طائعين. فلما دخلت شعوب مختلفة غير عربية فى الاسلام، أخذ كل شعب من هذه الشعوب يفسر بموحى غريزته رسالة النبي، على ما يلائم منازعه الشعبية وميوله التقليدية الخاصة، و يوافق روح التهذيب الذى كان عليه، فنتج عن جميع ذلك ان الاسلام الحقيقى الذى شاهده العالم فى أول منشأه قد

ان الخلافة لم يستقم أمرها على مراد الشارع إلا مدة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ثم عادت بعد أن صارت بالارث ملكا عضوضا «ش»

(١) كتاب « الف ليلة وليلة » الوارد فيه ذكر هرون الرشيد مراراً عديدة قد ترجم الى أكثر اللغات الغربية وله عند الغربيين مقام أدبي رفيع لما حواه من وصف المعيشة العربية وعادات العرب الصرفة أيام العصر الذهبي في بغداد، ورجال الأدب من الفرنجة على الجملة يعدونه ذخراً من علم الأدب الخالد في العالم. « المعرب »

اعوج والتوى . ولنا أجلى دليل على هذا ماحدث فى بلاد فارس حيث استحالت الوحدانية التى نادى بها محمد ، الى مذهب الشيعة ، فبات أهل فارس الشيعة على صلات واهيــة تكاد لا تربطهم بعالم السنة الاسلامى واستحالت الوحدانية أيضاً عند البربر سكان البلاد المغربيــة الأفريقية وغيرهم الى حال عبدت معها الأولياء ، وحدث مثل هذا عند المسلمين فى الهند . على ان جميع ذلك لما شدّد النبي فى تحريمه والنهى عنه نهياً قاطعاً .

وما كفى ماحدث من الاختلافات الدينية،وما أصاب صورة الرسالة النبوية،حتى عمت البلوى بان مُنى الاسلام بتمزق الوحدة السياسية والانشقاقات الزمنية.فأوّل ماحدث من هذا النوع كان فى أوائل عهد الدولة اذ فرّ أحد المضطهدين من بنى أمية الى الاندلس حيث انشأ فى قرطبة خلافة (١) منافسة لتلك التى فى بغــداد ، فاعترف مسلمو الاندلس قاطبة بهــذه الخلافة حتى وبرابرة شمال افريقية . ومن بعد ذلك بعهد أنشئت خلافة أخرى فى مصر ، هى الخلافة الفاطمية، وخلفاؤها منحدرون على مازعموا من فاطمة بنت الرسول. أما الخلفاء العباسيون فى بغداد فما برحوا يهبطون دركات الانحطاط ، ويفقدون من دوانهم وسلطانهم حتى صاروا بعــد مدة من الزمن عبيداً مطاويع بين أيدى الترك ــ العنصر الغريب الداخل عليهم .

وقبــل أن نشرع فى بيان كيفية انتقال الدولة من أيدى العرب الهجناء ، ذوى الدم المزيج ، الى أيدى الترك ، وخطورة ذلك عظيمة فى تاريخ الاسلام ، نؤثر أن نقول كلمة فى أسباب انحطاط التهذيب والمدارك العقلية عنــد العرب ، ذلك الانحطاط الذى ، افقه تمزق الوحدة السياسية فى جميع الأدوار الأخيرة من العصر العربى.

كان العرب فى عصر صاحب الرسالة أمة كريمة الأخلاق ، سليمة الطباع ، نيّرة السجايا ، مقاديم يركبون كل صعب ، تحركهم روح الرسالة بغاية غاياتها ، وتبعث فيهم عزماً شــديداً

(١) الحقيقة هي ان عبد الرحمن الأموى الذى فر من وجه بني العباس الى الغرب ، ولحق بالاندلس وأسس ملــكا ودولة مستقلا بهما عن بني العباس ولقبه المنصور العباسى بصقر قريش ؛ اقتصر في دولته على الامارة ولم ينافس العباسيين فى الخلافة العامة بل كانت تتلى الخطبة في مساجد الاندلس باسم خلفاء بغداد امام الملوك من بني أمية الى أيام عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر الذى استفحل شأنه ، واتسع سلطانه ، واستولى على عدوتي الاندلس وأفريقية؛ واوغلت جيوشه في بلاد الافرنجة ، وصارأعظم ملوك زمانه ؛ فهوأولمن تلقب من الأمويين في الاندلس بالخليفة وبايعه مسلمو المغارب بالخلافة «ش»

وغيرةَ متوقدةَ . كانوا أشداء العصبية الدينية ، وهي العصبية المعروفة فى كل جيل من الأجيال السامية ، وعلى شدة هذه العصبية ، فانهم لم يكونوا فيها على غير هدى ؛ بل كانوا مستبصرين يستنيرون بنور العقل وهدايته ؛ ومتمسكين تمسكا شديداً بمعتقدات دينهم وأركانه وأصوله ؛ غير ان دينهم هذا انما كان ديناً سهل الاكتناه والمأخذ ، واضحاً جلياً ؛ كان جوهر تعاليم محمد الوحدانية مع السنة المعلومة . فالاعتقاد كل الاعتقاد بأن لا اله الا الله ، و بأن محمداً رسوله [1] من لدنه كما أنزل فى القران، والقيام بالفرائض المسنونة المعينة ؛ كالصلاة، والصوم، والحج ، انما هذا فحسبُ هو جملة الأركان التى تألف منها الاسلام الذى كان عليه العرب يوم أصعدوا فى الأرض يفتحون العالم الشرقى

فالاسلام،وهو هذا الدين البيّن الصريح ما كان ليقيّد عقل العربى ويلقى عليه سجوفا فوق سجوف . والعربى كان قد أدرك حالاً ثار فيه جده ، واشتعلت غيرته ، فبات توّاقا الى اقتباس العلوم واجتناء ثمراتها ، والتبسط فى شؤون الحياة وتوفير أحوالها ، والتكيف على حديث مقتضياتها،والخروج بها عما ألفه أزماناً فى فيا فى الصحراء وكثبانها. لهذا لما نشر العرب فتوحهم ومدّوا سلطانهم على الاقطار الأجنبية لم يقصروا نفوسهم على التنعم بالنعم المادية واستلذاذ الترف ورخاء العيش فحسبُ ، بل عكفوا جادين على ترقية الفنون والعلوم والآداب وآراء الحضارات القديمة . فنشأ عن جميع هذا الجد والترقيات ان أخرج للناس تهذيب عربى سام. فاضاءت العقول وازدهرت ازدهاراً كان فخر الحضارة العربية ، وواسطة قلادتها ودرة تاجها . وكان ردح من الزمن كانت فيه هذه الحضارة مشرقة الشموس ، يانعة الثمار ، وارفة الظلال. فسادت الحرية العقلية ، وابتكرت الآراء والأفكار العلمية ، ووضعت القواعد والأصول ، واستنبطت الأحكام . بيد ان هذا لم يكن من صنيع العرب وحدهم ، بل شاركهم فيه كثير ممن كانوا متظللين ظل دولتهم من النصارى واليهود والفرس الذين كانوا فى عهد ملوكهم قبل الفتح الاسلامى يذوقون الأمرّين ، و يسامون خسفاً شديداً فى سبيل آرائهم ومعتقداتهم الدينية التى كانوا يخالفون فيها النصرانية البوزنطية والمجوسية الفارسية

---

(١) الرسالة النبوية هي من عند الله . وهى غير الالوهية إذ لم يقل محمد انه إله بنفسه بل كان يتحاشى قولا مثل هذا ؛ فقال انه آخر الانبياء والمرسلين ؛ أولهم آدم ثم قفى على أثره بموسى ثم بعيسى ؛ ثم بمحمد خاتم المرسلين كافة .

على أنه كان لهذا العصر الزاهر حد وقف عنده، ثم عرا شمسه كسوف فظلام مطبق، فظهرت فرق رجعية، فما برحت تستقوى وتناهض غيرها من الفرق الحرة حتى تغلبت عليها، ثم أنشأت تسود سيادة شديدة ممتدة . وانقضت الأيام التى قامت فيها الفرق الحرة المعروفة على العموم بالمعتزلة (١) مستمسكة بلباب الاسلام وجوهره الصحيح ، وذاهبة الى أن العقل انما هو مقياس كل شىء . وقامت الآن الفرق الخلافية المحافظة من بعدها ذاهبة الى ان النقل والسنة انما هما مقياس كل شىء . وأخذ مَن هم على هذا المذهب ، وفيهم كثير من النصارى الذين دخلوا فى الاسلام وكانت أمزجتهم مابرحت مشربة روح دينهم البزنطى القديم ، يفسرون القرآن الكريم و يؤولونه ، ثم يؤولفون بين هذا التفسير والتأويل وبين السنة التى نقلتها الصحابة عن النبي ، وأوغلوا فى ذلك ايغالاً بعيداً . فنتج عن ذلك أن أصيب الاسلام بمثل ما أصيبت به النصرانية فى الأجيال المظلمة ، من تلبيس الدين عقائد غير عقائده ، ونسبة الآراء الدينية الجافة اليه وهو براء منها . فلا غرو اذا اشتد الخلاف واتسعت شقته وطال عهده بين الذين اعتصموا بالسنة والنقل فقاسوا عليهما ، و بين الذين جعلوا العقل نفسه مقياساً لكل (٢) شىء . واذ قد انتهى الحال بالاسلام الى مثل هذا ، فالغلبة الأخيرة انما باتت متوقعة وهى غلبة عقيدة السنة والنقل على العقل . وفى الواقع انّ تاريخ السنة والتقاليد (٣) فى كل بلد من بلاد الشرق انما هو تاريخ السير نحو أدوار الاستبداد وعواقبه المشؤومة . كانت قد تلبدت فى سماء الشرق سحب سوداء قاتمة ، فلما أشرقت عليها شمس الاسلام الأولى من الصحراء حقبة من الزمن ، مزقتها و بددتها ، .وكيف لا تضمحل تلك

---

(١) يقصد المؤلف بالمعتزلة جميع الفرق الحرة التي نشأت في الاسلام — « المعرب »

(٢) لا شك فى ان الكثيرين من علماء السنة غالوا في التقليد والمحافظة على النقل ، ولكن مما لا شبهة فيه أن مرجع الايمان عند الجميع هو العقل ، وهو مشرق الدين ؛ ومناط اليقين ؛ وبدونه لا يقوم اسلام ولا يعتد بإيمان ، والقرآن العظيم من أوله الى آخره يناشد بالعقل، ويحاكم الى العقل؛ ويهيب بالخلق الى التأمل والنظر؛ وقد رأينا كثيرين من الأئمة مثل حجة الاسلام الغزالي وغيره ممن ليسوا بمعتزلة يقولون اذا تعارض العقل والنقل أول النقل حتى يطابق العقل « ش »

(٣) ان لعقائد السنة والنقل والتقليد عوامل وراثية عنصرية ؛ ومكانية اقليمية ، وللبيئة والوراثة تأثير شديد فى نشوء الانسان وتحوله فى الشرق على الخصوص . وليس هنا موضع الاتيان على بيان هذه العوامل انما يمكن مريد الاطلاع أن يقف على ذلك حق الوقوف فى مؤلفات العلامة (ألبسورث هنتنغتن
(Prof. Huntington.

السحب وقد سادت الحرية العقلية والفكرية ، غير أنه بعد انقضاء هذا الدور دور النور والحرية ، عادت الغباوة والعقائد والأوهام تملأ فضاء الشرق وتستولى على عقول أبنائه . ومما ساعد على ذلك استحالة الخلافة الاسلامية من الشورى السياسية الصحيحة الى الاستئثار فالاستبداد .

فلما رسخ الاستبداد فى الدولة ، وجاوز أفقها بعيداً ، أخذت آثار ذلك تبدو جلية فى موضع موضع ، والاستبداد بطبائعه هو عدو الحرية وقاتلها أينما وجدت ، سواء كانت حرية العقل والفكر أم حرية العمل . وكان بعض الخلفاء من بنى أمية فى دمشق ، وقد استهواهم مذهب المعتزلة فى بدء الأمر ، يوسعون فى حرية الفكر ويرتاحون اليها ، ولكن لما أخذت روح المعتزلة تظهر بمظاهر السياسة، اجفلوا منها أيما اجفال وأضمروا لها القضاء عليها فالمعتزلة حقا لم تقصر أمرها على الآراء الفلسفية فحسب بل تخطت ذلك فانشأت ترفع عقيرتها منادية بالرجوع الى حكم مثل حكم الخلفاء الراشدين ، يوم كان أمير المؤمنين يُنتخب للامارة انتخابا ولا يرثها وراثة وهو منقاد لرأى الأمة ونازل على حكمها وشوراها . وقام الخوارج وهم من قلب شبه الجزيرة ومن أشد العرب عصبية يؤيدون تراثهم من حرية الصحراء ويذودون عنه وينادون بتوسيع نطاقه ، غير معترفين بسلطة الخليفة ، ولامبالين بهيبة أمير المؤمنين[1] وذاهبين فى السلطة الى أبعد من الحكم الجمهورى نفسه

(١) أول من خرج على الامام بل على الأمامة من حيث هى؛ قائلين لا حكم إلا لله ولا لزوم لنصب الخليفة هم الفرقة التي قاتلت سيدنا علياً رضى الله عنه ، ومن هناك بدأ تاريخ الخوارج الذين لعبوا دوراً عظيما في الاسلام وكانوا فرقا متعددة ، يختلف بعضها عن بعض بمبادىء معلومة ، ولما طال النزاع بين على ومعاوية على الخلافة ، نهض من هؤلاء الخوارج من قالوا قد تمادت هذه الفتنة التي نجرت جداول من الدماء بين المسلمين وما السبب فيها سوى على ومعاوية ، ثم هناك عمرو بن العاص الذي هو من موقدي نارها ، فلنقتل هؤلاء الثلاثة ولنرح الاسلام منهم . فانتدب لذلك منهم ثلاثة قصدوا اغتيال الثلاثة أما معاوية فنجا بكونه يوم أريد قتله لم يأت الى المسجد للصلاة وبعد ذلك جعل لنفسه مقصورة ليكون بمنجاة من المكيدة ، وأما عمرو فاشتبه على القاتل برجل اسمه خارجة فقتل خارجة خطأ بدلا عنه ؛ وأما أمير المؤمنين فاصابه القاتل وفدحت به المصيبة كما هو معلوم وقال الشاعر :

وليتها إذ فدت عمراً بخارجة ... فدت علياً بمن شاءت من البشر

وكان قد رسخت روح الفوضوية فى الخوارج الى أن صاروا يغتالون الملوك وأرباب السلطة مفادين

فنشأ عن ذلك ان الخلفاء أخذوا يستدنون اتباع الفرق المحافظة ويقربونهم منهم ، ويعتضدون بهم، ويقصون عنهم الفرق الحرة كالمعتزلة ويشدّدون عليها النكير ، ويستعينون بالمشايعين لهم من العرب الهجناء ويشدّون بهم أزرهم ، مؤثرينهم على العرب الصُرَحاء من شبه الجزيرة ، حتى باتت الحكومة فى الدولة العباسية حكومة دينية مستبدة ، فرسخت عقائد الدين ملبسة لباس التقاليد وقُرِّرت حدودها ، واضطهد أتباع مذاهب المعتزلة وقتّلوا تقتيلا . وما كاد يكون القرن الثانى عشر من التاريخ المسيحى حتى امحت كل معالم الحضارة العربية ، وقوّضت أركانها ، وجف كل عنصر من عناصر الحياة فيها ، وقضى على كل فكر مبتكر، ورأى مبتدع . وعاد لا يسمع صوت من أصوات المعتزلة ، ولا يرى لأحد منهم أثر ، وهجع العقل الاسلامي هجعته الطويلة ، وما زال مغرقاً فيها حتى استفاق اليوم استفاقته الكبرى مذعوراً .

فى أوائل القرن الحادى عشر م . تجسم انحطاط الحضارة العربية تجسماً تاماً . وبعد ان اختفت الروح العربية الأولى التى هبت من الصحراء هبوبها العجيب ، أخذ العرب الهجناء يرون ملكهم السياسى يذهب من أيديهم الى أيدى غيرهم من الدخلاء ، وكان هؤلاء الدخلاء الوارثون للدولة العربية هم الترك . والترك هم العرق الغربى من الجيل الطورانى ، جيل القبائل الرحالة التى كانت منذ عهد لا يعرف أوله تجوب أنجاد أواسط آسية وشرقيها ، ولما كان العرب يفتحون فارس ، تحاكّت قوادهم وجنودهم بالترك الرحالة ، وهؤلاء عهدئذ يعوجون المفاوز محاولين جواز حدود فارس الشمالية الشرقية ، غير أن العرب وهم فى ابان سلطانهم ، ويخشع غالب قطين الأرض لذكر خلفائهم ، ما كانوا ليرهبوا الترك أو يحسبوا

بأنفسهم متباهين بغيلاتهم مترقبين الأجر على عملهم حتى قال بعضهم فى عبد الرحمن بن ملجم قاتل على كرم الله وجهه :

لله در المرادي الذي اخترمت ... يداه مهجة شر الخلق انسانا

ياضربة من مريد ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

ولا أحسب هذا القول إلا من شدة ولعهم بمناهضة السلطة ، ولمجرد غلوهم فى انكار الأمامة التى كان على مثالها ، والا فقل ان وجد فى التاريخ البشرى مثل على بن أبي طالب فى كمال صفاته ، وكثرة فضائله ، وعلو مزاياه ، ومن كان يقدر أن يقول في على شيئاً ، فأنت ترى ان هذه المنازع الفوضوية وروح مغالبة السلطة التي نراها فى الغرب الاوربي اليوم قد عرفها الشرق أيضا (ش)

لهم حساباً ، بل رأوا فى الترك نفعاً لهم ، والترك قوم عرفوا بالجفاء والقسوة ، لا يحسنون شيئاً أكثر من طاعة آمرهم والقتال كالمجانين ، فلهذا ما كان الخلفاء لينفروا منهم فى أول الأمر بل أخذوا يستأجرون منهم جنداً من الطراز الأول لاعزاز الجيش والذود عن ذمار الدولة ، ويستكثرون منهم بطانة وحِرساً .

قلنا ان العرب ما كانوا ليرهبوا الترك فى أول الأمر ، ولكن لما وهن عظم الخلافة وذهبت ريحها تحولت الحال فآلت غير مال، اذ تمكن الترك المستأجرون من الحلول فى كل موضع قوى من مواضع الدولة ، ولا سيما فى الجيش العربى ، فانشأوا يتصرفون تصرف السيد الآمر والحاكم المطاع، ففتحوا أبواب التخوم العربية الشرقية،ومهدوا السبيل تمهيداً لابناء جنسهم ، فأخذ هؤلاء يتدفقون كالموج وعلى رؤس طوائفهم قوّاد أمراء ، وطفقوا يعيشون فى البلاد أحراراً أنى شاءوا ، ويقيمون حيث طاب لهم المقام ، ويجوسون خلال الديار ، ويسلبون وينهبون ، ويفجعون ويفتكون .

ولما شرع الترك يدخلون فى الدولة كانوا يقبلون سريعاً على الدخول فى الاسلام أيضا ، بيد أن الاسلام لم يدمث من جفائهم ولم يقوّم من أودهم كثيراً ، ومتى ماجئنا نعتبر شأن هؤلاء الترك الدخلاء يجب علينا أن نفرق بينهم وبين الترك العثمانيين المعاصرين ، سكان القسطنطينية وآسية الصغرى . فان الترك العثمانيين اليوم ، انما يجرى فى عروقهم دم مزيج ، بعضه أوروبى وبعضه الآخر اسيوى غربى ، ويخالط مزاجهم عنصر غربى ، وعنصر شرقى عربى ، فهم والحالة هذه ، يختلفون اختلافا كبيراً ، تهذيباً وخلقاً ، عن آبائهم وأجدادهم الأولين . وعلى هذا كله فان العثمانيين المتأخرين مابرحت فيهم السيم الطورانية الخشنة التى يتميز بها ترك قفقاسيا المعروفين بالتركمان عمن سواهم من الترك المقيمين فى غربى آسية

فكيف كان التركى القديم بطباعه وسجاياه ياترى ؟ انما كان فى المقام الأول جنديا مجرباً ومقاتلا باسلاً، وهو لم يكن فى ذلك العهد ذا فكر ثاقب وعقل مبتكر ، بل كان فيه شىء من حب الاطلاع والاستشفاف ، فلم يقتبس غير القليل من الآراء العسكرية فى شؤون القتال ، فالطاعة العمياء ثم الطاعة العمياء وقتال الاستبسال فحسبُ ، هما جميع ما كان عليه التركى يوم تقدم ليتناول قيادة الاسلام من الخليفة العربى الضعضع، الواهن العظم .

حقاً ، ما دهى الاسلام وسائر العالم معاً ، مثل هذه الداهية ، وما نزل بالحضارة العربية

مثل هذه النازلة ، وكفى الاسلام انه دان لحكم أمة متعصبة مغالية جافة جاسية، لم يكن الرقى مستطاباً فى ظل دوانها[١] ، فبات ضرباً من ضروب المستحيل . أجل ، لاينكر أن الاسلام قد اعتز بقوة حربية ، كبيرة جديدة ، ولكن قد سيء التصرف بهذه القوة حتى جنت على الاسلام جنايات هائلة ، وجرحته جروحاً كبيرة فبات نزيفاً يتقهقر سريعاً . وأول عمل قام به الترك الزاحفون هو اكتساحهم آسية الصغرى ، واستيلاؤهم على بيت المقدس فى أواخر القرن الحادى عشر م [٢] . غير أن جانباً من آسية الصغرى مابرح حتى اليوم قسماً من العالم النصرانى . ولما أخذ سيل الفتح العربى يتدفق فى القرن السابع م من شبه الجزيرة ، فما زال يطمو على سورية حتى بلغ جبال طوروس ، فصدمه الروم هناك ، اذ استجمعت الامبراطورية الرومانية الشرقية من قواها ما استجمعت واستطاعت أن تقف الفتح العربى عند حد ، عند تلك الجبال ، على عناء وتعب شديدين . أما الآن فاجتاز الترك الحدود البوزنطيةَ ودوّخوا آسية الصغرى تدويخاً ، وأخذوا يهددون القسطنطينية وهى الحصن الشرقى الحريز للنصرانية [٣] . وكانت بيت المقدس فى أيدى المسلمين منذ الفتح العربى (٦٣٧ م) وكان الخليفة عمر يرعى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية أيما رعاية [٤] ، وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره ، فلا ضيقوا على النصارى ولا نالوا بمساءة طوائف الحجاج

---

(١) كما أن المؤلف وغيره من كتاب الافرنجة يجعلون انحطاط الاسلام نتيجة استيلاء الاتراك عليه ، كذلك بعض الاتراك الجدد يجعلون سبب انحطاط تركيا هو صبغتها الاسلامية ، وعلى الاخص صبغتها الاسلامية العربية ، ويقولون اذا وجب أن نبقى مسلمين وجب أن ننزع من اسلامنا ديباجته العربية . وعلى هذا بدأوا في هذه الايام بقراءة الخطب فى صلوات الجمع بالتركية . ولسنا الآن فى مقام تفنيد مزاعم هذه الفئة . «ش»

(٢) اكتسح الترك آسية الصغرى بعد انتصارهم على الجيش البوزنطى ، فسحقوه سحقاً فى معركة « منزيكرت » سنة ١٠٧١ م . واستولى الترك السلجوقيون على بيت المقدس سنة ١٠٧٦ .

(٣) وقد كان العرب حصروا القسطنطينية ست مرات ، واستشهد أبو أيوب الانصارى فى حصارها . ومقامه معروف فيها « سلطان أيوب » وأسس لعهدالعرب جامع غَلطة «ش»

(٤) لما فتح المسلمون القدس جاءها عمر رضى الله عنه وطاف فى معاهدها المقدسة . ولما كان فى كنيسة القيامة جاء وقت الصلاة ، فابتغى محلا ليصلي فدعاه البطريرك صفرونيوس الى مكان يصلي فيه داخل الكنيسة فقال له : لا ، يأتى المسلمون بعدى فيقولون هنا صلى عمر فيدعون بالكنيسة وخرج عمر من الكنيسة وصلى فى مكان بنى فيه جامع فيا بعد . « ش »

الوافدين كل عام الى بيت المقدس من كل فج من أفجاج العالم النصرانى ، بيد أن الترك بعد فتحهم البلاد ، لم يجروا على مثل ما جرى عليه العرب من قبلهم ، فالترك لما كانوا لا يرون لذة فى غير السلب وكره غير المسلمين ، أخذوا يستلبون الأماكن المقدسة ، ويمتهنون حرمة النصارى ، ويحولون دون الحِج ، فبات الحج مستحيلاً

فاكتساح آسية الصغرى والاستيلاء على بيت المقدس معاً ، انما نزلا نزول الصاعقة على النصرانية ، فقامت لهذا الخطب وقعدت ، وطفقت أوربة تميد من أقصاها الى أقصاها مشتعلةً بغضا دينياً ومحتدمة غضباً وحنقاً ، وقام ألوف مؤلفة مثل بطرس الناسك يلهبون الصدور ناراً دينية ويحضون على حماية بيت المقدس وقبر المسيح ، حتى جن الغرب النصرانى جنونه الكبير ، والتهبت الغيرة الدينية فى كل جارحة من جوارحه وعرق من عروقه ، وغشّى التعصب على أبصاره ، فهب يبعث البعوث الصليبية ، والجحافل الجرارة داركاً ، لقتال الشرق الاسلامى فى سبيل الصليب .

فداهية الترك ، ونازلة الحروب المقدسة الصليبية ، كانتا شر طعنة طعن بها صدر العالم ، وسبباً دائماً فى سوء العلاقات بين الشرق والغرب (١) . ففى سنة ١٠٠٠ م . كانت العلاقات النصرانية الاسلامية أخذت تستقيم وتسير سيراً منبئاً بالكف عن العداء ، ومبشراً بازدياد تحسن الحال وخير المصير . وكانت الأحقاد ، التى ثارت على أثر تدفق الاسلام ، على حال التلاشى والاضمحلال ، وظهر عهدئذ ان الحدود الجغرافية بين عالم الاسلام وعالم النصرانية كادت تستقر ، فليس أى الفريقين يطمع بعدُ فى الخروج على الآخر ، ولم يبق ثمة أمر من أمور النزاع شأنه خطير وكبير غير الاندلس ، حيث كان هناك مصطدم الاسلام والنصرانية المصطدم الأخير ، بل على كل كانت الاندلس اذ ذاك قد باتت تعدُّ حداً فاصلا بين العالمين ، وعلى الجملة فقد كانت علائم ازدياد الوئام والطمأنينة بين الاسلام والنصرانية متجليةً واضحةً ، وناحية منحى جيداً ، فلو قدّر لهذه الحال أن تستمر وتسير بحيث يسكن كل عالم الى أخيه ، لكانت أتت بنعمة من النعم الكبرى الباقية على الحضارة والانسانية . فالعالم الاسلامى كان مابرح حتى ذلك الأوان سابقاً لاوربة الغربية سبقاً بعيداً ، وفائقاً عليها علماً وتهذيباً ،

(١) لم تكن أوربا في وقت من الاوقات أقل تعصباً من الترك وان ظن بعضهم خلاف ذلك (ش)

بيد أن الحضارة العربية كان قد أخذ الكمد والكلف يبدوان عليها ، فى الحين الذى طفقت فيه نفس الغرب النصرانى تجيش ، ونهمته تشتدّ ، للافلات من ربق جهله ، والخروج من ظلمته وبربريته . فأى خير كان أعظم من ذلك الخير الذى كان يرجى من الود الوليد الذى ظهر فى القرن الحادى عشر م . بين الشرق والغرب فيما لو قيض له النمو أمداً بعيداً ؟ بل ياترى أى نفع كان أجلّ من تقارض العالمين بعضهما البعض العون واقتسام السراء والضراء ؟

أجل ، لو كان ذلك لكان به نجاةٌ كبيرةٌ ، ولكانت الحضارة العربية الاندلسية ، وفيها علوم اليونان والرومان ، قد أيقظت نهضتنا من مرقدها قبل استيقاظها بعهد طويل ، ولكانت روح الغرب التى تمشت فى جوارحه فى الأجيال الوسطى ، تلك الروح الجبارة ، هبت فتناولت الشرق وتغلغلت فى أحشائه متغلغلها فى الغرب ، فنجت الحضارة الاسلامية من متخبطها ومتعثرها فى ذلك الحلك الداجى الذى طال عهده .

غير ان القدر جرى بغير ذلك . فقد اختفى العربى الدمث الخلق ، اللين العريكة ، وجاءمن بعده التركى المتعصب الخشن القاسى ، فعاد الاسلام يَثِبُ ويهتاج ، ولكن شتان بين اهتياجه الأول بالأمس ، واهتياجه اليوم ! أما بالأمس فقد كانت تحرك العرب روح الرسالة وفضائلها ومثلها العليا ، وأما اليوم فما يحرك الترك انما هو روح الطمع والفتك وحافز الاستيلاء والغصب . ومن ذلك الحين بدأ العراك يشتد ، وناره تتقد بين الدولة التركية ، والحضارة الغربية التى كان نشوءها مرجواً لها عهدئذ ، ودام هذا العراك قروناً . وما كانت الحروب الصليبية سوى رد الغارة على الترك الذين أخذوا منذ ذلك العهد يوالون غاراتهم على النصرانية برهة ستمائة سنة ، حتى صدموا الصدمة الكبرى عند أسوار « فينا » سنة ١٦٨٣ م وقد كان من الطبيعى أن تأصل العداء ، واستحكمت الشنأة ، واستقر التعصب بين الاسلام والنصرانية ، مما مابرحت جراثيمه حية ، وسموم ثماره ناميةً حتى الآن . وهذا النضال الذى نتلو أنباءه فى صحف الأخبار اليوم ، النضال القائم بين مصطفى كمال ومقاتلته الوطنيين ، و بين اليونان فى آسية الصغرى ، انما هو حلقة من سلسلة حروب بين الاسلام والنصرانية ، حلقتها الاولى كانت فى فلسطين بين الترك والصليبيين منذ ثمانمائة سنة ، وحلقتها الأخيرة الى اليوم هى هذه الحروب بين الترك واليونان فى أغوار الاناضول وانجادها .

وليس من غرضنا فى هـذا الكتاب أن نبحث فى تاريخ الحروب التى قامت بين الترك والنصرانية ، ولكن ما يجب حفظه فى البـال هو ان تلك الحروب ظلت الى اليوم عداء مزمناً ، وعلة دائمةً بين الشرق والغرب

أما الشرق الاسلامى فقد قدِّر له بعد أن دارت الأيام بحضارته العربية ، وحنا عنقه للنير التركى الثقيل،أن يلاقى فوق ذلك أهوالاً أشدّ وأفدح ، منهلةً عليه كغيرها من الجيل الطورانى . ففى أواخر القرن الثانى عشر ، هبت العروق الشرقية من الجيل الطورانى ، ملتفةً ملتئمةً حول بعضها بعضاً ، مكونةً وحدة دامت مدةً ، وعلى رأسها زعيم جبار عات هو جنكيزخان . اتخذ هذا الطاغية « الطاغية الذى لايغلب » لقباً له ، وطفق يزحف ناهبا العالم نهباً . فاكتسح فى أول أمره الصين الشمالية وأنزل بها هولاً شديداً ، ثم اتجه غرباً ، زاحفاً مدمراً ، وناهباً مخرباً ، فرأى العالم من بلائه مالم ير مثله من عات قبله . هذا هو النهوض الذى نهضه المغول فى ذلك العهد ، وهذا اسمهم مابرح حتى اليوم اذا ماجرى على الألسنة ، وجفت له القلوب واقشعرت منه الأبدان .

زحف جنكيزخان بكتائب من الجنـد لاتحصى ، مستصحباً مهرة المهندسين الصينيين لصنع البارود فى تخريب المدن والحصون فـكان وفرسانه سيلاً جارفاً ونارا آكلةً، وأعظم بلاء حلّ بالبشرية.لم تكن غاية المغول الفتح والاستيطان، حتى لا الغنم ولا الاستلاب فحسب، بل هراقة الدماء ، وتعذيب الأرواح ، ودرس البلاد وملاشاة العمران . فذبحوا الشعوب تذبيحاً ودكوا المدن دكا بحيث لم تنج بلاد حـل فيها المغول من الهول ، وكان شانهم فى قطر شأنهم فى سائر الأقطار .

ومات جنكيزخان بعد بضع سنوات من زحفه هذا، فقام خلفاؤه من بعده وانتهجوا نهجه فى الزحف وتعميم النازلة . فالمغول حقاً طعنوا الاسلام والنصرانية معاً طعنة خارقة ، اذ حاق بأقطارشرقى أوربة مثل ماحاق بغيرها من الأقطارالأسيوية ، وتلك آثار الهول المغولى فى روسية مابرحت شاهدة على بربرية المغول وهمجيتهم . غير أن الهول الذى نزل بالعالم الاسلامى كان أشد منه فى العـالم النصرانى ، فالمغول بزحفهم على روسية لم يجاوزوا تخوم بولندة قط ، فنجت بذلك أوربة الغربية ، لـكن ما أريد لأوربة الغربية من النجاة لم يرد مثله لجانب من العالم الاسلامى . ان العاصفة المغولية بهبوبها من الشمال الشرقىّ فى آسية

استطاعت أن تطبق العالم طراً ، من الهند حتى مصر ، مقتلعة جارفة كل شىء فى سبيلها . وقد كانت فارس ، وهى اذ ذاك مابرحت منهب الكتائب التركية ، تحاول النجاة بحضارتها الوليدة فدهمتها الجوارف المغولية غاشية ماحقة ، فتلاشت قوة فارس وتضعضع كيانها أيما تضعضع ، ثم تقدم المغول نحو العراق ليعطوا بغداد ، مدينة الحضارة والتهذيب ، نصيبها من الهول . وكانت بغداد عهدئذ قد ذهب الكثير الزاهر من عزها ومجدها ، فذوت نضارتها من بعد هارون الرشيد ، وتنكر الدهر لذلك المليون من السكان ، بيد أن بغداد ، على كل هذا ، كانت مابرحت مدينةً عظيمة وعاصمةً كبيرةً ، فيها كرسى الخلافة ومركز الحضارة العربية ، فانقضّ عليها المغول سنة ١٢٥٨ م وأعملوا فيها أيدى التخريب والتدمير فذبحوا أهلها تذبيحاً . وكادوا يمحونها محواً من على وجه الأرض . على أن هذا لم يكن جميع البلاء . كانت بغداد عاصمة العراق ، وكانت مابرحت فى العراق سدود الرى العجيبة من فجر التاريخ (١) ، تمثل مهارة بناتها الأولين وقدرتهم ، وتقى البلاد من مهابّ أعاصير الصحراء . فكان العراق على الدوام وفيه هذه السدود الكبرى جنة الأرض وهوى العالم . وقد تعاقب الفاتحون الكثار فى البلاد دوراً بعد دور وعصراً بعد عصر فكان من شأن كل فاتح أن يبقى على هذه السدود ، لا بل يعظم شأنها وشأن بناتها ، ويعتبر كل الاعتبار قدر نفعها وخيرها للبلاد . فلما غشى المغول العراق سرعان ماقوضوا هذه السدود تقويضاً بحيث لم يبقوا منها حجراً على آخر . فعفت أقدم حضارة عرفها العالم ، وخُرِّب مهد التهذيب البشرى ، ومحيت آثار أعمال جدّت فى سبيلها البشرية ثمانية آلاف سنة على الأقل ، فخوى العراق خواءه هذا المشهود حتى اليوم ، وبات مرتدياً حلة من الجفاف المحرق ومنشأ لأوبئة الحمى المنتشرة متى ما كان فيضان ، يسكن قراه الحقيرة أقوام من الفلاحين ، ويجوب رحابه رحّالةٌ من البدو ، يرعون ماشيتهم أرضاً كانت من قبل منابت الحضارة والتهذيب .

فالنازلة التى حلّت ببغداد انما كانت ضربة قاضية على الحضارة العربية ولا سيما فى الشرق . وكانت هذه الحضارة قد أصيبت ، من قبل نازلة المغول ، بضربة أخرى فى الغرب

(١) يوجد فى العراق ترعة دارسة منسوبة الى الرشيد . حدثنا بعض مهندسى الالمان الذين زاروا تلك البقاع أيام الحرب أنها مما تعجز الحكومات الحديثة عن القيام بعمل مثله فى العمق والطول والعرض « ش »

وهى نازلة الاندلس العربية. وموجز ذلك أن الاسلام بعد انتشاره فى جميع افريقية الشمالية، جاز البحر وطبق اسبانية من أقصاها الى أقصاها ، نخفقت فيها أعلامه وأشرقت شموسه وازدهرت الحضارة العربية الاسلامية الاندلسية ازدهاراً كاد لا يُرى مثله فى أى قطر آخر من الأقطار الاسلامية الشرقية. وكانت قرطبة عاصمة الاندلس. وفيها كرسىّ الخلافة الغربية. فبلغت هذه العاصمة من العظمة والمجد مبلغاً كبيراً ، حتى لعلها كانت تفوق بغداد عينها رقياً وحضارة . وقد عاش مُلْك العرب فى الاندلس قروناً عديدة ملكاً زاهراً آمناً ، والعرب حاصرون للنصارى فى الكور الجبلية الشمالية من البلاد . فلما بدأ سلطان العرب يضعف ويونى ، وقوتهم تهين ، أخذ النصارى يدفعون المسلمين جنوباً مستردين منهم البلاد كورة فكورة . وكانت معركة « تولوز » سنة ١٢١٣ م نخضدت فيها شوكة العرب ، وفت فى عضدهم فتاً كبيراً . ثم من بعد ذلك صارت تتوالى انتصارات النصارى على غير عياء حتى سقطت قرطبة فى أيدي المستردين من نصارى اسبانية المتعصبين ، فبادر هؤلاء الى استئصال شأفة الحضارة العربية الاندلسية ، على نحو ماكان يقوم به المغول عندئذ فى الشرق . فذهبت الاندلس من أيدى المسلمين ، فلم يبق لهم من جميع ذلك الملك الذى كان زاهراً سوى رقعة صغيرة واقعة فى الطرف الجنوبى من البلاد وهى غرناطة ، التى بقيت فى حوزة المسلمين حتى استكشاف كولمب بلاد اماركة ، ثم بعيد ذلك طردوا منها ، فاختفت على الأثر معالم الحضارة العربية فى الغرب .

وكان الشرق الاسلامى مازال يشقى وتتوالى عليه فجائع المغول وأهوالهم وأمامنا الآن آخر داهية من دواهيهم ، وهى زحف تيمورلنك فى أوائل القرن الخامس عشر م . ففى هذا العهد كان المغول الأول الغربيون قد صاروا مسلمين ، غير أن الاسلام لم يذهب بالكثير من وحشيتهم وبربريتهم واقتفى تيمورلنك آثار جنكيزخان فى تذبيح الخلائق وتدمير البلاد ، فما كانت نفسه تغتبط بشىء اغتباطها بمناظر الاهرام من جماجم البشر ، وأى هرم أكبر من ذلك الذى شيّده تيمورلنك من سبعين الف جمجمة بعد تخريبه مدينة أصبهان فى بلاد فارس وانقضى عهد المغول الهائل فى الشرق الاسلامى ، ثم جاء الترك بدورهم زاحفين.

الترك العثمانيون هم من أصل القبائل التركية العديدة التى جاءت آسية الصغرى من بعد سقوط المملكة الرومانية البوزنطية . وغالب الفضل فى تشييد المجد الذى شيدوه وعزهم الذى

بنوه انما هو عائد الى عديد سلاطينهم الذين كانت لهم الغلبة على سائر القبائل المجاورة ، فاستطاعوا بذلك أن يوحدوا جميع القوى التركية العظيمة ، ثم طفقت فتوحاتهم تمتد شرقا وغرباً . وفى سنة ١٤٥٣ م . دك الترك صرح الامبراطورية البوزنطية دكاً ، وفتحوا القسطنطينية ، وخلال قرن تال فتحوا الشرق الاسلامى من فارس حتى مراكش (١) ، ودوخوا شبه جزيرة البلقان من أقصاها الى أقصاها ، وتغلغلوا فى أحشاء هنغارية (٢) حتى بلغوا أسوار « ڤينا » . واستطاع الترك العثمانيون ما لم يستطعه أبناء عمهم المغول من قبلهم فبنوا مملكة منيعة الأركان ، غير أن ملكهم هذا كان فيه جلف وبربرية وذلك لبعدهم عن روح التهذيب والتثقيف ، فانهم لم يبرعوا فى شيء براعتهم فى فنون القتال ، بل كانوا فيها من أشهر الأمم وأشدها قوة وبأساً ومراساً ، ولما كانوا فى ابان مجدهم وسلطانهم كانت خيالتهم ورجالتهم من أفضل طراز الجيوش التى شهدها العالم ، فارعبوا بها أوروبة رعباً شديداً .

وفى هذا العهد كانت أوروبة قد بدأت تستيقظ وتسير سير التقدم الصحيح، وتنشىء حضارةً متدرجة مدارج الرقى والثبات ، وبينما كان الشرق الاسلامى يئن من الأهوال المغولية والفتوح التركية ، كان الغرب النصرانى يشعل مصابيح النهضة ، ويعد أسباب استكشاف أماركة وطريق الهند ، ذلك الاستكشاف الخطير الشأن ، العظيم النتائج مما لا يخفى على أحد ومما يزيده خطورة هى الحالة التى كانت عليها أوروبة فى ذلك العهد ، فانه لما كان كولمب وفاسكود وغاما يقومان بأسفارهما البحرية قبيل ختام القرن الخامس عشر ، كانت الحضارة الغربية محاصرة فى نطاق ضيق لا تجوز دائرته القسم الغربى من أوروبة الوسطى ، وهى اذ ذاك فى أكره يوم من أيام نضالها وجلادها مع البربرية الطورانية . كانت روسية تمزقها سنابك خيول التتر المغول (٣) وكان الترك ، وهم ثملون بشوكتهم الحربية يغيرون منتصرين

---

(١) استولت الدولة العثمانية علي جميع شمالي أفريقية من بوغاز السويس الذي صار اليوم ترعة الى آخر حدود ولاية وهران من المغرب الأوسط ولكن المغرب الاقصى بقي فى حوزة أصحابه «ش»

(٢) بقيت بلاد المجار فى حوزتهم ١٥٠ سنة وفيها حمامات معدنية من بنائهم الى يومنا هذا وقبور بعض المجاهدين « ش »

(٣) كانت الروسيا هذه التى صارت فيما بعد أعظم دول الأرض تدفع الجزية للمغول وملوكها يذهبون صاغرين الى حضرة ملوك المغول لأجل تقليدهم ملكهم . وقد أوغل المغول بعد اسلامهم فى بلاد الروسية

من الجنوب الشرقى مهددين قلب أوروبة شر تهديد [١] . هكذا كانت البربرية الطورانية مطبقة آسية وشمالى أفريقية وشرقى أوروبة يوم كانت الحضارة الغربية وهى طفلة فى المهد تستقبل حكم القضاء النازل فإما لها واما عليها . وعلى الجملة فقد كانت الحضارة الغربية تنازع فى سبيل بقائها أشد منازعة ، مولية ظهرها السور العظيم ـ سور الاقيانوس. فلذلك لا نكاد نستطيع أن نتصور حق التصور كيف واجه أجدادنا الاقيانوس ، وشرعوا يمخرون عبابه فى تلك الليلة الظلماء والفترة العصيبة من الأجيال الوسطى . لا جرم ، كانت أوروبة فى تلك الحقبة انما تذود عن بقائها بجميع ما كان فيها من قوة و بأس ، وترد" عنها غاشية البربرية الاسيوية ، وما هى الا ليلة وضحاها ، فاذا بليل الخطر الاسيوى وقد انجلى ، و بالاقيانوس بات طريقاً آمنة ، فصارت أوروبة من بعد ذلك سيدة البحار ، ثم سيدة العالم بأسره .

قضى الأمر ودارت الأقدار بالشرق والغرب أعظم دورة عرفها الانسان ، فبعد أن ركبت أوروبة متن البحار ، سارت تستهزئ بجبابرة آسية وعُتاتها ، وكانت من قبل بردح من الزمن ترى النصر عليهم أبعد منالا من الجوزاء. ثم أخذت موارد الثروة تفيض على أوربة من وراء البحار ، فاتقد نشاط القارة واشتعلت قوتها . ولا يعجبن من ذلك وأوربة قد كشفت القناع عن أبكار بلدان فأخذت تستورد منها خيرات لا نفاد لها ، غذاء طيباً لحياتها وصناعتها ، فباتت والشرق شتان ماهما . فأى موارد كانت للشرق الاسلامى الخرب المهشم ، ازاء أماركة الجنوبية والشمالية وجزائر الهند ؟ هكذا دبت الحياة دبيبها الهائل فى الحضارة الغربية ، فانتفضت وهبت من مرقدها ، وأخذت تخطو الى الأمام خطوات الجبابرة ، محطمة أغلال أجيالها الوسطى تحطيماً ، وقابضة على طلاسم العلوم ، جادّة نحو العصور الحديثة

وعلى كل هذا ، فقد ظل الشرق الاسلامى جامداً ساكناً ، ملتفاً بخلقان الحضارة

الى الغرب حتى وصلوا الى بولونيا وليتوانيا ، ولا يزال الى يومنا هذا بضع عشرة قرية فى ليتوانيا أهلها مسلمون يبلغون بضعة عشر الف نسمة ، وأكثر منهم باق فى بولونيا ، وقد سألت بعض أدبائهم عن أصلهم فقالوا انهم من بقايا الغارات المغولية « ش »

(١) لما نزلت بحرية الترك فى طولون ونيس نجدة لفرنسيس الأول ملك فرنسا الذي دخل فى ذمة سليمان القانوني ، أمسك أهل تلك الديار عن قرع أجراس كنائسهم احتراماً للترك وبقيت القوة البحرية العثمانية أعظم قوة فى البحر المتوسط متصرفة بزمام هذا البحر وأوربا كلها ترعد منها فرقا الى واقعة ليبانت فى زمان سليم الثاني ، وهي الواقعة التى اجتمعت فيها أساطيل النصرانية على الأسطول العثماني فدمرته ولم ينج منه إلا القليل مع أنه كان أقوى منها بأجمعها وكان النصر متوقعاً له لا لها «ش»

العربية التى طال على خوائها الأمد، ومتسكعاً فى ديجور الظلام ؛ ولم يكن ذلك جميع شقائه حتى تضعضعت قوته الحربية وبلغت حد التلاشى ، فوهن عظم الترك بعد الشدة ، واستغرقوا فى انحطاطهم ، فصاروا لا يستطيعون مجاراة أوروبة اختراعاً وارتقاء ، ولا تحسين فن من فنون القتال . وقد كرّت حقبٌ كان الغرب فيها يقاتل بعضه بعضاً قتالاً عنيفاً فلم يستطع الحملة على الشرق ، فعلت منزلة اسم العثمانيين علواً كبيراً ، بيد أنه لما أغار الترك على أسوار « ڤينا » سنة ١٦٨٣ م . ردوا على أعقابهم خاسرين ، أيقنت أوروبة حينئذ أن هناك كان منقلب قوة المملكة العثمانية ، فأخذ جد العثمانيين يعثر ونجمهم يأفل . ومنذ ذلك الحين شرع الغرب يكرُّ على المملكة العثمانية الكرة بعد الأخرى ، منتاشاً منها ما استطاع ؛ ولو لم تشبّ نار الحسد بين الدول الغربية ، فتطمع كل دولة فيما طمعت فيه غيرها ، أعنى لو لم تختلف هذه الدول فى اقتسام الغنيمة ، لمزقت الامبراطورية العثمانية شر ممزق ، منذ عهد عهيد .

ثم توالت الأيام على العالم الاسلامى وهو هاجع لا يستيقظ ، حتى كان القرن التاسع عشر فتململ فى مهجعه مستثقلا وطأة الغرب ، وفى خلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تحمل على جوانب العالم الاسلامى ، وتخضع لها الأقطار ، فى شرق أوروبة وجزائر الهند ، وأما جلّ العالم الاسلامى ومعظمه ، من مراكش حتى أواسط آسية ، فقد ترك وشأنه ، فما كان ليعتبر قدر هذه الفترة السانحة ، بل ظل مستغرقاً فى هجعته ، مستهزئاً « بكفرة » أوروبة ، راضياً مسلماً أن شقاءه انما هو بمشيئة من الله ، لا يقيم لرقى أوروبة وزناً ولا يحسب لمستنبطاتها حساباً (١) .

هكذا كانت حالة العالم الاسلامى لما استيقظ استيقاظه فى مطلع القرن التاسع عشر فاذا بأوروبة تقف بازائه مجنونة بثورتها الصناعية ، مدججةً بأسلحة العلم الحديث وعجائب الاختراع ، و بين يديها الغاشمتين الطبيعة مسخرة ، مفضوحة أسرارها ، وآلات حربية جهنمية لم يحلم أحد من البشر بمثلها من قبل .

فكانت النتيجة المتوقّعة، اذ لما شرعت حملات أوروبة تغشى الشرق الاسلامى ، أخذت

(١) نعم كانوا يعللون انحطاطهم الذى هو نتيجة كسلهم وفساد أخلاقهم بكونه قدراً مقدوراً لا حيلة فيه اعتذاراً عما هم فيه من التهاون والغفلة وسوء الادارة (ش)

أقطاره يسقط الواحد منها تلو الآخر فى أيدى الحاملين عليه ، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى كانت دول أوروبة الكبرى قد اقتسمت جميع العالم الاسلامى ، فاستولت بريطانية على الهند ومصر ، وعبرت روسية القوقاس و بسطت سلطانها على أواسط آسية ، وفتحت فرنسة شمالى أفريقية ، وقامت سائر الدول الأوروبية غير الكبرى واستولت بدورها على الأقطار الصغيرة الباقية من الغنيمة الاسلامية ، وما زالت الحالة هكذا ، حتى جاءت الحرب الكونية العظمى فكان شاهداً على آخر دور من أدوار اذلال الشرق الغرب . ولما وضعت شروط المعاهدات بعيد أن وضعت الحرب العامة أوزارها ، قضى على كيان الدولة العثمانية ، فلم تبق من بعد ذلك دولة اسلامية مستقلة استقلالاً صحيحاً ، فتمّ اخضاع العالم الاسلامى ــ ولكن على القرطاس ! !

اجل،تم ذلك على القرطاس فحسب . والسبب فى ذلك أنه لما ظهرت سيطرة الغرب على الشرق هذا المظهر القاهر ، اسرعان ماهبت عليها عواصف شديدة عجيبة لم يسمع بمثلها من قبل . كان الشرق الاسلامى طول هذه المئات من السنين التى كرت عليه وهو حانٍ عنقه للغرب ، تتطور قواه الباطنية تطوراً عظيما و ينفعل بعضها ببعض انفعالا كبيراً ، حتى آن الأوان فانفجر البركان فكان منفجره هائلاً .

وهذا المد ، مد بحر المطامع الغربية الطامى ، قد غالى فى ايلام الشرق مغالاة شديدة، فتحرك الشرق الجامد الساكن أخيراً ! ! ودار الشرق الاسلامى حول نفسه فرأى تعاسة حاله وما هو حالّ بساحته . فاخذت نفسه تجيش وتضطرب ، ومشاعره تهتاج وتنبعث ، وقواه تثور ثوراناً عجباً بلغ أقصى أعماقه ، واستيقظت روح الاسلام فى كل رقعة من رقاع العالم الاسلامى ، فهب الـ ٢٥٠،٠٠٠،٠٠٠ من اتباع النبى محمد ﷺ[1] من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان حتى الكونغو ، هبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مستقرها .

(١) المسلمون اليوم عددهم يزيد على ٣٠٠ مليون . والسبب فى كون صاحب هذا الكتاب اعتبرهم ٢٥٠ مليوناً هو متابعته لغيره من المؤلفين الاوربيين الذين لايزالون يحسبون المسلمين اليوم على معدل احصاآت جرت منذ عشرات من السنين مع أن عدد المسلمين ازداد بهذه الاثناء كثيراً فالعلامة نانسن الالمانى كان يحزر مسلمى أفريقية وحدهم بنحو ٧٦ مليوناً ، وهذا منذ ٣٠ سنة ثم كثيرون من الجغرافيين لايزالون يخصون مسلمى الجاوى وسومطرة ٢٥ مليوناً والحال أنهم ٣٥ مليوناً وكذلك مسلمو الصين هم من ١٠ الى ٢٠ مليوناً ومسلمو الروسية هم ٣٥ مليوناً وكثيراً مايحصونهم ٢٠ مليوناً وهلم جراً . «ش»

قدح الزناد فى صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ، ثم أخذ الشرر يتطاير الى كل جانب من جوانب العالم الاسلامى ، اذ فى الصحراء هذه نشأت الدعوة الوهابية فى مطلع القرن التاسع عشر ، وهى دعوة الاصلاح الاسلامى ، ثم كان من أمرها ان ترقت واتسعت حتى بلغت فى نطاقها دور النهضة الاسلامية ، ثم عرفت بالتالى بالجامعة الاسلامية .

ولم تكن عوامل هذه التبدلات والتحوّلات فى العالم الاسلامى مقصورة على تلك العوامل الداخلية المنبعثة عنه فحسب ، بل ان هناك عوامل وآراء وعقائد ومذاهب سياسية واجتماعية ما انفكت تتدفق من الغرب على الشرق ، وجميعها يبث فى الشرق الاسلامى روح الاستيقاظ والثوران ، من ذلك عقائد الحكومة النيابية ، والعصبية الجنسية ، والعلوم العملية ، وحقوق العمال ، حتى وأكثر من ذلك كحقوق المرأة ، والاشتراكية والبلشفية .

فثوران العالم الاسلامى هذا الثوران ، وشدة التضييق الاوروبى الضارب فيه ومن حوله على غير انقطاع ولا حدّ ، يزيدان فى هيجانه فيشعلان فيه روح الحركة والعمل . ان الحرب الكونية العظمى قد أتت بعجائب عظيمة ، وأرت مالم يرَ من قبل ، فانشأ الاسلام يميد ويضطرب ، ويتمخض تمخضاً شديداً منتقلا من حال حاضر الى آخر مقبل ، ومجتازاً دوراً غايته تجدد عالم اسلامى حديث .

ولبيان كيفية هذا الانتقال والتجدد اللذين سترى ثمارهما فى عالم اسلام المستقبل قد وضعنا هذا الكتاب .

الفتح العربى

للامير شكيب

حادث الفتح الاسلامى بهذه السرعة التى اتسق بها ، لم يسبق له مثيل فى التاريخ ، حتى قال الكثيرون ان العرب فتحوا فى ثمانين سنة أكثر مما فتح الرومان فى ثمانمائة سنة . وكان نابليون يقول : ان العرب فتحوا نصف الدنيا فى نصف قرن . وقد تحيَّر المؤرخون والاجتماعيون الاوربيون فى تعليل سرعة هذه الفتوحات ، فذهبوا فيها مذاهب شتَّى وأخطأوا وأصابوا ، وليس من الممكن حصر تعليلاتهم فى هذا الشأن نظراً لكثرتها ، وانما يمكننا أن نشير ولو بطريق الايماء الى بعضها . فنابليون الذى كان ينظر الى الحوادث من الوجهة العسكرية التى هو عبقريُّها الأكبر ، كان يذهب الى ان العرب قبل الاسلام كانوا ذوى بصائر بالحرب ، أكثر مما يظن الناس ، وان حروب القبائل العربية بعضها مع بعض كانت قد نجَّذتها[1] فى القتال الى الحد الذى صيَّرها أمَّةً محاربة من الدرجة الاولى ، كما انه كان يظن ان الامم التى تغلَّب عليها العرب بهذه السرعة العجيبة ، كانت مصابةً بعلل اجتماعية كثيرة ، لم يحققها جميعها المؤرخون ، وان ثمة أسراراً لاتزال خافيةً عنهم. على ان نابليون كان يوفر القسط الأعظم من الحرمة الشخصية لمحمد ﷺ وعمر رضى الله عنه ويرى انه ما انتشر الاسلام الا بفضلهما ولقد بلغ من اعجابه بمحمد ﷺ ان نوى وهو فى مصر ان يدين بالاسلام ، وان يحمل عليه جيشه . ولقد سأله عن ذلك المؤرخ « لا كاز » الذى رافقه الى جزيرة « سنت هيلانه » وقيَّد جميع ماسمعه من أحاديثه ، فاعترف له بأنه كان عزم على الدخول فى الاسلام ، وحَمل جيشه عليه ، ولكنه لم يكن يريد أن يفعل ذلك الا بعد أن يصل بجيشه الى الفرات ، بحيث يتمكن باسلامه من الاستيلاء على الشرق . ثم ان

---

(١) جربتها وحنكتها — المترجم

المسيو « اتيان دينه » المسلم الفرنسى الذى له المقامات العالية فى النضال عن الاسلام، والذى أدّى فريضة الحج رحمه الله سنة ١٣٤٧ هو وتلميذه الحاج سليمان بن ابراهيم باعامر، قد نقل فى كتابه الذى ألّفه عن الحج، ووصف به الحرمين، وثائق رسمية عن قضية اسلام نابليون، منها وثيقة مؤرخة فى ٩ فروكيتدور سنة ٧ أى ٢٦ اغسطس سنة ١٧٩٨ وهى مكتوب نصُّه: انى أشكرك على ماقت به من تعظيم نبيّنا. الامضاء: بونابرت. نقلها دينه عن كريستيان شرفيلد: Bonaparte et l'Islam ونقل عنه خطاباً الى الشيخ المسيرى عن المقر العام فى القاهرة تاريخه وفق ٢٨ اغسطس سنة ١٧٩٨ ونصه: « انى أرجو أن لايطول الوقت حتى أجمع جميع عقلاء البلاد ومهذّبيها واقرر معهم نظام حكم مبنيًّا على مبادىء القرآن التى هى وحدها المبادىء الحقيقة والتى هى وحدها الكفيلة بسعادة البشر. الامضاء: بونابرت »

ونقل جملة عن كتاب « جورنال غير مطبوع » Journal inédir الجزء الاول الصفحة ٣٤٨ وهى « كان المشايخ يقولون لى دائماً انى ان أردت أن أكون اماماً فلابد من أن يدخل الجيش فى الاسلام وأن يلبسوا العمائم. ولقد كانت هذه نيتى. الامضاء: بونابرت »

ونقل عن نقولا من الصفحة ١٢٢ من كتابه النسخة العربية وذلك قول نابليون: « حقاً قد قلت لكم مراراً وأعلنت مراراً فى خطبى انى أنا مسلم موحدا مجّد النبي محمداً وأحب المسلمين. الامضاء: بونابرت »

فالذى يعلم تاريخ بونابرت حق العلم يفهم ان رجلاً كهذا أوتى من القدرة العقلية، ومن العزيمة أقصى ماقدر لابطال العالم، لايعجب بالاسلام هذا الاعجاب كله الا بعد اقتناعه بأن هذه الفتوحات المادية والمعنوية التى قام بها الاسلام فى ذلك الوقت القصير، كانت حادثا غير مسبوق المثال فى التاريخ العام، و بأن فضائل الاسلام ونبيه وأصحابه كانت باهرة.

ولننقل لك الآن بعض ماقيل فى هذا الموضوع فى التآليف التى ظهرت حديثاً لأنها نخلت المسئلة نخلاً دقيقاً فمنها كتاب « مدنيات الشرق » للمسيو غروسه الافرنسى

Les civilisation de l'Orient par René Grousset

جاء فيه فى القسم المتعلق بمدنية العرب مايلى:

« معركتان فى أجنادن واليرموك فتحتا للعرب سورية وفلطين من مملكة البيزنطيين

ثم تبعتهما مصر . ومعركتان اخريان فى القادسـية ونهاوند مهدتا لهم فارس بأسرها . فالسلطنة الرومانية بعد أن انتزعت منها سورية ومصر وافريقية ، بقيت لها لذلك العهد آسية الصغرى (الاناضول) بالاقل ، ولـكن السلطنة الفارسية الساسانية سقطت فى أيدى الفاتحين بتمامها . وهكذا امتد سلطان العرب فى بضع سنوات من افريقية ومن جبال طوروس الى سيحون وجيحون ، ولم يلبث ان قطع بعد قليل الى ماوراء النهر ، وفتح بلاد الدول التركية الايرانية التى كانت تابعة للصين . وقد كان الخلفاء الأربعـة الذين فى أيامهم اتسقت هذه الفتوحات المدهشة ، متمسكين بمبدأ محمد وباوابد قومهم . كانوا عرباً و بقوا عرباً شيوخاً فى الصحراء بدون ترف ، ولا زخرف ، ولا قصور ملوكية ، ولا احتياجات . بل كانوا أشداء على أنفسهم كما على الآخرين عائشين فى المضارب كسائر القبائل الخ »

وظهر تاريخ فى هذه السنة اسمه « تاريخ العالم » Histoire du monde للعلامة غودفروا دموفبين Gaudefroy Demombynes الاستاذ بمدرسة الالسن الشرقية بباريز ، والعلامة بلاتونوف من أعضاء اكادمية العلوم الروسية ، تحرى فيه مؤلفاه الى أقصى آماد التحرى ، وذهبا الى أن تاريخ الفتوحات الاسلامية لم يبدأ بالاشراق على ناشديه الا فى هـذه السنين الأخيرة ، فقد كان مهّد طريق معرفته المستشرقون الذين سبقوا مثل دساسى De Sacy وكاترمار Quatremère وكوسين دوبرسفال Caussinq de Perceval ورينو Reinaud و دوسلان De Slane الخ واقتفى أثرهم علماء مشتغلون ، وفوا التمحيص حقه منهم من جاء بآراء خاصة وجيهة استقلّوا بها ، ومنهم من تقـدم كثيراً لـكن فى الطريق التى كانت مفتوحة أمامه ، وربما أدّى جزمهُ بما اعتقده ، وغلوُّه فيما ذهب اليه الى مناقشات ممتعةٌ . وقد عدّ المؤلفان المذكوران من هـذه الحلبة دوزى Dozy ونولدكه Noldke وفيلهاوزن Wellhausen و دو غويه De Goeje وغولدسيهر Goldziher وسـنوك هركرونيه Snouck Hurgronje الخ

ومما ذهب اليه أصحاب هذا التأليف الجديد انه يجب العدول عن فكرة كون انتشار الاسلام حصل على أيدى الاعراب أو البدو الدافقين من الصحارى لاجل الغزو . قالوا : ان الاولى بان يقال هو ان الحركة حركة مدر لاحركة وبر . وذلك ان طائفة من الناس اجتمعت حول النبي فى المدينة من بعـد الهجرة وتشبعت بمبادئه ، وصرفت جميع همها الى الدين ،

وعاهدت الله ورسوله على نشر عقيدة الاسلام . وهؤلاء هم المسلمون . ثم انضمت اليهم طبقات أخرى فى زمان الخلفاء الراشدين ، وتقوت بهم عصابة هؤلاء المتدينين العاكفين على تلاوة القرآن ، الذين بثباتهم المتواصل بنوا الاسلام الاول الذى لم تطرأ عليه المؤثرات الخارجية ، والمجادلات الكلامية ، وهو الاسلام القرآنى الصرف »

(انظر صفحة ١٤٠ من الجزء السابع من هذا التاريخ القيم) ثم قالوا :

فهذه العصابة المتدينة التى نشأت فى المدينـة ، جعلت من المسجد النبوى فى المدينة مركز حياةٍ « دينيةٍ » ، أخـذ ينمو ويتسع الى أن انبثقت منـه أنوار المعارف الكلامية والفقهية فى القرن الثامن (القرن الثامن للمسيح هو مبدأ القرن الثانى للهجرة) . وظهر اولئك الأئمة فى علم الشريعة . فالمدينة كانت فى القرن السابع (للمسيح) هى قلب الاسلام ومنها كان مبدأ نموّه

ولكن كانت خليـة الاسلام تعسّل أيضاً فى أثناء الفتوحات بين الجيوش وفى المخيّمات وذلك ان من الجند مَنْ كانوا حفاظاً للقرآن فاهمين لمعانيه فتألفت منهم فى وسط الجهاد حلقات عبادة وعصابات زهد وتقوى ، محضت الاسلام خلوصاً لا حدّ له ، وصرفت معظم حياتها الى العمل لاستحقاق الثواب الاخروى . فكانت هـذه العصابات تبث العقيدة ، وتحثُّ على التقوى وتجاهد فى طلب سعادة العقبى . وكانت مواعيد الله تتأييد بالفعل فى هذه الدار الدنيا قبل الآخرة ، فكان المسلمون يعلون فى الأرض ويعزّون ، وكان غـير المؤمنين يسفلون ويذلّون ، وانقلبت غزاة البدوى حرباً مقدسة قد أمرها الله لاعلاء كلمته . وقد كانت تلك النفوس الممتلئة بالحياة الدينية لا تتبع الا ماتعتقده ، وما يختلج فى صدورها من فهم القرآن الى حد أن عمر ثم عثمان كانا يخشيان الخلاف بين المؤمنين من أجل القراءة (هذا صحيح فقد روى عن ابن عباس انه نهى عن أن يتسارع الناس فى القرآن فساء كلامه هذا الخليفة عمر فسأله : لماذا قلت هذا ؟ فاجابه ابن عباس : يا أمير المؤمنين متى سارعوا اختلفوا ومتى اختلفوا اقتتلوا . فقال له عمر : لله أبوك لقد كنت اكتمها للناس). فقد كان اذاً رأىٌ عامٌ دينىٌ يدير حياة المجتمع الاسـلامى ، بل سياسة الأمة الاسلامية . ولقـد رأينا فى وقعة صفين كيف اتفق أناس من جيش على مع آخرين من جيش معاوية على طلب التحكيم . ثم لما هـدأت ريح الفتوحات وسكن الناس عادت حلقات قراء القرآن الى مساكنها وعاداتها

الحضرية ، وتألف منها حول الخليفة وحول ولاة الأمصار مجالس الشورى التى يعتمد عليها الامام ، والتى كانت مركز الرأى العام » . انتهى

وهذا الرأى هو ما نراه نحن. وهوأن الاسلام لم ينتشر الا بالقرآن وعمارة الصدور به الى أن بلغ قراؤه من القوة المعنوية الدرجة القصوى التى مكّنتهم من نواصي الامم . وهذه القوة المعنوية هى الأصل ، وهى التى بدونها لا تنهض أمة . وما القوة المادية ، مهما دقّت أوغلظت ، الا تبعٌ لها ، وهى بالنسبة لها كالبدن بالنسبة الى الروح. فكل مايقال من أن سبب الفتوحات الاسلامية الباهرة هو مِراس العرب للقتال أو حبُّ البدو للغزو ، وغرامهم بالغنائم، أو ملل الأمم المجاورة من ملكة حكامها ، وغير ذلك ، فهذا تضييع للمعنى الحقيقى ، وزيغٌ عن شاكلة الرميّة ، وانما أمكنت هذه الفتوحات الخارقة للعادة بكلام منزل هو خارق للعادة ، و بقوة معنوية أحدثها فى النفوس ، خارقة للعادة . ولقد كان العرب أهل حرب من قديم الزمان ، وكان الأعراب مغرمين بالنهب والكسب من أعلى أيام الجاهلية ، فلماذا لم يفتحوا البلدان الا بعد بعثة محمد ؟ ولقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يرى فتوحات أمّتهِ من بعده ، ورُوى عنه حديث : « زويت لى مشارق الأرض ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها » .

وقد قال امام المستشرقين غولد سيهر فى كتابه «عقيدة الاسلام وشريعته» فى الفصل الأول منه ، قولاً فصلاً فى قضية : هل كان النبي نبيًّا قاصراً دعوته على العرب كما يذهب اليه بعض من يريدون تنقُّص الاسلام، أو كان معتقداً برسالته الى العالمين كافة من الأحمر والأسود وأورد الأدلة التى تفحم كل مجادل ، على كون محمد رأى نفسه مبعوثاً الى البشر عامة ، وأنه فى آخر حياته جعل يراسل الملوك الذين خارج الجزيرة مما لايبقى معه شك فى نيته دعوة جميع الخلق الى الاسلام . قال : ولقد لحظ « نولدكه » أن محمداً كان قد رسم خططاً لم يكن يرتاب فى أن يجد الرومان على طريقه فيها أعداءً محاربين ، فان آخر غزاةٍ أغزاها كانت الى أراضى الدولة البيزنطية . ثم ان الغزوات التى غزاها من بعده خلفاؤه وأدرى الناس بمقاصده تنبئ بكونهم علموا أن بعثته كانت عامة لا محصورة فى الجزيرة

ولقد قرأت فى تواريخ كثيرة مايدل على حيرة المؤلفين فى هذا الحادث العجيب ، الا وهو سرعة نمو الاسلام وتبسُّطه ، ومنها تأليف حديث العهد اسمه «العالم الاسلامى» لكاتب

اسمه «ماكس مايرهوف» قال فيه :

« يكاد يكون مستحيلاً أن نفهم كيف ان أعراباً منقسمين الى عشائر، ليست عندهم العدد والاعتدة اللازمة ، يهزمون فى مثل هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم مراراً فى الاعداد والعتاد ، وكانوا يقاتلونهم وهم كتائب منظمة »

والجواب ان هذا المستحيل بزعمه ليس فى الحقيقة بمستحيل اذا نظر الى القوة المعنوية التى أوجدها القرآن فى اتباعه.

وقد جاء فى الفصل الرابع من الجزء السابع من « تاريخ العالم » المتقدم الذكر للاستاذين «غودفروا دمونبين» و « بلاتونوف » أن العرب الذين أفاضوا من الجزيرة لفتح الأمصار، لم يكونوا عصائب لا تحصى ولا تُعد تدفقت على الشرق المتمدن. فقد أحصى مؤرخو العرب الجيش الأول المسلمين فى اليرموك بثلاثة آلاف ، ثم أرسل اليهم الخليفة بنجدة أبلغتهم ٧٥٠٠ مقاتل ، وأخيراً تتامّ عددهم ٢٤ الفاً. وأما عدد الروم فقال العرب انه كان مائة الف وقيل ١٢٠ الفاً ، وقيل ٢٠٠ الف مقاتل . ولم يزده مؤرخو بيزنطية على ٤٠ الفاً . وعلى كل حال كان العدد الاكبر لأعداء العرب. وهكذا فى حروب فارس . فالسبب فى ظفر العرب برغم قلة عدد جيوشهم، بالقياس الى أعدائهم، هو ماجاء فى الفصل الثالث من ذلك الجزء. وهو أن قوة الايمان ونهضة التحمُّس الدينى كانتا متصلتين بحب الغنائم الذى يحبب الى هؤلاء القوم الغزوات والغارات . ولكن العرب فى هذه الفتوحات التى علمتهم أشياء جديدة لا تحصى ، أثبتوا لأنفسهم مزايا ناشئة عن طبيعة حياتهم الاجتماعية ، من الصبر والقناعة والحذق وحسن التخلص وشدة الحماسة فى حال النصر الى أن يعلوا على درجات أنفسهم . ولئن لم يكن زال من بينهم حب المنافسات الشخصية التى هى معروفة بشدتها بينهم ، فقد كان دخل بينهم عنصر وحدة لم يكن معهوداً من قبل، ألا وهو عامل الوحدة الدينية ، وطاعة الرسول ، فأصبح البدو الذين لم يعرفوا الطاعة لمخلوق يمتثلون أوامر قوادهم . وكان العرب بطبيعتهم أهل بأو وخيلاء ، يبذلون النفوس والنفائس لأجل الفخر ، فانضم الى خلقهم هذا اعتقادهم الجديد بانهم شعب الله الخاص الذى بعث الله منه خاتم رسله انتهى

وقال « ولز » الفيلسوف الكاتب الانكليزى الشهير الذى لا يزال حيا وذلك فى الصفحة ٣٠٣ من كتابه « مختصر التاريخ العام » :

«اذا كان القارئ يتخيَّل أن موجة الاسلام قد غمرت بهذا الفيض الذى فاضته بعض مدنيّات شريفة فارسية أو رومانية أو يونانية أو مصرية ، فيجب أن يرجع عن خياله هذا حالاً . فانّ الاسلام قد ساد لانه كان أفضل نظام اجتماعى وسياسىّ تمخّضت به الأعصر . وأن الاسلام قد ساد لانه فى كل مكان وجد أمماً استولى عليها الخمول ، وكان فاشياً فيها الظلم والنهب والعسف ، وكانت بدون تهذيب ولا ترتيب ، فلمّا جاءها الاسلام لم يجد الاّ حكومات مستبدّة مستأثرة ، منقطعة الرابطة بينها و بين رعاياها . فأدخل الاسلام فى أعمال الخلق أوسع فكرة سياسية وأحيي فكرة سياسية عرفها البشر ، ومدّ الى البشرية يد المعونة . وقد كان لدن ظهور الاسلام نظام رأس المال فى السلطنة الرومانيـة مبنيًّا على الاسترقاق ، وكانت الآداب والثقافة والأوابد الاجتماعية آخذة بالانحلال . ولم يبدأ الاسلام بالانحطاط الا عند ما بدأت البشرية تشكُّ فى صدق القائمين بتمثيل الديانة الجديدة »

يريد ولز أن يقول أن الاسلام برىء ممّا عمله المسلمون الذين لم يحسنوا تمثيله .

ففى هـذا القدر مقنع لمن أراد أن يخوض هـذا البحث بقطع النظر عن العقيدة الاسلامية ، بل بالوقوف موقفاً متحايداً لا للاسلام ولا عليه . فاذا وقف القارئ هـذا الموقف من الحيدة كان لا بدّ له من أن يحكم للاسلام وأن يحكم بتحامل أعدائه عليه بغضا وعدوانا .

البعثة المحمدية

وأقوال جمهرة من العلماء والفلاسفة والمؤرخين الاوربيين
في النبي صلى الله عليه وسلم

المنصف منهم والمغرض

للأمير شكيب

منهم :—

غروسه	Grousset
مونته	Montet
اتيان دينه الفرنسى المسلم	Dinet
دوزى	Dozy
نولدكه	Noldeke
دو غويه	De Goeje
شبرنغر	Sprenger
سنوك هركرونيه	Snouck- Hurgronje
غريم	Grimme
مارجليوث	Margoliouth
هوار	Huart
غولد سيهر	Goldziher
غودفروا دومومبين	Gaudefroy Demombynes
ولز	Wells
فولتير	Voltaire

وسواهم :—

قال غروسه صاحب «مدنيّات الشرق» : «كان محمدٌ لمّا قام بهذه الدعوة شاباً كريما نجداً ، ملآن حماسةً لكلّ قضيّة شريفة ، وكان أرفع جداً من الوسط الذين كان يعيش فيه . وقد كان العرب يوم دعاهم الى الله منغمسين فى الوثنية وعبادة الحجارة ، فعزم على نقلهم من تلك الوثنية الى التوحيد الخالص البحت ، وكانوا يفنون فى الفوضى وقتال بعضهم بعضاً ، فاراد أن يؤسّس لهم حكومة ديمقراطية موحّدة . وكانت لهم عادات وأوابد وحشية تقرب من الهمجية ، فاراد أن يلطّف أخلاقهم ويهذّب من خشونتهم الخ »

وقال الاستاذ « مونته » Montet استاذ اللغات الشرقية فى جامعة جنيف فى كتابه « محمد والقرآن» مايلى : « أمّا محمدٌ فكان كريم الاخلاق حسن العشرة ، عذب الحديث ، صحيح الحكم صادق اللفظ ، وقد كانت الصفات الغالبة عليه هى صحة الحكم وصراحة اللفظ ، والاقتناع التام بما يعمله و يقوله »

وقال الاستاذ مونته فى كتابه المذكور صفحة ١٨ مايلى بالحرف : —

« ان طبيعة محمد الدينية تدهش كل باحث مدقق نزيه المقصد بما يتجلى فيها من شدة الاخلاص . فقد كان محمد مصلحاً دينيًّا ذا عقيدة راسخة ، ولم يقم الا بعد أن تأمل كثيراً و بلغ سن الكمال بهاتيك الدعوة العظيمة التى جعلته من أسطع أنوار الانسانية فى الدين وهو فى قتاله الشرك والعادات القبيحة التى كانت عند أبناء زمنه كان فى بلاد العرب أشبه بنبي من أنبياء بنى اسرائيل الذين نراهم كباراً جداً فى تاريخ قومهم .

ولقد جهل كثير من الناس محمداً و بخسوه حقه وذلك لانه من المصلحين النادرين الذين عرف الناس أطوار حياتهم بدقائقها »

وقال فى صفحة ٢٢ مايلى :

« ان الديانة الاسلامية كعقيدة توحيد ، ليس فيها شيء مجهول فى ديانات التوحيد الاخرى الا ان ظهورها فى جزيرة العرب بروح عربية عالية جعل لها طابعاً جديداً باهراً وقد سماها محمد « الاسلام » اشارة الى تمام الانقياد لارادة البارى تعالى وهى فى هذه العقيدة مشابهة للمسيحية الا ان عقيدة هذا الانقياد لارادة الله تتجلى من القرآن بقوة لاتعرفها النصرانية .

وقد بقى فى الاسلام من عادات العرب القديمة تعدد الزوجات والرق الا ان الاسلام جعل

للاولى حداً ، وللثانية شروطاً من حسن المعاملة ، وقد بلغ من محمد التزام هذا التلطيف من معاملة الرقيقين ان قال : ماخلق الله شيئاً أحب اليه من تحرير الرقيـق ولاحلّل شيئاً أكره اليه من الطلاق

ولقد منع القرآن الذبائح البشرية ، ووأد البنات والخمر والميسر ، وكان لهذه الاصلاحات تأثير غير متناهٍ فى الخلق بحيث ينبغى أن يُعَدّ محمد فى صف أعاظم المحسنين للبشرية .

ثم ذكر مونته أركان الاسلام كالصلاة والزكاة والصيام والحج وقال ان حكمة الصلاة خمس مرات فى اليوم هى ابقاء الانسان من الصباح الى المساء تحت تأثير الديانة — ليكون دائماً بعيداً عن الشر — وحكمة الصيام تعويد المؤمن غلبة شهوات الجسم وزيادة القوة الروحية فى الانسان ، وحكمة الحج هى توطيد الاخاء بين المؤمنين وتمكين الوحدة العربية .

قال مونته : « فهذا هو البناء العظيم الذى وضع محمد أساسه ، وثبت ولا يزال ثابتا بازاء عواصف الدهور الدهارير »

ولايزال الاستاذ مونته حيا يرزق وهو من علماء جنيف ومن كبار أساتيذ جامعتها ومن أكابر المستشرقين وله ترجمة بديعة للقرآن .

ومن ألطف الكتب فى السيرة النبوية كتاب للمسيو « اتيان دينه » الافرنسى الذى أسلم وحج وألّف كتاباً عن حجته الى البيت الحرام من أبدع ما كتب فى هذا العصر كما ان كتابه عن حياة النبي ﷺ لايقل عن كتابه فى الحج فى سلاسة عبارته ، ودقة معانيه ، وقوة حجته، مع التزام خطة الاعتدال والجدال بالتى هى أحسن . ومن بدائع تآليف «دينه» Dient كتابه فى الرد على لامنس اليسوعى ومؤلفين آخرين ممن تنقصوا الاسلام والرسول عليه السلام وهو المسمى « انك لفى واد وانا لفى واد »

فالمسيو دينه يبين فساد طريقة هؤلاء الاوربيين الذين حاولوا أن يحللوا السيرة المحمدية ، وتاريخ ظهور الاسلام بحسب العقلية الاوربية ، فضلوا بذلك ضلالاً بعيداً لان هذا غير هذا ولأن المنطق الاوربى لايمكن أن يأتى بنتائج صحيحة فى تاريخ الانبياء الشرقيين قال «دينه» ان هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبي بهذا الاسلوب الاوربى البحت لبثوا ثلاثة أرباع قرن يدققون ويمحصون بزعمهم ، حتى يهدموا مااتفق عليه الجمهور من المسـلمين من سيرة نبيهم وكان ينبغى لهم بعد هذه التدقيقات الطويلة العريضـة العميقة أن يتمكنوا من

هدم الآراء المقررة ، والروايات المشهورة من السيرة النبوية ، فهل تسنّى لهم شيء من ذلك ؟

الجواب : لم يتمكنوا من اثبات أقل شيء جديد .

بل اذا أمعنّا النظر فى الآراء الجديدة التى أتى بها هؤلاء المستشرقون ، من فرنسيس وانكليز وألمان وبلجيكيين وهولانديين الخ . لانجد الا خلطاً وخبطاً ، وانك لترى كل واحد منهم يقرر ما نقضه غيره من هؤلاء المدققين بزعمهم أو ينقض ما قرره .

ثم أخذ « دينه » يورد الأمثال على هـذه التناقضات فمنها أن المستشرق دوزى الهولاندى قال ان محمـداً لم يكن يشبه قومه ، فقد كان ذا تصور قوى ولم يكن عند العرب مثل هذا التصور ، وكان ديناً بطبيعته ولم يكن العرب ديّنين .

وان لامنس قال بازاء ذلك ان محمداً كان شبيهاً بقومه وان هـذه المشابهة هى التى كانت سر نجاحه بينهم .

وقال دوزى ان محمداً كان ميالاً الى الصمت والكآبة يحب العزلة والهيام فى الأودية البعيدة ، ويطيل التأمل فى الليالى .

وعارض لامنس فى هـذا الرأى وقال انه لا ينطبق على المعهود من كراهية محمد للعزلة ومن شهرة نفوره من النسك .

وقال « نولدكه » ان سبب الوحى النازل على محمد والدعوة التى قام بها هو ما كان ينتابه من داء الصرع .

وقال الاستاذ « غويه » De Coeje ان هذا الافتراض ليس بصحيح لأن الذاكرة عند المصابين بالصرع تكون معطلة ، والحال هى بالعكس عند محمد الذى كان يتذكر كل ما يسمعه فى أثناء هذه النوبات .

ويقول الاستاذ « شبرنغر » Sprenger انها نوبات هستيرية . ويردّ عليه الاستاذ سنوك هركرونيه Snouck Hurgronje بقوله انها ليست من هذا النوع .

ويقول الاستاذ غريم Grimme ان مبادئ محمد اشتراكية لا دينية . وانما جعل لها صبغة دينية لأجل تمكينها .

ويرد عليه سنوك هركرونيه قائلاً بان مدار نبوة محمد هو البعث واليوم الآخر .

ويزعم « مارغليوث » Margoliouht وهو أخبث المستشرقين وأشدهم بغضا لمحمد وهو

الذى اعتمد عليـه الدكتور طه حسين فى النظرية الساقطة بان شعر الجاهلية موضوع بعد الاسلام ـ ان محمداً كان يمارس الشعوذة وكانت له مجالس سرية أشبه بمحافل الماسونية وعلامات يتعارف بها مع أصحابه وكانوا يرخون عذبة العمامة فوق منا كبهم الخ وقد رد على مرغليوث هذا جون باركنسون Parkinson فى المجلة الاسلامية Islamic review سنة ١٩١٥

ونسب لامنس اليسوعى الى محمد الاكثار من الطعام ، والشره ، والاسترسال فى اللذات البدنية وقال انه مات بالبطنة . وزعم « بينه سانغله » Binet Sanglé انه كان سيء الغذاء صابراً على الجوع متقشّفاً ومات من الضعف . كتب هذا فى كتابه المسمى « بجنون يسوع » فى الجزء الثانى من هذا الكتاب (هذا الكتاب أربعة أجزاء) وقال « هوار » Huart انه توفى بذات الجنب . وقال الأب باردو زعيم مبشرى الصحراء انه مات مسموما سمته امرأة يهودية .

قال « اتيان دنيه » وان أردنا استقصاء هذه التناقضات التى نجدها بين تمحيصات هؤلاء المحصين بزعمهم يطول بنا الأمر ولا نقدر أن نعرف أية حقيقة ولا يبقى أمامنا الا أن نرجع الى السير النبوية التى كتبها العرب . نعم انهم كتبوها باسلوب شرقى ساذج . وأودعوها تفاصيل قد تكون من أثر الحب والتحمس الا أن الذى يفهم أسلوبها يعلم ما بها من الحقائق المدهشة . فأما المؤلفون الذين زعموا أنهم يريدون ترجمة محمد بصورة علمية ، شديدة التدقيق ، فلم يتفقوا منها ولا على نقطة مهمة ، وبرغم جميع ما نقّبوه ونقّروه ، وحاولوا كشفه بزعمهم ، فلم يصلوا ولن يصلوا الا الى تمثيل أشخاص فى تلك السيرة ليسوا أعرق فى الحقيقة الواقعية من أبطال أقاصيص ڤالترسكوت واسكندر دوماس . فهؤلاء القصاصون تخيلوا أشخاصاً من أبناء جنسهم يقدرون أن يفهموهم ولم يلحظوا الا اختلاف الأدوار بينهم أما أولئك المستشرقون فنسوا أنه كان عليهم قبل كل شيء أن يسدّوا الهوة السحيقة التى تفصل بين عقليتهم الغربية والأشخاص الشرقيين الذين يترجمونهم وانهم بدون هـذه الملاحظة جديرون بأن يقعوا فى الوهم فى كل نقطة .

هل يتوقفون عند هـذه الملاحظة ويعلمون أن طريقتهم هذه لا تنفذ الى حقيقة ؟
الجواب : لا نظن ذلك . وهو لأنهم مولعون بحب الطريف يحاولون الاتيـان ببدع غير مسبوق .

ثم نقل « دينه » قول « سنوك هركرونيه » عن كتاب « غريم » فى ترجمة الرسول وهو أن غريم أراد الابداع والاطراف فجاء بصورة غير صحيحة.

ثم ذكر « دينه » كيف ان الأب لامنس اليسوعى فى أول كتابه عن محمد صاح متأوها من كون القرآن جاء وصرف العرب عن حلاوة الانجيل التى كانوا بدأوا يذوقونها ، ولم يقدر أن يغفر للقرآن ذنب ادخاله فى الاسلام ثلاثمائة مليون نسمة من جميع أجناس البشر واستتبابه الى يوم الناس هذا ينمو وينتشر فى افريقية وآسية بمرأى ومسمع من المبشرين المسيحيين . فلذلك زعم الأب لامنس أن يشنّها على الاسلام غارة شعواء ويحمل عليه حملة صليبية يكون هو بطرسها الناسك على أمل أن يصرع الاسلام ! الا أن حالة عقلية كهذه يقول « دينه » انها لا تلتئم مع بحث علمى مبنى على تجرد محض من الهوى وتنزه عن البغض . ثم جاء « دينه » رحمه الله بالأدلة القاطعة على سفسطات لامنس وسردها مع ردها واحدة واحدة مما لا يتسع له هذا المكان الذى لانتوخى فيه الا الاشارة والدلالة محيلين من شاء التوسع فى هذا البحث على الكتب نفسها .

ان الكتابات فى أوروبة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ودينه ، وشرعه ، والملة الاسلامية بحر لا ساحل له وفيها الغث والثمين ، والحالى والعاطل ، والحق والباطل ، ومن مؤلفيها المحب والقالى ، والمنصف والمتعسف ، والناصح والكاشح كما هو الشأن فى كل أمر . ولكن العصر الأخير فى أوربة أنصف الرسول ﷺ كثيراً بالقياس الى الأعصر التى سبقت كما يظهر من الشواهد التى أتينا بها من قبيل انموذجات . ولو كان المسلمون استيقظوا من سباتهم وتعلموا من الاوربيين روح « التضحية » كما يقال ونشروا للاسلام دعاية منظمة وأنفقوا عليها عن سعة لأمكنهم أن يصححوا أباطيل كثيرة ويبدّدوا أوهاماً كثيفة تتعلق بهم وبدينهم وبنبيهم ، ولاهتدى فى أوربة الى الاسلام خلق كثير أثروا تأثيراً محسوساً فى مجرى السياسة العامة

ولكننا مع الأسف لا نزال بعيدين عن درجة هذا الانتباه ولا يزال أعداء الاسلام يناصبونه القتال فى كل سهل وجبل وفى كل بر وبحر ولا تبرح مكافحة الاسلام لهم هى فى نسبة الخردل الى الجندل . فمتى ينشط الاسلام من عقاله ويستأنف همته الأولى ؟ هـذا مالا يجاوب عليه غير المستقبل . انتهى

وقال المؤرخ الفرنسى الشهير « لافيس » « انه كان مشهوراً بالصدق منذ صباه حتى كان يلقب بالأمين الخ » .

وقال« غولد سيهر » سيدالمدقّقين ، وحجةالمستشرقين ، فى كتابه « عقيدة الاسلام وشريعته » فى الصفحة الثالثة من هذا الكتاب الجليل مايلى :

« ان دعوة النبي العربى كان فيها نخبة مبادئ دينية اعتقدها هو بالاختلاط مع اليهود والنصارى وغيرهم ، واقتنع بها ، ورآها جديرة باحياء الشعور الدينى بين قومه . ولقد كانت هذه المبادئ المقتبسة من الأديان الأخرى فى نظره ضرورية لتثبيت سير الانسان بحسب الارادة الالهية، فتلقّاها هو بصدق وأمانة ، و بمقتضى الهام أيدته فيه المؤثرات الخارجية وجاءه وحياً الهيًّا كان هو مقتنعاً بكونه وحياً الهيّاً نازلاً على لسانه »

اننا ننبّه قراء هذا الكتاب الى أن هؤلاء الذين نحن نستشهد بكلامهم فى حق محمد ﷺ ليس فيهم واحد مسلم ، وذلك اننا لانرى حاجة الى الاستشهاد على صدق الرسول عليه السلام بكلام المسلمين المؤمنين بالله ورسوله . وانما نريد أن نقيم الأدلة من أقوال علماء الأوربيين الذين ليسوا بمسلمين ليقال فيهم انهم قالوا ما قالوه متأثرين بعقيدتهم التى نشأوا عليها، وانما هم من العلماء المنصفين الذين نشدوا الحق ، و بغوا التحرى جهد طاقتهم . وقد كانت خلاصة آرائهم وزبدة أقولهم أن محمداً كان صادقاً ، وكان أميناً ، وكان معتقداً بان الله ابتعثه لهداية قومه ، وارشاد سائر البشر الى الدين القيّم ، وكان مقتنعاً بان الله تعالى يوحى اليه ، وأنه لم يقل شيئاً الا وهو مقتنع به . وهذا هو الرأى السائد الآن بين العلماء المحققين من أهل أوربة ، ولم يبق فيهم من يقيم وزناً لتلك المطاعن التى كان أحبارهم ورهبانهم وأعداء الدين الاسلامى منهم يوجهونها الى شخص النبي صلى الله عليه وسلم ، و يطبعون بها ناشئتهم و يجعلونها مداراً لدعايتهم .

وأما قول « غولد سيهر » ان الاسلام فيه نخبة مبادئ أصلها من اليهودية والمسيحية فليس فيه شئ يدعو الى الانكار ، وما جاء القرآن الا مصدقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل ، والاسلام انما هو ملة ابراهيم حنيفاً ، وقد جاء محمد بتأييد تلك الملة لا بنقضها كما لا يخفى .

وقال « ماكس مايرهوف » فى كتابه « العالم الاسلامى » الصفحة العاشرة : « ان محمداً فى سنة ٦١٠ للمسيح كان كثير التفكر ، والانفراد ، وكان يقصد الى البادية و يخلو بنفسه فى

جبل حرآء بقرب مكة . فرأى ذات يوم رؤيا ، هى أن الملك جبريل تجلى له وناوله كتاباً ،
وقرأ عليه هذه الآيات التى هى السورة السادسة والتسعون من القرآن : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ
الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ
مَالَمْ يَعْلَمْ) فنزل عليه هذا الكلام وحياً وجاء فأخبر امرأته بما وقع له . ثم جاءه وحىٌ آخر
فيما بعد ، فلما شعر به تغطّى بثوب وسمع هذه الكلمات : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ
وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ)
ومذ ذاك الوقت اقتنع بان الله اختاره مبشراً بعقيدة جديدة ، وتسمى برسول الله ، ليدعو
الى الله بلسان عربى مبين . الى أن يقول : « أراد بعضهم أن يرى فى محمد رجلا مصابا
بمرض عصبى ، أو بداء الصرع ، ولكن تاريخ حياته من أوله الى آخره ليس فيه شىء يدل
على هذا ، كما ان ما قام به فيما بعد من التشريع والادارة يناقض هذا القول »

وأما « غودفروا دمبومبين » و« بلاتونوف » فى« تاريخ العالم »فقد وصلا من التدقيق
والتمحيص الى حد لا أعرفه لمؤرخ و بلغ منهما ذلك أن قالا : « ان النصرانية لا يزال أصلها
مجهولاً » كما انى رأيتهما فى كثير من الأمور المجمع عليها فى الاسلام لا يبرحان متوقفين ففى
الصفحة ١٣٢ من الجزء السابع من تاريخهما نجدهما يقولان : «انه غير ممكن الجزم بصورة
حقيقية لمحمد ، ولا بصورة حقيقية لأحد من كبار رجال العالم . وكل ماهنالك انما هو الروح
التى تتجلى لهم فى تواريخهم التقليدية وفى كيفية تمثيل الخلف لصورهم . ولا شك فى أنه
يكون من باب الفلسفة العليا أن تميز الحقائق الراهنة عن الاعتقادات ولكننا نجد أنفسنا
عاجزين عن ذلك هنا. وغاية مانقدر أن نجزم به هناهو تبرئة محمد من الكذب ومن المرض.
وانما كان محمد رجلاً ذا مواهب الهية علياء، ساد بها أبناء عصره ، وهى رباطة الجأش،وطهارة
القلب،وجاذبية الشمائل ، ونفوذ الكلمة . وأنه كان عابداً عظيماً ، وأنه نظير جميع العبّاد العظام
كان يجمع بين حرارة الاعتقاد بالرسالة التى هو مأمور بها من جانب الحق تعالى ، و بين
ملكة الأعمال الدنيوية ومعرفة استخدام الوسائل اللازمة لنجاح تلك الرسالة »

وجميع هؤلاء تقريباً ، وولز الانكليزى أيضا ، وهو ممن تناول النبىّ ﷺ بشىء

من النقد ، قد أجمعوا على أن من أنصع الأدلّة على صدقه كون أهله وأقرب الناس اليه هم أول من آمنوا به . فقد كانوا مطلعين على جميع سرائره ، ولو ارتابوا فى صدقه ما آمنوا .

وبرغم انتقادات « ولز » التى حادفيها عن الصواب ، لم يستطع أن ينكر كثيراً من الحقائق مثل قوله : « ان ديانة محمد كان فيها روح حقيقية من العطف ، والكرم ، والاخاء ، وكانت بسيطةً ، مفهومةً ، سائغةً ، وكانت ملآى بمكارم الأخلاق ، وعلو النفس ، والمعالى التى يشغف بها أهل البادية »

وقال العلامة هوار « Huort » أستاذ الألسن الشرقية بباريز وصاحب « تاريخ العرب » المتداول بين الأيدى وذلك فى الصفحة ٩٤ من الجزء الأول:

« كيف تعرّف محمد الى خديجة وكيف أمكنه أن يحصل على ثقتها و يتزوج بها ؟ الجواب على الشق الأول لا يزال غير معروف عندنا . وأما على الثانى فقد اتفقت الأخبار على أن محمداً كان فى الدرجة العليا من شرف النفس ، وكان يلقب بالأمين ، أى بالرجل الثقة المعتمد عليه الى أقصى درجة ، أى كان المثل الأعلى فى الاستقامة » ثم انك لا تجد فى « تاريخ العرب » للاستاذ « هوار » كلمة واحدةً تدلُّ على أن محمداً كان مرآئيا أو مداجياً ، أو كان يقول مالا يعتقد أو يعتقد مالا يقول.

* * *

وقد ذكر « كارادوفو » المستشرق الافرنسى الفاضل صاحب كتاب « مفكرى الاسلام » les penseurs de l'islam فى الجزء الثالث من هذا الكتاب حياة صاحب الرسالة ﷺ وتحرّى فيها مزيد التحرى ، ودقّق أشد التدقيق ، وانتهى الى القول « بان محمداً من سن الخامسة والعشرين الى الأربعين كان كثير التفكر ، هادئاً ، ساكناً ، وكان حليماً ، تقيّاً ، حسن الأخلاق ، وأنه عند ما بلغ الأربعين توجهت جميع قواه العقلية الى جهة التأمل فى جوهر الألوهية ، والبحث عن الحقيقة الدينية ، ومذ ذاك الوقت أخذ يعتزل الناس ويخلو بنفسه فى غار بقرب مكة اسمه حرآء . وكان محمد أميّاً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يكن فيلسوفا ولكنه لم يزل يفكر فى هذا الأمر الى أن تكونت فى نفسه بطريق الكشف التدريجى المستمر عقيدة كان يراها الكفيلة بالقضاء على الوثنية »

فهذا أيضاً من المستشرقين المتبحرين الذين لم يدينوا بالاسلام ، ولم يعتقدوا بالوحى

المتنزل على محمد ﷺ لكنه ذهب الى أنه عرف الحق بطريق التأمل ، والقذف فى الروع ، مما لا يبعد كثيراً عن العقيدة التى عليها المسلمون .

ولقد تعرض « كارادوڤو » الى خرافة الراهب بحيرا التى يزعم بعض المسيحيين أنه هو الذى كان علم محمداً العقيدة وهو الذى ألّف القرآن ، وقال ان هذه الأسطورة موجودة ، وأنها مكتوبة بالعربى ، وأنه كان نشر عنها فصلاً فى مجلة « الشرق المسيحى » ولم ير فيها شيئاً يستحق الاعتبار ، ولكنه لا يزال فى سورية قسيسون من الفئة التابعة لرومة يعتقدون بأن بحيرا كان معلماً لمحمد ، وأنه هو الذى لقنه القرآن وقد ذكر « كارادوڤو » ماقيل عن بحيرا انه كان راهباً من انطاكية ، ذهب سائحاً الى جنوبى سورية ، وتوغل فى صحراء سينا ، ثم ذهب الى بلاد العرب يعلمهم دين جدهم اسماعيل الخ الا أنه ينعت هذه القصة كلها بقوله « خرافة » .

وكيف لاتكون خرافة القصةُ التى تجعل مثل بحيرا الراهب الاعجمى ينطق بمثل القرآن الذى عجزت عنه مصاقع خطباء العرب ، وفحول شعرائهم أفصح وأبلغ ما كانوا ، ولعلّ أصل هذه الخرافة التى لا يخجل بعض الناس من روايتها أو الاشارة اليها، مايرويه المؤرخون من أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد ذهب مع عمه أبى طالب الى الشام فى قافلة ، وكان فى الثانية عشرة من العمر ، وأنه لما مرّ أبو طالب والقافلة ببصرى دعاهم الى الطعام راهب اسمه بحيرا . فلما صاروا حول الخوان قال الراهب انه معكم صبى لايزال غائباً فلماذا لايحضر؟ فاستدعوه فحضر . وطفق الراهب يسأله أسئلة و يستحلفه باللات والعزّى أن يجاوب عليها فأجابه الصبى بما يشعر اقشعرار بدنه من ذكر اللات والعزى ، ووجد الراهب من أجوبته ومن سيمائه أنه هو النبىّ الذى رأى صفته فى الكتب ، والذى سيكون خاتم الرسل . وأوصى الراهب أبا طالب بان يحذر على ابن أخيه من اليهود .

قد نقل هذا الخبر ابن هشام فى السيرة النبوية . ونقلها أصحاب « الانسيكلوبيديا » الاسلامية عن ابن هشام . وقالوا ان بعضهم يزعم أن أبا بكر كان فى هذه الواقعة . ثم قالوا ان المسعودى ذكر ان اسم الراهب كان سرجيوس وأنه كان من عبد القيس . وذكر الحلبى أن اسمه كان سرجيوس أو جرجيوس .

وقرأت فى تاريخ أبى الفرج الملطى ـ الأسقف المسيحى ـ ان الراهب لما رآى محمداً ﷺ مع عمه تفرّس فيه وقال : سيكون لهذا الصبى شأن عظيم ويذيع شكره فى المشارق والمغارب

وجاء فى « الانسيكلو بيديا الاسلامية » أن اسم « بحيرا » الذى كان الراهب يعرف به هو اسم آرامى معناه « المنتخب » وقد تواردت هذه القصة فى السير الاسلامية لاثبات ان رهبان النصارى كانت عندهم علامات على ظهور النبي ﷺ قال أصحاب « الانسيكلو بيديا » المذكورة فى ترجمة الراهب بحيراً ان مؤرخى بيزنطية قد ذكروا هذا الراهب من قديم وقالوا ان بحيرا كان اسمه سرجيوس وفقاً لما ورد فى كتب المسلمين .

الا ان هناك اختلافاً فى سرد الخبر :

وذلك ان تيوفانس وجيورجيوس فرانتس ، يقولان فى تاريخيهما انه لما خيل لمحمد ظهور الملك جبريل لاول مرة ، وأصابته تلك الرعشة ، خافت عليه زوجته خديجة ، وذهبت الى راهب مبتدع كانت قد طردته الكنيسة اسمه سرجيوس ، فروت له ماحصل لزوجها ، فقال لها انه لايظهر الملك جبريل الا للانبياء .

وأما قصة بحيرا التى ينعتها « كارادوڤو » وجميع المحققين بلفظة « خرافة » ويقول أصحاب « الانسيكلو بيديا الاسلامية » أنفسهم — وهم غير مسلمين ولا مدافعين عن الاسلام — ان مقصد من كتبوها هو اثبات عدم صحة النبوة المحمدية لاغير فهى قد ظهرت فى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر للمسيح ، ولها نسخة بالعربى ونسخة بالسريانى ، وقد ذكر أصحاب « الانسيكلو بيديا » ان اسم مؤلفها « ايشو ياب » وانها تنقسم الى ثلاثة أقسام : الاول ذكر الدول المالكة الاسلامية التى كوشف بها الراهب بحيرا وهو على جبل سيناء . الثانى ملاقاة سرجيوس مع محمد فى بادية يثرب وتعليمه اياه العقائد والشريعة ، والقسم الذى ألفه له من القرآن . الثالث كهانات سرجيوس وما حكاه من أمور الغيب التى تحققت على نحو ماجاء فى القسم الأول .

وبالاختصار اخترعوا هذه الاكاذيب اختراعاً على أمل ادخال الريب والشبهات فى نبوة محمد ﷺ ، وفى نزول الوحى عليه ، وفى كيفية دعوته الى الاسلام ، وفى نشوء ملته وشريعته ، ولكنه لم يخف افتراؤهم هذا على قومهم ، فردّوه بالاجماع تقريباً ، وسلّموا ان أصل القصة قد يكون هذه الكلمة التى قالها هذا الراهب عن محمد لما جاء صبيّاً مع عمه الى الشام ، ورآهما الراهب فى بصرى . وهى كلمة تزيد الدلالة على صحة رسالته ﷺ

(وَيَأْبَى اللهُ الاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

***

ولو أردنا أن نورد كل ماجاء في كتب المحققين من الاوربيين من الشهادات بصدق محمد ﷺ لما أمكننا أن ننتهي ، وانما أوردنا بعض هذه الانموذجات مثالاً نكتفي به عن غيره . ويقال ان « كارليك » الكاتب الانكليزي الشهير قد كان من الاوربيين الأوائل الذين شدّدوا النكير على المطاعن الاثيمة والأكاذيب التي كان رجال الكنيسة قد ألصقوها بأذهان الاوربيين في حق الرسول العربي الكريم .

وسأختم هذه الحاشية بنقل ماقاله « فولتير » رأى ملاحدة اوربّة بحق محمد ﷺ وذلك ان « البرنس تسينسندروف » النمسوي الذي تولى حكومة النمسا في أواخر أيامه كان في أيام شبابه جاء الى سويسرة ، وزار كلاً من « ڤولتير » و « جان جاك روسو » ، وذلك في شهري سبتمبر واكتوبر سنة ١٧٦٤ ، وله مذكرات عن هذه الزيارات غير مطبوعة ، محفوظة في دار الآثار الوطنية في ڤيننّا ، قد اطلع عليها المسيو « لوڤال » الافرنسي ، وأرسل عنها مقالة الى جريدة الطان مؤرخة في ١٤ اكطوبر ١٩٢٤ . وقد نقلت أنا هذه المقالة تلخيصاً ونشرت ذلك في مجلة « الزهراء » عددها المؤرخ في ١٥ صفر سنة ١٣٤٤ والمهم منها ان ڤولتير في أحد مجالسه مع البرنس « تسينسندورف Zinzendorf » أجرى ذكر « لوتير » و « كلڤين » فقال للبرنس : « انهما لايستحقان أن يكونا صانعي أحذية عند محمد » ومن المعلوم ان الاوربيين لاسيما الامم البروتستانتية منهم ، يعتقدون انه لولا الاصلاح الديني الذي قام به « لوثير » و « كلڤين » لمّا انبثق فجر الحرية في اوربة ، ولكانت القرون الوسطى قد امتدّت الى عصرنا هذا . فأمّا « ڤولتير » فقد رآهما مقصرين رجعيين ناكصين على الاعقاب ، لأنهما لم يتجاسرا على اعلان الحقائق التي أعلنها محمد ، مع انه قد تقدمهما في الزمن . وهذه شهادة ملحد لم يقرن به أحد في ملاحدة الدهر ، ولا تمارى أحد في كونه العامل الأعظم في الثورة الافرنسية .

ولقد ذكرت في مقدمة مقالتي هذه في « الزهراء » أسباب اهتمامي لهذه الجملة التي قالها « ڤولتير » عن مقايسة « لوثير » و « كلڤين » الى محمد وهي : ان بعض النشء الجديد لايعتقدون بشيء ولا يحفلون بأمر مالم تروِ لهم فيه كلاماً عن فيلسوف اوربي عظيم ، لاسيما اذا كان من كبار الملاحدة .

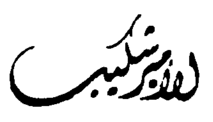
وأيّ فيلسوف لعمري أعظم الحاداً ، وأيّ ملحد أشهر فلسفةً ، من « ڤولتير » الذي لم يتقدمه ولا تأخر عنه في هذا الباب مثله ، ولقد انطقه الحق بما نطق به كما رأيت .

السيرة النبوية

وكتاب

« حياة محمد » لاميل درمنغهم

Emile Dermenghem



— ❊ —

- الحديث والتحديث .
- تفاوت الأئمة المجتهدين فى الاكثار والاقلال منهما .
- درمنغهم يصف أول ما أنزل على النبى ﷺ من الوحى .
- قضية صلب المسيح واختلاف الاسلام والنصرانية فى كيفيتهما .
- مقارنات بين عقائد اسلامية ومسيحية فى عيسى عليه السلام .
- جمع القرآن وكيفية ثبوت مصحف عثمان .

حياة محمد لاميل درمنغهم .

قد أثار الانتباه لهذا الكتاب المؤلف بالافرنسية مانشره الدكتور حسين بك هيكل تحت عنوان « حياة محمد لدرمنجم نقد وتعليق » فى ملاحق جريدة السياسة الغراء الذى يوالى نشر مقالاته فى أعدادها الأدبية ورده على درمنغهم مما جعل كل من يقرأ مقالات الدكتور هيكل فى اشتياق الى معرفة ماكتبه درمنغهم لأنه لم يأتى بشئ مما قال درمنغهم بل علق ونقد بدون أن يترجم ماقاله بخلاف الأمير أبقاه الله (الناشر)

وممن كتب فى هذه السنين الآخيرة فى موضوع السيرة النبوية المحمدية المسيو اميل درمنغهم Émile Dermenghem من كتاب الفرنسيس وممن أقام ببلاد المغرب وخلط المسلمين وهو وان كان مسيحياً كاثوليكياً ، فمن المسيحيين ذوى الوجدان والميل الى الانصاف . ولما أقدمت الحكومة الفرنسية فى المغرب على الغاء الشريعة الاسلامية ، من بين البربر ، وأخذت تتشبث بالوسائل المتعددة لأجل اخراجهم من الاسلام وتربيتهم فى النصرانية ، كان هذا الكاتب ممن أقاموا النكير على هذه السياسة ورآها مخالفة لمصلحة فرنسا وماسة بكرامتها فى العالم ، وقد نشر رأيه هذا بدون محاباة فى الجرائد .

فأما كتابهُ فى السيرة النبوية فقد أسماه « حياة محمد » وهو من أهم الكتب وقد صدره بمقدمة يقول فيها : « انه لايوجد واحدفى الدنيا أمكنه أن ينكر وجود محمد ، ولكن وُجد من ينكرون بعض ماجاء فى ترجمة محمد فى الكتب العربية . ومن الناس من يتجاوز الحد فى النقد والاعتراض حتى يقع فى الظلم ، أما أنا فقد جعلت كتابى سيرة حقيقية مبنية على المنابع العربية الأصلية بدون اهمال جميع ما وصلت اليه تدقيقات المتخصصين فى هذا الموضوع فى الأزمنة الأخيرة . وقد أردت أن أمثل لمحمد صورة مطابقة له بقدر الاستطاعة كما فهمته من الكتب التى قرأتها وأنعمت النظر فيها ومن مشافهة الأحياء من المؤمنين به . فاذا كانت كل حياة بشرية تنطوى على تعليم ، وكانت كل حادثة تشتمل على مشهد يمثل حقيقةً من الحقائق ، فكم يكون مؤثراً ومفيداً التلاقى مع رجل من الرجال الذين يقتدى بهم جانب عظيم من الانسانية » . وقال : « ان من المنابع الاولى لسيرة محمد القرآن والسنة . فالقرآن هو أوثقها سنداً ، ولكنه غير شامل الشمول الكافى فى هذا الموضوع ، وأما الحديث فبرغم جميع ماتحراه المحدثون ، لاسيما البخارى ، فى جمع أقوال الرسول والاحاطة بأقل اشارة من شاراته وترجمة الرجال الذين روى عنهم الحديث مُسَلسلا ومُعَنْعناً ، لا يزال فيه كثير مما هو محل للشبهة ، ومما هو موضوع ، ومن الجملة انهم نسبوا الى النبىّ معجزات كانت نسبتها اليه بعد موته . والحال انه معروف كونُ النبى نفسه ما ادعى المعجزات . وليس بالسهل تمحيص جميع الأحاديث ومعرفة الصحيح فيها من غيره ، ولكنه ليس من المستحيل معرفة ذلك لمن كان قد وقف على علل التحريف والوضع . ومما لاشك فيه انه بعد الغربلة التامة يبقى عدد كبير من الأحاديث محققاً تحقيقاً رياضياً وذلك بمقارنته بشواهد أخرى

و بتطبيقه على المكان والزمان والبيئة والاوضاع التى كانت . كما ان منها ما يترجح صحته . وقدقال المستشرق سنوك هركرونيه Snouck Hurgronje انه ليس من السداد فى شيء انكار حديث لايمكن تبيين السبب الذى يقال انه وضع لاجله ولا توجد علة تاريخية تنقضه . أمّا السير النبوية كسيرة ابن‌هشام عن ابن اسحاق وهى أهمها ، وكتاب‌الواقدى ، وطبقات ابن سعد ، والسيرة الحلبية ، وتاريخ أبى الفداء ، والطبرىّ ، والمسعودى الخ ففيها بأجمعها أحاديث ضعيفة . الا انه لاينكر أصلاً وجود روايات فيها هى غاية فى الصراحة والثقة . وانما كثرت المبالغات فى الأعصر الأخيرة . ثم جاء اناس مثل ابن خلدون فأتوا بآراء خاصة بهم . ثم جاء المحدثون مثل الشيخ عبده فى مصر ، وتلاميذه والسيد أمير على الهندى ، وأصحاب مجلة « اسلاميك ريفيو » فجعلوا للنبي صورة اجتهدوا فى تقريبها من ذوق هذا العصر . وربما تكلموا عن عيسى بما لايرضاه محمد نفسه . أما من‌الجهة الاوربية فقدكانت الأوهام والعداوات الدينية تحول دون درس حقيقى علمى لمضية منشأ الاسلام الى أن نبغ فى القرن التاسع عشر رجال أزاحوا هذه العلة مثل كوسين دو برسيفال Coussin de Perceval وموير Muir وفايل Weil ومرجوليرث Margoliouth ونولدكه Noldeke وشبرنجر Sprenger وسنوك هركرونيه Snouck Hurgronje ودوزى Dozy ومن بعدهم كاتانى Catani ولامنس Lamens وماسينيون Massignon ومونتيه Montet وكازانوفا Casanova و بيل Bell وهوارت Huart وهوداس Houdas ومارسيه Marçais وارنولد Arnold وغريم Grimme وغولدزيهر Goldziher وغود فروا دمومبين Gaudefroy Demombynes وغيرهم .

الا أن بعضهم تجاوز الحدفى التمحيص الى‌أن سقط فى النفى‌المطلق ، فانقلب‌الأمر الى ضده وصار هدماً بدلا من أن يكون بناء . أما أنا فقد جئت وسطاً بين الروايات العربية المأثورة التى يمثلها المسيو دينيه Dinet وسليمان بن ابراهيم ، والطريقة العصرية التى جرى عليها بعض المستشرقين المحدثين ، فكنت دائما أنظر الى هذه الجهة والى هذه الجهة . وقد وجدت مع الأسف نتائج تدقيقات المحدثين ناقصة الى الآن . وكثيراً ماوجدتها سلبية محضة ومتناقضة بعضها مع بعض . فالمستشرق الفلانى يحكم بأن محمداً كان أعلى من أبناء عصره ، والآخر يقول انه كان شبيهاً بهم من كل وجه . وهذا يقول انه توفى على أثر تخمة ، وآخر

يقول انه أصابته حمّى منشؤها كثرة الصوم ، وقال « لامارتين » انه لم يكن الها ولكنه كان أكثر من رجل أىْ كان نبياً . وزعم « سبرنغر » هناك وجود هستيريا شديدة . ولكن « باينسكى » هدم هذه النظرية تماماً . و « ماسينيون » نفسه صرح بأن محمداً كان على تمام الاعتدال فى مزاجه . وأما الاب لامنس وهو وان كان من أحدث المستشرقين العصريين وأكثرهم اطلاعاً فلا ينكر أنه من أشدهم تعصباً .وقد ذهبت بهجة كثير من تحقيقاته بشدة تحامله على الاسلام ونبيّه . وقد استعمل لامنس فى تاريخه للاسلام عين التعنت والطرق الانتقادية التى استعملها كثير من النقاد العصريين للنصرانية . فلامنس اذا مرّ بحديث مطابق لما فى القرآن . يزعم انه انما هو نسخة عن الآية التى فى القرآن ، ومن الغريب أن يكون تطابق شهادتين ، موجباً لتساقطهما بدلا من أن يكون موجباً لزيادة الثقة فيهما ، ولنضرب مثالا على ذلك : يقولون ان الحديث المنسوب للنبى فى فضل العسل انما وضعه المحدثون تأييداً للقرآن الذى فيه كلام على فوائد العسل فنجيب لماذا ياليت شعرى لايجوز أن يكون القرآن قد نوّه بفوائد العسل وأن يكون محمد أيضاً أحب العسل ووجده صحيًّا وأوصى به ؟ وهو فى الحقيقة شراب صحى لاشبهة فيه ومما يجب أن يوصى به . فهل تكون رواية شىء كهذا عن النبى ، مع عدم وجود أى شىء منطقى أو تاريخى أو مختص بالموضوع نفسه يمنع صدوره عنه ، من الروايات التى تتضمن مايوجب الشبهة ؟ اننا لانفهم هذا وان كنا لاننكر الفوائد الكثيرة التى فى كتب لامنس لاسيما كتابه « مهد الاسلام » الذى فيه معلومات كثيرة عن حالة مكة زمان البعثة . فلذلك قد حذفت كل مارأيته غير ثابت من الروايات وكذلك المعجزات التى وُضعت أخبارُها بعد الرسول بقرنين . و بقيت أشياء لم أستطع الجزم بصحتها ولا بعدمها فأشرت الى مافيها من احتمال أحد الامرين » انتهى

قد نقلنا كلام هذا الكاتب الكاثوليكى على علاته ، حتى لا ينسب الينا الاستشهاد باقوال رجل ذى ضلع مع الاسلام ، فها نحن أولاء ننقل عنه ما ذكره فى الصفحة ٥٢ عن النبى ﷺ من أنه كان بعد أن تزوج بخديجة ، قد أصبح معروفاً فى قومه وكان الناس يجلون أوصافه ، ويحمدون سيرته ، ويلقبونه بالأمين أى الصادق الذى يُعتمَد عليه ، وننقل فى صفحة ٥٦ أنه لما اختلفت قريش فى قضية بناء الكعبة وأىّ فخذ منها يجب أن يعهد اليه

بوضع الحجر الاسود فى مكانه وكادوا يقتتلون . اتفق الجيع على أن يعهدوا بذلك الى محمد ابن عبد الله الهاشمى قائلين : هذا هو الأمين . ثم ذكر مبدأ البعثة ولم يقل شيئاً يشم منه أدنى شبهة فى صدق محمد ﷺ . ففى صفحة ٦٢ يقول هكذا : « كان محمد فى حالة بحران فكان ينشد السكون فى تلك الجبال التى كان يذهب فيخلو فيها بنفسه متأملا فى السماء ذات الكواكب منصتاً الى ما كان يسمعه من أعمق أعماق قلبه وهو الرجل الامىّ الفطرى الصادق وذلك الصوت هو صوت الحقيقة الأبدية الخارج من قلب الأشياء نفسها . انه كان يرى تلك الأشياء الجارية فى عصره على غير استقامة وقد كان هو لا يطيق غير الحق والحق الذى لا جدال فيه . وكان لا يقدر أن يعيش الا فى علم الحقيقة وكان يرى أن كل ما حوله من الأحوال لم يكن بحق . فالحياة التى عليها قريش لم تكن حياة صحيحة : متمولون يبعثون بقوافل للتجارة و يربحون أرباحاً فاحشة ، و بوادٍ يشنون الغارات ولا يعرفون الا الفوضى ، وأفّاقون يفعلون كل ما يخطر ببالهم ، وكل هؤلاء لا يحيون حياة صحيحة ، و ينسون أن الأصنام المصفوفة فى الكعبة ليست الا معبودات باطلة وان الهبل ذا اللحية الكبيرة لم يكن الا باطلا » .

ثم قال فى صفحة ٨٠ : « لم يكن محمد ممن لا يعرف العالم الباطنى نعم لم يكن متصوفاً بالمعنى المعروف ، الا أنه كان ممن يرى أن الأمور التى فى الغيب أعظم من الأمور التى تحت الحس وان المشهود أدنى درجة من المحجوب . فالنظام الروحى فى نظره هو الأهمّ وهو الوجود الحقيقى ، فمحمد قد قبض على هذه الحقيقة بيده ونادى الخلق ليتمسكوا بها . جاء بقلب خالٍ من كل كذب ، ومن كل ثقافة باطلة ، ومن كل نفخة فارغة وأمسك بكلتا يديه بالعروة الوثقى ، ولا يمنع هذا من أنه كان عمليّاً تامّ المعرفة بأحوال العالم المادى بل كان ذلك التجرد الروحىّ أعون له على ادارة أمور الدنيا وهكذا كان كبار الروحيين فى العالم يتغلبون على العالم المشهود بالعالم غير المشهود . » اه

فأنت ترى أن هذا الرجل الكاثوليكى لم يتهم محمداً بريبة ، ولا حمل دعايته الى الله على مارب دنيوى ، ولا رماه بشىء من الأكاذيب التى طالما رماه بها كثير من الاوربيين عن بغض وعماية قلب أو جهل ونقص اطلاع . نعم هو غير معتقد بصحة كثير من الأحاديث حتى الوارد منها فى الصحيحين . وهذا مشرب من المشارب الفكرية لا نقدر أن نؤاخذه

عليه لا سيما ان كثيرين من المسلمين ومن ذوى الحمية الاسلامية وممن لا ينقصهم شيء من الايمان والايقان يشاركون المسيو « درمنغهم » فى هذا الرأى ، ولا يجعلون المعجزات شرطاً فى التصديق بنبوة محمد ﷺ الذى معجزته الكبرى القرآن . وكذلك لا يرون من الواجب الدينى الايمان بكل ما جاء فى الصحيحين وغيرهما من الأحاديث لاحتمال أن يكون تطرق اليها التبديل والتغيير أو دخلها الزيادة والنقصان ، اذ من المعلوم أنهم كانوا يروون الأحاديث بالمعنى . واذا روى الحديث بالمعنى لم يخلُ الأمر من أن تتطرق اليه زيادات كثيرة قد يتغيّر بها المعنى أو يبعد عن أصله . واذا قلنا انّ رجال الحديث الذى يروى عنهم البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، كانوا ممن يوثق بروايتهم وممن لا يخالج الناس الشك فى صدقهم وان المحدثين غربلوا الأحاديث كلها وبيّنوا منهـا ما رأوه ضعيفاً ، وقوّوا ما رأوا أسانيده مستوفية لشروط الصحة ، وعوّلوا على هـذا الضرب من الحديث ، وجاء الفقهاء فأخذوا منه الشريعة ، وجعلوه مرجعاً للاجتهاد ، وانهم كانوا أبصر بأحاديث الرسول من أن يبنوا على غير أساس متين . فالجواب على ذلك أنه ليس كلام هذه الفئة هو اطلاق القول على جميع الأحاديث ولا مقصدهم الاشتباه فيها بأسرها بل هناك أحاديث متواترة يستحيل التواطؤ على وضعها وأحاديث مشهورة وصلت من توثيق الرواة وتصحيح العلماء وقيام الأدلة والقرائن من الأحاديث الأخرى والأحوال الجارية يومئذٍ على صحة وقوعها الى حـد أن أصبحت كالحقائق الرياضية مما لا خلاف فيه . ولكن الأدلة التى تستظهر بها هذه الفئة على وجوب عدم القطع بأكثر الأحاديث ولزوم التوقف فى كثير مما يسارع الناس فيه ، هى ما يلى :

أولا — عدم امكان رواية الأحاديث الا النادر الأندر بدون زيادة أو نقصان مما يعرفه كل انسان من نفسه وذلك أنه ان أراد أن يعيد كلاماً سمعه ولو بعد سماعه اياه بساعةٍ من الزمن تعذر عليه سرده بحرفه .

ثانياً — كونهم يقولون ان ما لا يكاد يحصى من الأحاديث مروى بالمعنى . فيتغير فيـه كثير من اللفظ .

ثالثاً — جواز السهو والنسيان ممـا لا يخلو منه انسان ولا يمكن الجدال فيه أصلاً .

رابعاً — كون النبى ﷺ نفسه أشار الى وضع الأحاديث عليه فى أيامه وانه من أوثق

الأحاديث قوله : لقد كثرت على الكذابة ، فمن كذب على فليتبوأ مقعده من النار .

خامساً — مما رواه عبدالله بن الزبير عن أبيه قال : قلت للزبير مالك لاتحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان قال : اما انى لم أفارقه منذ أسلمت ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : من كذب على فليتبوأ مقعده من النار . والقرينة قائمة على صحة رواية عبد الله بن الزبير هذه لأن الزبير كان من أكابر الصحابة ومن العشرة ولم يحدث . وعن السائب بن يزيد أنه صحب سعد بن أبي وقاص من المدينة الى مكة قال : فما سمعته يحدث عن النبي ﷺ حديثاً حتى رجع . وجاء فى الطبقات الكبرى لابن سعد : أنهم دخلوا على سعد بن أبي وقاص فسُئل عن شيء فاستعجم فقال : انى أخاف أن أحدثكم واحداً فتزيدوا عليه المائة . وسعد أيضاً من العشرة ومن أكابر الصحابة ولم يحدث . فالقرينة اذاً تؤيد هذه الرواية عنه . وروى عمرو بن ميمون قال : اختلفت الى عبد الله بن مسعود سنةً ما سمعته يحدث فيها عن رسول الله ﷺ ولا يقول فيها : قال رسول الله ﷺ . الا أنه حدث ذات يوم بحديث فجرى على لسانه : قال رسول الله ﷺ فعلاه الكرب حتى رأيت العرق يتحدر عن جبهته ثم قال : ان شاء الله اما فوق ذاك واما قريب من ذاك واما دون ذاك . وعن علقمة بن قيس : أن عبد الله بن مسعود كان يقوم قائماً كل عشية خميس فما سمعته فى عشية منها يقول : قال رسول الله غير مرة واحدة قال : فنظرت اليه وهو معتمد على عصا فنظرت الى العصا تزعزع . وجاء فى طبقات ابن سعد رواية عن مسروق : أنه حدث يوماً حديثاً فقال سمعت رسول الله ﷺ ثم أرعد وأرعدت ثيابه ثم قال : أو نحو ذا أو شبه ذا . قلت وكل هذا ناشئ عما يعلمونه من كثرة تطرق التغيير الى الأحاديث وعن تورعهم عن الزيادة فيها أو النقصان منها مهما كان الزائد أو الناقص قليلا .

سادساً — جاء فى طبقات ابن سعد عن معمر عن الزهرى : أراد عمر أن يكتب السنن فاستخار الله شهراً ثم أصبح وقد عزم له فقال : ذكرت قوماً كتبوا كتاباً فأقبلوا عليه وتركوا كتاب الله . وورد فى الطبقات خبر آخر : سُئل عمر عن شيء فقال : لولا أنى أكره أن أزيد فى الحديث أو أنقص منه لحدثتكم به .

***

وروى الامام السيوطى فى تاريخ الخلفاء نقلاً عن الامام النووى أن كل مارواه أبو بكر

الصديق عن رسول الله ﷺ من الأحاديث مائة حديث واثنان وأربعون حديثا . قال وقد روى عن أبي بكر أكابر الصحابة عمر وعثمان وعلى وابن عوف وابن مسعود وحذيفة وابن عمر وابن الزبير وابن عمرو وابن عباس وأنس وزيد بن ثابت والبراء بن عازب وأبو هريرة وعقبة بن الحارث وعبد الرحمن ابنه وزيد بن أرقم وعبد الله بن مغفل وعقبة ابن عامر الجهنى وعمران بن حصين وأبو برزة الأسلمى وأبو سعيد الخدرى وأبو موسى الأشعرى الخ

قلت وهو شيخ أصحاب رسول الله وأكثرهم له ملازمة وليس فيهم من يفوته فى الثقة والأمانة وكان رضى الله عنه نسابة عصره وأخبر الناس بأمور القبائل وكل هذا يقتضى قوة الحفظ . فان كان الصديق لم يحدث كثيراً فلا شك فى أن ذلك لم يكن الا من خوفه من الزيادة والنقصان . ثم نقل السيوطى فى تاريخ الخلفاء الأحاديث المائة والاثنين والأربعين التى رواها أبو بكر بعينها .

***

وقال ابن خلدون فى المقدمة ان الأئمة المجتهدين تفاوتوا فى الاكثار والاقلال من الحديث فأبو حنيفة رضى الله تعالى عنه يقال بلغت روايته الى سبعة عشر حديثاً أو نحوها ومالك رحمه الله انما صح عنده مافى الموطأ وغايتها ثلاثمائة حديث أو نحوها وأحمد بن حنبل رحمه الله فى مسنده خمسون ألف حديث ولكل ماأداه اليه اجتهاده فى ذلك . قال : وقد تقوّل بعض المبغضين المتعسفين أن منهم كان قليل البضاعة فى الحديث فلهذا قلّت روايته . قال : ولا سبيل الى هذا المعتقد فى كبار الأئمة لأن الشريعة انما تؤخذ من الكتاب والسنة ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته والجد والتشمير فى ذلك ليأخذ الدين عن أصول صحيحة ويتلقى الأحكام عن صاحبها المبلّغ لها وانما قلل منهم من قلل الرواية لأجل المطاعن التى تعترضه فيها والعلل التى تعرض فى طرقها سيما والجرح مقدم فى الأكثر فيؤديه الاجتهاد الى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الأسانيد ويكثر ذلك فتقلّ روايته (الى أن قال) : والامام أبو حنيفة انما قلّت روايته لما شدد فى شروط الرواية والتحمل وضعف رواية الحديث اليقينىّ اذا عارضها الفعل النفسى وقلّت من أجلها روايته فقل حديثه لا أنه ترك رواية الحديث متعمداً فحاشاه من ذلك ويدل على أنه

من كبار المجتهدين فى علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره رداً وقبولاً . اهـ

***

و بعض الجهلاء أو المتعنتين من غير الجهلاء يعيبون على علماء الاسلام كثرة الاعتناء بأسانيد حديث الرسول وغيره ، والاستقصاء فى العنعنة والعزو الى فلان عن فلان والمبالغة فى البحث عن رجال الحديث الذين وصل الى الناس من طرقهم وغير ذلك مما يمل منه القارئ بزعمهم وكان بعضه يجزى عن كله . وهذا القول مردود بتمامه لما فى الحديث من الأهمية من حيث انه منسوب الى النبي ﷺ أو الى أصحابه الكرام ، ومن حيث انه هو مناط التشريع والمرجع بعد القرآن فى الأحكام ، ومعرفة الحلال من الحرام ، فهما بالغ العلماء فى التحرّى للوصول الى الحقيقة من جهة صحة صدور الحديث عن صاحب الرسالة عليه السلام فلا يكون كثيراً . بل قد رأينا أن العلماء قالوا فى الحديث انه « علم انطبخ ، حتى احترق » وانه لم يشتغل طلبة العلم فى الاسلام بشيء أكثر من اشتغالهم بالحديث وان التحرى واستيفاء شروط الثقة قد بلغا فيه الدرجة التى ليس وراءها مطمع لمزيد ، ولا يزال مع ذلك الشك يحوم حول أحاديث كثيرة واردة فى الصحاح . وهذا الشك ليس من جهة عدم الأمانة فى النقل . وقد احتاط لها أصحاب هذه الكتب لا سيما البخارى ومسلم ، بما ينفى كل شبهة ، وانما من جهة عدم استطاعة البشر الا ما ندر من رواية كل يسمعونه بحرفه أو من وصف كل حادثة كانوا فيها كما وقعت بلا زيادة ولا نقصان . وقد يكون اثنان فى حادثة من الحوادث و يرويها كل واحد منهما بشكل يختلف قليلاً أو كثيراً عن الآخر .

ولما كان التحرى معروفاً أيضاً عند الاوربيين ، وكانوا مولعين بما يسمونه « التمحيص » critique وكانوا يذهبون من هذا التمحيص كل مذهب حتى فى المسائل التى لا تتعلق بها عقائد ولا أحكام ولا معرفة حلال ولا حرام كان من العجب أن يعترض المعترضون وأكثرهم من المتفرنجة على مبالغة المسلمين فى نخل الأحاديث .

ولقد اطلعنا منذ سنتين على مبحث لعالم أوربى فى جريدة « جورنال دوجنيف » يذكر فيه كتاباً اسمه « شهود » Témoins من تأليف عالم افرنسى اسمه المسيو « جان نورتون كرو » Jean Norton Cru ألفه على وقائع الحرب العامة وتحرى فيه الى أقصى درجات التحرى

وانتهى بعد التنقيب الطويل الى تقسيم الروايات الى ما قسمها علماء المسلمين من ثابت وحسن وضعيف وساقط وكان تأليف هذا الرجل نتيجة نخله ثلاثمائة مجلد لمائتين وخمسين مؤلفاً من أمم وطبقات مختلفة . وفى هذه المؤلفات جرائد وكتب تذكارية وكتب ملاحظات ورسائل وأقاصيص وكلها من أقلام أناس شهدوا بالعيان من جنود وضباط وقواد

فالمسيو « كرو » لم يحكم على هذه التآليف بمجرد الاطلاع عليها بل راجع تراجم أصحابها وسيرهم الشخصية واجتهد أن يعرف مقدار مدة اقامتهم بساحة الحرب وأن يعلم صفتهم المدنية أو العسكرية . وهذا فيه شبه من علم الرجال الذى هو من العلوم اللازمة للحديث فى الاسلام . ثم لم يقتصر على هذا بل قارن بين الروايات وتحرّى فى معرفة المواقع ليرى هل تنطبق عليها أم لا ؟ وما درجة انطباقها ؟ وهل هذه المقارنات والمعارضات بكل مافيها من التدقيق تنتهى الى القول بنفى الحوادث المستثناة التى جاءت على خلاف القاعدة . وعد كل مالم ينخل بهذا المنخل غير واقع ؟ فالجواب على ذلك ان هذا أيضاً محل للسؤال

ولقد عنى المسيو « كرو » فى مقدمة كتابه بنفى الأخبار الواهية والتصورات الباطلة التى انتشرت عن حوادث كثيرة من الحرب

و بعد ان نخل جميع الروايات نخلاً دقيقاً استخلص قواعد مقررة طبّقها على الحوادث تطبيقاً جازماً — أشبه بالشروط التى يضعها رجال الحديث للحديث فاذا استكملت فيه جزموا بصحته — وكانت خلاصة تدقيقاته أن قسم المائتين والخمسين مؤلفاً الى ست درجات . فالدرجة السادسة هى التى ليست لها أدنى قيمة تاريخية — أشبه بدرجة الحديث الموضوع — والدرجة الخامسة هى التى لها قيمة ضئيلة جداً — أشبه بالحديث الواهى المتناهى فى اللين والدرجة الرابعة هى الضعيفة . ومن هذه الدرجة أكثر الواصفين لحوادث الحرب وهم نحو ٢٦ فى المائة من اولئك الذين غربل المسيو كرو كتاباتهم . أما الدرجة الثالثة فهى التى يقال انها حسنة — كالحديث الحسن — وأما الدرجة الثانية فهى التى تضاهى درجة الصحيح فى علم الحديث . وأما الدرجة الأولى فهى التى تقابل الحديث المشهور . والثانية منها ١٩ فى المائة والأولى ١٢ فى المائة . وهو يعبر بالافرنسية عن الدرجة السادسة بقوله aucune valeur ducumentaire وعن الدرجة الخامسة Trés faible وعن الدرجة الرابعة Médiocre وعن الدرجة الثالثة Assez bon وعن الدرجة الثانية bon وعن الدرجة الأولى excellent

ولا يوجد مانع من أن يكون اطلع « كرو » على تقسيم المسلمين للحديث فنسج على منوالهم وان كان هو لم يذكر ذلك .

قال« كرو » ان رواج الكتاب وشهرته وبراعة كتابته لامدخل لها فى درجة صحته . ولهذا عنده كتاب مشاهير كتبوا عن الحرب مثل « رينه بنيامين » فى الدرجة السادسة لانه ليس المقصود هو سحر البيان بل صحة الرواية . وقد وضع « باربوس »و «دوهاميل» و «دورجليس» فى الدرجة الرابعة . و بعكس ذلك عنده من الدرجة الأولى ٢٩ مؤلفاً أسماؤهم مجهولة عند الجمهور بل مجهولة عند المتخصصين . وكلام كرو هذا صحيح لا غبار عليه

قال صاحب مقالة « جورنال دو جنيف » على هذا الكتاب : انه وان كان المسيو كرو قد استخلص من تدقيقاته وجوب الحذر ومزيد التثبُّت فى نقل الأخبار فقد دلنا على الطريقة الوحيدة الموثوق بها فى الأخبار

قلت : وهذه الطريقة هى الطريقة الاسلامية ليس فى أحاديث الرسول والصحابة فقط بل فى جميع أحاديثهم ، وأخبارهم ، وتواريخهم وانما أتقنها المسلمون الى حد أن أصبح الناس يملونها مللهم من العمليات الحسابيــة ولم يبلغ منها الافرنج شيئاً من درجة الاتقان التى عند المسلمين فيها .

وربما كان تأليف المسيو كرو هذا فذًّا فى بابه .

فمن هذا لايكون عجباً أن لايتلقّى رجلٌ أجنبيٌ عن الاسلام جميع ماورد فى الصحاح بالقبول . ولنعد الى سيرة الرسول عليه السلام حسبما وصفها هذا المفكر المسيحى الذى مذهبه التقريب بين الاسلام والنصرانية ، واثبات مابينهما من الصلات الكثيرة . وهو مذهب حسن ومشرب محمود ، وان كان هو فيــه يركب بعض الأوقات مركباً صعباً . قال فى صفحة ٦٥ ماملخصه : ـــ

«فى نواحى سنة ٦١٠ للمسيح بلغ البحران النفسى بمحمد أشدّه ، فكان لايقدر أن يتصور بدون أن يتألم حالة قومه وكان يرى ان أمراً ضرورياً جداً ينقصه وينقص قومه . وكان يرى العرب كل قبيلةٍ منهم عاكفة على صنمها وكانوا يقولون بالجن ، والاشباح ، والغيلان ، ولكنهم يتعامون عن الحقيقة الواحدة وهى الحقيقة الالهية . ربما لم يكونوا ينكرون هذه الحقيقة ولكنهم كانوا فى غفلة عنها ، وكانت هذه الغفلة هى الموت الروحى.

فكان قلب محمد قد خلا من كل فكر غير الفكر فى الله . وكان قد تجرد من كل قوة غير هذه القوة . وكان قد نفض جميع الكائنات التى ليست فى نظره بظل للواجب الوجود الأحد الصمد . وكان هو قد عرف الله وعرف العقيدة بالله عند نصارى سورية أو مكة ، وعرف ان هناك كتباً سماوية وأن رسلاً موحىً اليهم كانوا يكلّمون أقوامهم بلسان الحق تعالى ، وانه كلما ضل الناس عن الصراط المستقيم كانت تأتى رسل فتهيب بهم اليه وتذكرهم بالحقيقة السرمدية . فالديانة التى كان يبعث الله بها الرسل لم تزل واحدة وانما كان البشر يحرفونها عن مواضعها فيعود المرسلون ويردّونها الى أصلها . فالأمة العربية كانت لذلك العهدِ فى ابّان ضلالها أفلم يكن هذا هو الوقت الذى حانت فيه رحمة البارى تعالى أن تتدارك هذه الأمة ؟

وأحبّ محمد فى تلك الفترة العزلة ، فكان يشعر فى خلوته بجبل حراء بسرور عميق يتزايد يوماً فيوماً ، فكان يقضى هناك الأسابيع وليس معه الا قليل من الغذاء لأن نفسه كانت تلتذ بالصوم والتهجّد ، وترتاح الى التأمل والتبحر ، وأصبح سواءً عنده الليل والنهار والحلم واليقظة . وكان يقضى ساعاتٍ طوالاً جاثياً على رُكَبهِ فى جوف الليل أو مضطجعا فى عين الشمس ، وأحياناً يمشى فى شعاب تلك الجبال وبينما كان يسير كان يسمع أصواتاً خارجة من تلك الصخور وكانت تلك الصخور تناديه « يارسول الله »

وعندما كان يعود الى بيته كانت خديجة تغتمّ لما تراه عليه من حالة الاضطراب والصمت . وكان يغيب أحياناً عن حسّه ويصيبه سكات وينقطع نفَسهُ ولا يزال حتى يأخذه الوسن فيهجع ثم يعود وقد تصاعدت أنفاسه فيرى فيما يرى النائم شخصاً ملأ الأفق فوق رأسه ، ودنا منه وفتح له ذراعيه يريد أن يمسكه فيستيقظ محمد مذعوراً والعرق يتصبب منه . فتأخذ خديجة بمسح جبينهِ وتسأله عن حاله بصوت هادئ لئلاّ تذعره فلا يجيبها أو يجيبها بكلمات لا تفهمها

وبقى نحوا من ستة أشهر على هذه الحالة الى أن ضنى جسمه ، وصار يتخلّج فى مشيه ، وانتشر شعره ، وتغير نظرهُ ومنظره ، فاستولى عليه الجزع . وخشى أن يكون أصابه مسّ ، وصارت تجرى على لسانه كلمات بدون اختيار كان يخشى أن تكون من الشعر الذى يوسوس به الجن وكان هو بفطرتهِ يكره الشعراء الذين فى كل واد يهيمون

ويقولون مالا يفعلون. وأخيراً قال لخديجة : انى أخاف أن يكون بى مسّ، وقد صرت لا أقدر أن أحمل هذا العبء، وانى أرى نفسى كأنّ بى لمماً ومن كان يظن انى سأصبح شاعراً أو يستولى علىّ الجن . لا تقولى هذا لأحد أصلاً .

وكانت خديجة تنتظر هـذه النجوى بأمل وبوجل . وما كانت تقدر أن تطمئن قلبه وهى نفسها فى قلق عليه . ولـكن هـذه المرأة كانت كأنها قد خُلقت لتؤيده ، ولتُسرّى عنه من همومه ، وكانت فيها متانة الحلائل الفاضلات والأمهات الملأى بالحنان ، فقد كان هذا الرجل أفتى منها سناً فعطفت عليه بكل مافى قلبها من الحبّ والرحمة ، وازداد حنوّها عليه لأنها رأته بهذه الحالة من الضعف والهزال، بعد أن كان ذلك الرجل القوى وذلك الزوج الحبيب . فـكيف يمكنها أن تتأخر عن تثبيت فؤاده بكل مايمكنها فقالت له :

يا أبا القاسم ! ألست أنت الأمين كما سماك الناس؟ ألست بالرجل الصادق المخلص المعتمد عليه . انك أنت الذى لم تغشّ أحداً فلا يمكن ان الله يتخلى عنك . أفلم تكن أنت الرجل الصالح الصابر البرّ الـكريم . أفلم تكن رءوفاً بأهلك ؟ أفلم تطعم المسكين؟ وتكس العريان وتُعن ابن السبيل وتحم الضعيف ؟ انه لن يدعك الله عرضة لوساوس الشياطين الـكاذبين ولا للجن اللاعبين . فقال لها : اذن من هذا المخلوق الذى جاءنى ولا يزال يظهر لى ، من ذا الذى لا يقول لى اسمه ولا أقدر أن أتوارى منه ؟

و بينما كان يقول لها هذه الـكلمات اشتد به البحران وارتجف ، وعلت وجهه الحمرة ، ثم عقبتها الصفرة وسمع بآذانه دويا واتّسعت أحداقهُ وقال : هذا هو قد جاء

وكان حينئذ مُستيقظاً ولم يكن نائما ليقال ان ذلك حلم من الأحلام . فجاءت خديجة وغطته بكسائها وضمته اليها وسألته أفلا تزال ترى ؟ فقال لها : لم أعُد أرى

اذن هو ليس هـذا من الجن الخبثاء ولا من الشـياطين . أفلا تراه احتشم طهارة النساء وذهب . اذن ليس الا ملـكا من ملائـكة الله

ثم جاء شهرُ رمضان وتـكامل الهلال وتألق ثم أخـذ يتراجع . ففى احدى الليالى بينما كان محمد نائماً فى أحد كهوف حراء ، عاد فتجلى عليه ذلك الشبح وفى يده قطعة من الحرير عليها كتابة ، وقال له ذلك الشخص : اقرأ . فاجابه : لست بقارئ فالقى الشبح نفسه عليه ووضع له قطعة الحرير حول عنقه ثم أعاد عليه القول : اقرأ . فأجابه لست بقارئ ، فأعادها

عليه ثالثة اقرأ : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ »

فردد محمد هذه الكلمات وأحس بالنور قد أشرق على قلبه ورأى قطعة الحرير المغطاة بالاشارات أمام عينيه ، وبرغم أنه كان أمياً رأى نفسه يفهم تلك الكتابة وقذف فى روعه مجموع كتاب ملآن بالأسرار الالهية . وكان هذا الملك قد ثبّت كل ما كان يجول فى أفكاره منذ أشهر فالله تعالى قد خلق الانسان وأوحى اليه حقائق تجتاز مسافة عقله الطبيعى . لذلك الله قد علم الانسان بالقلم وعلمه مالم يعلم . هذا هو سرّ الوحى وهذا هو سرّ الكلمة المكتوبة الذى كان شديد التأثير فى الرجل الأمىّ ، لا سيما وقد كانت الكلمة المكتوبة وحياً الاهياً اذ ان العرب سيكون لهم بعد اليهود والنصارى كتاب مقدس يقرأونه ، ترتيلاً وشريعة الاهية تهديهم الى طريق النجاح

ثم ذهب ذلك الشبح الذى تجلى على محمد فاستيقظ وهو موقن بان كتابا قد كُتب فى قلبه فخرج من الغار يجرى بين الشعاب ، ووصل الى ذروة الجبل فسمع صوتاً من السماء يقول له : « أنت رسول الله » فرفع محمد عينيه فاذا الملك فى الأفق بصورة بشريّة وهو يتلألأ نوراً فحوّل وجهه فبقى يرى المنظر نفسه وكان كيف توجه يرى الملك أمامه ماثلاً متلألئاً الى حد أنه أصبح يرى المَلاك أمامه دائماً ينظر اليه ويحدّق فيه ببصره . فوقع الرعب فى قلب محمد وجثا على الأرض ووضع يديه على رأسه وغاب عن حواسه . وكانت خديجة قد استبطأت رجوع زوجها الذى كان ذهب وما معه الا زاد قليل فأرسلت فى أثره أحد عبيدها فبحث فى الجبل ونادى هنا وهناك ولم يجد أحداً وعاد فأخبرها فازدادت قلقاً . و بينما هى على تلك الحالة اذ دخل محمّد وعلى وجهه علامة الاعياء ، ونظره غريب وأثوابه متشعثة ، وبدون أن يتكلم بكلمة واحدة رمى نفسه فى حجر خديجة واضطجع على ركبتيها أشبه بالولد الذى يمسّه الجهد فسألته خديجة : أين كنت يا أبا القاسم فقد أرسلت فى أثرك ووصلوا الى الجبل فلم يجدوك . فأخبرها بكل ماوقع معه وأفضى اليها برعبه واضطرابه وشكوكه . فقالت له : قسماً بمن نفسُ خديجة بيده انى لأرجو ان تكون أنت رسول الله . فالله لا يسمح بان تكون أنت على ضلال . أفلم تكن برّاً وفياً صادقاً تقيّاً واصلا للرحم ، مؤئلا للضعفاء ، محسِنا للفقراء ، قارياً للضيوف ؟ كلا ان الله لن يخذلك . فأصابت محمداً رعدة وعاوده

الرعب . وقال لها : بادِرِى بتغطيتى وكرّر عليها القول فألقت عليه كِساء من الصوف غطّى جميع جسمه . وما زالت بجانبه الى أن أخذه النوم . فعند ذلك ذهبت خديجة الى ابن عمها وَرَقة ، وكان يعرف كتُب اليهود والنصارى و يعلم الحكمة و يمكنه أن يُزيل من حيرتها . وكانت خديجة تحب بعلها حباً جمّاً وتؤمن به : ولكنها شاهدت هذه المرة شيئاً عجباً حيَّر عقلها. فلما أخبرت ورقة هتف قائلاً : ان كان ما قلتِه صدقاً فحمد سيكون نبىّ هذه الأمة . وهو لا شك الرسول المنتظر ، وان الملك الذى تجلى عليه هو الناموس الأكبر ، وهو الذى كان يبعثه الله الى موسى وهو الذى بواسطته يوحى الله الى الأنبياء . ثم قال ورقة لخديجة : ثم ماذا قال الملك لمحمد ؟ أأمَرَه بان يبلغ دعوته ، أأشار اليه بتبليغ رسالة مبيَّنة ؟ أألقى اليه أن يدعوا الناس الى الله ؟ فانى أود أن أعرف ذلك حتى أكون أول من آمن بمحمد . اذهبِى الى زوجكِ وسكّنى فؤاده وأزيلى مخاوفه

فرجعت خديجة الى بيتها فرأت محمداً لايزال هاجعا فتركتْه على حاله واذا به يرتجف عودا على بدء والعَرَق يتصبب منه ثم جلس وهو يضطرب ، وكان الملك قد جاءه ثانية فقال له : قمْ . فقال محمد : قمت فأصنع ماذا ؟ قال الملك : « يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » .

فقالت له خديجة لماذا لاتضطجع وتستريح ؟ فقال لها محمد : قد ذهب النوم وذهبت الراحة وقد عاد الملك وهو يأمرنى أن أدعو البشر الى الله وأن أعبده . فمن أدعو ياترى ومن يؤمن بى ؟ ثم حنى رأسه حزينا وسكت . فقالت له خديجة : ان لم يؤمن بك أحد آمنت بك وحدى

وبعد ذلك بمدة ذهب محمد الى الكعبة فصادف ورقة يطوف فسأله ورقة عما جرى معه فأخبره بالقصة كلّها فما أتمها حتى هتف ورقة قائلا : « والذى نفسى بيده أنت رسول هذه الامة وما جاءك الا الناموس الذى جاء من قبل الى موسى ، اننى سأكون معك وآخذ بيدك فيما سيحل بك من النوائب وسأنصرك على قومك »

فقال له محمد: وماذا تريد أن تقول بهذا ؟ فقال له ورقة : نعم لم يأت أحد بما أتيتَ به الا عُودى ، فسيقاتلونك قتالاً شديداً ، وسيغرّبونك ، وسيقولون انك مجنون وانك

كذاب . آه لو كنت فى ذلك الوقت شابا أو لو كنت أحيا الى ذلك الحين ! ثم أخذ برأس محمد وقبّله وسكّن من رَوْعه .

وكان محمد محتاجاً الى جمع قواه ، وكان يجاهد نفسه قبل أن يحتاج الى مجاهدة الناس . وكان الوحى قد انقطع ولم تتجدّد معه تلك الرؤية التى رآها فوقع فى حيرة عظيمة ، وصار يحدث نفسه : أفتراني كنتُ فى حلم ! وثقلت عليه هـذه الحالة جداً فرجع الى جبل حراء يريد أن يعلم هل تعاوده تلك الرؤية التى رآها قبلاً أم لا ! واشتد عليه الأمر جداً وصار يرى نفسه خلاء بعد أن كانت ملاء . فأخذ يهيم فى الجبال وجعلت تتقاذفهُ أمواج الريب وهو لا يرى منفذاً مما كان فيه الى أن تمنى الموت . ولـكن بينما هو فى أقصى درجات الشدة يكاد يقذف بنفسه فى مهاوى الجبل ، اذ سمع صوتاً يقول له : أنت رسول الله حقاً ، فالتفت فاذا بالملك يمسكه أن يقع وقد تكرر عليه هذا الصوت مراراً فعاد الى بيته فأخبر خديجة بما رآه وسمعه . فأخـذت خديجة تثبت فؤاده . ثم بعـد ذلك بمدّة جاءه الملك فتلا عليه « وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ »

فما كان أعظم تلك البشرى لتلك النفس التى لم تـكن تستطيع أن تعيش الا فى اليقين . فلم تـكن حلاوة تلك التعزّية بما نزل عليه من لطف الوحى هى المؤثـّر الأكبر فيه وانما كان زوال الحيرة وتحقق المصير . لقد أمر بأن يحدث بالنعمة فهو سيحدّث بها . ولقد أوحى اليـه الملك الصلاة والعبادة وأفهمه أن الانسان لأجل أن يصلى لله تعالى يجب أن يكون طاهراً الخ

***

وأكمل « درمنغهم » قصة مبدأ الاسلام على الوجه الذى يعلم منه القارئ أنه لم يشك فى أن محمـداً كان صادقاً وانه لم يخالجه عارض من شك فى آخر الأمر بنزول الملك عليه والوحى اليه .

ولنقابل ماقاله بروايات أصحاب السير ، فنجد ابن سعد فى الطبقات الـكبرى يذكر أنه نزل الملك على رسول الله عليه السلام بحراء يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان

ورسول الله يومئذٍ ابن أربعين سنة . وكان أول ما بدئ به رسول الله من الوحى الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح . فمكث على ذلك ما شاء الله وحبّب اليه الخلوة فلم يكن شيء أحب اليه منها . وكان يخلو بغار حراء يتحنَّث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن يرجع الى أهله ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق وهو فى غار حراء . وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان باجياد اذ رأى ملكا واضعاً احدى رجليه على الأخرى فى أفق السماء يصيح يامحمد أنا جبريل يامحمد أنا جبريل . فذعر رسول الله من ذلك وجعل يراه كلما رفع رأسه الى السماء ، فرجع الى خديجة فأخبرها خبره وقال : ياخديجة والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيء قط ولا الكهّان ، وانى لأخشى أن أكون كاهناً . قالت : كلا يا ابن عمٍّ لا تقل ذلك فان الله لا يفعل ذلك بك أبداً انك تصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدى الأمانة وان خلقك لكريم . ثم انطلقت الى ورقة بن نوفل وهى أول مرةٍ أتته فأخبرته ما أخبرها به رسول الله ﷺ فقال ورقة : والله ان ابن عمك لصادق وان هذا لبدء نبوة وانه ليأتيه الناموس الأكبر فمُريه أن لا يجعل فى نفسه الا خيراً . وقالوا ان رسول الله قال : ياخديجة انى أرى ضوءاً وأسمع صوتاً لقد خشيت أن أكون كاهناً . فقالت : ان الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله انك تصدق الحديث وتؤدى الأمانة وتصل الرحم . وبسند آخر عن ابن عباس : ياخديجة انى أسمع صوتاً وأرى ضوءاً وانى أخشى أن يكون فىَّ جنُنٌ . فقالت : لم يكن الله ليفعل بك ذلك يا ابن عبد الله . ثم أتت ورقة بن نوفل فذكرت له ذلك فقال : ان يك صادقاً فهذا ناموس مثل ناموس موسى . فان يبعث وأنا حى فسأعزّزه وأنصره وأومن به .

وقالوا ان أول ما أنزل على النبى عليه السلام : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِى خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ » . قالوا : وانه لما نزل عليه الوحى بحراء مكث أياماً لايرى جبريل فحزن حزناً شديداً حتى كان يغدو الى ثبير مرة والى حراء أخرى ، يريد أن يلقى نفسه منه ، فبينا رسول الله كذلك عامداً لبعض تلك الجبال اذ سمع صوتاً من السماء فوقف صَعِقاً للصوت ، ثم رفع رأسه فاذا جبريل على كرسى بين السماء والأرض متربعاً عليه يقول : يامحمد أنت رسول الله حقاً وأنا جبريل . فانصرف رسول الله وقد أقرّ الله عينه وربط جاشه ثم تتابع الوحى وحمِى . وقالوا انه سمع :

يامحمد لتَنَمْ عينك ولتسمع أذنك وليَعِ قلبك . قال النبي ﷺ : فنامت عيني ووعى قلبي وسمعت أذني . وكان النبي اذا نزل عليه الوحي كرب له وتربد وجهه . وقيل : كان اذا أوحي اليه وُقذ لذلك ساعةً كهيئة السكران وروى عن رسول الله ﷺ : كان الوحي يأتيني على نحوين يأتيني به جبريل فيلقيه عليّ كما يُلقي الرجل على الرجل فذلك يتفلّت مني ويأتيني في شيء مثل صوت الجرس حتى يخالط قلبي فذاك الذي لا يتفلّت مني . وسأله الحارث ابن هشام : يارسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليّ فيفصم عني وقد وعيت ماقال وأحياناً يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما يقول . قالت عائشة : لقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصّد عرقاً . وقال ابن الأثير : قالت عائشة رضي الله عنها كان أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة كانت تجيء مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء فكان بغار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ثم يرجع الى أهله فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق فآتاه جبريل فقال : يامحمد أنت رسول الله فقال رسول الله ﷺ : فجثوت لركبتي ثم رجعت ترجف بوادري فدخلت على خديجة فقلت : زملوني زملوني . ثم ذهب عني الروع . ثم أتاني فقال : يامحمد أنت رسول الله فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق فتبدّى لي حين هممت بذلك فقال : يامحمد أنا جبريل وأنت رسول الله . قال : اقرأ . قلت : وما أقرأ . قال : فأخذني فغتّني (١) ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد ثم قال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . فقرأت فأتيت خديجة فقلت : لقد أشفقت على نفسي وأخبرتها خبري فقالت : أبشر فو الله لا يخزيك الله أبداً فوالله انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت بي الى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان قد تنصّر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والانجيل فقالت : اسمع من ابن أخيك . فسألني فأخبرته خبري فقال : هذا الناموس الذي أنزل على موسى ابن عمران ليتني كنت حياً حين يخرجك قومك قلت : أمخرجيّ هم ؟ قال : نعم انه لم يجيء أحد بمثل ما جئت به الاعودي ولئن أدركني يومك لأنصرنّك نصراً مؤزّراً . ثم ان أول ما نزل عليه من القرآن بعد اقرأ ، ن والقلم وما يسطرون ، ويا أيها المدّثر ، والضحى . وقالت خديجة لرسول الله فيما أكرمه الله به من نبوته : يا ابن عم أتستطيع أن تخبرني

(١) غته ضمه شديداً حتى يكاد يخنقه

بصاحبك هذا الذى يأتيك اذا جاءك ؟ قال : نعم . فجاءه جبريل فأعلمها . فقالت : قم فاجلس على فخذى اليسرى فقام ﷺ فجلس عليها فقالت : هل تراه ؟ قال : نعم . قالت : فتحوّل فاقعد على فخذى اليمنى . فجلس عليها فقالت : هل تراه ؟ قال : نعم . فتحسرت فألقت خمارها ورسول الله ﷺ فى حجرها . قالت : هل تراه ؟ قال : لا . قالت : يا ابن عم اثبت وأبشر فوالله انه ملك وما هو بشيطان اه

ليتأمل القارئ فى شهادة خديجة لرسول الله بصدق الحديث وتأدية الامانة وسائر مكارم الأخلاق وتواتر ذلك عنها وهى أعلم الناس به وأقربهم اليه وطالما اعترف مؤرخوا الافرنج المنصفون بأن هذا من أوضح الدلائل على صدق محمد وأمانته .

***

ثم نعود الى كلام « درمنغهم » فهو يقول ان محمداً لم يعتمد فى نبوّته على المعجزات وكانوا يقولون له : ان كنت نبياً فاعمل لنا من خوارق العادات ما هو كذا وكذا ، فكان يجيبهم ان رسلا كثيرين جاءوا بالمعجزات وكذبهم البشر ، وأنامهما جئتكم بالمعجزات فلن تؤمنوا مادامت قلوبكم قاسية ، وما معجزتى الا القرآن الذى هو موحى الى رجلٍ أمّى وما تقدر الانس ولا الجن أن تأتى بمثله .

ثم هاجم محمد الأصنام التى كان يعبدها العرب كالهبل، ومناة ، واللات والعزّى ، وهزأ بها وبمن يعتقد بها وبصنم العجين التى كانت تعبده بنو حنيفة وتأكله اذا جاعت، وبالأنصاب والأزلام ، ونهى عنها وعن الفسق والفجور والقسوة والطمع والربا وأحدث انقلابا فى المجتمع الجاهلى الى آخر ما ذكره عن مبادئ الاسلام .

وانا لذاكرون بعض ما جاء به هذا الكاتب المسيحى الكاثوليكى من الملاحظات التى تستحق الاعتبار وتدل على انصاف صاحبها للاسلام . فقد ذكر ما جاء فى القرآن من وصف النعيم وما فى الجنة من الأشجار والمياه الصافية والفاكهة ، وأنهار العسل واللبن ،والحور العين قاصرات الطرف اللائى لم يطمسهن انس ولا جان الى غير ذلك فعقب على هذا بقوله : ان الناس يأخذون هذه الأوصاف على ظاهرها وعلماء الاسلام ، عدا بعض المتصوفة ، لا يفرقون بين جنة آدم والجنة التى وعد الله بها الأبرار . ولا يزال هذا الأمر أيضاً غير موضح فى المسيحية نفسها . ولا يجب أن يؤخذ من هذا أنه لا يوجد فى الاسلام من يعتقد بكون هذه

الأوصاف انما هى اشارات ورموز ، وكذلك لا يؤخذ منه أن جميع ملاذ الآخرة هى حسيّة فقد جاء فى القرآن ما يفيد أن أفضل النعيم هو مغفرة الله لآثام البشر ثم سلام الله وصلواته على المتقين والوجود فى الحضرة الالهية . وقد قال محمد كما قال القديس بولس : ان الله قد أعدّ لعباده ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقد جاء فى القرآن : (لَايَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً)

ذكرنا هذه الملاحظة من ملاحظات هذا الرجل المسيحى لأن كثيراً من قومه يعيبون القرآن فى الوعد الذى فيه للمتقين باللذات الحسية ، وينسون أن الخلق لا يفهمون غيرها وان أمور الآخرة مع ذلك ليست من أمور هذه الدنيا . وينسون ما فى القرآن من الآيات الدالة على أن أعظم النعيم هو رضا الله (ورضوانٌ من الله أكبر) وان رؤية الحق تعالى هى مما وعد به أهل الجنة .

وقد ذكر ملاحظة أخرى وهى أن القرآن أذن المسلمين فى الزواج بالمسيحيات وان هذا كما قال الشيخ عبده من علامات الاخاء ، وان فى الاسلام مبادئ كثيرة قد اعتقدت بها النصرانية منها خروج آدم من الجنة لكونه عصى أمر ربه فى الأكل من الثمرة الممنوعة . وكذلك قضية سقوط ابليس الذى استكبر أن يسجد لآدم فى عقيدة الإسلام عائلها فى النصرانية سقوط الشيطان الذى أبى أن يعتقد بالكلمة المتجسدة . ومما اتفقت فيه العقيدتان رسالة نوح وابراهيم وموسى والأنبياء والكتب المقدسة والملائكة والمسيح والدجّال واليوم الآخر والبعث والحشر والحساب . وترى الاسلام فى هذه كلها أقرب الى النصرانية منه الى اليهودية .

قال و بين المسلمين الأولين والمسيحيين الأولين مشابهة شديدة فى تحمّل الاضطهاد وفى حب الموت لاجل الدين أى الاستشهاد .

قال : أما القول بأن الاسلام يتضمن كالنصرانية عقيدة التجسُّد والفداء والحبل بلا دنس الخ . فهذا فيه نظر . الا أنه مما لامشاحة فيه أن القرآن يقول بمسيحية عيسى وولادته من بطن عذراء بدون أب ورسالته ومعجزاته وصعوده الى السماء والافخارستيا أى سر القربان المقدس اذ فيه سورة المائدة .

قلنا ليس التشابه واقعاً بين ما يقوله النصارى — الا البروتستانت — فى سر القربان

المقدس واستحالة الخبز بمجرد التقديس الذى يقدسه القسيس الى جسد الرب، واستحالة الخمر الى دمه فعلاً لا رمزاً، و بين قول القرآن فى المائدة. والذى قاله تعالى فى المائدة هو هذا: « إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ » فأنت ترى أن استحالة الخبز والخمر الى جسد الرب ودمه ليس لها أثر هنا. وان كان المقام مقام مائدة. ولعل بعض الصوفية ينظرون الى هذه المائدة لا بمعناها الظاهر بل بالمعنى المجازى.

ثم يقول « درمنغهم » ان القرآن يطهر مريم تطهيراً عظيما من كل دنس. قلت: نعم قال الله تعالى « واذ قالت الملائكة يامريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين).

و يقول ان لعيسى عليه السلام مكاناً مستثنى فى القرآن ذلك بأنه مولود على غير الأحوال البشرية المعتادة، وانه رسول الله الوحيد الذى فى القرآن يخاطب الحق ويجاوبه، وانه كلمة الله الحيّة وليس بمجرد واسطة للرسالة. قلنا: ان حكم عيسى بن مريم عليه السلام فى القرآن ظاهر لا يحتمل التأويل، وهو أنه خلقه الله مباشرةً على غير المعتاد من ولادة البشر ولكنه رسول الله وعبد من عبيد الله لا يزيد على ذلك وكونه كلمة الله وروحا من الله غير ناف عبوديته لله الواحد الذى لا اله غيره قال الله تعالى « يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً »

ثم يقول « در منغهم » ان تأييد روح القدس لعيسى عليه السلام ليس مجرد تاييد ظاهر قاصر على تبليغ الشريعة مؤيدة بالمعجزات كما جرى لموسى عليه السلام ، ولا بالتجليات العليا والعلوم اللدنيّة كما جرى لمحمد عليه السلام ، وانما هو تأييد تام تنزّه به عيسى عن الخطأ على حين ان محمداً لم يدّعِ لنفسه العصمة

والذى نعلمه ان الاسلام يعصم الأنبياء جميعاً عن الكبائر وهذا لا يمنعهم من ان يستغفروا الله بكرة وأصيلا . وقد كان محمد ﷺ من أكثرهم عبادة واستغفاراً وكان يصلى حتى ترم رجلاه .

ثم يقول « در منغهم » ان القرآن يقول فى المسيح ماتقول الكنيسة ، أى انه كلمة الله وروح الله نزل فى بطن مريم كما أنه بشر تام البشرية . وانما ينتقد التجسد والتثليث على ما كانوا يعتقدون يومئذٍ بهما ! وبحسبما كان يقول المبتدعة — وفى الأصل الهراطقة — ولا يستطيع المسيحى الا أن يوافق على مايقول القرآن من أنه كبر مقتاً عند الله القول بثلاثة مؤلف منها الاله ، مريم والمسيح والله : (واذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله) فلقد كانت فى الشرق نِحل تعبد مريم عبادة حقيقية وقد روى القديس ابيفانوس ان الكولوريديين Collyridiennes كانوا يقدمون خبزاً لمريم على سبيل العبادة ثم يأكلونه

اننا ذكرنا قول « در منغهم » هذا لا لنوافقه فيه جميعه بل لنبيّن ان القرآن لم يخطئ فيما جاء فيه من الاشارة الى عبادة مريم بل الذين خطأوا القرآن فى ذلك مخطئون . فقد وجدت نِحَل تعبدها فى القديم ولا تزال فى أيامنا هذه يصلى لها بصلوات خاصة بها وكيف تكون العبادة غير هذا ؟ والاله هو المعبود . هذا معناه بالعربية . فقوله تعالى: (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين) معناه : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى معبودين

ثم يزعم « در منغهم » أن قول المسلمين بان القرآن غير مخلوق هو كقول المسيحيين ان المسيح كلمة الله موجود من الأزل ، قال وقد كان القديس يوحنا الدمشقى يقول : اذا قلتم ان الكلمة وروح الله هما غير مخلوقين فنحن معكم على وفاق . وان قلتم انهما مخلوقان أفتريدان أن تقولا انه كان وقت من الأوقات كان الله فيه بدون كلمة وبدون روح ؟

وهنا بدون أن ندخل فى هذا البحث الطويل العريض الذى ربما لاينتهى وبدون

أن نذكر قول المسلمين ماخلا المعتزلة بعدم خلق القرآن ، وقول النصارى بكون الكلمة هى من الأزل وأنها هى المسيح ، نكتفى بأن نقول ان قوله تعالى ان عيسى عليه السلام هو من روح الله معناه أنه آية من آيات الله وان الله أوجده رأسا بلا أب وان قوله « كلمة الله » معناه انه وجد بكلمة التكوين « كن » وفى هذا فرق كبير عما يعتقده المسيحيون من أزلية الكلمة ومن ثمة بأزلية المسيح [1] وكيف نطبّق أزلية المسيح على قوله تعالى : « قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً » وقوله تعالى : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » وقد حاول « در منغهم » أن يوفق بين الديانتين فى عقائد كثيرة الى أن وصل الى قضية الصلب فقال انها أشدّها اشكالاً ، وذلك أن الاسلام التاريخى لايعرف سر الفداء . وربما لم يجد حاجةً للكلام على الفداء لانه موجود فى الانجيل والانجيل مصدّق بالقرآن .

وعلى كل حال لا ينظر الاسلام الى المسيح كمخلّص للبشر بدمه ولا يعرف قضية الحب الالهى لخلقه الى حد أن يبعث الله ابنه الوحيد لخلاصهم فان الاسلام يريد أن ينزه الالوهية تنزيهاً عظيماً ويجعل الله بائنا عن خلقه الا أنه بهذا وقع فى التجريد التام وفاته ذلك المبدأ العظيم فى النصرانية وهو « ان الله محبة »

فالمسلمون لا يقدرون أن يعتقدوا ان الله الذى يحب المسيح يتركه يصلب ، كما ان اليهود لا يقدرون ان يفهموا المسيح الا ملكاً أرضيّاً فاتحاً . على ان القرآن يقول ان من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعاً وهذا فيه مايشير الى قول بولس الرسول وهو « انه بخطيئة واحد قد عمّ الذنب الجميع كذلك بكفارة واحد يتطهر الجميع وتحصل الطهارة التى هى مصدر الحياة »

نقول ان كل هذه المباحث اذا أخذ بها الانسان لا تنتهى وكتابنا هذا كتاب تاريخ لا مثار جدل وحسبنا أن نسرد أقوال الفرق المختلفة مع الملاحظات الضرورية فقط فلا نستطيع هنا أن نستخرج من قوله تعالى : « أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً » الدليل

(١) راجع فى هذا المبحث كتب المتكلمين والمفسرين ولا سيما تفسير المنار لحجة الاسلام وأستاذ العصر السيد رشيد رضا

الذي حاول «درمنغهم» استخراجه . بل معنى هذه الآية صريح وهو مبدأ العدل التام الشامل فقتل نفس بغير حق هو قتل لجيع العالم بغير حق . وهذا امرٌ بديهي لا جدال فيه لأن النفس هنا تمثل النوع الانساني . وكذلك من أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعاً لأنه يكون قرر الحياة لا للفرد بل للجمع ، وهذا الاحياء هو باجراء العدل التام الشامل وهو من باب (ولكم فى القصاص حياةٌ) وليست هذه المسئلة فى شيء مما قاله بولس الرسول الذى يقول بما يسميه المسيحيون بالخطيئة الأصلية أى معصية آدم الشامل وزرها لجميع أبنائه ، مما استلزم ارسال الله ابنه الى الأرض وصلبه فداء لأبناء آدم ، وتخليصاً لهم من تبعة معصية ارتكبها أبوهم . نعم هذا ركن العقيدة المسيحيّة ، لكنه لا يلتئم أصلاً مع عقيدة الاسلام التى لا يؤاخذ فيها انسان الا بذنبه ، ولا يسرى وزره لا من والد الى ولد ولا من ولد الى والد ولا من أخ الى أخ (ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى) فالعقيدتان متباينتان أشد التباين

***

ثم يقول « در منغهم » ان الاسلام ينفى موت المسيح مصلوباً مهيناً بل يقول ان الله قد رفعه اليه ولم يبقِ فى أيدى اليهود الا شبحاً أو شخصاً آخر شُبّه بالمسيح . يقول : فهذه العقيدة التى هى مستغربة عقلاً وتاريخاً ، وهادمة لأجل قصة معروفة فى العالم ، والتى بحسبها تكون النصرانية مبنية على وهم من الأوهام ، مستفادة من آية قرآنية متشابهة هى هذه :

« وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَالَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً »

قال : فالمعنى الحقيقى الوحيد لهذه الآية التى تثبت قيامة المسيح أكثر مما تنكر موته ، وتعنى برفعه اليه ، وفاته هو ان الله قد ضلّل كيد اليهود وان عيسى لم يقع فى أيديهم بل خرج منها مؤيداً منصوراً . وهذا هو عين ماتقوله النصرانية فان اليهود بحسب قول النصارى ، قد أرادوا قتل المسيح وهدم عمله ، و بينما يظنون أنفسهم قضوا عليه اذا به قد عاد فعاش ، وما كان عملهم الا انفاذاً لمشيئة الله وما قصدوا الا الشر فكان من عملهم هذا نجاة العالم .

قال « درمنغهم » : فقول القرآن « ولكن شبّه لهم » يذكّرنا بأقوال العهد الجديد

وبولس الرسول عن حمل الله المكفّر عن سيآت البشر وعن آدم الجديد الذى جاء بدل القديم . فاذا فكرنا فى أن المصحف الحالى تاريخه من زمن عثمان والحجاج ، وان سائر المصاحف قد أبطلت ، وان المصحف نفسه لم يكن فيه شكل ولا نقط ، فيقرأ منه كثير على وجهين أمكننا أن نتساءل هل هذه الآية القرآنية المنقوضة بآيات أخرى والتى تؤكد موت المسيح وقيامته وصعوده الى السماء بدون تصريح بعدم وقوع الموت والقيامة الى الآن ومع تعليق ذلك باليوم الآخر هى كافية لحفر هذه الهوة العميقة بين ملتين كل شىء ما عدا هذه العقيدة جامع موحّد بينهما ؟ ان « درمنغهم » لا يراها كافية

ثم قال : بل اننا لو فرضنا وجوب أخذ هذه الآية على ظاهرها ، فلا مانع من ذلك بحسب عقيدة الكنيسة نفسها ، لأن آباء الكنيسة ما زالوا يقولون انه ليس ابن الله هو الذى صلبه اليهود وأماتوه على الصليب ، وانما الطبيعة البشرية التى فى المسيح . وهكذا لا يكون اليهود قتلوا كلمة الله الأبدية ، ولكن يكونون قتلوا الرجل الذى يشبهها واللحم والدم المتجسدين فى بطن مريم .

قال فلا يكون القرآن فيما قاله بشأن الصلب الا مؤيداً عقيدة الكنيسة الكبرى ، وهى أن فى المسيح طبيعتين الهية و بشرية ، وان القتل وقع على الطبيعة البشرية فقط وان المسيح سينزل عند قرب الساعة وغير ذلك ، وما كان رد القرآن هذا الاعلى أقوال الهراطقة مبتدعة النصارى الذين كانت مذاهبهم منتشرة وأقوالهم شائعة حتى فى جزيرة العرب ، الى (أن يقول) : ان أحد آباء الكنيسة من أهل القرن الخامس قال : ان جزيرة العرب كانت مجمعاً للبدع المسيحية فكان فيها السابليون Sabelliens والدوسيتيون Docétes الذين كانوا ينكرون الطبيعة البشرية فى المسيح ويقولون ان جسده لم يكن الا شبحاً محضا ، والاريوسيّون الذين كانوا ينكرون ألوهيتهُ ، والايتوخيون واليعاقبة الذين كانوا ينكرون وجود الطبيعتين فيه، والنساطرة الذين كانوا يرون فيه شخصين، والمريميون والكوليريديون Collyridiesn الذين كانوا يعبدون مريم العذراء وأضداد المريميين الذين كانوا ينكرون بكارتها الدائمة الخ . وكانت جميع هذه الفرق فى نزاع دائم وكما يقول المثل الحبشى : «لم يتفق النصارى على شئ الا على ولادة المسيح » .

***

ولا نريد أن نفرغ من هـذه المسئلة بدون أن نعلق بعض الملاحظات على ما قاله « درمنغهم » فيها فأمَّا ذهابه الى أن مراد القرآن بالآية الكريمة (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم) انما هو وقوع القتل على الجسد فقط ، وان الله بعد ذلك رفعه اليه ، فان له وجهاً وجيهاً لا سيما وان آيةِ أخرى (اذ قال الله ياعيسى انى متوفيك ورافعك الىّ ومطهّرك من الذين كفروا) تعزّز هذا الرأى وان كان جمهور أهل الاسلام على أن القتل لم يقع لا على الروح ولا على الجسد وان الذى قتل انما هو رجل آخر وان قوله تعالى (انى متوفيك) هو من توفّاه الله أى استوفى مدة أجله فى الدنيا .

ومن الناس من يرى أن الصلب وقع ، ولكن الموت على الصليب لم يقع ، وان المسيح قد أنزل عن الصليب وهو حى ودفن فى المغارة ، على أنه مات وهو لم يكن مات ، فلذلك عند ما جن الليل خرج من المغارة وذهب ، ثم بعد أيام جاء وتلاقى مع الحواريين . ولكن الذين يرون هذا الرأى يخالفون الاسلام والنصرانية معاً .أما الاسلام فلكون القرآن لم ينف القتل فقط بل نفى الصلب أيضاً ، ولأن الاسلام يثبت أن الله رفع المسيح اليه ونجَّاه من اليهود . وأما النصرانية فلأنّ مدارها كلها على موت المسيح مصلوباً فداءً عن البشر . فان لم يكن مات مصلوباً انهدمت العقيدية المسيحية كلها . وجواب من يرى هذا الرأى أن آية (وما قتلوه وماصلبوه) لا تنفى الصلب نفسه بل تنفى الموت على الصليب ، وان قوله تعالى (وما صلبوه) أشبه بأن تكون توكيداً لقوله تعالى (وما قتلوه) لأن المقصود ليس نفى رفعه على الخشبة وانما نفى موته عليها ، وان الأظهر أن يكون رفع على الخشبة ساعات ، ثم أنزل عنها وهو حى ، وأخذ الى المغارة ووضع فيها ، وذلك على هيئة أنه مات وانه دفن . والحقيقة أنه لما أنزل عن الخشبة لم يكن مات وانما شبه الموت لليهود وشبه لهم الدفن وان المسيح بعد أن جن الليل خرج فى جوف الليل ومضى الى حيث توارى مدة من الزمن ثم عاد فظهر للتلاميذ وتعشّى معهم العشاء السرّى .

والذين يرجحون هذا الرأى يخالفون عقيدة النصرانية ورواية الأناجيل لكنهم لا يرون رأيهم مخالفاً للاسلام . وذلك لأنهم يقولون ان قوله تعالى (وما قتلوه وماصلبوه) معناه وما قتلوه مصلوباً . وليس بنافٍ أن يكون رفع على الصليب موقتاً تشبيها على اليهود

الذين كانوا يطلبون جزما قتل المسيح . وكذلك خروجه من المغارة ليلاً واختفاؤه عن العيان ليسا مما ينفي رفعه الى السماء بعد ذلك .

وأدلة هؤلاء على هذا الرأى هى :

أولا ان بيلاطس البنطى كان قد حاول انقاذ المسيح بكل جهده هو وامرأته وانه أخذتهما عليه شفقة زائدة ، ولكن لما اشتد صخب اليهود طالبين قتله اضطر أن يأمر بصلبه وهو مكره ، فيجوز أن يكون أوصى قائد المائة بأن يعلق عيسى عليه السلام على الصليب الى أن يكون أظلم الوقت فينزله ويجعله فى المغارة على أنه ميت ويشير اليه بأن يفر من المغارة ليلاً ، ويذهب الى حيث لا يعلم به اليهود . وهكذا يكون أنقذه من الموت ولكن مع ايهام اليهود أنه قتله .

ثانياً — ان الصلب وقع نهار الجمعة بحيث انه فى مساء ذلك النهار يدخل السبت ويقر اليهود فى بيوتهم فيسهل على الذى تولى قضية الصلب أن يوارى عيسى فى المغارة ويسهل له النجاة بدون أن يشعر اليهود .

ثالثاً — ان من العادة فى المصلوبين أن تكسَّر أرجلهم تعجيلا لموتهم اذا طال نزعهم وقد ثبت أن القائد الذى عهد اليه بصلب عيسى لم يكسر له رجليه مع أنه كسر أرجل المصلوبين الآخرين اللذين صلب عيسى عليه السلام بينهما . فعدم تكسير رجلى عيسى عليه السلام دليل على نية استحيائه .

رابعاً — ان الصلب كان سبة كبيرة عند اليهود يفدونها بكل ممكن ولذلك جاء أناس من محبي عيسى وبذلوا كل جهدهم لدى بيلاطس لمنع صلبه مثل يوسف حارميتحايم ومثل نيقوديموس ومن هؤلاء من رافقوه الى مكان الصلب وهم الذين أنزلوا الجثة بحسب رواية الصلب فلو لم يكن لهم أمل فى انقاذه لم يرافقوه الى هناك .

خامساً — انهم لما جاءوا الى المغارة نهار الأحد وجدوا الحجر مدحرجاً ولم يجدوا جثة المسيح بل وجدوا ثيابه . فان قيل ان تدحرج الحجر وخروج المسيح من القبر لا ينفيان كون المسيح قد مات لأن المسيح عليه الصلاة والسلام قد قام من الموت بعد أن صلب ومات ودفن وهذه هى العقيدة المسيحية وعند ما قام فى اليوم الثالث خرج من القبر ودحرج

الحجر ، فيرد على هذا أن الذى يقوم من الموت بمعجزة يمكنه أن يخرج من القبر بدون فتح القبر ولا دحرجة الحجر ، ولا سيما اذا كان قد صعد الى السماء ، والصعود هنا بالروح لا بالجسد .

سادساً — ان وجود الثياب فى القبر دليل على أنه قد نزع ثياب الدم التى كانت عليه عند الصلب ، وانه جئ اليه بثياب نظيفة وخرج بها عند ما خرج ، والا فما معنى وجود الثياب الملطخة بالدم فى القبر بعد فقد الجثة ، فان قيل ايصعد بها الى السماء فيجاب بأن الصعود الى السماء انما هو بالروح فليس يحتاج الى تبديل ثياب وما وجود الثياب الا علامة على تبديلها ، وما تبديلها الا علامة على أن المسيح خرج من القبر ليلاً بجسده وتوارى عن أعين اليهود ، وذلك بصورة ليس فيها معجزات ولا خوارق عادات

سابعاً — ان وضع المسيح عليه السلام فى مغارة ، بدلاً من دفنه فى ضريح تحت الأرض ، وهيل التراب عليه هو من جملة الأدلة على ارادة بيلاطس عدم قتله لأنهم لو كانوا دفنوه فى لحد تحت الأرض لما أمكن بقاؤه فى الحياة ، وأما دفنه فى غار فليس الا تخبئة الى أن يكون أظلم الليل

ثامناً — ان اجتماعه بالتلاميذ بعد الصلب دليل على أنه لم يكن مات وان قيل انه مات ثم عاش كما هى العقيدة المسيحية فنحن انما نتكلم الآن عن رأى فئة لا تريد أن تتابع العقيدة بما يصحبها من المعجزات وانما تنظر فى الحادثة الى المعقول والطبيعى بدون معجزات ولا خوارق عادات . فهذه الفئة ترى أن المسيح صلوات الله عليه قد اجتمع بالتلاميذ بعد حادثة الصلب وانه أكل معهم وان توما اشتبه فيه وطلب منه علامة على كونه هو المسيح الذى صلب ولما كان يعلم أنه كانت فى صدره طعنة حربة سأله عنها فأطلعه المسيح عليها ووضع توما فيها اصبعه حتى تحققها . وهذه الفئة ترى من هذا الاجتماع أن الموت على الصليب لم يقع وان « التشبيه » الذى فى القرآن فى آية (ولكن شبه لهم) لم يكن بقتل شخص آخر يشبه المسيح وانما هو تشبيه الصلب الذى جرى بالموت بحيث يسكت اليهود الذين حكم مجلسهم الروحانى على عيسى بالقتل صلباً وكانوا يأبون الا انفاذ هذا الحكم . فخيل لهم الرومانيون أنهم قتلوه والحقيقة أنهم لم يقتلوه بل رفعوه على الخشبة وعند الساعة الرابعة بعد الظهر أنزلوه عنها وأدخلوه المغارة حيا . وكان اليهود دخلوا فى السبت فلم يعلموا بشئ

و بعد أن بدّل المسيح فى المغارة ثيابه خرج منها ليلاً وذهب متوارياً و يوم الأحد وجد الناس المغارة خالية وجسد المسيح عليه السلام مفقوداً ، والحجر متدحرجاً ، وليس هناك غير الثياب الملطخة بالدم . فذهب جماعة من اليهود الى بيلاطس وشكوا اليه الاهمال الذى وقع فى هذا الأمر وقالوا له ان الشائع هو كون النصارى جماعة عيسى قد أخذوا جسده ليلاً ومنهم من قال له : بل الشائع كون قصة موته على الصليب غير صحيحة وانه أنزل عن الصليب حياً(١) ووضع فى القبر على صورة مدفون ، ثم فى جوف الليل فرّ من المغارة . ومن جملة الروايات أنه بعد أن ظهر للتلاميذ وأكل معهم فارقهم الى حيث لم يرجع الى فلسطين ، وذلك خوفاً من أن تقبض عليه السلطة مرة ثانية وتصلبه وتقتله هذه المرة فعلاً لا تشبيهاً ومن فلسطين ذهب الى الهند أبعد ما يمكنه أن يبعد وانتهت حياته فى الهند ودفن فى شمالى الهند حيث له الآن هناك قبر يزار . وهذا القبر معروف من قديم الزمان وهذه الروايات هى مجرد حدس وتخمين يعززه قرائن وأدلة فى نظر من لا يعتقد بالمعجزات أو من يظن أن هذه الحادثة جرت مجرًى طبيعياً لا معجزة فيه . فأما الذين يعتقدون بالمعجزات فانهم يحلون اشكالات هذه القصة كلها بالقدرة الالهية . والنصارى يقولون انها حادثة مقدّرة مقرّرة منذ الأزل وان النصرانية مبنية عليها .

وأما الذين كتبوا حياة يسوع مثل « رنان » وأمثاله ولم يكونوا يقولون بالوهيته ولا بمعجزاته ولا بتقرُّر الفداء من الأزل فقد ذهبوا الى أن الصلب والموت على الصليب وقعا فعلاً ولكن القيامة من القبر لم تقع ووجود شاب لابس ملابس بيضاء فى القبر يقول ان المسيح قام من الموت هذا لم يقع وانما زعم التلاميذ ذلك من شدة تخيّلهم وهيامهم فى حب المسيح الى حد أنهم ظنوه نزل عليهم . وأكل معهم ، وان كل ما ورد من ذلك فى الأناجيل لم يقع وانما هو خيال فى خيال حملهم عليه الحب. و بالاختصار النصارى يقولون ان المسيح مات مصلوباً ودفن فى المغارة وفى اليوم الثالث قام وصعد الى السماء ، وانه بعد قيامه. تجلى للتلاميذ وتعشّى معهم وأمرهم بنشر دينه وودّعهم والمسلمون يقولون انه لم يكن هو المصلوب وانما صلب شخص آخر عوضاً عنه، وان الله رفعه اليه . وهناك رأيٌ من الآرآء هو أنه فى قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه) لا يقصد نفى القتل والصلب عن الجسد وانما يقصد انهم ان

(١) اقرأ عن هذه المسئلة كتاب اميل لودفيغ الألماني المشهور فى علم تراجم الرجال وذلك في آخر كتابه عن المسيح

كانوا قتلوا الجسد فلم يقدروا أن يقتلو الروح وان الله رفع تلك الروح اليه . ورأىٌ آخر انه رُفع . على الصليب الى أن أقبل الظلام فأنزل الى القبر حيا ولكن بصورة ميت . و بعد أن أدخل المغارة جئ اليه بثياب فلبسها وترك الثياب الملطخة بالدم . وكانت مريم أم عيسى ومريم المجدلية و بعض نساء و بعض رجال لم يفارقوا يسوع منذ صلب الى أن خرج من المغارة فالأرجح أنهم هم الذين أتوه بالثياب ليبدلها ثم ان عيسى بعد ذلك بمدة قصيرة جاء واجتمع بتلاميذه وتعشى معهم ثم فارقهم وأبعد فى الأرض خوفاً من الوقوع فى يد الحكومة مرة ثانية وقيل انه ذهب الى الهند وتوفاه الله هناك. وهذا الرأى الأخير مخالف لرواية الاسلام والنصرانية معاً كما أن الرأى الذى قبله وهو الذى معناه أن قول القرآن (وما قتلوه وما صلبوه) لا ينفى موت جسد المسيح على الصليب وانما يعنى روحه و يعنى عمله فى الأرض هو الرأى الوحيد الذى يمكن به التوفيق بين عقيدتى الاسلام والمسيحية . وهو الرأى الذى يحاول تأييده « درمنغهم » لأنه رأى فيه التوفيق بين الديانتين فى أهم ما اختلفتا فيه . وأحسن ما كتبه المسلمون فى مسئلة الصلب رسالة للعلامة السيد رشيد رضا صاحب المنار فمن شاء فليرجع اليها .

***

وقد ظهر فى السنة الماضيه كتاب عنوانه « لأجل فهم حياة يسوع » وفيه بحث تحليلى لانجيل مرقس ألّفه الاستاذ بروسبر الفاريك Prosper-Alfaric المدرس بجامعة استراسبورغ ذهب فيه الاستاذ المذكور مذهب من يرى أن أكثر ماورد فى الانجيل المذكور مطبّق عمداً على نبوّات سابقة فى العهد القديم ، سواء كانت الحوادث المروية صحيحة أو غير صحيحة ، وذلك من قبيل الدعاية لا التاريخ . وقد اجتهد هذا المؤلف أن يظهر كل ماهناك من التناقضات تارةً ومن الأخبار المخالفة للطبيعة طوراً وذلك مثل ان الدنيا كلها أظلمت من الساعة السادسة الى الساعة التاسعة أثناء احتضار السيد المسيح على الصليب . وانه انشق حجاب الهيكل وغير ذلك من الاخبار . ولكن هذا المؤلف هو ممن لا يشتبهون فى موت المسيح على الصليب

وفى هذه السنة ظهر كتاب جديد اسمه « حياة يسوع » للمسيو موريس غوغويل Goguel من علماء فرنسة توخى فيه الرد على الدكتور كوشو Couchoud الافرنسى

وغيره من العلماء الالمان والانكليز والهولانديين الذين لم يجدوا فى الأناجيل حقائق تاريخية قابلة للتمحيص ، بل وجدوا فيها دعاية دينية محضه ، وانتهوا الى القول بان المسيح لم يوجد أصلاً وانما كان رمزاً . فالمسيو غوغويل يبين فى كتابه مافى هذه الاقاويل من المبالغات ، ويذهب الى أن وجود عيسى محقق ، وان الأخبار الواردة فى الاناجيل يمكن ربط بعضها ببعض وأخذ نتيجة تاريخية صحيحة منها . وهو يرى ان ادعاء ان المسيح رمز فيه من المشكلات التاريخية أكثر من القول بأنه وجد بالفعل . نعم المسيو موريس غوغويل يعتقد ان كثيراً من روايات الاناجيل غير واقعية بل هى مطبّقة على التقاليد النصرانية تطبيقاً لمجرد الدعاية أو بحسب الاعتقاد وان هذا فى واد والتاريخ فى واد . ورنان فى كتابه الشهير « حياة يسوع » يعترف بتطبيق بعض الروايات عمداً على النبوات السابقة الا أنه يعتقد موت المسيح على الصليب كما يموت سائر الناس.

***

ثم لنا ملاحظة أخرى على قول « در منغهم » بشأن المصحف . وظنّه ان هناك مصاحف غير المصحف العثمانى قد أُبطلت ! فان كلاماً كهذا يدور كثيراً فى كتب الأوربيين ومنهم من يزعم ان المصحف تعاوره الحذف والتبديل ، وأن الخلفاء الراشدين زادوا فيه ونقصوا كما أرادوا. وهم مطلقون العنان لخيالاتهم فىهذا الموضوع بحسب عاداتهم ويخبطون خبطاً كثيراً كما هو دأبهم اذا تكلموا عن الشرق والاسلام . وليس بشئ مما يظنونه بصحيح. وكل هذا امّا جهلٌ بتاريخ القرآن وامّا تجاهل مقصود منهم فالقرآن كان محفوظاً فى صدور ألوف من الرجال وفى صدور عددٍ كبيرٍ جداً من الصحابة ممن يستحيل تواطؤهم على الكذب . ولما جرت حرب الردة فى اليمامة استحرّ القتل فى الصحابة ، رضوان الله عليهم ، فجاء عمر الى أبى بكر وقال له ، ان القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وانى لأخشى أن يستحر بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن الا ان يجمعوه وانى لأرى ان يجمع القرآن . فقال أبو بكر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ فقال عمر : هو والله خير . قال أبو بكر : فلم يزل عمر يراجعنى فيه حتى شرح الله لذلك صدرى ، فرأيت الذى رأى عمر . قال زيد بن ثابت : وعمر عنده جالس لا يتكلم ، فقال أبو بكر : انك شاب عاقل ، ولا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ فتتبّع القرآن فاجمعه ، قال

زيد : فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن فقلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي ﷺ . فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر فتتبعت القرآن اجمعه من الرقاع ، والاكتاف ، والعُسُب وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الى آخرها فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنها ، نقل هذا جلال الدين السيوطى فى تاريخ الخلفاء ثم أردف ذلك بقوله : واخرج أبو يعلى عن علىّ قال : أعظم الناس أجراً فى المصاحف أبو بكر ان أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين

وذكر أبو الفداء هذه القصة كما يأتى :

« ثم دخلت سنة ثلاثين وفيها بلغ عثمان ماوقع فى أمر القرآن من أهل العراق ، فانهم يقولون قرآننا أصحُّ من قرآن أهل الشام ، لانا قرأنا على أبى موسى الأشعرى وأهل الشام يقولون قرآننا أصح لانا قرأنا على المقداد بن الآسود ، وكذلك غيرهم من الأنصار . فأجمع رأيه ورأى الصحابة على أن يحمل الناس على المصحف الذى كتب فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه . وكان مودعاً عند حفصة زوج النبي ﷺ ، وتحرق ماسواه من المصاحف التى بأيدى الناس ، ففعل ذلك ونسخ من ذلك المصحف مصاحف وحمل كلاً منها الى مصر من الأمصار ، وكان الذى تولى نسخ المصاحف العثمانية بأمر عثمان زيد بن ثابت ، وعبد الله ابن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى ، وقال عثمان : ان اختلفتم فى كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلسانهم »

ولقد رأينا أجمع ما كتب فى هذا المقام كلام الاستاذ الكبير مفخرة العرب ، وحجة الأواخر على الاوائل فى علو طبقة الانشاء ووفرة الأدب ، السيد مصطفى صادق الرافعى فى كتابه « اعجاز القرآن » فانه جمع فأوعى وأصاب المحز وطبق المفصل وهاهوذا مقاله بجاحظىّ بيانه نأثره بحرفه قال :

« وكان بعض الصحابة يكتبون ماينزل من القرآن ابتداءً من أنفسهم أو بأمر من النبي ﷺ ، فيخطّونه على ماأتفق لهم يومئذ من العسب [1] والكرانيف [2] واللخاف [3]

(١) جمع عسيب جريدة النخل كانوا يكشطون الخوص عنه ويكتبون في الطرف العريض

(٢) جمع كرنافة بالكسر وبالضم وهى أصول السعف الغلاظ (٣) جمع لخفة وهى صفائح الحجارة

والرقاع ، وقطع الاديم ، وعظام الاكتاف والاضلاع من الشاة والابل ، وكل ما أصابوا من مثلها مما يصلح لغرضهم يكتب كلٌّ منهم ماتيسّر له أو يسّرته أحواله . ولكن مما ليس فيه ريب ان منهم قوماً جمعوا القرآن كله لذلك العهد، وقد اختلفوا فى تعيينهم بيد انهم أجمعوا على نفر : منهم على بن أبى طالب ، ومعاذ بن جبل ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود . وهؤلاء كانوا مادة هذا الأمر من بعد . فان المصاحف التى اختصت بالثقة كانت ثلاثة : مصحف ابن مسعود ، ومصحف أبىّ ، ومصحف زيد ، وكلهم قرأ القرآن وعرضه على النبى ﷺ . فأما ابن مسعود فقرأ بمكة وعرض هناك . وأما أبى فانه قرأ بعد الهجرة وعرض فى ذلك الوقت . وأما زيد فقرأه بعدهما وكان عرضه متأخراً عن الجميع وهو آخر العرض اذا كان فى سنة وفاته ﷺ ، و بقراءته كان يقرأ عليه الصلاة والسلام وكان يصلى الى أن لحق بر به . ولذلك اختار المسلمون ما كان آخراً كما ستعرفه .

وأما على بن أبى طالب ، فقد ذكروا ان له مصحفاً جمعه لما رأى من الناس طيرةً عند وفاة النبى ﷺ . وفى الفهرست لابن النديم انه رأى عند أبى يعلى حمزة الحسينى مصحفا بخط على يتوارثه بنو حسن . ونحن نحسب ذلك خبراً شيعياً لأنه غير شائع . . .

وقبض رسول الله ﷺ والقرآن فى الصدور وفيما كتبوه عليه ، ثم نهض أبو بكر بأمر الاسلام وكانت فى مدته حروب أهل الردة ، ومنها غزوة أهل اليمامة ، والمحاربون أكثرهم من الصحابة ومن القرّاء . فقتل فى هذه الغزوة وحدها سبعون قارئاً من الصحابة (و يقال سبعمائة) وكان قد قتل منهم مثل هذا العدد ببئر معونة (موضع قرب المدينة) فى عهد النبى ﷺ فهال ذلك عمر بن الخطاب ، فدخل على أبى بكر رحمهما الله فقال : ان أصحاب رسول الله ﷺ باليمامة يتهافتون تهافت الفراش فى النار ، وانى أخشى أن لايشهدوا موطناً الا فعلوا ذلك حتى يقتلوا وهم حملة القرآن ، فيضيع القرآن ويُنسى ولو جمعتَهُ وكتبتَهُ . فنفر منها أبو بكر ، وقال أفعلُ مالم يفعل رسول الله ﷺ . فتراجعا فى ذلك . ثم أرسل أبو بكر الى زيد بن ثابت . قال زيد : فدخلت عليه وعمر مسربل فقال لى أبو بكر : ان هذا قد دعانى الى أمر فأبيت عليه وأنت كاتب الوحى فان تكن معه اتبعتكما وان توافقنى لا أفعل . فاقتصّ أبو بكر قول عمر وعمر ساكت ، فنفرت من ذلك وقلت يفعل

مالم يفعل رسول الله ﷺ الى أن قال عمر كلمة : وما عليكما لو فعلتما ذلك . فذهبنا ننظر فقلنا : لاشئ والله ماعلينا فى ذلك شئ . قال زيد : فأمرنى أبو بكر فكتبته فى قطع الأدم وكسر الاكتاف والعُسُب .

***

وهذا الذى فعله أبو بكر كانما استحيا به طائفة من القرّاء الذين استحرّ بهم القتل بعد ذلك فى المواطن التى شهدوها لم يعد به ماوصفنا . ولذا بقى ما اكتتبه زيد نسخة واحدة وهو قد تتبع مافيها من الرقاع والعسب واللخاف ومن صدور الرجال وانما ائتمنه أبو بكر لأنه حافظ ، ولأنه من كتبة الوحى ، ثم لأنه صاحب العرضة الأخيرة ، وربما كان قد أعانه بغيره فى الجمع والتتبُّع ، فإن فى بعض الروايات أن سالم مولى أبى حذيفة كان أحد الجامعين بأمر أبى بكر . أما الكتابة فهى لزيد بالاجماع .

و بقيت تلك الصحف عند أبى بكر ينتظر بها وقتها أن يحين حتى اذا توفى سنة ١٣ صارت بعده الى عمر فكانت عنده حتى مات ، ثم كانت عند حفصة ابنتهِ صدراً من ولاية عثمان . و يومئذٍ اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون فى مصر فأخذ أهل مصر عن رجل من بقية القراء

فأهل دمشق وحمص أخذوا عن المقداد بن الاسود . وأهل الكوفة عن ابن مسعود . وأهل البصرة عن أبى موسى الاشعرى — وكانوا يسمون مصحفه لباب القلوب — وقرأ كثير من أهل الشام بقراءة أبىّ بن كعب ، وكانت وجوه القراءة التى يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الاحرف التى نزل عليها كما سيمرّ بك ، فكان الذى يسمع هذا الاختلاف من أهل تلك الامصار اذا احتوتهم المجامع أو التقوا فى المواطن على جهاد أعدائهم يعجب من ذلك أن تكون هذه الوجوه كلها على اختلاف مابينها فى كلام واحد . فاذا علم ان جميع القرآت مسندة الى رسول الله ﷺ وانه أجازها ، لايمتنع أن يحيك فى صدرهِ بعض الشك ، وان ينطوى منها على شئ اذا هو كان قد نشأ بعد زمن الدعوة و بعد أن اجتمع العرب على كلمةٍ واحدة ، فلا يلبث أن يجرى ذلك الاختلاف مجرى مثله من سائر الكلام فيرى بعضه خيراً من بعضه و يظن منه الصريح ، والمدخول ، والعالى ، والنازل ، والافصح

والفصيح ، وأشباه ذلك ويعتدّ ماراه فى القرآن من القرآن . وهذا أمرٌ ان هو استفاض فيهم ثم مردوا عليه خرجوا منه ولا ريب الى المناقضة والملاحاة والى أن يردّ بعضهم على بعض هذا يقول : قراءتى وما أخذت به . وذلك يقول : بل قراءتى وما أنا عليه . وليس من وراء هذا اللجاج الا التفكير والتأثيم ولا جرم انها الفتنة لاتفتأ بعد ذلك من دم .

ولقد نجمت هذه الناشئة يومئذٍ فلما كانت غزوة ارمينية وغزوة أذر بيجان ، كان فيمن غزاهما مع أهل العراق حذيفة بن اليمان فرأى كثرة اختلاف المسلمين فى وجوه القراءة وانهم لايجرون من ذلك على أصل فى الفطرة اللغوية كما كان العرب يقرأون بلحونهم ورأى ما يبدر على ألسنتهم حين يأتى كل فريق منهم بما لم يسمَع من غيره اذ يتمارون فيه حتى يكفّر بعضهم بعضاً ، ولم يرَ عندهم نكيراً لذلك ولا اكباراً له بل كانوا قد ألفوه بين أنفسهم ، وصار من عادتهم وأمرهم . ففزع الى عثمان (بن عفان رضى الله عنه) فأخبره بالذى رأى . وكان عثمان قد رفع اليه ان شيئاً من ذلك يكون بين المسلمين الذين يقرئون الصبْيَة ويأخذونهم بحفظ القرآن ، فينشأون وبهم من الخلاف بعضهم على بعض . فأعظم ، رحمه الله ، أمرَ هذه الفتنة وأكبره الصحابة جميعاً ، لأن الاختلاف فى كتاب الله مدرجة الى مخالفة مافيه ، ومتى اهملوا بعض معانيه لم يكن بدٌّ أن يتصرفوا ببعض ألفاظه ، وانما هو اجتراء واحد فيوشك أن يكون من ذلك مساغ للتحريف والتبديل . فاجمعوا أمرهم أن ينتسخوا الصحف الاولى التى كانت عند أبى بكر وان يأخذوا الناس بها ويجمعوهم عليها حذار تلك الردّة المشتبهة ، واشفاقاً على الناس أن يصيروا كلما رُدّوا الى الفتنة أركسوا فيها . فأرسل عثمان الى حفصة فبعثت اليه بتلك الصحف ، ثم ارسل الى زيد بن ثابت ، والى عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . فأمرهم أن ينسخوها فى المصاحف . ثم قال للرهط القرشيين الثلاثة : ما اختلفتم فيه أنتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش فانه نزل بلسانهم .

وفى رواية أخرى عن زيد بن ثابت ان عثمان أمره أن يكتب له مصحفاً بعد أن رفع اليه أمر الاختلاف وقال : انى مدخل معك رجلاً لبيباً فصيحاً فاكتباه وما اختلفتما فيه فارفعاه الىّ فجعل معه ابان بن سعيد بن العاص . فلما بلغا فى الكتابة قوله تعالى : (ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت) قال زيد : فقلت : التابوه . وقال ابان بن سعيد : التابوت .

فرفعنا ذلك الى عثمان فكتب : التابوت .

وفى رواية ثالثة لابن عساكر ان عثمان خطب فى الناس يومئذٍ وعزم على كل رجل عنده شئ من كتاب الله لما جاء به فكان الرجل يجىء بالورقة والاديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ثم دعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم : أسمعت رسول الله ﷺ وهو أملاه عليك فيقول : نعم . فلما فرغ من ذلك عثمان قال : من أكتب الناس ؟ قالوا : كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت . قال : فأىُّ الناس أعرب ؟ قالوا : سعيد بن العاص . قال : فليملِ سعيد . وليكتب زيد .

ونحسب أن اختلاف هذه الرواية وماجاء بمعناها من وجوه أخرى انما بعث عليه تصور الرواة لابلغ مايكون من صور الثقة فى هذا الأمر حتى يحكموه من نواحيه كلها فانك لاترى منها رواية الا وفيها مبالغة فى التحرى ليست فى الاخرى . والذى يخبر بمثل ذلك الخبر عن القرآن انما يخبر بأمر شديد اذا هو لم يمكن فيه لموضع الثقة ولم يحصنه أشد التحصين حتى لاتجد الشبهة اليه سبيلاً . وظاهر انه من المحال أن تكون كل هذه الروايات هى الواقع قال زيد (فى بعض الروايات عنه) : فلما فرغت عرضته عرضةً فلم أجد فيه هذه الآية « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَاعَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً » قال فاستعرضت المهاجرين اسألهم عنها فلم أجدها عند أحدٍ منهم ، ثم استعرضت الأنصار أسألهم عنها فلم أجدها عند أحدٍ منهم حتى وجدتها عند خزيمة يعنى ابن ثابت فكتبتها . ثم عرضته عرضة أخرى فلم أجد فيه هاتين الآيتين : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم) الى آخر السورة فاستعرضت المهاجرين فلم أجدها عند أحدٍ منهم ثم استعرضت الأنصار أسألهم عنها فلم أجدها عند أحدٍ منهم حتى وجدتها مع رجل آخر يدعى خزيمة أيضاً فأثبتها فى آخر « براءة » . ولو تمت ثلاث آيات لجعلتها سورةً على حدة . ثم عرضته عرضة أخرى فلم أجد فيه شيئاً . ثم أرسل عثمان الى حفصة يسألها أن تعطيه الصحيفة وحلف لها ليردنها اليها فأعطته فعرض المصحف عليها فلم يختلف فى شيء فردها اليها وطابت نفسه وأمر الناس أن يكتبوا مصاحف فلما ماتت حفصة أرسل الى عبد الله بن عمر فى الصحيفة بعزمةٍ فأعطاهم اياها فغسلت غسلاً .

قلنا وكلام زيد نص قاطع فى أنه كان يحفظ القرآن كله لم يذهب عنه شئ منه اذ كان يعرض مافى المصحف على مار بط فى صدره وثبت فى حفظه ، ثم هو نص كذلك على أن زيداً كان لا يكتفى فى نفسه بل يذهب يستعرض الناس حتى يجد من يؤدى اليه كيلا ينفرد هو بالحفظ خشية أن يكون موضع ظنة وان كان الصحابة رضى الله عنهم قد اجتمعوا على الثقة به فلم يثبت ما أثبته الا بشاهدين أحدهما من حفظ غيره والآخر من حفظه

ثم بعث عثمان فى كل أفق بمصحف من تلك المصاحف، وكانت سبعة فى قول مشهور ، فأرسل منها الى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة ، وحبس بالمدينة واحداً وهو مصحفه الذى يسمى الأمام — الأصل فى هذه التسمية ماجاء فى بعض الروايات من أن عثمان لما بلغه اختلاف المعلمين فى القرآن كما أوردناه آنفاً قال : عندى تكذبون به وتلحنون فيه فمن نأى عنى كان أشد تكذيباً وأكثر لحناً . يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس اماما — ثم أمر بما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف أن يحرق ولم يجعل فى عزيمته تلك رخصة سائغة لأحد وكان جمع عثمان فى سنة ٢٥ للهجرة ، وانما أراد عثمان بذلك حسم مادة الاختلاف لأنه أمر يمد مع الزمن وتنشعب الأيام به وهو ان أمن فى عصره لم يدر ما يكون بعد عصره . وقد أدرك ان العرب لا يستمرون عربا على الاختلاط والفتوح وان الألسنة تنتقل واللغات تختلف ثم هو رأى ماوقع فى الشعر وروايته وان الاختلاف كان باباً الى الزيادة والابتداع فلم يفعل شيئاً أكثر من أنه حصّن القرآن وأحكم الأسوار حوله ومنع الزمن أن يتطرق اليه بشئ وجعله بذلك فوق الزمن .

ولم تكن المصاحف التى كتبت قبل مصحف عثمان على هذا الترتيب المعروف فى السور الى اليوم فانما هو ترتيب عثمان — وكان تقسيم المصحف ثلاثين جزءاً زمن الحجاج — أما فى ماوراء ذلك فقد رووا أن رسول الله ﷺ كان اذا نزلت سورة دعا بعض من يكتب فقال ضعوا هذه السورة فى الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا ، فكان القرآن مرتب الآيات غير أنه لم يكن مجموعاً بين دفتين ، فلا يؤمن أن يضطرب نسق مجموعه فى أيدى الناس باضطراب القطع التى كتب فيها تقديماً وتأخيراً . ولم يلزم الناس القراءة يومئذ بتوالى السور وذلك ان الواحد منهم اذا حفظ سورة أو كتبها ثم خرج فى سرية — هى عندهم من خمسة أنفس الى ثلاثمئة — أوأر بعمائة — فنزلت سورة أخرى فانه كان اذا رجع يأخذ فى حفظ ماينزل بعد

رجوعه وكتابته ويتتبع مافاته على حسب ماتسهل له أكثره أو أقله فمن ثم يقع في ما يكتبه تأخير المقدم وتقديم المؤخر . فلما جمعه أبو بكر رأى عمر كتبوه على ماوقفهم عليه رسول الله ﷺ ثم كانوا فى أيام عمر يكتبون بعض المصاحف منتسقة السور على ترتيب ابن مسعود وترتيب أبيّ بن كعب وكلاهما قد سرده ابن النديم فى كتابه الفهرست . وقال ابن فارس ان السور فى مصحف عليّ كانت مرتبة على النزول فكان أوله سورة اقرأ باسم ربك ثم المدثر ثم نون ثم المتدثر ثم تبت ثم التكوير وهكذا الى آخر المكى والمدنى ولا حاجة بنا أن نتسع فى استقصاء هذا الخلاف

أما ترتيب مصحف عثمان فهو نسق زيد بن ثابت وهو صاحب العرضة الأخيرة ولعله كان ترتيب مصحف أبى بكر أيضاً لما مر فى الرواية عن زيد من أنه قابل بين الاثنين معارضته والله أعلم . ويرجح أن ترتيب زيد الذى نقرأ به اليوم هو مارضيه رسول الله ﷺ ماروى عن عوف بن مالك وعن حذيفة من أنه عليه الصلاة والسلام تهجّد ذات ليلة فاستفتح فقرأ فى نافذته البقرة وآل عمران والنساء والمائدة فى أربع ركعات سورةً سورة على هذا النسق وهو الذى عليه ترتيب زيد . وهذا الخبر يظاهر ماورد فى معناه وانعقد به التصديق من أن ترتيب الآى انما كان توقيفاً منه صلى الله عليه وسلم ومن قصص زيدٍ عن نفسه فى تلك الرواية تعلم انه كان يحفظ القرآن على ترتيبه آية فآية وسورة فسورة — ولم يكن بعد انتشار المصاحف العثمانية وانتساخها على هيئتها الا أن استوثقت الأمة على ذلك بالطاعة وأحرق كل امرئ ما كان عنده مما يخالفها ترتيبا أو قراءة وأطبق المسلمون على ذلك النسق وذلك الحرف ثم أقبلوا يجدّون فى اخراجها وانتساخها . ولقد روى المسعودى انه رفع من عسكر معاوية فى واقعة صفين نحوٌ من خمسمائة مصحف وهى الخدعة المشهورة التى أشار بها عمرو بن العاص فى تلك الواقعة ولم يكن بين جمع عثمان الى يوم صفين الاّ سبع سنوات

وهنا أمرٌ لا مذهب لنا دون التنبيه عليه وذلك أن جمع القرآن كان استقصاء لما كتب واستيعاباً لما فى الصدور فكانوا لا يقبلون الا بشهادة قد امتحنوها أو حلفٍ قد وثقوا من صاحبه والاّ بعد العرض على من جمعوا وعرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأن الصحابة كانوا لا يحسنون التهجّى ، وقد يكتبون غير مايقرأون على وجهٍ من وجوه الكتابة أو يكتبون بحرفٍ من القراءات كالذى رواه بن فارس بسنده عن هانى قال : كنت عند

عثمان رضى الله تعالى عنه وهم يعرضون المصاحف فأرسلنى بكتف شاة الى أبيّ بن كعب فيها « لم يتسنّ » و « أمهل الكافرين » و « لا تبديل فى الخلق » قال فدعى بالدواة فمحى احدى اللامين وكتب « لخلق الله » ومحى فأمهل وكتب « فمهل » وكتب « لم يتسنّه » ألحق فيها هاء والقراءة على هذا الرسم

فذهب بعض أهل الكلام ممن لا صناعة لهم الا الظن والتأويل واستخراج الأساليب الجدلية من كل حكم وكل قول الى جواز أن يكون قد سقط عنهم من القرآن شئ حملاً على ماوصفوا من كيفية جمعه وهو باطل من الظن لما علمته من أنباء حفظته الذين جمعوه وعرضوه ثم لما رأيت من تثبتهم فى ذلك حتى جمعت لهم الصحة من أطرافها ثم لاجماع الجم الغفير من الصحابة على أن مابين دفتى المصحف هو الذى تلقوه عن رسول الله ﷺ لم يأته الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا اقتطع منه الباطل شيئاً

ونحن فما رأينا روايات تختلف فى شئ من الأشياء فضل اختلاف وتسنم فى الرد والتأويل كل طريق وعر كما رأينا من أمرها فيما عدا نصوص الفاظ القرآن فان هذه الألفاظ متواترة اجماعاً لا يتدارأ فيها الرواة من علا منهم ومن نزل وانما كان ذلك لأن القرآن أصل هذا الدين وما اختلفوا فيه الا من بعد اتساع الفتن وتألب الأحداث وحين رجع بعض الناس من النفاق الى أشد من الأعرابية الأولى وراغ أكثرهم عن موقع اليقين من نفسه فاجترأوا على حدود الله وضربتهم الفتن والشبهات مقبلاً بمدبر ومدبراً بمقبل فصار كل من نزع الى الخلاف يريد أن يجد من القرآن مايختلف معه أو يختلف به وهيهات ذلك الا أن يتدسس فى الرواية بمكروه يكون معه التأويل والأباطيل والاّ أن يفتح الكلمة السيئة و يبالغ فى الحمل على ذمته والعنف بها فى أشياء لا ترد الى الله ولا الى الرسول ولا يعرفها الذين يستنبطون من الحق بل لا يعرفون لها فى الحق وجهاً . ونحسب ان أكثر ذلك مما افترته الملحدة وتزيّدت به الفئة الغالية وهم فرق كثيرة يختلفون فيه بغياً بينهم وكلهم يرجع الى القرآن بزعمه و يرى فيه حجته على مذهبه و بينته على دعواه . ثم أهل الزيغ والعصبية لآرائهم فى الحق والباطل . ثم ضعاف الرواة ممن لا يميزون أو ممن تعارضهم الغفلة فى التمييز وذلك سواد كله ظلمات بعضها فوق بعض ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور . وقد وردت روايات قليلة فى أشياء زعموا أنها كانت قرآناً ورفعت على أن رسول الله ﷺ كان

يقرر الأحكام عن ربه اذا لم ينزل بها قرآن لأن السنة كانت تأتى مأتاه ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « أوتيت الكتاب ومثله معه » يعنى السنن

وعلى هذا الحديث يخرّج فى رأينا كل ما رووه مما حسبوه كان قرآناً فرفع و بطلت تلاوته على قلة ذلك ان صح لانه يكون وحياً وليس كل وحىٍ بقرآن . على أن ما ورد من ذلك ورد معه اضطرابهم فيه وضعف وزنه فى الرواية وأكبر ظننا أنها روايات متأخرة من محدثات الأمور وان فى هذه المحدثات لما هو أشد منها وأجدى بشأنه . ولو كان من تلك شئ فى العهد الأول لرويت معها أقوال أخرى للأئمة الأثبات الذين كان اليهم المفزع من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانو يومئذ متوافرين وكلهم مُقرِن لذلك قوى عليه وكانوا يعلمون أن المراء فى القرآن كفر وردّة وانكار بعضه انكاره بالجلة . وقد أجمعوا على مافى مصحف عثمان وأعطوه بذل السنتهم فى الشهادة أى قوتها وما استطاعت من تصديق. ونحن من جهتنا نمنع كل المنع ولا نعبأ أن يقال انه ذهب من القرآن شئ وان تأولوا لذلك وتمحلوا وان أسندوا الرواية الى جبريل وميكائيل ونعتد ذلك من السوءة الصلعاء التى لا يرحضها من جاء بها ولا يغسلها عن رأسه بعد قول الله « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ولا يتوهمنّ أحد أن نسبة بعض القول الى الصحابة نص فى أن ذلك المقول صحيح البتة فان الصحابة غير معصومين وقد جاءت روايات صحيحة بما اخطأ فيه بعضهم من فهم أشياء من القرآن على عهد رسول الله ﷺ وذلك العهد هو ماهو ثم بما وهل عنه بعضهم مما تحدثوه من أحاديثه الشريفة فاخطأوا فى فهم ماسمعوا ونقلنا فى باب الرواية من تاريخ آداب العرب[1] أن بعضهم كان يرد على بعضٍ فيما يشبّه لهم انه الصواب خوف أن يكونوا قد وهموا . وثبت أن عمر رضى الله عنه شك فى حديث فاطمة بنت قيس بل شك فى حديث عمار بن ياسر فى التيمم لخوف الوهم مع أن عماراً ممن لا يتهم بتعمد الكذب ولا بالكذب وهلة اصحبتهِ وسابقتهِ مع رسول الله ﷺ ولذلك أذن له عمر فى رواية هذا الحديث مع شكه هو فى صحته .

على أن تلك الروايات القليلة فى مازعموه كان قرآناً و بطلت تلاوته ان صحت أسانيدها

(١) هو كتاب لم يصنف فى بابه نظيره من تأليف الاستاذ الرافعى الذي ننقل عنه هذا الفصل

أولم تصح فهى على ضعفها وقلتها مما لاحفل به مادام الى جانبها اجماع الأمة وتظاهر الروايات الصحيحة وتواتر النقل والأداء على التوثيق . انتهى

وخلاصة القول انهم جمعوا القرآن من الادم والعسب والكرانيف واللخاف وعرضوه على مافى صدور الرجال لا عرضة واحدة بل عرضات متعددة وكان ذلك بين مئات وألوف يستحيل تواطئهم على الكذب أو على زيادة أو على نقصان ولذلك اطمأنت النفوس وثلجت القلوب واقتنعت العقول بان هذا هو القرآن كما أنزل وأصبح مايروى خلاف ذلك لا يعبأ به وأما الاختلاف فى وجوه القراءات فهو شئ آخر لا يتعلق بالكلام الالهى نفسهِ بل بكيفية قراءته وقد كانت لهجات العرب تختلف بعض الشئ كما لا يخفى

***

ثم نعود الى «درمنغهم» الذى يحاول فى جميع كتابه التألف بين الاسلام والمسيحية فهو يقول فى صفحة ١٣٤ : « ان نفساً قوية طاهرة نظير نفس محمد فى اتصال مع الحقائق التى وجدها هذا الرجل فى نفسه فى أثناء خلواته العظيمة فى الصحراء والجبال كانت تشعر بأن الديانة ليست عبارة عن تأمل مجرد وعن محاضرة ملقاة بل هى حقيقة يراها الانسان من نفسه وكلٌّ من البشر يتمثل الله تعالى كما يقدر ولكن المهم أن يكون ملآن شعوراً بالحقيقة الالهية وأن يسلم نفسه لله وهذا هو الاسلام»

ثم قال : ان الهوّة التى قد احتفرها المسيحيون والمسلمون فيما بينهم لم تكن فى الحقيقة بين الاسلام والنصرانية وانما كانت نتيجة المنازعات المبنية على سوء التفاهم . فأهل الكتاب كانوا بادئ ذى بدء أنصاراً لمحمد ثم لم يفتئوا أن أبوا الاعتراف بنبوّته وأن هزأوا به كما أن المسلمين هم أيضاً من جهتهم تباعدوا ما أمكنهم عن النصرانية . مفسّرى القرآن بدلاً من أن يظهروا ما بين الديانتين من الموافقات اجتهدوا فى اثبات ما بينهما من المفارقات . فالقرآن اقرب كثيراً الى النصرانية من السنة المروية وعلى كل حال الأحاديث المنسوبة الى الرسول هى التى حفرت هذه الهوّة بين الديانتين وفى هذه الأحاديث من الروايات المدخولة والموضوعات ما هو معلوم (هكذا زعم درمنغهم)

ثم قال : ولما نشبت الحروب مدة قرون متطاولة بين المسلمين والمسيحيين ازداد بينهم سوء التفاهم واشتدت البغضاء كثيراً ، ومما يجب أن نعترف به أن أكثر البغضاء كان من

جهة المسيحيين فقد كان البيزنطيون يحتقرون الاسلام بلا تأمل ولا بحث وجميعهم ما عدا يُوحنّا الدمشقى لم يحملوا أنفسهم على درس عقيدة الاسلام وانما حملوا عليه بالطعن والقذف بلا فحص وأخذوا يصوّرون محمداً بصُور غريبة جداً ويشوهون من هذه الصورة ما أمكنهم. (وذكر هنا المطاعن التى كانوا يُوجهّونها الى النبى ﷺ مما أبينا نقله نظراً لسُخفه وسفاهته وسقوطه من نفسه حتى ان درمنغهم نفسه هزأ كثيراً بهذه المطاعن بالرغم من كونه مسيحيًّا معتقداً) فالتناقض الذى بين الملتين كانت قواعدُه الأساسية أخباراً واهية مثل أن محمداً كان صنما من ذهب وأن مساجد المسلمين هى هيا كل ملأى بالتماثيل ! وقد ورد فى أُغنيّة اسمها « أغنية أنطاكية » ما يفيد أن ناظم تلك الأُغنية قد رأى فى تلك الهيا كل محمداً بشكل صنم من ذهب وفضة ، راكباً على فيل ، وهذا الفيل على قاعدة من الفُسَيْفِساء ، ثم ان الأغنية المسماة بأغنية « رولان » والتى تمثل فرسان شرلمان وهم يحطّمون أصنام المسلمين فيها ان المسلمين يعبدون ثالوثاً مؤلفاً من ترڤاغانت Tervagant ومحمد وأبُولون (كل شىء خطر فى البال الا نسبة عبادة الثالوث الى المسلمين) ثم ان قصصاً يسمى قصص محمد Roman du Mohamet ورد فيه ما يفيد أن الاسلام يجيز اشتراك جملة رجال فى زوجة واحدة !

ولقد طال أمد هذه البغضاء وهذه الأباطيل كثيراً منذ أيام «رودلف دو لودهيم» Rudolph de Ludheim الى أيامنا هذه أيام « نيقولا دوكوز Nicolas de Cuse و « ڤيڤيس » Vives و «مراشى » Maracci و «هوتنجر » Hottinger و « بيبليندر » Bibliander و « بريدو » Prideaux فقد مثّل هؤلاء محمداً كرجل كاذب ، والاسلام كعمل من أعمال الشيطان ، والمسلمين كقوم همج ، والقرآن ككتاب منسوج من أوله الى آخره بالمحالات . وكانوا بزعمهم لا يجدون حاجة الى الأخذ والردّ فى هزء كهذا . ثم انّ « بيير لوڤنيرابل » Pierre Le Vénerable مؤلف أول كتاب فى أوربا ضد الاسلام ترجم مع ذلك فى القرن الثانى عشر القرآن الى اللاتينية. ثم فى القرن الرابع عشر ظهر « بيير بَاسْكال » فعلم عن الاسلام أكثر من غيره . ثم ان « البابا اينوسَانيوس الثالث » قال عن محمد انه المسيح الدجال . ولكن فى القرون الوسطى بدأوا ينظرون اليه كرجل مبتدع ممن يقال لهم الهراطقة . ثم ظهر « ريموند لول » Raymond Lulle فى القرن الرابع عشر

و«غليوم بوستل» Postel فى القرن السادس عشر و«رولان» و«غانييه» Roland & Ganier فى القرن الثامن عشر والأب « دو بروغلى » de Brogli و « رنان » Renan فى القرن التاسع عشر وكانت أحكامهم فى هذا الموضوع متفاوتة ليست على وتيرة واحدة . أما ڤولتير فقد كان كتب الرواية المسماة برواية محمد و بناها على غير تحقيق . ثم عاد فصحّح قسما كثيراً مما وهن فيه ، وقد ارتكب « مونتسكيو » Montesquieu بعد « باسكال » و « مالبرانش » أغلاطاً كثيرة فيما يتعلق بالاسلام نفسه الا أنه كانت له آراء سَديدة وأحياناً عادلة فيما يتعلق بعادات المسلمين ثم ظهر الكونت « دو بالانڤيلييه » De Boulainvilliess و « شول » Scholl و « كوسين دوبرسفال » Caussin de Perceval و « دوزى » Dozy و« سبرنجر» Sprenger و « بارتِلمى سانتيلير » Barthelemy Saint-Hilaire (١) و « دوكاستري » de Castries و « كارليل » Carlyle وهؤلاء كانوا على وجه الاجمال موافقين للاسلام ونبيّ الاسلام ، وربما أثنوا عليهما غير أن « دروتى » Droughty فى سنة ١٨٧٦ و « فوستر » Foster سنة ١٨٢٢ قد أخشا فى الطعن فى الاسلام وفى محمد . ولا يزال للاسلام الى يومنا هذا أعداء شديدو العصبية

أما المسلمون فانهم وان كانوا من جهتهم قد درسوا فى دور ازدهار المعارف عندهم الديانة النصرانية درساً أشبه بدرس ڤولتير معتمداً على الأدلة السطحية فقد كانوا هم أيضاً يرمون الى التباعد لا الى التقارب . وكانوا لا يريدون أن يبحثوا فى النصرانية من شدة ازدرائهم بها . وقد صاروا يلقبون « بالكافرين » أهل الكتاب وتلاميذ عيسى الذين جاء فى القرآن أنهم أقرب الناس مودة الى الذين آمنوا . وحتى هذه الساعة يفضل المسلمون أن يروا أولادهم أمواتاً على أن يروهم مسيحيين

فهذه الحواجز الصُنْعية غير الطبيعية كان علينا نحن أن نهدمها بأيدينا بازالة الأوهام لأن النور يكفى لازالة الأشباح . ويجب علينا أن نفهم أن العبرة انما هى بروح الموضوع فقط . فالعلاقات النّسْبيَّة لا تزيل الحقيقة المطلقة ، والوحى الالهيّ يخرج من الأفواه البشرية على حسب الأمكنة والأزمنة . فلا يمكن أن تأتينا الحقيقة دفعة واحدة أو أن تهبط علينا كلها كاملة وانما يحييها ويكمّلها فينا استعدادُنا النفسيّ . قال : ولكلٍّ من الديانات المنزلة

(١) هذاالرجل قال ان محمداً من أعظم العبقريين الذين أنجبتهم البشرية

خاصة تمتاز بها . فالاسلام مظهرُه التوحيد وهَيْمنة الخالق ، وجبروته ورحمته ، والمسيحية خاصتّها المحبّة ، والوثنية نفسها لا تنكر الالوهية ولكنّها تراها تحت أشكال أخرى مبُعثرة مشوهّة ، منحرفة عن الصراط المستقيم ، وبالجملة فالنصرانية تتضمن الاسلام وتزيد عليه بعض أشياء ولكن كلتا الديانتين غيرُ مناقضة للاخرى كما يُظَنّ . وكان يجب على أتباعهما بدلاً من أن يتصارعوا ويتقاتلوا أن يتنافسوا فى العبادة والفضيلة ونحن نراهم على العكس من ذلك ، لا يشتغلون بتمجيد البارى تعالى ، كما يشتغلون بمعاداة بعضهم بعضاً

وقد جاء فى القرآن شىء من التساؤل عما اذا كان الله نفسه لم يشأ تقسيم البشر مللاً ونحلاً الى حد محدود لكن بدون تعصب وشنآن . فقد قال : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً . وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ) ثم يقول : (إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ جَمِيعاً بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ).وقال: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

ثم أخذ درمنغهم يذكر ما فى الاختلاف أحياناً من الفائدة وقال ان المبادىء قد تختلف بالضرورة بحسب الزمان والمكان فيكون اختلافها موافقاً للرقى البشرى . وقد كان الأنبياء بحسب التوراة يتزوجون بزوجات متعددات . وكان المسيحيون الأولون يقاتلون الوثنية والأوثان أشد قتال الا أنهم بعد أن زال خطر الوثنية رجعوا يقدمون للقديسين شيئا من العبادة وهذا ان بقى ضمن حدود الاعتدال ، لا يخلو مما يفيد الحياة الروحية . ولقد منع الاسلام التماثيل والتصاوير فامتدّت صناعة الاسلام فى النقش الى ما لا نهاية له فى تمثيل المخلوقات غير الحيّة كما أن النصرانية أخذت بالصناعة اليونانية فى تمثيل الأجسام البشرية . وكل من الفريقين أتقن الصناعة التى اعتمد عليها ، فكان من ذلك نتيجة سعيدة جداً فى باب المدنية ولم تكن كذلك لو بقيت الصناعة منحصرة فى طرز واحد

ثم قال درمنغهم ان الفتوحات الاسلامية كانت جزاء وفاقاً المسيحية الشرقية التى استرسلت الى المجادلات الدينية وطالما كان فى العقاب فوائد ، فان ظهور المسلمين فى الشرق أهاب بالمسيحيين فى أوربا الى الاتحاد لأنهم وَجدوا أنفسهم تحت الخطر ان لم يصلحوا أنفسهم وان لم ينهضوا عن المستوى الذى كانوا فيه

ثم قال ان القرآن يؤيد دائماً التوراة والانجيل فلا يمكنه أن يناقضهما وقد جاء فيه

خطاباً للنبيّ : (فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأُون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق فلا تكوننّ من الممترين ولا تكوننّ من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين) ثم ذكر درمنغهم قول القرآن فى ابراهيم : (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلٰكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) وعلّل ذلك بقوله ، ان ملة ابراهيم هى ملة جميع المؤمنين بالله

***

ولقد آثرنا تلخيص هذا الفصل من كلام درمنغهم وان كنا لا نوافق على كل ما فيه بتمامه وذلك لأن فيه معلومات كثيرة جليلة يجدر بالمسلمين أن يطلعوا عليها ومن جلتها الأكاذيب التى بقى الافرنج قروناً متطاولة يروجونها فى حق محمد ﷺ ليصرفوا أنظار شعوبهم عن الاسلام ومن جلتها اعتراف المؤلف المذكور برغم كونه مسيحيًّا كاثوليكياً مؤمناً بدينه ان أكثر العداوة بين المسيحيين والمسلمين انما جاء من قبل المسيحيين . وكأنه يرى ذلك غريباً جداً من قوم ، يأمرهم متبوعهم الدينى بأن يحبوا أعداءهم . ولم يكن درمنغهم الفرنسى هو الأوربى الوحيد الذى اعترف بأن المسيحيين هم أشد الفريقين عداوةً وشنآناً وان المسلمين أقرب الى التسامح . فقد قرأت هذا فى مواضع كثيرة من تآليف الاوربيين ومن جلتها تأليف اسمه « مائة مشروع تقسيم لتركيا من سنة ١٢٨١ الى سنة ١٩١٣ » للمسيو « د جوڤارا » Djuvara Cent projets de partage de la Turquie (1281-1913) من وزراء دولة رومانيا مصدر بمقدمة بقلم المسيو لويس رينولت Renault من علماء الحقوق بفرنسة . وقد جاءت فى المقدمة وفى الكتاب معلومات هى فى الدرجة القصوى من الأهمية قد نلمّ ببعضها فى المظان اللازمة . وانما نذكر الآن قول « دجوڤارا » فى الصفحة الثالثة من كتابه وهو : « ان أردنا أن نعدل ونقول الحق وجب علينا أن نعترف بأن هناك عداوةً قد نزل بها القضاء بين المسيحيين والمسلمين وأثقلت دائماً العلاقات التى بين الفريقين وانه برغم روح التسامح الدينى فى العصر الحديث لا يزال خمير هذه العداوة بين هذه الأمم ولا سيما من جهة المسيحيين » وهذا يخالف ما لا يزال يردده بعضهم من ذكر « التعصب الاسلامى » وضربهم به المثل .

ومن أحسن ما فى كلام درمنغهم حسن النيّة وخلوص الطوية وكون هذا الرجل

عمل بكل ما فى قدرته لازالة شدة هذا التنافر الذى بين المسلمين والمسيحيين . ومن يقدر أن لايحمد عملاً كهذا لأن عداوات الأديان بما خالطها من مفاسد السياسة ومن مطامع الرئاسة كانت من أعظم المصائب على البشرية . وقد نقل درمنغهم السيرة النبوية عن كتب المسلمين بدون أدنى تحامل ولا تحريف ولا مكابرة ولا محاولة تعمية أو تغطية للحقائق وكان يستنتج ما يريد استنتاجه بحسب ما يؤديه اليه اجتهاده ولكن بدون غرض ولا خبث وفى صفحة ١٨٣ ذكر أنه وان كان بعضهم يعيب محمداً بشدة ميله الى النساء فانه مما لا مشاحة فيه ان محمداً لم يكن شرهاً ولا فخوراً ولا متعصباً ولا منقاداً للمطامع ، بل كان حليما رقيق القلب عظيم الانسانية وأحياناً متردداً اذا لم يكن ثمة عنده ما يعتقده وحياً الهياً اليه . وكان بشوشاً دمث الأخلاق حسن المعشرة ساذج المعيشة يكنس غرفته بيده ويصلح ثيابه ، ويخصف نعله ، ويحلب شياهه ويضطجع فى أرض المسجد وينهض ويفتح الباب لأجل هرّة تريد أن تدخل ، ويعالج ديكا مريضاً ، ويمسح ببردته عرق جواده ويوزع الصدقات بمجرد مايدخل فى يده شيء من المال ويتجنب كل شيء يظهر فيه بمظهر ملك دنيوىّ . وكان يمنع الناس أن يجعلوه سيداً ولم يكن عنده لا بلاط ولا وزراء ولا شيء من أبهة الملوك وانما كان عنده بعض أعوان يستشيرهم وبعض كتبة يكتبون له وخاتم من فضة منقوش عليه محمد رسول الله

وقال أيضاً ان محمداً كان يقضى أكثر أوقاته فى الصلاة سواء فى الخلوات أو الجلوات وفى الوعظ وفى الشغل ويقضى نصيباً من وقته مع نسائه ولم يكن يكره التسلى والتفريج عن القلب ، وفى ذات يوم عرض على عائشة أن تذهب وتشاهد أناساً من السودان يلعبون بالسيف والترس فذهبت عائشة بجانبه وتسلت بهذا المشهد وكان عمر أراد أن يطرد هؤلاء اللاعبين فانتهره محمد وقال له : دعهم فلكل أمةٍ أعياد وملاهٍ وهذا هو عيدنا اليوم . وكان أبو بكر أراد منع جاريتين من جوارى المدينة من الغناء أمام عائشة لقصائد فيها ذكر الحروب الماضية الا أن محمداً خالفه فى ذلك وسمح بالغناء . وكان محمد يحب الأطفال كثيرا ويلعب معهم ويترك أولاد بنتِهِ يركبون على ظهره حتى فى الصلاة ويلعبون على المنبر وهو يخطب . وكانت مرة فتاة صغيرة لابسة قميصا أصفر تلعب بين يديه وهو يداعبها ويمدح لها ذلك القميص ويستحسنه فمدت اصبعها الى ما بين منكبيه ولمست الشامة

التى يقال لها خاتم النبوة فانتهرتها والدتها فقال لها محمد دعيها . وكذلك كان يحب أن يضع الحلى للبنات الصغار وقد وضع مرة عقوداً وأسورة ليتيمتين من المدينة وتأسف أن لا يكون أسامة بن زيد الحب فتاة فكان يغطيه فى الحلى من رأسه الى قدمه وكان يعجب من كون أهل البادية لايقبّلون أولادهم وكان يقول ان البنات يقين والدهن من نيران جهنم . وكان أنس خادم محمد مدة عشر سنوت ملازماً له وكان يذكر عجيب صبره ويقول انه ما وبخه ولا مرة وكان حسن العشرة مع الجميع حتى مع الذين لم يكن رأيه فيهم حسناً ولم يكن ينطق بكلمة غليظة أصلا .وكان بابه مفتوحاً للجميع الا أنه كان يحب أن يحافظ على خلواته وقد نهى القرآن عن الدخول على الرسول بدون اذن وعن مناداته من وراء الجدران . (يشير درمنغهم الى ماورد فى سورة الحجرات : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

ومما قاله وهو بحث جليل أشار اليه ابن خلدون فى مقدمته وهو ان سلطة النبى برغم علو منزلته عند العرب لم يكن من السهل اجراؤها دائماً على تلك الأقوام التى هى بفطرتها صعبة القياد . قال انه قل أن يوجد فى البشر رجل مطاع كما كان مطاعاً محمد . ولكن العرب المعتادين الفوضى لم يكونو يعلمون شيئاً من النظام وكان يصعب عليهم جداً الانقياد فكان من معجزات محمد أن جمعهم جميعاً فى دائرة الاسلام . وكان فى المدينة المنافقون الذين كانوا فى الباطن أعداء للرسول وكان الأنصار الذين لم يكونوا يتفقون دائماً مع المهاجرين وسواء كان الأنصار أو المهاجرون فكان الجميع لايأتلفون مع الأعراب أهل الوبر وكانت المنافسات والمفاخرات والنخوة سبباً للمخاصمات المستمرة وكذلك كانت تقع المخاصمات من أجل الدعاوى المالية ومن أجل تقسيم الغنائم وكان محمد يصلح جميع هذه الأمور اما بالوحى واما بحسن السياسة . وكانت نزاهته الشخصية مثالاً يقتدون به . وكان محمد شديد الاهتمام بالأعراب وكثيراً ماعنى بايطانهم المدينه وكان يطالبهم بأن يسكنوا فى المدينة ولا يعودوا للبادية واقتفى أثره فى ذلك الخلفاء الراشدون فكانوا يشددون على البوادى واذا سكن

أحدهم فى المدينة لم يسمحوا له أن يبرحها حتى قيل ان بدوياً انتحر من شدة حنينه الى نجعه . وكان النبي يخشى على امته مايقال له « اللبن » أى عيشة الرعاة و بعبارة أخرى البداوة . فأنت ترى كم ظلم بعضهم الاسلام فى اتهامهم اياه بالميل الى البداوة . وطالما أطرى الرسول معيشة المدينة برغم الحمى التي كانت فيها والتى اشتكى منها المهاجرون كثيراً . وطالما تحمل النبي من غلظة البدوى وصبر عليها وقيل ان أحد البدو بال فى المسجد فأرادوا أن يضربوه فنهاهم الرسول وقال لهم دعوه وصبوا سطل ماء حيث بال . وجذبه مرة اعرابيّ جذبة شديدة آذاه بها قائلاً له قل لهم يعطونى نصيباً من مال الله الذى بيدك فالتفت نحوه الرسول باسماً وقال لهم ليعطوه نصيباً . ولا شك فى أن البوادى من أبعد الناس عن الديانة وقد ورد هذا المعنى فى القرآن كثيراً ولذلك سكان الحواضر أقرب الى الاسلام من سكان البوادى .

ومما قاله درمنغهم : قال محمد ان الشهيد هو الذى يبذل نفسه فى غير امور الدنيا وقال أيضاً : الجنة تحت ظلال السيوف . وقال بولس ان الموت هو العدو الأخير الذى سيهدم ولا شك ان الأديان انما تزكو وتنمو بدماء الشهداء فالاسلام فى آخر الأمر اختار الجهاد بالسيف لأجل نشر دعوة الحق ولم يكن محمد من الكويكر(١) بل كان يرى ان من الأشياء مالا مناص فيه عن الجهاد والقتال وانه فى هذه الدنيا الملأى بالشرور لا يكون استعمال القوة القاهرة غير جائز الا اذا كان مبنياً على الظلم والبغضاء وليس من الممكن أن يقف الانسان مكتوف الأيدى أمام الشر الصائل . وقد بقى المسلمون مدة عشر سنوات يتحملون ألوان الانتقام فى مكة وأخيراً اضطروا الى هجرة وطنهم وسكنوا المدينة . وكانت قريش تأتمر بمحمد لتقتله وتتحدث بمهاجمة المدينة للقضاء عليه وعلى الاسلام فمن ذلك الوقت وجب على المسلمين أن يَقتلوا و يُقتَلوا وصار القتال فى سبيل الله من أفضل القربات ومن طرق الشهادة (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون و يقتلون) ولا يخلو الأمر من مشابهة بين المسلمين الأولين والمسيحيين الأولين فى الاستباق الى الشهادة ولا شك فى ان الشهيد المسيحى الأول القديس اتيانوس الذى كان يدعو لقاتليه يستحق من الاعجاب أكثر من الشهيد المسلم الأول خُبَيْب

(١) طائفة انكليزية تريد الوصول الى الحق بسلام

الذى كان يدعو على أعدائه (ان الرسول طالما دعا أيضاً لأعدائه أن يهديهم ويردهم الى الصواب) ولكن الفريقين كانوا يموتون فى سبيل ايمانهم معتقدين بأنهم سيكونون شهداء فالمبدأ واحد ولكن الأحوال مختلفة . ففى السلطنة الرومانية كان المسيحيون الأوائل فى بلاد متمدنة ذات ادارة منتظمة رعايا لقيصر الذىأوصاهم المسيح بأن يعطوه ماله فكان لابد لهم من أن ينقادوا لأحكام الدولة كما انقاد سقراط نفسه لحكم دولته . فأما فى بلاد العرب التى كانت فوضى وكانت كلها قبائل فىقتال دائم ولم يكن الواحد يخرج الامتقلداً سيفه أو متنكباً قوسه فكان لابد بضرورة الحال من أن يلجأ المسلمون الى القتال اذ لم يكن أمامهم غير الأسنة مركباً . وهنا نقل درمنغهم كلاماً عن المسيو ماريتين Maritain فى كتابه « أولية التأثير الروحى » وهو ان المسيحيين فى القرون الأولى من النصرانية لم يكونوا يفكرون فى هدم السلطنة الرومانية لأنهم كانوا عاجزين عن اقامة سلطنة مسيحية مكانها . فلذلك لم يكونوا يفكرون الا فى الحياة الأبدية وفى مصالح الآخرة فكانت ثورتهم عقيمة لاثمرة لها الا مجرد الاضطراب الداخلى فلم يبق أمامهم الا نيل الشهادة وهو فى الواقع أحسن حل للمسألة فى مثل تلك الحال التى كانوا فيها .

وكان محمد يقول يجب أن يتم هذا الأمر حتى يقدر الفارس أن يسير من صنعاء الى حضرموت بدون أن يخشى شيئاً سوى الله على نفسه والذئب على غنمه . ولم تكن قضية الجهاد ترمى الى هداية البشر تحت التهديد بالسيف كلا بل جاء فى القرآن : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) . وجاء فى القرآن النهى عن الاعتداء . وكل ماورد فيه ممايتعلق بالجهاد فى آيات متعددة متفرقة هو موقوف على حوادث خاصة معينة وقعت مع النبى وأصحابه . ولا يكون موافقاً للواقع أن يتخذ منها قاعدة عامة يجب تطبيق أحكامها على جميع الأحوال . ومما لاينكر أن الجهاد قد دخل فيه مطامع فى غير الجهة الروحية واتخذه بعض المسلمين وسيلة لكسب حظوظ الدنيا ولكن القرآن يقيم التنكير على هذه الأمور وان كان يسمح بمقابلة الشدة بمثلها . وكثيراً ما حلم محمد وعطف وتجاوز عن السيئات . وفى ظفره الأخير قد أظهر من علو النفس ماينذر نظيره فى التاريخ وكان يأمر جنده بأن يتجنبوا الضعفاء والأطفال والشيوخ والنساء ويحظر عليهمأن يهدموا البيوت أو أن ينتهبوا الغلات أو ان يقطعوا الأشجار المثمرة وكان يأمرهم بأن لايسلوا السيوف الا عند الضرورة المطلقة

وكثيراً ما أنكر أعمال بعض أتباعه وجبر مما كسروه وكان يقول لأن يهدى الله نفساً واحداً خير من جميع مكاسب الدنيا (لَأَنْ يَهْدِيَ بِكَ اللهُ رَجلاً وَاحِداً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حُمُرِ النَّعَمِ).

وكانت الغنائم فى ذلك الوقت هى نتيجة الحرب الطبيعية وكانت هى والتجارة ورعاية المواشى جميع منابع رزق العرب فبديهى أن يكون محمد أباح الغنائم للمسلمين فى حال ضعفهم ولكنه قد جعل للغنائم قواعد وخصص جانباً عظيماً منها بالصدقات وبميرة الجيش وحظر فى تقسيم السبي فصل الاولاد عن امهاتهم ولم يكن فى وسعه أن ينقل العرب عن طباعهم التى فطروا عليها دفعة واحدة وانما كان يهذب منها بقدر امكانه وكثيراً ما كان يحض على العفو عند المقدرة وقد روى عنه حديث ان الذى يغفر السيئات يقرب من درجة النبوة.

ولا ينكر أن كثيراً من الصحابة أصبحوا أغنياء وافرين مما غنموه من كنوز الاكاسرة وفتح مصر وغيرها وكان أناس من البدو قد أصبحوا بتلك الفتوحات يلعبون بحلى الملوك الساسانيين وقيل ان الزبير بن العوام مات عن تركة تبلغ نحواً من خمسين مليوناً(١) وكان الرسول يقول لأصحابه وهو يفكر فى المستقبل ما أخشى عليكم من شيء مثل مكاسب الدنيا الفانية. ولما قتل مصعب بن عمير فى وقعة أحد كان من الفقر بحيث لم يجدوا ما يكفنونه به الا خرقة قصيرة لم تكن لتوارى من بدنه الا القسم الأعلى فغطوا سائر بدنه بالعشب. وذكر عند عبدالرحمن بن عوف فقال، كان خيراً منا نحن الذين أفاض الله علينا من خيرات هذه الدنيا افتراه تعالى اكتفى لنا بها عن الآخرة؟ وأخذ يبكى

ثم ذكر درمنغهم فى صفحة ٢٧٣ قول «غوته» أكبر شعراء الالمان وهو «ان كان هذا هو الاسلام أفلسنا كلنا مسلمين؟»

---

(١) الصحيح أن الزبير رضى الله عنه لم يترك الا أراضى أمر ولده عبد الله بأن يطرحها للبيع لايفاء ديونه وكان عبد الله ابن الزبير يظن أن ثمن هذه الأراضى لا يكفي لايفاء الديون التى كانت علي أبيه الا أنه عند بيع الأراضى كانت أثمانها قد ارتفعت كثيراً فتمكنوا من ايفاء جميع الديون وبقي شيء من الأراضى لورثة الزبير. وكان عثمان ابن عفان وطلحة وعبد الرحمن ابن عوف وغيرهم من الصحابة أصحاب يسار تام وكانت لهم عقارات وأموال ومواش تجعلهم فى صف الأغنياء حتى فى هذا العصر ولكنهم برغم هذه الثروة كلها لم يكونوا يعيشون معيشة التنعم المعروفة للمترفين بل كانوا ينفقون أموالهم فى الدين والمروءة والرفد وقضاء مغارم الضعفاء

ثم قال : لا جرم ان محمداً قد نهض داعياً العرب الى الدين الوحيد اللائق بالاله الواحد ليوقظ بدينه هذا جانبا من آسية وافريقية وليحطم قيود التقليد ولينبّه فارس التى كانت نائمة ونصرانية الشرق التى كانت ممزّقة بالمجادلات الدينية . ولا جدال فى ان الأنبياء فى العالم هم أشبه بالقوى الطبيعية العظيمة المحسنة الهائلة التى هى من قبيل الشمس والمطر والزوابع التى تهزّ الأرض ثم تغطيها خضرة ونضرةً . فيجب على الناس أن يعرفوهم بثمرات أعمالهم وأصدق الشهود عليها هى الصدور الثالجة باليقين والقلوب المطمئنة والعزائم الناهضة والنفوس الصابرة على البلاء والاسقام الأدبية الزائلة والصلوات الطاهرة الصاعدة الى السماء .

وهؤلاء الأنبياء منفردين بدون قوة مادة وبدون أيدٍ — سوى الأيد الالهى — وبرغم مقاومة الكبر البشرى لهم تجدهم يأتون بكشف سر الحرية فى أسمى معانيها يقولون بطاعة الخالق لا المخلوق وبالمساواة التامة امام الخالق تعالى وبتقديم المعنى على اللفظ . وهكذا ظهر محمد لا يعرف شيئاً من العلوم غير العلم الأعلى أميًّا طاهراً ساذج الطبيعة طليقاً من قيود الأوهام ، فدعا العلماء أن يفهموا مايقولون ونبه الذين يقال انهم حكماء الى سلوك السبل المستقيمة وكان الناس اذا سمعوا ماينطق به مثل : (إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) يعودون فيلمسون سر الحياة الذى يحيط بهم متواضعين لله تعالى متوجهين اليه ويعلمون هناك قاعدة تفرق بين الطاعة والمعصية مما يعجز عن الأتيان بمثله الفلاسفة ومدبرو الممالك .

قال درمنغهم : ان محمداً جاء فى أشدّ الأعصر ظلمات حينما كانت المدنيات باجمعها قد تداعت الى الخراب من بلاد الغال الميروفنجية الى بلاد الهند وكان الاضطراب شاملاً فتسمّى محمداً (١) وتلقب بالنبيّ الأميّ . وكان يرى نفسه أداة للوحى ومبلّغاً واعياً يسمع ما يلقى اليه من فم الشخص النورانى الذى يشاهده ومن الصوت الذى يسمعه فيلقيه الى الناس (ما على الرسول الا البلاغ) وهذا الوحى هو الكلمة الالهية القديمة التى هى « أم الكتاب » المحفوظة فى السماء السابعة تحرسها الملائكة المسبّحون وانما اتخذت بالقرآن قالباً أرضيا — الى أن يقول : اننا نرى القرآن نازلاً بحسب الوقائع موحى به يوماً فيوماً وشيئاً فشيئا وفقا

(١) اشارة الى ما ورد فى التوراة من مجىء البارقليط الذي اسمه أحمد

للضرورات المتجددة ولمصلحة الأمة وكثيراً مانسخ منه الآخر الأول بحسب ضعف البشر واجابةً لرغائبهم وعلى كل حال فكانت الرسالة فى نظر محمد أسمى من الرسول وكانت سورة واحدة من كلام الله أفضل من النبي وعترته . ولما كان لكل نبيٍّ معجزة كانت معجزة محمد القرآن .

ومما لا يقبل المراء ان فى القرآن من سحر البيان مالا يوجد فى كلامٍ غيره على الاطلاق وان فيه من قوة التأثير والعمل فى القلوب مالا يبرح الى اليوم سرّاً مغلقاً حتى انه ليقذف بالخشوع فى قلب أقل الناس خشية وأبعدهم عن التقوى. وكان محمد يتحدى عبقرية العرب أن يأتوا بسورةٍ من مثله . ولم يكن اعجاز القرآن فى مزيتهِ اللغوية من جهة مايسمى اليوم بالأدب بل كان هذا الضرب مما يحتقره محمد وكان يكره الشعراء ويبرأ أن يكون منهم وانما كان اعجاز القرآن فى شدة التأثير وعجز الناس عن الاتيان بمثله

قال درمنغهم : انه لم يبقَ أدنى شك فى صدق محمد . فان جميع حياته برغم بعض أغلاط قد اعترف هو بها تدل على كونه معتقداً بكليتهِ بالرسالة التى عهد بها اليه وأنه وجد من الواجب عليه أن يقوم بهذه الرسالة مهما آده من حملها . وأن جميع ماظهر من هذا الرجل من قوة ايجاد وتناهي عبقرية وحدة ذكاء ومواجهة تامة للحقائق وضبط نفس وشدة ارادة وحسن تدبير واتقان عمل وبالجملة جميع حياته تمنع من أن ينظرَ الى هذا الملهم الصافى الذهن كرجل مصاب بصرع . اه

يشير درمنغهم بهذا الى مايزعمه أعداء الاسلام من كون حركة الوحى التى كانت تحصل للنبي ﷺ انما هى من علة جسمانية فيه قال بعضهم انها مرض الصرع . ولكن أكثر الاوربيين اليوم رجعوا عن هذه الفكرة وعلموا أن ﷺ لم يكن مصاباً بمرض الصرع ولا بمرض عصبي آخر وأنه كان معتدل المزاج كامل الخلقة لاشائبة فيه ومن جملة من صرح بهذا القول المستشرق ماسينيون الافرنسى الذى هو كاثوليكى النزعة مثل درمنغهم . أما ما ذكره درمنغهم من أن للنبي أغلاطاً كان هو يعترف بها فالمسلمون يقررون العصمة للنبي ولجميع الانبياء صلوات الله عليهم وذلك فى الامور الدينية وهم ينزهونهم عن الكبائر . فوجب ايضاح العقيدة الاسلامية فى هذا الشأن . وأما الكاثوليك فيجعلون العصمة للبابا فى الامور الدينية شرطاً من شروط دياناتهم

ثم قال درمنغهم : ان محمداً لم يكن يلتزم أن يجذب قومه الى عقيدته بجميع الطرق ولم يكن همه أن يسهل عليهم الامور ليتبعوا دعوته وانما كان يبلغهم رسالته لامعة كالسيف القاطع وكان يفرق بينها و بين آرائه الشخصية . ويقول بعضهم انه لم يكن فى المدينة النبي الخاشع الصابر الذى كان بمكة . وجواب هذا ان الاحوال قد تتغيّر وانه كان حتماً عليه أن يغيّر من خطته لاجل تثبيت دعوته . وربما يكون أخطأ فى بعض أعماله لأن العمل غير النظر ولكنه على كل حال بقى صادقاً فى دعوته ثابتاً متيناً وان كان قد أخطأ فانه لم يكذب قط . وكيف يكون قد كذب ورسالته كانت تتأيّد كل يوم وتثمر ثمرات لا تكون الا للحقائق .

قال وكانت عظمة محمد الحقيقية هى العظمة الآتية له من الله بالالهام الالهى الذى كان يقذف فى روعه . وأما فيما عدا ذالك فكان يشعر بضعفه وعجزه . وكان يتهجّد الليل و يستغيث بالله و يسأله تعالى دائماً أن لا يخذله . وقالت له زوجته أم سلمة مرة : لماذا لا تفتأ تقول هذا والله قد غفر لك ماتقدم وما تأخر من ذنبك . فاجابها : كيف لا أخشى الله وقد تخلّى مرة عن يونس . وكان يدعو الله قائلاً : اغفر لى ذنوبى الحاضرة والماضية والظاهرة والباطنة وطهرنى من آثامى تطهير الثلج واغسل قلبى كما يغسل الثوب واجعل بينى و بين الأثم مسافة مابين المشرق والمغرب .

وكان يلقى الى الناس ما يوحى اليه من القرآ من التوبيخ فى مثل قصة الاعمى (عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى) وفى مواضع أخرى مثل حدته فى خطاب أعدائه وغير ذلك .

ولقد تفنّن بعض علماء النفس من الاوربيين فى تفسير حالة محمد والوحى الذى كان يلقى اليه فذهب بعضهم الى أنه صرع وذهب آخرون الى أنه شدة تخيّل وكلهم غفلوا عن الوسط الذى كان فيه وعن معيشة الخيّم فى البادية ونسوا مقتضى البيئة التى كان فيها وما من شك فى أن محمداً كان الى وقت بعثته كسائر الناس ليس فيه شذوذ فى شئ وكان مزاجه بغاية الاعتدال وكذلك كان بعد البعثة فى غاية التوازن الا ما كان يحصل له من التغير عند نزول الوحى .

وهذا شيءٌ غير خاصّ به بل معهود فى جميع الالاهيين الحقيقيين وفى أنبياء بنى اسرآئيل. وقد كان ارميا يقول: أرى قلبي قد تكسّر وجميعَ عظامى مضطربة وأرانى كالسكران وذلك بسبب الاله والكلمات المقدسة. وكذلك كان عَمُوس وهو مدّثرٌ كما كان محمد مدثراً يقول الكلمات نفسها. ولم يكن يرى محمد تلك المرائى لأنه كان مريضاً بل كانت تحصل له تلك الحالة العصبية من بعد تلك المرائى. ولا شك أنه يوجد تشابه بين المرضى بالامراض العصبية و بين أصحاب المكاشفات من الالاهيين الحقيقيين. ويمكن أن يقال ان البنية الضعيفة هى أكثر استعداداً للأحوال الروحية كما أن هذه الأحوال تزيدها ضعفاً. ولكن لم يكن يوجد أثر من هذا الضعف فى محمد و بقى الى أن بلغ الكهولة من أكمل الناس صحة وأقواهم جسما. فلم يكن يشعر بشيء الا ما كان يحصل له من التغير فى حالة نزول الوحى، نعم حصل له مرتين أو ثلاثاً شيء من ضَرْبة الشمس على أثر السفر فى الضحى وكان هذا يزول بالحجامة أو بالعلق. أما الوحى فكان يُحدث له ألماً شديداً كثيراً ما كان يتجلّدُ لهُ و يُخفيه عن الناس بقدر امكانه فلَحَظ أبو بكر مرة الشيب قد بدأ فى لحيته فقال له محمد: انما هى هود والحاقة والقارعة وأخواتها هى التى شيّبتنى. وكان يحصل له بعد الوحى ثِقَل فى رأسه يعالجه باللذقات والمرَاهم، وكان اذا أحسّ بدُنوّ الوحى يغطّى نفسه و يتنفّس تنفساً شديداً و يسمع له غطيط وتحصل له شدة. واذا كان حتى فى الشتاء يتصبب منه العرق. وطلب يعلى بن أمية من عمر أن يُريه النبي فى حال نزول الوحى فجاءهُ الوحى وهو فى الطريق الى مكة وكان أحدُهم ألقى سؤالاً عن مناسك الحج فلم يُحر محمد جواباً ثم لم يلبث أن جاءه الوحى وتغطى بغطاء فدعا عمر يعلى بن أمية ورفع الغطاء عن النبي فاذا به يتنفس تنفساً شديداً ووجهه شديد الحمرة. ولما فصم عنه نهض وقال: أين الرجل الذى ألقى علىّ السؤال؟ ثم أخذ يتلو الآيات النازلة عليه حينئذ وكان نزول الوحى عليه يختلف فى الشكل فكان يسمع أحياناً كصلصلة الجرس أو كحفيف الأجنحة أو كدوىّ غير مفهوم تماما ولم يكن يعى كل مايسمع الا بعد انقطاع تلك الجلَبة وكان هذا أشده عليه وأغرب به مظهراً، وأحيانا كان الملَك يأتيه بصورة بشرية، كصورة دحية الحلبى وكان من أجل أهل زمانه أو كصورته هو، وكان يُلقِي عليه القول فيفهمه بدون عناء، فكان الوحى بالاجمال على شكلين وقد نُهى محمد فى القرآن عن أن يُحرّك به لسانه و يُجهد نفسه ليعى تماما الآى التى كانت تلقَى عليه

ولم يكن محمد هو الذى صنع القرآن ، ولا كان مُختاراً فى تنزيل الوحى بل كان يطول عهده به ولا يرى شيئاً . وَطالما تمنَّى أن يأتيه المَلَكَ فلمْ يأته

الا أن درمنغهم يعتقد مايعتقده غيره من الاوروبيين من أن القرآن كسائر الكتب المنزلةلم يحرَّر الا بعد نزوله بكثير وانهم حملوا الناس على نسخة واحدة من المصحف وأحرقوا ما عداها وان كثيرا من الآيات لم يقع فيها الترتيب اللازم وانه لايُعلَم بالتمام هلأُدخل فى القرآن شئ من الحديث النبوىالذى قاله الرسول من نفسه لا علىأنه وحى . وَرَوى أن جعفر قال : انه كان فى القرآن أسماء سبعة رجال من قريش فلم يبق منها الا اسم أبى لهب . ثم ان الشيعة يتّهمون أهل السنة بأنهم حذفوا من القرآن كل ما كانفيه من الآياتالموافقة لعلى ثم أنهى درمنغهم كلامَه فى هذا الموضوع قائلا انه لا يقدر أن يجزمفى هذهالمسئلة وانه على وجه الاجمال يرى المصحف الحاضر صحيحا لا شائبة فيه الا ما يتعلق بترتيب الآيات والسور . ولكنه لا يرىالأحاديث النبوية كلها صحيحة ويجزم بأنقسما كبيراً منهاموضوع وهذا يوافقه فيه كثير من المسلمين

ثم انه يقول ما يلى : ان محمداً لم يكن يقول فى الصفات الالهية ما يقوله المتكلمون أو اللاهوتيون من التعليلات الطويلة بل كان محمد ثملاً بالاله لا يرى حقيقة غير الله فالله عنده هو الحقيقة وهو واجب الوجود . ولم يكن العرب ينكرون وجود الله وانما كانوا يتخيّلونه بعيدا عنهم ويتخذون له وسائل من هؤلاء الأصنام فجاء محمد وقلب ذلك الاسلوب فى العبادة وجعل الله حاضرا أمام العقول بدون واسطة وردَّ تلك الوسائل من أصنام وجنّة وملائكة الى الوراء وعلم الناس أن الله أقرب الى المرء من حبل الوريد . وكانت عقيدته أنه لا بد من وجودٍ ثابتٍ فى وسط تقلبات الحوادث وكأن خالد يهيمن على جميع مايقع فى هذا العالم ولا حول ولا قوة الى بالله وانا لله وانا اليه راجعون والله أكبر والله الأول والآخر والباطن والظاهر والأحد والحى القيوم ، القادر الخالق ، العلى الكبير ، المالك المجيد ، ذو الجلال والاكرام ، العظيم القوىّ الصمد ، الحكيم القدُّوس ، أحكم الحاكمين ، المنعم ، الأبدىّ ، الوارث ، الشاهد ، المدّبر ، الهادى ، الأمين ، الحافظ ، الناصر ، المعطى، الرازق ، سميع الدعاء الحاسب ، القابض ، الباسط ، العفوّ ، الغفار ، الرحمن الرّحيم . وكان من عقيدة محمد أن الانسان عاجز عجزاً تاماً أمام الله تعالى وانه لا عذْر له بين يديه ولكن الله تعالى يعفو

عن كثير وقد كتب على عرشه أن رحمته غلبت نقمته وهو يغفر لمن يغفر ويسرُّ برجوع آثم واحد الى الهدى كسرور اعرابىّ فقد بعيره فى الفلاة وما زال فى أثره الى أن وجده أمامه . ومن عقيدة محمد أن الانسان لا يوجد فى هذه الدنيا الا لعبادة الله تعالى وأن الله غنىٌّ عنه وأنه يجب عليه أن يطلب وجه الله تعالى فى كل شيء وان كلّ شيء هالك الا وجهه تعالى وان فى اشراق النورَ الالهى على الانسان سلام النفس الداخلى ورضاها ورضى الله تعالى وأن أصل ذلك كله الايمان وان الوصول الى هذه الحالة يكون بالصلاة و بالايثار أى باعطاء ما يعز على الانسان ولو كان به خصاصة

ولئن لم يكن القرآن يقول ما قال يُوحَنا : ان الله كلَّه محبة فلم يكن محمد يهمل قاعدة أن الله تعالى يحب مخلوقاته كما تحب الأم ولدها . وكان يقول ان الله يُضاعف الحسنَات مائة مرة وقد جاء فى القرآن : « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » وكان عنده أن الايمان بدون المحبة وبدون الأعمال يكون ايماناً ميتاً . وكان ينهى عن الغضب والبغضاء والحسد والكبر والغيبة وكان يقول ان أحسن الناس أكظمهم لغيظه « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » وكان يقول ان المسلم من سلم الناس من لسانه ويده . وكان يقول ان المهاجر هو مَن يفرّ مما حرم الله ، وكان يقول احبوا بعضكم بعضاً فى ذات الله ، وكان يقول ان العبد ينال رضا الله بالمحبة وانه تعالى قريب من الداعى اذا دعاه وانه رءوف رحيم . وكان يدعو ربَّه ويقول فى دعائه : اننى ألجأ اليك من ضعفى وعجزى أنت يا أرحم الراحمين وملجأ الضعفاء الى مَنْ تَكلُنى ان أنتَ خذلتَنى . وكان عنده أن الدين الحق هو العبادة بالعقل وأن الأعمال انما هى بالنيات وان الذى لا يريد أن يترك الكذب ولا يطهر نفسه فالله فى غنى عن صيامه وجاء فى القرآن : « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ اذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » وجاء فى القرآن بشأن الضحايا والقرابين «لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤُها ولكن يناله التقوى منكم» . وكان محمد يقول : انصر أخاك ظالماً أو مظلوما قيل له

يارسول الله فكيف ننصره اذا كان ظالماً . قال : نَرْدَعُهُ عن ظلمه . وكان مرة عائداً من غزاة جاهد فيها المشركين فقال رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر فى أنفسنا . وقال : يجب أن يحب الانسان جميع الناس وجميع المخلوقات فان أصغر الطير يسبح بارئ السماوات والأرض ببسط جناحيه

وقد أثرتْ مواعظ محمد هذه فى العرب تأثيراً عظيما وأحدثت انقلابا كبيراً فى المجتمع العربى وفى البيئة الصحيَّة وارتفع شأن المرأة عما كانوا عليه وأُبطل البغاء وأُبطلت المخادَنة ولم يبطل الرق ولكن وُضعت له شروط . وجعل محمد عتق الرقاب من أعظم الفضائل وقال من أعتق رقبة فان الله يعتق من النار جميع أعضائه . وكان يقول عَبيدُكم اخوانكم فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تحمّلوهم فوق طاقتهم . وكان ينهى عن أن يقال عبدى وكان يقول لا مَوْلى غيرُ الله . وسأله سائل : هل عند الله ثواب على الرافة بالحيوانات ؟ فقال له : نعم ، يُثيب اللهُ كل من يرْوى ظمأ مخلوق ذى قلب ومَنْ حفر بئراً فله ثواب لكل بعير يشرب منها . وطالما نهى محمد عن العنف فى سوق الدواب وعن قتل الحيوانات الا لموجب . وذكر ابن عمر من أقواله أن الحيوانات يحضرن يوم القيامة للشكوى من ظالمهن وان امرأةً تخدشها هِرَّةٌ فى النار بلا انقطاع لأنها أغلقت عليها الباب حتى ماتت جوعاً وانّ مومساً تدخل الجنة لكونها سقت على حافة بئر كلباً كان سيموتُ عطشاً .

وقد أقبل المتكلمون والأخلاقيون والمتصوفة والفقهاء على أقوال الرسول ومواعظه فأخذوا منها أُسس تعاليمهم كل فريق فى الجهة التى سار فيها ولكنهم بقوا واضعين القواعد العامة نصب أعينهم . واذا كان وقع بينهم اختلافات فلِأَنهم قد اعتمدوا على أحاديث مختلفة وكل فريق صحح الحديث الذى يرويه . مثال ذلك القدَرية والجبرية فى اختلافهم كل فريق يجتهد أن يتوكأ على شىء من القرآن والسنة . وهذا بعينه قد حصل بين المسيحيين فتجد فى هذه المسئلة الاختلاف بين اللاهوتيين مثل توما الاكوينى وبوسويت والجانسيّين والمولنيين (١)

---

(١) الجانسينيون Jansinistes نسبة الى جانسين رجل هولاندى كان أستاذاً لعلم اللاهوت فى باريز فى أوائل القرن السابع عشر وله كتاب اسمه « اوغسطنيوس » اشتغل فى تأليفه نحواً من ٢٠ سنة وشرح فيه مذهب القديس اوغسطنيوس فى النعمة (اللطف المخزون) والاختيار وعقيدة القضاء والقدر وكان

فالقرآن يقول ان كل شئ من الله ولكنه ينسب الشر الى ضلال الانسان وقد تجد فيه ما يقوى حرية الانسان وتجد فيه ما يخالفها . فهنا طرفا السلسلة التى لم يقدر الناس الى اليوم أن يعرفوا الحلقات المتوسطة بينهما . ولئن كان المسلمون لا سيما فى عصر الانحطاط أخذوا يميلون الى القول بأنه لا خيرة للانسان فى أعماله فالحقيقة أن القرآن لا يقول بالجبرية وسأل اعرابى محمداً هل يعقل ناقته أم يفلتها متوكلاً على الله فقال له : اعقل وتوكل وكان اذا قيل له : اذا كان كل شئ مقدّراً عند الله من الأزل فما فائدة السعى ؟ يكون جوابه : اسعوا فيسهل الله لكم الأمور . و بعبارةٍ أخرى : أعن نفسك يعنك خالقك

ومن المأثور عن النبي ﷺ اعمل للآخرة كأنك تموت غداً واعمل للدنيا كأنك تعيش أبداً . فهذه فى الحقيقة هى الحكمة وهى جماع الفضائل كلها . ومن أقوال النبى ما معناه ان أفطن المسلمين هو من فكر فى أمر الآخرة واستعد لها لما وراءها .

ومن الناس من يقابل الآداب الاسلامية بالآداب المسيحية و يجد هذه أورع من تلك ولا شك أن الاسلام أسمح من المسيحية فيما يتعلق بميول الجسد . وهو لا يطالب الانسان بالمبالغة فى قهر نفسه وهو يرى الصلاة أحسن وصولاً الى الله اذا صدرت عن رجل متمتع بلذاته المشروعة . الا أن هؤلاء الذين يرون الطهارة المسيحية أعلى درجة من الطهارة الاسلامية ينسون تقدم زهاد المسلمين فى الطهارة وانهم لا يقلون فى هذا الأمر عن أحد من نساك الملل الاخرى . وكذلك ينسون تحريم الاسلام للخمر وفرضه صياماً أشد من كل صيام آخر وتشديده على النساء فى صيانة عفتهنّ وفى ملابسهن ما لا يشدده دين غيره . وفى هذه المقايسات بين الأديان لا يجوز الاكتفاء بالنظر الى المبادئ نفسها بل يجب النظر أيضاً الى أحوال الزمان والمكان . فلما كان المسيحيون فى أواخر الدولة الرومانيّة المنغمسة فى الترف كانوا يتجنبون الشهوات التى ابتلى بها غيرهم . ولما ظهر الاسلام على يد أولئك الأعراب البداة الذين كانوا فى شدة من العيش أسرعوا فى اللذات بقدر سذاجتهم الا أنه

مذهبه هذا موافقاً لمذهب المصلح البروتستانتى كلفين وغير مطابق لحرّية المرء فى الاختيار وقد تبعه في ذلك علماء مشاهير منهم باسكال من أعظم العبقريين الذين ظهروا فى فرنسة . وكان مولين اليسوعى يقول بخلاف قول جانسين فانقسم اللاهوتيون الى قسمين واشتد الخلاف وطال ودخل فى أدوار مختلفة ولكن الكنيسة قضت على العقيدة الجنسينية)

لما تكوّن المجتمع الاسلامى وتأطّد مست الحاجة الى كبح عنان الشهوات البدنية وظهرت النزعة الصوفية وعلا مقام الزهد

ثم قال درمنغهم : ان القرآن ردد كثيراً معنى كون الدنيا زائلة ومتاعا قليلاً وانها لم تكن الا ممرّاً للآخرة . وكان سلمان الفارسي يقول ما قاله باسكال وهو أن المؤمن أشبه بالمريض الذى يمنعه الطبيب من أن يأكل ما يلذه لأنه يضرّه . وكان النبي يقول : لو علمتم ماأعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً. وعاد النبي اعرابياً مريضاً فقال له : هذا تطهيرٌ لك. فقال له الاعرابي : بل هذه حمى ستأخذنى الى القبر . فقال له النبي : هذا الذى أردته . وكان النبي يتهجد كثيراً و يقنت ويجمع نساءه ويعظهن . وكان أصحابه كثيراً ما يتعبدون و يتقشفون وقد بالغ بعضهم فى العبادة والزهادة والصوم الى أن نهاهم النبي عن هذا الغلو فى العبادة وفى قهر الأنفس .

ولم يكن محمد يرى خيرات هذه الدنيا علامة على المحبة الالهية وكان يقول لأصحابه : ما أخشى عليكم شيئاً أكثر من خيرات الحياة العاجلة (وما عند الله خيرٌ وأبقى) . فقال له أحد أصحابه أيمكن أن يأتى من الخير شر فتوقف محمد فى الجواب وكأنما جاءه الوحى وأخذ العرق يتصبب منه ثم سأل قائلا : أين السائل ؟ ثم قال له : أترى شيئاً من خيرات هذا العالم يستحق هذا الاسم . وكان يقول ان خيرات هذا العالم ليست بخيرات ان لم تكن آتية بطريق حلال ولم تكن تُنفَق فى سبيل البرّ فان لم تكن كذلك فهى باب للشر وان أغنياكم فى هذه الدنيا سيكونون أفقركم فى الآخرة ان لم يكونوا أنفقوا أموالهم فى سبيل الله . وكان يقول : ان جهنم تقول بملء فيها : انى أنا أضم المتكبرين والأغنياء والجبارين . وكثيراً ما كان محمد ينهى أصحابه عن الطمع فى الدنيا ويُندِّد على الذين يجمعون الأموال و يحرصون عليها وعلى المرابين وعلى التجار الذين لا يراعون وجه الله فى مكاسبهم وعلى الحكام الذين يميلون مع الأغنياء فى أحكامهم . وكانوا فى صدر الاسلام يكرهون الترف والتنعم فى الدنيا وربما وصلوا الى تحريم كل ثروة تزيد على اللازم الضرورى فى حياة الانسان . نعم انهم فيما بعد لم يتقيدوا بهذه القاعدة ولكنّ روح الاسلام الأصلية كانت هى هذه وكانت عظاتُ محمد شديدة التأثير فى أصحابه حتى انه وصف عذاب القبر مرة فكاد الحاضرون يصعقون من هول الوصف . وكان يجد أيضاً فى وصفه صوراً فى غاية الرقة تدخل الى أعماق القلوب اذا

وصف رحمة الله التى لا تتناهى وما أعد من النعيم للمتقين

وقد أشار درمنغهم فى آخر كتابه عن النبى ﷺ الى تعدد أزواجه وأورد هنا مايعترضه المعترضون لينتقصوا من قدره ﷺ فقال انه كسائر سادات العرب استكثر من النساء فتزوّج ببعضهن عن مجرد عاطفة ، وتزوج ببعضهن ليتألف بزواجه قلوب القبائل وتكلم عن زواجه بزينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة الذى كان النبىّ قد تبنّاه وكان مراده بذلك أن لايجعل من يتبناه الانسان فى حكم ابنه الحقيقى ولا يحرم عليه التزوج بمطلقته . وقال درمنغهم ان محمداً وان كان وسّع دائرة الحلال فقد ضيّق دائرة الحرام . ثم استوفى درمنغهم سيرة النبى ﷺ بدون أدنى تحامل وان كنا لانتفق معه فى جميع الأفكار . ولم نكن الآن لنستوفى ترجمة كتابه كله وانما نريد أن نختار منه بعض مواضع على سبيل الاستشهاد لأن الكاتب المذكور لم يكن مسلما لنقول انه كان ينتصر للاسلام حمية على دينه ولم يكن من الكتاب الاوربيين المعروفين ببغض النصرانية ليقل انه انما امتدح الاسلام بسائق بغضائه للدين المسيحى . وانما كان درمنغهم هو من الكتاب المسيحيين المعتقدين بدينهم ولذلك نقلنا كلماته على ماهى عليه ، بدون أن نجتهد فى تحقيق مآخذها من السنة ورواية الأحاديث الواردة فى المواضيع التى تكلم عليها .فانظر كيف يقول عن قضية النساء فى الاسلام : ان الاسلام قد رفع شأن المرأة فى بلاد العرب وهذه قضية لاتقبل المراء وكان عمر يقول اننا لم نكن نعدّ نساءنا شيئاً فى الجاهلية ولم نزل كذلك حتى نزل كلام الله فِى حقهن . وكان الرسول يقول ان أفضلكم أحسنكم معاملة لزوجته . وكان يوصى النساء بأن يكنّ طوع ارادة أزواجهن ولكنّه كان يشدد جداً على من يغلظ فى معاملتهن وينهى عن تزويج البنات بدون ارادتهن وكان يقول : ان أجر الانسان فى الانفاق على زوجته أكثر من أجره فى التصدّق على الفقراء أو الجهاد فى سبيل الله . وكان يقول : اذا وضع الزوج يده فى يد زوجته تساقطت الذنوب من بين أصابعهما . وكان يقول الجنة تحت أقدام الأمهات . وكان النسوة فى الجاهلية لايرثنَ شيئاً فجعل محمد للمرأة نصف حظ الرجل فى الارث ، ومنع القرآن وأد البنات . وكان لايمل من التوصية بالنساء والأيتام وتكلم عما يعدّه الله من الثواب لمن ربّى أمة وحرّرها وتزوّجها وقد أجاز محمد تعدد الأزواج ولم يكن يمكنه غير ذلك فى بلاد ابراهيم ولكن محمداً لم يأمر بالتزوج بأكثر من واحدة

واشترط القرآن العدل التام بين النساء حتى لو أعطى الزوج لاحدى نسائه ابرة وجب أن يعطى مثلها للاخرى وأجاز الطلاق ولكنه قال انه ما من حلال أكره الى الله تعالى منه (أبغض الحلال الى الله الطلاق) ولا يجوز أنْ ننسى أن الشريعة الموسوية فى العهد القديم لم تكن تمنع تعدد الزوجات فان كان الاكتفاء بزوجة واحدة قدصار هو القاعدة فى النصرانية فما ذلك الا لأن الاكتفاء بالزوجة الواحدة كان هو المألوف فى البلاد الغربية التى انتشر فيها الدين المسيحى

ونقل درمنغهم على « دوكا سترى » فى كتابه الاسلام صفحة ١٠٩ قال: مما لاشك فيه بحسب قول ريفيل Réville اننا اذا نظرنا الى الزمان والمكان اللذين وُجد فيهما محمد لم نجد اصلاحاً أشرف ولا أجرأ من الاصلاح الذى قام به محمد بحق النساء فالمرأة فى الشرق مَدْيُونة كثيراً لمحمد . وأما مونتسكيو فى روح الشرائع فقد قال : ان تعدد الزوجات فى الشرق واحتجاب النساء والبلوغ قبل الوقت ودخول النساء فى الهرم قبل الوقت، كل ذلك من الأمور التى نشأت عن تأثير الاقليم .

ثم قال درمنغهم انه هناك محل نظر فى الاعتراض على تعدد الزوجات فى الاسلام فهل هذا التعدد الرسمى هو أسوأُ من التعدد غير الرسمى (١) ومن محاسن تعدد الزوجات منع البغاء وتيسيرُ الزواج لجميع النسوة بحيث تصان الأعراض يقول درمنغهم هذا، ولكن يغلب عليه مشربه الغربى فيقول : كنا نود لو ان محمداً لم يجزْ تعدد الزوجات أصلاً . وينكر درمنغهم أشد الانكار قول بعض الناس بأن المرأة ليس لها مقام فى الاسلام ويقول ان هذه التهمة أشبه باتهام النصرانية أنها جعلت المرأة ملعونة وأصلا ومنبعا للشرور . قال : ويكفى أن يذهب الانسان الى بلاد الاسلام ليعلم ماهناك من محبة عائلية وحرمة للنساء خلافاً لمايتقوَّل به بعض الاوربيين . ثم ذكر درمنغهم فى آخر كتابه حجة الوداع وقال ان النبى شعر بدنو أجله فخطب المسلمين فى ذلك اليوم خطبة وداع وقال لهم : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً وكأنه علم ان امته ستنشر عقيدته فى الخافقين

وقد وقع ذلك بالفعل وخرج العرب ففتحوا الأقطار واختلطوا بالشعوب ولم يكن يخلو عملهم من شدة ولكنهم كانوا على جانب عظيم من الحكمة وكان فيهم استعداد ليرثوا ممالك

(١) يشير الى ما عليه القوم فى أوربا من المخادنة

الفرس والروم المحتضرة ولم يكونوا كالفاندال والجرمان فى الميل الى العبث والتدمير فتناولوا مصابيح العلم من أيدى الروم والفرس وساروا بها فى فتوحاتهم فكان الاسلام فى احدى يديهم والمدنية اليونانية والفارسية فى الأخرى. وكانت الخلافتان الأموية والعباسية من أمجد أدوار التاريخ. وقد نجح الاسلام فى دعوته لأنه كان مستحقاً للنجاح فانه قد أتى الشرق بالعلاج الذى كان هذا يحتاج اليه. وقد تحمل المسلمون قبل الهجرة ماتحملوه من الانتقام حتى اذا ظفروا عاملوا أعداءهم بالتسامح

نعم ان الشرك لم يكن ليعفو الاسلام عنه. ولكن أهل الكتاب أى اليهود والنصارى كانوا أحراراً أن يعيشوا فى بلاد الاسلام متمتعين بحقوقهم. وكان محمد يقول من آذى ذمياً كنت خصمه يوم القيامة. واننا نرى القرآن والأحاديث ملأى بالنهى عن الاكراه فى الدين. وقد عمل الفاتحون المسلمون بهذه القاعدة وما دخل الناس فى الاسلام أفواجاً الا لما رأوا فيه من التسامح ولما دخل عمر الى القدس لم يسمح بالحاق أدنى أذى بالمسيحيين وترك لهم كنائسهم بأيديهم وأحسن معاملة بطريقهم وأبى أن يصلى داخل كنيسة القيامة لئلا يأتى المسلمون فيدعوها قال: فلنقابل بين هذه المعاملة وعمل الصليبيين عندما دخلوا الى القدس وذبحوا المسلمين وغاصت الخيل فى الدماء الى صدورها. قال رُوبرتسون: ان أتباع محمد هم الأمة الوحيدة التى جمعت بين التحمس فى الدين والتسامح فيه أى أنها مع تمسكها بدينها لم تعرف اكراه غيرها على قبوله. وقال الأب ميشون Michon فى كتابه «رحلة دينية الى الشرق»: انه من المحزن للأمم المسيحية أن يتعلموا التسامح الدينى من المسلمين. قال درمنغهم ان فى هذا الكلام مبالغات لان النصرانية أيضاً تأمر بالتسامح الدينى وأحيانا تفوق الاسلام فى ذلك. ولكن المبالغة أيضاً واقعة فى اتهام الاسلام بالتعصب. وقال الشيخ محمد عبده ان التوراة والانجيل والقرآن كتب متطابقة وبها يتم التعليم الالهى وتشرق الديانة الحق. وقال مونتس Montaigne: اننا ننشط كل النشاط ونفعل العجائب عندما تكون أنفسنا متنزعة الى الشرور من البغضاء والقسوة والطمع والشح وحب التدمير و بعكس ذلك تفتر همتنا فى الخير وحب الاعتدال وقد وجدت ديانتنا لمنع الرذائل فكانت النتيجة أن صارت هى التى تحميها وتغذيها

وقد تكلم درمنغهم عما كان يفهمه من رسالته الى الخلق فقال انه خلق آمراً ناهياً لكنه لم يكن يتقاضى الناس الطاعة لأوامره الا كواسطة يبلغهم أوامر الله تعالى. وكان يقول

ان الأمر لله وحده وكان ينهى الناس أن يعاملوه معاملة الملوك . وقد ظن بعض من كانوا من أعدائه فى البداية انه لما فتح مكة ستنقلب المسئلة من النبوة الى الملك لكنهم أخطئوا فى هذا الزعم و بقى محمد على مشربه الأول من سذاجة الحال . وكان يقول : لست ملكاً ولكنني رجل من قريش . ولم يُسكره الظفر ، بل عفّ عند ما قدر ، ولم يكن المال ولاشئ من غنائم هذه الدنيا ذا قيمة فى نظره وكان يفضل عليها كلها اهتداء رجل واحد الى الاسلام. ولم يكن يؤلمه الا شئ واحد كان يجده فى أعماق نفسه وهو عدم فهم الكثيرين للمقصود من رسالته وانضمام كثيرين اليه لاحباً بها بل التحاقاً بالحزب الغالب . وختم درمنغهم كتابه بقول الأب دو بروغلى De Broglie فى كتابه « أسرار تاريخ الديانات » وهو : «جاء فى التوراة أنه من اسماعيل يخرج شعب عظيم هكذا فى سفر التكوين» . فانتشارُ الاسلام هو من جلة ماأنجز الله به وعده لأبى المؤمنين

تعليل المؤرخين الاوربيين لسقوط مملكة فارس

والمملكة الرومانية بيد العرب

أكثر المؤرخين الاوربيين يعللون سقوط مملكة فارس وجانب عظيم من السلطنة الرومانية فى أيدى العرب بهذه الأسباب التى ذكرها ستودارد . ثم يذكرون لنجاح العرب السريع أسباباً من شهامة العرب وميلهم الى مكارم الأخلاق ، وسرعة قبولهم للمدنية ، وحسن جمعهم بين السيف والقلم و بين الخشونة والرقة . و بعضهم يعترف بتأثير العقيدة الاسلامية فى هذا النجاح ، و يقدر قدر سواغها فى العقول السليمة وخلوّها من الأسرار غير المفهومة ، الا أن أعداء الاسلام يعيبون عليها هذه المزية ويجعلون خلوها من غير المفهوم «سذاجة» و يعبرون عن ذلك بلفظة « Simplisme » وكثيراً مانقرأ هذا الوصف فى انتقادهم للاسلام ويكررونه كثيراً وهم يزعمون ان انتشار الاسلام بين الأقوام الذين لايزالون على الفطرة الأصلية ، انما سببه هذه السذاجة فى تعاليمه . و بالجملة أعطوا المنطق السديد اسم «سذاجة» وجعلوا السائغ فى العقل السليم نازلاً عن درجة الاسرار التى تعلى شأن الأديان بكونها غير مفهومة بزعمهم وركبوا بهذا مركباً صعباً أصبح مركزهم فيها حرجاً ، لاسيما فى هذا العصر الذى بدأ فيه أتباع الأسرار غير المفهومة يقلون شيئاً فشيئاً ، وصار المطالبون بالدليل والنازعون الى الجلاء هم امة المستقبل

الحضارة الاسلامية ورقى العرب الفكرى

فى القرون الوسطى

للأمير شكيب

— العواصم الاسلامية وعمرانها فى آسية وافريقية والأندلس
— العلوم والفنون والصناعات
— أقوال المستشرق ماكس مايرهوف الألمانى فى كتابه « العالم الاسلامى »
— فن العمارة الاسلامية

اتفق المؤرخون العصريون من أهل أوربة ، على أن بغداد فى القرن الثالث للهجرة كانت أرقى مدن ذلك العصر حضارةً ، وأزخر عمراناً ، وأعظم ثروة ورفاهية ، وأن هارون الرشيد كان أكبر سلاطين ذلك الدهر ، وأن عبد الرحمن الناصر فى القرن الرابع كان أرقى ملوك الغرب من مسلمين وافرنج ، وكانت الأندلس فى أيامه أرقى الممالك كلها .

ويحسن أن أنقل هنا جملة مختصرة حررتها فى رسالتى : « لماذا تأخّر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ » وهى هذه :

« قد بلغت بغداد فى دور المنصور والرشيد والمأمون من احتفال الحضارة ، واستبحار العمارة وتناهى الترف والثروة ، ما لم تبلغه مدينة قبلها ولا بعدها الى هذا العصر ، حتى كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان (١) وكانت البصرة فى الدرجة الثانية عنها وكان أهلها نحواً من نصف مليون .

وكانت دمشق ، والقاهرة ، وحلب ، وسمرقند ، واصفهان ، وحواضر أخرى كثيرة

(١) وهو عدد يندر اليوم فى سكان كبريات العواصم

من بلاد الاسلام ، أمثلة تامة وأقيسة بعيدة فى استبحار العمران .

وكانت القيروان ، وفاس ، وتلمسان ، ومراكش فى المغرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول أو يناظرها مناظر أو أن يكاثرها مكاثر فى أوربة حتى هذه القرون الأخيرة .

وكانت قرطبة مدينة فذة فى أوربة لا يدانيها مدان ، وكان عدد سكانها نحو مليون ونصف نسمة . وكان فيها نحو من ألف وسبعمائة جامع ، عدا المسجد الأعظم الذى لما زرته فى هذا الصيف قال لى المهندس الذى كان معى من قِبَل الحكومة الاسبانيولية ، انه يسع بحسب القياس المضبوط خمسين ألف مصلٍّ فى الداخل ، وثلاثين ألفاً فى الصحن ، فجملة من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون ألفاً من المصلين !

ولما ذهبنا الى قصر الزهراء ، رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد ، وعلمنا أنها تمتد على مسافة تسعمائة متر طولاً ، فى ثمانمائة متر عرضاً . والأسبانيول يقولون لها : مدينة الزهراء . وقال لى المهندسون الموكلون بالحفر فى آثارها ، انهم يرجون الاتيان على كشفها كلها من الآن الى خمسين سنة . وحسبك أن غرناطة التى كانت حاضرة مملكة صغيرة ، فى آخر أمر المسلمين بالأندلس لم يكن فى أوربة فى القرن الخامس عشر المسيحى بلدة تضاهيها ولا تدانيها ، وكان فيها عندما سقطت فى أيدى الأسبانيول نصف مليون نسمة ، ولم يكن وقتئذٍ فى أوربة عاصمة تحتوى نصف هـذا العدد . وحمراء غرناطة لا تزال يتيمة الدهر الى اليوم . هـذه لمحة دالة من مآثر حضارة الاسلام وغرر أيامه . والا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمون فى الأرض من رائع وبديع لم تسع ذلك الجلود الكثيرة المرصوفة طبقاً فوق طبق » .

وأنا أضيف الى ذلك هنا أن المهندسين الأسبانيول الذين أشرت اليهم ، ذكروا لى أنهم كانوا قد ألَّفوا لجنة مهندسين طافت فى جميع أسبانية للتنقيب عن آثارها القديمة ومبانيها ، فأحصت عدد القلاع التى فيها سبعة آلاف قلعة وحصن ، ثلاثة أرباعها من بناء العرب ، وأنهم لحظوا حصون العرب كلها مبنية على خطوط واحدة يحمى بعضها ظهر بعض يمتد كل خط من الحاضرة من احدى جهاتها ويليه خط آخر من جهة أخرى ، وخط آخر من جهة أخرى وهلم جرا وكل خط تجد الحصن فيـه على مساواة الحصن سلسلة متصلة الى ثغور الافرنجة .

وتأمل فيما قاله « كلود فارير » الكاتب الافرنسى المعروف فى مقدمة مجموعة اسمها « افريقية الشمالية » جمعت فيها صور أبدع مبانى العرب فى تونس والمغربين الأوسط والأقصى وهو هذا :

« قصور وجوامع وأبراج وحواضر مائلة جميع هذه الأرض التى انتزعها نبىّ الاسلام من ذرية سيبيون الرومانى . لعمرى ان المسلم هو خلافاً لما يزعمه كثير من الجاهلين ليس بالرجل المدمّر . بل انك تجد من تونس الى طنجة وفى فاس وفى مكناس ومراكش ، كما فى القاهرة والقيروان ، بدائع آثار عربية مائلة فى كل محل بجانب بدائع آثار رومانية تزيدها ولا تنقصها » .

ثم وصف من جملة ماوصف من آثار العرب فى المغرب ، مدرسة دخلها من مدارس فاس ، فقال انها كأجل ما وجد من هياكل يونان القديمة ، لأن جميع قوانين منطق البناء مرعية فيها أشد الرعاية . وقال الكاتبان الافرنسيان المعروفان جيروم وجان تارو : « من لم يشاهد مقبرة الملوك السعديين فى مراكش لم يدرك الى أى أمد وصلت مدنية الاسلام من البداعة » .

واقرأ فى « الاستقصا فى تاريخ المغرب الأقصى » عن آثار الموحدين ثم آثار المنصور السعيدى فى مراكش تجد فيه ما تقرّ به الأعين .

وأهمّ من هذا فى هذا الباب « كتاب اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس » تأليف المؤرخ العلامة الغطريف الشريف ابن الشريف أمير العلماء وعالم الأمراء مولاى عبد الرحمن بن زيدان رئيس العائلة السلطانية فى المغرب الذى فيه أوسع وصف لمبانى جده مولاى اسماعيل الكبير ، سلطان المغرب الذى استمرت سلطنته نحواً من خمس وستين سنة ، وبنى فى مكناس وغيرها من القصور والابراج والحصون ، ونسق من الجنان والحدائق ، ما ندر أن سمت الى مثله همة ملك من ملوك العالم .

ومن أجادوا فى وصف العمارة الاسلامية الفيلسوف الافرنسى « غستاف لوبون » المشهور فى تآليفه المتعددة وفى الأيام الأخيرة « رينه غروسه » الذى اشتهر فى علم المدنية الشرقية .

***

وقد ظهر حديثا عن المدنية الاسلامية فى المغرب كتاب ممتع اسمه « مراكش ومدن الفن » Le Maroc et les villes d'art طنجة ، وفاس ، ومكناس ، ومراكش ، والرباط ، مؤلفه « پيار شامبيون » Pierre Champion قد حوى من هذا الباب خلاصة مايلزم وتضمن ٢٢٧ صورة من صور المبانى الممتازة برونقها ، وبداعة انشائها فى بلاد المغرب الاقصى ويظهران للمؤلف اطلاعاً على العربيـة لنقله كثيراً من الفصول عن تواريخ المغرب ، « كالاستقصا » و « روض القرطاس » وغيرهما ، فضلاً عما نقله عن ابن خلدون الذى لقبه بارسطو القرن الرابع عشر . ولقد كان أكثر ماحدث عنه مبانى المرينيين فى فاس ، والموحدين والسعديين فى مراكش ، والاندلسيين فى الرباط

«ومما ذهب اليه أن صناعة البناء فى المغرب ترجع الى أصول غريبة بيزنطية ، وقوطية وسورية ، جاءت من الشرق الى القيروان ، فتلمسان ، فالاندلس ، ثم عادت أدراجها من الاندلس الى افريقية . قال وان ماعليه الناس اليوم فى المغرب هو أن صناعة البناء وزخرف المساكن انما هى صناعة أندلسية فى أصلها وان أحسن قصور المغرب وأبهائه هو مابناه الصناع الاندلسيون . قال وقد كان هـذا هو الرأى من زمان ابن خلدون الذى ذكر من جملة كلامه أن فن البناء انما يبقى محفوظاً فى الحواضر الكبيرة ، التى يزخر عمرانها ، وأنه فى زمانه انما هو محفوظ فى الاندلس . فالصناع الاندلسيون لا يعملون فى بلادهم فقط بل تجدهم يعملون فى تونس ، والقاهرة ، وغيرهما وانك لتعرفهم من سائر أهالى البلدان الأخرى»

ولعـل الفقرة التى لخصها « شامبيون » هـذا عن ابن خلدون هى مايلى نقـلاً عن المقدمة :

« وأما المغرب فانتقل اليه منذ دولة الموحدين من الاندلس حظ كبير من الحضارة ، واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الاندلس ، وانتقل الكثير من أهلها اليهم طوعاً وكرهاً، وكانت من اتساع النطاق ماعلمت ، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ، ومعظمها من أهل الاندلس ، ثم انتقل أهل شرق الاندلس عند جالية النصارى الى افريقية ، فأبقوا فيها و بأمصارها من الحضارة آثاراً، ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر ، وما ينقله المسافرون من عوائدها ، فكان بذلك للمغرب وافريقية حظ صالح من الحضارة الخ »

أو هو قد استخلصها من هذه الفقرة الثانية من كلام سيد فلاسفة الاجتماع وهى :

« وهذا كالحال فى الاندلس لهذا العهد ، فانا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة ، وأحوالها مستحكمة راسخة فى جميع ماتدعو اليه عوائد أمصارها ، كالمبانى ، والطبخ ، وأصناف الغناء واللهو ، ومن الآلات ، والأوتار ، والرقص ، وتنضيد الفرش ، فى القصور ، وحسن الترتيب والأوضاع فى البناء ، وصوغ الآنية من المعادن ، والخزف ، وجميع المواعين ، واقامة الولائم ، والأعراس ، وسائر الصنائع التى يدعو اليها الترف وعوائده ، فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها ، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم ، فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار وما ذاك الا لرسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية وما قبلها من دولة القوط ، وما بعدها من دولة الطوائف وهلم جراً . فبلغت الحضارة فيها مبلغاً لم تبلغه فى قطر الا ماينقل عن العراق والشام ومصر أيضاً لطول آماد الدول فيها ، فاستحكمت فيها الصنائع ، وكملت جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق ، و بقيت صبغتها ثابتة فى ذلك العمران ، لا تفارقه ، وكذا أيضاً حال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم وما استكمل لها فى ذلك من الصنائع فى سائر الأحوال ، وان كان ذلك دون الاندلس ، الا انه متضاعف برسوم منها تنقل اليها من مصر ، لقرب المسافة بينهما وتردد المسافرين من قطرها الى قطر مصر فى كل سنة ، فصارت أحوالها فى ذلك متشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه ومن أحوال الاندلس ، لما ان أكثر ساكنيها من شرق الاندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة الخ »

و بعد أن نقل المسيو شامبيون مانقله عن ابن خلدون فى هذا الباب قال ان الصناعة المغربية والصناعة الاندلسية هما من أصل واحد ، وان كثيراً من القصور والبنايات فى العدوتين هى شقائق وأخوات مثل مدارس فاس ، وقصر اشبيلية ، وحمرآء غرناطة ، لكنه عاد فقال ماملخصه : ان مبانى فاس تمتاز بالصلابة عن مبانى اسبانية ، فان قصور اسبانية يكثر فيها الجصّ والجبصين والقرميد ، وانك تجد جدرانها مغطاة بهذه الأشكال ، وانه يكثر فيها تقليد تعاريج الكهوف ، وتضاريس الفيران ، وخلايا النحل ، وما أشبه ذلك وكله مصنوع فى المادة الرخوة التى تجمد فتصير كالحجر ، وليس الأمر كذلك فى المغرب ، فان الطريق فيه هى النحت فى الحجر رأساً ، وتمتاز صناعة البناء فى المغرب بكثرة الخشب الذى يتفننون فى تزيينه

وترصيعه وتوشيعه الى النهاية ، ويساعدهم على ذلك وجود خشب الأرز الكثير فى جبال الأطلس ، وهو الخشب الذى لا يفنى . وأنهى المسيو شامبيون كلامه فى هذا الموضوع بعد ما ذكر بدائع المغرب لا سيما آثار بنى مرين قائلاً ، ان آثار المغرب قد بقيت محفوظة أكثر جدا من آثار الأندلس .

قال ونحن فى المغرب بازاء صناعة مدنية قديمة قد تداعت الى السقوط ، الا أنها لاتزال ماثلة وهى الصناعة الأندلسية . ولقد كانت تمتاز بالصلابة والمتانة فى عصر الجهاد الاسلامى السابق ثم أزدادت ميلاً الى النحافة فى القرن الرابع عشر ، ثم كسبت رونقاً لامعا فى القرن السادس عشر ، ثم كسبت عظمة وقوة تأثير فى القرن السابع عشر ، ولكنها عادت فانحدرت فى أواخر القرن الماضى. وهذا التقسيم يؤيده المسيو پرسپير ريكار Prosper Ricarb الذى هو من المتخصصين فى معرفة الصنائع الوطنية فى المغرب . ثم ذكر فى محل آخر أن المغرب القديم لا يزال حياً ، وأن من جال فيه يجد أحيانا من طرائقه القديمة مايجذبه بل مايدهشه ، فانه قطر طويل عريض ، تتكسّر على سواحله الغربية أمواج الاطلنطيك المتلاطمة وفيه السهول الواسعة الممتدة بحذاء جبال من أعلى جبال الأرض ، تشرق عليه شمس شديدة اللمعان الا أنها لطيفة الوقع ، وهناك أمة ذات جمال قديم كما وصفها بهذا الوصف أوجين دولاكروا Eugène de La Croi تلبس أطماراً بالية الا أنها أطمار شريفة ، وأينما ذهبت فى قراها وأريافها تجد من المناظر مايؤثر فى النفس ، ويعيد لك ذكرى التوراة . وتجد فى المدن جوعاً وأعياداً ومواسم مستمرة ، تخيل لك تلك البلاد مُتْحفاً دائماً مفتوحاً . وأهم من كل شئ هذه الحواضر الكبيرة المعمورة التى هى كلها تقريباً مدن صناعة وفن ، وكأن المدن كلها أسواق مضت عليها القرون تلو القرون ، وهى مدّخر للأرزاق ، والمؤونات والمواعين والأدوات ، تصونها صيانة الكنوز جدرانٌ عالية وأسوار شاهقة فكل هذا يؤثر فى النفس ويعلق فى القلب ويجعل لهذه الحواضر المغربية شخصية خاصة بها . (انتهى ملخصاً)

ولم يقسم لى الحظ أن أزور بلاد المغرب وأرى آثار الموحدين والسعديين فى مراكش وبنى مرين فى فاس والاندلسيين فى الرباط ومولاى اسماعيل فى مكناسة وهو الذى آثاره تحاكى آثار رومة العظمى ، كما قال بعض الأفرنج ، وانما بعد السياحة الى الأندلس تمكنت من زيارة طنجة وتطاون ، ومكثت فيهما أيام قلائل برغم انقباض الفرنسيس من وجودى

هناك ، فشاهدت فى طنجة من المبانى السلطانيــة مايستحق التنويه ، ولكن قصر الوزير المنبهى فى جبل مرشان من تلك البلدة الفريدة فى نحر البحر ، التى هى طنجة ، هو قصر نادر المثال فى دقة الصناعة ، ونيقة الزخرف ، وتمثيل المدنية العربية بأبهى مظاهرها ، وقد شــاهدت فى تطاون أيضاً من منازل سراة البلدة كآل بنونه ، وآل الطوريس ، وغيرهم ماخيل لى انى لم أزل فى الأندلس بين أبهــاء غرناطة أو مقاصر اشبيلية . وراقنى جــداً أن الحكومة الأسبانيولية شادت داراً للعجزَة ومدرسة للصنائع وغير ذلك على النسق الأندلسى المغربى المستفيض فى أبنية أكابر المغرب ، ومما لا ينكر فى هــذا الباب أن المارشال ليوتى الذى هو أعقل مستعمر افرنسى ولربما كان أعقل مستعمر أوربى على الأطلاق ، قد بذل جهده أيام تمثيله الحكومة الفرنسوية فى المغرب فى المحافظة على الآثار العربيــة القديمة وفى احياء صناعة البناء العربى الأنيق بحيث تجددت فيها الرغبة ووضعت فيها الكتب وتقيدت منها النفائس بالتأليف والتخليد مما يمكننا أن نذكره بالشكر ، لأنه من قبيل الانصاف الذى طبعت الجبلة البشرية على استحسانه و ياليت الأوربيين اطردوا الأنصاف فى سائر الأمور

***

ويجدر بمن أراد أخذ صورة مجملة فى موضوع العمران الاسلامى أن يقرأ « تاريخ التمدن الاسلامى » لزيدان و « حضارة الاسلام فى دار السلام » لجميل المدور ، وغيرهما من الكتب الملخصة . وقد أوردت أنا بعض أمثلة فى هذا الموضوع فى رحلتى الحجازية المسماة « بالارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج الى أقدس مطاف »

ولما كان أعداء الاسلام يريدون أن ينتقصوه بأىّ شكل من الأشكال ، فقد حاولوا انكار أن يكون له مدنية خاصــة به وزعموا أنه مازاد على أن نَقَل ونَسَخ ، وما أشبه ذلك من الأقاويل . ولقد رأيت أن أنقل أيضاً الى هذه الحواشى جملة أوردتها فى رسالة « لماذا تأخر المسلمون » وهى هذه :

« وكم حرر المؤرخون الاوربيون تحت عنوان « مدنية الاسلام » كتبا قيمة ومجاميع صور تأخذ بالأبصار . وان أشد مؤرخى الافرنجة تحاملاً على الاسلام لايتعدّى أن يحاول التصغير من شأن مدنيته ، بانكار كونه هو أبا عذرتها . فقصارى هــذه الفئة أن يجحدوا كون المســلمين قد ابتكروا علوماً ، وسبقوا الى نظريات صارت خاصة بهم ، وغايتهم أن

يقولوا ان المسلمين لم يزيدوا على ان نقلوا وأذاعوا ، وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب ، وهـذا القول على اطلاقه مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوماً ابتكروها ، وحقائق كشفوها ، وآراء سبقوا اليها ، فضلاً عمَّا زادوا عليه وأكملوه ، وما وشّوا طرازه ودبَّجوه ، وما نشروه من قبره وما نقلوه . ولنفرض انهم أخـذوا عن غيرهم فمن استرق شيئا ، وقد استرقـَّه ، فقد استحقه .

و بعد فلا يعلم الخلق مدنية واحدة من مدنيات الامم الا وهى رشح مدنيات سابقة ، وتراث أقوام درجوا ، وآثار آراء اشتركت بها سلائل البشرية ، ومجموع نتائج عقول مختلفة الاصول ، ومحصول ثمرات الباب متباينة الأجناس .

وانى لناقل هنا بعض ماقاله المستشرق المحقق « ماكس مايرهوف » الألمانى الذى أتقن هـذا الباب فى كتابه « العالم الاسلامى » Le Monde Islamique وهو من نظار المؤرخين ومن كبار الأطباء . فالاستاذ « مايرهوف » يقول ماملخصه : ان العرب لم يحملوا معهم الى العالم لدن الفتوح الا اللسان العربى الذى كان اذ ذاك ، برغم ثروته ، وتعدد مناحى التعبير فيه ، محتاجاً الى الألفاظ العلمية . فبدأ العرب أولاً بخـدمة اللغة ، ومن أجل فهم القرآن وضعوا علم النحو . ثم اتقنوا علم الرواية لأجل حفظ أشعارهم من الجاهلية فما بعد . ونبغ منهم بعدالاسلام شعراء كبارمثل عمر بن أبى ربيعة ، والأخطل ، وجرير ، والفرزدق، ثم أبو العتاهية ، وابن المعتز ، وأبو تمام ، والمتنبى وغـيرهم . قال : وعلى وجه الاجمال ، فشِعْر العرب لايلائم ذوق أهل الغرب ، فان مبالغات شعرائهم فىأوصاف محاسن الغوانى ، واغراق أبطال البادية فىالمفاخرة ، ليس مما تستعذبه أذواقنا . و بعكس ذلك الوزن ، وحسن النسق ، وملـكة التعبير التى عند العرب فهى عذبة الى الغاية وانه من الممكن للشاعر العربى أن يقول ماشاء من طوال القصائد على روى واحد ، ثم ذكر « مايرهوف » فنّ التصوير ونحت التماثيل ، وقال : انه لا يوجد فى القرآن منع صريح لهذه الفنون ، الا أنه يوجد فى الأحاديث النبوية ما يمنع تمثيل المخلوقات الحية ، وهو لا يجزم بصحة اسناد هذه الأحاديث ، و يعتقد أن هذا التحريم راشح الى الاسلام عن شريعة موسى . وعلى كل حال ، فقد تأبّى المسلمون أن يمثّلوا البشر بالحجر ، وحصروا صناعة التصوير فى المخلوقات غير الحيـة و فى

النباتات . قال : وقد وُجدت أبنية من صدر الاسلام مثل قُصَير عَمْرة ، الذى يرجع تاريخه الى بنى أمية ، وفيها تماثيل يدل وجودها على أنهم لم يكونوا يتشدّدون فى منع التمثيل الى الحد الذى وصلوا اليه فيما بعد . فأما الشيعة ، فقد ذكر « مايرهوف » أنهم لا يتحرجون من قضية التصوير ، واستدل على ذلك بالدول الشيعية التى لم تكن تمنعه أصْلا . قال وقد أفضى منع صناعة التصوير والتمثيل الى حصر جهود مهندسى الاسلام فى اتقان صناعة البناء وذكر فى هذا الباب أمثلة ، منها قبّة الصخرة فى المسجد الأقصى ، و بين مآخذ أسلوب البناء فى الاسلام ، وتتبع تاريخ هندسة البناء الاسلامية ، والأطوار التى مرت بها ، وأورد أمثلة من آثار سامرّا ، والرّقّة ، وجامع ابن طولون بمصر وجامع القيروان بافريقية ، وجامع قرطبة بالأندلس ، وجامع تلمسان فى الجزائر ، وذكر صناعة البناء الاسلامية فى بلاد العجم ثم فى بلاد الترك ، وأورد أمثلةً بارزة كجامع الفاتح فى القسطنطينية ، ثم جامع السلطان سليم فى أدرنة الذى هو من هندسة سنان المشهور ، وقال : ان لسنان هذا ثلاثمائة وثمانية عشر أثراً من أجل الآثار . ولم ينس « مايرهوف » ذكر حمراء غرناطة ، وقال : انها من أشهر مبانى الدنيا ، وشهد أيضاً بتناهى الذوق فى صنعة بناء المساجد الاسلامية الحديثة فى شمال افريقيا

قال : وبالرغم من حرمة التصوير فى الاسلام فقد ازدهرت هذه الصناعة فى القرن الثامن للمسيح فى العراق وفى فارس ، وكانوا يخرجون كثيراً من الكتب المصوّرة ، وهذا ناشىء من عدم تشديد الشيعة فى منع التصوير . ولكن اعتماد المسلمين فى النقش والتزيين كان على تمثيل الخلائق غير الحية ، وقد أتقنوا هذا الفنّ الى الغاية ، سواء فى الحجر أو فى الخشب أو فى النسيج ، وأورد فى هذا الموضوع فوائد قلّما توجد فى الكتب ، وكنا نود لو فسح المقام لايرادها ، ولكن هذه الحواشى لا تسع كل ما يجب الاطلاع عليه ، الا أننا ننقل عنه ما ذكره بشأن ترصيع النحاس والفولاذ ، وتخريم الذهب والفضة ، فقد قال ان أسواق اصفهان ودمشق والقاهرة أتت فى هذا الموضوع ببدائع تفوق الوصف ، ومثلها حفر العاج وتقطيع البلور ، وزخرفة الآنية ، وتطريز جلود الكتب ، فانها بأجمعها صناعات امتاز بها المسلمون وقلدهم فيها أهل ايطالية وهكذا دخلت الى أوربة .

قال : ومن الصناعات التى أتى بها الاسلام الى الغرب صنعة الورق ، وقد أخذها

المسلمون عن الصين . وفى سنة ٧٩٤ مسيحية أُنشئ فى بغداد أول معمل للكاغد ، وانقطع استعمال الرّق والبَرْدى. وقد كانت صنعة تجهيز الطيوب والعقاقير والتجارةُ بها من خصائص العرب . وأظهر « مايرهوف » اعجاباً شديداً بمهارة العرب فى الأخذ والعطاء و بُعْد همتهم فى التجارة ، وقال انهم كانوا يستجلبون الجلد والفرو من أقاصى البلاد الشمالية كالروسية و بلاد السكنديناف ، يُستدل على ذلك بكثرة ما وُجد من النقود العربية فى تلك البلاد . قال : وانهم كانوا يركبون البحار و يبلغون أقاصيها . فقد وصلوا الى أقصى جنوبى افريقيا جنوباً ، والى جزائر الخالدات غرباً ، والى الهند والصين شرقاً .

قال : وان العرب وسائر الشعوب الاسلامية من غير العرب بلغوا شأواً بعيداً فى علم التاريخ . نعم انه يوصف مؤرخو الاسلام بعدم طلاوة الروايات ، و بضعف ملكة النقد ، ولكنهم حريصون جد الحرص على تقييد جميع ما يسمعونه ، وضبط شوارد التاريخ وهم بالاجمال ثقات فيما يروُونه لا سيما عما شاهدوه فى زمانهم ، فتواريخهم عمدة لا يستغنى عنها لأجل معرفة تاريخ القرون الوسطى ، وقد ذكر من مشاهير مؤرخيهم الطبرى ، والمسعودى ، وابن مسكويه ، وابن الأثير ، وأبا الفداء ، والمقريزى ، والسيوطى ، ثم ابن خلدون ، وقال عن هذا انه فيلسوف واجتماعى أكثر مما هو مؤرخ .

ثم ذكر « مايرهوف » تاريخ الفلسفة العربيـة ، وهو لا يخرج عمـا رواه سائر المؤرخين من أنهم نقلوا فلسفة يونان ، وترجموا كتب هذه الأمة ، وقال : ان أول فيلسوف عربى هو الكندى وجاء بعده الفارابى وهو تركى الأصل ثم جاء بعدهما ابن سينا وهو فارسى ثم اشتهر من فلاسفة العرب ابنُ رشد من أسبانيا ، وقد ألّف هذا كتباً كثيرة لم يبق أصلها العربى ولكن بقيت تراجمها اللاتينية . قال : وكان لكتب فلاسفة العرب أعمق تأثير فى اللاهوت المسيحى ، وقد كان فلاسفة العرب يرمون الى التوفيق بين الفلسفة اليونانيـة ومبادئ الدين الاسلامى

ثم ذكر علم الطب فقال ان العرب قلدوا فيه اليونانيين أيضاً ، وذكر مشاهير أطباء العرب كالرازى ، وابن سينا ، وابن رشـد ، وابن زهر ، وأبى القاسم الزهراوى ، وقال : ان طب العرب كان يعمل به أهلُ أوربة فى القرون الوسطى ، وأشار الى كتاب طبقات الاطباء لابن أبى أُصَيبعة الذى ترجم فيه أربعمائة طبيب منهم كثير من اليهود والنصارى .

قال : وان فضل العرب فى الـكيمياء قد فاق فضلهم فى الطب مع بلوغهم فى هذا غاية بعيدة : وان معرفة الحوامض المعدنية ، والأمونياك السائل، وغير ذلك من المواد الـكيماوية انما بدأت عندهم . فالعرب فى علم الـكيمياء كما فى علم الطبيعيات كانوا معتمدين على التجارب وهكذا تمكنوا من كشف حقائق كثيرة

قال : وأما فى الرياضات فان العرب فاقوا أساتيذهم اليونانيين ، وناهيك ان علم الجبر اسمه عربى ، وان محمد بن موسى هو الذى وضع هذا العلم سنة ٨٢٠ ميلادية ، كما ان البيرونى الفارسى وضع علم المثلثات سنة ١٠٠٠ وقد كان للعرب الفضل فى وضع مايسمى : « بالجيب والسهم » و « الخط المماسّ للدائرة » ، وهم الذين اخترعوا الاسطرلاب ، ووُفّقوا به الى أقيسة فلـكية وأرضية فى غاية القيمة . وقد عرفوا أيضاً دائرة الأرض بحسب ماهدتهم اليه تحقيقاتهم هذه ، وهم الذين أدخلوا الأرقام الهندية الى أوربة ولذلك تسمى بالأرقام العربية . ثم ذكر طول باعهم فى علم الفلك ومن اشتهر من الفلـكيين منهم والامراء والملوك الذين كانوا يُعنون بهذا العلم ويبنون المراصد الفلـكية وتُكتب لهم الأزياج . قال : وقد عرف فلـكيو العرب حركة الارض حول الشمس ولـكنهم لم يوفقوا لتبيينها لعدم اطلاعهم على قانون جاذبية مركز الارض الذى انكشف لغاليله فيما بعد . قال . وقد ألف ابن الهيثم المتوفى فى القاهرة سنة ١٠٣٩ ميلادية كتاباً فى علم المناظر مفصّلا ، لم يبق منه الا ترجمته اللاتينية ، ولهذا العالم الـكبير مؤلفات فى المراءى الـكروية والعدسية وغيرها ، ثم ذكر اختراعات كثيرة لهم فى الميكانيكيات وقال ان كتبهم فى هذا الفن كانت مشهورة فى القرون الوسطى . قال : وان اتساع العالم الاسلامى قد أوسع معارف العرب الجغرافية فحددوا العروض والاطوال ، واتخذوا ابرة المغناطيس ، وذكر منهم مشاهير الجغرافيين كالادريسى وأبى الفداء، والقزوينى، والدمشقى ، ثم ذكر أصحاب الرحلات المشهورة كابن جبير وابن بطوطة وأثنى كثيراً على كتاب «معجم البلدان» لياقوت. قال : وكانت للعرب اليد الطولى فى زمانهم فى علوم المعادن والنباتات والحيوان ، وكانوا يعتمدون فى جميعها على التجارب ، وقد تلقى الغرب عنهم معارف وعلوماً كثيرة ، وعرف مالم يكن يعرفه فى ذلك الوقت الى آخر ماقرره الدكتور «مايرهوف» المذكور وهو المانى الجنس، مشهور بطب العيون، وله اليد الطولى فى الاستشراق، وقد أثنى لى عليه وعلى معارفه كثيراً المستشرق الاشهر « سنُوك هير كرُونييه»

الهولاندى ، وعلمت ان الدكتور مايرهوف مقيم اليوم بالقاهرة . وأكثر ما أعجبنى من كلامه فى وصف علوم العرب قوله انهم كانوا يعتمدون فى العلم على التجربة وهذا يخالف مذهب بعض الشعوبية المتنطعين الذين لا يفتأون يقولون ان العرب كانوا يعتمدون فى علومهم على الاسلوب الغيبىّ ، وعلى التخيلات ، وما أشبه ذلك من الاقاويل الفارغة .

لماذا الاسلام راق بذاته

والشعوب الاسلامية غير راقية ؟

وأقوال البرنس جيوفانى بورغيز Jiovanni Borghèse الايطالى والفيلسوف كوندوسه Condocet الفرنسى فى المقارنة بين نظام الاسلام والكثلكة

للامير شكيب

نشر البرنس « جيوفانّى بورغيز من مشاهير رجالات ايطاليا منذ بضع عشرة سنة كتاباً جليلاً أسماه « ايطالية الحديثة » أحاط فيه بجميع الموضوعات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية والأدبية المتعلقة بايطالية وذكر كل ما يهم ايطالياً معرفته وعندما وصل الى المثل الأعلى الادبى صفحة ٢٧٥ نقل فقرة من كتاب « تقدم العقل البشرى » للفيلسوف الديموقراطى الافرنسى «كوندوسه» جاء فيها ما يلى مترجماً بالحرف :

« سأذكر كيف أن ديانة محمد التى هى أبسط الديانات فى قواعدها وأقلها استحالةً فى شعائرها وأكثرها تسامحاً فى مبادئها تظهر كأنها هى السبب فيما عم قطعةً كبيرة من الكرة الأرضية من عبودية دائمة وبلادة ملازمة على حين أننا سنرى تألق أنوار العلم وأشعة الحرية تحت ظل أشد الخرافات استحالة وفى محيط التعصب الدينى البربرى » انتهى

قال البرنس بورغيز : ان مراد الفيلسوف كوندوسه بالخرافات المستحيلة والتعصب الدينى البربرى هو الكثلكة . ولنترك الآن الخوض فى أفكاره هذه الشخصية بحق الكثلكة وهو المعروف بمباديه الثورية الشديدة ولنكتفِ باقراره بالدور الاجتماعى

العظيم الذى ادارته الديانة الكاثوليكية . قال بورغيز : «ان هذا الدور كان من العظمة الى ما لا نهاية له فبينما قواعد الكثلكة تنى بحاجة الخلق الى النظام العام فبمباديها الأدبية قد حررت المدنية الاوربيـة من الرق ووطدت كرامة العائلة ومقام المرأة بالا كتفاء بالزوجة الواحدة وألجت الاثرة البشرية بدعوة البشر الى مشاطرة المتألمين فى آلامهم » اه

ونحن نترك أيضاً للبرنس بورغيز تقديراته هذه بشأن الكثلكة ولا نعترضه فماليس من بحثنا ولكننا نتكلم على هذا اللغز الذى أعيا كثيراً من علماء الاجتماع حلّه وهو تأخر المسلمين فى الأعصر الأخيرة برغم الوسائل الكثيرة التى يقيضها الدين الاسلامى للترقى . وحقيقة الحال أن لجميع الأمم عثرات ونهضات ان تصفحت التاريخ لا تجد أمة قد خلت منها وقد كانت دياناتها فى دورى التأخر والتقدم واحدة . ولما كنا قد حررنا فى هـذا البحث رسالة نشرناها فى العـام الماضى تحت عنوان « لماذا تأخر المسلمون ولماذاتقدم غيرهم[1] » فاننا نحيل من شاء معرفة جوابنا فى هـذا الموضوع عليها . ولا نرى بأساً فى أن ننقل الى «حاضرالعالم الاسلامى» فصلاً منها عنوانه « مدنية الاسلام » فان كثيراً من الناس يوردون ذلك الاعتراض على الاسلام ويقولون ان الشجرة تعرف من ثمارها :

مدنية الاسلام

أما زعم من زعم أن الاسلام لم يتمكن من تأسيس مدنيـة خاصة والاستدلال على ذلك بحالته الحاضرة ، فهو خرافة يموه بهـا بعض أعداء الاسلام من الخارج ، وبعض جاحديه من الداخل . أما القسم الأول فلأجل أن يصبغوا المسلمين بالصبغة الاوربية ، وأما القسم الثانى فلأجل أن يزرعوا فى العالم الاسلامى بذور الالحاد ، ونحن لا ننكر تأثير الدين فى المدنية ولكننا لا نسلم بأنه يصح أن يكون لها ميزاناً ، وذلك لأنه كثيراً ما يضعف تأثير الدين فى الأمم فتتفلت من قيوده وتفسد أخـلاقها وتنهار أوضاعها ، فيكون فساد الأخلاق هو علة السقوط ، ولا يكون الدين هو المسؤول : وكثيراً ما تطرأ عوامل خارجيـة غير منتظرة فتتغلب على ما أثلته الشرائع من حضارة و تزلزل أركانها ، وقد تهدمها من بوانيها ،

(١) « لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم » وهو جواب اقتراح كتب لمجلة المنار خاصة وطبع فى رسالة خاصة سنة١٣٤٩ وأعيدطبعه للمرة الثانية فى ١٣٥١وهو من خير ما كتب فى هذا الباب«الناشر»

ولا يكون القصور من الشريعة . فتأخر المسلمين فى القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة بل من الجهل بالشريعة ، أو من عدم اجراء أحكامها كما ينبغى . ولما كانت الشريعة جارية على حقها كان الاسلام عظيما عزيزاً

ومدنية الاسلام قضية لا تقبل المماحكة اذ ليس من أمة فى أوربة سواء الألمان أو الفرنسيس أو الانكليز أو الطليان الخ الا وعندهم تآليف لا تحصى فى « مدنية الاسلام » فلو لم تكن للاسلام مدنية حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعه ، مبنية على كتابه وسنته ما كان علماء أوربة حتى الذين عرفوا منهم بالتحامل على الاسلام يكثرون من ذكر المدنية الاسلامية ومن سرد تواريخها ، ومن المقابلة بينها و بين غيرها من المدنيات ، ومن تبيين الخصائص التى انفردت هى بها .

فالمدنية الاسلامية هى من المدنيات الشهيرة التى يزدان بها التاريخ العام ، والتى تغص سجلاتها الخالدة بآثارها الباهرة . وقد بلغت بغداد فى دور المنصور والرشيد والمأمون من احتفال العمارة ، واستبحار الحضارة ، وتناهى الترف والثروة ، ما لم تبلغه مدينة قبلها و لا بعدها الى هذا العصر ، حتى كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان . وكانت البصرة فى الدرجة الثانية عنها ، وكان أهلها نحو نصف مليون .

وكانت دمشق والقاهرة وحلب وسمرقند واصفهان وحواضر أخرى كثيرة من بلاد الاسلام أمثلة تامة ، وأقيسة بعيدة فى استبحار العمران ، وتطاول البنيان ، ورفاهة السكان وانتشار العلم والعرفان ، وتأثل الفنون المتهدلة الأفنان ،

وكانت القيروان وفاس وتلمسان ومراكش فى المغرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول أو يناظرها مناظر ، أو أن يكاثرها مكاثر فى بلدان أوربة حتى هذه القرون الأخيرة .

وكانت قرطبة مدينة فذة فى أوربة لا يدانيها مدان ، وكان عدد سكانها نحو مليون ونصف مليون نسمة، وكان فيها نحو سبعمائة جامع عدا المسجد الأعظم الذى لما زرته فى هذا الصيف قال لى المهندس الذى كان معى من قبل الحكومة الاسبانيولية : انه يسع بحسب مساحته خمسين ألف مصل فى الداخل و ٣٠ ألف مصل فى الصحن ، فجملة من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون ألفاً من المصلين .

ولما ذهبنا الى آثار قصر الزهراء رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد ، وعلمنا أنها

تمتد على مسافة تسعمائة متر طولاً فى ثمانمائة متر عرضاً، والاسبانيول يقولون: مدينة الزهراء وقال لى المهندسون الموكلون بالحفر على آثارها : انهم يرجون الاتيان على كشفها كلها من الآن الى خمسين سنة . وحسبك أن غرناطة التى كانت حاضرة مملكة صغيرة فى آخر أمر المسلمين بالأندلس لم يكن فى أوربة فى القرن الخامس عشر المسيحى بلدة تضاهيها ولا تدانيها وكان فيها عندما سقطت فى أيدى الأسبانيول نصف مليون نسمة . ولم يكن وقتئذ عاصمة من عواصم أوربة تحتوى نصف هذا العدد ، وحمراء غرناطة لا تزال يتيمة الدهر الى اليوم

هذه لمحة دالة من مآثر حضارة الاسلام وغرر أيامه ، والا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمون فى الأرض من رائع وبديع لم تسع ذلك الجلود الكثيرة ، المرصوفة طبقاً فوق طبق

وكم حرر المؤرخون الاوربيون تحت عنوان « مدنية الأسلام » كتباً قيمة ومجاميع صور تأخذ بالأبصار . وان أشد مؤرخى الافرنجة تحاملا على الاسلام لا يتعدى أن يحاول التصغير من شأن مدنيته ، وأن ينكر كونه أبا عذرتها . فقصارى هذه الفئة أن ينكروا كون المسلمين قد ابتكروا علوماً وسبقوا الى نظريات صارت خاصة بهم ، وغايتهم أن يقولوا ان المسلمين لم يزيدوا على أن نقلوا وأذاعوا وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب . وهذا القول مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوماً ابتكروها وحقائق كشفوها وآراء سبقوا اليها ، فضلاً عما زادوا عليه وأكملوه ، وما نشروه ونقلوه ، ومن استرق شيئاً وقد استرقه فقد استحقه .

و بعد فلم نعلم مدنية واحدة من مدنيات الارض الا وهى رشح مدنيات سابقة ، وآثار آراء اشتركت بها سلائل البشرية ، ومجموع نتائج عقول مختلفة الاصول ، ومحصول ثمرات ألباب متباينة الاجناس

***

الرد على حساد المدنية الاسلامية المكابرين

أينسى حساد الاسلام والمكابرون فى عظمة فضله ، الزاعمون أنه انما نقل وتعلم وقلد واقتدى وانه انما صلى وراء غيره : أن المدنية الشرقية يوم ظهر الاسلام كان أخنى عليها الذى أخنى على لبد . وأنه هو الذى جددها وأحيا آثارها ، وأقال عثارها ؟ وأنها بعد ان كانت

قد امحت ولحقت بالغابرين، أبرزها من اصدافها ، وجلاها من بعد ان كانت ملفوفة بغلافها، ونشرها بالخافقين ، و بلّجها كفلق الصبح لكل ذى عينين ، وأضفى عليها لباس الاسلام الخاص ، ودبجها بديباجة القرآن ، التى لم تفارقها فى شرق ولا غرب ، ولا سهل ولا وعر ، حتى حمل ذلك كثيراً من علماء الافرنج ممن لم يعمه الهوى ، ولم يحد فى التحقيق عن مهيع الهدى ، على أن اعترفوا بان مدنية الاسلام لم تكن نسخاً ولا نقلاً وانما هى قد نبعت من القرآن ، وتفجرت من عقيدة التوحيد ؟

فأما ماترجمته حضارة الاسلام من كتب ، وما أخذته عن غيرها من علوم ، وما أفادته فى فتوحاتها من منازع جميلة ، وطرائق سديدة ، فلا يقدح ذلك فى بكارتها الاسلامية ، ومسحتها العربية ، لان هذا شأن الحضارات البشرية باجمعها أن يأخذ بعضها عن بعض ، ويكمل بعضها بعضاً ، فالعلم الحقيقى ينحصر فى هذا الحديث الشريف : « الحكمة ضالة المؤمن ينشدها ولو فى الصين » [1] وهذه من أقدس قواعد الاسلام

وعلى كل حال لا يقدر مكابر أن يكابر ان الاسلام كان له دور عظيم فى الدنيا سواء فى الفتوحات الروحية أو العقلية أو المادية ، وان هذه الفتوحات قد اتسقت له فى دور لا يزيد على ثمانين سنة ، مما أجمع الناس على أنه لم يتسق لأمة قبله أصلاً . وكان نابليون الأول لشدة دهشته من تاريخ الاسلام يقول فى جزيرة سنتيهلانة : ان العرب فتحوا الدنيا فى نصف قرن لاغيره

وتأمل أيها القارىء فى أن قائل هذا القول هو بونابرت الذى لم تكن تملأ عينه الفتوحات مهما كانت عظيمة :

وتعظم فى عين الصغير صغارها　　　وتصغر فى عين العظيم العظائم

فهذا رجل عظيم جداً استعظم حادث العرب الذى لم يسبق نظيره فى التاريخ ، وقد بقى دور العرب هو الأول فى وقته ، ولبثوا وهم المسيطرون فى الأرض ، لايضارعهم مضارع ، ولايغالبهم مغالب ، مدة ثلاثة قرون أو أربعة . ثم أخذوا بالانحطاط ، وجعلت ظلالهم تتقلص

---

(١) هذا مضمون حديثين أحدهما « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » رواه الترمذى من حديث أبى هريرة ، ورواه غيره بمعناه مع اختلاف فى اللفظ. والثانى « اطلبوا العلم ولو بالصين . فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه العقيلى وابن عدى والبيهقى وابن عبد البر عن أنس وفيه عند الأخير زيادة أخرى فى فضل العلم وله طرق يقوى بعضها بعضاً

عن البلدان التى كانوا غلبوا عليها شيئا فشيئاً ، وذلك بفتور الهمم ، ودبيب الفساد الى الأخلاق ، ونبذ عزائم الدين ، واتباع شهوات الأنفس ، وأشد ما ابتلوا به التنافس على الامارات والرئاسات ، — ولا سيما بين القيسية واليمانية — مما لولاه لدانت لهم القارة الأوربية بأجمعها ، وكانت الآن عربية كما هو المغرب . فالمصائب التى حلت بالمسلمين انما هى مما صنعته أيديهم ، ومما حادوا به عن النهج السوى الذى أوضحه لهم القرآن الذى لما كانوا عاملين بمحكم آيه علوا وظهروا وكانت لهم الدول والطوائل ، فلما ضعف عملهم به وصاروا يقرأونه بدون عمل ، وانقادوا الى أهواء أنفسهم من دونه ، ذهبت ريحهم ، وولى السلطان الاكبر الذى كان لهم ، وانتقصت الأعداء أطراف بلادهم ، ثم قصدوا الى أوساطها .

ولنضرب الآن بعض أمثلة عن الأمم الأخرى لأجل المقابلة بيننا وبينهم اذ كانت بضدها تتبين الأشياء

— اليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها —

كان اليونانيون قبل النصرانية أرقى أمم الأرض أو من أرقى أمم الأرض ، وكانوا واضعى أسس الفلسفة ، وحاملى ألوية الآداب والمعارف ، ونبغ منهم من لا يزالون مصابيح البشريةُ فى العلم والفلسفة الى يوم الناس هذا .

وكان الاسكندر المكدونى أعظم فاتح عرفه التاريخ أو من أعظم الفاتحين الذين عرفهم التاريخ ، حاملاً للأدب اليونانى ، ناشراً لثقافة يونان بين الأمم التى غلب عليها . وما كانت دولة البطالسة التى لمعت فى الاسكندرية بعلومها وفلسفتها الا من بقايا فتوح الاسكندر . ثم لم تزل هذه الحالة الى أن تنصرت يونان بعد ظهور الدين المسيحى بقليل ، فمذ دانت هذه الأمة بالدين الجديد بدأت بالتردى والانحطاط ، وفقد مزاياها القديمة ، ولم تزل تنحط قرناً عن قرن ، وتتدهور بطناً عن بطن ، الى أن صارت بلاد اليونان ولاية من جملة ولايات السلطنة العثمانية . ولم تعد الى شئ من النهوض والرقى الا فى القرن الماضى ، وأين هى مع ذلك الآن مما كانت قبل النصرانية ؟

أفيجب أن نقول ان النصرانية كانت المسؤولة عن انحطاط يونان هذا ؟؟

ان القائلين بان الاسلام قد كان سبب انحطاط الأمم الدائنة به لا مفر لهم من القول بان النصرانية قد أدت أيضاً الى انحطاط يونان التى كانت من قبلها عنوان الرقى

ثم كانت رومية فى عصرها الدولة العظمى التى لا يذكر معها دولة ، ولا يؤبه فى جانب صولتها لصولة ، ولم تزل هكذا هى المسيطرة على المعمور الى أن تنصرت لعهد قسطنطين . فمنذ ذلك العهد بدأت بالانحطاط مادة ومعنى ، الى أن انقرضت أولا من الغرب ، وثانياً من الشرق . ولم تسترجع رومية بعد انقراض الدولة الرومانية شيئاً من مكانتها الأولى ، و بقيت على ذلك مدة ١٥ قرناً حتى استأنفت شيئاً من مجدها الغابر . وما هى الى هذه الساعة ببالغة ذلك الشأو الذى بلغته أيام الوثنية

أفنجعل تنصر الرومان هو العامل فى انحطاط رومة وتدحرجها عن قمة تلك العظمة الشاهقة ؟ لقد قال بهذا علماء كثيرون كما قال آخرون مثل هذه المقالة فى الاسلام ، وكلا الفريقين جائر حائد عن الصواب

فان لسقوط الرومان بعد فشو الدين المسيحى فيهم ولسقوط اليونان من قبلهم بعد أن تقبلوا دعوة بولس الى النصرانية أسباباً وعوامل كثيرة من فساد الأخلاق ، وانحطاط الهمم ، وانتشار الخنى والخلاعة، وشيوع الألحاد والاباحة ، ومن هرم الدول الذى يتكلم عنه ابن خلدون ، وغير ذلك من أسباب السقوط الداخلية منضمة اليها غارات البرابرة من الخارج ، فكانت ثمة أسباب قاسرة مؤدية الى السقوط الذى كان لا بد منه ، فلو فرضنا أن النصرانية لم تكن جاءت وقتئذ لم يكن الرومان ولا اليونان نجوا من عواقب تلك الحوادث ولا تخطتهم نتائج تلك الأسباب

فدعوى بعض المؤرخين الأوربيين أن تغلب المسيحية على اليونان والرومان أخنى على عظمتها ، وذهب بمدنيتها ، ليس فيه من الصحيح الا كون الأوضاع الجديدة تذهب بالأوضاع القديمة ، سنة الله فى خلقه ، وانه فى هيعة هذا التحول لابد من اضطراب الاحوال وانحلال القواعد واستحكام الفوضى ، والا فلا أحد يقدر أن يقول ان الوثنية أصلح للعمران من النصرانية (١)

---

(١) علماء المسلمين يعتقدون أن النصرانية على ماطرأ عليها من الوثنية بالتثليث الوثنى القديم أصلح لأنفس البشر من الوثنية الخالصة ولكنها ليست أصلح ولا أقبل للعمران المدنى الذى تتنافس فيه أوربة وغيرها لأنها ديانة مبنية على المبالغة فى الزهد والخضوع لكل حكم دنيوي ، والعمران لا يتم ولا يسمو الا بالسيادة والملك والغنى ، ومن قواعد الانجيل أن الجمل اذا دخل فى ثقب الابرة فالغنى لا يدخل ملكوت السموات ،

وهذه الدعوى كانت تكون أشبه بدعوى أعداء الاسلام الذين يزعمون ان الشرق كان راتعا فى بحابح العمران ، فجاء الاسلام وطمس المدنيات الشرقية القديمة ! ! لولا أن الحقيقة هى كما قدمنا ان المدنيات الشرقية كانت كلها قد انقرضت أو انحطت قبل ظهور الاسلام بكثير ، وأن الاسلام وحده لا غيره هو الذى جدد مدنية الشرق الدارسة ، واستأنف صولاته الذاهبة الطامسة ، و بعث تلك الحواضر العظمى الزاخرة بالبشر كبغداد والبصرة وسمرقند و بخارى ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة وهلم جرا ، ولئن كانت قد بقيت للشرق آثار مدنيات قديمة فان الاسلام هو الذى وطد بوانيها، وطرز حواشيها ، وحمل السيف بيد والقلم بيد الى أبعد ماتصوره العقل من حدود الاقطار التى لم يسبق لشرقى أن يطأها بقدمه

فاذا كان الافرنج الصليبيون من الغرب ، وكان المغول اولئك الجراد المنتشر من الشرق ، قد تبرّوا ماعلا الاسلام فى تلك الممالك ، ونسفوا عمران هاتيك الحواضر ، وكانت منافسات ملوك الاسلام الداخلية واتباعهم للشهوات ، وامعانهم فى الضلالات ، وحيدهم عن جادة القرآن القويمة ، وفقدهم مايزرعه فى الصدور من الاخلاق ، العظيمة ، قد قضت فى الداخل ، على ماعجز عن تعفيته العدو من الخارج ، فليس الذنب فى هذا التقلص ذنب الاسلام ، ولا التبعة فى هذا الانقلاب عائدة على القرآن ، وانما الذنب هو ذنب الهمج من الافرنج ، وجناية ذلك الجراد الزحاف من المغول ، وانما هى تبعة المسلمين الذين رغبوا عن أوامر كتابهم واشتروا بآياته ثمناً قليلا ، الا النادر منهم

وأيضا فقد تنصرت الامم الاوربية فى القرن الثالث والرابع والخامس والسادس من ميلاد المسيح ، و بقيت امم فى شرقى أوربة الى القرن العاشر حتى تنصرت . ولم تنهض اوربة نهضتها الحالية التى مكنتها تدريجا من هذه السيادة العظمى بقوة العلم والفن الا من نحو أربعمائة سنة . أى من بعد أن دانت بالانجيل بالف سنة . ومنها بعد أن دانت به

ونعتقد أيضا أن جميع ماجاء به المسيح عليه السلام من الدين فهو حق وكان البشر في أشد الحاجة الى ما فيه من المبالغة فى الزهد والتواضع لمقاومة ما كان عليه اليهود وحكامهم الروم (الرومان) من الطمع والكبرياء والعتو وأن هذا كان تمهيدا للاسلام الدين الوسط المعتدل الجامع بين مصالح الدنيا والآخرة فما ذكرناه من اعتقادنا يتضمن اعترافنا بحقيقة دين المسيح فى نفسه وبكونه من عند الله تعالى مع التعارض بينه وبين ديننا الناسخ له ومن وظيفتى أن أبين هذا في حاشية مقال كتب للمنار باقتراح من أحد تلاميذ المنار على أمير البيان

بسبعمائة سنة . ومنها بثمانمائة سنة الخ وهذه هي القرون المسماة في التاريخ بالقرون الوسطى . ولا نقول ان الاوربيين كانوا في هذه القرون بأجمعهم هائمين في ظلمات بعضها فوق بعض . بل نقول ان العرب كانوا أعلى كعبا منهم بكثير في المدنية باقرار مؤرخيهم ، وبرغم أنف لويس برتران واضرابه . ومن الكتب المخرجة حديثاً الشاهدة بذلك التاريخ العام للكاتب الفيلسوف الانكليزي « ولز » و « تاريخ مدنيات الشرق » لمؤلف افرنسي متخصص في التواريخ الشرقية اسمه « غروسه » فالحقيقة التاريخية المجمع عليها هي واحدة في هذا الموضوع لم يظهر ماينقضها ولن يظهر ، وهي : ان العرب في القرون الوسطى كانوا أساتيذ الاوربيين ، وكان الواحد من هؤلاء اذا تخرج على العرب تباهى بذلك بين قومه

— سبب تأخر اوربة الماضي ونهضتها الحاضرة —

أفنجعل هذا التأخر الذي كان عليه الاوربيون في القرون الوسطى مدة ألف سنة ناشئا عن النصرانية التي كانت دينهم الذي يعضون عليه بالنواجذ ؟

نعم ، ان الأمم البروتستانية منهم تجعل مصدر هذا التأخر الكنيسة البابوية لا النصرانية من حيث هي . وتزعم أن نهضة أوربة لم تبدأ الا بخروج (لوثير ، وكلفين) على الكنيسة الرومانية .

وأما فولتير ومن في حزبه من أقطاب الملاحدة فلا يفرقون كثيراً بين الكاثوليك والبروتستانت ، وعندهم ان جميع هذه العقائد واحدة وانها عائقة عن العلم والرقي ، ولهذا قال فولتير تلك الكلمة عند ماذكر لديه لوثير ، وكلفين ، قال : « كلاهما لايصلح أن يكون حذاء لمحمد » يريد أن محمداً ﷺ بلغ من الاصلاح مالم يبلغا أدناه ، مع اعتقاد الكثيرين أن مذهبهما كان فجر أنوار اوربة (١)

---

(١) ونحن نعتقد هذا وكان شيخنا الاستاذ الامام وأذكياء مريديه كسعد باشا زغلول يعتقدونه ولكن بمعنى سلبي وهو أن هذا المذهب أضعف حجر الكنيسة على العقول البشرية وتقييدها بتعاليمها وفهمها للدين ورأيها في الدنيا ، وكان سبب هذا المذهب ماسرى الى اوربة عقب الحروب الصليبية بمعاشرة المسلمين من استقلال العقل في فهم الدين وعدم سيطرة أحد عليهم فيه كما بينه شيخنا في كتاب الاسلام والنصرانية « الناشر »

والحق الذى لا ارتياب فيه ان النصرانية نفسها لم تكن هى المسؤولة عن جهالة الافرنج المسيحيين مدة الف سنة فى القرون الوسطى بل للمسيحية الفضل فى تهذيب برابرة اوربة

وهؤلاء اليابانيون هم وثنيون . ومنهم من هم على مذهب بوذا . ومنهم من يقال لهم طاويون ، وكثيرون منهم يتبعون الحكيم الصينى كنفوشيوس . ولقد مضى عليهم نحو الفى سنة ولم تكن لهم هذه المدنية الباهرة ولا هذه القوة والمكانة بين الامم . ثم نهض اليابان من نحو ستين سنة وترقوا وعزوا وغلظ أمرهم ، وعلا قدرهم ، وصاروا الى ماصاروا اليه ولم يبرحوا وثنيين

فلا كانت الوثنية اذاً سبب تأخرهم الماضى ، ولا هى سبب تقدمهم الحاضر ، وقد تقاوت اليابان والروسية وتحاربتا فتغلبت اليابان على الروسية . مع ان اليابانيين فى العدد هم نصف الروس ، ولكن مما لاشك فيه ان اليابانيين أرقى من الروس ، والحال ان الروسية عريقة فى النصرانية واليابان عريقة فى الوثنية

فليترك اذاً بعض الناس جعل الأديان هى المعيار للتأخر والتقدم (١)

أفنقول من أجل هذا المثال : ان الانجيل هو الذى أخر الروسية عن درجة اليابان ، وان عبادة الآلهة ابنة الشمس هى التى جذبت بضبع اليابان حتى سبقت الروسية ؟

ان لهذه الحوادث أسبابا وعوامل متراكمة ترجع الى أصول شتى . فاذا تراكمت هذه العوامل فى خير أو شر تغلبت على تأثير الأديان والعقائد ، وأصبحت فضائل أقوم الأديان عاجزة بازاء شرها ، كما أصبحت معايب أسخفها غير مؤثرة فى جانب خيرها

ولسنا هنا فى صدد أسباب تقدم اليابان السريع حتى نبين ان اعتقاد عامتهم « وجود حصان مقدس يركبه الاله فلان » لم يقف حائلا دون تقدمهم المبنى على ماركب فى فطرتهم من الحماسة ، وما أوتوا من الذكاء ، وما أورثهم نظام الاقطاع القديم من التنافس فى المجد والقوة

وعندنا أمثلة كثيرة لاتكاد تحصى فى هذا الباب اجتزأنا منها بما ذكرناه . ولم نكن

---

(١) هذا صحيح فى جملة الاديان الا الاسلام فقرآنه وتاريخه يثبتان انه هو سبب تقدم أهله حين اهتدوا به وسبب تأخرهم حين أعرضوا عنه ، كما بين هذا أمير الكتاب فى رسالته هذه فأظلم الظلم أن يجعل سبب تأخرهم « الناشر »

لنتعرض لهـذا المقام لولا حملات القسوس والمبشرين وكثير من الاور بيين على الاسلام ، وزعمهم انه هو عنوان التأخر : وانه رمز الجمود ، وتحـدثهم بذلك فى الأندية والمجامع ، ونشرهم هذه الافتراءات فى المجلات والجرائد ، وقولهم ان الشجرة تعرف من ثمارها ، وان حالة العالم الاسلامى الحاضرة هى نتيجة جمود الاسلام ، وتحجر القرآن ! « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً »

وحسبك أن المسيو « سان المقيم الافرنسى السامى » فى المغرب ينشر فى العدد الأخير من « مجلة الاحياء » الافرنسية مقالة يتكلم فيها عن يقظة المغرب بعد « ليـل الاسلام » ! هـكذا تعبيره

فان كان تأخر احدى الممالك الاسـلامية حقبة من الدهر يجب أن يقال فيه « ليل الاسلام » فـكم كان ليل النصرانية طويلا عند مابقيت أوربة المسيحية زهاء ألف سـنة وهى فى حالة الهمجية أو مايقرب من الهمجية

لماذا أيها الناس تدخلون الأديان فيما هى براءة منه؟ ولماذا تقحمونها فى موضوع يكذبكم فيه التاريخ بأماثيله الجمة

ان ادخال الأديان فى هذا المعترك وجعلها هى معيار الترقى والتردى ليس من النصفة فى شيء

المدنية العربية

خدمة العرب لعلم الطب

الأمير شكيب

جاء فى مجلة المستشفيات الافرنسية Gazette des Hopitaux بعددها المؤرخ بـ ١٩ مارس ١٩٣٢ أى العدد الصادر منذ شهر لتحرير هذه الاسطر نص محاضرة ألقاها الاستاذ الكبير والجراح الشهير البروفسور فورغ Fosgue الذى يُعَد من أشهر جراحى فرنسا ان لم يكن أشهرهم وذلك فى تاريخ الطب عند الاسبانيول وما للأمة الاسبانيولية من المعارج العالمية فىهذا العلم . وقد بدأ الاستاذ محاضرته بقوله : ان المستشفيات والمستوصفات ومراكز التعليم الطبى فى اسبانية قد أصبحت كلها عصرية بتمام المعنى وملكت من الأدوات والأدوية جميع مايملكه غيرُها فى سائر أوربة وليس فى برشلونه مثلاً معمل أو مُعْتَمَل يفترق فى شىء عن المعامل والمُعْتَمَلات التى فى فرنسة . ولكن ليس هنا معترك الرأى ولا المقام الذى يمكننا فيه أن نقدر مزية الامة الاسبانيولية قدرها فى الطب والجراحة ، بل يجب علينا أن نرجع الى الوراء فنتصفح الكتب القديمة ونزور المستشفيات على ما كانت عليه فى شكلها السابق ونقرأ تاريخ الجامعات الاسبانيولية القديمة ونستقصى الحركة العلمية عند جيراننا هؤلاء ونخالط نفوسهم ونُداخل أوساطهم فاذا اطلعنا على ذاك الماضى ازددنا معرفة بهذا الحاضر وعلمنا أن اسبانية هى فى غربى اوربة أرض قائمة بنفسها لها مزاياها وخصائصها وانها تمتاز بميزات لايشاركها فيها غيرُها وأن فيها قوةً حيويةً قومية غير معهودة لكثير من الأُمم وان لتلك الأدمغة الحارة من سُرعة الفكر والاستعداد للنضال مايجعل هذه الأمة فريدة فى بابها ، ولأجل أن نفهم هذه الحالة النفسية عند الاسبانيول وجب علينا أن نفهم هذه الحقيقة التاريخية وهى استيلاء العرب على اسبانية وسلسلة الوقائع التى لاتحصى بينهم و بين الاسبانيول الى أن تمكن هؤلاء من استرداد بلادهم . فكما أن بلاد الغال بقيت

نحوا من خمسة قرون تحت حكم الرومان فقد بقيت اسبانية أيضا زهاء ثمانية قرون الى أن تخلصت من حكم العرب ، وهكذا يمكن قياس درجة اتصال الامة الاسبانية بالمدنية الاسلامية هذه المدنية التى كانت حلقة الاتصال بين العالم الاسيوى وأوربا الغربية .

قال ليبرى Libri : احذف العرب من التاريخ يتأخرْ عصرُ التجدد فى أوربا عدة قرون الى الوراء . فى سنة ٧١١ شن العرب الغارة بقوة ضئيلة (سبعة آلاف مقاتل) على اسبانية فنزلوا بها وفتحوها بسرعة الصاعقة واستصفَوا تلك البلاد فى سبع سنوات ولبثوا فيها ثمانية قرون وما زالوا الى ١٤ يوليو سنة ١٢١٢ حتى بدأ فى التاريخ دور تراجعهم أى ان الجزر لم يبدأ الا بعد خمسة قرون من المدّ وذلك فى واقعة لاس نافاس دوطولوزا(١) Las Navas de Tolosa وقد رأيت بعينى فى ديرهولغاس Houlgas بقرب برغاش Bergas احدى الولايات التى وقعت فى يد الأسبانيول فى تلك المعركة وشعرت بما عند الاسبانيول من الاحترام لتلك الذكرى والنخوة بها . وكانت طليطلة قد عادت للاسبانيول سنة ١٠٨٥ فصارت مركز الاتصال بين المدنيتين الاسلامية والمسيحية وسنرى مقدار تأثير هذه البلدة كمركز تبادُل للبضائع العقلية وكتب للترجمة يحج اليه طلاب العلوم من كلّ فج . ثم فى القرنين الأخيرين انكفأ العرب من اشبيلية وقرطبة الى غرناطة فصارت معقلاً للانكماش واجتمع فيها فلولُ العرب . فأصبحت عاصمة ولمعت فيها أنوار شعلة المدنية الاسلامية للمرة الأخيرة . وفى ٢ يناير سنة ١٤٩٢ كان سقوط غرناطة وجلاء العرب الأخير فتركوا كما قال « كلود فرير » من قصر الحمراء بقية باهرة تتأمل فيها القرون والحقب دهراً طويلا كما ان طليطلة بقيت خزانة كتُب تغذت بترجمتها الفكرة البشرية أعصراً مديدة . لا جرم أن هنالك تاريخا نادر المثال لم ينقصه شئ لا من العظمة ولا من طول المدة . ولنتأمل الآن كيف أن هذا العمل المدنى أو الحرث الفكرىّ قد تمّ وبأيّة الوسائل قد تم وماذا كان من تأثيره فى ترقية المعارف الطبية

لقد كانت هذه المدنية فى بدأ نشأتها كما قال الأخوان « طارُو » Tarroud مدنيةً يونانية لاتينية ، اقتبسها العرب سريعا وطبعوها بطابعهم الخاصّ . وبهذا المبدأ الشريف

(١) هذه واقعة العقاب التى ظهر بها ملوك أسبانية المتحدون جميعاً على جيش الموحدين ، ولم تقم بعدها للمسلمين فى الأندلس قائمة تحمد

الذى بدأ به العرب باقتباس تلك المدنية ، تظهر جميعُ المعالى الأدبيه التى فى المدنية الاسلامية فانك ترى شعباً من القبائل الرُّحَّل رُعاة الابل ، بسائق دعوة دينية يحملون على الأُمم فيفتحون نصف العالم فى مدّة قرن واحد. ثم يكون أعظمُ همهم، بعد أن وطّدوا هذا الملك الطويل العريض ، أن يضمّوا الى عظمة الفتح عظمة العلم وكما قال لوكلرك Leclere (١) الذى تأليفه مثال فى النقد الدقيق والاطلاع الواسع : لم يكمل القرن التاسع حتى كان العرب قد ملكوا جميع علم اليونانيين فصارت بغداد مركز الحركة العقلية فى الدنيا وتعددت فيها مكاتب الترجمة ، ثم صارت طليطلة فى القرن الثانى عشر ما كانت عليه بغداد فى القرن التاسع فهما اذاً أهم مراكز الترجمة وانتقال الآراء العلمية . وقد كان فى بغداد نحو مائة مترجم ينقلون كتب يونان الى العربيــة والسريانية فنقلوا تآليف ابقراط ولِيُوس قُوريدوس وجالينوس ورُوفُوس وأُوريباس و بُولوس ألأَجينِى وبعد ذلك بثلاثة قرون صارت طليطلة فى أسبانية هى مركز الترجـة ، وصارت المدنية الاسلامية تعيد للغرب الديون العقلية التى كانت اقترضـتها من مسيحيى الشرق فعادت الافـكار اليونانيــة الى أوربة بواسطة العرب على يد مترجمى طليطلة لا سيما جِرار دوكريمون Gérard de Cremone . أما كيفية هــذا النفوذ العلمى الذى اخترق الاقطار الاسلامية واستضاءت به مراكز المدنيــة الاسلامية فى أسبانية بالأشعة الآتية من بغداد فان الاقرب الى العقل فى أسبابها أن هذه المملـكة كانت متصلة من الهند الى المحيط الاطلانطيكى وكان لهـا نصف سواحل البحر المتوسط فـكان الاتصال دائماً بين افريقية وأسبانية من جهة والشرق و بغداد من جهة أخرى . ولا شك أن الحج كان ذا تأثير شديد فى نقل الافـكار والآثار ولم تـكن الرحلة الى الحج فقط. بل كانوا يُعمِلون الرحلة فى طلب العلم لنفسه . وقد عيّن لركلرك حوادث من هذا القبيل فقال : ان محمد ابن عبدون ذهب من الاندلس الى مصر وكان يمارس التطبيب فى مستشفى الفسطاط وان ولدَىْ يونس الحرّانى ذهَبا يُحصّلان الطب فى بغداد و بقيا عشر سنوات وعمرو بن حفص ذهب الى القيروان للتحصيل وكما كان يذهب أطباء من الغرب الى الشرق كانت الأطباء تأتى من الشرق الى الغرب وتقصد سلاطين الاسلام فى أسبانية فـكانت الـكتب نظير الطنافس الحريرية والحلى والجواهر يؤتى بها من الشرق الى الأندلس حتى اجتمع فى

(١) طبيب شهير نشأ فى جنيف فى القرن السابع عشر وله تآليف كثيرة منها تاريخ الطب

خزانة قرطبة زهاء ستمائة ألف مجلد فى فهرس يقع فى أربعة وأربعين مجلداً . وكان القرن العاشر هو القرن الذى بلغت فيه المدنية الاسلامية فى الاندلس أوجها فأقبل الناس على العلم فى جميع أنحاء المملكة العربية وتعددت مصادر الأشعة ولما انفصلت قرطبة عن بغداد كان ذلك سبباً لزيادة لمعانها باستقلالها وأخذ العرب بالتقدم الى الأمام فلم يكونوا يكتفون بمعرفة علوم يونان فحسب ، بل حرّنوا هذه العلوم وكشفوا طرقاً جديدة وازداد عدد علمائهم كثيراً كما ان عدد علماء المسيحيين عاد قليلاً . وظهر علماء من اليهود وأخذ عددُهم يتزايد وانتقل المسلمون من دور الترجمة الى دور التوليد ، ومنهم ظهرت نوابغ لذلك العهد مثل الجراح الشهير أبى القاسم خلف بن عباس الزهراوى فان هذا الرجل كان فذًّا من الطبقة الأولى به بُدئ تاريخ الطب الاسلامى فى أسبانية وكان فذاً منقطع النظير فى الجراحة العربية واليه انتهت الرياسة فى علم الجراحة فى القرون الوسطى (١) وكان مولده سنة ٩٣٦ مسيحية فى الزهراء المدينة التى شادها عبد الرحمن الناصر وكانت لقرطبة أشبه بفرساى لباريس . وقد بالغ مؤرخو العرب فى وصفها وأصاب لويس بيرتران بقوله انها مبالغات خيالية فقالوا ان قصر الزهراء كان يحتوى نحواً من ثلاثة آلاف من الخصيان ونحواً من ستة آلاف من الجوارى وانه وُضع فى بنائها أربعة آلاف عمود من المرمر وانه كان فيها حوض ماء مزيّن باثنى عشر تمثالا من الذهب مرصعة باللآلئ اه .

انتهى كلام الاستاذ فورغ هنا وقبل أن نكمل ترجمة محاضرته هذه ، نحب أن نذكر ملاحظة على ما كتبه بشأن قصر الزهراء أو مدينة الزهراء كما هو الاحرى فنقول ان لمؤرخى العرب ولغيرهم مُبالغات فى الوصف لا سيما اذا كان الموصوف خارقاً للعادة مثل قصر

---

(١) من الغريب أن ترجمة خلف بن عباس الزهراوى قد وردت فى طبقات الاطباء لكن بصورة مختصرة جداً فهو يقول : خلف بن عباس الزهراوى كان طبيباً فاضلا خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة ، جيد العلاج وله تصانيف مشهورة فى صناعة الطب وأفضلها كتابه الكبير المعروف بالزهراوي ولخلف بن عباس الزهراوى من الكتب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف وهو أكبر تصانيفه وأشهرها وهو كتاب تام فى معناه . اه ولكن قد ترجم ابن أبى أصيبعة صاحب هذا الكلام من أطباء الأندلس عدداً كبيراً جداً يستدل به على درجة رقي الطب فى الأندلس لذلك العهد كما قال لوكلرك والأستاذ فورغ

الزهراء . ولكن لويس بيرتران المشهور بعداوته للاسلام كاذب فيما يزعم من ان قصر الزهراء لم يكن كما وصفه العرب . نعم ان قضية حوض الماء الذى عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب مرصعة باللئالئ لم نجدها فيما قرأناه من أوصاف مؤرخي العرب للزهراء ولكن مما اتفق عليه المؤرخون ان بناء الزهراء استغرق أربعين سنة من خلافة الناصر وانه كان يشتغل فيها كل يوم عشرة آلاف من العملة وكان يُحمل اليها كلّ يوم الف وخمسمائة حِمل من مواد البناء وأنه كان فى الزهراء عدة آلاف من الخصيان وعدة آلاف من الجوارى وكانت فيها أجناد ووُصَفاء لا يأخذهم الاحصاء . وبالاجمال كان قصرُ الزهراء مدينة ومن شاء مراجعة ماجاء عن الزهراء فى الكتب فعليه بنفح الطيب و بغيره من الكتب المؤلفة على الاندلس وان أقل المؤرخين مبالغة وأكثرهم تدقيقاً فى الأخبار ابن خلدون قد وصف الزهراء وصفاً مدهشاً لم يكن ليكتُبه لولا تيقُّنهُ أن الزهراء كانت كما وصفها . ولقد شاهدت أنا بعينى خرائب الزهراء سنة ١٩٣٠ فى سياحتى الى الاندلس وكان معى يومئذ المهندس الأسبانى هيرْنَانْدِيس الموكّل بعمليات الحفر فى الزهراء والدكتور رفائيل كاستيجون من أعضاء أكاديمية قُرطبة فشاهدنا مكان الزهراء والآثار التى انكشفت منها بالحفر وعلمنا مابقى منها محجوباً فقال لنا العالمان الاسبانيان ان الذى انكشف من الزهراء فى مدة عشرين سنة أى منذ باشروا الحفر هو جزء من عشرين من مجموعها وقالا انهم يُخمّنون بخمسين سنة الوقت اللازم لكشف جميع أنقاضها على نسبة العمل الذى عملوه الى الآن . وليس بمستغرب أن يكون ذلك كذلك لأن طول مكان الزهراء يبلغ تسعمائة متر وعرضه يبلغ سبعمائة وكله مغطّى بالأنقاض كما أنه ليس بمستغرب أن يقال انه كان فيها أربعة آلاف عمود من المرمر وذلك بالنسبة الى سعة المكان مما يشاهده الانسان بعينيه فضلا عن مقابلة مايُشاهده بما يقرأه . وفى أعلى الزهراء متحف مؤقت مجموع فيه كثير من قطع الحجارة المخرّمة والآثار النفيسة وقد شاهدنا بين الأنقاض، وهى القسم القليل الذى انكشف كثيراً من الرُّخام ومن القرميد الأحمر وقال لنا الاسبانيول ان أكثر البلاط النفيس والاساطين الثمينة قد نُقلت من الزهراء الى أمكنة أخرى فالدّير الذى فى سفح الجبل مبنى أكثرهُ من حجارة الزهراء وعند مارمموا جسر قرطبة أخذوا كثيراً من حجارتها ولا تكاد يوجد كنيسة مبنية فى قرطبة الا وفيها من حجارة الزهراء وقد كانوا أخذوا من أنقاض الزهراء الى اشبيلية والى غرناطة . بل كان

الموحـدون فى أثناء استيلائهم على الاندلس أخـذوا من أعمدة الزهراء الى مراكش . وبالاجمال فان الزهراء كانت من أعظم مبانى العالم وهى أعظم من الأسكوريال وأجمل ، على حين أن الاسكوريال هو أيضاً من أعظم مبانى الدنيا . ولا يجوز أن يوصف بالمبالغة ماورد من وصف قصر الزهراء الذى يسميه الاسبانيول بمدينة الزهراء والذى أجمع المؤرخون على أنه كان يحتوى على بضعة عشر ألف نسمة من رجال ونساء . ثم نعود الى ترجمة الاستاذ فورغ للجرّاح العربى الشهير المسمى بأبى القاسم . قال : انه كان بحاثة مثابراً على الشغل ، كتب فى حياته مايقع فى ثلاثين مجلداً ، وكتابُه فى الجراحة هو أهمّ تآليفه وهو يستحق أن يكون فى تاريخ الطب المَظهرَ الأول من مَظاهر الجراحة كعلم مستقل مبنىّ على أساس من الحقائق التشريحية . قال أبو القاسم : اذا كان الطبيبُ يجهل التشريح يقع فى الخطأ ويقتل المريض فقد رأيت طبيباً جاهلا يشرُط خرّاجاً فى عنق مريض ففتح له شرايين العنق وما زال الدم يفيض حتى مات لساعته . ومما امتاز به أبو القاسم أنه أول من اخترع الجراحة المُصوَّرة فقد جاء فى كتابه نحو مائتىْ صورة عملية . ومن هذا أصبحَ هو العلَم المشار اليه بالبَنان فى هذا الفن . وفى القرن الثانى عشر عند ما ترجم جِيرار دُوكْرِيمُون كتاب أبى القاسم الى اللاتينية صار هو الكتاب المتداوَل فى أيدى الجميع . ومما يدل على قيمته العظمى انأستاذنا القديم غوىدوشولياك Guy de Chauliac من مدينة مونبلييه استشهد بكتاب أبى القاسم أكثر من مائتى مرة . فلا شك اذن ان الجراحة العربية التى تنمى الى أصل يونانى قد كانت نمت نمواً عظيما فى الغرب وحسبُك شاهداً على رقى الجراحة العربية كلمات الازدراء التى قالها « لانفرانك » Lanfranc فى أواخر القرن الثالث عشر فانه كان ذهب الى ايطاليا واطلع فيها على ترجمة تآليف أبى القاسم ورجع الى باريس فقال عن جرّاحى باريس : انهم جهلاء ولا يكاد يوجد فيهم جرّاح واحد عالم بصنعته

عند ما نَصِل الى طليطلة يستولى علينا تأثير المَنظر الطبيعى بمكان طليطلة العجيب المشرف على نهر « تاجُه » مضافا الى منظر الأبنية الباهرةَ . ولكننا ننسى طليطلة القرن الثانى عشر والثالث عشر مدينة العلم الفاضلة ، مستودع الكتب العربية ، مقر الترجمة الذى منذ بدأ الاحتلال الاسلامى يتقلّص من هناك أصبح مقصداً لحجاج العلم ووراد المنابع العقلية التى كانت لذلك العهد غيرَ معروفة عند المسيحيين . فقد صارت طليطلة فى الشرف

الغربيّ من المملكة العربيـة نظيرة لبغداد مركزاً للترجمـة والتأليف بعد ثلاثة قرون من عهد ازدهار بغداد

قال لوكلرك مؤرّخ الطب : انه فى ذلك الوقت كان حصـل حادثان عظيمان فى قطبى العالم الاسـلامى أحدُهما الحرب الصليبية التى ساقت الى الشرق نحواً من مليون مسيحى والثانى زحف الافـكار الاسلاميةَ على الغرب بواسـطة الاندلس . فقـد كان قصَدَ مكاتبَ المسلمين فى أسبانية كثير من طلاب العلم من جميع أنحاء النصرانية عطاشاً الى تلك المناهل فوجدوا فى خزائن المسلمين فى الاندلس من التآليف والتراجم العربية ما أحيا بينهم الفلسفة القديمة التى كانوا جهلوها . وكان للفرنسيس يد فى نشر هذه المعارف البشرية لأن اسقفاً افرنسياً هو ريموند داجن Raymond d'agen صار سـنة ١١٣٠ رئيساً لأساقفة طليطلة فحق له الفخر بترجمة رسالة الروح لابن سينا اذ بعث فى الناس همة الترجَمة لـكتُب العرب فخرج منها ثلاثمائة ترجـمة من العربى الى اللاتينى . وهكذا انتشرت بيْن الأيدى الـكتب الحاوية لفلسفة يونان وفلسفة أعاظم حكماء العرب . وهكذا انسـد النقص المظلم الذى كان واقعاً فى الفكر البشرى فى القرون الوسطى وتقدمت مدارس الغرب الى الأمام . ولقد ذكر لوكلرك ان من هذه التراجم الثلاثمائة كان يوجد تسعون كتاباً مُترجماً من العربية الى اللاتينية فى الطب منها أربعة تآليف لأبقراط وخمسـة وعشرون لجالينوس والباقى لحكماء الاسلام كالرازى وأبى القاسم وابن سينا وابن زهر . وكان جيرار دوكريمون وهو أعظم المترجمين همة ومن أذكى رجال القرون الوسطى قد أكمل فى مدة خمسين سنة ثلاثة وسبْعين ترجمة أكثرها لـكتب طبية ومن جملة هذه الـكتُب قانون ابن سينا الذى كان كافياً أن يشغل وحده حياة انسان . ومنها كتب أبى القاسم فى الجراحـة التى عملت فى سـير هذا الفنِ فى أوربة الى الأمام العملَ الاكبر فقد بقيت طليطلة اذن مدة قرنين كاملين معهداً للتأليف والترجـمة من اللغة العربية واشترك فى ذلك اليهود الذين كانوا يُحسنون العربية ومن هذا المركز العاميّ الذى هو طليطلة توزّع مجموع تآليف وأفكار عامة للمعارف البشرية ، وكان لعـلم الطب منه الحصة الـكبرى

فاذا ألقيْنا بنظرنا بصورة مجملة على هذه المدنية الاسلامية فى أسبانية يأخذنا العجب كما قال لوكلرك وكما ورد فى بحث جرى مؤخراً من أن بعض الـكتاب المعاصرين أخذوا

ينكرون على العرب العبقرية العِلْمية . والحقيقة أن هذه الملكة العلمية وأن هـذا البحث والتنقيب قد أثبتها العرب لأنفسهم من البداية فى بغداد حيث قرر علماؤها من ذلك الوقت تقريراً صريحاً المبادئ التى ينبغى أن يسير عليهـا العلم وهى السَّير من المعلوم الى المجهول وعدم قبول شئ على أنه حقيقة الا بعد ثبوته بالتجربة . اذن منذ القرن الحادى عشر أثبت العرب أنهم كانوا قد ملكوا الطريقة العلميـة الصحيحة ، وليس بصحيح القولُ أنهم ما أتَوْا بشئ جديد ، ولا أضافوا شيئاً يُذكر على التراث اليونانى اللاتينى ، ولا جرم أنهم بالبداية كان أساس عملهم الترجمة من الكتب القديمة ولكن ليس من العدل أن نقول انهم لم يكونوا الا وسطاء وأنهم لم يكونوا يعلمون ما يترجمون ولم يكن عندهم رُوح التوليد . وعلى هذا أجاب الفيلسوف الألمانى «هُومبُولد» Homboldt بقوله : «ان العرب لم يقتصروا على حراسة كنز المعارف الذى عثروا عليـه بل أضافوا اليه وأوسعوه وفتحوا طرقاً جديدة للبحث فى أسرار الطبيعة »

وكان أطباء العرب أكثرهم من كبار الفلاسفة ومما لا جدال فيـه أن أبا القاسم وابن رشد كانا من الدرجة الاولى فى رجال العالَم وكانا من العلماء الواضعين وأبو القاسم هو الذى سبق الى سدّ الشرايين عند العمليات واخترع طريقة تفتيت الحصى فى المثانة وطريقة استخراج الحصى من مثانات النساء . وأشار عند حصول الفساد المسمى بالغَنْغَرِينَة بالقطع العاجل . وأما ابن رشد الفيلسوف القرطبى الذى كان يشتغل ليـلاً ونهاراً وقيل انه لم يَخْلُ من الشغل بالعلم الا ليلة زواجه وليلة وفاة والده ، فقد كان مفسر فلسفة أرسطو . وفى كتابه الكليّات فى الطب أشار الى الدورة الدموية . واذا شاء الانسان أن يزن بحق وعدل مقدار تأثير البضائع العربية فى معاهد الطب فى أوربة فما عليه الا بمُراجعة برنامج مدرستنا الطبية فى مونبلييه . فاننا نجد فى أواخر القرن الثالث عشر من جملة الكتب التدريسية جدول تراجم لاتينية لكتب عربية جاء بها الأطباء اليهود الذين هاجروا أسبانية الى جنوبى فرنسة وكان فى ذلك الجدول لحكماء اليونانيين كتب من تآليف أبقراط وجالينوس ولحكماء العرب كتب من تآليف ابن سينا والرازى وقسْطا واسحاق وحُسين . وفى سـنة ١٣٤٠ قرر المجمع الطبى الأوَّلية لجالينوس وابن سينا وفى سنة ١٥٠٠ حكموا بالسبق لابن سينا فى خمس محاضرات من أصل عشر ولجالينوس فى أربع ، ولابقراط فى واحدة وفى سنة ١٥٣٤

كانت تآليف العرب الطبية هي المعتمد عليها فى مدارسنا ولم تزل الحالة هى هذه الى القرن السادس عشر حيث أخذوا يترجمون ابقراط من اليونانية رأساً ولم تُحذف تآليف العرب من برامج التدريس عندنا الا فى أواخر القرن السادس عشر. قال المؤرخ الكبير جِرْمان German من مونبيليه اننا نشهد لكتّاب العرب الذين كتبوا فى المواضيع العلمية بمزية الايضاح التام والطريقة التعليمية. نعم ان هؤلاء العرب الذين يرجعون الى نصاب قديم من مدنية اليمن كانت فيهم قابلية عظيمة للثقافة العليا ولم يكن فيهم شيء من البربرية

انتهى كلام الاستاذ فورغ فيما يتعلق بالعرب وبعد ذلك أنهى محاضرته بما يتعلق بحركة علم الطب عند الاسبانيول وقد رأينا مناسباً نشر شهادة هذا الجراح الافرنسى الكبير للعرب فى خدمة العلم عموماً والطب والجراحة خصوصاً وفضلهم فى ذلك على العالم وقوله ان العلم العربى كان مبنيًّا على التجربة والاختبار ونظن فى شهادات مثل هؤلاء الفحول « لوكلرك » و « همبولد » و « جرمان » و « فورغ » وعدد لا يحصى من أمثالهم مقنعا لمن يريد أن يتحقق قضية فضل العرب على أوربة ويعرف هذيان أولئك الثرثارين الذين يحاولون انكار هذه الحقيقة أو يزعمون أن العرب بنوا معارفهم على « الاسلوب الغيبي » وانهم لم يكن للتجربة نصيب من علومهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا

الحركة العلمية فى الحضارة العربية

كما يصفها الفيلسوفان

ولز الانجليزى و درابر الاميركى

للامير شكيب

وممن رأى رأياً عظيماً فى الحضارة العربية الفيلسوف الانكليزى الكاتب المشهور ولز الذى يعد فى طليعة مفكرى هذا العصر . وقد سبق لنا الاستشهاد ببعض كلامه فى شان البعثة النبوية ، وقولنا انه أصاب فى بعض الآراء لا فى جميعها. وها نحن أولاء نذكر خلاصة رأيه فى حضارة العرب . قال فى كتابه « تجربة فى التاريخ العام » فى مبحث الاسلام ما تلى ترجته :

« قبل أن نأتى على ذكر الأتراك وعلى ذكر الحروب الصليبية الكبرى التى جعلت النصرانية تقف وجها لوجه بازاء الاسلام ، والتى جعلت كلاً من هاتين الملتين تعادى الاخرى الى هذه الساعة عداوة غير معقولة ، يجب علينا أن نلحظ جيداً الحياة الفكرية التى كانت عليها الأمم الناطقة بالعربية ، والتى كانت قد بدأت تنتشر فى الاصقاع التى كانت الثقافة اليونانية مدت عليها رواقها . فنقول : انه فى القرون التى سبقت ظهور محمد كان الفكر العربى أشبه بالنار تحت الرماد . فلما انكشف عنه الرماد بالفتح الاسلامى ، لمع لمعانا لم يعهد أن فاقه فيه الا الفكر اليونانى . وهذا فى أسنى أدوارهِ . فجاء الفكر العربى بشكل جديد ، و بقوة جديدة ، وعالج علاجاً شريفاً تنمية العلوم الصحيحة نظير ما عالج اليونانيون ولقد كان اليونانى أباً للعلم فجاء العربى وحل محله فى هذه الابوّة . وكانت طريقة العربى هى أن ينشد الحقيقة بكل استقامة ، و بكل بساطة ، وان يجليّها بكل وضوح وبكل تدقيق ، غير تارك منها شيئاً فى ظل الابهام . فهذه الخاصة التى جاءتنا نحن الأوربيين من اليونانيين

وهى نشدان النور انما جاءتنا عن طريق العرب ولم تسقط الى أهل العصر الحاضر من طريق اللاتين .

فانه لما فتح العرب فتوحاتهم اتصلوا بفلسفة يونان ، لا مباشرة بل بواسطة النصارى النسطوريين الذين كانوا فى شرقى النصرانية ، وكانوا أرقى فكراً من نصارى بيزنطية المشغولين بعلم اللاهوت ، وكان سوىّ تثقيفهم أعلى جداً من النصارى اللاتينيين فى الغرب فهؤلاء النساطرة كانوا لعهد الفرس الساسانين أحراراً فى ثقافتهم ، وجاء الاسلام فلم ينزع منهم هذه الحرية . وكانوا قد أخذوا جانباً عظيما من طب يونان ، ثم عزّزوه بتجاربهم . ولما ظهر الاسلام ، صاروا هم الأطباء فى قصور الخلفاء . ومما لا شك فيه أن منهم من كانوا يمارسون الشعائر الاسلامية ، ولا يرون فيها حرجاً على أفكارهم . وكانوا قد حفظوا جانباً من مقالات ارسطو مترجمة الى السريانية، وكانت عندهم معلومات قيمة فى الرياضيات. فماذا كانت بجانب علومهم معلومات القديس بنديكتوس مثلاً ؟ فالعرب القادمون من الصحراء بتلك العقول الذكية المولعة بالاطلاع ، اعتمدوا على هؤلاء النساطرة وتعلموا منهم وأضافوا الى ما تعلموه علوماً جديدة .

ولم يكن النساطرة هم المعلمين الذين انفرد العرب بالأخذ عنهم . بل كان اليهود فى جميع حواضر الشرق منتشرين . وكانت لهم ثقافة خاصة بهم ، وملكة راسخة فى العلوم ، فكان كل من الفكر اليهودى والفكر العربى يؤثّر فى الآخر تأثيراً عائداً للخير العام . ومن المعلوم أن اليهود هم ممتازون بسهولة تعلم اللغات ، فقد كانوا قبل الاسلام بألف سنة يتعلمون اليونانية فى الاسكندرية ، ويؤلفون بها الكتب . وهاهم الآن بعد ظهور الاسلام يتقنون العربية ويؤلفون بها . ولقد اختلط العرب باليهود بحيث لا نقدر أن نعرف فى الثقافة العربية أين ينتهى اليهودى وأين يبدأ العربى .

وكان للعرب منبعٌ آخر للعلم ، لا سيما ما تعلق منه بالرياضيات وهو الهند ، فما لا شبهة فيه ان الفكر العربى استفاد كثيراً من تلك الجهة .

ولقد بدأت مظاهر الحركة الفكرية العربية فى دور بنى أمية ، الا أنها فى دور بنى العباس آتت أشهى ثمارها . ولما كان التاريخ هو مبدأ كل فلسفة صحيحة وكبدها ، وكان الرأس والقلب لكل أدب كبير ، كان أكبر كتاب العرب مؤرخين ، ومحررى تراجم،

وشعراء مشتغلين بالتاريخ . ولما صار التعليم عاما ولم يعد خاصًّا بطبقة دون طبقة ، ظهرت للعرب مؤلفات فى النحو والصرف واللغة لا تحصى .

فكان العالم الاسلامى سابقاً للعالم الاوربى بنحو قرن فى المدنيَّة . وكانت المدارس الجامعة فى البصرة ، والكوفة ، و بغداد ، والقاهرة ، وقرطبة ، وانبثَّت أنوارها فى العالم كله ، وقصدها الطلاَّب من المشرق والمغرب . وقد كان كثير من طلبة العلم فى قرطبة من المسيحيين . ودخلت فلسفة العرب الى أوربة من طريق أسبانية ، وظهرت فى جامعات باريز وأكسفورد ، وشمالى ايطالية ، وأثَّرت كثيراً فى مجرى الفكر الأوربى ولا سيما فلسفة ابن رشد القرطبى (١١٢٦ — ١١٩٨) التى بلغت الذروة العليا من هذا الموضوع . وكانت فلسفة العرب مبنية على مذهب أرسطو وعلى وضع حد فاصل بين الحقيقة العلمية والحقيقة الدينية مما حرَّر المباحث العامة من رق التحريجات الدينية اللاهوتية التى كانت تعوقها سواء فى النصرانيـة أو فى الاسلام . ونبغ فى الاسلام فيلسوف آخر هو ابن سينا أمير الأطباء (٩٨٠ — ١٠٣٧)

وكانت الوراقة والصحافة من أزهر الصناعات فى حواضر الاسلام ، مثل دمشق ، و بغداد ، والقاهرة ، والاسكندرية . وفى سنة ٩٧٠ (مسيحية) بلغ عدد المدارس الحرّة التى تأسست لتعليم الفقراء مجاناً فى قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة .

قال « تاتشر » Tatcher و « شڤيل » Schwil فى تاريخ أوربة العام : ان العرب انما بنوا فى العلوم الرياضية على أساس اليونانين ، وأما أصل الأرقام التى يقال لها الأرقام العربيـة فلا يزال غامضا . وقد كان « بويتيوس » فى زمان تيودوريك الكبير (ملك القوط الشرقيين الذى كان فى ايطالية) استعمل بعض اشارات تشبه الأرقام التسعة التى نحن [illegible] الآن . وكان أحد تلاميـذ « جربرت » يستعمل أيضاً اشارات أشد مضاهاة لأرقامنا الحاضرة . وأما الصفر [illegible]ى مجهولاً الى القرن الثـانى عشر (المسيحى) اذ اخترعه عربى اسمه محمد بن موسى كان أيضاً هو أول من [illegible] الاشارات للكسور ، وجعل للأرقام قيمة متعلقة بمواضعها . ولم يزد العرب شيئاً فى الهندسة على ما قرره [illegible] الا أن الجبر علم هم الذين انفردوا بوضعه . وكذلك أوسعوا علم مساحة المثلثات الكروية ، واخترعوا « الجيب » و « الخط المماس للدائرة » وكان لهم فى الطبيعيات اختراع رقاص

الساعة ، وكتبوا فى علم المرائى ، وتقدموا كثيراً فى علم الفلك ، و بنوا المراصد الفلكية ، وأحدثوا الآلات اللازمة لهذا العلم ، والتى لا تزال معتمد النـاس الى اليوم . وهم الذين حسبوا زوايه سمت الشمس ومبادرة نقطة اعتدال الليـل والنهار . فكانت معارفهم الفلكية واسعة فعلاً .

وأما فى الطب فقد بلغوا شأواً فاتوا فيه اليونانيين بكثير . وقد درسوا الفسيولوجيا وعلم الصحة ، وكانت طرق طبهم العملية نظير طرقنا الحاضرة . ولا نزال نحن الى يوم الناس هذا نستعمل كثيرا من أدويتهم . وكان جراحوهم يعرفون التخدير و يعملون العمليات الجراحيـة الصعبة ، و بينما كانت الكنيسة فى أوربة تمنع ممارسة الطب وتعتمد فى شفاء الاسقام على الطقوس الدينية لا غير ، كان العرب ذوى ملكة حقيقية فى الطب . وكان لهم نصيب وافر من علم الكيمياء ، فقـد كشفوا كثيراً من المواد التى لم تكن معروفة كالكحول ، والبوتاس ، ونيترات الفضة ، والسليمانى ، وكثيراً من الحوامض . وأما من جهة الصناعة فكانوا أرقى من وجد الى ذلك الوقت يتفنّون فى صنع ما يريدونه فى الذهب والفضة والنحاس والقصدير والحـديد والفولاذ . وكانوا يصنعون الزجاج والخزف الفاخر و يعلمون جميع أسرار الألوان و يتقنون الصباغة ، و يعملون الكاغد للكتابة و يهيئون الجلود بصور متنوعة ، وكانوا يصنعون أنواع الأشربة ، و يستخرجون السكر من القصب . ثم انه كانت لهم القدم الراسخة فى الزراعة يجرون فيها على طريقة علميـة ، وكانت لهم أساليب راقية فى الرىّ (١) ومعرفة بخواص الأسمدة ، وكانوا يلائمون بين الحبوب وطبيعة الأراضى ، و يعلمون من أصناف التطعيم فى الفواكه والأزاهر ما لا يعلمـه سواهم ، وهم الذين أدخلوا الى أوربة أشجاراً ونباتات لم تـكن تعرفها ، وحرروا فى علم الزراعة كتباً قيّمة .

ومن أهم ما أتقنه العرب ، وكان له أعظم تأثير فى الحركة الفكرية البشرية ، صنعة الكاغد . والذى يظهر أن العرب أخذوها عن الصين وألقوا بها الى الاوربيين . وقد كانت الكتابة الى ذلك الوقت على الرق والبردى . ثم لما فتح العرب مصراً انقطع ورود البردى

(١) ولا تزال طرق الرى العربية هى الجارية فى أسبانية الى اليوم لم يزيدوا عليها شيئا

الى أوربة ولهذا تأخرت المدنية الاوربية قرونا عن سائر المدنيات فانه بدون ورق للكتابة يستحيل أن تنتشر المعارف انتشاراً مذكوراً »

وختم ولز فصله عن حضارة الاسلام بجملة نستجلب اليها أنظار القراء ولو كانت الحقيقة التي فيها مؤلمة

قال :

« ان كل هذا النشاط الفكرى حصل فى العالم الاسلامى فى وسط الاضطراب السياسى والقلق فان العرب لم يوفقوا فى وقت من الأوقات الى نظام حكومى ثابت آمن غوائل الاضطراب والانقلاب ، بل جميع الحكومات التى أسسوها كانت مطلقة عرضة للزلازل والمكايد والغيلة والعوارض التى هى من لوازم كل حكومة مطلقة التصرف »

قال :

« الا أنه برغم هذه الهزاهز المستمرة ، وهذا القتل الذى يكاد يكون متصلاً ، وهذه الفتن الطويلة العريضة بين الأحزاب ، كان لروح الاسلام نظام خاص ، مطّرد بادى التأثير فى حياة الأمة ، ماسك بحجزاتها عن التهوّر . ولقد عجزت السلطنة البيزنطية عن زعزعة أركان المدنية الاسلامية . وطول ما كان التركى غير متصرف بأزمّة الاسلام ، كانت حياة الاسلام الفكرية غضة . ولعل الاسلام كان فى ذات نفسه مغتبطاً بأن تكون حياته العقلية مستمرة مطردة برغم ما كانت عليه حياته السياسية من التخبط والتهور »

ولقد ذهب ولز الى أن الاسلام كاد يفتح العالم أجمع لو بقى سائراً سيرته الأولى ، ولو لم تنشب فى وسطه من أول الأمر الحرب الداخلية . فقد كان هم عائشة أن تقهر عليا قبل كل شىء . وقد كان همّ كل من الفريقين العلوى والأموى أن يستولى على الخلافة قبل همه فى بسطة الاسلام فى الأرض ، الى غير ذلك من الآراء التى نجدها فى أكثر كتب المحققين من علماء التاريخ والتى لا نقدر مع الأسف أن نقول انها غير صحيحة .

***

ومن أعظم المؤلفين الذين أجادوا فى موضوع اسلام العلامة « درابر » الأميريكى المشهور صاحب كتاب « اختلاف العلم والدين » فقد كتب كتابا نادر المثال فى تاريخ الحركة الفكرية العلمية فى العالم ، وما كان بازائها من العقائد والأديان وما وقع من

المصارعة بين المبدأ العلمى والمبدأ الدينى .

وكنت اطلعت على هذا الكتاب اذ كنت فى الثامنة عشرة من العلم وأجمعت ترجمته الى العربية ، ثم أنجزت ذلك نقلاً عن نسخته الافرنسية التى كان يسهل علىّ الترجمة عنها أكثر من النسخة الانكليزية . ثم انى لأجل زيادة التدقيق والضبط أطلعت عليها العلامة الشهير أستاذ أساتيذ العصر الدكتور فانديك ، الذى كان لى عليه تردّد كثير ، وكان له نحوى ميل شديد وكنت ممن يستضئ بآرائه . فالدكتور فانديك والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده طيب الله ثراهما ، هما اللذان صححا عزمى على ترجمة هذا الكتاب ، وباشرت ذلك وصرت آتى من الترجمة الى الدكتور بكراس كراس ، وهو يطالعها ويراجعها ويصحح ما يراه محتاجاً الى التصحيح . وقد كان تصحيحه للألفاظ العلمية والاصطلاحات الفنيّة التى لم أكن لذلك العهد أركن الى نفسى فيها . ولا تزال تصحيحات الدكتور فانديك بخط يده على حواشى المخطوط . وان يسّر الله طبع هذا الكتاب فسأطبع عبارات تصحيحه كما كتبها هو أى منذ ٤٣ سنة . ولقد شهد لى الدكتور يومئذٍ بصحة الترجمة وقال لمن سأله عنى فيها هكذا : « جاء بالصنعة »

وانى لناقل الآن بالحرف قول العلامة « درابر » من كتابه المذكور تحت عنوان . « الفصل الرابع : فى تجدد العلوم فى الجنوب » مترجماً بقلمى القاصر منذ ثلاث وأربعين سنة مصححا بقلم الدكتور العلامة الأشهر فانديك الاميركانى عفا الله عنه وجزاه خيراً : —

« قال الامام على: لاحظت كثيراً فى مدة حياتى الطويلة أن الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم . ولعمرى ان هذه الملاحظة الفلسفية البعيدة المرمى التى أتى بها صهر محمد ، لهى عين الصواب . فانه مهما كانت ملامح المرء وتقاطيعه دالة على نَسَبِهِ فان البيئة التى يوجد فيها لهى منشأ طبيعتهِ الفكرية وحد وجهتهِ العقلية . ولما فتح عمرو بن العاص نائب الخليفة عمر ، أرض مصر ، وضمّها الى المملكة العربية ، وجد فى الاسكندرية نحويّا يونانياً اسمه يوحنا فيلوبونوس ، ومعناه « محب الشغل » فحصلت بينهما مودة ، ورغب هذا الرجل الى عمرو أن يتخلّى له عن بقية المكتبة الكبرى ، ممّا لم يكن أخنى عليه الدهر ، ولا ذهب به التعصب ولا أفنته الحروب . فاستأذن عمروٌ الخليفة فى ذلك فأجابه :

« هذه الكتب اما أن تكون موافقة للقرآن ، أو مخالفة له ، فان كانت موافقة فنحن

فى غنى عنها ، وان مخالفة فهى ضارة وواجب احراقها » فوُزعت على حمامات الاسكندرية وبعد ستة أشهر لم يبق شئ منها (١)

ومهما وقع من المراء فى هذه المسئلة فما لا شك فيه صدور هذا الأمر عن الخليفة ، لأن عمر لم يكن من الطبقة المشتغلة بالعلوم ، ولم تكن الجماعة التى حوله الا من الرجال المتحمسين فى الدين الذين ليس لهم هوس بشئ آخر. فعمل عمر قد حقق ملاحظة على. ولا ينبغى أن يظن أن الكتب التى كان طمع فيها « محب الشغل » كانت كتب الخزانة الكبرى المنسوبة الى البطالسة ، والى أومانوس ملك برغام ، بل كان قد مضى الف سنة على العهد الذى ابتدأ فيه فيلادلفيوس بجمع كتبهِ . وكان يوليوس قيصر قد أحرق أكثر من نصفها . وكان بطارقة الاسكندرية قد سعوا سعياً حثيثاً فى احراقها . وقد روى أوراسيوس أنه كان قد شاهد قطرات المكتبة فارغة ، قبل ان صدر أمر الامبراطور لتاوفيلوس عم القديس كيرلس ، باحراق الكتب بمدة عشرين سنة . وعلى فرض عدم جريان هذه الأحوال . على هذه المكتبة ، فان طول الاستعمال ، وكثرة الممارسة ، وما هنالك من العوارض والحوادث اليومية ، والسرقات على طول مدة عشرة قرون متوالية ، لمن الأسباب التى تخنى على كثير من موجود المكتبة . ولا جرم أن يوحنا النحوى لم يكن له طاقة بنصف مليون مجلد . ولم يكن ليقدر أن ينفق عليها انفاق البطالسة والقياصرة . هذا وان المدة التى زعموا استغراق الحريق اياها لا ينبغى أن تكون قاعدة للحساب ، فان ورق البردى سهل الوقد ، ولكن الرق لا يتقد بسهولة ، ولهذا لم يكن الحاميّون يؤثرونه ماوجدوا غيره . وقد كان القسم الاكبر من كتب مكتبة الاسكندرية من الرق المذكور.

وأصح وأوثق من احراق عمر لمكتبة الاسكندرية ، احراق الصيلبيين لمكتبة طرابلس الشام التى قيل انهم وجدوا فيها نحواً من ثلاثة ملايين مجلد . فقد كانت المسئلة دينية من الجانبين . ويقال ان الصيلبيين لما دخلوا القاعة الأولى من المكتبة الطرابلسية ، لم يجدوا الا المصاحف ، فظنوا الأمر كذلك فى سائر القاعات فاضرموا النار فى الجميع . وليعلم ان خبر هاتين الواقعتين لا بد أن يكون وقع فيه شئ من المبالغة . ولكن لا بد أن

(١) كتب الدكتور فانديك على حاشية هذه الجملة : هذه القصة حكاها غريغوريس أبو الفرج وعليها رد ، وعلى كل يشك بها

يكون له أصل من الصحة . وهكذا لا يزال التحمس الدينى له هذه الأمثال . أفلم يحرق الأسبانيول فى المكسيك قطع الكتابات الهيروغليفية تلك الخسارة التى لاتعوض. أفلم يحرق الكردينال كسيمينس فى ساحة غرناطة ثمانيـة آلاف كتاب عربى ، قسم كبير منها تراجم للعلماء والمؤلفين(١)

ولقد رأينا تأثير الحروب فى انتشار العلوم لعهد البطالسة وما أيقظته غزوات الاسكندر للفرس من الهمم فى طلبها ، وقد كانت النتيجة نفسها لغزوات المسلمين.

ومن الصداقة التى انعقدت بين عمرو بن العاص ، ويوحنا النحوى ، يظهر لك مقدار ميل العرب بطبيعتهم الى حرية الفكر . فانهم ماخرجوا من وثنية الجاهلية الى التوحيد المحمدى حتى استعدت قرائح جميعهم للعلوم الفلسفية ، والفنون الأدبية ، وكان نساطرة سورية ، ويهود مصر ، هم ألذين ينهجون لهم السبيل لذلك . ولقد كنا أشرنا الى ما أصاب نسطور وأصحابه من الانتقام بسبب قولهم بوحدانية الخالق ، تبارك وتعالى ، وانكارهم وجود سماء ذات آلهة والهات ، وقولهم نعوذ بالله من الاعتقاد بمليكة السموات مريم العذراء .

***

فهذه العقائد التى كان عليها النساطرة ، سهلت جداً علائقهم مع المسلمين . ولم يكتف هؤلاء من مودتهم بمجرد المجاملة ، بل قلدوهم المناصب فى المملكة . وكان النبى نفسه يوصى بهم خيراً . وكذلك الخليفة عمر . وكانت لهما عهود بحسن معاملتهم . ثم فى دور العباسيين وضع هرون الرشيد دور العلم العامة تحت نظارة يوحنا بن ماسويه(٢) وزد على

(١) الذى قرأته في بعض كتب الاسبانيول ان الذى أحرقوه فى غرناطة من الكتب العربية أكثر من هذا العدد بكثير قيل مائة الف كتاب وقيل أكثر وانهم أحرقوا كل الكتب بدون استثناء ، سوى كتب الطب والطبيعة والحساب

(٢) قال فى طبقات الاطباء : كان يوحنا بن ماسويه مسيحى المذهب ، سريانياً ، قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجد بانقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون ووضعه أميناً على الترجمة وخدم هرون والأمين والمأمون وبقى على ذلك الى أيام المتوكل . وكانت بنو هاشم لا يتناولون شيئاً من أطعمتهم الا بحضرته

النساطرة اليهود ، فان هؤلاء عند ما مالت النصرانية الى الأخذ عن الوثنية ثم دخلت فيها عقيدة التثليث ، ازداد نفورهم من النصرانية ، ولم تزدهم القرون الطويلة التى مضت عليهم بالمصائب والنكبات الا استمساكا بعقيدتهم التوحيدية ، ومقتاً للمبادئ الوثنية التى أشربوا كراهيتها أيام أسرهم فى بابل . فترجموا هم والنساطرة مؤلفات كثيرة يونانيـة ولاتينية الى السريانى، ثم نقلت هذه الكتب الى العربى وسار النساطرة يعلمون أولاد أمراء الاسلام واليهود أطباء لهم .

وهذا الائتلاف كسر من سورة التعصب الاسلامى ، ودمث من أخلاق المسلمين ، وأعلى من مستواهم الفكرى ، فجابوا ممالك الفلسفة والعلم بأسرع مما جابوا ولايات المملكة الرومانية ، وعدلوا عن الافكار العامية الى الحقائق العلمية

والحاصل أنه فى ذلك العالم التى أغارت عليه الوثنية ، لم يقم آخذاً بثأر الوحدانية الالهية الا سيف المسلمين . ومما أعان كثيراً على حصول هذه النتيجة عقيدة القضاء والقدر التى فى القرآن « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروجٍ مشيَّدة »

وقد قال على : لا ريب فى أن جميع أعمال العباد هى بيد الله وحده . فالمسلمون الحقيقيون هم الذين يخضعون لمشيئة الله فيوفقون بين الاختيار المطلق ، وسبق قضاء الله قائلين : « قُدِّر علينا القضاء وعلينا وضع ألوانه » ويقولون : «اذا شئنا التسلُّط على قوى الطبيعة لم يلزمنا أن نحاول مقاومتها رأساً ، ولكن تعديل القوة الواحدة بالاخرى» . فهذه العقيدة هيَّأت ذويها للقيام بأكبر الأعمال فتبدَّلت باليأس الاتكال ، واحتقرت الآمال « اليأس حرٌّ والأمل عبد »

على أن خوض الغمرات أظهر للمسلمين أن فى الطب مع ذلك تخفيفاً للآلام . وفى الجراحة ضمداً للمجروح . وان الذين أشفوا على الهلاك يمكنهم بواسطة العلم أن يعودوا (باذن الله) الى الحياة . وتقرر أن للاختيار المطلق مدخلاً عظيماً فى الحياة الشخصية ، وان الانسان يمكنه الى درجة معلومة أن يصور بأعماله الاختيارية اقدار نفسه ، أما الجماعات فليس لها ضمان شامل ، وانما تحيي فى ضمن مملكة النواميس الثابتة

وكان الخلاف بين المسيحية والمحمدية فى هذا المقام عظيما . لأن المسيحى كان مؤمنا بدوام التدخُّل الالهى ولم يكن يعتقد بناموس أزلى أبدى يدور عليه الكون ، وكان يرجو

بصلواته تغيير سير الأشياء ، وان لم تكن صلواته مما يستجاب فبصلوات مريم العذرآء والقديسين ، وبحرمة الذخائر المقدسة . وكان اذا رأى صوته ضعيفاً التمس ذلك من الكهنة والاشخاص المشهورين بالتقوى ، وأضاف الى صلواتهم الهدايا والنذور والصدقات . وكانت النصرانية بأسرها تعتقد بإمكان انقلاب العالم بحذافيره بواسطة الخوارق والمعجزات . فاما الاسلام فكان بالعكس ، معتمداً على التسليم الطاهر للارادة الالهية . فكانت صلاة المسلم عبارة عن الشكر لله تعالى على ماقدره للعبد وصلاة المسيحى تضرعاً لأجل الانعام بالخيرات المرتجاة وكلاهما اعتاض بالصلاة عن رياضات الهنود واستغراقاتهم فى التأمل . فليس الوجود عند المسيحى الا سلسلة حركات فجائية وحوادث قد تجيء متناقضة بتأثير الصلوات والقداسات التى تتجاذبها . وليس الوجود عند المسلم الا سلسلة مفاعيل وعلل آخذ بعضها برقاب بعض . فما حركة جسم من الاجسام عند المسلم الا نتيجة حركة سابقة ، وما الفكر عنده الا وليد فكر آخر . ولكل حادث تاريخى عنده منبع فى حادث قبله ولكل عمل بشرى أصل فى عمل آخر . ولم يحدث فى العالم الانسانى شيء الا وقد أُعِدَّ من قبل . فهناك تسلسل منطقىّ مطرّد . وان القضاء هو أشبه بسلسلة من حديد كل حادث فيه بمثابة حلقة منها . وهذه الحلقة قد وضعت موضعها منذ الأزل ونحن جئنا الى الدنيا ولا علم لنا ونخرج من الدنيا رغم ارادتنا فلم يبق علينا الا أن نكون منتظرين

وما عدا هذا الرأى بشأن سير الحياة البشرية ، جدّ عند المسلمين رأى آخر بشأن تكوين العالم العضوى . فقد كانوا فى الاول يفهمون من ظاهر القرآن ان الارض رقعة مسطحة مربعة الزوايا ، محاطة بجبال عالية ، وهذه الجبال هي التى تنوط الارض بقبة السماء وتحمل الفلك أيضاً (١) فيجب أن تتأمل تأمل الزهاد فى هذه القدرة الالهية التى بسطت هذه الرقعة الفسيحة المتلألئة التى لا نجد فيها خللاً ولا سقطاً وفوقها السبع الطباق ، وفوق السبع الطباق الله تعالى مستوٍ على عرشه ، تحت صورة رجل عظيم القامة الى النهاية ، عند رجليه ثيران ذات أجنحة نظير ملوك أثور الاقدمين (٢)

---

(١) انما يصدق كلام درابر هذا على أفكار العوام من المسلمين ومن المعلوم ان أفكار العوام لا يعبأ بها .

(٢) وهذا أيضاً كلام عوام بل أكثر العوام لا يقبلونه وقد وجد فى الاسلام فرق قليلة مجسمة الا أن تجسيمها مقرون بعدم تشبيه صفات البارى تعالى بصفات البشر وبان الكيف مجهول

وهذه الافكار لم تكن خاصة بالمسلمين بل وجدت عند غيرهم . وهى مما ينشأ عند الانسان فى بعض أطوار نموه . ولم يطل أجلها فى الاسلام ، بل تبدّل بها المسلمون أفكاراً علمية صحيحة . وكما جرى فى البلدان المسيحية لم يتم هذا الأمر بدون مقاومة حماة المبادئ الدينية . فان المأمون لما عرف كروية الارض أصدر أمره لمن كان عنده من الرياضيين بقياس درجة من الدائرة الارضية ، فقام بعض علماء الدين وعدّوا ذلك فسقاً وخروجا عن الدين ، وأرادوا أن يثيروا العامة عليه ، لكن المأمون لم يبال ماقالوه وثبت فى عمله وأمر فجرى القياس على شواطئ البحر الاحمر وفى سهول سنجار بواسطة الاسطرلاب . وتقرر ارتفاع القطب فوق الافق بمنزلتين مسافتهما درجة على دائرة نصف النهار ، ثم قاسوا بعد المسافة بين المنزلتين فوجدوها مائتى الف ذراع هاشمى فحصل من ذلك لدائرة الارض أربعة وعشرون الف ميل انكليزى . وهو حساب لم يكن بعيداً كثيراً عن الحقيقة

وأمر الخليفة ، استزادة من العلم واستقصاء فى التحقيق ، باجراء قياس آخر بقرب الكوفة فانقسم الفلكيون المأمورون بهذا الامر الى فرقتين ، كل منهما سارت من نقطة معينة فقاست قوس درجة واحدة ، احداهما فى نحو الشمال والاخرى فى نحو اليمين ، ومن ثمة اتصلوا الى نتيجة معلومة . فان كان الذراع الذى جعلوه مقياسا هو الذراع السلطانى فيكون طول الدرجة ثلث ميل . ومن هنا استدل الخليفة على كروية الارض

***

ومما ينبغى التنبيه عليه ان التعصب الدينى فى الاسلام لم يلبث أن أذعن لحرارة البحث العلمى ، و بعد ان كان القرآن فى ظاهر الحال حاجزاً دون تقدم العلوم صار هو الكتاب الكفيل بأعظم الاعمال الممكنة ، وأصبح دليلاً على صحة الدعوة المحمدية(١)

---

(١) انه مما تقضى به أمانة النقل ان أثبت هنا ما كتبه الدكتور فانديك بخطه فى حاشية هذه العبارة فقد قال : ان القرآن يوافق الترفض مع المترفضين وفيه مهرب أو مهارب لمن طالب العلوم . ولا نقدر أن نوافق الدكتور فانديك مع جلالة قدره علي كون القرآن وافق فى شئ من الأشياء علي رفض العلم . كما اننا لا نقدر أن نوافقه علي كون الأماكن الكثيرة الصريحة التى حث فيها القرآن علي طلب العلم وعظم فيها الحكمة هي مما يقال له مهرب أو مهارب ينفذ منها طالب العلم . اننا لا نقدر أن نؤول هذا القول من العلامة فانديك الا اذا تذكرنا انه كان قسيساً بروتستانتياً ، وان الشهادة الصريحة للقرآن لا تسهل على ذي مقام رسمى فى الكنيسة الا انه مما يجب التنبيه عليه أيضاً ان العلامة فانديك مر بجميع ماقاله درابر بحق الكنيسة بدون أن يعلق أدنى اعتراض

انه بعد انتقال النبي الى ربه بنحو من عشرين سنة. تنبهت الأفكار واتسعت الاختبارات بما جرى من فتح سوريا وآسيا الصغرى ومصر، وشرع الخليفة عليّ ينشط العلوم، ويروّج سوق المعارف الأدبية، كما ان معاوية رأس الأمويين قلب صورة الحكم، فصيّره ارثيًّا بعد أن كان انتخابياً. ونقل كرسى الخلافة من المدينة الى دمشق وهو موقع أحسن توسطا وأمكن مركزا وأدخل فى موكبه الزينة والابّهة وكسر قيود التعصب الشديد وأحب العلم وأهله. وكان أحد مرازبة الفرس قد جاء لينظر عمر بن الخطاب فى المدينة فبصر به مضطجعاً أمام جامع المدينة، بين المساكين، ولو دخل على معاوية كما كان يدخل سفراء الملوك لرآه فى قصر فاخر باهر الرياش مزخرف النقوش العربية بين الحياض والأزاهر

ولم يمض نصف قرن على وفاة محمد حتى نقلت الكتب اليونانية المشهورة الى اللسان العربى، كما انها ترجمت المنظومات الشعرية كالالياذة، والأوديسا الى اللغة السريانية وخُصت هذه باستعمال العلماء دون غيرهم لما كان فيها من الأخبار الميتولوجية المنافية للعقائد الاسلامية. ثم نقل الخليفة المنصور (٧٥٣ - ٧٧٥) قاعدة ملكه الى بغداد وصيّرها عاصمة زاهية زاهرة، وقضى كثيراً من أوقاته فى درس علم الفلك، وشاد مدارس طبية وفقهية. واحتذى على مثاله حفيده هارون الرشيد (٧٨٦) فاصدر أمره باضافة المدارس الى المساجد فى كل أقطار المملكة، لكن عصر العلم السعيد انما كان فى خلافة المأمون الذى جعل دار السلام حاضرة العلم الكبرى وجمع خزائن كثيرة للكتب وعكف على مدارسة العلماء ومثافنة الحكماء. وقد بقى هذا الذوق المكتسب عند خلفاء العرب الى مابعد انقسام المملكة العربية الى أقسامها الثلاثة فكان العباسية فى آسية والفاطمية فى مصر والأموية فى اسبانية لايتنازعون الرياسة الدنيوية فقط، بل يتناظرون فى العلوم والمعارف والآداب ويتسابقون فى ميدانها.

وكان العرب فى الأدب عارفين بجميع الفنون التى تشحذ الفكر وتهذب العقل، وتروض الخاطر: وحق لهم الفخر فيما بعد بأنه نبغ فيهم من الشعراء والأدباء أكثر مما نبغ فى جميع الأمم معاً. وأما تفوقهم فى العلوم فقد كان بالطريقة التى تلقوها عن يونان الاسكندرية، وليس عن يونان اوربة، وذلك انهم أدركوا ان مجرد التأمل بعيد عن أن

يبلغ بالانسان الغاية المقصودة ، وأن هذه الغاية لاتُنال الا بمراقبة الأمور واختبار الأشياء أى الطريقة التجريبية . وكانوا يرون الجبر والرياضيات آلات للمنطق ، ويُلحظ من تآليفهم الكثيرة فى جر الأثقال (الميكانيك) وعلم موازين السوائل (الهيدروستاتيك) وعلم البصريات ، أن حلهم للمسائل العلمية كان دائماً بطريقة الاختبار المباشر أو بالمراقبة الآلية . وهذا هو السبب فى وضع العرب لعلم الكيمياء ، واختراعهم عدة آلات للتقطير والتصعيد والتذويب والتصفية . وكذلك هو السبب فى استعمالهم فى مراقبة الفلك الآلات المدرّجة كالربوع المجيَّبة والأسطرلابات . وقد استخدموا فى الكيمياء الميزان الذى أتقنوا معرفة قاعدته وأنشأوا جداول للثقل النوعى . ولهم الزيجات الفلكية الشهيرة مثل زيجات بغداد ، وقرطبة ، وسمرقند ، وكان ذلك من أعظم وسائل نجاحهم فى الهندسة والمثلثات ، وتوصلهم الى ابتكار علم الجبر ، واتخاذ طريقة الرقم الهندى [1] وذلك كلُّه نتيجة اتباع العرب مذهب ارسطو فى الفلسفة دون مذهب أفلاطون لأن الأول تفصيلى والثانى اجمالى .

واعتنى العرب كثيراً بجمع الكتب و بنوا لها الخزائن العظيمة ، وقيل ان المأمون استجلب الى بغداد مقدار مائة حمل جَمَل من الكتب . وكان من جملة شروط معاهدة له مع الامبراطور ميخائيل الثالث ، أن يتخلى له عن احدى مكاتب القسطنطينية . وكانت وُجدت فى بعض الخزائن رسالة بطليموس فى الرياضيات السماوية فأمر المأمون بنقلها الى العربية باسم المجسطى . ومازال المأمون يُعنى بأمر المكاتب حتى كانت خزانة كتب القاهرة تشتمل على أزيد من مائة ألف مجلد جيدة النسخ والتجليد . وكان منها ستة آلاف وخمسمائة مجلد فى فنى الطب والفلك لاغير . وكان قانون هذه الخزانة لايمنع اعارة الكتب للدارسين المقيمين بالقاهرة . وكان فيها كرتان احداهما من الفضة الصلبة ، والأخرى من النوع المسمى بسكب الرمل ، يقال ان الاولى من صنع بطليموس و بلغت قيمتها ثلاثة آلاف دينار . ثم مكتبة خلفاء اسبانية وكانت تشتمل على ستمائة ألف مجلد وكان برنامجها وحده فى أربعة

(١) قد كتب الدكتور فانديك بخطه فى حاشية هذه العبارة مايلى : هذا خطأ لأن العرب لم يخترعوا الجبر بل أخذوه عن الهنود كما أخذا منهم الأرقام الهندية . والحقيقة ان هذا رأى من الآراء وقد تقدم لنا نقل كلام عدة من علماء الاوربيين الذين يذهبون الي كون الجبر من اختراع العرب

وأربعين مجلداً ، وكان ماعداها فى الأندلس سبعون خزانة عامة للكتب وكثير من الخزائن الخاصة . ويقال ان أحد العلماء رفض يوما دعوة سلطان بخارى للاقامة ببلاطه ، معتذراً بانه يلزمه لنقل كتبه لا أقل من أربعمائة جمل [١]

وكان فى جميع هذه المكاتب الكبيرة أماكن للنساخة والترجمة بل كان مثل ذلك فى المكاتب الخصوصية فان حنين بن اسحاق الطبيب النسطورى كان اتخذ لنفسه فى بغداد مقاما من هذا النوع (٨٥٠) وترجم ارسطو وأفلاطون وابقراط وجالينوس . وأما فى التآليف الأصلية فكانت عادة الأساتيذ القاء المواضيع على الطلبة ، ثم جمعها رسائل . وكان عند كل خليفة من الخلفاء رواة وقصاصون ، وناهيك بقصصهم التى منها الف ليلة وليلة ، دليلا على ماأوتى العرب من قوة التصور . وعمّ التصنيف جميع الفنون والمواضيع كالتاريخ والفقه، والسياسة ، والفلسفة ، وتراجم الرجال ، وأوصاف الخيل والجمال ، وكانت جميعها تنتشر بدون معارضة الدولة . ولم يحدث الأمر بشأن كتب العقائد ومنع بعضها الابعد ذلك بكثير . وكان العرب يتأنقون الى الغاية فى الورق وألوانه ، والحبر وأنواعه ، ويزينون فواتح الكتب ، ويموهون منها بالذهب على أنواع وأشكال لاتحصى .

فامتلأت المملكة الاسلامية فى مدة قصيرة بالمدارس والمكاتب من بلاد المغول شرقا [illegible] اكثر ، واسبانيا غربا ، وارتفع فى الطرف الشرقى من هذه المملكة التى كانت تفوق المملكة الرومانية فى [illegible] صد سمرقند ، وفى الطرف الغربى منها مرصد الخالدة فى اسبانية [٢]

قال جيبون فى كلامه على ماكان من تنشيط العرب للمعارف : ان امراء المقاصد كانوا يناظرون الخلفاء فى محبة العلم ، وبسعيهم انتشر العلم من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة . وقد أنفق أحد الوزراء مائتى ألف دينار على بناء مدرسة فى بغداد ، أجرى عليها خمسة عشر ألف درهم سنوياً ، وكانت هذه المدرسة عمومية يقرأ فيها ستة آلاف طالب ،

---

(١) هذا هو الصاحب بن عباد كان وزيراً لمؤيد الدولة ابن بويه ، ولاخيه فخر الدولة بعد مؤيد الدولة . وكتب اليه الملك نوح بن منصور السامانى يعرض عليه الوزارة فى مملكته فأجابه معتذراً وكان من جملة أعذاره استلزام نقل كتبه لاربعمائة جمل

(٢) هو الذى يسميه الاوربيون بالجيرالده فى اشبيلية

يدرسون معامن ولد السيد الرفيع الى ولد الصانع الوضيع وكانوا يُجرون النفقات على التلاميذ الفقراء ، ويؤدون الرواتب الجة للعامين [١] وكنت ترى العلوم والآداب رائجة الأسواق فى جميع المدن والأمصار ، وكانوا كثيراً مايعهدون بادارة المدارس الى النساطرة واليهود مما يدل على روح التسامح لذلك العهد فلم يكونوا ينظرون الى وطن العالم ، ولا الى دينه بل الى جهة فضله . وكان الخليفة المأمون يقول عن العلماء : انهم صفوة الله فى خلقه ، ونخبته من عباده ، صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة ، فكانوا مصابيح الدجى وسادة البشر ، وأوحشت الدنيا لفقدهم .

واقتدت جميع المدارس الطبية العربيــة بمدرسة القاهرة فى تشديد الامتحان على المخرجين منها ، فلم يكونوا يأذنون بممارسة الطب الا لمن أتقن التحصيل ، وامتحن امتحانا تاما ، وأول مدرسة طبية فى اوربا اقتدت بمدارس المسلمين مدرسة ساليرنا . ولعلنا نخرج عن حدود هذا التأليف لو شئنا تفصيل هذه الحركة العامية التى وُجدت عند العرب . فانهم وسعوا نطاق العلوم القديمة ووضعوا علوماً جديدة ، وأدخلوا طريقة الهند الحسابية ، وهى من الاختراعات العقلية البديعة لاشارتها الى الأعداد بأرقام عشرة ذات قيمتين ، المستقلة والنسبية ، ولتيسيرها قواعد بسيطة لجميع الحسابات . وأما الجبر أو الحساب المعمَّم الذى موضوعه الكميات غير المعروفة ، والبحث عن علائق الكميات من أى نوع كان حسابياً كان أو هندسياً فقد أخرجوه من ضمن الحدود التى كان حصره فيها ديُوفانتُوس . و بسط محمد بن موسى حل المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية ، وعمر بن ابراهيم حــل المعادلات الجبرية من الدرجة الثالثة . والمسلمون هم الذين أوصلوا علم المثلثات الى صورته الحالية ، واعتاضوا بالجيوب عن الأوتار وجعلوه علماً مستقلاً . ومحمد بن موسى الذى ذكرناه هو بعينه مؤلف رسالة المثلثات الكروية . وللبغدادى رسالة فى مساحة الأراضى فى غاية الابداع حتى ظن كثيرون انها نسخة من بعض تآليف اقليدس . وأما فى الفلك فلم ينشئ العرب ازياجاً فقط ، بل رسموا صفائح للنجوم المنظورة وسموا النجوم الكبرى التى فى الكرة السماوية بالاسماء التى تعرف بها اليوم ، وقاسوا مساحة الأرض وطول الدرجة كما تقدم الكلام

(١) يشير درابر هنا الى المدرسة النظامية التى شادها الوزير نظام الملك فى بغداد وشهرتها غنية عن التعريف

عليه ، وفصلوا مسألة انحراف دائرة البروج عن خط الاستواء ونشروا صفائح مرسومة عليها حركة القمر والشمس وهى صحيحة . وقرروا مدة السنة الشمسية وحققوا حركة مبادرة الاعتدال .

وقد أطنب « لَابْلَاس » فى ذكر رسالة علم النجوم تأليف البتّانى وذكر رسالة أخرى جليلة لأبن يونس الذى كان فلكىّ الحاكم فى مصر سنة ألف للمسيح تحتوى على سلسلة اختبارات من زمن المنصور فى الكسوف والاعتدال والانقلاب وقران السيارات واحتجاب الكواكب . وهى مراقبات فلكية جليلة أضاءت الألباب فى مسائل تغييرات الكرة السماوية . وعكف الفلكيون العرب على اتقان الآلات الفلكية وقياس الزمان بالساعات المختلفة منها المائية ومنها الشمسية وهم أول من استعملوا لذلك الساعة الكبيرة ذات الرقاص

وأما فى العلوم التجريبية ، فهم الذين وضعوا علم الكيمياء وكشفوا خواص الجواهر التى يتوصل بها الى معرفة طبائع الأجسام ، والحامض الكبريتيك ، والحامض النيتريك ، والكحول ، وجعلوها فى الطب . وهم أول من استعملوا الأقرَباذين ، وافتتحوا الصيدليات المجانية وجعلوا فيها المستحضرات المعدنية . وأما فى الميكانيك ، فعرفوا قاعدة سقوط الأجسام وقليلا من الجاذبية . وكان لهم علم بالديناميك أى حركة الأجسام وأنشأوا فى علم السوائل جداول لبيان الأثقال النوعية . وكتبوا رسائل فى الاجرام الطافية والراسبة . وعدلوا فى العلم البصرى عن القول اليونانى القديم بذهاب النور من العين الى الجسم المنظور ، الى القول بانعكاس الأشعة وانحرافها ، وكشف الخازن انحناء الشعاع المارّ بالكوة الهوائية ، محققا اننا نرى الشمس والقمر قبل وجودهما حقيقة فوق الأفق وبعد غيابهما تحته ، وظهرت نتائج هذه الحركة العلمية الكبيرة فى الصناعات فاستفادت منها الزراعة فى ريّ الأراضى وتدميلها وتربية المواشى وانتشرت للفلاحة قواعد مضبوطة فنية ، وأدخلت زراعة الارز والسكر والبن ، واتسعت أعمال المعامل فيما يتعلق بنساجة الصوف والحرير والقطن وصنع الورق والجلد فى قرطبة ومراكش ، وأسيلت الجوامد واستخرجت المناجم وتسلطت الأيدى على أنواع المعادن وكان لمعمل السلاح فى طليطلة شهرة طائرة .

ولما كان للعرب ولوع خاص بالغناء وقرض الشعر ، قضوا كثيراً من أوقاتهم بمباشرة هـذه الملاذ العقلية ، وهم الذين عرفوا الاوربيين بالشطرنج والهبوا فيهم حب الاقاصيص . وكانت للعرب قدم راسخة فى آداب أسمى من هذه كعلم الاخلاق ، والزهد ، والنسك ، ولهم التواليف النفيسة فى زوال العظَمات الدنيوية ، واضمحلال المجد الباطل ، وعواقبَ الكفر وأصل الكون ، و بقائه ، وانتهائه . وانا لنعجب غاية العجب مما نجده أحياناً فى كتبهم من التصورات والافكار التى كنا نظنها عصرية محدثة فاذا بهم قد سبقوا اليها . وذلك كمذهب النشوء والارتقاء فى الكائنات العضوية ، فقد كان هـذا المذهب يعلَّم فى مدارسهم وكانوا يذهبون فيه الى أبعد مما نذهب اليوم باطلاقه على الجواهر غير العضوية (١) وكان عندهم مبدأ الكيمياء الأساسى هو التركيب التدريجى فى الاجسام المعدنية قال الخازن : « ان الجهلة حينما يسمعون بتحول بعض الاجسام بطريق التكامل الى ذهب يفهمون انه مرَّ بصور الاجسام المعدنية الاخرى أى أنه كان رصاصاً ، ثم صار قصديراً ، ثم صار من نوع سكب الرمل ، ثم فضة ، الى أن انتهى ذهباً . ولا يدركون ان الفلاسفة يريدون بما يقولونه الانسان أيضاً . اذ لم يصل الى الحالة التى هو فيها الآن بالانقلاب السريع بل بالتدريج كأن مرَّ بصورة العجل ، فالحمار ، فالفرس ، فالقرد ، الى أن انتهى انساناً » . انتهى .

وقد جاء ذكر مدنية العرب أيضاً فى كتاب درابر فى الفصل السادس المتعلق بطبيعة العالم والمقايسة بين ما كان عليه الاوربيون فى القرون الوسطى وما كان عليه العرب قال :

« وقد مضى القسم الاكبر من هـذه القرون على النصرانية بالمنازعات على الطبيعة الالهية والاختلاف على السلطة الكنسية » . وهـذه كانت تجد كل حقيقة داخل الاسفار المقدسة فتثبط الناس عن كل بحث . واذا اتفق لزوم النظر فى مسئلة فلكية مثلاً كان يرجع فيها الى فصل للقديس اغسطينوس أو لا كتانسيوس ، ولم يكونوا يجدون حاجة الى مراقبة الاحداث الجوية . وعلى هذه الحال استمر ترجيح العلم الدينى على العلم الدنيوى مدة خمس عشرة مائة سنة اذ فى كل هذه المدة لم يولد فى النصرانية فلكى واحد

أما المسلمون فقد كان عملهم فى هذا المقام أحسن جداً ، فقد بدأوا يعتنون بالعلوم

(١) راجع مقدمة ابن خلدون

منذ افتتحوا الاسكندرية (٦٣٨) فلم يمض على ذلك قرنان حتى درسوا جميع علوم يونان وترجوا كتبهم ، وكان المأمون أمر بترجمة كتاب بطليموس الى العربية ومن بعدها قاس العرب قطر الارض ، ووضعوا جدولاً للنجوم المرئيـة ، وسموا الكبرى منها بالاسماء التى تعرف بها الى الآن . وقرروا مدة السنة الشمسية ، واخترعوا الساعة بالرقاص ، وكشفوا انكسار النور ، وفعله برؤية الاجرام السماوية ، وقاسوا ارتفاع الهواء الكروى ، وقرروا انه يبلغ ثمانية وخمسين ميلاً . وكذلك عرفوا مسئلة النور الشفقى وتألّق الكواكب . وهم الذين بنوا أول مرصد فلكى فى أوربة . وقد صح كثير من رصدهم واعتمد عليه أبرع علماء الرياضة المحدثين . ذكر لابلاس فى كتابه « نظام العالم » ان ارصاد البتّانى تقيم الأدلة الساطعة على اهليلجية فلك الارض ، وان تحقيقات ابن يونس تثبت تغير ميل دائرة البروج على خط الاستواء وانحراف سير المشترى وزحل

كل هذا الذى نذكره ليس الا جزءاً يسيراً من الخدمة الجزيلة التى قدمها فلكيو العرب للعلم ، والعناء الذى عانوه لحل المسائل الطبيعية . هذا بينما ظلمات الجهالة مطبقة على النصرانية وأهلها لايفكر منهم أحد بهذه الأمور ، وانما عنايتهم منصرفة كلها الى المشاجرات الدينية وعبادة الصور وتحول الخبز جسداً ، والخمر دماً ، واستحقاقات القديسين والمعجزات والاعاجيب وشفاء الامراض بالذخائر المقدسة . و بقى هذا الجهل مخيما على أوربة الى غاية القرن الخامس عشر ، ولم يقع التقدم بعد ذلك الى طلب العلم من جهة حب العلم لنفسهِ والولوع بكشف الحقائق . ولكنه بدأ بمنافسات تجارية وظهر الرحالات الثلاثة كريستوف كولمبوس، وفاسكو دوغاما ، وفرديناند مجلاّن ، و بأسفارهم تقررت كروية الارض .

وقد حدث كولمبوس عن نفسه بأنه انبعث الى السفر قاصداً الهند من طريق الاطلانتيك وذلك بمطالعة كتب ابن رشد . ووجد بين أصحابه رجل فلورنتى اسمه «توسكانلى» درس الفلك وجاهر بالقول بكروية الارض . ولما ظهر مشروع كولمبوس قام الاكليروس الاسبانيولى وقعد وحكم عليه مجمع طلمنكة Talamanque بالكفر وانما عرضوا مذهبه عند المحاكمة على مقالات القديسين يوحنا فم الذهب ، وأغسطينوس ، وأيرونيموس ، وغريغوريوس، و باسيليوس، وامبروسيوس، ورسائل الرسل والانجيل والنبوّات والمزامير والتوراة الخ » .

هذا ما اخترنا نقله من ترجمة كتاب درابر « اختلاف العلم والدين » وهو كتاب شهير مشحون بالفوائد أذا انتدح لنا الوقت قد نعيد النظر عليه ، ونطبعه مع تعليقات العلامة الدكتور فانديك الذى طالع الترجمة كلها

وممن تكلم على مدنية العرب وأجاد واشتهر كتابه فى كل ناد ، الفيلسوف الافرنسى الدكتور غستاف لوبون الذى توفى منذ نحو شهرين أو ثلاثة عن ٩١ سنة جزاه الله عن العرب وعن الاسلام خيراً . ولقد لخصت كتابه فى رسالة وجيزة تذكرة لنفسى ، ثم بلغنى ان الكاتب المصرى المعروف السيد محمد مسعود قد ترجم الكتاب الى العربية ترجمة تامة ، فلهذا فضلت طىّ رسالتى هذه على غرّها ، منتظراً ظهور الترجمة الكاملة .ولقد كان غستاف لوبون من الافرنج المنصفين الذين لم يدافعوا عن حضارة الاسلام فحسب ، بل دافعوا عن حقوق المسلمين وانتقدوا سياسة القهر والهضم التى تعسفهم بها الدول الاوربية المستعمرة . وقد كتب كتابات شافية فى انتقاد قومه الفرنسيس بما يعاملون به مسلمى الجزائر من الظلم، والارهاق ، ونزع الاراضى ، والتشريد الى الصحراء وغير ذلك . ولقد عرفت هذا الرجل بنفسى منذ أربعين سنة ، وذلك فى باريز اذ ذهبت اليه لاشكره على كتابه الذى كان أخرجه حديثاً عن حضارة العرب ، فقال لى وقتئذٍ انى كنت ثانى رجل مسلم جاءه وحدّثه فى هذا الموضوع ، وشكره على صنيعه . ولم تساعدنى الاقدار على ملاقاته أكثر من تلك المرة ولكنى كنت أتتبّع كتاباته وأتمتّع بتصانيفه الكثيرة المفيدة وهو من الفلاسفة الاجتماعيين المعدودين فى هذا العصر

العصبية الفارسيه والاسلام

مهيار الديلمى وبديع الزمان الهمذانى

على ذكر المؤلف استيلاء العرب على فارس

الأمير شكيب

يذهب بعضهم الى كون استيلاء العرب على فارس وابادتهم ملك كسرى ، معما كان سابقا من العداوة بين هاتين الامتين منذ أحقاب متطاولة ، قد كان من نتائجها ايغار صدور العجم على العرب وتربصهم بهم الدوائر حتى يأخذوا منهم بثأرهم . ولما كان دين الفرس المجوسية قد تلاشى أمام الدين العربى المبين ، وعجز عن أن يكون عنصراً للمقاومة ، انتهز الفرس أول فرصة شقاق وقعت فى الاسلام نفسه ونصروا الفئة التى وجدوا أكثر العرب ضدها وهى الشيعة ، ولعبوا دوراً عظيما فى توسيع هذه الفتنة بين العرب من طريق الدين فشفوا احنتهم من العرب لما كان هؤلاء أزالوه من سلطانهم بدون أن يقاوموا نفس الاسلام الذى رأوا برهانه أسطع من أن يكابر ، بل بمقاومة احدى فئتيه التى هى السنة والجماعة والتى كان منها جمهور العرب . لهذا تجد الفارسى يكره العرب ويحتقر كل شئ لهم الا الدين .

وترى مهيار الديلمى يقول (قد جمعت المجد من أطرافه : نسب الفرس ودين العرب) ومع كون الدين الاسلامى يمنع العصبية للأجناس ويضع فوقها اخوة المؤمنين خاصة كانت لا تزال ترى آثار العصبية الفارسية فى بلاد العجم بالرغم من مزج الاسلام للأجناس حتى قال الصاحب بن عباد ، وهو فارسى الأصل خاص العقيدة الاسلامية عندما جاءه أحد الفرس وتلا الأبيات التى يفتخر بها على العرب وجاوبه عليها بديع الزمان الهمذانى : ما رأيت رجلا يفضل العجم على العرب الا وفيه عرق من المجوسية ينزع اليه . ولما رسخت قدم الاسلام فى العجم وزال كل عرق للمجوسية منهم عشقوا التشيع عشقاً كان أعظم عوامله كره العرب ، الى أن كاد الانسان يراهم شيعة قبل كل شئ . ومما ينسب الى الفيلسوف الفرنساوى رنان : ان الفرس هم شيعة أولا ومسلمون ثانياً . ولا شك أن فى هذا القول مبالغة وانما

يصدق على كثير من عامتهم . وبهذه الأيام الأخيرة نجم عندهم كما عند غيرهم من الامم الاسلامية فئة تدين بالقومية وتحارب الجامعة الاسلامية ، ولكنها لا تزال ضعيفة بالقياس الى السواد الأعظم الذى عمدته الاسلام ، بل قد زال من بينهم أكثر النفرة التى كانت عندهم لاهل السنة بما هو نتيجة انحطاط القوة السياسية الاسلامية بأجمعها وشعور العجم بالحاجة الى التضامن مع سائر المسلمين ، سنة الله فى المستضعفين ولن تجد لسنة الله تبديلا

نظرية « القومية العثمانية الاسلامية »

و « القومية التركية الطورانية »

على ذكر المؤلف الترك العثمانيين والطورانيين

للامير شكيب

هذه نظرية الفئة الكبرى من علماء الترك العثمانيين الذين درجوا وقد وافقهم عليها كثير من أدباء الترك المعاصرين مثل عبد الحق حامد بك الملقب بالأديب الأعظم ، وسليمان نظيف بك وأخيه فائق عالى ، وجناب شهاب الدين بك ، وجلال نورى بك ، والشاعر محمد عاكف ، وأنور باشا المؤرخ [1] واسماعيل حقى بك الديار بكرى ، واسماعيل حقى بك الازميرى ، ورضا توفيق الفيلسوف ، ومنهم على كمال الذى قتله الكماليون فى أزميد لخيانته وجم غفير من كتابهم ومفكريهم ووزرائهم وشيوخهم ، وهى أن الأتراك العثمانيين وان كانوا من الترك أصلا ومحتداً فقد أصبحوا باختلاط دمهم بسائر الأمم التى ساكنوها من قرون فى غربى آسيةوجنوبى أوربا من فرس وعرب وكرد وجركس وكرج وروم وأرمن وبلغار وأرناووط و بشناق الخ ، أمة قائمة بذاتها قد ابتعدت كثيراً عن الترك الأصليين ولا سيما من المغول الذين يقال لهم ياجوج وماجوج، والذين قد اشتهروا بقبح المنظر وغلظ الطبع وكره الحضارة والشغف بسفك الدماء وتخريب الديار ونسف العمران ، مما اتفق المؤرخون شرقاً وغرباً على أنه دأبهم، حال كون الأتراك العثمانيين قد عرفوا بصباحة الوجوه وكرم الأخلاق ودماثة الطباع وحب المدنية والجمع بين شدة البأس ورقة الشمائل ، ويزيدون

---

(١) هو غير أنور باشا ناظر الحربية وهذا أيضاً ممن يقول بهذه النظرية

علـى ذلك أن الثقافة التركية العثمانيـة والأدب الـتركى العثمانى [١] هما خاصان باتراك آل عثمان لأنهما مقتبسان من الآداب العربية والفارسية ، لأن لغة العرب ولغة الفرس كانتا لغتى العلم والشعر عند الأتراك منذ هاجروا الى غربى آسية ، فلذلك قيـل للغة الدولة اللغة العثمانية لافتراقها كثيراً عن لهجة أتراك أواسط آسية ، ولـكونها لا تشبه فى شىء لغة المغول فهذه الفئة وان كانت لا تبرأ من الترك المسلمين سكان التركستان الروسى والتركستان الصينى وشمالى فارس ، فهى تبرأ من المغول وتلعن تاريخهم وتقول انهم هم كانوا سبب بوار الشرق وانحطاط الاسلام ، وانهم هم الذين نسفوا عمران البـلاد التركية خراسان وما وراء النهر والبلاد الفارسية والبـلاد العربية ، فأهلـكوا الملايين ودمروا العواصم الـكبرى ، ولم تقم للشرق بعد مصيبتهم قائمة . وبعض هذه الفئة مثل أنور باشا المار الذكر يزعم أنه لا يوجد أدنى صلة نسب بين الترك العثمانيين والمغول ويميل الى أن الترك هم أصلا من الجنس الابيض الآرى ، وانمـا اختلطوا بسبب الجوار بالجنس الاصفر المغولى ، وقد وصف بعض مؤرخى الترك أعمال جنكيز وهولا كو وقومهما بمثل ما وصفها به مؤرخو العرب والفرس والافرنج والروس ، لا بل ألف لهـذا العهد رجل اسمه طاهر المولوى كتابا خاصاً بفظائع جنكيز وهولا كو وفجائعهما ، وقال ليس للترك أن يفخروا بمثل هؤلاء المفسدين فى الارض العائثين المدمرين الذين كانوا علة انحطاط الشرق عن الغرب ، وأعظم بلاء وقع على الانسان ، واذا أراد الاتراك المسلمون أن يراجعوا صحيفة احسابهم فيراجعو تاريخ آل طولون بمصر وتاريخ السلاجقة وآل زنـكى الاتابكى والدولة العثمانيـة . وقال جلال نورى صاحب التصانيف الاجتماعية العديدة : الترك العثمانيون هم مسلمون أولا وترك ثانياً

وهناك فئة ثانية تدعى الفئة الطورانية ، تخالف الفئة الاولى فى كل هـذه النظريات وأشهر دعاتها ضيا كوك الب ، وأحمد أغايف ، ويوسف آقشورا اللذان قدما من الروسية ، وجلال ساهر ، ويحيي كمال ، وحمد الله صبحى رئيس وجاق « ترك يوردى » ومحمد أمين بك الشاعر الملى ، وكثير من الادباء والمفـكرين وأكثر الطلبـة والنشء الجديد . وهؤلاء يزعمون أن الترك هم من أقدم أمم البسيطة وأعرقها مجداً وأسبقها الى الحضارة ، وانهم هم والجنس المغولى واحد فى الاصل ويلزم أن يعودوا واحداً ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية ،

(١) وهم يسمون ذلك بالحرث

ولم يقتصروا فيها على الترك الذين فى سيبريا وتركستان الروس وتركستان الصين وفارس والقوقاس والاناطول والروملى ، بل مبدأوهم مد هذه الرابطة الى المغول فى الصين والى المجار والفنلانديين فى أوربا وكل من يقال انه ينمى الى أصل طورانى ، وهم يقولون بخلاف ما يقول الاولون ، فهم ترك أولاً ومسلمون ثانياً . وشعارهم عدم التدين واهمال الجامعة الاسلامية الا اذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية ، فتكون عندئذ واسطة لا غاية ، وقد غلا كثير من هذه الفئة فى الطورانية حتى قالوا : نحن أتراك فكعبتنا طوران . وهم يتغنون بمدائح جنكيز ، ويعجبون بفتوحات المغول ولا ينكرون شيئاً من أعمالهم ، وينظمون الاناشيد للأحداث فى وصف الوقائع الجنكيزية ليطبعوهم على الاعجاب بها ويرقوا مستوى نفوسهم بزعمهم ، وقد سألت صديقى ورفيقى فى مجلس الامة محمد أمين بك الشاعر الملى ، وهو من أحسنهم أخلاقاً وممن لا يبلغ بهم نزوع العرق الطورانى أن يشنأ العرب وينصب لهم العداوة ، كما هو شأن كثير من رفاقه ، بل ممن سبقت لهم خطب فى المجلس ينوه فيها بفضل العرب ، فقلت له : كل شئ فهمته وانكم طورانيون وانه ينبغى لكل أمة أن تتمسك بجامعتها القومية وتحييها فى صدور أبنائها وان ذلك لا ينافى الاسلام لأن الجامعة الطورانية باعتبار أن الترك مسلمون تقوى الاسلام ولا توهنه ولكن الذى لم أفهمه الى اليوم هو افتخاركم دائماً بجنكيز مع عيثه وتدميره وما جرى من قومه من نسف العمران واكتساح البسائط . فقال لى : « نفتخر به لكون تشكيلاته العسكرية كانت فى غاية الانتظام « تشكيلات عسكرية سى مكمل ايدى » وما يعزى الى المغول من العيث والدعارة فلا يزيد على ما جرى فى الحرب العامة من التخريب الذى اقتضته الدواعى الحربية أفلا ترى ما فعل الألمان فى شمالى فرنسا مع أنهم أرقى أمة متمدنة » هذه هى نظريتهم من جهة ما اشتهر به المغول من العيث والفساد فى الأرض ، وليس هنا محل تبيين الفرق بين تخريبات المغول وتخريبات الألمان فى شمالى فرنسا

وقد امتد الخلاف بين هاتين الفئتين فى الترك الى مواضيع أخر من أهمها مسئلة الرجوع الى اللغة التركية القديمة ، وعلى رأيهم « تصفية » اللغة التركية الحاضرة من الألفاظ العربية والفارسية ، والاعتياض منها بألفاظ تركية مهملة بعدم استعمالها بين الأتراك العثمانيين مع ان استعمال العربى والفارسى هو مما يضعف القومية الطورانية ، وعلى فرض

أن هناك معانى لا توجد بازائها كلمات تركية صرفة فيمكن الأخذ من العربى والفارسى على شرط تتريك هذا المستعار من ثينك اللغتين ، وقد دارت على هذه المسألة الجلى مباحثات ومناقشات طويلة ، ولا تزال دائرة ، وحزب التصفية هذا هو كما لا يخفى هو الحزب الطورانى كما أن حزب العربى والفارسى هو الحزب الاسلامى ، واستعملوا فى الاستانة لفظتى « تركجى » و « اسلامجى » للدلالة على هذين الحزبين

وبرهان الحزب الاسلامى فى مناهضة التصفية هو أولا ان اللسان التركى وان كانت فيه متوفرة أسماء الامور المادية وأفعال الحركات البدنية ، فهو لسان فقير فى الأمور العقلية ، قليل الألفاظ المؤدية للمعانى المجردة ، ان أمكنه أن يفى بحاجة أمة فى حال البداوة وطور السذاجة فلا يمكنه الوفاء باحتياج أمة راقية ودولة عظيمة ، فلا بد له والحال هى هذه ، من الاستعارة من لغة العرب والتوكؤ على لغة الفرس ، لاجل اكمال ما نقصه من تلك الجهة . ثانيا ان الادب التركى الذى نشأ ونما وحررت فيه الكتب الممتعة ، وقصدت القصائد البليغة وصار أدباً معدوداً ، وجال فى ميدانه فحول من الكتاب ونوابغ من الشعراء هم مفاخر أمة الترك انما هو هذا الأدب المقتبس من الفارسى والعربى والذى صار أدباً قائماً بذاته ، أفيحسن أن يغير أسلوبه وتبدل ديباجته ، ويحرم الناس طلاوته ويعدل عنه الى أدب تركى بحت يرجع الى لغة ليس فيها شئ من الاستعداد لتكوين أدب بالغ درجة الرقى كالأدب العثمانى الحاضر ، وعلى فرض المحال أنه تيسر ذلك أفلا يلزم حقب متطاولة لتأسيس أدب جديد ؟ أما كون استعمال العربى والفارسى هو مما يضعف القومية التركية والحال أن مقصد الترك الجدد هو ايقاد شعلتها فى النفوس فالحزب الاسلامى هذا لا يجد الأدب العثمانى هذا حائلا دون نمو الفكرة التركية بل يجد تقرب التركية من العربية والفارسية ، عدا كونه أزين لها وأزيد فى محاسنها ، أنفع للاتراك من الجهة السياسية لانه يؤكد الروابط التى تربط العرب والفرس وسائر المسلمين بالامة التركية مما يزيدها قوة ومنعة اذ كان هذا الحزب لا يزال دستوره فى السياسة هو الاتحاد الاسلامى ، ويرى الاسلام فوق كل شئ ، وقد كان أنور باشا ناظر الحربية يقول اذا كان أتراك التركستان مرتبطين بنا فليس ذلك لكوننا أتراكا مثلهم بل لكوننا مسلمين فحسب

اسلام الفرس ومبدأ التشيع

للأمير شكيب

— العرب والعجم

— القومية الفارسية

— قول المسيو دومومبين صاحب كتاب « تاريخ العالم » .

— الشرع الاسلامى والقوانين الرومانية (استطراد) .

— نظرية الحقوق فى الاسلام لصاوا باشا الرومى .

— العلاقات بين العرب الفاتحين والأمم المغلوبة

— أقوال الكونت دوغو بينو صاحب كتاب «الأديان والفلسفات فى أسية الوسطى»

— الفرق الشيعيّة فى فارس الاخبارية والمجتهدية والشيخية .

— مبدأ الشيعة.

— أبو ذر الغفارى ومعاوية فى الشام .

— التشيُّع عند العرب والعجم .

— النزعة الحالية عند الشيعة وأهل السنَّة الى الوحدة الاسلامية العامة .

— المؤتمر الاسلامى العام فى بيت المقدس .

مع حاشية « المتاولة أو الشيعة فى جبل عامل »

ومن الغريب أن كثيراً من العجم مع تدينهم بالاسلام ، وشدّة استمساكهم بالتشيّع لآل البيت ، لا تزال تجد فيهم فى الأحايين آثار البغضاء للعرب ، وهم يعلمون أن آل البيت الذين يقدسونهم هذا التقديس كله هم عرب أقحاح ، بل هم سنام العرب . ولقد حدثنى من أثق به أنه وُجد من الايرانيّين علماء مجتهدون فى مذهب الشيعة ، قضوا حياتهم فى خدمته والدعوة اليه الى أن حانت وفاتهم ، فبينماهم يلفظون أرواحهم تكلموا بما ينْبئ عن شدة بغضائهم للعرب وكان هذا كلامهم الأخير فى الدنيا وهذا هو القياس البعيد فى الشنآن بين الأقوام . وقد كنت أحادث احدى المرار رجلاً من فضلائهم ، ومن ذوى المناصب العالية فى الدولة الفارسية ، فوصلنا فى البحث الى قضية العرب والعجم ، وكان محدّثى على جانب عظيم من الغلوّ فى التشيع الى حدّ أنى رأيت له كتاباً مطبوعاً مصدّراً بجملة « هو العلىّ الغالب » فقلت فى نفسى لا شك أن هذا الرجل لشدة غلوه فى آل البيت ، ولعلمه أنهم من العرب ، لا يمكنه أن يكره العرب الذين آل البيت منهم، لأنه يستحيل الجمع بين البغض والحب فى مكان واحد . ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه . ولقد أخطأ ظنى فى هذه أيضاً ، فانى عند ما سقت الحديث الى مسئلة العربية والعجمية وجدته انقلب عجميا صرفاً ، ونسى ذلك الغلو كله فى علىّ عليه السلام وآله ، بل قال لى هكذا وكان يحدثنى بالتركية : «ايران بر حكومت اسلاميه دكلدر يالكز دين اسلامى اتخاذايتمش بر حكومتدر» أى ايران ليست بحكومة اسلامية وانما هى حكومة اتخذت لنفسها دين الاسلام » وكنت أتحدث مرة أخرى الى الأمير «فرمان فرما» عبد الحسين ابن عم الشاه مظفر الدين ، ووالد الأمير فيروز ناظر الخارجية الايرانية لعهد الشاه الأخير من آل قاجار، وقد كانت بينى و بين الأمير فرمان فرما المشار اليه مودة أكيدة واجتماعات كثيرة ، وكنت أرى فيه أيضاً شيعياً غالياً ، وأحسب أنه لتشيعه الشديد لا يمكنه أن يكون شانئاً للعرب ، وقد غلطت فى هذه أيضاً ، فقد رأيته يجمع بين الأمرين يحب آل البيت أشد الحبّ ، ولا يحب العرب الذين آلُ البيت منهم . وقد صرح لى قائلا : ان العرب عند ما استولوا على فارس أفسدوا أخلاق العجم ، و بذلك أسقطوا تلك الأمة الفارسية العظيمة التى استولوا عليها وأدخلوها فى دينهم ، فلم أستطع على كلامه صبراً ومع أنى كنت أيام معرفتى بهذا الأمير شابا وكان

هو كهلاً ، وكان عندنا ضيفا فى جبل لبنان ، لم أملك نفسى من الحدة وقلت له : لا شك أن أخلاقكم كانت فاسدة من قبل ، ولو لا ذلك ما تغلب عليكم العرب وأنتم أمة منظّمة ، وهم أمة آتية من الصحراء من تحت الخيام ، وقد اتفق المؤرخون والعلماء الاجتماعيون أن العرب لم يفتحوا تلك الفتوحات السريعة ، ولم يستولوا على ممالك الفرس والرومان والهند والترك والبربر وغيرهم الا بما كانوا عليه فى صدر الاسلام من الأخلاق العالية .

فانقطع بعد ذلك عن الحديث . وقضيت مما سمعته من هذين الرجلين من كبار العجم أشد العجب ، لأنى كنت أراهما فى غاية التمسك بالاسلام ، وهما يعلمان أن الاسلام عربى المنبت ، وكنت أراهما فى غاية العصبية لعترة على ، وهما يعلمان أنهما من بنى هاشم من صميم العرب ، وأراهما مع ذلك اذا جرى الكلام فى القوميات انقلبا فارسيين متشددين ، لا يريدان أن يعلما عن العرب شيئاً ، فكأن الواحد من هؤلاء له نفسيتان احداهما اسلامية والاخرى فارسية ، وأغرب من هذا أن هذين الرجلين ليسا من الجنس الفارسى الآرى بل من الجنس الفارسى التركى ، لأن فارس كما لا يخفى ترجع الى سلالتين منها السلالة الايرانية الآرية ، ولغتها الفارسية ، ومنها السلالة التركية المغولية ولغتها التركية . ولكن السلالتين اندمجتا أمةً واحدة تحت ظل الدولة الفارسية وصارت الفارسية هى اللغة الرسمية للجميع كما أن التشيع غالب على الفريقين . ولا أقدر أن أقول ان هذه الحالة الروحية فى العجم هى عامة لهم ، وان جميع مجتهديهم وعلمائهم يضمرون العداوة للعرب برغم معرفتهم أن آل البيت هم من قريش ، وبرغم ذهاب الألوف منهم فى كل سنة حجاجاً الى البيت الحرام فى مكة ولكنى لا أشك فى أمر واحد وهو أن القومية الفارسية لم تندثر بالديانة الاسلامية التى جاءت من العرب ، وان هناك عوامل خاصة تجعل الفرس يميلون الى آل البيت ، منها ما تقدم ذكره من أن استيلاء العرب على فارس أوجد فى العجم مناوأة للدولة ، التى استولت على بلادهم ، وأزالت مُلكهم ، فلذلك رأيتهم انتصروا لبنى العباس والعلوية ، يوم كانوا يداً واحدة فى حرب بنى أمية الذين كان مركزهم الشام . وما زالوا حتى حولوا الخلافة الى العراق وصارت الدولة العباسية كما يقول كثير من المؤرخين مطبوعة بطابع المدنية الفارسية

ومن الوسائل التى يمت بها العجم الى الاسلام نسب سلمان الفارسى الذى كان من

أكابر الصحابه ، وهو منهم وقد جعله النبي ﷺ من آله فقال : سلمان منا آل البيت . وقد لحظت أنه لما قتل اللعين أبو لؤلؤة الفارسي سيدنا عمر رضي الله عنه وقام عبيد الله بن عمر بعد وفاة أبيه فقتل المارزبان ، وهو الأمير العجمي الذي كان أسيراً بالمدينة وأسلم ، وكان قتل عبيد الله اياه بتهمة أنه كان ذا يد خفية في دفع أبي لؤلؤة الى قتل عمر ، كان من عليّ رضي الله عنه أن احتج أشد الاحتجاج على قتل عبيد الله بن عمر للمارزبان ، بدون ثبوت تلك التهمة التي وجهها عُبيد الله اليه . فكانت هذه القضية من أسباب انحياز عبيد الله الى معاوية . وهي على كل حال مما يتخذه العجم دليلا على سابق محبة عليّ لهم

وكان علي بن الحسين بن سيدنا علي وهو الملقب بزين العابدين يمتّ الى الفرس بنسب ، لأن أمه هي بنت يزدجرد آخر ملوك فارس . ويقال نقلاً عن أبي القاسم الزمخشري في كتاب « ربيع الأبرار » أنه لما جيء الى المدينة بسبي فارس في خلافة عمر ، كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد ، فباعوا السبايا وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد . فقال له عليّ : ان بنات الملوك لا يُعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة ، فقال كيف الطريق الى العمل معهنّ قال : يُقوَّمن ، ومهما بلغ ثمنهنّ قام به من يختارُهن . فقُوِّمن ، فأخذهن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لمحمد بن أبي بكر وأزوج الثالثة ولده الحسين فكان له منها ولده زين العابدين .

هذا ولما كان هذا العصر عصر القوميات كما لايخفى ، اقتداء بالأمم الأوربية في الزمن الأخير كانت القومية الفارسية قد أخذت تشتدّ أكثر من ذي قبل ، وذلك نظير ماحصل عند الترك،وصار كثير من ناشئة الفرس يبحثون عن دين فارس القديم، وذلك نظير ناشئة الترك الذين أخذوا يبحثون عن عبادات أجدادهم ، وعن الذئب الأبيض الذي كانوا يعبدونه ، حتى صوّروه في بعض كتبهم الحديثة وقال لهم المرحوم موسى كاظم شيخ الاسلام — وهو الذي أخبرني بذلك — ان العرب كانت عندهم عبادات كهذه تقشعر منها الأبدان ولكنهم اقتلعوها بالاسلام وافتخروا بان الله لطف بهم ، وأنقذهم منها ورفعهم عن مستوى تلك السفالات . وأما أنتم فتريدون أن تتناسوا الاعتقاد بالباري تعالى ، وتتذكروا عبادة الذئب الابيض . . . فياللاسف

فكما حصل عند الترك حصل عند الفرس وصار ناشئتهم يبحثون عن أديانهم

القديمة التى منها الكيومرتية أى تعظيم النور والتحرز من الظلمة ، ومن هنا جاءتهم عبادة النار . ومنها فرقة زرادشت الذى كان يدعو الى وحدانية الله ، ويقول انه خالق النور والظلمة ، وان الخير والشر انما حصلا بامتزاجهما ، وانهما لو لم يمتزجا لما كان وجود للعالم ، الى غير ذلك من العقائد والأوابد والآثار التى كانت عند قدماء الفرس كالثنوية ، والزردشتية ، والمانوية ، ومنهم من يبحث عن المزدكية التى كانت تدعو الى الالحاد والاباحة .

والذى يظهر ان الميل الى هذه العقائد ليس بجديد فى فارس ، بل انه كانت لم تزل له عقابيل منذ زمان ابن العباس . وقد دلنا التاريخ على ذلك من قيام بابك الخُرّمى — نسبة الى خرّمة كسكّرة بلدة بقرب اصطخر — الذى ثار فى أيام المعتصم العباسى وكان يرى رأى المزدكية من المجوس الذين كانوا خرجوا قبل الاسلام وأباحوا المحرمات ؛ وقتلهم أنو شروان ؛ ثم ثاروا بعد الاسلام بالمبادئ نفسها وعليهم بابك هذا ؛ فقتل جند الخلافة واستولى على الحصون ؛ فسرح اليه المعتصم جيشاً تحت قيادة أبى سعيد محمد بن يوسف ؛ فاستخلص منه بعض ما كان أخذه . ثم سيَّر اليه الافشين حيدر بن كاوس ملك أشروسنة وكان أبوه أسلم فى زمان المأمون فهزم بابك فى وقعة أرشق ؛ وفرّ بابك الى موقان ؛ ولكن جرته لم تخمد . وفى سنة ٢٢١ ظهر « على بغا » الكبير فى وقعة هشنادس ولحق الافشين بغا بالامدادات . وفى السنة التالية وجّه المعتصم الى الافشين جعفر بن دينار مدداً ، وأتبعه بايتاخ ؛ ووجّه معه ثلاثين الف الف درهم ؛ وألحّ الافشين على بابك بالحصار ؛ واستنزله من معقله بعد حرب تشيب لها نواصى الاطفال ؛ واحتوى على معسكره ؛ وأحرق قصوره بالنفط ؛ وسبى أولاده وعياله ولكن بابك أفلت من يده بدخوله فى غياض قريبة ملتفة الدوح ؛ لا تسلك فيها الخيل ؛ ونفذ من هناك الى جبال أرمينية ؛ فوقع فى يد سهل ابن سنباط من رؤساء تلك الناحية فاسلمه الى الافشين وقدم هذا به و بأخيه على المعتصم فأمر بقتلهما ؛ وكافأ الافشين بتاج من الذهب ؛ ووشحه بوشاحين من الجوهر ؛ ووصله بعشرين مليون درهم وعقد له على السند . وكافأ ابن سنباط بالف الف درهم ومنطقة ذهب مرصعة بالجواهر ؛ و بتاج البطرقة .

ولابى تمام الطائى فى هذه الوقائع القصائد الطنانة التى هى من أجزل شعره بل من

أجزل الشعر بأسره .

وقيل ان المعتصم أخرج فى حرب بابك الخرّمى من الدراهم خمسمائة وقر ، وقيل أخرج مالا يدخل تحت الحصر . وكل هذا يدل على ما كان لتلك النزعة المجوسية من الخطر فضلاً عن ان بابك راسل ملك بيزنطية وأغراه بغزو بلاد الاسلام ، وسار ملك الروم تيوفيل ابن ميخائيل وأوقع بالمسلمين وأوجف فى ديارهم ، والمعتصم مشغول بحرب بابك ، فاضطر المعتصم أن يغزو الروم تلك الغزاة الشهيرة التى فتح بها عمورية . ولما انتهى المعتصم من أمر بابك الخرّمى ظهر له ان الافشين نفسه كان يكيد سراً للاسلام ، ويجتهد فى هدم الدولة ونقلت له عنه أشياء فيما يتعلق بعقيدة المجوس . جاء فى كتاب « العيون والحدائق فى أخبار الحقائق » : انه لما نمى الى الخليفة المعتصم خبر دسائس الافشين وما كان يراسل به أهل أشروسنة ، أمر بالقبض عليه وعلى ولده الحسن ، ثم أخرجه من حبسه وأحضر جماعة من الاشراف والوجوه ليناظروه على أشياء ، وأُتى بمازيار ، فقيل للافشين : هل كاتبت مازيار؟ قال لا ، فجاو به مازيار فقال . كتبت الينا تقول : ان هذا الدين يعنى دين الاسلام ان اتفقنا أنا وأنتم محونا أثره ، ونعود الى دين آبائنا العجم ، فانكر ذلك ، فاحضر محمد بن عبد الملك الزيات رجلين وكان هو الوزير والمناظر فقال للافشين : لِمَ ضربت هذين ظهراً وبطنا وهذا امام وهذا مؤذن كان فى أشروسنة . قال : نعم ضربتهما لانهما اتخذا بيتاً للاصنام فجعلاه مسجداً وكان بينى و بين الصغد عهد فخشيت من نقض العهد . قال : فما كتابٌ عندك قد زيّنته بالحرير والجوهر فيه كفر بالله تعالى ؟ قال : هو كتاب ورثته عن أبى فيه آداب الملوك ، وهو دين القوم الذى هو اليوم كفر ، فكنت أسمع الأدب وأترك سوى ذلك ، ووجدته محلّى ، ولم تكن لى حاجة الى أخذ الحلية التى عليه ، فتركته بحاله ككتاب كليلة ودمنة ، وكتاب مزدك . وشهد عليه الموبذ وقال انه كان يأكل المخنوقة ، ويحملنى على أكلها ، ويقول انها أرطب لحماً من المذبوحة ، وقال : انى قد دخلت لهؤلاء القوم (يعنى المسلمين) فى كل ما أكرهه ، وقد أكلت الزيت ، وركبت الجمل ، ولبست النعل ، غير انى الى هذه الغاية لم تسقط منى شعرة يعنى أنه لم يختتن

ثم وافقه المرزبان بان أهل أشروسنة يكتبون اليه بلسانهم كتابا معناه : الى الله الالهة من عبده فلان بن فلان . قال : بل كذا كانوا يكتبون الى أبى وجدى . قال محمد بن

عبد الملك الزيات : فما أبقيت لفرعون حين قال لقومه : « أنا ربكم الأعلى » . ونوظر على أشياء مثال هذه تدل على فساد دينه وفساد دياناته فى الاسلام يطول شرحها .

ثم أمر المعتصم باعادته الى محبسه و بقى فيه نحواً من سنة الى أن مات وصلبوه بعد موته على باب العامة ، ثم أحرق هو والخشبة التى صلب عليها ، وحمل الرماد فطرح فى دجلة ووجد فى داره تمثال انسان من خشب عليه حلية كثيرة من جوهر ، وكتب فيها دياناته

وقال الذهبي فى كتاب « دول الاسلام » : سنة ٢٢٢ التقى الافشين وبابك . فانهزم بابك ولم يزل الافشين يعمل عليه حتى أسره ، وكان بابك بطلاً شجاعا جباراً عنيداً ملعوناً أراد أن يقيم دين المجوس ، واستولى على توزر ، والمدائن ، وقد أنفق المعتصم بيوت الأموال فى حرب هذا . فانفق فى ذلك العام الف الف دينار . وفتح الله مدينة بابك بعد حصار شديد فاختفى بابك وأسر جميع حاشيته وأولاده و بعث اليه المعتصم بالأمان فخرقه وشتم ثم صعد فى الجبل وانفلت الى جبال ارمينية ، فنزل عند بطريق فاغلق عليه البطريق واسلمه للحتف فجاء جماعة فتسلموه . وكان المعتصم جعل لمن أسره حيّاً مائة الف دينار ، ولمن جاء برأسه نصف ذلك ، فكان يوم دخوله بغداد وهو على جمل يوماً مشهوداً . ثم قال الذهبي سنة ٢٢٦ غضب المعتصم على الافشين وسجنه ثم صلبه الى جانب بابك اتهم بعبادة صنم وكان افلت وخافه أيضاً المعتصم اه . وقد حصلت فى فارس ثورات متعددة غير ثورة بابك الخرّمى اعربت فيها الفارسية المزدكية عن ذات نفسها

والحاصل ان العجم بعد أن دانوا بالاسلام بمدة طويلة ، بقيت أقوام منهم تحن الى دينها الاصلى ، وينزع بها عرق المجوسية . وفى هذا شئ من العداوة التى بين العرب والعجم ومن استكبار العجم الخضوع لدين أصله من العرب . ومثل هذا أيضاً الحنين الذى عند بعض شبان الترك الى دياناتهم القديمة والى عبادة الذئب الأبيض استكباراً لاتباع الأمة التركية ديانةً صادرة عن العرب . وقد بلغنا أن بعض ناشئة المسلمين من أمة الجاوى يبحثون كثيراً عن مذهب بودا الذى كان مذهب الجاوى قبل أن أسلموا ، ويدرسونه وكأنهم يريدون أن يحيوا آثاره . كذلك فى الهند شبان كثيرون من المسلمين يكرهون الجامعة الاسلامية و يفضلون عليها الجامعة الهندية اتباعاً للهنادك .

وعند بعض الناشئة المصرية نزعة محسوسة الى الأوابد المصرية القديمة ، والحضارة

الفرعونية ، وميل الى التفصى من النسبة العربية والحضارة العربية . وكل هـذا تعصباً من هؤلاء الأقوام لقومياتهم بزعمهم وشعوراً منهم بشئ من الكبر عن أن يتبعوا ملةً ليست من سلالتهم . والحال أن الاسلام ليس بدين يفرق بين عربى وعجمى وأن مبدأه الاساسى (انّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتقَاكُمْ) وأن النبى محمداً لم يبعث الى العرب وحدهم بل الى البشر كافة ، فان كانت المساواة تامة فى دين من الأديان أمام الخالق تعالى فهى فى الاسلام.

***

وبعد فما لنا نرى الأوربيين وهم اليوم أرقى الأمم والغالبون على أكثر الكرة الارضية وهم يعلمون أنهم جميعا من الجنس الآرى ، يتبعون ديانة رجل يهودى من الجنس السامىّ المحض ، ولا يستنكفون عن أن يعبدوه وعن أن يؤلهوه . ومنهم من يعبد أُمّهُ ولا يجدون فى ذلك غضاضة ، ولا تأخذهم العزة فى قوميتهم الآرية ، ولا يقولون : مالنا ولعبادات الساميين ! هل سمعنا ان أحداً من الافرنج استكبر ان يتبع سيدنا عيسى عليه السلام كلا . أفلم يكن فى ذلك عبرة للعجم والترك وغيرهم ممن يأبى كبر بعضهم أن يتبعوا دين النبى العربى وهم غير مكلفين أن يؤلهوه ولا أن يقدّسوه تقديس الافرنج للمسيح .

ان هذا والله لعجب عجاب . وأعجب منه ان هـذه الفئة سواء من الترك أو من العجم تجعل الافرنج قدوتها فى كل شئ . فياليتها اقتدت بالافرنج فى عدم ادخال العقائد فى القوميات .

***

ولنعد الى قضية العجم وعلاقتهم بالعرب فنقول اننا رأينا فصلاً فى هذا الباب للمسيو « غودفروا دومومبين » صاحب « تاريخ العالم » الذى سبق لنا ذكره ، وهو فصل فيه تعليلات كثيرة على نسق الافرنج المولعين بهذا الاسلوب فى التاريخ ، ولو خبطوا فيه ، الا ان تعليلات « دومومبين » يشبه بعضها أن يكون صحيحاً وفى بعضها نظر . فهو يقول ماملخصه : ان الأمة الاسلامية فى أيام الخلفاء الراشدين بعد أن دان الاعاجم بالاسلام ، لم تكن أخذت شكلاً عامًّا ، ولا رست قواعدها على وحدة تامة ، وانما كانت شعوبا متساكنة ، ودخل بنو أمية وهـذه هى الحال . وربما أرادوا أن يجعلوا لهذه الأمة نظاما كافلاً وحدتها . الا أن دولتهم لم تطل كثيراً . وكان العرب مبعثرين فى البلدان التى فتحوها

وكانت منهم فئة هنا وفئة هناك ، ولا يمكن حصر عدد العرب الذين خرجوا للفتوحات . وانما يقال نحو ٢٠٠ ألف رجل ، وقد اختلطوا بالاهالى الاصليين بالزواج ، وفاضت عليهم الخيرات من الغنائم وغيرها ، فانغمسوا فى الترف . وكان العمل كله من زراعة وصناعة فى أيدى الشعوب المغلوبة ، وكان العرب يرون أنفسهم أكرم الشعوب ، وانهم الأمة المختارة لأجل هداية البشر ، وأنه يجب أن يكونوا جميعاً مسلمين . ولهذا ثقل عليهم بقاء قسم من بنى ثعلب ، وغسان ، وكندة ، على النصرانية ، وأرادوا حملهم على الاسلام، ولكن الخلفاء لم يشاءوا حملهم عليه بالعنف ، وضربوا عليهم نوعاً من الجزية : لكنهم ميزوهم فى ذلك عن الاعاجم (١) انتظاراً لاسلامهم

أما الاعاجم أى البرابرة — ومعنى اللفظتين واحد فالاعاجم بالنسبة الى العرب هم البرابرة بالنسبة الى الرومانيين — فان العرب لم يكونوا ينظرون اليهم كقوم مساوين لهم. ولم يكن عليهم الا أن يؤدوا الجزية ، وهكذا يكونون آمنين على دمائهم ، وأموالهم ، وعقائدهم . فأمّا اشراكهم فى شرف الملة الاسلامية ومنافع الاسلام فى الدنيا والاخرى فلم يكن فى نظر العرب ضرورياً لانهم قوم منحطّون عن درجة العرب . وحسب الاعاجم حريتهم الدينية لانهم أهل كتاب . فأمّا المساواة مع العرب فغير مطلوبة ، والعدالة انما هى بين المسلمين فقط . اه

نقول ان كلام « دوموبين » هنا لا يخلو من الخلط لا سيما عند ظنه ان العرب لم يكونوا مهتمّين بادخال العجم فى الاسلام ، وانما كان همهم الوحيد اسلام العرب . نعم انه لما كان الخلفاء سائرين على مقتضى الآية الكريمة (لَآ اِكْراه فِى الدِّينْ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدِ مِنَ الغَيِّ) لم يعترضوا أحداً من الكتابيّين فى دينه . وهذا فى الحقيقة من مفاخر الحكومات الاسلامية لأنه لا يوجد أنزه ولا أشرف من الحكومة التى لا تستعمل قوتها القاهرة فى سبيل استجلاب الأمم التى تحت حكمها الى دينها . وأمّا ان الخلفاء ورجال الأمة العربية ، لم يكونوا يرتاحون الى دخول الاعاجم فى الاسلام ، حتى لا يشركوهم فى منافع الاسلام الدنيوية والأخروية . فلعمرى هذا هو الخلط بعينه . فقد كانت جميع سياسة الخلفاء لا سيما الاتقياء منهم تدور على محور نشر الاسلام . ولما شكا أحد العمّال بمصر من نقص

(١) راجع فتوح البلدان للبلاذري تجد من هذا البحث مافيه بلاغ

الجباية بسبب اقبال أهل الذمة على الدخول فى الاسلام أجابه الخليفة عمر بن عبد العزيز : ويحك ان محمداً جاء هادياً ولم يجئ جابياً . وجاء فى فتوح البلدان للبلاذرى انه : لما استخلف عمر بن عبد العزيز كتب الى ملوك ماوراء النهر يدعوهم الى الاسلام ، فاسلم بعضهم . قال : ورفع عمر الخراج على من أسلم بخراسان وفرض لمن أسلم . ثم بلغه عن عامله على خراسان ، الجراح الحكمى ، عصبية ، وكتب الى عمر انه لا يصلح خراسان الا السيف فانكر ذلك وعزله . وجاء أيضاً فى فتوح البلدان للبلاذرى ان أمير المؤمنين المأمون اغزا السغد وأشروسنة وفرغانة وكان قد ألح عليهم بالغارات أيام مقامه بخراسان ، و بعد ذلك وكان مع تسريته الخيول اليهم يكاتبهم بالدعاء الى الاسلام والطاعة والترغيب فيهما . ثم قال ان المأمون كان يكتب الى عماله على خراسان فى غزو من لم يكن على الطاعة والاسلام من أهل ماوراء النهر ، و يوجه رسله فيفرضون لمن رغب فى الديوان ، وأراد الفريضة من أهل تلك النواحى وأبناء ملوكهم و يستميلهم بالرغبة فاذا وردوا بابه شرفهم واسنى صلاتهم وأرزاقهم . ثم استخلف المعتصم بالله فكان على مثل ذلك حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ماوراء النهر من السغد والفراغنة والاشروسنة ، وغيرهم ، وحضر ملوكهم بابه ، وغلب الاسلام على من هناك .

قال وحدثنى العمرى عن هيثم بن عدى عن ابن عياش ان قتيبة اسكن العرب ماوراء النهر حتى اسكنهم أرض فرغانة والشاش . اه

قلت : قتيبة بن مسلم الباهلى ولاه الحجاج بن يوسف الثقفى خراسان ، ففتح فيما وراء النهر الفتوحات الكبار ، فهو العربى الكبير الذى فتح بلاد الترك . وكان ذلك مبدأ دخول هذه الأمة فى الاسلام . وأما اسكانه العرب فيما وراء النهر فقد كانت هناك جماعات كثيرة من العرب لدن الفتح طال بها العهد فيما بعد وانقطع ماينها و بين الأمة العربية فنسيت لغتها واستتركت . وقد حدثنى بعض اهالى كاشغر من التركستان الصينى انه من المعروف عندهم كون كثير من أهالى تلك التلاد يرجعون فى نسبهم الى اولئك العرب الذين فتحوا بلاد الترك . وسمعت مثل هذا من بعض أمراء الطاغستان التى كان العرب يسمونها باب الأبواب . وقالوا لى ان أكثر العائلات الشريفة والعائلات التى كانت حاكمة فى الطاغستان هى من سلائل العرب الفاتحين .

ثم نعود الى كلام المسيو « دومومبين » فى موضوع ثورة العجم على العرب بعد استقرار الاسلام والقائه بجرانه على بلاد الأعاجم ، فهو يقول مامحصّلهُ : ان العرب كانوا يرون أنفسهم أعلى درجة من الأمم التى دانت بدينهم ، ولذلك نجد الاسلام نفسه ميّز المسلم فى القصاص على الذمى ، كما كان الشأن فى رومة بالنسبة الى البرابرة . وأما فى القضايا المدنية ، فقد كانت أمور أهل الذمة عائدة للقضاة الذين يوليهم الخلفاء. وهكذا دخلت أمور أهل الذمة فى المحاكم الاسلامية ومن هنا كان تأثير القانون الرومانى فى التشريع الاسلامى دخل شيئاً فشيئاً .

وهذه مسألة مما وهم فيه « دومومبين » كغيره من مؤلفى الأفرنج الذين لم يقدروا أن يتتبعوا سير التشريع الاسلامى وكيفية استنباط الفقهاء للأحكام من الكتاب والسنة ، والاجماع والقياس ، فظنوا خطأ ان ماخذ التشريع الاسلامى من القانون الرومانى ولقد ألف فى هذه المسئلة صاوا باشا الرومى من علماء الحقوق فى أيام الدولة العثمانية كتاباً ممتعا بالافرنسية اسمه « نظرية الحقوق فى الاسلام » Théorie Du Droit Musulman

قال فى أوله انه هو أيضاً كان يعتقد هذا الاعتقاد نظير غيره ، ويبنى ذلك على مايعرف من كون بنى أمية لبثوا فى الشام مدة طويلة يعملون بالأحكام التى كانت باقية من أيام الرومانيين . فلا عجب فى أن يكون هو وغيره قد توهموا أخذ قسم المعاملات فى الشريعة الاسلامية من القانون الرومانى الذى كان به العمل فى سورية ، الا أنه أحب أن يدرس هذا الموضوع درساً دقيقاً ، و يتعرّف كيفية نشوء التشريع فى الاسلام ، فاستجاد بعض علماء أصول الفقه من الأتراك — وسماهم — وقرأ الفقه الحنفى جيداً — وذكر الكتب التى طالعها أو راجعها — وتجرد لمعرفة هذا الأمر مدة طويلة ، فوجد هذا الرأى الذى معناه ان التشريع الاسلامى مأخوذ من القانون الرومانى رأى ضعيف أشبه بأن يكون خيالاً من أن يكون حقيقةً .

قال صاوا باشا فى صفحة ١٦ من كتابه :

« ان الصناعة والتجارة ، لم تكونا مهملتين فى الحجاز . وكان الأشراف يعتنون بهما ، وطالما كانوا يعملون الرحلة الى الشام ، ويجلبون منها مايلزم لبلادهم ، اذ كانت

المدنية السورية وقتئذٍ أكمل من مدنية الجزيرة العربية ، وكان أشراف قريش الذين من عادتهم التردد الى دمشق وسائر مدن سورية ، يطلعون على الأوضاع الرومانية التي بها معاملاتهم . ولهذا كان مما يرد على خواطر الناس ، حتى الذين منهم يعظمون شأن الشريعة المحمدية ، ان الأحكام التي يتألف منها الفقه الاسلامي انما هي مستعارة من التشريع الذي كان العمل به جارياً قبل الهجرة . فالخطأ في هذه المسألة له وجه لايخفى . فالذي لم يطلع حق الاطلاع على منابع الفقه الاسلامي وتاريخ هذه الشريعة هو معذور اذاً ، اذا ذهب به الظن هذا المذهب فان الأسباب التي تحمل عليه كثيرة أشرت الى بعضها وساشير الى البعض الآخر »

ثم قال :

« ان الخصومات التي كانت تتولد في الاسلام في السنين الأولى من تبسُّطهِ في الشام والعراق ، كانت تنفصل بحسب القانون الروماني تفادياً من وقوف سير العدل ومن الخلل في الأحكام . فالفاتح المسلم رأى أن يوسع القانون الذي جاء به من الحجاز بما استعاره من القانون الذي وجده في البلدان التي فتحها ، ولهذا ذهب أكثر علماء أوربة الى كون الخلافة الاسلامية أدخلت في فقهها أحكاماً كانت احتاجت الى استمدادها من قانون رومة ، لفصل القضايا بين رعاياها . ومما لامرية فيه ان كثيراً من المعاملات التي كانت معروفة في الشام والعراق لاسيما مما يتعلق بالايجار والرهن لم يكن معروفاً في الحجاز . فامراء الاسلام كانوا معذورين في الأخذ من القانون الروماني الذي كان مكملاً في سورية وكان يدرس في أشهر مدرسة للحقوق في ذلك العصر الاوهي مدرسة بيروت التي أسسها الامبراطور يوستينيانوس وكان يدرس فيها « دوروتي » مساعد « تريبونيين » الفقيه المشهور .

هـذه هي المقدمات التي بنى عليها العلماء الاوربيون اعتقادهم بأن تشريع فقهاء الاسلام الذين بدأوا التشريع في أيام الخلفاء العباسيين الأوائل انما هو مجموعة أحكام تضاهي ما كان جارياً به العمل في سورية قبل الفتح الاسلامي . فأنت ترى الأسباب التي حملت على هذا الظن وهي معقولة . الا أن الحقيقة هي غير مافكروا به في اوربة . ويكفي أن ينظر الانسان الى هذه المسألة نظر المدقق ويتابع سير الشريعة الاسلامية في تقدمها وفي أطوارها حتى يعلم استقلال الشرع الاسلامي واصالة منبعه وان هذا ليس من ذاك .

ولا شك أن لكل تشريع منبعاً مختلفاً عن الآخر . فلفقه يوستينيانوس هو عمل

مبنى على العقل السليم البشرى ، وقد اصطبغ بالصبغة المسيحية . وأما فقه الامام الأعظم فهو مبنى على كتاب الله (القرآن) وسنة الرسول ولن ترى فى الفقه الاسلامى حكما واحداً غير مدعَّم على هذا أو هذه . فاختلاف المنبعين لاريب فيه يظهر لكل من درس تاريخ فقه يوستينيانوس وفقه أبى حنيفة »

ثم دخل صاوا باشا فى الموضوع ، وأورد خلاصة اجتهاد الامام أبى حنيفة وأصحابه أبى يوسف ، ومحمد بن الحسن الشيبانى ، وزفر ، ثم من بعدهم من الأئمة ، ولخص تاريخ التشريع الاسلامى و بين مآخذه كلها ، وأثبت فلسفة الفقه الاسلامى المعبر عنها بعلم الاصول وقال انه لايقدر انسان أن يعلم مأخذ الشرع الاسلامى ان لم يقرأ أصول الفقه ، وقال انى أدعو من يهمه هذا الموضوع ان لايحكم فيه قبل أن يطالع هذا التاريخ المتسلسل للفقه الاسلامى مطالعة كافية ثم قال : انى أنا مسيحى معتقد بدينى ولكن المسيحى الحقيقى هو الذى يعامل جميع الناس بالحق . ولهذا أنا أفحص الشريعة الاسلامية فحص رجل مسيحى وأقدرها قدرها بدون ضلع ولا ميل فأجدها لذلك جديرة بأعظم الاحترام

وكتاب صاوا باشا هو أحسن كتاب قرأته بلغة أوربية فى هذا الموضوع . والفرق بينه و بين غيره من المؤلفين انه يبنى حكمه على أدلة و براهين ووثائق ونصوص وحقائق تاريخية وان أولئك يبنون على ظنون وتخرصات . وعلى نظر من جهة واحدة ، وعلى قولهم : لابد أن يكون كذا . وهناك أسباب تدعو الى الظن بأنه كذا وكذا . ومن يدرى فقد يكون كذا وكذا . وهذه أشياء لاتصح أن تكون مداراً للأحكام ، ولا يقال لها تمحيص وانما يقال لها تخمين . وما أصدق الآية الكريمة « إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا »

***

ونعود الى كلام « دومومبين » الذى قاطعناه مرتين للرد عليه نظراً لشهرة مكانته فى التاريخ ، فهو يقول : ان العلاقات بين العرب الفاتحين و بين الأمم التى غلبوا عليها لم تكن مبنية على قاعدة المساواة، وانه من زمان بنى أمية كان أهل الذمة مضطرين أن يضيفوا المسلمين ثلاثة أيام ، ويقدموا لهم المؤن ولخيلهم العلائف ، وانه بعد ذلك فى أيام المتوكل

العباسى حصل ضغط على النصارى واليهود ، وانه بالاجمال كان موقف أهل الذمة موقف ذلة ولم يكونوا ليتحملوه الى الآخر فلم يكن لهم مناص من أحد أمرين اما الخروج على الحكومة الاسلامية أو الدخول فى الاسلام . وكان الخروج على الاسلام أصعب عليهم لأنهم كانوا متفرقين ، وكانت تعوزهم الأسلحة والأعتدة ، وتعوزهم القوة المعنوية ، أيضاً فاختار أكثرهم الشق الثانى ، وهو الدخول فى الاسلام . و بعد أن دخلوا فى الاسلام وصار لهم الحق فى المساواة شرعوا يخاصمون خلافة أهل السنة والجماعة فكانت كل حركة دينية فيها مناهضة للسنة وللخلافة مرجعا لهم يسارعون اليها ، وكانوا هكذا يأخذون بثأرهم فى داخل الاسلام أكثر مما يأخذون بثأرهم فى الخارج عنه .

ثم يقول « دومومبين » يظن الناس أن ظفر الاسلام كان ظفراً محتماً وفتيحة منطقية للتوحيد السامى على النصرانية اليونانية التى تناسب طبائع الاور بيين أكثر من الساميين . ولكن لايجب أخذ هذا القول على اطلاقه . فقد كانت آسية الصغرى من قبل التاريخ المسيحى ميداناً لصراع مدنيّات مختلفة ، وآلهة متعددة . ثم ان أفكار هذه الأمم المتعددة التفت فى أحد الأيام حول رجل يهودى كان مليئاً من تقاليد قومه صلب العقيدة بدينهم ، الا انه كان ساخطاً على المظالم الاجتماعية التى كانت فى أيامه كما انه كان ساخطاً على رجال الدين لما كانوا عليه من الرياء . وكان قلب هذا الرجل مفتوحاً لآلام الشعب ناسياً نفسه كلها لايرى لنفسه عليه حقا ، فكانت نفسه من الجهة الأدبية نفساً الاهية . فدانت آسيا الصغرى بالمسيحية وعبدت اله هذا الرجل الذى كادت تمتزج فيه الطبيعة الانسانية بالطبيعة الاهية . ولم يكن الشعب مهتماً أن يخوض فى قضية كنه هذا الامتزاج الأن الكهنة حاولوا أن يفهموا هذا المسيح بحسب أفكارهم وأن يؤسسوا له كنيسة . ومن هناك أخذوا بالخوض فى هذه القضية المعقدة مستخدمين لها الفلسفة اليونانية من جهة والفقه اليهودى من جهة أخرى . فدخلوا فيما لانهاية له من تحليل هذه المسألة والتعريف بما كان الاهيًّا وبما كان انسانيًّا فى طبيعة عيسى وتحديد الفاصل بينهما من الزمان والمكان . وجاءوا فى هذه المجادلات الدينية بغلظة وعنف وصلف وتعصب لايحيط بها الوصف ، ودخل معهم فى ذلك الملوك واستخدموا هذه المشاحنات لأغراضهم الدنيوية فانقسم القائلون بالنصرانيه الى ملل ونحل مختلفة متعادية . فكان الآراميون فى العراق ومابين النهرين نساطرة ، وكان نصارى

سورية يعاقبة ، وكان قبط مصر ملكيين ويعاقبة ، وكانت الشعوب بدون شك تشترك فى هذه المباحثات بدون أن تفهم منها شيئاً ، وربما كان كثير من الخلق قد ملوا وسئموا من هذا التمادى كله فى الجدال على طبيعتى المسيح الالاهية والانسانية .

ولقد تقرر ان الاسلام هو عبارة عن كتاب نزل بالعربية على رسول من العرب ، الا أنه من المقرر أيضاً ان عناصر هذه الديانة العربية مشتركة مع عناصر الديانتين اليهودية والمسيحية فهى أخت لهما ، وقد جعل الاسلام عيسى ابن مريم أكبر الأنبياء بعد محمد والذى سيأتى فى آخر الزمان ويؤذن بدينونة البشر . وحفظ الاسلام لمريم أم عيسى مكانا من الطهر عليًّا لم يتضاءل هذا المكان الا بعد أن أخذ المسيحيون يعبدونها عبادة حقيقية ، وبالجملة فان المسيحيين واليهود الذين كانوا يدخلون فى الاسلام لم يكونوا يرون أنفسهم دخلوا فى دين جديد . ولا نعلم تاريخ دخول النصارى واليهود فى الاسلام ، وغاية مانعلم ان بنى أمية لم يكونوا معتنين بنشر الاسلام بين أهل الكتاب ، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز انه عُنى بهذا الأمر خاصة ، لكنه لم يلبث فى الخلافة أكثر من ثلاث سنوات ، فماذا يقدر أن يصنع فى مدة قصيرة كهذه ؟ ولم نعلم كيف كان دخول هذه الأقوام فى الاسلام هل بدأ بدخول الرؤساء فانقادت لهم العامة كما حصل بين البرابرة فى أوربة ، أم دخلت الجماعات فى الاسلام فوراً ؟ وعلى كل حال كان الفتح الاسلامى قد قطع مواصلات الأمم المسيحية فى آسية مع القسطنطينية مرجعها الطبيعى . وكانت نار الاسكندرية قد انطفأت أيضاً . فلم يبق مايأتى من الخارج بما يوطد العقيدة المسيحية .

وأما اسلام الفرس فقد بدأ بالامراء وأصحاب الاقطاعات الذين بدأوا بالعلاقات مع رجال الدولة العربية وصار لهم مقام فى الدولة الا ان اسلام الفرس لم يكن كاملاً . بل بقيت بينهم فئات مزدكية تظهر بصور مختلفة . وأما فى مصر فبقيت أمة من القبط . كما انه بقى فى سورية جماعات من المسيحيين على غير اتصال بمركز الكنيسة العام .

فدخول أهل الذمة فى الاسلام قد أحدث انقلاباً عظيماً فى الأمة الاسلامية ، لأن المسلمين الجدد تطلبوا المراكز فى الدولة وتغيرت باسلامهم أنظمة الأراضى والجبايات والجيش وحدث لذلك تأثير كبير فى المجتمع الاسلامى. وكثرت الطبقة التى يقال لها « الموالى » . ثم

هناك مسألة أخرى وهى مسألة الرِق . فالاسلام يعرف الرق الا انه يحث على تحرير الارقاء . وكان الفاتحون المسلمون يفضلون أن يجدوا أمامهم من يؤدون الجزية واذا وجدوا أقواما من الوثنيين يوجب عليهم الدين الاسلامى أن يُجبروهم على الاسلام أو يستأصلوهم فكانوا يتجنبون اجبارهم على الاسلام كما يتجنبون سفك دمائهم فى أكثر الأحيان . وكانوا يتأولون هذا الأمر بأن مثل هؤلاء هم « صابئة » فالذين ليسوا بنصارى ولا يهود ولا مزدكيين ، كان يقال لهم الصابئون . وأما الارقاء فلما كثر عتقهم تولدت منهم طبقة جديدة . وكان الموالى أيضا يمتّون بالولاء الى رؤساء من العرب . وكل ماجرى من هذه الأمور كان مؤدياً الى المُساواة بين طبقات الأمة الاسلامية . وهكذا ضعف العرب تدريجاً ، وبضعفهم ضعفت الدولة الأموية فانتهز بنو العباس فرصة هذا الخلل وهذا الانقلاب اللذين دخلا على المجتمع الاسلامى وأخذوا بالكيد لبنى أمية ودس الدسائس لقلب دولتهم . ولم يكن أبو مسلم الخراسانى لينجح فى ثورته على الأمويين لولم يوافق ذلك استعداداً عظيما فى نفوس الأمم التى أسلمت من غير العرب .

ثم قال « دومومبين » ان الحياة تكاملت فى المملكة العربية فى النصف الأول من القرن الثامن المسيحى (أى أوائل القرن الثالث للهجرة) فظهرت المجادلات الكلامية واشتدّت وتولدت الفرق . وذكر ان أشراف العرب عادوا فتمسكوا بالدين أكثر من ذى قبل ، وقال ان بنى أمية كانوا اجالاً متدينين . واستند فى هذا القول على كلام العلامة غولدسهير المستشرق المجرى المشهور الذى كلامه حجة . والحال ان كثيرين من المستشرقين نسبوا اليهم ماعدا واحداً منهم أو اثنين رقة الدين . و « دومومبين » نفسه سبق له ان أشار الى عدم اهتمامهم حاشا عمر بن عبد العزيز بنشر الدين .

ثم قال « دومومبين » انه كان لطائفة قرّاء القرآن لذلك العهد نفوذ عظيم فى المجتمع الاسلامى

وقال ان المركز الدينى لعهد بنى أمية كان الحجاز ، لاسيما المدينة ، وان من الغريب كونها جمعت وقتئذ بين التقوى ، والورع ، وطهارة العقيدة ، و بين اللهو والغناء وأسباب السرور ، فان أشهر المغنين كانوا بالمدينة كما كان أشهر الفقهاء فيها . وهذه ملاحظة صحيحة .

قال : اما اهتداء غير العرب الى الاسلام فمنه ما كان فى أصله من باب المصانعة ، الا ان

منه ما كان بحسب رأيه من باب الاقتناع الوجدانى . وقد كان لهؤلاء المهتدين تأثير عظيم فى تقوية الاسلام وتوطيده . وهو يرى ان علم الحديث وتحرير السيرة النبوية ، قد كانت بدايتهما فى زمان بنى أمية . ومن رأيه ان الدين الاسلامى دين حضرى Religion Citadine وانه توطَّد بالمساجد الجامعة وهناك كان يجتمع المسلمون والمهتدون الذين اعتادوا مثل هذا الاجتماع فى الكنائس قبل الاسلام

ثم جعل « دومومبين » مقابلة بين تنصر البرابرة الذين دخلوا فى السلطنة الرومانية واسلام الأعاجم وغير العرب ، فقال وهو من أكثر كلامه صواباً :

« ان البرابرة الذين هجموا على السلطنة الرومانية فى الغرب ، انما كانت غاراتهم لأسباب معاشية أى ان ذلك كان حادثاً اقتصادياً صرفاً ، فكانت هذه الأقوام تدخل الى بلاد الرومان ارتياداً للرزق وحباً براحة المعيشة . وكانت كلها منحطة فى الأفكار والعقائد ، وكانت أديانها وثنية . فعندما احتلّت انقاض السلطنة الرومانية وجدت جهازاً حيًّا هو الكنيسة فانضوت اليها ودانت بالنصرانية عقيدة الأمة الرومانية المغلوبة وصار البرابرة أنفسهم هم حماة النصرانية .

أما العرب فكانت حادثتهم على العكس من هذه . قد جاءوا بعقيدة دينية أتاهم بها رجل عظيم منهم فلما غزوا الروم والفرس لقنوا هذه العقيدة أُمماً كانت أعلى منهم كعبا فى المدنية . فالمغلوب فى الشرق اتبع دين الغالب ، حال كون الغالب فى الغرب اتبع دين المغلوب .

قال : وان الذين دخلوا فى الاسلام من النصارى واليهود أدخلوا فيه ما كان فى حقائبهم من المباحث اللاهوتية فتولد منها علم الكلام الاسلامى . فقد كانت قبل الفتح الاسلامى مراكز لاهوتية وفقهية شهيرة مثل انطاكية ، وبيروت واورفة ، واسكندرية ، وغزة ، والذين أسلموا أدخلوا علومها فى الاسلام ، وجعلوا تأويل آيات القرآن وفق الحكمة اليونانية وصارت للاسلام فلسفة عالية اشتهرت شرقاً وغرباً الخ

فهنا نظن المصنف استرسل الى الافتراضات ، والتخرصات على عادة الاوربيين ، اذ انه لم يأت بشاهدٍ واحد معيَّن يثبت افتراضه . والافتراض وحده لاتتولد منه حقيقة مقطوع بها . وقصارى ما نقوله نحن ان الأفكار مشتركة بين البشر ولا سيما اذا كان صقع المفكرين

واحدا ، وكان الاتصال كثيراً . ومما لاشك فيه ان علم الكلام الاسلامى كان مؤيداً بالمنطق وان علم المنطق هو من العلوم التى تلقاها العرب عن يونان فاستعملوها فى أقيستهم العقلية ومباحثهم الدينية ولكن المنطق منه ماهو طبيعى أيضاً يكفى فيه العقل السليم . وما كان المنطق اليونانى الذى يدرس فى المدارس الا الأسماء والاصطلاحات التى وضعوها للصور الفكرية القائمة فى النفوس . هذا هو الفرق بين المنطق المطبوع والمنطق المسموع

ويعجبنى أكثر من كلام « دومومبين » فى هذا الموضوع كلام الكونت « دوغو بنيو » Comte De Gobineau صاحب كتاب « الأديان والفلسفات فى آسية الوسطى» فهذا الكتاب هو ثالث ثلاثة لكتابين آخرين أحدهما «ثلاث سنوات فى آسية» والآخر « الأخبار الأسيوية » من تأليف « دوغو بينو » المذكور المعدود فى مقدمة العلماء الذين أجادوا التأليف فى أحوال ايران وأواسط آسية . ولقد ظهر كتاب « دوغوبينو » « الأديان والفلسفات فى آسية الوسطى » Les Religions et les philosophies dans L'Asie centrale سنة ١٨٦٥ ثم أعيد طبعه سنة ١٨٦٦ ثم أعيد طبعه سنة ١٩٠٠ ونال شهرة عظيمة فى ألمانيا ، ولا سيا أن الاستاذ شيمان L.Scheman الألمانى صدّره بمقدمة اعترف فيها بأن الكونت « دوغو بينو »هو من أكبر مفكرى العصر ، وانه لما ترجمت تآليفه الى الألمانية ، عدّه كثير من الالمان من أعاظم كتّاب القرن التاسع عشر . ونقل عن بعضهم أنه قال : « اننا لا نعرف كاتباً أوربياً فهم حقيقة الشرق الحديث فهم هذا الرجل ولا وصفه بمثل هذا البيان الفصيح » ويقول الاستاذ شيمان : اننا لا ندرى فى كتابه هذا « الاديان والفلسفات فى آسية الوسطى » أىّ شئ نستبدع أكثر من الآخر أسعة أنظاره أم عمق غور أفكاره أم غزارة معلوماته أم متانة رواياته أم سمو بيانه أم لطف أحاديثه الخ

وقد بدأ « دوغو بينو » كتابه هذا بقوله :

« ان جميع أفكارنا وجميع الطرق التى نفكر بها كان منشؤها فى آسية » والشاهد الذى نحن فى صدده من كتاب «دوغو بينو » الذى أقام ثلاث سنوات فى بلاد فارس ونقّب عن علومها وآثارها وصار صدراً لا يبارى فى معرفة شؤون الامة الفارسية هو تاريخ اسلام العجم وأسباب غلبة التشيُّع عليهم فهو يقول تحت عنوان « الاسلام الفارسى » ما يلى ملخصاً :

« ان الديانة الاسلامية التى هى مشتملة على عقائد كثيرة سابقة لها هى موافقة الى الغاية لعقل الشرقيين ، ولكل طبيعة فكرية شرقية. وبهذا السبب نجد الاسلام يتقدم هذا التقدم المدهش فى افريقية. وليس الأمر كذلك فى أوربة حيث هذه العقيدة لا تصادف اقبالاً ولا نعلم أن من الاوروبيين من تقبّل الاسلام غير جماعات من الارنووط والبشناق. أما فى الهند فان الفاتحين من العرب والغزنويين والمغول والافغان قد لبثوا زمناً طويلاً حتى أدخلوا فى دينهم هذا العدد الذى دخل فيه من أهل الهند. وليس جميع مسلمى الهند من أصل هندى كما أنه ليس أكثر مسلمى الصين من أصل صينى بل أكثرهم متحدرون من أصول فارسيين وآباؤهم كانوا عمَلَة فى خدمة جنكيز وقوبيلاى.

واذا أردنا أن نفصل بين العقيدة الدينية والضروزة السياسية التى طالما عملت باسم العقيدة لا نجد ديناً أسمح من الاسلام بل نقدر أن نقول لا نجد ديناً متحايداً فيما يتعلق بأديان الآخرين أكثر من الاسلام. وفيما عدا الاحوال المستثناة التى اضطرت فيها الحكومات الاسلامية الى اتخاذ الوسائل الممكنة لتوحيد عقيدة رعاياها فعلى وجه الاجمال كان التسامح وكانت الحرية الدينية هما أساس الشرع الاسلامى، وذلك بسبب أن القرآن يعلم الناس أن معرفة الحقيقة لا تتعلق بارادة الانسان بل بارادة الله.

وما زال المصنف يشرح هذا المعنى الى أن قال: ان الذى يلتزمه الاسلام من الاعتقاد هو وجود اله واحد يوحى ارادته الى خلقه بواسطة الانبياء. فهذا هو الالف وهو الياء فى هذا الدين وما اعتقد الانسان بالله ورسله فانه يبقى متمتعاً بتمام الحرية فى قضايا وجدانه ويجوز له أن يختلف عن سائر المسلمين فى آراء كثيرة وجدانية ويبقى مع ذلك معدوداً من المسلمين ما دام معترفاً بالله ورسله لا يجحد هذه العقيدة علناً. فنتيجة هذا المبدأ العظيم قد كانت أن يقبل كثير من أبناء الملل الأخرى على الدخول فى الاسلام، ويشاطروا الأمه الفاتحة منافع الايمان به، وكذلك ان تدخل تحت هذا الغشاء الرقيق من الأسلام آراء وعقائد ومذاهب قديمة لم تكن من الاسلام فى شئ، ولكن الاسلام وسعها. ومن أجل هذا تعددت المذاهب الاسلامية ولم تكن فى العدد أقل من مذاهب النصرانية ومنسوب الى نبى الاسلام القول بأن أمته ستفترق الى فرق كثيرة.

وانه لمن الصعب موافقة القائلين بأن الدين الاسلامى مانع للترقى الفكرى بل الذى

يظهر لنا ان القضية هي بالعكس ، فان ديانةً جاءت فيها هذه الجملة : يوزن مداد العلماء بدم الشهداء . وجاء فيها ان الانسان في اليوم الآخر يحاسب بقدر ما أعطى من العقل . وقد مرّت من ظهورها في القرن السابع الى أواخر القرن السادس عشر بادوار سعادة مادية عظيمة مصاحبة لحالة رقي علمي وأدبي لسنا في الحقيقة محيطين بها كلها لا يمكن أن يقال انها ديانة مانعة للترقي الفكري . واذا قيل انه في العهد الأخير ظهر الاسلام بمظهر انحطاط من هذه الجهة ، فان أسباب هذا الانحطاط لا يؤاخذ بها الاسلام نفسه . فليتأمل الانسان فيما اذا استمرت في قطعة من أوربة ادارة عسكرية ، مستبدة غاشمة متغشمرة مدة مائتين وخمسين سنة ، كما جرى في تركيا . أو استمر حكم مماليك غرباء من كرج وشركس وترك وأرنووط كما جرى في مصر . أو كما حصل قبل سنة ١٧٣٠ في فارس من غارات الأفغان ومن حكم نادر شاه العسكري والمظالم التي رافقت تأسيس دولة آل قاجار الحالية ، فلا شك ان هذه القطعة مهما كانت أوروبية فانها لا تثبت أمام هذه الحوادث ، وان مآلها يكون الى الانحطاط . ولهذا لا أجد تعليلاً غير هذا التعليل لما نراه من انحطاط البلدان الشرقية ، ولا أرى من العدل أن نلقي على الاسلام مسئولية حالة كهذه وانني أردكل الرد نسبة تقييد العقول الى ديانة لمعت في ظلها للعقل البشري أدوار سنيّة . ولا يقدح في هذا الأمر أن يكون موجوداً في الاسلام عدد من المشايخ الجهلاء أو الجامدين . أفلم يوجد مثل هؤلاء وأشد منهم تعصباً وأحطُّ فكراً بين خدمة الدين المسيحي في أوروبا ؟ انه مما لا مشاحة فيه أن روح النقد والبحث والأخذ والرد ، قد رافق الاسلام من بداية أمره وبدأ من محمد نفسه . والآن في فارس نجد الشيعة الذين هم الأكثرية في البلاد منقسمين الى ثلاثة أقسام : الاخبارية والمجتهدية والشيخية . ولكل من هذه الفرق الثلاث آراء جديدة مبنية على مقتضيات الوسط التي تعيش فيه . فالأخبارية يقبلون جميع الأحاديث والآثار المنقولة عن الأنبياء والأئمة ، وبمقتضى هذا المبدأ يمكن هذه الفئة أن تقبل مبادئ وآراء لم يكن أصلها من القرآن، وذلك بأنه اذا ورد في الأحاديث النبوية ما يوافقها فقد أصبحت مقبولة عند هذه الفرقة . نعم في هذا المذهب سعة لا تنكر وان كان الأخباريون يرون أنفسهم أخلص الشيعة ، ويخالفون محدثي العرب والترك من أهل السنة في شدة تمحيص الأحاديث ، وتجد في الاخبار التي يعتمدون عليها ويطبقونها على الاسلام أقوالا باقيه من الديانات الفارسية

القديمة والساسانية ، وتراهم يذهبون فى حشر الأجساد مذهباً يخالف الظاهر من الاسلام ، فلا يقولون بأن الاجساد تعود بعد الموت كما هى ، بل يقولون ان البشر بعد الحساب انما يكتسون مظاهر نورانية . وسواء كان الابرار أو الفجار فلا يظهرون فى الابدان التى كانت لهم فى الحياة الدنيا ، وسواء كان نعيم أولئك أو عذاب هؤلاء، فكله هناك من طبعية عقلية محضة لا مادّية . وفئة الاخباريين هذه ينتسب اليها كثير من الطبقة الوسطى فى الشعب ، فمهما وجد من الأفكار الغريبة عن الاسلام ، وأمكن وضعه تحت اسم واحد من الأئمة تقبلوه بدون مراجعة. ولهذا تجد كبار علماء الدين يردّون عليهم و يفندون مزاعمهم لاسيما فى طهران .

وأما الشيخية فان لهم صلةً بكثير من مبادئ الاخبارية ، وهم وان كانوا يقولون بحشر الأجساد كما فى الاسلام ، فانهم يتابعون الفيلسوف ابن سيناء فى قضية معراج الرسول الى السماء ، وفى معجزة انشقاق القمر ، ويقولون انه لا يجب تلقى هذه الامور بحسب ظاهرها ، بل يجب حملها على المجاز، ففى مسألة المعراج يقولون انها كانت رؤيا ــ وهذا الرأى على ضعفه موجود فى الاسلام قال به كثيرون وينسب الى معاوية رضى الله عنه وأما فى مسألة انشقاق القمر فيقولون انه كناية لفظية . ومؤسس الطريقة الشيخية هو الشيخ أحمد البحرينى ، عربى الأصل . كان يدرس فى تبريز و توفى فى كربلاء ، وله تآليف فى علم الكلام لم يصرح فيها بشئ من هذه المبادئ ، ولكن يقال انه كان يستعمل الكتمان ، وانه كان على جانب عظيم من الجراءة فى آرائه . وللعقيدة الشيخية أنصار كثيرون فى الطبقة العالية من رجال الدين وهم يناصبون الاخباريين العداوة و ينتقدونهم أشد انتقاد فى قبولهم جميع الاحاديث والاخبار بدون نقد ولا تمحيص ويحتجون عليهم بالقواعد التى وضعها أئمة الحديث والتى تقتضى مزيد التحرى . وهم فى هذا المعنى قريبون من أهل السنة . وقولنا قريبون من أهل السنة لا ينبغى أن يؤخذ منه أنهم أميل الى السنة من غيرهم بل هؤلاء أيضا يرون أنفسهم من أخلص الشيعة وأصلبهم عقيدة ، فهم فى الحقيقة وسط بين تدقيق أهل السنة الزائد فى الحديث ، وتساهل الاخباريين فيه وهم أشبه بفرقة بوزيت « Puséytes » الانكليز الذين هم من أشد الفرق كراهية للكثلكة ، وهم فى الواقع أقرب من غيرهم اليها .

أما فئة المجتهدية فانهم ينتقدون الاخباريين فى سرعة تهافتهم، وسهولة تلقيهم للاخبار بدون تمحيص ويقولون ان الخبر يجب ليكون معمولاً بموجبه أن يستوفى شروط التمحيص المنصوص عليها فى كتب الأئمة ، فمن الوجهة النظرية لا تجدهم يتساهلون فى هذا الموضوع أصلاً وأما من الجهة العملية فتجدهم بالعكس يقبلون كثيراً من الروايات عن معجزات الرسول والأئمة ، ولا يحبون أن ينازعوا فيها أو أن يتحروا فى أسانيدها ، وكذلك لايقبلون كلام الشيخية فى حملها على المجاز ، ويرجحون فهمها بحسب ظاهرها ، اذ يرون ارخاء العنان فى التأويل بالمجاز والكناية مفضياً الى هدم الدين نفسه و يرون تحكيم العقل فى كل شئ منافياً للايمان وهم كأسيويين يؤمنون بالمعجزات . وأكثر المجتهدين والاجتهاديين هم من طبقة القضاة ، ومأمورى الادارة ، والذين يشتغلون بالعمل أكثر من النظر . وكثيراً مايتحول الانسان فى فارس من مذهب الى مذهب فبينما هو من الشيخيين مثلاً اذ تراه تحول اجتهادياًّ أو اخبارياًّ . أما مذهب السنة فهو ضئيل فى فارس والشعور القومى هناك ضده وقد ازداد بغض الشيعة للسنة من أيام الدولة الصفوية ، وكان العامل فى هذه العداوة سياسياًّ أكثر مما كان دينياًّ . وبالاجمال لا توجد ديانة أكثر فرقاً من الاسلام وذلك لسببين الأول : كثرة عدد الفرق، والمعروف بصورة رسمية انها من الاسلام ، والثانى : ان الانسان يمكنه أن يقبل فى جانب مبادئ القرآن آراء كثيرة لم يكن أصلها منه . فسبب هذه الحرية العظيمة التى تجدها فى الاسلام والتى هى منشأ الأخذ من الخارج هى بساطة العقيدة ووجازتها فهى تنحصر فى قول الانسان : لا اله الا الله محمد رسول الله . فمن صرح بهاتين الشهادتين فهو مسلم

ثم أخذ المصنف يذكر تاريخ البعثة النبوية وما قام به الرسول ﷺ من تصحيح العقائد السابقة وأطال فى هذا المقام وقال ان الرسول كان مصلحاً معتدلاً فى اصلاحه . وقال ان الرسول لم يأخذ ماعامه عن اليهودية من التوراة رأساً وانما أخذ عن التلمود وعما كان دائراً فى عصره بين اليهود . وكذلك قال ان محمداً كان مصيباً فى قوله ان النصارى حرفوا الاناجيل لان النصارى فى عصره وجد منهم من حرّف الانجيل قال : فنبيُّ الاسلام فى نفسه كان يحترم ملتى موسى وعيسى أشد الاحترام الا أنه كان يشدد النكير على اتباعهما الذين أفسدوا العقائد التى كانا قد أتيا بها . فالاسلام بالكتب الثلاثة التوراة بدون تبديل والانجيل

بدون تحريف ، والقرآن الموحى الى محمد بواسطة جبريل ليس الا اعادة دين العرب القديم الى نقاوته الأصلية ، واحياء ملة ابراهيم كما كانت ، وقد ذكر « دى غوبينو » سيرة الرسول الشخصية فى صفحة ٤١ من كتابه فقال : انه كان بين العرب بل بين جميع معاصريه رجلاً متحليا بشمائل زكية ، رصيناً ، محباً للعدل ، محباً للانسانية ، حليماً ، نزيهاً ، الى الدرجة القصوى

وأما الفتح الاسلامى وكيف تحولت به فارس مملكة اسلامية و بقيت فارسية فى نفسها وهو الموضوع الذى نحوم حوله الآن فقد علّله بالأسباب التى سبق ان أوضحها بصور مختلفة وهو ان الاسلام مبدأ سهل سمح يسهل أن تدخل تحته مبادئ جديدة طارئة عليه من الخارج أو راشحة اليه من السابق . وأعظم دليل على هذا الأمر هو التشيُّع الذى هو دين فارس اليوم . قال : فالعرب عند ما هدموا ملك كسرى فى وقعة القادسية كانوا قد صادفوا أمة فارسية خامرها الفساد فى أخلاقها كما خامر الأمة البيزنطية . وليس هذا بقادح فيما ثبت للعرب الفاتحين حينئذٍ من البسالة الفائقة والحماسة المدهشة وجميع الفضائل العسكرية من اخلاص وصبر وقناعة وعلو نفس و بعد همة و بصيرة بالحرب . وانما نقول انهم لو صادفوا امامهم فى الشرق ماصادفوه فى الغرب من أمم متعلقة بحكوماتها وأقوام مخلصة لأمرائها لما كانت أمكنتهم تلك الفتوح التى فتحوها فى الشرق بهذه السرعة الغريبة ولكان عمرو ابن العاص وخالد بن الوليد وأمثالهما اضطرا الى العودة الى قفارهم . الا أن المملكة البيزنطية كانت قد نَخِرت بفساد الأخلاق وتمزّقت بالمجادلات الدينية . وكذلك فارس لم تكن أحسن منها حالاً .

ثم ذكر أحوال ديانات العجم يوم ظهور الاسلام فقال ماملحصه : ان المجوس كانوا قد أسسوا فى ظل الدولة الساسانية ملةً رسمية ، زعموا أنه لا يجوز أن يكون غيرها فى المملكة وهو خطأ لم يقع فيه الزاردشتية من قبل . ولم يلحظ المجوس ما كان قد تطرّق الى بلادهم من المذاهب الغريبة ، فان العقائد اليونانية والاشورية والمبادئ الافلاطونية الدينية التى تولدت فى الاسكندرية كانت قد شاعت فى جنوبى فارس وغربيها . وأما فى شمالى فارس فالقبائل التى هناك كانت لم تخضع للديانة المجوسية الا على شرط حفظ شعائرها القديمة التى من جلتها عدم وجود طبقة كهنوتية خاصة . وكانت هذه القبائل تتمسك بعاداتها من أن رئيس

العائلة هو الكاهن الوحيد لها . وكان قد دخل فى فارس أيضاً عقائد مسيحية ويهودية كان لها تبع كثيرون منهم أمراء وقواد ذوو سلطان ، ودخلت أيضاً البوذية والمانوية والبراهمية وهذه الأخيرة كانت منتشرة فى كرمان ومقاطعات هرمز . وكانت المجوسية الفارسية توخت ارضاء جميع المذاهب وفتحت صدرها لكثير من العقائد المسيحية واليهودية والكلدانية . ورأت نفسها ديانة سمحة تريد أن تتفادى المنازعات والمجادلات الدينية ، فاصابها فى آخر الأمر مايصيب كل ملة تقصد التوسع فتقع فى التضييق ، وذلك انها اضطرت أخيراً الى الاكراه والاضطهاد . ولما كانت هى دين الحكومة صار كل ساخط على الحكومة ناقم عليها سوء الادارة ساخطاً على الديانة أيضاً فلما جرت وقعة القادسية وانتصر العرب على العجم جاءت فرجاً لكثير من اليهود والمسيحيين الذين كانت الحكومة الفارسية تضطهدهم، وكان الدين العربى الجديد يعدهم أهل كتاب ولا يكلفهم الا أداء جزية تريحهم من التكاليف العسكرية . وكذلك جاءت القادسية فرجاً لاصحاب المهن والصناعات الذين كانوا يغرمون غرامات فاحشة بحجة أنهم يهينون النار أوالماء أو التراب وهو مما لم يكونوا يقدرون أن يتجنبوه لأجل صناعاتهم . فما كان أسرع مثل هؤلاء بطبيعة الحال الى الدخول فى الاسلام

قال : ولا نريد أن نقول بهذا ان الديانة المجوسية كانت قد فقدت كل حكمها بعد أن وضعت يدها على الدولة مدة أربعة قرون ، بل كانت قد بقيت لها عروق واشجة فى البلاد . ولما انهزمت فى معركة القادسية كان انهزامها مرافقاً لانهزام الدولة والوطن . ولم يمضِ على ذلك زمن حتى صارت هى الممثِّلة للوطن الفارسى . فقد كان بقى للسلطة القديمة بقايا ذات بال ، وكان من أمراء فارس من لم يزل متمتعاً بماله وجاهه ونفوذ كلمته ، ولم يكن المسلمون يضطهدونهم كما يظن بعض المؤرخين ، فبقيت شوكتهم قوية . فلما جاء بعض أمراء الترك ينازعون خلفاء العرب الملك و يستقلّون عنهم بامارات لهم خاصة ، وجدوا من استعداد زعماء العجم ماوافق سياستهم حتى ان أشد هؤلاء الأمراء اسلاماً مثل محمود الغزنوى مثلاً كان يقوى العجم على العرب وكان الأدب الفارسى لا يزال الا فى صور معلومة فارسيًّا فى ديباجتهِ فتأيدت بذلك النزعة الفارسية ، ثم انطلقت الحرية للشعب الفارسى فصاروا يلعنون العرب علنا بلا نكير حتى دخل فى ذلك أحفاد الذين كانوا أول من ابتهجوا بمقدم العرب . وكانت قد تنوسيت الأحقاد القديمة على السلطة السابقة ، بل كان

الشعب الفارسى رجع يتذكرها ويتأوه على ذلك المجد القديم الغابر. ولم يكن بقى لبيت الملك الفارسى الأخير سلالة ليلتفّ الفرس حولها ولكنه كان من الممكن احياء القومية الفارسية نفسها من جديد وتجديد رياسة دينية شبيهة بالتى كانت بفارس قبل الاسلام. وبالجملة شرعت الوطنية الفارسية تظهر فى نشدان صيغة دينية خاصة بها شبيهة بما كان لها من هذا القبيل قبل ان دخلت فى دين العرب

ولم يكن مما يرد على الخاطر أن تنتقض فارس على الاسلام نفسه فان العالم وقتئذ فى نظر الشرقى كان ينبغى أن يكون مسلماً. فالاسلام كان يمثل القوة السياسية والمجد والحضارة معا. وقد يجوز لهم أن لا يبقوا منه الا الاسم فقط ولكنّ هذا الاسم كان لا بد منه. فالفلاسفة كانوا يعملون تحت اسم الاسلام بجميع قواهم لبث مبادئهم ولو خالفته. والأمراء الساسانيون والغزنويون والديالمة مثل بنى بويه كان كلٌّ منهم يعمل على شاكلته ولكنهم كانوا جميعا ينطوون ظاهراً تحت لواء الاسلام. فكانت الحالة هناك كما هى الحالة الآن فى الغرب: كثير من الناس لا يشهدون المراسم الدينية المسيحية ولا يعتقدون بدين المسيح. ولكنهم فى الوقت نفسه لا يبرحون يترنمون بذكر «المدنية المسيحية» و«العالم المسيحى»

وكان جلّ مقصد العجم صدع وحدة الدولة العربية لانهم كادوا يختنقون تحت سلطان هذه الخلافة العربية المنبسطة على البلدان من اسبانية الى الهند. وكانوا يعملون لاستقلال فارس بنفسها استقلالاً داخلياً فأول مافكّروا به هو انكار مشروعية خلافة أهل السنة، والظهور بمظهر المناصرة لحقوق آل البيت المهضومة، متمسكين بمبدأ شرعىّ هو بزعمهم أعظم مشروعية وأعرق فى الاسلام من المبدأ العربىّ نفسه، فكأنهم صاروا عرباً أكثر من العرب ومسلمين أكثر من خصومهم. قاموا يستظهرون على العرب بمبادئ لا يمكن هؤلاء أن ينكروها بتاتاً، وهكذا كان منشأ مذهب الشيعة فى ايران وقد صحبَ منشأه معارك وملاحم لا تحصى ولكنه خدم فارس كثيراً فى قضيتها القومية وجدّد كثيراً من منازعها القديمة.

كان النزاع فى ظاهر الحال دائراً على حق العباسيين فى الخلافة وعدمه. ولكن فى الحقيقة كانت النهضة نهضة فارسية محضة. وأخذت كل بلدة تؤلف لنفسها طبقة دينية خاصة

ولما كان وجود طبقة دينية خاصة — كما فى الدين المسيحى مثلاً — غير متفق مع مبادئ القرآن ولا مع سنة الرسول وكان كلٌّ من المسلمين بحسب الكتاب والسنة غير مقيَّد فى عقيدته بأوامر رجال الدين نزع هؤلاء المسلمون من العجم الى طريقة جديدة وهو أن يقولوا ان القرآن لا تسوغ تلاوته ولا تفسيره الا لعلماء الدين الذين يقال لهم اليوم « مُلاًّ » وهذا منزع أخذه الايرانيون عن فلاسفتهم القدماء وعن مَوَابِذَتهم المجوس ، وهى حصر الخدمة الدينية فى طبقة معينة لا تتعدَّاهم . وهكذا تجدَّدت الديانة الساسانية بشكل اسلامى هو مذهب الشيعة . ولما تأسست الدولة الصفَوية فيما بعد لم تكن سوى دولة ساسانية مسلمة . وان تعمقنا فى حقائق الأشياء نَرى ان التشيع عندهم هو القول بالله أزلى أبدىّ واحد لابداية له ولا نهاية . قد خلق الكون على قواعد ثابتة ، وبيَّن لخلقه شروط النجاة والهلاك وسيكون الرجوع اليه ، والرسول هو أكمل المخلوقات والقرآن غير مخلوق بل وُجد منذ الأزل بالارادة الالهية ، وبالجملة فالله والرسول والقرآن يذكروننا هنا بالعقيدة الفارسية القديمة المسماة « الزروانه اكرنه » أى الزمان بدون حدّ . وأما العمل فهو للأئمة آل البيت فهم الذين يحفظون العالم ويهدونه الى صراط مستقيم وليس فى الخارج عنهم الا الظلمات . فالاقتداء بهم هو النجاة ، والانحراف عنهم هو الهلاك . وهم اثنا عشر اماماً . واذا تأمل الانسان ، يجد اعتقاد العجم المسلمين فى علىّ أشبه باعتقاد العجم القدماء فى هرمزد المخلّص الحافظ القيوم، كما أن ذريته أشبه بالملائكة الصالحين الذين فى ديانة زردشت يقاتلون الأرواح الخبيثة . وأما قضية الشيطان والقتال الدائم بينه و بين الأئمة فهى أشبه بقضية أهرمان فى المجوسية القديمة . ولذلك تجد أهل السنة يكرهون هذه الاعتقادات أشد الكره ويرون فيها الاعتقادات المجوسية القديمة ، ولعمرى ليسوا بمُخطئين . ولكنهم لا يقدرون أن يلوموا الا أنفسهم نظراً للسعة التى فى مذهبهم فانهم قد حاولوا أن يدخلوا فى الاسلام من الخلق بقدر استطاعتهم ولم ينظروا الى ما كان المسلمون الجدد يحملون فى حقائبهم ويُدْخِلون به على الاسلام . انتهى

هذه خلاصة ماذكره الكونت « دوغو بينو » وقد يكون اطلع على أحوال العجم أكثر من كل أوربى . ولكننا لا نقدر أن نتلقى جميع قضاياه بدون فحص وان أصاب فى كثير منها : ومما لا مشاحة فيه ان أهل فارس يغلون فى على وآل البيت أكثر جداً من

الشيعة العرب ، كالزيدية فى اليمن ، والمتاولة فى الشام ، والشيعة فى العراق ولكننا لا نقدر أن نقول ان هذه الخصائص التى لآل البيت وهذه العصمة للأئمة الاثنى عشر غير معروفة أصلاً عند الشيعة من العرب . فان كانت الأسباب السياسية وحدها هى التى حملت أهل فارس على النزوع الى مذهب الشيعة ليقيموا منه خصما لمذهب السنة و يجددوا الدولة الفارسية التى كان العرب قد قضوا عليها ، فماذا نقول فى شيعة العراق وشيعة الشام وشيعة اليمن وكلهم عرب اقحاح ينزع بهم عرق العربية كما ينزع بأهل السنة بدون فرق .

انى لا أخالف هذا المؤلف فى كون الفرس نقلوا كثيراً من عقائدهم القديمة الى الاسلام ، ولا أخالف أيضاً فى كونهم انتقضوا على العرب مراراً ، وحاولوا تأسيس ممالك فارسية فى وجه الخلافة العباسية ، وأنهم أيضاً احتفظوا باللسان الفارسى فى وجه اللسان العربى ، وأن تشيعهم للعلوية انما كان أكثره ناشئاً عن أغراض سياسية فى أصلها ، المقصد منها مقاومة الحكم العربى . ولقد تقدم لى هذا البحث بعينه فى هذه الحواشى ولم أكن اطلعت عند ما حررت ذلك البحث على كتاب الكونت دوغو بينو فأنا اذن متفق معه فى المبدأ ، وانما أخشى أن يكون مبالغاً فى بعض الأمور وذاهباً فى اطلاق الحكم مذهب الأور بيين بنى جلدته ، فيما يتكلمون به عن الشرق . فالتشيع لم يبدأ فى فارس بل بدأ فى الحجاز نفسه أى فى موطن العرب ، وظهر بعد ذلك فى الشام بواسطة أبى ذرّ الغفارى ، وقد سبق لى بحثٌ وافٍ فى هذا الموضوع نشرته فى مجلة المقتطف سنة ١٩١٠ مسيحية وجاذبنى فيه الحبل المجتهد الكبير ثقة الاسلام التبريزى الذى استشهد بيد الروس عند مادخلوا اذربيجان العجم بعد ذلك التاريخ بأشهر قلائل .

وكذلك نشر الاستاذ المحقق الشيخ احمد رضا من علماء جبل عامل مقالات ممتعة فى المقتطف عن أصل التشيُّع فى القطر الشامى ذكر فيها أنه لما نفى أبو ذر الغفارى من المدينة الى الشام بأمر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنهما ، أقام أبو ذر فى دمشق ينشر دعوته العلوية ، وآراءه الاشتراكية فى عدم جواز استئثار الأغنياء بالأموال دون الفقراء ، واستجاب دعوته قوم فى دمشق لا تزال أعقابهم الى اليوم . ثم انه كان يخرج الى الساحل فكان له مقام فى قرية الصرفند القريبة من صيداء ومقام آخر فى قرية ميس المشرفة على غور الاردن وكلتاهما من قرى جبل عامل . والمقامان الى الآن معروفان. فكان له من ذلك

الوقت فى هذه الديار من استجاب دعوته فى التشيّع وكان معاوية استغاث بعثمان من أبىذر وكتب اليه ان أبا ذر أفسد علينا الشام فأمره بردّهِ الى المدينة ، فأرسله اليها مهاناً على بعير ضالع بلا غطاء ولا وطاء ، بعد أن شتمه ونال منه ما اشتهى ، كما ذكر ابن الأثير فى كامله ، والطبرى فى تاريخه ، وان كرها أن يذكرا أسباب نفيه بعد ذلك الى الربذة ، الا مانسباه الى أبى ذر من الآراء الاشتراكية . قال صديقنا الاستاذ الشيخ احمد رضا : ولا يمكن التسليم بان الأمر الذى أحرج معاوية فأخرجه عن حامه حتى فعل بأبى ذر مافعل هو رأيه هذا وحده ، بل هو أمرٌ أهمّ من هذا وأعظم ، وهو الدعوة الى العلوية التى كانت تقضى على آمال معاوية كلها . قال : وكان أبو ذر معروفاً بميله الشديد الى الهاشميين عامة والى على خاصة ، وكان ممن تخلف مع على عن البيعة يوم السقيفة ، على مارواه أبو الفداء وغيره ، بل هو أول من أطلق عليهم اسم الشيعة . ورد فى كتاب الزينة فى تفسير الألفاظ المتداولة بين أرباب العلوم لأبى حاتم الرازى كما نقله عنه صاحب الروضات : « ان أول اسم ظهر فى الاسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الشيعة ، وكان هذا لقب أربعة من الصحابة وهم : أبو ذر وسلمان الفارسى والمقداد بن الاسود وعمار بن ياسر ، الى أن آن أوان صفين فاشتهر بين موالى على عليه السلام »

قال الشيخ احمد رضا : « أما الشيعة فى ايران والعجم فقد كان مبدأ أمرها فى أوائل الدعوة العباسية ولم تكن يومئذٍ ثابتة الأركان ولا فى زمان بنى بويه ، والدولة العلوية هناك الى أن انقضى أمر الخوارزمية فى ايران ، وأقام المغول حكومتهم فى قلب ايران ، وتعاقبت ملوكهم الى زمان السلطان الجايتو محمد المغولى الملقب بشاه خدابنده ، فهو الذى أظهر التشيع فى ايران ودعا اليه وأمر بان يخطب بأسماء الأئمة الاثنى عشر على المنابر . (الى أن قال) : ولكن دولة العجم لم تصبح شيعية محضة قبل زمن الشاه عباس الكبير الصفوى الذى كان فى القرن العاشر (للهجرة) وكان صاحب الفتيا لديه بل مرجع ايران فى زمانه المحقق الكركى العاملى . ويقول جودت باشا فى تاريخه ان الشاه عباس هو الذى بث مذهب التشيّع فى ايزان وأقام الدولة الصفوية على أساسه . اه

أقول ان هذه الروايات التى نقلها الاستاذ الشيخ أحمد رضا العاملى من أعضاء مجمعنا العلمى العربى تطابق المشهور والمأثور فى التواريخ المعتبرة ، الا انى لا أعلم من أين نقل ان

أبا ذر الغفارى رضى الله عنه كان يختلف الى الساحل والى مشارف الغور هل عثر لذلك على نصوص أم هو من الأخبار المتواترة بين شيعة جبل عامل ؟ لست أعلم .

أما الذى فى طبقات ابن سعد من خبر أبي ذر الغفارى ، فهو أنه جاء الى دمشق وأنه اختلف مع معاوية . قال : أخبرنا هشيم قال أخبرنا حصين عن زيد بن وهب قال : مررت بالرّبذة (١) فاذا أنا بأبي ذر قال : فقلت ما أنزلك منزلك هذا ؟ قال كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية فى هذه الآية « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » قال معاوية نزلت فى أهل الكتاب قال : فقلت نزلتْ فينا وفيهم . قال فكان بينى وبينه فى ذلك كلام . فكتب يشكونى الى عثمان . قال فكتب الىّ عثمان : أن أقدم المدينة ، فقدمت المدينة وكثر الناس علىّ كأنهم لم يرونى قبل ذلك . قال : فذُكر ذلك لعثمان فقال لى : ان شئت تنحَّيت فكنتَ قريباً فذاك أنزلنى هذا المنزل ولو أُمِّر علىّ حبشىّ لسمعت ولأطعت .

وروى ابن سعد حديثاً آخر قال أخبرنا يزيد بن هارون قال أخبرنا هشام بن حسان عن محمد بن سيرين أن رسول الله ﷺ قال لابى ذر : اذا بلغ النبأ سَلْعاً فاخرج منها ونحا بيده نحو الشام ولا أرى أُمراءك يدَعُونك . قال يارسول الله : أفلا أقاتل من يحول بينى وبين أمرك ؟ قال : لا . قال : فما تامرنى قال : اسمع وأطع ولو لعبدٍ حبشى . قال : فلما كان ذلك خرج الى الشام فكتب معاوية الى عثمان : ان أبا ذر قد أفسد الناس بالشام . فبعث اليه عثمان فقدم عليه ثم بعثوا أهله من بعده فوجدوا عنده كيسا أو شيئا فظنوا انها دراهم فقالوا ماشاء الله فاذا هى فلوس (قطع نحاسية صغيرة) فلما قدم المدينة قال له عثمان : كن عندى تغدو عليك وتروح اللقاح . قال . لاحاجة لى فى دنياكم . ثم قال : ائذن لى حتى أخرج الى الرّبذة ، فأذن له فخرج الى الربذة وقد أُقيمت الصلاة وعليها عبدٌ لعثمان حبشىّ فتأخر فقال أبو ذر تقدّمْ فصَلِّ فقد أمرت أن أسمع وأطيع ولو لعبد حبشى فأنت عبد حبشى . قال ابن سعد : أخبرنا يزيد بن هارون قال أخبرنا العوام بن حوشب

(١) الربذة من قرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز اذا رحلت من فيد تريد مكة وبهذا الموضع قبر أبي ذر الغفارى رضى الله عنه واسمه جندب بن جنادة وكان قد خرج اليها مغاضباً لعثمان بن عفان رضى الله عنه فأقام بها الى أن مات فى سنة ٣٢ . عن معجم البلدان بحرفه

قال حدثنى رجل من أصحاب الآجر عن شيخين من بنى ثعلبة رجل وامرأته قالا : نزلنا الربذة فمرّ بنا شيخ أشعث أبيض الرأس واللحية فقالوا : هذا من أصحاب رسول الله ﷺ . فاستأذناه أن نغسل رأسه فأذن لنا واستأنس بنا فبينا نحن كذلك اذ أتاه نفر من أهل العراق ، حسبته قال من أهل الكوفة فقالوا يا أبا ذر : فعل بك هذا الرجل وفعل ، فهل أنت ناصب لنا راية فلنكمل برجال ماشئت . فقال : يا أهل الاسلام لاتعرضوا علىّ ذاكم ولا تذلوا السلطان فانه من أذل السلطان فلا توبة له ، والله لو أن عثمان صلبنى على أطول خشبة أو أطول حبل لسمعت وأطعت وصبرتُ واحتسبت ، ورأيت ان ذاك خيرٌ لى . ولو سيرنى مابين الافق الى الافق أو قال مابين المشرق والمغرب ، لسمعت وأطعت ، وصبرت واحتسبت ، ورأيت ان ذاك خيرٌ لى ، ولو ردّنى الى منزلى لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت ذاك خيراً لى . قال أخبرنا الفضل بن دكين قال حدثنا جعفر بن برقان عن ثابت بن الحجاج عن عبد الله بن سيدان السلمى قال : تناجى أبو ذر وعثمان حتى ارتفعت أصواتهما ثم انصرف أبو ذر متبسماً فقال له النـاس : مالك ولأمير المؤمنين ؟ قال : سامع مطيع ولو أمرنى أن آتى صنعاء أو عدن ثم استطعت أن أفعل لفعلت . وأمره عثمان أن يخرج الى الربذة . هذا وقد نقل ابن سعد بأسانيد متعددة قول رسول الله ﷺ : ماأقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبى ذرّ . ولهذا الحديث فى بعض الروايات تتمة وهى : من سرّه أن ينظر الى زهد عيسى بن مريم فلينظر الى أبى ذر . ونقلوا عن أبى ذرّ انه قال أوصانى خليلى بسبع : أمرنى بحب المساكين والدنو منهم ، وأمرنى أن أنظر الى من هو دونى ولا أنظر الى من هو فوقى ، وأمرنى أن لا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرنى أن أصل الرحم وان أوذيت ، وأمرنى أن أقول الحق وان كان مرّاً ، وأمرنى أن لا أخاف فى الله لومة لائم ، وأمرنى أن أكثر من لاحول ولا قوة الا بالله ، فانهن من كنز تحت العرش . وكان ينفق كل مابيده ويقول : ان خليلى عهد الىّ أىُّ مال ذهب أو فضة أُوكى عليه ، فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله . ولقى أبو موسى الأشعرى أبا ذر فلزمه ، فجعل الأشعرى يقول له : أنت أخى ومرحبا بأخى . وجعل أبو ذر يقول له : اليك عنى لست بأخيك انما كنت أخاك قبل أن تُستعمل .

لقد نقلنا هذه الأحاديث مكتفين بها عن غيرها من أخبار أبى ذرّ لاجل أن نعرف

القارئ بحقيقة حال أبى ذر فقد ثبت انه كان شديداً فى الحق لا يخاف فيه لومة لائم ، وانه كان زاهداً فى الدنيا ، وكان على منزع اشتراكى يميل الى الفقراء والمساكين ، ويكره ادخار الأموال ، لكنه برغم خلقه هذا كان يرى الطاعة للسلطان ، كأنه كان يذكر دائماً ما أوصاه به الرسول ﷺ وهو : اسمع وأطع ولو لعبد حبشى . فأما ذهابه الى الشام فالشائع ان عثمان نفاه اليها وليس فى الطبقات الكبرى لابن سعد تصريح بأنه نفاه الى الشام وانما هناك ايماء بانه رأى مالم يعجبه وهو فى المدينة فخرج الى الشام ، ثم اختلف فى الشام مع معاوية . فكتب معاوية الى عثمان يقول له : ان أبا ذر أفسد الناس علينا . فأمره برده الى المدينة . ولم أقف على أثر فى الطبقات لسكناه بجبل عامل وساحل صيداء ، ولكن قرأت خبراً يدل على أن أبا ذر جاء بيت المقدس .

وعلى كل حال خبر أبى ذر الغفارى بانه كان من شيعة علىّ خبر شائع بين الناس ، ومن الثابت ان التشيع بدأ عند العرب قبل العجم ولكن الغلو فى التشيع بدأ عند العجم . ويجوز أن يكون هذا الغلو فى التشيع ، وهذا الاعتقاد فى عصمة الأئمة ، والقول بان ادارة الكون هى فى يدهم ، من آثار الديانات الفارسية القديمة كما ان الأسباب السياسية التى أشرنا اليها سابقاً من نزوع العجم الى الأخذ بثأرهم من العرب كانت أيضا عاملة فى نشر التشيع فى فارس . وأما كون غلبة التشيع الحقيقية على تلك المملكة لم تقع الا فى عهد الدولة الصفوية ، فهذا يقع الاجماع عليه ويؤيده الكونت دوغوبينو فى كتابه الذى ذكرناه ويصرح به الاستاذ الشيخ احمد رضا ومن قبل هذا الدور لم يبلغ التشيع هذه الدرجة من القوة فى فارس بل نجد فى التواريخ مايدل على العكس

وفى رسائل أبى بكر الخوارزمى رسالة الى جماعة الشيعة بنيسابور يعدد فيها جميع ماجرى من المحن والمظالم على آل البيت ولو انتدب أحد علماء التاريخ لشرحها لجاء منها كتاب كبير وفيها يقول : « ونسأل الله أن لايحشرنا على نصب أصفهانى ولا على بُغض لأهل البيت طوسى أو شاشى » وهذا يدل على ان التشيع لم يكن غالبا على تلك البلاد كما هو اليوم . بل كان فى العجم نواصب وكان بلد كبير مثل أصفهان معروفاً بشدة العداوة لآل البيت وهذا بشهادة رجل من كبار المتشيعين وأدباء عصره كأبى بكر الخوارزمى . أما الدلائل التى يستخلصها الانسان من التواريخ على استعداد العجم للتشيع فهو اتفاق

المؤرخين على كون الخلافة العباسية انما قامت بالأعاجم أيام كانت الدعوة الهاشمية واحدة لم يفترق فيها بنو العباس عن بنى أبى طالب . ولقد قال المسيو هوار المستشرق الفرنسى صاحب « تاريخ العرب » ان العجم فى وقعة الزاب أى الوقعة التى انهزم بها مروان بن محمد آخر بنى أمية ، أخذوا بثأرهم عن يوم القادسية . ثم انه ظهر أن آل برمك برغم كل ما كانوا عليه من الحظوة فى زمان المنصور والرشيد كانوا فى الباطن يميلون الى آل البيت ، حتى قيل ان سبب نكبتهم هو اطلاق جعفر بن يحيى البرمكى سبيل يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على رضى الله عنهم بدون اذن الرشيد ، بعد أن دفعه الرشيد اليه وجعل اعتقاله فى داره . وكذلك يعلم الناس أن بنى بويه كانوا شيعة وانهم بعد استيلائهم على بغداد والتزامهم نصرة الخلافة العباسية والعمل تحت لوائها لم يزالوا شيعة .

***

أما الحالة الراهنة الآن فى فارس وهو الذى يهم التعريف به ، اذ كان من أهم موضوعات حاضر العالم الاسلامى ، فهى ان الدولة الفارسية لاتزال دولة اسلامية وحامية للتشيع فى الاسلام . ولما كان ضعف الأمة الواحدة يزيل مابين أحزابها المختلفة من الأحقاد فقد كان من نتائج ضعف الأمة الاسلامية فى العصر الحاضر ، زوال كثير من البغضاء التى كانت عند العجم لأهل السنة ، وزوال مثل ذلك من أهل السنة للشيعة ، وقد يورث الخير شراً والشرُّ خيراً ، ولقد لحظ كل من ساح فى بلاد العجم حتى من الاور بيين ان الأمة الفارسية فى العصر الحاضر تشعر بشعور العالم الاسلامى جميعه ، فتهتمّ لتركيا ، ولبلاد العرب ، ولمصر ، وللمغرب ، ولكل بلاد الاسلام اهتماماً أكيداً ، ويكربها مايكرث المسلمين ، و يسرها مايسرهم ، وسمعت مرة الأمير العلامة الجليل أرفع الدولة رضاخان ممثل فارس فى جمعية الأمم يقول من خطبة له فى جلسة عمومية : ان فارس تمثل فى عصبة الأمم العالم الاسلامى المؤلف من أربعمائة مليون نسمة . وقد كان من دلائل القرب بين الشيعة والسنة عقد الحكومة الفارسية الحاضرة معاهدات صداقة بينها و بين تركيا ، و بينها و بين العراق ، و بينها و بين الحجاز ونجد ، و بينها و بين مصر ، وكلها حكومات سنيّة . وفى أواخر السنة الماضية عند ما انعقد المؤتمر الاسلامى فى القدس الشريف شهده جماعة من أعيان الشيعة كالسيد الطباطبائى ، والسيد الحسين آل كاشف الغطاء ، وجماعة من علماء الشيعة فى العراق ،

وجماعة من علماء الشيعة العاملين منهم الاستاذان الشيخ سليمان ظاهر، والشيخ احمد رضا وغيرهم، وقد صلى أعضاء المؤتمر الممثلون لجميع العالم الاسلامى مرتين بامامة المجتهد الكبير السيد حسين آل كاشف الغطاء، ولم يخطر ببال أحد الاعتراض على ذلك بل ابتهج به المسلمون جميعاً وصرح رياض بك الصلح مفخر شبان سوريا بأنه اليوم قد انبثق فجر الوحدة الاسلامية.

نعم ان فى فارس اليوم نزعة لادينية تبحث فى وقت واحد عن الالحاد فى الدين، وعن تاريخ فارس القديم، وتريد التجدد العصرى بزعمها، واحياء الفارسية التى مرّت عليها ألوف من السنين أى الحديث الأحدث مع القديم الأقدم تحاول الجمع بينهما ولكنها لاتبلغ درجة الفئة المماثلة لها فى تركيا من جهة الغلو فى التجدد مع احياء التركية القديمة. وكلتا الفئتين لا تقدران على زعزعة الاسلام لافى فارس ولا فى تركيا

***

وهذا ما كنا نشرناه فى مجلة المقتطف عن الشيعة تحت عنوان « المتاولة أو الشيعة فى جبل عامل (١) :

اطلعت فى المقتطف على ما كتبه حضرة الفاضل الشيخ أحمد رضا من أدباء جبل عامل بشأن طائفة الشيعة المعروفة بالمتاولة فى هذا الجبل وتأملت فيما أورده من تاريخ ظهورها فيه مع سبب اشتهار الشيعة فى بر الشام دون غيرها باسم « المتاولة » الى غير ذلك من التنقيبات الحرية بالاعتبار فآثرت أن أضم الى هذا البحث بعض ما خطر لى فيه اتماماً للفائدة ووفاء بالبلاغ لامن قبيل الاعتراض ولا على جهة المحاجة بل من قبيل اضافة رأى الى الآراء والقاء دلو بين الدلاء فأقول :

ذكر الكاتب أن لقب متاولة مشتق على غير القياس. من تولى أى اتخذ ولياً لانهم تولوا آل البيت النبوى رضوان الله عليهم أى اتخذوهم أولياء أو هو مشتق من توالى أى تتابع نظراً لتواليهم خلفا عن سلف فى موالاة العترة المصطفوية. والذى أراه أن التوجيه الأول هو الأقرب وانه هو الاصل فى التسمية فان تولى يأتى فى اللغة بمعنى اتبع كما يأتى بمعنى انصرف فكأنه من الاضداد وهذا منزع معروف للعرب وقد جاء منه فى الكتاب العزيز بمعنى الاعراض « وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم » وجاء بمعنى الاتباع : « ومن يتولهم منكم

(١) مقتطف أغسطس سنة ٩١٠ ص ٧٣٩

فانه منهم » أى يتبعهم وينصرهم . والشيعة قد تولوا آل البيت أى اتبعوهم فقيل فى اسم الفاعل متولى وتحرفت الكلمة بطول الزمن على ألسنة العامة فقيل « متوالى » وجمعوه متاولة وكان الاولى أن يقال فيه متولية . والوجه الثانى هو من توالى فى حب آل البيت أى تتابع فيكون اسم فاعله « متوالى » ولا تحريف عندئذ فيه من جهة مفرده لكن يبقى التحريف فى جمعه اذ لا جمع لمتوالى على متاوله بل جمعه الصحيح متوالية وقد سمعت وجهاً ثالثا من فم استاذنا الامام الشيخ محمدعبده المصرى أكرم الله مثواهوهو أنهم كانوا يقولون للعلوى «مُتْ وليًّا لعلىّ» وكان يحرض الشيعة بعضهم بعضا على الثبات فى حب آل البيت بهذا الكلام فصيغت من ذلك كله كلمة«مُتَوَلِّى »ثم صارت بتوالى الأيام مُتَوالى وكلها وجوه غير بعيدة والغرابة ليست فيها بل فى كون هذه اللفظة غيرمعروفة الا لشيعة بر الشام بل لشيعة جبل عامل وجبل لبنان وبعلبك . ففى العراق سيعة لا يقال لهم متاولة وفى اليمن شيعة يقال لهم الزيدية ولايقال لهم متاولة وفى العجم شيعة أكثر من كل محل ولا يقال لهم متاولة و بين مسامى الهند ملايين من الشيعة ولا يعرفون بلقب متاولة . وأغرب من هذا أن فى نفس دمشق الشام محلة يقال لها الخراب سكانها من العلويين ويقال لهم هناك روافض ولا يقال لهم متاولة و بالاجمال فالشيعة فى جميع بلاد الاسلام تحت ألقاب شيعة وعلوية وامامية وجعفرية وزيدية واثنا عشرية وغيرذلك وكلمة متاولة مخصوصة بشيعة بر الشام

على أن المجانسة فى المعنى بين التشيع والموالاة ظاهرة بل المعنى واحد فى اللفظتين والولى أو المتولى هوالمشايع أوالمتشيع ورد فى كتاب«غاية الاختصار فى أخبار البيوتات العلوية المحفوظة من الغبار » للسيد الشريف تاج الدين بن محمد بن زهرة الحسينى نقيب حلب قوله كل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيعة وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره ويقال شايعه كما يقال والاه من الولى والمشايع

هذا ما حضر لى الآن من جهة كلمة متاولة وأنا موافق لصاحب البحث على كونها حديثة العهد جرت على الألسنة منذ مائتى سنة فقط لأن المؤرخين لم يذكروا هذه اللفظة عند ذكر شيعة بر الشام مع كون هذه الطائفة موجودة فى القطر منذ أوائل الفتح الاسلامى

أما ما ذكره من جهة مبدأ التشيع فى الشام وانه من سيدنا أبى ذر الغفارى الذى نفاه الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنهما الى الشام وكان يخرج الى الساحل وله مقام بقرية

الصرفند ومقام آخر فى مشارق الغور الى غير ذلك فهو قول متواتر بين الناس وربما كان أقرب الاقوال الى الصحة ولكن كنت أحب أن يكون الكاتب أورد النصوص التاريخية من أمهات الكتب أو نقل من الروايات ما فيه زيادة تفصيل وشفاء للغليل فان التاريخ المعروف لدينا قصير العبارة جداً عن هذا الحادث وهذه الظلمة فيه هى التى أضلت كثيراً من المؤرخين فى حقيقة أصل الطائفة الشيعية فى جبل عامل ، وحملت بعضهم على الظن أنهم قوم أتوا من العجم فلا انكار أن أبا ذر كان موالياً لعلى أى كان شيعياً وانه من المتخلفين عن مبايعة الصديق يوم السقيفة وله فى ذلك شركاء من الصحابة نصت على ذلك الأمهات . فأما مقامه بالشام فغاية ما ذكروه فيه أنه كان ينكر على معاوية جمع الأموال ويشنع عليه بهذا السبب حتى شكاه معاوية الى عثمان فنفاه الى الربذة . ذكر أبو الفداء فى حوادث سنة ٢٥ وفاة أبى ذر الغفارى واسمه جندب بن جنادة قال : « وكان بالشام ينكر على معاوية جمع المال ويتلو « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ » الآية فكتب معاوية الى عثمان يشكوه فكتب اليه عثمان أن اقدم المدينة فقدم الى المدينة فاجتمع الناس عليه وصار يذكر ذلك ويكثر الشناعة على من كنز الذهب والفضة فنفاه عثمان الى الربذة » أما تسمية هذا الجبل بجبل عامل أو جبل عاملة فلم أجد الكاتب تعرض لها مع أن فيها ما يثبت كون سكان هذا الجبل عرباً لا عجماً وذلك لأن مؤرخى العرب اتفقوا على كون حمير وكهلان وأشعر وعمرو وعاملة هم ولد قحطان وان أباهم هو يشجب ابن يعرب بن قحطان وان من حمير التبابعة و بنى شعبان وقضاعة ومن كهلان الازد وطئ ومذحج وهمدان وكندة ومراد وانمار . ومن كل من هؤلاء بطون وأفخاذ كثيرة . وأما أشعر فهى القبيلة التى ينسب اليها أبو موسى الأشعرى وأما عمرو فنهم لخم وجذام وأما عاملة فخرجوا الى الشام و نزلوا بالقرب من دمشق بجبل عرف بجبل عاملة ، ومنهم عدى بن الرقاع الشاعر وعلى هذا يكون أصل مكان هذا الجبل من عرب اليمن وربما يكون نزل فيهم أيضاً قوم من السكاسك وهى قبيلتان على ما حققه ابن الجوانى النسابة.الاولى من كندة والثانية من حمير وهم بنو زيد بن وائلة بن حمير ويلقب بزيد السكاسك وكلاهما باليمن والذى حملنى على هذا الظن وجود أرض يقال لها السكسكية الى الجنوب من الصرفند على سيف البحر

وقد ورد ذكر جبل عامل فى مواضع كثيرة . قال ياقوت فى معجم البلدان عند ذكر هونين: بلد فى جبال عاملة . وقال عند ذكر تبنين : بلدة فى جبال بنى عامل المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور . وورد فى تاريخ ابن الأثير عند ذكر حصن الافرنج تنين : ان الملك العزيز خرج من مصر لنجدة المسلمين فى الشام ورحل هو والعساكر الى جبل الخيل (الخليل) ويعرف بجبل عاملة

ومن الغريب أنه لم يرد فى الكتب القديمة ذكر هذا الجبل باسم بلاد بشارة كما هو معروف به اليوم والشيخ احمد رضا يقول ان نسبة هذه البلاد هى الى أحد حكامها فى العصور الوسطى قيل انه من الأمراء بنى معن وقيل هو بشارة بن مقبل القحطانى وان كل ذلك لم يقم عليه برهان وقوله هذا هو الصحيح أما الامراء بنو معن فلم نجد فى تاريخهم من اسمه بشارة . وأما بشارة بن مقبل القحطانى فحبذا لو ورد شئ من تاريخه لنعلم أين كان مقره ومن كان صاحب هذا الاسم اذ لو عرفنا شيئاً من أمره لكان يمكن ترجيح هذه الرواية على غيرها وما دام صاحب هذا الاسم مجهولا فالأولى أن تكون هذه البلاد منسوبة الى حسام الدين بشارة من أمراء الدولة الأيوبية قال ابن شداد فى سيرة صلاح الدين يوسف انه أتى عكا فأقام بها معظم سنة ٨٥ ورتب بها بهاء الدين قراقوش والياً وأمره بعمارة السور ومعه حسام الدين بشارة وقال أيضاً انه فى سادس عشر جمادى سنة ثمان وثمانين وصل كتاب من حسام الدين بشارة يذكر أنه تخلف فى صور مائة راكب وانضم اليهم من عكا خمسون وخرجوا لشن الغارات فى البلاد الاسلامية فوقع عليهم العسكر المرصد لحفظ البلاد من ذلك الطرف وجرى بينهم قتال شديد

وقد ورد ذكر حسام الدين بشارة مرة ثالثة فى تاريخ ابن شداد عند حلف اليمين للافضل بن صلاح الدين بعد وفاة والده وظهر من كلامه أنه كان من أكابر أمراء تلك الدولة فلا يمنع أن يكون تولى هذه البلاد ونسبت اليه وهو أقرب وجه فى هذه النسبة حتى يقوم ما يدل على رجحان خلافه

أما كون التشيع فى جبل عامل هو أقدم من العجم بل فى كل قطر حاشا الحجاز فمن الحقائق التى لا خلاف فيها بل التشيع فى العجم أحدث منه فى سائر بلاد الاسلام . فجودت باشا فى تاريخه يقول ان الشاه عباس هو الذى بث مذهب التشيع فى ايران وأقام الدولة

الصفوية على أساسه . والمحبي يقول ان الشاه عباس بن السلطان محمد خدابندة بن طهماسب ابن الشاه اسماعيــل بن سلطان حيدر ينتهي نسبه الى الامام علي وان أول من بالغ فى التشيع وأظهره هو السلطان حيدر وكان ذلك سنة ست وتسعمائة وهذا مخالف نوعاً لما قاله جودت باشا وعلى كلا القولين فالتشيع فى العجم غير قديم كما أنه فى العرب وفى بر الشام لم يكن ظاهراً بل كانت الشيعة تتمسك بحبال التقيّة خوفاً على أنفسهم . ولذلك نجد المؤرخين يتجانفون عن نسـبة علماء الشيعة الى التشيع الا اضطراراً فقـد ترجم المحبي محمداً بن علي بن محمود الشامي العاملي المعروف بالمشغري ونقل عنـه ماقاله بن معصوم فى السلافة من الثناء والاطراء وذكر أنه خرج من الشام الى العجم ولم يذكره بتشيع ولا رفض وكذلك ترجم حسناً ابن زين الدين الشهيد العاملي الشهير بالشامي ولم ينسبه الى التشيع وذكر حفيده زين الدين ابن محمد بن حسن كذلك . انما فى ترجمة محمد بن علي بن احمد المعروف بالحريري وبالحرفوشي العاملي الأديب الشاعر ذكر اخراجه من دمشق وسعي يوسف بن أبي الفتح عنـد الحـكام بقتله بنسبة الرفض اليـه وانه سار الى بلاد العجم وان سلطانها الشاه عباس صيره رئيس العلماء فى بلاده . كذلك عند ما ترجم محمد الخ العاملي الشامي نقل عن ابن معصوم صاحب السلافة أنه قدم من مكة فى سنة سبع أو ثمان وثمانين وألف وفى الثانية منهما قتلت الأتراك جمـاعة من العجم لما اتهموهم به من تلويث البيت الشريف وان المترجم خاف على نفسه فالتجأ الى السيد موسى بن سليمان ونجا . وذكر المحبي أن ممن قتلوا بتلك التهمة السيد محمد مؤمن وكان رجلا متعبداً الا أنه معروف بالتشيع

ولما وصل الى ترجمة فريد عصره بهاء الدين العاملي صاحب الـكشكول ذكر أنه ولد ببعلبك غروب شمس الأربعاء لثـلاث عشرة بقين من ذى الحجة سـنة ثلاث وخمسين وتسعمائة وانتقل أبوه الى بلاد العجم وما زال يتـدرج فى سلم الفضل الى أن ولى مشيخة الاسلام فى تلك الديار . وقال « وغالت تلك الدولة فى قيمته واستمطرت غيث الفضل من ديمتـه فوضعته على مفرقها تاجاً وأطلعته فى مشرقها سراجاً وهاجاً وتبسمت به دولة سلطانها شاه عباس واستنارت بشموس رأيه عند اعتكار حنادس الباس فـكان لا يفارقه حضراً ولا سفراً الخ » ثم نقل عبارة الطالولي فى حقه التي أطراه فيها بما لم يسمح به لأحد وقال ان شاه عباس طلبه لرياسة علماء بلاده لـكنه لم يكن على مذهب الشاه فى الزندقة لانتشار صيته فى

سداد دينه الا أنه غالى فى خب آل البيت . وذكر المحبى أنه لما نزل الشام نزل بمحلة الخراب وهى الآن محلة الشيعة . ونقل فى حقه عبارة للشيخ أبى الوفاء العرضى وهى أنه لما قدم حلب فى زمان السلطان مراد بن سليم خضر دروس الوالد أى الشيخ عمر وهو لا يظهر أنه طالب علم حتى فرغ من الدرس فسأله أدلة تفضيل الصديق على المرتضى فذكر حديث ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين أفضل من أبى بكر فردّ عليه وأخذ يذكر أشياء كثيرة تقتضى تفضيل المرتضى فشتمه الوالد وقال له (رافضى شيعى) وسبّه فسكت ثم ان صاحب الترجمة أمر بعض تجار العجم أن يصنع وليمة يجمع فيها بين الوالد و بينه فصنعها ودعاهما فأخبره أن هذا هو المنلا بهاء الدين عالم بلاد العجم وقال للوالد : شتمونا فقال له : ما علمت أنك المنلا بهاء الدين . ثم قال : أناسنى أحب الصحابة ولكن كيف أفعل سلطاننا شيعى و يقتل العالم السنى . قال المحبى ولما سمع بقدومه أهل جبل عامل تواردوا عليه أفواجا أفواجاً نخاف أن يظهر أمره فخرج من حلب

ومن هنا يظهر أن الشيعة كانوا لا يزالون معتصمين بالتقية مكتمين لأمرهم مئين من السنين لأنه لا جدال فى كونهم موجودين فى الشام من أوائل الفتح الاسلامى ومع هذا فالمؤرخون لا يذكرون هذا الأمر الا عَرَضاً وربما لم يذكروه أصلا . ومما يدل على القدم والتكتيم كون الاسماعيلية والدروز قد خرجوا من الشيعة و يقال انهم خرجوا من الشيعة السبعية أى القائلين بالأئمة السبعة وقع ذلك فى أواخر القرن الرابع للهجرة وأوائل القرن الخامس فى أيام الدولة الفاطمية الغالية فى التشيع . فالشيعة كانوا فى هذه الجبال قبل هذه الطوائف التى خرجت منهم ومنازل الفريقين لا تزال متناوحة مما يستدل على وحدة الجرثومة فضلا عما بين كثير من عشائر الفريقين من القرابات والكلالات والانساب المتحدة فى الأصل متواتراً ذلك خلفاً عن سلف يؤيد كون هذه الطوائف راجعة فى أصلها الى العرب والله تعالى من وراء العلم

التشيع

ايهما فيه أقدم الشام أم العجم (١)

طالعت ما ورد فى المقتطف من أحد فضلاء تبريز جواباً على ما سبق لى ولأحمد افندى رضا من أدباء جبل عامل بان التشيع هو فى الشام أقدم منه فى كل قطر حاشا الحجاز فالفاضل التبريزى يريد أن مجرد الاستدلال العقلى على أقدمية التشيع فى الشام باقامة أبى ذر الغفارى فى نواحيه ومخالفته لخليفة عصره هو غير سديد اذ أهالى مصر حينئذ يجب أن لا يتأخروا عن أهل الشام فى التشيع لأن محمد بن أبى بكر كان عندهم وهو من ألد الخصوم لعثمان (رضى الله عنه) ويقول أيضاً ان مبدأ التشيع فى العجم هو فى أيام الدعوة العباسية اذ معلوم ما ظهر من ميل أهل خراسان الى تأييد أمر العلوية وان تلك البلاد كانت منذ ذاك الوقت مركزاً لعلماء الامامية. وانه اذا ورد فى تاريخ المحبي وتاريخ جودت باشا ظهور التشيع فى فارس فى أيام السلطان حيدر أو الشاه اسماعيل فربما كان مقصدها عموم التشيع جميع ايران وجعله مذهباً رسمياً

والجواب على ذلك أن التشيع بدأ منذ أيام سيدنا على كرم الله وجهه فلما وقعت الحرب بينه و بين سيدنا معاوية انقسم المسلمون حتى الصحابة الكرام (رضى الله عنهم) قسمين قسم كان مع على وقسم كان مع معاوية ووقع هذا الانقسام نفسه فى الحجاز ثم فى الشام التى لم يطبق جميع أهلها على مناوأة على يومئذ فكان منهم من بقى على موالاته فلهذا قلنا ان الشام فى التشيع أقدم من فارس

ولم يكن الاسلام نفسه لذلك العهد قد تبسط فى فارس حتى ينبسط فيها مذهب من مذاهبه فان لم يكن ثبت الأصل فكيف يثبت الفرع ؟

نعم ظهرت الدعوة العباسية فى خراسان ومرو فى أواخر الدولة الأموية حينما هب بنو هاشم لاستعادة الخلافة من بنى أمية فوجدوه فى ذلك السواد وهو خراسان ملبياً لدعوتهم وناصراً لكلمتهم ، وتم الخروج على الأمويين ، ودالت الدولة للهاشميين فأخذها منهم أبناء

(١) المقتطف يناير ١٩١١ ص ٤٧

العباس وكانوا فى الأول يداً واحـدة مع أبناء عمهم العلوية ، ولـكن لايصح أن يقال ان الدعوة العباسية هى نفس الدعوة العـلوية ، بل يقال هما شعبتان من أصل واحد ، وان الدعوة العباسية هى غير التشيع . وعلى فرض كان ذلك كذلك فأين الأيام التى يقول عنها مناظرنا الفاضل وهى أيام اجابة العجم لدعوة بنى العباس من ايام انقسام أهل الحجاز والشام بين على ومعاوية . فان بين العهدين نحواً من قرن واحد فقد كانت خلافة الامام على سنة ٣٥ وكانت خلافة أبى العباس السفاح العباسى سنة ١٣٢

فاذا ثبت ان أهل الشام انقسموا بين على ومعاوية فى أثناء حرب صفين فقد ثبت ان التشيع ظهر بينهم لذلك العهد ، وأما التشيع فى بلاد العجم فلو عددنا القيام بأمر بنى العباس تشيعاً علوياً محضا وهو ليس كذلك فلم يظهر الا فى أواخر دولة بنى أميَّة أيام مروان ابن محمد . ولهذا حكمنا بسبق الشام للعجم فى تاريخ الشيعة . وهناك دليل آخر . وهو انه لو كان أهل فارس مشايعين لآل على فى قيامهم بدعوة بنى العباس لما قاموا بمبايعة رجـل عباسى حين كان يوجد من العلوية من يطلب هذا الأمر لنفسه وانما كان القائمون يومئذ بنصرة العلوية هم من العرب لامن العجم

فلما وقع الانقسام بين العلوية والعباسـية وخرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين (الحسن) بن على بن أبى طالب وهو الملقَّب بالنفس الزكية و بالمهدى على أبى جعفر المنصور أخى السفاح تبعه أهل المدينة وقاتلوا من دونه حتى قتل ولم يكن خروجه فى العجم ولا قاتل معه أحد من فارس ثم خرج أخوه ابراهيم فى البصرة طالبا البيعة له قبل أن يبلغه خبر قتله وأجاب دعوته خلق وانهزم من أمامه سفيان بن معاوية أميرها واسـتولى على الاهواز وواسط وسار الى الـكوفة وقد أحصى ديوانه مائة ألف وكاد يتم له الفوز لولا ماقضى الله من هزيمته أخيراً وقتله وذلك سـنة ١٤٥ ولم نقرأ انه قام بنصرته أحد من خراسان ولا فى مرو ولا فى جميع فارس

ثم خرج الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب (رضوان الله عليهم أجمعين) وذلك فى خلافة الهادى بن المهدى العباسى ، وكان ظهوره فى المدينة والتف عليه جماعة من آل البيت ومن أهل المدينة و بايعوه وخرج الى مكة فالتقى بجماعة من بنى العباس ومعهم من حج من رجالهم وقوادهم فاقتتلوا ووقعت الهزيمـة على الحسين وقتل

وانهزم أصحابه وأفلت منهم ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وأتى مصر ، فارسله واضح عامل البريد وكان شيعيا على البريد الى المغرب . و بلغ ذلك الهادى فضرب عنق واضح . ومات ادريس بالمغرب وولد له ادريس الأصغر الذى أسس دولة الأدارسة بالغرب مما ليس هنا محل تفصيله . ولم يكن لفارس أقل نصيب من هذه المظاهرات لآل البيت يومئذ بل انحصرت فى الحجاز والعراق والغرب

وسنة ٢٠١ عندما أوصى المأمون بولاية عهده الى الامام على بن موسى الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ولقبه الرضا من آل محمد وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس الخضرة شعار العلويين وكتب بذلك الى الآفاق صعب ذلك على بنى العباس وامتنع بعض أهل بغداد عن البيعة وأدى الأمر الى فتنة و بويع ابراهيم بن المهدى بالخلافة وكان المأمون فى مرو فسار الى العراق وجرت حروب وانهزم الثائرون على المأمون فلم يسمع ان عرقاً فى العجم نبض لهذه الحادثة مع ان المأمون دخل بغداد ولباسه الخضرة وطاوعه الأكثرون وصار أهل العراق يدخلون عليه فى الثياب الخضر و يحرقون كل ملبوس يرونه من السواد . ولولا وفاة الامام على الرضا سنة ٢٠٣ لربما بقى المأمون على عزمه فى التخلى عن الأمر للعلوية . فلو كان التشيع يومئذ واشج العروق فى أرض العجم لما سبقهم أحد الى الموالاة والمظاهرة ولتقدموا فيه على العراقيين الذين هم أولى بنصرة بنى العباس

ولما ظهرت الدولة العلوية الفاطمية وهى أول دولة علوية حقيقية استوثق لها الأمر ولم تكن أيامها نزق ثائر ولا فتنة خارج بل دولة راسخة متأثلة زاحمت دولة بنى العباس بالمناكب ابتدأت سنة ٢٩٦ واستمرت الى سنة ٥٦٧ كان أول ظهورها فى افريقية وامتدت منها الى مصر والشام والحجاز ، حتى خطب بدعوتها الأمير الساسيرى فى العراق وعلى منابر بغداد مدة غير قصيرة فكان العرب هم القائمين بالدعوة الفاطمية يومئذ ولم يكن العجم القائمين بها

ثم ابن عبد الله القداح الذى كان من كبار دعاة هذه الدولة سار من نواحى اصفهان الى الأهواز والبصرة ثم الى سلمية من أرض حمص داعياً فكان قصدُه بلاد العرب . وبديهى انه لو وجد فى بلاد العجم يومئذ مثاراً لدعوة أو مستورى لزند لما رحل عنها الى

غيرها ثم خلفه ابنه احمد فصحبه رستم بن حوشب من أهل الكوفة فاختار لبث دعوته اليمن وهناك التقى ابن حوشب بأبى عبد الله الشيعى فاصطحبا واتفقا على بث الدعوة فى افريقية فسار أبو عبد الله الشيعى اليها وأجابت دعوته قبائل كتامة وقاتل بنى الأغلب فقهرهم فكانت هذه البلاد منبتا لأكبر دولة علوية شيعية وذلك قبل الدولة الشيعية الصفوية القائمة ببلاد العجم بستمائة سنة .

وفى سنة ٢٥٠ عند ماظهر يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب بالكوفة واستولى عليها ولكن خانه السعد فظفرت به جيوش العباسيين وقتل وحُمل رأسه الى الخليفة المستعين ولا نعلم فيما يحضرنا من التاريخ وان يكن ما نعلمه فيه أقصر من أن يسمى علماً ، ان دولة علوية قامت فى العجم فعلا الى زمان الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل بن زيد بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الذى قام بطبرستان وكثر جمعه واستولى على طبرستان وجرجان وسمى بالداعى الى الحق وذلك سنة ٢٥٠ وقتل سنة ٢٨٧ وقام بعده الناصر الحسن بن على المعروف بالاطروش وتوفى سنة ٣٠٤ وقام من بعده الحسين بن القاسم العلوى ويلقب بالداعى وقتل سنة ٣١٦ وانقرض بموته ملك العلويين فى هاتيك الديار

ولا أريد أن أقول بهذا ان التشيع لم يعرف فى العجم الا فى هذا العهد بل انما أقصد كونه عرف هناك بعد الشام كما قدمنا وانه أيضاً لم يكن فى العجم شائعا كما هو اليوم يشهد بذلك التاريخ وظهور الجم الغفير من أئمة أهل السنة من بلاد العجم . أما ابتداؤه فى العجم فيرجع الى أواخر القرن الأول قال ياقوت الحموى عند ذكر قمّ ما يأتى : ذكر بعضهم ان قمّ بين اصبهان وساوه وهى كبيرة حسنة طيبة وأهلها كلهم شيعة امامية ، وكان بدء تمصيرها فى أيام الحجاج بن يوسف سنة ٨٣ وذلك ان عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس كان أمير سجستان من جهة الحجاج ثم خرج عليه وكان فى عسكره سبعة عشر نفساً من علماء التابعين من العراقيين فلما انهزم أتى الأشعث ورجع الى كابل منهزماً كان فى جملة اخوة يقال لهم عبد الله والأحوص وعبد الرحمن واسحق ونعيم وهم بنو سعد بن مالك بن عامر الأشعرى وقعوا الى ناحية قم وكان هناك سبع قرى اسم احداها كمندان فنزل هؤلاء الاخوة على هذه القرى حتى فتحوها وقتلوا أهلها واستولوا عليها وانتقلوا اليها واستوطنوها

واجتمع اليهم بنو عمهم وصارت السبع قرىً سبعة محال بها وسميت باسم احداهما كمندات فأسقطوا بعض حروفها فسميت بتعريبهم قُمًّا ؛ وكان مُقدَّم هؤلاء الاخوة عبد الله بن سعد وكان له ولد قد ربى بالكوفة فانتقل منها الى قم وكان اماميا وهو الذى نقل التشيع الى أهلها فلا يوجد سنى قط . ومن ظريف مايحكى انه ولى عليهم وال وكان سنياً متشدداً فبلغه انهم لبغضهم الصحابة الكرام لايوجد فيهم من اسمه أبو بكر قط ولا عمر فجمعهم يوماً وقال لرؤسائهم بلغنى انكم تبغضون صحابة رسول الله ﷺ وانكم لبغضكم اياهم لاتسمون أولادكم بأسمائهم وأنا أقسم بالله العظيم لئن لم تجيئونى برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر ويثبت عندى انه اسمه لأفعلن بكم ولأصنعنَّ . فاستمهلوه ثلاثة أيام وفتشوا مدينتهم واجتهدوا فلم يروا الا رجلاً صعلوكا حافياً عارياً أقبح خلق الله منظرا اسمه أبو بكر لأن أباه كان غريبا استوطنها فسماه بذلك فجاءوا به فشتمهم وقال: جئتمونى بأقبح خلق الله تتنادرون عليه وأمر بصفعهم فقال له بعض ظرفائهم : أيها الأمير اصنع ماشئت فان هواء قم لايجيء منه من اسمه أبو بكر أحسن صورة من هذا . فغلبه الضحك وعفا عنهم اه .

وقد سمعت هذه النادرة نفسها من فم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رواية عن استاذه الامام الكبير الشيخ جمال الدين الافغانى أكرم الله مثواهما

وعلى هذا فيكون التشيع فى بلاد العجم مخصوصا بقم و بعض أماكن وكانت تقع بين الشيعة وأهل السنة هناك الحروب والفتن كما يستدل عليه من التاريخ . وفى الثلث الأول من القرن الرابع غلب بنو بويه على العراق واستبدوا بأمر الخلافة وصار الخليفة آلة فى يدهم وكانوا شيعة وأصلهم من الديلم و بقيت دولتهم الى سنة ٤٤٧ ولكن لم يغلب بواسطتهم التشيع على بلاد العجم ولا على بلاد العراق . وما غلب التشيع على الأقطار الايرانية وصار مذهب الدولة الرسمى الا فى أيام الملوك الصفوية فى أواخر القرن التاسع كما ذكر المحبى وجودت باشا وغيرهما من المؤرخين

أما التشيع فى جبل عامل وأطراف جبل لبنان من بلاد الشام فلا تزال الأدلة تقوم على كونه فيها من لدن الفتح. وقد يأتى التاريخ فى أثناء سرد الحوادث وتأتى كتب السير والتراجم بما ينبئ عن استتبابه فيها منذ ظهوره الى الآن . من ذلك ماورد فى طبقات الشافعية للعلامة السبكى فى ترجمة الفقيه أبى الفتح نصر بن ابراهيم المقدسى المعروف بابن أبى

حافظ وهو قوله تفقه على الفقيه سليم [١] ثم دخل الى ديار بكر وتفقه على محمد بن بيان الكازرونى ودرس العلم ببيت المقدس مدة ثم انتقل الى صور وأقام بها عشر سنين ينشر العلم مع كثرة المخالفين له من الرافضة . ثم ذكر وفاته فى سنة ٤٩٠ بدمشق .

وقال ياقوت الحموى عند ذكر الكرك : قرية فى أصل جبل لبنان وليس هو القلعة التى يقال لها الكَرَك بفتح الراء ونسب اليها أبا الرضا الكركى . وقال كان ثقة فى الحديث ، متقناً لما يكتبه الا أنه كان رافضياً مات سادس عشر ذى الحجة سنة ٥٦٢

كذلك فى رحلة ابن بطوطه فى القرن الثامن مايدل على وجود الشيعة فى هذه الأماكن [٢] ومن هنا استدللنا على كون التشيع معروفا فى جبال الشام من أيام أمير المؤمنين على كرّم الله وجهه الى يومنا هذا فلا يسبق الشام فى هذا المعنى قطر الا الحجاز ولا يساويها فيه الا الكوفة

* * *

وكتب الاستاذ الشيخ احمد رضا فى خطط الشام المجلد ٦ ص ٢٥١ بعنوان (الشيعة) (بلا توقيع) نفى به ماقاله بعض الكتاب من أصل مذهبهم من بدعة عبد الله بن سبا وتبسط قليلا فى الدليل على وجودهم فى زمن على عليه السلام فى جبل عامل

ومما جاء به ماورد فى كتاب الروضة والفضائل لشاذان بن جبرائيل القمى رواية مسندة الى عمار بن ياسر وزيد بن ارقم تدل على أنه كان زمن خلافة على عليه السلام قرية فى الشام عند جبل الثلج تسمى « أسعار » أهلها من الشيعة . وأسعار هذه خرابة بين مجدل شمس وجبانا الزيت. وهناك نهر يعرف بنهر أسعار وهى على طريق القادم من الشام الى جبل عامل.

وذكرت منازل الشيعة فى بر الشام . ثم معتقدات الشيعة وما خالفوا فيه أهل السنة أو خالفهم فيه أهل السنة .

---

(١) يريد سليما الرازى الشهير بصور

(٢) (المقتطف) وقد ورد ذكر الشيعة فى رحلة ابن جبير وكان فى دمشق سنة ٥٨٠ للهجرة قال : « وللشيعة فى هذه البلاد أمور عجيبة وهم أكثر من السنيين بها وقد عموا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى منهم الرافضة وهم السبابون ومنهم الامامية والزيدية وهم يقولون بالتفضيل خاصة ومنهم الاسماعيلية والنصيرية وهم كفرة فانهم يزعمون الالهية لعلى رضى الله عنه ومنهم الغرابية وهم يقولون ان علياً رضى الله عنه كان أشبه بالنبى صلى الله عليه وسلم من الغراب بالغراب»

ترجمة القرآن الى غير العربية

على ذ ـر المؤلف الترك وعلاقتهم بالاسلام والحضارة الاسلامية

للامير شكيب

- الترجة الى التركية
- قصة محمود بن سبكتكين .
- فتوى الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصريه .
- مقال الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر سابقا .
- ما لجواز الصلاة بالترجة من التأثير فى الأمم الاسلامية غير العربية .
- مقابلة بين العربية للمسلمين واللاتينية للامم الكاثوليكية

ثم فى سنة تجديد طبع هذا الكتاب أى سنة ١٩٣٢ مسيحية بدأوا يجربون اقامة الصلاة نفسها باللغة التركية ، ويقرأون القرآن بالتركية مترجماً وقد أحدثت هذه المسئلة ضوضاء فى تركيا وفى العالم الاسلامى كما لا يخفى . ورأى الأتراك الجدد هو أن الأتراك لا يقدرون أن يفهموا القرآن بالعربية فما صلاة انسان لا يفهم ما يتلو ؟ ورأى الأتراك المحافظين وسائر المسلمين هو أنه لا بأس فى ترجمة القرآن الى التركية ، وتفسيره بالتركية ، ليفهمه الترك الا أنه لا بد من الصلاة به فى أصله العربى ، وذلك لأن الترجمة قد تنحرف بالكلام الالهى عن معناه الأصلى ، ولأن الترجمة تفقد الأصل كثيراً من فصاحته و بلاغته ، وعلى كل حال يرى هؤلاء أن الصلاة بالقرآن مترجما الى التركية بدعة سيئة . وأنصار الصلاة بالقرآن المترجم يحتجون على جوازها برأى الامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه . ومن الناس من يقول : ان أبا حنيفة كان أجاز الصلاة بقرآن مترجم ، الا أنه رجع عن رأيه هذا فيما بعد .

ولقد نقل ابن خلكان فى وفيات الأعيان قصة جرت أمام السلطان محمود بن سبكتكين وهو أنه جمع العلماء بين يديه فى مدينة مرو وانتدبهم للمقابلة بين مذهبي أبى حنيفه والشافعى فقرّروا أن يصلى أحدهم ركعتين على مذهب أبى حنيفة ، وآخر ركعتين على مذهب الشافعى لينظر السلطان فيهما ويختار فصلّى القفّال المروزى صلاة الشافعى بالطهارة المسبغة ، وأتى بالأركان والهيئات والسنن والآداب الخ وقال : هذه صلاة لا يجوّز الشافعى غيرها . ثم صلى صلاة الحنفية وتساهل فى الطهارة واللبس والنية والاتيان بالاركان والهيئات الى غير ذلك مما حكاه ابن خلكان ، نقلاً عن امام الحرمين أبى المعالى الجوينى ، ومن جملة ذلك أنه قرأ آية من القرآن بالفارسية « دوبركك سبز » ثم قال : هذه صلاة أبى حنيفة . فأنكر علماء الحنفية أن تكون هذه صلاة أبى حنيفة ، فطلب القفّال احضار كتب أبى حنيفة فأُحضرت وقرئ ما يتعلق منها بالصلاة فوجد طبق ما فعل القفّال فأعرض السلطان عن مذهب أبى حنيفة وتمسك بمذهب الشافعى رضى الله عنهما . وهذه الرواية التى رواها ابن خلكان فيها نظر من جملة وجوه ، الاول ان كل من قرأ « وفيات الأعيان » من أوله الى آخره يلحظ عند ابن خلكان تحاملاً ظاهراً على أبى حنيفة ، والحنفية ، وتعصباً شديداً للشافعية الثانى أن امام الحرمين ، والقفّال المروزى ، كلاهما أيضاً شافعى يريد اظهار مزية مذهبه ، الثالث أننا لا نعتقد جواز صلاة الحنفية على الوجه الذى زعمه القفال الا فى حال الضرورة . وليس هذا بقادح فى المذهب الحنفى اذ كان الاسلام كله يراعى الضرورات ويقدّرها بقدرها ، ولذلك جاء فى الحديث « انما بعثت بالحنيفية السمحة » . بقى أن ترجمة القرآن الى الألسن الأخرى لا خلاف فى جوازها عند الحنفية . أما الصلاة بالترجمة فلو كان هذا الرأى هو المعول عليه فى المذهب الحنفى لكان الأتراك منذ ألف سنة أى منذ اسلامهم يصلون بالتركية وليس الحال كذلك ولقد بلغنا أن مشيخة الأزهر بمصر ألفت لجنة خاصة بموضوع ترجمة القرآن للبحث فيه واصدار القرار الذى تطمئن به خواطر المسلمين فى هذا الشان وسنرى ما يكون من هذه اللجنة . أما « دو بركك سبز » فهى ترجمة ورقتين خضراوين أى قوله تعالى (مدهامتان)

وأما الترجمة التى أخرجوها بالتركية للقرآن الكريم فلا يكاد التركى نفسه يقرأها لا لركاكتها فى نفسها بل لركاكتها فى جانب الأصل

***

ولما كانت مسالة ترجة القرآن قد أخذت دوراً عظيما فى هـذه الأيام ، وكان الامر جداً ليس بهزل ، أحببنا أن لا يخلو هذا الكتاب من خلاصة أثيرة فى هـذا الموضوع . فاباحة ترجـة القرآن والصلاة بالترجة يتولد عنهـا محاذير كثيرة ، لان القرآن ينبغى أشد المحافظة على أصـله ، وهو قد نزل بلسان عربى مبين ، ولا يمكن فهم حقيقة اعجازه وخوارق فصاحته و بلاغته الا باللسان العربى الذى نزل به ، فاذا تعاورت الايدى كتاب الله بالترجة مع ما فيها من الوعورة ومن تعذر تطبيقها على الأصل ومن اختلاف مناهج البيان بين اللغات لم يخـل الأمر من وقوع تحريف فى كتاب الله . كما أن تحريم الترجـة البات ومنع الصلاة بهـا حتى للعاجز ، يكونان من العقبات فى وجه انتشار الاسلام الذى أربعة أخماس أتباعه وربما أكثر من ذلك هم من الأمم الأعجمية ، فكانت الحكمة تقضى بالتوسط بين الأمرين ، وهـذا ما فعله الامام الاعظم أبو حنيفة رضى الله عنه . نعم انه فى أول الامر قد أفرط فى التوسيع والرخصة وعلى ما يظهر أجاز الصلاة بالترجة حتى لغير العاجز ولـكنه عاد فيما بعد الى رأى صاحبيه أبى يوسف ومحمد ، وهو منع الصلاة بالترجة على القادر الذى يمكنه أن يتلو ما تيسر من القرآن نفسه واجازة ذلك للعاجز .

ومن حيث انه قد سبق هذا البحث منذ بضع سنوات وصدرت فيه فتوى للاستاذ العلامة الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية فلا بأس من أن نوردهنا خلاصة هذه الفتوى فقد نقل الاستاذ بخيت ما قيل فى قضية ارشاد المسلمين لاهل الكتاب ، وتعليمهم القرآن ، فقال ان أبا حنيفـة يرى جواز تعليم الحربىّ والذمىّ القرآن والفقـه رجاء أن يرغبوا فى الاسلام . وقد أخذ أبو حنيفة هذا من قوله تعالى « وَانْ أَحَدٌ مِنَ المشْرِكينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتى يَسمَعَ كَلاَمَ اللهِ » ومن أنه رُوى كون النبى ﷺ مر على ابن أبىّ ، قبل أن يُسلم ، وفى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين فقرأ عليهم القرآن . وأما الامام مالك فمنع تعليم القرآن غير المسلمين . وأما الامام الشافعى فله فى المسئلة قولان . ويظهر أن الشافعى يجيز تعليم القرآن لمن يُرْجى منه الرغبـة فى الاسلام ويمنعه اذا حصل الظن بأن المقصود منه هو الطعن فى الدين

والذى يظهر من كلام الشيخ بخيت لا مجرد ترجيح الجواز لترجـة القرآن فقط بل

الحثّ على ترجمة كتاب الله ترجمة صحيحة ، تفاديا من التحريف والتشويه اللذيْن يتعمدها أعداء الاسلام ، وعلماً بأن كثيرين من الملل الأخرى يتشوقون الى الاطلاع على حقيقة القرآن ، وهذه التراجم الفاسدة المنتشرة فى أوربا تضلل عليهم الطريق التى بها يتصلون الى الحق . ويقول الشيخ بخيت ان ترجمة القرآن للتعليم والتفهيم والتعلم والتفهّم والانذار والتبليغ قد أجازه الحنفية والحنابلة وأجازه الشافعى فى قول بلا تفصيل ولكن منعه مالك . وأما اعتياد قراءة القرآن بغير العربية التى نزل بها ، أو كتابة المصحف بلغة أخرى غير العربية ، أو بالعربية مخالفة لخط المصحف العثمانى ، فهذا ممنوع أشد المنع اتفق الأئمة فى ذلك . وقضية ألفاظ القرآن وكتابته وترتيب سوره وآياته انما تؤخذ بطريق النقل عن الشارع ، أما الصلاة بترجمة القرآن ، فان كان قادراً على أن يتلو شيئاً منه لم يجز له أن يقرأ بالترجمة ، وأما ان كان عاجزاً عن قراءة أى شىء منه بأصله جازت الصلاة بالترجمة . وهذا الجواز للعاجز فى قول الحنفية فقط . أما عند غيرهم فلا يجوز مطلقاً . ولا يسقط فرض الصلاة عن المكلف اذا أقامها بالترجمة

أما الاستاذ الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الازهر سابقا فقد نشر فى هذه الايام مقالاً طويلاً استقصى فيه هذه القضية ، ونقل عن شمس الأئمة السرخسى هذه العبارة : وأصل هذه المسئلة اذا قرأ فى صلاته بالفارسية جاز عند أبى حنيفة رحمه الله ويُكرَه ، عندهما أى عند الصاحبيْن لا يجوز اذا كان يُحسن العربية . واذا كان لا يُحسنها يجوز . وأبو يوسف ومحمد رحمهما الله قالا : القرآن مُعجز والاعجاز فى النظم والمعنى . فاذا قدر عليهما فلا يَتأدى الواجب الا بهما ، واذا عجز عن النظم أتى بما قدر عليه ، كمن عجز عن الركوع والسجود يصلّى بالايماء ، وأبو حنيفة رحمه الله استدل بما رُوى أن الفرس كتبوا الى سلمان الفارسى رضى الله عنه أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية ، فكانوا يقرأون ذلك فى صلاتهم حتى لانتْ ألسنتُهم للعربية

ونقل الشيخ المراغى عن شرح الكنز للزيلعى هذه العبارة : وأما القراءة بالفارسية فجائزة فى قول أبى حنيفة . وقال أبو يوسف ومحمد لا تجوز اذا كان يحسن العربية لان القرآن اسم لمنظوم عربى لقوله تعالى : (انَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنا عَرَبِيًّا) . وقال تعالى : (انَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا) والمراد نظمه ، ولأبى حنيفة قولُه تعالى : (انَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ

الأُولَى صُحُفِ ابْرَاهِيمَ وَمُوسَىَ) وصحف ابراهيم كانت بالسريانيـة ، وصحف موسى كانت بالعبرانية فدلّ على كون ذلك قرآناً : الى أن يقول : و يجوز بأى لسان كان وهو الصحيح لأن المُنزَل وهو المعنى عنـده لا يختلف باختلاف اللغات . والصحيح ان القرآن هو النظم والمعنى جيعاً لانه معجزة للنبىّ ﷺ ، والاعجاز وقع بهما جميعا الا أنه لم يجعل النظم رُكناً لازماً فى حق جواز الصلاة خاصة رُخصة ، لأنها ليست بحالة الاعجاز . وسُـئل عمر النسفى عمن لا يحسن الفاتحة بالعربية ويقدر على التكلم بالفارسية أو لغة أخرى يتأدى بها معنى القرآن ، هل يكلَّف تعلم تلك اللغة غير العربية فقال نعم ، لان تعلم القرآن فرض لاقامة الصلاة . ومذهب أبى حنيفة أن القرآن لا يختص بالنظم العربىّ فى قوله الأول الذى رجع عنه فيُفرَض عليه تحصيل ذلك كما يفرض عليـه تعلم القرآن بالنظم العربى لمن قدر عليه . وعندهما (أى عند الصاحبيْن) تجوز قراءة القرآن بغير العربية اذا كان لا يحسن العربية فقد وافقاه أى ان الصاحبين وافقا أبا حنيفة فى أنه يصير قرآنا عند العجز عن أدائه فيُفرض ذلك عليه بالاجماع فى هذه الحال

نقل المراغى أن الحبيب العجمى صاحب الحسن البصرى قـدس الله سرهما كان فى الصلاة يقرأ القرآن بالفارسية لعدم انطلاق لسانه بالعربيـة . ونقل أيضاً عن أبى حنيفة فى الرجل يفتتح الصلاة بالفارسية أو يقرأ بالفارسـية أو يذبح و يُسمّى بالفارسـية وهو يحسن العربية قال الامام : يجزئه فى ذلك كله .

وقال أبو يوسف ومحمـد : لا يجزئه فى ذلك كله الا فى الذبيحة ، وان كان لا يحسن العربية أجزأه . قال الصدر الشهيد فى شرحه على الجامع الصغير لمحمد بن الحسن . وهذا تنصيص على أن من يقرأ القرآن بالفارسـية لا تفسد الصلاة بالاجماع ، ونقل عن معراج الدراية ان ترجمة القرآن تسمى قرآناً مجازاً ، فيقال ليس ذلك بقرآن وانما هو ترجمة . قال : وانما جوّزناه للعاجز اذا لم يُخل بالمعنى لانه قرآن من وجه ، باعتبار اشتماله على المعنى فالاتيان به أولى من الترْك اذ التكاليف بحسب الوسع وهو نظير الايماء .

والشيخ مصطفى المراغى يرى فيما يظهر فى هذه المسئلة رأى الصاحبين أى جواز الصلاة بترجمـة القرآن للعاجز قياساً على جوازها بالايمـاء لمن عجز عن القيام . ولـكن الشيخ المراغى لا يقطع بكون أبى حنيفة رجع عن رأيه الأول اذ يقول ان رواية الرجوع رواها أبو

« م ١٤ — اول »

بكر الرازى مرة ، ورواها نوح بن مريم وعلى بن الجعد ، وقد أُغفلت مرة واحدة فى كتاب الامام محمد . وأُغفلت أيضاً فى شرح المبسوط للسرخسى وفى كتب قاضيخان

والشيخ المراغى لا يريد بهذا ترجيح عدم رجوع أبى حنيفة ولكنه يقصد أن رجوع أبى حنيفة الى رأى صاحبيه لم تتفق فيه الروايات . قال : فاذا نظرنا الى ذلك نراهم ، أى علماء الحنفية ، متفقين على أن التكليف بالوسع ، وأن الترجمة للعاجز هى التى فى وسعه ، وانها خلف عن النص العربى يقام مقامه عند العجز كما يقام الايماء عند العجز مقام الركوع والسجود ، ولم نعهد فى التشريع ان المكلف مخير فى الخلف . بل الذى عهدناه أن الخلف يأخذ حكم الأصل ويحل محله . واذا تأملت قولهم : ان المعنى لا يختلف باختلاف اللغات تراهم يريدون أن لا تخلو الصلاة من القرآن اما بلفظه ومعناه واما بمعناه فقط فهم حريصون على أن تكون المناجاة لله بكلامه أو بمعنى كلامه وهم حريصون على تحصيل المقاصد ، وجعل الصلاة صورة حية مملوءة بالشعور بجلال الخالق وعظمته ، وفى معانى القرآن الكريم من العظات والعبر ما يملأ القلب روعة ورهبة وخشية ، وبركتها لا يمكن أن تذهب بنقلها الى لغة أخرى والمناجاة بالمعانى خير وأبقى من وقوف المكلف صامتاً .

ثم أورد الاستاذ المراغى عدداً من الآى الكريمة وقال انه لا يتردد لحظة واحدة عن القول بان جمال معانى هذه الآيات لا يمكن أن يفارقها فى اللغات الاخرى ، نعم قد تضيع روعة هذه الألفاظ ، ولكن تبقى روعة المعانى والمناجاة محتاجة الى هذه الروعة ، ولا يسع منصفاً الا الاعجاب بآراء فقهاء الحنفية فى هذه المسئلة ولله هم حيث قالوا : ان الصلاة حالة مناجاة لا حالة اعجاز وللعالم الاسلامى الحق فى أن يفخر باولئك العلماء الذين استنبطوا هذه القواعد وهذه المدارك الدقيقة . وفى الحق ان فقهاء الحنفية هم الملجأ دائماً فى حل المعضلات الاجتماعية ولا نستطيع أن نفيهم حقهم من الثناء

واعترض الاستاذ المراغى على من قال بعدم جواز الصلاة بالترجمة بناء على أن الترجمة ليست قرآناً وان ما كان كذلك كان من كلام الناس . قال المراغى : وهو غير صحيح ، لان الترجمة وان كانت غير قرآن بالاتفاق ، تحمل معانى كلام الله ، ومعانى كلام الله ليست كلام الناس ، وعجيب أن تسلب من معانى القرآن صفاتها ، وجمالها ، وتوصف بأنها من جنس كلام الناس بمجرد أن تلبس ثوباً آخر غير الثوب العربى كأن هذا الثوب هو كل شئ .

ونحن نوافق الشيخ المراغى فى أن الصلاة بالترجمة للعاجز خير من السكوت ، ومن عدم تلاوة شئ لا من الأصل ولا من المعنى . ولكننا نخشى من أنه اذا فتح هذا الباب على مصراعيه ، كثر العدول عن أصل القرآن الى الترجمة لما فى ذلك من السهولة على الأعاجم . ويؤيدُ ذلك الشعوبيةَ ممن يكرهون العرب لمآرب سياسية ، فينتهى الأمر أخيراً بعدول مئات ملايين من المسلمين عن الصلاة بالقرآن الأصلى الى الصلاة بتراجم مهما بالغ المترجمون فى تحريرها والتدقيق بها ، فلن تكون شيئاً بالنسبة الى الأصل.

وقول الاستاذ المراغى ان للمعانى روعة لا يسلبها اياها اختلاف الالفاظ ، نُجيب عليه بأن روعة المعانى لا يبقى منها الا القليل اذا لم تُلْبَس القوالب اللائقة بها . وقد أجمع أرباب البيان فى الشرق والغرب على أن النقل من لغة الى أخرى يذهب بأكثر فصاحة اللغة المنقول منها لا سيما اذا كانت الترجمة حرفية . فاصرار القائلين بعدم جواز ترجمة القرآن مبنى على خوفهم من تعدد القرآن وعلى مايلحظون من دخول السياسة فى هذا الموضوع أى ان أقواماً أرادوا الابتعاد عن الاسلام من أصله ، فعجزوا عن ذلك لتمكن الاسلام فى صدور الأمم التى يديرون هم شئونها ، فرجعوا الى أسلوب آخر وهو ترجمة القرآن والصلاة بالترجمة لتكون لهم الخطوة الأولى فى الابتعاد عن العرب وعن الاسلام معاً .

وربما كان الاستاذ المراغى لا يعلم من هذا الأمر كل مانعلمه نحن ، فهذه المسئلة ليست بحديثة ، ولقد بدأت المناقشة فيها بين رجالات الاتراك فى أيام الحرب العامة . وكان منهم نفرٌ جاهَر بوجوب التفصى من الاسلام من أصله ، فاقام الآخرون عليهم النكير ، و بينوا لهم استحالة هذا الأمر وأن التشبث به يفضى الى ثورة تأتى على الحرث والنسل ، لان الاتراك لا يرضون بالاسلام بدلاً . فعند ذلك قال اولئك الملاحدة الذين كانوا يريدون القضاء على الاسلام : اذا كان لا بد من أن نبقى مسلمين . فليَكُنْ اسلامُنا تُركيًّا . ولترفع منه كلُّ مافيه رائحة عربية

وكان رأس القائلين بهذه المقالة الفاسدة ضياء كُوكْ آلْب المفكر المنهور عندهم الذى توفى بعد الحرب واللهُ المستعان ، وقد بقيت هذه الافكار تعمل فى تركيا الى أن انتهت الحرب ، ثم الى أن تأسست أنقرة وأخذت بالسياسة اللادينية المحضة التى يكون من العبث محاولة تغطيتها والمكابرة فيها — كما يفعلُ بعضهم — فكان من جملة ماقامت به الفئة الكمالية من الأعمال الرامية الى ابعاد الترك عن الدين الاسلامى والثقافة العربية ، السعى

بترجمة القرآن الى التركية واجازة الصلاة بها . وهمْ لا يقيدون هذا الجواز بالعجز ، بل يريدون أن يجعلوه عاما للقادر والعاجز معاً حتى يصير هو القاعدة ، وربما ينقلب الى الضد اذا طالت أيام الملاحدة فى أنقرة فتصير الصلاة بالقرآن الاصلى ممنوعة ، وربما يعاقب حينئذ عليها كما يمنعون الآن عرب ولاية اطنه من التكلّم بالعربية والكتابة بها . ولنا شواهد على ذلك منع حكومة أنقرة الحج ، وهو من أركان الاسلام ، والغاؤهم الشريعة الاسلامية بأسرها فى المعاملات، واقامتهم الأمة التركية على القانون السويسرى المدنى. فمن يفعل هذه يفعل تلك ولا يبعد عنه شئ . واذا جازت عادة الصلاة بالتركية فى الاناضول عمت جميع الأمم التى لا تتكلم بالعربيـة ، كسامى أوربا من أرناءوط و بشناق وأتراك وتتر ، ثم صارت الى العجم والى الهند والصين والجاوه. ولو كانت قضية الصلاة بالترجمة هى بتلك الدرجة من السهولة عند علماء الحنفية الذين لم يكونوا يجهلون رأى الامام الاعظم وصاحبيه ، لكانوا أجازوا الصلاة بالتركية من قديم الزمان ، والحال انهم لم يكونوا يصلون الا بأصل القرآن ولا يزالون كذلك .وكانوا يرون أن الانسان مهما بلغت به الأمية والسذاجة فلا يعجز عن حفظ بعض آيات يلقنه اياها والداه أو شيخ محلته أو رجل من اخوانه .

و بالاختصار فنحن على رأى أبى يوسف ومحمد الذى رجع اليه أبو حيفة من جواز الصلاة بالترجمة للعاجز ، لكن بعد أن يتحقق عجزه التام عن حفظ شيء من القرآن وهو مع ذلك مكلف أن يتعلم شيئاً منه يقيم به صلاته ولكننّا لانرى التوسع فى الجواز لما نخشى فيه من انقلاب المسئلة الى دسيسة سياسية قومية يتسع خرقُها باسم المذهب الحنفى ، ونرى أن الأولى باخواننا الترك أن يستمروا على ما كانوا عليه الى الآن من أمر الصلاة بالعربية ، وأما اذا كانوا يريدون فهم معانى القرآن وهو أمر لازم فيقدرون أن يترجوه وأن يترجوا تفاسيره الكثيرة فيفهموا من معانيه مايستعجم عليهم . وهانحن أولاء نرى الأمم الكاثوليكية ومنها أمم راقية فى سلم المدنية ، وراقية جداً ، مثل الفرنسيس والبلجيك والنمسويين ، وما يزيد على الثلث من الألمان ، ونحو من الربع من الهولانديين ، ثم امة المجر ، وأمة التشيك ، والبولونيين ، ثم الايرلانديين ، ثم الامة الايطالية ، والامة الاسبانيولية ، والامة البرتغالية ، وجميع سكان أميركا الجنوبية ، وأهل أميركا الوسطى ، وخمسة وعشرين مليوناً من أميركا الشمالية ، وجميع هذه الأمم تقيم شعائرها الدينية الكاثوليكية باللغة اللاتينية ، بدون أن تفهمها ولا يفهمها من كل أمة منها الا نزر لايُذكر، وانما يفسرون لهم مايريدون

فهمه من الشعيرة الدينية من اللاتيني الى ألسنتهم ، اذن هذه سبيل ليس الاسلام فيه بأوحد ، فكما ان اللغة اللاتينية هي لغة دينية لثلاثمائة وخمسين الى أربعمائة مليون مسيحي كاثوليكي فاللغة العربية هي اللغة الدينية ويجب أن تبقى اللغة الدينية لثلاثمائة وخمسين الى أربعمائة مليون مسلم . بل العربية أولى بهذا التخصص لأن كتاب الاسلام السماوي انما نزل بها ، ولم يكن كتاب النصارى السماوي قد كُتب باللاتينية من أصله ، بل اللاتينية هي لغة الكنيسة الرومانية ، قد ترجموا الانجيل اليها من اللغات السامية . ثم ان العربية هي لغة حية يتكلم بها نحو سبعين مليوناً من البشر ، واللاتينية لم يبق واحد في الدنيا يتكلم بها بل صارت من قبيل الآثار التاريخية .

ثم أورد الاستاذ المراغي أقوالاً عن الصدر الشهيد ، وعن شارح الهداية وعن الزيلعي ، وعن أبي يوسف ما يُستظهَر به على جواز قراءة شيء من ترجمة القرآن بعد تلاوة الفرض من النص العربي ، وقال ان هذه النصوص صريحة ، لاتحتمل التأويل ، دالة على جواز ضمّ الترجمة الى النصّ العربي ، المفروض للقادر على العربية ، ولكنه أورد نصوصاً أُخرى على عدم جواز قراءة الترجمة مع الأصل ، ويظهر أنه وقع خلاف بين الفقهاء في ذلك ، وقد رجّح صاحبُ الفتح فساد الصلاة التي تكون بهذه الصفة اذا كان المقروء من الترجمة قصةً أو أمراً أو نهيا وقال بالجواز اذا كان المقرُوء ذكراً أو تنزيهاً ، والاستاذ المراغي يرى رأي صاحب الفتح هذا اذا لم يكن هُناك عُذر من عدم احسان النطق بالعربية .

وأما الترجمة من حيث هي فاننا نوافق الشيخ المراغي والشيخ بخيت وغيرهما ممن أجازوها استناداً على أقوال العلماء والأئمة والسلف الى سلمان الفارسي ، ونقول مع الشيخ المراغي انه قد استفاد من ترجمة القرآن كثيرون من العلماء الذين لم يكونوا يدينون بالدين الاسلامي ، فبعضهم آمن به وخرج من الظلمات الى النور ، وبعضهم لم يصل الى تلك الدرجة لكنه غيَّر رأيه في الدين الاسلامي وفي النبي ﷺ ، ووضع الاسلام موضع الكرامة وبحث فيه البحث اللائق بجلاله . قال : وأظنني أعبث اذا شرعت أُبين الفوائد التي تعود على الاسلام نفسه من اظهاره ونشره على الأمم المحتضرة ، بلغاتها ، ولكن يجب أن تُراقَب تلك التراجم . قلنا : في عصر كالعصر الذي نحن فيه لايختلف في هذه المسئلة اثنان .

محاصرات العرب للقسطنطينية

على ذكر المؤلف تهديد الترك للقسطنطينية قبل فتحها

للأمير شكيب

ان العرب منذ فتحوا الشام فكّروا فى فتح القسطنطينية لأنها كانت لذلك العهد عاصمة النصرانية ، وكان الاسلام لو فتحها تغلب على شمالى اوربة بلا نزاع . ومن الأحاديث النبوية المروية :«لتفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش» وهذا الحديث على ضعفه متداول بين الناس . ويقال انه مذكور فى الجامع الصغير للسيوطى . وهو منقوش على الحجر فى جامع آيا صوفيا باسطامبول . وكيف كان الأمر فالمسلمون تنبهوا من بدء الاسلام لأهمية القسطنطينية ، وسنة ٦٥٣ جهز العرب اسطولا عظيما فى ميناء طرابلس الشام ، عقدوا له لبسر بن أبى أرطاة لأجل غزو القسطنطينية . فتلاقى هذا الأسطول بأسطول الروم وهزمه . الا أن الاسطول العربى فى هذه الغزاة لم يبلغ القسطنطينية . وفى سنة ٤٤ للهجرة وفق ٦٦٤ للمسيح غزا الاسطول العربى القسطنطينية بقيادة بسر بن أبى أرطاة المذكور ، ووصل اليها كما رواه الطبرى . ثم ان فضالة بن عبيد غزا خلقيدونية — ماجاور البوسفور من آسيا الصغرى — حيث وافاه يزيد بن معاوية ، وقد جعل المؤرخ تيوفان هذه الغزاة فى سنة ٦٦٦ للمسيح ولكن الياس النزّبى قال : ان السنة التى حاصر فيها يزيد بن معاوية القسطنطينية كانت سنة ٥١ للهجرة وفق سنة ٦٧٢ مسيحية . وقد جاءها يزيد برّا ، وكان بسر بن أبى أرطاة ماسكاً البحر، وقد انتشرت السفن الحربية العربية على طول ساحل بحر مرمرة ، وهاجم العرب القسطنطينية بين شهرى ابريل وسبتمبر ، ولم يتمكنوا من فتحها فلما جاء الشتاء انكمشوا الى جهة « قيزيقيا » فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى . وفى الربيع عاودوا حصار تلك العاصمة ، ويقال انهم لم ينصرفوا عن القسطنطينية الا بعد حروب استمرت سبع سنوات ، وكان أعظم عامل فى فشلهم النار الاغريقية التى أحرقت جانباً من الاسطول كما ان جانباً آخر منه غرق فى أثناء الرجوع .

وليس عندنا كل التفاصيل اللازمة عما جرى من الوقائع فى هذه السنوات السبع. والمرجّح ان الجيش العربى الذى جاء من البرّ بدأ بالحصار سنة ٦٦٧ وأن الاسطول أقلع عن القسطنطينية سنة ٦٧٣ ومؤرخو العرب يجعلون غزاة القسطنطينية هذه من سنة ٤٨ الى سنة ٥٢ للهجرة ومنهم من يمدّ ذلك الى سنة ٥٥ ويقولون ان أبا أيوب الانصارى رضى الله عنه توفى فى حصار القسطنطينية سنة ٥٠ ومنهم من يقول سنة ٥١ ومنهم من يقول ٥٢ والذى فى الطبقات الكبرى لابن سعد انه توفى سنة ٥٢ وهو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد ابن عوف من بلحارث بن الخزرج شهد بدراً ، وأُحُداً ، والخندق ، والمشاهدَ كلها مع رسول الله ﷺ وخرج غازياً فى زمان معاوية . قال فى الطبقات : فمرض فلما ثقل قال لأصحابه ان أنا متّ فاحملونى ، فاذا صافقتم العدوّ فادفنونى تحت أقدامكم ، وسأحدثكم بحديث سمعتُه من رسول الله ﷺ لولا ماحضرنى لم أُحدثكم سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة . قال ابن سعد : ولما مرض أتاه يزيد بن معاوية يعودُه فقال : حاجتك ؟ قال : نعم ، حاجتى اذا أنا متّ فاركب بى ثم سُغ بى فى أرض العدو ماوجدت مَساغا ، فاذا لم تجد مساغاً فادفنى ثم ارجع . فلما مات ركب به ثم سار به فى أرض العدو وما وجد مساغاً ثم دفنه ثم رجع . قال ابن سعد أخبرنا عمرو بن عاصم قال أخبرنا همام عن عاصم بن بهدلة عن رجل من أهل مكة ، ان أبا أيوب قال ليزيد بن معاوية حين دخل عليه : أقرئ الناس منى السلام ولينطلقوا بى فليبعدوا ما استطاعوا . قال فحدث يزيد الناس بما قال أبو أيوب ، فاستسلم الناس فانطلقوا بجنازته ما استطاعوا قال محمد بن عمر : وتوفى أبو أيوب عام غزا يزيد بن معاوية القسطنطينية فى خلافة أبيه معاوية سنة ٥٢ وصلى عليه يزيد بن معاوية ، وقبره بأصل حصن القسطنطينية بأرض الرّوم فلقد بلغنى ان الروم يتعاهدون قبره ويرمّونه ويستسقون به اذا قحطوا انتهى ماجاء فى الطبقات .

ثم ان الأتراك عند مافتحوا القسطنطينية سنة ١٤٥٣ بقيادة السلطان محمد الفاتح عثروا على قبر أبى أيوب الأنصارى و بنوا عليه قبة وجعلوا عنده جامعاً وجاء فى الانسيكلوبيدية الاسلامية ان ابن قتيبة هو أول من ذكر قبر أبى أيوب. قلت كانت وفاة ابن قتيبة فى ذى القعدة سنة بسبعين ومائتين وقيل ست وسبعين ومائتين على مافى وفيات الأعيان . والحال ان وفاة محمد بن سعد صاحب الطبقات كانت يوم الأحد لأربع خلوْن من جمادى الآخرة سنة ثلاثين ومائتين أى قبل وفاة ابن قتيبة كما فى وفيات الأعيان أيضا . فيكون جزم أصحاب

الانسيكلو بيدية الاسلامية بأن ابن قتيبة هو أول من ذكر قبر أبى أيوب الانصارى هو بغير محله ، لأن ابن سعد سابق لابن قتيبة وأنت ترى انه قد ذكره ، وأما قضية كون الروم حفظوا قبره وكانوا يستسقون به فى القحط فقد جاء فى الانسيكلوبيدية المذكورة نقلها عن الطبرى وابن الأثير وابن الجوزى والقزوينى والحال انها مذكورة فى طبقات ابن سعد الذى تقدم فى الزمن هؤلاء جميعاً . وقد جاءت هذه القصة مع ترجمة أبى أيوب فى كتاب تركى للحاج عبد الله اسمه « الآثار الماجدية فى المناقب الخالدية » طبع استانبول سنة ١٢٥٧

وجاء فى الانسيكلو بيدية الاسلامية ان الهدنة بقيت بين العرب والرّوم نحواً من أربعين سنة الى أن تولى سليمان بن عبد الملك فاعمل فى غزو القسطنطينية وجرّد لها جيشاً كثيفا عقد عليه لأخيه مسلمة فجاءها من البرّ وجاء الأسطول العربىّ من البحر وكان الخليج المسمى بقرن الذهب مسدوداً بسلسلة حديدية ، فاستمر هذا الحصار سنة كاملة وكان ابتداؤه فى ٢٥ اغسطس سنة ٧١٦ وهذه المرة خاب العرب أيضا فيما قصدوا اليه وذلك بفقد الاقوات وبزحف البلغار من جهة الشمال مُناصرين للروم . وقد جاء ذكر هذه الغزاة فى تاريخ الطبرى وتاريخ ابن الأثير واستوفاها ابن مسكويه ويقال انه وجدت عين ماء اسمها عين مسلمة عند الدردنيل حيث كان الأمير مسلمة قد خيّم بعسكره ذكر ذلك المسعودى وابن خرذادبه وقيل ان مسلمة بنى جامعا فى ذلك المكان . وذكر ابن قتيبة ان رجلا اسمه عبدالله بن الطيب سل سيفه وأثبته فى باب القسطنطينية.وهذا الرجل كان من أصحاب مسلمة. ولم ينصرف مسلمة من حصار القسطنطينية حتى اجبر أمبراطور الروم على التعهد ببناء بيت لأسرى العرب بجوار قصر الأمبراطور . وكذلك كان مسلمة هو البانى لأول جامع فى القسطنطينية نقل ذلك المقدسى وابن الأثير ويقال انه هو الذى بنى برج غلطه ، وروى « حاجى خليفة » فى تقويم التواريخ انه هو الذى بناه سنة ٩٧ للهجرة انتهى

قلت ذكر المسعودى فى مروج الذهب خليج القسطنطينية فقال انه يضيق عند المدينة فيصير عرضه نحواً من أربعة أميال وعليه العمائر وينتهى فى ضيقه الى الموضع المعروف بالاندلس (١) وهناك جبال ، وعين ماء كثير ماؤها موصوف تعرف بعين مسلمة بن عبد الملك . وكان نزوله عليها حين حاصر القسطنطينية وأتته مراكب المسلمين فى فم هذا

(١) هذا تحريف للفظة الدردنيل فيما يظهر لنا أوغلط طبع فى النسخة المطبوعة بالمطبعة الازهرية بمصر سنة ١٣٠٢

الخليج مما يلى بحر الشام . ومنتهى مصبّه مضيق (هو الدردنيل) وهناك برج يمنع من فيه من يرد من مراكب المسلمين فى الوقت الذى للمسلمين فيه مراكب تغزو الروم وأما الآن فمراكب الروم تغزو بلاد الاسلام ولله الأمر من قبل ومن بعد . انتهى كلام المسعودى وهو مما حرره سنة ٣٣٠ للهجرة . فكيف كان يقول لو عاش لهذا العصر ؟

ثم جاء فى الانسيكلو بيدية الاسلامية ان العرب حاصروا القسطنطينية فى زمن هرون الرشيد ووصل الجيش العربى الى اسكدار ، أى القسم الاسيوى من المدينة فاضطرت الامبراطورة « ايرانه » — والمسعودى يقول لها ارينى — التى كانت كافلة ابنها قسطنطين السادس لصغر سنه ان تطلب الصلح وتؤدى للخليفة الجزية . روى ذلك تيوفانوس ، والبلاذرى ، والطبرى ، وابن الأثير . وقال هؤلاء ان هذه الغزاة جرت سنة ١٦٥ للهجرة .

قلت ان البلاذرى يذكر ان المهدى أغزا ابنه هرون الرشيد الروم سنة ١٦٥ فنزل على الخليج . ثم نقلت الانسيكلو بيدية عن « اوليا » عن محيي الدين الجالى ان العرب حاصروا فى أيام المهدى والرشيد القسطنطينية أربع مرّات .

وأما الجامع المنسوب الى مسلمة بن عبد الملك فى القسطنطينية فلم يعرف مكانه . وقيل انه هدم فى أثناء فتنة ، وذلك سنة ١٢٠٠ مسيحية. وقيل ان الصليبيين انتهبوه سنة ١٢٠٣ وذكر ابن الأثير ان الأمبراطور قسطنطين « مونوماك » كان قد رمّم هذا الجامع بناء على رغبة طغرل بك السلجوقى وذلك سنة ٤٤١ ، وقال أبو الفداء انه سنة احدى وأربعين وأربعمائة أرسل ملك الروم الى السلطان طغرل بك هدية عظيمة وطلب منه المعاهدة فأجابه اليها وعمر مسجد القسطنطينية وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرل بك . اه .

وقال ابن خلكان فى الوفيات فى ترجمة السلطان طغرل بك : «ومن محاسنه المسطورة انه سير الشريف ناصر الدين بن اسمعيل رسولاً الى ملكة الروم وكانت على الروم اذ ذاك امرأة فاستأذنها فى الصلوات الخمس بجامع القسطنطينية وبالجماعة يوم الجمعة فأذنت له فى ذلك فصلى وخطب للامام القائم (العباسى) وكان رسول المستنصر العبيدى صاحب مصر حاضراً فأنكر ذلك وكان من أكبر الأسباب فى فساد الأحوال بين المصريين والروم »

وجاء فى الانسيكلو بيدية الاسلامية نقلاً عن المقريزى ان الأمبراطور ميخائيل « باليولوغ الثامن » بنى سنة ٦٦٠ للهجرة فى القسطنطينية جامعاً أهدى اليه الملك الظاهر بيبرس مفروشات نفيسة

فتح الترك للقسطنطينية

وخلاصة خططها

للامير شكيب

ومضى على حصار العرب للقسطنطينية واحتلالهم لضفاف البوسفور ستمائة سنة قبل أن حاصرها الاتراك لأول مرة لعهد بايزيد الأول العثمانى ، وذلك سنة ١٣٩٦ . وبينما كان بايزيد الاول ماسكا بخناقها بلغه قدوم جيش افرنسى مجرى تحت قيادة سجيسموند الأول ملك المجر لنجدة القسطنطينية فنهد اليهم بجيشه والتقى الجمعان فى نيقوبوليس من بلاد البلغار الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٣٩٦ فكانت الدبرة على الفرنسيس والمجر. واستؤصل جيشهم قتلا وأسراً . وقرأت فى بعض تواريخ الفرنسيس انه حصلت فى تلك البلدة معركتان احداها سنة ١٣٩٣ انهزم فيها سيجيسموند ملك المجر . والثانية سنة ١٣٩٦ انهزم فيها المجر والافرنسيس معاً . وعاد بايزيد الى التضييق على القسطنطينية الى أن ارتضى امبراطور الروم بشروط ابن عثمان ، وذلك سنة ١٤٠٠ وكان من جملة تلك الشروط التخلى عن حارة فى تلك العاصمة لتكون مسكناً للمسلمين ، والاذن فى بناء مسجد جامع ، ونصب قاضٍ شرعى لفصل دعاوى المسلمين . ولما جاء تمرلنك وتغلب على السلطان يلدرم بايزيد وأخذه أسيراً نشقت فروق نسيم الفرج الا أن ذلك لم يستمر الى الآخر بل سنة ١٤٢٢ جاء السلطان مراد الثانى وحاصر القسطنطينية وضيق عليها فلم يقدر له فتحها فارتضى بالصلح مع الامبراطور . وخلفه ابنه محمد الثانى فزحف اليها سنة ١٤٥٢ وبنى بجانبها حصن « روملى حصار » وبدأ الحصر فى ٩ ابريل سنة ١٤٥٣ وافتتحها فى ٢٩ مايو وكان أكثر الحاح الأتراك فى الهجوم من جهة البر بين باب طوبقبو وباب أدرنة

فان مدافعهم الثقيلة فتحت ثُلَماً تعذر على الروم سدّها . وكان خليج قرن الذهب مسدوداً بسلسلة حديدية فنقل الترك أسطولهم من جهة طوله بغجه وأصعدوه فى البر الى أكمة بك أوغلى وأنزلوه الى الساحل المسمى بقاسم باشا وأزلقوه على الشحم الى الخليج واستولوا عليه وكشف المولى آق شمس الدين قبر أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه . وانتهب الأتراك البلدة ثلاثة أيام ثم دخلها السلطان محمد الفاتح فى اليوم الرابع ، وارتفع النهب وعم السكون ، ونودى بالأمان ، وصلى السلطان الجمعة فى كنيسة أياصوفيا بعد أن حولها جامعا . وكان الجنويون فى غلطة ولهم فيها محلة خاصة بهم فتسلمها الأتراك منهم . وجاء تاريخ فتحها مصادفاً بحساب الجمل لآية « بلدة طيبة » أى (٨٥٣) وهى سنة فتحها بالحساب الهجرى . ولم يملك الاسلام فى الحقيقة بلدة أجلّ منها ، ولا خطّةً أهمّ موقعاً ، ولا مدينة أطيب نجعة . وقيل ان أجل مدن العالم منظراً اذا أقبل المسافر عليها ثلاث نابولى فى ايطالية ، وأشبونة عاصمة البرتغال ، والاستانة وهذه أجل الثلاث . وأما أهميتها الجغرافية والسياسية فلم تكن لبلدة أخرى فى المعمور واقعة بين البحرين الاسود والأبيض ، وواصلة بين البرّين آسية وأوربة أمامها بوغاز ووراءها بوغاز ومن ملكها فقد تبوّأ ملكا كبيراً وكرسيا عالياً منيفا ومن شرقيها البوسفور ومن غربيها بحر مرمرة المنتهى بمضيق الدرديل ، واذا تحصّن كل منهما كما يجب أصبح العبور منهما فى حكم المستحيل تقريباً . ولقد تمكن الأميرال الانكليزى [1] دوكفورت من اجتياز الدردنيل بغتةً ووصل الى الاستانة ولم يجرأ أن يهاجمها وقفل راجعاً ولكن حصون الدردنيل لم تكن وقتئذ فى المنعة التى صارت اليها فيما بعد . وقد ظهر أن فرنسة وانكلترة وجهتا فى الحرب العامة الى الدردنيل جيوشاً جرارة وأساطيل قلما اجتمعت فى حرب بحرية وانهما بذلتا لاختراق هذا المضيق من الجهود ما ندر مثله فى تاريخ الحروب وانتهى الأمر بأن الجيوش العثمانية دحرتهما الى الوراء واضطرتهما الى الرجوع والانقلاع أخيب ما كانتا ، بعد أن فقدتا بين قتيل وجريح وضائع ثلاثمائة وخمسة وعشرين ألف مقاتل [2]

---

(١) فى ٢٠ فبراير سنة ١٨٠٨

(٢) راجع الكتاب المؤلف على حرب الدردنيل التابع لسلسلة وثائق الحرب العامة بالافرنسية)

فالعرب فى صدر الاسلام لم تخف عنهم أهمية هـذه المواقع ولذلك زحفوا اليها عن أبعاد شاسعة ، وأعملوا فى غزوها قوات هائلة . ولما ملك آل عثمان بلاد الأناضول ثم اجتازوا البحر الى الروملى حصروها من البرين ، ولم يزالوا يعملون فى استخلاصها لأنفسهم الى أن قيض الله ذلك الفتح العظيم لمحمد الثانى ابن مراد ، وكان من أعاظم السلاطين تولى الملك فى حداثة سنه فى عهد أبيه وأصلى الأعداء المعارك الـكبرى ، مثل معركة قوصوه التى هزم بها المجر والامم البلقانية ، ثم انه جلس على كرسى السلطنة بعد وفاة أبيه وهو ابن ٢٢ سـنة وفتح القسطنطينية العظمى وهو ابن ٢٤ سنة .

قال البارون « كارادوڤو » Baron Carra de vaux فى كتابه « مفـكرو الاسلام» فى الجزء الاول منه عند ترجمة محمد الفاتح : ان هذا الفتح لم يقيض لمحمد الفاتح اتفاقاً ، ولا تيسّر بمجرد ضعف دولة بيزنطية ، بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ، ويستخدم له كل ما كان فى عصره من قوة العلم . فقد كانت المدافع حينئذ حديثة العهـد بالايجاد ، فأعمل فى تركيب أضخم المدافع التى يمكن تركيبها يومئذ وانتدب مهندساً مجرياً ركب له مدفعاً كان وزن الـكرة التى يرمى بهـا ٣٠٠ كيلو ، وكان مدى مرماه أكثر من ميل ، وقيـل انه كان يلزم لهـذا المدفع ٧٠٠ رجل ليتمكنوا من سحبه وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لحشوه ، ولما زحف محمـد الفاتح لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ثلاثمائة ألف مقاتل ومعه مدفعيـة هائلة وكان أسطوله المحاصر للبلدة من البحر ١٢٠ سفينة حربية . وهو الذى من قريحتـه تصوّر سحب جانب من الاسطول من الـبرّ الى الخليج وأزلق على الأخشاب المطلية بالشحم ٧٠ سفينة أنزلها فى البحر من جهة قاسم باشا . وبعد حصار ٥٠ يوما هدمت مدافعه أربعة أبراج ، وفتحت ثلمة عظيمة من جهة باب سان رومان وقام السلطان بالقحمة الأخيرة بنفسه وسار على رأس جيشه وبيده قضيب من حديد الى أن دخل قصر امبراطور الروم فأنشـد قول الشاعر الفارسى : العنكبوت تنسج خيوطها فى القصر الملوكى والبوم يسمع صداه على أبراج افراسياب ولما دخل كنيسة أياصوفيا لم يسمح بمحو الفسيفساء التى بها صور أشخاص وانما أمر بأن تغطّى بالجص الخ »

وازدادت عمارة فروق فى زمان آل عثمان ، وأسكن فيها محمد الفاتح أقواماً من أطراف مملكته لا سيما من بلاد القرمان ومن الجزر وعاد اليها كثير من الروم الذين كانوا غادروها ، و بعد وفاة الفاتح جاءها اليهود المطرودن من أسبانية ومعهم جماعة من العرب . وما زالت هذه البلدة تنمو وتعظم حتى صارت عاصمة العالم الاسلامى ومن عُظْمَيات عواصم العالم كله و بلغ عدد سكانها فى هذا العصر مليوناً ومائتى ألف نسمة. الا أنه من المؤسف كون حكومة تركيا الجمهورية الحاضرة قد أهملت هذه البلدة الطيبة التى لا نظير لها اهمالاً زائداً ونقلت مقر الحكم الى أنقرة فرجعت الاستانة القهقرى و نزل عدد سكانها من مليون ومائتى ألف الى سبعمائة ألف وقيل الى ستمائة ألف وان اهمال الحكومة التركية لمثل الاستانة لمن الأغلاط السياسية التى لا جدال فيها .

***

ولقد شاد بنو عثمان فى الاستانة أو اسطنبول من الجوامع والقصور والأبراج والحصون والمدارس والتكن والمعاهد الخيرية ما يليق بعاصمة فريدة نظيرها ، وأهم ما فيها من المبانى الجوامع التى لا توجد فى سواها والتى تجد منائرها العديدة سامقة فى الفضاء من كل جانب فتكسب بها اسطنبول منظراً لا يجده ناظر فى غيرها لا شرقاً ولا غرباً

ومن أهم هذه الجوامع جامع الفاتح الذى أتم بناءه هو رحمه الله سنة ٨٧٥ للهجرة و بنى بجانبه ثمانى مدارس وعنده القبة التى دفن فيها الفاتح ومدافن أخرى لآله يقال ان منها مدفن الاميرة الصربية مارى ابنة جورج برانكوفيه التى كان تزوج بها مراد الثانى وماتت وهى باقية على دينها .

ثم جامع بايزيد بقرب باب السرعسكرية و فيه مدفن السلطان بايزيد بن محمد الفاتح و بعض عائلته .

ثم جامع السليمية بناه السلطان سليم الأول مشرف على محلة الفنار وفيه تربة السلطان المذكور ، وتربة السلطان عبد المجيد ، والد السلاطين مراد وعبد الحميد ومحمد الخامس ومحمد السادس .

ثم جامع الشاهزاده بناه السلطان سليمان سنة ٩٥٥ للهجرة وهندسه المعمار سنان المشهور وفيه مدفن الأمير محمد بن السلطان ومدفن أخيه جها نكير .

ثم جامع السليمانية ، وهو من أجل وأشهق وأفخم جوامع الدنيا بناه السلطان سليمان القانونى وكان المهندس له المعمار سنان ، وانتخب له أعلى قمة من الجبال التى عليها الاستانة و بنى حوله أر بع مدارس وعمارات أخرى وفيه مدفن سليمان الأول القانونى وسليمان الثانى وأحمد الثانى . وهذا الجامع فيه من الصنعة الهندسية فى بنائه ما لا يوجد فى أياصوفيا

ثم جامع السلطان أحمد بناه أحمد الأول وهو قريب من أياصوفيا وله ست منائر وفيه مدفن السلطان أحمد الأول وولديه عثمان الثانى ومراد الرابع

ثم جامع « ينى جامع » بقرب الجسر الواصل بين اسطنبول والغلَطَة وقد بدأت به السلطانة كوسم ثم أكملته السلطانة خديجة والدة محمد الرابع وذلك سنة ١٠٧٤ للهجرة وفي هذا الجامع مدافن السلاطين محمد الرابع ومصطفى الثانى وأحمد الثالث وعثمان الثالث . ولا تزدحم الجماعات فى مسجد ما تزدحمه فى هذا الجامع نظراً لقربه للجسر ومركز حركة الخلق .

ثم جامع النور العثمانى بدأ بناءه محمود الأول وأكمله عثمان الثالث .

ثم جامع لا له لى وفيه مدفن سليم الثالث

ثم زيرك جامع وأصله كنيسة حوّله الفاتح الى جامع .

ثم جامع محمود باشا بقرب النور العثمانى بناه أحد الصدور العظام سنة ٨٦٨ للهجرة

ثم جامع مراد باشا بناه أحد وزراء الفاتح سنة ٨٧٠

ثم جامع وفا بناه بايزيد الثانى سنة ٨٨١ للشيخ مصطفى وفا .

ثم جامع داود باشا على بحر مرمره تاريخ بنائه سنة ٨٩٠

ثم جامع خوجه مصطفى باشا فى سماطيه أصله كنيسة بيزنطية تحولت جامعاً سنة ٨٩٥

ثم جامع عتيق على باشا فى شمبرلى طاش بنى سنة ٩٠٢

ثم جامع مهرماه ابنة السلطان سليمان فى أعلى نقطة من المدينة بقرب باب ادرنة بنى

سنة ٩٦٥ وهندسه المعمار سنان

ثم جامع رستم باشا عند الخليج بناه رستم باشا الصدر الأعظم فى زمن سليمان الاول وهـذا الجامع هو من بناء سنان ايضاً وفيه من صنعة الخزف القاشانى نفائس لا توجد فى غيره .

ثم جامع الصدر الأعظم « الصوقولى » كمل بناؤه سنة ٩٦٩ .

ثم جامع فتحية أصله كنيسة تحول جامعاً فى زمان مراد الثالث سنة ١٥٨٧

ثم جامع جراح باشا كان بناؤه سنة ١٠٠٢ للهجرة .

وفى اسطنبول القديمة نحو من خمسمائة جامع وبديهى أنه غير داخل فى هـذا العدد الجوامع التى فى غلطه و بك اوغلى و بشكطاش ونشان طاش والقرى التى على البوسفور من الجانبين فهناك جوامع أيضاً تحصى بالمئات . ومنها جوامع فى الغاية من الاتقان والبداعة وكلها لها المنائر الرفيعة المستديرة الضاربة فى الهواء البالغة الحد فى البهاء والتى هى زينة هذه العاصمة . ومن أشهر هـذه الجوامع « النصرتية » فى الطوبخانه وجامع « جهانـكير » فى « الفندقلى » وجامع « بشـكطاش » وجامع « يلديز » وغيرها .

ولنتكلم الآن على جامع أيا صوفيـا وهو الدرة الدهماء واليتيمة الطائر ذكرها فى الغبراء فنقول :

***

ان هذا الجامع لا يزال أعظم جامع فى القسطنطينية ، كما أنه كان أعظم وأجل كنيسة فى الشرق ، ومن أعظم وأجل كنائس العـالم . والأصل فى هندسة قبته المشهورة بعظمتها مأخوذ من الهندسة التى كانت معروفة قديماً فى العراق أى انهـا هندسة آسيوية لا أوربية كان أتى بها البنّاؤن من العراق الى بلاد الروم وغلبت على كنائسهم ، وعدلوا بعدها عن طرز البناء اليونانى القديم . أما حلية أيا صوفيا الداخلية فهى من الصناعة السورية . فهى اذاً من جميع الوجوه تضرب فى بنائها الى عرق آسيوى . ولقد صار طرزها هو المعول عليه فى بناء الـكنائس الارثوذكسية كلها ولا سيما فى الروسية . ولم يحدث فى الهندسة طرز يفوقه وجاء فى الانسيكلو بيدية الاسلامية ان بعض كنائس الغرب أيضاً مثل كنيسة مار مرقس فى

البندقية مبنية أيضاً على طرز أيا صوفيا . قالت : وان أجمل جوامع الأتراك فى الروملى — كجوامع أدرنة مثلاً — لاتخرج عن طرز أيا صوفيا الا قليلاً .

وأول من أسس أياصوفيا هو الامبراطور قسطانس ابن الامبراطور قسطنطين الكبير وذلك سنة ٣٦٠ مسيحية ، وكانت تسمى حينئذ بالكنيسة الكبرى . ثم أصابتها جوائح من حريق وزلزال ثم أعيد بناؤها سنة ٤١٥ ثم احترقت فى أثناء فتنة احترق بها جانب كبير من المدينة. وعندها قرر الامبراطور يوستنيانوس تجديد بنائها والسخاء عليها بالأموال الطائلة وحشد لها الصنّاع وجمع مواد البناء من أطراف المملكة لا سيما من انقاض الهياكل القديمة التى كان النصارى قد دمّروها بعد تنصُّر الدولة . واستجاد يوستينانوس لهندسة الكنيسة مهندسين من أشهر بنائى ذلك العصر وكل عصر وهما « انيتميوس تراليس » و « ايزدوروس ميله » فتوخيًّا فيها الطريقة التى تقيها الحريق وتأثير الزلازل التى تكثر فى القسطنطينية وعقدا لها هذه القبة العجيبة . وتم بناء أيا صوفيا سنة ٥٣٧ واحتفل يوستنينوس بافتتاحها فى يوم عظيم أبلغ فيه الأبهة منتهاها وهتف يومئذٍ : سليمان قد غلبتك . ولم يكن فى قوله هذا مبالغاً . ثم حصلت زلزلة سقط بها جانب من القبة وذلك فى زمن يوستنيانوس نفسه ، فجددوا بناءها ورفعوها نحو ٢٠ قدماً واحتفلوا بافتتاح البناء سنة ٥٦٣ . ويقدّر داخل أياصوفيا بخمسة وسبعين متراً طوالاً وسبعين متراً عرضاً ويقدّر علو القبة بستة وخمسين متراً ، ولما كانت الجدران لا تكفى لتوطيد القبة الى الدرجة المطلوبة فقد أرسلوها أيضاً على أساطين أربع مرتبطة بعضها ببعض بأعمدة أصغر منها وبقسى شديدة وعدد أعمدة الكنيسة التى يتوكأ عليها البنيان ١٠٧ أعمدة كلها من ذوات الألوان النادرة والرخام المجزع . وكانت القبة والحيطان مزيّنة كلها بالفسيفساء المذهبة الآخذة بالأبصار وعلى الحيطان صور عيسى ومريم عليهما السلام والأنبياء والرسل والملائكة وان القلم ليعجز عن اعطاء تلك المناظر حقها من الوصف . وكان القسوس والوفَهة [١] الذين يخدمون فى أياصوفيا لعهد يوستنيانوس ٤٢٥ شخصاً وكان لها مائة بواب . وقيل انه لما فتح الأتراك القسطنطينية كان وفَهَة أياصوفيا ٨٠٠ شخص

وسنة ٩٨٩ مسيحية حصل زلزال أضرّ بقبة أياصوفيا ثم ترممت . وسنة ١٢٠٤ انتهب

(١) الوافه قيم البيعة

اللاتين الصليبيون هذه الكنيسة وجرّدوها من حلاها وذلك فى أثناء مقامهم بالقسطنطينية وأكثر ترميمات أيا صوفيا للعهد البيزانطى وقعت فى القرن الرابع عشر اذ بنيت حول الكنيسة جدران وأجنحة جديدة لتوطيد الجدران القديمة .

وجاء فى الانسيكلوبيدية الاسلامية أن أول مسلم كتب عن أيا صوفيا هو أحمد ابن رستة من رجال القرن الثالث للهجرة وذلك فى كتابه « كتاب الأعلاق النفيسة »وكان يسمى أيا صوفيا بالكنيسة العظمى ويصف كيفية ذهاب امبراطور بيزانطية الى الكنيسة أيام الآحاد والاعياد بذلك الاحتفال العظيم وكيف كان الاسرى المسلمون يؤتى بهم الى تلك الحفلة ليهتفوا للملك قائلين : «أطال الله حياة الملك»وذكر هذا الكاتب شيئاً فى غايةمن الدقة فقال انه يوجد فى مدخل الكنيسة الغربى مجلس وأربعة وعشرون باباً صغيراً فكلما مضت ساعة من الأربع والعشرين ساعة ينفتح باب من هذه الابواب من نفسه ثم ينغلق لنفسه . ولم يذكر هذه النادرة أحد غير أحمد المذكور . ولم نجد بعد ذلك لأحد من مؤلفى الاسلام كتابة عن ايا صوفيا حتى القرن السابع للهجرة فقد جاء لشمس الدين محمد الدمشقى كلام وجيز على أيا صوفيا . ثم جاء ذكر أياصوفيا فى رحلة ابن بطوطة الذى زار الاستانة لكن ابن بطوطة يقول انه لم يدخل الى داخل الكنيسة لأنه كان من العادات المرعية عندهم ان كل من دخل اليها لا بد له من أن يسجد للصليب وهو أبى أن يفعل ذلك .

ولما دخل الاتراك القسطنطينية فى ٢٩ مايس ١٤٥٣ التجأ جميع الاهالى الذين لا يحملون السلاح والنساء والأولاد الى أيا صوفيا وهم يعتقدون أنه متى وصل الترك الى عمود قسطنطين الكبير يظهر ملك فى السماء فينهزمون نكوصاً على الأعقاب ويعودون من حيث أتوا . ولكن الترك دخلوا الكنيسة وأخذوا جميع تلك الخلائق أسرى . وليس بصحيح ما يزعمه بعضهم من أنهم ذبحوهم. فالترك لم يذبحوا هناك أحداً وما لبثوا أن أطلقوا سبيل أولئك الأسرى . ولما جاء محمد الفاتح ترجّل عن جواده ودخل أيا صوفيا وارتفع صوت الأذان فى داخل الكنيسة وسجد السلطان ومن معه للاله الواحد وتحول هيكل قنسطنس ويوستنيانوس مسجداً للاسلام .

أما ما أدخله المسلمون من التغييرات على أيا صوفيا فهو أنهم غطوا الصور التى كانت على الحيطان والفسيفساء البديعة الباهرة المبثوثة على الجدُر والاقبيةوذلك بالجص الذى يمنع

من ظهورها للعيان لما فى دين الاسلام من تحريم الصور فى أماكن العبادة وكذلك رفعوا الحاجز الذى كان بين القسيسين والاهالى . ولما كانت الكنائس البيزانطية موجهة فى بنائها الى القدس وكان المسلمون فى صلواتهم يولون وجوههم شطر مكة كان لابد للمسلمين فى أياصوفيا من أن ينحرفوا قليلا عن الجهة الشرقية الى الجهة الجنوبية . ولقد دعم المسلمون أيا صوفيا بجدران جديدة فبنى محمد الفاتح دعائم لتقوية الحائط الجنوبى الشرقى من المسجد و بنى أيضاً احدى المنائر الأربع الموجودة الآن والتى هى من أجل ما يرى فى سماء الاستانة ثم بنى سليم الثانى المنارة الثانية و بنى مراد الثالث المنارتين الأخريين فتتامّت أربع منائر . وكان لمراد الثالث فى أيا صوفيا آثار كثيرة فهو الذى جعل عند الباب حوضين يسع كل منهما ١١٥٠ ليتراً من الماء لأجل الوضوء وجعل فى الداخل مصطبتين عاليتين يتلى فوق احداهما القرآن طول النهار و يؤذن بالصلاة فوق الأخرى ووضع مراد الثالث محل الصليب الذى بأعلى القبة هلالاً أنفق على تمويهه بالذهب أموالا طائلة وقطر هذا الهلال خمسون شبراً فهو يرى من مسافات بعيدة.

وقد بنيت الى الجنوب من المسجد قباب لأجل دفن السلاطين أقدمها قبة سليم الثانى و بجانبها مدفن ابنه مراد الثالث وحفيده محمد الثالث . وهناك أيضاً مدفن مصطفى الأول ثم ابن أخيه السلطان ابراهيم . وممن اعتنى أشد الاعتناء بأيا صوفيا السلطان مراد الرابع فشاد عضائد كثيرة للجدران وفى أيامه كُتبت على الجدران الداخلية من المسجد الآيات القرآنية بتلك الحروف التى لا يوجد أكبر منها وكلها مموّهة بالذهب وهى من خط ذلك الخطاط الشهير بيشكجى زاده مصطفى شلبى فمن هذه الأحرف حرف الالف مثلا طوله عشرة أذرع وهذا عدا بداعة الخط واشتباك حروفه ، وتعليق بعضها على بعض ، مما يدهش الابصار و يتنافس به أدباء الترك ، وقد كتبت أيضاً بهذا الخط نفسه أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة . أما المنبر الذى فى أيا صوفيا فهو احدى يتائم الصنعة وهو أيضاً من آثار مراد الرابع . وقد شيّد أحمد الثالث مقصورة لصلاته مرتفعة مشتبكة من جهة المسجد . ثم ان السلطان محمود الأول جعل بجانب المسجد سبيلا للماء ومدرسة وذلك الى الجنوب منه وجعل أيضاً خزانة للكتب هى فى نفس الجامع . ومن بعد مراد الرابع فاتح بغداد تأخرت أحوال أيا صوفيا بالتأخر العام الذى أصاب المملكة و بقيت الحال على ما هى عليه الى أيام السلطان

عبد المجيد الذى سنة ١٨٤٧ عهد الى الاخوان « فوساطى » من البنائين الطليان بترميم مايجب ترميمه من المسجد فلبثوا مدة سنتين يشتغلون ولم يبقوا على الحيطان الا الجص الذى يحجب الصور البشرية وجلوّا الحيطان المموهة بالذهب والنقوش الساطعة ، وكذلك فى زمان عبد المجيد جرى رفع المنائر الأربع وبالجلة فكان ترميم السلطان المشار اليه لجامع أيا صوفيامن أجلّ مآثره .

ولقد توالت الزلازل على الاستانة المعروفة بكثرة زلازلها ولم يصب أياصوفيا من هذه الاهتزازات الارضية منذ القرن الخامس للمسيح الى الآن أذى يذكر وذلك بفضل الدعائم الكثيرة التى أقامها البيزانطيون سابقاً والاتراك لاحقاً وشدوا بها جدران الجامع صفاً وراء صف . وأجل مايكون مسجد أياصوفيا فى شهر رمضان اذ تحتشد الألوف من المصلين لصلاة العصر وكذلك الألوف لصلاة التراويح بعد العشاء وأعظم حفلة تقع فيه فى الليلة السابعة والعشرين من رمضان أى ليلة القدر . وكان السلطان عبد الحميد الثانى يأتى الى أياصوفيا فى أواسط رمضان بعد الاحتفال المعروف بزيارة البردة الشريفة فى سراى « طوب قپو » .

وقد كتبت على مسجد أياصوفيا تآليف خاصة به ، منها كتاب ظهر فى زمن الفاتح من تأليف احمد بن احمد الجيلانى مأخوذ منه قسم عن اليونان وقد حرره المؤلف بالفارسى . ثم ترجمه أديب اسمه نعمة الله الى التركى وهذا التأليف تجدهُ فى خزانة أياصوفيا تحت رقم ٣٠٢٥ ، وروى الكاتب شلبى صاحب كشف الظنون أن الفلكى عليًّا بن محمد الكُشْجى ألّف أيضاً لعهد السلطان الفاتح كتاباً آخر بالفارسى على أياصوفيا لكننا لم نتحققه . ثم انه يوجد فى خزانة كتب برلين تأليف ثالث عهده ٨٨٨ للهجرة فى الموضوع نفسه هوملحق بتاريخ الدولة العثمانية الا أن اسم المؤلف غير مذكور فيه

ثم هناك مجلد اسمه « تواريخ قسطنطينية » فيه كتابان فى الموضوع وفيه أقاصيص كثيرة تتعلق بالجامع وأسباب بناء هذا المعبد فى الاصل والاموال التى أنفقت عليه . ثم انه موجود تأليف آخر اسمه « تواريخ قسطنطينية وأياصوفيا » لعلى العربى الياس بدأ به سنة ٩٧٠ لعهدالسلطان سليمان القانونى . ويقول على العربى الياس ان البناء الذى هندس بناية أياصوفيا بأمر الامبراطور يوستينيانوس كان اسمه اغناطيوس وبالجلة نجد تاريخ هذا الرجل أو فى الكتب بموضوع أياصوفيا وان كان مقصراً عن الوفاء بتحقيقاتنا العصرية . اه

هذا مانقلتاه عن الانسيكلو بيدية الاسلامية بشان أياصوفيا أشهر جامع فى القسطنطينية وذلك على وجه الاختصار . وفى الاستانة غير بعيد عن هذا الجامع جامع آخر اسمه أياصوفيا الصغير بناه أيضاً الامبراطور يوستينيانوس باسم القديسين سرجيوس و باخوس . وقد تحول فى زمان محمد الفاتح أيضا الى مسجد .

ثم ان تاريخ أياصوفيا الذى أشارت اليه الانسيكلو بيدية من تأليف الجيلانى قد جاء ذكره فى كشف الظنون وجاء ذكر التاريخ الآخر للكشْجى قال : «تاريخ أياصوفيا مختصر نقله احمد بن احمد الجيلانى حين الفتح من اليونانية الى الفارسية وأهداه للفاتح . ثم نقله نعمة الله بن احمد من الفارسية الى التركية وللمولى الفاضل على بن محمد الكشجى المتوفى سنة ٨٧٩ تأليف لطيف بالفارسية ألفه للفاتح المرحوم »

* * *

وفى القسطنطينية جوامع أخرى كانت كنائس منها « كليسه جامع » و « كول جامع » أى جامع الورد وغيرهما . ولا يزال فيها خمسون كنيسة منها كنائس باقية من القرن الثالث عشر .

وأما الجامع المسمى « بسلطان أيوب » فى الخليج الذى هو أقدس مكان عند الاتراك فهو الجامع المبنى على ضريح الصحابى الجليل أبى أيوب خالد الانصارى رضى الله عنه .

وقد تقدم لنا خبر وفاة أبى أيوب فى أثناء حصار القسطنطينية وما أوصى به يزيد بن معاوية من جهة دفنه ، ثم انه لما جاء محمد الفاتح وحصر هذه البلدة الطيبة وفتحها انكشف للمولى آق شمس الدين ضريح أبى أيوب ، وشاد الفاتح رحمه الله سنة ٨٦٣ جامعاً عند ضريح الصحابى المجاهد . ثم فى سنة ١٢١٣ الى سنة ١٢١٥ تجدّد بناء هذا الجامع على صورته الاصلية ، وكان من عادة سلاطين آل عثمان أنه عندما يتولى أحدهم السلطنة يذهب الى جامع أبى أيوب المشار اليه و يتقلد فيه السيف باحتفال عظيم ، ويكون تقليد السيف من يد الشلبى شيخ الطريقة المولوية التى مركزها قونية .

هذه هى العادة التى أدركناهم عليها الا أنه لما تولى السلطنة السلطان محمد وحيد الدين الملقب بمحمد السادس ابن السلطان عبد المجيد بن محمود وهو الذى أعلنت تركيا الجمهورية

بعد خلعه كان الذى قلده السيف السيد احمد الشريف كبير السادة السنوسية والمجاهد الشهير بهذا العصر.

هذا وبجوار جامع أبى أيوب مقبرة فيها مدافن كثير من أميرات آل عثمان ، وكثير من الوزراء والعلماء والشعراء ورجال الدولة نظراً لكون الناس فى الاستانة يتبركون بهذا المكان المنسوب لصاحب رسول الله ﷺ ويحبون أن يدفنوا فيه . ومن جملة من دفنوا فيه أحد أعمام محرر هذه السطور وهو العالم الكبير المرحوم الأمير محمد الأمين الارسلانى الذى كان عضواً فى مجلس شورى الدولة وتوفى فى الاستانه شاباً عن ٣١ سنة وذلك سنة ١٢٨٨ هجرية [١]

ومن المدافن الشهيرة فى الاستانة مدافن السلاطين مثل« سلطان محمود تر به سى» فى « ديوان يولى » وفيها دفن السلطان محمود الثانى المتوفى سنة ١٨٣٩ مسيحية وولده السلطان عبد العزيز المتوفى سنة ١٨٧٧ ، وتر بة السلطان عبد الحميد الأول المتوفى سنة ١٧٨٩ وهى فى « بغجه قبوسى » وفيها دفن السلطان مصطفى الرابع المتوفى سنة ١٨٠٧

ومن الأمكنة الدينية المشهورة فى الاستانة التكايا ، وهى التى يقال لها الزوايا عند العرب . وهذه كان يبلغ عددها ٢٦٠ تكية فى البلدة وقرى البوسفور أشهرها تكية المولوية فى « ينى كوى » وتكية السنبلى فى جوارها ، ثم تكية هذه الطريقة فى « بك أوغلى » وهى من أشهر تكايا تركيا وأقدمها ، بنيت سنة ٨٩٧ للهجرة ثم احترقت منذ مائة وسبع وستين سنة وأعاد بناءها بشكلها الحاضر السلطان سليم الثالث وذلك سنة ١٢١٠ وفيها قبر احمد باشا المهتدى الافرنسى الذى كان اسمه الكونت دو بونفال de Bonneval والذى هو من آل « ليموزين » العائلة العريقة المعروفة بفرنسة من القرن الحادى عشر والتى اشتهر منها عدة من القواد الأبطال ، ومنهم « كاود اسكندر » هذا الذى ولد سنة ١٦٧٥ وتوفى سنة ١٧٤٧ وكان فى الجيش الافرنسى فجرت معه حادثة أوجبت غضبه ففارق فرنسة ودخل فى خدمة أوستريا واشتهر فى محاربة الاتراك ، و بعد مدة من الزمن وقع أسيراً فى أيديهم فى بوسنه ثم أسلم وجعله الاتراك قائداً باسم احمد باشا . ولما مات دفن فى هذه التكية . ومن المدفونين فيها اسماعيل الأنقروى شارح المثنوى

(١) راجع ترجمة الأمير محمد ارسلان عند ذكر الأمراء الارسلانيين فى دائرة المعارف للبستانى

وأما المدارس القديمة التى تعلّم فيها العلوم الشرعية والآداب الشرقيــة فـكانت نحو ١٧١ مدرسة أشهرها مدرسة أياصوفيا وفيها ١٥٠ طالباً ومدرسة السلطان احمد وفيها ٢٠٠ طالب والسليمانية وفيها ٦٥٠ طالباً والمحمدية وفيها ٩٠٠ طالب وكان مجموع طلبة هذه المدارس نحواً من سبعة آلاف

* * *

ولما آل الحـكم فى تركيا بعد الحرب العامة الى مصطفى كمال باشا وانقلب من السلطنة الى الجمهورية والى جمهورية لادينية Laïque أقفلت هـذه الجمهورية التكايا وألغت الطرق وأغلقت المدارس الدينية والشرعيــة ، ورفعت التعليم الدينى من مكاتب الحـكومة ، وقامت بأعمال وأحداث كثيرة من هذا القبيل مما سيأتى ذكره فى محله.

وفى الاستانة مستشفيات ودور للمجانين كانت من القــديم تابعة للجوامع ثم جعلتها الحـكومة التركية على الطريقة العصرية

أما خزائن الـكتب فهى ٤٥ خزانة فيها ٦٤١٦٢ مجلداً كلها كتب اسلامية أكثرها مخطوط بالقلم.وأشهر هـذه الخزائن الخزانة التى فى سراى السلاطين فى طوب قبو . ثم خزانة أياصوفيا . ثم خزانة الفاتح . ثم خزانة النور العثمانى . ثم خزانة أسـعد افندى . ثم خزانة الـكوبريلى.ثم خزانة راغب باشا.ومن الخزائن المعروفةخزانة بايزيد وفيها كان بعض أجزاء كتاب الا كاليل النادر الوجود للهمدانى اليمانى.وخزانة عاشر افندى بقرب «ينى جامع» وفيها وجدت أنا منذ أربعين سنة رسالة « الدرة اليتيمة » لعبد الله بن المقفع ورسائل أبى اسحق الصابى رئيس كتاب ديوان الخلافة لعهد الطائع العباسى ونسخت هذين المخطوطين بخط يدى وطبعتهما وكانت هذه طبعتهما الأولى . ولقد علمنا أن حكومة تركيا الحاضرة جمعت أكثر هذه الـكتب فى مكتبة واحدة بدار الفنون . وأما مكتبة السراى فمنها قسم فى الخزانة الخاصة بها ومنها قسم فى « بغداد كوشك » ويقال ان فيها مخطوطات لاتينية ويونانية ذات قيمة عظيمة . ولقد أتيح لى أن أدخل الى هذه المـكتبة والى خزانة التحف السلطانية وأن أرى كثيراً من الـكتب النفيسة فى أجلادها المذهبــة وخطوطها التى تحير العقول ، ولا عجب فعن الملوك ولا تسل . وأىّ الملوك : سلاطين آل عثمان الذين ملـكوا نحواً من سبعمائة سنة مملـكة من أكبر ممالك العالم . وكذلك الجواهر والدرر اليتيمة التى فى خزانة آل عثمان فلما

يوجد مثلها فى خزائن الملوك . ولا شك فى أنها تقوم بملايين كثيرة من الجنيهات . وفى أثناء الحرب العامة نقلت الدولة الجواهر التى كانت فى « الحرم النبوى بالمدينة » المنورة الى خزانة طوب قبو . وفى السراى من النفائس مالا يحصى ومن جملتها ١٢ ألف قطعة خزف صينى من النادر الاندر الذى صار مثله كالكبريت الأحمر كان المرحوم على الباشهانبه التونسى قد عهد اليه بجمعها وتنضيدها لسعة معرفته بالخزف المذكور وهو الذى قال لى انه لا يظن فى الدنيا كلها مجموعة خزف صينى فى نفاسة هذه المجموعة لا فى الكيفية ولا فى الكمية

***

وأما المخلفات النبوية التي أخذها السلطان سليم العثمانى من آخر خلفاء بنى العباس عندما فتح مصر ، فلها فى سراى طوب قبو كوشك خاص بها وأهمها البردة الشريفة ، التى أعطاها الرسول ﷺ كعباً بن زهير عندما أنشده « بانت سعاد » وهى فى سفط ثمين كان السلطان سليم رتّب عندها ١٢ حافظاً يقرأون كتاب الله بالمناوبة بحيث لا تنقطع التلاوة لا ليلاً ولا نهاراً . وكان السلاطين يحتفلون بزيارتها فى وسط رمضان فى يوم مشهود يكون فيه السلطان وأمرآء الأسرة المالكة والوزراء والقواد وأعضاء مجلسى الأعيان والنواب وقد حضرت هذه الحفلة مراراً وكان السلطان يجلس على دكة وأمامه الصندوق الذى فيه السفط الذى فيه البردة وهم يقولون لها «خرقة سعادت». ثم يتقدم الرجال المدعوون للحفلة واحداً بعد واحد بالترتيب بحسب برنامج معلوم فيرقى الواحد منهم درجة الدكة ويصير أمام الصندوق ، وينحنى ، ويقبل الصندوق من أعلاه ويكون السلطان قد تناول منديلاً فمسح به على وجه الصندوق فيناوله اياه وينصرف سائراً من غير الجهة التى جاء منها . فيرقى غيره وهلم جرّا الى أن تنتهى هذه المراسم والسكوت التام والخشوع العظيم سائدان عليها بحيث لا يسمع الانسان فيها الا صوت قارئ يتلو القرآن فى وسط البهو الذى فيه الحفلة . لعل اخواننا الوهابيين يستهجنون هذه المراسم ولا يرون تقبيل الآثار النبوية أو الأصونة التى فيها مما يستحب شرعاً الا أنه ليس شئ من هذه الأمور منوياً به غير مجرد التذكر والتبرك وانما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى .

ثم ان سراى طوب قبو هذه هى فى الواقع عبارة عن بلدة كبيرة فى طولها وعرضها ومبانيها وحدائقها وميادينها وساحاتها وفيها اكشاك وقصور وصروح بغاية الأبهة اذا طاف

بها الانسان طول النهار لا يأتى على آخرها . وفيها مساكن حرم السلاطين والغرف الخاصة بكل واحد منهم ومما أدهشنى وأنا أطوف فيها انى لم أكد أمرّ بغرفة ولا ببهو ولا بأيوان من هذه القصور الملكية الا رأيت على جدران ذلك المكان آيات قرآنية أو أحاديث نبوية بأجل الخطوط المذهبة . وقد رأيت القصيدة المعروفة بالبردة الشريفة منقوشة باحرف كبيرة مموهة بالذهب من أولها الى آخرها فى ايوان واحد . ومن شاء أن يزور هذا المكان لم يكن له بد من أن يطوف به بمعرفة دليل يعرّفه تاريخ كل محل ونسبته ووقت بنائه ومن كان من السلاطين يسكن فى هذا القصر وأية حادثة وقعت فى تلك الساحة وأىّ اجتماع جرى فى ذلك البهو الى غير ذلك . وقد كان دليلنا يوم طفنا فى سراى طوب قبو المؤرخ العليم بالخطط احمد رفيق بك المشهور الذى كان يشرح لنا كل مايتعلق بكل محل من الوقائع فشهدنا بواسطته التاريخ مجسّماً .

وللسلاطين العثمانيين ، عدا سراى طوب قبو ، سرايات كثيرة متناهية فى الفخامة ، منها سراى « طولمه بغجه » التى كان يسكن فيها المرحوم السلطان محمد رشاد ، وفيها البهو الكبير العديم النظير الذى تجرى فيه مراسم الأعياد وتستقبل به الملوك . ومنها سراى « جراغان » وقد احترق جانب منها . ومنها سراى « يلدز » التى كان يسكنها السلطان عبدالحميد الثانى وهى على رابية من أبدع روابى الاستانة ولها حديقة واصلة الى البحر .وكان يصيف فيها السلطان رشاد أيضا . وقد وقعت لنا مقابلة السلطان رشاد مرتين فى سراى يلدز ومرة فى سراى طولمه بغجه هذا عدا المقابلات الرسمية . ومن السرايات الفخمة فى الاستانة سراى « بكلربك » فى الشاطئ الاسيوى من البوسفور وهى التى مات فيها السلطان عبد الحميد الثانى بعد خلعه . ومنها كوشك « كوك صو » وغير ذلك من السرايات والقصور والصروح والمقاصف التى تدهش كل من رآها وفى الاستانة ثكنٌ عسكرية كثيرة لاتكاد تحصى الا أن أعظمها الثكنة السليمية فى اسكدار يقال انها من أعظم ثكن الدنيا .

وفيها « الطوبخانه » وهى معمل المدافع والأسلحة وأول من أسس الطوبخانه محمد الفاتح ثم زاد فيها سليمان القانونى . وما زالت السلاطين تهتمّ بها وتزيد فيها . وسنة ١٩١٢ زرتها بنفسى وتفقدت أعمالها وكان مديرها رجل اسمه ناظم باشا فعلمت منه انها تصنع فى كل اسبوع عشرة مدافع و ١٢٠ بندقية ومقداراً من العلف للبنادق ومن القنابر للمدافع ،

ولكن ذلك لم يكن شيئا بالنسبة الى احتياجات السلطنة فلذلك كانت الدولة العلية توصى على مدافعها و بنادقها فى معامل ألمانيا . وقد علمت ان الدولة قد كانت أوسعتها فى أثناء الحرب العامة وأدخلت فيها زيادات كثيرة .

وفى الخليج « الترسانة » وهى محرفة عن « دار الصنعة » وكان العرب يسمون كل مكان تبنى فيه المراكب البحرية بدار الصنعة فأخذ هذه الكلمة الافرنج وحرفوها وقالوا « ارسنال » وأخذها الترك وحرفوها وقالوا « ترسانة » وقد كان مؤسس الترسانة فى اسطنبول السلطان سليم الأول سنة ٩٢٢ (١٥١٦) ثم زاد فيها القانونى ثم زاد فيها حسن باشا الجزائرى فى زمن عبد الحميد الأول ثم زاد فيها حسين باشا فى زمن سليم الثالث . وهناك دار نظارة البحرية العثمانية . وأما الآن فقد جعلت حكومة أنقرة دار الصنعة فى خليج ازميد .

وفى الاستانة مكاتب ودور علم كثيرة أشهرها دار الفنون فى اسطنبول ومكتب « غلطه سراى » فى بك اوغلى ، والمكتب العسكرى فى « شيشلى » ومكتب البحرية فى جزيرة « خلقى » فى بحر مرمره . وكلها قد نبغ منها الألوف من رجال العلم والأدب والسيف والقلم .

وفى الاستانة أسواق عظيمة شهيرة لاتوجد فى حاضرة شرقية غيرها . منها السوق الكبيرة التى بدأها محمد الفاتح وسوق مصر التى بناها سليمان القانونى وغيرها . وكذلك فيها خانات شهيرة مثل خان « والده سلطان » و « بيوك ينى جامع » وفيه ٣٥٠ غرفة و« سنبللى خان » وخان محمود باشا وغيرها ، و يقدر عدد مافيها من الخانات بمائتين .

ثم ان القسطنطينية من قديم الزمان كانت فى حاجة للمياه نظراً لوفرة سكانها وضخامة عمرانها . فقياصرة الروم كانوا جلبوا لهـا المياه من الخارج على الحنايا والقناطر العظيمة أولهم الأمبراطور هادريان ثم ڤالنس . ولما جاء المسلمون ازداد احتياج الأهالى الى الماء كما هو بديهى فجرّ اليها الفاتح مياهاً جديدة ثم جرّ لها القانونى بواسطة مهندسه سنان خمسة ينابيع عقد لها خمسة مجار فوق القناطر وجمعها فى حوض كبير . و بنى عثمان الثانى حوض برغوس سنة ١٦٢٠ و بنى أحمد الثالث السد — والأتراك يقولون بند — الذى فى الوادى المسمى بغابة بلغراد . وسنة ١٧٣٢ بنى محمود الأول سد « بغجه كوى » الذى منه مياه بك اوغلى وغلطه والطوبخانه . وفى طرف بك اوغلى الى جهة شيشلى محل يقال له « تقسيم »

منه تقسيم المياه التى جرّها محمود الأول .

وفى الاستانة حياض مياه قديمة من عهد الروم دثر أكثرها واعتيض منها بالعيون التى هى من أجل مارأته العيون والسبل المبنية بالمرمر البالغة الحد فى بداعة الصنعة مثل سبيل السلطان أحمد الثالث الذى بقرب « باب همايون » الذى تاريخه سنة ١١٤١ .

ويقدر عدد حمامات الاستانة بنحو من ١٥٠ حماماً عدا حمامات القرى الملحقة بالاستانة .

هذا وكان العرب يقولون للقسطنطينية « فروق » كصبور وقد وردت كذلك فى معاجم اللغة وكأنهم أخذوها من قوله تعالى (وَاذْ فرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ) أى فلقناه فان البحر يفرقها بين آسية وأوربة بمضيق البوسفور ثم يفرق القسم الاوربى منها بالخليج المسمى بقرن الذهب الذى فيه دار الصنعة أو الترسانة وفى آخره قبر خالد الانصارى رضى الله عنه .

وهذا الخليج يفرق بين القسم المسمى باسطنبول الأصلية وغلطه . وكانت غلطه من أيام الروم مسكن الجنويّة وأصناف اللاتين . ولما فتح الترك الاستانة انتقل كثير من الروم والأرمن اليها ، ثم لما بنيت الطوبخانه وهى من قسم الغلطه جاءها كثير من المسلمين وهكذا تحولت كنيسة ماربولس جامعاً منذ سنة ١٥٢٥ وقيل ١٥٣٥ وهى المسجد الذى يقال له اليوم « عرب جامع » ويقول بعضهم انه كان جامعاً فى أثناء حصار العرب للقسطنطينية . وتحولت كنيسة مارا فرنسيس الى جامع سنة ١٦٩٧ وهو المسجد المسمى بجامع الوالدة . وللاتراك ١٤ جامعاً فى غلطه منها أربعة كانت كنائس .

***

ولقد ذكر ياقوت الحموى فى معجم البلدان هذه العاصمة الشهيرة وقال انها دار ملك الروم ، وان الحكايات عن عظمها وحسنها كثيرة ولكن ياقوت لم يعطها حقها وربما كتب فى وصف بلدة لاتبلغ مقدار حارة من حارات القسطنطينية أكثر مما كتب عن القسطنطينية ، ولعله تجنّب الأطناب فى شأنها خشية أن ينسب اليه التعصب للرومية لأنه رومى وخشى أن يقال انه لايزال فيه عرق من الرومية ينزع اليه . وقد روى ياقوت ثلاثة أبيات جاء فيها ذكر القسطنطينية قال انها لأبى العيال الهزلى رثى ابن عم له قتل فى القسطنطينية وهى هذه :

ذكرت أخى فعاودنى رُداع القلب والوصب
أبو الأضياف والأيتا م ساعة لايعدّ أب
أقام لدى مدينة آ ل قسطنطين وانقلبوا

قال ياقوت وهى اليوم بيد الأفرنج غلبوا عليها الروم وكان ياقوت حيا فى أوائل القرن السابع للهجرة . ولنختم كلامنا على القسطنطينية بذكر قضية ينبغى أن تعرف فى العالم الاسلامى وهى انه لما تقررت فى معاهدة لوزان المنعقدة بين تركيا ودول الحلفاء سنة ١٩٢٣ مبادلة السكان بين تركيا واليونان بحيث يخرج المسلمون الذين فى بلاد الروملى الى تركيا ويخرج الأروام الذين فى تركيا الى بلاد اليونان ، وجرت المبادلة بالفعل استثنى من ذلك الأروام الذين فى القسطنطينية وهم يناهزون مئتى الف نسمة واستثنى بمقابلتهم المسلمون الذين فى تراقيا الغربية لأن الدول الأوربية واليونان أَبَيْنَ اخلاء القسطنطينية من المسيحيين فابت تركيا أن تجعل ذلك بدون عوض ولما كان مسلمو تراقيا يعز عليهم فراق وطنهم جعلوا هؤلاء فى مقابلة هؤلاء .

فهذا ما اكتفينا به من أخبار هذه البلدة الطيبة أدامها الله دار اسلام . ولقد رجعت الحكومة التركية الآن تطلق عليها اسمها القديم استامبول وأعلنت انها لاتقبل المكاتبات التى ترد عليها تحت اسم القسطنطينية Constantinople وأوجبت أن يكتب استامبول Stamboul وذلك لأن الأتراك يرون فى اسم القسطنطينية تذكاراً لملك الروم فيها و يرون اسم استامبول هو الاسم الذى يطلقه الأتراك عليها . وحقيقة الحال ان اسم استامبول كان معروفاً للقسطنطينية من عهد الروم وقد نقل ياقوت الحموى عن ابن خرداذبة انه يقال لها اسطنبول ومن المعلوم ان ابن خرداذبة عاش فى أوائل القرن الثالث للهجرة وكان فى أيام الخليفة المعتمد العباسى و يقال انه كتب كتابه المسالك والممالك فى نواحى سنة ٢٣٢ . اذاً يكون اسم استامبول أو اسطنبول قديماً ومن العجيب أن ينفر الأتراك الأنقريون من اسم القسطنطينية بحجة انه اسم غربى وهم يحبون أن يقلدوا الأوربيين فى كل شىء وقد أخذوا يكتبون اللغة التركية بالحروف اللاتينية وأدخلوا فيها كلمات لاتحصى من اللغات الأوربية وهذه الكلمات ليست من الأعلام بل من الكلمات المعتادة التى كان يمكنهم الاستغناء عنها لوجود ألفاظ لها فى العربية فآثروا الألفاظ الاوربية على الألفاظ العربية حباً بالتفرنج لاغير ،

فكيف نسوا هذا كله ورجعوا يحاولون اثبات تركيتهم فى احياء لفظة واحدة هى لفظة « استانبول » أو اسطنبول . ان هذا المنطق الانقرى لعجيب

هذا ولما كانت ألسن البنيان هى أدل الدلائل على همم الملوك فلا شئ أدل على علو همم السلاطين العثمانيين من هذه الجوامع العظيمة التى شادوها فى اسطنبول آيات باهرة للناظرين وآثاراً خالدة فى الأولين والآخرين .

فهذه الجوامع عدا فائدتها المعنوية من جهة الصلاة التى هى عمود الدين وكونها مجمعاً للالوف وعشرات الالوف من جماعات المصلين هى أيضاً الملاجئ الوحيدة فى الاستانة عند نزول النوازل سواء كانت من حريق أو زلزال أو حرب أو آفة سماوية أخرى . ومن المعلوم ان القسطنطية فى القديم والحديث عرضة للزلازل ولا تزال الزلازل تختلف اليها ، ولذلك اعتمد أهلها على البناء بالخشب لأن خطر الأبنية الخشبية فى الزلازل أقل جداً من خطر الأبنية الحجرية . ولكنهم بهذا الأمر تعرضوا لخطر آخر هو الحريق الذى لاتخلو منه الاستانة ليلة واحدة . وكثيراً ماحدث من الحرائق ما أفنى قسما كبيراً من تلك العاصمة ، ومرة احترق ثلث الاستانة فى حريق واحد . وفى أيامنا هذه جرت حرائق كان يبقى بعدها مائة الف نسمة أو يزيدون بدون مأوى . فعند ماتحصل حرائق كهذه لم يكن للاهالى الباقين بدون مأوى وهم ألوف أو عشرات الألوف ملجأ الا الجوامع والمدارس التى حولها فانها مبنية كلها بالحجر الأصم المنحوت بناء هو المثل البعيد فى الاحكام بحيث مضت عليها القرون ولم تتأثر لا بقدم ولا بزلزال ولا بحريق فتجدها كالقلاع بل أشد متانة ، ولولا هذه الجوامع وهذه المدارس لكان مصير أصحاب البيوت المحترقة لاسيما فى فصل الشتاء من أفجع مايتصوره العقل فان بيوت الافراد لتعجز عن استيعاب خمسين ألفا ومائة ألف من النسمات الباقية بدون مأوى . وكذلك فى أثناء الحروب كان يهاجر المسلمون الذين فى ثغور المملكة الى الاستانة بعيالهم وهم ألوف مؤلفة فتضيق عليهم الارض بما رحبت ولا يسعهم غير هذه الجوامع . ولقد شهدت أنا بنفسى هذا الأمر فى أثناء الحرب البلقانية فقد كانت مصر أرسلت بعثة للهلال الأحمر المصرى لأجل مداواة الجرحى العثمانيين على رأسها المرحوم محمد باشا الشريعى وكامل باشا جلال ، وجاءنى أنا أيضا من الأمير محمد على توفيق رئيس الهلال الاحمر المصرى تفويض بان أكون من المراقبين على أعمال تلك البعثة فى الاستانة .

وفى ذلك الوقت تقدمت عساكر الدول البلقانية واخترقت حدود تركيا فاجفل الاهالى المسلمون من أمامها والتجأوا من كل صوب الى الاستانة لايلوون على شئ ولم يكن فى أيديهم شئ تقريباً فدخل الاستانة نحو من مائة وثلاثين ألف نسمة مسلمة من الروملي" فأنزلتهم الحكومة فى هذه الجوامع التى لولاها لكان خطبهم لايوصف ولكن كانت الحكومة أوانئذٍ باحتياجها لمئونة جيوشها عاجزة عن اعاشة هؤلاء المهاجرين القادمين بغتة وليس بأيديهم شئ يسد أرماقهم . فعند ذلك توالت برقياتى الى الامير محمد على توفيق رئيس الهلال الاحمر المصرى والى الامير عمر طوسون رئيس لجنة اعانة الدولة بمصر والذى نجده على رأس كل مأثرة فى خدمة الاسلام ، ففى الحال أرسلوا مبالغ وافرة من المال وأمكننا أن نوزع على هؤلاء البؤساء اعانات أصابَ النفس الواحدة منها ثلاثة ريالات مجيدية فكانت العائلة المؤلفة من عشرة أنفس تقبض ثلاثين ريالا مجيدية ، وكانت بعثة الهلال الأحمر المصرى بالاشتراك مع لجنة من قبل امانة البلدة توزع هذه الأموال على المهاجرين بموجب قوائم كانت تعد من قبل بعددهم وبأسمائهم ؛ ومن حيث انى كنت دائما حاضراً تلك التوزيعات أمكننى أن أشاهد أكثر تلك الجوامع وتلك المدارس التى كانت هذه الألوف المؤلفة من المهاجرين قد أنزلت بها وعلمت أىّ غناء تغنيه هذه المبانى الخالدة وتأملت فى فضل أولئك السلاطين الذين لولم يؤثروا فى الأرض الا هذه الآثار العظيمة وحدها لكفاهم ذلك فخراً فى هذه الدنيا وأجراً فى الآخرة . فكيف وقد ضموا الى هذه الآثار الباهرة تلك الفتوحات التى انصات الزمان بذكرها وارتعدت لها الدول الاوربية بأجمعها وعاش الاسلام زمناً مديداً آمناً فى ظلها فلا ينكر فضائل هذه الاسرة الا المكابر الجاحد الذى يحاول أن يستر نور الشمس بيده ولكنّ التاريخ شاهد خالد أمين لا يكذب أهله .

التسامح والتعصب بين الاسلام وأوربة

على ذكر المؤلف بلوغ الترك أسوار فينا سنة ١٦٨٣

الأمير شكيب

مازلنا نؤكد أن الأوربيين فى عهد الحروب الصليبية وفيما بعدها بقرون لم يكونوا أقل من الترك تعصباً ولا جفاء وأن تاريخهم فى الحروب الصليبية وما جرى منهم عند فتح القدس من ذبح ٧٠ الف مسلم فى المسجد الأقصى حتى سبحت الخيل الى صدورها فى الدماء ومن استئصالهم شأفة المسلمين من الاندلس ، وصقلية وجنوبى فرنسا وسردانية ؛ مع أنهم كانوا يحصون فى هذه البلدان بالملايين تاريخ شاهد بصحة مانقول ، فقد عفى الأوربيون كل أثر للاسلام فى أوربا ولم يرضوا أن يبقى فيها مسلم واحد ، حال كون الترك الذين يقال انهم برابرة بقى تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس كانوا يقدرون فى أوقات عديدة أن يستأصلوهم أو ان يحملوهم على الجلاء ، كما فعل ملوك اسبانية وفرنسا بالعرب . وقد يقال ان الذى منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الاسلام أو الجلاء هو الشرع المحمدى الذى يمنع الاكراه فى الدين ويرضى من المعاهد بالجزية وقالوا ان السلطان سليمان القانونى كان فكر فى سوء المغبة من بقاء الملايين من الأروام والبلغار والأرمن وغيرهم فى الممالك العثمانية ، وأحب اخراجهم ، وقيل بل السلطان سليم ؛ وكان كل مرة يعترض فى ذلك شيخ الاسلام ويقول : ليس لنا عليهم الا الجزية . والجواب قد يكون ذلك ويثبت ان الاسلام هو الذى هذب الاتراك وحال بينهم وبين طرد المسيحيين من ديارهم ؛ فلماذا ياليت شعرى لم يهذب الانجيل الشريف أقوام أوربا ولم يمنع البابا اسكندر السادس وأساقفة الكنيسة فى اسبانية ، والملك فرديناند ، والملكة ايزابلا ، وغيرهم من الملوك المشهورين بالكثلكة من نصب ديوان التفتيش وارتكاب تلك الفظائع فى العرب واليهود ممن بقى على ديانته سراً الى أن جلوهم باجمعهم عن ذلك القطر الذى اوطنه العرب

رهاء ٨٢٠ سنة ، مع أن الانجيل كما لا يخفى لا يجيز شيئا من هذه الأفعال بل يوصى الناس بحب الأعداء فكيف تتألف مع شريعة الانجيل التى هذا مبلغ وداعتها وتسامحها قضية تحريق الناس بالنار لأجل عقائدهم . . . . .

لا نريد أن نعزو الى هذا المؤلف التحامل أو التعصب فيما جعله نتيجة عمل الترك بل نشهد بكونه من أوفر المؤلفين الأوربيين انصافاً وتحرياً ، ولكن ثمة أمور لا يزال الأوربى مهما بلغ من انصافه وحرية فكره غافلاً عنها أو هو لما يعتقده من علو قومه وكونهم مجبولين من طينة هى غير طينة الآخرين ، لا يقدر أن ينظر الى عيوب قومه وآثام بنى جلدته بالعين التى يرى بها عورات غيرهم من الأقوام . فقد جرت لنا مباحثات طويلة مع كثير من علماء الافرنجة فى موضوع التسامح وعدمه ، فكنا نراهم يعتقدون أنه لا يوجد فى الدنيا أقل تسامحاً وسجاحة من أهل الشرق فاذا ذكرناهم بما فعلوه بعرب الاندلس قالوا : ذلك شئ آخر . والى الآن لا نفهم لماذا هو شئ آخر . وبعضهم يقول هذه حوادث جرت فى القرون الوسطى . فاذا سلمنا بكونها جرت فى القرون الوسطى فماذا يقولون فى الموبقات والفظائع التى جرت من الجنس الأبيض الاوربى فى هذا العصر نفسه سواء فى القرن التاسع عشر أو القرن العشرين مما فعلوه فى مستعمراتهم بأفريقية الوسطى وشمالى أفريقية والكونغو والسودان المصرى وبما فعلوه فى الهند وغيرها من آسية ، بل بما وقع بمعرفة منهم فى الروملى أثناء الحرب البلقانية بل بما أوقعه بعضهم ببعض فى الحرب العامة . . . . . هذا كله لم يقع فى القرون الوسطى ، ولا فى الجاهلية الاوربية ، بل جرى فى عصر النور وبحبوحة الحضارة وعنجهية التهذيب الاوربى . نعم لا نفهم كيف اذا ذبح الترك الأرمن يكون ذلك توحشاً وبربرية وتمتلئ الصحف بألفاظ القسوة والوحشية والهمجية ، وتقوم القيامة ، فاذا ذبح البلقانيون مسلمى الروملى واستباحوا حرمهم ، أو الأروام مسلمى غربى الاناضول ، لم نجد شيئاً من تلك القيامة ولا هاتيك النعرة وان عبر عنها بشئ قيل انها حوادث مؤسفة أو ماجريات لا تخلو منها حرب أو مقابلة بالمثل لاعتداءات سبقته ويجتهد كل الاجتهاد فى تغطيتها وجر ذيول النسيان عليها. هذا الذى نعترض عليه وقلما نجد عليه جواباً سديداً ولكن ليس صاحب هذا الكتاب بالذى يتعمد تعمية الحقائق

الفرق بين الخلافة والملك

— * —

هدى الخلفاء الراشدين

— * —

سيره عمر بن الخطّاب

على ذكر المؤلف الخلافة الراشدية والشورى الاسلامية

للامير شكيب

الخلافة فى الاسلام ليست بملك ولا سلطنة ، وانما هى رعاية عامة للامة لاقامتها على الشرع الحنيف ، وردع القوى عن الضعيف فى الداخل ، وصيانة الاسلام ودفع المعتدى عليه من الخارج . وهى لا تنعقد الا بارادة الأمة. والسلطان الذى يؤتاه صاحب الخلافة هو من الأمّة لا سلطان له عليها الا منها . وقد فهم لوثروب ستودارد هذا الباب حق الفهم وعرّف الخلافة التعريف الصحيح بخلاف كثير من الاوربيين الذين يتبجّحون بزعمهم أن مبدأ كون السلطان القومى من الأمة انما هو من الأوضاع الغربية الاوربية قاتلهم الله ما أجهلهم بتاريخ الشرائع ، وما أجرأهم على الخلط . ومن أغرب الامور أن كثيراً من الشرقيين ومن المسلمين أنفسهم يتابعون الافرنج فى هذا الوهم ولا يعلمون قاعدة الاسلام فى هذا الموضوع . ولو تأملوا ما كان عليه الخلفاء الراشدون الأربعة ، وهو أشد صور الحكم الاسلامى انطباقاً على الشرع ، لرأوه أمراً شعبياً محضاً وديموقراطيًّا بحتاً وأبعد شئ عن السلطان المطلق والقرآن صريح فى قوله تعالى : « وشَاوِرْهُمْ فى الأَمْرِ » وقوله « وأمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ »

نعم ان الخلفاء الراشدين لم يقع انتخابهم الى أجل مسمى نظير رؤساء الجمهوريات ولم يكن العرب لذلك العهد بسذاجة البداوة يعرفون هذا الضرب من الحكم ولكنه لا جدال فى أن الخليفة أو أمير المؤمنين لم يكن شخصاً مقدساً غير مسئول كما هو عند الاوربيين ولم تكن لهمزية شخصية على سائر الامة وكان اذا أخطأ يقيد من نفسه . ولم يخطر ببال أحد من الخلفاء الراشدين أن يورث أولاده الخلافة بل كانوا يلقونها عن ظهورهم القاء من يريد الخلاص من تبعتها فاذا كان الانسان يريد أن يعرف ثمار شجرة الاسلام فليتأمل فى سيرة الخلفاء الراشدين فانها المرآة الحقيقية لروح الاسلام . ويناسب أن نذكر هنا بعض الآثار الواردة فيما كان الخلفاء الراشدون يفهمون من هذا الامر . جاء فى الطبقات الكبرى لمحمد ابن سعد قال : أخبرنا محمد بن عمر ، قال حدثنى قيس بن الربيع ، عن عطاء بن السائب عن زادان عن سلمان أن عمر قال له : أَمَلِكٌ أنا أم خليفة ؟ فقال له سلمان : ان أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته فى غير حقه فأنت ملك غير خليفة ، فاستعبر عمر . ثم قال أخبرنا محمد بن عمر ، قال حدثنى عبد الله بن الحارث ، عن أبيه ، عن سفيان بن أبى العوجاء قال : قال عمر بن الخطاب : والله ما أدرى أخليفة أنا أم ملك ؟ فان كنت ملكا فهذا أمر عظيم ، قال قائل : ياأمير المؤمنين ان بينهما فرقاً ، قال ما هو : قال الخليفة لا يأخذ الا حقاً ولا يضعه الا فى حق فأنت بحمد الله كذلك ، والملك يَعسِف الناس فيأخذ من هذا و يعطى هذا . فسكت عمر . ولما بويع أبو بكر قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فانى وليت هذا الأمر وأناله كاره والله لوددت أن بعضكم كفانيه ، أَلاَ وانكم ان كلفتمونى أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله ﷺ لم أقُم به . كان رسول الله عبداً أكرمه الله بالوحى وعصمه به ألا وانما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم فرَاعونى فاذا رأيتمونى استقمتُ فاتبِعونى وان رأيتمونى زُغْتُ فقوّمونى » وكان عمر فيما رُوى قد خطب الناس وقال لهم : «من رأى فىّ اعوجاجاً فليقوّمه» فقام واحد ممن سمعوه من الجمع وقال له : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بسيوفنا. فقال عمر : «الحمد لله الذى جعل فى هذه الامة من يُقوّم اعوجاج عمر بسيفه» . ولما بويع أبو بكر كان منزله بالسُّنْح فى ضواحى المدينة فأقام هناك بعد ما بويع له ستة أشهر أحياناً يغدو على رجليه الى المدينة ويركب أحياناً

« م ١٦ – اول »

فرسا له و بقى زمنا بعد الخلافة يغدو الى السوق فيبيع و يبتاع بنفسه وكان قبل الخلافة يحلب أغناماً لجيرانه فلما بو يع له بها قالت جارية من الحىّ : الآن لا تحلب لنا مَنائح دارنا . فسمعها أبو بكر رضى الله عنه فقال : بلى لعمرى لأَحلبنها لكم وانى لأرجو أن لا يغيّرنى ما دخلت فيه عن خُلق كنتُ عليه ، فكان يحلب لهم فربما قال للجارية : ياجارية أتحبّين أن أُرغى لكِ أو أُصرّح . فربما قالت أرغِ وربما قالت صرِّح . فأىَّ ذلك قالت فعل . فمكث كذلك بالسُّنح ستة أشهر ثم نزل الى المدينة فأقام بها ونظر فى أمره فقال : لا والله ما يُصلح أمرَ الناس التجارةُ وما يصلح لهم الى التفرغ والنظر فى شأنهم واستنفق من مال المسلمين ما يُصلحه و يصلحُ عياله يوماً بيوم وكان الذى فرضوا له كلَّ سنة ستة آلاف درهم فلما حضرته الوفاة قال : رُدّوا ما عندنا من مال المسلمين فانى لا أُصيب من هذا المال شيئاً وان أرضى التى بمكان كذا للمسلمين بما أصبتُ من أموالهم ، فدُفع ذلك الى عُمَر ولَقوح وعبد صيقل وقطيفة فقال عمر لقد أَتعبَ مَن بعده .

بمثل هذه العفة و بمثل هذه الطهارة و بمثل هذه البساطة فى المعيشة تولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه قيادة الأمة العربية لأول ظهورها بالاسلام وظهور الاسلام بها . وسار على أثره عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكان آية الله الكبرى فى العدل والزهد والاغلاظ فى الحق والشدة على الأقوياء والرأفة بالضعفاء وبأخلاقه هذه اتسق للاسلام ما اتسق من الفتوحات كما أنه بثبات أبى بكر عجزت الردة أن تجرى مجراها فى العرب . وكان عمر من سذاجة العيش بالمقام الذى لايصل اليه أحد. سئل عمر عما يستحله لنفسه من بيت مال المسلمين فقال : يحل لى حلتّان حلة فى الشتاء وحلة فى القيظ وما أحجّ عليه وأَعتمر من الظهر وقوتى وقوت أهلى كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم . وقال عمر مرة : انى أنزلت نفسى من مال الله منزلة مال اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف .

وورد فى الآثار أن عمر مكث زماناً وهو فى الخلافة لا يأكل من المال شيئا حتى دخلت عليه فى ذلك خصاصة وأرسل الى أصحاب رسول الله فاستشارهم فقال قد شغلت نفسى فى هذا الأمر فما يصلح لى منه فقال عثمان بن عفان : كُلْ وَأَطْعِمْ . وقال مثل ذلك سعيد

ابن زيد . فقال عمر لعلىّ : فما تقول أنت فى ذلك . قال غداء وعشاء . فأخذ عمر بذلك .
وجاء فى طبقات ابن سعد أن عمر كان يقوت نفسه وأهله ويكتسى الحلة فى الصيف ولربما خُرق الازار حتى يرقعه فما يبدّل مكانه حتى يأتى الابّان وما من عام يكثر فيه المال الا كانت كسوته فيه أدنى منها فى العام الذى قبله . فكلمته فى ذلك حفصة ابنته فقال لها : انما أكتسى من مال المسلمين . وقالوا ان عمر كان يستنفق كل يوم له ولعياله درهمين فقط ، ثم ان عمر حج البيت فأنفق فى حجته ستة عشر ديناراً فقال لابنه عبد الله : ياعبد الله ابن عمر أسرَفْنا فى هذا المال ، وكان الدينار باثنى عشر درهماً ، ومن الروايات عن زهد عمر أن أبا موسى الأشعرى أهدى لعائلة عمر طنفسة نحو ذراع وشبر فدخل عمر الى البيت فقال : أنّى لكم هذا فقالت امرأته : أهداها لنا أبو موسى الأشعرى . فأخذها عمر فضرب بها رأسها ثم قال علىّ بأبى موسى الأشعرى وأتعبوه . فأُتى به قد أُتعب وهو يقول : لا تعجل علىّ يا أمير المؤمنين . فقال عمر : ما يحملك على أن تهدى لنسائى . ثم أخذها عمر فضرب بها فوق رأسه فقال : خذها فلا حاجة لنا فيها

ومن أخبار عمر فى زهده وتقشفه انه لما كان عام الرّمادة ، وهو عام المجاعة ، ركب دابة فراثت شعيراً فرآها عمر فقال : المسلمون يموتون هُزْلاً وهذه الدابة تأكل الشعير لا والله لا أركبها حتى يحيى الناس ، وتواترت الروايات على انه ما أكل سمناً ولا زيتاً ولا ذاق لحما حتى انتهت المجاعة . وروى أنس بن مالك انه حرّم على نفسه السمن عام الرمادة وكان يأكل الزيت وانه تقرقر بطن عمر يوماً فنقر بطنه بأصبعه وقال : تقرقر انه ليس لك عندنا غير هذا حتى يحيى الناس . وكان فى أثناء المجاعة يختلف الى بيوت الفقراء ويحمل لهم الطعام على ظهره ، وجاء حديث عن عياض بن خليفة قال : رأيت عمر عام الرمادة وهو أسود اللون ولقد كان أبيض فنقول ممّ ذا ؟ فقالوا انه كان يأكل السمن واللبن فاما أمحل الناس حرّم ذلك على نفسه فأكل بالزيت وأجاع نفسه كثيراً فتغير لونه . وقالوا يومئذ انه لولم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننّا أن عمر يموت همّاً بأمر المسلمين . ونظر عمر عام الرمادة الى بطيخة فى يد بعض ولده فقال بَخْ بَخْ يا ابن أمير المؤمنين تأكل الفاكهة وامة محمد هَزْلى فخرج الصبى هارباً وبكى . فسأل عمر كيف حصل الولد على هذه البطيخة فعلم انه

اشتراها بكف من نوى . وكان عمر يُطعم عام الرمادة (فى المدينة) بضعة آلاف كل يوم على سُفرته ، ويرسل القوت الى المحاويج الذين لا يقدرون أن يأتوا اليه والى المرضى والصبيان ، وكان عدد هؤلاء نحواً من أربعين ألفاً .

وأخباره فى الزهد والتقشف كثيرة متواترة فمن شاء استقصاءها فعليه بكتب السير . وقيل انه دخل مرة على رجل فاستسقاه وهو عطشان فأتاه بعسل فقال ماهذا فقال : عسل فأبى أن يشرب به وقال لايكون فيما أُحاسب به يوم القيامة . وحدث يسار بن نُمَيْر قال : مانخلت لعمر الدقيق قط الا وأنا له عاص ، وحدث السائب بن يزيد قال : رأيت على عمر ابن الخطاب ازاراً فى زمن الرمادة فيه ست عشرة رقعة . وقال أنس بن مالك : رأيت عمر ابن الخطاب وهو يومئذ أمير المؤمنين وقد رقع بين كتفيه برقاع ثلاث لبَّدَ بعضها فوق بعض . وحدث عليّ بن زيد عن أبى عثمان النهدى قال : رأيت ازار عمر قد رقعه بقطعة من أدم . وأبطأ عمر جمعة بالصلاة فخرج فلما ان صعد المنبر اعتذر الى الناس فقال انما حبسنى قميصى هذا لم يكن لى قميص غيره ، كان يخاط له قميص سُنبلانى لايجاوز كمه رُسْغ كفيه . وحدث عامر بن عبيدة الباهلى قال : سألت أنساً عن الخز فقال : وددت ان الله لم يخلقه وما أحد من أصحاب النبى ﷺ الا وقد لبسه ماخلا عمر وابن عمر . وحقيقة الحال ان مشرب عمر هذا فى التقشف والتقتير على نفسه انما كان مشرباً خاصاً يحمله عليه شدة الورع وتصوره ، وهو أمير المؤمنين ، ان فى أمته أناسا كثيرين يعيشون فى شظف فكان يأبى أن يكون فى رعيته من يجوع وهو يشبع ومن يأتزر بالادم وهو يلبس الخز . والا فان عمر رضى الله عنه لم يكن يجهل ان الله تعالى قد أحل الطيبات من الرزق وانه لو حمل نفسه على الرفاهية بدون اسراف لجاز له شرعاً .

وما ذكرنا هذه النتف من أخبار زهد عمر وشظف معيشته وخشونة مأكله وملبسه وتورعه الزائد فيما يستحقه من بيت مال المسلمين الا لنظهر مابين الخلافة والملك من الفرق ونثبت ان الخلافة فى الاسلام انما هى رعاية لابد منها لحفظ المجتمع وليس للراعى فيها أدنى مزية على الرعية فى شئ عائد الى شخصه . وقد كان الخلفاء الراشدون بما تلقوه من تربية النبى ﷺ لهم يفهمون حق هذه الرعاية ويعلمون أنهم انما هم خَدَمة للامة ومسئولون

عن الدقيق والجليل من أمرها . وكان عمر يقول لو مات جمل ضياعاً على شط الفرات لخشيت أن يسألنى الله عنه ، وكان يقول : «أيُّما عامل لى ظلم أحداً فبلغتنى مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته» . وكان يقول : «الرعية مؤدية الى الامام ما أدّى الامامُ الى الله فاذا رتع الامام رتعوا» . وخرج عمر بن الخطاب الى مكة فما ضرب فسطاطاً حتى رجع لأنه كان يستظل بالنطع . وقال عامر بن ربيعة : صحبت عمر بن الخطاب من المدينة الى مكة فى الحج ثم رجعنا فما ضرب فسطاطا ولا كان له بناء يستظل به انما كان يلقى نطعا أو كساء على شجرة فيستظل تحته ، وحدث الربيع بن زياد الحارثى قال : شكا عمر طعاماً غليظاً أكله فقال الربيع : يا أمير المؤمنين ان أحق الناس بطعام لين ، ومركب لين ، وملبس لين لأنت . فرفع عمر جريدة معه فضرب بها رأسه وقال : أما والله ما أراك أردت بها الله وما أردت بها الا مقاربتى هل تدرى مامثلى ومثل هؤلاء ؟ قال : وما مثلك ومثلهم . قال : «مثل قوم سافروا فدفعوا نفقاتهم الى رجل منهم فقالوا له : أنفق علينا . فهل يحل له أن يستأثر منها بشئ» قال : لا يا أمير المؤمنين. قال : «فكذلك مثلى ومثلهم» . ثم قال عمر : «انى لم أستعمل عليكم عمالى ليضربوا أبشاركم ، وليشتموا أعراضكم ، ويأخذوا أموالكم ، ولكنى استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ، فمن ظلمه عامله بمظلمة فلااذن له عليه ، ليرفعها الىّ حتى أقصّه منه» . فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين أرأيت ان أدّب أميرٌ رجلا من رعيته انقصه منه فقال عمر : ومالى لاأقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقصّ من من نفسه . وحدث الأحنف قال : كنا جلوساً بباب عمر فمرت جارية فقالوا سرّية أمير المؤمنين فبلغ ذلك عمر فدعانا فأتيناه فقال : ماذا قلتم . قلنا لم نقل بأسا ، مرّت جارية فقلنا هذه سرية أمير المؤمنين فقال : ماهى لأمير المؤمنين بسرية وما تحلّ له انها من مال الله . فقلنا فماذا يحل له من مال الله فقال : أنا أُخبركم بما أستحل منه : يحل لى حلتان حلة فى الشتاء وحلة فى القيظ وما أحج عليه وأعتمر من الظهر وقوتى وقوت أهلى كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا أفقرهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم . وكلّم الناسُ حفصةَ أن تكلم أباها بأن يلين من عيشه شيئا فقالت : يا أمير المؤمنين ان قومك كلمونى أن تلين من عيشك فقال : غششت أباكِ ونصحتِ لقومكِ . وأبى عمر أن

يجعل الخلافة فى ابنه وقال : ان أقواماً يأمروننى أستخلف وان الله لم يكن ليضيع دينه وخلافته والذى بعث به نبيه فان عجل بى أمر فالخلافة شورى بين هؤلاء الرهط الستة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . وكان من جملة وصاياه قبل وفاته : «أوصيكم بكتاب الله فانكم لن تضلوا ما اتبعتموه ، وأوصيكم بالمهاجرين فان الناس يكثرون ويقلون ، وأوصيكم بالأنصار فانهم شعب الاسلام الذى لجأ اليه ، وأوصيكم بالأعراب فانهم أصلكم ومادتكم» . وقد جاء فى هذا الحديث رواية أخرى وهى أصلكم ومادتكم واخوانكم وعدوّ عدوكم ، وأوصيكم بأهل الذمة فانهم ذمة نبيكم وأرزاق عيالكم .

ولما طعن أبو لؤلؤة الفارسى عمر وهو يصلى قال : من قتلنى فقيل له غلام المغيرة ابن شعبة وكان نجاراً فقال عمر : قاتله الله ، والله لقد كنتُ أمرت به معروفاً ثم قال : الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الى الاسلام . ثم قال لعبد الله بن عباس : لقد كنتَ أنت وأبوك تحبان أن تكثرا العلوج فى المدينة . فقال له ابن عباس مايفيد انهم ان شاء أخرجوهم من المدينة فقال له عمر : أبعد ماتكلموا بكلامكم وصلوا بصلاتكم ونسكوا نسككم . ولما أيقن بالموت قال لابنه : ياعبد الله بن عمر أنظركم علىّ من الدين. فحسبه فوجده ستة وثمانين ألف درهم فقال : ياعبد الله ان وفى لها مال آل عمر فأدّها عنى من أموالهم وان لم تف أموالهم فاسأل فيها بنى عدى بن كعب[1] فان لم تف من أموالهم فاسأل فيها قريشاً ولا تعدهم الى غيرهم . وقالوا له حين حضره الموت : استخلف . فقال : لا أجد أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض فايهم استخلف فهو الخليفة من بعدى فسمى عليا ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن ، وسعداً . ووردت رواية أخرى فى وصاته عند موته فى معنى الرواية السالفة ولكنها تختلف ببعض ألفاظ قال عمر : أُوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله والمهاجرين الأولين أن يحفظ لهم حقهم ، وأن يعرف لهم حرمتهم وأوصيه بأهل الأمصار خيراً ، فانهم ردْء الاسلام وغيظ العدو وجُباة المال أن لايؤخذ منهم الا فضلهم عن رضى منهم ، وأوصيه بالأنصار الذين تبوّأوا الدار والايمان أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وأوصيه بالأعراب خيرا فانهم

(١) بنو عدى هم الفخذ الذين من قريش ينسب عمر بن الخطاب اليهم

أصل العرب ومادة الاسلام ، وأن يؤخذ من حواشى أموالهم فيرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم وأن لايكلفوا الا طاقتهم ، وأن يقاتَل من ورائهم ودعا الستة الذين جعل الأمر شورى بينهم فلم يكلم منهم الا عليا وعثمان فقال ياعلىّ لعل هؤلاء القوم يعرفون لك قرابتك من النبي ﷺ وصهرك وما آتاك الله من الفقه والعلم ، فان وليت هذا الأمر فاتق الله فيه . ثم دعا عثمان فقال : ياعثمان لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله وسنك وشرفك فان وليت هذا الأمر فاتق الله ولا تحملن بنى أبى مُعَيط على رقاب الناس . ثم قال : ادعوا لى صهيبا فدُعى فقال : صلّ بالناس ثلاثاً وليخل هؤلاء القوم فى بيت فاذا اجتمعوا على رجل فمن خالفهم فاضربوا رأسه .

قلت فمن تأمل فى قول عمر : وان يؤخذ من حواشى أموالهم فيُرَد على فقرائهم رأى فيه منزعاً اشتراكيًّا لا ريب فيه الا أنه منزع اشتراكى حكومى يصدق عليه مايعبرعنه الافرنج اليوم بلفظة Etatisme ثم ان الدول الاوربية اليوم قد اضطرت كلها الى سلوك هذه السبيل وما هذه القوانين الاجتماعية التى يسمونها Lois sociales والتى معناها أن يؤخذ من الميزانية المالية العامة لاغاثة المعوزين والمرضى منهم والباقين بدون عمل Chomeurs أو Trbeitlos الا من هذا الضرب

ثم روى ان سعيد بن زيد قال لعمر : لو اشرت برجلٍ من المسلمين ائتمنك الناس فقال عمر : قد رأيت من أصحابى حرصاً سيئاً وانى جاعل هذا الأمر الى هؤلاء النفر الستة الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . ثم قال : لو أدركنى أحد رجلين لجعلت هذا الأمر اليه لوثقت به سالم مولى أبى حذيفة ، وأبى عبيدة بن الجراح . وقيل انه قال : مَن أستخلف لو كان أبو عبيدة بن الجراح فقال له رجل : يا أمير المؤمنين فأين أنت من عبد الله بن عمر فقال : قاتلك الله والله ما أردت الله بهذا أستخلف رجلاً ليس يحسن يطلق امرأته ؟؟

قلت : أما أبو عبيدة عامر بن الجراح فقد صحّ عن رسول الله ﷺ انه لما قدم عليه أهل اليمن وسألوه أن يبعث معهم رجلاً يعلمهم السنّة والاسلام أخذ بيد أبى عبيدة بن الجراح وقال : هذا أمين هذه الأمة . وعن أنس بن مالك ان النبى ﷺ قال : الا أن لكل

أمةٍ أميناً وان أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح . وفى حديث عن أبى هريرة ان النبى ﷺ قال : نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح . وقيل ان عمر قال : لجلسائه مرة : تمنّوا . فتمنى كل واحد بما حضره فقال عمر : لكنى أتمنّى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبى عبيدة بن الجراح . وعن شهر بن حوشب أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح فاستخلفته فسألنى عنه ربى لقلت : سمعت نبيّك يقول : هو أمين هذه الأمة . وعن ثابت بن حجاج أنه قال . لاستخلفته وما شاورت فان سُئلت قلت : استخلفت أمين الله وأمين رسوله . وجاء فى الطبقات الكبرى لابن سعد : فى ترجمة أبى عبيدة بن الجراح : ان عمر بن الخطاب أرسل اليه بأربعة آلاف درهم وأربعمائة دينار : وقال للرسول : أنظر مايصنع . قال فقسمها أبو عبيدة . قال ثم أرسل الى معاذ بن جبل بمثلها وقال للرسول مثلها قال فقسمها معاذ الا شيئاً قالت امرأته نحتاج اليه . فاما أخبر الرسول عمر قال : الحمد لله الذى جعل فى الاسلام من يصنع هذا .

وكانت وفاة أبى عبيدة رحمه الله فى طاعون عمواس فى خلافة عمر سنة ١٨ وكان أمير الجيش الذى فتح الشام ودفن فى غور بيسان المنسوب اليه ، و بلغ من برّه بأهله أنه قال : وددت انى كبش فذبحنى أهلى فأكلوا لحمى وحسوا مرقى

وهو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أُهيَب بن ضبة بن الحارث بن فهر أى من قريش ، ورُوى عنه رضى الله عنه أنه قال وهو أمير على الشام : يا أيها الناس انى امرؤ من قريش وما منكم من أحد أحمر ولا اسود يفضلنى بتقوى الا وددت انى فى مسلاخه (١) .

وأماسالم مولى أبى حذيفة فعلى احدى الروايات هو ابن عتبة بن ربيعة ، وعلى رواية أخرى سالم بن معقل من أهل اصطخر كان مولى ثُبَيْتة بنت يعار الانصارية ، وهو يذكر فى الانصار لعتق ثبيتة اياه ، ويذكر فى المهاجرين لكونه مولى أبى حذيفة زوجها الذى تبنّاه وربّاه حتى صار يقال له سالم بن أبى حذيفة . وعن مالك بن الحارث كما ورد فى الطبقات ان زيد بن حارثة كان معروفاً بنسبه ، وأما سالم مولى أبى حذيفة فلم يكن يعرف نسبه ، فكان يقال سالم من الصالحين . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد آخى بينه و بين أبى

(١) يريد أن يكون في جلده أي يريد أن يكون ذلك الرجل .

عبيدة بن الجراح

ومرادى بهذا الذى نقلتهُ فى عرض البحث عن حقيقة الخلافة وفى عرض الكلام عن عمر بن الخطاب وعن أبى عبيدة وعن سالم مولى أبى حذيفة رضى الله عنهم انه ليس من أمة على وجه الارض بلغت بها الديموقراطية مابلغته فى الاسلام،فأنت ترى ان الامام عمر الذى يقول الرسول فيه : « لو كان نبيٌّ بعدى لكان عمر » قد رشح لخلافته على المسلمين مولى أصله اعجمى وقيل ان نسبه الاصلى غير معروف وهو سالم مولى أبى حذيفة . وأنت ترى ان أمين الامة أبا عبيدة بن الجراح يقول انه قرشى لكنه يتمنى أن يكون فى جلد زنجى اذا كان هذا يفضله فى التقوى . وقد جاء فى الأثر انه لما قدم المهاجرون الأولون من مكة الى المدينة نزلوا بالعصبة الى جنب قُباء فأمَّهم سالم مولى أبى حذيفة لأنه كان أكثرهم قرآناً ، وكان بينهم يومئذٍ مثل عمر بن الخطاب وأبو سامة بن عبد الأسد . فقد ثبت من هنا انهم لم يكونوا يعملون الا بآية (انَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) وان التقوى هى المزية الأولى فى الاسلام لا يعد لها حسب ولا نسب . ومن أقوال عمر المشهورة : والله لو جاءت الاعاجم بالاعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة فلا ينظر رجل الى القرابة وليعمل لما عند الله فمن قصَّر به عمله لا يسرع به نسبه

ولعمرى ان الذين يجزمون بأن الخلافة لا بد أن تكون فى قريش ويذهبون الى أن كل خلافة ادعاها غير قرشى فهى غير صحيحة ، مهما كان من فضله ، وكفايته قد يجدون فى قول عمر (لو كان سالم مولى أبى حذيفة حيًّا لوليته أو لاستخلفته) مالا ينطبق عليه جزمهم وما يجعلهم يتفكرون

ثم نعود الى حديث الشورى فنقول ان عمر أوصى عثمان بأنه ان ولى هذا الامر لا يحمل بنى أبى معيط على رقاب الناس ، وأوصى علياً بأنه ان ولى هذا الامر لا يحمل بنى هاشم على رقاب الناس ثم قال للستة : قوموا فتشاوروا فامرّوا أحدكم . قال عبد الله بن عمر : فقاموا يتشاورون ، فدعانى عثمان مرةً أو مرتين ليدخلنى فى الامر ولا والله ما أحب انى كنت فيه علماً انه سيكون فى أمرهم ماقال أبى والله لقلَّما رأيته يحرك شفتيه بشئ الا كان

حقاً.(١) فاما أكثر عثمان عليّ قلت : ألا تعقلون أتؤمرّون وأمير المؤمنين حى . فوالله لكأنما أيقظت عمر من مرقد. فقال عمر : امهلوا فان حدث بى حدث فليصلِّ بكم صهيب ثلاث ليال ثم أجمعوا أمركم فمن تأمَّر منكم على غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه

ولما طعن أبو لؤلؤة عمر ثلاث طعنات وطعن من يليه قال عمر : أدركوا الكلب فقد قتلنى . فادركوه فانتحر أبو لؤلؤة بخنجره الذى طعن به الامام ثم أدرك عمر النزف فقال : قولوا لعبد الرحمن بن عوف ليصلِّ بالناس . فاحتمل الناس عمر الى بيته وفيهم عبد الله بن عباس قال ابن عباس : فلم أزل عند عمر ولم يزل فى غشية واحدة حتى أسفر الصبح فلما أسفر أفاق فنظر فى وجوهنا فقال : أصلَّى الناس ؟ فقلت : نعم فقال : لا اسلام لمن ترك الصلاة . ثم دعا بوضوء فتوضأ ثم صلى ثم قال : أخرج يا عبد الله بن عباس فسل من قتلنى؟ فخرجت حتى فتحت باب الدار فاذا الناس مجتمعون جاهلون بخبر عمر . فقلت : من طعن أمير المؤمنين ؟ فقالوا : طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة . فدخلت فاذا عمر يُبِد فىّ النظر يستأنى خبر مابعثنى اليه فقلت : أرسلنى أمير المؤمنين لاسأل من قتله فكلمت الناس فزعموا انه طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ثم طعن معه رهطاً ثم قتل نفسه . فقال عمر : الحمد لله الذى لم يجعل قاتلى يحاجُّنى عند الله بسجدة سجدها له قط ما كانت العرب لتقتلنى

ويقال ان عمر لما طعنه أبو لؤلؤة أول طعنة ظن كلبا قد عقره ولم يعلم أن رجلاً طعنه الا عند الطعنة الثالثة. وكان أبو لؤلؤة من سبى نهاوند أى فارسياً وكان اذا جاء السبى الى المدينة نظر الى الصغار منهم وجعل يمسح رؤوسهم ويبكى ويقول : ان العرب أكلت كبدى . فظاهرٌ أنه ما حمله على قتل عمر الا حب الانتقام من العرب الذين كانوا هزموا العجم لا سيما فى واقعة نهاوند وأزالوا ملك الأكاسرة وكان كل ذلك فى زمان عمر . فهى احنة فى صدر فارسى عن زوال ملك قومه وسبى من سبى منهم واستذلال العرب اياهم فتشفّى

---

(١) قلت ومما تحقق من كلامه رضى الله عنه ان أقارب عثمان رضى الله عنه عثوا فى أيامه فكانت تلك الفتنة التى أدت الى قتله والى ماعقب ذلك من الفتن والمصائب التى وقفت بسير الاسلام الى الامام ، ولم تزل تفعل فى هذه الأمة فعلها الى اليوم

منها بقتل أمير العرب الذين أذلوا قومه . وكان عمر لما دخل عليه أمراء العجم أسرى وفيهم الهرمزان قد قال لهم : الحمد لله الذى أعز الاسلام وخذلكم . فيظهر أنها بقيت هذه الكلمة تعمل فى قلوبهم . وكان عمر لا يأذن لسبي قد احتلم فى دخول المدينة حتى كتب اليه المغيرة ابن شعبة وهو على الكوفة يذكر له غلاما عنده صَنَعاً و يستأذنه أن يدخله المدينة ويقول ان عنده أعمالاً كثيرة فيها منافع للناس انه حداد نقّاش نجار فأذن له عمر فى ارساله الى المدينة وضرب عليه المغيرة مائة درهم كل شهر فجاء الى عمر يشتكى اليه شدة الخراج فقال له عمر : ما ذا تحسن من العمل فذكر له الاعمال التى يحسن فقال له عمر : ما خراجك بكثير فى كنه عملك فانصرف ساخطاً يتذمَّر فلبث عمر ليالى ثم مرّ به العبد فدعاه فقال له ألم أحدَّث أنك تقول لو أشاء لصنعت رحًى تطحن بالريح ؟ فالتفت العبد ساخطاً عابساً الى عمر ومع عمر رهط فقال : لاصنعن لك رحًى يتحدث بها الناس . فلما ولى العبد أقبل عمر على الرهط الذين معه فقال لهم : أوعدنى العبد آنفا . فلبث ليالى ثم اشتمل أبو لؤلؤة على خنجر ذى رأسين نصابه فى وسطه فكمن فى زواية من زوايا المسجد فى غلس السحر فلم يزل هناك حتى خرج عمر يوقظ الناس لصلاة الفجر فلما دنا منه عمر وثب عليه فطعنه ثلاث طعنات احداهن تحت السرة خرقت الصفاق وهى التى قتلته ثم انحاز أيضاً على أهل المسجد فطعن من يليه حتى طعن سوى عمر أحد عشر رجلا ثم انتحر بخنجره . وعن عمرو بن ميمون قال : شهدت عمر حين طعن ، أتاه أبو لؤلؤة وهو يسوى الصفوف فطعنه وطعن اثنى عشر معه هو ثالث عشر فأنا رأيت عمر باسطاً يده وهو يقول : أدركوا الكلب فقد قتلنى فماج الناس وأتاه رجل من ورائه فأخذه ومات ستة أو سبعة ممن طعنهم فحمل عمر الى منزله فأتاه الطبيب فسقاه نبيذاً فخرج من احدى طعناته فسقاه لبناً فخرج فقال له الطبيب : أوص بما كنت موصياً فوالله ما أراك تمسى . وفى رواية أبى الحويرث أن أبا لؤلؤة عند ما قال له عمر : الا تجعل لنا رحًى ؟ أجابه : بل أجعل لك رحًى يتحدث بها أهل الأمصار . ففزع عمر من كلمته وكان على بن أبى طالب معه فقال له عمر : ما تراه أراد ؟ فقال : أوعدك ياأمير المؤمنين . قال عمر : يكفيناه الله قد ظننت أنه يريد بكلمته غوراً .

وقالوا انه لما طعن عمر اجتمع اليه البدريون المهاجرون والأنصار فقال لابن عباس :

اخرج اليهم فسلهم عن ملأ منكم ومشورة كان هـذا الذى أصابنى . فخرج ابن عبـاس فسألهم فقال القوم : لا والله لوددنا أن الله زاد فى عمرك من أعمارنا . ولما طعن عمر كان كلامه : وكان أمر الله قدراً مقدوراً وقال : ألم أقل لكم لا تجلبوا علينا من العلوج أحداً فغلبتمونى . ولم يترك عمر صلاة الفجر بعد أن طعن وصلى وجرحه يثعب دماً ، وقال عند ذلك : لاحظ فى الاسلام لمن ترك الصلاة . ولما أيقن عمر بالموت وارتجّ البيت بكاءً قال : والله لو أنّ لى ما على الأرض من شئ لافتديت به من هول المطلع . فقال ابن عباس : والله انى لأرجو أن لا تراها الا مقدار ما قال الله « وانْ منكمْ الاّ وَارِدُها » ان كنت ما علمنـا لأمير المؤمنين وأمين المؤمنين وسـيد المؤمنين تقضى بكتاب الله وتقسم بالسوية فأعجبه قوله واستوى جالساً وقال : أتشهد لى بهـذا يا ابن عباس ؟ قال نعم . وفى رواية أخرى أنه لما شرب عمر اللبن وخرج من جرحه بكى وأبكى من حوله فقال : هـذا حينٌ لو أنّ لى ما طلعت عليـه الشمس لافتديت به من هول المطلع . قالوا : وما أبكاك الا هـذا ؟ قال : ما أبكانى غيرهُ فقال له ابن عباس : يا أمير المؤمنين والله ان كان اسلامك لنصراً وان كانت امامتك لفتحاً والله لقد ملأت امارتك الأرض عدلاً ما من اثنين يختصمان اليك الا انتهيا الى قولك . فقال عمر : أجلسونى فلما جلس قال لابن عباس : أعِد علىّ كلامك . فلمـا أعاد عليه قال : أتشهد لى بذلك عند الله يوم تلقاه ؟ قال ابن عباس : نعم ففرح عمر بذلك وأعجبه . وحق عمر أن يفرح بشهادة مثل عبد الله بن عباس

وروى عن عبد الرحمن بن أبى بكر أنه قال حين طعن عمر : مررت على أبى لؤلؤة ومعه جفينة والهرمزان وهم نجىّ فلما بغتُّهم ثاروا فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصابه وسطه فانظروا ما الخنجر الذى قتل به عمر ؟ فوجدوه الخنجر الذى نعته عبـد الرحمن بن أبى بكر فانطلق عبيـد الله بن عمر حين سمع ذلك من عبـد الرحمن ومعه السـيف فأتى الهرمزان فقال له امض معى حتى ننظر الى فرس لى فلما مضى بين يديه علاه بالسيف قال عبيد الله بن عمر : فلما وجد حرّ السيف قال لا اله الا الله . وأما جفينة ، فكان من نصارى الحيرة وكان ظئراً لسعد بن أبى وقاص ، وكان يعلم الكتاب بالمدينة فجاءه عبيد الله بن عمر وقتله أيضاً ، ولما علاه بالسيف صلّب بين عينيه ثم انطلق فوجد ابنة صغيرة لأبى لؤلؤة تدعى

الاسلام فقتلها فاجتمع عليـه المهاجرون والأنصار ونهوه و توعدوه فازداد غضباً وعرّض ببعض المهاجرين فلم يزل عمرو بن العاص به حتى أخذ منه السيف . ثم أقبـل سعد بن أبى وقاص فتشاجر هو وعبيد الله وتناصيا حتى حجزوا بينهما . ثم أقبل عثمان بن عفان قبـل أن بو يع فتناصيا أيضاً فحجز الناس بينهما . وأظلمت الأرض على الناس ذلك اليوم . ثم بو يع عثمان بالخلافة فدعا المهاجرين والأنصار فقال : أشيروا علىّ فى قتل هذا الرجل الذى فتق فى الدين ما فتق . فاجتمع المهاجرون على كلمة واحدة يشايعون عثمان على قتله ، وجلّ الناس الأعظم مع عبيد الله يقولون عن الهرمزان وجفينة : أبعدهما الله و يقولون : أما كفى قتل عمر فتريدون أن تتبعوا عمر ابنه . فكثر فى ذلك اللغط والاختلاف الى أن جاء عمرو ابن العاص الى عثمان فقال له : يا أمير المؤمنين ان هذا الأمر قد كان قبل أن يكون لك على الناس سلطان فأعرض عنهـم فسمع عثمان كلامـه ووُدِى الرجـلان والجارية وأمسك عثمان عن قتـل عبيـد الله بن عمر وتفرق الناس وكان عثمان يقول لعبيـد الله بن عمر وهو يناصـيه : قاتلك الله قتلت رجلا يصلى [1] وصبية صغيرة وآخر من ذمـة رسول الله صـلى الله عليه وسلم ما فى الحق تركك [2] . وقيل ان عثمان وسعداً كانا يومئذ أشد أصحاب رسول الله على عبيد الله بن عمر وما كفّ عثمان عن قتله الا بما قاله له عمرو بن العاص .

وأما دفن عمر رضى الله عنـه بجانب رسول الله صـلى الله عليه وسلم وأبى بكر الصديق رضى الله عنـه فان عمر اسـتأذن عائشة فى ذلك فأذنت له ، ثم دعا ابنـه عبد الله بن عمر فقال له : يا بُنىّ انى قد أرسلت الى عائشة أستأذنها أن أُدفن مع أخوَىّ فأذنت لى وأنا أخشى أن يكون ذلك لمكان السلطان فاذا متّ فاغسلنى وكفنّى ثم احملنى حتى تقف بى على باب عائشة . فتقول هذا عمر يستأذن الخ فان أذنت فادفنّى معهما والا فادفنّى بالبقيع . قال ابن عمر فلما مات أبى فحملناه حتى وقفنا به على باب عائشة فأذنت بدفنه بجانب رسول الله و بجانب أبيها وكان قد دفن أبو بكر على مساواة منكب رسول الله ﷺ فدفن عمـر على مساواة حقويه . وكانت وفاة عمر عن ثلاث وستين سنة وقيل عن ٦٠ وقيل عن ٥٥ سنة

---

(١) يعني الهرمزان

(٢) يعنى بالآخر جفينة النصرانى

وقد طعنه أبو لؤلؤة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة ٢٤ وكانت مدة خلافته ١٠ سنوات وخمسة أشهر واحدى وعشرين ليلة — وأبو الفداء يقول عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام — من متوفى أبى بكر رضى الله عنهما

تولى الأمر عشر سنوات فملأ بها الأرض فتوحات ونصب للاسلام بضعة عشر ألف منبر، فياليت شعرى ماذا كان تم للاسلام من الظهور لو عاش فى الامارة ٢٠ سنة أو ٣٠ سنة أو أكثر وقبل أن فاضت روح عمر بساعة قال لأبى طلحة الأنصارى : يا أبا طلحة كن فى خمسين من قومك من الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى فانهم فيما أحسب سيجتمعون فى بيت أحدهم فقم على ذلك الباب بأصحابك فلا تترك أحداً يدخل عليهم ولا تتركهم يمضى اليوم الثالث حتى يؤمّروا أحدهم اللهمّ أنت خليفتى عليهم . فما دفن عمر حتى عمل أبو طلحة بما أوصاه به الى أن بويع عثمان بن عفان . وغسل عمر ثلاثاً بالماء والسدر وكان أوصى بأن لا يغسلوه بمسك وصلى على عمر فى مسجد الرسول بين القبر والمنبر، وكان المصلى عليه صهيب، قيل ان عمر أوصى بأن يصلى عليه صهيب فعملوا بوصيته . ولما صلى عليه جاء عبد الله بن سلام فقال : لئن سبقتمونى بالصلاة عليه لا تسبقونى بالثناء عليه فقام عند سريره وقال : نعم أخو الاسلام كنت يا عمر جواداً بالحق بخيلاً بالباطل ترضى حين الرضى وتغضب حين الغضب، عفيف الطرف، طيب الظرف، لم تكن مدّاحاً ولا مغتاباً، ثم جلس . وأورد محمد بن سعد فى الطبقات حديثاً عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ساقه من ثلاثة عشر طريقاً بأسانيد مختلفة مع اختلاف قليل فى لفظ الحديث وهو : أتى علىّ وعمر مسجىّ فقال : ما على وجه الأرض رجل أحبّ الىّ من أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجىّ . وقال عبد الرحمن بن غنم يوم مات عمر : اليوم أصبح الاسلام مولياً ما رجل بأرض فلاة يطلبه العدو فأتاه آتٍ فقال له : خذ حذرك بأشدّ فراراً من الاسلام اليوم . وعن زيد بن وهب : أتينا عبد الله بن مسعود فذكرنا عمر فبكى حتى ابتلّ الحصى من دموعه وقال : ان عمر كان حصناً حصيناً للاسلام يدخلون فيه ولا يخرجون منه فلما مات عمر انثلم الحصن فالناس يخرجون من الاسلام . ومما قال ابن مسعود : لو اعلم عمر يحب كلباً لأحببته والله انى أحسب العِضاه قد وجد فقد عمر . وبكى سعيد بن زيد يوم مات عمر

وقال : اليوم يهى أمر الاسلام . وفى رواية قال : على الاسلام أبكى ان موت عمر ثلم الاسلام ثلمة لا ترتق الى يوم القيامة . ولأبى عبيدة بن الجراح فى عمر بن الخطاب كلام قد صح كله قال : اذا مات عمر رقّ الاسلام ما احب أن لى ما تطلع عليه الشمس أو تغرب وانى أبقى بعد عمر فقال قائل : ولم ؟ قال : سترون ما أقول ان بقيتم اما هو فانه ولى وال بعد عمر فاخذهم بما كان عمر يأخذهم به لم يطع له الناس بذلك ولم يحملوه وان ضعف عنهم قتلوه وعن الحسن بن على : أى أهل بيت لم يجدوا فقد عمر فهم أهل بيت سوء . وعن حذيفة : كان الاسلام فى زمن عمر كالرجل المقبل لا يزداد الا قرباً فلما قتل رحمه الله كان كالرجل المدبر لا يزداد الا بعداً . وقال أنس بن مالك نقلاً عن أبى طلحة وقد رأى أصحاب الشورى وما يصنعون : لأنا كنت لأن تدافعوها أخوف منى من أن تنافسوها فوالله ما من أهل بيت من المسلمين الا وقد دخل عليهم فى موت عمر نقص فى دينهم وفى دنياهم

وقيل فى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذا الرثاء :

جزى الله خيراً من أمير و باركت يد الله فى ذاك الأديم الممزَّقِ
فمن يَسعَ أَو يركب جناحَىْ نعامةٍ ليُدْرِكَ ما قَدَّمْتَ بالامس يُسبَقِ
قضيت أموراً ثم غادرتَ بعدها بَوائقَ فى أكمامها لم تُفتَّقِ

ولم يعرف قائل هذه الابيات . وقيل انها سمعت فى موسم الحج قبل وفاة عمر . وعلى كل حال فهى من الشعر الذى يصح أن يوصف بقوله :

وان أَحْسَنَ بيتٍ أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته صدقا

فانه قلما وجدَ امام أجدر بسلام الله من هـذا الامام . وانه مهما جد الخلفاء والملوك العادلون فلم يدركوا شأوه . أما البوائق التى أشار اليهـا صاحب الابيات الـثلاثة فقد بدأ ظهورها فى زمن عثمان رضى الله عنه بسبب أقارب بنى أبى مُعَيْط وتفتَّقت فى حرب الجمل وحرب صفين ، وغير ذلك من الفتن التى عقلت الاسلام عن التقدم فى الارض بعد أن كاد يغلب عليها .

وعمر بن الخطاب هو أول من سمى بامير المؤمنـين ، وهو أول من كتب التاريخ فى شهر ربيع الاول سنة ست عشرة كتبه من هجرة النبي ﷺ من مكة الى المدينة وهو أول من جمع القرآن فى المصحف وهو أول من سنّ قيام شهر رمضان ، وجمع الناس على

ذلك وكتب الى الآفاق فى شهر رمضان سنة أربع عشرة وجعل للناس بالمدينة قارئين قارئا يصلى بالرجال وقارئاً يصلى بالنساء . وهو أول من ضرب فى الخمر ثمانين جلدة واشتد على أهل الريب والتهم ، وأحرق بيت رويشيد الثقفى وكان حانوتاً ، وغرّب ربيعة بن أمية بن خلف الى خيبر وكان صاحب شراب فلحق ربيعة بأرض الروم وارتد . وكان عمر أول من عسّ فى عمله بالمدينة وكان له عصا اسمها الدِّرّة يؤدب بها ولقد قيل بعده : لدرة عمر أهيب من سيفكم . وهو أول من فتح الفتوح وهى الأرضون والكور التى فيها الخراج والفئ فتح العرق كله السواد والجبال واذربيجان وكور البصرة وأرضها وكور الأهواز وفارس وكور الشام ما خلا أجنادَيْن فانها فتحت فى خلافة أبى بكر الصديق ، وفتح عمر كور الجزيرة والموصل ومصر والاسكندرية وقتل رحمه الله وخيله على الرى بفارس وقد فتحوا عامتها . وهو أول من مسح السواد وأرض الجبل ووضع الخراج على الأرضين والجزية على جماجم أهل الذمة ، فوضع على الغنى ٤٨ درهماً وعلى الوسط ٢٤ وعلى الفقير ١٢ درهماً و بلغ خراج السواد والجبل فى عهده ١٢٠ مليوناً . وهو أول من مصّر الأمصار الكوفة والبصرة والجزيرة والشام ومصر والموصل وأنزلها العرب . وهو أول من استقضى القضاة فى الأمصار وهو أول من دوّن الديوان وكتب الناس على قبائلهم وفرض لهم الأعطية من الفئ وقسم القسوم فى الناس وفرض لأهل بدر وفضلهم على غيرهم ، وفرض للمسلمين على أقدارهم وتقدمهم فى الاسلام . وبدأ بالأقرب للأقرب لرسول الله ﷺ بنى هاشم ثم بنى تيم ثم بنى عدى . فجاء بنو عدى رهط عمر فقالوا أنت خليفة رسول الله فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم قال : بخ بخ بنى عدى أردتم الأكل على ظهرى لأَنْ أذهب حسناتى لكم لا والله حتى تأتيكم الدعوة ولو أن تكتبوا آخر الناس والله ما أدركنا الفضل فى الدنيا ولا ما نرجو من الآخرة الا بمحمد ﷺ فهو شرفنا وقومه أشرف العرب ثم الأقرب فالأقرب . وكان القوم اذا استووا فى القرابة برسول الله ﷺ قدم عمر أهل السابقة وكان أبو بكر قد سوّى بين الناس فى القسم فقيل لعمر فى ذلك فقال لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه . فبدأ بمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار وفرض لمن كان له اسلام كاسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ، ومن شهد أُحُداً فرضاً واحداً وكان عمر أول من حمل الطعام فى السفن من مصر الى الحجاز وكان يخاف على المسلمين

فى بادئ الأمر من ركوب البحر فنهاهم عنه اشفاقا عليهم ولكنهم ركبوه فيما بعد عند اتساع الفتوحات وكان اذا بعث عاملا على مدينة كتب ماله واذا عزل عاملا قاسمه ماله وجعل ذلك القسم فى بيت المال ومن هؤلاء الذين قاسمهم مالهم سعد بن أبى وقّاص وأبو هريرة . وكان يستعمل مثل عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان والمغيرة بن شعبة ويدع من هو أفضل منهم مثل عثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف وذلك لاشراف عمر على أولئك وهيبتهم له وقيل له : مالك لاتولى الأكابر من أصحاب رسول الله عليه السلام فقال : أكره أن ادنسهم بالعمل . واتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج اليه يعين به المنقطع والضيف ينزل بعمر . ووضع فى السبل بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به ويُحمَل من ماء الى ماء . وزاد عمر فى مسجد رسول الله ﷺ ووسعه لما كثر الناس بالمدينة ووضع نصب عينه أن لايجتمع فى جزيرة العرب دينان فأجلى اليهود منها الى الشام ، وأخرج نصارى نجران وأنزلهم ناحية الكوفة وأعطاهم بدل أملاكهم فى نجران . وخرج الى الشام سنة ست عشرة وقسم الغنائم بالجابية وحضر فتح بيت المقدس ، وأبقى كل شئ هناك على حاله وأمتع المسيحيين واليهود بحريتهم الدينية ، وأبى أن يصلى فى كنيسة القيامة عندما أدركته الصلاة مع أن البطريرك دعاه لذلك بل خرج من الكنيسة وصلى فى مكان آخر حتى لايأتى المسلمون من بعده فيقولوا هنا صلى عمر فيأخذوا الكنيسة من أيدى النصارى . وحجّ عمر بالناس عشر سنين . ولم يكن عمر يريد اشتغال المسلمين فى الزراعة ولم يكن ذلك منه اهمالاً لهذه بل كان أول من يَقدِرُها قدرها ولكنه لم يشأ أن يشغلهم فى ذلك الوقت عن الفتوحات ، وكان يعلم أنهم لو اشتغلوا بالزراعة لأحبوا أراضيهم ففترت هممهم وتخلفوا عن الجهاد وهو يعلم أنه اذا اتسعت الفتوح وضرب الاسلام بجرانه فى المشارق والمغارب أمكن المسلمين فيما بعد أن يتعاطوا الفلاحة ويحسنوها . وكان عمر يقول عن الامارة انها أمر لايصلح الا بالشدة التى لاجَبَريَّة فيها وباللين الذى لاوهن فيه . وكانت هيبة عمر فى صدور الناس فوق تصور العقل لما كانوا يعلمون من أنه لايرعى فى الحق خليلا . واجتمع مرة على ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير، وقالوا لعبد الرحمن بن عوف وكان أجرأ الصحابة على عمر. ياعبد الرحمن لو كلمت أمير المؤمنين فانه يأتى الرجل طالب الحاجة فتمنعه هيبته أن يكلمه فى

حاجة حتى يرجع ولم يقض حاجته . فدخل عليه فكلمه فقال : يا أمير المؤمنين لِنْ للناس فانه يقدم القادم فتمنعه هيبتك أن يكلمك فى حاجته حتى يرجع ولم يكلمك قال : ياعبدالرحمن أنشدك الله أعلى وعثمان وطلحة والزبير وسعد أمروك بهذا قال اللهم نعم قال : ياعبد الرحمن والله لقد لنت لهم حتى خشيت الله فى اللين ثم اشتددت عليهم حتى خشيت الله فى الشدة . وكان رحمه الله من أشد خلق الله تواضعاً وأخشعهم لله قيل انه رقى المنبر ذات يوم فحمد الله ثم قال أيها الناس لقد رأيتنى ومالى من اكال يأكله الناس الا أنّ لى خالات من بنى مخزوم فكنت أستعذب لهنّ الماء فيقبضن لى القبضات من الزبيب. ثم نزل من على المنبر فقيل له ما أردت بهذا يا أمير المؤمنين فقال : انى وجدت بنفسى شيئا فأردت أن أطأطئ منها . وكان مرةً ماراً بضحيان فقال لأصحابه لا اله الا الله المعطى ماشاء من شاء كنت أرعى ابل الخطاب فى هذا الوادى فى مدرعة صوف وكان فظاً يرعبنى اذا عملت و يضربنى اذا قصرت وقد أصبحت وليس بينى و بين الله أحد . وقال مرة أحب الناس الىّ من رفع الىّ عيوبى . ورأى الهرمزان عمر نائماً فى المسجد فقال هذا والله الملك الهنئ .

* * *

هذه نبذة من سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أكثرها متواتر أجمعت عليه الرواة وان وقع اختلاف فى بعض الروايات من جهة اللفظ فلم يقع من جهة المعنى بحيث لايخامر الانسان شك فى أن سيرة عمر كانت هى هذه كما وصفها الناس بالتواتر خلفا عن سلف ، ولولم تكن هذه سيرته حقاً لما كانت هيبة الاسلام بلغت تلك الدرجة التى بلغتها فى أيامه ولو لم يكن عمر ذلك الأمير العادل الذى لاتأخذه فى الحق لومة لائم لما كان العدل العمرى مثلاً سائراً بين الناس الى يوم الناس هذا . ولقد أردنا بنقل هذه الشواهد من سيرته رحمه الله تعريف حقيقة الخلافة فى الاسلام واثبات أنها ليست فى شئ من الملك العضوض الذى جدّ بعد الخلفاء الراشدين والذى عليه ملوك الأعاجم فسيرة عمر هى مثال بارز يأخذ منه القارئ صورة حقيقية عن كيفية الاسلام فى زمان الخلفاء الراشدين وعن روح الامارة التى أمرهم بها الشارع ﷺ فكانوا كلما تمشوا عليها أفلحوا وسادوا وكلما انحرفوا عنها وهنوا وفشلوا (إِنَّ اللهَ لَايُغَيِّرُ مَابِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

الفصل الاول من الكتاب

في اليقظة الاسلامية

في القرن الثامن عشر كان العالم الاسلامى قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ ، ومن التدنى والانحطاط أعمق دركة ؛ فاربدّ جوه وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه ورجا من أرجائه وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب ؛ وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربى ؛ واستغرقت الأمم الاسلامية فى اتباع الاهواء والشهوات ؛ وماتت الفضيلة فى الناس ؛ وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة ؛ وانقلبت الحكومات الاسلامية الى مطايا استبداد وفوضى واغتيال ؛ فليس يرى فى العالم الاسلامى ذلك العهد سوى المستبدين الغاشمين كسلطان تركية وأواخر ملوك المغول فى الهند ؛ يحكمون حكماً واهناً فاشى القوة متلاشى الصبغة ؛ وقام كثير من الولاة والأمراء يخرجون على الدولة التى هم فى حكمها وينشئون حكومات مستقلة ولكن مستبدة كحكومة الدولة التى خرجوا عليها ؛ فكان هؤلاء الخوارج لا يستطيعون اخضاع من فى حكمهم من الزعماء هنا وهناك ؛ فكثر السلب والنهب ؛ وفقد الأمن ؛ وصارت السماء تمطر ظلماً وجوراً ، وجاء فوق جميع ذلك رجال الدين المستبدون يزيدون الرعايا ارهاقاً فوق ارهاق ، فغلت الأيدى ؛ وقعد عن طلب الرزق ؛ وكاد العزم يتلاشى فى نفوس المسلمين ؛ وبارت التجارة بواراً شديداً ؛ وأهملت الزراعة ايما اهمال .

وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء ؛ فالبست الوحدانية التى علمها صاحب الرسالة الناس سجفاً من الخرافات وقشور الصوفية ؛ وخلت المساجد من أرباب الصلوات وكثر عديد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان الى مكان يحملون فى أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات ، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم فى الحج الى قبور الأولياء ؛ ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور ؛ وغابت عن الناس فضائل القرآن فصار يشرب الخمر والأفيون فى كل مكان ؛ وانتشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير خشية ولا استحياء . ونال مكة المكرمة والمدينة المنورة ما نال غيرهما

من سائر مدن الاسلام ، فصار الحج المقدس الذى فرضه النبي على من استطاعه ضربا من المستهزآت ، وعلى الجملة فقد بدل المسلمون غير المسلمين وهبطوا مهبطا بعيد القرار ، فلو عاد صاحب الرسالة الى الأرض فى ذلك العصر ورأى ما كان يدهى الاسلام ، لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين ، كما يلعن المرتدّون وعبدة الأوثان (١)

وفيما العالم الاسلامى مستغرق فى هجعته ومدلج فى ظلمته ، اذا بصوت قد يدوى من قلب صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ، يوقظ المؤمنين ويدعوهم الى الاصلاح والرجوع الى سواء السبيل والصراط المستقيم ، فكان الصارخ هذا الصوت انما هو المصلح المشهور محمد بن عبد الوهاب الذى أشعل نار الوهابية فاشتعلت واتقدت ، واندلعت ألسنتها الى كل زاوية من زوايا العالم الاسلامى . ثم أخذ هذا الداعى يحض المسلمين على اصلاح النفوس واستعادة المجد الاسلامى القديم والعز التليد ، فتبدت تباشير صبح الاصلاح ثم بدأت اليقظة الكبرى فى عالم الاسلام .

ولد محمد بن عبد الوهاب فى نجد الواقعة فى قلب الصحراء العربية ، حوالى سنة ١٧٠٠ م وكانت نجد فى ذلك العصر ، على انحطاط العالم الاسلامى وتدليه ، أنقى البلدان اسلاماً وأطهر الأقطار دينا . وقد عرفنا فيما أسلفنا من الكلام كيف كانت تنتقل الخلافة من دور الشورى الى دور الاستبداد الشرقى وكيف أخذ على أثر ذلك العرب الأحرار أباة الضيم يعودون أدراجهم الى الصحراء حيث امتنعوا بحريتهم فى حرز بلادهم وموطنهم ، وصدوا عنهم كل حامل عليهم . فلا خليفة ولا سلطان غرّر بنفسه يوما لاختراق تلك الصحارى الرملية المحرقة والتوغل فى فيافيها المهلكة حيث الموت الكريه كامن على الدوام لكل طامع غريب دخيل . فالعرب هناك لم يعرفوا قط حاكما عليهم ، بل دأبهم دوما الحل والترحال وارتياد المنتجعات فى مختلف الواحات فى قلب الصحراء . وفى هذا الحصن المنيع

(١) لو أن فيلسوفاً تقريساً من فلاسفة الاسلام ، أو مؤرخاً عبقرياً بصيراً بجميع أمراضه الاجتماعية ، أراد تشخيص حالته فى هذه القرون الأخيرة ما أمكنه أن يصيب المحز وأن يطبق المفصل تطبيق هذا الكاتب الأميركى ستودارد . (ش)

استطاع العرب منذ القديم الاحتفاظ بفضائلهم الدينية لا تشوبها شائبة ، ورابطتهم السياسية لا تنفخ فى بنيانها ريح . أما البدو الرحل فالزعامة فيهم لشيوخهم الذين يتولون القيام على أحكامهم وتدبير شؤونهم . وأما الحضر فى الواحات فالزعامة فيهم على الغالب لشيوخ الأسر العليا منزلةً ومكانةً ، بيد أن مبلغ ما فى أيدى هؤلاء الشيوخ من السلطة المطاعة حق الطاعة انما هى سلطة صورية واهنة ، لا تقوى على الدوام على الوقوف فى وجه تيار العادات القومية والعرف . وجل ما استطاع الترك اخضاعه من بلاد العرب هو أنهم بسطوا شيئاً من سلطانهم على الأماكن المقدسة الحجازية وساحل البحر الأحمر . أما نجد ، البلاد الداخلية ، فقد ظلت حرة مستقلة . وما برح عرب الصحراء فيها يغالون فى الاحتفاظ بما يتحدر اليهم من آبائهم وأجدادهم من فضائل الدين ووحدة السياسة وعروة الجامعة ، فلذلك ما انفكوا قط ينعون على العالم الاسلامى سقوطه فيما نهت الرسالة عنه وهم يزيدون استمساكا بالاسلام على أصله وجوهره ولبابه ، وذلك حقا مما يلائم طبائعهم ويتفق مع أمزجتهم .

هكذا كانت حالة نجد لما ولد فيها ابن عبد الوهاب . واذ كان منذ أول شأنه شديد الميل الى الاطلاع والتفقه فى الدين ، لسرعان ما اشتهر ذكرهُ وذاع اسمهُ ، فعرف بعلم وافر قواما على التقوى . فحج الى مكة فى أوائل عمره وطلب العلم فى المدينة المنوّرة ، وساح الى كثير من البلاد المجاورة حتى فارس ثم عاد الى نجد مشتعلا غضبا دينيا لما رآه بأم عينه من سوء حالة الاسلام ، فصحت عزيمته على القيام بدعوة الاصلاح . فقضى سنين عديدة راحلا من بلاد الى بلاد فى شبه الجزيرة ، فبشر بالدعوة ، موقظا النفوس ، حتى استطاع بعد جهاد طويل أن يجعل محمداً بن السعود ، وهو أكبر أمراء نجد وأعلى زعمائها كعبا وشأنا يقبل الدعوة ويدخل فيها ، فاكتسب ابن عبد الوهاب بذلك مكانة أدبية عالية ومنزلة اجتماعية رفيعة وقوة حربية لا يستهان بها ، فاستفاد من ذلك استفادة جليلة قد مكنته من بلوغ غايته وادراك غرضه . فتكونت على التوالى وحدة دينية سياسية فى جميع الصحراء العربية شبيهة بتلك الوحدة التى أنشأها صاحب الرسالة ، وفى الواقع فان المنهج الذى نهجه ابن عبد الوهاب ليشبه شبها كبيراً ذاك الذى نهجه الخلفاء الراشدون كأبى بكر وعمر . ولما مات سنة ١٧٨٧ خلفه ابن السعود فكان خير خليفة للمصلح الاسلامى الكبير ، واقتفى الوهابيون آثار خلافة الراشدين ، وعلى ما كان فى يد ابن السعود من القوى الحربية

العظيمة ، فان ذلك ما كان ليصرفه عن أن يكون على الدوام نازلا على رأى الجماعة وشوراها ، فلم يمتهن حرية أتباعه و بنى قومه ، وكانت حكومتــه على عنفها مكينة عادلة فانقطع التعدى وأمن الناس السرقات وانتشر الأمن وسادت الطمانينة والراحة . وعكف على العلم والتهذيب ، فكان فى كل واحة مدرسة ، وفى كل قبيلة بدوية عدد من المعلمين

و بعد أن أخضع ابن السعود نجداً ، وتم له الأمر فى كاملها : أخذ يستعد ليقوم بعمل أكبر ألا وهو اخضاع جميع العالم الاسلامى . ونشر الاصلاح فيه . فجعل نصب عينيه فى المقام الأول تحرير الأماكن المقدسة الحجازية . فكرّ على الحجاز فى صدر القرن التاسع عشر بمقاتلته الشجعان المشتعلين غيرة « دينية» . وكان له ما أراد من الاستيلاء على الأماكن المقدسة ، فلم تستطع قوة الوقوف فى وجه الوهابيين وهم يحملون على الترك ، والترك فى نظرهم أهل الارتداد والجحود ، ومغتصبو الخلافة اغتصابا ، وحقها أن تكون أبداً فى العرب . و بينما كان ابن السعود سنة ١٨١٤ يعد العدة لفتح سوريةوهمته متينة ؛ كان يخيل الى العالم منــه أن الوهابيين متدفقون على الشرق تدفقاً ، وصانعون ما شاءه الله من الاصلاح فى الاسلام

غير أن ذلك ما قــدر ليكون . فلما أيقن سلطان تركية أنه لا يستطيع القضاء على الوهابيين استصرخ بطلا من مشاهير الأبطال ، وهو محمد على ، واستكفاه أمر القضاء عليهم وكان هذا المقدام الالبانى سيد مصر وأميرها ، وواقفا حق الوقوف على قدرة أوربة وشدة باسها وتفوقها ، فدعا اليه ضباطا من أهل الغرب فنظموا له جيشاً قويا ، ودربوه تدريباً على الطراز الغربى ، وجهزوه بمعدات الاسلحة الغربية . وكان غالب هذا الجيش مؤلفاً من المقاتلة الألبانيين الاشداء ، فسرعان ما أجاب محمــد على نداء السلطان فأيقن حينئذ أن الوهابيين على شدة غيرتهم الدينية وحماستهم لن يستطيعوا بعد الوقوف فى وجه البنادق والمــدافع الأوروبيــة يطلق عيارها جنودمجربون . وما هى الا مــدة قصيرة حتى استردت الأماكن المقدسة الحجازية ، ورد الوهابيون على اعقابهم فانقلبوا الى الصحراء ، فاختفت الامبراطورية الوهابية الوليدة للحال اختفاء السراب ، وأرخى الستار على الدور السياسى

الوهابى (١)

بيد أن خاتمة هذا الدور السياسى كانت فاتحة الدور الدينى ،فقد ظلت نجد بؤرة تشتعل فيها نار الغيرة الدينية ، ومنبثق نور تنبعث منه الاشعة الوهاجة الى كل ناحيــة من نواحى الأرض ، وما فتئ الوهابيون منذ قضى على قوتهم السياسية يبثون روح الحركة الدينية فى مئات الألوف من الحجيج الوافدين كل عام الى مكة والمــدينة من كل قطر من أقطار العالم الاسلامى ، فيقتبس هؤلاء ناراً وهابية ثم يعودون الى أوطانهم يشعلون بها ما استطاعوا اشعاله فى سبيل الاصلاح . وهكذا قد استطاع الوهابيون أن يبذروا بذوراً تلاها الاختمار الشديد للثورة الدينية فى كل فج اسلامى ، حتى بلغت دعوتهم الدينية أقصى المعمور فقام فى شمالى الهند الزعيم الوهابى المغالى السيد احمــد (٢) مستنفراً مسلمى بنجاب وأنشأ دولة وهابية . فـكان هذا الزعيم يعد عدته لفتح سائر شمالى الهند فحالت منيته بينه و بين ذلك ، واضمحلت الدولة الوهابية الهندية سنة ١٨٣٠ غير أنه لما جاء الانـكليز يفتحون البلاد عانوا الأمرين من بقايا النار الوهابية الـكامنة فى الرماد ، وظلت هذه النار مخبوءة الى ما شاء الله فـكانت عاملا من عوامل « الثورة الهنــدية » ، ثم استطار من شررها ما تناول أفغانستان وسائر القبائل الهندية عند الحدود الشماليــة الغربية فأشعلها أيما اشعال . وفى تلك الغضون قام السيد محمد بن السنوسى فى الجزائر وأتى مكة ورضع أفاو يق الوهابية فيها ، ثم أخذ يجاهد فى سبيل انشاء الطريقة الدينية المعروفة باسمه تمهيداً للجامعة الاسلامية . وفى ذلك الأوان أيضا نشأت الدعوة البابية (البهائية) فى بلاد فارس ، وهذه الدعوة وان كانت بتعاليمها بعيدة عن تعاليم الوهابية ، غير أنها بلا مشاحة حاملة روحاً كروح الوهابية كأنها منعكس لها .

وخلال جيل تلا اتسعت الدعوة الوهابية بأفقها ومضطربها اتساعا كبيراً ، وتطورت تطوراً عظيما حتى صارت تعرف باليقظة الاسلامية ، ثم اتسعت دعوة اليقظة الاسلامية بأفقها أيضاً حتى تعددت متجهاتها ومناحيها ، وأهم هــذه المتجهات انما هى الدعوة الـكبرى

(١) اقرأ ما يأتى فى الدعوة الوهابية وحركتها :

الاســلام بالقرن التاســع عشر A Le Chatelier, l'Islam au XIXe siècle (Paris 1888)

معتقد الوهابية A. Chodzko "Le d'éisme des Wahabis" Journal Asiatique

(٢) هو غــير « السر السيد احمد » من عليكرة المسلم الهندى الحر المعدود من رجال منتصف القرن التاسع عشر

المعروفة بالجامعة الاسلامية . واننا سنفرد قسما مخصوصاً فى غير موضع من هذا الكتاب للكلام على هذه الدعوة الكبرى نبين فيه سيرها وخطورتها السياسية ، مكتفين الآن بالكلام على سائر وجهات اليقظة الاسلامية ومبلغ مكانتها الدينية والتهذيبية (١)

فالدعوة الوهابية انما هى دعوة اصلاحية خالصة بحتة. غرضها اصلاح الخرق ، ونسخ الشبهات ، وابطال الأوهام ، ونقض التفاسير المختلفة والتعاليق المتضاربة التى وضعها أربابها فى عصور الاسلام الوسطى ، ودحض البدع وعبادة الأولياء ، وعلى الجملة هى الرجوع الى الاسلام والأخذ به على أوله وأصله ، ولبابه وجوهره، أى انما الاستمساك بالوحدانية التى أوحى الله بها الى صاحب الرسالة ، صافية ساذجة ، والاهتداء والائتمام بالقرآن المنزل مجرداً وأما ماسوى ذلك فباطل وليس فى شئ من الاسلام . ويقتضى ذلك الاعتصام كل الاعتصام بأركان الدين وفروضه وقواعد الآداب ، كالصلاة والصوم وغير ذلك ، والكون على السذاجة التامة فى أحوال المعيشة ، وتحريم اتخاذ الملابس الحريرية ، والتأنق فى الأطعمة ، وشرب الخمر والقهوة ، والأفيون والتبغ ، وغير ذلك مما بعضه من أسباب السرف وبعضه الآخر من المضار المفسدة لسلامة العقل ، وليس هذا جميع مافى الأمر ، بل عد الوهابيون المبانى الدينية المزخرفة من نواهى الاسلام . فهدموا قبة قبر الرسول فى المدينة المنورة ، وخربوا مآذن المساجد ، فهم على ايغالهم فى الاعتصام بالفروض الدينية وقواعد الآداب ، كانوا على ضعف شديد فى المدارك وبعد فى التعصب . فلذلك كان من حسن حظ الاسلام أنهم باءوا بخسران سلطتهم السياسية ، فقصروا مساعيهم ودعوتهم على التعاليم الدينية الأدبية فحسب

وقام على أثر ذلك عدد من النقدة،اتخذوا الوهابية دليلا لكلامهم وقالوا انما الاسلام بجوهره وطبائعه غير قابل للتكيف على حسب مقتضيات العصور ومماشاة أحوال الترقى والتبدل ، وليس إلفاً لتطورات الأزمنة وتغيرات الأيام ، بيد أن نقدهم هذا لفاسد باطل ولا

(١) لاينكر أن الوهابية هى نهضة فى الاسلام عظيمة ممتدة فى أكثر بلاد العرب وفى الهند والقائمون بها أولو تعصب شديد، وربما أفرطوا فى مباديهم وغلوا فى عقائدهم شأن جميع المذاهب التى لايقف أتباعها عند الحد الذى وضعه أصحابها . ولكن المقرر أنها حركة انابة الى العقيدة الحق وهدي السلف الصالح واقتفاء أثر الرسول (ص) والصحابة ، ونبذ الخرافات والبدع ، وحظر الاستغاثة بغير الله ، ومنع التمسح بالقبور والتعبد عند مقامات الأولياء ، ولذلك يسمونها عقيدة السلف، ويلقب الوهابيون أنفسهم سلفيين ، وأكثر اعتمادهم فى الاجتهاد على الامام احمد بن حنبل ، والامام ابن تيمية ، وتلميذه ابن قيم الجوزية . (ش)

مسوغ له . اذ قد فاتهم أن الدور الأول لكل أصلاح دينى انما هو الرجوع الى حالة أصل ذلك الدين المراد اصلاحه ، والاستمساك به على حاله الأولى استمساكاً لايحتمل نقد ناقد ولا اتهام متهم . فالمصلح الدينى لايرى سبيلا للقيام بالاصلاح و بلوغ الغاية ، الا بنسخ جميع البدع والأوهام اللاصقة بالدين ، دون اعتبار صفاتها وماهيتها . ليعتبرن العاقل اللبيب أنه لما بدأ الاصلاح البروتستنتى عندنا انما كان مبدؤه على هذه الطريقة ، فقد نبذ المتعصبة المتشددة من البروتستنت المعروفين « بالمتطهرين » المصلح الكبير « أراسيموس » (١) واتهموه بالباطل ، وشددوا عليه النكير ، متعامين قائلين ان الحركة الاصلاحية انما هى افتراء على الدين الصحيح ، ولا شأن لها سوى ابدالها « البابا » المعصوم بالتوراة المعصومة

وأخذت اليقظة الاسلامية تنتشر انتشاراً مزداداً، ومبادىء التجدد والاصلاح الحقيقى تنمو نمواً مطرداً. وكان مما لاشك فيه وأمره طبيعى أن عادت الحرية العقلية الى الظهور شيئا فشيئاً ، فلم يجهد المصلحون المسلمون فى أوائل القرن التاسع عشر كثيراً حتى أدركوا المعتزلة ، فاستكشفوا دفائنها ونفخوا فيها نسمة روحية فصارت الى الحياة . وقد سبق لنا فأتينا على وصف النزاع الذى قام مشتداً بين أرباب مذهب النقل والسنة والتقليد من جانب وأرباب مذهب العقل أعنى المعتزلة من جانب آخر فى أوائل عهد الاسلام ، فكانت الغلبة لأتباع المذهب الأول ، فاختفت المعتزلة وامحت آثارها امحاء حتى عادت فظهرت اليوم الى الوجود بظهور المصلحين الأحرار ، الذين مافتئوا يؤيدون مذاهبهم وآراءهم الاصلاحية ببراهين أولئك الجهابذة السابقين من المعتزلة ، و بأحاديث و بآيات من الكتاب . فمن ذلك استشهادهم على قبول الاصلاح فى الاسلام بما هو مأثور عن صاحب الرسالة من قوله : « انما أنا بشر ، اذا أمرتكم بشئ من دينكم فخذوا به ، واذا أمرتكم بشئ من رأيى فانما أنا بشر » . رواه مسلم بهذا اللفظ عن رافع بن خديج . وقوله أيضاً « انكم فى زمان من ترك فيه عشر ماأمر به هلك ، ثم يأتى زمان من عمل منهم عشر ماأمر به نجا » رواه الترمذى عن أبى هريرة . وروى أحمد فى مسنده عن أبى ذر مرفوعاً : « انكم فى زمان علماؤه

(١) هو سيديريوس اراسيموس (١٤٦٧ — ١٥٣٦ م) أحد الابطال الثلاثة في الاصلاح الانكليزى على عهد آل تودور . وزميلاه يوحنا كوكف (١٤٦٦ — ١٥١٩ م) وتومامور (١٤٧٨ — ١٥٣٦ م) — (المعرب)

كثير وخطباؤه قليل من ترك فيه عشر مايعلم هوى ـ أو قال هلك ـ وسيأتى على الناس زمان يقل علماؤه ويكثر خطباؤه ، من تمسك فيه بعشر مايعلم نجا [١] »

وقبل أن نشرع فى الكلام على آراء هؤلاء المصلحين المسلمين وما قاموا به من الاعمال فى سبيل الاصلاح ، يجدر بنا أن نبحث بحث الممحص الخبير فى نقود النقدة الغربيين ، القائلين ان الاسلام بطبائعه غير قابل للاصلاح، و بماهيته غير مستعد لايلاف روح العصور المترقية بترقى الحضارة والعلوم ، اذ لم ينفرد الجدليون النصارى [٢] وحدهم فى هذه النقود وما يدور حولها أخذاً ورداً بل شاركهم فى ذلك غيرهم فى أبناء الفرنجة كأتباع مذهب العقلية وفيهم « رينان » الفرنسى [٣] ونفر من أعاظم الرجال الذين تقلدوا مناصب الأحكام العالية فى العالم الاسلامى نظير اللورد كرومر [٤] واضرابه . أما هذا الأخير فقد أوجز رأيه بقوله : « الاسلام غير قابل للاصلاح ، أعنى ان الاسلام مجدداً مصلحا انما هو غيره حاضراً بل هو شئ آخر »

وعلى هذا فيجب علينا أن نتدبر حق التدبر أقوال هؤلاء النقدة لوقوفهم أكثر من غيرهم على شؤون الاسلام ، ولأن منهم من عرف المسلمين فى ديارهم عهداً طويلا . على أنه بعد اقامة الوزن لهذا كله لايتردد الباحث المقارن فى تاريخ الأديان ، ولا سيما فى آراء المصلحين المسلمين الحدثاء ، وما استطاعوا القيام به من الاصلاح من القرن الماضى ، أن يدحض جميع هذه المتهمات ادحاضا ، ويجبه أربابها بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة جبهاً

يجب ألا يغرب عن البال أن الاسلام فى يومه هذا انما يجتاز دوراً كذلك الدور الذى قد اجتازته النصرانية فى أوائل عهد الاصلاح فى القرن الخامس عشر . فالدوران حقا

---

(١) نقلنا هذه الاحاديث بنصها الحرفى كما أرشدنا اليها حضرة الاستاذ العلامة السيد محمد رشيد رضا

(٢) اقرأ كتب القس المرسل س . م . زويمر Rev. S.M. Zwemer الآتية : —

« بلاد العرب أو مهد الاسلام » Arabia, The Cadle of Islam (Edinbourg' 1900)

« مفندات الاسلام » Reproach of Islam. (London 1915) و « العالم الاسلامي اليوم » The Mohemmedan World of To-day وهى مجموعة محاضرات وخطب تليت فى مجمع المرسلين البرتستنت المعقود فى القاهرة سنة ١٩٠٦

(٣) كتاب « الاسلام والعلم » Renan, l'Islamisme et La Science (Paris 1883)

(٤) كتاب «مصر الحديثة» Cromer, Modern Egypt. Vol 2 (London 1908)

متشابهان من حيث سيادة عقيدة النقل والتقاليد على عقيدة العقل سيادة مطلقة ، ومن حيث العداء المنتشر للحرية الفكرية والعلوم الطبيعية الصحيحة ، لاينكر أن الواقف على كتب الشريعة الاسلامية والتاريخ الاسلامى للا ُلف الأخير ، يبدو له على الجلة أن الاسلام لم يتفق كل الاتفاق مع الحضارة الحديثة ، والتقدم العصرى ، ولكن نقول أفلم تكن النصرانية على مثل هذه الحالة عينها فى صدر القرن الخامس عشر ؟ فمن يقارن بين الشريعتين الاسلامية والنصرانية من جميع وجوههما ، يرَ أن روح الأولى اليوم : وروح الأخرى بالأمس ، انما هى روح واحدة . فلننظر فى شئ من هذا ، وهو تحريم الربا فى الشريعة الاسلامية تحريماً لو أبيح لكان من شأنه القضاء على التجارة والصناعة باعتبار معنييهما اليوم . وقد كان من أمر غالب هؤلاء النقدة أن يذكروا غير مرة تحريم الربا هذا دليلا على جمود فى الاسلام جمودا يمسك به عن مجاراة الحضارة العصرية بيد أنه يجب الا يند عن البال أن الشريعة النصرانية قد حرمت الربا أيضا تحريماً لايوصف ، وقد كانت متشددة فى ذلك مااستطاعت ، فكانت نتيجة الأمر أن اليهود انبروا للميدان وظلوا قرونا عديدة محتازين التجارة الأروبية وجناة ثمراتها ، لايشاركهم فى ذلك مشارك ولا يزاحمهم مزاحم . وحدث أن « اللمبرديين » أقدموا حينا على التداين بعض التداين ، فعدوا هراطقة النصارى وكفرتهم ، واتهموا بارتكاب النواهى ، واضطهدوا شر اضطهاد . ولننظر فى شئ آخر يزدد الأمر تحققا وانجلاء . يقول متعصبة النقدة أن الاسلام يجافى الحرية الفكرية ، وينكر استكناه الحقائق العلمية الطبيعية فلعمر الحق لو شاء الاسلام أن يحتج على النصرانية ويرد اليها افتراءها ، لكان لديه حجة أدمغ وبرهان أقطع مما هو مدون فى صحف التاريخ النصرانى ان « غاليلو » المشهور قد جلد وعذب ، وأذيق الهول أشكالا ، منذ أقل من ثلثمائة سنة (١) بحضرة المجلس « البابوى » ، ليرتد عن تعطيله وهرطقته التى جاهر بها يومئذ ان الأرض تدور حول الشمس ؟

أيليق بنا بعد جميع هذا أن نتعامى عما قاله محمد فى شأن العلم ؟ وأن ننكر تكريمه له كل التكريم ، وهذه كلماته البليغة مازالت شاهداً على ذلك خالداً ، وهاك بعضها : —

« اطلبوا العلم ولو فى الصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » . رواه العقيلى فى

---

(١) ١٦٣٣

« الضعفاء » ، وابن عدى فى « الكامل » والبيهقى وابن عبد البر عن أنس رضى الله عنه

« اطلب العلم من المهد الى اللحد [١] » .

« لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلى مائة ركعة [٢] » .

« يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء[٣] » .

« العلماء ورثة الأنبياء[٤] » .

« أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال عزّ وجلّ : وعزتى وجلالى ما خلقت خلقاً أكرم علىّ منك ، بك آخذ ، و بك أعطى ، و بك أثيب و بك أعاقب[٥] » .

فهذه الأحاديث وكثير غيرها انما هى برهان على ن الأحرار من المصلحين المسلمين يؤيدون اصلاحهم الحرّ بالنصوص الدينية الماشية لكلّ عصر ، والصالحة لمقتضيات كل دور ولست أعنى بهذا أن دور هذا الاصلاح فى عالم الاسلام ، بحق كونه دوراً اصلاحياً حراً ، سائراً سير التقدم والترقى ، فهو لا محالة مدرك غاية الظفر و بالغ محجة النجح التام . فالتاريخ انما يحوى بين دفتيه كثيراً من أخبار الأمم التى فشلت بعد جهد وحبطت عقب نصب . وقد علمنا فيما تقدم من الكلام كيف نشأت المعتزلة الحرة فى أوائل الاسلام ، وكيف ذوت فجفت فذهبت ريحها . بيد أن الحقيقة الكبرى التى ينبئنا بها التاريخ ، وليس باستطاعة أحد انكارها ، أنه متى ماحان ميقات اليقظة الحقيقية فى أمة ، وأنشأت العصبيةُ الجنسية تدبّ فى عروق أبناء تلك الأمة دبيبا مستمرا ، أصلح الدين لا محالة ، ونفض عنه غبار التقليد اللصوق به ، وحرّر من عهد رسفانه ، وحمل محملاً يلائم روح اليقظة ، وأخذ به أخذاً متفقاً مع متجه النهضة . فهل من أمة من أمم الأرض يقظت يوماً هذه اليقظة فهبت فسارت فى سبيل العلى ثابتة الخطى رابطة الجأش ، فكان الدين حجر عثرة أو علة فشل لها ؟ اللهم لا . قد تبلغ تلك الأمة فترةً تقف فيها مذللةً صعبا من الصعاب ، أو حالةً اربةً من الارب ، أو

(١) أفادنا الاستاذ السيد رشيد رضا أنه لم يره حديثاً نبوياً

(٢) رواه ابن عبد البرمن حديث أنس ، وفى بعض ألفاظه « مائتا ركعة » ورواه آخرون بألفاظ أخرى

(٣) رواه ابن عبد البر عن الشيرازى عن أبى الدرداء رضى الله عنه

(٤) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم عن أبى الدرداء .

(٥) وفى رواية « ما خلقت شيئاً أحسن منك » .

مزيحةً عقبةً قائمةً فى السبيل . ثم ما تزال مستحثةً ركابها ومعملةً المهاميز فى مطيها ، حتى تبلغ الغاية وتقطف ثمرة الجهاد يانعةً . وعلى ذلك فليعلم أنه ليس من الممكن بعد أن العالم الاسلامى يونى عزمه فيتقاعس عن السير الدراك ما دامت روحهُ ثائرةً وعزمه متقداً ، وهو فوق ذلك كله يزداد مساساً مع الحضارة الغربيـة ، واقبالاً عليها وأخذاً عنها . ان العالم الاسلامى لن يستطيع بعد اليوم البقاء على عزلته كما كان فيما مضى ، حتى ولو شاء هذا ، اذ جميع مافيه اليوم انما يبرهن على انقلاب شديد وانفعال عميق وتطورمن حال الى حال. يقول النقدة مثل اللورد كرمر ان الاسلام منقحا ليس الاسلام حاضرا ، بل شيئا آخر ، أليس هذا ترى العجب كل العجب ؟ فلماذا لا يظل الاسلام اسلاماً ؟ أإذا شاء المسلمون أن يظلوا الى ما شاء الله مسلمين، وأن يظلّ دينُهم دينَهم ، وأن يستنيروا أبداً بروح الرسالة المحمدية ، أنـكرنا عليهم اسمهم كأنه شيء يجب أن لا يكون ؟ هذه النصرانية الحديثة تختلف اختلافا بعيداً عما كانت عليه فى الأجيال الوسطى ، وأكثرها اليوم يباين أكثرها بالأمس ، وهناك تناف واسع الشقة وتباين شديد بين بعض الـكنائس والبعض الآخر ، ناهيك بهما من تناف وتباين بعيدى المضطرب والغور ، وعلى هذا كله فجميع الطوائف النصرانية ما برحت تدعى نصرانية ، فبالله علام هذا التعامى فى حق الاسلام ؟

وقد حان لنا الآن بعد الذى تقدم أن نبسط الـكلام على قادة الاصلاح من المسلمين ، مدققين النظر فى ذلك بتجرد عن الهوى بحيث يجب أن تـكون أحكامنا مبنيةً على ما قاله هؤلاء المصلحون القادة من الأقوال وما قاموا به من الأعمـال ، وليس على ما هو مدون عنهم فى بطون الـكتب والتواريخ التى ذهب واصفوها فيها مذهب الغرض ، فقد قال أحد المصلحين المسلمين وهو جزائرى [1] قولا سديداً : — « لا تقاس حضارة أمة بمـا فى كتبها الدينية من السطور والعبارات ، بل بمـا تقوم به تلك الأمة من الأعمال . »

أنشأ المسلمون الأحرار المتأخرون مذهبهم الحر على الأسس التى وضعتها المعتزلة منذ ما يقرب من ألف سنة خلت . ومن تدبر تاريخ الاسلام حق التدبر ، أيقن كل الايقان أن الاسلام لم يخل يوما فى جميع ماضيه حتى فى أشد عصوره حلـكاً من بعض المصلحين الأحرار ذوى العقول النيرة والمدارك الثاقبة والهمم الصادقة ، الذين انمـا كانوا يتوالون الحقبة بعد

(١) هو اسماعيل حامد

الحقبة ، فيصرخون فى المسلمين صرخات الاصلاح الشديدة ، ويرفعون علما من أعلام الهدى والارشاد ، واليك مثالاً من هذا ، فقد كتب الغرانى المشهور ، وهو من رجال القرن السادس عشر : « ليس بعزيزٍ على الله عزّ وجلّ أن يكشف لعباده المخلصين فى المستقبل ما لم يكشف مثله لغيرهم فيما مضى من العصور ، وان ينزل من نعمه الروحانية على مستحقيها من الحكماء فى كل دور ، النعم التى تفيض نوراً على أبصارهم وبصائرهم فتهديهم سواء السبيل »

فهذه الصرخات التى توالت والمصابيح التى أوقدت فى فترات مختلفة طيلة جميع الأجيال التى كرت على الاسلام من بعد انحداره عن الأوج ، قد كان من شأنها أن تمهد السبيل بعض التمهيد للمصلحين المتأخرين ، اذ لم ينتصف القرن التاسع عشر ، حتى كان قد قام فى كل بلد من بلدان المسلمين فى الرقعة الاسلامية عدد من روّاد الاصلاح ودعاته ينبهون ويوقظون ، ويحضون ويستحثون ، بيد أن هؤلاء كانوا نزراً فى بدء عهد الاصلاح الحديث فلاقوا فى سبيل ذلك مثل ما لاقى غيرهم من الذين ساروا سيرهم ، اذ هبّ رجال الدين (١) وسواد السذج يرمون المصلحين بالمروق من الاسلام ، فكان من طبيعة الأمر ظهور النزاع والمشادة بين المسلمين فى سبيل الاصلاح . وقد كانت الهند أول رقعة اسلامية رفعت فيها أعلام الاصلاح ، فقام فيها عصبة من المصلحين ، ذوو عزم شديد وعلى رأسهم « السر » السيد أحمد خان ، وانبروا يجاهدون فى سبيل الدعوة الكبرى للاصلاح الحرّ ، فألفوا الجمعيات ونشروا الكتب والصحف ، وأنشأوا الكلية العلمية الاسلامية فى عليكرة وأما « السر » السيد احمد خان فهو خير مثال من المصلحين الأحرار المتأخرين ، وكان مذهبه مذهب المحافظين المتمسكين بفضائل الدين ، فبكى حالة الاسلام ، وأعظم شقاء المسلمين

(١) كره صاحب الرسالة أن يعين وظائف دينية يتولى القيام بها رجال مخصوصون ، فالاسلام من حيث الأصل لم تنص كتبه الشرعية من من المسلمين يتولى القيام بالوظيفة الدينية ، على حد ما هو الأمر فى النصرانية واليهودية والبرهمية وغيرها . فأي مسلم كان يستطيع أن يقوم فى المصلين اماماً ، بيد أنه على توالى الأيام نشأت طائفة من القوم العارفين بالأصول الشرعية والفقه الاسلامي ودرجت تتولى المناصب الدينية حتى عرفت بالتالى برجال الدين ، ثم نشأت طوائف أخرى كطائفة « الدراويش » وأمثالها . على أن الاسلام لم يكن يعرف شيئاً من هذا فى أول عهده .

متقداً غيرة وهابيةً . وكان يعتبر قدر الحضارة الغربيـة ، ويحض أبناء قومه على ورود منهلها ، وأخذ الصالح منها ، فقد كتب سنة ١٨٦٧ فى هذا الشأن يقول : « يجب علينا أن ندرس الكتب العلمية الغربية ، وان كان مؤلفوها ليسوا بمسلمين ، وكان فيهـا ما يخالف القرآن الكريم ، وأن نأخذ إخذة العرب فى أوائل عهد ملكهم ، فانهم لما شرعوا ينشئون حضارتهم الكبرى لم يترددوا ألبتة فى دراسة كتب فيثاغورس وكتب غـيره من فلاسفة اليونان » .

ثم أخذت دعوة الاصلاح الحرّ تنمو نمواً سريعا فى الهنـد وتزداد قوةً ورسوخا ، وقام فيها من القادة المشهورين عدد كبير أعزوا شأنها اعزازاً كبيرا مثل مولوى شيراغ على والسيد أمير على العبقريين اللذين اشتهرا فى العالم كله بما أخرجاه للنـاس من الكتب القيمة الباحثة فى شئون الاسلام وروحه ، وقد كتبا هذه الكتب [1] باللغة الانكليزية الفصحى فذاعت ذيوعا قلّ أن يعرف له مثيل ، وهـذان البطلان وغيرهما أمثالهما فى الهند لقبوا نفوسهم « بالمعتزلة الجديدة » ، وشرعوا يجاهدون جهاد المصلحين العظماء فى سبيل الاصلاح ذائدين عن حياضه ومؤيديه بكل حجة دامغة وبرهان قاطع ، ومنادين بوجوب استقصاء الشريعة الاسلامية واستدرار خيرها واستثمار الأوفق منها لمقتضيات العصر ، لأن لا سبيل لتجدد الاسلام التجدد الصحيح الباقى غير هـذا السبيل ، وقد كتب أحد هؤلاء القادة العظام وهو السيد « خدا بخش » فى بعض كتبه يقول : «ما كان النبى ﷺ يبغض شيئاً بغضه للشرائع والقوانين الجامدة التى تقيد العقل فتقوده صاغراً أعمى . ليس القرآن الكريم الا كتاب هدى للمؤمنين . وليس عثرة فى سبيل ترقى المجتمع والآداب والشرائع والقوانين والمدارك العقلية ». ثم جاء على كلام نعى فيه حالة الاسلام منه : «لعمرى ان هذا الاسلام اليوم ليس هو الاسلام الذى أتى به صاحب الرسالة ، بل ان الاسلام الذى جاء به النبى لبرئ من هذه السلاسل المؤلفة من حلقات الوظائف والمناصب الدينية [2] ، وعار عن

---

(١) لعل خير ما كتب السيد أمير على كتابه « روح الاسلام » (لندن ١٨٩١)
The spirit of Islam » (London 1891)

(٢) كنت مرة في المدينة المنورة فشاهدت فيهـا شيخ الحرم النبوى (وكان يومئذ زيور بك مدير المذاهب فى الاستانة سابقاً) وبعض خدمة الحرم فى ساعة مخصوصة بعد العصر ، يدخلون الحجرة الشريفة

هذا التعصب القاتل والجهل الشديد ، والأوهام والأباطيل الكفرية » . ثم أنهى كلامه قائلاً : « هل الاسلام عدو للترقى والتقدم ترى ؟ انى لأعوذ بالله من قائل نعم ؛ فمتى وضع الاسلام فى البوتقة وأخرج منه ما علق به من جميع هذه الأباطيل الخداعة ، كان ذلك الدين الساذج الحلو المساغ . فالاسلام على أصله ووصفه انما هو ركنان لا ثالث لهما : توحيد الله تعالى ، والايمان بأن محمداً هو رسول الله ، وما عدا ذلك فليس من الاسلام »

وفى ذلك العهد كانت دعوة الاصلاح الحر قد طفقت تنتشر فى كل من الأقطار الاسلامية ، فهبّ المصلحون الأحرار فى كل بلاد يبشرون بالدعوة ويجاهدون فى سبيلها بجد قوى وعزم أكيد فقد ظهر الأحرار فى تركية وكانوا القابضين على أزمة الدولة خلال غالب المدة بين حرب القريم والعهد الحميدى (١) ، ومدبرى شؤون المملكة وساسة أمورها . وقام فى أحرار الترك عظماء مثل الوزيرين رشيد باشا (٢) ومدحت باشا ، المجاهدين الكبيرين فى سبيل تحرير الدولة العثمانية من ربقة ذلها ، وقائديها نحو التجدد والترقى . وظل الدعاة الأحرار فى تركية يغالبون الأهوال مغالبة ويعانون من الاستبداد الحميدى مالم يعان مثله غيرهم ، فقتلوا تقتيلاً ، وأهبطوا جوف الأرض وقاع البوسفور ، ونفوا وعذبوا حتى كانت

لايقاد الشموع والقيام ببعض الخدمات المرسومة ، وقبل دخولهم يلبسون جميعهم وشاحاً أبيض شفافاً ، وكأنهم يريدون بذلك زيادة التعظيم والتوقير ، فذكرنى ذلك بالأوشحة التى هى من النوع نفسه يلبسها بعض رجال الأديان الأخرى التى فيها ما ليس فى الاسلام من الرتب الدينية والدرجات الكنسية ، وذلك عند ما يدخلون الى معابدهم ، وهم لا يلامون على ذلك لأن لخدمة الدين طبقة مخصوصة عندهم بخلاف الاسلام ، وصادف أن كان هناك السيد أبو بكر خان من عظماء الهند أحد أعضاء مجلس الهند الأعلى وهو ليس ممن يحسن التركية ولا العربية ولايعرف من الألسن الاسلامية الا الفارسى، وجميع تحصيله كان فى انكلترة ، ولكنه كان يفهم روح الاسلام جيداً . فجاء وكاشفني بما وقع في نفسه من انكار هذه العادة . ولكن : « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » حديث شريف .

(١) ١٨٥٦ الى ١٨٧٨

(٢) مصطفى رشيد باشا أعظم رجال الدولة العثمانية فى القرن الماضى ، تولى الصدارة فى زمان السلطان محمود الى زمان السلطان عبد المجيد ، ونبغ له تلامذة فى السياسة لم تعرف الدولة أمثالهم منهم أمين عالى باشا المشهور ، ونده فؤاد باشا الذى ليس بأقل شهرة منه ، ومنهم مدحت باشا أبو القانون الاساسى أوالحكم الشوروى الذى يقال له عند الاتراك « مشروطيت » (ش)

ثورة سنة ١٩٠٨ فذهبت عاصفتها بصرح الاستبداد وقوضت أركانه تقويضاً ، فبرزت « تركية الفتاة » الى الوجود . وفى مصر كان لواء الاصلاح خفاقا يحمله أبطال عظماء مثل الشيخ محمد عبده ، مصلح جامعة الأزهر ، وصديق اللورد كرومر الحيم . وفى سائر بلاد المسلمين كبلاد التتر الروسية ، كانت دعوة الاصلاح تنتشر فيها انتشاراً سريعاً ، فكثر عديد الأحرار وروّاد الاصلاح ودعاة التجدد (١)

على أن هؤلاء المصلحين الأحرار الذين أتينا على ذكرهم انما هم على مذهب الاعتقاد بوجوب تنشئة الاصلاح فى المسلمين تنشئة متدرجة مماشية لمقتضى العصر ، و بأن الاسلام لقابل أحسن قبول لكل تحولٍ وتطور ، ومستعد بطبائعه لا يلاف تبدلات العصور والأدوار ، والتكيف على حسب ترقى الحضارات . فهم من هذا النحو محافظون كل المحافظين ، مستمسكون جهدهم واستطاعتهم بالاسلام الصحيح ، وهو عندهم من المجتمع روحه وغذاؤه ومن العمران مادته الحيوية ومنهله العذب

وهناك فريق آخر من المسلمين الذين بلغت منهم مؤثرات الحضارة الغربية مبلغا عظيما ، ووغل فيهم تيارها موغلاً كبيراً ، فأقبلوا على كل شئ غربى أغثا كان أم سميناً ، وولوا ظهورهم جميع ماضيهم بحيث صاروا لا يحفلون بمفخرة من مفاخر تاريخهم ولا يبالون بذكرى من ذكريات سالف أيامهم ، ففى كل من البلاد الاسلامية المترقية ، ولا سيما فى البلاد التى ما زالت منذ عهد طويل فى حكم الغرب كالهند ومصر والجزائر ، عدد من أبناء المسلمين الذين طلبوا العلوم فى الغرب ونشأوا نشأة الغربيين أخلاقاً وتهذيبا ، فباتوا لا يكترثون لشأن من شؤون الدين الذى ولدوا فيه ، ولايهابون المصارحة بالتعطيل والالحاد ، فتلاشت فى نفوسهم حرارة الاسلام وذهبت منهم عصبية الايمان ، وقد وصف اسماعيل حامد الجزائرى حال مثل هؤلاء من أبناء قومه بقوله : « كان للالحاد الغربى مبلغ كبير من التأثير فى جمهور ليس بالقليل من مسلمى الجزائر الذين وان كانوا ما برحوا مسلمين فى الظاهر ، فهم يجهلون حد ما وصلت اليه روحهم الدينية من التلاشى . ان هؤلاء لا ينكرون الاسلام دينهم

(١) للاطلاع على حركة الاحرار في بلاد التتر الروسية اقرأ كتاب أرمنيوس فمبارى « التهذيب الغربى فى الاقطار الشرقية » Arminius Vambery. « Western Culture in Eastern Lands » (London 1950)

ومعتقدهم ، غير أنهم قد أضحوا من فتور الغيرة الدينية فى نفوسهم بحيث غدوا لا يبالون ألبتة بنشره فى الناس و بالدعوة اليه فى غير المسلمين . فالاسلام عندهم انما مقصور على من يأتى من بعدهم من الأولاد والاحفاد فحسب ، وليس يتناول أحداً سواهم من الخلق أجعين فالحق أن الاسلام لبراء مما هم فاعلون ، وليس ذلك هو الحرية الفكرية على ما يزعمون ، بل انما هو الفتور فالتلاشى (١) »

وانه لمن الغرابة بمكان أن نرى فريقا آخر من المسلمين يختلفون عن الفريق الذى تقدم ذكره اختلافاً بعيداً وفى ذلك من التناقض والتباين ما يقضى بالعجب الشديد ، فان أتباع هـذا الفريق الآخر هم من الناشئة الاسلامية ، متشبعون آراء الغلو الغربى كالالحاد والاشتراكية والبلفشية وغيرها . وغلوهم هـذا لا يقل عن مبلغ ما هم عليـه من التعصب الدينى الكثير ، وهم يسعون جهـدهم لعقد عروة اتحاد بينهم و بين فريق الرجعيين ، حتى اذا ما عقدت هذه العروة ، وكانت محكمة موثقة ، وتألفت منها تلك القوة الكبرى ، كانت نتيجتها الهاب صدور المسلمين كرهاً ومقتاً للغرب . ولما كان هؤلاء الغلاة يعدون نفوسهم فى كل بلادهم فيها ، انهم انما قادة سواد الأمة بحق ،لذلك تراهم أبداً نهماً أشد النهم فى الظهور الى عالم السياسة والقيام على شؤونها كيما يتسنى لهم بلوغ الغرض من دك سيطرة الغرب المنتشرة فى الشرق الاسلامى دكاً . فهم والحالة هذه من غلاة الوطنيين لا يألون فى السعى وراء تحقيق غايتهم ، ولا سيما بأشد الوسائل الرجعية فى سبيل الجامعة الاسلامية ،وقد رأينا غير مرة كيف يجدّ هـذا الفريق الملحد فى استثارة الروح الاسلامية وهياج النعرة القومية ، فقـد كتب السيد بخش يصف رجلاً من هذا الفريق بقوله : « انى أعرف سيداً مسلماً ،يعرف من أين تؤكل الكتف ، موفق الحال كبير النجح ، انما فى يديه أداة يستعين بها على عمله ، ولولاها لما حاز شيئاً مما هو حائز عليـه من هـذا التوفيق والنجح ، وما تلك الاداة الا الدين. فهو يبالغ فى الظهور فى بنى قومه مظهر المسلم المتمسك بشعائر الاسـلام المتشدد فيها ، وكثيراً ما يقوم فى الجموع خطيباً مرشداً حاضاً مستثيراً ، غير أنه على ما أعتقد فى نفسى ليشتمل فى

(١) كتاب اسماعيل حامد « المسلمون الفرنسيون فى شمالى افريقية »
Les Musulmans Français du Nord de L'afrique" Paris 1906

نفسه على آراء فى الاسلام وصاحب الرسالة مما ينبو عن سماع مثله سمع (ڤولتير) ولم ينطق بمثله لسان (غبن) »

واننا سنسهب الكلام فى فصلى « الجامعة المصرية » و « العصبية الجنسية » من هذا الكتاب على بيان أعمال هذا الفريق ، بيدأن ما يجب الاشارة اليه فى هذا الموضع اشارة مخصوصة ، انما هو التباين فى المنهج والوسائل لتحقيق الاصلاح العام فى العالم الاسلامى ، بين هذا الفريق ، و بين المصلحين المخلصين الصادقين الذين أتينا على ذكرهم من قبل ، ناهيك به من تباين ضار يفسد الاصلاح . فغلاة الوطنيين ، والضرر الذى ينتاب الاصلاح انما ناشئ من جانبهم ، دأبهم استثارة الروح الدينية فى قلوب سواد الأمة ، وحمل هذا السواد على مقت كل شئ غربى يرونه فى بلادهم ، وعداء الغرب فى كل أمر سوى ما يؤول الى ترقية القوى العسكرية الاسلامية ، وفى هذه القطعة المقتطفة من مقال لأحد عظماء رجال «تركية الفتاة» (١) يخاطب اوروبة ، مثال بيّن على هذا : —

« أجل ، الدين الاسلامى لم يبرح ولن يبرح على عداء حضارتكم وتقدمكم . فاعلموا يا جهابذة الغرب أن النصرانى ، سواء أرفيعاً كان أم وضيعاً دنيئاً ،فانه بمجرد كونه نصرانياً، ليس له عندنا منزلة ولو حقرت مهما حقرت من منازل الانسانية . وهذه مقالتنا لكم سهلة واضحة : ان من ضل سبيله فانكر وحدانية الله الواحد الأحد ،واتخذ له من دون الله أرباباً، فقد ضرب بالبله والخبال ، فان رمنا صلته كان ذلك منا احتقاراً لديننا وانكاراً لبارئ الكائنات : وعلى ذلك فالمتخذ الهاً غير الله والجاحد الوحدانية ، لمستحق للعنة الأبدية . وليس ذلك جميع الأمر بل ان أقدس عمل يقوم به المؤمن هو قتاله لهذا المنكر الجاحد ، حتى يحمله على الدخول فى الاسلام ، أو يستأصل شأفته من على وجه الأرض . هذا ما يأمرنا به الهنا الواحد الذى لا اله الا هو . نحن لا نعرف فى هذا العالم سوى المؤمنين أو الكفار ،أما نحن المؤمنين ، فتصل صلات المحبة والاحسان والاخوة بعضنا ببعض ، وأما أنتم الكفار ، فاننا لكم ماقتون ومبغضون ومقاتلون . وشركم انما الذى يقول بوجود الله من حيث يعتقد بولادته من البشر ، فما أشد هذا الضلال ، وما أبعد شقة الخلف بيننا و بينكم ! ان وجود مثل هؤلاء الكفار منكم بين ظهرانينا لآفة فى كياننا ولا غرابة فمعتقدكم انما هو

(١) كتبه الشيخ عبد الحق فى جريدة شريف باشا « مشروطية » آب سنة ١٩٢١

غض من دين التوحيد ، ومعاشرتكم ليست مما نتطهر به ومعاملتكم عذاب لنفوسنا .

«وعلى هذا كله ، فاننا ننبذكم نبذاً من حيث ندرس أنظمتكم السياسية والعسكرية ، فكأنكم والحالة هذه تدفعون الينا أسلحتكم لنقاتلكم بها فنشتد قوة بازائكم ونعظم شوكة ، فوق ما تجود به علينا العناية الأزلية من العون عليكم فى عصر أشعلتم فيه نار غيرتنا الدينية وهجتم فينا ذكرى شهدائنا وأبطالنا المسلمين الذين استشهدوا فى سبيل الدين فنحن جميعاً على اختلاف مذاهبنا ومناهجنا متحدون على مقتكم وكرهكم ؟ و بعد هذا كله أيقودكم الوهم الى الظن أننا صائرون نحو حضارتكم يا أبناء الفرنجة ؟ نعوذ بالله من ذلك ومنكم ! »

ولا شك فى أن مثل هذا المقال يلاقى فى جهور المسلمين وسوادهم آذاناً صاغية وقلوباً واعية (١) . وفى هذا الموضع ينبغى ألاّ يذهب عن البال أن المصلحين الأحرار ما برحوا الأقلين عدداً ، وان كانت قوتهم متوالية الازدياد والاشتداد ، اذ يفوقهم السواد الجاهل من الأمة ، السواد المجتازون اليوم دوراً من أشد أدوار التمخض والانتقال والخروج من الظلمة الى النور ، أضف الى هذا أن من أظهر صفات السواد إعجابهم بشأن بلادهم فيرونها خير البلدان وجنة الدنيا بلا مراء ، و يعدون كل بلاد سواها مستحقة المقت والازدراء ، وان اعترف المسلمون الذين على هذا الطراز بسلطان الغرب وتفوقه على الشرق فانما يفعلون ذلك على غل فى القلب واحتدام الحفيظة — لذا تراهم يكرهون كل شىء جديد ، و يشتعلون غيظاً وتألماً من جراء ما يشعرون به ويرونه حولهم من شدة خناق السيطرة الغربية . وعلى الجلة فان هذا السواد الجاهل هم بين أيدى قادة الجامعة الاسلامية وغلاة الوطنية ، يتصرفون بهم كيفما شاءوا تصرف الخزاف فى صنع الطينة بين يديه .

فالاسلام اليوم تتجاذبه قوتان : قوة المصلحين الأحرار ، وقوة الغلاة الرجعيين . أما الاولى فبها مناط الآمال فى الفوز بالاصلاح على ما تقتضيه سنة سير العمران والترقى ، ولها من الزمن أكبر عون ونصير ما دام العالم الاسلامى لا حيدة له عن قبول مؤثرات الحضارة الغربية ، لا بل ما دامت هذه الحضارة ثابتة الأركان بعيدة عن الانهيار والانقراض . وعلى كل حال فالمتوقع أن الذين سيرفعون علم الظفر والغلبة بالتالى انما هم المصلحون الأحرار .

---

(١) فى هذا المقال غلو عظيم لا يخفى على أحد ، ولكن الغلاة لا تخلو منهم أمة ولا أتباع طريقة (ش)

ولكن من يستطيع الرجم بالغيب والكشف عن مخبآت المستقبل لينبئنا ما لعله ناشئ فى السبيل من عقبات وما يقوم به الرجعيون الغلاة من وضع العثرات ؟ وصفوة القول ، فلا أدوار الاصلاح فى عالم الاسلام اليوم ، ولا العلاقات بين الشرق والغرب بمعزل عن الأخطار الحاملة أجنة البلايا ، تلك الأخطار التى سنأتى على بيان أدلتها فى الفصول التالية من هذا الكتاب.

بق علينا أن نذكر الحقيقة الكبرى التى يجب ألاّ تغفل ، وهى أن فى كل قطر فى أقطار العالم الاسلامى جمهوراً من المصلحين الأحرار يزدادون عدداً و يشتدون قوة و ينضم الى لوائهم رجال من سائر الأحرار الخبراء الراسخين علماً بأسرار نهضات الأمم وتقدمها ، والى جانب هذا الفريق فريق المحافظين ، وجميعهم ، وقد رأوا حالة الاسلام والمسلمين ، انما يعملون عصبا متحدة متماسكة الأطراف فى سبيل الاصلاح العام فى المعمور الاسلامى ، منتهجين المناهج القويمة والسبل السديدة ، شاعرين حقاً بان الفترة لعصيبة وعالمين أن الدور دور انتقال شديد وحاسبين فوق جميع هذا ان جهادهم هذا الجهاد لهو من أشد الأعمال نبالة والمقاصد مفخرة والواجبات شرفاً . أما ما يتوقع من التطور فى الشريعة الاسلامية وقوانينها ازاء هذا الاصلاح ، فليس من شأننا البحث فيه فى هذا المقام . انما التاريخ ينبئنا أنه متى اقتضت سنة النشوء اصلاحاً ، وأعدت أسبابه وعلله ، واجازته دوراً اختمرت فيه عناصره ، كان ذلك الاصلاح واقعاً ولا تبدل لسنة العمران البشرى .

ومما لا مراء فيه أن روح الاصلاح ، على اختلاف مظاهرها وصورها ، قد تغلغلت فى الاسلام ودبت فيه دبيباً هائلاً وفشت فى كل عرق من عروقه لحركته فتحرك ، فأخذ ينفعل انفعالا عظيماً. فعالم الاسلام اليوم هو غيره منذ عشرة عقود . قد استطاعت الوهابية التى ظهرت منذ أكثر من مئتى سنة أن توقظ الاسلام فاستيقظ مذعوراً ، فما كانت تلك العصبية الدينية الا الضرم فى النار أو الغريسة نمت فجاءت بأطيب الثمار ، أضف الى هذا أن روح الحرية والحركة ، والمؤثرات الغربية فى زائد انتشار وانبثاث فى كل رقعة من الرقاع الاسلامية وان كانت المخاوف والمحذورات تقرأ فى جبهة المستقبل ، ففى جبهة المستقبل أيضا تقرأ الآمال الحسان .

المبشر زويمر ومفترياته

للأمير شكيب

اشتهر زويمر هذا بعداوة الاسلام ، وحرر كتبا افترى فيها على الرسول ﷺ وعلى المسلمين ما شاء وأودع فيها من التدليس ومن التزوير ومن قلب الحقائق ومن كل ما ينفر الطباع من الاسلام ما حقه أن يكون سمة عار باقية على الدهر فى جبهة التبشير بكتاب شريف كالانجيل هو أعلى من أن يتوسل المتوسل الى نشره بالكذب والافتراء . ولقد اطلعت له مؤخراً على كتاب عنوانه « الاسلام . ماضيه . حاضره ومستقبله » فيه معلومات كثيرة عن مساعى المبشرين فى أقطار الاسلام كلها قطراً قطراً ، وعن درجة نجاح تلك المساعى وحبوطها ، مما هو حرى بالاطلاع بل بانتباه العلماء والمفكرين من أهل الاسلام لمقاومة دسائس تلك الجمعيات المنبثة فى جميع تلك الأقطار ، تحت أشكال متنوعة ، منها رسالات دينية ، ومنها بعثات جغرافية ، وأكثرها مستشفيات ومصاح وملاجئ للفقراء ، وزويمر هذا من رأيه فى طريقة التبشير عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية — حيث يعلم أن قلعتهم ثمة منيعة — بل الدخول عليهم من الجهة القلبية باستجلاب عواطفهم ، واستمالة أهوائهم ، وتمريض أجسامهم ، ومؤاساة فقرائهم ، وبالاختصار استثمار أمراضهم وعللهم وكروبهم وخصاصاتهم ، ولا ينكر أن هذا الرأى هو رأى مجرب خبيرساح فى جزيرة العرب وفى كثير من بلاد الاسلام وعلم ما يعوز الاسلام من وسائل التعليم والتمريض ، وما عليه المسلمون من اهمال هذه الجهات بالرغم من كثرة الأوقاف التى يأكلها نظارها ، والمعاهد الخيرية التى درس معظمها ، وصارت أثرا بعد عين .

وقد استوفى زويمر تاريخ التبشير وسيره فى البلاد الاسلامية من مشرقها الى مغربها وحمد الله على نجاح الرسالات الدينية المسيحية فى كثير من الأصقاع لا سيما فى بلاد الجاوى ، حيث معدل من يتنصرون كل سنة من المسلمين هو ٥٠٠ نسمة ،وقد بلغ مجموع المتنصرين بزعمه فى الجاوى نحو ١٨ ألفاً ، وزعم أن الهند أيضاً شاهدت من نجاح هذه الرسالات شيئا

كثيراً ، وأن ٢٠٠ مبشر يطوفون اليوم فى شمالى الهند هم من متنصرة الاسلام . ومع كون زويمر هو برتستانتياً قحاً(١) فهو لا يفرق بين أحد من رسله ، وهو يغتبط بمساعى الرسالات الارثوذكسية الروسية بين التتر ، ومجاهيد البعثات الكاثوليكية فى افريقية ، ويدعو النصرانية كلها الى توحيد العمل وشن الغارة على الاسلام من كل جهة ، ويحث على اغتنام فرصة الضعف العظيم الذى حل بالاسلام على أثر الحرب العامة ، وانهيار قوته السياسية ، لأجل جوب أقطاره ، والجوس خلال دياره ، وتأسيس مراكز التبشير فى البلدان الاسلامية التى كان دخول المبشرين اليها ممنوعاً . ويقول ان أول خطوة جرت لأجل توحيد الأعمال واشراك الحركات بعضها مع بعض هى المؤتمر التبشيرى الذى انعقد فى القاهرة سنة ١٩٠٦ واجتمع فيه ٦٢ مبشراً ونحوهم من المدعوين بالنيابة عن تسع وعشرين جمعية من أوربا وأميركا ، غايتها كلها تبشير المسلمين ووضع هذا المؤتمر أوزاره عن نداء عام الى العالم المسيحى بأجمه لاستجلاب نظر اهتمامه الى هذه المهمة العظمى وهى حمل المسلمين على الانجيل(٢) وعقب هذا المؤتمر مؤتمران آخران أحدهما فى « لوكناو » بالهند والثانى فى « اديمبورغ » بانكلترة .

ويقرع زويمر الحكومات المسيحية على تقصيرها من أجل ملاحظات سياسية فى عضد رسالات التبشير ، ويعقد مناحة عظيمة على ترك انكلترة ولاية « كافرستان » (شرقى افغانستان) لعبد الرحمن خان أمير الأفغان حتى بعث اليها أحد قواده غلام حيدر فحمل أهل تلك الولاية على الاسلام فاسلموا قاطبة . ويقول ان أهالى مقاطعة كيلان فى بلوجستان ليسوا مسلمين الا بالاسم فالبدار البدار الى تنصيرهم قبل أن يصيروا مسلمين متعصبين . . . وفى جزيرة بورنيو من البحر المحيط لا يزال جيل اسمهم « الدايا كس » على الوثنية ولكن يحيط بهم المسلمون ، فتجب المبادرة الى منع دخول الاسلام بينهم قبل فوات الفرصة لئلا تعظم النغصة .

والطامة الكبرى عند زويمر هى فى أواسط افريقية ، فانه يذوب لهفاً على انتشار الاسلام فى تلك الأرجاء بهذه السرعة الغريبة ، ويتأوه على كونه فى السودان كله لا يوجد

(١) أصل نسبته من نورماندية بفرنسا ولما طردوا البرتستانت من فرنسا فى زمان لويس الرابع عشر ارتحل سلفه الى هولانده ثم الى أميركا

(٢) مع أنهم يعتقدون بالانجيل بدون حاجة الى عناء زويمر وأمثاله

أكثر من عشرين مبشراً ، وينقل بعض شواهد من مجلة التبشير العالمي (Missionary Reiew of the World.) بتاريخ ١٩٠٦ ثم بتاريخ ١٩٠٧ معناها أنه فى سنة ١٨٩٨ كان عدد المسلمين قليلا جداً فى اده (Iddah) على النيجر وأنه فى سنة ١٩٠٦ كان يوجد منهم فى كل مكان الى آبو (Abo) وأنه اذا بقيت الحال على ذاك المنوال فلا يرجى أن تبقى قرية وثنية على طول (النيجر) الى سنة ١٩١٠ (فما ظنك الآن ونحن فى سنة ١٩٢٣ ؟) وبالاجمال يقول ان نحو ٥٠ مليوناً فى أواسط افريقية وأطرافها قد أسلموا بالرغم من مساعى المبشرين الذين لم يعرفوا من أين تؤكل الكتف .

ويتكلم عن مجاهيد الجمعيات التبشيرية فى عدن ، والشيخ عمان منذ سنة ١٨٨٧ . وفى بغداد والبصرة والبحرين ومسقط منذ سنة ١٨٨٩ . ولكن فيما يظهر لم تحصل الجمعيات فى البلاد العربية هذه على شئ من النجاح الذى صادفته فى الهند والبنجاب و بلاد الجاوى ويقول ان بعثة اسوجية احتلت بخارى وخوقند وكاشغر و ياركاند ولا يوجد بعثة بروتستانية غيرها فى آسية الوسطى ولكن بعثة الروس الارثوذكسية قامت بأعمال جليلة بين مسلمى الروسية .

ويقول ان الجمعيات التبشيرية لا تزال غير قائمة بواجباتها فيما يتعلق بمسلمى بلاد العرب الداخلية ، والقوقاس ، وجنوبى فارس ، وتركستان ، وأفغانستان ، و بلوجستان ، والصين وجزر الفيلبين . ويشكو مر الشكوى من كون بلاد الأفغان لا تزال بكراً لم تطمثها قدم مبشر ، وأن الأفغان يمنعون المبشرين من دخول أرضهم ، الا أنه يمنى نفسه بأن حكومة أفغانستان لا بد أن تسمح للمبشرين بالدخول ، ويقول ان الجمعية البرسبيتيرية الأميركية قد هيأت برنامجاً لذلك وستجعل مشهد على (شمالى أفغانستان) مركزاً للحركات[1]

ومما يروى أنه فى مؤتمر « ادنبورغ » قدم أحد الأعضاء الذين جابوا الصين تقريراً يتضمن البرنامج اللازم لمشروع تنصير مسلمى الصين الذين هم منتشرون فى ١٥ ولاية من أصل ١٨ من هذه المملكة العظيمة .

وهو يرجو أن ثمرات التبشير فى السنين المقبلة ستكون أعظم منها فيما مضى ، ولا ينكر أن تنصير السود هو عقبة كأداء نظراً لبغض الزنوج للجنس الأبيض الاوربى على

---

(١) الذى نعلمه أن أفغانستان مصممة أن لا تدع بعثة دينية أجنبية تدخل أرضها .

اطلاقه ، وتضامنهم فى وجهه ، ولكنه يوجب على أوربا اجتياز هذه العقبة وعدم المبالاة بالصعوبات التى تلقاها من جانب السود ، وأن تعلم أن هذه الفرصة اذا ضاعت فلا تعود أبداً فينبغى أن تكون هزيمة الاسلام فى الحرب العامة انتصاراً للكنيسة المسيحية (هكذا بالحرف) وينتقد طريقة بعض الحكومات المسيحية التى ـ أحياناً بدون روية ـ تصلح ادارة الاسلام الدينية ، وتنظم أوقاف المسلمين ، مع أن هذه الأوقاف جسيمة دارّة ، يمكن بها عمارة المساجد وتسهيل العبادة وتعزيز قوة الاسلام الدينية ، وقد شوهد كيف زادت سكة حديد الحجاز عدد زوار المدينة ، وكيف زادت خطوط الترامواى زيارة كربلا ، وصارت شركة كوك تسفر أغنياء المسلمين الى مكة . وأما من جهة التعليم فاذا اتبعت الحكومات الأوربية برنامج التعليم التى هى جارية عليه فى السودان والنيجر(١) . وفى كلية غوردون فى الخرطوم فان هذه الخطة هى مما تزيد الحواجز بين الاسلام والنصرانية . . . ثم يقول أما المدارس العليا التى تأسست لمكافأة الصادقين من المسلمين (٢) فلعمرى أ كثر الأحيان لم تكن تلك الصداقة حقيقية بل هى مداجاة منهم ، ولا يكون لتلك المكافآت ثمرة سوى زيادة تمسك المسلمين باسلامهم بل احتقارهم لسادتهم الاوربيين الذين يرونهم قد أصبحوا يتبصبصون لهم(٣)

وأخيراً يقول ان الاسلام قد تلاشت قوته ، وانهارت دعائمه ، وسقطت مكانته الأولى ومشت سكة الأجنبى فى حقله ، فلا تناسب زيادة قهره واعناته والظهور بمظهر الشماتة به لئلا يحرك ذلك من عصبية أهله ، ويثير من نخوتهم ، ويؤجج من نيران احقادهم ، فينهضوا ويثوروا للمقاومة ، بل يلزمنا أن نأخذهم بالوداعة والملاطفة وبذرف الدموع لأجل أن نستل سخائم صدورهم ، ونتمكن من حرث ذلك الحقل الذى صار مباحاً أمامنا . . . على أنه لا يؤخذ من ذلك أنه يجب سلوك مسلك الضعف مع الاسلام والعدول الى التهيب ، اذ لا يعقل أنه اذا دعى الانسان الى بيت لم يبق له أبواب ولا نوافذ أن يضيع وقته فى احتشام أصحاب ذلك البيت ومعاملتهم برقة الأدب والكياسة . . . انه يتحتم سوق الحملة بحكمة ومهارة

---

(١) يظهر أن الظروف قضت عليها بالترخيص بحصة من التعليم الدينى

(٢) أى الصادقين للحكومات الاوربية

(٣) من رأى زويمر اذاً أن الحكومات الاوربية يجب أن تستخدم دماء من تلى عليهم من المسلمين وأموالهم ومجاهيدهم وتحذر من أن تراعى خواطرهم بشىء يشعرون منه أنها تقيم لهم وزناً .

ولكن يتحتم سوقها بشدة . . . . ويجب أن الكنيسة تعبي جميع قواها من الشرق الى الغرب ، ومن الشمال الى الجنوب ، تحت راية مؤسسها وتشن هذه الغارة على الاسلام الى أن تصل الى غايتها الخ .

هذا مما قطفناه من كلام زويمر مع تلطيف كثير من العبارات وحذف كثير منها .

ونحن نجاوب المستر زويمر وأمثاله ممن فيهم من هو مقتنع بعمله مبتغ وجه الله فى جهده ، انه ان كان المقصود دعوة الاسلام الى الانجيل فالمسلمون يؤمنون بالانجيل الشريف وبرسالة المسيح صلوات الله عليه وسلامه وان كانت الدعوة هى الانجيل فى الظاهر والسيطرة الاوربية فى الباطن فهذا حلم من أحلام المبشرين ، اذ لا بد للاسلام أن يستعصى على هذه الدعوة ويقف فى وجهها سداً منيعاً . وان كان مقصد هؤلاء المبشرين هو خلاص النفوس والاشفاق من هويها فى النار الحاطمة ، والعياذ بالله ، فالأولى بهم أن يذهبوا الى الوثنيين الذين هم أكثر من المسلمين عدداً فى الدنيا ، وأحوج الى الارشاد ، بل أن يهدوا الملايين العديدة من أنفس المسيحيين الذين نبذوا الدين ظهرياً ودانوا بالتعطيل والالحاد وأخذوا يحاربون الكنيسة . فعلى الانسان أن يدبر بيته قبل أن يمد يده لتدبير بيت جاره . أما المسلمون فلا حاجة الى تبشيرهم لأنهم يعبدون الاله الحق ولا يشركون به أحداً ، ولأن شريعتهم ملأى بالفضائل والآداب ومكارم الأخلاق واقامة ميزان العدل حتى مع العدو وتحث على العلم والانسانية والحضارة واغاثة الملهوف وحب القريب ، وعند اللزوم تذرف الدموع أيضاً على البائسين .

الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

للامير شكيب

أستاذنا فريد عصره ، ووحيد مصره ، حجة الاسلام الشيخ محمد عبده ، أكرم الله مثواه ، تعرف اليه محرر هذه الحواشى في عهد الطلب ، أيام كان هو منفياً فى بيروت على أثر الحادثة العرابية وذلك سنة ١٨٨٦ ، ولا زمته وأخذت عنه واستفدت منه بقدر ما وسع فتور خاطرى ، واستفضت من بحر حكمته ما أمكن أن يناله قصور عارضى ، ووجدت فيه الضالة التى كنت أنشدها ، والبغية التى كنت أبحث عنها ولا أجدها ، ورأيت فى فهمه العقيدة الاسلامية الشكل الوحيد الذى يرجى أن ينهض بالاسلام بعد أن آل الى هـذه الحال ، وان يقيل عثاره بعد أن ظن ضعفاء العقول أن عثرته لا تقال . وما زلت بعد أن عاد الى وطنه مصر الى أن أدركته الوفاة رحمه الله أجاذبه حبل المكاتبة ، وأقف على رأيه فى أكثر الأمور جزئيها وكليها ، وأستطلع منه طلع الأحوال ، وهو يبث الى مالا يبثه الى غيرى من سوانح فكره ، وذوات صدره و بينما كان بعض حساده يتهمونه بمماشاة الدوله المحتلة ومواثقة اللورد كرومر كان يكتب الى قائلا : « الأحوال هى مما يتعاظم له الألم ، و يعجز عن وصفه القلم » فكنت أعلم أنه ما أراد الا تخفيف الداء ، وتقريب أجل البلاء ، وتمهيد طريق الجلاء وما زال شأنه يعلو ، وحقيقته تظهر ، وجوهره ينجلى بالحك ، وعقيدة فضله تتمحص من الشك ، الى أن اتفق الناس على كونه أحـد أفذاذ الشرق الذين قلما جاد بهم الدهر ، وواسطة عقد المصلحين المجددين فى هذا العصر ، وظهر أن طريقته الاسـلامية العصرية ستزداد مع توالى الأيام انتشاراً ، وتـكون هى طريقة المستقبل ومعوّل الآتى

ولقد كان جامعا بين العلم والعمل ، فلا تجد مايساوى فضله و بلاغته وثقوب أفـكاره ، وقوة ملـكته فى الفلسفة ، سوى علو مباديه ، و بعد همته ، وغزارة مروءته ، وطهارة أخلاقه ، وهيهات أن يأتى الزمان بمثله

ومن حسناته الـكبرى ، وأياديه التى ملأ بها طباق العالم الاسلامى براءأخذه بيد الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا فى نشر مجـلة « المنار » التى هى لسان حال ذلك المصلح العظيم وترجمان أفـكاره . فهى والحق يقال أحسن مجـلة ظهرت فى باب الاصلاح الدينى وتطهير الاسلام من شوائب البدع واعادته سيرته الأولى فى عهد السلف . وتأليفه مع المدنية الحاضرة. كما أن الاستاذ السيد رشيداً المشار اليه هوالأولى بأن يخلف الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى مشروعه وفقه الله وسدد خطاه .

الاستاذ الاكبر السيد محمد رشيد رضا

للامير شكيب

و يطول العهد بعد الأستاذ الأكبر السيد رشيد فسح الله فى أجله حتى يقوم فى العالم الاسلامى من يسد مسدّه فى الاحاطة والرجاحة وسعة الفكر وسعة الرواية معاً والجمع بين المعقول والمنقول والفتيا الصحيحة الطالعة كفلق الصبح فى النوازل العصرية والتطبيق بين الشرع والأوضاع المحدثة مما لا شك أن الأستاذ الأكبر فيه نسيج وحده انتهت اليه الرئاسة لا يدانيه فيه مدان مع الرسوخ العظيم فى اللغة والطبع الريّان من العربية والقلم السيّال بالفوائد فى مثل نسق الفرائد والخبرة بطبائع العمران وأحوال المجتمع الانسانى ومناهج المدنية وأساليبها وأنواع الثقافات وضروبها الى المنطق السديد الذى لم يقارع به خصما مهما علا كعبه الا أفحمه وألزمه ولا نازل قرناً كان يستطيل على الأقران الا رماه بسكاته وألجمه. وأجدر بمجموعة «المنار» أن تكون المعلمة الاسلامية الكبرى التى لا يستغنى مسلم فى هذا العصر عن اقتنائها كما أن التفسير الذى وفقه الله به لكشف أسرار كتابه العزيز هو من آياته الباهرة التى خلدت اسمه فى هذه الأمة وقرنته بكبار الأئمة وله من المواقف الشريفة فى النضال الدينى عن الاسلام والمراماة عن عقيدته الصافية ومن الكتب الجدلية فى رد شبهات أعدائه من أبناء الملل الأخرى ومن الملحدة والمعطلة ما لا يقدر أحد فى عصرنا هذا أن يدرك فيه شأوه ولا يستطيع جهبذ من جهابذة الاسلام أن يبلغ فيه مُدّه ولا نصيفه. انه الرجل الذى لودعا كل مسلم باطالة حياته حباً بخدمة الاسلام والمسلمين لكان بذلك جديراً. وليس فى كلامنا هذا شئ من الاطراء ولا ثمة ما يدعونا اليه وانما أمرنا بأن لا نبخس الناس أشياءهم وهو أمر الهى صريح كما أننا لسنا ممن يرى المعاصرة حجاباً عن تقدير الفضائل قدرها بل نرى أن المنصف يجب أن يزن أقدار الناس فى الحياة و بعد الممات بميزان واحد وان كان من ضرائب البشرية أن تقسو على الأحياء وأن تحنو على الأموات وأن لا تعطى الانسان حقه غير منقوص الا اذا فات

ولقد حرّر السيد رشيد تاريخ أستاذنا الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله فى مجلدين كبيرين يزيدان على ألفى صفحة وسيعززهما بمجلد ثالث فيكون من الفضول أن نقول انه لاتاريخ للشيخ محمد عبده غير هذا التاريخ وهو الذى فيه ترجمة حاله بتفاصيلها وحياته من المهد الى اللحد مع ذكر منازعه بدقائقها وعقائده بحقائقها ومنشآته بنصوصها وأخبار الحوادث التى خاضها والمسائل التى راضها وقد دخل فى هذا الكتاب تاريخ السيد جمال الدين الافغانى وسير أعلام آخرين وتلخيص الحوادث العربية فى مصر وروايات كثيرة عن الخديوى السابق ووثائق تاريخية لا توجد فى كتاب آخر ومباحث عقلية وشرعية وسياسية وأدبية ولغوية لا يعثر القارئ على مثلها فى غير هذا الكتاب . وللفقير اليه تعالى راقم هذه الأسطر فى الجزء الأول من هذا السفر الجليل فصل عن حياة الأستاذ الامام ايام كان فى بيروت وكنا متصلين به وهو نحو من ١٤ صفحة وهذا الفصل تتمة وعد الأستاذ الرشيد بنشرها فى الجزء الذى لم يظهر بعد

ولما كان الأستاذ السيد رشيد من كبار المحدثين وله فى هذا الفن من الطول ما ليس خافياً عن أحد فقد امتزج خلق التمحيص بدمه ولحمه وأصبح لا ينشرح صدره الى الخبر الى اذا وثق بأسانيده وآمن بامانة رجاله . وقد يسوق الرواية من جملة طرق الى أن يثلج بها الصدر ويطمئن لها الفكر . وهذه طريقة السلف عندنا لا يروون شيئاً لا من الأحاديث النبوية وأخبار الصحابة فحسب بل لا يروون شيئاً من الأشعار والآداب وسير البشر والحكايات الا عنعنوه مسلسلاً وربما أشاروا الى درجة رجاله فقوّوا وليّنوا كما لا يخفى على من طالع كتبهم وكانت له ألفة بطريقتهم . وهذه الطريقة هى اليوم طريقة الاورببين أيضاً لا يروون خبراً ولا ينقلون جملة ولا أثراً الا وضعوا فى الحاشية مأخذها والكتاب الذى أخذوها عنه مع ذكر الصفحة ومع ذكر طبعة الكتاب وتعيين المطبعة احياناً وكل ذلك توثيقاً للنقل ونصحاً بالتبليغ وتمهيداً للحكم الصحيح الذى لا يتهيأ للقارئ الا بعد مقدمات صحيحة و بينات رجيحة

ومن نفائس تآليفه السفر الذى أخرجه مؤخراً تحت عنوان « نداء الى الجنس اللطيف » فيه بيان حقوق النساء فى الاسلام وتحقيق مسائل اجتماعية تدور أكثر من كل المسائل فى هذ العصر مثل تعدد الزوجات والتسرى والحجاب والسفور والطلاق وما يتعلق بأزواج النبى ﷺ من الأحكام والحكم وتكريم النساء وبر الوالدين وتربية البنات وغير

ذلك قد جاء الأستاذ فى هذا الكتاب بالآيات البينات على حكمة الشرع الاسلامى وغفلة المعترضين عليه جهلا أو تجاهلاً . ولا يسعنى الا توصية الخلق بمطالعة هذا الكتاب اذ ذاك أحسن ما يمكن وصفه به . ان الجواد عينه فُراره . ولكنى أورد شذرة واحدة من هذا الكتاب من قبيل التمثيل ليقيس القارئ عليه قال فى باب التسرى الصحيح فى الاسلام :

« كل ما كانت عليه الأمم القديمة وكل ما عليه الامم الحاضرة من التسرى واتخاذ الأخدان فهو فى شرع الاسلام من الزنا المحرم قطعاً الذى يستحق فاعله أشد العقاب وكل من يستبيح هذا الفجور الخفى وما هو شر منه من السفاح الجلى فهو برئ من دين الاسلام

«وأما التسرى الشرعى المباح فى الاسلام فهو خاص بسبايا الحرب الشرعية اذا أمر امام المسلمين الأعظم خليفة الرسول ﷺ باسترقاقهن وانما يكون له أن يأمر بذلك اذا ثبت عنده بمشاورة أهل الحل والعقد أن المصلحة فيه أرجح من المنّ عليهن بالعتق ومن افتداء أسرى المسلمين وسباياهم بهن ان وجد عند الأعداء سبايا وأسرى منا . فليس الاسترقاق واجبا فى الاسلام لكنه يباح اذا كان فيه المصلحة التى لايعارضها مفسدة راجحة . ولكل حكومة اسلامية أن تمنعه بل منعه من مقاصد الاسلام العامة والاسترقاق المعهود فى هذا العصر للسود والبيض كله باطل فى الاسلام فالتسرى بالنساء اللاتى يختطفهن النخاسون أو يبيعهن الآباء والأقربون أو يغريهن التجار والقوادون كله عصيان لله ولرسوله »

فمن مطالعة هذا المثال تعلم أن ما يفهمه السيد رشيد رضا من أسرار الشرع لا يفهمه غيره . ولو كان أحد الفقهاء الجامدين وسئل عن هذا الأمر لأجاب بلا تأمل : ان الاسترقاق مباح لا بل حرام منعه وان سبي نساء الكفار جائز بلا نزاع وحرام منعه وهكذا جاء الاسلام والأمور الشرعية لا تعلل بل يجب أن نقبلها على علاتها . فان قلت له : ان هذه الطرق غير مألوفة فى هذا العصر وان الاستمرار عليها مضر بالامة الاسلامية ومما يجر لها المقت والعداوة قال لك قولاً واحداً : هذا هو ديننا ولا نعلم غير هذا . ولم يفكر فيما وراء هذه الأحكام بهذا العصر من الضرر بالاسلام والخطر عليه

أما الاستاذ السيد فانه يصرح لك بما يحفظ من النص ويفهم من روح الشرع بأن الاسترقاق مباح الا اذا عارض ذلك مفسدة راجحة وان لكل حكومة اسلامية أن تمنعه لأن منعه هو من مقاصد الاسلام العامة . ثم يفتيك بأن السبي فى الاسلام لا يجوز الا باذن السلطان وهذا الاذن من السلطان لا يصح له بمجرد رأيه بل يجب أن يؤخذ فيه رأى عقلاء الأمة الخ

الفصل الثانى

فى

الجامعة الاسلاميــة

اليقظة الاسلامية شأن كل انقلاب عظيم ، نشأت نشوءاً ملتبسا فاشتبه بعض متجهاتها ببعض اشتباهاً كبيراً. ولا عجب فذلك انما هو من طبيعة كل دور من أدوار اليقظة والتنبه وأطوار الانتقال والتحول . فقد بدأت اليقظة الاسلامية بالدعوة الوهابية الدينية الاصلاحية ، ثم أخذت تجتاز أدواراً عديدة متشعبة المناحى وأحيــاناً متناقضة الصفات . وقد سبق لنا فبسطنا الـكلام فى الفصل السابق من هــذا الـكتاب على متجه الاسلام اليوم ومسيره ومنتحاه فى سبيل الاصلاح المترقى على حسب ما تقتضيه طبيعة النشوء ، وأوضحنا أن روح الاصلاح ما فتئت تدب فى كل عرق من عروق العالم الاسلامى دبيباً طبيعيا هائلا ، فتدفعه الى الأمام دفعاً متواصلا ، ولم نغفل مبلغ ما للحضارة الغربية من التأثير فى ذلك . وقلنا فوق جميع هذا ان المصلحين الأحرار الذين تناط بهم الآمال فى احراز الفوز والغلبة ، مابرحوا الاقلين عدداً ، بينما سواد المسلمين ما انفكوا ينتفضون ممزقين حجب الجهل ، و يستيقظون من هجعتهم استيقاظ المذعور ، يقودهم قادة يختلفون كل الاختلاف عن المصلحين الاحرار قادة هم أميل الى ركوب خطط العنف والمشاكسة ، منهم الى انتهاج مناهج الرفق والموادعة يؤثرون مجافاة الغرب والاعراض عن الأخــذ عنه ، الى مقاومته وايغار الصـدور عليه . بيد أن هــذا التيار الذى يثيره و يوقد ناره هؤلاء القادة وأمثالهم ، وشأنه شأن كل تيار مرافق لحال الانقلاب مصاحب لدور الانتقال، لم يستقر على قرار ، ولا عرف لأفقه حد ، ولا وضح مجراه ولا بان متجهه بياناً تاماً بعد ، وهو على اختلاف صفاته ومنقلباته لا يخرج عن وقوعه فى مضطرب « الجامعة الاسلامية » و « العصبية الجنسية » وهانحن باسطون الـكلام على :

﴿ الجامعة الاسلامية ﴾

الجامعة الاسلامية بمعناها الشامل ومفهومها العام انما هى الشعور بالوحدة العامة

والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين فى المعمور الاسلامى . وهى قديمة بأصلها ومنشئها منذ عهد صاحب الرسالة ، أى منذ شرع الرسول يجاهد فالتف من حوله المهاجرون والأنصار معتصبين معه بعاصبة الاسلام لقتال المشركين . وقد أدرك محمد ﷺ خطورة الجامعة وعلو منزلتها فى المسلمين حق الادراك ، وعلم كل العلم ما لها من عظم الشأن وجلل المقام فى قلوب المؤمنين ، فغرس غريستها بيديه فى نفوسهم ، فنمت وتغلغلت ، وامتدت جذورها و بسقت أغصانها وفروعها و ينعت ثمارها . فقد كر عليها أكثر من ثلاثة عشر قرنا فما أوهن كرور هذه القرون من الجامعة الاسلامية جانباً ولا ضعضع لها كيانا ، بل كلما تقادم عليها العهد وتناسخ الملوان ازدادت الجامعة شدة وقوة ومناعة واعتزازاً . حقاً ان الجامعة اليوم بين المسلم والمسلم لأقوى منها بين النصرانى والنصرانى . ولا ينكر أن المسلمين يتقاتلون بعضهم مع بعض قتالا شديداً ، بيد أن هذا الجدال ليس له من الشأن أكثر مما لأحقر نزاع ينشأ بين أفراد الاسرة الواحدة ، المشتبكة الارحام ، اذ لا حقد فى الاسلام فعند الشدائد تذهب الاحقاد من بين المسلمين ، فيصطلحون على الأمر الذى فيه يختلفون و يتألبون جموعا متراصة متماسكة لقتال العدو المهاجم ورد الخطر الداهم . ومن أحب أن يقف حق الوقوف على ما أراده الاسلام من غرض الجامعة وغايتها فلينظر الى حال المسلمين اليوم والى تيار هذا التعاطف والتشاكى يعلم سر الجامعة ومكانتها فى نفوس المسلمين . وفى الواقع ليس من دين فى الدنيا جامع لأبنائه بعضهم مع بعض موحد لشعورهم دافع بهم نحو الجامعة العامة والاستمساك بعروتها كدين الاسلام . ان المسلمين قد افتتحوا بلادا عديدة ورقاعاً كبيرة فى الأرض منتزعيها من النصرانية والبرهمية[١] واستأصلوا شأفة المجوسية وعلى امتداد هذه الفتوحات واتساع آفاقها ، فلم يسمع قط أن شعباً قليلا كان أو كثيراً انتحل الاسلام ديناً ثم ارتد عنه . قد حدث أن أجلى المسلمون عن بعض البلاد التى كانوا قد فتحوها وشيدوا فيها ملكا ودولة كالأندلس غير أن اجلاءهم عن مثل هذه البلاد ليس بالسائغ اعتباره جعل بعض المسلمين يرتدون عن الاسلام

(١) لم تستقر الفتوحات الاسلامية بعد أن رسخت فى الهند استقراراً لزمت حدوده . بل جاوزت الهند الى جزيرتى جاوى وصومطرة العظيمتين . فعطل الاسلام دين البرهمية فيهما وجعل أهل الجزيرتين قاطبة مسلمين

ان الوحدة الاسلامية انما هى قائمة على ركنين هما أساساها ولا ثالث لهما : الحج الى بيت الله الحرام فى مكة المكرمة ، والخلافة . وقد غلب على رأى الكثيرين من رجال الغرب وهمٌ فى هذا الموضوع ، فهم ما برحوا يخالون الخلافة ، لا الحج ، العامل الأكبر والأشد الذى بسببه يتشارك المسلمون ميولا وعواطف تشاركاً مؤدياً الى اعتزاز الوحدة وازدياد منعتها وامتدادها وانتشارها . على أن هذا لمن الوهم الصرف فالأمر حقاً على الضد منه . ان محمداً ﷺ قد فرض الحج على من استطاعه فرضا مقدساً ولذلك ما زالت مكة المكرمة حتى اليوم مجتمعاً يجتمع فيه كل عام أكثر من مائة ألف حاج وافدين من كل رقعة من رقاع العالم الاسلامى ، وهناك أمام الكعبة المقدسة فى مكة المكرمة يتعارف المسلمون على اختلاف الألسنة والأجناس، ويتباثون العواطف الدينية ، ويتباحثون فى الشؤون الأسلامية ثم ينقلبون الى أوطانهم نائلين لقب « الحاج » ، لقباً يعرف صاحبه بالتقوى فيجله اخوانه المسلمون ويعلون منزلته بينهم ما دام حياً .

فالمقاصد والأغراض السياسية التى ينالها المسلمون على يد الحج الممهد لها السبيل انما هى معلومة لا تحتاج الى كبير ايضاح . بل يكفى أن نقول ان الحج انما هو المؤتمر الاسلامى السنوىّ العام ، فيه تتباحث الوفود الاسلامية والنواب المسلمون الطارئون من أقطار المعمور الاسلامى كافة فى مصالح الاسلام ، وفيه يقوم هؤلاء بوضع الخطط ورسم الطرائق للدفاع عن بيضة الاسلام والذب عن حياض المسلمين ، ونشر الدعوة فى سبيل الرسالة . وفى هذا المؤتمر العظيم ، كانت قلوب قادة اليقظة الاسلامية وأبطالها ، كعبد الوهاب ، ومحمد بن السنوسى ، وجمال الدين الأفغانى ، تشعر بجلالة الواجب الاسلامى المقدس ، وتتقد من خطورة المشهد وروع المحفل غيرة على الاسلام والمسلمين

أما الخلافة فقد كان لها حقاً شأن تاريخىّ عظيم ، ولا سيما فى أوائل عهدها . وقد بسطنا الكلام فى موضع سابق على ما كان ينتابها من الخطوب وما أفضت اليه فى النهاية ، اذ أطفئ سراجها الوهاج فانقلبت الى صورة وهمية بعد أن نزل هول المغول ببغداد ، ثم ما برحت هكذا حتى جاء السلاطين الترك فاتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة ، فاعترف عالم السنة الاسلامى لهم بهذه الخلافة [1] الاسمية . بيد أن سلاطين الترك فى القسطنطينية ، وما كانوا

(١) لم يعترف الشيعة فى فارس بخليفة من خلفاء السنة . واعتاد أهل البلاد المغربية فى شمالى أفريقية أن يعترفوا لسلاطينهم الاشراف بالسيادة الروحانية .

ليحرزوا من المكانة الدينية فى العالم الاسلامى مثل ما أحرزه من قبلهم الخلفاء الراشدون وأكابر خلفاء بنى العباس فى بغداد .

أضف الى هذا أن العرب ما انفكوا ينظرون الى الخلفاء الترك شزراً ويعدونهم المغتصبين للخلافة اغتصابا[١] وقد جهد السلطان عبدالحميد جهداً كبيراً لاحياء عظمة الخلافة الدينية واسترداد ما كان لها من الجلالة والهيبة والخطورة فى العالم الاسلامى ، فنال ما ناله ليس بسبب من أسباب الخلافة من حيث الاعتبار الدينى ، بل بسبب الشعور العام الذى ظهر واشتعل فى صدور المسلمين لانشاء الجامعة الاسلامية الكبرى . لهذا كان عظماء قادة الجامعة الاسلامية الحديثة على قسمين : فنهم من اعترف بالسلطان عبد الحميد خليفة على المسلمين، ومنهم من ناصبه العداء كالسنوسى[٢]. هذه حقيقة غابت عن عقول كثير من ساسة أوربة حتى وجلوا من عبدالحميد فحسبوه فى الاسلام كالبابا فى النصرانية. وما زلنا نرى حتى اليوم

(١) ان الخلافة لم تستتم شروطها الصحيحة الا فى الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن الا ملكا عضوضاً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم ، وما انقادت الأمة الى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة ، سواء كان من العرب أو من الترك ، الا خشية الفتنة فى الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج (ش)

(٢) كون السنوسى ناصب السلطان العداوة هو خبر من الأخبار تهافت على تصديقه كثير من الأوربيين من جملتهم مؤلف هذا الكتاب . والحقيقة أن سيدى محمد بن على السنوسى وولده المهدي وجميع السادة السنوسية ، كانوا موالين للسلطان ومؤيدين للدولة العثمانية باعتبار أنها ملجأ للاسلام ، وبأن السلطان هو أكبر ملوك المسلمين . ولأبى النصر مقرب شاعر الحضرة السنوسية قصيدة يمدح بها سيدى المهدي من جملة أبياتها :

ولا بد أن تأتى جيوش ببرقة فتغشى غواشيها العيون الغواشيا
قبائل من سام وحام تجمعت وما جمعت الا الأسود الضواريا
زوية أهل المجد من يأت حيهم ير العز في نادى زوية باديا

زوية هى القبيلة التى تقطن واحة الكفرة وهي بمثابة الحرس الخاص للسادة السنوسية ، ثم يقول :

وكم بدوى فى الفلا خلف نوقه يبول على الأعقاب أشعث حافيا
تلافاه فى وادى الضلالة هاوياً فأصبح نجماً في الهداية عاليا

ثم يقول :

ولو لا انتظار الاذن من سيد الورى وسلطاننا الغازي لأصبح غازيا

أى لا يمنعه من أن يغزو ضعف فى المنة ولا فتور فى العزيمة وانما هو انتظار الاذن من السلطان الأعظم

أكثر ساسة الغرب يهيمون فى ذلك فيخالون الجامعة الاسلامية انما كان مستقرها ومنبعثها الخلافة ، و نرى أيضاً غالب حملة الأقلام يفيضون فى الكلام فيما اذا استبقيت الخلافة فى السلطان التركى على ظلعه ، أو نقلت الى شريف مكة ، أو قضى عليها القضاء الأخير ، وأى هذه الوسائل تكون خيراً لهيض جناحى الجامعة الاسلاميــة ، ان هـذا وأيم الحق لغاية ما يرتكب من الخطل . لا ينكر أن الخلافة ما برحت رفيعة المكانة فى عيون المسلمين بلا ريب ، غير أن قادة الجامعة الاسلامية الحديثة ، ذوى العقول الثاقبة والذكاء المتوقد ، ماافتئوا منذ عهد بعيد يجدّون فى سبيل الجامعة الاسلامية فى نطاق أوسع وأفق أبعد ، وقد أيقنوا كل الايقان أن القوة الكبرى التى تستمدها الجامعة الاسلاميــة اليوم ليست من مركز الخلافة ، ولكن من بيت الله الحرام ، حيث الحجيج اذ يأتمرون كل عام مؤتمراً عظيما ، ومن انشاء الطرق الدينية المؤدية الى الجامعة الاسلامية كالطريقة التى أنشأها السنوسىّ ، ونحن شارعون فى الكلام عليها [1] فى موضع قريب .

من شأننا الآن أن نتتبع الأدوار المختلفة التى اجتازتها « الجامعة الاسلامية » الحديثة مبتدئين فى الكلام على الدور الأول الذى ظهرت فيه للعالم ظهوراً بيناً ، وهو دور الدعوة الوهابية . أنشأ عبد الوهاب حكومته على أساس الشورى كتلك الشورى التى اشتهرت فى عهد الخلفاء الراشدين . ولما تم لسعود خليفة عبد الوهاب الاستيلاء على الأماكن المقدسة فى الحجاز ، خال استيلاءه هـذا الخطوة الأولى فى سبيل فتح العالم الاسلامى قاطبة ، فتحاً اصلاحياً دينيا تتلوه الوحدة السياسية العامة بين جميع الممالك الاسلامية . لكن لما سقطت الوهابية دون مبتغاها العظيم ، أخذ الاضطراب السياسى على أثر ذلك يشتد فى العالم الاسلامى اشتداداً واسع المضطرب . وقد سبق لنا فتكلمنا على ما حدث فى شمالى الهند وأفغانستان ،

---

(١) اقرأ السر و . مو ير — « كتابه نشوء الخلافة وتداعيها وسقوطها » ايدنبرغ ١٩١٥

Sir W. Muir, " The Califate " Its Rise, Decline and Fall."

وهو خير ما كتب فى شأن الخلافة

والسر مارك سايكس — كتابه : « تراث الخليفة » لندن ١٩١٥

Sir Mark Sykes, "The Cailph's Last Heritage" (London 1915)

و « وفد الخلافة الهندي » وهو رسالة نشرت ملحقاً لمجلة « الشؤ ون الاجنبية »

"The Indian Khilafat Deligation", "Foreign affairs" Special supplement

مما كان فى الواقع منبعثا عن الروح الوهابية ، و يعد باعتبار الحقيقة والغاية نعيا على الممالك الاسلامية انحطاطها السياسى ، وعلى الحكام والأمراء المسلمين فقدانهم الهيبة والسلطان . فلهذا لم يكن الوجل من الغرب أو العداء له الباعث كل الباعث على انتشار الاضطراب الاسلامى فى أول عهده ، لأن أوربة لم تكن حتى ذلك العهد قد حاولت فتحاً كبيراً فى العالم الاسلامى ، سوى استخلاصها بعض الأصقاع من تركية الأوربية وجزائر الهند ، وأما هول الفتوح العظمى فلم يكن قد ظهر بعد ، غير أن أشباحه كانت تقترب شيئاً فشيئاً . وما كاد ينتصف القرن التاسع عشر حتى تبدلت الحال تبدلاً تاماً ، ففتح الفرنسيس الجزائر واستولت روسية على عبر القوقاس ، و بسطت انكلترا نفوذها على الهند من أقصاها الى أقصاها ، جميع هذا مما جعل قادة المسلمين الحكماء فى كل صقع يوقنون كل الايقان أن الاسلام انما يحيق به خطر عظيم ، و بلاء شامل ، من جراء انتشار سيطرة الغرب عليه ؛ وفى هذه الغضون أخذت الجامعة الاسلامية تسير فى تيار غايته مقاومة الغرب وصده وعداؤه ، وهى ما برحت تسير هذا المسير حتى اليوم . وقد كانت المقاومة فى بادئ الأمر فى موضع موضع ، وغير منظمة تنظيماً مرتبط الوسائل كلّ الارتباط ، فهبّ أبطالٌ من المسلمين مثل عبد القادر فى الجزائر وشامل فى القوقاس وغيرهما ، يقاتلون الفاتحين الغربيين قتالا شديداً فكان ذلك القتال على استمراره أشبه بمبضع يزيد العالم الاسلامى جروحاً فيزداد تألما وصراخا ، بيد أن قتالاً مثل هذا ما كانت الغلبة فيه لابطال المسلمين ، وذلك لوهن قواهم بعد جهاد كبير طويل العهد ، ولعدم تناولهم مدداً ونصراً يستعينون بهما على المضى فى القتال

وما انفكت روح العداء للغرب تهيج وتشتد ، حتى بات العالم الاسلامى قاطبة يغلى غليان المرجل على النار ، فشبت فى الجزائر الثورة المعروفة بثورة « الكابيل » سنة ١٨٧١ وهب رجال الدين المعروفون بالأولياء فى كل بلاد من بلاد افريقية الشمالية يستثيرون المسلمين و يستنفرونهم للحرب والجهاد ، ومن هذا النوع كانت ثورة المهدى فى السودان المصرى ، وهى الثورة التى دامت طويلاً وفتت فى عضد الانكليز فتاً كبيراً ، وأنزلت بهم خسائر فادحة ، وما خمدت نارها حتى قيض «لكتشنر» الاستيلاء على الخرطوم ،وذلك قبيل ختام القرن التاسع عشر . وانفجر فى أفغانستان بركان حقد وعداء للغرب عظيم ،

فتناولت جمه مسامى الهند فألهبت صدورهم الهاباً ، فهبوا يشقون عصا الطاعة على الانكليز الذين ما استطاعوا تسكين العاصفة الا بعد شق الأنفس وركوب الهول . وحدث مثل هذا فى أواسط آسية حيث ظهرت « الطريقة النقشبندية الدينية » فأخذت تمتد وتنتشر شرقا حتى بلغت الأقطار الصينية فثار مسامو الصين ثورتهم الكبرى فى « تركستان الصينية » و « ينان[1] » واشتعلت فى جزائر الهند الشرقية الهولندية نار الثورات المتوالية ، وأشهرها ما عرف « بالحرب الاتشية » التى ما برح بعضها متقداً حتى اليوم .

فجميع هذه الثورات التى كانت تشب معاً فى هذا الدور فى مواضع مختلفة، عداءً للغرب وسعياً وراء غاية واحدة ، انما كان ينقصها التنظيم والتمشية على خطط مقررة ، وربط حلقاتها المفردة المبعثرة سلسلةً واحدةً ، وفوق جميع هذا كانت تعوزها القوة المركزية الثابتة للقيام بتدبير الأمور وانشاء الوسائل الدائمة .

وقد كانت الثورة المهدية من البواعث على شبوب هذه الثورات ، والمهدية هذه لم تكن معروفة فى صدر الاسلام ، وما ورد لها ذكر فى القرآن ، غير أنه جاء فى الأثر أن الرسول أنبأ أن رجلا يدعى المهدىّ سيظهر للناس ليملأ الأرض عدلاً وقسطا كما ملئت جوراً وظلماً[2] ومنذ عهد بعيد كان ينتظر ظهور هذا المهدى لينصر الاسلام ، ويقتل الكفار ، وينيل المسلمين السعادة خالدين فيها . على أن المتدبر المستقصى ليعلم أنه قد كان لهذه العقيدة تأثير ظاهر فى تاريخ الاسلام فقد قام كثيرون فى عصور مختلفة يدّعون المهدية فتبعهم عدد كبير ، فلهذا أمر المهدية فى الاسلام يشبه أمر « مسيا » فى اليهودية وقد كان من طبيعة الحال أن المسلمين ، وقد شُدّ على أعناقهم خناق السيطرة الغربية ، باتوا يعللون نفوسهم بظهور المهدى ، فلما ظهر المهدى ، لم يأت ظهوره بالنتيجة التى تنيل المسلمين السعادة المنتظرة ، فكان مثلُ المهدى مثلَ النار هبت فى الهشيم وسرعانَ ما خمدت .

ولما وصلت الحال فى العالم الاسلامى الى هذا الحد ، أدرك قادة الجامعة الاسلامية

(١) سيأتى ذكر هذه الثورات فى بحث الاسلام في الصين (ش)

(٢) أحسن خلاصة لحديث المهدى وما ذا قيل فيه ما تراه في فصل خاص بذلك من مقدمة ابن خلدون

الحكماء جميع هذا و باتوا يوقنون أن الثورات المحدودة المضطرب تشب فى موضع تقوم بها أمة من المسلمين دون الأخرى فى قطر من الأقطار لا يمكن أن توهن شيئا من قوة الغرب تلك القوة الحربيــة المنظمة على أحدث الأصول والفنون ، وأدركوا حق الادراك أنه اذا رام العالم الاسلامى حقاً تحرير نفسه من النير الغربى ، وتحطيم هــذه السلاسل الثقيلة التى يرسف فيها منذ عهد بعيد ، ودك هذه السيطرة المذلة دكا ، وجب عليــه أن يعمل عملاً منظماً شاملاً ، ويسعى سعياً أكيداً ثابتاً ، جامعاً للوحدة العامة والرابطة الكبرى . وأيقن هؤلاء أيضاً أنه لا بد للعالم الاسلامى اذا شاء هــذا ، من دراسة علوم الغرب ، واكتناه عظمته وقوته وتقدمه ، ونهج مناهجه ، وسلوك سبله فى جميع ما يؤدى الى النهضة الصحيحة القائمة على أسس العلم وأركانه ، فانما هذا هو السبيل الذى لا سبيل الا هو للافلات من ربقة استعمار الغرب والتحرر من حكم الفرنجة . وفوق جميع هذا أيقن قادة الجامعــة الاسلامية أن استقلال العالم الاسلامى عن الغرب النصرانى الاستقلال السياسى ، يجب على كل حال أن يسبقه التجدد الروحى العقلى العامى الأدبى ، والتربية النفسانية الصحيحة ، وانه متى صلحت نفوس المسلمين وزكت وطابت واعتزت وباتت تعاف الذل وتأبى الضيم ، سهل اذ ذاك كل عمل فى سبيل التحرر والاستقلال .

وعند هذه النقطة من الدائرة ، التقت غاية دعاة الجامعة الاسلامية ، وغاية الأحرار ، اذ أدرك الفريقان كلاهما استفحال الخطب الجلل والشقاء الاكبر فى العالم الاسلامى ، وما يعانيه المسلمون من الذل والهوان ، فابتغيا تجدده الروحانى واصلاحه النفسانى ، غير أنه نشأ الخلاف بينهم فى وسائل هذا التجدد والاصلاح وكيفيتهما ، فقال الاحرار ان المسلمين لا مندوحة لهم عن الأخذ عن الغرب ، واقتباس الأفكار منه ، واتباع طريقته فى جميــع ما هو لازم وضرورى لبلوغ الغاية العلياء . وقال أرباب الجامعة الاسلامية ان الاسلام بذاته لصالح كل الصلاحية لكى يستمد منه جميع ما هو لازم لذلك ، فلهذا ينبغى أن يقصر أمر الأخذ عن الغرب على محاكاته فى انتهاج مناهجه العمليــة ، والاستعانة بوسائله المادية فحسب .

وكان مبدأ سير الجامعة الاسلامية السير المنظم على الخطط المقررة ، حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، اذ كان للجامعة أسّان قامت عليهما ، همــا الطرق الدينية الحديثة

النظام كالطريقة السنوسية ، والدعوة التى قامت بها فرقة من جلة العظماء وأكابر المفكرين الحكماء ، يرأسها السيد جمال الدين الأفغانى ، واننا نبسط الكلام على هذين الأسين ، بادئين بالأول منهما :

ان الطرق الدينية فى الأقطار الاسلامية هى بنت قرون . وجميعها على نوع واحد من حيث انشاء « الزوايا » على رأس كل منها وازع يعرف « بالمقدّم » ، ذى سلطة كبيرة على سائر اخوان الزاوية ، وقد كانت هذه الطرق فى عهدها الأول ، قبل انشاء نظام الطرق الحديثة ، منصرفة عن شؤون الدنيا ، الى شؤون الدين والانقطاع للعبادة ، فكان لكل حلقة من الاخوان رئيس يعرف « بالدرويش » . فلذلك لم يكن لهذه الطرق فى دورها الأول شأن سياسى ، ولما كان التباغض والتعادى منتشراً بين كل طريقة وأختها ، فقد بات العمل المشترك لغاية واحدة متعذراً ، حتى ان طرقاً هذه صفاتها ما برحت حتى اليوم كثيرة ، ولكن ليس لها ولن يكون لها شأن سياسى يذكر ما دامت على نظامها القديم .

أما النظام الحديث للطرق الدينية فقد أنشئ حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، وأهم الطرق الحديثة هى الطريقة السنوسية بلا مشاحة ، تلك التى أنشأها محمد بن السنوسى ولد السيد محمد فى محل بالقرب من « مستغانم » حوالى سنة ١٨٠٠ فى بيت عريق فى المجد الاسلامى والشرف العربى ، وحسبه مجداً أنه متحدر من السلالة النبوية الطاهرة . وقد عرف السيد محمد منذ حداثته بشغفه بالعلم وسلوكه مسلك التقوى ، فدرس العلوم الدينية فى جامعة فاس [١] ، ثم أخذ يسيح فى أقطار شمالى افريقية ، داعياً الناس الى الاصلاح الدينى ، وبعد ذلك حجّ بيت الله الحرام فى مكة المكرمة حيث قضى مدةً يأخذ عن الأساتذة الوهابيين ، فزاد بذلك علمه فاتقدت روح الاصلاح فيه . فلم يزايل مكة حتى وضع خطة ورسم طريقة للقيام بالاصلاح الذى نواه واستعان الله عليه ، ثم عاد الى شمالى افريقية سنة ١٨٤٣ فأقام بطرابلس الغرب ، وابتنى له زاوية على جبل بالقرب من « درنا » عرفت « بالزاوية البيضاء » . وقد كان السيد محمد رجلا شديد الهيبة ، بعيد الهمة ، عظيم الاقتدار على التنظيم والاصلاح ، فقصده الناس أفواجاً من كل صقع من الأصقاع الافريقية

---

(١) يريد جامع القرويين الذى هو فى العالم الاسلامي ثانى الازهر (ش)

الشمالية ، بيد أنه لم يمض غير اليسير من الزمن ، حتى باتت الحكومة التركية فى طرابلس تخشى أمره وتقوم وتقعد لشأنه ، فساءت العلاقات والشؤون بينه و بينها ، فنقل مقامه الى واحة « جغبوب » الواقعة للجنوب من صحراء ليبية ، وجعل مقره هناك . ولما توفى سنة ١٨٥٩ كانت الطريقة التى أنشأها قد انتشرت انتشاراً عاماً فى معظم الرقعة الافريقية الشمالية .

وخلف « سنوسى المهدى » أباه السيد محمد السنوسى ، فأخذ يجاهد فى سبيل اعزاز الرابطة وتقوية الاصلاح . وخير مثال تدرك به الروح السنوسية وتتجلى تجلياً بيناً فى كيفية صيرورة سنوسى المهدى خليفة لأبيه . فقد كان للسيد محمد ولدان ، المهدى أصغرهما ولما كانا لم يزالا غلامين أراد والدهما بلاءهما وعجم عودهما ليرى أيهما أوثق ايماناً وأشد اقداماً ، فدعاهما اليه ذات يوم بحضور جميع أهل الزاوية ، ثم أمرهما بأن يتسلقا نخلة باسقة . فلما بلغا عاليها استحلفهما بالله ورسوله الكريم أن يهويا للحال بنفسيهما الى الأرض ، فهوى المهدى بنفسه فأدرك الارض سالماً ، ولبث الآخر فى عالى النخلة فقال السيد محمد لجميع من كان حوله : « الخلافة من بعدى انما هى لولدى هذا المهدى الذى لم لم يتردد فى تسليم نفسه لمشيئة الله عز وجل » ، واقتفى السنوسى المهدى آثار والده جميع حياته فكان حا كما حكيما عادلا تقيا ، وعاملا كبيرا فى سبيل الطريقة الدينية السنوسية ، وفى أواخر حياته نقل مقره الى واحة «الجوف» للجنوب من «جغبوب» فى صحراء «ليبية» وتوفى سنة ١٩٠٢ فخلفه ابن أخيه أحمد الشريف ، وهو سيد الطريقة ورأسها الحالى وهو ذو اقتدار وكفاية .

وقد انقضت مدة أكثر من ثمانين سنة والطريقة السنوسية تزداد انتشاراً و وثاقة ، وما برح الجهاد فى سبيلها على غير انقطاع ، حتى غدت اليوم عاملاً كبيراً فى تيار الحركة الاسلامية و بات لها أتباع فى كل قطر من أقطار العالم الاسلامى ، فالسنوسيون فى بلاد العرب كثير عددهم ، وليس هذا جميع ما فى الأمر بل ان الطريقة السنوسية قد كانت عاملا شديد التأثير فى الحياة الدينية فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وما زالت أقطار شمالى أفريقية من أقصاها الى أقصاها مستقر السنوسية ومضطربها ، فمن مراكش حتى الصومال ترى البلاد مرصعة «بالزوايا» ، وهذه «الزوايا» تستمد قوتها من الزاوية المركزيه الكبرى

حيث مقام السيد السنوسى فى « الجوف [١] » الواقعة فى قلب صحراء « ليبية » . ولم يستطع أحد من الغربيين الوصول الى هذا المكان [٢] سوى رجل واحد [٣]. وتحيط بالجوف الصحراء ، وعلى بعد عدة فراسخ من الجوف آبار الماء ، وأما طرق الصحراء المؤدية الى مقر السنوسى تلك الطرق المضلة ، فلا يستطيع السير فيها الا كل خرّيت خبير من رجال السنوسى ، أمير البلاد وسيدها المطاع

فسلطان السنوسى حقاً سلطان كبير . والسبب فى ذلك أن هذه « الزوايا » عظمة وشأنا أكبر مما يبدو للقارئ عند أول وهلة . فعلى رأس كل زاوية « مقدم » وفوق المقدم « وكيل » ووظيفته كوظيفة الحاكم المدنى ، وكلا « المقدم » و « الوكيل » ذو سلطة كبيرة على أهل الزاوية جميعاً والقبيلة كافة [٤]. فالامر الذى يصدره أحدهما مقرونا باسم السيد

---

(١) يريد بها زاوية التاج فى واحة الكفرة التي في قلب الصحراء الكبرى (ش)

(٢) قامت الرحالة الانكليزية روزيتا فوربس Rosita Forbes برحلة كبيرة الى صحراء ليبية سنة ١٩١٩ — ١٩٢٠ وكان رفيقها السيد أحمد محمد بك حسنين الرحالة المصري المشهور الذى قام هو لوحده برحلة عظيمة هذه السنة (١٩٢٣) الى صحراء ليبية . ووضعت الرحالة فوربس كتاباً بالانكليزية وصفت فيه رحلتها مؤيدة بالبرهان ومشاهدة العيان أن القوة السنوسية في افريقية تقوم لها وتقعد كل دولة مستعمرة هناك ووسمت كتابها هذا ب «أسرار الصحراء» The Secret of the Sahara وقد وضع أحمد محمد بك حسنين كتاباً قيما لرحلته هذه . « المترجم »

(٣) هو المستكشف نختيغال Dr. Nechtigal

(٤) الزاوية فيها مقدم هو القيم عليها ، وهو الذى يتولى أمور القبيلة ويفصل الخصومات بينها ، ويبلغ الأوامر الصادرة من السيد السنوسى . ويليه وكيل الدخل والخرج واليه النظر فى زراعة الأراضى وجميع الأمور الاقتصادية . ومن عادتهم أن على كل فرد من أفراد القبيلة أن يتبرع بحراثة يوم وحصاد يوم ودراسة يوم فى أرض الزاوية ، فلذلك يسهل عمران الزاوية بدون نفقة كبيرة ، ثم هناك الشيخ الذى يقيم الصلاة فى مسجد الزاوية ويعلم أحداث القبيلة القراءة والكتابة ، ويعقد فى القبيلة عقود النكاح ويصلى على الجنائز الخ . والزوايا السنوسية هى الملاجئ الوحيدة فى الصحراء للمسافرين والتائهين والواردين والشاردين ولا يوجد هناك مساكن مبنية بالحجر غيرها . وقد سرنا — فى طريقنا الى جهاد طرابلس — نحو شهر من ظاهر اسكندرية عند منتهى الخط الحديدي حيث زاوية سيدى هرون القناشي الى موطن الحرب بسهل الفيض أمام مدينة بنغازى ، فكنا بعد كل مرحلة ثلاث ساعات أو أكثر نجد زاوية سنوسية ، هذا عدا زوايا كثيرة ليست مصاقبة للطريق السلطاني . فان لكل قبيلة زاوية هى مرجعها فى الدين والدنيا ، واذا تعددت فروع القبيلة كالعبيدات مثلا ، فلكل فخذ منها زاوية ، فلعائلة منصور زاوية ،

السنوسى ، انما هو أمر واجب الطاعة على الجميع . وفى الواقع ان وراء الحكومات الغربية الاستعمارية فى شمالى أفريقية ، من انكليزية وفرنسية وايطالية ، حكومة سنوسية شديدة المراس قوية الشكيمة ، وهى من عزة الجانب بحيث لا تجسر احدى هذه الحكومات الاستعمارية المذكورة على مس جانبها فى أمر من الأمور . أو احراجها فى شأن من الشؤون . فلذلك سياسة الحذر واللين متبعة ازاءها على الدوام

والحكومة السنوسية أيضا على حذر من الاصطدام باحدى الدول الغربية ، على أن هذه السياسة سياسة التروى الشديد والاحتراز لتقضى بالعجب العجاب فابرحت الطريقة السنوسية منذ نصف قرن تقوى وتعظم ، وتمتد وتنتشر ، غير أنها ماركبت يوماً مركباً خشناً ، أو سلكت مسلكا وعراً فيه شئ من الخطر على كيانها السياسى ، وفى جميع الثورات التى هبت فى أقطار شمالى افريقية العديدة ، كان السنوسيون المقيمون بنواحى البلاد يشتركون فى القتال ويشدون أزر الثائرين ، كما حدث فى الحرب الايطالية فى طرابلس الغرب وفى الحرب العالمية الكبرى ، ولكن الطريقة السنوسية نفسها كانت تجتنب الحرب جهدها ، اجتناباً رسمياً على أتم قدر .

بيد أن موقف السنوسية هذا الموقف من الاحتراز والاجتناب ، ليس متخذاً تجاه الدول النصرانية وحدها ، بل تجاه الدول الاسلامية أيضاً ، اذ ماانفك السنوسيون طيلة عهد الطريقة يذودون عن حريتهم التامة ، التى هى عندهم أعز شئ لديهم ، فيبذلون جميع مايستطاع بذله فى سبيل صيانتها وحماية سياجها . وعلى ذلك لم تكن العلاقات بين السنوسيين والدولة العثمانية جارية مجرى الود والاخلاص ، بل كثيراً ماجهد السلطان عبد الحميد ، وهو

ولعائلة مريم زاوية ، ولعائلة جازية زاوية ، وللمنابن زاوية ، وهلموا كله زاوية وهلم جرا ، وان الغريب أو السابل أو الفقير المعتر لينزل بزاوية من هذه الزوايا فيقيم ما يشاء ويتضيف ما يشاء ولا يسأله أحد عن شئ . وأغلب هذه الزوايا مختار لها أجمل البقاع وأخصب الأرضين ، وفيها الآبار التى لا تنزح من كثرة مائها وفى الجبل الأخضر هي بجانب عيون جارية وأنهر صافية ، كزاوية ماره وزاوية مرطوبه وزاوية أم أرزم بقرب درنه وزاوية شحات فى مدينة سيرنا القديمة الخ ، وأينما حل السنوسية عمروا وثمروا ، ووجدت الأرض اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وقل ان مررت بزاوية ليس لها بستان أو بساتين فيها من كل أنواع الفواكه والثمار ، وأصناف البقول والخضرة يزيد قيمتها مصادفة الانسان لها فى تلك البقاع القاصية عن العمران المحفوفة بالفلوات ، وقد قيدت فى دفتر عندى يحتوى معلومات كثيرة على برقة اسماء نحو ١٢٠ زاوية سنوسية فى تلك الديار وما جاورها الى السودان وليس ذلك العدد هو كل ما عندهم من الزوايا . (ش)

فى ابان مجده وسطوته ، والبطل الاكبر المجاهد فى سبيل الجامعة الاسلامية ، لاستمالة السنوسى اليه وارضائه ، فما استطاع الى ذلك سبيلا ، بل جميع ماأجابه السنوسى على ذلك هو بعض عبارات تدل على شدة الدهاء . وقد يؤثر عن السنوسى قوله : « الترك والنصارى انى أقاتلهم معا وأضربنهم ضربة واحدة[1] » . ولما قام محمد أحمد زعيم المهدية ، يناهض الانكليز فى السودان المصرى وينتصر عليهم ، أنفذ رسولا الى السنوسى يطلب منه نصراً فى الحرب ، فرفض السنوسى ذلك وأجاب مستهزئاً : « من هو هذا الفقير المسكين من « دنقلة » (يعنى محمد أحمد) ألاأستطيع انأكون المهدى اذاشئت ذلك[2] ، »

فجميع هذا انما يبرهن على أن السنوسى لاينفخ فى غير ضرم ، بل انه البرهان الذى لا يرد على أن السنوسى جاد جدا غير منقطع فى اعداد ما يستطيعه من الوسائل والذرائع الكفية للاصلاح الدينى والتهذيب النفسانى والخلقى لخطته التى ينوى القيام بها بعد اكتمال العدة التى يجاهد فى سبيلها الآن ، انما هى افتتاح جميع البلاد الافريقية ، ثم سائر الاقطار الاسلامية ، ثم جعل العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه مملكة واحدة ، على رأسها خليفة واحد . وهذه المملكة العظمى يرتبط بعضها ببعض بالجامعة الاسلامية الكبرى ، على أن السنوسى لموقن حق الايقان أن تحرر المسلمين التحرر السياسى من ربقة السيطرة الغربية النصرانيه ، يجب أن يسبقه انتشار التجدد الروحانى والدعوة الاخلاقية فى المسلمين ، فلهذا هولايفتأ يجاهد نحو ادراك هذه الغاية بتهذيب اخلاق رعيته وترقيتها ، وايتاء نفوسها التربية الصحيحة ، وتنشئتها على الفضائل الاسلامية العليا ، وهو لم يقصر الأمر على هذا فحسب ، بل يجدّ ايضا جداً اقتصاديا فى سبيل تحسين أسباب المعايش وتوفير وسائل الكسب فكثرت فلاحة الواحات الخصبة ، ونمت الزراعة ، واحتفرت الآبار الحديثة وابتنيت الأنزال على طريق القوافل ، وشرع فى انشاء وسائل التجارة على نطاق رحب .

جميع هذا يوضح لنا أن الطريقة السنوسية قد بلغت مبلغا من الاعتزاز والمناعة لم يسبق له مثيل من قبل . وهذا هو السبب الذى اقتضى أن تسير السنوسية سير الاتئاد ، مزدادة القوة مشتدة البأس ، محترزة على الدوام المجازفة بشئ من قوتها الحربية قبل اكتمال العدة اللازمة

(١) هذه الرواية نرجح أنها مدخولة (ش)

(٢) السنوسى أعلن تكذيب المهدى السوداني (ش)

وحينونة الأجل المرتقب . و بينما تسير السنوسية على هذا الجد الشديد ، تراها تنشر المدارس وتقيم المآوى والأكنان فى جميع البلاد الافريقية الشمالية . وتعلم الناس طاعة « الوكلاء » و « المقدمين » وفوق جميع هذا . فانها قد اتجهت وتغلغلت جنوباً فى القارة الافريقية . مبشرة بالرسالة المحمدية . حيث هناك الملايين من الزنج الوثنيين طفقوا يقبلون أيما اقبال على الدخول فى الاسلام أفواجاً (١)

ولا شئ أدل على هذه النهضة الاسلامية الحديثة الكبرى ، من هذه اليقظة الروحانية الدينية التبشيرية ، الناشئة والمنتشرة خلال مئة السنة الاخيرة ولاغرابة فى ذلك فقد كان الاسلام على الدوام دين هداية الناس واخراجهم من ظلمات الشرك الى نور التوحيد هذا التاريخ شاهد حق على ماقام به المبشرون المسلمون فى أول عهد الاسلام من الأعمال الجليلة التى لم يقم بمثلها غيرهم من المبشرين . ولا ننسى أن روح التبشير ونشر الدعوة فى سبيل الرسالة لم تبرح حية على الدوام ، على انحطاط الممالك الاسلامية وتدليها . فلذلك ما انفك الاسلام طيلة القرون الوسطى ينتشر فى الهند والصين (٢) ، و بينما كانت الرسالة المحمدية تنتشر فى نائى تلك الأصقاع ، كان الترك ينشرونها و يرفعون أعلامها فى شبه جزيرة البلقان.

---

(١) اقرأ الكتب الآتية فى شأن السنوسية وغيرها من الطرق الدينية : —
« الطريقة الدينية الاسلامية لسيدي محمد بن على السنوسى » — باريس ١٨٨٤
" La Confrérie Musulmane de Sidi Mohammed Ben Es-Sénoussi " H. Duveyrier,(Paris 1884)

و « الطرق الدينية الاسلامية » فى الحجاز » باريس ١٨٨٧
"Les Confréries Musulmanes du Hedjaz,, A. Le Chatelier, (Paris 1887)

و «العصبية القومية الاسلامية» قسنطينة الجزائر ١٩١٣ " Le Nationlisme Musulman ,,

و « السنوسية » (وهو مقال بقلم أحمد عبد الله وهو من أشياع السنوسية) . مجلة ذا فورم مايو ١٩١٤ " The Sennussiyeh " (The Forum) May 1914

و « السنوسى وجهاده المهدد » ـ مجلة «القرن التاسع عشر» عدد مارس« آذار» ١٩٠٠
T. R. Threlfall, " Senussi and His Threateued Holy War,, (Marsh 1900)

و « الخطر الاسلامى» ـ مجلة «القرن التاسع عشر وما بعد» سبتمبر « ايلول » ١٩٠٧
H. A. Wilson, " The Moslem Menace ,,

(٢) اقرأ الفصل الوارد فى هذا الكتاب على الاسلام فى الصين ـ « المعرب »

و بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر ، كان المبشرون المسلمون يفتحون بلاد غربى أفريقية [١] ، وجزائر الهند الهولندية ، وجزائر الفيلبين ، فتحاً دينياً مبينا . غير أنه فى القرن الثامن عشر ، أمسى العالم الاسلامى مرتدياً رداء الخمول ، ففترت وبردت حرارت المبشرين المسلمين ، وسكنت تلك الروح الثائرة الجوابة .

ولبث الاسلام هكذا ، حتى تباشير اليقظة الحديثة ،فعادت تلك الشرارات الكامنة فى الرماد تستطير ، وما هى الافترة يسيرة حتى اشتعلت نار التبشير ثانيا ، فأخذ الاسلام يجوز حدوده و ينبث فى كل صقع من أصقاع العالم الاسلامى ماعدا أوروبة . وعند اعتبار شأن انتشار الاسلام هذا الانتشار ، يجب أن نعلم العلم اليقين أن كلّ مسلم هو بغريزته وفطرته مبشر بدينه ، ناشر له بين الشعوب غير المسلمة ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، وعلى ذلك ان نشر الرسالة المحمدية لم يقم به رجال التبشير وحدهم ولا قصر الأمر عليهم دون سواهم،هكذا، بل شاركهم فيه جماعات ، عديد من السياح والتجار والحجاج ، على اختلاف الأجناس . ولا يؤخذن من هذا انه لم يقم فى المسلمين مبشرون ارتشفوا كؤوس الحمام فى سبيل الدعوة الاسلامية ، فعديد المبشرين الذين هم على هذا الطراز كثير ، وذلك ظاهر بين فى أمر الطرق الدينية مما لا يحتاج الى برهان ، بل أى دليل أقطع من المبشرين السنوسيين ، الحمس الغيُر ، الذين خرّجتهم زوايا الصحراء وهم يعدون بالالوف المؤلفه ، وما انفكوا يجوبون كل بلاد وثنيةٍ مبشرين بالوحدانية ، داعين الى الاسلام . وهذه الاعمال التى قام بها المبشرون المسلمون فى غربى افريقية وأوسطها خلال القرن التاسع عشر الى اليوم لعجيبة من العجائب الكبرى ، وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر ، فقد قال أحد الانكليز فى هذا الصدد منذ عشرين سنة : « ان الاسلام ليفوز فى أواسط افريقية فوزاً عظيما ، حيث الوثنية تختفى من أمامه اختفاء الظلام من فلق الصباح ، وحيث الدعوة النصرانية باتت كأنها خرافة من الخرافات » . وقال مبشر بروتستنتى فرنسى : « مابرح الاسلام يسير اليقدمية منذ نشوئه حتى اليوم ، فلم يعثر فى سبيله الا القليل ، وما زال يسير فى جهات الأرض حتى بلغ قلب افريقية مذللا أشق المصاعب ومجتازاً أشد الصعاب ، غير واهن العزم فالاسلام

(١) اقرأ الفصل الوارد فى هذا الكتاب على الاسلام في افريقية ــ « المعرب »

حقاً لايرهب فى سبيله شيئاً ، وهو لاينظر الى النصرانية ، منازعته الشديدة ، نظرة المقت والازدراء ، فلهذا هو حقيق بالظفر والنصر ، اذ بينما كان النصارى يحلمون بفتح افريقية فى نومهم ، فتح المسلمون جميع بقاع القارّة فى يقظتهم (١) »

واما السبيل الذى يسير فيه الاسلام جنوباً فى افريقية فهو من الرائع الغريب. منذ عدة سنوات عثرت الحكومة الانكليزية ، على غيرماتوقع ، على أن المبشرين المسلمين مخترقون « نياسلندة » دعاة الى الرسالة المحمدية ، و بعدالبحث والاستقصاءواذكاء العيون، وجدت تلك الحكومة أن المبشرين انما هم من عرب زنجبار ، قد بدأوا عملهم هذا منذ سنة ١٩٠٠ ، وأنه بعد مضىّ عقد من السنين على شروعهم فى جهاد التبشير ، كانت كل قرية فى جنوب « نياسلندة » قد أسلمت وفيها مسجد ومدرسةاسلامية ومعلمون مسلمون. ومع أن هذه الدعوة كانت ، كما هو ظاهر من أمرها ، وسيلةً شديدة لتضعضع سلطةالمستعمرين وسيطرتهم ، فلم تجسر الحكومة الانكليزية على مقاومتها خيفة ازدياد انتشارها فى الاقطار الأخرى . ويقول بعض المفكرين الغربيين فى هذا العصر ، انه لن تمضى مدة طويلة منذ اليوم حتى يرى الإسلام قد اجتاز « زمبازى » وانتشر فى جنوب افريقية انتشاراً عاماً ، فيطبق القارة بأسرها .

وليس ظفر الاسلام فى افريقية مقصوراً على الوثنية فحسب ، بل على النصرانية الافريقية كذلك ، اذ ترى الآن الذين تنصروا فى غرب افريقية على يد المبشرين الفرنجة يتناقصون عدداً تناقصاً فاحشاً ، وذلك لارتداد غالبهم عن النصرانية ودخولهم فى الاسلام. زد على ذلك أن النصرانية فى الحبشة ، انما باتت فى خطر شديد من جراء سيول الاسلام الطامية ، من بعد ما كانت فيمامضى سداً منيعاً فى وجه الاسلام . والغريب فى هذا كل الغرابة أن الأحباش أنفسهم غدوا اليوم يدخلون فى الاسلام أفواجا متلاحقة ، لاعلى يد فتوح حربية بل فتوح سلمية دينية . وقد قال أحد الثقات الغربيين حديثا : « منذ خمسين الى ستين سنة خلت كنتَ ترى قبائل الأحباش العديدة ، لايكاد يرى فيها مسلم واحد، أما اليوم فغالب هذه القبائل هم مسلمون مؤمنون بالرسالة المحمدية . »

(١) للاطلاع على مجاهيد التبشير الاسلامي فى افريقية اقرأ كتاب :—
ج . بونه مورى— « الاسلام والنصرانية فى افريقية » (باريس ١٩٠٦)
G. Bonet Maury. " L' Islamisme et le christianisme en Afrique,,

وربما كان ظفر الاسلام فى افريقية اليوم أعظم ظفر لاقاه المبشرون المسلمون حديثا، بيد أن هذا ليس جميع الظفر الاسلامى بل هناك غيره مثله فى سائر أنحاء العالم . وقد أتينا فى الفصل السابق من هذا الكتاب على ذكر حركة الاحرار السياسية فى بلاد التتر الروسية، بحيث بقى علينا الكلام على النهضة الدينية العجيبة التى رافقت تلك اليقظة التترية . كان التتر مابرحوا منذ عهد بعيد فى الحكم الروسى ، وقد جهدت الكنيسة الارثوذكسية الروسية أعظم الجهد لتنصيرهم ، فأدركت فى بعض المواضع بعض النجاح الذى لايذكر ، غير أنه لما انتشرت اليقظة الاسلامية العامة ، و وصل ماوصل منها الى بلاد التتر فى أوائل القرن التاسع عشر ، هب التتر للحال يستردون اخوانهم المتنصرين الى الاسلام ، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى عاد جميع هؤلاء فانتحلوا دين الرسالة ، على جميع مابذلته الكنيسة الارثوذكسية من العناء الاشق ، ولجأت اليه من مختلف الذرائع والوسائل ، لتحول دون ذلك ، فلم تلق شيئاً من النجح ، بالرغم مما اتخذته الحكومة الروسية من أحكام الجزاء والعقاب ، و وسائل القهر والاكراه[1] . على أن المبشرين المسلمين التتر لم يقصروا أمرهم على هذا ، بل شرعوا فى نشر الاسلام فى القبائل التركية الفنلندية الأمية ، المقيمة فى الشمال من بلاد التتر ، غير مبالين بمقاومة حكام الروس لهم ولولاقوا من وراء ذلك من الهول مالاقوا .

وكانت النهضة الاسلامية فى الصين عجيبة لامثيل لها ، فيقتضى الحال أن نبسط كلمة فى شأنها . كان بلوغ الاسلام الصين منذ عهد بعيد ، على يد التجار العرب وكتائب جنود عربية مرتزقة . فصار على توالى الايام يختلط العرب الغرباء بالصينيين تزاوجا وتعاونا فى أمر المعايش وغير ذلك ، بيد أنه على جميع هذه القرون التى كرّت حتى اليوم ، لم يبرح المسلمون الصينيون يتميزون عمن سواهم تميزاً حافظاً لأنسابهم العربية التى يختلفون بها ميولا واخلاقا عن عامة الصينيين اختلافاً بعيداً ، وهم أبداً يدّعون لنفوسهم ميزة الشرف والعلوّ على غيرهم من السكان ، أما موطنهم ففى مقاطعات « ينان » الجنوبية وما يليها من المقاطعات الداخلية ، وهناك بلاد مسلمة فى الصين غير هذه ، هى بلاد تركستان الشرقية التى فتحتها الصين فى القرن الثامن عشر ، وأهلها مسلمون متسلسلون نسباً من العروق التركية القديمة. وقد ظلّ المسلمون الصينيون جميعاً على اختلاف أجناسهم يعاملون معاملة الحسنى والرفق،

(١) اقرأ الفصل الوارد فى آ هذا الكتاب على المسلمين فى بلاد الروسية فى عهد البلاشفة — « المعرب ».

حتى العهد الأخير ، اذ طفقوا يشمخون بأنوفهم فخراً وكبرياء ، فأقلق ذلك الحكومة الصينية، فانقلبت عن الاحسان الى الاساءة اليهم واضطهادهم . لكن لما أخذت اليقظة الاسلامية العامة تجوب آفاق العالم الاسلامى بانتشارها المطبق فى القرن التاسع عشر ، فبلغت الصين كما بلغت غيرها ، هب المسلمون الصينيون هبة الذعر فهاجت فيهم النعرة الدينية الاسلامية ، فأخذوا يوقدون الثورة تلو الاخرى ، حتى كانت الثورة الكبرى المشبوبة نارها سنة ١٨٧٠ فى « ينان » وتركستان الشرقية ، فأظهر هؤلاء المسلمون من شدة الاستبسال والمغامرة فى القتال مالم يسمع بمثله من قبل . وقام فى تركستان زعيم كبير ، وقائد مجرب ، هو يعقوب بك فاستطاع هذا الزعيم المقدام أن يجعل تركستان و « ينان » بلاداً مستقلة استقلالا محمى السياج عدة سنوات، فكان يخيل الى الكثير من رجال الذهن فى الغرب عهدئذ ، ان الثوار لمتحدون جميعا اتحاداً منيعاً وثيقاً ، ومنشئون دولة اسلامية ثابتة الاركان فى الصين الغربية ، ثم شارعون يفتحون المملكة الصينية رقعة رقعة . وقد اشتهر يعقوب بك اشتهاراً بعيداً ، فذاع اسمه وذكره فى جميع العالم الاسلامى . وقد أعجب به السلطان العثمانى وعظم بأسه وحنكته ، فأنعم عليه بلقب « أمير المؤمنين » فى تلك الديار . و بعد أن طال القتال شديداً عدة سنوات وكثر وقوع المذابح الهائلة ، استطاعت الحكومة الصينية أن تخضد شوكة الثائرين . ولكن بعد أن جلت خسائر المسلمين فى النفوس ، اذ مابرحوا حتى اليوم فى قوتهم دون ما كانوا عليه من قبل . وأما من حيث حالتهم الروحانية والأدبية فما زالوا يشتملون فى نفوسهم على صفات ومزايا من اباء الضيم وعياف الذل ، قلما اشتمل على مثلها سواهم . وأما عددهم اليوم فيبلغ أكثر من ١٠،٠٠٠،٠٠٠ . وعلى هذا يجب ألا يند عن البال ان المسلمين فى الصين بالغون من الشأن فى عالم اسلام الغد مبلغاً عظيما وصائرون الى شأن كبير .

ولو شئنا لتوسع فى الكلام على النهضة الاسلامية العامة حتى يتناول جميع فروعها فى القرن الماضى ، لاستغرق ذلك الأسفار الضخام ، ففى الهند ما برح الاسلام ينتشر انتشاراً متوالياً ، وكذلك فى جزائر الهند الهولندية . أما الدول الغربية الاستعمارية فانها لا تستطيع غير أن تدع هذا الانتشار الاسلامى وشأنه ، دون أن تحاول الوقوف فى وجهه أو صد تياره ، والسبب فى ذلك أن المسلم اليوم قد ألف الانتفاع من المستحدثات الغربية كالقطر الحديدية والبرد والمطابع فى سبيل نشر الدعوة الاسلامية ، وفى ذلك من المنافع الاقتصادية التى تجتنيها

هذه الدول مما لا يخفى على أحد .

واذ بلغنا الى هذا الموضع فى الكلام على الأس الأول للجامعة الاسلامية ، ننتقل للكلام على الأس الآخر ، وهو الدعوة الكبرى التى قام بها جمال الدين الأفغانى وقد عرفت به من بعد .

ولد السيد جمال الدين الأفغانى فى مطلع القرن التاسع عشر فى « أسد آباد » بالقرب من همذان فى بلاد فارس . وهو أفغانى الأرومة لا فارسى ، يتحدر نسباً ، كما يدل لقب سيادته على هذا ، من العترة النبوية الطاهرة ، ويجرى فى عروقه الدم العربى البحت الكريم .

كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء ، وأمير الخطباء البلغاء ، وداهيةً من أعظم الدهاة ، دامغ الحجة قاطع البرهان ، ثبت الجنان ، متوقد العزم ، شديد المهابة ، كأن فى ناسوته أسرار المغنطيسية . فلهذا كان المنهاج الذى نهجه عظيماً . وكانت سيرته كبيرة ، فبلغ من علو المنزلة فى المسلمين ما قل أن يبلغ مثله سواه . وكان سائحاً جوّاباً طاف العالم الاسلامى قطراً قطراً ، وجال غربى أوربة بلداً بلداً ، فاكتسب من هذه السياحات الكبرى ، ومن الاطلاع العميق والتبحر الواسع فى سير العالم والأمم ، علماً راسخاً ، واكتنه أسراراً خفية ، واستبطن غوامض كثيرة ، فأعانه ذلك عوناً كبيراً على القيام بجلائل الأعمال التى قام بها . وكان جمال الدين بعامل سجيته وطبعه وخلقه ، داعيا مسلماً كبيراً فكأنه على وفور استعداده ومواهبه انما خلقه الله فى المسلمين لنشر الدعوة فحسب ، فانقادت له نفوسهم ، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم ، فليس هناك من قطر من الأقطار الاسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين الا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية ، لا تخبو نارها ولا يتبدد أوارها . وكان يختلف عن السنوسى منهاجا ، فجمال انكبّ على السياسة وشؤونها ، وذاك على علوم الدين وترقيتها . غير أن السيد جمال الدين الأفغانى كان أول مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة فى الشرق الاسلامى ، وتمثل عواقبها فيما اذا طال عهدها وامتدت حياتها ، ورسخت فى تربة الشرق ، وأدرك شؤم المستقبل وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائبة الكبرى ، اذا لبث الشرق الاسلامى على حال مثل حاله التى كان عليها . فهب جمال يضحى نفسه ويفنى حياته فى سبيل ايقاظ العالم الاسلامى ، وانذاره

بسوء العقبى ، ويدعوه الى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصيح فيها النفير ، فلما اشتهر شأن جمال خشيت الحكومات الاستعمارية أمره وحسبت له ألف حساب ، فنفته بحجة أنه هائج المسلمين ، ولم تخف دولة جمالا وتضطهده مثل ما خافته واضطهدته الدولة البريطانية ، فسجنته فى الهند مدة ، ثم أطلقت سراحه فجاء الى مصر حوالى سنة ١٨٨٠ وكانت له يد فى الثورة العرابية التى أوقدت نارها فى وجه الغربيين ، فلما احتل الانكليز مصر سنة ١٨٨٢ نفوا جمالاً للحال ، فزايل مصر وأنشأ يسيح فى مختلف البلدان حتى وصل الى القسطنطينية ، فتلقاه عبد الحميد بطل الجامعة الاسلامية بالمبرّة والكرامة ، وقربه منه ورفع منزلته ، فسحر جمال السلطان الداهية بتوقد ذكائه ونفسه الكبيرة فقلده السلطان رياسة العمل فى سبيل الدعوة للجامعة الاسلامية . ويغلب أن ما ناله السلطان عبد الحميد من النجاح فى سياسته فى سبيل الجامعة الاسلامية ، أنما كان على يد جمال الدين المتوقد الهمة المشتعل العزم . والتحق جمال الدين بالرفيق الأعلى سنة ١٨٩٦ شيخا وعاملا كبيراً فى سبيل النهضة الاسلامية حتى النفس الأخير من أنفاسه .

وهاك ملخص تعاليم جمال الدين : —

« العالم النصرانى ، على اختلاف أممه وشعوبه عرقاً وجنسية ، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللاسلام على الخصوص . فجميع الدول النصرانية متحدة معا على دك الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

« الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً فى عناصرها ، متغلغلا فى أحشائها ، ومتمشياً فى كل عرق من عروقها ، وهى أبداً ناظرة الى الاسلام نظرة العداء ، والحقد ، والتعصب الدينى الممقوت [١] . وحقيقة هذا الأمر ونتيجته واقعتان فى كثير من الشؤون الخطيرة والمواضع الكبرى ، حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الأمم الاسلامية مستوية مع الأمم النصرانية .

---

(١) اقرأ التعليق الخطير الشأن ، الوارد فى هذا الكتاب رداً على مقالة « الاسلام والجنود السوداء » لكاتبها روجر لوبون فى (مجلة باريز) عدد ابريل ١٩٢٣ — (المعرب)

« تنتحل الدول النصرانية أعذاراً لها فى كرّها وهجومها وعدوانها على الممالك الاسلامية واذ لالها واكراهها ، بقولها ان الممالك الاسلامية هذه انما هى من الانحطاط والتدلى بحيث لاتستطيع أن تكون قوّامة على شؤون نفسها بنفسها . وفوق جميع هذا فهذه الدول النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية ، وتتذرع بألوف الذرائع من نواح أخرى ، حتى بالحرب والحديد والنار ، للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون فى بلادهم وديارهم فى سبيل الاصلاح والنهضة

« جميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقةعلى عداء الاسلام ، وروح هذا العداء متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب جهداً خفياً مستتراً متوالياً لسحق الاسلام سحقا .

« تأخذ النصرانية شواعر كل مسلم وآماله و رغباته التى تجول فى صدره ثم تمثلها بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء . فان مايدعوه الفرنجة عندنا فى الشرق تعصباً مذموماً محرما ، هو عندهم فى بلادهم وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة والقومية المقدسة ،والوطنية المعبودة ، وان ما يدعونه عندهم فى الغرب اباءة النفس ، والشمم ، والشرف الوطنى ،والعزة القومية ، يعدونه فى الشرق غلواً مكروهاً ، وافراطاً فى حب الوطن ضاراً ، ومقتاً وشنأة للاجنبى الغربىّ . (١) »

« جميع هذا يوضح أن العالم الاسلامى يجب عليه أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاما ، مستمسك الاطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الذياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ،وللوصول الى هذه الغاية الكبرى انما يجب عليه اكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته (٢) »

هذه دعوة جمال الدين على الايجاز ، التى أفنى حياته فى سبيل نشرها بالبلاغة الساحرة

---

(١) منقول من مقال بتوقيع « x » موسوم ب (الجامعة الاسلامية والجامعة التركية) نشر فى مجلة العالم الاسلامى) مارس ١٩١٣ ويقول كاتبه انه قد استقاه من مسلم ثقة كبير المنزلة والشأن .
"Le Pan - Islamisme et la pan - Turquisme" - Revue du Monde musulman.
ومن أراد التوسع فى الاطلاع على أعمال جمال الدين فليقف على كتاب (العصبية الجنسية الاسلامية) لسر فيه .

(٢) اقرأ التعليق الوارد فى هذا الكتاب على السيد جمال الدين الافغانى حكيم الشرق (المعرب)

والحجج الدامغة ، فكانت كالغيث الجود أصاب التربة الجدباء . ولا عجب أن يكون جمال الدين ذلك الرجل الموقظ الكبير ، وتكون كل نسمة نفخها فى المسلمين عاصفة زعزعا ، وقد بات اعتداء الدول الفرنجية وعدوانها و بغيها منتشراً فى كل قطر من أقطار العالم الاسلامى ، فتفاقم الخطب واشتد البلاء . على أن جمالا ماكان يقوم بجميع هذا وحده ، بل كان غيره أيضاً من قادة المسلمين لم يبرحوا منذ منتصف القرن التاسع عشر يبثون الدعوة فى سبيل الجامعة الاسلامية ، وأحد هؤلاء الدعاة العظماء هو عالى باشا التركى الكبير ، الذى يؤثر عنه قوله : « ما يحتاج اليه المسلمون الاحتياج الأشد انما هو ازدياد النعرة الدينية فيهم، لاتناقصها فاضمحلالها » . وقد أثر هذا القول عنه ارمينيوس ڤامبيرى ، المستشرق الهنغارى الكبير ، والعلامة المشهور ، وذلك بعيد حرب القريم ،وكان هو قد شهد بنفسه مجلساً من مجالس الجامعة الاسلامية فى منزل عالى باشا ، حضره رسل ووفود ونواب من جميع أقطار العالم الاسلامى .

على مثل هذه الأسس بنى السلطان عبد الحميد بناء الجامعة الاسلامية وشيد أركانها وأضاف اليها كل مطمع بعيد وغاية جليلة . فعبد الحميد فى الواقع داهية من أعاظم دهاة العصر الحديث ، وسياسى فى منتهى الحصافة ، غير أنه على كل هذا كان ذا أطوار خلقية عجيبة تفضى به وساوسه أحياناً الى حد اللمم

فقد اختط الخطط الكبرى لتحقيق مشروعاته العظمى ، ثم طفق يسعى وراء ذلك بمتنوع الوسائل سعياً وان كان قائماً معظمه على شدة الحذق والدهاء فانه لم يخل فى بعض المواضع من ضروب العبث وكان سلطاناً مستبداً طبعاً وسجيـة ، ظنين السوء بعماله ، مولعاً بأن تكون صغائر الشؤون وعظائمها معلقة على ارادته النافذة . وفوق جميع هذا ، فقد كثر من حوله الوشاة والمداهنون الذين وقفوا على سريرته وعرفوا مشربه ، فجعلوا يحسنون له أهواءه ويجارونه مع محض رغباته

وكان ارتقاؤه الى العرش سنة ١٨٧٦ فى ان شديد عصيب ، فقد كانت الدولة على أبواب الحرب العثمانية الروسية ، وكانت الحكومة فى أيدى عصبة من الساسة يسعون سعى المصلحين فى تجديدها على الطراز الحديث ، والنهج بها على المناهج السياسية الدستورية الغربيـة . فلما أخذ عبد الحميد بأزمة الأمور نقض جميع ذلك نقضاً ، واهتبل سانحة تضعضع الدولة عند

الخروج من الحرب الروسية ، فألغى مجلس النواب وجعل نفسه السلطان المطلق لا تعلو يدَه يد ، له الأمر والنهى وحده . ولما استوثق له الأمر ، شرع يقوم بسياسته الخاصة التى نحا بها منذ أول الأمر منحى الجامعة الاسلامية .(١) فعقد عزمه على أمر لم يعقد عزمه على مثله أحد من أسلافه الأقربين ، وهو التذرع بالخلافة لبلوغ أغراض سياسية عظيمة ، واذ أبان للملأ كافة ، أنه فوق كونه سلطان الدولة العثمانية ورئيسها السياسى الوحيد ، فهو الخليفة الدينى للمسلمين أجمعين ، أخذ يستصرخ الأمم الاسلامية فى كل رقعة من رقاع العالم الاسلامى لتمديد العون اليه ، وتشد أزره بالالتفاف من حوله ، قاصداً بذلك قذف الرعب فى روع الدول الغربية التى خالها ربما كانت تأتمر فيما بينها وتتشاور ، وتتخذ الوسائل وتقوم بالتدبيرات ، للانقضاض على المملكة العثمانية . وكان منذ عهد بعيد يدبر أمر نشر الدعوة للجامعة الاسلامية تدبيراً نائى المضطرب واسع النطاق ، غالبه بالوسائل الخفية الهائلة . فغدت القسطنطينية مكة ثانية ، يلوذ بها جميع ذادة الاسلام المشتهرين بأعمال المقاومة للدول الغربية مثل جمال الدين وأنداده (٢) ، ومن القسطنطينية صارت توفد الوفود وتنفذ الرسل جماعات دراكا الى جميع الأقطار الاسلامية ، حاملة رسالة الخليفة ، ألا وهى رسالة الامل المحقق فى النجاة من خطر حكم الفرنجة الكافرين .

---

(١) كان الكاتب الفرنسى المشهور غبريال شارم أول من استشف سياسة عبد الحميد وغايته ومقصده فى الدعوة للجامعة الاسلامية ، فجعل ينشر الفصول الممتعة فى هذا الصدد منذ سنة ١٨٨١ . وفى سنة ١٨٨٣ وضع كتابه (مستقبل تركية والجامعة الاسلامية) أودع فيه جميع مارجم بالغيب .
Gabriel Charmes " L'avenir de la Turquie - Le Pan Islamisme ,,

(٢) جمع السلطان اليه كثيرين من مقدمى العرب وزعمائهم ، ومشايخ الطرق فيهم ، من الحجاز ، والشام ، والعراق ، ونجد ، واليمن ، ومصر ، وطرابلس ، وتونس ، والمغرب ؛ وآخرين من زعماء الأكراد وآخرين من زعماء الارناووط ؛ لا لزوم لتسميتهم ، وأقرهم فى الاستانة ؛ وأجرى عليهم الأرزاق كما هو معروف . قال لى أثناء الحرب كبير أولاده الأمير محمد سليم افندى : « كان الأرناووط فى يد والدى يهدد بهم أوستريا وجميع دول البلقان. كما أنه كان يهدد بخيالة الأكراد الروسية بعظمتها كلها ؛ فتحسب للألايات الحميدية حساباً . وكان يهدد بالعرب الدول الغربية بأسرها ؛ فتظن هذه الدول أنه بالعرب يخلق لها مشكلات لا تنتهى . فالآن أصبحنا ؛ والارناووط قد خرجوا من السلطنة بعد قتال شديد معنا . والاكراد بدل أن يجاهدوا أمام الدولة فى الروس ؛ صار يلزمنا أن نسوق العساكر لتطويعهم حينما عساكرنا هى فى ملحمة كبرى مع الروس . وأما العرب فبعد أن كانوا عدتنا وسلاحنا لمقاومة الدول الغربية ، انقلبوا عوناً للدول الغربية علينا . » انتهى . ومراده بذلك انتقاد سياسة تركيا فى السنين الاخيرة . (ش)

وظلت دعوة عبد الحميد للجامعة الاسلامية تسير سيراً متوالياً مدة تقرب من ثلاثين سنة . غير أنه لمن الصعب الشديد أن يستطاع تحديد المفعول الذى كان لهذه الدعوة الكبرى تحديداً بيناً ، والسبب الأكبر فى ذلك هو أنه لما حدثت ثورة «تركية الفتاة» سنة ١٩٠٨ ، وخلع عبد الحميد توقف مجرى الدعوة للجامعة الاسلامية وفتر سيرها فى المتجه الذى كانت تسير فيه . زد على ذلك أن تركية على عهد عبد الحميد لم تخض غمار حرب بينها و بين دولة غربية من الدول الكبرى ، لهذا يتعذر الوقوف وقوفاً صحيحا على مبلغ ما كانت عليه الأمم الاسلامية من الاستعداد والأهبة لاجابة نفير الجهاد . على أن عبد الحميد قد أفلح حقاً فى حمل أمراء المسلمين وقادتهم على الاعتراف بسلطته الروحانية ، فولوا وجوههم شطره وحسبوه قبلة آمال العالم الاسلامى ، وقدسوا مقامه تقديساً ، وغدا العظماء والكبراء يتقاطرون الى فروق من كل فج من أفجاج العالم الاسلامى لمبايعة الخليفة الأعظم أمير المؤمنين وحامى بيضة الاسلام ، الذى مملكته مملكة حصن الاسلام والمسلمين . ولم يستطع عبد الحميد مع كل هذا أن يستميل اليه قائداً كبيراً من قادة العالم الاسلامى أعنى به السيد السنوسى ، الذى كان يخامر قلبه الريب فى مقاصد السلطان وأغراضه البعيدة ، وكذلك كان الأحرار فى كل مكان يعرضون عن نصرة السلطان لاستبداده الشديد . وعلى الجملة فانه ليس باليسير أن يتيقن هل كانت الأمم الاسلامية متأهبة لتلبية دعوة السلطان عبد الحميد للقيام بالجهاد الاسلامى المقدس ، فيما لو كان دعاها يوماً الى ذلك .

وفوق جميع هذا فقد استطاع عبد الحميد أن ينشر الدعوة فى سبيل الجامعة الاسلامية الكبرى فى أوسع آفاقها ، ويحيي الشعور بالوحدة العامة والتضامن المستمسك بعضه ببعض ، فى جميع الأمم الاسلامية ، احياء نشيطاً . ولم يكن يساعده على ذلك كونه خليفة الاسلام فحسب ، بل ما كان يبسطه و يبينه من جميع ماتكنه وتظهره الدول الغربية من أنواع العداء ، والمقت للمسلمين والتحامل عليهم . هذا هو السبب الأكبر فى أن الدعوة التى أنشأها ودبرها عبد الحميد فى سبيل الجامعة الاسلامية كان لها من التأثير الشديد فى نفوس المسلمين ما برح يزداد و ينمو .

فلما حدثت ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ تبدلت الحال تبدلا كبيراً فى العالم الاسلامى ، فتلت الثورة التركية ثورة ايران ، ثم أخذت شرارات الثورات تبدو فيعقبها الانفجار

فى كثير من الأقطار الشرقيــة ، وعلى أثر ذلك شرع يتبــدى فى وقت قريب فى كل قطر اسلامى تيار جديد هائل ، وظواهر اجتماعية لم تعهد من قبل ، كتطلب الحكومات النيابية ، واحياء روح الجنسية والقومية وما أشـبه ذلك ، مما رافقه تطور اجتماعى كبير — تطور كانت عناصره منذ أمد بعيــد تزداد اختماراً فى العالم الاسلامى حتى حان أجل ظهوره فظهر رائعاً . واننا سنفصل الكلام على هــذا التطور بأنواعه فى الفصول التالية من هــذا الكتاب ، غير أن ما يجب تدبره مجملا فى هذا المقام هو ما كان لهذا التطور الكبير من التأثير فى مجرى حركة الجامعة الاســلامية ، فونيت فى سيرها بعض الونى مدة كان فيها الاضطراب السياسى والقلق الاجتماعى ينتشران انتشاراً عاماً فى جميع بقاع العالم الاسلامى .

ولم تكن هذه الفترة طويلة . ففى سنة ١٩١٢ عادت الجامعة الاسلامية تستأنف سيرها ومجراها ، وكان الباعث على ذلك هو اشتداد اعتداء الدول الغربية . ففى سنة ١٩١١ أغارت ايطاليا معتدية على طرابلس الغرب الافريقية التابعة للدولة العثمانية على غير ماعلة سـوى الاستعمار . وفى سنة ١٩١٢ تألبت الدول البلقانية النصرانية وأوقدت نار الحرب على تركية ، فخسرت تركية فى هذه الحرب جميع أملاكها الأوربية ، فلم يبق من جميع ما كان لها فى أوروبة غير القسطنطينية معرضــة لخطر الغارات عليها ، ومهددة شر تهديد[1] . وفى تلك الغضون اتفقت انكلترة وروسية على خنق الثورة الفارسية ، وكانت فرنسة على أثر معضلة « أغادير » تحرق الارّم ، فعضت على مراكش بالنواجذ وأنفذت فيها المخالب ، وهكذا فى خلال سنتين توالت الحملات الأوروبية تترى على العالم الاسلامى ، حملات العدوان والاعتداء المحض ، فمزقت ما كان باقياً منه حتى ذلك العهد سليماً شر ممزق .

فنزل ذلك على الأمم الاسلامية قاطبة نزول الصاعقة يصم الآذان دويّها . فأخــذ العالم الاسلامى فى المشرق والمغرب يقوم ويقعد مشتعلا غضباً وحنقاً . فعادت الجامعة الاســلامية الى سابق حالها تجرى مجرى سريعا . وقد تحقق للمسلمين الآن ما كان ينبىءُ به على غير انقطاع دُعاة الجامعــة الاسلامية منــذ خمسين سنة — الحرب الصليبية الجديدة لدك الممالك الاسلامية دكاً . وصدق جميع ما كان يذيعه جمال الدين الأفغانى ، الحكيم العظيم .

---

(١) عند ماأعلنت الدول البلقانية الأربع الحرب على تركية ، نشرت بلاغا لم يشك قارئه أنه بلاغ ملوك الصليبيين فى القرون الوســطى . . . أى اعلان حرب دينية ولم نجد من الاوربيين من أنكر هــذا الامر . (ش)

وأخـذت نتائج الجامعة الاسـلامية تتبدى ، ففي طرابلس الغرب انبرى الترك والعرب يقاتلون جنباً الى جنب بروح عجيبة تبعثها فيهم دعوة الجامعة الاسـلامية ، من بعـد ما كانوا قبيـل ذلك على حال من الازورار والتنافر شديدة فلقي المعتدون الطليان أمامهم مقاتلة مستبسلين ملء صـدورهم ضرم من التعصب لا يطفأ ، ضرم يزيده العالم الاسـلامي وقيداً [١] مما حمل ساسة الغرب على الجزع والارتباك شديداً ، فأخذوا يتساءلون فى الخطب الـكبير ، وفى الذى عساه أن ينفجر انفجاراً عاماً فى مشرق العالم الاسلامى ومغربه . فقال « غبريال هانوتو » وهو وزير فرنسى من وزراء الخارجية السابقين : « بالله لماذا وجدت ايطاليا طرابلس غير المحصنة كوكر الزنابير اللساعة ؟ أفليس لأنها لا تحارب تركية وحدها بل العالم الاسلامى أجمع . فايطالية جنت على نفسها وعلينا جناية لا يعلم غير الله عاقبتها ومنتهاها » ولم يكن خنق انكلترة وروسية لثورة ايران ، ومحق فرنسة لاستقلال مراكش بأقـل استثارة للعالم الاسلامى من حرب طرابلس ، فزادات نار الغضب احتداما .

غير أنه لمـا نشبت الحرب البلقانيـة ، طفح الـكيل وبلغت الروح التراقى . فبات المسلمون من الصـين حتى الـكونغو ، يرتقبون أنباء الحرب ونتيجتها ، وقلوبهم على أحر من جمر الغضا ، فلما طير البرق نبأ الـكارثة التركية فى البلقان أجفل العالم الاسلامى للخطب أيما اجفال ، وبلغت صرخاته عنان السماء . فقال أحـد مسلمى الهند فى نداء وجهه الى بنى قومه: « يوقـد ملك اليونان نار حرب صليبية جديدة ، ويستنصر وزراء بريطانيا تعصب النصرانية على الاسـلام ، ويأتمر وزراء الروسية فى بطرسبرج لرفع الصليب وشـكه على قبة مسـجد « آجيا صوفيا » فاليوم هم يأتمرون ويتشاورون فى هـذا الخطب ، وغـداً يفعلون مثل ذلك للاستيلاء على مسجد عمر بن الخطاب ــ المسجد الأقصى فى بيت المقدس .

« أيها المؤمنون الاخوة ! اتحدوا وكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . فان

---

(١) عند ما كنا فى معسكر أنور بعين منصور بأعلي درنه ، كنا نجد مجاهـدين لا من برقة ، ولا من طرابلس فحسب ، بل من تونس ؛ والجزائر ؛ والمغرب الاقصى ؛ ومن السودان ، ومن مصر ، ومن الشام ، ومن بلاد الترك ؛ وقدم علينا ٥٠ مجاهداً من بلاد الافغان وذكر السنيور جيوليتى فى خاطراته التى نشرها مؤخراً ؛ وكان أيام الحرب الايطالية رئيس نظار ايطالية ، أن انكلترة ألحت عليه بالاتفاق كيفما كان مع تركية ، انهاءً لهذه الحرب التى أثارت جميع العالم الاسلامى ، حتى وردت على انـكلترة الاحتجاجات ليس من الهند فقط ، بل من كل بقاع العالم الاسلامى حتي الصين: (ش)

الواجب المقدس ليدعو كل مؤمن بالله ورسوله أن ينضم الى أخيه المؤمن تحت لواء الخليفة أمير المؤمنين ، ويجاهدفى سبيل الذود عن حياض الاسلام والمسلمين . »

وقال أحد زعماء المسلمين فى الهند مخاطباً الدولة البريطانية : « اننا ننادى الحكومة البريطانية بملء أفواهنا أن تقلع عن سياستها العدائية لتركية ، اتقاء لانفجار بركان المئات من ملايين المسلمين ، انفجاراً يجر البلاء عظيما »

وأعجب ما بدا ، أن أخـذ المسلمون يوجهون النداء تلو النداء لغير المسـلمين من شعوب آسية ، يدعونها الى التآزر والاتحاد ازاء الغرب المعتدى ، فكان هذا الأمر وايم الحق غريبا فى بابه لم يسبق له مثيل منذ نشوء الاسلام . فان محمداً ، وقد جاء بالقرآن مصدقا للتوراة والانجيل ، وقال انه هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، بعث الله من قبله موسى وعيسى ، أمر المرسلين باحترام النصارى واليهود وسماهم « أهل الكتاب » ، تمييزاً لهم عن عبدة الأوثان . وقد اتبع المسلمون ما أمرهم به نبيهم حتى هذا العهد الأخير ، فما كانوا قط يوما مبغضين للنصارى بغضهم للوثنيين من البراهمة والبوذيين والكنفوشيوسيين أهل الشرق الاقصى [1] .

(١) ان الاسـلام ، هو كما هو معلوم من القرآن الكريم ، يرى النصاري أقرب الناس مودة الى الذين آمنوا ، وان القرآن جاء مؤيداً ، للانجيل والتوراة ، وكان ضلع المسلمين فى صدر الاسلام هو مع النصارى بالتخصيص ، بدليل انه لما وقت الحرب بين الروم والفرس وتغلب الفرس على الروم ، حزن الصحابة يومئذ حزناً شديداً ، فنزلت الآية الكريمة « غلبت الروم فى أدني الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » فلما صدق قوله تعالى بتغلب الروم على الفرس بعـد بضع سنين ، فرح الصحابة فرحاً شديداً ولم يكن ذلك لكون الروم أقرب اليهم جنسا من الفرس ، بل الروم والفرس بالنسبة الى العرب على السواء ، بل لكون الروم أهل كتاب والفرس يومئذ عبدة نار لم يكن الله شرح صدرهم للاسلام . ولما غزا العرب الشام ، أوصى الخليفة أبو بكر الصديق بالنصارى ورهبانهم خيراً فى خطبة مشهورة . ولما حضر الخليفة عمر بن الخطاب الى بيت المقـدس كان من حسن معاملته للنصارى ماهو مشهور أيضاً فى التواريخ . وروى المؤرخون ان الامام عمر زار كنيسة القيامة وبينما هو فيها أدركته الصلاة فأراد أن يخرج من الكنيسة يصلى فدعاه البطريرك صفرونيوس الى محل داخل الكنيسة يصلى فيه، فأبي فألح عليه بالرجاء فأجابه : كلا. يأتى المسلمون بعدى فيقولون هنا صلى عمر فيجعلون هناك مسجداً فى وسط كنيستكم . وهكذا كان الخليفة الأول والثانى يرعيان حرمات النصارى ، ومنسوب الى سيدنا عمر عهد عهده الى النصارى فيه من البر بهم ماليس فوقه مزيد . ولكن سياسة أوربا من أيام الصليبين الى هذه الساعة ، تدكدرت هذا الصفاء ، وما زالت تكدره حتى بلغ من حنق المسلمين اليوم أن صاروا البا واحدا مع البراهمة في الهند ، والبوذيين فى الصين ، لابل الفتيشين فى أواسط افريقية على الأوربيين . (ش)

بيد أن هذه الحال شرعت تنقلب وتتحول منذ الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤، اذ ظفرت اليابان، الدولة الشرقية الوثنية «الكافرة»، على دولة غربية نصرانية، ودقت عنقها دقاً، فهب غالب المسلمين يبتهجون لانتصار اليابان هذا، ابتهاجاً ملؤه الفخر الشرقي والحماسة الاسلامية، وتمنى كثير من رجال الجامعة الاسلامية ودعاتها لو ينتحل أبطال اليابان الاسلام [١] وشرع فى تحقيق هذا الأمر العظيم، والتمست وسائل التقرب من اليابان، ثم أنشئت العلاقات معها، وأنشئت الصحف العديدة لنشر الدعوة، واختير المبشرون للقيام بهذا المشروع الاسلامى الكبير، فأوفد السلطان وفداً الى اليابان على بارجة حربية، وأخذ العالم الاسلامى بسبب ذلك يلهج بحديث اسلام اليابان، ويتناقل الأنباء فى هذا الصدد، ويتباحث فيه ويحبذه أشد التحبيذ. قالت صحيفة مصرية سنة ١٩٠٦: «ان بريطانية العظمى، وفى حكمها ستون مليونا من المسلمين، لتخشى كل الخشية أمر اسلام اليابان، الأمر العظيم الذى اذا كان، تغير على الأمر مجرى السياسة الاسلامية العامة تغيراً كلياً هائلا.» وقال شيخ من شيوخ مسلمى الصين: «اذا شاءت اليابان أن تدرك منزلة لم تدركها مثلها دولة فيما مضى، وأرادت أن ترفع شأن آسية على شأن سائر القارات، فلا يتم لها ذلك بتة الا بانتحالها الاسلام ديناً.»

فاستقبلت اليابان وفد المسلمين استقبالا جليلا، وأحلته محل الرعاية والاكرام، بيد أنها لم تكشف عن رغبة فى الدخول فى دين الرسالة. وكانت النتيجة أن وضع أساس للعلاقات الودية الحبية بين الشعوب المسلمة والشعوب غير المسلمة فى آسية. ومما زاد فى ذلك التقرب، فأخذت عرى الولاء تتوثق، الحرب البلقانية وما تجلى فيها ومن حولها من المطامع الاستعمارية الهائلة. ويمكن العلم بحالة شعور المسلمين ومبلغ ما آلت اليه من الاضطراب

(١) جاء أحد أمراء الأسرة المالكة فى اليابان، فى أيام السلطان عبد الحميد الى الاستانة، فبينما هو فى الحديث مع السلطان، اذ جاء ذكر الأديان فقال له السلطان: «بلغني أنكم تبحثون عن دين، فان كان الخبر صحيحاً، فأنا أوصيكم بالاسلام». فقال له الأمير اليابانى: «ليس الخبر كما بلغ جلالتكم، بل نحن متمسكون بديننا» قد سمعت ذلك من فم العلامة المرحوم منيف باشا، ناظر المعارف الشهير، فى أيام عبد الحميد، وكان صدوقا حراً، ثقة فى كل ما يرويه، ومع ما كان عليه من شرف الطباع، لم يكن متظاهراً بالتدين. فليسمع ذلك من يزعمون أن اليابان لم ترق فى المدنية الا بعد ان خلعت الدين، ونبذته ظهريا. (ش)

والاهتياج يومئذ ، بالوقوف على الصرخات الندائية المتوالية التى أخذ المسلمون يوجهونها نحو الهندو يين (الهندوس) . ومثال من ذلك نداء عظيم الخطر والشأن ، موسوم : « رسالة الشرق » جاء فيه ما يأتى : —

« يا روح الشرق ! ! ألا هبى من مرقدك وادفعى عن الشرق هذا الطوفان الغربى ، طوفان عدوان الفرنجة و بغيهم واعتدائهم ! !

« ايه ابناء هندستان !! كونوا لنا عونا ونصراً بحكمتكم ، شدوا أزرنا بحضارتكم ، وتهذيبكم ، كونوا لنا نصراء بخالد قوتكم ، قوة الهندويين آبائكم وأجدادكم . دعوا قوة الأرواح الكامنة فى قمم جبال حملايا تنبثق فقد حان لها ، وحقّ من أوجدها ، الانبثاق ، املأوا الجو بصلواتكم الى اله الحرب لينصر الحق على القوة الغاشمة ، ويزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، وارفعوا أصوات دعواتكم فى هيا كل ربوات آلهتكم أن تهلك جيوش الأعداء المعتدين »

فمن تدبر هذا المآل الذى آلت اليه حالة المسلمين ، ولا سيما تقربهم من « الكفرة » ، وتوثيق عرى الولاء بينهم و بينهم ، لا يسعه الا تكبير هـذا الأمر وتعظيمه ، والتعجب والاستغراب ، ولم يكن هذا التبدل الهائل مقصوراً على مسلمى الهند وحدهم ، بل شمل أيضا مسلمى الصين . فقد قالت صحيفة اسلامية من صحف تركستان الصينية ، تدعو الى اتحاد الصينيين قاطبة اتحاداً وطنياً منيعاً للوقوف فى وجه الغرب المعتدى ، ما يأتى : « ان أوروبة قد بلغت من الطغيان والجور مبلغاً لا حدّ له ، فهى لا تنفك تنازعنا على حريتنا التى هى أقدس شئ لدينا ، وأوروبة ثم أوروبة ضاربتنا الضربة القاضية اذا لم يستنصر بعضنا بعضا ، ونهبّ معا فى يوم آت هبـة المدافعين عن الأوطان دفاع الابطال » . وفى الدور الأول من الثورة الصينية ، نفض مسلمو الصين عنهم رداء العزلة ، واصطفوا الى جانب أبناء بلادهم البوذيين والكنفوشوسيين يقاتلون معهم مستبسلين ، فى سبيل الوطن ، وقد أثنى الدكتور «صن – يات – سن» الزعيم الجمهورى الكبير على مسلمى الصين بقوله : « ان الصينيين لن ينسوا أبداً نصر اخوانهم المسلمين لهم فى سبيل تأييد نظام البلاد واستقلالها وحريتها [1] »

---

(١) كان المسلمون فى حرب البوكسر يداً واحـدة ، وظهرة واحدة مع أبناء وطنهم البوذيين وكان لهم عمل كبير فى تلك الحرب ، حتى التمست الدول من السلطان عبد الحميد ارسال وفد من قبله ينصح مسلمى الصين باسم الخلافة أن يجنحوا الى السلم . (ش)

فلما نشبت الحرب الكونية العظمى ، كان العالم الاسلامى أجمع مضطربا اضطرابا عميقاً ، ومحتدما حنقاً على الغرب المعتدى ، وشاعراً بضرورة اتحاده اتحاداً مكيناً ، وساعياً جد السعى لعقد المحالفات بينه و بين غـيره من الدول الآسية ، ليتسنى له بذلك القيام بجهاده المنوى فى سبيل التحرر من ربقة الغرب

وربما يرى بعضهم من دواعى الاستغراب ، أنه لما دخلت تركيا فى معمعان الحرب العامة فى أواخر سنة ١٩١٤ ، وأعلن السلطان دعوته للجهاد لم يهبّ على أثر ذلك العالم الاسلامى هبته الكبرى المتوقعة . فلا يجب أن يؤخذ من ذلك أن دعوة السلطان هذه للجهاد المقدس انما كانت صرخة فى واد ، أونفخة فى رماد ، كما حملت أنباء الحلفاء الغرب على هذا الاعتقاد فى ذلك الحين ، فالأمر فى الواقع كان على الضد مما شاع ، فقد كان الاضطراب هائجا شديدا أيما شدة فى كل بلاد اسلامية فى حكم الحلفاء ، ونحن ذاكرون بعضاً من هذه البلاد . فمصر باتت تغلى فيها عوامل الثورة غليان المرجل على النار ، وصارت على مقربة من الزوبعة الهائلة[1] ، فلولم تملأ بريطانية بلاد النيل أجناداً لاعـداد لها ، لحدثت فى مصر الأهوال . وطرابلس ثارت ثورة عمياء ردت بها الطليان على أعقابهم حتى ساحل البحر ، وايران كانت على وشك الاتحاد مع تركية لولم يحل دون ذلك تدخل روسية وبريطانية وهيضهما جناحها ، والهند الشمالية الغربية غدت ميدان قتال عنيف لم تقف رحاه حتى ساقت بريطانية اليه مئتين وخمسين الفاً من الجنود البريطانية الهندية . وقد اعترفت الحكومة البريطانية اعترافاً رسمياً بأن جميع البلاد فى حكم الحلفاء فى آسية وافريقية ، كانت خلال سـنة ١٩١٥ قد وقفت من الثورة العامة والبركان الهائل على قيد خطوة .

حقاً لو نطق قادة المسلمين فى سائر الاقطار الاسلامية بالكلمة الاخيرة ، لكان بركان العالم الاسلامى قد انفجر وملأ الجو حمماً . بيد أن تلك الكلمة لم ينطق بها ، وقام عدد عديد من زعماء المسلمين خارج البلاد العثمانية يستهجنون دخول تركية فى الحرب كل الاستهجان ، و يعـدونه خرقاً فى السياسة الرشيدة ، و يبـذلون غاية ما فى طوقهم لتسكين النفوس الثائرة والخواطر الهائجة . وقد دل عمل هؤلاء القادة والزعماء على حصافة فى الرأى كبيرة . فانهم أيقنوا

---

(١) ثورة دارفور التى قتل فيها على بن دينار سلطان دارفوار كانت من أثر اعلان الجهاد وثورة الصومال ايضاً . (ش)

أن هذه الآونة ليست بالتي توقد فيها نار الحرب العامة فى العالم الاسلامى ، ولا بالسانحة التى تغتنم للدعاء حيّ على الجهاد الاكبر لتقويض سيطرة الغرب على الشرق . والسبب فى ذلك أن الامم الاسلامية لم تكن قد استوفت جميع الأهب المادية اللازمة لها بعد . ولم تحكم عرى التفاهم التام بعضها مع بعض من ناحية ، ولا بينها و بين حليفاتها من الأمم الكبرى غير المسلمة من ناحية أخرى . وكانت الصلات المعنوية الادبية فى الامم الاسلامية على حال غير مستوفاة الشروط . زد على جميع هذا أن قادة المسلمين أنفسهم أدركوا حق الادراك أن تركية باتت صنيعة طيعة بين يدى ألمانية تنزل على أمرها اقبالا وادباراً ، وأن « تركية الفتاة » غدت تدير دفة سفينتها عصبة من الجحدة الغربيين ، غالبهم ليس من المسلمين ، أوليسوا مسلمين الا اسماً ، بل هم من زنادقة اليهود[1] وعلى ذلك لم يكن من رأى عقلاء المسلمين الاصطلاء بنار ألمانية ، ولا الموافقة على مارسمته من الخطط وأبدته من المطامح البعيدة للاستيلاء على العالم ، اذلاطائل للمسلمين فى ذلك سوى ابدال أنيار بأنيار ، بل عولوا أن يترك الغرب وشأنه ، يقاتل بعضه بعضا فيضعضع كيانه وتسلب منته ، ويهن عظمه ، وتتجلى مخبآت مقاصده ومكنوناته نحو المستقبل . بينما يهتبل العالم الاسلامى فرصة نزاع الغرب هذا النزاع الشديد ، فيستجمع من قواه ما كان مبعثراً ، و يشدد من بأسه وحوله وقوّته ، و يعد العدة حتى اذا ماحانت الساعة المرتقبة ، وثب وثبة الأسد الهصور ، فانتصف له من عدو عنيد .

وكان مؤتمر « ڤرسايل » كاشفاً عن مقاصد الدول الغربية ، تلك المقاصد التى كان يتوقع ظهورها دعاة الجامعة الاسلامية . فاما ظهرت واضحة طفقوا يجدّون فى سبيل اعداد برنامج العمل اعداداً تاماً لاعيب فيه ، وتوثيق الروابط المعنوية ، واحكام الوحدة الأدبية بين الأمم الاسلامية ، وفى مؤتمر « ڤرسايل » حسرت الدول الغربية الظافرة اللثام عن جبينها ، و بينت غاية التبيين أنها لاتنزل عن مطمع من مطامعها الاستعمارية ، ولا تروم الرفق ولو أقله بالأمم الشرقية ، ولا التقليل من وطأة السيطرة الشديدة الضاربة فى الشرقين

---

(١) فى سلانيك طائفة يقال لها « الدونمه » اى العائدون المنيبون ، أصلهم يهود من مهاجرى اسبانية ، الذين خرجوا منها مع عرب الأندلس . وقد أسلموا منذ نحو اربعمائة سنة ، ولكن اسلاما مشوباً ببعض عقائدهم الأصلية . ولما كانوا المثل البعيد فى الحصافة والذكاء ، والقيام على الأمور المالية بنوع خاص ، كان الدور الذى يمثلونه فى الهيئة الاجتماعية التركية ، أعظم جداً مما يستحقه عددهم . وكان أثرهم فى حركة الانقلاب الدستورى مهماً . فكان منهم أناس يعدون أركاناً فى جمعية الاتحاد والترقي .(ش)

الأدنى والأوسط . فقدقامت هـذه الدول المنصورة واقتسمت بعضها مع بعض المملكة العثمانية، على مقتضى طائفة من المعاهدات السرية التى كانت قد أبرمتها فيما بينها خلال الحرب العامة، وكانت تلك المعاهدات السرية فى الواقع أساساً بنى عليه الصلح الذى عقد فى مؤتمر ڤرسايل. زد على جميع ذلك ، فقد كانت بريطانية قد أعلنت فى أوائل الحرب أن مصر صارت من البلاد البريطانية المحمية ، وقبيل انفضاض مؤتمر ڤرسايل ، ظهرت بغتة معاهدة جديدة بين بريطانية والعجم ، من مقتضاها أن هـذه البلاد الاخيرة باتت فى باطن الامر على الاقل ، ان لم يكن فى باطنه وظاهره معاً ، معدودة من البلاد البريطانية المحمية أيضا فكان مؤدى هذه النتائج جميعها أن دول الحلفاء قد غلت الشرقين الأدنى والأوسط بأغلال من السيطرة السياسية الثقيلة غير مسبوقة المثيل .

غير أن للأمر وجهاً آخر نقيضا لما تقدم . ذلك أن قام ساسة الحلفاء خلال الحرب مئات المرات ينشرون التصريحات الرسمية ، ان الغاية الكبرى الوحيدة فى هـذه الحرب الدموية المخوضة الغمار ، انما هو انشاء نظام عالمى حديث ، قائم البنيان على مكارم الأخلاق ، والأسس الصحيحة والقواعد الشريفة . كرعاية حقوق الأمم المستضعفة ، واطلاق الحرية لجميع الشعوب والأمم فى اختيار حكمها ، وتقرير مصيرها ، وامتلاك مقدراتهـا . فذاعت هذه التصريحات فى الشرق أيما ذيوع ، واختزنتها الأمم الشرقية لا بل حفظتها عن ظهر قلبها وأخذت ترتلها ترتيلا . فلما وجد الشرق أن الصلح لم يبن على شئ من تلك القواعد والأسس الصحيحة ، ولا على مقتضى مئات التصريحات المحفوظة ، بل على المعاهدات المقطوعة بين الدول بعضهـا مع بعض سراً وخفاء معاهدات الجشع الاستعمارى والحكم والفتح ، لحدثانَ ما احتدم غضباً ، يكبر نوازل الجور والبغى ، ويعظم سوم هـذا الخسف والذل ، فأخذت مراجل العداء تشتد غلياناً فى كل صقع من أصقاع الشرق ، فاكفهرّ الجو وقصفت الرعود منذرة بأهول الصواعق . ولم يكن هـذا بالحادث المستغرب ، اذ قد سبق للكثير من الخبراء العقلاء الغربيين ، الراسخين علماً بالأمور الشرقية ، فأنذروا الدول الغربية المرة تلو المرة قبل انفضاض مؤتمر « ڤرسايل » بسوء العقبى الواقعة فى الشرق ، وبانفجار عظيم لا بد منه ، من هؤلاء المنذرين « ليون كايتانى دوق سرمونيته » وهو ثقة من ثقات الطليان فى شؤون العالم الاسلامى ، فقد قال فى ربيع سنة ١٩١٩ فى جملة حديث له

ذكر فيه نتيجة الحرب العامة فى الشرق : « ان الحرب الكونية العظمى ، قد هزت شجرة الحضارة الشرقية فاهتزت اهتزازاً بلغ أقصى الجذور فى التربة ، و بعثت فيها روحاً عجيبة . ان الشرق أجمع ، من الصين حتى أقصى سواحل البحر المتوسط ليميد ميداناً عنيفا ففى كل رقعة و بلد ترى نار العداء للغرب مشبوبة ففى مراكش الفتنة ، وفى الجزائر الثورة ، وفى طرابلس الغرب عواصف الاضطراب والهياج ، وفى مصر و بلاد العرب وليبية وسائر الأقطار الاسلامية الحركات الوطنية القومية الكبرى ، جميعها متماثلة الصفة العامة ، وموحدة الغاية : تماسك العالم الشرقى الاسلامى بعضه ببعض ، ومناهضته للحضارة الغربية ما استطاع الى ذلك سبيلا . »

فكانت هذه الكلمات كأنها رؤيا صادقة ، فاخذت تتحقق فى العالم الاسلامى . غير أنه لما كانت الواقعات الأخيرة التى تقوم بها الأمم الاسلامية انما تغلب عليها صفات القومية الوطنية فاننا سنبسط الكلام عليها فى فصل (العصبية الجنسية) من هذا الكتاب . وما يجب رعايته حق الرعاية فى هذا المقام هو أن العصبيات الجنسية الاسلامية والجامعة الاسلامية ، ولو كان ما كان بين بعض وجوهها والبعض الآخر من الاختلافات ، فانها بجملتها متحدة متجهة نحو غرض عام واحد : هو القيام فى وجه السيطرة الغربية المرهقة ، وتبديدها وتمزيقها ، و تحرير الأمم الاسلامية من قيود السلطة الأور و بية السياسية . واذ وعينا هذه الحقائق وتدبرناها ، فاننا نأتى للكلام على حاضر الجامعة الاسلامية و واقعها المشهور :

قد هاج تيار الجامعة الاسلامية هياجاً هائلاً ، وثار ثوراناً عجيباً ، فى هذه الآونة الأخيرة والباعث على هذا انما هو الارهاق الغربى ، المتوالى الشدة والزيادة منذ الزمن البعيد . ثم كانت الحرب العظمى فاستثارت من الجامعة الاسلامية ما لم يستثر من قبل ، ثم ولى الصلح الحرب ، وهو الصلح الذى سبق لنا فأبنا قواعده وأركانه الفاسدة وما دهى العالم الاسلامى بسببه من النوازل والفواجع ، ولا يغربن عن البال أن الجامعة الاسلامية على مختلف حالاتها وتطوراتها ، يجب ألا تعتبر أنها حركة سياسية دفاعية محمولة على الغرب رداً لاعتدائه ودفعاً لجوره فحسب ، بل ان منشأها الأصلى هو المشاعر النفسانية الوجدانية العميقة ، فى المسلمين لصيانة الوحدة وتوثيق عرى الجامعة العامة ، تلك الجامعة التى قلنا فيها

قبلا انها بين المسلم والمسلم لأقوى منها حقاً بين النصرانى والنصرانى . فان عرى هذه الجامعة ليست دينية فقط ، بل انها بحقيقة المعنى والمراد اجتماعيـة خلقية تهذيبية . وان القوانين والقواعد التى تتألف منها وتقوم عليها حيـاة الاسرة الاسلاميـة ، على مختلف العادات والأقاليم لا تتغير فى موضع عنها فى موضع آخر فى جميـع المعمور الاسلامى . قال (السر مور يسون) : ـ «ان الحق الذى لا يمارى فيه أن الاسلام أكثر من معتقد ودين . انما هو نظام اجتماعى تام الجهاز ، هو حضارة كاملة النسيج لهـا فلسفتها وتهذيبها وفنونها . وقد انقضى ما انقضى من العهد الذى ما برح فيه الاسلام والنصرانية على نضال ونزاع ، فما عرى وهنٌ جانباً من جوانب الاسلام قط ، بل ما انفك على الدوام يشتد بعضه مع بعض متماسكا متعاضداً ، حتى صار وحدة جامعة ، نامية نمو الجسم العضوى ، سائراً سيره بفعـل نظامه الذاتى المستقر فيه . »

فالمسلمون ترابط بعضهم ببعض روابط هـذه الحضارة رباطاً وثيقاً لا انفصام له . وباعتبار هذا المعنى ، فانها الجامعة الاسلامية انما هى عامة ، قائمة البناء فى جميع العالم الاسلامى، حتى ان المسلمين الاحرار ، على مايحبذون من الآراء الغربية التى يردون شرعتها ، من حيث لا يرتاحون الى دعوة الجامعة الاسلامية السياسية لتمشيها على الطرق الرجوعية ، يعتقـدون كل الاعتقاد فى وجوب الوحدة الاسـلامية الشاملة المبنية على أصول الحرية وقواعدها . قال امام حر من أئمة زعماء المسلمين فى الهند ، وهو أغا خان ، ما يأتى : (ان هنالك جامعة اسلامية حقة صريحة ، ينضم الى لوائها الحر كل مسلم مؤمن مخلص ، أعنى بذلك الرابطة الروحانية الوجدانية ، والوحـدة الجامعة بين أتباع صاحب الرسالة الاسـلامية . فهذه الوحدة ، الاسلامية الروحانية التهذيبية ، يجب أن تتعهد فتنمو أبداً ، لانها عند أتباع النبى أس الحياة وجوهر النفس .)

فاذا كان هـذا شعور المسلمين الاحرار الواقفين حق الوقوف على حضارة الغرب ، وتقدمه ، ورقيه ، وعمرانه ، والقائلين بوجوب الاقتباس منه والأخذ عنـه ، فما أشد شعور سواد المسلمين ، وهم الجاهلون الرجوعيون المتعصبون ؟ أضف الى هذا ما هو معروف فى عامة المسلمين من الشنأة لاعتداء الغرب وحضارته ، الشنأه التى ليس منشاها فى كل موضع سيطرة الغرب السياسية ، بل لمجرد الافراط والغلو فى التعصب . وقد كان للحوادث السياسية

فى العالم الاسلامى خلال العقد الأخير تأثير كبير فى هذا الافراط والغلو ، فالتهب التعصب التهابا بالغا الحد تدفعه دوافع سياسية خلقية دينية وتجمعه صفة واحدة متماثلة متمكنة فى نفس كل مسلم ، فباتت السلم العامة فى المعمور الانسانى مهددة من ناحية العالم لاسلامى . هذا هو الواقع ، الذى يجب علينا أن نعترف به ، وألا نخدع نفوسنا فنستصغر شأن هذه الحالة العصيبة اليوم وما يحتمل أن ينجم عنها من المخاطر الكبرى فى الغد القريب .

وعلى ذلك ليس من اصابة الحقيقة فى شىء أن يقال ان تركية قد سبق لها فدعت المسلمين واستصرختهم الى حرب عامة ، وحاولت جهدها اقتداح زند الجهاد المقدس سنة ١٩١٤ ، نزولا على أمر المانية ، فلم يكن هناك الايراء المراد فذهب الاقتداح باطلا ، بل كان دليلا على أن الجهاد الحقيقى فى العالم الاسلامى بات ضرباً من المحال . ان من حمله الوهم على هذا فهو على خطل شديد . اذ ان الجهاد لممكن أبداً كل الامكان . قال ضابط المانى كان من أركان الحرب فى الجيش التركى خلال الحرب العامة قولا صريحاً وهو : « ان الجهاد الذى أعلنته تركية قد حبط حبوطاً لانه فى الواقع لم يكن جهاداً بحقيقة معنى الجهاد عند المسلمين » . وقد سبق لنا فأبنا كيف هب قادة المسلمين خارج تركية فأخذوا يستهجنون دخولها فى الحرب . و بسطنا ماذهب اليه هؤلاء القادة من الخطط والأعمال .

فسلسلة الاعتداءات الغربية الآخذ بعضها برقاب بعض منذ التقديم حتى انتهاء الحرب العامة ، وتقرير الصلح على الاسس والاركان التى ذكرنا صفاتها الفاسدة ، تقريراً كان من شأنه أن بات العالم الاسلامى أجمع خاضعاً خضوع الذل والخنوع للسيطرة الغربية . جميع هذا أشعل قلوب المسلمين ، فهبوا هبوب العاصفة تقتلع كل شىء فى سبيلها . أضف الى ما تقدم ان الاهب المادية ما برحت تزداد وتستوفى . وقد سبق للمستشرق الكبير العلامة ارمينيوس فمبارى الخبير حق الخبرة بشؤون العالم الاسلامى ، فأنذر الغرب انذاراً منذ أكثر من عشرين سنة ، قال فيه ان السياسة الاستعمارية النهمة انما هى السبب فى نشوء المخاطر العظمى فى الشرق ، واليك بعض ماجاء فى مقاله الذى نشره سنة ١٨٩٨ « ان الخطر الباعث على حرب كونية عامة يزداد فى الشرق ازدياداً عظما على توالى الأيام . ولا يغيب عن البال أن روح العداء والمقاومة قد اشتدت ، والصدور وغرت ، والحفائظ اتقدت ، أعنى بذلك ان الشعور بالوحدة العامة والجامعة الرابطة قد صار شعوراً عاما ، ناميا ،

منتشراً فى جميع الشعوب الاسلامية ، وقد كان من المساعد على ذلك الوسائل الحديثة للنقل والتواصل ، فباتت الحالة اليوم غيرها منذ عشر سنين الى عشرين سنة .

« وليس من المستغرب أن نقدم على تنبيه الصليبيين فى أواخر القرن التاسع عشر الى المنزلة العالية التى أدركتها الصحافة الاسلامية اليوم من الخطورة والشأن ، والى عام انتشارها فى آسية وافريقية ، وما لعظاتها البليغات وانذاراتها الموقظات من التأثير الشديد فى نفوس قارئيها المسلمين . فللصحف الوطنية ، السيارة والدورية ، فى تركية والهند وفارس وأواسط آسية وجاوة ومصر والجزائر مفعول عظيم ، اذ كل ماتفتكر فيه أوربة وتقرره وتقوم على انفاذه على ماينافى المصلحة الاسلامية ، تنتشر انباؤه فى جميع هذه الاقطار بسرعة البرق ، وتحمل القوافل هذه الانباء الى كل جهة شاسعة وصوب سحيق فى الرقاع الاسلامية ، حتى الى قلب الصين وخط الاستواء ، حيث يهب المسلمون لتلقى مثل هذه الانباء معظمين مكبرين . فالشرارة التى تستطير من مجمع من مجامعنا ، أو ناد من انديتنا ، أو وليمة من ولائمنا ، فما تزال فى مستطارها ومسبحها فى الفضاء ، حتى تجوب أقاصى العالم الاسلامى فتقع وقوع الرعد القاصف . وماتنشره صحيفة « ترجمان » فى القريم مثلا ، تردده صحيفة « اقدام » فى القسطنطينية ، ويرن صداه عظيما فى صحيفة « الحوادث الاسلامية » فى كلكتا فى الهند

« فالجامعة الاسلامية اليوم مسترخية العرى بعض الاسترخاء ، غير ان اعتداء الغرب على غير انقطاع ، وعسفه المتوالى الذى يزداد اشتداداً على الدوام ، سيحملان على استجماع هذه العرى بعضها الى بعض فتتماسك وترتبط ، فتصير الجامعة الاسلامية كالبنيان المرصوص منيع الاركان ، فيتوقع حينئذ من وراء ذلك حرب عالمية مشبوبة فى انحاء المعمور لاتبقى ولاتذر . »

منذ نشر ڤامبارى انذاره هذا حتى اليوم ، مابرح الأمر يتفاقم والنعرة الاسلامية تثور فى وجه السيطرة الغربية ، وقد زاد فى هذا زيادة كبيرة النهضات القومية ، والحركات الوطنية الاسلامية التى كانت تكاد لاتعرف فى القرن الماضى ، وهى قد أصبحت اليوم على أتم مايكون من النظام ، والكفاية من أسباب الذيوع والدعاية . ولنا مثال على هذا وهو صحف الدعوة للجامعة الاسلامية وهى التى أشار اليها ڤامبارى ، فقد تعاظمت تعاظماً غير مسبوق المثيل . ففى سنة ١٩٠٠ لم يكن فى العالم الاسلامى أكثر من مئتى صحيفة دعوية ، فبلغ هذا

العدد سنة ١٩٠٦ حد الخمسمائة صحيفة ، وأربى سنة ١٩١٤ على الألف صحيفة ؛ فالمسلمون يرحبون فى بلادهم بأسباب النقل والتواصل مثل البرد والبرق والقطر الحديدية ، وغير ذلك مما يساعد على تطيير الانباء ونقل الاخبار . وكل بلاد من بلاد المسلمين هى على اتصال دائم مع سائر البلدان الاسلامية ، اما تواً على يد الرسل ، والسعاة ، والحجيج ، والسياح ، والتجار والبرد ، واما على يد الصحف الاسلامية والكتب والنشرات والمجلات . ففى القاهرة ترى صحف بغداد وطهران و بشاور ، وفى البصرة و بومباى ترى صحف القسطنطينية ، وفى المحمرة وكربلاء و بورت سعيد ترى صحف كلكتا . واما الوسائل الكبرى للدعاية فى سبيل الجامعة الاسلامية فهى الطرق الدينية التى سبق لنا الكلام عليها وهى حقا كالسيل الطامى فانها ماأدركت أمة مسلمة الا استولت على مشاعرها وقلوبها ، وسيرتها سهلة الانقياد الى تعاليمها . وترى دُعاة هذه الطرق يقومون بوظائفهم على أساليب عديدة غريبة ، فهم يجوبون الأقطار بألوف الأزياء المتنكرة تجاراً و وعاظاً ومرشدين وعلماء وطلبة واطباء وعملة ومتسولين وفقراء ومساكين ، حتى ومشعوذين ودجالين ، وحيثما وصلوا ترى المسلمين قد تسارعوا لاستقبالهم على الرحب والسعة ، واخفوهم عن عيون رقباء الحكومات الاستعمارية . »

زد على جميع هذا أن ساد اليوم فى العالم الاسلامى سيادة عامة ، الاعتقاد الذى يؤيده الأحرار والغلاة والمحافظون وسائر الأحزاب معاً ، أن المسلمين اليوم هم فى دور النهضة ، والانتقال ، والتجدد ، يستردون مجدهم الاسلامى الفائت و يستعيدون عزهم التليد . قال السر ثيودر موريسون : «ليس من مسلم يعتقد ان الحضارة الاسلامية فانية أوغير متجددة مترقية ، انما يعتقد ان قد عرتها قهقرى قصيرة فحسبُ فقصر المسلمون أمرهم على التطوح فى الاشادة بمجد الجدود ، وتعصبوا فى ذلك وغالوا شديداً ، ولكن أمرهم هذا ما كان ليختلف فى صفته عن الحال التى كانت سائدة فى أوربة خلال القرون الوسطى ، يوم كان ديجور الجهل مطبقا جميع البلاد النصرانية يعتقد المسلم اليوم أن العالم الاسلامى سائر فى طريق استئناف الارتقاء ، يأخذ عن الغرب مايزيد فى استحثاثه و يبعث فيه عزماً واقداماً ، ونشاطا ، فتطورت الحياة تطوراً تبدت دلائله فى كل قطر اسلامى . »(١)

(١) ذكر المؤلف فى هذا الموضع كلاما مقتبسا من كتاب (يقظة الشعوب الاسلامية فى القرن الرابع عشر للهجرة) لمؤلفة يحيي صديق ، اضربنا عن ترجمته — (المترجم)

فاذا كان دعاة الجامعة الاسلامية يجهرون بمثل هـذه الآراء ويصرخون تلك الصرخات فى مفتتح هذا القرن ، وقد جاءت الحرب العامة مصداقا لما جهروا به السنين الطوال ، فلا جرم ان قويت شوكة الجامعة واتسع لها المجال فاشتدت قوة واندفاعاً . أضف الى هـذا ان الغرب قد انقلب بعد الحرب العظمى ضعيف المنة ، واهن القوة المادية وهناً كبيراً ، ثم جاء الصلح مبنياً على أركانه الباطلة ، وطفق الخلاف ينشب بين الغالبين بعضهم مع بعض نشوبا قوض مكانهم تقويضاً وقضى القضاء الأخير على منزلتهم فى عيون الشرقيين . وقد كان من شأن النزاع والمشادة بين كل من بريطانية وفرنسة وايطالية فى الشرق ، ان ساعد المسلمين مساعدة جليلة على زيادة تساندهم وتماسك بعضهم مع بعض ، فاشتد ايقانهم بادراك المبتغى ثم ان هذا التعادى الذى قام به الحلفاء فى الشرق قد سبب اضطراباً سياسياً عظيما فى الغرب فبعد التباين واتسعت فرجة الخلاف . قال أحـد كتاب الفرنسيس فى الآونة الحديثة ينذر أوروبة انذاراً شديداً : « ان العالم الاسـلامى بات لايعترف بحدود أملاكنا الاستعمارية ، والعاقل الذى يريد اعتبار الحقيقة لايعجبن من ذلك أقل عجب مادامت الدعوة الكبرى التى نشرها ورفع علمها جمال الدين فى المسلمين تسير سيراً دراكا . »

وأى شىء أدل على هياج الاسـلام ، وغليان مراجل حقده من ذلك الثوران الهائل الذى يقوم به السبعون مليونا من المسلمين فى الهند ، احتجاجا على تجزئة المملكة العثمانية؟ والأمر الأخطر ان هذا الثوران الاسـلامى ليس مقصوراً على الهند فحسب ، بل انه شامل المعمور الاسـلامى ، وعلى ذلك فلم يغال السر ثيودر موريسون بانذاره : « لقد حان وأيم الحق للأمة البريطانيـة أن تعتبر وتتدبر خطورة ماهو جار فى الشرق ، فان العالم الاسلامى أجمع ليعج غضباً ، ويحتدم حنقا ، من جراء تجزئة تركية . وما هـذه اللوامع النارية التى تبدو فى كابل والقاهرة الا البرق الذى تتلوه الرعود القواصف فالصواعق المزلزلة . انى قد أقمت فى الهند أكثر من ثلاثين سنة عرفت فى خلالهـا المسلمين حق المعرفة ، وأرى من الواجب على الآن أن أنذر أمتى البريطانية بشر عقبى هـذا الثوران الاسلامى الناشىء عن تجزئة تركية التجزئة المنوية . فان ساسة مؤتمر فرسايل قد خالوا تركية فى الأناضول منقطعة عن سائر العالم الاسلامى ، فليس من شعب يغضب لها ، ولا من أمة تغار عليها . فما أسوأ هـذا الخيال الباطل والوهم القاتل ! ! فمن شاء البرهان فلينظر الى هـذه الوفود الاسلامية

العديدة ، الحالة بين ظهرانينا فى لندن كأنها اللهب لايصطلى به . فالمسلمون قاطبة فى الهند ، من « بشاور » حتى « أركوت » قائمون قاعدون لما يرونه قد حل بساحة تركية والمسلمين حتى باتت النساء المسلمات يعولن اعوالا شديداً ، ويبكين حالة الاسلام بكاء الأمهات أطفالهن ، وترى التجار وهم أبعد طبقات الأمة من مزاولة الشؤون السياسية يفرون من حوانيتهم ومتاجرهم خفافاً الى حيث ينظمون رفائع الاحتجاج ويطيرونها بالبرق الى أنحاء العالم ، وترى الطوائف العديدة من رجال الدين المتقشفين ، المتشددين ، المضروب بهم المثل فى شدة انقطاعهم عن جارى الحوادث فى العالم ، يخرجون من المساجد مواكب مواكب ليشتركوا فى القيام بالتظاهرات والاحتجاجات . »

وأغرب مافى الحالة ان الأحرار قد أخذوا ينتظمون أكثر فأكثر فى عداد رجال الجامعة الاسلامية ويؤيدونها بما استطاعوا من القوة والحول ، على اعتقادهم بوجوب الأخذ عن الغرب واقتباس الآراء والأفكار منه ، وذهابهم مذهباً مخالفاً لغلاة الجامعة الاسلامية وأرباب الطرق الرجوعية ، والحامل كل الحامل لهم على ذلك هو اشتداد الضغط والعسف الاوروبى ، فهم ازاء هذا الخطب الكبير يسعون فى رده بموالاة الأحزاب الأخرى والتحالف معها ، ولو الى حين ، مع علمهم ان الأحزاب الوطنية المغالية وأحزاب الجامعة الاسلامية اذا أثارت حرباً عامة باسم الجهاد ، فمن شأن هذه الحرب أن تفتح غوراً بعيد المهوى بين الشرق والغرب ، وتقضى على تلك العوامل والمؤثرات السارية من هذا الى ذاك ، وهى التى ترى اليوم دابة فى كل عرق من عروق العالم الاسلامى باعثة فيه القوة والعزم ، ومع علمهم أيضا أن حرباً كهذه تشعل نار التعصب الرجوعية فى المعمور الاسلامى ذلك التعصب الذى اذا عاد فاتقد أوهن حركة الاصلاح الحديث فى الاسلام ايهاناً شديداً فأخرها مدة مديدة .

ولعل الذى عرف حتى اليوم من ثوران الاسلام لايعد أكثر من مقدمة لما سيحدث فى السنين المقبلة . ولنا دليل على هذا ظهور الدعوتين العظيمتين للاصلاح الدينى فى الاسلام اصلاحا ضاربا الى التعصب ، أما الأولى فهى دعوة « الاخوان » التى نشأت منذ نحو عشر سنين فى نجد قلب بلاد العرب ، وهى الوهابية عينها التى كانت نشأت منذ مئتى سنة خلت ، وهذه الوهابية الحديثة مابرحت تنتشر انتشاراً سريعا حتى طبقت كل نجد ، وعلى رأسها زعيم صحراء بلاد العرب الكبير أعنى به ابن السعود ، خليفة سعود الذى كان رأس الدعوة

الوهابية منذ مئة سنة . وأما « الاخوان » الجدد فعلى تعصب شديد منقطع النظير ، وخطتهم هى حلم الوهابية القديم من الاصلاح الدينى الغام فى العالم الاسلامى . وأما الأخرى فهى الدعوة « السلفية » التى نشأت فى الهند منشأ يشابه دعوة « الاخوان » فى نجد ، غير انها قد انتشرت فى هذه السنين الأخيرة انتشاراً عم كل رقعة اسلامية . وغرضها كغرض الوهابية من حيث الاصلاح المزيج بروح التعصب . وغالب اتباعها من حلقات « الدراويش » هذه هى الحالة التى مع ماتنطوى عليه من مختلف العوامل المبسوطة الذكر تنخر نخراً متغلغلا فى سلم الشرق .

واذ قد بلغنا فى الكلام على الجامعة الاسلامية من وجهتيها الدينية والسياسية الى هذا الحد ، يجدر بنا أن نقول كلمة فى الجامعة من حيث وجهتيها التجارية والصناعية ، وذلك مايعرف بالجامعة الاسلامية الاقتصادية :

ان السبب فى انتشار الجامعة الاسلامية الاقتصادية ، هو عوامل الاستنزاف ، واحتياز موارد الثروة فى الشرق . فمن قبل خمسين سنة خلت كان العالم الاسلامى يتسكع فى «اجياله الوسطى » ، فكانت الشريعة الاسلامية ، وما فيها من تحريم الربا ، مرعية حق الرعاية بحيث لم تكن الحياة الاقتصادية بمعناها الحالى ميسورة ، وما كان هناك من بعض التجارة والصناعة انما كان غالبه فى أيدى النصارى واليهود من أهل البلاد . زد على هذا ان التزاحم الغربى جاء فانتشر فزلزل الحياة الاقتصادية الشرقية زلزالا هائلا ، اذ ان فتح أوروبة للعالم الاسلامى الفتح السياسى كان يماشيه الفتح الاقتصادى جنباً الى جنب ، وربما كان هذا الاخير أتم نظاما وأكمل عدة ، فبات كل صقع شرقى فى طوف من البضاعات والحاج البخسة الأثمان ، المنقولة من أوروبة ، ووراء ذلك رؤوس الأموال الغربية متدفقة لاتحصى ، تتسرب فى البلاد وتنتشر بأخدع الصور وأملق الأساليب ، كالقروض ، والامتيازات التى من شأنها متى ماعقدت أن تكون تمهيداً لاستقرار السيطرة السياسية الغربية .

فنصر أوروبة الذى نالته فى فتحها هذا الفتح السياسى الاقتصادى التام كان باعثا للشرقيين على العداء والمقاومة ، فاستيقظ العالم الاسلامى غضبان فهاله مارآه فى دياره من الأسباب والأدوات الغربية المأتى بها لاستنزافه واستنفاد خيراته الطبيعية ، فقدر حوله ازاء حول الغرب الجبار العاتى فأدرك شقة البعد ، فطفق للحال يجدّ فى سبيل التحرر الاقتصادى

جده فى سبيل التحرر السياسى من ربق الذل والاستعباد . ثم أنشأ حكماء المسلمين ، وأرباب الدراية فيهم والرأى السديد . يلتمسون الأسباب الغربية الفضلى ، التى من شأنها أن ترقى بالعالم الاسلامى رقيا اقتصاديا جليلا ، فنسخت الأساليب والمناهج الغربية ، ونسج على منوالها ، وما كانت تحريمات الشريعة لتقف سداً فى وجه النهضة ولا لتحول دون مجراها .

فنتج عن ذلك تطور عظيم فى الحياة الاقتصادية أخذ ينمو ويزداد ، ناهجا منهجا اقتصاديا غربيا . ولكنه حتى اليوم مابرح يجتاز الدور الأول من أدواره ، وهو أظهر وأبين فى البلاد التى هى أشد صلة ومساسا بالسيطرة الغربيــة كالهند ومصر والجزائر . أما متجهه فواحد فى كل قطر اسلامى ، وسنفصل الكلام على هـذا فى فصل التطور الاقتصادى . فما يجب اعتباره فى هـذا المقام هو تدبر شأن هـذا التطور من حيث صلته بالجامعة الاسلامية ومنزلته فيها . وهـذا الشأن هو عظيم جداً . لأن أوثق وحـدة ، وأمتن صلة ، ظهرت فى المسلمين حتى اليوم انما هى الوحدة الاقتصادية بلا مراء . ولا يعزب عن البال ان الروابط الدينية والصلات الخلقية التهذيبية التى تجمع بين المسلم والمسلم ، ماانفكت تزيد فى توائق المسلمين وتآزرهم ، وتعاطفهم وتضامنهم ، كأنهم فى المعمور الاسلامى أمة واحدة بعضها يغار على بعض وجانب يساند آخر . دع ماهو هناك من الأسباب الغربية للنقل والتواصل ، المسهلة على المسلمين القيام بالأسفار الى كل جهة أرادوا ، فازداد بذلك تعارفهم واستمسكت أواصرهم ، فنشأ فيهم نشء جديد ، ابناءوه مقاديم ، بعداء الهمة ، أشداء العزم ، فيهم التجار وأرباب السفن البحرية والأعمال التجارية ، والصيارفة ، والسماسرة حتى وأرباب المصانع والمعامل ، ممن لم ير أمثالهم فى المسلمين من قبل بقرن أو نصف قرن خلا . وأبناء هذا النشء الجديد على غاية من التفاهم والتوائق . تربط بعضهم ببعض الروابط الاسلامية ، ويحملهم التزاحم الغربى المنتشر فى بلادهم على شدة التضامن ، فلهم فى الواقع من سعة المجال للعمل المنظم والاتحاد الوثيق ماليس مثله للساسة المسلمين ، اذ فى الأفق الاقتصادى يتلاقى الأحرار ودعاة الجامعة الاسلامية والغلاة وسائر الأحزاب الوطنية على أتم وئام . فلا خلاف بينهم فى هذا الميدان يفضى بهم الى الانقسام لعلة اتباع احدى السياسات ، كسياسة الثورة أو الجهاد ، انقساما يحملهم على تهديد أوروبة المسلحة ، أو يؤدى بهم الى المجازفة بالنفوس والدماء والأموال ، بل هم جميعا فى نطاق الجامعة الاقتصادية سواء ، متحدو

الـكلمة ، يجدّون فى سبيل الحياةالاقتصادية الاسلامية ، متوخين فى ذلك الطرق والأساليب التجارية التى لايجرؤ الغرب أن يحول دونهم ودونها ولا يقف فى وجهها .

فما هى غاية الجامعة الاسلامية الاقتصادية ترى ؟ انما هى : ثروة المسلمين للمسلمين ، وثمرات التجارة والصناعة فى جميع المعمور الاسلامى هى لهم يتنعمون بها وليست لنصارى الغرب يستنزفونها . وهى نفض اليد من رؤوس المال الغربية والاستعاضة عنها برؤوس مال اسلامية . وفوق جميع هـذا ، هى تحطيم نواجذ أوروبة تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية فى بلاد المسلمين ، وذلك بعدم تجديد الامتيازات فى الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجارك ، العقود التى مادامت خارجة من أيدى العالم الاسلامى فهو يظل عالة على الغرب .

هـذه هى أغراض الجامعة الاسلامية الاقتصادية ، وجميعها حديث المنشأ ، وسببه السيطرة الغربيـة الشديدة فى العالم الاسلامى ـ السيطرة التى نتـكلم عليها فى الفصل التالى من هذا الـكتاب .

الدول المستعمرة والاسلام

للامير شكيب

من الغريب أن فارس عرضت على انكلترة المحالفة ، والدخول الى جانب الحلفاء فى الحرب العامة ، فأبت انكلترة مساعدة فارس هذه . وهذا أمر صرحت به جريدة الطان ؛ لسان حال فرنسا أثناء مؤتمر الصلح بباريز . وأن مصر عرضت نفسها أثناء الحرب العامة أن تقاتل فى جانب الحلفاء بشرط الجلاء الانكليزى عن مصر بعد الحرب ، فأبت انكلترة أيضاً ذلك . وان الشريف حسيناً بن على ، ملك الحجاز اليوم ، كان عرض نفسه لمحالفة انكلترة منذ بدأت الحرب العامة ، فأبت انكلترة محالفته يومئذ كما أبت محالفة مصر والعجم . وأغرب منه أن تركية نفسها بينما هى فى أول الحرب العامة تتردد فى الميل الى أى الفريقين المتصارعين ، ويتجاذبها عاملان أحدهما الى الحلفاء ، والآخر الى الألمان ، صرحت لسفراء الحلفاء فى الاستانة انها تخشى اذا اعتزلت الحرب من أن يتفق الفريقان عليها ، ويعقدوا الصلح على ظهرها . فقالت لهم لا بد لنا من محالفة . وعرضت على الحلفاء أن تكون معهم ، بشرط أن تأمن شرورهم فى المستقبل . فأبى الحلفاء قبول محالفة تركيا لهم ، وكل ما طلبوه منها كان التزام الحياد التام ، وبمقابلة ذلك تتعهد الروسية بأن لا تهاجم تركية مدة ثلاثين سنة (تأمل) وتنال تركية بعض مساعدات أخرى ليس لها كبير طائل . وبدهى أن رفض الحلفاء هذه المساعدات من دول العالم الاسلامى مبنى على أساس واحد ، وهو أن الحلفاء لو قبلوا مساعدات الحكومات الاسلامية أثناء الحرب العامة ، لما كان لائقاً أن يقتسموا فيما بعد الحرب بلاد الاسلام الباقية الاقتسام الأخير ، كما كانوا ينوون أثناء الحرب ، وكما فعلوا بعد الحرب . فلو رضوا بدخول تركية معهم فى الحلف وقبلوا عضدها لهم فى ذلك الموقف ، لما كان يجوز بعد الحرب انفاذ برنامج التقسيم الذى كان مقرراً بين انكلترة وفرنسا منذ ١٩١٢ . ومن جملته قسمة سورية وفلسطين . ولو رضوا بدخول العجم فى الحلف وقبلوا معاونتها ، لما كان يحل أن يجهزوا عليها الاجهاز الأخير بعد الحرب كما

كانت النية ، بل كان ديناً عليهم اخلاء العجم ، وهـذا ما لا يريدونه . ولو قبلوا اقتراح مصر فى الدخول فى الحرب الى جانبهم ، لتعين عليهم الجلاء عن مصر بعـد الحرب على وجه المكافأة ، مع أن المراد بعـد الظفر الأخـير هو استلحاق مصر تمـاماً لا اعطاؤها حريتها . وكانوا يرون أنهـم قادرون أن يستخدموا رجال مصر ويرتفقوا بأموال مصر بالعوة والقسر ، بدون أدنى منة لأهل مصر ، وبدون تعهد بالجلاء عن مصر على حد ما قال أبو الطيب :

من أطاق اغتنام شئ غلاباً   واغتصاباً لم يغتنمه سؤالا

ولقائل أن يقول : لـكن ينقض نظريتك هـذه ، أن الحلفاء حالفوا سنة ١٩١٥ الشريف حسيناً ، وهذا ملك من ملوك الاسلام . والجواب أنهم ما قبلوا التحالف معه بادئ ذى بدء لظنهم أنهـم يستغنون عنه ، ولا يتقيدون معـه بعهد يمنعهم بعـد الظفر من أخذ بلاد العرب . فلما طالت الحرب ، وظهر من تركية ما ظهر من القوة التى لم تخطر لهم على بال ، ورأوا الحرب ستدوم أعواماً ، وتأتى على الحرث والنسل وان العـالم الاسلامى كله فى هيجان عليهم ، عادوا الى قبول محالفة الشريف حسين أملا بفصل العرب عن الـترك ، وباستمالة جانب من المسلمين ، وبتخفيف حملة كان الحلفاء بدأوا يشعرون بثقلها ، ومع هذا كله فقد ملأوا عهودهم للشريف ابهاماً وغموضاً ، حتى يتفصوا منهـا فى المستقبل ، فما وضعت الحرب أوزارها حتى ظهر للشريف ولسائر العرب ، أنه مع كون قسم من العرب حالف الحلفاء محالفة فتت فى عضد الأتراك ، وكانت من جملة أسباب انكسارهم لأسباب عديدة ، فقد عومل العرب بعد الحرب معاملة الأعداء ، وتقسمت بلادهم غنائم ، والذى هو باق منها بدون احتلال فعلا ، فالنية وضع اليد عليـه عند أول فرصة . وربما كابر بعض الناس فى كون الشريف عرض التحالف من أول الحرب ولم يقبلوا ذلك منه ولا مجال هنا للمكابرة فالصحيح أنهم لم يقبلوا التحالف معه حتى احتاجوا عضد العرب وطالت الحرب فأرسلوا اليه بعض معتمدين لمفاوضته فيه من جملتهم الجنرال حداد باشا ، وان حداد باشا صرح لنا بهذه الحقيقة التاريخية أمام جماعة كثيرين من أعيان السوريين والفلسطينيين وربما كابر آخرون فى كون الحلفاء أبوا محالفة تركيـة وطلبوا منهـا الحياد لا غير فى الحرب العامه ، والجواب هـذا شئ يشهد به المستر مورغانتو سفير اميركا فى تركية لاول

نشوب الحرب . ذكره فى خاطراته وقال ان أقصى ما طالب الحلفاء به تركية هو لزوم الحياد فحسب والحاصل أن الحلفاء طلبوا اثناء الحرب العامة العون من كل دولة ، وعرضوا التحالف مع كل حكومة ، حتى أصغر حكومات أميركا ، ولم يكونوا ليقبلوا التحالف مع دولة من الدول الاسلامية علما بما ينوونه للاسلام وجميع حكوماته فى المستقبل وفراراً من مكافاة دولة اسلامية بالابقاء عليها . فهذا من الحقائق الكلية التى ينبغى أن يتفطن لها المسلمون ولا يغيبوها عن نظرهم ، وليعلموا ان الدول المستعمرة لا تقبل من الاسلام حتى ولا الصداقة ، وانها لا ترضى من المسلمين فى جانبهم بذل الأرواح والأموال الا مجانا .

أثر الروسيا في الشرق قديما وحديثا

للامير شكيب

حرر مؤخراً العالم الاجتماعى الكبير ، غويغليلمو فريرو Guglielmo Ferrero مقالة فى جريدة «الايللوستراسيون» عنوانها «أوربة وآسية» بين فيها ان الحرب العامة أحدثت انقلابات متناقضة ، فباعدت وقربت بين القارات وانه من العادة اذا خرجت سلطنة عظيمة ظافرة من حرب من الحروب ازدادت هيبتها وانبسط سلطانها ، عن ذى قبل . والحال انه بعد ان خرجت انكلترة ظافرة من أكبر حرب فى الدنيا ، ثارت فى وجهها افغانستان ، والهند ، ثم مصر و بعد ان كانت تركية اضمحلت سنة ١٩١٨ ، عادت فنهضت وردّت انكلترة وحليفاتها على أعقابهن . وكذلك الصين بالرغم من الثورة التى تمزق احشاءها ، تطلب استرداد البلاد التى احتلت منها وعدم مس شئ من استقلالها . فآسية تقوم على أوربة على حين هى آخذة بمبادئ أوربة ، وليست تأخذ من أوربا وأميركة أسلحة فحسب ، بل مبادئ وافكاراً تقاتلها بها . قال : « ومسبب ذلك هو انهيار الدولة الروسية ، فان أوربا كانت عام ١٩١٤ كتلة متحدة ، متينة ، متماسكة ، بالرغم من جميع المناظرات والمناهضات التى كانت فيما بين أجزائها . فقد كانت السلطنة الروسية والسلطنة الانكليزية متناظرتين فى آسية ، ولكن من جهة أخرى ، كنت ترى كل واحدة منهما شادّة أزر الاخرى . وكانت أوربة بأجمعها تستفيد من الرعب

الذى تلقيه الروسية فى قلب آسية ، فسقوط السلطنة الروسية كان مبدأ خلاص آسية » وقد أشارت جريدة الطان بتاريخ ٨ حزيران سنة ١٩٢٣ الىمقالة فريرو هذه وأيدت رأيه من جهـة كون انهيار الروسية هو الذى كان مبدأ تحرير آسية ، وهـذا عين ماورد فى مقالة روجرلابون التى ترجمناها عن « مجلة باريز » . وكان أحدالروس اقترح علينا سنة ١٩١٩ نشر مقالة فىجريدة روسية تصدر فى برلين فحررنا فى ذلك الوقت له مقالة نبين بهاالأسباب الداعية الىالاتحاد بين الروس والشرقين، ونلوم سياسة الروسية الماضيةالتى كانت عبارة عن قهرالشرق وملاشاة الدولةالعثمانية ، لفائدة الدولالغربية ، فكان جل الخسائر بالمال والرجال على الروسية ، ومعظم الفوائد لانكلترة وفرنسا ، لأنه من المحقق لولا ثقل حملالروسية على ظهر العثمانيين وكونهم أصبحوا منعداوة الروس بحالة لايملكون معها قبضاً ولابسطاً ، لما كان يمكن فرنسا الاستيلاء على الجزائر ، ولا على تونس ، ولا ايطالية دخول طرابلس ، ولا انكلترة احتلال مصر والسودان بلكانت الدولة العثمانية بأمنها ناحيةالروسية تقدر علىحماية هـذه البلدان ، لاسيما فى بداية الأمر فالروسية هى التى كانت سبب سقوط الشرق و واسطة تقسيمه بين الدول الاستعمارية ، وتحوّل الحكومة القيصرية الى البلشفة هو الذى مكن اليوم الشرق من أن يتنفس . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . فهـذا المعنى كنت أوضحته قبل أن ابتـدأ الكتاب الأوربيون ينبهون اليه .

ثم ان هناك جملة وردت فى كلام العلامة فريرو فيها معنى كبير ينبغى أن ينعم النظر فيه جميع الشرقيين ألاوهى قوله : « ان الروسية وانكلترة مع تناظرهما وتنافسهما فى الشرق كانت كل منهما شادّة أزر الأخرى ». ومعنى ذلك أن الروسية كانت تقلم أظفار الأتراك ، والفرس ، والصينيين ، فبملاشاة قوتهم أصبحوا لايقدرون على اغاثة الهنود ، والافغان ، والمصريين والعرب الذين مـدت يدها اليهم انكلترة بالبطش والغصب . وكذلك انكلترة باستيلائها علىهؤلاء قدعطلت منهم كلقوة حربية ، فأصبحوا لايقدرون أنيؤيدوا الدولة العثمانية ، ولا الدولة الفارسية ، ولا تركستان ، ولا الصـين بشئ ، فكانت كل من الروسية وانـكلترة قدشدت احـداهما أزرالأخرى بطبيعة الحال ، وكان بينهما تضامن ، وان لم يكن جرى عليه تواطؤ من قبل فهوجار بالفعل . ومنالأمور التى تؤيد هذاوقوع هذا التضامن بدونتواطؤ ليس بينأوربا والروسية القيصرية فحسب ، بلبين أورباوالروسيا البولشفيكية

نفسها ، مع شدة العداوة التى بين الفريقين .

فان الدول الغربية أثارت على البولشفيك الاميرال كولتشاق ، والجنرال دينيكين ، والجنرال يودينيش ، والجنرال فرانجل ، والمملكة البولونية ، وحاولت اثارة الأرمن ، والكرج وكل قوم ترجو فيهم النهضة ، لقتال الحكومة البولشفية ، التى ترى فيها الخطر الأعظم على كيان الهيئة الاجتماعية الاوربية . وقد بذلت انكلترة وفرنسا فى تسليح هذه الأقوام ، وسوقهم على الروسية مئات الملايين ، ولا تزالان الى هذه الساعة تترصدان الفرص وتتربصان بالبولشفيك الدوائر .

لكن قد حذرت هاتان الدولتان كل الحذر ، من أن تحرك على البولشفيك قوة اسلامية . فعرض بعضهم الرأى بالاتفاق مع تركية وتسليحها وسوقها على الروسية من جهة القوقاس ، حيث ينضم الى الترك هناك الكرج والطاغستانيون والتتر فلم يقبل الحلفاء هذا الرأى أصلا . ولا راق لهم تسليح العجم ، ولا الافغان ، ولا بخارى ، ولا خيوه ، ولا فرغانه ، ولا غيرها من تركستان . ولا رمى البولشفيك بهذه القوات كلها وماذاك الا لانهم يرون الخطر الاسلامى أعظم من الخطر البولشفى مهما كان الخطر البولشفى عظيما . ومن الادلة البارزة على ذلك انه لما نفر المرحوم أنور من البولشفيكيين وبرح موسكو سنة ١٩٢١ الى باطوم ، ومنها انسل الى بخارى وأثار ثورة تركستان الهائلة التى حشد البولشفيكيون فيالق جرارة لقمعها لم يفكر أحد باوربا فى امداد أنور على البولشفيك ، بل عند ماسقط أنور شهيداً فى أوائل أغسطس سنة ١٩٢٢ فرح بمقتله الحلفاء ، ولم تخف الجرائد الانكليزية سرورها . وفى هذا مقنع لمن يبقى عنده شئ من الريب فى شدة تضامن أوربا بازاء الشرق .

الفتوحات الاسلامية في الهند

التقسيمات الجغرافية وعدد مسلمى كل ايالة

للأمير شكيب

افتتح العرب المسلمون السند وجانباً من الهند فى صدر الاسلام ، ثم أكمل الفتح محمود بن سبكتكين الغازى الشهير ، ورسخت قدم الاسلام فى الهند من بعده . ثم استولى الاسلام على كل الهند بدون استثناء ، ودانت له جميع ملوك الهندوس ، يقال لم يبق خارجاً عن طاعة الاسلام فى الهند سوى مملكة يقال لها (اودبور) لها ملك يقال له (مهرانا) وهو لقب أكبر من مهراجا . وسبب تفرده بهذا اللقب أنه هو الوحيد من ملوك الهند قاطبة الذى لم يخضع لسلطة الاسلام ، ولذلك هو الى يومنا هذا يتقدم فى الاحتفالات الرسمية جميع نظرائه .

وقد بلغ عدد المسلمين فى الهند فى تاريخ تجديد الطبع لهذا الكتاب ٧٨ مليوناً وعددهم الى الأمام لا الى الوراء

وبمناسبة الهند هذه نذكر ملخص تقسيمات تلك البلاد العظيمة ليكون للقارئ تصور عام بها :

فهى ثلاثة أقسام : القسم الأول هو المستقل تماماً ، وهو عبارة عن مملكتين فى الشمال (نيبال) و (بوتان) ، وأهل نيبال خمسة ملايين كلهم هندوس ، وأهل بوتان مليون واحد هندوس أيضاً فيهم قليل من المسلمين ، وكلهم أمة محاربة مشهورة بالشجاعة ، وأشهر عساكر الهند الانكليزية هم من أبناء هاتين المملكتين ، يتطوعون فى الجندية نظراً لفقر بلادهم ، ووعورة أراضيهم . وللانكليز هناك وكيل مقيم لا يكاد يكون له نفوذ

ثم القسم الثانى وهو الذى تحت حماية انكلترة ، وهو يدفع خراجاً سنوياً لها ، وملوكه وأمراؤه مضطرون أن يحضروا حفلة تتويج ملك انكلترة امبراطوراً على الهند ،

وعدد هـذا القسم ٧٠ مليونا ، أى سكانه مع سكان القسم المستقل لا يزيدون على ربع الامبراطورية الهندية

وبقية الهند تديرها الحكومة الانكليزية مباشرة كسائر أملاكها

فالامارات التى هى تحت الحماية هى ما يأتى : (حيدر آباد الدكن) ، أهلها ١٣ مليوناً أكثرهم من الهندوس ولكن عاصمة البلاد أكثرها مسلمون وسلطانها مسلم يقال له (النظام) ، وفيها وزير مقيم من قبل الانكليز لكن نفوذه على المملكة محدود . وهناك جيش عدده ٣٠ ألفاً أكثره عرب من (حضرموت) . ولحيدر آباد نوعان من الجند : الأول يستقل به سلطان البلاد ، والثانى مرصد للاشتراك فى حماية المملكة الهندية كلها وهذا قواده من الانكليز . والخراج الذى تدفعه حيدر آباد لانكلترة زهيد ، واستقلالها الداخلى يكاد يكون تاماً

وقد حدث بين نظام حيدر آباد وانكلترة خلاف فى السنين الأخيرة من أجل ولاية كبيرة يدعى النظام أنها تابعة لمملكته ، ويزعم الانكليز أنها مما ينبغى أن يلوه هم رأساً . ولا نعلم كيف انتهى الأمر بينهما ولكننا نعلم أن انكلترة لاتزال مصرة على الاستئثار بتلك الولاية

ونظام حيدر آباد أوسع ملوك الاسلام ثروةً ومن أغنى ملوك العالم ، وقد كانت له اليد البيضاء على آل عثمان والخليفة عبد المجيد بن السلطان الخليفة عبد العزيز الذى طرده الأتراك الكماليون وألجأوه الى أوربة لا يملك شروى نقير تقريباً فأقام أولاً بمونترو من سويسرة ثم انتقل الى نيس من ساحل فرنسة على البحر المتوسط (والعرب تقول نيقة) وبلغ نظام حيدر آباد أن الخليفة قد يصل من الاحتياج الى حد يمس بكرامة الاسلام ورأى أنه لا يليق بالمسلمين أن يصير السلطان الذى كان خليفتهم بالأمس الى حالة كهذه من البؤس والهوان فرتب له ثلاثمائة جنيه فى الشهر وحفظ شرفه من أن يذل وكان له بذلك اليد المحمودة عند الجميع لا سيما أن الخليفة عبد المجيد هو ممن يستحقون كل خير وانه من خيار الملوك فى طهارة أخلاقه واستقامة مباديه وسعه عقله ومعارفه واخلاصه للاسلام والمسلمين

ثم انه فى أوائل هـذه السنة ١٩٣٢ افرنجية ازدادت العلاقة بين الخليفة عبد المجيد ونظام حيدر آباد بزفاف كريمة الخليفة على نجل النظام ، ولم يحسن وقع هـذه المصاهرة فى

انقرة لأن الكماليين خافوا من أن يتوكأ الخليفة على ثروة النظام فى بث الدعايه فى تركية لا عادة الحكم الملكى اليها ، وكذلك لم يحسن وقع هذه المصاهرة فى انكلترة لأن الانكليز خشوا ، ان يجعل عبد المجيد مركزه فى حيدر آباد فتجتمع مسلمو الهند من حوله وتخلق هذه المسئلة لهم مشكلاً جديداً ، والحقيقة ان خوف الفريقين بغير محله فلا نظام حيدر آباد مستعد للبذل فى سبيل الدعاية الملكية فى تركيا ولا الخليفة سيكون مركزه فى الهند . ولن يقع انقلاب فى تركيا الا بحوادث غير عاديّة تحصل فى داخل تركيا .ومما يرجح فى العقل أن انقلاباً كهذا لا يقع الا بعد وفاة مصطفى كمال

ثم (ميسور) وهى أرقى مملكة فى الهند وأهلها مختلطون مسلمون وهندوس ، والملك ــ و يقال له مهراجا ــ هندوسى وفيها مجلس ندوة

ثم (كشمير) وعدد أهلها بحسب الاحصاء الأخير أربعة ملايين منهم ثلاثة ملايين ونصف مسلمون ونصف مليون هنادك . ولكن المهراجا هندكى . وهى فى شمالى الهند كما أن ميسور فى الجنوب . وقد حصلت فى كشمير فتنة شديدة بين المسلمين والهنادك فى العام الفائت سببها أن الحكومة التى هى فى يد الهنادك أهانت بعض المسلمين وجرحت شعورهم الدينى وذلك بما قيل انه بعض الشرطة أجبرت أناساً من المسلمين بالسجود للاصنام قهراً لهم فهاج المسلمون فى شمالى الهند وزحفت منهم عصائب على كشمير وأقامتها وأقعدتها ولم تسكن الفتنة الا بدخول جيش انكليزى تمكن من اعادة الراحة بينما الحكومة أخذت تفحص عن شكاوى المسلمين . ولا يزال هؤلاء يطالبون بعزل المهراجا الهندكى وأن يتولى كشمير أمير مسلم بناءً على كون أكثرية كشمير من المسلمين . ولكن ان لزم العمل بهذه القاعدة كان لا بد من فقد المسلمين لعرش حيدر آباد التى فيها المسلمون نحو من مليونين والهنادك ١١ مليوناً

ثم (ترافنكور) وأهلها أربعة ملايين أكثرهم هندوس ومعهم مسلمون ، ولهم مجلس ندوة ، وعليهم مهراجا هندوسى

ثم (بروده) عدد أهلها مليونان هندوس ، ولها مهراجا هندوسى وهى مملكة راقية غنية وفيها مسلمون

ثم (غواليار) وأهلها مسلمون وهندوس ولكن المهراجا هندوسى ، وعدد أهلها مليونان ونصف مليون ، ومكانها فى وسط الهند ، وهى معدودة من البلاد الراقية ، وعندها جيش منظم

ثم (ايندور) وهى فى قلب الهند أيضاً ، وأهلها مليونان هندوس ، وملكهم منهم

ثم (أودبور) التى مر ذكر سلطانها أنه يتقدم جميع ملوك الهندوس وهى فى وسط الهند أيضا .

ثم (رامبور) وهى امارة اسلامية ، عدد أهلها نصف مليون أو يزيدون ، عليهم مالك مسلم يقال له النواب

ثم (جهور) وهى نصف مليون أيضاً ، وأهلها مسلمون لهم نواب

ثم بهوبال وأكثر أهلها هنادك ، ولكن الأمير مسلم ، وكان لهم ملكة يقال لها (بيكَم) ويقال لها الرئيسة كانت متزوجة بالعلامة المجتهد الشهير ذى التصانيف العديدة الممتعة باللغة العربية السيد صديق حسن خان بهادر ، وقد كان فى مبدأ أمره كاتباً عندها ، وقيل ان الانكليز كانوا نقموا على السيد صديق خان كتابات له تثير الهند عليهم فأرادوا قتله فثارت هذه الملكة بهم وذكرت لهم مواقفها فى ثورة الهند الكبرى وانقاذها عدداً كبيراً من الانكليز كان الهنود على وشك الفتك بهم وما زالت بهم حتى أفكَّتْهُمْ عن قتل صديق حسن خان ، وأثبتت ما كان عندها من قوة ارادة

وقد خلفت « البيكَم» المذكورة (بيكَم) أخرى ، ثم ماتت هذه من سنتين وتولى الحكم ابنها الأمير الحالى وهو رجل عاقل محمود السيرة وطنى النزعة ، ولقد كان فى العام الماضى بلندن فى المؤتمر الهندى المسمى بالمائدة المستديرة وقد عرفنا من رجاله الأمير أحمد خان ناظر حربية بهوبال وهو من أماثل من عرفنا من رجال الهند

ثم (بهاوليور) فى شمالى الهند ، عدد أهلها مليون وهم مسلمون ولهم نواب مسلم أيضاً ثم (جبور وجود بور وآلور و بيكانير وجسلمار وكوتا) ، وكلها امارات هندوسية ، وتونك وأهلها مسلمون ، وريفا وبانيالا ونابها وجبن وكولابور وسكانها مختلطون مسلمون وهندوس

وأما القسم الثالث الذى تليه انكلترة مباشرة فعدد سكانه ٢٣٠ مليوناً وأهم بلاده (البنغاله) و (البنجاب) و (اغرا) وولايات (مدراس) و (بمباى)

ولقد آثرنا ذكر تقاسيم الهند هذه ــ ولو بصورة مجملة ــ لأن القارئ قلما يجدها فى الكتب العربية . ثم لأننا أحببنا أن نذكر نسبة عدد مسلمى الهند الى عدد الهندوس . وأن نبين أماكنهم من الهند

الاسلام فى جاوى وما جاورها

للأمير شكيب

١ — المستشرق هورغرونيه وسياسته نحو الاسلام

٢ — مسألة الحضارمة فى جاوى

ولما كان المؤلف أشار فى حاشية كتابه الى تسرب الاسلام من الهند الى جزائر الأوقيانوس واستيلائه على جزيرتى جاوى وسومطره العظيمتين رأينا من الضرورى أن نقول كلمة فى هذا الموضوع وهى :

ان الاسلام بدأ ينتشر فى هاتيك الجزائر فى أواسط القرن الثامن للهجرة أو القرن الرابع عشر للميلاد وفى بلدة (غريزيك) من بلاد سورابايا من الجاوى قبر مولانا ملك ابراهيم أحد كبار المجاهدين الذين سبقوا الى نشر الدعوة الاسلامية فى تلك الجزر القاصية ، ووفاته وقعت فى ١٢ ربيع الأول سنة ٨٢٢ الموافق ٩ ابريل سنة ١٤١٩ ، وكذلك فى بلدة « بازه » قبر (الأمير محمد بن عبد القادر) من ذرية (الخليفة المستنصر العباسى) توفى فى ٢٣ رجب سنة ٨٢٢ الموافق ١٥ أغسطس سنة ١٤١٩ . وما زال الاسلام يتغلب فى هاتيك الأقطار حتى بلغ عدد المسلمين فيها ٣٥ مليوناً أى نحو نصف عدد مسلمى الهند وهم فى الفقه على مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه

وهذا الاحصاء هو الاحصاء الرسمى الهولاندى منذ نحو ١٥ سنة ، فلا بد أن يكون عدد المسلمين ازداد اليوم على ما كان فى ذلك التاريخ ، ولقد نشرت (مجلة العالم الاسلامى) الفرنسوية فى سنة ١٩١١ أربع محاضرات على سياسة هولاندة الاسلامية للعلامة المستشرق الهولاندى (سنوك هورغرونيه) مستشار نظارة المستعمرات الهولاندية فى المسائل الاسلامية والعربية وهو من الافذاذ الذين وقفوا على أحوال الاسلام عموماً و بلاد الجاوى خصوصاً وأقام بتلك الديار ١٧ سنة فتل فيها أمورها علماً ، ويقال انه دخل مكة والمدينة

فى موسم الحج متنكراً فهو الذى يحقق فى تلك المحاضرات أن عـدد المسلمين الخاضعين فى جزائر الاوقيانوس ، لسلطة هولانده هو ٣٥ مليون نسمة وقـد ازداد هـذا العدد كثيرا حتى بلغ الاحصاء الاخير خمسين مليوناً أى فى سنة ١٩٣٢ بلغ مسلمو المستعمرات الهولاندية هذا العدد ، وكانوا من ١٢ سنة ٤٥ مليوناً ، فتكون زيادتهم فى هذه الاثنتى عشرة سنة خمسة ملايين نسمة ، فأنت ترى أن عدد ٣٥ مليوناً هو قديم العهد قد يكون بموجب احصاء مضى عليه ثلاثون سنة بالاقل

وفى السنة الماضية نشر « جورنال دوجنيف » رسالة لمكاتب له كان فى بلاد الجاوى واطلع على أحوالها اسمه المسيو « بول بوردارى » Paul Bourdarye زعم فيها أن الاحصاء الذى أجرته الحكومة الهولاندية سنة ١٩٣٠ أثبت أن عـدد المسلمين فى مستعمراتها تزايد جداً وأنه بلغ الآن ٦٤ مليون نفس وعليـه فخطأ محض احصاء بعضهم مسلمى تلك الجزائر بعشرين مليوناً كما رأيت مرة فى احدى المجلات العربية المطبوعة بمصر

وكان لهؤلاء المسلمين هناك سلاطين وأمراء مستقلون فما زالت هولاندة تتغلب على واحد بعد واحد منهم حتى أخضعتهم لسلطانها تماماً ، وكان استصفاؤها بقيـة استقلالهم فى اخضاع توانغ كو محمد داقوت سلطان آتشه الذى دخل تحت حماية هولاندة سنة ١٩٠٣

ولقد كان انتشار الاسـلام فى تلك الديار ـ بحسب تحقيقات العلامة هورغرونيه ـ بواسطة تجار مسلمين طرأوا عليها من الهند مقتفين آثار تجار الهندوس الذين كانوا يترددون الى تلك البلاد ويطبعون أهلها بطابع مدنيتهم البرهمية ، فجاء الاسلام واستمالهم اليه وما زال يتقدم فيهم حتى غلب على جميعهم تقريباً ، كل ذلك بطرق سلمية ، وبدون أدنى قهر ولا عنف منها الا ما حصل من أهالى شرقى جاوى الذين غلبوا بعض مجاوريهم بالقوة فمن جاوى امتد الاسـلام الى سومطره والى قسم من بورنيو وسيليب والجزر التى الى الشرق . وابن بطوطة الرحالة الشهير امتدح ملك سومطره فى القرن الرابع عشر بأنه جاهد فى الكفار .

ولم يزل الاسلام ينتشر فى البقايا الباقية على الوثنية حتى احتج كثير من الهولانديين على تساهل الحكومة الهولاندية فى ذلك وكيف انها تسمح للاسلام باكتساب هذه البقايا . وأكثر من صخب لذلك هى جمعيات التبشير المعهودة ، ولكن المستشرق هورغرونيـه يفصل هذه المسئلة بالكلام الآتى مترجما عن محاضراته السابق ذكرها :

« يجب على الحكومة أن تحذر من وضع كثير من المأمورين الوطنيين الذين يدينون بالاسلام فى البلدان التى أهلها وثنيون لئلا تكون قد ساعدت على نشر الاسلام بدون قصد منها . وهذا المحذور قد وقع فيه الألمان أنفسهم فى المستعمرات الألمانية بشرقى افريقية . ولكن الخطر عندنا أعظم لأن المأمورين الوطنيين من أهل الجاوى هم فى الغالب من المتعلمين والمطلعين على أصولنا الادارية ، وليس عندهم تعصب مفرط فى الدين ، فلا يسهل الاستغناء عنهم ، وقد تميل الحكومة الى استخدامهم ، فلا ننكر أنه مع تمادى الزمن يؤثر وجود هؤلاء المأمورين المسلمين فى مسألة نشر عقيدتهم بين الوثنيين كما يؤثرجولان التجار المسلمين فيما بينهم . ولعمرى لا يمكن منع هؤلاء التجار أن يجولوا فى تلك الديار بحجة أنهم يدعون الى الاسلام اذ يكون ذلك عملا مخالفا للعدل ، ولكن يجب تدبر الأمر واستعمال الحكمة فيه بحيث لا نكون نحن قد ساعدنا بأنفسنا على اسلام غير المسلمين »

فأنت ترى أيها القارئ أن العلامة هورغرونيه ـ الذى هو معدود فى الأقلين تعصبا، والذى من أول محاضراته الى آخرها ينبه حكومته الى خطر الانقياد الى طلب جمعيات التبشير المسيحية من جهة الضغط على حرية الاسلام الدينية ـ هو نفسه يحذر نفس تلك الحكومة من استكفاء المأمورين المسلمين مدة طويلة فى بلاد الوثنيين ، ولو لم يكن عندهم تعصب مفرط ، لئلا يؤثر ذلك فى عقائد الوثنيين فيشرح الله صدورهم للاسلام . و بعبارة أخرى ان مصلحة هولانده ـ وأوربا كلها ـ تقضى بترجيح بقاء الأهالى وثنيين على أن يصيروا مسلمين . هذا ظاهر لا يقبل أدنى جدال . فهل ياترى يجهل الأوربى أن نقل الانسان من عبادة الصنم الى عبادة الواحد الأحد هو أولى بالانسانية وأجدر بأن يكون هدف مساعى الأمم المتمدنة ؟ كلا . لا يجهل الأوربى ذلك ولكنه يعلم جيداً لاسيما المستشرق العظيم الذى هو مثل هورغرونيه أن الاسلام لا يجتمع مع الذل فى قلب واحد ، كما جاء فى العروة الوثقى بقلم جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، وأن الشريعة القرآنية قد ضمنت لمتبعها كل شروط الحرية وانتظمت له جميع أسباب الاستقلال ، بحيث لا يقدر أن يحكم فى رقبته أجنبياً الا اذا مرق من أحكام تلك الشريعة . فلذلك لا يجتمع حب الاستعمار الأوروبى والميل الى الاسلام فى قلب واحد لأن المستعمرين يعلمون ماوراء الأكمة ولذلك أهم شئ

تناصبه الدول المستعمرة الحرب هو نشر الدعوة الدينية وحفظ الشريعة الاسلامية والأخذ بعزائم الاسلام . وان كان بعض عقلائهم مثل هورغرونيه ينصح باعطاء الحرية الدينية وينهى عن التعرض للمسلمين فى عقائدهم فذلك انما هو من خوفهم الثورة والانتقاض ووقوع الدول المستعمرة فى المقيم المقعد من جراء هذا الأمر ، فترى مثل هذا النفر ينصحون بالاعتدال وعدم مصادمة المسلمين فى عقائدهم من باب اختيار أخف الضررين لا غير ومع ذلك فلا يطلقون هذه الحرية على أرسالها بل يجعلون الحذر لها رقيباً والاحتياط رائداً ، وبالجملة فيجتهدون بأن تكون مقاومتهم للاسلام فى الأمور السياسية علنية لاضراء فيها ، وأما فى الأمور الدينية فيجعلونها خفية لا مجاهرة فيها بحيث لا تدعو الى الاضطراب ولا تبعث على الانتقاض

هذه هى سياسة العقلاء من المستعمرين ، فأما سياسة المتهورين فهى معلومة لاحاجة الى الكلام عليها لا تعرف لمسلم حقاً ولا حرية وقد اعترف العلامة هورغرونيه بأن حزباً فى هولانده ممالئا لجمعيات التبشير يحث الحكومة أن تحمل مسلمى الجاوى على النصرانية فبين الخطر العظيم من ممالأة جمعيات التبشير على مساعيها هذه فى تنصير المسلمين وطعن فى مزاعم بعض النواب فى الندوة الهولاندية كون اسلام أكثر أهل الجاوى والجزائر النيرلاندية لا يزال اسمياً فلا بأس بمعاملتهم بغير ما يعامل به المسلمون وقال : ان هذا القول هو فى منتهى الحماقة وانه يجب على كل وطنى هولاندى يهمه مستقبل وطنه أن يرده بتاتا ويحذر الحكومة من سوء عواقبه . وهو ينبه الى كون الضغط يورث الانفجار . وأن حكومة هولانده كما أنها متهمة عند جمعيات التنصير بالتسامح مع المسلمين فهى متهمة لدى المسلمين باضطهاد الاسلام فلا يجوز أن تؤيد بعملها حجة من يرمونها بذلك .

ومن رأى هذا العلامة أن الحكومة الهولاندية تخطىء اذا أقامت عقبات فى طريق الحج لا سيما أن مسلمى الجاوى وسومطره هم أشد المسلمين محافظة على هذا الركن من أركان الدين وأن تصعيب الحج عليهم لا يأتى هولانده بغير اثارة الخواطر وقلق الأفكار وهو يرد على بعض النواب الهولانديين الذين يسترسلون الى الخيالات من أمر الحج ويظنون أنفسهم قد أحسنوا صنعا فى حمل الحكومة على منع الحج أو تصعيب سبيله . ويقول : ان على الحكومة الهولاندية أن تسلك سبيلا وسطا فلا تحث على فريضة اسلامية

ولا تنهى عنها . وأنها قد أحسنت صنعاً فى الطريقة التى اتبعتها فى فريضة الزكاة فقد أعلنت أنها تعتبرها من قبيل الصدقة الاختيارية فلا تحمل عليها أحداً بالقوة ولا تمنعها بالغوة .

وأما من جهة القضاء فهو يذهب الى عدم سن قوانين مأخوذة من الشريعة الاسلامية كما خطر ببال بعضهم بل ينبغى حمل المسلمين على القانون الهولاندى الا ما تعلق بالأحوال الشخصية كالنكاح والطلاق والميراث فهذه يجوز أن تفصل بحسب شريعتهم . وغرضه من ذلك عدم تقوية هذه الشريعة التى يحول تطبيقها بأسرها دون الصبغة الأوربية التى ينبغى أن تكون مجاهيد هولانده مصروفة الى نشرها تدريجاً . فان هورغرونيه يقول : ان سلامة المستعمرات الهولاندية متوقفة على نشر المدنية الغربية والثقافة الهولاندية فى مسلمى تلك الجزائر الى أن يصيروا فى هذا الباب كالهولانديين أنفسهم فيكون هولانديون فى الشرق كما يكون هولانديون فى الغرب ولا يرى ذلك مستحيلا ولا يجد الاتحاد فى الدين شرطا فى اتحاد الوطنية بل يقول : انه كما لم يمنع اختلاف الهولانديين البروتستانت مع الهولانديين الكاثوليك والهولانديين اليهود ثم مع الملاحدة والمعطلة من الهولانديين ان يكونوا جميعا أمة هولاندية فلا يمنع اختلافهم فى الدين مع مسلمى الجاوى وسومطره أن يكون هؤلاء فى يوم من الأيام وطنيين هولانديين وذلك بحمل هؤلاء المسلمين على الثقافه الهولاندية التى تتغلب فى نفوسهم على أثر الدين . وهو يتمشى فى جميع آرائه على هذه النظرية ، وكأنه يعلم أن مهاجة المسلمين من جهة العقيدة رأسا أمر عقيم لا يأتى بأدنى فائدة ، ولايعود على هولانده الا بالضرر ، فلا يألو جهداً فى تحذير قومه من سلوك ذلك المسلك الصعب ، ويشيرالى صبغ الأمة الجاوية بالصبغة الهولانديةمن طريق العلم والتربية .

أما حيث تجد هورغرونيه متشدداً الى الدرجة القصوى فهو فى السياسة الدولية فانه ينبه جهاراً بدون أدنى محاباة الىقطع كل علاقة سياسية بين الجاويين وسائرالحكومات الاسلامية ، لأنه يقول ان الخلافة ليست عبارة عن بابوية لا شأن لها فى السياسة بل هى رئاسة سياسية من أراد الاعتصام بها من المسلمين لم تمكنه طاعة حكومة مسيحية .

وهو يتاسف من كون مسلمى تلك الجزائر مقلدين فى دياناتهم وعاداتهم وآدابهم مسلمى مصر وحضرموت وجزيرة العرب ، عاكفين على مطالعة التآليف التى تحرر فى البلاد العربية ،

وأنه الى اليوم لم يوجد عاطفة جاوية قومية تناهض هذه النزعة الدينية العربية

يظهر من هنا اتفاق الاوربيين على بث روح القومية بين أمم الاسلام أملا بتشظية عصا الجامعة الاسلاميه . فاننا قد رأينا أثر هـذه السياسة فى مواضع كثيرة من بلاد الاسلام فكأن الاوربيين يرون خطر القومية أخف جدا من خطر تلك الجامعة — ولذلك هو يرى أن لاهوادة مع المسلمين الجاويين فيما لو أرادوا أن يتضامنوا فى السياسة مع سائر مسلمى المعمور وأنه يجب منع قناصل تركيا الذين يتمثلون هناك بصفة وكلاء دولة الخلافة من أية مداخلة كانت مع الاهالى . وأغرب من هذا أنه ينصح بمنع الاشتراك فى الاعانات لسكة حديد الحجاز وعدم اباحة أية اعانة كانت لجرحى العساكر العثمانية أو لأرامل جنود الاتراك وأيتامهم — يقيم النكير على ذلك بكل تصريح وينسى مافى ذلك من مخالفة مبادىء الانسانية — ويحث حكومته على منع ذكر السلطان العثمانى فى خطبة الجمعة وعلى مراقبة التعليم الدينى حتى لايقع فيه شىء من الدعوة الى اتحاد الاسلام — وكأنه يريد أن ينحصر فى المواعظ وأحكام الصلاة وذكر نواقض الوضوء مثلا — ويطلب حذف باب الجهاد من الشريعة وبالاختصار فهو مع ماانصف به من الاعتدال يريد أن يمحو أثر كل تضامن اسلامى مع المسلمين التابعين لهولانده ، وأن ينسخ من التعليم الاسلامى كل مافيه رائحة الدفاع عن الامة ، وفى هاتين النقطتين لايرعى فى المنام خليلا ...

ثم ان هناك مسئلة مهمة يقال لها مسئلة الحضارمة ، وهذه تكربث الحكومة الهولاندية اكثر من كل مسئلة سواها فى الجاوى لأنه معلوم كون اهل حضرموت من أقدم اهل الارض على الاسفار ، وان فقر بلادهم مع مضاء عزيمتهم يحملانهم على جوب الآفاق ، واكثر ماينتشرون فى جزائر الجاوى والبحر المحيط ، فكانت الحكومة الهولاندية تحسب لهم حساباً كبيرا واشد مايضيق صدرها بهجرتهم الى تلك البلاد خشية أن ينشروا الدعوة الاسلامية أو ينبهوا الاهالى السذج الى الامور التى لولا الحضارمة ربما لاينتبهون اليها ، فما زالت تضع الحواجز امام نزولهم فى تلك الديار وتراقب حركاتهم وسكناتهم ، وهى تحتج لذلك بكونهم فى الاكثر أفاقين لايأتون الى الجاوى بشىء من رؤوس الاموال وانهم هم يمنعون غير المسلمين من دخول بلادهم حضرموت فلا يحق لهم اذاً ان يطالبوا بدخول بلاد هولانده — لأن جزائر الجاوى وسومطره وبورنيو وملحقاتها هى ملك هولانده وهى أولى من الاهالى ببلادهم ...

— و بناء على ذلك فقد ضويق الحضارمة وغيرهم من العرب فى قضية المهاجرة الى المستعمرات الهولاندية أو النيرلاندية كما يقولون ولكن لم تخل الحال من كون كثيرين من الحضارمة تمكنوا من الدخول وأوطنوا تلك الديار وصاروا من اهلها ، فترتب على ذلك ان الحكومة الهولاندية التى هى من الاصل غير مرتاحة الى وجودهم بين مسامى الجاوى لكيلا تسطو حصافتهم على سذاجة هؤلاء ويوقظوهم من غفلتهم التى هى درة الحلب الاستعمارى قد جعلت تضيق عليهم فى غدواتهم وروحاتهم وتنغص عليهم عيشهم وتفعل ما شاءت لتحملهم على ترك تلك الديار

فالاستاذ هورغرونيه يتكلم على هذه المسئلة بما يلى ترجمته :

« ان عدم قبولنا للحضارمة من الاصل لم يكن مخالفاً للعدل وكانت له اسباب يمكن أن يبنى عليها ، فلم تنتبه له الحكومة ، وسمحت لهؤلاء بالدخول على شروط يسهل عليهم القيام بها . لكنها بعد ان سمحت لهم بالاقامة جعلت تراقب حركاتهم بصورة لا تطاق ، وربما كان لسياسة المأمورين الذين تختلف انظار بعضهم عن بعض فى الشدة وعدمها مدخل فى تشديد هذا الخناق على الحضارمة بحيث أصبح العربى هناك لا يملك شيئا من الأمان على حاله واستقباله . فاضطر بعض ذوى الشأن من هؤلاء العرب الى رفع امرهم الى الخلافة (تركيا) وملأوا الجرائد الاسلامية بشكاويهم حتى يتمكنوا من تنفيس الخناق الذى هم فيه ويتعاطوا تجاراتهم ومرافقهم بدون تلك القيود الثقيلة التى هى حجر عثرة فى سبيلها ، ولكن مما لاريب فيه ان تلك الشكايات فيها مبالغة كبيرة »

ومن شاء التوسع فى هذا الموضوع ومعرفة ماهى عليه حالة اسلام الجاوى وماهى سياسة هولانده هناك وكيفية نظرها الى مستقبل تلك المستعمرات ، اذ كانت كل دولة مستعمرة لا يهمها شئ مثل الاستيثاق من مستعمراتها والأمان الأبدى عليها ، فعليه بمطالعة مجموع المحاضرات التى القاها هذا الاستاذ والتى تجد فى آخرها جملة لا بأس بنقلها وهى :

« ان الاسلام والنصرانية يمكنهما الاجتماع واحتمال احدهما الاخرى فى ممارسة الحياة الوطنية على شرط أن يمكن رفع فكرة الاتحاد الاسلامى . ولقد رأينا مقدار مساعدة الأحوال لنا فى تحقيق مشروع ادخال المسلمين الجاويين فى الامة الهولاندية بدون اثارة المسئلة الدينية .

ولعمرى ان كثيرين منا يمكنهم أن يأخذوا دروساً من التساهل الدينى عن اولئك الاهالى »
وكفى بهذا شهادة

***

وقد اعتنى علماء هولاندة جد الاعتناء بتمحيص تاريخ الجاوى وجغرافيتها نظراً لكونها من أبدع وأغنى بلاد الله ولكونها من هولاندة بمكان الهند من انكلترة فألفت على تلك الجزر مئات من الكتب والرسائل ونحن لا ننقل هنا سوى ما تعلق بدخول الاسلام فيها وأحوال المسلمين على وجه الاجمال .

قالوا ان الذين أدخلوا الاسلام الى تلك الجزر هم العرب وذلك بواسطة التجارة والملاحة فانهم نزلوا أولا بالثغور البحرية و بالمراسى الشهيرة وأخذوا ينتشرون منها شيئاً فشيئا الى الداخل وكانوا لا يلوون على شئ سوى الأخذ والعطاء ولم يظهر أصلا انهم قصدوا بادئ ذى بدء تأسيس ملك ولا فتح بلدان ولكن عند ما صارت الأمة المالزية تناظرهم وتسد عليهم طريقهم التجأ هؤلاء العرب الملاحون المرابحون الى القوة المسلحة حفظا لحريتهم و وقاية لمرفقهم فكانت مملكة دماك Demak وهى أول فتح عربى فى الجاوى .

وكان جغرافيو العرب قد عرفوا من زمن قديم بلاد ماليزيه وثبت انه فى القرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر طاف كثير من سياح العرب فى سواحل الهند والصين والجزر المالزية . قال المسيو بيارغونو Pierre Gonnaud صاحب كتاب « الاستعمار الهولاندى للجاوى » ان المدينة الاسلامية فى القرن العاشر كانت تلمع باسطع أشعتها وكان الخليفة يتولى سلطنة قوية سعيدة وكانت من جميع الجوانب تمتد طرق التجارة فيتلاقى فى وسط مملكة الخليفة الشرق والغرب وقد أحصيت تلك الطرق بين الغرب والشرق فكانت خمسا الاولى من البحر الاحمر الى الحجاز وجدة الى السند والهند الى الصين والثانية من انطاكية الى بغداد الى الابلة الى الهند والثالثة من جهة بحر الخزر الى الشرق والرابعة كانت تبدأ من طنجة فى الغرب فتخترق أفريقية الشمالية الى مصر الى الشام الى بغداد فالبصرة فالاهواز ففارس فكرمان الى السند فالهند فالصين والخامسة كانت شمالية تبدأ من ألمانية فتمر بالروسية الى بلاد ماوراء النهر الى الصين . وكان انتشار قوة الاسلام اقتضى توسع المعلومات الجغرافية فوجه زعماء الاسلام عنايتهم الى جوب جميع البلدان التى

دخلت فى حوزتهم ولقد أصاب المسيو رينو Reinaud فى قوله : « ان فتوحات الاسلام الأولى تأتت بدون برنامج معين وعلى طريق الاتفاق ولكن كان المسلمون كلما فتحوا قطراً حددوا حدوده وخططوا مسالكه واجتهدوا فى معرفة موارد حياته .

ثم قال ان المسعودى قد عرف الجاوى وذكر استيلاء الهند على الجانب الغربى منها وأشار الى وفرة الجبال النارية فيها . ومما قاله : انه لا يمكن معرفة حدود سلطنة مهراج الزيج أو الجاوى وجيوشه لاتحصى وينبغى للانسان مسير سنتين حتى يأتى على جميع ممالكه . وفى بلاده جميع أنواع الأفاويه والعطور مما لا يوجد عند ملك غيره ويصدر منها الكافور والطيب والقرنفل والصندل الخ وممالك المهراج يحدها بحر لا آخر له يتصل ببلاد الصين. انتهى

فكانت الجاوى يومئذ معدودة فى ممالك الهند وفى القرن الحادى عشر والثانى عشر ازدادت الفتوحات وازدادت معارف المسلمين الجغرافية وأصبح الارخبيل المالىزى معروفا ومنذ أوائل القرن الحادى عشر ظهرت روح الدعاية الدينية بشدة عظيمة فى الحروب الصليبية واشتدت المصارعة بين جنود الخليفة والبارونية الافرنج . الى أن قال : انه فى القرنين التاليين صارت الدولة ملوك طوائف وانفصلت بعضها عن بعض وتغيرت الطرق التى كانت بين المشرق والمغرب وساقت هذه الأحوال مهاجرى العرب الى بحر الهند . وفى القرن الحادى عشر زار أبو الريحان محمد الهند وكتب عنها . وفى العصر الذى يتلوه كان الادريسى فى بلاط روجر صاحب صقلية وكان يأخذ عن تجار العرب الذين يترددون على بلرم وهو أول من سمى باسم المالىز أحد الشعوب الساكنة فى الجاوى . وذكر ما بين هذه الجزيرة وجزيرة ماداغسكر من العلاقات ووحدة الجنس . ولكن لسوء الطالع كانت معلوماته فى الاطلس الجغرافى لا تزال على ما كانت عليه معلومات بطليموس فكان يجعل قارة افريقية ممتدة جداً الى الشرق . على أن هذا الأطلس نفسه الذى أنبأنا عنه المسيو رينو يدل على التبسط العظيم الذى تبسطه العرب فى جميع أصقاع الاقيانوس الهندى ونقل ابن سعيد (أبو الحسن نور الدين على) المولود سنة ١٢٧٤ أخباراً كثيرة عن رجل اسمه ابن فاطمة ساح فى سواحل افريقية الغربية حتى بلغ الرأس الأبيض وطاف فى السواحل الشرقية حتى بلغ سوفاله . ونحن نعلم أن السواحل الشرقية هذه كانت دائماً محط رحال العرب وانه كان فى أواخر القرن الخامس عشر فى ساحل موزامبيق جالية اسلامية جليلة عاكفة عن أشغال البحر

بصيرة جيداً بمهاب الرياح ومجارى الأبحر المجاورة و بين أيديها خرط بحرية وآلات متنوعة متعلقة بصنعة الملاحة . وأحسن من وصفها بلاد الجاوى من هؤلاء الجغرافيين أبو الفدا فمع كون معلوماته ليست فى نهاية التمحيص فلم يكن أحد ليقدر على ما يقدر عليه فى وقته من الاطلاع والتنقيب فقد حج الى مكة ثلاث مرات وعرف الشام والعراق وكان كثير الاختلاط بصاحب الديار المصرية فاطلع على أحوال الجاوى والجزر المجاورة لها ونشر كل ما عنده من العلم فى عصره عن هذه الجزر العجيبة فقال ان الجاوى لها عدة أسماء . وذكر ابن سعيد ان جزائر الرانج اشتهرت بما روى عنها التجار والسياح . وأكبرها جزيرة السريرة التى طولها أربعمائة ميل من الشمال الى الجنوب وعرضها مائة وستون ميلا الخ . ثم يقول أبو الفدا : فى جنوبى الاقليم الأول جزيرة كبيرة فى البحر الأخضر ذكر ابن سعيد أن سلطانها لا يوجد له نظير فى ملوك الهند فى كثرة الكنوز والذهب والأفيال وقاعدة ملكه فى الجزيرة الكبرى وقال المهلبى ان جزيرة السريرة معدودة من الصين الخ .

وبالاختصار فالى عهد استيلاء الأوروبيين على هذه الديار كان العرب لهم معرفة تامة بها وبخيراتها وبممالكها وبالبراكين التى فيها وكانوا يعلمون أن فيها ممالك عظاما مثل مملكة المهراج يصفها ابن خرداذابة وأبو الفدا بسعة الملك والحول والطول . ولما وصل العرب الى تلك الجزائر لم يفكروا فى فتحها بالسيف كما فتحوا آسية الصغرى وأفريقية وأسبانية لأنه لم تكن بأيديهم قوة كافية بازاء هاتيك الممالك وانما كانوا تجاراً ومرتزقين منتشرين هنا وهناك ولكن كما قال فان دربرغ van der Berg صاحب كتاب «حضرموت والمستعمرات العربية فى الارخبيل الهندى» : لما كانوا أعلى درجة فى المدنية من أهل تلك الأقطار جعلوا لأنفسهم مقاماً ممتازاً حفظوه الى يومنا هذا فى وسط الشعوب الآسيوية التى انتجعوا بلادها . وهذا المقام العالى الخاص بهم الذى له أسباب خلقية وطبعية انضمت اليها عوامل أخرى تجارية ومزايا كسبتهم اياها الاغتراب وطول السفار هى التى كانت الأصل الأصيل فى نجاح العرب وفلاحهم وتبسطهم من السواحل الى الداخل ونشر عاداتهم وعقائدهم حيث نشروا تجارتهم . اهـ .

قال المؤرخون الأوربيون : لم تكن العلاقات التجارية مهما كثرت وانتشرت لتكفى فى نيل العرب هذه السيادة الاجتماعية والأدبية على جزائر عظيمة كهذه فياضة الخيرات

زاخرة العمران بل كانت معهم قوة أعظم من هـذه وهى قوة العقيدة المحمدية التى هى من الجلاء والبساطة بحيث يفهمها الخاص والعام وما لا يشك فيه أنها متضمنة فضائل لم تكن فى دين من الأديان المعروفة فى الجاوى فقد كانت البراهميـة والبوذية هما الديانتين السائدتين هنالك وهما عبارة عن تمجيد متصل لقوى الكون ومجادلة دائمة بين مصدرى الخير والشر فكان فى ذلك من التعقيد وصعوبة التفهيم ما فيـه لأن هـذه العقائد تسلم بوجود الهين متساويين فى القوة بأيديهما ادارة المخلوقات أحدهما للنفع والآخر للضرر فكانت تضل الافكار وتقسم قوى النفس البشرية وتساعد على تعـدد النحل وتدفع بعضهم الى ناحيـة براهما والآخرين الى ناحية سيفا أو فشنو وتحمـل المعتقدين على اختيار الآلام وحب العذاب وعدا ذلك فان فى هـذه الديانات من تفاوت الطبقات ووضع بعض الناس فى أعلى عليين و بعضهم فى أسفل سافلين ما يحرم المعتقدين من كل مساواة حتى فى الحضرة الالهيـة. فالدين الاسلامى أتى أهالى الجاوى بما كانوا يشعرون بالحاجة اليه من المساواة التامة فضلا عن كون عقيدته صافية واضحة مختصرة سهـلة الشعائر تنحصر فى الايمان بالله واحد أوحى شريعته الى الخلق بواسطة واحد من رسله. فخلص النـاس بذلك من هذه الثنائية التى تجعـل قوتين خالقتين فى صراع دائم وتحير الأفـكار وتقلق الخواطر. فالاله الاسلامى واحد لا شريك له مهيمن على الخلق وجميـع الناس أمامه سواء ولديه صلاة الصعلوك كصلاة الملك فلا درجات ولا طبقات ولا فواصل غـير قابلة للوصل بين العباد. وهو أكثر ملاءمة لوجود حكومات متحدة قوية ذات مركز واحد مما كان يحن اليه أهالى الجاوى من زمن طويل وحسبك أن الاسلام كله ينحصر فى كتاب واحد هو القرآن فاذا كان البراهمى يعيش بين الأمم الغريبة منفرداً لاهم له فى التأثير فيهـم ولا فى حملهم على مشاطرته تلك السعادة التى يرى نفسه متمتعاً بها وكان البوذى لا يرى تحقيق نعيمه الا فى التأمل والتبتل والرهبانية فان السائح المسلم فى أى بلد وجد وقرآنه بيمينه يمكنه أن يعلم من اختلط بهم ديانة سهلة الفهم سهلة الدخول فى العقل من شأنها بث الدعوة ومن فضائلها النشاط والعمل والاختلاط مع سائر البشر وزد على ذلك أن المدنية الاسلامية كانت أرقى جدا من مدنية أهل الجاوى وان العرب لما وطئوا هاتيك الشواطئ جاءوا بمعلومات قيمة كانت مجهولة عنـد الجاويين وأهل الشرق الأقصى مثل علـم الهيئة والتقويم والجغرافية والعروض والأطوال

لتحديد الأقاليم وكان فن الملاحة بالغاً عند العرب الدرجة العليا من الاتقان وكانوا قوامين على الاسفار خبيرين بأحوال الأمم ويقال انهم كانوا عرفوا ابرة المغنطيس وكانوا ينشئون الجوارى كالأعلام ويقطعون البحار بمزيد الجرأة والاقدام وكانت لهم خبرة زائدة بالطرق البحرية والمراسى ونقاط الحط والاقلاع حتى كان السياح الاوربيون لأول عهد دخولهم الى آسية مفتقرين اليهم [1] وقد خلق العربى تاجراً بفطرته خبيراً بالعمليات المالية والحسابية وبأساليب الأخذ والعطاء فتعلم الماليزيون من العرب أصول التجارة وطرق البيع والمساومة وطريقة تحديد أثمان الحبوب والبضائع وتأسيس المستودعات التى هى الواسطة بين الزارع والصانع وبين التاجر والمشترى وطريقة السفتجة أو الحوالة التى كانت عند العرب كما هى عند الاوربيين اليوم .

فلهذه الأسباب انتشرت فى الجاوى عقيدة الاسلام وحضارته ومع شدة تأثيرها كان سيرها بطيئاً فى البداية وما عمت الجزيرة كلها حتى وحتى . كذلك لم يكن نجاحها متساويا فى جميع آفاق الجزيرة فيوجد فرق بين غربى الجاوى وشرقيها كما قال الدكتور شريبر Schreiber لأن الاسلام كان أسرع تقدماً فى الجهة الغربية بين الجنس المسمى بالسوندانى منه بين الجنس الجاوانى والى هذا اليوم تجد السوندانيين أشد تمسكا بدينهم وأعرف به من الجاوانيين الذين فى الغالب لا يعرفون القرآن وكذلك ترى النصرانية لم تجد من سهولة الانتشار بين السوندانيين ماوجدته بين الجاوانيين الا أن هذا الفرق نفسه قد بدأ يضمحل اليوم برسوخ الاسلام فى شرقى الجاوى كما هو فى غربيها .

ولم تتوفر عناية العرب فى الجاوى على تشييد المبانى الدينية الضخمة كما كان شأن البراهمة والبوذيين بل كان معظم همهم فى الفتوحات الروحيـة فليس فى الجاوى ما فى سائر البلاد الاسلامية من المساجد التى تبهر الأنظار ببديع الصنعة وفخامة البناء ولكن الجوامع كثيرة العدد ولا يخلو منها بلد وعدد الذين يحجون بيت الله الحرام كل سنة كثير جداً ولقب « حاجى » هو فى نهاية الاعتبار .

يقدر المؤرخون تاريخ دخول الاسلام فى الجاوى بخمسة قرون تبتدئ من القرن الثانى عشر الى أن تنتهى باحتلال الهولانديين لبتافيا فى القرن السابع عشر . وقد حقق

(١) مثل ابن ماجد الذي كان دليلا للبرتقال

المؤرخ فت ٧٥٠ ان المسلمين لم يقتصروا على فتح الجاوى الأدنى بل نشروا المدنية الجاوانية الى أقصى جزر الارخبيل .

وكانت أعظم سلطنة هناك مملكة « ماجاباهيت » كانت تنضوى تحتها امارات عديدة فلما جاءت الدعوة الاسلامية أخذ أولئك الامراء والمهراجات يولون وجوههم شطر الاسلام فكان كلما كسب بلداً انتقل الى الذى بجانبه فاستصفى مملكة ماجاباهيت ودخل الى المالانغ ثم الى بلاد السوند وأخذ يزداد عدد المسلمين يوماً فيوماً وكانت ثروتهم تنمو بنمو عددهم وهم دائما فى علاقات مع تجار العرب الذين كانوا أول ما ينزلون فى سواحل الجاوى الشمالية وما زالوا يتكاثرون هناك حتى أسسوا سلطنة دماك .

وكانت ما جاباهيت هذه أول سلطنة هندية سقطت بعلو الاسلام فى تلك الديار وكانت واسعة الأطراف تشتمل على الأقسام الجنوبية والشرقية من الجاوى يحدها من الغرب بلاد جانقاله وغريس ومن الشرق بلاد تنغر ولكن نفوذها كان يمتد الى بلاد « ماتارام » والى حدود مملكة « باجاجاران » وكانت فيها حواضر عظام مثل مدينة ماجاباهيت ومدينتا « برانبانان » و « مندويت » ولكن الاسلام تمكن منها بسهولة واشتهر فى نشره هناك حسين الدين حليف سلطان دماك ففى سنة ١٤١٨ من التاريخ الجاوانى الموافق ١٤٨٨ من التاريخ المسيحى دخلت سلطنة ماجاباهيت فى خبر كان . وأعظم سلطنة تأسست للاسلام فى الجاوى كانت فى قطر ماتارام وقد بقيت فى شوكتها الى القرن الثامن عشر فبدأت تتساقط تحت هجمات الهولانديين .

فالعرب لم يؤسسوا فى الحقيقة سلطنة اسلامية جامعة فى بلاد الجاوى لأنه كان يحول دون اتحاد السلطنة هناك حوائل كثيرة وانما أسسوا هيئة اجتماعية اسلامية مانعة يمكنها أن تبقى ثابتة من فوق الممالك المتداعية الى السقوط فالآن يوجد امة ماليزية محمدية قد وحد الاسلام بين اجزائها واورثها قوة جعلتها تقف فى وجه الغرباء الذين حاولوا فك أوصالها ومكنتها تمكيناً فى تلك الأرض فليس فى الجاوى قوة سواها (عن بيار غونو ملخصاً) .

أما جزيرة الجاوى فهى معدودة من ارخبيل السوند تنفصل شمالا عن جزيرة بورنيو ببحر الجاوى وغرباً عن سومطرة ببوغاز السوند وشرقاً عن بالى ببوغاز بالى وامامها من الجنوب الاوقيانوس الهندى وموقعها بين ٥ ر ٥٢ و ٨ ر ٤٦ من العرض الجنوبى و ١٢٠ر٤٠

و١١٢ من الطول الشرقى طولها الف كيلومتر من الغرب الى الشرق وعرضها من ١٠٠ الى ١٥٠ كيلو متراً من الشمال الى الجنوب ومساحتها مع « مادوره » مئة و واحد وثلثون الفا وخمسمائة كيلومتر . وفيها جبال كثيرة و برا كين متأججة وجبالها مغطاة بالأشجار وفيها معادن غير مستخرجة وسهولها خصيبة ترويها المياه السائلة من الجبال وهواؤها حار رطب وأهلها خمسة وعشرون مليوناً و ٦٧ الف نسمة منهم ٢٤ مليوناً و ٧٥ الف نسمة جاويون و ٥٠ الفا اوربيون و ٢٥ الفا صينيون و ١٥ الفاعرب وجميع الأهالى الجاويين مسلمون ، وتجارة الجاوى تقدر بأكثر من ٥٠٠ مليون وفيها ١٨٠٠ كيلومتر من الخطوط الحديدية وهى مركز المستعمرات النيرلاندية وعاصمتها باتافياوبها يقيم الحاكم العام من قبل هولاندة ومن مدنها بويتنزورغ وهى كرسى الحكومة الصيفى ثم سامارانغ وسرابيه وسرا كارته .

ومن جزر الارخبيل المالیزی بورنیو وهی اکبر جزائره لابل اکبر جزیرة فی الارض بعد غينية الجديدة . مساحتها سبعمائة وستة وأربعون الف كيلو متر مربع وهى من بلاد خط الاستواء والاشجار تغطى جبالها الى أعلى القنن ومن رؤوس جبالها ما ارتفاعه ٤١٧٥ متراً وهو فى المحل المسمى « كينابالو » فى شمالى الجزيرة ومنها فى وسط الجزيرة « غونونغ ريا » علوه ٢٢٧٨ متراً . وتكثر الامطار فى هذه الجزيرة فتسيل فيها أنهار كبيرة منها نهر الكابواس والسامباس مما عرضه ١٥٠٠ متر فى بعض الأماكن ومنها أنهر أخرى مثل الكاهاجان والبارتيو فى الجنوب والماهاكام والكاجان فى الشرق والبارام والباتانغ رجانغ والباتانغ لوبار فى الشمال وجداول وأنهار صغار لاتحصى . وفى هذه الجزيرة معادن كثيرة وجواهر كريمة ويستخرج منها زيت البترول بكثرة .

والجزيرة منقسمة بين انكلترا وهولاندة فمنها مساحة ٥٥٣٣٠٠ كيلو متر مربع فى الشرق والجنوب والغرب لهولاندة . ومنها ١٩٧٥٠٠ كيلومتر مربع فى الشمال لانكلترة. فأما القسم الهولاندى فينقسم الى قسمين : جهة غربى البورنيو وقاعدته « بونتياناك » وجهة الجنوب الشرقى من البورنيو وقاعدته « بانجرماسين » وأما القسم الانكليزى فهو عبارة عن امارة «سرافاك» وأراضى الشركة الانكليزية فى شمالى بورنيو وجزيرة لابوان ومدينة برونای .

فأما البلاد التى تحت سلطة هولانده ففيها ممالك « سنامباس » و « مانباوه »

و « بونتياناك» و « كوبو » و «سيمبانغ» و « ماتان » و « لانداك » و « تاجان مليو » و « سانغو » و« سيكادو » و « سنيتانغ » و « سيلات » و « سوهيد » و « ساليبو » و « بياسه » و « جونغ كونغ » و « بونوت » وكل مملكة من هذه عليها رئيس يسمى سلطانا أو بانمباهان أو بانجران وهم باجمعهم تابعون لهولاندة وعند كل منهم مجلس مؤلف من امراء الاسرة المالكة وأشراف البلاد .

وكان لبورنيو علاقات بالصين من جهة الشمال وبالهند وكثير من ملوك بورنيو هم من أصل هندى وفيها هيا كل كثيرة للعبادات الهندية . ولم يدخل الاسلام الى بورنيو الا فى أواسط القرن السادس عشر انتشر من بانبانغ الى السوكادانه والماتان . وفى سنة ١٥٩٠ صعد أول سلطان مسلم وهو « غيرى كوزوما » على عرش سوكادانه وفى أيامه بدأ الأوربيون يتطالون الى هاتيك الاقطار .

وحفظت ممالك بورنيو استقلالها مدة طويلة فتأخر استيلاء الاجانب عليها عن جميع جزائر الارخبيل الماليزى فلبث الاوربيون ثلاثة قرون من برتقاليين واسبانيول وهولانديين وانكليز يجوبون فى تلك الديار متجرين ومعاوضين ولا يتعرضون للسياسة . وأول مملكة فقدت استقلالها هى بانجارماسين فان الهولانديين اعتدوا عليها فى أواسط القرن الثامن عشر . أما سوكادانه فبقيت مدة تابعة لمملكة باتنام من الجاوى ثم انفصلت عنها سنة ١٧٢٥ بمعاونة اهالى جزيرة « سيلاب » وهم جنس يقال لهم البوغينيزيون انتشروا فى السواحل الغربية من بورنيو وملك منهم عدة امراء فى هذه الجزيرة . و بقيت سوكادانه مستقلة تمام الاستقلال الى سنة ١٧٨٦ اذ أسقطها الهولانديون بالاشتراك مع سلطان بونتياناك ولم يبق لها سوى بلاد الماتان . أما سلطنة بونتياناك فاصلها امارة رجل عربى اسمه الشريف عبدالرحمن بن الشريف حسين بن احمد القادرى الذى قبره يزار فى بلدة منباوه فيقال انه بدأ حياته بالغارات وغصب السفن الى أن غضب عليه أبوه الذى كان صالحا ورعاً فرحل من منباوه وجاء بعصابته الى جهة لانداك وكابواس و بلباقته ونشاطه أسس مركزاً تجاريا لم يزل ينمو و يتقدم حتى صار مدينة هى مدينة بونتياناك الحاضرة . وسنة ١٧٧٩ نودى به سلطانا واعترفت بسلطنته الشركة الهولاندية للهند الشرقية وعاهدته ولم يزل الملك فى أعقابه الى هذا اليوم ولكن هولاندة أخذت على أيديهم ولم تبق لهم من الملك سوى الاسم .

وأما سلطنة سانباس التى قاعدتها سانباس فقدأسسها ماليزيو جوهور . وسنة ١٦٠٩ عقدت معاهدة مع الشركة الهولاندية للهند الشرقية . وفى النصف الأول من القرن السابع عشر غلب رادين سليمان بن الراجا تنغا أمير « برو ناى » على ملك سانباس وطرده وكانت امه من بيت ملك سوكادانه مقيمة بسانباس . وملك رادين سليمان تحت اسم السلطان محمد صفىّ الدين وهو أول ملوك الاسرة المالكة الى زمننا هذا .

وأما أمارة سرافاك التى قاعدتها كوتشينغ فأصلها أن بحريا انكليزيا اسمه جيمس بروك وصل بسفينة تخصه الى بلدة بر وناى فوجد الحالة فيها لا تطاق من الظلم والعسف وفقد الامن وتبليص النـاس من أموالهم . وكان هناك أمير يقال له مودا حسن فاعتمد على الربان جيمس الانـكليزى وفوض اليه الأمور فأصلح الأحوال ووطد الأمن وفى سـنة اعترف سلطان بروناى هـذا للضابط الانـكليزىّ جيمس بالامارة على سرافاك فصار جيمس أميراً واستخدم الوثنيين فى مقاومة المسلمين (١٨٤٢) وأمدّته الحـكومة الانـكليزية ببعض النجدات فى وقائعه مع العرب والماليزيين ولم يدخل فى حكومته الا عدداً قليلا من الاوربيين وسوّى فى المعـاملة بين الاوربيين والوطنيين [١] فسعدت أهالى تلك الامارة واتسعت حدودها وعظم شأنها . وسنة ١٨٦٣ مات جيمس فخلفه ابن أخيـه كارلس بروك وقد ورث ملـكا عريضاً يمتـد الى حدود نهر لينبانغ ودخلت هـذه المملـكة تحت حماية بريطانية العظمى .

وأما سلطنة « كوتاى » على الساحل الشرقى من بورنيو فقاعدتهـا « تنغارون » وميناؤها « سامارينده » فقد كانت تابعة سلطنة موجوباهيت الجاوية ثم صارت الى تبعية مملـكة بنجارماسين . وفى أثناء القرن التاسع عشر اضطر سلاطين كوتاى الى الاتفاق مع هولاندة على شروط تخل باستقلالهم وتجعل لها هى السيطرة .

أما احصاء نفوس بورنيو فيبلغ مليوناً وسبعمائة ألف نسمة من هذا العدد نحو ستين ألف صينى و بضعة آلاف عربى ونحو ألفى أوربى فهى قليلة السا كن بالقياس الى مساحتها اذ لا يصيب الـكيلو متر المربع فيها أ كثر من واحد الى ثلاثة من السكان . وهم من جنس يقال له الداياك يسكنون فى الداخل ومن المـاليزيين المسلمين الذين يسكنون فى السـاحل .

(١) ياليت حكومته وسائر الحـكومات الأوربية تقتدى به فى هذه الخطة

والداياك هم من أصل ماليزى ولكنهم منحطون فى المدنيـة منقطعون فى البرارى والجبال والسيادة دائما للمسلمين عليهم . ومتى أسلم واحد من الداياك صار معدوداً من الماليزيين . وأما السواحل فهى مأهولة بالمسلمين الماليزيين بعضهم من السلالة الماليزية الخالصة و بعضهم مختلطون بالامة البوغنيزية. ومن جهة أرض كابواس يوجد ماليزيون كثير ون ممتدون الى الداخل وهم هناك يتزوجون من الداياك والغالب على هؤلاء الماليزيين حب التجارة وصيد البحر وقنص الوحوش وليس عنـدهم ميل الى الزراعة والصناعة ولكن تشكيلاتهم السياسية بسبب وحـدة العقيدة الاسلامية هى أمتن وأقوى من غيرها فقد سادوا بها على سائر سكان بورنيو فتجدهم هم الماسكين بافواه الانهر التى هى طرق المواصلات قابضين على زمام التجارة من كل جهـة . ومنهم من يتغلغلون فى أحشاء الجزيرة فى طلب محصولات الأراضى الحرجية مثل الكاوتشوك وغيره فيصلون الى أقصى مساكن الداياك السابق الذكر و يطبعونهم بطابع الاسلام . وأما السواحل الجنوبية من بورنيو فيسكنها جيـل يقال لهم البانجاريزيون وهم ماليزيون مختلطون بدم جاقانى لهم فى بلاد بنجارماسين هيئة اجتماعيـة جديرة بالذكر وهم أهل ذكاء واقدام . كذلك على السواحل الشرقيـة يكثر الجيل المسمى بالبوغينيزى وهم من أقوم الأقوام على التجارة والسعى وفيهم نشاط وهمة فائقة ولهم مكانة عظيمة سياسية واقتصادية فى هاتيك الأرجاء

وفى الأرخبيل الماليزى جزيرة يقال لها سيلاب Célèbes هى الجزيرة الثالثة فى العظمة والبسطة مساحتها ٣٢٢٨ كيلو متر مربع وفيها جبال عالية جداً ارتفاع قممها يبلغ ٣٤٥٠ متراً وأرضها كلها جبلية تقل فيها السهول وتكثر فيها البراكين وفيها بحيرات متعددة .

وسيلاب تابعة لدولة هولاندة باجمعها وانما ادارتها مقسومة الى قسمين أحـدهما ولاية « منادو » ويتبعها النصف الشمالى من الجزيرة مع شـبه الجزيرة الشرقى والثانى مابقى من الجزيرة . ولا يزال فى أشباه الجزر الشماليـة والجنوبية امارات وطنية مثـل « غوفا » و « بونه » و « لوفو » طرد أمراؤها سنة ١٩٠٦ و ١٩٠٧ ولم ينتصر لهم أحد من الأهالى . وامارات أخرى مثل « تانيت » و « سوبنغ » و « سيد نغرنغ » لاتزال مستقلة فى داخلها الى اليوم

وكانت جزيرة سيلاب مجهولة أكثر من سائر جزر هذا الأرخبيل نزل بها الماليزيون سنة

١٥١٢ والبرتقاليون سنة ١٥٣٢ وفى القرن السادس عشر تغلب ملوك الماكاسار أصحاب دولتى « غوفا » و « تلو » على جنوبى سيلاب و قسم من أوساطها وعلى الجزر الصغيرة من أرخبيل الصوند . وفى زمان الملك « تونيجالو » الذى تولى الأمر من سنة ١٥٦٥ الى سنة ١٥٩٠ تقرب « باب الله » ملك « ترنات » وكان مسلماً الى مملكة غوفا وعقد معاهدة مع تونيجالو وأراد أن يحمله على الاسلام ولكن لم يوفق حينئذ الى ماأراد . فلماآل الأمر الى ابن تونيجالو شرح الله صدره للاسلام على يد رجل ماليزى اسمه « داتورى باندانغ » من بلدة يقال لها « منانغ كابو » من جزيرة سومطرة فاسلم (سنة ١٦٠٣) وتلقب بالسلطان علاء الدين وأسلم معه وزيره « كارانيغ ماتوفيا » وتبعهما سائر الأهالى وانتشر الاسلام بين جميع الشعوب العديدة المسماة بالماكاسار والبوغنيز لا سيما أن مملكة غوفا فى ذلك الوقت كانت قد وسعت حدودها وزادت بسطة عزها .

وكان الهولانديون والانكليز والدانمركيون منذ سنة ١٦٠٥ بدأوا يناظرون البرتقاليين فى التجارة ويزاحمونهم على محاصيل البهارات والفلافل فى عاصمة الماكاسار . وقد عقد الهولانديون معاهدات تجارية مع أمراء تلك النواحى تضمن لهم امتيازات خاصة بهم ثم لم يخل الأمر من وقوع بعض الخلل بهذه المعاهدات فاتخذت هولاندة هذا الخلل ذريعة لمناجزة تلك الحكومات الوطنية القتال وبالاتفاق مع مملكتى بون وترنات زحفت العساكر الهولاندية فى سنة ١٦٦٧ ثم فى سنة ١٦٦٩ وفتحت أوساط مملكة الماكاسار وأجبرت أمراءها على امضاء معاهدة « بانغاجا » التى حملت على امضائها فيما بعد جميع ملوك القطر الجنوبى من جزيرة سيلاب وبموجبها أطاعوا دولة هولاندة . وكانت بلاد « ميناهازه » من هذه الجزيرة ذات علاقات كثيرة مع الاسبانيول وكان لهؤلاء عندهم مراكز أسسوها منذ القرن السادس عشر فاستعان الميناهازيون بالشركة الهولاندية على الاسبانيول وأخرجوهم .

أما عدد أهالى سيلاب فيبلغ مليونين وهم من العائلة الماليزية البولينيزية وذهب بعضهم الى وجود جنس آخر فى داخل الجزيرة اسمه « توالا » وأصفى جنس من هؤلاء السكان هم « التوراجا » وهم جيل وثنيون فى داخل الجزيرة ومنهم أقوام فى شبه الجزيرة الغربى اختلطوا بالماليزيين فتكون منهم الماكاسار والبوغينيز . أما جنس الميناهازه

فيستدل من أشكالهم ولغتهم على كونهم ذوى قربى مع المـاليزيين أهل الفيلبين وفورموز واليـابان . وأشهر المدن التجارية الماكاسار فيها ١٠٥٩ اوربياً و ١٤١ عربيا و ٤٦٧٢ صينياً و ٢٠١٧٨ من الأهالى أكثرهم بوغينيزيون . ثم منادو وفيها ٥٠٠ عربى و ٥٧٦ اوربياً و٢٧٨٤ صينياً و٦٦٦٩ من الأهالى . ثم غوروتالو وفيها ٣٢٧ عربياً و١٤٥ أوربيا و ٦٠٦ صينيون و٥٢٤٧ من الأهالى . ثم سينجه وأهلها ٣٥٧٨ وفيهـا ٥١ أوربياً و٢٣ عربيا و ١٠٨ صينيون . ثم بوتتان وفيها ١٥٥ أوربيـاً و ١٩٧ صينياً و ٦٥٤٤ من الأهالى و ٣ عرب وهـلم جرا . وجنس التوراجا زراع ومنهـم قناصون ويسكنون فى قرى محصنة لـكثرة ما يقع بينهم من الحروب .

وفى البلاد التى تصاقب البلاد الساحلية حيث يكثر البوغينيزيون دخل التوراجا هؤلاء فى الاسلام اما النصرانية فتنمو فى الجهة الشمالية .

والشعبان التوأمان المسلمان فى جزيرة سيلاب هما الماكاسار والبوغينيز . كانا يسكنان فى الارجاء الجنوبية ولـكنهما انتشرا أخيراً فى جميع سواحل سيلاب وفى اكثر جزر الارخبيل من الشرق الى الغرب وذلك بكون ابناء هذين الشعبين هم من اجرأ الناس على البحر ومن اقدرهم على التجارة والماكاسار هم اصحاب الناحية الغربية من شبه الجزيرة الجنوبى داخلة فى ذلك مملـكة غوفا Gouva واما البوغينيز فانهم اصحاب الجانب الشرقى من شبه الجزيرة . وللماكاسار عدا غوفا مملكة تانيت Tanette وارخبيل ساليار Saleyer الجنوبى. وللبوغينيزيين Buginais ممالك بون Bone وفاجو Vadjo ولوفو Louvu وسو بنغ Sopeng وماعدا هذه الممالك فيوجد حكومات صغار تابعة للحكومات التى هي اكبر منها . وعلى رأس كل من هذه الممالك ملك أو أمير أو ملـكة أو أمـيرة يتقلد أو تتقلد الملك بالارث ولـكل من الملك أو الملـكة وزير ثم مجلس مؤلف من اعضاء بيت الملك . وامراء البلاد والأهالى قسمان منهم الاحرار ومنهم الأرقاء . وللاهالى عادات ومنازع لايزالون متمسكين بها بالرغم من انتشار الاسلام بينهم فالتوارث بحسب الشريعة الاسلامية غير جار الا فى المـدن . والزواج يجرى وفقا للشرع المحمدى لـكن حفلات الافراح وثنية تقريبا . وأما المرأة المتزوجـة فلها مقام ممتاز . وقد امتاز الماكاسار والبوغينيز بالنشاط والعمل وحب الـكسب فتراهم ارقى امم تلك الجزر فى الأمور الاقتصادية وهم يتقنون التجارة والزراعة وتربية المواشى وعندهم صناعات

يدوية من النساجة والحدادة و بناء السفن يبلغون بها حد المهارة وكذلك لايباريهم أحدفى حرفة الملاحة وصيد السمك . ومعدل كثافة السكان من هـذين الجيلين بالنسبة الى مساحة الأرض هو ٢٧ شخصا فى كل كيلو متر مربع كما فى غوفا وفى تانت و ٢٠ شخصا فى بون . وأما فى الاماكن التى تديرها هولاندة رأسا فهو ٥١ شخصا فى كل كيلو متر مربع . ولهذين الشعبين كتابة وحروف هجائية من أصل هندى . وعندهم كتب وتآليف وآداب لغوية غزيرة ونظم ونثر . ومن جملة الكتب المعروفة عندهم مجموع أحكام حقوقية اسمه «رابانغ» بلغة الماكاسار و « لاتوفا » بلغة البوغينيز . ويوجد مراكز تجارية عظيمة للبوغينيز فى جميـع الارخبيل كالسواحل الشرقية والغربيّة من بورنيو وفى ارخبيل ريوف Riouv والجزر الصغار من أرخبيل الصوند وفى شرقى جزيرة لونبوك وشمالى سومطرة .

أما الميناهازيون فانهم اليوم نصارى وقدانتشر العلم والتمدن بينهم بواسطة المبشرين ونمت ثروتهم وصارت كثافة السكان منهم بالنسبة الى مساحة الارض بمعدل ٣٨ شخصا فى الكيلومتر المربع ويوجد ناحية حول بحيرة توندانو كثافتهم فيها بمعدل ٨٣ فى الكيلو متر.

وأما جزيرة سومطرة فانها من الجزر الماليزية أيضاً وتعد من أعظمها بل من أعظم جزر العالم يفصلها عن بلاد الهند الصينية بوغاز ملقا وعن الجاوى بوغاز الصوند وهى بين ٩٢ ر ٥٢ و ١٠٣ ر ٤٣ من الطول الشرقى و ٥ ر ٣٨ من العرض الشمالى و ٥ ر ٥٨ من العرض الجنوبى وطولها ١٧٦٠ كيلو متراً بعرض يختلف من ١٦٠ الى ٤٠٠ كيلو متر ومساحتها ٤٣٠ر٠٠٠ كيلو متر مربع وفيها سلسلة جبال عالية ارتفاع قممها ٣٧٠٠ متر و ٣٤٠٠ متر . وفيها أنهار كبيرة تسير فيها السفن وهواؤها حار رطب وفيها معادن الذهب والحديد والنحاس مثل جزيرة بورنيو . وفيها زراعة الارز والحبوب وتكثر فيها الحيوانات كالخيل والبقر والجواميس وعدد أهلها ثلاثة ملايين وخمسمائة وسبعون الفاً منهم من اجناس هندية كاليانا والآلا والكوبو ومنهم ماليزيون ومنهم ماليزيون مختلطون يقال لهم آتشينيون والماليزيون والآتشينيون هم مسلمون وهم أكثر أهالى الجزيرة . وسومطرة تابعة هولاندة منها مايليه الهولانديون رأساً ومنها امارات تحت الحماية ومنها امارات مستقلة . وأعظم مدنها بالانبانغ وآتشين و بادانغ ومدان الخ .

والمسلمون فى الجاوى وسومطرة و بورنيو وسيلاب وسائر المستعمرات الهولاندية هم ٣٥ مليونا و بعضهم يقول ٤٠ مليونا .

مسلمو الفيلبين

للامير شكيب

وننهى القول بجزائر الفيلبين وهى أرخبيل من الاوقيانوس الماليزى بين ٤ر٢١ و ٣٠ من العرض الشمالى و ١١٤ ر ٣٠ و ١٢٤ ر ١٥ من الطول الشرقى بين بحر الصين غربا والاوقيانوس الباسيفيكى شرقا و بحر سيلاب و بحر جولو جنوبا . وهذا الارخبيل يحتوى ١٢٠٠ جزيرة أشهرها لوسون Luçon فى الشمال وجزر بابوان Babuyanes وجزر بيسايا Bissayas فى الوسط وجزر كالاميان Calamianes وبالاوان Palaouanes فى الغرب وجزيرة ميندناو Mindanaw فى الجنوب . وهذه الجزائر جبلية بركانية كثيرة الزلازل وهواؤها رطب حار وزراعتها الأرز وقصب السكر والبن والقنب وفيها مواش كثيرة كالخيل والبقر والجاموس ومعادنها غير قليلة كالذهب والنحاس والقصدير وصادراتها تعدل بنحو ١٥٠ مليونا والداخل اليها بنحو ١٢٠ مليونا وفيها نحو ٢٠٠ كيلومتر من الخطوط الحديدية ومساحتها ١٨٢ ر ٢٩٦ كيلو متر مربع . وعدد سكانها سبعة ملايين منهم المالزيون الكاثوليكيون ويقال لهم التاغال والمالزيون المسلمون ويقال لهم المورو والبولينيزيون وهم وثنيون وفيها زنوج وفيها نصف مليون من الصينيين ومئتا الف اوربى . وأعظم حواضرها مانيل ثم ليبا ثم بانانغ ثم باتانغا الخ وقد سميت هذه الجزر بالفيلبين نسبة الى فيليب الثانى ملك اسبانية الذى فى أيامه جرى اكتشافها ودان اكثر أهلها بالنصرانية وذلك سنة ١٥٦٨ و بعد ان بقيت هذه الجزر مئات من السنين تحت حكم اسبانية ثارت عليها فعضدت الجمهورية الاميركية الكبرى حركتهم فتملصوا من حكم اسبانية ولكنهم وقعوا تحت سلطة الولايات المتحدة فعادوا يثورون على هذه وأحوالهم لاتزال غير مستقرة .

و يظهر أن الأميركيين أرادوا استمالة المسلمين من أهل الفيلبين ليتقووا بهم على الكاثوليك فجاء منهم وال سابق للفيلبين الى الاستانة منذ ٢٠ سنة والتمس من الحكومة العثمانية ارسال مرشدين يهذبون مسلمى الفيلبين و ينورون أفكارهم نظرا لما هم عليه من

الجهل والغباوة ولما كانت الدولة العثمانية وقتئذ تعنى بأمور المسلمين بقدر امكانها أرسلت المشيخة الاسلامية أحد مأموريها وهو الفاضل المرحوم وجيه افندى زيد الكيلانى النابلسى وجعلته أشبه بشيخ اسلام فى الفيلبين فذهب الى هناك واستقبله المسلمون بفرح يفوق الوصف و بدأ بمهمته وعاونه الأميركيون عليها الا أنه مرض مرضاً قضى عليه بالعودة الى الاستانة فلما جاء قطعت المشيخة راتبه وأبت أن تعتنى بهذا الأمر بعد ذلك فاضطر الى السفر ثانية على نفقته الخاصة وكان يتأوه كثيراً على حالة الاسلام فى الفيلبين ويذكر ما هم عليه من التحمس فى محبة أبناء ملتهم لو أتيح لهم حظ من التعليم وأخيراً جاءنا نعيه بسبب العلة التى كانت تمكنت منه مع تغير الهواء عليه فذهب فى شرخ شبابه شهيد حميته وعلو همته وكان صديقاً حميما لى فسألته رحمه الله عن أحوال المسلمين فى تلك الجزائر النائية فأخبرنى بأن عددهم هو من مليون الى مليونين وأن السواد الأعظم منهم فى جهالة عمياء لا يعرفون من الاسلام سوى كونهم مسلمين ولا يكاد يعرف الصلاة منهم الا أفذاذ قلائل ممن حجوا بيت الله الحرام فعسى أن يقيض الله من المسلمين جمعية تحذو حذو الافرنج فى التهذيب والارشاد فترسل الى تلك الديار من يكمل مهمة وجيه أفندى الكيلانى التى لم تكد تبدأ حتى انتهت . لا نقطع الأمل بذلك ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون

* * *

والفيلبين هى ارخبيل أو مجموع جزائر فى الاوقيانس الكبير تتألف من نحو ألف ومائتى جزيرة صغرى وكبرى . وهذه الجزر هى القسم الشمالى من ماليزيا اكتشفها ماجلان الملاح البرتغالى ودعيت باسم فيليب الثانى ملك اسبانيا وهى ممتدة على ١٥٠٠ كيلو متر من الشمال الشرقى من بورنيو بين بحر الصين والمحيط الباسيفيكى وتبلغ مساحتها السطحية ...ر٢٩٦ كيلو متر مربع وأهم محاصيلها البن والأبازير « البهارات » وقصب السكر والأرز والتبغ والقنب ومن بحرها وأنهارها يستخرج عرق اللؤلؤ والدر بكثرة ومناخها شديد ولذلك كان أهلها وعددهم زهاءُ سبعة ملايين نسمة أشداء أقوياء . وقد اضمحل سكانها الأصليون الا قليلا بما داهمهم من بأس الفاتحين من الماليزيين وأكثر سكانها تمدناً اليوم هم التاغال وعددهم مليون ونصف والفيزايا وعددهم مليونان ونصف والفيكول وعددهم أربعمائة ألف والمورو أى المغاربة وهم المسلمون وعددهم كثير فى الجزائر الجنوبية وهم اخلاط من الماليزيين والصينيين والهنديين والعرب والجاحدين من

الأوربيين ويعد فى جملة المسلمين قوم من الجوراماتنادو يقدمون أرواحهم فدية لله ويتقربون اليه بقتل الكافرين وهم متعصبون على الجملة على ما وصفهم أكثر من كتبوا عنهم

ولقد استولت اسبانيا على هذه الجزُر زمناً ولكنها لم تعمرها وغاية ما صرفت وكدها اليه تنصير السكان ليدينوا بالكثلكة فأصبح المتظاهرون بها والمنتحلون لها تسعين فى المئة من السكان ولما لقى التاغال والميتيون مالقوا من سيطرة رجال الدين وسوء الادارة قاموا يريدون تخفيف ماناهم وأن يعاملوا بالمساواة مع البيض فنشبت ثورة سنة ١٨٩٦ ولم تنطفئ شعلتها الا بوعد زعيم الثائرين أن تقوم اسبانيا بالاصلاح المنشود ولما لم تقم هذه الحكومة بوعدها عاد ذاك الزعيم يبدى نواجذ الشر فى السنة التالية بمعاونة الولايات المتحدة وبعد ان حاربت الحكومة الاميركية اسبانيا من أجل هذه الجزائر استولت على الفيلبين وكوبا وبورتوريكو ونكست اعلام اسبانيا وراح الأميركان يستعمرونها فيحسنون استعمارها

ولما مد السلام رواقه على هذا الارخبيل وانتهى دور الكتائب والحسام جاء الدور للكتب والأقلام وأخذت المجامع العلمية تبعث برسلها للبحث والتنقيب لتنظر فى تاريخ الفيلبين واجتماعها وعمرانها فانتشر منذ سنة نحو عشرين مصنفاً فى الكلام على هذه الجزائر ومن جلتها كتاب تاريخ المورو أى مسلمى الفيليبين لوطنينا الفاضل الدكتور نجيب صليبي

ولقد اطلعنا على مبحث فى مجلة العالم الاسلامى الفرنسوية اقتطفته من مصادر كثيرة ومنها كتاب جزائر الفيلبين الذى ظهر مؤخراً بالانكليزية من قلم جون فورمان فآثرنا تحصيله للقراء ليقفوا على أحوال أولئك القوم ويعرفوا مبلغ عناية الغربيين بكل فرع من فروع العلم والاجتماع قالت المجلة البارزية :

شغل المؤلف جزءاً عظيماً من كتابه بالكلام على المسلمين بعد أن اطال عشرتهم وخالط زعماء الثورة ورجال الحكومة منهم فجاء من ذلك ببيان رائده الانصاف وسداه ولحمته التحقيق وقد أبان فى كتابه علاقة مسلمى الفيلبين مع الاسبانيين سابقا ومع الأميركيين لاحقاً الى أواسط سنة ١٩٠٥

المسلمون اليوم هم عبارة عن ثمانية أو تسعة أعشار جزيرة ميندناو الكبرى وجميع

ارخبيل سولو مع جنوبى بالوان وكانوا منتشرين فى الشمال من تلك البلاد على عهد الفتح الأسبانى ولما نزلت الحملة الاسبانية الأولى فى جزيرة لوسون سنة ١٥٠٧ اختلطت لأول أمرها مع الراجا (حاكم توندو) وابن أختــه الراجا سليمان فى مانيلا حاضرة الفيلبين اليوم وكان قائد الجيش الاسبانى العــام اذ ذاك يرى سكان توندو ومانيلا مسلمين و يطلق عليهم فى مكاتباته الرسمية لفظ المورو (اى المغاربة) ولم يكن لأحد من الاسبانيين شك فى ذلك لأن المغاربة لم يُطردوا الطرد الأخير من اسبانيا الا سنة ١٤٩٢

ولقد اختلفت الاقوال فى دخول الاسلام الى تلك الجزر والمرجح أن الجزر الجنوبية مثل ميداناو وسولو انتشر فيها الاسلام لقربها من مسلمى شمالى بورنيو فاستولى المسلمون على سلطنة بورنيو عقيب أن خربوا مملكة الماجاباهيت من بلاد جاوى سـنة ١٤٧٣ ولم يتحارب الاسبانيون مع سلاطين المسلمين الا فى سنة ١٥٧٧ وقد تقدم السلطان عبد القهار عدة ملوك مسلمين ومنه بدأ تاريخ الفتن بين المسلمين والاسبانيين . و بالجملة فان الاسلام انتشر فى ميداناو و بورنيو بمساعى دعاة من العرب على أنه لم ينتشر حقيقة فى جنوبى الفيلبين إبان الفتح الاسبانى ولم تنتحل سولو الأسلام الا بعد أن جاءها دايكس من بورنيو وتزوج أحد زعمائهم المدعو انداز ولان ـ وكان استولى أولاً على جزيرة بازيلان ثم على سولو ـ من ابنة زعيم من أعيان المسلمين فى ميداناو وانتحل الاسلام وأسس سلطنة سولو ثم قويت شوكته باتحاده مع بورنيو وميداناو

وعادت الاحقاد القديمــة فتجددت بين الاسبانيين والمسلمين وحمل الاسبانيون على هؤلاء مدفوعين بعامل السخط الشديد وفى سـنة ١٥٧٦ ثار لا كاندولا والراجا سليمان فى جزيرة لوسون ولـكن قوة الاسبانيين اذ ذاك حالت دون انتشار الـكلمة الاسلاميــة وان بقيت اليوم بقية من ذرية لا كاندولا فى بعض القرى فقد انحط مقامهم وأصبحوا نكرة لا تعرف حتى ان أحدهم كان خادما فى مطعم فرنسوى فى مانيلا سنة ١٨٨٥

وقد بعثت اسبانيا سنة ١٥٩٦ حملة على ميداناو فقتل قائدها عند نزوله الى البر وأغار والى سولو بنفسه سـنة ١٦٣٨ فاحتل بعض المراكز فى شاطئ ميداناو حيث لقب الراجا سيبوجى سنة ١٦٤٠ بلقب السلطنة . ولم تـكن هذه السلطنة وذاك الاحتلال الا اسماً لا حقيقة لها اذ بقيت الفتن قائمــة قاعدة بين المسلمين الأصليين والمسيحيين الفاتحين ولا سيما فى القرصنة . فدامت الغزوات البحرية بين الفريقين بلا انقطاع مدة ثلاثة قرون

فريق يعتقد أنه يجاهد جهاداً مقدساً وهم المسلمون وفريق يدعى أنه يحارب باسم الصليب وهم المستعمرون الاسبانيون

وفى أواسط القرن الثامن عشر حدثت بين المسلمين والاسبانيين فترة غريبة ذلك بأن المفاوضات بينهم انتهت بأن يكاتب ملك اسبانيا سلطان سولو الذى قاوم أحد اخوته مكانه لجاء مانيلا يطلب مساعدة حاكمها . ورأى السلطان محمد عليم الدين أن يتنصر فتعمد ولحقت به اسرته وبدأت تتعلم فى مانيلا التعليم الاسبانى المسيحى و بعد سنتين رُخّص له بأن يذهب من مانيلا الى سولو وزامبوانكا فى موكب له فاضطر أولاً أن يكتب الى السلطان محمد أمير الدين فى ميندانا و ينصح له بلسان شديد اللهجة أن ينضم الى الاسبانيين . و بعد سفره بقليل تبين للحاكم الاسبانى أن العبارة العربية كانت مخالفة للعبارة الاسبانية التى كتبها بنفسه و وقع عليها ولذلك أمر بسجنه فى زامبوانكا ثم أعيد الى مانيلا ولم يسع الوالى الاسبانى الا أن يعود الى تنصير ذاك الحاكم المسلم ولو صورة

ولما احتل الانكليز مانيلا سنة ١٧٦٣ وجدوا السلطان مسجوناً فأطلقوا سراحه فراح الى سولو وأقام على استئصال شأفة الاسبانيين فى ميندانا وأصاب الانكليز أيضاً شيء من شره وان أحسنوا معاملته . وقد بعث الانكليز الى سولو بمئة وخمسين رجلاً لتوطيد قدمهم فيها فدعاهم أحد زعماء المسلمين الى مأدبة وذبح منهم ١٤٤

و بعد أن انجلت انكلترا عن قاعدة تلك البلاد عدل الاسبانيون من معاملتهم للمسلمين فاعترفوا سنة ١٨٣٦ باستقلال سلطانهم هناك حتى اذا كان عام ١٨٨٤ سيروا عليه حملة واستولوا على حاضرة بلاده فراح السلطان وخاصة رجاله يحتفظون بألقابهم فأدرت حكومة اسبانيا عليهم رواتب ومشاهرات الا أن المسلمين لم يبرحوا يلجأون الى الغارة والنهب فى السواحل حتى قيل ان غارات المسلمين قويت شوكتها سنة ١٨٧٦ فلم يعد حكم اسبانيا فى سولو الا اسمياً

وهكذا جرت حوادث بين الحكام الاسبانيين والسلاطين المسلمين يخضع هؤلاء تارة و ينتقضون أخرى مثل سلاطين باكات و بوهاين وكودارنكان المتحالفين مع داتواوتو ولما ضاقت اسبانياً ذرعاً ببعض القبائل المسلمة وانتقاضها الحين بعد الآخر عزمت غداة ثورة سنة ١٨٩٦ أن تطرد المسلمين من عقر دارهم وتسكن فيها جماعة من المسيحيين الوطنيين ثم خضع بعض اولئك الأمراء للاسبانيين خضوع حب لان منهم من كان يقدر

المدنية الغربية قدرها ولذلك ظلوا على موالاة الأميركانيين أيضاً بعد ان استولوا على هذه الجزائر .

ويؤخذ مما كتبه فورمان أن الاحقاد القديمة بين الاسبانيين والمسلمين دامت على أشدها مدة ثلاثة قرون وظل المسلمون هناك يذكرون ماوقع لاخوانهم مسلمي اسبانيا . ومما كانت تجرى الشروط عليه بين والى مانيلا الاسبانى وحاكم سولو المسلم أن لا تمس شعائر المسلمين . وعلى ما حاولته اسبانيا من تنصير المسلمين فقد خرجت من الجزائر كيوم دخلتها ولم تفلح فيما قصدت اليه . ولا شك أن جمهورية الفيلبين تحسن معاملة المسلمين كالاسبانيين وكذلك المسلمون لم يكونوا أقل عداء لسكان البلاد المسيحيين من معاداتهم للبيض .

ولما استولى الاميركيون على الجزائر لم يمسوا المعتقدات الاسلامية ولا عملوا على نقض شرع أهل الاسلام وان كانوا ينكرون عليهم ترتيباتهم فى حكومتهم وهى حكومة أعيان « ارستوقراطية » وقد انتقد أحدهم على حكومة الولايات المتحدة أن وطدت نفسها على انتظار ادخال تعديل فى حال المسلمين هناك وتعليلها الأمل بأن نشر التعليم العام بينهم سيؤدى بعدُ الى نتيجة حسنة . على ان الاميركان كانوا يوجسون خيفة من نظام الاقطاعات الشائع بين المسلمين هناك . وقد نادت حكومة أميركا بأن يظل أهل ولاية المسلمين يحكمون انفسهم بانفسهم ولم تتداخل الا بعض الشئ فى حكومتهم وادارة بلادهم وتمتاز حكومة أميركا عن اسبانيا بان طريقتها فى حكم تلك الجزيرة والمسلمين من أهلها خاصة هو بتدريب الاهلين على المبادئ الديمقراطية اما اسبانيا فقد أرادت أن تحمل على الاسلام نفسه لتتخلص من المسلمين . ولو اقترب بعض الزعماء المسلمين من الاميركان سياسياً مع احتفاظهم بأخلاقهم من الوجهة الاجتماعية لما طال على البلاد عهد السلام

وقد عنيت الحكومة الاميركية بتنظيم شؤون المسلمين وتأسيس بلديات لهم فى الجزر تقيم مع المجالس الوطنية وتعمل بالعادات الوطنية ما امكن وهى العادات التى لاتنافى عادات الشعوب المتمدنة ولا اخلاقها وقد بلغ عدد جيش الاحتلال الاميركى النازل فى جزيرة سولو وحدها ٤٨٣٩ رجلاً و٢٩٤ ضابطاً على ان المحار بين من أهلها لا يتجاوزون العشرين الف رجل . وفى تلك الولاية ٤١ مدرسة فيها ٢١١٤ تلميذاً و ١٥ معلماً اميركيا و٥٠ معلماً مسيحياً وطنياً و٩ معلمين مسلمين والمدارس غاصة بالتلاميذ والمتعلمين حتى ان ٢٤٠ طفلاً من المسلمين حرموا من الدرس الآن فباتوا ينتظرون لان المدارس ملئت بالتلاميذ والطلاب من المسلمين

الجزائر الهندية الشرقية الهولندية

محاضرة السيد اسماعيل العطاس

قد أهدانا نسخة من هـذه المحاضرة الادبية حضرة الفاضل السيد اسماعيل العطاس من السـادة الحضارم المقيمين بجاوى وكان القاها فى نادى الشبان المسـلمين بالقاهرة فى ٦ ينايرسنة ١٩٢٩ فاحببنا ضمها الى هذا الـكتاب لأنها من افضل الخلاصات عن بلاد الجاوى وهذا نصها : —

قبل العهد التاريخى

ان اكتشاف بعض الأدوات الحديدية فى الزمن الأخير فى جاوى وبحث علماء الآثار فيها دلا على أن هذه الفؤوس ورؤوس الرماح هى من أدوات العهد الحديدى السابق للتاريخ

خلاف ذلك اكتشف بعض أجزاء من هيكل المخلوق المسمى Pithecanthrofus Erectus وهومن نوع الانسان القردى Human Monkey أوالانسان الفوسيلى Fossil-man الذى يظن بعض العلماء انه من الحلقة المفقودة The missing link

هذه البقايا من العظام هى من العهد الفليوسينى phiocine period وانه من المحتمل أن هؤلاء الاناس الفوسيليين هم أصل السكان القدماء فى تلك البلاد

ويظن بعض العلماء الدارسين فى تاريخ جاوى أن من هؤلاء القوم توالد الشعب الذى سكن جزيرة جاوى قديما والمعروف باسم كالافريج Kalang والمسمى عند غزاة الهند بالرشاكا Rashaka وكانوا يتعيشون من صيد السمك والحيوانات ولا يعرفون الزراعـة ولا تربية المواشي وينتقـلون من مكان الى مكان ويعيشون فى جماعات قليلة بين العشرة والأربعين وكانوا على أكثر الاحتمال من عباد الشمس مثل الشعوب الأقدمين فى بابلونيا

العهد الهندو

لم يذكر فى كتب الهندو المعروفة بالفيدا Veda's شئ عن أول قدوم الهندو الى جاوى أما الـكتب الجاوية المسماة بالباباد Babad's فقد ذكرت أن — الهندو «أجى كاكا» aji Caka

زار جاوى فى حاشية عظيمة ويقال انه كان أميراً هندياً أو وزيرا أول لأمير هندو وزيارته هذه تعد أول مبدإ عهد الهندو وأول سنتهم يوافق سنة ٧٥ أو سنة ٧٨ ميلادية وهوأول من أسس أول دولة هندية فى جاوى واليه ينسب ادخال أول حكومة منظمة وانشاء أول دولة هندوية فى جاوى الوسطى المسماة ماتارام Mataram ولا يعرف من تاريخ العهد الهندو الا القليل ولكن آثارهم ومعابدهم القديمة تدل على أنه وجدت دول هندوية قوية فى جاوى أشهرها ثلاث

١ — دولة Mataram (ماتارام) المذكورة فى جاوى الوسطى

٢ — « Padjadjaran (باجاجاران) فى غرب جاوى

٣ — « Madjapahit (ما جاباهيت) فى شرق جاوى

وكانوا يستعملون اللغة السنسكريتية كاللغة الرسمية والى الآن نجد هنالك كثيراً من كلمات الملايو المستعملة من أصل سنسكريتى

وقد بلغت دولة المتارام Mataram الذروة القصوى فى القرن التاسع الميلادى ومنها تخرج العمال الماهرون والبناؤون الذين بهروا العالم ببناء المعابد الفخمة مثل بورو بودور Boro-Budur ومندوت Mendoet وشندى سيو Tjandi Sewoe والتى تعد الى الآن من عجائب الدنيا وفيها برع العمال فى الصناعة القصديرية وفى طريقة رى الحقول الأرزية التى لم تزل مستعملة الى الآن

وفى عهد دولة باجاجاران Padjadjaran أسلم أول أمير هندو واسمه حاجى بورا Hadji Paera وذلك فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى

وفى عهد مملكة ما جافاهيت Madjapahit نشر مولانا ابراهيم الديانة الاسلامية فى قرية ليران Leran القريبة من بلدة جريس Gresik وبعده أتى مبشرون اسلاميون آخرون فأسلم على أيديهم بعض الامراء من دولة ماجاباهيت Madajapahit وفى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى وجد ثمانية أمراء مسلمون من الأهالى بألقاب ال « سوسوهونان » Susuhunan (سلطان) . وقد دارت رحى الحرب بين دولة ماجافاهيت Madjapahit وبين الثمانية الأمراء المسلمين تحت رئاسة رادين فلتاه (الذى كان أميراً من دولة ماجافاهيت Madjapahit واعتنق الاسلام) وبعد حرب دارت أربع سنوات انكسرت جيوش المسلمين ولكنهم لموا شعثهم مرة أخرى وأخذوا ثأرهم فى موقعة

دارت خمسة أيام فيهـا انكسرت جيوش دولة ماجافاهيت Madjapahti شر كسرة ولم تقم لهم بعدها قائمـة فـكانت الضربة القاضية وذلك فى سـنة ١٤٧٥ ميلادية و بسقوط دولة المـاجافاهيت الهندوية (البوذية) تدهورت الديانة البوذية رويداً رويداً وهكذا انتشر الاسلام بدخول الأهالى والأمراء فيه جماعات ووحداناً

العهد الاسـلامى

ان تاريخ الجزائر الهنـدية الشرقية فى مدة الستمائة سـنة الأخيرة هو من أحسن الفصول فى تاريخ انتشار الاسلام بالدعوة والارشاد

اجتهد أنفار قليلون فى نشر الاسـلام والتوحيد والدعوة الى سبيل الله بالحـكمة والموعظة الحسنة دون مساعدة فى ابتداء الأمر من أمراء البلاد وفى بعض الأحيان امام عداوة مسلحة وهم لا سـلاح لهم الا القلوب المطمئنة بالايمان والاخلاص والمجادلة بالتى هى أحسن

أما تاريخ دخول الاسلام فى الجزائر الهندية الشرقية فغير معروف بالتمام ومن المحتمل أن الاسلام دخل بدخول تجار العرب الى هذه البلاد فى أوائل القرون الهجرية . وهذه النظرية تتقوى بما هومعروف من أن العرب كانوا حاملين لواء التجارة بالشرق فى الزمن القـديم . ففى ابتداء القرن السابع الميلادى زادت التجارة مع الصين على طريق سيلان Ceylon حتى انه وجد تجار عديدون من العرب فى Canton كنتون بالصين فى منتصف القرن الثامن الميلادى . وفيما بين القرن العاشر والقرن الخامس عشر الى حضور البرتغال Portugese لم يكن للعرب منازع فى الراسة ـ التجارية الشرقية . لذلك يتقوى الاحتمال أن العرب قد ذهبوا بتجارتهم الى بعض الجزائر الهندية الشرقية فى ابتداء القرون الاولى من الهجرة كما فعلوا فى أماكن أقرب وأخرى أبعـد منها بينما بعض هذه الجزائر مثـل سومطرا Sumatra واقعة بينهما .

انه وانلم يذكر جغرافيو العرب هذه الجزائر فى كتبهم ـ قبل القرن التاسع الميلادى الا انه فى كتب التقويم الصينية مذكور أن فى سنة ٦٧٤ ميلادية كانت جالية عربية فى الشاطىء الغربى ـ من سومطرا

ويستنتج بعض العلماء من اتخاذ الاهالى الشافعية منهبا لهم ومن انتشار المذهب الشافعى فى شواطئ الكوروماندل Coromandel وشواطئ الملبار Malabar الآن كما كان سابقاً فى منتصف القرن الرابع عشر ـ حين زيارة ابن بطوطة لهذه الجهات أن الاسلام دخل الى هذه الجزائر الهندية الشرقية من جنوب الهند ومن شواطئ الملابار

وذلك لأن مذهب البلاد الاخرى المجاورة حنفى ولان موانى الملابار يؤمها التجار قديما من جاوى ومن الصين ومن اليمن ومن بلاد فارس

ومن بلاد الهنـد أو من فارس دخلت الشـيعة الموجود بعض بقاياها الآن فى جاوى وسومترا

ومن ابن بطوطة نعلم أن سلطان سومطرا Sumatra المسلم قد حسن العلاقات مع ملك دهلى Delhi وان من العلماء الدينيين المقربين الى السلطان السـومطرى اثنين من بلاد فارس أحدهما من شيراز والآخر من أصفهان

وقبل ذلك بمدة كان قد كثر تجار الدَّكَن Daccan الذين احتـكروا التجارة بين الممالك الاسلامية الهندية و بين الجزائر الهندية الشرقية — فى موانى هـذه الجزائر وفيها زرعوا حبوب هذه الديانة الاسلامية السمحاء

فالى هؤلاء التجار المبشرين النازحين من بلاد العرب والهند يرجع الفضل فى تأسيس أول الجاليات الاسلامية من الأهالى وفى تحويلهم من عبادة الأصنام الى عبادة الله الواحد الرحمن فهم لم يدخلوا محاربين ولم يعلقوا السيوف فوق الرقاب لا كراه الناس فى الدين بل استخدموا اللطف والفـكر والمعرفة فى سبيل نشر الدين الاسلامى أ كثر من استخدامهم اياها لطلب السعة فى الرزق والغنى فى المال

اذا كان دخول العرب الى هـذه الجزائر غير معروف بالتمام فانه معروف أنهم دخلوها قبل البرتغاليين فقد قال ماركو فولو Marco Polo الذى صرف خمسة أشهر فى الشاطئ الشمالى من سومطرا سـنة ١٢٩٢ م ان كل السكان كانوا مجوساً وعباد أصنام عدا سكان البلدان فى مملـكة بارلك Parlak الصـغيرة الموجودة فى الشمال الشرقى من سومطرا لأنهـم اعتنقوا الاسلام بواسطة تجار العرب

ولما دخل ابن بطوطة سومطرا سنة ١٣٤٥ وجد هنالك ملكا مسلما اسمه الملك الزاهر وتمتد سلطنته على الشاطئ مسافة ايام سفراً وقد كان محبا للمباحثة مع علماء الدين وكان فى حاشيته شعراء وعلماء

وقد تحصل العرب عموماً على احترام عظيم من الاهالى ونفوذ كبير فيهم سيما السادة والأشراف سلالة الحسن والحسين سبطى المصطفى ﷺ فقد تباهى أمراء الأهالى وملوكهم المسلمون بالتقرب اليهم بمصاهرتهم و بتزويج بناتهم منهم و يتفاخرون اذا ولدن منهم سادة وأشرافاً . وقد صار البعض منهم سلاطين ولم يزل منهم أحياء يرزقون مثل سلطان وأمراء فونتيانالك Pontianak من جزيرة بورنيو Borneo

منذ القرن السابع عشر كان أكثر مهاجرى العرب الى هذه الجزائر حضارم وكانوا يتعيشون من التجارة و بعده أضافوا حرفة أخرى هى الملاحة فكانت مراكبهم الشراعية تمخر البحار كالاعلام وكان قبطانهم ونائب القبطان والادارى من العرب أما التجار فكانوا من الاهالى ومما لانزاع فيه ان هذه المراكب كانت سببا فى ازدياد عدد المهاجرين الحضرميين الى هذه البلاد وفى زيادة ثروتهم . وقد بلغوا ذروة المجد فى الملاحه بين سنة ١٨٤٥ وسنة ١٨٥٥ حين احتكرت مراكب الحضارم ملاحة الموانى ومنذ ذلك الحين ابتدأت مراكبهم الشراعية فى الانحطاط بسبب منافسة المراكب البخارية الاوروبية والآن لم يبق عندهم من المراكب شئ

عدد العرب

كان عدد العرب قبل ادخال الاحصاء غير معروف أما بعد الاحصاء فكان عددهم كما يأتى : —

سنة	فى جاوى (ومدورا)	فى خلافها	المجموع
١٨٥٩	٤٩٩٢	—	—
١٨٧٠	٧٤٩٥	—	—
١٨٨٥	١٠٨٨٨	—	—
١٩٠٥	١٩١٤٨	١٠٤٤٥	٢٩٥٠٠
١٩٢٠	٢٧٨٠٦	١٧١١٥	٤٤٩٢١

عدد المسلمين الآن

فى الجزائر الهندية الشرقية الهولندية فقط خمسون مليون مسلم وكثيرون من الاهالى الذين يعرفون الكتابة يتكاتبون بلغة الملايو بحروف عربية وفى لغة الملايو نفسها ما يزيد على ٢٥٠/. من كلماتها مأخوذة من العربية

دخول الاوروبيين

للحصول على البهارات والذهب والاحجار الكريمة وخلافها رأسا من منابعها الشرقية بحث البرتغاليون فى أواخر القرن الخامس عشر عن الاراضى والبلاد التى تخرج منها هذه الأشياء الثمينة وفى سنة ١٤٩٦ سافر فسكوداجاما Vascoda Gama ووصل الى مكان كلكتا Calcutta الحالية على طريق رأس الرجاء الصالح . ونجاحهم هذا وما يليه شجعهم على زيادة البحث والاسفار ففى سنة ١٥١١ وصل البرتغالى انتونيو دى ابرو Antonio de Abreu الى جاوى وامبون و بندا Java. Amboun & Banda وفى سنة ١٥٢٢ ارسل البرتغالى de Lerne الى Bantan (من جزيرة جاوى) التى كانت لم تزل حينذاك هندوية بوذية . وحيث ان حاكم Bantan البوذى كان محاربا لأمير شربون المسلم Cheribon استجار الامير البوذى لمّا أحس بضعفه بالبرتغاليين ووعدهم بمكان لبناء معمل Factory وبحُرّيّةِ التجارة وبهدية سنوية قدرها الف كيس من الفلفل مقابل قلعة يبنيها البرتغاليون للدفاع عن الميناء ومساعدتهم اياه فى حربه ضد أمير شربون المسلم . وبالرغم من اتفاقهم على ذلك فقد سافر البرتغاليون واعدين بالرجوع بقوة أكثر . ولكنهم لما رجعوا وجدوا أن سلطان شربون Cheribon قد انتصر واستولى على Bantan باتتان

وهذه البعثة كانت سببا فى تاسيس التجارة بين البرتغال والجزائر الهندية الشرقية التى احتكروها لأنفسهم فيما بعد وقد بلغت تجارتهم اقصاها بين سنة ١٥٩٠ وسنة ١٦١٠ وبلغ عدد مراكبهم ١٥٠ الى ٢٥٠ فى الارسالية الواحدة . وفى أواخر القرن السادس عشر كانت لشبونة Lissabon أغنى ميناء فى اوروبا . وبينما كانت لشبونه مركز التجارة كانت الموانى الهولندية اماكن التوزيع لشمال اوروبا وفى سنة ١٥٧٧ مر «دريك» Drake الانجليزى فى طوافه حول الأرض بجزائر الملوك Bantan & Moluccas

وفى سنة ١٥٩٤ منع البرتغاليون دخول المراكب الهولندية ميناء لشبونه فسد باب التجارة امام الهولنديين الذين كانوا وسطاء بين البرتغال وشمال اوروبا . لذلك اجتهد الهولنديون فى الحصول على المعلومات اللازمة لمعرفة الطريق التجارى الذى يوصل الى الجزائر الهندية الشرقية . وقد تمكنوا من ذلك بواسطة Cornelis Houtman هوتمان الهولندى الذى سكن البرتغال وعرف السر . وقد أسس تجار امستردام شركة للتجارة مع الهند الشرقية وسافرت اربعة مراكب هولنديا ، وموررتس Maurits , Holandia بمحمول الواحد ٤٠٠ طن وامستردام Amsterdam ٢٠٠ طن و Duyfje ٥٠ طنا تحت قيادة هوتمان المذكور فى ٣ ابريل سنة ١٥٩٥ ووصلوا باتتم Bantam بجاوى فى ٢٣ يونيو سنة ١٥٩٦ ثم أرسل الهولنديون سنة ١٥٩٨ ارسالية أخرى تحت قيادة فان نك Jan Cornelis van Neek واخرى بعدها. ولما رأى البرتغاليون نجاح الهولنديين أرسلوا ٣٠ مركباً حربياً لمحاربة المراكب الهولندية الذاهبة الى الشرق الأقصى ولكن الهولنديين كسروا البرتغاليين وبذلك ماتت تجارتهم وأخيرا أخرجهم الهولنديون من الجزائر الهندية الشرقية

وفى سنة ١٦١٧ عين جان بيترس كون Jan Pietersz Coen حاكما عاما هولنديا وفى ١٢ مارس سنة ١٦١٩ سميت القلعة بتافيا وفى ٣٠ مارس سنة ١٦١٩ تكونت البلدة بتافيا التى لم تزل الى الآن عاصمة للجزائر الهندية الهولندية

الجزائر الهندية الشرقية الهولندية فى الوقت الحاضر

الموقع الجغرافى والسكان

تمتد الجزائر الهندية الشرقية الهولندية من آسيا الى استراليا بين درجة ٩٥ ودرجة ١٤١ من خط الطول شرقاً و بين الدرجة ٦ شمالا من خط الاستواء و ١١ جنوباً منه

وأطول خط من الغرب الى الشرق خمسة آلاف كيلو متر حيث تمخر فيها السفينة البخارية فى ١٤ يوماً فى وقتنا هذا ومسافة الخمسة آلاف كيلو متر هذه تعادل تقريباً المسافة بين الشاطئ الغربى لأرلندا فى الاطلانطيق و بين الشاطئ الشرقى للبحر الاسود فى آسيا وأبعد مسافة من الشمال الى الجنوب ٢٠٠٠ كيلو متر وتعادل المسافة بين البحر الأبيض الشمالى وروما

ليمكننا أن نتصور مساحة بعض هذه الجزائر يجب أن نعرف الحقائق من المقارنة الآتية:

جاوى و (مدورا) مساحتها ١٣١٥٠٨ كيلو مترات أو ٥٠٧٦٢ ميلا مربعاً وتعادل مساحة انجلترا بدون اسكتلندا وويلز وارلاندا

سومطرا ٤٢٠٠٠٠ كيلو متر او ١٦٢٠٠٠ ميل مربع أى أكبر من مساحة بريطانيا العظمى .

بورنيو الهولندية فقط ٥٥٣٠٠٠ كيلو متر أو ٢١٣٠٠٠ ميل مربع تعادل فرنسا

سيليبس ١٨٥٠٠٠ كيلو متر أو ٧١٠٠٠ ميل مربع أكبر من ولاية واشنطون وتعادل مساحة نيوزيلند وسيلان معاً

نيوجينيا الهولندية فقط ٣٩٧٠٠٠ كيلو متر أو ١٥٣٠٠٠ ميل مربع مثل اليابان (دون ملحقاتها)

ومجموع مساحة الجزائر المذكورة وغيرها من الجزائر الهندية الشرقية الهولندية مليون وتسعمائة ألف كيلو متر مربع أو ٧٣٣٠٠٠ ميل مربع ويعادل مجموع مساحة الدول الآتية — بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا وبلجيكا وهولندا وسويسرا والدنمارك والسويد أو نصف مساحة أوروبا تقريباً بدون روسيا

ومجموع طول شواطئ هذه الجزائر يعادل طول دائرة الأرض circumference of earth

عدد السكان حسب احصاء سنة ١٩٢٠

جاوى (ومدورا)	٣٦٫٤٠٠٫٠٠٠
سومطرا	٦٫٢١٨٫٠٠٠
بورنيو الهولندية	١٫٧٥٧٫٠٠٠
سيليبس	٣٫٣١٤٫٠٠٠
الباقى	٣٫٣١٩٫٠٠٠
فالمجموع هو	٥١و٠٠٠و٠٠٠

الطقس

تبلغ درجة الحرارة على الشواطئ فى النهار عادة ٥ ر ٢٦ سنتجراد (يساوى ٨٠

فهرنهيت) وبالليل ٢١ س (٧٠ ف) ويختلف الجو اختلافا عظيما بسبب الجبال الكثيرة العالية المكسوة بالخضر و بسبب الاودية فكلما زاد العلو قلت الحرارة وزادت البرودة عادة بنسبة نصف درجة س فى كل ٣٠٠ قدم أو درجة واحدة ف كل ٣٣٠ قدما . فبينما نشعر بالحر على الشواطئ نحس باعتدال الربيع فى الاماكن المتوسطة العلو و بالشتاء فى الاماكن الجبلية العالية وتارة لا فارق بين الصيف والربيع والشتاء الا ساعات قليلة

الحكومة

ان الجزائر الهندية الشرقية الهولندية تكوّن جزءاً من المملكة الهولندية سياسيا والقوانين الهولندية هى أعلى القوانين ولكنها عادة لا تتدخل الا فى القوانين التى تؤثر فى الأحوال الاقتصادية وخلاف ذلك فان الجزائر الهندية الشرقية مستقلة استقلالا اداريا فى التشريع والنفوذ الأعلى للملكة التى تحكم بموجب قوانين الحكومة . وناظر المستعمرات ينوب عن الملكة فهو الذى يشرف على الحكومة الهندية الشرقية الهولندية ويحكم الحاكم العام كذلك باسم الملكة ويساعده فى التشريع والادارة مجلس الهند Road van India Council of Netherlands India و يمكن كذلك أن يستشير رؤساء الادارات وهى ادارة العدلية والمالية والداخلية والمعارف والزراعة والصناعة والتجارة والأشغال العمومية والأشغال الحكومية Gouvernement bedryven Industries والحربية والبحرية ثم السكرتارية العمومية

ومنذ سنة ١٩١٨ أنشئ مجلس الأمة Volksraad ونصف أعضائه منتخبون والنصف يعينه الحاكم العام وهذا المجلس استشارى ويمكن للحاكم العام أن يستشيره فى كل الامور ولكنه مضطر الى استشارته فى الميزانية Budget وسلف المستعمرة

الزراعة

لا توجد أرض فى البلاد الحارة تزرع فيها مختلف المزروعات مثل الجزائر الهندية الشرقية الهولندية ولاسيما جاوى والزراعة هى أهم أسباب التقدم الاقتصادى فيها

وأكثر الاراضى فى جاوى مرتفعة الى علو ١٥٠٠ متر أو ما يزيد على ٤٥٠٠ قدم مزروعة ففى هذه الاماكن العالية يزرع الدخان والشاى والقهوة . وفى الأماكن

المتوسطة والتلولية يزرع الأرز والذرة والفول والتمباك والدخان والبطاطس والكاوتشوك بينما فى الاراضى الواطية يزرع قصب السكر والجوز الهندى والكافور Kapok ويمكن تقسيم الزراعة الى قسمين :ــ

(١) الزراعة التى فى أيدى الاوروبيين

(٢) الزراعة التى فى أيدى الاهالى

والاولى للصادرات والثانية أكثرها للاستعمال فى البلاد وكذلك للصادرات وأهم زراعة الاهالى الارز ثم ال Cassava البطاطس والجدول الآتى يبين مساحة الارض المزروعة بالهيكتار والهيكتار يساوى ٤٧١و ٢ فدان انجليزى وحاصلها بالطن ton الميتريكى

الارز المائى	٢٫٩١٠٫٠٠٠	هيكتار حاصلها	٦٫٠٥٧٫٠٠٠	طن ton
الارز غير المائى	٣٨٥٫٠٠٠	»	٤٣٥٫٦٠٠	»
الذرة	١٫٥٩٨٫٠٠٠	»	١٫٥٦٤٫٢٠٠	»
البطاطس	١٤٨٫٠٠٠	»	١٧٠٫٥٠٠	»

اما أراضى الزراعة التابعة للاوروبين فتبلغ مساحتها ٢٫٦١٠٫٩٧٥ هكتار منها ٩٠٧٫٦٥٦ هكتارا مزروعة ومن الأخيرة هذه ٥٧٥٫٢٢٦ هكتاراً فى جاوى أى ٦٣ ٪ ومن الجدول الآتى نعرف اهميتها

قصب السكر يزرع شرقى جاوى وبموجب احصاء ١٩٢٥ كانت فى تلك السنه ١٧٩ فابريقه اخرجت ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ مترك تن Metric ton سكر من ١٧٦ ر ٢٦٧ هكتار أرض مزروعة بالقصب وكان متوسط محصول الهكتار الواحد ١٢٧٨٠ كيلوجرام المطاط أو الكاوتشوك أو Rubber فى اوائل سنة ١٩٢٦ بلغ عدد العزب Estates ٨٧٥ منها ٤٨٤ فى جاوى ومجموع المساحة المزروعة ٥٠٤٨٠٧ هكتاراً منها ٤١٤٩٤٨ هكتاراً مزروعة بال Hevea ومن المساحة الأخيرة ١٨٠٤٧٨ هكتاراً فى جاوى

القهوة

بلغ مجموع العزب estates فى سنة ١٩٢٦ ــ ٣٦٠ منها ٢٧٠ فى جاوى ومجموع المساحة ١١٦٥٣٠ هكتاراً منها ٩٥٢٨٦٠ هكتاراً ذات محصول من ذلك ٩٥٣٥٧ هكتاراً فى جاوى منها ٨٠٧٤٦ هكتاراً ذات محصول والمحصول فى سنة ١٩٢٥ ــ ٦١١٥٣ طنا منها ٥٧٦٩٣ أو ٩٤٪ من النوع المسمى روبستا Robusta Coffee

الشاى

أكثر الشاى مزروع فى غرب جاوى من ٢٨٥ estates ٢٦٠ فى جاوى و ٢٥ فى سومطرا ومجموع المساحة المزروعة فى سنة ١٩٢٦ هى ٩٧و٦٣١ هكتاراً

التمباك

المساحه المزروعة فى سنة ١٩٢٦ – ٤٥و١١٥ هكتاراً منها ١٨و٦٨٨ فى سومطرا والباقى فى جاوى cinchona ٩٠٪ من محصول الدنيا تخرج من جاوى ومجموع مساحة الأرض المزروعه ١٩و١٥٧ هكتار

بعض صادرات المحصولات الزراعية سنة ٩٢٥ وأثمانها

الكاوتشوك	١٩٠و٠٠٠	طن ثمنه		٥٦٦ مليون روبية	
السكر	٢و٠٠٠و٠٠٠	»	»	٣٦٧	»
تمباك	٩٢و٠٠٠	»	»	١١٠	»
الزجيل الناشف	٣٥٠و٠٠٠	»	»	١٠٢	»
القهوة	٦٩و٧٣٥	»	»	٦٨	»
الشاى	٥٠و٠٠٠	»	»	٧٤	»
الفلفل	٢٦و٥٠٠	»	»	١٩	»

أما مجموع أثمان الصادرات كلها فهو :

١و٧٨٤و٩٩٨و٠٠٠ روبية أى ما يزيد على ١٤٨و٠٠٠و٠٠٠ جنيه انكليزى

المواصلات

نصف السفن التجارية التى تأتى وتخرج من هذه الجزائر هولندية وتليها السفن البريطانية واليابانية ثم الأمريكانية أما السكك الحديدية فتوجد فى جاوى ٥٣٩٤ كيلو مترا وفى سومطرا ١٦٧٣ وأكثر هذه السكك الحديدية تابعة للحكومة ومجموع ايراد السكك الحديدية فى سنة ١٩٢٥ — ١١٩و٩٢٢و٠٠٠ روبية منها ٦٤و٥٢٥و٠٠٠ روبية للحكومة

نسبة بعض الحاصلات الى حاصلات العالم

تنباك	٩٠ ٪ من حاصل الدنيا	القصدير	٢٢ ٪ من حاصل الدنيا
كافور	٨٤ ٪ «	الشاى	١١ ٪ «
الفلفل	٨٠ ٪ «	السكر	٩ ٪ «
الكاوتشوك	٤٦ ٪ «	البن	٧ ٪ «

واذا نسبنا مجموع الصادرات الذى هو ١٬٧٨٤٬٧٩٨٬٠٠٠ الى مائة فتكون نسبة أثمان الصادرات هكذا :

الكاوتشوك ٣٢ر٨٦ ٪ والسكر ٢٠ر٧٠ ٪ وزيت البترول ٩ ر٦٩ ٪ والتمباك ٦ر١٩ ٪ والزجيل الناشف ٥ر٧٤ ٪ والقصدير ٤ر٣٦ ٪ والشاى ٤ر١٧ ٪ والقهوة ٣ر٨٢ ٪ والفلفل ١ر٣٥ ٪ والكافور ١ر٢١ ٪

فيكون المجموع هو ٨٧ر ٪ وباقى الصادرات ٩ر٠٤ ٪ فالمجموع ١٠٠ ٪ يساوى ١٬٧٨٤٬٧٩٨٬٠٠٠ روبية

ونسبة توزيع الصادرات هكذا :

سنغافور ٢٦ر٦٨ ٪ — هولندا ١٥ر٤٦ ٪

الولايات المتحدة ١٤ر٠٩ ٪ — الهند الانجليزية ٨ر٠٤ ٪

بريطانيا العظمى ٦ر٨٤ ٪ — هونج كونج والصين ٥ر٦٦ ٪

اليابان كوريا ومورموزا ٥ر٥٠ ٪ فرنسا ٣ر١٢ ٪

ألمانيا ٢ر١٢ ٪ — استراليا ١ر٩٤ ٪

باقى الدنيا ١٠ر٥٤ ٪

	الصادرات	الواردات	زيادة الصادرات
فى سنة ١٩٢٢	١٢٠٠	٨٠٠	٤٠٠ مليون روبية
فى سنة ١٩٢٣	١٤٠٠	٧٠٠	٧٠٠ « «
فى سنة ١٩٢٤	١٥٠٠	٧٥٠	٧٥٠ « «
فى سنة ١٩٢٥	١٧٨٤	٨٨٠	٩٠٠ « «



حاضر العالم الإسلامي

تأليف لوثروب ستودارد الامريكي

LOTHROP STODDARD

نقله الى العربية

الأستاذ عجاج نويهض

وفيه فصولٌ وتعليقاتٌ وحواشٍ مستفيضة
عن دقائق أحوال الأمم الاسلامية وتطورها الحديث

بقلم امير البيان والمجاهد الكبير



المجلد الأول

الجزء الثاني

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

ربِّ يسِّرْ وأعِنْ

فهرست

المجلد الثانى

من كتاب « حاضر العالم الاسلامى »

مسلمو الاندلس

للأمير شكيب

كأن المؤلف يريد أن يقول ان المسلمين لا يرتدون عن دينهم من أنفسهم و بمطلق اختيارهم والا فما ثبت تاريخاً ان مئات ألوف من مسلمي الاندلس قد تنصروا وان كثيرين من الأسبانيول اليوم لا سيما سكان جنوبي أسبانية هم من سلالة العرب وتجدهم يحفظون أنسابهم ومنهم من عندهم شجرات النسب ومنهم من يدلي بقربى الى بعض المسلمين في أفريقية .

وان كثيراً من الأسر النبيلة الأسبانيولية ينمى الى أصل عربي ولا يزال يحمل الى يوم الناس هذا أسماء عربية فتجد في اشبيلية مثلا بني أمية — وأحياناً يلفظها الأسبان خيَّة — وتجد بني عباد و بني عمرو بني الفخَّار وغيرهم . وقد ناولني المستشرق الأسباني الغرناطي السنيور « ايزيدورو دولاس كاخيكاس » Isidoro de las Kajikas قنصل أسبانية في تطاون جدولا فيه أسماء عائلات اسبانيولية نبيلة متحدرة من أصل عربي مثل « عائلة الدوق البرقوقي » في طريف والأسبانيول يقولون Alburquerque وحدثني صديقي الحاج عبدالسلام بنونه الذي هو من أعلام المغرب وانجمه الطالعة بأن في «انجرة» من جبال الريف عائلة البرقوقي أي أنه يوجد البرقوقي في طريف وفي العدوة المغربية المقابلة لطريف . ومثل عائلة « القلعة » Alkala ومنها المركيز « الداما » ومنها عائلة « الكدية » Alkudia في «اتارفي» ومنها عائلة «المازان » Almazan في « بنالوَّه » ومنها عائلة «المناره» Almenara في « بناميج » ومنها عائلة « المدور » Almodavar في « كسيرس » وهم منسوبون الى قلعة المدور عند قرطبة ويوجد في طنجة وتطاون بنو المدوَّر . ومنها عائلة « بيانة» Baena نسبة الى بلدة بهذا الاسم . ومنها بنو « دانية » Dénia في « وادي اليازان » ويوجد بنو

دانية (تلفظ بالامالة) فى الرباط وهم عائلات كثيرة. ومنها بنو «غرناطة ديغا» Granada De Ega ومنها بنو « جريكا » والأسبان يقولون «خريكا» ومنها «بنو مدينة سالى» Medinaceli وهكذا يلفظ الأسبانيول مدينة سالم على القطع بل يلفظون السين من سالم ثاءً ويقولون «مدينة ثالى» ومنهم الكونت «دوكاڤيا» . ومنها بنو «مدينة شذونيه» Medina Sidonia ومن هؤلاء الفيكونت «دولا البوراده» ومنها بنو « ناجره » Naejra ومنها بنو «سويقو» Sueco ومنها عائلة المركيز « دو ابراده » De Abrada فى « دلا مازان » ومنها عائلة الباثان Albaian . ومنها عائلة البلوطى Albolote لعلها عائلة القاضى منذر بن سعيد البلوطى الشهير قاضى الجماعة بقرطبة لعهد الناصر وكان ينسب الى فحص البلوط . ومنها عائلة «القصير » Alcocévar فى بلدة « قزازة » ومنها عائلة «البروسس» Alborroces فى « كانيثى » ومنها عائلة « الفرّاس » Alfarras فى « قمارش » Camares . ومنها عائلة « دولا الغابه » De la Algaba فى « ديلار » . ومنها عائلة «الغاره» Algara فى بلدة «الش» . ومنها عائلة « دو لاغرفه » Algorfa فى « وادى المينا » . ومنها عائلة « الحمه » Alhama فى « ابزياتى » ومنها عائلة « الهندين » Alhendin فى «مرشلينه» ومنها عائلة « المنصوره » Almanzora فى « تامريت » . ومنها عائلة «المرسى» Almarza فى « تاراسينه » . ومنها عائلة «القبلة» Alkibla فى « الزهرا » Zahra ومنها عائلة « آرمونيه » Armunia فى « صفرا » ومنها عائلة « باشرس » Bacares فى « زويه » ومنها عائلة « بيدس » Baides

ويقال ان رئيس جمهورية أسبانيا الحالى « القلعه سموره » Alkala Zamora هو من أصل عربى . ويقال أيضاً ان رئيس الوزارة الحالى Azania الذى يغلب أن يكون «السانيه» هو أيضاً من أصل عربى . وكذلك ناظر المعارف الحالى فى أسبانية De los Rios هو حسبما يروى من أصل عربى . وقد تألفت فى أثناء تجديد هذا الكتاب جمعية أسبانيولية اسلامية فى مجريط عاصمة أسبانيا مقصدها التقريب بين المسلمين والأسبان رئيسها السنيور «خوشى فرانشى» نائب مجريط وخليفتا الرئيس محرر هذه الأسطر والسنيو «اميليو بياندو» وفيها بضعة عشر شخصاً من نواب المجلس الأسبانى ومن أدباء أسبانيا وساستها . وفيها من المسلمين عدا هذا الفقير الى ربه الأخ احسان بك الجابرى زميلى فى الوفد السورى الفلسطينى والحاج عبد السلام بنونه عين أعيان تطوان والسادة محمد الفاسى وأحمد

بلافريج وعبدالخالق الطوريس ومحمدالداود ومحمد بن الحسن الوزانى وهؤلاء هم نخبة شبان المغرب علماً ونجابة وتحصيلاً وسراوة . وفى هذه الجمعية السيد خليل بن أمية من صحافيي اشبيلية والسيد « انريكى دورافولس » وهو أيضاً من أصل عربى يقول ان أصل اسمهم رحال ولما كان الأسبانيول كثيراً ما يقلبون الحاء فاءً فقد جعلوها « رفال » كما قالوا فى البحيرة « البفيرة » فى بلنسية و بعد أن صار اسمهم « رفال » جعلوه « رفولس » فهو عربى المحتد بحسب قوله . ومن هذا النمط بنو سراج المشهورون فى الأندلس من أعقابهم أناس بمالقة يقال لهم « بنو سراخ » على عادة الأسبانيول فى قلب الجيم خاءً . وفى مدينة جنيف بسويسرة شارع « أبو زيت » Abouzit وهو منسوب الى المسيو « أبو زيد » الذى كان أعلم علماء زمانه وكان عربياً مشهوراً أصله من « تولوز » وأصل سلفه من جالية الأندلس الى جنوبى فرنسة كانوا أطباء وتنصروا على مذهب البروتستانت فيمن تنصر من تلك الجالية . ثم لما صدر أمر لويس الرابع عشر بمنع المذهب البروتستانتى من فرنسة جلا كثير من البروتستانت الى سائر البلدان مثل ألمانية وهولاندة وسويسرة وجاء أبو زيد هذا الى جنيف وكان معاصراً لفولتير ولروسو ولنيوطن ولليبنيتز وكان جميعهم يعجبون بسعة معارفه وكان ڤولتير يستفتيه فى عويص المسائل ويقول له « صديقنا العربى » . وفى سويسرة أكثر من اسم عربى وأما فى فرنسة فهو كثير لا سيما فى الجنوب ومن هذا القبيل المسيو «مورو جافرى» المحامى نائب كورسيكا Moro Jaferi وهو المغربى الجعفرى كما لا يخفى وتحرير هذه المسألة أنه لما غلب فرديناند وايزابلا على آخر مملكة اسلامية فى أسبانية وهى دولة بنى الأحمر من سلالة الخزرج الذين كان كرسيهم غرناطة واستولوا على هذه البلدة سنة ١٤٩٢ عقدا مع المسلمين معاهدة ليس هنا محل تفصيلها وانما نلخصها حسبما جاء فى نفح الطيب : تأمين الكبير والصغير فى النفس والأهل والمال وابقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ومنها اقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم الا بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك . وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً . وأن لا يولّى على المسلمين نصرانى أو يهودى ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل . وأن يفتكّ جميع من أسر فى غرناطة من حيث كانوا وخصوصاً أعياناً نص عليهم . ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا لسواه

والسلطان يدفع ثمنه لمالكه . ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع ويجوزون فى مدة عينت فى مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء . وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم . وان من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى فان أبى الرجوع الى الاسلام تمادى على ما أراد . ولا يعاتب من قتل نصرانيا أيام الحرب ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة . ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ولا يسفر لجهةٍ من الجهات ولا يزيدون على المغارم المعتادة . وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة ، ولا يطلع نصرانى للسور ولا يتطلع على دور المسلمين ولا يدخل مسجداً من مساجدهم ويسير المسلم فى بلاد النصارى آمناً فى نفسه وماله ، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن ولا يمنع مؤذن ولا مصلٍّ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ومن ضحك منهم يعاقب . ويتركون من المغارم سنين معلومة وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة (أى البابا) انتهى

ولقد أوردت تلخيص هذه المعاهدة فى كتابى « آخر بنى سراج » الذى ذيلته بتاريخ الأندلس المطبوع أول مرة سنة ١٨٩٧ مسيحية فقلت : انها خمس وخمسون مادة تتضمن من تفاصيل ما وقع عليه الاتفاق وفى طيها من عهود المحاسنة والملاطفة والمراعاة والمحافظة على أعراض القوم وعقائدهم ودمائهم وأموالهم وكراماتهم وراحاتهم ما لا يفى به الا نصه ، وقد تكرر فى المادة الخامسة العهد من الملك والملكة باحترام ديانة المسلمين ومساجدهم وأوقافها وأموالها المحفوظة وبعدم التعرض لأمورهم الشرعية بل اعادة ذلك الى فقهائهم وبالمحافظة على أصول الفقهاء وعاداتهم وملابسهم وأن يبقى هذا العهد معمولا به فى الأعقاب وأعقاب الأعقاب

وفى المادة السادسة عدم سلب أسلحة المسلمين ولا مراكبهم ولا مواشيهم الا الاسلحة النارية فتقرر أخذها . وفى المادة السابعة تسهيل السفر لكل من شاء الهجرة بأمواله وأمتعته وفيما بعدها اجازته على نفقة دولة قشتالة من أىّ مرسى أراد . وتسهيل معاملات بيع العقار لمن شاء الرحيل واذا لم يتهيّأ البيع ووكل صاحب الملك وكيلاً تعتبر وكالته ويساعد على استيفاء حاصلاته وايصالها اليه بمكانه من وراء البحر . وورد فى المادة

الحادية عشرة تشديد مجازاة كل من يدخل من النصارى جامعاً بدون رخصة من الفقهاء . وورد فى المادة الخامسة عشرة اعفاء السلطان أبى عبد الله وسائر أمراء المسلمين وقوادهم وفقهائهم من الضرائب والرسوم واقرار الجميع على امتيازاتهم كما كانوا لعهد ملوكهم وان تكون كلمتهم نافذة وقولهم مسموعاً . وورد فى المادة السادسة عشرة والتى بعدها ما يتضمن عدم جواز دخول أحد من النصارى بيوت المسلمين ولا الملك ولا الملكة ومن خالف ذلك يجازى بشدة . وفى المادة الخامسة والعشرين اذا فر أحد من أسرى المسلمين المعتقلين فى سائر الممالك ، ووصل الى غرناطة فقد نجا ولم يكن لشرطة غرناطة أن تمسكه لكن هذا الامتياز خاص بعرب الأندلس لا يتناول أسرى المغرب . وفى المادة الثلاثين أن من أسلم من النصارى قبل هذه الكائنة فلا يعامل الا بالحسنى ولا يلقى أقل تحقير ومن خالف ذلك ينال من الجزاء شدة . وفى المادة الواحدة والثلاثين لا يجبر مسلم ولا مسلمة على قبول الدين المسيحى وفى المادة الثانية والثلاثين اذا كان المسلم متزوجاً بنصرانية وأسلمت لا تجبر على الرجوع الى دينها الأصلى والذين يتولدون من هذا الزواج يعدون مسلمين ولو ارتدت الزوجة عن اسلامها وفى المادة الخامسة والثلاثين لا يرد المسلمون شيئاً مما غنموه أثناء الوقائع التى جرت الى يوم تسليم البلد وفيما بعدها لا يعاتبون على شئ مما مضى من تحقير الاسرى أو اهانتهم . وفى المادة الثانية والاربعين تفصل الخصومات بين المسلمين والنصارى فى مجلس مؤلف من قائدين أحدهما مسلم والآخر مسيحى . وفى الثالثة والاربعين تعاد جميع اسرى المسلمين فى مدة ثمانية أشهر من أى بلدة وجدوا فيها من اسبانية وفى مدة خمسة أشهر ان كانوا فى بلاد الاندلس . وفى التى تليها ذكر اطلاق سبيل ابن الدرامى المأسور عند غونسالف هر ناندز وعثمان اسير كوند تانديله ورضوان اسير صاحب قبره واعادة الفقيه ابن محيى الدين ورفاقه الذين غابوا على أثر حادثة ابراهيم بن سراج اينما وجدوا . وفى السادسة والاربعين تسهيل حركات سفن المغاربة فى مراسى الاندلس واعفاؤها تلك المدة من دفع رسوم بشرط عدم نقلها اسرى من النصارى . وفى الثانية والخمسين عدم استخدام شرطة من النصارى لمراقبة شؤون المسلمين بل تكون شرطتهم من أنفسهم

وفى آخر هذه المعاهدة تعهد الملك فرديناند وامرأته ايزابلا صاحبا ممالك قشتالة واراغون وليون وصقلية بان يحافظا على نص شروطها حرفا بحرف ويجريا جميع أحكامها من خاص

وعام وكلى وجزئى بكمال التدقيق وبدون ادنى زيادة ولا نقصان مهما كان من الاسباب وان تبقى على شكلها وهيئتها ولا يتغير ولا يتبدل حرف منها الى الأبد . ولا يمكن أحداً من خلفاء الملكين المشار اليهما ولا خلفاء خلفائهم ولا حفدتهما ولا أولادهم الى ما شاء الله ان ينقضوا أقل حكم من أحكامها أو يبدلوا حركة من حركاتها . وأعطى الأمر بها الى الامراء والوزراء والقواد والأجناد والرهبان والرعية من حاضر وغائب وقاص ودان وكبير وصغير واعلن أن من يجرؤ على الخلل بشئ مما تضمنته هـذه المعاهدة يجزى جزاء من أقدم على افساد البراءات الملوكية أو تقليد الحجج والسندات وذلك بدون أدنى تأخير

وأقسم الملك فرديناند والملكة ايزابلا وسائر من أمضوا الشروط على دينهم وشرفهم برعايتها الى الابد على الصورة المبيّنة وكتبت على رق غزال محلّى ومطرز تحريراً فى ثلاثين من دسمبر سنة احدى وتسعين وار بعمائة والف من الميلاد

وحررها « فرناندو صفره » بامر الملكين وامضاها الملك فرديناند والملكة ايزابلا وأولادهما الدون جان والدونة ايزابلا والدونة حنّة والدونة ماريانة والدونة كتالينه ورئيس أساقفة اشبيلية الدون دياغو هرتادو ورئيس اساقفة صانتيا غو الدون الفونس وكبير فرسان صانتيا غو المسمى بالدون الفونس أيضاً والدون جان كبير فرسان القنطرة والدون الفارو زعيم رهابين ماريوحنا والدون بيرو غونزالس كردينال اسبانية ورئيس اساقفة المملكة والدون هنري كبير حكومة اراغون ومن ابناء عم الملك والدون الفونس من أبناء عمه أيضا والدون الفارو مدير دائرة الملكين والدون بترو فرناندز رئيس جند قشتاله ويليهم نحو من أربعين دوناً كلهم من أبناء السلالة المالكة واساقفة البلاد وأمرائها وأعيانها وقوادها

وكتب ايضا معاهدة اخرى لسلطان غرناطة أبى عبد الله بن أبى الحسن متضمنة أربع عشرة مادة فيها تمليكه الاقطاعات والاراضى والبلدان التى وهبه اياها الملكان معيناً كل منها بذاته والتعهد باعطائه اربعة عشر مليوناً وخمسمائة قطعة من السكة المعروفة بالمراويد وذلك عند دخولها قلعة الحمراء واقرار ملكيته لجميع العقار الموروث واعفاؤه من دفع الضرائب والرسوم وأداء المكوس عما يجلب من الأمتعة برسمه وانه فى أى وقت شاء بيع هذه الأراضى والأملاك يشتريها كلها الملكان بقيمتها العادلة وان لم يشأ بيعها وأراد النقلة الى بر المغرب

فالوكيل الذي يعينه عليها يستوفي له حاصلاتها و يوردها عليه في أية جهة كان مماوراء البحر. وفي أي وقت عوّل على الاجازة تنقله مع رجاله وعياله وأمواله سفن دولة قشتالة مجاناً . ولا يطالب بشيء ولا يكون مسؤولا عن شيء مما حصل الى حين عقد الصلح ولا يسترد شيء مما غنمه . وجميع هذه الشروط كما هي جارية في حقه تجري أيضاً في حق والدته وشقائقه وزوجته وزوجة مولاي أبي نصر . والمعاهدة الثانية مؤرخة في يوم تاريخ الاولى الا أني وجدت أكثر المؤرخين يؤرخون امضاء هذه المعاهدات في ٢٥ دسمبر وفق ٢٢ محرم سنة ٨٩٧

ولما كان الاسبانيول قد أعطوا المسلمين مهلة سبعين يوماً لأجل التسليم بناء على أمل هؤلاء في ورود النجدة من وراء البحر ازداد الطاغية تيقظاً وسهراً وجعل الجيوش محيطة بغرناطة احاطة السوار بالمعصم وجمع الأساطيل و بثها في مراسي الأندلس وفي فرضة المجاز منعاً لكل مدد وارد فلم يطلّ أحد (تلك أمّة قد خلت) وان أطلّ فلم يغن شيئاً لأن سلاطين الاسلام كانوا في ذلك الحين متشاغلين بفتنهم الداخلية ومحاربة بعضهم بعضا فضلا عن ان الذي أصبح مقرراً في أذهان عامة المسلمين ان لا أمل بحفظ مملكة الاندلس وتجديد دولة الاسلام فيما وراء البحر الى جهة العدوة الاسبانية وان الجهاد في هذه السبيل عبث وهذا الأمر كائن لامحالة فتركوا الأمور وشأنها وأهل غرناطة يعللون أنفسهم بلعل وعسى . ولكن ابتدأ الجوع يعضهم بأنيابه فرأى أبو عبد الله ان انتظار آخر المدة مما لايكون له نتيجة سوى زيادة الضيق والمجاعة ولا رجاء في ورود أقل مدد ولو كان في قيد الحياة تنفس . فشاور الرؤساء فأشاروا بالتسليم قبل انقضاء الأجل المضروب . وفي العشرين من دسمبر أرسل وزيره يوسف بن كماشة مع الرهائن الى الملك فرديناند وأصحبه بفرسين كريمين وسيف ثمين على سبيل الهدية فبثّه مقصده وعزم الجماعة على تسليم البلد قبل مضي الأمد . وفي اليوم التالي ظهر درويش اسمه حامد بن زارة فأخذ يطوف الأسواق مناديا بالجهاد مستنفراً العامة الى الدفاع قائلا لهم انه سيرد اليهم نجدات من البشرات ومن بر العدوة وان الأمل عظيم بالفرج لكن الملك أبا عبد الله والرؤساء خائنون وكثر القيل والقال في البلد وصبوا اللعنات على أبي عبد الله ورموه بالخيانة و بيع الدين والوطن فثار نحو من عشرين الفا من أهل غرناطة وتقلدوا أسلحتهم وخرجوا في الأسواق بضوضاء ملأت الفضاء عازمين على الجهاد مستعينين بالله في دفع العدو فاستمروا يوما كاملا وقسما من الليل

فى هذه الحركة واذا باعصار شديد قد عصف بشدة فالزم الناس بيوتهم وانتهى الهياج بهبوب العاصف وفى اليوم التالى خرج أبو عبد الله من الحمراء محفوفا برؤساء البلد وخاطب الأمة قائلا لهم : « لاذنب الا ذنبى . أنا الذى عققت والدى وجلبت الأعداء على المملكة لكن الله قد أخذنى بجرائرى وأنزل النقمة كلها على رأسى وها أناذا الآن قبلت بهذه المعاهدة لأجلكم ياقومى ضناً بدمكم أن يراق سدى و بأطفالكم أن يموتوا جوعاً و بنسائكم وذراريكم أن تنزل فيهن معرات الحرب وحفظاً لأموالكم وأملاككم وحريتكم وشريعتكم ودياناتكم فى ظل ملوك أسعد طالعاً من أبى عبد الله المشؤوم » فأثرت رقة كلامه فى خواطر القوم وسكنت سورة حقدهم واستلت نعومة خطابه ماخشن فى صدورهم فانفضوا الى أمكنتهم . وفى الحال أرسل أبو عبد الله الى الملكين يعرض عليهما التسليم فى اليوم التالى حذراً من تجدد الحوادث فرضيا بذلك وتأهبا لدخول الحمراء كما ان أبا عبد الله وأسرته وحشمه أحيوا الليل فى التأهب للخروج وقد غسلوا ابهاء الحمراء بدموعهم وملأوا نواحيها بنواحهم وزموا حقائبهم بما فيها من الذخائر والاعلاق وحملوها البغال . وقبل أن تبلج الفجر انساب حريم أبى عبد الله وأهل القصر من أحد الأبواب حيث كان بانتظارهم فرقة من فرسان المسلمين الذين بقوا متمسكين بعروة سلطانهم الى الآخر وساروا من أحد الأحياء المعتزلة من المدينة والناس نيام والشوارع خالية . أما عائشة الحرة والدة أبو عبد الله فكانت متجلدة متجملة . وأما امرأته وسائر جوارى القصر فقد قرح البكاء مآقيهن وخدد الدمع خدودهن . ولما وصل الموكب الى احدى القرى التى على طريق البشرات وقف ينتظر وصول أبى عبد الله وعند مطلع الشمس جاءت فرقة من الخيالة والمشاة يصحبها « هرناندو دولا تافيره » مطران افيلا ودخلت من أحد أبواب المدينة حسبما كان وقع عليه الاتفاق فالتقاها السلطان ابو عبد الله وقال للمطران المذكور : « امض وتسلم هذه الحصون التى صيرها الله الى يدكم عقابا للمسلمين على اعمالهم » ثم تقدم لملاقاة الملكين وتقدمت العساكر فدخلت الحمراء وكان فرديناند وايزابلا ينتظران رؤية اعلام اسبانية فوق ابراجها فمضت مدة وأنظارهما شاخصة فلم يريا شيئاً فخشيا وقوع حادث لكن لم يكن الا قليل بعد ذلك حتى خفقت راية الصليب فوق أبراج الحمراء و بجانبها راية مار يعقوب وعلا هتاف العساكر فلما رأى الملكان ذلك بمكانهما على ضفة الشنيل خرّا جاثيين على ركبهما واقتدى بهما جميع الأمراء

والقواد والجند شكراً لله تعالى على مامنّ به . و بعد انتهاء الصلوات استأنفوا المسير حتى صاروا بجانب جامع صغير قريب من النهر فهنا التقوا بالسلطان أبي عبد الله الشقي[١] فحالما وقعت العين على العين أراد السلطان الترجّل اجلالا للملكين فمنعاه من ذلك فهوى على يد الطاغية ليقبلها فلم يمكنه فرديناند من ذلك . وقيل ان الملكة أيضاً أبت أن ترسل له يدها وانها أحسنت تعزيته وسلمته ابنه الذى كان مرهوناً عندها فضمه الى صدره وأخذ يقبله كأن الشقاء زاد من تعلق أحدهما بالآخر . ثم سلم أبو عبد الله مفاتيح البلد الى الملك قائلا له « هذه المفاتيح هى آخر ما بقى من سلطان العرب فى أسبانية خذها فقد أصبح لك ملكنا ومتاعنا وأشخاصنا كما قضت بذلك مشيئته تعالى فتقبلها بالرأفة التى وعدت بها والتى ننتظرها منك » فأجابه فرديناند : « لاشك فى اجراء ما وعدنا به وعسى أن يكون لك من صحبتنا الحظ الذى لم يكن لك من عداوتنا » ثم دفع فرديناند المفاتيح الى الملكة فدفعتها الى ابنهما البرنس جو يان وهذا أعطاها الى الكونت تنديله الذى كان قد عين قائداً لغرناطة

ثم انفصل أبو عبد الله عن الملكين قاصداً المقر الذى كان قد عين له فى وادى برشانة وسار الطاغية وامرأته نحو المدينة وأصوات الموسيقى مسموعة الى بعيد ولم يدخلاها يوم تسليمها خوفا من الغدر وانتظرا ان تتبوأها جيع العساكر لما كان يرعبهما من اسم غرناطة . أما سلطان غرناطة السابق فلما وصل الى مرقب عال على مسافة مرحلتين من المدينة يشرف عليها وقف يودع مدينته فلم تكن فى عينه أجمل منها فى تلك الساعة فأخذ يتامل فى أبراجها وقلاعها ومنائرها الضاربة فى السماء ومرجها النضير المنقطع النظير و وقف وراءه حاشيتهُ وجنده الذين لم ينفصلوا عنه وهم يتأملون سكوتا قد أبكمهم الحزن وأخرسهم الهم واذا بالدخان قد ارتفع فوق القلعة ودوى صوت المدافع ايذانا بأن المدينة دخلت فى حوزة الأسبانيول وانقطعت منها دولة الاسلام فعندها خفق فؤاد أبى عبد الله ولم يملك نفسه من البكاء فصاح « الله أكبر » وفسح مجال الدمع واستمطر ماء العيون فجادت بالشآبيب فقالت له أمّه عائشة الحرة المشهورة بالشدة « عليك أن تبكى بكاء النساء ما عجزت أن تدافع عنه دفاع الرجال » وهى الكلمة الشهيرة التى تناقلتها جميع التواريخ . واجتهد وزيره

---

(١) فى أثناء رحلتى الأندلسية سنة ١٩٣٠ واقامتى خمسة عشر يوما بغرناطة مررت بهذا المكان الذى سلم فيه أبو عبدالله مفاتيح عاصمة ملكه الأخير الى فرديناند ودلونى على مكان الجامع

يوسف بن كماشة فى تعزيته فلم يقبل قلبه العزاء و بقيت شؤون عينيه فائضه و زفراته متصاعدة وهو يقول : « أى شقاء مثل شقائى » وقد سمى الأسبانيول تلك الهضبة التى وقف عليها آخر سلاطين غرناطة يبكى المنزل والحبيب « بآخر حسرات المغربى »[١] ولما وقف فرديناند عن دخول البلد خوف الغيلة الى أن تكون عسا كره احتلت المواقع جميعها أرسل مركيز « فيلنه » وكونت « تنديله » بثلاثة آلاف فارس وجيش من المشاة مصحوبين بالأمير سيدى يحي الذى سماه النصارى بعد تنصره بالدون « بدرو دو غرناطة » وعين للنظر فى أمور المغاربة و بابنه الذى أطلقوا عليه اسم الدون « الونزو دو غرناطة » وكان أميراً للاسطول فتبوأوا جميع الأبراج ونشروا فوقها الاعلام الأسبانية

ولم يدخل الملكان المدينة الا فى سادس يناير وكان الاحتفال بدخولهما باهراً وظلا سائرين الى مسجد غرناطة الأعظم لحولاد كنيسة [٢] وأقيمت الصلاة شكراً لله تعالى على هذا الفتح المبين وأقبل الأمراء والقواد وعظماء الأسبانيول على الملكين يقبلون أيديهما و يهنئونهما على هذه النعمة التى اختصهما الله بها وكرمهما باحرازها . و بعد الخروج من الكنيسة سارا الى الحمراء الموصوفة فألفياها فوق ما كانا يتصوران من اتقان الصنعة وفخامة البنيان ورحابة الساحات ولطافة الرسوم والنقوش وأعجبا مما فيها من الزخرفة التى تتقطع دونها الأيدى والتأنق البالغ حده سواء فى الابهاء أو المقاصير أو النوافر والصهاريج أو المداخل والتعاريج اذ يتحير الناظر ما بين مرمر مسنون وعسجد مصون وسوار كأنها مفرغة فى أحسن القوالب وسقوف كأنها السماء زينت بالكواكب . فاتخذ الملكان لهما عرشاً فيها وجلسا للتهنئة حيث جاء أهل غرناطة والبشرات يقدمون لهما واجب الاجلال و يقبلون أيديهما صاغرين . ووجد فى غرناطة يوم دخول الملكين اليها خمسمائة أسير من الأسبانيول

هكذا انتهت تلك الحرب التى استمرت عشر سنين لم تفتر فيها الوقائع ولا نشفت

---

(١) وهذا المكان قد مررت به أيضاً فى سياحتي الى جبال البشرات

(٢) وقد دخلت هذه الكنيسة وشاهدتها فى أثناء زيارتى لغرناطة سنة ١٩٣٠ وشاهدت مدفن فرديناند وايزابلا بقرب هذه الكنيسة ورأيت صوراً كثيرة على الحيطان منها صورة جماعة من مسلمى الأندلس من رجال ونساء يتنصرون بين أيدى أحبار الاسبانيول وعلى وجوههم غبرة الموت

فيها الدماء ولا انقطعت المصارع و بنهايتها انصرم حبل الاسلام من بلاد الأندلس بعد ان استتبت دولته فيها سبعمائة وثمانيا وسبعين سنة منذ انهزم لذريق على ضفاف الوادي الكبير الى تسليم غرناطة والله وارث الأرض ومن عليها

ثم نقلنا ماجاء فى نفح الطيب عن هذه الكائنة العظيمة مما يقدر أن يراجعه من شاء اما فى كتابنا « آخر بنى سراج » المذيل بتاريخ الأندلس واما فى نفح الطيب نفسه كما أنه يمكنه أن يراجع وصف هذه الكائنة فى كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » لمؤلف لم يذكر اسمه يظهر من نسق روايته أنه كان حياً فى ذلك الوقت وانه شاهد الوقائع بنفسه وهذا الكتاب مطبوع أيضا ذيلاً لآخر بنى سراج . ثم قلنا :

« و بعد أن دخلت غرناطة فى حوزة الأسبانيول انقطع السلطان أبو عبد الله بن الأحمر فى أرضه بوادى برشانة حيث وفر له الطاغية الاقطاعات وكذلك لوزيره يوسف بن كماشة الذى لزم بابه فأقام مدة هناك ذاق أثناءها طعم الراحة وانتفض من عوارض ما كان فيه من هياط ومياط . ولكن الأمر لم يطل به حتى عاد يذكر ماضى ملكه وعليائه ويحن الى غابر حرائه فتثور فيه الأشجان و يستشعر فؤاده الأحزان . وفى هاتيك المدة لم يدع الملكان وسيلة الا استعملاها لأجل صبائه عن دين آبائه وادخاله فى النصرانية فأخفقت مساعيهما و بقى بالهما مشغولاً من جهته اذ لم يزل وجوده هناك محلاً للخوف من انتقاض مسلمى الأندلس تحت رايته والتفافهم حواليه ففى سنة ١٤٩٦ داخل الملك فرديناند وزيره يوسف بن كماشة سراً فى ابتياع أراضى مولاه بثمانية آلاف دوكا من الذهب فتمّت الصفقة وانعقد البيع بدون علم أبى عبد الله وبدون أن يعتنى فرديناند بسؤال يوسف عن سند الوكالة بل نقده المال فحمّله البغال وسار الى البشرات فلما وصل بين يدى مولاه نثر الدنانير أمامه قائلاً له :

«رأيت يامولاى أن بقاءك هنا معرّض للخطر فان المغاربة أهل اقدام وثار وحَمَلة أوتار ولا يبعد أن يثوروا مرة رافعين رايتك وتعزى ثورتهم اليك فتقع فى المقيم المقعد . وما دمت فى هذه البلاد يخطر فى بالك أنك كنت أميرها على حين لا أمل فى رجوع هذه الامارة لك . لذلك رأيت الأنجح فى حقك بيع أراضيك وقبضت ثمنها وها هو لديك يمكنك أن تتملك به أراضى واسعة جداً وراء البحر »

« فلما سمع أبو عبد الله هـذه الكلمات استشاط غضبا واخترط سيفه وكاد يضرب به رأس وزيره فأسرع هـذا الى الفرار من حضرته و بقى أبو عبـد الله وحده يتأمل فى هذه المسألة و يقلب من وجوهها فلم يلبث أن ذهب ما به وعاد اليه سكونه واستدل على أن هذه الصفقة لم تكن لتجرى لولا رغبـة فرديناند فى زياله من هناك وأن الحق قد يكون مع وزيره يوسف بن كماشة فأجمع الرحلة وشد حقائبه . وجمع أمواله وكنوزه وتحمّل الى أحد الثغور (١) حيث شيّعه كثيرون من قومه داعين له بالتسهيل (٢) . فلما ركب السفين وغابت عن عينيه جبال غرناطة انهملت منهما العبرات وتصاعدت من صدره الزفرات ونزل بمليلا ومنها سار الى فاس نزيلاً على سلطانهـا متلهفاً على ماسلف . وفى بعض تواريخ الافرنج أنه توفى قتيلاً فى احدى الوقائع مع سلطان فاس سنة ١٥٣٦ أى بعد ٤٤ حولاً من فراقه أسبانية ولذلك قال فيـه أحد المؤرخين انه قتل فى سبيل الدفاع عن مملكة سواه بعـد أن جبن عن أن يقتل فى الدفاع عن حوض مملكته »

وأما النفح فيقول فى نهاية أمره ما يأتى :

« ثم احتال (أى الطاغية) فى ارتحاله (أى أبى عبد الله) لبر العدوة وأظهر أن ذلك طلبه منه المذكور فكتب لصاحب المرية : انه ساعة وصول كتابى هـذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاى أبا عبد الله من السفر حيث أراد من بر العدوة ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه و يقف معه وفاءً بما عهد له . فانصرف فى الحين بنص هذا الكتاب وركب البحر و نزل بمليلة واستوطن فاساً وكان قبل طلب الجواز لناحية مراكش فلم يسعف بذلك وحين جوازه لبر العدوة لقى شدة وغلاء و بلاء »

و يقول بعد ذلك : «والسلطان المذكور الذى اخذت على يده غرناطةهو أبوعبد الله محمد الذى انقرضت بدولته مملكة الاسلام بالاندلس ومحيت رسومها ابن السلطان أبى الحسن ابن السلطان سعد ابن الأمير على ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمـد الغنى بالله واسطة عقدهم ومشيد مبانيهم الانيقة وسلطان دولتهم على الحقيقة وهو المخلوع الوافد على الأصقاع

(١) وقد مررت بنفسى فى سنة ١٩٣٠ بالمرسى الذى أقلع منه أبو عبـد الله بن الأحمر من الأندلس قاصدا المغرب

(٢) وقرأت أنه هاجر معه نحو من ألف نسمة من مسلمى الأندلس

المرينية بفاس العائد منها لملكه فى أرفع الصنائع الرحمانية العاطرة الانفاس — وهو سلطان لسان الدين بن الخطيب — ابن السلطان ابى الحجاج يوسف ابن السلطان اسماعيل قاتل سلطان النصارى دون بطره بمرج غرناطة ابن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر بن قيس الانصارى الخزرجى رحمهم الله تعالى جميعا . وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة الى مدينة فاس باهله وأولاده معتذراً عما أسلفه متلهفاً على ما خلّفه و بنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس رأيتها ودخلتها وتوفى رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة ودفن بازاء المصلى خارج باب الشريعة وخلف ولدين أحدهما اسمه يوسف والآخر أحمد . وعقب هذا السلطان الى الآن بفاس وعهدى بذريته بفاس الى الآن سنة ١٠٣٧ يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين و يعدون من جملة الشحاذين ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . انتهى

قلت : وقد قرأت فى بعض كتب الافرنج انه كان للسلطان أبى عبد الله اخوة صغار من غير امه لبثوا فى غرناطة بعد أخذ الاسبانيول اياها وتنصروا وتحولوا اسبانيولاً ولكنى لم أطلع على خبر اسبانيول فى الوقت الحاضر ينتسبون الى بنى الأحمر . ولقد سمعت من الأخ الكريم الحاج عبد السلام بن العربى بنونه من عيون أعيان تطاون بل من عيون أعيان المغرب كله ان ببلدهم اسرة تنتسب الى بنى الأحمر الى يومنا هذا . وقيل لى انه لا يزال منهم بفاس أيضاً

ثم انى أقول فى ذيل « آخر بنى سراج » ما يلى :

« ولنذكر حالة بقية مسلمى الاندلس بعد ذهاب ملكهم فنقول : ورد فى تاريخ « الاسلام فى اسبانية » تاليف « ستانلى لانبول » ما محصله :

« ان آخر أنفاس أبى عبد الله على تلك الربوة لم يكن بآخر أنفاس المسلمين فى تلك الديار بل بداية أنفاس يرسلونها الصعداء وافتتاح عهد انتقام وابتلاء وان اسقف غرناطة الأول « هرناندو دوتالاڤيره » كان رجلاً حليماً . عادلاً أحسن معاملة المغاربة وأبى الجور عليهم وتعلم العربى وكان يصلى به وعلى يده ارتد ألوف من المغاربة الى النصرانية قيل ان ثلاثة آلاف تنصروا فى يوم واحد . الا أن الكردينال « كسيميناس » الذى كان من القسم المحارب بين رؤساء الكنيسة اعتسف السبيل ومال الى العنف والاكراه وأساء

معاملة المسلمين وحمل الملكة ايزابلا على ما بقي نقطة دهماء في تاريخ حياتها من اضطهادهم واستعبادهم واكراههم على التنصر فاثار ذلك ساكنهم وأخرج كامنهم وفي احدى المرات حبست امرأة في البيازين لشأن من هذا القبيل فثار سكان البيازين وتحصنوا وحملوا السلاح وكادوا يفتكون بالجند وأوشك الدم أن يسيل بحدة الكردينال كسيمنياس الا أن المطران هرناندو الموصوف بالوداعة دخل ربض البيازين بالسكينة والأنس مع نفر قليل من حاشيته بدون سلاح وسأل القوم عن شكواهم وتقبلها منهم بالاستماع والاحتفال وهدأ روعهم واعاد طائر الأمن الى وكره وحجب الدماء يومئذٍ . اما كسيمنياس المشهور فلم يزل يغوي الملكة حتى أصدرت أمرها باكراه المسلمين على احدى الخطتين الجلاء أوالنصرانية وذلك بانهم كانوا يذكرون المسلمين بانهم من سلالة النصارى في الأصل فاقفلت المساجد وأحرقت الكتب التي هي ثمرات القرون وزبدة الحقب [1] وأذيق المسلمون العذاب اشكالاً والواناً ففضّل عامتهم فراق دينهم على فراق أوطانهم الا أن شعلةً من الحمية الاسلامية بقيت تلمع في جبال البشرات حيث حمتهم أوعارهم من مضطهديهم

«وأول جيش أرسل اليهم كان تحت قيادة الدون «الونزو دو اغيلار» البطل المشهور انهزم هزيمة شنعاء وذلك سنة ١٥٠١ وقتل الدون المذكور وقيل انه الدون الخامس المقتول من تلك العشيرة في حرب المسلمين فازداد انتقام الاسبانيول من المغاربة بعد هذه الغلبة وهجم كونت « طنديله » على « قوجار » وهدم كونت « سرين » جامعاً على جماعة التجأوا اليه من المسلمين بنسائهم وأطفالهم . وأمسك الملك فرديناند بنفسه الطريق على الفارين من الجبال فمن بقي حياً من الثوار فرّ الى مراكش ومصر والبلاد العثمانية وانتهت الثورة الأولى في الجبال

«ومضى على ذلك نصف قرن والبغض دفين في القلوب والمسلمون المتنصرون يعمدون أولادهم ظاهراً فاذا انصرف القسيس مسحوا عن الولد ماء المعمودية واذا تزوج أحد الموريسك [2] اجرى القسيس عقد الاكليل ثم بعد ذهابه عقدوا النكاح بحسب السنة الاسلامية

---

(١) ذكر في بعض كتب الأسبانيول أنه أحرق في غرناطة في يوم واحد مايون مجلد وقيل بل مائةألف مجلد وقرأت في بعض كتبهم أنهم أحرقوا كل الكتب الا التآليف المتعلقة بالطب والرياضيات

(٢) لقب المتنصرة من المغاربة

«وكانوا يتقبلون قرصان البحر من أهل المغرب ويعاونونهم على اختطاف أولاد النصارى ويأتون غيرذلك من الأعمال انتقاماً فلوكانت ثمة حكومة عاقلة قوية ترعى عهودها التي واثقت عليها عند تسليم غرناطة لم يكن محل لذلك البغض العميق ولكن حكام الاسبانيول لم يكونوا أهل عقل ولا أهل عدل وكانوا يزدادون بتمادي الأيام شرّا ولم تلبث الأوامر ان صدرت باكراه المسلمين على ترك ألبستهم الخاصة بهم ولبس البرنيطة والسراويلات الاسبانيولية وحظر عليهم الغسل ودخول الحمام اقتداءً بغالبيهم فى احتمال الاقذار (١) ثم منعوهم من التكلم بالعربية وصدر الأمر بان لايتكلموا بغير الاسبانيولي وبان يغيّروا اسماءهم ويسيروا سيرة اسبانيولية ويسموا أنفسهم اسبانيولاً . وكان تصديق الامبراطور شرلكان هذا الأمر الفظيع فى سنة ١٥٢٦ على انه لم يكن الظاهر منه اعتماده على اجرائه بالفعل لكن عماله اتخذوه ذريعة لاستنزاف أموال الموسرين من الموريسك وصار ديوان التفتيش يحترف ويتجر بهذه المسئلة . ولما صار الامر الى فيليب الثاني شدد فى انفاذ الأوامر بحق الموريسك وسنة ١٥٦٧ عزز الأمر الصادر بشأن تغيير الزى واللغة باستيثاق غريب لأجل منع النظافة التي هي من سنن الاسلام وذلك بانه أخذ يهدم حمامات الحمراء البديعة . فالطرق التي أخذوا بها لتنكير أحوال تلك الأمة البائسة كانت أشد من أن يتحملها أيّ قبيل دع سلائل المنصور وعبدالرحمن وابناء سراج ولذلك لم يطل الزمن حتى استطار الشر واشتعلت الفتنة وثار فرج بن فرج من نسل بني سراج بجماعة من ذوي الحمية من غرناطة قاصداً الجبال قبل ان تسكنت الحامية من تعقبهم ونودي « بهرناندو دوفلور » من نسل خلفاء قرطبة ملكاً على الأندلس تحت اسم محمد بن أمية وعمّت الثورة فى اسبوع واحد جميع جبال البشرّات ووقع ذلك فى ١٥٦٨ ولما كانت هذه الجبال من اصعب تضاريس الارض مرتقى واوعرها مسلكاً كان تدويخ سكانها من أصعب الأمور منالاً وكانت الفتنة فيها بعيدة المدى فاستمرت هذه المرة حولين كاملين حافلاً تاريخها بحوادث لاتحصى من القتل والغدر والتعذيب والاستباحة والاحتيال وذلك من الجانبين لامن جانب واحد لكنه حافل ايضاً بوقائع يندر فى تاريخ الفروسية وكتب الحماسة الظفر بامثالها وتبقى على صفحات السير فخراً للقرون والأمم . وكان

(١) كان من عادة الشعوب اللاتينية التقزز من الطهارة والاستحمام وكانوا ينبزون المسلم بقولهم « الذى يدخل الحمام » وكان الاسبانيول يهدمون الحمامات بالشرة التي يهدمون بها الجوامع

المغاربة هناك فى موطنهم الاخير والموقف الذى يحاولون فيه ادراك الثأر عن نحو من مائة سنة قضوها فى البلاء العظيم والهون الذى ليس له نظير فهبوّا جميعاً منادين باخذ الثار واقتضاء الاوتار قرية بعد قرية وهدموا الكنائس واهانوا امافيها وفتكوا بالقسيسين وعذبوا النصارى الذين وقعوا فى ايديهم واعتصم الذين نجوا بالمعاقل والابراج ودافعوا دفاعاً شديداً . وكان مركيز « مونيتجارة » قائداً فى غرناطة فعمد الى المسالمة واخذ بالملاينة وكادت الوقدة تنطفى لولا ماعاد الشرر من ذبح مائة وعشرة سجناء من المغاربة فى حبس البيازين قيل ان ذبحهم وقع بغير علم المركيز لكن الموريسك لم يقبلوا العذر ونشروا لواء الثورة وصار ابن امية اميراً بالفعل على جميع جهات البشرّات الا انه لم يكن ممن يحسن السياسة فقام بعض اعوانه وقتلوه وبويع لرجل آخر موصوف بالنجدة والحماسة اسمه عبدالله بن أبوه

«فأرسلت دولة اسبانية لتدويخ الثوار الدون «جون الاوسترى» أخا الملك وهو شاب فى الثانية والعشرين من العمر فباشر القتال فى شتاء ١٥٦٩ الى ١٥٧٠ وأتى من الفظائع ما تخلت باندادهكتب الوقائع فذبح النساء والأطفال امام عينيه وأحرق المساكن ودمر البلاد وكانت علامته « لا هوادة » وانتهى الأمر باذعان الموريسك لكنه لم يطل واستأنف مولاى عبد الله بن أبوه الكرة فاحتال الأسبانيول حتى قتلوه غيلة وبقى رأسه منصوباً فوق أحد أبواب غرناطة ثلاثين سنة . وأفحش الاسبانيول فى قمع الثورة بما أقدموا عليه من الذبح والحريق والخنق بالدخان حتى أهلكوا من بقية العرب خلقا كثيراً وخنع الذين نجوا من الموت لكنهم وقعوا فى الرق وسيقوا مماليك وعبدانا ونفى منهم جملة فأخذ عددهم يتناقص . ولما كان اليوم المشهود والمذكور فى التواريخ وهو عيد جميع القديسين سنة ١٥٧٠ بلغ عدد من ذهب منهم عشرين ألفا والذين أخذوا منهم فى معمعة الفتنة صاروا الى الاستعباد وأخرج الباقون من البلاد مخفورين فمات كثير منهم على الطرق تعبا ومنهم من أجاز الى بر العدوة وطافوا هناك سائلين لأجل قوتهم الضرورى . ومنهم من لجأ الى بلاد فرنسة حيث استقبلوهم برّا وترحيبا واحتاج اليهم هنرى الرابع لأجل دسائسه فى مملكة أسبانيا (١) ولم ينته اخراجهم تماما الى سنة ١٦١٠ اذ وقع الجلاء

(١) الحقيقة ان هنرى الرابع أصدر أمراً بقبولهم فى فرنسة لكن على شرط أن يتحولوا كاثوليكيين وقد نفذ الأمر وأجبروا على التنصر الى أن طلب السلطان ابن عثمان اخراجهم من فرنسة الى بلاد الاسلام.

الأخير ولم يبق فى تلك البلاد مسلم واحد بعد أن وليها الاسلام ثمانية قرن . ويقال ان عدد من خرج منهم منذ اليوم الذى سقطت فيه مملكة غرناطة الى السنة العاشرة بعد الألف والستمائة يبلغ ثلاثة ملايين وان الذين خرجوا لآخر مرة يبلغ نصف مليون

«وأما الاسبانيول المساكين فلم يعرفوا ماذا يصنعون ولا فهموا أنهم كانوا يخربون بيوتهم بأيديهم بل كانوا فرحين مسرورين بطرد المغاربة الذين اسبانية كانت بهم مركز المدنية ومبعث أشعة العلم قرونا . وقلما استفادت بقعة أوربية من حضارة الاسلام بمقدار ما استفادته هذه البلاد . فلما غادرها الاسلام انكسفت شمسها وتسلط نحسها وان فضل مسلمى الاندلس ليظهر فى همجية هؤلاء القوم وتأخرهم فى الحضارة وسقوط هذه الأمة فى مكانتها الاجتماعية بعد ان خلت ديارها من الاسلام». انتهى كلام ستانلى لامبول ملخصا

وأستشهد فى حاشية هذه الجملة بنقل يمثل لك درجة هذه الحقيقة وهو ان للملك حول مدينة غرناطة ضياعاً واسعة ومزارع اضطروا الى بيعها سنة ١٥٩١ بسبب أنهم كانوا يخسرون عليها أكثر من غلتها مع ان هذه البقاع كانت لعهد العرب حدائق غنّاء وغياضاً وارفة الافياء وموارد ثروة ورخاء . ومن أراد أن يعرف ما كانت عليه تلك المزارع من الخصب والنماء فى زمان العرب فما عليه الا أن يقرأ الاحاطة فى أخبار غرناطة تأليف وزير غرناطة الشهير لسان الدين بن الخطيب قال من جملة ماذكر من وصف بساتينها :

« وتحف صورة هذه المدينة المعصومة بدفاع الله تعالى البساتين العريضة المستخلصة والأدواح الملتفّة فيصير سورها من خلف ذلك كأنه من دون سياج تلوح نجوم الشرفات أثناء خضرائه . (الى أن يقول) :

فخرج أكثرهم و بقى منهم من اختار الاقامة بفرنسة مع النصرانية ولما ظهر مذهب البروتستانت وكان منهم من اختار هذا المذهب وصدر أمر لويس الرابع عشر باخراج البروتستانات كما لا يخفى هاجر قسم من هؤلاء الى سويسرة وبينهم العالم العلامة الشهير «أبو زيد» Abouzyt الذى كان من أعلم علماء عصره فى كل فن وكان صديقاً لڤولتير وروسو ونيوطن ولايبنيتز وكان ڤولتير يقول عنه « صديقنا العربي » وطالما كان ڤولتير يستفتيه فى عويص المسائل وكانت بينه وبين روسو مراسلات كثيرة جمعها أحدهم فى كتاب . وفى جنيف الآن شارع باسم ابوزيد تخليداً لذكر هذا العبقرى العربى العظيم وكان أبو زيد من عائلة أطباء عربية ساكنة فى تولوز بجنوبى فرنسة

« فليس تعرو من جنباته عن الكروم والجنان جهة الا مالا عبرة به مقدار غلوة أما ما حازه السفل من حومته فهى عظيمة الخطر متناهية القيم يضيق جد من عدا أهل الملك عن الوفاء بأثمانها منها ما يغل فى السنة الواحدة نحو الألف من الذهب قد غصت منها الدكاكين بالخضر الناعمة والفواكه الطيبة والثمرة المدخرة يختص منها بمستخلص السلطان المدور طوقاً على ترائب بلده ما يناهز مائة منها الجنة المعروفة بعدّان الميسة والجنة المعروفة بعدّان عصام (١) والجنة المعروفة بالعروى والجنة المنسوبة الى قداح بن سخنوق والجنة المنسوبة لابن المؤذن والجنة المنسوبة لابن كامل وجنة النخلة العليا وجنة النخلة السفلى وجنة بن عمران والجنة التى الى نافع والجرف الذى يُنسب الى مقبل وجنة العرض وجنة الحفرة وجنة الجرف ومدرج نجد ومدرج السبك وجنة العريف(٢) كلها لانظير لها فى الحسن والريع وطيب التربة وغرقد السقيا والتفاف الأشجار واستجادة الأجناس الى ما يجاورها ويتخللها مما يختص بالأحباس الموقفة والجنان المتملكة وما يتصل بها بوادى سحل ما يقيد الطرف ويعجز الوصف قد مثلت منها على الأنهار المتدافعة العباب المنارة القباب واختصت من أشجار العاريات ذات العصير الثانى بهذا السقع ماقصرت عنه الأقطار الخ » اقتصرنا على هذه الجمل من وصف طويل

ولا شك أن جنان السلطان الموصوفة هذا الوصف كله والتى كانت تدر بالاموال والأرزاق أيام العرب هى هى التى آلت بعد فتح الاسبانيول لغرناطة الى ملك الاسبانيول وعادت لعهدهم لا تعطى من الغلة ما يفى بالنفقات اللازمة لها

وقال واشنطون ارفين فى تاريخه الشهير لفتح غرناطة ما ملخصه :

«انه بعد دخول هذه البلدة فى حوزة الاسبانيول بقيت الحال غير مستتبة تماما مدة سنوات الى أن وقع من اجتهاد رؤساء المذهب الكاثوليكى فى حمل المسلمين هناك على

---

(١) العدان بفتح أوله وتشديد ثانيه وقد يكسر أوله هو زمن الشيء وعهده وهو يقال لدور أصحاب المياه فى سقيا البساتين وهذه اللفظة مستعملة فى الشام بهذا المعنى وقد سرت الى الاندلس الذين اكثر عربها كانوا شاميين

(٢) هذه التى يقول لها الافرنج Généralif

النصرانية (١) ما أيأس مغاربة الجبال المتشددين فى دينهم فثاروا برؤساء الدين الكاثوليكى وقبضوا على اثنين منهم وعرضوا عليهما الاسلام فامتنعا فقتلوهما . وقيل ان النساء والأولاد قتلوهما قعصاً بالعصى وشدخاً بالحجارة وأحرقوا جثتيهما فانتقم النصارى من هذه الفعلة بأن اجتمع منهم نحو من ثمانمائة فارس وساروا الى قرى المغاربة يخربون و يعيثون فاعتصم المغاربة بالجبال وانتشرت الفتنة فى الجبال كلها لكن وسطها كان فى جبل « برميجه » المصاقب للبحر (٢) فلما اتصل الخبر بالملك فرديناند أصدر أوامره بنقل المسلمين الساكنين فى جهات الثورة الى قشتالة وأعطى الأمر سراً بأن من يدخل منهم فى النصرانيـة يبقى فى وطنه ثم رمى تلك الأمة بالقائد المشهور « الونزو دواغيلار » ومعه جيش وهو الذى قضى معظم شبابه فى قتال المغاربة فما اقترب من بلادهم حتى هرع جملة وافرة منهم الى رندة للدخول فى النصرانيـة (٣) وجمر الباقون منهم تحت قيادة فارس منهم اسمه الفهرى الى

---

(١) قد وقع فى تاريخ الاسلام أن بعض ملوكه عزوا الاسلام وأحبوا نشره بطرق سلمية ولكنه لم يقع ولا مرة ان المسلمين أكرهوا النصارى أو اليهود على قبول دينهم

(٢) لقد طفت يوم ذهابى الى اسبانية بهذه الجبال ورأيتها متدلية الى البحر مع علوها الشاهق وفهمت ما كان من السهولة على المسلمين من الثورة فيها والاتصال بالمسلمين الذين كانوا ينجدونهم الفينة بعد الفينة من وراء البحر

(٣) عندما كنت فى رندة سنة ١٩٣٠ وشاهدت آثار العرب الباقية فيها كالحمام والجسر والأبراج التى عند الباب وحنية الميـاه المجرورة اليها ولا سيما القصر الذي منه درج تحت الأرض منحوتة فى الصخر تبلغ ٣٦٠ درجة نزولا من القصر الى النهر وغير ذلك من الآثار قلت لما كنت هناك أحببت أن أستعلم عن منزل أبى البقاء صالح بن شريف الرندى فلم أقف له على أثر وقيل لى ان محامياً اسمه « لوزاو » هو أخبر الناس بخطط رندة وله تأليف فى تاريخها فجاء وأطلعنا على كثير من آثارها وأخبارها وسألته عما اذا كان معلوماً محل بيت صالح بن شريف الرندى الشاعر المشهور فاجاب بالنفي . ثم سألته عمـا اذا كان باقياً هناك عائلات عربيـة معروفة فقال انه كان فى رندة أسرة عربيـة اسمها venega تحريف Benega انقرضت وانه كانت عائلة اسمها الزغري وانه بقرب رندة فى تلك الجبـال قرية اسمها venadali لعلها محرفة عن « بنى عدالى » أو ما أشبه ذلك معروف أن أصل أهلها عرب وقرية أخرى اسمها ben arrabat أو « بنى الرباط » وقرية أخرى اسمها ben alariah وهذه يرجح أنها محرفة عن « بنى رياح » وهؤلاء من أشهر قبايل العرب بالمغرب . وذكر لى اسم قرية اسمها Zara أظنها محرفة عن « صخيرة » وقال لى انه توجد فى قرية « خوبريكه » أسماء عربية كثيرة

حيث يتعذر السلوك من تلك الأوعار رابطين شعاب الجبال دون مرور عساكر الاسبانيول فتلاقى الجمعان أمام بلدة « موناردة » وانتشب القتال فيقال ان الدون « الونزو » مع ابنه الدون « بطره » وثلاثمائة من شجعانه صدقوا الحملة على المغاربة فأزاحوهم وتلاحقوا فى الهزيمة فتتبعهم الجند يغنمون وينهبون ولما امتلأت أيديهم بالغنائم كرّ عليهم الفهرى بجماعة من أبطاله وعلت الصرخة فارتجت لها جوانب الأودية وذُعر الأسبانيول فتداعوا الى الفرار وثبت الونزو فى مكانه يحرضهم ويضم من شتيت شملهم فصبر معه جماعة وولى الأكثرون ودخل الظلام وخيّم الغسق واشتد الخناق بالاسبانيول وجرح بطره بن الونزو فأمره أبوه بالرجوع فأصرّ على البقاء بجانب أبيه فأمر أتباعه بحمله الى معسكر كونت « أورينه » فاحتملوه مثخناً جراحاً ولبث الدون بمائتين من رجاله يناضلون الى أن فنوا عن آخرهم

«وتحصن الدون بين صخرين يتقى بهما فبصر به الفهرى فقصده واستحرّ الصراع وألح الفهرى وطمع فى قرنه وكانا متماثلين فى ثبات الجنان مع قوة الاضلاع وتوثق الخلق فصاح الونزو بخصمه : «لاتحسبن نفسك وقعت على صيدٍ هين فأنا الدون الونزو دواغيلار » فأجابه المغربى : « ان كنت أنت الدون ألونزو فاعلم أنى أنا الفهرى » ثم كوره صريعاً ومات بموته مثال الفراسة الاسبانية وانموذج الغشمشمية فى الأندلس . واندفع المغاربة ذلك الليل بطوله يطاردون الاسبانيول ولم ينكفئوا حتى لاح الصباح فأجلى المعترك عن قتل الدون « فرانسيسكو دو راميز » الجريطى الذى كان قائد المدفعية الأكبر وكانت له المواقف المشكورة فى حصار غرناطة لكن مصرع الدون الونزو دواغيلار أنسى الأحزان جميعها .

وعند وصول خبر هذه الفاجعة الى الملك زحف بالجيش الى جبال رندة فسكنت بحضوره النائرة واشترى بعض المغاربة أرواحهم فجازوا الى افريقية واحتمى آخرون بالنصرانية . وأما أهل البلد الذى قتل فيه فرسان الاسبانيول فسلكوا فى سلسلة العبودية وبحث الملك عن جثة الدون فوجدوها بين مائتى جثة فيها أجساد عدد من الأمراء والكبراء وحملت تجاليد الدون الونزو الى قرطبة فى مشهد حافل بين مدامع كالسحاب الهواطل ودفن فى كنيسة مارهيبوليتو وندبه الاسبانيول دهراً طويلاً» . انتهى كلامه مجملاً

وذكر المؤرخ الشهير الفرنسى ڤيكتور دروى victor Duruy فى تاريخه مايأتى ملخصا :

« ان اسبانية تخلصت من العرب لكنها بقيت حافظة عليهم احنة شديدة ربَّتها فى قلوبهم ثمانية قرون قضتها معهم فى الحرب . وكان لذلك سكان الجزيرة اخلاطاً من مسلمين ونصارى ويهود فعول فرديناند على توحيد الهيئة بوحدة الاعتقاد تعزيزاً للدولة فأنشأ ديواناً جديداً للتفتيش وكان الملك هو الذى يعين الرئيس والمفتش الكبير ويضع يده على أملاك المحكوم عليهم . وكان هؤلاء فى البداية من النصارى المتهودين والمسلمين المتنصرين ظاهراً الباقين باطناً امناء لمحمد ﷺ ثم شملت أحكام الديوان أهل البدع السياسية كما شملت أهل البدع الدينية . وسنة ١٤٩٢ قرر ديوان التفتيش المذكور طرد اليهود من اسبانية بعد أن سلبوهم أموالهم . وقدقدر بعض المؤرخين المعاصرين لتلك الحادثة عدد من خرج منهم بثمانمائة الف [1] والقسم الاكبر منهم هلكوا وعذبوا بمالم يعذبه احد من العالمين وسنة ١٤٩٩ صدر الأمر بسلب المسلمين حريتهم الدينية التى تقررت لهم بموجب عهد غرناطة فجلا منهم جم غفير ولم يتم خروجهم جميعاً حتى القرن التالى سنة ١٦٠٩ وهكذا فازت اسبانية بوحدتها الدينية لكنها خسرت صناعتها وتجارتها اللتين كان العرب واليهود اهم عمالهما» اه

وذكر مرة عندكلامه على شرلكان انه أكمل مقصد فرديناند فاكره مسلمى بلنسية على التنصر وأهل غرناطة على ترك زيهم والتكلم بغير لغتهم . وقال فى عرض الكلام على فيليب الثانى انه اضطهد المغاربة وضيق عليهم حتى اضطروا للثورة سنة ١٥٦٨ وأوقدوا نيرانهم على تلك الجبال ايذاناً بالخروج وكان يمكنهم بما امسكوه من مخانق جبالهم الثبات طويلاً لوامتدت اليهم يد معونة من اخوانهم فى افريقية . ففرق فيليب شملهم وبددهم فى مقاطعاته ولم تمض سنون عشر حتى صاروا كلهم ارقاء

---

(١) منهم جماعة وافرة فى أزمير وأقوام فى الاستانة وسلانيك هاجروا اليها فى تلك الكائنة ومنذ خمس سنوات — وقدصارت المدة الآن ٣٥ سنة أى انها كانت خمس سنوات يوم طبعنا تأليفنا آخر بنى سراج مع ذيله فى تاريخ الأندلس الطبعة الأولى — احتفلوا بعيد مضى الأربعمائة سنة على دخولهم بلاد الدولة العثمانية أكثروا فيه من الدعاء لسلطنة آل عثمان التى هى كهف المطرودين

ثم لنذكر بحسب عادتنا فى المقابلة بين تواريخ الافرنج وتواريخ العرب كلام المقّرى عن هذه الوقائع الأخيرة مع بعض تصرف . قال : « ثم ان النصارى نكثوا العهود ونقضوا الشروط عروة عروة الى ان آل الحال لحملهم المسلمين على التنصُّر سنة أربع وتسعمائة بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم انهم قالوا ان القسيسين كتبوا على جميع من كان اسلم من النصارى أن يرجعوا قهراً الى النصرانية ففعلوا ذلك وتكلم الناس ولا قوة لهم . ثم تعدوا الى امر آخر وهو ان يقولوا للمسلم ان جدك كان نصرانياً فأسلم فلترجع انت نصرانياً . ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيّازين على الحكام وقتلوهم وهذا كان السبب للتنصّر : قالوا ان الحكم خرج من السلطان ان من قام على الحاكم فليس الا الموت الا ان يتنصَّر . وبالجلة فانهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة . وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك وامتنعت قرى واماكن كذلك منها بلفيق واندرش[1] وغيرهما فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبيا الاما كان من جبل بللنقة فان الله تعالى أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة[2] وأخرجوا على الامان الى فاس بعيالهم وماخف من أموالهم دون الذخائر . ثم بعد هذا كان من أظهر التنصُّر من المسلمين يعبد الله فى خفية ويصلى فشدد عليهم النصارى فى البحث حتى انهم احرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد . وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله تعالى لهم ناصراً الى ان كان اخراج النصارى اياهم بهذا العصر القريب عام سبعة عشر والف فخرجت الوف بفاس والوف أخر بتلمسان من وهران وجهورهم خرج بتونس فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى فى الطرقات ونهبوا اموالهم وهذا ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المضرة

« وأما الذين خرجوا بنواحى تونس فسلم أكثرهم وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية و بلادها وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى منهم عسكراً جراراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد فى البحر ماهو مشهور الآن وحصنوا قلعة سلا و بنوا بها القصور والحمامات وهم الآن بهذا الحال و وصل منهم جماعة الى القسطنطينية

(١) هي البلدة التى ذهب اليها أبو عبدالله بعد أن أخذت منه غرناطة

(٢) هو الونزو دو اغيلار

العظمى والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام وهم لهذا العهد على ماوصف والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين » انتهى

ثم قلت فى ذيل آخر بنى سراج :

« ثم ان الأندلسيين المطرودين النازلين ببر العدوة انتقموا من الاسبانيول ومن طوائف الفرنج عما أذاقوهم اياه من العذاب وذلك بجهاد البحر الذى اشار اليه المقّرى حيث انهم انتظموا فى سلك بحرية الجزائر وغيرها من بلاد المغرب ايام كان اهلها يلقبون بملوك البحر وكانت دول أوربة باسرها تدفع لهم الجزية وتواصل الى والى الجزائر الهدايا دفعاً لغائلة السفن المغربية عن سفنها فكان من قطع المغاربة خصوصاً الأندلسيين منهم السبل البحرية على بحارة الاسبانيول وغيرهم من السبي والاسر والعيث على شواطئ اوربة لاسيما اسبانية ما ألَّف له الاوربيون تواريخ خاصة به وهو يدل على استحكام الاحن فى صدورهم . وفى الواقع لانرى عداوة طال امرها وتوقدت جمرها كالعداوة التى بين المغاربة والاسبانيول

«وقد اتفق الكتاب على ان الاندلسيين الجالين عن بلادهم الى برالعدوة احتملوا معهم على أيديهم صناعة الاندلس وفى صدورهم همم اهلها ونقلوا ذوق تلك البلاد الموصوف بالسلامة الى حيث القوا عصا تسيارهم . فأخذت عنهم فنون وشاعت بواسطتهم صنائع وانتشرت بسببهم فوائد وكانوا مع رثاثة حالهم وتشريدهم من بلادهم صفر الايدى الامن زهيد المتاع يمثلون حيثما حلوا قطعة من الاندلس ولا يزال على بيئاتهم وأنواع معايشهم وسائر شؤونهم ومآخذهم مسحة اندلسية تمتاز بالذوق وتدل على الاصالة فى التمدن حتى ان الكاتب الافرنسى «فيليكس دوبوا» الذى ساح فى أواسط افريقية فى العام المنصرم (أى سنة ١٨٩٦) عثر على قبيل فى جوار تنبكتو يقال لهم الاندلوز حقق بما أخذه من اخبار اصول تلك القبائل انهم من جالية الاندلس كما يدل عليه اسمهم . وذكر انهم مع فقرهم تجدهم اسمى ذوقاً وأعلى طبقة فى المدنيّة من القبائل المجاورة لهم وان لهم صناعات مخصوصة بهم كالصياغة والنقش وغير ذلك والظاهر انهم مترامون الى السودان عن مراكش وسبحان من بيده تصاريف الأمور» . انتهى ماقلته فى ذيل آخر بنى سراج

ثم نعود الى موضوع تحويل الاسبانيول لعرب الأندلس من الاسلام الى النصرانية فنقول ان أهم ما عثرنا عليه فى هذا الباب وأدقه هو ما جاء فى كتاب « الأنوار النبوية فى

آباء خير البرية » للعالم النسابة سيدى محمد بن عبد الرفيع الأندلسى المتوفى فى رجب عام اثنين وخمسين وألف (١) وهو كتاب خطّى عزيز الوجود نقل عنه العالم المؤرخ الشيخ أبو عبد الله محمد أبو جندار فصلاً بتمامه جليل الخطر فى هذا الموضوع وذلك فى كتابه « مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح » رعياً لكون جل انساب أهل الرباط اندلسية وأن البيوتات النبيلة فيها كلها أوجلها من بقايا جالية الأندلس واليك ما يقوله محمد بن عبد الرفيع :

« قد كثر الانكار علينا معشر أشراف أهل الأندلس من كثيرين من اخواننا فى الله بهذه الديار الافريقية من التونسيين وغيرهم حفظهم الله تعالى بقولهم : من أين لهم الشرف وقد كانوا ببلد الكفار دمرهم الله ولهم مئون من السنين كذا وكذا ولم يبق فيهم من يعرف ذلك من مدة الاسلام وقد اختلطوا مع النصارى أبعدهم الله . الى غير ذلك من الكلام الذى لانطيل به ولا أذكره هنا صوناً لعرضهم ولحبّ فيهم فأقول وبالله التوفيق وهو الهادى الى أقوم طريق : مع انى صغير السن حين دخولنا هذه الديار عمرها الله تعالى بالاسلام وأهله بجاه النبي المختار ﷺ فقد أطلعنى الله على دين الاسلام بواسطة والدى رحمة الله عليه وأنا ابن ستة أعوام وأقل مع انى كنت اذ ذاك أروح الى مكتب النصارى لأقرأ دينهم ثم أرجع الى بيتى فيعلمنى والدى دين الاسلام فكنت أتعلم فيهما معاً وسنى حين حملت الى مكتبهم أربعة أعوام . فأخذ والدى لوحاً من عود الجوز كأنى أنظر الآن اليه مملّساً من غير طَفَل ولا غيره فكتب لى فيه حروف الهجاء وهو يسألنى حرفاً حرفاً عن حروف النصارى تدريباً وتقريباً فاذا سميت له حرفا أعجميا كتب لى حرفا عربيا فيقول لى هكذا حروفنا حتى استوفى لى جميع حروف الهجاء فى كرّتين . فلما فرغ من الكرة الأولى أوصانى أن أكتم ذلك حتى عن والدتى وعمى وأخى وجميع قرابتنا وأمرنى أن لا أخبر أحداً من الخلق ثم شدد علىّ الوصية وصار يرسل والدتى الىّ فتسئلنى ما الذى يعلمك والدك فأقول لها :لاشئ . فتقول : اخبرنى بذلك ولا تخف لأنى عندى الخبر بما يعلمك : فأقول لها : أبداً ماهو يعلمنى شيئا . وكذلك كان يفعل عمى وأنا أنكر أشد الانكار . ثم أروح الىمكتب النصارى وآتى الدار فيعلمنى والدى الى أن مضت مدة فأرسل الىّ من اخوانه فى الله الأصدقاء فلم أقر لأحد قط بشئ مع أنه رحمه الله تعالى قد ألقى نفسه

(١) أي بعد الجلاء الاخير عن الاندلس بخمس وثلاثين سنة

للهلاك لامكان أن أخبر بذلك عنه فيحرق لا محالة . لكن أيّدنا الله سبحانه وتعالى بتأييده وأعاننا على ذكره وشكره وحسن عبادته بين أظهر أعداء الدين» اه

قلت فهمنا من هنا أن هؤلاء الجماعة كانوا أُجبروا على النصرانية طراً وانما كانوا باقين فى الغالب على الاسلام سراً وكانوا مضطرين أن يرسلوا أطفالهم حتى من سن أربع سنوات الى مكاتب النصارى ولم يكن يباح لهم أن يعلموا أولادهم شيئاً عن الاسلام ومن كان يقدم على ذلك وكانت الحكومة تعلم به كان يحرق بالنار . وبرغم هذا كله كان بعضهم حريصاً على تعليم أولاده عقيدته الاسلامية ولغته العربية فكان يعلمهم ذلك مع أشد الاحتياط والامتحان خشية أن السلطة تأخذ سر الأمر من الأولاد فتحرق أولئك الوالدين بالنار كما هو قرار ديوان التفتيش الكاثوليكى . ولكننا لا نظن ان عدد الوالدين الذين كانوا يعلمون أولادهم الاسلام والعربية سراً كان كبيراً وذلك لأن كثيراً من العوام كانوا اميين لا يعرفون الكتاب فلا يمكنهم التعليم ثم لأن كثيراً من المسلمين كانوا يخشون أن تطلع السلطة على السر بواسطة الأولاد فيقعوا فى الهلاك . ولذلك كانوا يجتنبون بدون شك التعرض لهذه الهلكة . وقد نشأ أولادهم فى النصرانية باطناً ظاهراً وهم لا يعلمون أن آباءهم كانوا مسلمين وان قلوبهم كانت مطمئنة بالايمان وذلك نظراً لشدة كتمان الوالدين وحذرهم اطلاع السلطة على حقيقة حالتهم ولكون شعائر الاسلام كانت كلها ملغاة وكان هؤلاء المسلمون المحمولون على النصرانية كرهاً والذين يقال لهم الموريسك مضطرين اذا ولد لهم ولد أن يستدعوا القسيس ليعمده واذا تزوج منهم متزوج أن يستدعوه لعقد الاكليل واذا مات منهم ميت أن يستدعوه للصلاة على الجنازة وكانوا جميعاً يلتزمون الذهاب الى الكنيسة نهار الأحد فعلى هذه الحالة نشأ أولادهم فى النصرانية وكان من الاسبانيول اليوم ملايين أصلهم من المسلمين بهذا السبب . ثم يقول :

« وقد كان والدى رحمه الله تعالى يعلمنى حينئذ ما كنت أقوله عند رؤيتى للاصنام وذلك أنه قال لى : اذا أتيت الى كنائسهم ورأيت الاصنام فاقرأ فى نفسك سراً قوله تعالى : «يأيها الناس ضُرب مثلٌ فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . وقل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون» الى آخرها وغير ذلك من الآيات الكريمة وقوله تعالى :

وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما وقولهم : انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيما». فلما تحقق والدى رحمه الله تعالى انى أكتم أمور دين الاسلام عن الأقارب فضلاً عن الاجانب أمرنى أن أتكلم بافشائه لوالدتى وعمى و بعض أصحابه الاصدقاء فقط . وكانوا يأتون الى بيتنا فيتحدثون فى أمر الدين وانا أسمع فلما رأى حزمى مع صغر سنى فرح غاية الفرح وعرفنى بأصدقائه وأحبائه واخوانه فى دين الاسلام فاجتمعت بهم واحداً واحداً» اه

قلت ان الاسلام فى الاندلس حسبما يظهر من هذا الوصف كان أصبح شبيها بجمعية سرية تكتم أمرها أشد الكتمان ولا يقدر الواحد من المسلمين أن يبوح باسلامه الا لمن يكون قد ابتلى أمانته وامتحن صدقه فكانوا يجتمعون سراً اذا كان بعضهم واثقا ببعض ويتكلمون فى أمر الدين فى أشد الخفيه . ثم يقول :

« وسافرت الاسفار لأجتمع بالمسلمين الاخيار من جيان مدينة ابن مالك [١] الى غرناطة والى قرطبة واشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء أعادها الله تعالى للاسلام فتلخص لى من معرفتهم أنى ميزت سبعة رجال كانوا كلهم يحدثوننى بأمور غرناطة وما كان بها فى الاسلام حينئذ وبما أقوله بعد وقلته قبل فسندى عال لكونه ما تم الا بواسطة واحدة بينى و بين الاسلام بها » اه

ان من عرف كون ابن عبد الرفيع توفى عام ١٠٥٢ لا يخفى عنه أنه كان شابًّا فى أول سنى الالف للهجرة أى منذ نيف وثلثمائة سنة . ويظهر له أنه منذ نيف وثلثمائة سنة كان فى جيَّان وغرناطة واشبيلية وقرطبة أناس يدينون بالاسلام سراً وهم فى الظاهر نصارى . وأغرب من هذا وجود مثل هؤلاء فى طليطلة المصاقبة لمجريط والتى كان مضى على استرجاع الاسبانيول لها يوم زارها ابن عبد الرفيع أكثر من خمسمائة سنة . أى انه بقى أناس مسلمون فى الباطن فى طليطلة من بعد أن زال عنها حكم الاسلام بخمسمائة عام . ولقد علمت من كتب الاوربيين أن اللغة العربية بقيت هى لغة الثقافة عند الاسبانيول ولغة المعاملات والأخذ والعطاء وبها تكتب الصكوك والعقود الى سنة ١٥٨٠ أى الى العهد الذى

(١) محمد بن مالك الطائى الجيانى صاحب الالفية

كان فيه ابن عبد الرفيع الأندلسى شاباً فعند ذلك صدر الأمر من الدولة الاسبانية بمنع الكتابة والكلام بالعربى . ولقد سمعت ما هو أغرب من هذا وهو أنه بقيت قرى الى أوائل القرن التاسع عشر فى نواحى بلنسية يتكلم أهلها بالعربى . أما تحجب النساء فى بعض قرى بلنسية وفى بعض قرى الجنوب مثل طريف فباقٍ الى يومنا هذا . هذا ولدىّ مجموع وثائق كبير عدة أجزاء طبعه « انجل عونزا لز بلنسيه » من أساتيذ الآداب فى جامعة مجريط اسمه « المستعربون فى طليطلة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر »

Los mozarabes de Foledo en los siglos XII y XIII

وهو يتضمن صكوك بيع وشراء نقلت عن خطها العربى الأصلى بالزنكوغرافيا وجعلت بازائها ترجمتها بالاسبانيولى

نذكر مثالاً من هذه الصكوك وهو هذا :

« اشترى ربى بو اسحق بن نحميش اليهودى من جميلة بنت فرج زوج البليوشى البنّا جميع خصها وهو النصف من الكرم المعروف بالقوجوال بحومة قرية جلنكش من قرى مدينة طليطلة وعلى الاشاعة فيه مع من يشركها بسايره وحده فى القبلة الطريق وفى الجوف جبل لابن برطال وفي الشرق كرم ابن فرنجيل وفى الغرب الطريق وفيه بابه بثمن عدته ثلاثماية مثقال من الصروف الجارية بطليطلة حين هذا التاريخ بما فيه عشر درهما بمثقال على سنة المسلمين فى ...(هنا كلمة لم تمكن قراءتها) بيوعهم فى رمضان المعظم عام خمسة وتسعين وأربعمائة [1] وممن أشهده على بن البليوشى باجازته له وامضائه له واقراره ألاّ حق له فى شئ من المبيع المذكور و بوجه من الوجوه ولا سبب من الأسباب وانه كان لوالدته جميلة الى أن باعته حيث وصف . ابراهيم على بن سعيد بن أبو الفتح اللحنى ، وابراهيم بن وهب بن أبى .. و ... بن يوسف بن الربانى . ومحمد بن أحمد بن سعد .... وعبد الرحمن بن أحمد بن عفيف الفهرى . وأحمد بن محمد ... ومحمد بن عبد الله بن مظاهر الانصرى . وأحمد بن يوسف الانصارى وابراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ... وسلمة بن يوسف الانصرى ويحيى بن عبد الله ... الغافقى واليك مثالاً آخر :

« اشترى عبيد الله بن أسد من خلف بن عبد الله جميع الكرم الذى له فى أول منزل

(١) أى بعد سقوط طليطلة بيد الاسبان بعشرين سنة

رزين حده فى القبلة نهر تاجُه وفى الجوف كرم يشت الحريرى وفى الشرق كرم لأبى خالد وفى الغرب غروسات السلطان أيده الله بثمن عدته ستون ديناراً من البريزات الجارية بطليطلة حين هذا التاريخ ، وفى شهر نونبر الكاين فى سنة ثلاثين ومائة وألف من تاريخ الصفر

«ومما وجب الحاقه الى المدخل للكروم الموصوف فوق هذا على باب الكروم الذى لرد ريقه قسيس السلطان . . الذى هو من ليون والباب المذكور مشترك بينهما اذ كان الكرم فى القرع واحد وعلى ذلك كله يقع الاشهاد

«عبد الرحمن بن زكريا . يوان بن خلف شاهد . سلم بن زكريا وكتب عنه. سليمان ابن عمر شاهد وكتب عنه . وعلى بن الحرير . عبد العزيز بن خير . ولبر فيم . . . وعبدالله ابتوال . وسليمان بن المجاله . اليان بن سعيد . وعبد الملك بن عبد الملك وكتب عنه وعليه شهد عندى . وبخط عجمى جليانش بيطرس تشتا . وبخط عجمى سيكاله بن مشارك شاهد وعلى كل اسم من العجمى معلم شهد عندى وبالعربى خالد بن اصتر »

واليك مثالاً ثالثاً :

« اشترى خير بن ركوى من يحيي بن عبد السلام جميع الدار التى له بحومة رحبة القشالى حد الدار فى الشرق دار خلف بن جواد وفى الغرب دار جلبرت الفرنجى وفى القبلة دار أبى الحسن بن زكرى وفى الجوف دار مفرج بن عثمان بثمن عدته أربعون ديناراً من الدنيرات الجارية بطليطلة حين هذا التاريخ فى شهر ابريل الكاين فى سنة واحد وثلاثين ومائة وألف من تاريخ الصفر

«وشهود الأصل فيه وفرج بن عبد الله . ومسعود زرقون شهد وكتب.عبد الرحمن ابن يحيي شاهد على ذلك . وعيسى بن الحسن شاهد وكتب عنه بأمره . وعيشون بن يحيي شاهد . هذيل بن حكم شاهد وكتب . زكرى بن عثمان شاهد وكتب عنه . وبالاعجمى يشتش فليش بطره تشتش صحت هذه النسخة (الخ) فى العشر الأوسط من شهر شتنبر سنة ثلاثين ومائتين وألف للصفر . يوان بن يليان السقلى شهد . ويوانش بن مقايل بن عبد العزيز المشنارى . وباطره بن عمر بن غالب بن القلاس »

وهذه المجموعة تشتمل على ١١٥١ صكاً يفهم الناظر منها أن التعامل كان فى طليطلة

بعد استيلاء الاسبان عليها [1] لا يزال باللغة العربيـة وأن أكثر أهلها كانوا عربا أو مستعربين وأن نزراً منهم كانوا غير مستعربين وكانوا لا يعرفون أن يوقعوا أسماءهم بالعربى فكان يكتب أنهم وقعوا « بالعجمى » ومما يدل على أن العروبة قد كانت هى السائدة انه ان كان ثمة شاهد أو بائع أو مشتر افرنجى جرى تعريفه بلفظة « الافرنجى » ويرى الناظر فى هذه المجموعة أن أناساً أسماؤهم مسيحية وأسماء آبائهم أو أجدادهم اسلامية مما يدل على كونهم تنصروا . ثم انه كان الطقس الكنسى فى طليطلة بالعربى rite mozarabe وكان يختلف عن الطقس اللاتينى فى ثلاث عشرة نقطة .

واقد اطلعت فى جزيرة ميورقة على صك مقاسمة الاسبانيول لأملاكها وأراضيها بعد أن استولوا عليها سنة ٦٢٨ وهو محرر بالعربى أيضاً مع أنه صك تقاسم بين جماعة لسانهم غير اللسان العربى . وهذا الصك محفوظ فى خزانة البلدية فى « پالما » على أنه لا يستغرب كل هذا أيام كان العهد بالعرب والعربية حديثاً . ولكن اللسان العربى بقى لسان أهل طليطلة الى سنة ١٥٨٠ وفى ذلك العهد كان يذهب اليها ابن عبد الرفيع فيجد اخواناً له باقين على الاسلام فى الخفية . وقيل لى ان أحد المغاربة وقع فى هـذه الأيام الأخيرة ببعض قرى طليطلة فوجدهم يذبحون الأكباش يوم عيد النحر عندنا ويقولون انها عادة توارثوها عن آبائهم

ثم نعود الى كلام ابن عبد الرفيع الأندلسى فهو يقول :

« فباجتماعى بهم حصل لى خير كثير ولله المنة وقد قرأوا كلهم رحمهم الله على شيخ من مشايخ غرناطة أعادها الله للاسلام يقال له الفقيه اللوطورى رحمه الله تعالى ونفعنا به فانه كان رجلاً صالحا ولياً لله فاضلاً زاهداً ورعا عارفاً سالكاً ذا مناقب ظاهرة مشهورة وكرامات زاهرة مأثورة قد قرأ القرآن الكريم فى مكتب الاسلام بغرناطة قبل استيلاء العدو عليها وهو ابن ثمانيـة أعوام وقرأ الفقه وغيره على مشايخ أجلاء حسب الامكان لأن الوقت ضاق فى السر والاعلان لشدة القتال والحصر الذى كان عليهم مع صغر سنه . ثم بعد مدة يسيرة انتزعت غرناطة من أيدى المسلمين أجدادنا وقد أذن العدو فى ركوب البحر والخروج منها لمن أراده و بيع ما عنده واتيانه لهذه الديار الاسلامية أبقاها الله تعـالى عامرةً بالاسلام الى

(١) سنة ٤٧٥ هجرية و١٠٨٥ مسيحية

يوم الدين وذلك فى مدة ثلاة أعوام . ومن أراد أن يقيم على دينه وماله فليفعل بعد شروط اشترطوها والزامات كتبها عدو الدين على أهل الاسلام . فلما تحركوا لذلك أجدادنا وعزموا على ترك ديارهم وأموالهم ومفارقة أوطانهم للخروج من بينهم وجاز الى هـذه الديار التونسية والحضرة الخضراء بغتةً من جاء اليها حينئذٍ ودخلوا فى زقاق الأندلس المعروف بهذا الاسم وذلك سنة اثنتين وتسعمائة وكذلك للجزائر وتطاون وفاس ومراكش وغيرها ورأى العدو العزم فيهم لذلك نقض العـهد فردَّهم رغم أنوفهم من سواحل البحر الى ديارهم ومنعهم قهرا عن الخروج واللحوق باخوانهم وقرابتهم لديار الاسلام . وقد كان العدو يظهر شيئاً ويفعل بهم آخر مع أن المسلمين أجدادنا استنجدوا مراراً ملوك الاسلام كملك فاس ومصر حينئذٍ فلم يقع من أحدهما الا بعض مراسلات ليقضى الله أمراً كان مفعولا » اه

قلت الذى يظهر من خبر الشيخ الصالح اللوطورى رحمه الله أنه نشأ وشب تحت حكم الاسبانيول لكنه كان يعلم فرائض الاسلام سراً بقدر طاقته بعد أن ألغى الاسبانيول شعائر الاسلام من كل الأندلس وانه هو الذى أقرأ الأشخاص السبعة الذين ميزهم ابن عبد الرفيع ممن كان يجتمع بهم ويتحدث معهم فى النجوى بأمر الاسلام . وأما مسئلة اذن العدو للمسلمين بالرحيل ثم منعه اياهم بعد الاذن فقد جاء هذا فى التواريخ وربما كان العدو توجّس خيفة أنه ان خلت الأندلس من المسلمين وصاروا كلهم فى بر العـدوة انقضوا على السواحل الاسبانية وأنزلوا بها المصائب أخذاً بالثأر هذا فضلا عن أن خروجهم جميعاً يخسر الأندلس من جهة المـال والجبايات ويخرب البـلاد . ثم انه كان فى نية فرديناند وايزابلا اكراههم جميعاً على ترك الاسلام فلم يكن الاسبانيول بعد هـذا يخشون بقاء أناس على الاسلام فى اسبانية . وأما استنجاد الأندلسيين بملوك الاسلام وعدم اجابتهم الا بالكلام فان هذه النازلة وقعت فى عصر كانت فيه دول العرب بانحطاط لا تكاد تسد الفتوق التى عندها فى داخل بلادها فضلا عن أن تسد الثغور البعيدة . وأما دولة الترك فكانت لا تزال قوية الا أنها كانت فى الجهاد الدائم مع الدول الأوربيـة كما لا يخفى فلم يكن من السهل عليها التفرغ لأمر الأندلس . وبرغم هذا قد ثبت أن خير الدين بربروس وغيره من ولاة الجزائر طالما أرسلوا نجدات بالمال والرجال الى مسلمى جبال البشرات المشرفة على البحر .

ثم قال :

« ثم بقى العدو يحتال بالكفر عليهم غصباً فابتدأ يزيل لهم اللباس الاسلامى والجاعات والحامات والمعاملات الاسلامية شيئاً فشيئاً مع شدة امتناعهم والقيام عليه مراراً وقتالهم اياه الى أن قضى الله سبحانه ما قد سبق فى علمه فبقينا بين أظهرهم وعدو الدين يحرق بالنار من لاحت عليه أمارة الاسلام و يعذبه بأنواع العذاب فكم أحرقوا وكم عذبوا وكم نفوا من بلادهم وضيعوا من مسلم فانا لله وانا اليه راجعون حتى جاء النصر والفرج من عند الله سبحانه وتعالى وكان ذلك سنة ثلاث عشرة وألف لهجرته ﷺ » اهـ

قلت من أدل الدلائل على وجوب تمسك المسلمين بأزيائهم ومشخصاتهم القومية وعدم استخفافهم بهذا الأمر ان أعداءهم عندما يحاولون اخراجهم من الاسلام يبدأون باجبارهم على تغيير أزيائهم وأوضاعهم التى نشأوا عليها . وذلك كما فعل الاسبانيول من اكراه مسلمى الأندلس على نبذ اللباس الاسلامى وترك الذهاب الى الحامات وما أشبه ذلك فالعمل الذى عملته حكومة أنقرة بمسلمى تركيا فى هذا العصر من اكراههم على لبس البرنيطة ودق عنق من لم يلبسها أو من انتقد لبسها ان هو الا مرحلة من مراحل خروج المسلمين الأتراك من الدين الاسلامى وعمل مشابه لما فعله الطاغيتان فرديناند وايزابلا بمسلمى الأندلس بين يدى حملهم على النصرانية . نعم ان اللباس لا يتعلق بالدين والدين لا يتعلق باللباس ولكن لكل أمة مشخصات قومية ظاهرة ذات تأثير كبير فى أحوالها الروحية الباطنة ومن ينكر ذلك يكن مكابراً ، ولو لا هذا التأثير ما كان الاسبانيول لتسهيل خروج مسلمى الأندلس من الاسلام بادروا باجبارهم على تغيير ملابسهم وعاداتهم وايم الله لو لا متانة الأمة التركية وشدة اعتصامها بحبل الاسلام لكان تأثير الأوضاع الجديدة التى حملتها عليها أنقرة عميقاً جداً ولا أزال أقول انه ان استمرت هذه الحالة مدة طويلة فى تركيا كان على اسلام الترك خطر عظيم لا سيما بعد الغاء أنقرة كل تعليم دينى اسلامى من مكاتب الحكومة .

ثم قال :

« فخرج بعض أحبابنا واخواننا وهو الفقيه الاجل المدرس الشريف لامه أبو العباس أحمد الحنفى المعروف بعبد العزيز القرشى ومعه أحد اخواله رحمهم الله تعالى الى

مدينة بلغراد من عمالة القسطنطينية العظمى فالتقيا بالوزير مراد باشا وزير السلطان المعظم المرحوم السلطان أحمد ابن السلطان محمد نجل آل عثمان نصرهم الله تعالى وأيدهم فأخبراه بما حل باخواننا الأندلسيين من الشدة بفرانسة وغيرها فكتب أمراً لصاحب فرانسة دمرها الله باعلام السلطان نصره الله بأمره بأن يخرج من كان عنده من المسلمين الأندلسيين وخدام آل عثمان ويوجههم اليه فى سفن من عنده معها يحتاجون اليه »

قلت طالما ذكر المبغضون للدولة العثمانية تقصيرها فى نجدة مسلمى الأندلس الذين حلّ بهم كل ماحلّ وانتزعت من أيديهم مملكة غرناطة أيام كانت هى فى عزها وعنجهية أمرها. وأنا لاأبرئ الدولة العثمانية من تبعة هذا التقصير واقول انها برغم ما كانت عليه من الحروب فى البلقان ومن مجاهداتها يومئذٍ للالمان والمجر والبولونيين والبنادقة وغيرهم كان فى استطاعتها أن تجرد جيشاً ينزل فى سواحل غرناطة ويفرج عمن هناك من المسلمين ولكن قدّر الله أن لا تفعل ذلك وكان أمر الله قدراً مقدوراً ولكن مما لا يجوز انكاره أن أتراك الجزائر سواء لعهد بربروس أومن بعده كانوا لا يفتأون ينجدون ثوار المسلمين فى جبال البشرات المتدلية الى البحر

ثم يقول :

« فلما قرئ الأمر السلطانى فى ديوان الفرنسيس فسمعه من كان عنده مرسلاً من قبل صاحب الجزيرة الخضراء وهو اللعين فيليبو الثالث فأرسل لسيده وهو يخبره بالواقع. وأن السلطان أحمد نجل آل عثمان أرسل أمره الى فرانسا وأمر صاحبها بأن يخرج من كان عنده من الأندلس فقبل كلامه وأمر باخراج المسلمين وأذن لمن جاء من الأندلس بان لا بأس عليهم وان يركبوا عنده فى سواحله مراكبه ويبلغهم الى حيث شاءوا من بلاد المسلمين » اه

قلت ان السلطان أحمد نجل آل عثمان الذى ذكره ابن عبد الرفيع الأندلسى هو السلطان أحمد الأول ابن السلطان محمد الثالث العثمانى وهو السلطان الرابع عشر من سلسلة آل عثمان ولد سنة ٩٩٨ للهجرة (١٥٨٩) وتولى السلطنة وهو ابن أربع عشرة سنة وبقى فيها ١٤ سنة اذ توفى فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٦١٧ وهو ابن ٢٨ سنة لا غير. وله فى استانبول جامع السلطان أحمد العظيم وسبيل الماء الذى فى الطوبخانه .

«وفى ايامه عصى أهل البغدان وقع ثورتهم ونشبت الحرب مع العجم وعقد معهم الصلح وتغلب اسطوله على اسطول فرسان مالطة وذلك فى بحر قبرص ودمره وكان مراد باشا صدراً أعظم فى ايامه فاخضع الثوار الذين كانوا عصوا الدولة وهو الذى بواسطته أصدر السلطان أحمد أمره بانقاذ الأندلسيين . وأما ملك فرانسة الذى فى ايامه التجأ الى فرانسة المور يسك (أى مسلمو الأندلس) الذين أكرهوا على التنصر فهو هنرى الرابع المتوفى سنة ١٦١٢ وكان هذا الملك قد قبلهم فى بلاده على شرط أن يقبلوا الدين الكاثوليكى . فلما أرسل اليه السلطان أحمد العثمانى باركابهم البحر الى بلاد الاسلام لم يسعه الا الاجابة وأركبهم البحر الى البلاد التى أرادوها من بلاد الاسلام و بقيت منهم بقايا فى فرانسة اندمجوا فى أهلها»

ثم يقول :

« فلما أحس بهذا الأمر عدو الله فيليبو صاحب اسبانية دخله الرعب والخوف الشديد وأمر حينئذٍ لجمع أكابر القسيسين والرهبان والبطارقة وطلب منهم الرأى ومايكون عليه العمل فى شأن المسلمين الذين هم فى بلاده كافة فبدا الشأن فى أهل بلنسية فأخذوا الرأى وأجمعوا كلهم على اخراج المسلمين كافة من مملكته وأعطاهم السفن وكتب أوامر وشروطاً فى شأنهم وفى كيفية اخراجهم وشدد على عماله بالوصية والاستحفاظ على كافة المسلمين من الأندلس . نعم أريد أن أذكر لك نبذة يسيرة اختصرتها وترجمتها من جملة أسباب ذكرها الملك الكافر أبعده الله فى أوامرهِ التى كتبها فى شأن اخواننا الأندلسيين حين اخراجهم من الجزيرة الخضراء لتكون على بصيرةٍ من أمرهم وتعلم بعض الاسباب التى أخرجوا من أجلها على التحقيق لا كما يزعم بعض الحاسدين وليؤيد ذلك ما قدمناه آنفاً من أمر السلطان أحمد المنصور بالله نجل آل عثمان نصرهم الله آمين ونكمل الفائدة ولئلاً يساء الظن بنا معشر الأندلسيين فأقول و بالله التوفيق : قال الملك الكافر أبعده الله تعالى وزلزله آمين : « لما كانت السياسة السلطانية الحسنة الجيدة موجبة لاخراج من يكدر المعاش على كافة الرعية النصرانية فى مملكتها التى تعيش عيشاً رغداً صالحاً والتجربة أظهرت لنا عيانا أن الاندلسيين الذين هم متوالدون من الذين كدروا مملكتنا فيما مضى بقيامهم علينا وقتلهم أكابر مملكتنا والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين أظهرهم وقطعهم لحومهم وتمزيقهم أعضاءهم وتعذيبهم اياهم بأنواع العذاب الذى لم يسمع فيما تقدم مثله مع عدم توبتهم مما

فعلوه وعدم رجوعهم رجوعا صالحا عن قلوبهم لدين النصرانيــة وانه لم ينفع فيهم وصايانا ورأينا عيانا أن كثيراً منهم قــد أحرقوا بالنار لاستمرارهم على دين المسلمين وظهر منهم العناد بعيشهم فيه خفيةً واستنجادهم كذلك عون السلطان العثمانى لينصرهم علينا وظهر لى أن بينهم و بينه مراسلات اسـلامية ومعاملات دينية وقد تيقنت ذلك من اخبارات صادقة وصلت الىَّ ومع هذا ان أحداً منهم لم يأت الينا ليخبرنا بما هم يدبرونه فى هذه المدة بينهم وفيما سبق من السنين بل كتموه بينهم علمت بذلك ان كلهم قد اتفقوا على رأىٍ واحـد ودين واحد ونيتهم واحـدة وظهر لى أيضا ولأرباب العقول والمتـدينين من القسيسين والرهبان والبطارقة الذين جمعتهم لهذا الأمر واستشرت ان من ابقائهم بيننا ينشـأ فساد كبير وهول شديد بسلطتنا وأن باخراجهم من بيننا يصلح الفساد الناشئ من ابقائهم بمملكتى فاردت اخراجهم من سلطتنا جملة ليزول بذلك الـكدر الواقع والمتوقع للنصارى الذين هم رعيتنا طائعين لأوامرنا وديننا ورميتهم الى بلاد المسلمين أمثالهم لـكونهم مسلمين » انتهى

قلت ظهر من هنا جليا انهم كانوا نصروهم كرها والملك معترف بذلك ومعترف بأكثر من ذلك وهو أنهم كانوا يحرقون بالنار من يلحظون عليه انه كان باقيا مسـلما فى السر . وهذا أفظع عمل عرفـه البشر فى التاريخ . والملك يعجب أيضا من كونهم راسلوا السلطان ابن عثمان سراً كمسلمين يلتمسون نجـدته مع ان ملك اسبانية كان يظن انهم بعـد ان أكرهوا على النصرانية ومضت عليهم هذه المدة الطويلة نحو من مائة سنة وتربى أبناؤهم وأحفادهم فى مدارس النصارى قـد آمنوا بالدين المسيحى ايمانا خالصا وزال كل أثر للاسلام من قلوبهـم فما راع الملك الا والأخبار تأتيـه بأن هؤلاء القوم لا يبرحون على دين آبائهم فى دخائل نفوسهم وانهـم يدبرون أموراً فيما بينهم ولا يوجـد منهم من يأتى ويخبر حكومة الاسبانيول بتدابيرهم الخفية مما يدل على كونهم بأجمعهم لا يزالون مسلمين فلهذا أجمع فى الآخر طردهم

ثم يقول ابن عبد الرفيع :

« ولم أتعرض لذكر شروط كتبها ودققها فانظر رحمك الله كيف شـهد عدو الدين الملك الـكافر بأنهم مسـلمون واعترف أنه لم يقـدر على ازالة دينهم من قلوبهم وانهم متمسكون كلهم به مع انه كان يحرق منهم من ظهر عليه الدين ثم وصفهم بالعناد لرؤيتـه

فيهم لوائح المسلمين وأماراتهم فأى علامة أكبر من صبرهم على النار لأجل دين الحق ومن استنجادهم ملك دين الاسلام المؤيد لحماية الدين أمير المسلمين السلطان أحمد نجل آل عثمان نصرهم الله تعالى فهذا غاية الخير والعز والبركة لهذه الطائفة الطاهرة الأندلسية التى قال فيها شيخنا الأستاذ القطب الغوث سيدى أبو الغيث القشاش نفعنا الله تعالى به دنيا وأخرى فى بعض مكاتيبه التى كان يكاتبنى بها فى بعض شأنهم حين قدومهم الى هذه الديار أدامها الله للاسلام فقال لى : «وسلم لى على هؤلاء الأنصار الأطهار الأخيار فانه لا يحبكم الا مؤمن ولا يبغضكم الامنافق» انتهى بلفظه . ويؤيد كلام الأستاذ رحمه الله تعالى الأحاديث الشريفة السابقة فى أول هذا الكتاب فى الفصل الأول منه فى النوع الثالث منها كحديث سلمان الفارسى رضى الله عنه وحديث على رضى الله عنه وهو قوله ﷺ : لايبغض العرب الا منافق وغيرهما وكما جاء فى شأن قريش لثبوت نسب أكثرهم منهم ومن الأنصار الخزرج والاوس وغيرهما تغليباً فضلاً عمن هو منهم من الأشراف من ذرية الحسن والحسين والعباس وغيرهم رضى الله عنهم من بنى هاشم كما سيأتى ذكرهم ان شاء الله تعالى مع ما تقدم والله سبحانه وتعالى أعلم و به التوفيق لخرجوا كلهم سنة تسع عشرة وألف [1] و وجد فى دفاتر السلطان الكافر أبعده الله تعالى أن جملة من أخرج من أهل الاندلس كافة نيف وستمائة ألف نسمة كبيراً وصغيراً فكانت هذه الواقعة منقبة عظيمة وفضيلة عجيبة لجماعتنا الاندلسيين زادهم الله شرفاً بمنّه وأمر أيضاً باخراج من كان مسجوناً فى كافة مملكته وكل من كان أمر باحراقه فأخرجه وعفا عنه وزوّده وأرسله الى بلاد الاسلام سالماً» اهـ

قلت قد حصحص الحق وظهر أن آل عثمان لم يهملوا تماماً مسلمى الاندلس وأن خلاص هذه الستمائة ألف الاخيرة من نفوسهم انما كان على يد السلطان أحمد الاول رحمه الله وكان مشهوراً بالتقوى والورع والحمية الدينية

هذا ولما كنا شارعين فى تأليف كتاب اسمه « الحلة السندسية فى الرحلة الاندلسية » يتضمن رحلتنا منذ سنتين الى اسبانية وما شاهدناه فيها من آثار العرب وعلمناه من تاريخهم فقد تركنا استقصاء أخبار الموريسك لذلك التأليف وانما نحب أن نلحق بهذا

(١) رواية نفح الطيب أن الخروج الأخير كان سنة سبع عشرة وألف فيجوز أن يكون وقع تحريف فى اللفظة لما بين تسع وسبع من التشابه

المبحث فصلا جديداً عثرنا عليه فى جريدة « آربايترتسايتونغ » Arbeiterzeitung جريدة العملة النمسوية الصادرة فى فينًّا عددها المؤرخ فى ٣ ينار سنة ١٩٣٢ قد أتى فيه بمناسبة الكلام عن ثورات أهل العمل على خبر موريسك بلنسية فى أوائل القرن السادس عشر فقال :

«سنة ١٥١٩ ثار الاهالى فى مملكة بلنسية من بلاد أسبانيا وصادف ذلك زمان ثورة « الكومونيروس » فى قشتالة وثورة الفلاحين فى ألمانيا . وبدأت ثورة بلنسية هذه بانتقاض أهل العمل . ولم يكن انتقاضهم على الملك نفسه بل على النبلاء أصحاب الاراضى . وكانت خلاصة مطالبهم المساواة فى الحقوق مع الطبقات العليا وكان يتقدمهم يوان لورانزو قائداً وما زالوا حتى أدخلوا اثنين من زعمائهم أعضاء فى الهيئة الحاكمة فى بلنسية . ولما كانت بلنسية تحت خطر غارات القرصان دائماً كان جميع الاهلين يحملون السلاح بدون حرج فساعد ذلك على نجاح الثورة كما أن العنف الذى كان يجرى من الحكومة فى قمعها قد زادها اشتعالا وانتهى الامر بأن الاهالى تغلبوا على الحكومة والنبلاء وطردوهم من بلنسية . ولما كان الموريسك يومئذ مستعبدين يعملون فى أراضى النبلاء كانوا هم فى الجهة المعارضة لهذه الثورة ولما كانت هذه الأمة مختلفة عن الثائرين فى الجنس والدين وكانت تقاوم الثائرين بالسلاح نشأ عن ذلك مذابح تقشعرّ منها الأبدان وانفجر بركان التعصب الدينى بصورة هائلة كما لا يخفى

«ولقد كان العرب فتحوا بلنسية سنة ٧١٥ مسيحية و بقيت من جملة ولايات قرطبة مركز الخلافة . وفى أيام ملوك الطوائف استقلت بنفسها وذلك سنة ١٠٣١ ثم افتتحتها مملكة اراغون سنة ١٣١٩ و بقيت فى يدها و بقى العرب فى الأراضى مزارعين بعد ان كانوا مالكين وصار الملك للنبلاء . وكان هؤلاء العرب ذوى مقام عند الاسبانيول بسبب حسن قيامهم على الاملاك ومعرفتهم التامة بالزراعة وكانوا يؤدون ضرائب فادحة ولا يتكادهم ذلك لنشاطهم فى العمل . ومن هناك جاء المثل الاسبانيولى : حيث لا عرب لا فائدة

Mi entras mas moros , mar ganancia

« فكان النبلاء أصحاب الأملاك يكرهون سياسة الكنيسة التى كانت تعمل دائما لتحويل العرب الى النصرانية لأن تنصر العرب كان يحرمهم فوائد جزيلة وسنة ١٥١٥

أ مكنهم بشدة الحاحهم الحصول على أمر من شرلكان بأن لا يجبر أحد من العرب على التنصر و بأن لا يطرد أحد منهم فى كل أرض بلنسية . وهذا العضد الذى عضده النبلاء للعرب فى أمر حريتهم الدينية جعل هؤلاء ينتصرون لهم بالسلاح عند ماثار بهم حزب العَمَلة

«فتحولت المصارعة بين العَمَلة والنبلاء الى مصارعة بين المسيحيين والمسلمين بهذا السبب وفى وقعة « غانديا » فى يوليو ١٥٢١ بين الحكومة والثائرين كان ثلث العسكر من العرب . ولهذا لأجل أن ينتقم الثائرون من النبلاء تعمَّدوا تعميد المسلمين بالقوة القاهرة لأن المسلمين المتنصرين كانوا يحصلون على حقوق المسيحيين أنفسهم و يعودون مالكين بعد ان كانوا مزارعين وترتفع عنهم ضريبة الجماجم الخاصة بالمسلمين . فصار الثوار يجوبون البلاد و ينصّرون أىّ مسلم صادفوه بالا كراه و ينهبون مزارع النبلاء . وقد ازداد ذلك بعد وقعة « غانديا » التى كان الظفر فيها للثوار تحت زعامة « ڤيسنتي بيريس » فكان حزب العَمَلة يزحفون و يجمعون المسلمين بالقوة و يأتى القسيسون فيرشّونهم بماء المعمودية وما زال الأمر كذلك حتى تغلبت الحكومة على الثوار وذلك بعد وقعة شاطبة التى دافع فيها الثوار عن تلك البلدة دفاع الليوث وقتل فيها « بيريس » زعيمهم . وقد كان المأمول ان يحصل الفرج للمسلمين بتغلب الحكومة فحصل العكس وذلك بأن المسلمين بعد تنصيرهم كرهاً صاروا تحت نظر ديوان التفتيش الذى تأسس سنة ١٤٨٠ وكانت مهنة هذا الديوان حرق من لم تثبت نصرانيته بالنار . والحال أن جميع أولئك المسلمين الذين تنصروا بالقوة لم يكونوا يعلمون من النصرانية قليلاً ولا كثيراً . فكان وقوعهم فى الاثم فى نظر ديوان التفتيش من أسهل الأمور . و بدأ اضطهاد هؤلاء المساكين بشكل لم يسبق له مثيل . وكان النبلاء يحاولون الدفاع عن مزارعيهم المسلمين فيسترضيهم رجال ديوان التفتيش بأصناف المنح حتى لايعارضوهم فى عملهم الوحشى بحق المسلمين . و بعد ان كان المتنصرون متمتعين بحقوق النصارى الاصليّين عادت الحكومة فسلبتهم هذه الحَقوق وصاروا يؤدون الضريبة الخاصة بهم مثل ذى قبل ولم يعودوا أحراراً فى منازلهم . وما برحت هذه الأعمال الوحشية تتفاقم بحق المسلمين حتى أخذت الرأفة بعض الاساقفة فراجعوا البابا سائلين اياه اذا كان التنصير تحت التهديد بالحريق جائزاً . وكان البابا بونيفاس الثامن فأجابهم: « بأن التهديد

بالموت لايعد اكراهاً يبطل مشروعية التنصّر[١] وأن الاكراه لا يكون اكراها الا اذا سيق المسلم الى المعمودية ويداه موثقتان ورجلاه مقيدتان وكان يصيح بأعلى صوته محتجّاً على هذا العمل » وكان البابا يعلم جيداً أن المسلم الذى كان يحتجّ على تنصيره بهذه الصورة لم يكن يرفع صوته حتى يسقط صريعا

«فى هذه السنين التى وقعت فيها هذه الفظائع فرّ خمسة وعشرون الفاً من مسلمى بلنسية الى افريقية فلحق الضرر بالنبلاء فى مزارعهم وراجعوا الامبراطور شارلكان بشدة فاصدر امره بتأليف لجنة لحلّ هذه المشكلة . فبعد مذاكرات طويلة قررت هذه اللجنة قراراً غريباً جداً وهو ان تعميد المسلم بالقوة ذنب يعاقب فاعله الا انه لاينبغى ان يزول به اثر التعميد . والمسلم المعمّد بالقوة يجب ان يبقى نصرانياً[٢] وان الله هكذا يكون جعل من الشر خيراً وبالاختصار رجع المسلمون الى نظر ديوان التفتيش وهم يجهلون ابسط قواعد المسيحية

«فأخذ هذا الديوان ينقّب وينقّر عن الكلية والجزئية من اعمال المسلمين ومنع جميع شعائرهم الدينية بل منع جميع عاداتهم ومذاهبهم فى الحياة ولو لم يكن لها تعلق بالدين وعاقب على ذلك . وكان يعاقب أشد العقاب من عَلِم عنه انه لا يأكل لحم الخنزير أو الميتة أوعرف عنه انه لا يشرب الخمر أو قيل انه ادرج ميتَه فى كفن نظيف . وكانت النظافة فى ذاتها ذنباً يعاقب عليه . وفى سنة ١٥٩٧ وجد فى طليطلة المسمى « موريسكو بارتولوم شانجه » فلحظ عليه القوم انه شديد التطهُّر فعذبوه عذاباً شديداً ومازالوا يعذبونه حتى اقرّ بانه يتطهّر عن عقيدة فحكموا عليه بالسجن المؤبد وبضبط جميع املاكه . ووجدوا قرآناً عند عجوز اسمها « ايزابلاّ زاسيم » [٣] فقالت انها لاتقدر ان تقرأه فلم ينفعها هذا القول وعذّبوها ولكن لما كان عمرها تسعين سنة اكتفوا من اهانتها بحملها على حمار والطواف بها فى الشوارع وعليها غطاء مكتوب عليه اسمها واثمها ... ثم زجّوها فى السجن وبقيت فيه الى ان علّموها قواعد المسيحية . وقد عزبت نساء كثيرات على اطعامهن لحم الميتة للكلاب

(١) ليتأمل القارئ فى صدق هذا البابا وحرية وجدانه ...

(٢) ليتأمل القارئ فى هذا الرثاء وهذا التعليل الفارغ ونحمد الله على ان تاريخ الاسلام خال من المعرات التى تلوث بها غيره فى باب الحرية الدينية

(٣) لعلها محرفة عن قاسم أو جاسم

بدلاً من اكلهن له . وكان من جملة الذنوب تخضيب الاظافر بالحنَّاء. وكان اشد شئ على الموريسك ما كانوا يكرهونهم عليه من دفن موتاهم فى وسط الكنائس ودينهم يأمرهم باضجاعهم تحت التراب . وكانوا يعاقبونهم بالغرامات الثقيلة وبانتزاع املاكهم منهم واذا تكررت التهمة فبالحرق بالنار . وكان الذى ينجو منهم من الموت يحلّف يمينا مؤكدة بأن لايخبر أبداً بما جرى معه . وكان ديوان التفتيش يعمل العِملّين بالمسلمين سراً وكان منهم من يختفى اشهراً . وكان منهم من يختفى سنين ولايعلم احد به وكثيراً ماكان يؤتى بالرجل فيجد امرأته بعد ان كان فقدها ويؤتى بالاب فيجد اولاده بعد ان كان فقدهم وذلك التلاقى بينهم عند محل الحريق . وقد حدث ان ابنة عمرها ١٩ سنة سعت بوالديها واهلها لدى ديوان التفتيش فاتوا بالاب فلم يقر بشئ فاحرقوه واما الام فاقرّت فحكموا عليها بالسجن المؤبّد . وكانت ضحايا وشاية هذه البنت ٢٥ شخصا منهم أربعة ماتوا حرقاً بالنار والباقون حكم عليهم بالسجن وأما أملاكهم فقد ضبطت بأجمعها

« ولقد انتهت هذه الفظائع الوحشية باجلاء جميع الموريسك عن اسبانية وقد كانت ثورة العملة فى بلنسية هى السبب فى اكراههم على التنصُّر جوعاً وتمسّك ديوان التفتيش بذلك لأجل اتمام عمله الشنيع » انتهى

قلت ان مبدأ « الغاية تبرر الواسطة » معروف عند هؤلاء الجماعة وليس منحصراً فى رهبانية الجزويت وحدهم . وتحريره أن الدخول فى الدين الكاثوليكى هو خير محض وخلاص من عذاب جهنم . وعليه فاذا ساءت الوسائل المستعملة لادخال غير الكاثوليك فى الكثلكة فلا بأس لأن الغاية حسنة ... وهكذا أجازوا لأنفسهم ان يعملوا ماعملوه فى اسبانية بالمسلمين واليهود وفى جنوبى فرنسة وفى بلاد اخرى بالمبتدعين الذين يسمونهم بالهراطقة . وكل هذا جرى بأمر الباباوات ورؤساء الكنيسة وقلّما نازع فيه منازع منهم . ولهذا لما جرت فى السنة الماضية مناقشة بين حزب الفاشيست فى ايطاليا والفاتيكان من أجل قول موسولينى رئيس الفاشيست ورئيس الحكومة : انهَ يجب على الفاشيست ان يكرهوا أعداءهم وقول جريدة الفاتيكان ان هذا مخالف لمبادئ المسيحية اضطر موسولينى أن ينشر ردّاً تحت امضاء أحد أعوانه ذكر فيه مبادئ الكنيسة بشأن أعدائها وعدّد أسماء الباباوات الذين أصدروا الأوامر بالقتل العام والحرق بالنار وأجازوا كل ألوان العذاب لأجل مجد

الرب... من هؤلاء البابوات يوليوس واينوشنيوس وغريغوريوس واسكندر بورجيا وغيرهم

ومن طالع تاريخ هؤلاء وبخاصة تاريخ البابا اسكندر بورجيا واولاده وعلم ما كان يجرى من الفظائع بامره فى نفس رومة لم يعجب مما جرى بامره وأمر اخوانه على مسلمى الأندلس . ولاجدال فى صحة هذه التواريخ لأن رواياتها متواترة وقد اجمع عليها المؤرخون حتى من انفس الكاثوليك

ثم اننا نعود الى موضوع مسلمى الاندلس فنقول انه مما لامرية فيه أنه لما خرجوا من اسبانية خروجهم الأخير سنة ١٠١٩ أو ١٠١٧ وكانوا ستمائة الف نسمة لم يكونوا هم جميع المسلمين الباقين بالاندلس بل بقيت منهم بقايا كثيرة فى كثير من المدن والقرى انتهى أمرهم بان اندمجوا فى الاسبانيول وصاروا نصارى فعلاً . ويقال ان رئيس جمهورية اسبانيا الحالى « السنيور القلعة زمورة » Alcala Zamora هو من سلالة العرب . ويقال ان رئيس نظارها الحالى « السانية » Azania هو أيضا من أصل عربى وان اناساً من اسبانيول شاطبة ينتسبون الى الامام الشاطبي صاحب القراءات. وقد شاهدت اناساً من بلنسية قالوا لى ان اصلهم عربى . وشاهدت من غرناطة رجلاً اسمه « الفخارو » قيل لى ان اصله عربى أى « الفخار » وهذه اسرة معروفة فى الاندلس وقيل لى انه يوجد فى مالقة من ذرية بنى سراج . والاسبانيول يقولون لهم « سراخ » على عادتهم فى قلب الجيم خاء . ولقد وجدت ذكر اعقاب السراجيين هؤلاء فى كتاب رحلة الوزير الغسانى الى اسبانية فى ايام السلطان الكبير مولاى اسماعيل صاحب المغرب . وكنت قرأت ترجمة هذه الرحلة باللغة الافرنسية وأعجبتنى جداً على كونى لم أطالع أصلها العربى . ثم اتصل بعلم المؤرخ الكبير العلامة النحرير الشريف الاثيل الاثير مولاى عبد الرحمن بن زيدان رئيس العائلة السلطانية العلوية بالمغرب أدام الله عزها و وفقها لخدمة الاسلام والمسلمين انى أبحث عن رحلة الوزير الغسانى الاندلسى الكاتب الذى سفر لعهد مولاى اسماعيل الى اسبانية فتفضل بكرم اخلاقه بان أمر باستنساخ نسخة من هذه الرحلة بنصها العربى الأصلى واهدانى اياها فى جلد محلًّى بالذهب أطال الله بقاءه ونفع به وعلمت ان الوزير الغسانى المذكور توفى فى فاس سنة تسع عشرة ومائة والف . واما اسم رحلته فهو « رحلة الوزير فى افتكاك الاسير » وقد عثرت فيها على ذكر بنى سراج عند

ذكر مدينة « اندوخر » من عمل قرطبة قال :

« وهى مدينة قديمة أثرها أثر الحضارة وهى على ضفة الوادى الكبير أيضاً وعلى هذا الوادى بقرب المدينة قنطرة من عهد الاسلام و بفحص هذه المدينة من الزياتين والغروس والبساتين وأراضى الحراثة مالا يحصى . وأهلها أهل حراثة وفلاحة والغالب على عمالها أنهم من بقايا الأندلس وجلهم من أولاد السراج الذين كانوا تنصروا على عهد السلطان أبى الحسن آخر ملوك غرناطة . وذاك فيما يزعمونه النصارى و ينقلونه فى تواريخهم ان بعض أولاد ابن زكرى الغرناطيين كان وشى الى الملك بأحد أولاد السراج وذكر عنه أن له كلاماً مع زوجة ابن الملك ومخالطة . فحنق الملك على أولاد السراج الذين معه بغرناطة فقتل منهم جماعة أعيان وكان أولاد السراج لذلك العهد هم أقوى جيش المسلمين و بلادهم « اندوخر » بيدهم باقية بعد تغلب الكفرة على قرطبة واحوازها يحاربون عليها و يذبون عنها فحينما بلغهم خبر من قتل من اخوانهم بغرناطة حملتهم الحمية والأنفة والحنق والغيظ على أن ركبوا من ساعتهم وقصدوا طاغية الوقت فتنصروا على يده وخرجوا من عنده قاصدين غرناطة فأغاروا وحضروا بعد ذلك مع الطاغية فى حروب غرناطة واحوازها نعوذ بالله من الضلال بعد الرشاد ومن الغواية بعد الهداية . وجل بقية هؤلاء المتنصرين الذين باندوخر يعد من أكابر أهل البلد غير أنه لا يعد عند النصارى مثل ما هم من الكبرة التى يتوارثها النصارى خلفاً عن سلف مثل الدوك والقند وشبههما . وأكثر ما يحصل لهم اليوم من الكبرة أن من يكون من نسل هؤلاء القوم الذين تنصروا أن يرث عمل الصليب على كتفه يرقه فى ثوبه المتدثر به فتلك هى علامة الأكابر منهم . والخطط التى يتولونها بقايا هذا الجنس المذكور هى الكتابة وحكومة البلدان والشرطة وغيرها مما ليست وجاهة كبيرة و ولاية سنية مثل التصرف فى المحال[1] أو الولاية للاقاليم الكبيرة والمدن القواعد مثل اشبيلية وما شاكلها . وعلى كل حال فهم فى هذه النواحى كثيرون لا يحصون فنهم من ينسب ومنهم من لا ينتسب ومنهم من ينفر من سماعه الانتساب ذاك . والذين هم من هذه النسبة ويتأبى عنها ينتسب الى جبال نبارة وهى جبال بعيدة من قشتالة[2] كان انحاز اليها من بقى من النصارى ساعة تغلب المسلمين على العدو ويتفاخرون

(١) جمع محلة أى مركز قيادة الجيش

(٢) لعله يعنى ناڤاره

بالانتساب الى تلك الجبال وما والاها . والذين بيدهم ولاية أو خطة من الخطط المخزنية (١) من أهل هذا الجنس لاينفرون من الانتساب فلقد لقيت يوما بمدينةمدريد(٢) رجلاً أُنسيتُ اسمه الآن راكبا ومعه جماعة من النساء صغاراً وكباراً لهم حسب وجمال فوقف وسلم سلاما كثيراً وأظهر هو ومن معه من النساء بشراً وترحيبا فقابلناه بما يجب وحين أراد الانصراف عرَّف بنفسه بأن قال: نحن من جنس المسلمين من نسل أولاد السراج . فسألت عنه بعد ذاك فقيل لى انه من كتَّاب الديوان وهو الذى يقرأ ما يحصل بالديوان من رقاع وعرض حال وشبهه . وكذاك أيضا كانت جماعة من أهل غرناطة لهم بغرناطة ولاية وأحكام وسكناهم بمدينة مادريد ترد علينا صحبة ضون (٣) « الونص » الذى هو من عقب ملك غرناطة (٤) وينتسبون الى الجنس الذى كان بغرناطة وغلب عليهم الشقاء والعياذ بالله . ولقد كانوا يسألون عن دين الاسلام وعن أشياء منه فحين يسمعون ما نجيبهم به عنه من الديانات وأحكام الطهارة التى بُنى الاسلام عليها وغير ذلك يعجبهم ما يسمعون منه وينصتون اليه ويشكرونه بمحضر النصارى ولا يعبأون بمن حضر . ولم يزالوا مدة مقامنا بمادريد يكثرون التردد لدينا ويردون علينا المرة بعد المرة ويظهرون من المحبة والتحنن شيئا كثيراً . فنسأل الله أن يهديهم الى الصراط المستقيم ويرشدهم الى الدين القويم » انتهى

ثم اننا ننقل من رحلة الفاضل الوزير الغسانى ما ذكره عن مدن أخرى أنس فيها رائحة الاسلام ولا عجب فان بين جلاء المدجنين الأخير وبين عهد هذه الرحلة نحواً من مائة سنة لا أكثر

قال عند ذكر مدينة « لينارش » : « وبها من بقايا الأندلس النزر من سكانها »

وقال عند ذكر مدينة اسمها «مورا» هكذا : «ومعناها المسلمة وسبب تسميتها بذلك والله أعلم انها ربما تأخَّرت عن جيرانها من المدة بشيءٍ مافى التنصُّر »

(١) نسبة الى المخزن ومعناه فى المغرب والأندلس ما يقال له الحكومة اليوم فى الشرق

(٢) والعرب قديماً كانوا يقولون مجريط

(٣) أى الدون وهو من القاب الشرف عندهم

(٤) بحسب هذه الرواية يكون من عقب أبى الحسن على بن الأحمر من تنصر وتحول أسبانيولياً وهذا يطابق ما قرأته من أن اخوة أبى عبد الله الصغار مذ سقوط غرناطة تحولوا أسبانيوليين

وقال عند ذكر مدينة « شريش » ما يلى :

« ومدينة شريش هذه تلقب بشريش الغرنطيرة ومعناها المقابلة ويعنون بها المقابلة لبرّ الاسلام أعزه الله وجل أهلها من أهل الأندلس وأعيانهم لأنهم تنصروا وهم أهل حراثة وفلاحة »

وذكر مدينة فى جهات شريش اسمها « البربيجة » فقال : « وأنزلونا داراً لبعض أكابرهم وجعلوا ينثالون علينا للسلام وفيها من انتسب لنا الى الأندلس باشارة خفية لم يقدر على التصريح بغير كلام خفى . والغالب على جل سكانها انهم من بقايا الأندلس الا أن العهد طال عليهم وربوا فى بحبوحة الكفر فغلبت عليهم الشقاوة والعياذ بالله »

ثم ذكر مدينة « اطريرة » فقال من جملة كلام :« وجل أهلها من بقاياالاندلس» ثم قال : « وأهلها ذوات عظام والغالب عليهم الحسن رجالاً ونساء ولقد شاهدنا ابنتين احداهما بنت حاكم البلد والأخرى بنت القاضى فى غاية من الحسن والجمال والكمال لم تر عينى فى جميع ما رأيت من بلاد أصبانيا على سعتها أجمل منهما وهما من بنات الأندلس ومن دم ملك غرناطة الأخير الذى غُلب عليها وهو الملك المعروف عندهم « بالرى الشيكو » ومعناه السلطان الصغير . ولقد أخبرنى بمدينة مادريد رجل يسمى « ضون الونص » حفيد موسى أخى السلطان حسن [1] المتغلب عليه بغرناطة ان البنتين اللتين باطريرة من دمه . وضون الونص هذا رجل حسن الأخلاق حسن الشباب له قوة وشجاعة معروفة عند النصارى وهو معدود من فرسانهم وشجعانهم ومع هذا فهو مائل الى من يلقاه من أهل الاسلام ويذكر نسبته ويعجبه ما يسمعه من الحديث عن الاسلام وأهله ولقد حدثنى عن أمه أنها حين حملت به اشتهت أكل الكسكسون فقال لها أبوها : لعل هذا الحمل الذى فى بطنك من ضنء المسلمين يداعبها بذلك اذ كانوا لا ينفرون من نسبتهم لعامهم أنهم من بيت الملك نعوذ بالله من الخذلان والغواية ونسأله التوفيق والهداية »

قلت انه بمناسبة الحسن والجمال قد لحظت وأنا فى أسبانيا ان أهل الجنوب منها أى أهل البلاد التى يقال لها الأندلس أجمل من أهل الشمال أى قشتالة ونافار واراغون وبرشلونة . فلما كنت فى غرناطة ذكرت هذه الملاحظة لأحد نبهائها فأجابنى على الفور :

---

(١) لعلها أبى الحسن

« نعم لأننا نحن عرب »

ثم ذكر الوزير الغسانى مدينة « مرشينة » فقال : « وأهلها أهل بشاشة ومنهم من ينتسب الى الأندلس انتساباً »

وذكر فى موضع آخر من كتابه أن الذين تنصروا كانوا يعطون علامة الصليب يرقونها على ثيابهم فقال : « الذين هم من جنس الأندلس وكانوا أكابر قومهم وتنصروا لأغراضهم فأعطوا تلك العلامة وهى دالة على عراقتهم مع الاصالة لعهد اسلامهم وعلامة على كبرتهم الخ »

فمن هنا وأشباهه تعلم أن الموريسك ـ أو المدجنين كما كان يقال لهم عند العرب ـ كان بقى منهم قسم عظيم بالأندلس وأنهم تنصروا أولاً بالقوة ثم اندمجوا مع طول الزمان فى النصارى ولكنهم لبثوا يتذكرون أصلهم ونراهم حتى هذه الساعة يذكرون ذلك وفى أخريات هذه الأيام بعد أن انقلبت الحكومة الأسبانية من الملكية الى الجمهورية وانطلقت الحرية فى أسبانية وجدنا كثيراً من أهل الاندلس يجاهرون بأن أصلهم من العرب ويطالبون الحكومة باعطائهم الأراضى التى هم مزارعون فيها قائلين ان هذه الأراضى كانت لآبائهم لما كانوا مسلمين وانه لما افتتح الاسبانيول الاندلس وانتزعوها من يد الاسلام أقطعوها النبلاء والكنائس وأبقوا العرب فيها كزارعين فلهذا هم يريدون اعادة هذه الأراضى اليهم . ولقد أجابت الحكومة الجمهورية طلبهم وسنَّت قانوناً بموجبه ترجع هذه الأراضى الى الفلاحين . ولما كان النزاع على الأراضى قد اختلط مع تذكار النسب العربى القديم كنت تجد عند هذه الطبقات العاملة بالاندلس من كراهية النبلاء وبخاصة من كراهية القسيسين والرهبان ما لا تجده عند غيرهم . وطالما أحرقوا بهاتين السنتين الأديار والكنائس ودور الأساقفة ولولا محافظة الحكومة عليها لما كانوا أبقوا منها شيئاً فيما يليهم وليس هذا كله ناشئاً عن المبادئ الشيوعية أو الاشتراكية كما يظن بل ثمة عرق عربى عاد فنزع فى الاندلس بعد اعلان الحكم الجمهورى . وكان بعض نبهاء الاندلس قد هبّوا يطالبون باستقلال داخلى خاص بالولايات الاندلسية قرطبة واشبيلية وغرناطة ومالقة وقادس الخ وذلك على أن تنضم اليها منطقة الريف التى أهلها مسلمون بحجة أن بينهم وبينهم وحدة فى الأصل والعادات والثقافة وكانت هذه الفئة تنزع الى تجديد الثقافة العربية فى

الاندلس واحياء ذكريات العرب وقد خاطبنى بعض زعماء هـذه الفئة من أشبيلية قائلين انهم يرون أن عظمة الاندلس كانت لعهد العرب وانه لما برحها العرب ابتدأ سقوطها فلهذا هم يريدون اعادة الثقافة العربيـة اليها ويفكرون فى اعادة مسجد قرطبة الأعظم للاسلام وفى بناء جامع فى اشبيلية . وقد حدثنى الأخ الحاج عبـد السلام بنونة من أعيان تطاون بأنهم خاطبوه فيما اذا كانوا سيقومون ببناء الجامع فى اشبيلية هل يساعدهم المسلمون فى الـكلفة فأجابهم بأنهم يساعدون بنصف الـكلفة . وقد كان من نتائج الحـكم الجمهورى الحر فى أسبانية أن سياسة التودد الى الاسلام قد ظهر لهـا أنصار كثيرون وكل من يقاوم الـكثلكة والحزب الملكى قد مال اليها . ويقال ان ستين نائباً فى مجلس النواب بمجريط يميلون اليها . ولقد قدّم أحد نواب مجريط طلباً يقترح فيه اعادة مسجد قرطبة الى الاسلام مع بقائه مسجداً أسبانولياً وذلك لان الوفد المغربى الذى كان قد ذهب من تطاون الى مجريط سـنة ١٩٣١ يطالب ببعض الحقوق الأهلية فى منطقة الريف قد طلب أيضاً اعادة مسجد قرطبة مسجداً تقام فيه شعائر الاسلام كما كان . الا أن الحـكومة خافت من هيجان حزب الـكثلكة ولم تعد الوفد المغربى بشئ من هـذا الامر . وذهب بعضهم الى أنه يجوز جعل هذا المسجد أثراً تاريخياً لا تقام فيه شعائر الاسلام ولـكن تخرج منه شعائر المسيحية وان كثيرين من الاسبانيول يرون هـذا الرأى . ومما يدل على تقدم سياسة التودد الى الاسلام فى أسبانية أن بعض النواب والصحفيين والمفكرين فى مجريط على رأسهم السنيور « ارجيـلا » والسنيور « فولس » أسسوا جمعية اسمها الجمعيـة الاسبانية الاسلامية As ciation Hispano slamique وانتدبوا الوفد السورى الفلسطينى محرر هـذه السطور وزميله احسان بك الجابرى للدخول فيها وقد وافقناهم على رغبتهم ودخلنا فى هذه الجمعية وانتخبت أنا الفقير اليه تعالى نائب رئيس ودخل فيها زميلى وغيره من كبار الاسلام أعضاء . وممن دخل فيها عضواً من أعيان المغرب وأدبائه ورجالاته الحاج عبد السلام بنونة والسيد محمد الداود والسيد عبد الخالق الطوريس من تطاون والسيد احمد بلا فريج والسيد مكى الناصرى من الرباط والسيد محمد الفاسى والشريف محمد بن الحسن الوزانى من فاس ولا تزال هذه الجمعية دائبة فى نشر دعايتها وتأسيس فروع لهـا وقد وفق السيد مكى الناصرى لتأسيس فرع لها فى غرناطة فى هـذه الايام الاخيرة كما أن أحد أعقاب بنى أمية

من اشبيلية شارع بالاتفاق مع بعض أصحاب هذا المشرب هناك بتأسيس فرع فى اشبيلية

عود الى موضوع اختلاط الأمتين العربية والاسبانيولية : لما أُجلى بقايا المسلمين من الاندلس الى افريقية حسبما تقدم الكلام عليه كان فيمن جلا من المسلمين من أصلهم عربى ومن أصلهم اسبانيولى . فكما أنه باق فى اسبانية ملايين تجرى فى عروقهم دماء عربية يوجد فى افريقية مئات ألوف تجرى فى عروقهم دماء اسبانيولية . ولا نقدر أن نحصى جميع العائلات الاندلسية التى ارتحلت الى فاس والرباط وتطوان وتلمسان والجزائر وتونس وغيرها ولكننا نذكر بعضاً منهم على سبيل التمثيل

فمن هؤلاء آل مرينو ذكرهم صاحب كتاب مقدمة الفتح فى تاريخ رباط الفتح وعدّد جماعة منهم تولوا المناصب العالية من قيادة وقضاء وحسبة . وآل شنتياك Santiago وآل ابن طوجا . وأولاد التونسى . وأولاد القرطبى . وأولاد القصرى . وأولاد ابن عبدون . وأولاد الدك . وأولاد الولتيتى . وآل أبى جندار . وآل اللوشى . وصيرون . واشكلانط . وكلهم ممن تولوا المناصب واشتهر منهم رجال . ومنهم آل بركاش وهم بيت مجد قديم وحسب صميم لم تنقطع الرئاسة من بيتهم ومنهم السيد عبد الرحمن بركاش باشا الرباط الحالى عرفته مرتين احداهما فى باريز سنة ١٩٢٦ عند ما حضر مع المرحوم السلطان يوسف فاجتمعت معه بطريق المصادفة فى فندق « ماجستيك » والثانية فى قرطبة سنة ١٩٣١ وهذه أيضاً بطريق المصادفة وكان معه أحد أنجاله الأدباء و بعض من حاشيته وهو وأنجاله من سراة الاسلام وأماثل القطر المغربى سائرون على آثار سلفهم الكريم ومنهم آل الزبدى . وآل غنام . وآل الزهرا . وآل التازى . وآل السويسى . وآل مارسيل . وآل فرج . وآل بلافريج الذين منهم الشاب الناهض النابغ السيد احمد بلافريج حرس الله مهجته وهو من نخبة فتيان الأمة المغربية بل الأمة العربية بهذا العصر ومنهم بنو العوفير . وأبى عزه . والباشا . وقد ترجم المؤرخ أبو جندار جميع هذه العائلات وذكر الذين اشتهروا منها وذكر أفراداً آخرين من الطائفة الأندلسية مثل الرئيس ابن عائشة الرباطى سفير السلطان اسماعيل الى لويز الرابع عشر والسيد طاهر بنانى الرباطى سفير السلطان محمد بن عبد الله الى السلطان العثمانى والحاج التهامى المدور سفيره الى بلاد السويد والرئيس العربى المستيرى سفيره الى انكلترة والحاج الهاشمى المستيرى والحاج العربى ملين والحاج العربى بنانى والسيد محمد

فريون والحاج عبد القادر المعموري والحاج محمد الأزرق والسيد ابن عيسى بن مسعود طريدانو والسيد محمد بن العباس الزكى والسيد الجيلانى العدلانى وغيرهم ممن تولوا نظارة الرباط أو الحسبة أو غيرهما من المناصب . ثم ذكر أبو جندار عدداً من أمراء البحر وقواد البحرية اشتهروا فى القديم من الأندلسيين الجالين الى المغرب منهم الرئيس مكى الشرقوبى والرئيس على بريس والرئيس العربى المستيرى والرئيس العربى حكم والرئيس محمد السبيع والرئيس محمد العنق والرئيس لبريس والرئيس عاشور والرئيس الهاشمى المستيرى والرئيس على التركى والرئيس ابن مبارك والرئيس لباريس والرئيس الحسن بنانى والرئيس بركاش والرئيس بريطل والرئيس المعطى وغيرهم

وأما فى تطاون فقد كتب من أسماء العائلات الأندلسية التى فيها بنى قشتيليو وأصلها Castillio . و بنى بايصه أصلهم من بسطة بالأندلس . و بنى أراغون وهؤلاء يرفعون نسبهم الى الزبير بن العوام رضى الله عنه . و بنى سالس . و بنى القرطبى . و بنى الغرناطى . و يقال الغرنوطى . و بنى الطوريس الذين منهم الشاب الأديب الفاضل السيد عبد الخالق الطوريس وأخوه الماجد وجدهم السيد محمد الطوريس كان الوزير الأول بالمغرب وأصل بنى الطوريس . من جبال البشرات بالأندلس و بنى قردناش . و بنى مورارش و بنى الخطيب أصلهم من شاطبة بشرق الاندلس . و بنى اللوقش من ذرية خلفاء بنى أمية . و بنى الدليرو كان يقال لهم أبناء المسوس . و بنى زرقيق أصلهم من اشبيلية . و بنى الركينة منهم فى تطوان مسلمون ومنهم اسبانيول نصارى لأن فى تطوان جالية اسبانيولية . وعائلة الركينة كثيرة فى اسبانية ومنها من بنى ركينة المسلمين أحمد ركينة ناظر احباس طنجة و بنى مارين ومنهم مسلمون ونصارى على هذا الضرب . و بنى مارتيل . و بنى الصفّار . و بنى زكرى . و بنى الداود الذين منهم الشاب الشهم الفاضل الناهض الأستاذ محمد الداود مؤسس المدرسة الاهلية بتطوان . وفقه الله و بنى طنانه . و بنى الأبّار اقارب الحافظ ابن الابار البلنسى القضاعى صاحب « ادرك بخيلك خيل الله اندلسا » و بنى مدينه . و بنى مولتينه . وأصلهم من ثغر المرية بالاندلس . و بنى اجزول . و بنى البولو و بنى اللوشى من لوشة من مدن غرناطة . و بنى بالامينو وأصلها بالومينو . و بنى ضتياغو . و بنى دينيه منهم فى تطوان ومنهم فى الرباط . و بنى مسطاسى . و بنى مولاطو ومنهم فى الرباط أيضا . و بنى كرسبو . و بنى سوباطا وأصلها ساباطا .

و بنى مندوسه وقد انقرضوا . وقد انقرض من اندلسية تطوان بنوغرسية . و بنو اشبليانو.
ثم ان من الاسر الاندلسية الشريفة بنى رزين الذين منهم صديقنا الوجيه السيد محمد الرزينى
وهؤلاء بحسب تاريخ البيان المعرب لابن عذارى أصلهم بربر وكانوا ملوك « شنتمرية »
الشرق بالاندلس

وذكر لى الاخ الحاج عبد السلام بنونه عائلات اندلسية فى الرباط لم اجدها فى
«مقدمة الفتح» مثل عائلة قديره . وهذه العائلة هى التى منها المستشرق الاسبانيولى الشهير
فرانسيكو كوديره Codera استاذ المستشرق الشهير القسيس آسين بالاسيوس . وعائلة فلورش
وهى بالاسبانيولى Flores . وعائلة ميتجينوس واصلها بالاسبانيولى Montegenos وقال لى
ان عائلة مارشينه معروفة فى اسبانية ومنها فخذ مسلمون فى تطوان وان من بنى مارتين
افخاذاً كثيرة فى اسبانية وان منهم فخذاً مسلمين فى تطوان . وان من بنى عباد اناساً فى
سرقسطة فى شمالى اسبانية واناساً فى فاس . وقال لى الاخ المشار اليه ان جبال الريف ملأى
بالاندلسيين

وفى فاس اندلسيون كثيرون أشهرهم آل الفاسى وهم من بنى الجد الفهريين الذين
كانوا فى قرطبة ثم فى اشبيلية ثم فى مالقة الى أن ارتحلوا الى فاس عندما لم يبق دار للاسلام
فى الاندلس . وفى كل من العدوتين حفظت هذه الاسرة مجدها وسراوتها ورئاستها . ومنها
الشاب الناهض السيد علال الفاسى والشاب الناهض الفاضل المدقق السيد محمد الفاسى وفقه
الله وهو من نخبة شبان المغاربة وأنجم العرب الذين اتموا تحصيلهم فى باريز . ولم يتيسّر لى
الى ساعة تحريره احصاء للعائلات الاندلسية فى فاس ولا للعائلات الاندلسية فى تلمسان
والجزائر وتونس . فمتى تيسّر لى ذلك أضمّه الى المعلومات التى حررتها هنا وان فسح الله فى
الاجل نجعل ذلك فى الطبعة الثالثة من هذا الكتاب

ولقد بعث لى الاخ المفضال نبيل النضال الاستاذ السيد أحمد توفيق المدنى التونسى
مولداً الاندلسى أصلاً المقيم الآن بمدينة الجزائر نفع الله به يقول لى فى جواب على سؤال
فى هذ الموضوع ما يلى :

العائلات الاندلسية فى شمالى أفريقية أكثرها بالمغرب الاقصى وتونس . ومنها قليل
فى تلمسان ومنها قليل ببقية البلاد الجزائرية . أما فى نفس مدينة الجزائر فالمعروف منها عائلة

الشيخ الجليل أحمد أبى الركائب وهو ابن عمنا متفرع من عائلة ابن عمر . وعائلة ابن عبد اللطيف

«وعائلة ابن الأمين . وعائلة ابن سوسان . وعائلة المرار التى كان منها الشيخ مصطفى المرار قاضى الجزائر عاش فى أواسط القرن الماضى . وعائلة السيستى »

قال حفظه الله :

«وأما بالبلاد التونسية فالجاليات الاندلسية بقيت على حالها تقريباً ولها الى يومنا هذا بعض امتيازاتها حتى ان صناعة الشاشية الاندلسية — الطربوش المغربى — لا يتولاها مبدئيًّا الا أعقاب العائلات الاندلسية ولا يمكن أحدا أن يباشر هذه الصناعة الا اذا كان عنده نيشان أحد أسلافه من الاندلس . وهذا النيشان هو نفس ما يسمى اليوم « ماركة مسجّلة » و يسجل بالخيط الاسود على نفس الطربوش من الداخل و يطبع على الورقة الخارجية مع اسم صاحبه »

قال :

«وفى البلاد التونسية مدن ودساكر اسمها الأندلس ولا يزال سكانها الى اليوم يعتزون بأصلهم الاندلسى سواء كانوا من المسلمين أو من اليهود وأشهر هذه المدن مدينة تستور بالشمال التونسى »

وقرأت فى بعض جرائد تونس أن الاندلسيين أثروا فى تستور ما ثر تاريخية كثيرة منها مأذنة جامعها الكبير فهى على أسلوب هندسى بديع ولا نظير لها فى العالم الاسلامى فان الناظر من أعلاها يرى قعرها لفراغ وسطها وكونه على شكل اسطوانى مع ضيقه وتنسيقه

ونختم هذا الفصل عن الاندلسيين الجالين الى افريقية والاندلسيين المدجنين الذين بقوا فى اسبانية حتى اندمجوا فى الاسبانية بذكر مكتوب من السلطان الكبير مولاى اسماعيل صاحب المغرب الى ملك اسبانية فى عصره يذكره فيه بغدر أسلافه بالمسلمين نشره السيد الشريف العلامة مولاى عبد الرحمن بن زيدان فسح الله فى عمره وذلك فى كتابه « اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس » ولم يجتزئ بنشره بالحروف المطبوعة بل نشره بالفتوغرافيا فى جانب المطبوع بالحروف ونصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم من عبد الله اسماعيل المتوكل على الله المفوض أموره الى الله أمير المؤمنين المجاهد فى سبيل رب العالمين الشريف الحسينى أيده الله آمين (ثم الطابع الملوكى بداخله اسماعيل بن الشريف الحسينى أيده الله ونصره . وبدائرته : انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)

« الى عظيم الروم وملك أقاليم أصبانية و بلاد الهند والمتولى أمورها والمتصرف فى أقطارها (دون كارلوس) السلام على من اتبع الهدى أما بعد فقد بلغنا كتابكم صحبة خديمكم (دون منويل بيردلون) وخديمكم (دون ابيل مسيح) وهو الكتاب الذى وجهتم لنا جواباً عن كتابنا الذى أصدرناه اليكم و وصلكم صحبة الغرايلى قبل هذا و بعد ان قرأناه وفهمنا لفظه ومعناه وألقى الينا خديمكم (دون ابيل مسيح) ما فى خاطركم وما طلبتموه منا من فك هذه المائة من النصارى الذين وقع الكلام قبل هذا رددنا اليكم جواب كتابكم و وجهناه مع خديم دارنا العلية بالله كاتبنا ومتولى الخط الأقرب من بساطنا السيد محمد بن عبد الوهاب الوزير ولولا مزيتكم عندنا ومعرفتنا بمنصبكم ما سمحنا بفراق كاتبنا عن بساطنا لمهمات أمورنا واذنا لخديمنا الأكبر الأعز الأشهر أبى الحسن القائد على بن عبد الله أن يبعث معه رجلا من أصحابه فوجه خديمنا عبد السلام بن أحمد جسوس معاشراً له ومرافقاً وعند الكاتب المذكور قضية دخول جند الاسلام المظفر بالله على نصارى العرائش وفى علمه وعلى باله كل ما كان فى ذلك من الكلام والأسباب وكيفية الخبر فى ذلك فثقوا به وتعرفوا منه فانه حفظه و وعاه من أوله الى آخره لملازمته لبساطنا العلى بالله فى سائر أوقاته ونحن بلا شك كنا أعطينا القول لهذه المائة من النصارى بالسراح ولكن وقع من النصارى ما اختل به منهم من الاسباب ما يوجب عدم الوفاء لهم بذلك فمنهم من كان ينادى بلفظ مينا على رؤوسهم ومنهم من لم يرض بخروجهم على ذلك لذلك القول وكاد يفتك بمن دخل اليهم من خدامنا الذين أوفدناهم عليهم و بعضهم ركب لجج البحر فاراً بنفسه حتى أدرك وقتل على الموج . وحاجنّا مع هذا كله كبار ملتنا وعلماء شريعتنا وأئمة ديننا بأن قالوا لنا بأن المسلمين كانوا أشرفوا على الغنيمة ساعتئذ و وقع الغلب والظفر ولم يبق للنصارى الا الموت بالسيف أو بالغرق فلا وجه لسراحهم فى الشريعة رأساً . وكنا

فى أثناء هذه المدة كلها نتراد الكلام مع هؤلاء العلماء حفظهم الله وقالوا لنا : هؤلاء المائة يكونون أسارى و يسترقّون من كل وجه كيف وقد أخذوا العرايش من أول وهلة بلا موجب بل أضغطوا الشيخ ابن السلطان الذهبي وقبضوا عليه حتى أنفقوا عليه أموالا عديدة ومسكوا أولاده بسببها حتى أعطاهم العرايش على ضغطٍ منه وعلى غير تأويل حقيقى فى ذلك . وذكرونا فى مسئلة غدر أسلافكم بأهل غرناطة وغيرهم بما يزيد على الأربعين ألفاً بعد تعدد الشروط على ستين شرطاً ولم يوفوا لهم بواحد منها الى غير ذلك من الغدر والمكر بأهل غرناطة وغيرهم من أهل الأندلس فى كل بلد وقرية بعد بلد وقرية فألفيناهم ما تكلموا الا بالحق (الى أن يقول) : وذلك أن تعطونا فى الخمسين نصرانياً من هذه المائة خمسة آلاف كتاب مائة كتاب عن كل نصرانى من كتب الاسلام الصحيحة المختارة المثقفة فى خزائنهم باشبيلية وقرطبة وغرناطة وما والاها من المدن والقرى حسبما يختارها خديمنا المذكور من المصاحف وغيرها وتعطون خمسمائة أسير من المسلمين فى الخمسين الأخرى عشرة أسارى لكل نصرانى وان لم توجد الكتب التى هى مرادنا فاجعلوا عوضها من أسارى المسلمين وأعطوهم لنا من الاسارى الذين فى الأغربة وغيرهم وقبلنا منكم فى العدد المذكور الرجل والمرأة والصبى الصغير والشيخ المسن من ايالتنا وغيرها اذ مالنا قصد الا فى الأجر والثواب فى فكاك اسرى المسلمين كيف ما كانوا ومن أىّ بلاد كانوا الخ »

فأنت ترى أنه كان مضى أكثر من مائة سنة على الغدر الفظيع الذى غدره ملوك الاسبانيول بمسلمى غرناطة وسائر الأندلس . وكان المسلمون لايزالون يتذكرونه ويتحرقون من أجله . ولم يقتصر مولاى اسماعيل فى تقريع معاصريه من ملوك الافرنج على ملك اسبانية فقط بل تناول بالتقريع من أجل الخيس بالعهود لويس الرابع عشر أعظم ملوك فرنسة وهاك ما ذكره مولاى عبد الرحمن بن زيدان حفيد مولاى اسماعيل فى كتابه « اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس » فى الصفحة ٥٤ من الجزء الثانى قال حفظه الله

« ومن أكبر البراهين وأوضح الدلائل على ما كان بينه و بين عظماء ملوك أوربا من العلائق السياسية ما وقفت عليه فى عدة كتب ومخابرات صدرت بينه و بينهم ألمّ بكثير منها مؤرخ فرنسا الماهر الشهير الرحالة الفيلسوف الخبير الكنت دوكاسترى فى عدة من

كتبه واليك نصوص بعضها وصورها الفوتوغرافية وقد خاطب فيها لويس الرابع عشر ملك فرنسا وجامس ملك الانكليز ودون كرلوس ملك اصبانيا

« بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم من عبد الله تعالى الامام المظفر بالله أمير المؤمنين المجاهد فى سبيل رب العالمين الشريف الحسينى أيده الله ونصره . (ثم الطابع) بداخله : اسماعيل بن الشريف الحسنى الله وليه (و بدائرته) : العز والاقبال « الى عظيم الروم بفرانصيص لويس الرابع عشر من هذا الاسم السلام على من اتبع الهدى و باعد طريق الغى والردى أمابعد فاعلم أن الذى ظهر لنا انك ليس عندك قول صحيح ولا كلام رجيح ولا أظنك الا غلب عليك أهل ديوانك وصاروا يلعبون بك كيف شاءوا ولا بقى لك معهم ضرب ولا لقب ودليل ذلك اننا ما زلنا ماقبضنا منك صحة قول ولا أبرمت معنا شيئاً ففلامنك (أى مملكة هولندة) الذين ليس لهم رئيس وما عندهم الا الديوان تكلموا معنا كلمة وقبضناها عليهم ووفوا بها لحين ذهب خديمنا لبلادهم لما ان طلبوا منا ذلك فرحوا به واكرموه و برّوا به وأتى من عندهم بعشر مائة مكحلة وستة عشر مائة قنطار من البارود ومائة وسبعة من المسلمين أطلقوهم من الأسر لوجوهنا وعملوا من الخير ماعملوا مراعاة لنا وثبتوا فى قولهم ووفوا بكلامهم . وأنت لا زال لم يصح منك قول ولا وفاء واولئك الذين كانوا قدموا اليك من هذه البلاد ليس هم من خدامنا ولامن أصحابنا ولا ممن لهم معرفة معنا فالحاج على معنين حيث أُسرله ولده لاذ بالبعض من خدامنا واستحرم به وقدم اليكم على شان اولئك المسلمين وجاز على دار السباع ودار النعام واتى اليكم بما اتى ولا شعرنا به ولا عرفنا كم اخذ وقلنا انه ان وصلكم ولابد تعملون له غرضه فى اولئك المسلمين وتسرحونهم . فاذا به هو تحيَّل على ولده الى ان جاء به واتم ماعملتم صواباً فى غيره ولا صدر منكم ماتراعون لاجله . ثم بعد ذلك قدم لعلى مقامنا صاحبكم انبشدور واتانا بشئ من الخرق مع فالصوالحرير وهل نحن ممن يعجبه ذلك و يسره فنحن معشر العرب لانعرف الا الصحيح ولا يسرنا الا مافيه مصلحة المسلمين كلهم ومع ذلك اعطينا لصاحبك عشرين نصرانياً سيفطناهُ بها وظننا انك ولابد تراعى الخير وتبعث لنا ولو عشرين مسلماً تجبر بها خواطرنا وتكون هى الطريق للكلام الذى تريدهُ منا .فاذا بك ماعملت شيئاً من هذا ولاجازيت باحسان . وثانياً قبضنا لك سفينة قبل ان يقع الكلام بيننا و بينك بثلاثة أيام أوأربعة على التحقيق وهى موسوقة

بالسكر وتبغة وثقفناها نحواً من ثلاث سنين بقصدك ولا تركنا احداً يمد يده فيها وقلنا انك تراعى خيرنا وتعمل لاولئك المسلمين طريقاً وتسرحهم وان كانوا ليس فيهم من هو خديمنا ولامن هو محسوب من جيشنا ولامن هو معرفتنا فما هم الا من لاخلاق لهم ولا يركب البحر عندنا الاأهل التمرين . ولو أطلقتهم وان كانوا ليسوا بشئ فتكون عملت الخير بذلك وتقول انك عملت مسئلة تراعى عليها . وأعظم من ذلك كله هو ان رئيساً من بلادنا اسمه التاج كان أعطاه صاحبك الذى اتانا خط يده على انه يشترى سفينة من الجزائر يسافر بهاقرصان وماعليه فيمن لقيه من فرنصيص فلما ان اشترها وسافر بها وغنم قطارمة موسوقة بالرخام والريال مع مافيها من الحرير وغيره و بعثها مع أصحابه ستة وعشرين مسلماً وتعرضوا لها سفنكم واخذوها وثقفتها انت اياماً ثم بعد ذلك مزقتها والمسلمون الذين كانوا معها خدمتهم فى الغراب. فلماذا لم تردها أو ثقفتها ثلاث سنين كما ثقفنا نحن سفينتكم وهل هذه هى صحة القول فهذا مما يدل على عدم صحة كلامك ومما يثبت الاخلال بقولك وقلة وفائك لحتى الآن فالذى ظهر لنا انه ما يليق بنا معك الا الشر واذا أردت تثبيت المهادنة وابرام الكلام فيها وامضاء حجتها فابعث لنا من عندك قونصو بالتفويض على الأمر ويجلس هنا فى أحد مراسينا ويكون الأمناء معه فى هذا كله ونبرم معه هذا الأمر ويكون من أهل الحل والربط عندكم والا بان ظهر لكم خلاف ذلك فاعلمنا وعرفنا بما عليه عملك وما اضمرته طويتك والسلام على من اتبع الهدى وفى التاسع من شعبان المبارك سنة خمس وتسعين والف » انتهى

ولقائل أن يقول كيف يكتب السلطان اسماعيل مثل هذا الكلام الجاسى الى لويس الرابع عشر أعظم ملوك اوربة فى عصره بل الى هذا العصر ؟ والجواب أن السلطان اسماعيل لم يقل شيئاً غير صحيح وقد كان لويس الرابع عشر قليل المبالاة بالعهود لا سيما مع المسلمين وقد كان يستبقى اسرى المسلمين عنده سنين طوالاً لا يرضى بفكاكهم ولو أمكن أن يفك بهم بقدر عددهم من اسرى الفرنسيس . ولقد عابه بعض مؤرخى الافرنجة فى ذلك واظهروا ما بينه و بين مولاى اسماعيل من الفرق وقالوا ان مولاى اسماعيل كان يبذل ما عز وهان فى فكاك أسير مسلم أيًا كان وطا لما فادى وهادى لاجل استخلاص اسارى المسلمين الذين فى بلاد الافرنج غير مهتم بالاستفادة من اسرى النصارى الذين كانو عنده

وربما بلغ عـددهم ثلاثين الف أسير . أما لويس الرابع عشر فكان يهمه أن يوفر على خزينته وان يشغل فى سفنه وأغربته اسارى المسلمين ولا يبالى أن يكون بقى فى الاسر عند ملوك الاسلام اضعاف عددهم .قرأت هذا الانتقاد فى كتب من تواريخ الافرنج المعتبرة فهان على مولاى اسماعيل أن يقرعه ولم يكن اسماعيل بالذى يهاب لويس وقد كان عند اسماعيل جيوش جرارة منها مائة الف أسمر يقال لهم جيش البخارى وان كان لويس الرابع عشر قد تولى ملك فرنسة رأساً أربعاً وستين سنة فان السلطان اسماعيل تولى ملك المغرب خمساً وستين سنة حتى كان أهل المغرب يسمونه بالحى الدائم

وليس لويس الرابع عشر أول من خاس بالعهود بين ملوك اوربة بل أكثرهم كانوا لا يوفون بعهودهم ولا سيما مع من عاهدوا من المسلمين صدق فيهم قوله تعالى (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ » وهذه بينهم و بين المسلمين شنشنة قديمة فمن صدر الاسلام الى الآن المسلمون يوفون معهم بعهودهم الا ما ندر وهم يغدرون بالمسلمين لمجرد البغض والشنآن و بناء على ذلك المبدأ الجزويتى الشهير (الغاية تبرر الواسطة) . أما الشريعة الاسلامية فليس فيها (الغاية تبرر الواسطة) ولا (الشر الذى ينشأ عنه خير هو خير) بل فيها أن الشر شر بنفسه الا ما كان من قصاص أو نكال شرعى . وفيها أن العهد لا بد من القيام به ولا يجوز الخيس به ولو مع المشركين وفيها « لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ والمَلَائِكَةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالمَسَاكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ والسَّائِلِينَ وفِى الرِّقَابِ وأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذَا عَاهَدُوا» الآية وفيها « وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كانَ مَسْئُولاً » وفيها « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ المُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيكُمْ أَحَداً فَأَتِموا إلَيْهِمْ عَهْدَهُم إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِين » وفيها « وإِنْ أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ » وفيها « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إذا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بعْدَ تَوْكِيدِهَاوقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً » وغير ذلك من الآى الكريمة والأحاديث الشريفة مما لا يكاد يحصى . وقد عمل بذلك ملوك الاسلام وأمراؤه الا ما ندر وكان تاريخ الاسلام من هذه الجهة ناصعا طاهراً بالنسبة الى تواريخ الأمم الأخرى

وقد بلغ من وفاء المسلمين بعهودهم أنهم كانوا يوفون بها لمن سبق منه الغدر أحيانا روى البلاذرى فى فتوح البلدان : ان الروم صالحت معاوية على أن يؤدى اليهم مالاً وارتهن معاوية منهم رهناء فوضعهم فى بعلبك ثم ان الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل من فى أيديهم من رهنهم وخلوا سبيلهم وقالوا : «وفاء بغدر خير من غدر بغدر» . وهو قول الأوزاعى وغيره

وروى البلاذرى فى فتح قبرس أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك كان أجلى خلقا من أهل قبرس الى الشام لأمرٍ اتهمهم به فأنكر الناس ذلك فردهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الى بلدهم وكان حميد بن معيوف الهمدانى غزاهم فى خلافة الرشيد (وكان أمير البحر لعهد الرشيد) لحدث أحدثوه فأسر منهم بشراً ثم انهم استقاموا للمسلمين فأمر الرشيد برد من أسروا منهم فرُدُّوا . قال البلاذرى : وحدثنى بعض أهل العلم من الشاميين وأبو عبيد القاسم بن سلاَّم قالوا : أحدث أهل قبرس حدثاً فى ولاية عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس فى الثغور فأراد نقض صلحهم والفقهاء متوافرون فكتب الى الليث بن سعد ومالك بن أنس وسفيان بن عيينة وموسى بن أعين واسماعيل بن عياش ويحيى بن حمزة وأبى اسحاق الفزارى ومخلد بن الحسين فى أمرهم فأجابوه وكان فيما كتب به الليث بن سعد ان أهل قبرس قوم لم نزل نتهمهم بغش أهل الاسلام ومناصحة أعداء الله الروم وقد قال الله تعالى « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ » ولم يقل لا تنبذ اليهم حتى تستيقن خيانتهم وانى أرى أن تنبذ اليهم ويُنظَروا سنة يأتمرون فمن أحب منهم اللحاق ببلاد المسلمين على أن يكونوا ذمة يؤدى الخراج قبلت ذلك منه ومن أراد أن ينتحى الى بلاد الروم فعل ومن أراد المقام بقبرس على الحرب أقام فكانوا عدواً يقاتَلُون ويُغزون فان فى انظار سنة قطعاً لحجتهم ووفاءً بعهدهم . وكان فيما كتب به مالك بن أنس : ان امان أهل قبرس كان قديماً متظاهراً من الولاة لهم وذلك لأنهم رأوا أن اقرارهم على حالهم ذل وصغار لهم وقوة للمسلمين عليهم بما يأخذون من جزيتهم ويصيبون به من الفرصة فى عدوهم ولم أجد أحداً من الولاة نقض صلحهم ولا أخرجهم عن بلدهم وأنا أرى أن لا تعجل بنقض عهدهم ومنابذتهم حتى تتجه الحجة عليهم فان الله يقول : (فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ) فان هم لم يستقيموا بعد ذلك وبدعوا غشهم

ورأيت أن العذر ثابت منهم أوقعت بهم فكان ذلك بعد الاعذار فرزقت النصر وكان بهم الذل والخزى ان شاء الله تعالى »

وروى البلاذرى أن قوماً بجبل لبنان خرجوا على عامل بعلبك فوجّه صالح بن على ابن عبد الله بن عباس من قتل مقاتلهم واقرّ من بقى منهم على دينهم واجلى قوماً من أهل لبنان فحدث القاسم بن سلام عن محمد بن كثير أن الا وزاعى كتب الى صالح رسالة طويلة حُفظ منها : «وقد كان من اجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ما قد علمت فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم . وحكم الله : أن لا تزر وازرةٌ وزر أخرى وهو أحق ما وُقف عنده واقتدى به . وأحق الوصايا ان تحفظ وصية رسول الله ﷺ فانه قال : من ظلم معاهداً وكلّفه فوق طاقته فانا حجيجه »

فتامل أيها القارئ فى هذه الآثار وقابل بينها و بين أعمال ملوك الاسبانيول وسائر ملوك الافرنج فى المسلمين وتأمل فى فتاوى الاوزاعى رضى الله عنه وأمثاله من الأئمة فى النصارى وقايس بينها و بين فتاوى الباباوات والكرادلة فى أهل الاسلام : لا شك أن المسلم له الحق بعد ذلك أن يهتف :

اولئك آبائى فجئنى بمثلهم اذا جمعتنا يا جريرُ المجامع

وانى لاختم كلامى ببعض جمل ذكرها المؤرخ المصرى الفاضل محمد لبيب البتنونى فى كتابه « رحلة الاندلس » وذلك انه بعد أن أتى على ذكر كل ما ارتكبه الاسبانيول من الفظائع فى مسامى الاندلس قال : «كان الخلفاء وهم فى قوتهم وعصبيتهم الدينية يحترمون عقائد شعوبهم وكانوا يحترمون المتدينين من أهل الذمة وكانوا يوظفونهم فى حكومتهم فكان منهم الاطباء والوزراء . وكان المتوكل العباسى على صلابته فى دينه يؤاخذ النصارى على عدم تمسكهم بدينهم كما فعل مع طبيبه حنين وكان بلغه انه تفل على صورة السيدة العذراء فحدّه وسجنه . وفى أيام المعتضد بالله قامت العامة على رجل من النصارى اتهموه بانه سب النبي واحضروه بين يدى الوزير القاسم بن عبيد الله وطالبوه باقامة الحد عليه فصرفهم لعدم تحققه صحة دعواهم . وقد صلب الخليفة الحكم بن الناصر أحد عماله لأنه بلغه انه ظلم أحد أهل الذمة »

ثم قال : « ان الدول النصرانيــة كانت تلجأ الى سماحة الاسلام وعدالته فقد أرسلت دولة المجر الى السلطان أحمد الاول ترجوه أن يأخذ المجر تحت حمايته وقايةً لها من ظلم النمسا المسيحية

«ولما فتح المسلمون الجزيرة (العراق) هربت قبيلة اياد (وكانوا نصارى) الى بلاد الروم فكتب عمــر الى هرقل بردّها . فاخرجها هرقل من دياره وكان على الجزيرة الوليد ابن عقبة فابى ان يقبل منهم الا الاسلام . فكتب اليه عمر : دعهم ان لا ينصروا وليداً ولا يمنعوا أحداً من الاسلام . ثم عزل الوليد عنهم لشدته

«وفي مدة السلطان ابراهيم العثماني استولى الترك سنة ١٦٤٥ على خانية عاصمة جزيره كريد . وكان نصارى كريد يساعدون البنادقة على الاتراك فاراد السلطان ان يقتل نصارى كريد في مقابلة ذلك لكن المفتي أسعد زاده عارضه في هذا الأمر معارضة شديدة قائلاً انه مخالف للشرع الاسلامي . فلم يقع سلطان العثمانيين في الشناعة التي وقع فيها ملوك الاسبان امام الله والتاريخ »

وتحرير ذلك انه لما غلب فرديناند وايزابلا على آخر مملكة اسلامية في اسبانية وهي دولة بني الأحمر من سلالة الخزرج واستوليا على غرناطة سنة ١٤٩٢ عقدا مع المسلمين معاهــدة تتضمن لهم حقوقاً كثيرة ومن الجملة حريتهــم الدينية التامة وفصل أمورهم الشخصية لدى قضاتهــم وغــير ذلك من الشروط التي أمضاها فرديناند وامرأته على أمــل تســهيل الفتح وتقصــير أجل المقاومــة وهما ناويان باطناً نقضها منــذ أمضياها ـ كما جرى هــذه المرة في معاهدات الحلفاء أثناء الحرب العامة مع ملك الحجاز أمضوها مؤقتاً على نية نقضها فيما بعد ـ فلم يمض على تسليم غرناطة عدة اشهر حتى ذهبت تلك المعاهدة كأن لم تكن أو كما قال صاحب نفح الطيب « نقضها الطاغية عروة عروة » وتأسس ديوان التفتيش الشهير مؤلفاً من الأساقفة و بأمر من البابا وصار يسيطر على عقائد الناس لحمل المسلمين واليهود على النصرانية أو يجلوا عن البلاد فجلا أكثر المسلمين الى مراكش وتونس والجزائر و وصل منهم أناس الى مصر والشرق وجــلا أكثر اليهود الى مملكة ابن عثمان فأقاموا بالقسطنطينية وسلانيك وازمير وهم فيها الى يومنا هذا لغتهم الاسبانيولية و بقي عدد كبير عز عليهم فراق أوطانهم فتظاهروا بالنصرانية تخلصاً من الجلاء ولكنهم بقوا على عقائدهم

سراً فصار ديوان التفتيش يعمل عمله فيهم وارتكب تلك الفظائع التى يحفظها له التاريخ وقتل وصلب وأحرق بالنار كما هو مشهور . ومع هذا فبقى أكثر المسلمين نحو ٢٠٠ سنة وهم يحفظون ديانتهم سراً ويتظاهرون بالكثلكة وقد يزداد عليهم الضغط فيلجأون الى الثورة ولاسيما فى جبال البشرات التى اعتصموا بها لمنعتها فجرت بينهم و بين الاسبانيول وقائع عديدة الى ان انتهى أمرهم فى زمان فيليب الثانى فى أوائل القرن السابع عشر بجلاء البقية الباقية منهم الى افريقية . على انه مما لاشك فيه ان كثيرين من الآباء أجبروا على تعليم أولادهم الديانة المسيحية منذ الحداثة فنشأ هؤلاء مسيحيين و بطول الزمن صاروا اسبانيولا وهؤلاء هم الذين اليوم ينتسبون الى العرب تدل على ذلك خلقتهم وسحنتهم وأسماؤهم وأماكنهم . وربما يقال ان مسلمى الاندلس أنفسهم لم يكن أصلهم كلهم عربا بل أسلم فى الفتح العربى اسبانيول كثيرون وهذا جائز وهو ما كان يدعيه ديوان التفتيش ويجعله مبرراً لاعماله وان كان تاريخ المدنية انكرها ولقد اعتادت الدنيا هذا المد والجزر فى الحكومات والديانات فحبذا لو خفت حدة هذا التباغض بين الناس من جراء الفوارق الدينية لاسيما بين ارباب المذاهب التى تدعو جميعها الى عبادة الخلاق ومكارم الاخلاق

مصير الاندلسيين

للأستاذ الأكبر سيدى محمد الطاهر بن عاشور التونسى

وقد اطلعنا على محاضرة تحت عنوان « مصير الأندلسيين » بقلم الاستاذ الاكبر سيدى محمد الطاهر بن عاشور التونسى كبير أهل الفتيا من السادة المالكية بتونس جاء فيها خبر احتضار دولة الاسلام بالاندلس وفق ما جاء فى النفح وغيره ثم قال : قلنا ان عدداً من المسلمين اختاروا الخروج من الأندلس لما رأوا بوارق الغدر والخيانة . ثم عزم أكثرهم على الخروج حين أرغموا على التنصر وضيق عليهم فى أمور دينهم وقد قدمنا أنهم كانوا اشترطوا على الاسبان فى عقد الصلح أن من رام من المسلمين الخروج يخرجونه الى بر العدوة من غير دفع كراء ولا مغرم .

فلما طلب جميع المسلمين الخروج لم يحضروا لهم الا قليلا من الاجفان حتى اغنوا عناء عظيما .

ولما صالحوا أهل جبل (بلقنة) على الخروج الى فاس آخرجوهم بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر ثم لما أصدر فيليب الثالث أمره باخراج كل من اشتبه أمره من الموريسكو أمر بأن لا يخرجوا معهم نقود الذهب من المملكة و بذلك لم يجدوا فائدة فى فى بيع أملاكهم فتركوا معظمها وأحضرلهم قليل من المراكب وكان الخارجون على التقدير الصحيح ثلاثمائة ألف ومن المؤرخين من يقول نحو المليون فسافر كثير منهم الى فاس وتطاون وسلا والرباط وتلمسان و وهران وتونس وعددهم يقرب من مائة وثلاثين ألفاً . ومات منهم فى الطريق ما يقرب من تسعين ألفاً من الجوع والتعب وخرج منهم الى بلاد فرانسا برا مقدار مائة ألف فاشترطت عليهم الافرنج أن يتدينوا بالديانة الكاثوليكية فرفضوا ذلك فردوا من حيث أتوا فاحتاروا فى أمرهم وقصدوا المراسى الفرنسوية للسفر الى المغرب فمات كثير فى فرنسا ونجا قليل منهم وقد تسلط أعراب البوادى على كثير ممن خرجوا الى فاس وتلمسان فى الطرقات ونهبوهم ولم يسلم من ذلك الا الذين خرجوا الى تونس

الأندلسيون فى البلاد التونسية

علاقة الأندلس بتونس قديمة من وقت الدولة الحفصية فقد وفد منهم على تونس عدد كثير فى مدة الحفصيين لاسيما فى زمان السلطان المستنصر بالله الحفصى وكان لوفودهم على تونس أثر عظيم فى انتقال حضارتها من البساطة الى الرقى والترف والرقة قال ابن خلدون فى ذكر المستنصر «ومدت اليه ثغور القاصية من العدوتين[1] يد الاعتصام بما اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على أبيه (أبى زكرياء) من شاعر مفلق وكاتب بليغ وعالم نحرير وفى أيامه عظمت حضارة تونس وكثر ترف ساكنيها وتأنق الناس فى المراكب والملابس والمبانى والماعون والآنية» .

وكان بتونس فى الدولة الحفصية جند من الأندلس خاصة وكان رجال شورى السلطان من الموحدين ومن الأندلس قال ابن خلدون عند ذكر نزول الفرنسيس على قرطاجنة «وتفاوض السلطان (أى المنتصر) مع أهل الشورى من الأندلس والموحدين – ثم قال – وملئت سواحل رادس بالمرابطة من جند الأندلس والمتطوعة»

وأيضاً قد كان بين تونس والأندلس ارتباط بولاية أبى حفص الهنتاتى جد الحفصيين امارة اشبيلية من جهة عبد المؤمن بن على ثم ابنه عبد الواحد ثم ابنه زكرياء

لذلك لما انجلى المسلمون من الأندلس جلاءهم الأخير كانت البلاد التونسية من أول ما وقع نصب أعينهم فى هجرتهم فركبوا اليها البحر ونزلوا بشطوطها والظاهر أن نزولهم كان بمرسى بنزرت وبمرسى المهدية ومن هذين المرسيين قصدوا حاضرة تونس ثم تفرقوا فى البلاد فاقتبلهم أهل المملكة بالترحاب ولم ينلهم فى طريقهم نهب ولا ضرر كما قلنا آنفاً وقبل أن يفدوا على الحاضرة أرسلوا الى أهلها يستنبئون أيسمحون لهم بالدخول فوجدوا من أهل الحضرة رغبة فى قدومهم وإكراماً لمثواهم .

وقد وقفت على كتاب اسمه نور الأرماش فى مناقب سيدى أبى الغيث القشاش ألفه السيد المنتصر القفصى وكان من مريدى سيدى أبى الغيث وهذا الكتاب موجود بخزنة جامع الزيتونة تحت عدد ٣٨٨٣ قال فى أول الفصل الثانى منه ما نصه «لما جاء الأندلس لتونس كنت أنا بتونس برسم الزيارة وكنت ذات يوم خارجا من باب بشرقى جامع

---

(١) هى عدوة الأندلس لأنها أبعد عنا من عدوة المغرب

الزيتونة فلقيت كبراء الأندلس ومشائخهم وفى أيديهم ورقة كاغد وهم يفتشون على من يقرؤها لهم فصادفونى فقالوا أنت تقرأ خط الشيخ سيدى أبى الغيث فقلت لهم نعم فأطلعونى على ورقة مكتوبة بالأخضر فيها مكتوب « الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله الى ساداتنا الاندلسية خصوصاً منهم سيدى فلان وسيدى فلان الى أن سمى من أكابرهم عشرة رجال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فلا مزيد بحمد الله تعالى إلا خيراً وأنا داعى لكم بخير وما ذكرتم لنا على أننى أستخير الله تعالى لكم فاستخرت لكم عند والدى والثانى ليلة عند أستاذى سيدى محمد حذيفة والثالث ليلة عند والدى فرأيت لكم خيراً والمهدية مشتقة من الهدى وأنتم كما قال الشاعر:

تحيا بكم كل أرض تنزلون بها كأنكم ببقاع الأرض أمطار

وذكر تكملة الأربعة الأبيات والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته من العبد الفقير أبو الغيث ثم أخذوا الورقة من يدى وساروا فرحين مستبشرين بكلام الشيخ اه »

وهذه الحكاية صادرة من شاهد عيان وهى أجلى ما يمثل لنا جالية الاندلس ولا يعادلها فقرات مثلها فى كتب التاريخ ويستفاد منها أمور أحدها أن أهل الاندلس نزلوا بشاطئ المهدية لقول الشيخ لهم والمهدية مشتقة من الهدى فتفاءل لهم بذلك الثانى أنهم كانوا على حالة جهل حتى لم يستطيعوا قراءة كتاب الشيخ أبى الغيث الثالث ان اسناد رئاستهم الى عشرة كانت من الأمر المطرد فيهم فى سائر أحوالهم ومنه كان رؤساء صناعة الشاشية — وهى من مآثر الجلاء الأندلسى — عشرة يلقبون عندنا الى اليوم «بالعشرة الكبار» الرابع أنهم كانوا أوجسوا خيفة من سوء القبول فاوفدوا الى الشيخ من يراجعه فى شأنهم ولذلك استبشروا لما رأوا منه حسن القبول لأن الشيخ أبا الغيث فى ذلك العصر هو معتقد أهل تونس من أمير ومأمور

وكان وفود الاندلس الى تونس فى سنة ١٠١٧ فى ولاية عثمان داى قال ابن أبى دينار فى المونس « وفى سنة ١٠١٧ والتى تليها جاءت الأندلس من بلاد النصارى نفاهم صاحب اسبانية وكانوا خلقا كثيرا فأوسع لهم عثمان داى فى البلاد وفرق ضعفاءهم على الناس وأذن لهم أن يعمروا حيث شاءوا فاشتروا الهناشير وبنوا فيها واتسعوا فى البلاد فعمرت بهم واستوطنوا فى عدة أماكن ومن بلدانهم المشهورة (سليمان . وبلى . ونيانو . وقرنباليه .

وتركى . والجديدة . وزغوان . وطبرية. وقريش الواد . ومجازالباب. والسلوقية . وتستور . وهى من أعظم بلدانهم وأحضرها والعالية . والقلعة ـ أى قلعة الاندلس ـ وغير ذلك بحيث تكون عدتها أزيد من عشرين بلدا فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الكرم والزيتون والبساتين ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من أهل البلاد » ولم يذكر ابن ابى دينار من استوطن منهم بحاضرة تونس و بلد بنزرت فأما تونس فنزلها منهم أهل الصنائع والفنون فأهل الصنائع الدقيقة سكنوا المدينة وهم أهل الثروة منهم و بنوا لأنفسهم حومة تعرف بزقاق الأندلس قرب جامع القصر. وأما أهل الصنائع الأخرى و بعض الفلاحين من أهل الحواضر فسكنوا ربض باب السويقة وهم أول من بنى هناك خارج السور فبنوا الحومة المعروفة بحومة الأندلس ولم يزل من بقاياهم هنالك عائلات منهم عائلة الأندلوس .

ولما نزلوا تونس احتفى بهم أهل البلد قال السيد المنتصر فى مناقب سيدى أبى الغيث القشاش « ولما أن جاء الاندلس الى تونس ضاقت بهم المحاجج والطرقات والأسواق والديار والمخازن والحوانيت وصاروا يأتون الى الشيخ والى سماطه وجرى معهم الشيخ رضى الله عنه كالريح المرسلة فى إطعام الطعام وكسوة العزيان حتى انى أحصيت مايخرج لمؤونتهم اثنتى عشرة مائة خبزة من القمح وقفيزين من الدقيق والكسكسو شئ يابس وشئ مسقى وزوج أحمال من الخروب ـ لعلف الدواب ـ بخلاف اللبن واللحم رأسين بقر كل يوم هذا على حساب العام الكامل ضيفهم الشيخ ولما كثر الأندلس بتونس وعمروا اقليمها ودوائرها وعمروا الجزيرة وكثرت بلدانهم وكثر خيرهم وحرثهم وتأهلوا صاروا يأتون من كل بلد لهم لزيارة الشيخ سيدى أبى الغيث ويأخذون على يديه العهد من كل بلد حزبا وكل حزب يجعل له نقيبا والنقيب هو شيخ الفقراء و يعطيه علاما ـــ أى علما ـــ أخضر ويوصيه بطاعة الله وكان الأندلس ممتثلين لأمر الشيخ سامعين له مطيعين فى كل أمر وكان يحسن إليهم ويواسيهم ويكاتبهم ويأخذ بخواطرهم ويقضى حوائجهم فى كل مايحتاجون إليه وكان أقربهم إليه سيدى محمد بن عبدالرفيع الاندلسى » اه

أما بلد بنزرت فقد سكنها الاندلس و بنوا بها حومة تعرف الآن بحومة الأندلس وأسسوا قربها قرية منزل جميل ومنزل عبدالرحمن والعالية وغار الملح وكذلك نزلوا منازل من الجزائر القبلية غير ماذكره ابن ابى دينار مثل منزل أبى زلفى ومنزل تميم بالدخلة وقرية

الفهري وقرية دار شعبان ونزل فريق منهم ببلد نابل

وقد نظم الأندلسيون لأنفسهم بهذه البلاد نظاما حفظ لهم عوائدهم وقوميتهم الأصلية وأقاموا عليهم كبيرا بلقب شيخ الأندلس فكانوا يحكمونه فى فصل الخلاف بينهم ويرجعون إليه فى مهامهم ودام هذا الوظيف فيهم الى مدة الأمير محمد باشا وآخر من وليها الشيخ مصطفى شلبي بعد سنة ١٢٧١

الأندلس بالمغربين الأقصى والأوسط

اتصال أهل الاندلس بالمغرب الاقصى قديم من عهد الدولة اللمتونية ثم الموحدية ولما استولى الاسبان على غرناطة قصد سلطانهم أبو عبدالله بلاد فارس وتبعه جمع عظيم منهم ثم لما انجلى الأندلسيون الجلاء الأخير قصدت جموع عظيمة منهم بلاد المغرب واستوطن معظمهم مدينة سلا و رباطها المعروف اليوم بالرباط أو بقلعة سلا وبنوا هنالك قصورا ودورا وحمامات وانتفع بهم ملوك المغرب فى تعليم الصناعات وتدبيج الحضارة وجندوا منهم جندا عظيما فى البر والبحر و بهم فتح الملك المنصور السعدى اقليم السودان فمن أجل ذلك لقب مسلمو السنغال عند الافرنج بلفظ مور[1]

و يظهر أن جل أهل الثروة من الاندلسيين قصدوا المغرب الاقصى واستوطنوا فاسا و بثوا هنالك الحضارة الأندلسية فى جميع مظاهرها ولاسيما فنون البناء والنقش والتزويق وأساليب المعيشة و بث العلم

وكذلك خاتمة علماء الأندلس قد انتقل معظمهم الى فاس و بثوا هنالك العلوم فكان دخولهم نهضة عامة فى الحضارة العلمية والفنية بالمغرب الأقصى

وأما المغرب الأوسط فقد نزلوا منه بتلمسان و وهران وانحاز الى تلمسان طائفة من أهل العلم فظهرت هنالك أيضا نهضة فى العلم والحضارة

* * *

والخلاصة أن مالحق مهاجرى الأندلس من السعادة والعمران قد حصل نقيضه فيما أخلوه من بلادهم التى سكنها الاسبان وماعمروها وعد المؤرخون إخراج الاندلسيين من وطنهم أعظم خطيئة اخطأها فيليب الثالث على مملكته واشقى بها لأجل ذلك على الفقر والتأخر

و إذا نظرت الى البلاد وجدتها ... تشقى كما يشقى العباد وتسعد

---

(١) قلت وقد وجد فى تنبكتو قوم يقال لهم الأندلس من بقايا هؤلاء

طرابلس الغرب وايطاليا

للأمير شكيب

(١) الكتب الواردة على السيد احمد الشريف السنوسى من لورد كتشنر والسير مكماهون والجنرال مكسويل وهى ثلاثة .
(٢) ما سبق فى التاريخ من استيلاء الافرنج على طرابلس الغرب
(٣) عرب طرابلس الغرب لعبد الستار بك الباسل

قد جرى بعد طبع الجزء الأول [1] من هذا الكتاب حوادث كثيرة فى طرابلس الغرب ان لم يسعنا شرحها كلها فلا مناص من الاشارة اليها ولو على وجه الاختصار لأنها من آلم ما ألمّ بالمسلمين فى هذا العصر

منذ استولى على ايطاليا حزب الفاشيست تحت رئاسة موسولينى بدأ الاسلام فى طرابلس وبرقة يؤول الى الانقراض التام

ومن المعلوم أن مبادئ الفاشيست هى الوصول الى أغراضهم بكل وسيلة وبدون أدنى نظر الى ما يقال له « حقوق الأمم » و « حقوق الانسانية » وما أشبه ذلك مما اتفقت الأمم على مراعاته . بل يعلنون ويصرحون ولا يجمجمون بأنهم لا يعرفون الحرية ولا يقدسون للحقوق العامة عهداً وان كل شئ يرونه ضرورياً لأجل تعالى ايطاليا وبسطتها فى الأرض أو لأجل توطيد دولة الفاشيست فهو عندهم سائغ جائز طابق ذلك الحقوق الانسانية والحقوق الدولية أو لم يطابق . ولموسولينى خطب كثيرة وكتابات بتوقيعه تؤخذ منها هذه المقاصد بدون اشكال فلهذا لم تبق فى ايطاليا لا حرية قول ولا حرية كتابة وكل شئ يصادم ارادة الفاشيست فهو ممنوع . ولما أراد البابا تأليف جمعيات كاثوليكية هب الفاشيست فى وجهه ومنعوه من تأليفها وأقفلوا أماكن هذه الجمعيات لا عداوةً للكثلكة التى هم أنصارها الأشدّاء بل خشية أن يوجد فى ايطالية حزب خارج عن حزب الفاشيست

---

(١) راجع صفحة ٢٩٠ من الجزء الأول

ولقد احتج البابا على استبداد الفاشيست به واشتد الخلاف بينه و بين موسوليني ولكنه خاب في مسعاه وذهبت احتجاجاته سدًى وهذا بعد أن ألحق به الفاشيست اهانات كثيرة و بعد أن داسوا صورته بالأقدام علنا فى أسواق رومة

فالحزب الكاثوليكى الذى يهين البابا نفسه والحزب الايطالى الذى لا يجيز أن يكون فى ايطالية حزب سواه ولا يقبل فى تلك المملكة قانوناً غير الذى ينطبق على مبادئ الفاشيست لاشك أنه اذا تسلط على طرابلس الغرب كانت مباديه أفظع وأشنع وأبعد فى الظلم مدًى . فان الأمم الحرة الديموقراطية فى أوربة تجتهد مبلغ امكانها فى العدل والمساواة فى بلادها حتى اذا صارت بازاء المسلمين نسيت مبادئ العدل والمساواة وكالت بمكيال للاور بيين و بآخر للمسلمين وأوضح دليل على ذلك حالة الادارة الافرنسية فى الجزائر وتونس والمغرب وحالة الادارة الهندية فى الجاوى وسومطرة ولا يستثنى من ذلك أيضاً حكم الانكليز فى الهند . فاذا كان هذا دأب الأمم التى تقيم للعدل والمساواة والحرية وزناً فما ظنك بالقوم الذين لا يعرفونها من الأصل ولا يتقيدون بها تجاه أبناء جنسهم أنفسهم ومن يقولون انهم لا يدينون بشئ الا بالوصول الى عرضهم لا جرم أن المظالم التى أوقعها الطليان الفاشيست فى طرابلس و برقة هى مما لم يقع نظيره فى هذا العصر . وقد يكون نادراً حتى فى القرون الوسطى . وما أحسن ماقاله الوطنى المصرى المشهور الاستاذ عبد الرحمن عزام فى إحدى مقالاته البليغة وهو (ان الناس يبحثون عن أخبار الأندلس وكيف أجرى الأسبانيول بالمسلمين هناك . وماهم وللاندلس ولأمور جرت فى القرون الوسطى فأمام أعينهم طرابلس الغرب فليذهبوا و يشاهدوا بأعينهم فى هذه الأيام فظائع لا تقل عما جرى بالأندلس)

فالفاشيست قرروا تحويل طرابلس و برقة بلاداً لاتينية وأجمعوا انزال مليونين أو ثلاثة من الطليان بها بزعمهم أن ايطاليا ضاقت بأهلها . والحقيقة أن انزال نصف مليون ايطالى بطرابلس و برقة قد تعجز عنه ايطاليا لما يتقاضاها ذلك من النفقات الوجيعة ولكون الأراضى الجيدة فى تلك البلاد قليلة جداً وهى على كل حال لا تستحق الهجرة اليها ولا يعيش بها الا القنوع . والفاشيست انما يقصدون فى الحقيقة مجرد الافتخار والابتهار بأنهم فتحوا بلداناً واستعمروا أقطاراً لأنه لوكان المقصود مجرد انتجاع الأراضى ففى نفس ايطاليا أرضون مهملة هى أجود من أرض طرابلس وأقرب للطليان وجزيرة سردانية من

من اخصب البقاع وأوسعها وهى تكاد تكون خالية

ومن شاء أن يعرف مايعترض ايطاليا من الموانع الاقتصادية فى استعمار طرابلس الغرب وما يوجد فى نفس ايطاليا من الاراضى التى هى أولى بالاستعمارمنها فليطالع للسنيور « نيتى » رئيس وزراء ايطاليا سابقاً ومن أعظم رجال السياسة والعلم فى أوربة تأليفه الذى يبحث فيه عن الديموقراطية والفاشيستية والبلشفية فانه يزداد بمطالعة هذا الكتاب يقينا بأن استعمار طرابلس لم يكن الا لأجل مسابقة الدول الأخرى فى ميدان الفتوحات والتمرينات العسكرية لا لأجل مقاصد اقتصادية كما يزعمون وأن طرابلس لم تكن ولن تكون بلاداً تؤتى أُكلها على أثر استعمار أو استثمار

وخلاصة القول أن اخواننا الطرابلسيين لأمرٍ يريده الله ابتلوا من الاستعمار الايطالى الفاشيستى بالداهية الدهماء والبلية الصماء التى مهما كثرت مصائب الاسلام فى هذا العصر فلا شئ منها يشبهها

فقد حزر بعض الواقفين بعشرين الف نسمة عدد الذين شنقهم الطليان من أهالى طرابلس وبرقة منذ احتلالهم وكثيراً ما شنقوا اناسا بدون محاكمة بل بمجرد ارادة قائد أو بمجرد ارادة ضابط صغير . وقد وقع لهم انهم شنقوا نساءً جردوهنّ من ثيابهن وأبقوهنّ مجرّدات عدة ايام . وقد وقع انهم كانوا يسلكون ستين أو سبعين شخصاً فى سلسلة واحدة ويحبسونهم على هذه الصورة مدة الى أن يموتوا . وقذف البحر مرةً عدة جثث الى ساحل السلوم مربوطاً بعضها ببعض فرجح الناس انها من جثث أهالى طرابلس لكثرة ما ربط الطليان من اولئك المساكين بالحبال ورموا بهم فى البحر . وقضية الفظائع التى ارتكبها العسكر الطليانى بأهل المنشية فى أول نزولهم بطرابلس هذه قد اقشعرت لها أبدان الاوربيين برغم انهم على وجه الاجمال لا يشعرون بآلام المسلمين . وقد حاول الطليان تبرير تلك الاعمال الوحشية بكون الطرابلسيين قد هاجموا العساكر الايطالية من الوراء بينما هم يحاربون الجيش العربى الذى امامهم ولكن ألوفا من الافعال الوحشية التى أقدموا عليها قد اقدموا عليها بدون موجب سوى حب الانتقام من المسلمين والعمل لاستئصال شأفتهم من طرابلس وبرقة ليخلوا للطليان الجو بها ويسكنوها آمنين

ولما كانت اراضى الجبل الاخضر من برقة هى أجود قطعة من برّ طرابلس وفيها

المياه الجارية والعيون الصافية والغابات الملتفَّة والمروج المريعة توجهت انظار الطليان الى استعمار هذه القطعة قبل غيرها وأخذوا يفكرون فى الطريقة التى تمكّنهم من اسكان الجنس اللاتينى فيها بدون أن ينازعهم أحد عليها. فلم يجدوا طريقة سوى اجلاء القبائل العربية الساكنة فى الجبل الاخضر وجوارهِ عن أراضيهم وجمعوا منهم ثمانين الف نسمة رجالاً ونساءً وأطفالاً وساقوهم الى صحراء « سرت » فى الأراضى الواقعة بين برقة وطرابلس على مسافة عشرة أيام من أوطانهم الأصلية وأنزلوهم فى معاطش ومجادب لا يمكن أن يعيش بها بشر ولا بقر فمات جانب كبير منهم جوعاً وعطشاً وماتت مواشيهم بأسرها من فقد الكلأ والماء . وعند ذلك جعلت الحكومة الايطاليَّة لكل عائلة منهم فرنكين ايطاليَّين يوميا أشبه بما يسمونه « قوت لايموت » وارتفع صراخ هؤلاء الأهالى وراجعوا الحكومة الايطالية وشكوا لها موت ذراريهم وموتان مواشيهم فما زادها ذلك الا مضاءً فى عزيمتها ولكنها جاءت فأخذت منهم الرجال الذين من سن البلوغ الى الخامسة والأربعين وأدخلتهم فى سن الجندية . ثم عمدت الى الاحداث من فوق أربع سنوات الى ١٢ سنة فأخذتهم قهراً من أحضان آبائهم وأمهاتهم فى يوم تشيب من هوله الأطفال ودفعتهم الى ايطاليا لأجل تربيتهم وتنشئتهم فى النصرانية . وهذا هو العمل الذى لم تقدم عليه حكومة بعد فى هذا العصر والذى يشبه عمل الاسبانيول بمسلمى الاندلس منذ أربعة قرون قد أعاده موسولينى فى هذا القرن ولم يبال صراخ أولئك المساكين ولا بالى مخالفة ذلك للحقوق البشرية العامة التى تجعل الأب والأم أوصياء طبيعيين على أولادهما القاصرين . وقد زعمت الحكومة الايطالية أمام الناس انها انما نقلت هؤلاء العرب من أوطانهم لتعزلهم عن عصابة الثوّار الذين كان يقودهم عمر المختار رحمه الله . وهو كلام فارغ لا يقبله عقل ولا عدل اذ كيف تقدم حكومة على نقل ٨٠ ألف نسمة من مساقط رؤوسها خشية أن يتصلوا بخمسمائة ثائر لا غير ثم ان الطليان تغلبوا على الثوار المذكورين وقبضوا على قائدهم عمر المختار الذى ما فتئ يجاهدهم من عشرين سنة وشنقوه بمحضر جم غفير من أبناء جلدته فمضى الى ربه شهيداً و بكاه العالم اسلامى بأجمعه وانطفأت الثورة من كل برقة ومع هذا لم ترض الحكومة الايطاليَّة أن تعيد هؤلاء الاهالى الى بيوتهم وأوطانهم بل انتخبت من بقاياهم أربعة أو خمسة آلاف وأرجعتهم الى الجبل الاخضر يحرثون ويزرعون لا كمالكين بل

كعَمَلَة فى الأملاك التى نزعتها الحكومة الايطالية منهم وسلمتها الى المستعمرين الطليان . و بعبارة أخرى مثّلت ايطاليا فى هـذه المسألة أيضاً دور الاندلس عندما انتزعت أراضى المسلمين وسلمتها الى كبار الاسبانيول والى الرهبان ثم جعلت المسلمين أصحابها القدماء اكَرَة فى نفس أراضيهم لحساب غيرهم . وهذا هو السبب الذى أثار فلاحى الاندلس اليوم وحملهم على مطالبـة الحكومة الاسـبانية بعد سقوط الملكية وتأسس الجمهورية فيها باعادة هذه الاراضى ملـكاً لهم بحجة أنهـا كانت لآبائهم الذين كانوا مسلمين فى الأصل . و لقد قررت الحكومة الاسـبانية الحاضرة تمليك فلاحى الاندلس هـذه الاراضى و نزعت أيدى الرهبان ونبلاء الاسبانيول الذين كانوا يملكونهـا . فالفاشيست اقتفوا آثار فرديناند وايزابلا فى الاندلس من كل وجه . ثم لمـا ثارت اعتراضات المسلمين على ايطاليا من أجل اجلاء الثمانين الف عربى عن اراضيهم واغتصابهـا اياها وتسليمها الى الطليان قامت ايطاليا بتمويهٍ آخر لا يقل عن التمويه الاول سُخفاً وهو ان تقول : ان كثيراً من الحكومات الاسلامية قد أجبرت القبائل الرُحّل من رعاياها على التحضُّر والعدول عن الهيام فى البرارى وانها هى أى ايطاليا انمـا أرادت حمـل هؤلاء العرب على قبول الحضارة . كما فعلت الحكومات الاسلامية نفسها ولا نعلم لمـاذا يستلزم حملهم على ترك البـداوة أن يجلوا عن أملاكهم وأراضيهم و يصار بهم الى فلاة قاحلة لاماء فيهـا ولا كلأ تقريباً ؟ وهل كانت تعجز ايطاليا عن اجبارهم على ترك البداوة وهم فى وسط أراضيهم الخصبة بالجبل الاخضر ؟ ان هـذا التمويه لم يقنع أحداً وقـد أشرنا اليه مراراً والى سائر فظائع ايطاليا بطرابلس فى مجلتنا العربية المنهج الافرنسية الملهج المسماة « بالامة العربية » La Nation Arabe ونزيد على ذلك قولاً نقوله عن علـم وعن خبرة وهو اننا فى أوائل غارة ايطاليا على طرابلس ذهبنا بنفسنا ومعنا بعض من أتباعنا وجاهدنا مدة ثمانية أشهر فى درنه و بنغازى فاتيح لنا أن نجوب الجبـل الاخضر والاراضى التى تمتد من عقبة السلوم الى سهل بنغازى من أولها الى آخرها وعرفنا السلوم ودفنا وطبرق وغور الطنفسة وسائر ما يسمى بالبطنان ثم الجبل الاخضر بما اشتمل عليه من أراضى قبيلة العبيدات فى درنه وعين منصور ونبع مارة وترت و بشارة والقيقب وشحات مدينة سيرنّا القديمة وأراضى قبيلة الحاسه فيها و بعـد ذلك أراضى قبيلة البراعصة فى قلب الجبل بجوار الزاوية البيضاء و بعـد ذلك

أراضى قبيلة الدرسا وأراضى العرفا والعبيد حول قصبة المرج الى أراضى العواقير والمغاربة بظاهر مدينة بنغازى . وقد تعرفنا الى كثير من رؤساء هذه القبائل ومن مشايخ الزوايا السنوسية التى منها لكل قبيلة زاوية أو زاويتان أو ثلاث بحسب عدد تلك القبيلة وقد زرنا أكثر تلك القبائل فى نجوعها ولم نجد منها قبيلة واحدة يصح أن يقال فيها انها عريقة فى البداوة بل جميعها أصحاب زراعات وجنان و بساتين ومنها من يسكن المضارب ومنها من يسكن المدر ولكن الجميع حراثون زراعون مستقرون لايظعنون الى أماكن بعيدة وانما يشتون و يصيفون فى بلادهم على عادة الكثيرين من الفلاحين وسكان الحجر فى جميع الدنيا . ولنفرض جدلاً ان ايطاليا شاءت تحضيرهم كما تزعم أفلم يكن ذلك ممكنا مع ابقائهم فى أراضيهم ؟ أكان من الضرورى لأجل تحضيرهم اخراجهم من أراضيهم المريعة البديعة واسكانهم فى فلاة قاحلة ليموتوا ؟ كل الادلة متظاهرة من اعمال ايطاليا فى طرابلس و برقة على ان مراد الفاشيست هو استئصال الشعب الاسلامى من ذلك القطر لاحلال اللاتين محله . ولقد وصلت ايطاليا الى هذا الغرض ان لم يكن بتمامه فالى جانب كبير منه . فلقد كان أهالى طرابلس و برقة قبل غارة ايطاليا عليهما مليوناً ونصف مليون من النسم فلم يبق منهم الآن بحسب الاحصاء الأخير سوى سبعمائة الف نسمة . فيكون قد تناقص عددهم الى النصف بالظلم والعسف والقتل وما نشأ عن ذلك من رحيل الأهلين منهم من قصد السودان ومنهم من دخل مصر ومنهم من تحول الى تونس ومنهم من وصل الى الجزائر . والطليان مسرورون بان الجو بذلك يخلو لهم مغرورون بان افريقية ألقت اليهم بقيادها بواسطة طرابلس . وكل هذا أوهام وأحلام وستبدى لهم جهلهم الأيام . ولكنهم تركوا فى قلوب المسلمين من جراء أعمالهم فى طرابلس جراحات لاتوسى وحزازات لاتنسى ومن جملة أعمالهم فيها عدا ماتقدم ذكره انهم لما احتلوا واحة الكفره فى ١٣ يناير من سنة ١٩٣١ الماضية استباحوا قراها ثلاثة أيام فقتلوا من صادفوه من الأهالى . وكان من جملة القتلى بعض الشيوخ الأجلاء مثل السيد محمد بن عمر الفضيل والسيد حميده الفضيل والشيخ فضيل الديفار وغيرهم ممن قتلوه صبراً غير داخل فى ذلك من قتلوا فى المعركة التى جرت بين الأهالى وجيش الحملة الطليانية وهم ٢٠٠ شخص . ثم ان الطليان انتشروا فى القرى والبساتين ونهبوا كل ماوقع فى أيديهم ولم يرحموا الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء وصادفوا الشيخ مختار الغدامسى وهو

شيخ فان بالغ ثلاثا وتسعين سنة ومن جلة علماء السنوسية فحملوه مقيداً بالحبال على جمل ونفوه من الكفرة فمات فى الطريق . ثم اغتصبوا النساء فى أعراضهن وقتلوا منهن كثيراً ممن دافعن الى الآخر عن أعراضهن . وكان نحو من ٢٠٠ امرأة من نساء الأشراف قد فررن الى الصحراء قبل وصول الجيش الايطالى فارسلوا قوةً فى اثرهن تتأثرهن حتى قبضوا عليهن وسحبوهن الى الكفرة حيث خلا بهن ضباط الجيش الطليانى واغتصبوهن وهكذا أنزلوا المعرات بسبعين أسرة شريفة من أشراف الكفرة الذين كانت الشمس تقريبا لاترى وجوههن من الصون والعفاف . وقد أشارت الصحف الطليانية الى هذه الحادثة وصرحت فى باب الافتخار قائلة : « ان الجيش قبض على ٢٠٠ امرأة من نساء الزعماء » وقرأنا ذلك باعيننا ولحظنا ان مقصود البلاغ العسكرى الايطالى التبجح بكون حلائل زعماء الكفرة صرن الى الضباط . الا اننا انتظرنا جلاء الاخبار من الجهة الثانية حتى نعلم ماذا جرى بعد التثبت فامضى شهر حتى وردت الاخبار من المهاجرين الذين دخلوا حدود مصر بان هؤلاء السيدات المقصورات الناشئات فى أكرم مهود الطهارة والصون قد قبضوا عليهن فى الصحراء وصرن الى أولئك الفَجَرَة الذين لا يعرفون لصيانة العرض معنى ولا يقيمون للشرف وزناً . وعلمنا ان بعض شيوخ الكفرة الذين احتجوا على هتك أعراض السيدات المذكورات قد أمر القائد بقتلهم .

ثم لما هاج هائج العالم الاسلامى من جرّاء هذا الخبر وأشباهه أذاعت الحكومة الايطالية تمويهاً ظاهراً زعمت فيه أن الجيش تأثر النسوة المائتين المذكورات شفقةً عليهن ولأجل أن يرجعهن الى بيوتهن آمنات وغير ذلك من الأقاويل التى قصدت ايطاليا بها تخدير أعصاب المسلمين الذين بلغهم ما كان جرى بالكفرة من هذه الفظائع من هتك أعراض مخدرات المسلمين ومن استباحة الزاوية السنوسية المسماة « بالتاج » واراقة الخمور فيها ودوس المصاحف الشريفة بالاقدام هذا منضما الى ما كان بلغهم من قبل من اجلاء ١٨ ألفاً من عرب الجبل الأخضر عن أوطانهم واماتتهم بالجوع والعطش وأخذ أطفالهم قهراً الى ايطاليا لأجل تنصيرهم والى ما كان بلغهم من فظائع كثيرة مثل حمل الشيخ سعد شيخ قبيلة « الفوائد » و ١٥ شيخاً من رفاقه بالطيارات وقذفهم بهم من الجو على مشهد من أهلهم حتى اذا وصل أحدهم الى الأرض وتقطع اربا صفق الطليان طربا ونادوا العرب قائلين : «ليأت محمد هذا نبيكم البدوى الذى أمركم بالجهاد وينقذكم من أيدينا » والى غير ذلك من

الأمور التى جرحت قلوب المسلمين فجرت مظاهرات فى الشام وحلب وطرابلس الشام وبيروت وفلسطين وانعقدت اجتماعات فى كل مكان للاحتجاج على أعمال ايطاليا فى طرابلس وأبرق المسلمون بالاحتجاجات الشديدة الى جمعية الأمم بجنيف والى نفس موسولينى بالعبارات القاسية وقامت قيامة الجرائد العربية وحملت على توحش الفاشيست من كل جانب وامتلأت جرائد مصر بالاحتجاج والطعن فى ايطاليا الى أن عطلت الحكومة المصرية بعضها اجابة لطلب الحكومة الايطالية ووصل الصريخ الى الهند والجاوى وأضج المسلمون لهذه الأخبار وانعقد فى الجاوى اجتماع كبير حضره ألوف مؤلفة من المسلمين وخطبوا خطبا شديدة ودعوا الى مقاطعة البضائع الطليانية وتدخلت الحكومة الهولندية فى الأمر وانتصرت لايطاليا بمقتضى قاعدة التكافل الأوربى بوجه المسلمين وقاعدة التكافل الاستعمارى بوجه الأمم المقهورة وأشاع قناصل ايطاليا ان كل هذه الاخبار عما حلّ بمسلمى طرابلس ملفقة لا أصل لها و بلغت بهم القحة انهم كانوا يخاطرون الناس مخاطرة على أن يذهبوا الى طرابلس بأنفسهم ليشهدوا كذب هذه الأقاويل و بلغ بهم البهتان انهم أشاعوا أيضاً أن ايطاليا اقترحت على جمعية الأمم أن ترسل الى طرابلس لجنة من عندها للتحقيق عما ينسب الى رجالها من الأعمال الشنيعة التى هم أبرياء منها . وكل هذا اختلاق محض قصدت به ايطاليا التمويه وتخدير الاعصاب وصرف المسلمين عن مقاطعة بضائعها وقد سكن كثير من المسلمين الى هذه التكذيبات وهدأ بالهم والحق خلاف ذلك . وكل ما شاع من الاخبار عن أعمال الطليان لا سيما بعد مجىء دولة الفاشيست هو دون الواقع . ولو تأمّل المسلمون فيما يأتيه الفاشيست فى نفس ايطاليا من الموبقات ومن اغتيال أعدائهم السياسيين ومن حجز كل حرية ومن منع تأليف كل حزب يخالف حزبهم ولو نظروا الى اهاناتهم للبابا نفسه ومنعهم إياه من تأليف الجمعيات الكاثوليكية بحجة ان الحزب الفاشيستى الذى هو كاثوليكى الصبغة يغنى عن تأليف أحزاب كاثوليكية أخرى لعلموا ان الذين يفعلون تلك الافاعيل بأبناء أمتهم وملتهم ووطنهم لا يقال انهم لا يفعلون اضعافها بالمسلمين الذين ينوون استئصال شأفتهم من طرابلس لتحويل تلك البلاد الى مملكة لاتينية كما كانت لعهد الرومان بزعمهم ولايطان ثلاثة ملايين ايطالى فيها . على أن الاعمال الوحشية التى أتوها فى

طرابلس و برقة منذ بدء احتلالهم الى الآن والمظالم المتوالية التى أجروها من قتل وتغريب وحبس وضبط أملاك وانتزاع أراض وغير ذلك قد أصبحت فى حكم المتواتر الذى لا يصح فيه المراء لاتفاق عشرات الألوف من الأهلين على روايته فقد نزح عن طرابلس و برقة نحو من مائتى ألف نسمة وقيل من ٣٠٠ ألف نسمة منهم ٢٠ ألفا دخلوا تونس والجزائر ومنهم ٦٠ ألفاً دخلوا مصر ومنهم من شردوا الى السوادين ومنهم من تفرقوا فى الصحارى وقد أطبقوا بأجمعهم على صحة هذه الأخبار ومشاهدتهم تلك الافعال بالعيان وانه ليستحيل اتفاق تلك الألوف المؤلفة على الكذب هذا فضلا عن كون لسان الحال أفصح من لسان المقال فلولا كون هذه المظالم حقيقة راهنة ما كان هذا العدد الكبير من الاهالى يترك وطنه ويهيم على وجهه فى البرارى أو يلتمس الرزق عاملا فى أرض غيره بعد ان كان سيداً فى أرضه. ومن أغرب المتناقضات والتناقض من عادة كل كاذب أنه بينما ممثلو ايطاليا فى بلاد الاسلام يذيعون أن من شاء أن يذهب الى طرابلس بنفسه ليتحقق كذب تلك الاخبار عن فظائع الطليان فيها فان أبواب طرابلس مفتوحة لمن شاء الذهاب الى هناك و بينما قنصلهم فى بيروت يشيع ذلك فى بيروت و بينما الحكومة الايطالية تقول هذا القول لشوكت على الزعيم المسلم الهندى إذ بقيت ايطاليا مدة طويلة بعد احتلال الكفرة وحوادثها المؤلمة تمنع كل دخول وخروج بين الحدود المصرية والحدود البرقاوية لئلاَّ يقف أهل مصر على حقائق الاخبار فيزدادوا هياجاً. ولكن الحقائق لابد أن تظهر ولا يمكن ايطاليا اخفاء كل ما تأتيه من الأعمال الوحشية فى طرابلس وليس المسلمون وحدهم هم الذين شاهدوا أعمال الطليان وضجوا منها بل ثمة كثير من الافرنج شاهدوها وأنكروها ومن ذلك المستر « فرانسز ما كولا » الانكليزى الذى كان مرافقاً للجيش الايطالى فى طرابلس عند الاحتلال وشاهد تلك الفظائع بعينه فقد قال :

« أبيت البقاء مع جيش لاهم له الا ارتكاب جرائم القتل وان ما رأيته من المذابح وترك النساء المريضات العربيات وأولادهن يعالجون سكرات الموت على قارعة الطريق جعلنى أكتب للجنرال « كانيفا » كتاباً شديد اللهجة قلت له : انى أرفض البقاء مع جيش لا أعدُّه جيشاً بل عصابة من قطاع الطرق والقتلة »

ومن ذلك شهادة الكاتب الالمانى « فون غوتبرغ » الذى قال : «انه لم يفعل جيش

بعدوه من أنواع الغدر والخيانة ما فعله الطليان فى طرابلس فقد كان الجنرال كانيفا يستهين بكل قانون حربى ويأمر بقتل جميع الاسرى سواء أقبض عليهم فى الحرب أو فى بيوتهم . وفى سيرا كوزه الآن كثير من الاسرى الذين لم يؤسر واحد منهم فى الحرب وأكثرهم من الجنود الذين تركوا فى مستشفى طرابلس »

وقد قبض الطليان على ألوف من أهل طرابلس فى بيوتهم ونفوهم بدون أدنى مسوغ الى جزر ايطاليا حيث مات أكثرهم من سوء المعاملة

واقرأ ما قاله « هرمان رنول » المراسل النمساوى الحربى فقد وجد فى الباخرة التى نقلت جانباً من هؤلاء الاسرى فوصف تلك الحالة فقال :

« فى الساعة السادسة من مساء كل يوم تكبَّل هؤلاء المرضى بالحديد من اليد اليمنى والرجل اليسرى . حقاً ان موسيقى هذه السلاسل تتفق مع « المدنيـة » التى نقلتها ايطاليا الى افريقية . لا ريب أن الطليان قد أهانونا كثيراً فلم يكف أنهم أسقطوا منزلة أوروبا العسكرية فى نظر افريقية حتى شوهوا اسم النصرانية أمام الاسلام » ثم قال :

« قد قتل الطليان فى غير ميدان الحرب كل عربى زاد عمره على ١٤ سنة ومنهم من اكتفوا بنفيه . وأحرق الطليان فى ٢٦ اكتوبر سنة ١٩١١ حياً خلف بنك روما بعد أن ذبحوا أكثر سكانه بينهم النساء والشيوخ والاطفال » . قال : « ورجوت طبيبين عسكريين من أطباء المستشفى أن ينقلوا بعض المرضى والمصابين المطروحين على الأرض تحت حرارة الشمس فلم يفعلا . فلجأت الى راهب من كبار جمعيـة الصليب الاحمر هو الأب « يوسف بافيلاكو » وعرضت عليه الأمر وأخبرت شاباً افرنسياً أيضاً لكن الأب « بافيلاكو » حول نظره عنى ونصح للشـاب بأن لا يزعج نفسـه بشأن عربى فى سكرات الموت وقال : « دعه يموت ... »

قلت ليتأمل القارئ أن هـذا الذى يقول هـذا القول هو قسيس يزعم أنه ممثـل المسـيح على الأرض وأنه من رجال الصليب الأحمر أىَ الجمعيـة التى تزعم أنهـا تخـدم الانسانية بلا استثناء !

ثم قال هـذا المراسل النمساوى : « ورأيت على مسافة قريبة جندياً ايطالياً يرفس جثـة عربى برجله . وصباح اليوم التالى وجـدت الجرحى والمرضى الذين رجوت الراهب من

أجلهم قد ماتوا . وقد رأى ذلك معى فون غونبرغ الألمانى و بكى من تاثره » ثم قال :

« رأينا طائفة من الجنود تطوف الشوارع مفرغة رصاص مسدساتها فى قلب كل عربى تجده فى طريقها قد نزع أكثرهم معاطفهم ورفعوا اكمام قصانهم كأنهم جزار ون»

وقال فون غونبرغ فى احدى رسائله : « خرجت عصابة من الجنود وراء البيوت فلما دنوا منا وجدنا بينهم خمسة من العرب غلّت أيديهم خلف ظهورهم . ثم سمعنا صراخاً واذا ببعض الجنود خرجوا من منزل يجرّون عربياً ضمّوه الى الخمسة الأولين وقتلوهم رمياً بالرصاص . فعلمنا أن ليس هناك محاكمة ولا عدالة عسكرية بل هناك مجزرة محضة . ولقد قيل لى ان الطليان قتلوا ٤٠٠ امرأة وولد فى هذه الأيام الأخيرة وأربعة آلاف رجل . وكانوا يقتلون النساء ويقولون : ظنناهم رجالا » قلت : وهذا لم يكن من الفاشيست بل من الطليان غير الفاشيست لأنه حصل فى سنة ١٩١١ قبل أن يوجد الفاشيست

ثم قال : « فى ٢٧ اكتوبر سنة ١٩١١ سرت فى الطريق شمالى بئر « أبى مليانة » فأبصرت شابة عربية خرجت من بيتها ممسكة بيدها طفلها الصغير . ثم ما لبثت أن سمعت ثلاث طلقات نارية ثم رأيت المرأةسقطت على الأرض ميتة أما الطفل فولى هارباً مذعوراً فلقيت حينئذ ضابطاً فقلت له : جنودك قتلوا الآن امرأة عند البئر . فقال : جنودنا لا يستطيعون التمييز بين الرجل والمرأة أول وهلة . فعلمت من هذا الجواب أن العرب مباح قتلهم سواء كانوا مجرمين أو ابرياء »

ثم قال « انه صادف ٥٠ جندياً يقودون ستة من العرب الى خرابة يستعملها الجنود لقضاء الحاجة ... ولما أدخلوهم اليها اشترك الضباط والجنود فى قتلهم بالمسدسات والبنادق . قال : وما كدت أفرّ من هذا المشهد الهائل حتى رأيت ما هو أشد هولا وهو طائفة من الجنود يسوقون ٥٠ عربياً بين رجال وأطفال . ضرب أحدهم بحربة بندقيته اثنين منهم فمات الواحد لوقته وسقط الآخر يتخبط فى دمه فرفسه أحد الجنود برجليه ثم أدخلوا الباقين الى مكان قد تهدم وبدأ الضباط يقتنصون هذا الصيد الكريه بمسدساتهم و بنادق جنودهم مدة عشرين دقيقة . وكلماسمعوا أنيناً من جثة أعادوا عليها النار الى ان انقطع الأنين »

وقال مراسل التايمس يومئذ ـ قلت ولا يجوز أن ننسى أن غارة ايطالياعلى طرابلس كانت بالاتفاق مع فرنسةوانكلترة استرضاءً لايطاليا على أثر تقاسم انكلترة وفرنسة مصراً

والمغرب - : « ان قسوة الانتقام التى استعملها الطليان فى وقعة يوم الاثنين يليق أن يقال عنها انها أعمال قتل عام فقد فتكوا بكثير من الأبرياء وستبقى ذكرى هذا الانتقام زمناً طويلا ... » قلت ان كان بقي عند العالم الاسلامى ذرة من الشرف فلا يجوز له أن ينسى هذه الاهانات التى لحقت به مادام فى الأرض شئ يقال له اسلام

وقالت جريدة « الدالى كرونيكل » الانكليزية: «استمر الجيش الايطالى ثلاثة أيام يطلق الرصاص على كل من يلقاه من العرب فهلك عدد كبير من النساء والأطفال وبلغ مجموع القتلى بين الاثنين والجمعة أربعة آلاف عربى . وصدر الأمر بقتل كل من وجد خارج السور الى جهة « قرقارش »

وقال المسيو كوسيرا مراسل جريدة « اكسيلسور » البارزية :

« لا يخطر ببال أحد ما رأيناه بأعيننا من مشاهد القتل العام ومن أكوام جثث الشيوخ والنساء والأطفال يتصاعد منها الدخان تحت ملابسهم الصوفية كالبخور يحرق أمام مذبح من مذابح النصر الباهر . ومررت بمائة جثة بجانب حائط قضى عليهم باشكال مختلفة . وما فررت من هذا المنظر حتى تمثلت أمام عينى عائلة عربية قتلت عن آخرها وهى تستعد للطعام . ورأيت طفلة صغيرة أدخلت رأسها فى صندوق حتى لا ترى ما يحل بها وبأهلها . ان الايطاليين فقدوا عقولهم وانسانيتهم من كل وجه »

وقدأشار الى الحوادث نفسها مراسلا « الدالىميرور » المستر توماس كرانت والسيدة فرانك ماجى . وقال المستر راليس اشميد برتلت مراسل شركة روتر فى رسالة بعث بها من مالطة يصف فيها ماشاهده بعينه هو والمستر كرانت مراسل الدالى ميرور والمستر دانيس مراسل المورننغ بوست وقد سجلت هذه الرسالة فىدائرة رسمية انكليزية تحت تواقيعهم :

«صادفنا بمجرد خروجنا من المدينة جماعة بين رجال واولاد لايقل عددهم عن السبعين قتلوا بدون محاكمة . وكنا نشاهد فى طريقنا بعد كل بضع خطوات جثث القتلى فى كل مكان قتل بعضهم برؤوس الحراب والبعض ضرباً وآخرون جرحوا وماتوا على أثر جراحهم . وأبصرنا على مسافة قريبة خمسين رجلاً وولداً هلكوا بالرصاص والسيوف وشاهدنا رؤوساً مهشمة . ومن المشاهد التى رأيناها :

١ - شيخ عربى عاجز بينما هو جالس بقرب مدرسة الزراعة اذ اتخذته طائفة من الجند

الايطالى هدفاً لرصاص بنادقها فمات

٢ – سمعنا فجأة صوت عيار نارى فعلمنا أنه أطلق على رجل خرج من منزله فسقط والدم يتدفق منه وخرجت زوجته و بيدها اناء فيه ماء – لعلها تريد أن تسقيه أو تغسل جراحه – فلما رأتنا نكصت على أعقابها خوفاً منا ...

٣ – التقينا فى أحد الشوارع بثلة من الجنود امسكوا ثلاثة من العرب وصفوهم عند حائط واخذوا يتلهون باطلاق النار عليهم »

وقال المستر بنيت بورلى مراسل « الدالى تلغراف » :

« قتل الطليان فى ٧ نوفمبر (١٩١١) اربعة آلاف شخص بينهم ٤٠٠ امرأة ورأيت رجلاً مقعداً قتله الجنود قريباً من قنصلية النمسا »

وقال مراسل « فرانكفورتر تسايتونغ » :

« لقد رأيت بعينى فظائع هائلة لم تسمع أذن انسان بمثلها . ولقد بلغ الى الآن عدد المذبوحين من الأهالى سبعة آلاف من رجال ونساء وأولاد اذ أبيح للجنود قتل كل من يصادفونه »

قلت هذه اعمال جيش منظم هو جيش ايطاليا تحت قيادة قائد برتبة جنرال هو الجنرال كانيفا يقود ذلك الجيش الى طرابلس الغرب بحجة انها بلاد متوحشة وان ايطاليا تريد ان تمدنها وتدخل اليها مبادئ الانسانية ! ولذلك هاجمتها بغيا وعدواناً وأوقعت باهلها كما يعلم كل احد . ولماذا هذا الانتقام الذى تأبى الوحوش الضوارى الاتيان بمثله بحق الاهالى الوادعين المجردين من السلاح ؟ جواب ذلك ان المقاتلة من العرب دحروا الجيش الطليانى عند المكان المسمى بالمنشية وان طائفة من المقاتلة جاءت الجيش الطليانى من الوراء على غرة منه فانكسر وتلف منه كثير . فانتقم الجنرال كانيفا لهزيمة جيشه هذه بذبح الاهالى الوادعين المستقرين فى بيوتهم رجالاً ونساء واطفالاً ولم يبال لاهو ولا حكومته شناعة هذه الأحدوثة ولامخالفة هذه الأعمال لقوانين الحرب الدولية وكيف يبالى وهو وغيره من الأوربيين لاسيما الجنس اللاتينى يعتقدون ان الاسلام خارج عن الدائرة التى يجب ان تراعى فيها الحقوق الدولية وانه لانصيب له من ذلك وان كل مايعمل به وباهله جائز . وليس فى هذا شئ من المبالغة بل نحن أولاء نرى من الأوربيين أمما اسمى مقاماً اجتماعياً من الطليان نستدل من

كثير من اقوالهم وافعالهم ومن صريح كتبهم الحقوقية انهم لايقبلون مبدأ المساواة بين الأوربى والمسلم ولا يرون الحقوق العامة التى يدعيها الأوربى مما يجوز ان يدعيه المسلم فى المواقف الدولية . فلهذا تجد جيوش هذه الأمم ترتكب فى مستعمراتها لاسيما بالمسلمين ما يقرب من أعمال الجيش الايطالى فى طرابلس ولايمتاز عنه بكثير . ولقد ارتكب الفرنسيس فى هذه السنة عند احتلال واحة تافيلالت بالمغرب افعالاً بعيدة جداً عن الحقوق الدولية وعن الحقوق وهم وان كانوا اخفوا خبرها عن الناس ولم تتصل بالجرائد فلم يمكن طمسها ولا عمشها تماما وهم بدون شك أعلى درجة فى المدنية من الطليان . ومن غريب الأمراض التى ابتلى بها المجتمع الاسلامى فى هذا العصر ان كثيراً من المغترين بزخارف الأقوال من المسلمين لايصدقون بصدور هذه الافعال عن الأوربيين ويكذبون أخبارها و يكابرون فيها ويقولون ان أعمالاً كهذه يستحيل أن تصدر عن أمم متمدنة . وهذا من أعظم البلايا التى أصيب بها المسلمون فى هذا القرن وقد تفوق هذه البلية فى عمايتهم عن الحقائق بليتهم بفظائع الاستعمار الأوربى . ولكن هذا التصور العالى الذى كان لهم بالمدنية الأوربية والانسانية الأوربية والنزاهة والنبالة اللتين كانوا يعتقدونهما من اخلاق الأمم الغربية قد تناقص كثيراً بعد الحرب العامة عند ما احتل الجيش الافرنسى سورية وجزءاً من تركيا واحتل الانكليز العراق وفلسطين واستانبول وظهر ما ظهر منهم بمصر واليمن وعند ما عمل الفرنسيس ماعملوه من تدمير دمشق وافظع الجميع ما ظهر من أعمال الطليان فى طرابلس الغرب و برقة مما لم يسمع به احد الا فى القرون الوسطى ونعود الى ذكر تلك الفظائع فنقول ان الجمعية الطرابلسية البرقاوية فى الشام قد نشرت فى هذا العام كتاباً عنوانه « الفظائع السود الحمر » أو التمدين بالحديد والنار هو الحلقة الأولى من سلسلة فظائع الطليان فى ذلك البر . وقد نقلت اخبارها بالوثائق ونقلت من كلام مراسلى الجرائد الكبرى كالتايمس والطان و وستمينستر غازت وغيرها وعن كتاب « فظائع الطليان فى طرابلس الغرب » المطبوع فى الاستانة سنة ١٣٣٥

ولقد ورد فى هذا الكتاب ذكر فظائع أعمال الطليان بالتسلسل من بدء احتلالهم الى الآن سنة فسنة كل سنة مع ذكر ما ارتكبوه فيها من الأعمال المخجلة الخارجة عن حدود الانسانية . ومما جاء فيه اهانة الطليان للدين الاسلامى وتعرضهم أحيانا للمسلمين فى مساجدهم

ودخول الجنود سكارى الى الجوامع يهزأون بعبادة المسلمين وما من وازع ولا رادع واجبارهم المسلم ولو كان فى وسط صلاته أن يترك الصلاة ويحيي الضابط أو المأمور الايطالى أياً كان .
وان احتقار الطليان للمسلمين يظهر فى الدقيق والجليل من معاملاتهم لهم حتى اننا قرأنا مرة برنامج مراسم أحد الأعياد الايطالية وكيفية الدخول على القائد الكبير فى طرابلس فاذا به على هـذا الترتيب : يدخل أولاً جالية الطليان وثانياً جالية الأوربيين من غير الطليان وثالثاً اليهود وأخيراً المسلمون . . .

ومن كان يهمه الاطلاع على ما فعـله الطليان فى طرابلس ـ ويجب أن يهم ذلك جميع المسلمين ـ فعليه بمطالعة هذا الكتاب من أوله الى آخره وهذا يغنينا عن نقل كثير مما فيه على أننا ننقل منه بعض فقرات على سبيل التمثيل . ففى الصفحة ٥٩ تجد ما يلى :

« الحاج مفتاح مشلوف رجل طرابلسى ذهب الى الحج فأخذ معه من النقود نحواً من ألف جنيه لأنه رجل يجهل معاملة المصارف ولما عاد الى وطنه شعر الفاشيست بما معه من النقود فابتكروا لمصادرتها حيلة سخيفة إذ ادعوا أنها اعانة جمعها للمجاهد السيد عمر المختار فرجا منهـم أن يحققوا هـذه الفرية فأبوا الا أن يغتصبوا أمواله بلا تحقيق ولا محاكمة وقالوا له : احمد الله على أن الحكومة لم تقتلك

«لاقيمة لأعراض الناس عند الفاشيست فطالما هتكوا حرمات وتجاوزوا على أعراض نساء شريفات . فمن ذلك أن ثلاثة ضباط ايطاليين طلبوا ثلاث بنات من أهالى قضاء « جالو » للاستمتاع بهن فاغتصبوا منهن اثنتين والثالثة فرّ بهـا أبوها ونجاها من براثن أولئك الوحوش المفترسة

«واحة جغبوب هى مركز السادة السنوسية وحصن عبادتهم الأمين والايطاليون شديدو الحرص على ابادة رجال الدين ومحو معالم الاسلام من تلك البلاد لذلك هاجوا هـذا المركز وأجلوا عنه أهله وكان أكثرهم من العلماء وطلاب العلم مثل السيد حسين السنوسى شيخ زاوية جغبوب والشيخ أحمد اليوسف والشيخ صالح المسمارى والشيخ الفضيل الكيش والشيخ محمـد أبى شهبه وغيرهم ونفوا معهم نساءهم وأطفالهم الى حيث لا يعلم أحد ويظهر أنهم أجلوا « الى بردى سليمان » وقد سقط من السيارة فى الطريق الشيخ صالح المسمارى فلم يهتموا له وكان من خلف السيارة التى تحمله سيارة أخرى داسته وذهبت بحياته

«أصدرت حكومة الفاشيست فى لواء بنغازى أمراً بسد جميع الكتاتيب التى تعلم الأطفال أمور دينهم وتحفظهم قرآنهم الكريم

«فاجأ الفاشيست رجلاً يدعى الشيخ يونس بن مصطفى البرعصى وهو معتكف فى غار بزاوية الفايدية بالجبل الأخضر فسدّوه عليه وأحرقوه مع عائلته المؤلفة من تسعة أشخاص تأويلاً لاعتكافه بالتجسس عليهم

«تفنن الفاشيست فى التنكيل بالسكان حتى انهم ألقوا جماعة منهم الشيخ عبد الحسيب أبا عمران البرعصى والشيخ المكدن العبيدى وأحمد خليل السعيطى من طيارة من علو ٤٠٠ متر فى المكان المعروف بجردس العبيد بالجبل الأخضر . وربطوا الشيخ مفتاح يحيى العبيدى وابن عمه صالح على بين سيارتين دفعوهما الى اتجاهين مختلفين فتقطعت أجسامهما اربا اربا أمام قبيلتهما المستسلمة القاطنة بجوار المعسكر الفاشيستى فى « تاكنس »

هذا ما نقلناه عن صفحات ٥٩ و ٦٠ و ٦١ و ٦٢ من هذا الكتاب . واليك أمثلة أخرى من صفحة ٦٣ :

« أسس الجنرال « غرسيانى » محكمة عرفية سيارة تقطع البلاد على متون الطيارات وتحكم على الأهالى بالموت ومصادرة الأملاك لأقل شبهة فتمنحها لمرتزقة الفاشيست الذين سدت فى وجوههم أبواب المهاجرة الى أمريكا وغيرها . ومن أغرب ما يفعله الفاشيست أنهم يحكمون وينفذون ثم بعد ذلك يحققون . . . فقد أخبرهم أحد جواسيسهم أن احمد عبد الهادى يقتنى بندقية فحكموا عليه بالموت شنقاً و بعد أن نفذوا فيه الحكم فتشوا منزله فلم يجدوا فيه نوعاً من السلاح ثم ثبت لهم أن هذا الخبر مختلق فلم يعاقبوا الجاسوس وكثيراً ما أزهقت أرواح بمثل هذه التهم الباطلة »

قلت ان تقديمهم التنفيذ على التحقيق هو ناشىء عن خوفهم من ظهور البراءة وعند ذلك تضيع عليهم فرصة ازهاق نفس مسلمة على حين أنهم يعتقدون أن كل مسلم يفارق هذه الدنيا فى طرابلس يفسح مكاناً لطليانى مستعمر . ففى قتل المسلم بأى وجه كان مصلحة لهم بزعمهم ولهذا يسارعون فى تنفيذ حكمه بدون تحقيق

ثم انه جاء فى هذا الكتاب صفحة ٦٤ :

« نزلت محكمة الطيارات العرفية فى هذا العام [1] على الأهالى المحشورين فى عين

---

(١) يتكلم عن عام ١٩٢٩

الغزالة فحكمت فوراً على ستة أشخاص بالقتل وعلى عشرين شخصا بالسجن – وأقل مدة السجن ٢٠ سنة – وكان بين المحكوم عليهم الشيخ الطلحى الموالى للطليان المقيم معهم بطبرق . فلما تلى عليهم الحكم همس أحد المحكوم عليهم بالحبس ٢٠ سنة فى أذن جاره قائلاً له : انهم ظلموا الطلحى بحكمهم هذا . فأحسّ بذلك أحد الجواسيس فأبلغه للحاكم فأقسم بأن يكون صاحب هذا القول أول المقتولين وأعدموه الحياة فعلاً . ثم فى ساعة تنفيذ الحكم طلب المحكوم عليهم أن ينفذ الحكم بحقهم خفية عن أهلهم وأطفالهم فلم يسعف طلبهم »

ثم جاء فى صفحة ٦٥ :

« انتزعت حكومة الفاشيست من أيدى الأهالى ٢٠٠ ألف هكتار من الأراضى بلا مقابل فأعطت مائة ألف للمستعمرين وأوعزت الى اخوانهم المقيمين فى الأرجنتين أن يبيعوا أراضيهم فيها ويأتوا الى طرابلس وبرقة حيث يأخذون بدلها مجاناً وقد صرح بذلك السنيور موسولينى فى عدة خطب له . وقال المارشال بادوليو والى طرابلس وبرقة فى خطاب له : يجب على الذين تمنحهم الحكومة آلاف هكتارات أن يشمروا عن سواعدهم فاننا قد وفقنا الى استملاك الآلاف المؤلفة من الهكتارات ولم يحتج أحد . . . »

لم يحتج أحد طبعاً لأن الذى يحتج جزاؤه الموت . الا أننا نقول : أفليست هجرة هؤلاء البؤساء احتجاجاً عملياً على هذا الظلم الفظيع ؟

وفى صفحة ٥٤ جاء ما يلى :

« فى قضاء زواره أرض خصيبة و بساتين كثيرة فيها أنواع الفواكه وهى ملك لقبائل « النوائل » و « خويلد » و « السعيفات » اغتصبها الفاشيست وسلموها الى مستعمريهم وأجبروا أصحابها على تركها والجلاء الى البادية »

وجاء فى صفحة ٦٦ ما يلى :

«من فظائع الابادة والافناء التى قام بها الجنرال « غراسيانى» انه حشر كافة سكان الجبل الاخضر فى بقعة ضيقة من الارض على الساحل بين المكانين « طلميثه » و « بنينة » بعد أن زج زعماءهم فى السجون وألحق بهم من الاهانات مالا يوصف وقتل من المشاهير رجلاً يدعى الشيخ سعيد الرفادى مع خمسة عشر شخصاً شر قتلة وذلك بان أمر باركابهم

فى الطيارات والقائهم من عن علو ٤٠٠ متر على مشهد من أهلهم وكلما هوى منهم شخص صاح الضباط والجنود ساخرين منادين : « فليأت نبيكم محمد البدوى الذى أغراكم بالجهاد وينقذكم من أيدينا » ثم عزم على ترحيل سكان برقة الغربيــة فصادر نقودهم ومواشيهم وساقهم محاطين بفرسان وسيارات مصفحة ولم يسمح لهم بالانحراف عن الطريق ولو للاستقاء ومن كان يحاول ذلك أو يجنح للاستراحة يعاقب بالقتل فوراً لا فرق بين رجل وامرأة وطفل الى أن حشرهم بهــذه الحال المحرجة فى صعيد ضيق على ساحل المكان المعروف بالمقطاع . أما سكان برقة الشرقية (متصرفيــة طبرق) فلم يكن نصيبهم من الضرر باقل من نصيب اخوانهم حين نفوا مع نسائهم وأطفالهم الى ايطاليا . وهاك أسماء القبائل التى رُحّلت لافنائها عن بكرة ابيها : العبيدات والحاسه والمنفه والحوته والشواعر وحبون .

«وقد كانت مخيمة فى أرض خصبة واسعة يحــدها شرقاً السلوم والاراضى المصرية وغرباً وادى الثعبان وشمالاً البحر المتوسط وجنوباً الصحراء . ثم العواقير والمغاربة وعائلة المهشهش وأولاد الشيخ والغربيات والسعيط والفواخره والشهيبات وزوّيه وجراره ومشيكات والزاوية . وهــذه كانت مخيمة فى الاراضى المحــدودة شرقاً بمسوس وغرباً بالمقطاع وعين الكبريت وخليج سرت وشمالاً بالبحر المتوسط وجنوباً بالصحراء . فهذه القبائل وغيرها البالغ عددها ٣٠ قبيلة وأنفسها ثمانين الفاً حشرت بأجمعها فى بقاع « بنينه » و « طلميثه » و « العقيلة » الضيقة القاحــلة ومنعت عن التجول خارج الاسلاك الشائــكة التى ضربت حولهم بعد أن سلبت الحــكومة الفاشيستية حيواناتهم ومواشيهم

«جمع الجنرال غارسيانى جميع مشايخ السنوسية ومتولي أوقافها وأئمة المساجد والمؤذنين والفقهاء والسَدَنة وسجنهم كلهم فى مركز « بنينه» وهو بناء قديم لاسقف له ذاقوا فيه أمر العذاب جوعاً وعطشاً وعذاباً ثم نقلوا الى سجون ايطاليا وبعد أن مكثوا فيها مدة أعيدوا الى « بنينه » حيث أفنوا بالجوع وغيره وهاك بعض أسماء الهالــكين : عمر السكورى شيخ زاوية المرج . السنوسى بن جلّول شيخ زاوية البراعصة . السنوسى بن ميلود شيخ زاوية المرازيق . السنوسى الهانى شيخ زاوية أمركبة . ادريس أبو فارس شيخ زاوية أم حفير . ولا ذنب لهؤلاء المساكين سوى أنهم يعلمون ابناء المسلمين كتاب الله وسنة رسوله الكريم »

قلنا ان استئصال الدين الاسلامي من طرابلس واجتثاث عروقه بمحو رجاله من هناك كان ولا يزال محور سياسة الفاشيست فى ذلك القطر . وقد صرح قائد طبرق أمام جماعة من المسلمين انهم لا يمكنهم أن يصيروا بنى آدم ما دام هذا الكتاب الذى هو القرآن بين أيديهم . . . . .

ثم جاء فى كتاب « الفظائع السود الحمر » ما يلى :

«أما الاخوان السنوسيون القاطنون فى جغبوب فقد رحّلوهم بعائلاتهم جميعاً مشياً على الأقدام الى قضاء « جالو » تحت رحمة الجنود الذين كانوا يسوقونهم سوق الانعام بقصد الحاقهم باخوانهم فى سجون « بنينه » و « سلوق »وغيرهما . وقد مات أكثرهم جوعا وتعذيباً . وكان منظر الأطفال الصغار على جانبي الطريق يفتت الأكباد زيادة على مناظر الموتى من الرجال والنساء

«حدثنا ثقة ان الثمانين الف مسلم الذين نزعت من أيديهم بلاد الجبل الاخضر الخصيب وأرسلوا الى بادية «سرت» القاحلة التى تبعد مسافة ١٥ يوماً عن الجبل المذكور فى منطقة ضيقة لا ماء فيها ولا كلأ مات أكثرهم من الجوع والعطش والاوبئة وهلكت أكثر مواشيهم وصادرت الحكومة بقية ما كان عندهم من مال واثاث وحلى وتركوهم يفترشون الغبراء ويلتحفون السماء بصورة لم يسبق لها نظير حتى فى أظلم عصور التاريخ . زد على ذلك انهم جنّدوا منهم من يتراوح عمره بين الـ ١٥ والـ ٤٠ سنة ليحاربوا بهم اخوانهم فى الدين والوطن وارسلوا أطفالهم الى ايطاليا لتنصيرهم

«ضبط الفاشيست أولا زوايا السنوسية وعددها يزيد على المائة مع أوقافها واغتصبوا أخيراً جميع أراضى القبائل المنتسبة الى الطريقة السنوسية (١) وهى قبائل الجبل الأخضر وبرقة العبيدات وفروعها والبراعصة والحاسة والدرسة والعرفا والعبيد والفوايد والمرابطين والعواقر والمغاربة وغيرهم ونفوس هذه القبائل تزيد على ٢٥٠ ألف نسمة وقدأصبحت أراضيها ملكا للحكومة الفاشستية بموجب أمر ملك ايطاليا (٢) نشرته الصحف الأوربية برقيا عن

(١) قلت وجميع قبائل برقة منتسبة الى الطريقة السنوسية

(٢) قلت وقد نشرت هذا الأمر جرائد ايطاليا ونشرنا فى مجلتنا الافرنسية اللغة « لاناسيون آراب » مقالة خاصة فى أحد أعداد السنة الماضية عن فظاعة هذا العمل

روما . واذا كان ملك ايطاليا وقّع أمراً بانتزاع أراضى القبائل السنوسية واعترف المارشال « بادوليو » لمندوب جريدة « زيونى كولونيانى » بأن الحكومة أعطت أكثر من ٢٠٠ ألف هكتار من الأرض لأربعمائة من المستعمرين الفاشيست الذين أتوا من تونس بقصد الاستملاك وأذاعت ايطاليا فى بلاغاتها الرسمية أنهـا قد أسكنت فى برقة بضعة عشر ألف فاشيستى مستعمر وأنها ستسكن خلال ٢٠ سنة فى برقة ٣٠٠ ألف فاشيستى وأعلنت على صفحات الجرائد بلسان أكبر رجالها أنها امتلكت أكثر من ٦٠٠ ألف هيكتار وصرح موسولينى أنه سيسكن فيها من مليونين الى ثلاثة ملايين . اذا تم كل ذلك فمعنى هـذا كله أن حكومة الفاشيست انتزعت مع أراضى برقة والجبـل الأخضر أراضى طرابلس ومصراطه ومسلاته ونزهونة وزليطن وغريان وأورفلة وسوكنة وغيرها حتى يبلغ العدد ستمائة ألف هيكتار كما جاء فى بلاغاتها الرسمية الخ »

وجاء فى هذا الكتاب صفحة ٨٧ ما يلى :

« وقد وفقوا للناحية الأولى حيث شردوا ثلث مليون من السكان ونفذوا الناحية الثانية حيث أفنوا ثلث مليون آخر ونيط تنفيذ الناحية الثالثة بالمدارس الطليانية ولم يتركوا فى طول البلاد وعرضها مدرسة غير طليانية وهكذا الأخلاق الاسلامية قد ضمنت المدارس الطليانية القضاء عليها بوسائل التعليم الاجبـارى . وتكفلت دور الفحش والدعارة بافساد أخلاق الشبان . وأما الناحيـة الرابعة وهى تنصير المسلمين ودفعهم لاعتناق الكثلكة فقد صرح أحد سفراء الدول للامير الجليـل شكيب أرسلان بأنه تحدث مع أحد رجال حكومة ايطاليا فقال له : اننا نأمل كثيراً تنصير الجنس البربرى من أهل طرابلس وبرقة »

نعم قد سمع محرر هـذه السطور من سفير أوربى أعرفه من زمن طويل وأعرف أنه من الثقات فى جميع أقواله

انى أرى فى هـذا النقل عن كتاب فظائع ايطاليا فى طرابلس مابه مقنع وان كانت عقول بعض الناس لا تزال تستنكف من قبول جميع هذه الروايات وتظنها من قبيل الغلو والاغراق فى وصف مظالم الفاشيست . وما هى بغـلوّ ولا اغراق بل هى بأجمعها وقائع قد جرت فعلاً

ولما حررت المقالة التى نشرتها عن فجائع طرابلس وبرقة سنة ١٩٣١ على أثر دخول

الطليان الى الكفرة وارتجف لها العالم الاسلامى غضبا وعلا الصراخ من كل جهة جاءنى من الشهيد الأكبر بطل الجبل الأخضر السيد عمر المختار الكتاب الآتى :

« انه من خادم المسلمين عمر المختار الى المجاهد الأمير الخطير أخينا فى الله وزميلنا فى سبيل الله الأمير شكيب ارسلان حفظه الله

« بعد السلام الاتم والرضوان الشامل الاعم ورحمة الله وبركاته قد قرأنا مادبجه يراعكم السيال عن فظائع الطليان وما اقترفته الايدى الاثيمة من الظلم والعدوان بهذه الديار فانى وعموم اخوانى المجاهدين نقدم لسامى مقامكم خالص الشكر وعظيم الممنونية . كل ماذكرتموه عما اقترفته أيدى الايطاليين هو قليل من كثير وقد اقتصدتم واحتطتم كثيرا ولو يذكر للعالم كل ما يقع من الايطاليين لا توجد اذن تصغى لما يروى من استحالة وقوعه . والحقيقة والله وملائكته شهود أنه صحيح وأننا فى الدفاع عن ديننا ووطننا صامدون وعلى الله فى نصرنا متوكلون وقد قال الله تعالى : وكان حقاً علينا نصر المؤمنين وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فى ٢٠ ذى الحجة ١٣٤٩ » انتهى

وما لاحظه الشهيد المشار اليه هو عين الحقيقة فان الناس يصعب عليهم أن يصدقوا أن جيلا على وجه الأرض يقدم على ارتكاب مثل الشناعات والدناءات والنذالات التى أقدم عليها الطليان فى طرابلس ولا سيما الفاشيست منهم . وان الناس لا يزالون يتوقفون عن تصديق هذه الروايات لغرابتها وفرط بعدها عن العقل بحيث كنا كثيراً ما نمسك عن الخوض فى هذا الموضوع أمام بعض الاوربيين خشية أن نُتَّهم بالافتراء أو بالمبالغة والحقيقة ان كل ما رويناه عنهم وما رواه كتاب « الفظائع السود الحمر » هو قليل من كثير مما لا يمكن استقصاؤه من اعمالهم فى هذه العشرين سنة التى انصبَّ فيها بلاؤهم على ذلك القطر الحزين . وهذا مما يجىء دليلاً مؤكداً على ان الأوربيين عموماً واللاتين خصوصاً اذا ظفروا بالمسلمين لايرقبون فيهم إلّاً ولاذمة ولايعرفون شفقة ولا رحمة

ولما اشتد غضب المسلمين على الطليان مما أنزلوه باخوانهم فى طرابلس وتحدثوا فى كل ناد بوجوب مقاطعة تجارتهم خشى الطليان عاقبة هذا الأمر وشرعوا يتوددون الى زعماء المسلمين وينفون لديهم كل ماشاع من أخبار تلك الفظائع . وكانوا من قبل قدامتنعوا عن الاعتراف بابن سعود ملكاً على الحجاز وأخذوا يتربصون به الدوائر ... وقيل انهم مدوا أيديهم فى الخفاء الى أعدائه ليكونوا يداً واحدة عليه فلما أرادوا التزلف الى المسلمين لينسوهم

أفاعيلهم باخوانهم فى طرابلس أسرعوا الى عقد المعاهدة التى كانوا رفضوا عقدها مع الملك ابن‌سعود وكانوا تطلَّبوا لأجل ذلك شروطا نحن أدرى‌بها لأن المذاكرة وقعت معنا فى كل من سنة ١٩٢٧ و ١٩٢٨ وماأمكن الاتفاق يومئذٍ بما اقترحوا من الصيغ التى لم‌نوافق على تحريرها فى‌المعاهدة . ثم كانوا من‌أسرع الدول الى‌الاعتراف باستقلال‌العراق ومن‌أكثرهن مصانعة للملك فيصل بن الحسين . ولقد سمعنا أيضاً انهم خففّوا من وطأتهم فى طرابلس وشرعوا يتزلفون الى المسلمين بمالم يسبق لهم من قبل وأخذوا من بعض مشايخهم شهادات بأنهم راضون شاكرون ! فأما الثمانون الف عربى الذين أجلوهم عن أوطانهم البديعة وأراضيهم المريعة فى الجبل الأخضر فما أعادوا منهم سوى خمسة آلاف رجل يقال انهم انما أعادوهم اليها كعَمَلة فيها لا كمالكين . ولابد أن‌ينجلى الغبار وتنكشف الأسرار ولو بعد حين . على أن الذى فعله الطليان بمسلمى طرابلس لايجوز للامة الاسلامية أن تنساه أبد الدهر اذا كانت تريد أن تبقى فى الوجود ولله در يزيد بن الطثرية القائل :

لا أتقى حسك الضغائن بالرقى فعل الذليل ولو بقيت وحيدا
لكن أجرد للضغائن مثلها حتى تموت وللحقود حقودا

ولما كنا قد دخلنا فى بحث طرابلس وبرقة فقد رأينا أن نتمم هذا الفصل بمعلومات احصائية وجغرافية عن تلك البلاد كنا جمعناها فى أثناء ذهابنا بنفسنا الى الجهاد فى برقة سنة ١٩١١ الى ١٩١٢ وأجمعنا ان نحررها فى كتاب مستقل برأسه الا أن العوائق الكثيرة من توالى الاسفار وتحرير الاسفار وغير ذلك من الأشغال والمهمات لم تتح لنا أن نبرز هذا الكتاب الى الوجود . فرأينا الآن أن نلخص هذه المعلومات هنا فى هذه الطبعة من هذا الكتاب كما أننا كنا فى الطبعة الأولى منه قد ذكرنا كثيراً منها فى عرض البحث عن السادة السنوسية وزواياهم . وهكذا لا نكون أفلتنا هذه المعلومات من قيد التسجيل ثم يعرف المسلمون بواسطة هذا الكتاب ماذا كان يوجد من السكان المسلمين فى طرابلس وبرقة وكيف كانت معاهد الطريقة السنوسية وغيرها فى ذلك القطر يوم شن الطليان الغارة عليه بحيث اذا تغيرت المعالم وتبدلت الاوضاع نعرف مقدار الحق الذى ضاع وعدد العرب الذين خلت منهم تلك البقاع

فنقول ان أهالى برقة ينقسمون الى قسمين حضر وبادية فالحضر هم أهل بنغازى

ودرنه . والبادية هم أهل الجبل الأخضر وما يجاوره . وهم فى الحقيقة نصف بادية ولهم أراض كاراضى الحضر يحرثونها وجنان وأشجار يحرسونها وانما هم يعتمدون فى الغالب على رعاية المواشي وعندهم المراعى التى يندر مثيلها فى البلدان ويصدرون الغنم والسمن والاقط الى الاسكندرية وغيرها

والبلاد التى تسمى « برقة » تبتدئ من فم الفج من محل يسمى العصيدة على طريق سيدى عمر المهشهش ممتدة الى غاية مقطاع الكبريت من جهة عمل طرابلس . وثمة برقتان الحمراء والبيضاء كلتاهما ضمن قضاء اجدابية

ومن العصيدة الى غاية وادى ابى الضحاك الذى تتصبب مياهه الى درنة هذا هو الجبل الأخضر

ومن وادى أبى الضحاك الى عين الغزالة شرقاً يقال له الخرمة

ومن عين الغزالة الى وادى بلوك باش الى الشرق مايسمى بالبطنان

ومن وادى بلوك باش الى مركز السلوم يسمى دفنة

ومن السلوم الى الشرق صارت الديار المصرية فالى حجاج العقيبة مايسمى بالعقبة

ومن رأس حجاج العقيبة الى المحل الذى يقال له سيدى عبدالرحمن مايسمى بالعقيبة

ومن سيدى عبدالرحمن الى غاية خشم العيش يقال له المقطوعة

ومن خشم العيش الى الاسكندرية يقال له مريوط

وأما من البحر المتوسط الى الداخل فاذا مددت خطاً من البحر عند بنغازى الى وادى الكفرة جنوباً فانها مسافة ٢٥ يوماً . وان مددت خطاً من « دفنه » الى الجنوب مستقيماً وقع فى واحة جغبوب

وعلى مسافة ثمانية من ساحل البحر الى الجنوب قضاء جالو وأوجله التابع لبنغازى وأهله نحو من ستة آلاف نسمة يقال لهم المجابرة ثلثان منهم فى جالو وثلث فى أوجله

وفى الجبل الأخضر مياه جارية عذبة كمياه جبل لبنان فمنها نهر درنة وهو من وادى أبى الضحاك ويقال له أيضاً وادى المنحر . وهو يجرى من عينين احداهما عين منصور . وعلى مقربة منها بقى معسكر انور والمجاهدين مدة سنة فأكثر . وتدور على نهر درنة الارحية وتكثر فى درنة البساتين وكلها سقى . وفيها عدا النهر آبار عذبة . والى الغرب من

درنة نهر « ماره » يدير الرحى أيضاً فيه ٢٥ عيناً وماؤه عند رأس نبعه فى غاية البرودة والعذوبة تخاله نبع الصفا فى لبنان وعليه بساتين ومزارع ومنه الى درنة مسافة خمس ساعات. ويوجد الى الغرب من درنة نهر «كرسه» على ساحل البحر. والى الغرب من كرسه وادى الاترون لقبيلة الشواعر. ثم وادى القليعة. ثم وادى رأس الهلال. ثم وادى سوسه وهى قرية كان فيها مهاجرون من مسلمى كريد. ثم عين شحات أى سيرنّا القديمة تبعد عن البحر مسافة ساعتين ونصف ساعة. وشحات جبل مشرف على البحر أشبه بجبال غرب لبنان أو جبال متن لبنان المناوحة للبحر والماء يتفجّر منه من مغارة فى أعلاه ويتصبب من هناك فى شفير عال أمامه الفضاء التام الى البحر. وعلو هذا الشفير المقطوع نحو من ٣٠٠ متر. ومنظر شحات باشراف جبلها واقبالها على البحر وعلو شفيرها الذى تجرى خلاله عين شحات وعيون أخرى هو من أجمل مناظر الدنيا. وأرض شحات لقبيلة الحاسة التى منها نفر فى مرج بنى عامر بفلسطين. وفيها زاوية كانت أجمل زوايا السنوسية مبنية على حافة ذلك الشفير الشاهق بتنا فيها ليلة يوم كنا فى جهاد طرابلس سنة ١٩١١ وكان شيخها يومئذ سيدى الدردفى من كبار الطريقة السنوسية وكان لهذه الزاوية أحسن أراضى شحات. وشحات هذه أو « سيرنّا » الشهيرة فى القدم بناها التيريون من يونان سنة ٦٣٠ قبل المسيح وصارت مدينة عظيمة تضاهى قرطاجنة ونبغ فيها فلاسفة وحكماء منهم اريستيب Arystippe الذى نسبت اليه الفلسفة السيرنيّة وغيره. وقيل بناها اليونانيون سنة ٦٦١ قبل الميلاد وكان رئيس هؤلاء اسمه باتوس و بقيت دولتهم هناك ٢٠٠ سنة وخرج منها عشرون ملكا أفضلهم باتوس الثانى. هذا وغربى نهر ماره واد يقال له « الخبز » فيه عيون كثيرة منها عين اسكندر وعين الحى وعين القبة وعليها بناء قديم متقن. وقد بتنا عندها ليلة فى أثناء اختراقنا للجبل الأخضر من معسكر المجاهدين فى درنة الى معسكر المجاهدين فى بنغازى. ثم عين أم قديح وعين زاوية بشارة وهى زاوية سنوسية مشايخها آل فركاش مررنا بها فى تلك السياحة. ثم عين الجريوله وأبو شمال فى محل يسمى الفرش. وأرض الدرياس فيها عيون جارية منها عين القيقب وهناك قصر قديم فيه بقايا مدافع قديمة رأيت على بعضها تاريخ سنة ١٨٠٤ فيما أتذكر. وللعين ميزاب من داخل القلعة وميزاب وحوض من خارجها وماؤها بارد كأحسن مياه لبنان. وقد بتنا عند قيصر

القيقب هذا ليلة واحــدة ونحن صادرون عن سهل بنغازى الى جبل درنة . وكان ذلك فى شهر أغسطس أى ابّان الحرّ ومع هذافقد اضطررنا أن نشعل النار أمام خيامنا طول الليل اتقاء البرد . ثم عين لالى فعين الفيدية فعين زوية فعين باطية وكلها غربى درنة على مسيرة يومين للفارس وعليها زرائع وجنان وبساتين . هذا وفى سهل « دفنة » معطن ماؤه ينبع من الأرض [1] ومعطن فى بلوك باش ومعطن فى مرسى طـبرق ومعطن فى العودة غربى طبرق ومعطن فى عقيـلة أبى حسنا وكلها فى سيف البحر . وعلى ساحـل البحر أيضاً عين الغزالة والى الغرب منها معطن اسمه الشقيق ثم سانية التميمى قبلى خليج بمبا والى الغرب منها عقيـلة التميمى ثم أم ارزم [2] وهى عين ماء نضّاخة عليها بسـتان عظيم وزاوية للسنوسية بتنا فيها ليلة من ليالى رمضان منصرفنا من برقة فى أوائل حرب البلقان . وجماعة هذه الزاوية عائلة مطرودة . ثم الخربية غربى أم مرزم وغربيها زاوية أم عفين بها زاوية للسنوسية وعين جارية تبعـد عن الأولى نصف ساعة . وكل هذه الأماكن مناوحـة للبحر على مسافة ساعة ونصف منه . ثم وادى جنين فيه معطن قبلى ملاحة رأس التين يبعد عن البحر مسافة ساعة ونصف ساعة أيضاً . والى الغرب من وادى جنين معطن السوينية . والى الغرب من السـوينية وادى الغرابى فيـه معاطن عـدة . والى الغرب من الغرابى عـين مرطوبة غزيرة جارية عليها أشجار وزرائع وهناك زاوية عظيمة للسنوسية بتنا عنـدها ليـلة فى طريقنا الى معسكر انور فى عين منصور . وغربى مرطوبة وادى بلغرّاف فيـه معطن وهـذه الاماكن هى على مسافة ثلاث ساعات من البحر . وغربى بلغرّاف وادى بالصفا والى الغرب منـه عيون البقر خمسة معاطن وثلاث آبار . وغربى عيون البقر وادى المنحر الذى فيه عين منصور الذى كان فوقها مخيّم أنور أيام جهاد طرابلس سنة ١٩١١ الى ١٩١٢ مسيحية وجميع هذه المياه هى فى أراضى قبيلة العبيدات

وأما مدينة درنة على ساحل البحر فهى بلدة شامية فى مياهها وفواكهها وزرائعها وفيها التـين والرمان والعنب والنخيـل والتفاح والـكمثرى ورمانها موصـوف بجودته . والعنب أنواع كثيرة منـه الزيبي وبيض الحمام والتركى والبيوضى والسـوادى وزق

---

(١) المعطن فى اللغة مناخ الابل حول الماء

(٢) والارزم الريح ويجوز أن يكون أم مرزم وهى بمعنى الريح أيضاً

الطير وغيرها

هذه نبذة مما علمناه من المعلومات الجغرافية المتعلقة بالجبل الأخضر وما أخذناه من أفواه الثقات من أهل تلك البلاد . وأما طول هذا الجبل من الشرق الى الغرب فقد سرنا من أول الجبل مما يلى زاوية مرطوبة الى سهل مدينة بنغازى فى ١٢ يوماً كل يوم كنا نسير من ست الى سبع ساعات . وقيل لنا ان عرضه من البحر الى الصحراء مسيرة يومين. وهو اسم طابق مسماه اذ كيف توجهت وقع نظرك على مروج خضر كالزمرد وغاب اشب متلفّ عظيم السرح فينان الدوح يسير الراكب مساوف طوالاً بالأيام لا بالساعات وهو فى ظل الشجر . وقيل لنا انه طالما شبت النيران فى الغابات فبقيت تأكل منها أياماً ولم يشعر الناس أنه نقص منها شئ . ويروى عن سيدنا عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه لما فتح مصر ومنها سار الى برقة وطرابلس وفتحهما لم يعجبه مكان كالجبل الأخضر وقال : لولا أموالى بالحجاز ما اخترت مكاناً للاقامة الاالجبل الأخضر . وأكثر الشجر الذى هو فى هذا الجبل هو من الأرز والصنوبر والعفص وفيه غابات عظيمة من الزيتون البرّى وفيه أشجار باسقة كثيرة متنوعة تعلو الشجرة منها نحواً من ٢٠ الى ٢٥ متراً . فلا عجب اذا توجهت رغبة الطليان الى استعمار هذا الجبل بنوع خاص وكانوا قد رأوا الوسيلة الوحيدة لانفرادهم بحيازته أن يجلوا عنه جميع قبائل العرب التى تسكنه . ويغصبوا تلك الأراضى من أيديهم غصباً ويصير وهم الى فلوات لا ماء ولا كلأ الا ما ندر ليكون مصيرهم الانقراض ولا يبقى على الطليان خوف من كرة العرب عليهم لاسترجاع أراضيهم

وأما قبائل العرب التى هناك فكلهم جاءوا من جزيرة العرب فى أيام الفاطميين كما سيأتى . ولقد تبدلت أسماء الكثير من بطونهم وأفخاذهم بكرور الأيام ونحن نذكر الآن أسماءهم وتقاسيمهم على حالتهم الحاضرة ثم نعقب ذلك بأسمائهم وتقاسيمهم فى الأعصر الماضية للمقابلة بين الغابر والحاضر فنقول :

هؤلاء العرب ينقسمون الى قسمين الأول يقال له « السعادى » والثانى يقال له المرابطون . والفرق بينهما أن السعادى أشبه بالعائلات الممتازة أو الحاكمة وان المرابطين أشبه بالاهالى الذين تحت الحكم . وتسمية القبائل الممتازة بالسعادى هى أن عقار قد ولد هذه القبائل من سعدى وهى امرأة هلالية فيكون بنو هلال اخوال السعادى

هكذا يروون . فالسعادى منهم القبائل التي يقال لها ولد على وكل هؤلاء فى داخل الديار المصرية منتشرون من مريوط الى السلوم . وهم ثلاث فرق أولاد على الابيض وأولاد على الاحمر وأولاد على خروف . وهؤلاء أولاد على خروف من فروع أولاد على الأبيض . وأشهر بطون أولاد على الأبيض الصناقرة والمغاورة والموامنة والعجارمة والافراد . وأما أولاد على الاحمر فهم القيسات والحشيبات والكميلات وأبو سنينة وهؤلاء ينقسمون الى أفخاذ العراوة والقطيعة والمحافيظ

ولأولاد على مرابطون أى تَبَع كما للقبائل السعادى التى فى برقة ومرابطو أولاد على هم العوامة والزعيرات والموالك وحبّون والحوته وسمّالوس والمنفه وكلهم فى أرض مصر

وأولاد على مع مرابطيهم يبلغون نحواً من مائة ألف نسمة ولهم نحو من عشرين زاوية يديرها السادة السنوسية كل فرقة منهم تختص بزاوية

ثم من السعادى القبائل المسماة « بالحرابى » وهم ضمن حدود برقة وهؤلاء ينتسبون الى حرب بن عقار من ولد سليم بن منصور من العرب العدنانية

وهم عدة قبائل العبيدات والبراعصة والحاسة والدرسة وفائد

فالعبيدات ينقسمون الى بطون منها عائلة غيث ومنها عائلة مريم الذين فى جوار طبرق كان منهم شيخ مشهور يقال له المبرى استشهد فى واقعة مع الطليان قبل وصولنا الى هناك بقليل . ومنهم البناين ومنهم العواكلة أى شاهين وعوكل وهذان البطنان يقال لهما عائلة عبيد . ومنهم مسعودة وهم عدةعائلات عائلة منصور وعائلة قابس وعائلة أبى ضاوى وعائلة مباركة وعائلة أبى جازية وعائلة عبدالكريم وعائلة رفاد وعائلة الميلط . ومن العبيدات أيضاً عائلة مزين (بضم ففتح) والعلالقة والعدال والشرائع وعبيد

وعدد رجال غيث نحو من أربعة آلاف مسكنهم من القيقب فى وسط الجبل الاخضر الى حد دفنهشرقاً . وعائلة مريم عددهم ١٥٠٠ رجل مسكنهم من طبرق الى دفنه . والعواكلة عددهم أربعة آلاف مسكنهم من القيقب الى دفنه . والشاهين ثلاثة آلاف منزلهم من المخيلة الى السلوم . وعائلة منصور من درنة الى أم مرزم شرقاً وهم ثمانية آلاف وبالقرب منهم قابس وهم خمسمائة . وأبو ضاوى زهاءألفين منزلهم غربى درنة بجوار زاوية بشارة . ومباركة عددهم ألف فى ناحية القبة غربى أبى ضاوى . وأبو جازية شرقى درنة فى ناحية خليج بما

عند زاوية مرطوبة وهم ١٥٠٠ ويليهم عبد الكريم وهم ألف وخمسمائة أيضاً . ويليهم رفاد وهم كذلك ١٥٠٠ رجل . ويليهم الميلط وهم ٥٠٠ وكلهم فى ناحية بمبا

وأما عائلة مزين ففى سبخة رأس التين من بمبا وعددهم زهاء ألفين . واما العلالقة فخمسمائة منهم فريق بالفرش غربى درنة وفريق من البطنان غربى طبرق . والعدال الف رجل وهم ينزلون بقرب العلالقة

ومن العبيدات عدد غير قليل فى الديار المصرية . فالشرائع منهم ثلاثة آلاف ويقال أكثر فى الفيوم . ومن عبيد وعائلة مريم نحو من ١٥٠٠ فى الفيوم أيضاً . ويقال ان من العبيدات فخذاً اسمهم الرزنا نحو من ١٥٠٠ فى الفيوم أيضاً . ومن العواكلة فى الفيوم وفى كفر الزيات ١٥٠٠ رجل . ومن الشاهين فريق فى الفيوم يقال لهم الشلقات . ومن أبى جازية نحو ٥٠٠ فى الديار المصرية . ومن رفاد زهاء ٦٠٠ فى دمنهور ومن مزين ٥٠٠ فى البحيرة ومن عائلة مريم ٥٠٠ فى طنطا ومن العلالقة فى العقبة والفيوم والبحيرة ألف وخمسمائة رجل ومن العدال ألف رجل فى الفيوم وفى مريوط

وبالجملة يبلغ عدد قبيلة العبيدات فى الجبل الأخضر والديار المصرية من ٤٠ الى ٤٥ الف مقاتل هذا بحسب الروايات التى تلقيتها من المرحوم صالح سركيوه من وجوه درنه ومن غيره من العارفين بأحوال ذلك القطر لأنى حيث حللت كنت أسأل وأبحث

وقد رووا لى أيضاً ان العبيدات ينقسمون الى ضنى بنينه وضنى واعر فمن ضنى بنينه العواكلة والشاهين . وان العواكلة منهم عائلة بركات وعائلة خليل وعائلة سجيّع وعائلة أبى فسيخة وعائلة عبدالكريم وعائلة سعدى . ويقال ان أصل العواكلة من حرب من الحجاز . وقيل لى ان العواكلة والحوته والجرارّة والتراكى كلهم من سليم بن منصور

واما الشاهين فعائلة المجاوم وعائلة غاضرات وعائلة حبيب

. بطون عائلة غيث عائلة الخادم وعائلة الفضيلة وعائلة حسين الفرخ وعائلة ابراهيم الفرخ وعائلة الصغير وعائلة ابى نظارة وعائلة جبر وعائلة عويضة وعائلة عبد الله وعائلة محمود وعائلة ابن صيت وزاويتهم زاوية ترت ـ وكان شيخها يوم كنا هناك سيدى محمد الغزالى ـ وقيل لى انهم يناهزون عشرة آلاف رجل

وعائلة غيث هم من ضنى واعر . وكذلك من ضنى واعر مسعودة أى عائلة منصور

ورفاقها ومن ضنى واعر عائلة مريم وعائلة مزين وعبيد . ويقال ان العلالقة والعدال ليسوا فى الأصل من العبيدات وانما انضموا اليهم والتحقوا .

وللعبيدات مرابطون كما تقدم . وهم كثير والعدد مثل العبيدات وربما أكثر فنهم قبيلة القطعان وأولهم الرحامنه منهم ستة آلاف رجل بين دفنة والعقبة . ويليهم عائلة بريدان وهم ثلاثة آلاف رجل منهم الثلثان فى العقبة ودفنة والثلث فى أبى حمص بمصر . ومن القطعان عائلة أبى سعيده وهم زهاء الفين فى دفنة والبطنان ومنهم نحو الف فى مريوط والبحيرة . ومن القطعان الرخامى منهم ٥٠٠ بناحية بمبا ونحو من الف نازلون بين العقبة ومريوط . ومن القطعان المعابدة منازلهم من العقبة الى مريوط وهم نحو من ثلاثة آلاف . ومن القطعان عائلة الفزّار نحو من الفين فى العقبة أيضاً . ومما يرويه الناس هناك أن القطعان هم من ذرية كعب الأحبار

ومن مرابطى العبيدات المنفه وهم خمسة آلاف رجل منهم العلوم ومنهم مسيكه ومنازلهم من البطنان الى مصر . ومنهم عائلة الخائب زهاء خمسمائة فى برقة ومنهم عائلة الحاج رجب المنفة فى برقة وهم نحو من الف

ويقال ان اصل المنفه هؤلاء هم من بنى هلال الا عائلة المقورى فانهم أشراف هاشميون ومن مرابطى العبيدات الموالك منازلهم من دفنة الى مريوط ويقال انهم نحو من خمسة آلاف ومن مرابطى العبيدات عائلة عبدالواحد الجرارة مسكنهم بدفنة والعقبة وهم ١٥٠٠ رجل وعائلة عبدالسميع عددهم الف رجل بين دفنة والبطنان . ومنهم عائلة أبى حليمة زهاء ٦٠٠ فى البطنان ودفنة . والسنينات زهاء الف هناك أيضاً ومنهم أناس فى بر مصر

ومن مرابطى العبيدات قبائل الحوتة منهم عائلة الديدانى الف رجل بالجبل الأخضر ثم الجبيهات وعددهم أيضاً نحو الألف ومسكنهم بالقيقب فى الجبل الأخضر . ثم الصوانع وعددهم ٥٠٠ رجل ثم الدقش وعددهم ٢٠٠ وهم أيضاً من سكان الجبل الأخضر . ثم الحوته النفوفه أكثرهم فى بر مصر ومنهم فرقة بالبطنان زهاء ٥٠٠ أما الذين فى بر مصر فنازلهم من العقبة الى مريوط وهم يناهزون ستة آلاف رجل . ثم المرازقة وهم فى البطنان نزر نحو من ٥٠٠ ولكن فى أرض مصر يبلغون خمسة الى ستة آلاف . ثم الشرسات وهم زهاء الفين من العقبة الى البحيرة

ومن مرابطى العبيدات الشواعر منهم الغوالب عـددهم الف رجل وهؤلاء فى دفنة ومنهم الف أخرى فى داخل حدود مصر . ومنهم شواعر قطيشة وهم أيضاً فى دفنة وعددهم يبلغ الالف ومنهم الف أخرى بين العقبة ومريوط . ومن الشواعر الودّاس وهم زهاء ٢٠٠ فى دفنة ومنهم ٥٠٠ من العقبة الى مريوط . ثم عائلة زائد الشواعر ٥٠٠ فى وادى درنه و٥٠٠ من العقبة الى مريوط . وقبيلة عمر الشواعر نحو من الف فى الجبل الأخضر ومنهم نزر فى مصر . ثم اللامشة بالجبل الأخضر وهم نحو من الف والعسيرات وهم ٥٠٠ ومسكنهم فى الجبل الأخضر والطوارسة ومنهم الف فى دفنة والبطنان والف أو أكثر من العقبــة الى مريوط . وكل هؤلاء هم الشواعر وهم جميعاً زهاء عشرة آلاف مقاتل .

ومن مرابطى العبيدات الزعيرات ومنهم ٢٠٠ فى بمبا و٨٠٠ فى برمصر وعائلة القرّى مسكنهم بمبا وهم فيها ٥٠٠ ومنهم بمصر نحو من الف

ومن مرابطى العبيدات الشلاوية ومنهم نحو ٢٥٠٠ داخل الجبل الأخضر و٥٠٠ فى أرض بمبا ومنهم الف فى مديرية البحيرة بمصر . والتراكى وهم فى الجبل الأخضر وعددهم الف رجل . وهناك قبيلة اسمها القبائل منهم بالجبل الأخضر الفان وخمسمائة ومنهم بأرض مصر ٥٠٠ رجل . وجميع مرابطى العبيدات فى الجبــل الأخضر ومصر يناهزون سبعين الف مقاتل حسبما روى لى الثقات وعليه يكون العبيدات مع مرابطيهم نحواً من مائة وعشرة آلاف وأكثر أى يزيدون على أولاد على

وقيل لى فى تقسيم العبيدات رواية أخرى تختلف عن الأولى وهى انهم من ثلاث سلائل ضنى سعدى وضنى أبى امامة وضنى غيث . وقالوا : ان سعدى من بنى هلال وزوجها هو عبيد فالعبيدات أخوالهم بنو هلال . قالوا : وضنى سعدى منصور وقابس ومباركة وأبو ضاوى وعبد الكريم وأبو جازية ورفاد . قالوا وضنى أبى امامة عائلة مريم ومزين وحميـده ويوسف والعبيدى والثور وفاطمة وأبو جود وصالح . قالوا : وضنى غيث هم عائلة عبد الله وهو أكبر ولد غيث ثم عائلة محمود ثم عائلة الرحما ثم عائلة أبى فضيلة ثم عائلة ماضى ثم عائلة الخادم ثم عائلة جبر عويضة ثم عائلة جبر مطيريد ثم عائلة ابراهيم الفرخ ثم عائلة حسين الفرخ ثم عائلة بصيص الفرخ ثم أبو نضارة

قالوا : والبنابن هم العواكلة والشاهين . فالعواكلة هم عائلة بركات بلجا وعائلة سميع

وعائلة عبدالكريم ودادى والابعج ودادى وخليل ودادى والهيب ودادى وعائلة مريكب وعائلة مقعور الطاقية والحالشة

والشاهين عائلة ذويب وعائلة المجلوم وعائلة غاصرات وعائلة حبيب وعائلة جبيره وعائلة الأعور وعائلة أبى قفة وعائلة أبى قوبة

هذا وقد سألنا صديقنا على افندى العواكله قائم مقام قصبة المرج أيام جهاد طرابلس عن نسبه فى العواكلة فقال : على بن حامد بن سعيد بن صالح بن سميع بن فكيرين بن سعيد ابن ادريس بن أبى عوكل بن عبيد بن حرب بن عقار من بنى سليم

وقيل لى فى مرابطى العبيدات انهم القطعان وهم الرحامنة وأبو سعيده والفزار والرخامى وزاغوت وأبو ترحى والمعابدة وبريدان والتراكى وقبيلة اسمها القبائل واللامشة وعائلة عمر الشواعر وعائلة زائد الشواعر وعائلة سليمان المرخى الشلاوية وعائلة على الشلاوية وعائلة الخواجه وعائلة اسرافيل وعائلة بركات وقبيلة الصوانع وعائلة النعيمه والجهدى وقبيلة الحوتة منهم الجرارة والنفوفه والمرازقة والطيره والمقاعى والشرسات والعميرة وعائلة بلل والسنينات والديدانى وكل هؤلاء ضنى حويت . وأولاد منيف أو المنفا وهم مسيكه وعلوم فالمسيكة الكحشات وعائلة سباق والدبابسة وعائلة المصمود وعائلة أبى خديجة وعائلة المقورى والجحيشات . وأما العلوم فعائلة رجب وعائلة الجزار وعائلة الخائب وعائلة علوش والعرابات والرقيوات وعائلة الغضارف وغيرها

هذا مانذكره عن قبيلة العبيدات أكبر قبائل الجبل الأخضر ومرابطيها ونعود الى القبائل الأخرى من الحرابى ونتكلم عن الحاسة فنقول :

الحاسة ينقسمون الى قساسمة وقلابطة . فالقساسمة هم الشباركة والبخايت هم الذين منهم عقيلة الحاسى الزعيم المشهور الذى كان فى مرج ابن عامر بفلسطين ولا تزال ذريته فيها وهم المحامدة والمواسى . فالشباركة هم عائلة عبدالله وعائلة مغاتة ثم ان عائلة عبدالله هى عبارة عن عائلات غزالة وعقيلة وأبى قفة ونائف والأعور وشريعة والميار وجبر وشدة وأبى محجوبة وزلط وغويزى والمجذم وأبى الكسيرات .

وأما عائلة مغاتة فهى عبارة عن عائلات موسى الفيشى ومنى وسعيد والرقاعة وأبى جطيلة وخالد

وأماالبخايت فهم عائلة غرير والتوازرة . فعائلة غرير هم عائلات عمر وأبي حناء وأبي عيسى والنكاع والعيورة . وأما التوازرة فعائلات الجمّاعة وعبد الصادق وبرعاص والطويل وعبدالحاكم وأبي قنتلة

وأما القلابطة فهم المحامدة وهؤلاء هم عائلة ابراهيم وعائلة المساطل فعائلة ابراهيم هم عائلات المربّط وهيبة وكمش والقريد . وأما المساطل فهم أبو كفيفة والدويلي والسليليخ وعائلة بالربعي وعائلة وافي

ثم ان القسم الثاني من القلابطة هم المواسي وهؤلاء فريقان عائلة نقو وعائلة الحرار فعائلة نقو هم الرفادي وسعد وعائلة الحرار هم أبولويّة وحويج وأبو سدادة .

وأما الحاسه فكلهم زهاء تسعة آلاف رجل منهم ثلاثة آلاف شباركة والفان بخايت وأربعة آلاف قلابطة نصفهم محامدة والنصف الآخر مواسي . ومنازل الحاسه أجل منازل الجبل الأخضر شحّات وسوسه والدرباس غربي درنة

وللحاسة مرابطون منهم مسامير الرزقة منهم في الجبل الأخضر ومنهم في بمبا شرق درنه وعددهم الف وخمسمائة رجل . ومن مرابطيهم اسماعيل المسامير بجوار شحات زهاء خمسمائة رجل . ومنهم اسماعيل التراكي مائة رجل بجوار القيقب . ومنهم أبو رفيعة ٢٠٠ رجل بجوار الفايدية

ومن أهم قبائل الحرابي قبيلة البراعصة

وهم قسمان احمد وجليد . فجليد تزوج خضرا ومغيربية . فولدت خضرا عائلة خضرا الذين بالفيوم . ومغيربية ولدت طامية الذين منهم حدوث وجلغاف وزائد والجويفي وعبد الرحمن وعائلة عبد ودائخه وحليمة واليتامى والمساعيد وعائلة عريف وعائلة خزاعل . ومن بطون البراعصة أولاد أحمد وهم الطلوح والظوافر وقندول ونائل و بلذان ومنهم عائلة حسين البراعصة . وعدد الجميع يتجاوز العشرين الف مقاتل وقيل لي ان البراعصة فيهم أناس من بني جمّاز اشراف حسينية أصلهم من السوارقية بقرب المدينة المنوّرة وقيل لي ان أصل البراعصة هو هكذا :

شريف اسمه حميّد بالتشديد من ذرية سيدي عبدالسلام بن مشيش من أولاد نائل من أهل الساقية الحمرا من المغرب الأقصى جاء قاصداً الحجاز للحجج فمرّ على الجبل الأخضر

وكانت امرأته حاملاً فلم يمكنها اكمال الطريق الى الحجاز فتركها فى بيت أحمد الحرابى من أهل الجبل الأخضر وذهب الى الحج وتوفى فيه و ولدت امرأته بعده ولداً اسمه برعاص لأنه كان متحركاً جداً(١) وهو طفل . فبرعاص ولد مسعوداً وحسيناً وعبد المولى ومخلب فمن ذرية مسعود حليمة وطامية وجلغاف وحدوث ومنهم عائلة عريف واليتامى وعائلة خزاعل وذرية حسين وذرية عبد المولى وقد انقرضت ذرية مخلب . وأما ذرية أحمد الحرابى فهم الطلوح والظوافر وفندول

ولما كنت فى معسكر أنور بعين منصور أردت السفر الى معسكر بنغازى وكانت لى معرفة بسيدى محمد العَلَمى شيخ زاوية البراعصة ومن أصهار السادة السنوسية وكبار رجال هذه الطريقه فتكلمت معه فى أن يجد لى من عند جماعته ظهراً لنقل خيامى وأسبابى فاستأجر لى رجلاً من البراعصة اسمه على بن محمد من عائلة حسين وحمل هذا أثقالنا على جماله وفى أثناء الطريق مال بنا على نجعه وسألته عن نسبهم فى النجع الذى استرحنا فيه فقال لى : انه على بن محمد بن على بن يوسف بن أبى خشيم بن عبد بن القادر بن على بن محمد بن حسين بن برعاص . فحزرنا ان برعاص قد عاش فى أواسط القرن الحادى عشر للهجرة . وللبراعصة مرابطون السعيط و العوامّة و الحسانّة و العلاونة وهم عدة آلاف

وأما الدرسه فيقال انهم أولاد ادريس ولد عقار بن حرب . ولقد خلف عائلة عادل وعائلة حامد والخشبات وعائلة مسعود وعائلة عبد وعائلة حسين أبى عوينه وعائلة السريريك وعائلة دغار وعائلة الشلمانى وعائلة دايخه وعائلة الحجازات . ومجموع الدرسه نحو عشرة آلاف مقاتل وقيل ١٥ الفاً ومنازلهم عند زاوية القصرين والعرقوب ومنهم فريق الى جهة بنغازى ولهم تسع زوايا من الزوايا السنوسية كل فخذ منهم له زاوية وأما فائد من الحرابى ففائة رجل لاغير وكانوا قبيلة كبيرة لكن على أثر عداوة بينهم و بين العواقير جلا أكثرهم الى مصر

وهناك قبيلة البراغيث وهم برغوث الكبير والعبيد والسراطنة و يقال لهم البراغيث الحر والبدور والعبادلة وهم يتجاوزون عشرة آلاف

و بين مساكن البراعصة من جهة الغرب و بين قصبة المرج قبيلة يقال لها المسامير مستقلة بذاتها يقال أصلها من الاشراف

(١) تبرعص اضطرب وتحرك تحتك وقيل التبرعص هو اضطراب العضو المقطوع

هذه تقاسيم قبائل الحرابى ومرابطيهم بقدر ما وصل اليه علمنا . وهناك فريق آخر من عرب برقة يقال له الجبارنة أى أولاد جبرين وهم العواقير والمغاربة والعرفا والعبيد والعريبات وطنهم بلاد بنغازى

فالعواقير ثلاث فرق : السديدى وابراهيم ومطاوع . فالسديدى أربعة عشر بطنا : عائلة سليمان وعائلة العبار وعائلة هويدى والفوارس والعمارنة والحدادة وعائلة ماضى وعائلة رابح والتواجير وعائلة غريبيل وعائلة دينال وعائلة الاديرع والقطارنة وسعيط

وعائلة ابراهيم هم عائلة اللواتى وعائلة الغَمَق وعائلة النمر وعائلة هذيلة وعائلة الحلاق وعائلة قنفوذ وعائلة عازّة وعائلة مشرى والبراغثة والبدور وعائلة الغزالى وسعيط الشمول

وأما مطاوع فهم عائلة صالح والعشيبات والكواديك وعائلة الوزرى والخفيفات وعائلة صالح ودرمام وعائلة زيد وعائلة على والفُصّيات والعبادلة وعائلة درقة وعائلة فركاش وعائلة القطعانية وعائلة الخشمى وعائلة السويرى والعمامرة ومبيديل والشويطرة وعائلة معيوف

وأما المغاربة فهم الرعيضات وعائلة على وعائلة عليوه وعائلة صبح والعقارب وعائلة الاسود وعائلة الباسل والقبائل والمشيطات والعريبات

وأما العرفا فهم السلاطنة والطرش . وأما العبيد فهم عائلة شعوه واليتامى وعائلة الدخانى وعائلة أبى شلوفة وعائلة حماد

والعواقير من أكبر القبائل يناهز عددها ثلاثين ألف مقاتل فأكثر وأكثرها عدداً السديدى ثم عائلة ابراهيم ثم مطاوع ومنازلهم من مدينة بنغازى الى مسوس جنوبا وهى مسافة ٢٤ ساعة ومن الشرق الى الغرب مسافة ٣٠ ساعة . وأما المغاربة فيقال انهم ٢٥ ألف مقاتل ومنازلهم من اجدابية الى عمالة سرت ومنهم كثير فى نفس سرت ويسير الانسان فى أراضيهم خمسة أيام من الشرق الى الغرب وأما العرفا فعددهم ألف وخمسمائة ومحلهم المرج . وأما العبيد فهم ثلاثة آلاف ينزلون قبلى المرج

وللعواقير قبائل تابعة او مرابطون فالسديدى مرابطوهم الشهيبات وعائلة ابراهيم مرابطوهم الفواخر . ويقال ان الشهيبات هم من ذرية الصحابى سيدنا عكاشة . ويقال ان الفواخر هم من عرب اليمامة . ومن مرابطى عائلة ابراهيم الجرارّة ومن مرابطى عائلة صالح من مطاوع بعض من المنفة . ومجموع مرابطى العواقير ٢٠ الف مقاتل

ومن عرب برقة الجلالات وهى قبيلة مستقلة بذاتها نحو من ٤٠٠ رجل

ولنذكر الآن قبائل عرب برقة حسبما كانت فى القديم لنعلم مراجع أنسابها ونقابل القديم بالحاضر فنقول :

جاء فى كتاب « نهاية الارب فى معرفة قبائل العرب للقلقشندى » مايلى :

« بنو أحمد بطن من بنى هيب من سليم من العدنانية مساكنهم مع قومهم هيب فى أطراف برقة مما يلى الغرب . قال ابن سعيد : ولهم اجدابية وجهاتها وهم يمرهم حجاج المغرب »

قلت : لا يبعد أن يكون بنو أحمد هؤلاء هم أصل القبيلة التى تسمى اليوم المغاربة والتى لها اجدابيةوجهاتها . ثم انمن البراعصة فرقة يقال لها بنو أحمد هم أصل قبيلة البراعصة كما تقدم الكلام عليه . ويوجد فى ترهونة من عمل طرابلس قوم يقال لهم بنو أحمد لا ندرى هل هم منهم أملا ؟

قال : « وأولاد سلاّم بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

قلت : يوجد الآن فى برقة الحمراء عائلة سلاّم

قال : « أولاد محمد بطن من صبيح من فزارة من العدنانية ومنازلهم بلاد برقة وهم فرق كثيرة » قلت : يوجد اليوم قوم اسمهم الصبيحات فى الغوارشة فى الطرف الغربى من مدينة بنى غازى ويخرج منهم هناك ستمائة مقاتل

قال : « البرْكات بطن من لبيد من سليم من العدنانية ومساكنهم مع قومهم لبيد بلاد برقة »

قلت : يوجد الآن البركات فى أطراف كمينس غربى بنغازى على مسافة عشر ساعات منها . ثم ان فى ترهونة وفى مصراطة أقواماً اسمهم البركات وأهم بادية مصراطة منهم وكذلك منهم أناس فى سرت

قال : « البشره بطن من لبيد أيضاً ومنازلهم مع قومهم برقة أيضاً »

قلت : لا نعلم هل الناحية المسماة « بشارة » فى الجبل الأخضر فى أرض العبيدات منسوبة اليهم أملا ؟ فيجوز أن تكون « بشارة » ممدودة من « بشرة »

قال : « البلايش بطن من سليم من العدنانية منازلهم بلاد برقة »

ثم قال : « الجواشنة بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم بلاد برقة وهم غير

الجواشنة الذين مساكنهم الحوف من الشرقيــة بالديار المصرية لأن الجواشنة هؤلاء (أى الذين بمصر) هم بطن من الحميديين من هلبا سويد من جذام من العرب القحطانية»

قلت : يوجد الآن فرقة من قبيلة المغاربة المارة الذكر يقال لها عائلة أبى خادة منهم قوم اسمهم الجواشنة

قال : « الحدادّة (بتشديد الدال الثانية) بطن من لبيد من سليم من العــدنا نية منازلهم بلاد برقة »

قلت : يوجد الآن الحدادّة من العواقير ويوجد حدادّة فى نفس بنغازى ويوجــد حدادّة فى مصراطة

قال : « الحساسنة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم برقة »

قلت : يوجد الآن حساسنة فى جهات اجدابية

قال : « الفحوص بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم بلاد برقة »

قلت : موجودة الآن عشيرة اسمها « الفحاصى » غربى بنغازى لعلهم هؤلاء

قال : « الدروع بطن من لبيد من سليم من العدنانيــة مساكنهم بلاد برقة مع قومهم »

قلت : موجود الآن عائلة الاديرع من فرقة السديدى من العواقير . ومما لا يجوز أن ننساه أن أسماء العلائلات والقبائل تتغير وقد تتحرف عن أصلها . ثم مما لا يجوز أن ننساه ان القبيلة كثيراً ما يدخل فيها أقوام ليسوا منها فى الأصل ثم يندمجون فيها تماماً

قال : « الرقيعات بطن من لبيد من سليم من العــدنانية منازلهم مع قومهم لبيد بلاد برقة »

قلت : فى الحاسة اليوم عائلة الرقاعة

ثم قال : « الزرازير بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

ثم قال : « السبوت بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

ثم قال : « السوالم بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

قلت : يوجد الآن عشيرة اسمها السوالم فى عائلة مطاوع من العواقير منهم بأرض بنغازى ومنهم بمصراطة

قال : « الشبله بطن من لبيد من سليم من العدنانية بلادهم برقة »

قلت : يوجد الآن جماعة اسمهم « الشبلة فى قبيلة المغاربة باجدابية »

قال : « الشواعبة بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

قلت : فى قبيلة المغاربة عائلة اسمها الشعيبات

قال : « الشعوب بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم برقة »

قلت : فى الدرسة الآن عائلة شعيب وفى المغاربة الشعيبات فلا نعلم هل الشعوب هم هؤلاء أم أولئك أم هو تشابه أسماء ؟

قال : « الشنغة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية منازلهم مع قومهم صبيح بلاد برقة »

قلت : لا نعلم هل هى بنون فغين أم بنون فعين أم محرفة وأصلها « شععة » لأنه سيأتى ان من فزارة بطنا اسمهم الشععة

ثم قال : « الصريرات بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم برقة »

ثم قال : « العقيبات بطن من صبيح من فزارة من العدنانيـة منازلهم مع قومهم صبيح بلاد برقة »

قلت : فى غربى بنغازى اليوم قوم يقال لهم العقيب.

قال : « العواسى بطن من صبيح من فزارةمن العدنانية منازلهم مع قومهم صبيح بلاد برقة »

قلت : من العواسى اليوم فى نفس بنغازى وفى ترهونة

قال : «العواكلة بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم مع قومهم لبيدببرقة»

قلت : قد تقـدم ان العواكلة فرقة من العبيدات يسكنون القيقب وسط الجبـل الأخضر ومنهم الجبالية بكفر الزيات بمصر

قال : «العلاونة بطن من لبيد من سليم من العدنانية منازلهم مع قومهم لبيد ببرقة»

قلت : بلغنى أنه يوجد علاونة فى ناحية غريان بطرابلس ثم انه تقدم كون العلاونة من مرابطى البراعصة فى الجبل الأخضر

قال : « العـلاوى بطن من صبيح من فزارة من العدنانيـة منازلهم مع قومهـم صبيح ببرقة »

قلت : وفى العواقير عائلة « عليوه » فربما كان العلاوى هم هذه العائلة

ثم قال : « الغشاشمة بطن من صبيح من فزارة منازلهم مع قومهم صبيح برقة »

قلت : ويقول القلقشندى نفسه فى صبح الاعشى : « ان فزارة هو ابن ذبيان قال فى العبر : وكانت فزارة بنجد ووادى القرى ولم يبق منهم بنجد أحد ونزل جيرانهم من طيء مكانهم وذكر بأن بأرض برقة الى طرابلس الغرب منهم قبائل رواحة هيب وفزارة قال : وبافريقية والمغرب منهم الآن أحياء كثيرة اختلطوا مع أهله (الى أن يقول) : ومنهم مع سليم بافريقية طائفة أخرى أحلاف لأولاد أبى الليل من كعوب بنى سليم يستظهرون بهم فى مواقف الحرب ويقيمونهم لأنفسهم مقام الوزراء للملوك . (ثم يقول) : وفى برقة ببلاد هيب جماعة منهم نازلون بها ومنهم طائفة بصحراء المغرب »

قلت : لم أجد اسم « هيب » الآن الا اسم فرقة من العواكلة يقال لها « الهيب » يغلب على الظن انه بقية الاسم القديم الذى كان أعم وأشهر . والأسماء كالمسميات تشق وتسعد

ثم قال : « القيوس بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم بلادبرقة »

قلت : وفى أولاد على مرّ بنا اسم فرقة يقال لها القيسات إلا أن تكون مصحفة

ثم قال : « اللواحق بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم بلاد برقة »

ثم قال : « المساورة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم بلاد برقة »

قلت : من المساورة الآن فى نفس درنة وفى مصراطه

ثم قال : « المسامير بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مساكنهم مع قومهم بلاد برقة »

قلت : تقدم ذكر قبيلة مستقلة بنفسها اسمها المسامير تنزل الجبل الأخضر ويظن أن أصلها من الأشراف . فان كانت هى البطن الذى ذكره بحسب هذه الرواية ليست من الأشراف الفاطميين الا أن يكون دخل فيها بيت منهم كما يجرى كثيراً بين القبائل . ثم من مرابطى الحاسة قوم اسمهم المسامير . فأىّ المسامير هم الذين أشار القلقشندى الى انهم بطن من صبيح ؟ الجواب عنه متعذر

ثم قال : « المواحـدة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مسا كنهم مع قومهم بلاد برقة »

ثم قال : « المقادمة بطن من سليم مسا كنهم الجيزة من الديار المصرية ومنهم ببرقة والامرة فيهم الآن لأولاد التركية من بنى فائد »

قلت : يوجد اليوم فى العواقير عائلة اسمها « المقادمة » وأما « الترا كى » فهى قبيلة من قبائل الجبل الأخضر تُعد من مرابطى العبيدات . وللحاسة مرابطون يقال لهم بنو اسماعيل الترا كى

ثم قال : « والمواسى بطن من صبيح المقدم ذكرهم مسا كنهم برقة »

قلت : اليوم من الحاسة فرقة كبيرة اسمها المواسى . وفى المغرب الأقصى قبيلة اسمها المواسى

ثم قال : « الموالى بطن من لبيد من سليم من العدنانية مع قومهم لبيد ببرقة »

ثم قال : « النبلة بطن من لبيد من سليم من العدنانية مع قومهم لبيد ببرقة »

ثم قال : « النحاحسة بطن من صبيح من فزارة من العدنانية مع قومهم ببرقة »

قلت : النحاحسة وقد يلفظونها النعاعسة قبيلة معروفة اليوم فى تاجورة بطرابلس

قال : « النوافلة بطن من لبيد من سليم من العدنانية مسا كنهم ببرقة »

قلت : فى جهات اجدابية وسرت قوم اسمهم النوافلة

ثم قال : « بنو بعجة بطن من هلال بن عامر بن صعصعة . قال ابن سعيد : منازلهم بين مصر وافريقية »

قلت : سمعت أنه يوجد اليوم بنفس بنغازى عائلة بهذا الاسم

ثم قال : « بنو ذياب من سليم من العدنانية . قال فى مسالك الأبصار : منازلهم من فاس الى طرابلس من بلاد المغرب . وذكر فى العبر أن منازلهم مابين فاس و برقة »

قلت : سمعت أن منهم الآن فى زوارة بطرابلس وجنوبى يفرن

ثم قال : « بنو زغب بطن من سليم من العدنانية ذكر ابن سعيد ان ديارهم كانت بين الحرمين ثم انتقلوا الى الغرب فسكنوا بافريقية بجوار اخوتهم بنى ذياب بن مالك ثم صاروا فى جوار بنى هيب »

قلت :يوجد الآن قوم اسمهم الزغيبات فىمدينة بنغازى

ثم قال : « بنو زنارة بطن من لواتة من البربر . قال فى مسالك الأبصار : مساكنهم فيما بين الاسكندرية والعقبة الكبيرة و برقة »

قلت : ويقول القلقشندى نفسه فىصبح الاعشىعند ذكر نسب البربر : ومن لواتة هؤلاء زنارة (بضم الزاى وتشديد النون والف ثم راء مهملة مفتوحة وهاء الآخر) وهم ولد زنارة من ولد برّ بن قيذار بن اسماعيل عليه السلام. وقال انه اخو هوارة وأكثر زنارة ببلاد المغرب ومنهم جماعة بالبحيرة وجماعة بالمنوفية . وقد عدّ الحمدانى من بطونهم بالبحيرة بنى مزديش وهم مزداشة و بنو صالح و بنو سام و وورديغة وغرهان ولقالا . وزاد بعضهم بنىحبون ووا كدد وفرطيطه وغرجومه وطازوله ونغات وناطوره و بنى السعوية و بنى أبى سعيد . وهم عرب بدر بن سلام . ومن لواتة أيضاً مُزاته (بضم الميم وفتحالزاى والتاءالمثناة فوق وهاء فى الآخر) وهم بنو مزاتة بن لواتة الأصغر ومنازلهم من البحيرة الى العقبة الكبيرة ببرقة »

قلت : وقبيلة حبون فى دفنة و بنو سعيدة هم فى تلك الجهات . ومن العواقير فرقة يقال لها عائلة اللواتى

ثم قال : « و بنوسماك بطن منالعرب عدهم الحمدانى فىعرب البحيرة و برقة والعقبة الكبيرة ولم ينسبهم فى قبيلة »

ثم قال : « بنو شماخ بطن من هيب من سليم من العدنانية قال ابن سعيد : منازلهم بالمحصَّب من بلاد برقة مثل المرج وطلميثه»

قلت : فى قبيلة المغاربة اليوم عائلة الشامخ لا نعلم هل الشماخ والشامخ واحد أم هو تشابه اسماء ؟

ثم قال :« و بنو عوف بطنمن بهتة قال الحمدانى : ومنهم بالصعيد والفيوم والبحيرة أناس كثيرة وفى برقة الى الغرب مالا يحصى »

ثم قال : « بنو فزارة بطن من ذبيان من العدنانية ومن بطونهم الآن أولاد محمد والجاعات والدمالى والشعوب والشعغة والعقبان والعواسى والعلاوى والغشاشمة والقيوس والمساورة والمسامير والمقادمة والمواحدة والمواسى والنحاحسة . قال فى العبر : وكانت فزارة

فى نجد و وادى القرى ولم يبق بنجد منهم أحد ونزل جيرانهم من طيء مكانهم وذكر ان بأرض برقة الى طرابلس منهم قبائل »

قلت : يوجد الآن فى برقة أولاد محمد ويوجد «الجماعات» فى سرت ويوجد فى الحاسة عائلة الجماعة بالتشديد ويوجد « الجميعات » فى اورفلة من عمل طرابلس وكذلك فى أولاد سليمان من العواقير . وأما العواسى فقد تقدم أن منهم اليوم فى بنغازى وفى ترهونة . وقد تقدم أن فى درنة اليوم قوماً اسمهم المساورة . وكذلك يوجد اليوم فى الجبل الأخضر قبيلتان باسم المسامير . وأما القيوس ففى أولاد على الذين بين الاسكندرية والعقبة فرقة اسمها القيسات . وأما المقادمة فيوجد الآن فى العواقير بطن اسمهم المقادمة . وأما المواسى ففرقة من الحاسة كما تقدم . وأما النحاحسة فيوجد اليوم فى تاجورة من طرابلس من يحمل هذا الاسم كما سبق القول عليه

ثم قال : « بنو قطاب بطن من لبيد من العدنانية مساكنهم مع قومهم برقة »

قلت : يوجد اليوم بنو خطاب فى الفواخر فى برقة ولانعلم هل هو الاسم نفسه محرفاً أم اسم آخر ؟

ثم قال : « بنو لبيد بطن من سليم من العدنانية مساكنهم برقة وهم خلق كثير لا يكادون يحصون منهم أولاد سالم والحواشبة وقطاب و بطون أخرى متسعة »

ثم قال : « بنو محارب من سليم من العدنانية ذكرهم فى العبر ولم يرفع نسبهم وقال : ديارهم ببرقة فى الشرق عن بنى أحمد المجاورين لبلاد المغرب الى العقبة الكبيرة والصغيرة »

قلت : يشبه أن يكون قاصداً ببنى محارب القبائل التى يقال لها اليوم الحرابى .

ثم قال : «بنو قرة بطن من هلال بن عامر بن صعصعة من العدنانية وذكرهم الحمدانى فى عرب الديار المصرية وقال : بلادهم اخميم من صعيد مصر . وذكرهم ابن سعيد فى عرب برقة وقال : منازلهم فيما بين مصر وافريقيــة . قال فى العبر : وكانت منازلهم ببرقة وكانت رئاستهم أيام الحاكم العبيدى لماضى بن مقرب . ولما بايعوا لأبى ركوة من بنى أمية بالأندلس وقتله الحاكم سلط عليهم الجبوش والعرب فأفناهم وانتقل من بقى منهم الى الغرب الأقصى فهم مع بنى جشم هناك »

وذكر القلقشندى بنى هلال فى صبح الأعشى فقال : « هم بنو هــلال بن عامر بن

صعصعة قال الحمدانى : وكان لهم بلاد صعيد مصر . وذكرهم ابن سعيد فى عرب برقة وقال : منازلهم فيما بين مصر وافريقية . ثم ذكر ماورد فى العبر مما جرى عليهم فى أيام الحاكم العبيدى وقال ان بحلب طائفةً منهم وانه صارلهم بلاد اسوان وما تحتها ولم يخصص منهم بنى قرة الا عندقوله : وباخيم منهم بنو قرة الى عيذاب وبساقية «قلته» منهم بنو عمرو و بطونهم وهم بنو رفاعة و بنو مجير و بنو عزيز و باصفون واسنه منهم بنو عقبة و بنو جيله »

وذكر القلقشندى نسب سليم الذى منه أكثر قبائل برقة فقال : «هو سليم بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان قال الحمدانى : وسليم أكبر قبائل قيس . قال فى العبر : وكانت منازلهم فى عالية نجد بالقرب من خيبر . ثم قال : وبافريقية منهم حى عظيم قال الحمدانى : مساكنهم ببرقة ممايلى الغرب ومما يلى مصر وفيهم الأبطال الأنجاد والخيل الجياد . قال فى العبر : وقد استولوا على اقليم طويل متسع الأطراف» . قلت : وقد ذكر فى صبح الأعشى انه كان لسليم من الولد بهته (بضم الباء الموحدة فى أوله وفتح المثناة بعد الهاء) ومنه جميع أولاده . وقد اتفقت الروايات على انه كان بنو سليم بن منصور بن عكرمة و بنو عقيل ابن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة و بنو تغلب بن وائل بن جديلة كلهم فى البحرين وكانوا أعظم القبائل هناك وكان أظهرهم بالكثرة والغلب بنو تغلب . ثم اجتمع بنو عقيل و بنو تغلب على بنى سليم فأخرجوهم من البحرين وآل أمرهم الى أن نزلوا بصعيد مصر ثم تقدموا الى برقة واستولوا عليها وانتجعوا جبالها الأخضر ولم يتركوا بها ولاية ولا امرة الا لمشايخهم . قال القلقشندى: «قال والدى رحمه الله : وقد عدّ لى بعض عرب برقة من بطونهم أولاد سلاّم وأولاد سليمان الركاب والبَشرة والبلانيش والجواشنة والحدادّة والحُوتة والدروع والرقيعات والزازير والبيوت والسوالم والشبلة والشواعبة والصريرات والعواكلة والعلاونه والقدوة والنوافلة انتهى »

قلت: تقدم أن من العواقير عائلة سليمان والحدادّة والرقيعات وتقدم أن الحوتة قبيلة من العرب المرابطين وتقدم ان العواكلة هم من فرق العبيدات . وتقدم ان بنى سلام منهم باجدابية وأما سائر الأسماء فمنها ما تغير بكرور الأيام وربما بقى ولكن لم يتصل الينا لأنه لا نقدر أن نقول ان الذين قد أعطونا هذه المعلومات قد أحاطوا بكل سكان برقة وطرابلس علما

قال المقريزىّ فى « البيان والاعراب عمن نزل بأرض مصر من الاعراب » : فاما بنو هلال فانهم بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان و يقال قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وقال المقريزى : و بأرض مصر عوف بن سليم بن منصور بن عكرمة بن قيس بن عيلان وهم نخذ . و بنو عوف بن بهر بن امرئ القيس بن بهثه نخذ . و بنو عوف بن فالح بن ذكوان بن ثعلبة بن بهثه نخذ . وعوف هؤلاء فى بلاد الصعيد وفى الفيوم وفى البحيرة وفى برقة الى بلاد المغرب منهم أمم لا تحصر كثرة

وقال المقريزى : « ومن سليم بنو عوف بن بهثة ما بين قابس و بلد العناب بالمغرب و بنو هيب بن بهثة اخوة عوف بن هيب ما بين السدرة من برقة الى حدود اسكندرية و بنو أحمد لهم عدد و يرجعون الى شماخ ولها العز فى هيب . ومن هيب سبال ومحارب و رئاستهما فى عزاز . ولهيب فى سليم عزة لاستيلائها على اقليم طويل خربت مدنه وصارت ولايته لأشياخهم وتحت أيديهم خلق كبير من البربر وفيهم طائفة الأبطال الانجاد والامارة فيهم فى أولاد عزاز بن مقدام »

قلت يغلب على الظن أن يكون « المقادمة » الذين هم من العواقير يرجعون الى اسم مقدام هذا وأن يكون « العازّة » يرجعون الى عزاز . ثم ظهر من كلام المقريزى هذا انه كان فى برقة بربر كثيرون وأن بعض القبائل العربية الآن مثل حبون مثلا أصلها بربر ثم قال المقريزى :

« وفيما بين الاسكندرية والعقبة الكبرى جماعة فائد وزنارة ومزاته وخفاجه وهواره وسمال ولبيد جماعة سلام وفزارة ومحارب والعلاونة وقطاب والزعاقية والبشرة والجواشنة والبعاجنة والقبايص وأولاد سليمان والقصاص ومنازلهم من العقبة الكبرى الى سوسة . ثم جماعة جعفر بن عمر وهم المثانية والميامنه وعرعره وعظيمه والعكمه والمزايل والمعزه ومن المعزه الجعافرة جماعه ابن عمر ومنهم البدارى أيضاً ومنهم السهاونة والجلده . وأولاد أحمد . ومنازلهم من سوسه الى بير السدرة وهى آخر حدود ديار مصر مسافتها من الاسكندرية نحو شهر بسير القوافل »

قلنا : جماعة فائد منهم نزر اليوم بالجبل الأخضر وجماعة فى الديار المصرية . ولقد

مرّ بنا أن زنارة هم بربر وهم أصل قبائل عدة مستعربة الآن مثل حبون . وأما خفاجة ففي اجدابية . وأما الهوارة فقبيلة شهيرة أصلها بربر . وأما فزارة فقد تقدم ذكرهم بطن من ذبيان واما محارب ففي هذا الزمان لا نعلم قبيلا في برقة وطرابلس اسمهم محارب الا ان كان المراد بهم الحرابي . والعلاونة قد مر أنهم موجودون الآن كما ان الجعافرة مشهورون في بلاد أورفلة من طرابلس ومشهور انهم من بني سليم بن منصور . وأما القُصَّاص ففي أورفلة وهون عائلة أبي قصيصة . أفتراهم هؤلاء ؟ الجواب لا يبعد ذلك . وأما البداري فربما كانوا هم البدور الذين من العواقير . وأما أولاد أحمد والجلده فقد تقدم ان قبيلة البراعصة أصلها أحمد وجليد فيظهر ان المقصود بهذين الاسمين البراعصة لأن النسبة الى برعاص ابن الشريف المغربي غلبت عليهم . واما بنو سلام فهم في بنغازي

ثم قال : « وفي برقة احياء لبني جعفر وكان شيخهم أبو ذؤيب وأخوه حامد بن كحيل وهم ينسبون في العرب تارةً في بني كعب بن سليم وتارة في فزارة والصحيح انهم ينسبون الى مصراطه أحد بطون هوارة . وفيما بين برقة والعقبة أولاد سالم . وما بين العقبة الكبيرة والاسكندرية أولاد مقدم وهم بطنان أولاد التركية وأولاد فائد مقدم وسلام معاً وهم ينسبون الى لبيد بن على بن هبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر . وقال في آخر الكتاب : قال العلامة الشيخ حسن العطار . ماذكر في هذه الرسالة من القبائل اختلط حالهم الآن فالبعض لا وجود له والبعض صار معدوداً من جلة فلاحي مصر الا قبائل باقية على عدم اختلاطها بغيرها » انتهى

قلت : هذا ما أمكننا أن نردّه من أسماء القبائل الحالية الى الأصول المعروفة في الكتب ولا شك انه قد فاتنا منها كثير الا اننا نظن ان الذي ذكرناه من هذا الباب هو أوفى ما ورد في كتاب مطبوع

ولنذكر الآن توابع برقة الى الجنوب داخل الصحراء فنقول :

ان أهم ملحقات برقة جغبوب وفيها زاوية سنوسية كانت هي مركز السادة وفيها مدرسة وفيها مدفن سيدي محمد بن على السنوسي مؤسس الطريقة رضي الله عنه . وقد علمنا أن الطليان بعد احتلالهم جغبوب أغلقوا المدرسة فخلت جغبوب من الشيوخ والمريدين والطلاب وأقفرت تلك الواحة . وقد استولى الطليان على جميع الزوايا السنوسية التي في

برقة وطرابلس مع أوقافها ثم جالو وأوجلة وقد تقدم ذكرهما

ثم واحة الكفرة الشهيرة وفيها زاوية التاج السنوسية مركز السادة وفيها أودية وجنان ومزارع كثيرة وسكانها أكثرهم من قبيلة « زوية » ويبلغ عددهم أربعة آلاف مقاتل ومن أودية الكفرة « الهواري» و « الهو بيبرى » و « الجوف » و « والزرق » و « الطلاب » و « الطليليب » و « تاهيده » و « بزّيمه » و « ربيانه » وفيها كلها النخل والتين والعنب والرمان وقصب السكر ومن مزروعاتها الحنطة والشعير وعندهم عيون جارية وآبار وسوان

ثم « تزربو » على مسافة خمسة أيام من الكفرة وأهلها زويه أيضاً

ثم « ونّ » وهى بلادمنها « بلتو » و « اهدّة » و « دربية » و « الزواية »وفيها أربعة آلاف من السكان

ثم « قرو » وهى واحة فيها ألف نسمة

ثم « عين كلك » محركة وهى واحة شهيرة فيها زاوية سنوسية كان الفرنسيس قد جاءوها بقوة من بلاد كانم وقاومهم السنوسيون وجرت بين الفريقين معارك قرأت تفاصيلها فى كتاب لأحد ضباط الفرنسيس ممن شهدوا المعارك و بعد ذلك تغلبت فرنسة على عين كلك. وفى عين كلك وجوارها نحو من سبعة آلاف نسمة من السكان

و واحة « قورى » وهى على ثلاثة أيام من قرو وفيها ألف وخمسمائة نسمة و واحة « أرضى » على مسافة يوم من قورى ويقال ان فيها أربعة آلاف ثم هناك « الوجنقات »

فالوجنقة الأولى على مسافة ١٢ يوماً من الكفرة الى الجنوب . والوجنقة الثانية على مسافة يوم من الأولى وفيهما ألفاً نسمة

ثم « فرم» على مسافة نصف يوم من « ارضى » الى الغرب وفيها ٥٠٠ نسمة ثم « بودوّ » على مسافة يوم من « ارضى » الى الجنوب ويقال ان أهله سبعة آلاف

و « العميان » على مقربة من عين كلك وأهلها ألفان

والى الشرق من كلك « بميّة » وفيها ١٥٠٠ نسمة

و « الدور » وأهلها من قبيلة ذوية نحو من ألفى نسمة وهى عن كلك على مسافة أربعة أيام الى الجنوب وعلى مسافة ١٦ يوماً من مملكة واداى و ١٤ يوماً من دارفور فى

السودان المصرى وستة أيام من الوجنقات وستة أيام من قرو

ثم « وادى الاكاوره » تابع كلك وهو من الوجنقات الى الجنوب وأهله عرب بادية زهاء ثلاثة آلاف

و « ويته » بين الدور والوجنقات أهلها من جيل يقال لهم القرعان سودان فيهم جمال وهم هناك من ثلاثة الى أربعة آلاف

و « باكيه » من « ويته » الى الجنوب على مسافة يوم واحد وكلها مراع وأهلها قرعان نحو من ألفين

و « وادى ندّو » على مسافة يوم من « باكيه » الى الشمال وهى مراع أيضا وأهلها قرعان زهاء ألفين وهم يأكلون الحنظل يصلحونه حتى يقدروا على أكله

و « رشىّ » على مسافة يوم ونصف من باكيه الى القبلة كلها مراع وفيها ثلاثة آلاف قرعان وعندهم نبت اسمه الكريب له حب

و « بسكرى » الى الشرق من « رشى » على مسيرة يومين وهى مراع أيضاً وفيها نبت الكريب أيضاً وأهلها ثلاثة آلاف قرعان

وكل أهل هذه الواحات اخوان سنوسية تابعون لزاوية كلك

ثم «أم جرس » على مسيرة ثلاثة أيام الى الشرق من كلك أهلها سودان يقال لهم البديّات وهم خمسة آلاف

والى الشرق من أم جرس على مسيرة ثلاثة أيام « باو » وكلها مراع وفيها المواشى بكثرة وأهلها بديات عددهم ستة آلاف

و « جبل مردى » بين أم جرس و باو و وادى الاكاورة فيه ١٢ ألف مقاتل كلهم قرعان يقال لهم المرداوية وعندهم مواش بكثرة

وأما « التيبو » فهم جيل من السودان الى الغرب وهم أعداد كثيرة وكانوا من الجهل فى أقصى مايتخيل العقل فهذبهم السنوسية وعلموهم الصلاة والدين وحفظوهم القرآن

وأما اعراب كانم فبعد ان احتل الفرنسيس كانم انكفأوا الى كلك والدور. وجبال الدور وعرة جداً وفيها مراع ومياه غزيرة وعندهم نخيل واشجار واللحم عندهم كثير ولهم من الخيل والابل وسائر المواشى ما يذكر . وأهل الدور من زوية وهم أشد أهالى تلك

الجهات بأساً . وكان شيخ الدور يوم أخذت هذه المعلومات منذ عشرين سنة صالح أبو كريم الزوّيي وأما شيخ الجميع فى تلك الاقطار فقد كان شيخ زاوية عين كالك وكان وكيل الحضرة السنوسية وكان عنده خسمائة مقاتل بمعاشات مرتبة ضمن الزاوية وكان للدولة العثمانية عسكر فى كلك

و وجدت فى كنَّاشاتى فى مكان آخر ان « ونّ » تبعد عن مملكة واداى مسافة ٢٠ يوماً وفيها زاوية سنوسية وزهاء الفى مقاتل و١٥ شيخاً سنوسياً . ومزروعاتها القمح والشعير والقطن وعندهم عيون جارية وآبار . وكان الفرنسيس جاءوها ثم رجعوا عنها .

ومن ون الى كلك مسيرة يومين . وفى كلك رباط نحو ٧٠٠ مقاتل من رجال السنوسى .

ومن كلك الى قرو مسافة سبعة ايام وفيها ١٥ وادياً جميع سكانها عرب . وفى قرو زاوية سنوسية يتبعها ٥٠٠ مقاتل . ومن قرو الى الكفرة الى الشرق مسيرة ٢٠ يوماً . وفى الطريق مياه استنبطها السيد السنوسى من عمق ٣٠ قامة

ومن كلك الى واداى ٢٠ يوماً . ومن كلك الى ون شمالاً يوم . ومن كلك الى قرو شمالاً خمسة أيام . ومن قرو الى الوجنقات ثلاثة أيام . ومن الوجنقات الى الكفرة ٢٠ يوماً . ومن الكفرة الى جالو ١٥ يوماً . ومن جالو الى بنغازى ثمانية ايام

ولما اتفق الفرنسيس والانكليز على تقسيم افريقية منذ سنة ١٩٠٢ وقعت واحة الكفرة ضمن الحدود الانكليزية وجعلوا من الكفرة الى جهة واداى التابعة لفرنسة مسافة ٤٤٠ كيلو متراً وجعلوا جميع الصحارى التى الى الغرب من جالو واوجله ضمن المنطقة الانكليزية وعدوا جالو واوجله آخر حدود المملكة العثمانية الى الغرب . ومثل ذلك انهم جعلوا الحدود العثمانية من مرزوق قصبة فزان الى الجنوب ٣٥٠ كيلو متراً فقط على حين كانت أحكام المملكة العثمانية جارية على مسافة ٨٠٠ كيلو متر الى الجنوب من الكفره وكان العلم العثمانى يخفق فى كلك وون وقرو فضلاً عن الكفره وتزربو

ومقيد فى كناشاتى الاحصاء الآتى :

كيلو متر		كيلو متر	
١٠٠	من خمس الى طرابلس	٢٥٠	من اسكندرية الى الحجاج
١١٠	من طرابلس الى زواره	٣٠٠	من الحجاج الى السلوم
٦٠	من زواره الى تخوم تونس	٥٠	من السلوم الى دفنه بئر الشيخ رسلان
٥٠٠	من حدود تونس الى غدامس في الداخل	٩٠	من دفنه الى طبرق
٨٣٠	من طرابلس الى مرزوق	٦٢	من طبرق الى عين الغزال
٨٧٦	من درنة الى الكفرة خطاً مستقيما	١٠٦	من عين الغزال الى درنه
٧٧	من الكفره الى قرو	٢٥٠	من درنه الى بنى غازى
٤١٠	من درنه الى اوجله	٩٢٠	من بنى غازى الى طرابلس

هذا ولنختم كلامنا على برقة بما قاله المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم » :

« برقة قصبة جليلة عامرة نفيسة كثيرة الفواكه والخيرات والأعسال مع يسار وهى ثغر قد أحاط به جبال عامرة ذات مزارع على نصف مرحلة من البحر فى هوية قد أحاط بها تربة حمراء [١] شربهم من آبار وما يحوونه من أمطار فى جبـاب وهى على جادة مصر يحسنون الى الغرباء . أهل خير وصلاح وأقل انقلاباً من غيرهم »

وذكر اجدابية فقال :

« عامرة بنيانهم حجارة على البحر وشربهم من الأمطار و « سرت » كذلك ولها بوادٍ وشعارى . وأما المسافات فتأخذ من برقة الى الندامة مرحلة ثم الى تاكنست مرحلة . ثم الى المغار مرحلة . ثم الى حليمان مرحلة . ثم مخيـل مرحلة . ثم الى جب المذعار مرحلة . ثم الى جناد الصغير مرحلة . ثم الى حى عبـد الله مرحلة . ثم الى مرج الشيخ مرحلة . ثم الى العقبة مرحلة ثم الى خرائب أبى حليمة مرحـلة . ثم الى خربة القوم مرحلة . ثم الى قصر الشماس مرحلة . ثم الى سكة الحمام مرحلة . ثم الى جب العوسج مرحلة . ثم الى حنية الروم مرحلة . ثم الى ذات الحمام مرحلة . ثم الى بومنية مرحلة . ثم الى الاسكندرية مرحلة »

(١) أظنه يقصد ببرقة هنا مدينة بنغازى لأن هـذا الوصف ينطبق عليها والهوية هذه قد عرفناها الى الشرق من المدينة

ولنذكر الآن شيئاً عن طرابلس أخت برقة والتى ينسب ذلك القطر اليها فنقول

طرابلس مدينة عامرة كانت مركز الولاية أيام الدولة العثمانية وهى الآن لعهد الطليان مركز الولاية وكان يتبعها نوثلاث احاح جفارة وتاجورة وزنزور . ثم قضاء النواحى الأربع وهى ناحية هانى وناحية المنشية وناحية الساحل وناحية الرفيعات . ثم قضاء نجاد . ثم قضاء غريان . ثم قضاء أورفلة . ثم قضاء ترهونه . ثم قضاء الزاوية . ثم قضاء زوارة . ثم قضاء العزيزية . ثم قضاء العجيلات . ثم لواء ابده ويتبعه ناحية خمس وناحية الساحل وناحية تاورغه . ثم قضاء مصراطه . ثم قضاء زليطن . ثم قضاء مسلاته . ثم قضاء سرت . ثم لواء الجبل الغربى ويتبعه ناحية يفرين وناحية ككله وناحية الحوض وناحية مراده وناحية زنتان . ثم قضاء فساطو . ثم قضاء غدامس . ثم قضاء نالوت . ثم لواء فزان يتبعه رأساً ناحية مرزوق ثم الوادى الشرقى ثم الوادى الغربى ثم الحفرة الشرقية ثم سبن وسمنو ثم زلة ثم قطرون ثم قضاء سوكنه . ثم قضاء الشاطى . ثم لواء غات مربوط به رأساً ناحية جانت وناحية البركة وقضاء تيبورشاده الجلة أربعة ألوية و ٢٠ ناحية

وقد كان فى الدولة العثمانية لواء بنغازى يتبع طرابلس أحياناً وينفصل أحياناً وكان يتبعه أربع نواح ناحية البراعصة وناحية سلوك وناحية قيمنس وناحية برسيس ثم قضاء درنة يتبعه ناحية السلوم وناحية طبرق وناحية بمبا وناحية القبة وناحية الحاسة . ثم قضاء المرج يتبعه ناحية الدرسه . ثم قضاء جالو وأوجله يتبعه ناحية بريقه . ثم قضاء أجدابية الى الغرب من بنغازى . ثم قضاء الحفرة مع توابعها السالفة الذكر

ومما وجدته فى كناشاتى عن طرابلس ما يلى :

أول بلد من طرابلس الى الغرب من برقة سرت وهى مركز قضاء وهى سرت البيضاء وسرت الحمراء . وبعد سرت عين تاورغا ووادى بن وليد ومصراطة وهى مركز قضاء وزليطن قضاء أيضا والخمس متصرفية . ومصراطة تمتد مسافة يوم الى الجنوب وآخرها من الغرب زاوية محجوب عند مقام سيدى أبى رويه . وبأراضى مصراطة الزيتون والنخيل والتفاح والرمان وجميع أهلها تقريباً خيالة لكثرة الخيل فى بلادهم ويخرج منهم ألوف مؤلفة من الفرسان وهم بغاية الشدة . وينقسمون الى قروغلية ورعية . فالقروغلية تحريف « قول أوغلى » وهم أولاد العساكر والمأمورين الأتراك والأرناؤوط والچركس والبشناق

وغيرهم ممن كانوا يخدمون فى الجيش العثمانى والحكومة فى طرابلس . والرعية هم الأهالى الأصليون . ومن القروغلية فى أكثر المدن كبنغازى ودرنه ومصراطة ومنهم يدّر ومنهم الزوانى والشواهدة والجراكسة . وأما الرعية ففى مصراطة يقال لهم زمورة ومنهم أهل قصر حمد وقزير وزاوية المحجوب وغيران والشتاونة وأولاد الشيخ والمريشات . وفى مصراطه عشيرة اسمها خدّام الزرّوق وهم الرعيضات وسورجابر وبلاّله والشويخات والحسون والفرجان ومعدان وبركات . وكل قبيلة من هؤلاء لها قرية هي مستقلة بها وبعض خدام الزرّوق يسكنون فى المضارب . وزعماء القروغلية عائلة الأدغم فى نفس مصراطه وبنو المنتصر زعماء الآخرين ومزروعات مصراطه الحنطة والشعير والدخن وأرضها سهول ورمال والخيل عندهم لا تحصى وماؤهم من الآبار والسوانى ولكنه كثير

وأما سرت فأهلها أولاد سليمان وهم بدو وعشيرة يقال لها القبائل والقذاذفة والفرجان وبركات ومعدان والحسون وزاوية . وكل هؤلاء منهم بدو ومنهم حضر وفى آخر سرت الى الغرب بلد تاورغا أهلها حضر وهم سمر الألوان مثل السودان . وفى تاورغا أنهر جارية وعين اسمها عين سمهود ماؤها وبىّ وفى تاورغا النخيل والقمح والشعير وكان أهل سرت يوم جمعنا هذه المعلومات ازيد من ٢٠ الف مقاتل اما الآن فلا نعلم الحقيقة وانما نعلم أن أهل طرابلس وبرقة منذ مجئ الطليان الى الآن قد تناقصوا الى النصف مما كانوا وذلك بالقتل والرحيل وتوالى المحن

والى الغرب من مصراطه قضاء « اورفلّه » واهله بغاية الشدّة يقولون « أورفلّى ما يولّى » وهم جماعة سيدى عبد السلام ابن سليم الأسمر من أكابر أولياء الله .وأهل أورفله منهم حضر ومنهم بدو وفى الصيف يأوون الى بيوت الحجر وفى الشتاء يسكنون المضارب . وإلى الغرب من أورفله بلاد زليطن ويقال لأهلها الفواتير وهم أشراف وسيدى عبد السلام الأسمر منهم وهؤلاء الفواتير يبلغون عدة آلاف ويوجد فى زليطن قبائل أخرى كأولاد غيث والعمائم والبراهمة وغيرهم . وفى زليطن قروغليّة كما فى مصراطه . والى الغرب من زليطن الساحل وفيه نهر جار يقال له عين كعاوه وأهل الساحل اسمهم الحوامد وعندهم زيتون ونخل وهم يزرعون الحنطة والشعير والذرة والقصب ومن الساحل الى الغرب محل يقال له المرقب ثم مركز يقال له الخمس كان مركزا للمتصرفية لعهد الدولة العثمانية وكانت

سرت ومسراطه وزايطن وترهونة تابعة لمتصرفية الخس . وأما ترهونه فتمتد من المحل المسمى بالساحل الى تاجورة بقرب مدينة طرابلس وسكان ترهونة قبيلة يقال لها ترهونة أيضا وكانت كثيرة العدد جداً لأيام الدولة العثمانية وكان زعيم ترهونة على بك المُرَيِّض. وفى أيام الحرب الكبرى عندما انتقض أهالى طرابلس على الطليان وطردوهم وحصروهم فى مدينة طرابلس ومدينة بنغازى ومدينة درنه لا يقدرون أن يخرجوا إلى الخارج استقلت ترهونة بحكومة خاصة بها كما استقلت مصراطه واستقلت أورفله وغيرها . و بقيت الحال كذلك الى أن حضر نورى أخو أنور من جهات بنغازى على أثر اتفاق السيد إدريس السنوسى فى ذلك الوقت مع الطليان وعقدهم معاهدة معه يعترفون له فيها بالامارة فجاء نورى منهزماً الى مصراطه ومعه الاستاذ عبد الرحمن عزام المصرى فسلم له رمضان السواحلى الذى كان مستبداً بأمر مصراطه أمور تلك البلدة و بعد ذلك بحسن تدبير نورى ومستشاره عبد الرحمن عزام اتحدت جميع تلك الحكومات حكومة واحدة وصار بر طرابلس كله تحت إمارة نورى الذى كان يمثل السلطان وكان أخوه أنور يرسل اليه بالامدادات من الاستانة بواسطة الغواصات الألمانية وانحصر حكم الطليان فى مدينة طرابلس وأما بنغازى فكانت الامارة فيها للسيد إدريس السنوسى ما عدا مدينتى بنغازى ودرنه . و بقيت الحال كذلك حتى جاء حكم الفاشست فى إيطاليا فنقضوا المعاهدة التى كانت ايطاليا عقدتها مع السنوسى المشار اليه وفرّ السيد ادريس الى مصر حيث هو الآن وسلك الفاشست بمسلمى طرابلس و برقة المسلك الفظيع الشنيع الذى سلكوه ونقلنا طرفاً من أخباره فى هذا الفصل

هذا والى الجنوب من ترهونه قضاء مسلاّته وكان لعهد الدولة العثمانية تابعا لمتصرفية جبل غريان وفى مسلاّته قبائل كثيرة وأكثر محصولها العنب والزيتون ومن مسلاّته الى فزّان عشرون مرحلة . وأما جبل غريان ففيه نحو من مائة قرية وفيه بيوت منحوتة فى الصخر وهناك جبل يفرن وجبل نالوت وجبل فسّاطو وجبل شفانه والجبل الغربى وقصبة زوارا على البحر وأهل الجبل الغربى و زوارا أباضيه وكذلك أهل فساطو ونالوت وأكثر محصول جبل غريان التين . والى الغرب من بلاد طرابلس الزاوية الغربية ثم غدامس على حدود بلاد تونس ومما وجدته أيضاً فى كناشاتى أن طريقة سيدى عبد السلام الأسمر ولى الله الأكبر رضى الله عنه هى الطريقة العروسية وأتباعها كثيرون

هذا ما اخترنا ذكره عن طرابلس و برقة ولأجل اتمام الفائدة يجب أن نذكر خلاصة عن كيفية احتلال ايطاليا لطرابلس فليعلم القارئ أن مبدأ هذه النازلة كان احتلال الفرنسيس لفاشودة فى منطقة السودان المصرى جاءوها من جهة السودان الغربى فاعترضت عليهم انجلترة وحصل خلاف شديد بين الدولتين وأنذرت انجلترة الفرنسيس بالحرب إن لم يرجعوا عن فاشودة فرجعوا عنها ولكنهم طلبوا تحديد الحدود بين المنطقة الانجليزية والمنطقة الافرنسية فى السودان فبعد أن حددوا الحدود بدا لهاتين الدولتين أن تتقاسما افريقية فيما بينهما سراً وكان ذلك سنة ١٩٠٢ فنزلت فرنسا لانجلترة عن مصر والسودان المصرى وأوغندة وغيرها ونزلت انجلترة لفرنسا عن مراكش وشمالى افريقية والبلاد التى كانت فرنسا احتلتها فى السودان الغربى وقد كان هذا التقسيم من أفظع ما سجله التاريخ لأن الدولتين تقاسمتا به بلدان الناس بدون علمهم وتجاوزتا على حقوق دول كثيرة مستقلة اعتداء محضاً وتسلطاً صرفاً وقد كان هذا التقسيم لافريقية بين فرنسا وانجلترة أكبر عامل فى الحرب الكبرى لأنه على أثره قامت ألمانيا تعترض على سعى فرنسا بالاستيلاء على المغرب وكذلك اعترضت دول أخرى كايطاليا واسبانيا فانتهى الأمر بعقد مؤتمر دولى فى الجزيرة الخضراء أمام جبل طارق وهناك قررت الدول استقلال سلطنة المغرب برغم ما كان بين انجلترة وفرنسا من الاتفاق السرى ولكن هاتين الدولتين وقعتا على معاهدة الجزيرة من جهة و بقيتا تعملان لتنفيذ الاتفاق السرى الذى بينهما و بناء على هذا الاتفاق تعرضت فرنسا للمغرب وساقت جيوشها وتجاوزت على هذه السلطنة من جهة الشرق واحتلت « وجدة » ثم أرسلت جيشاً نزل بالدار البيضاء وكان ذلك مبدأ لبسطها الحماية على مراكش كما لا يخفى . وقد كان أهالى المغرب رأوا فى سلطانهم عبد العزيز ابن مولاى الحسن ضعفاً عن مقاومة الفرنسيس فبايعوا أخاه عبد الحفيظ على أمل أن يقوم هو بالمدافعة عن البلاد ولم يبايعوه الا على شرط تنظيف البلاد من الأجانب ولكن الفرنسيس أعملوا القوة العسكرية من جهة والسياسة والمصانعة من جهة أخرى وانتهى الأمر باقناع عبد الحفيظ بقبول الحماية الافرنسية ولعب فى ذلك الوقت قدور بن غبريط المشهور دوراً مهماً فى اقناع السلطان عبد الحفيظ بقبول الحماية بعد ان كان هذا السلطان امتنع عن قبولها أشد الامتناع وأراد الاستعفاء من السلطنة . وخلاصة القول أن فرنسا وانجلترة من

ورائها ظهير نقضتا معاهدة الجزيرة بفعلهما وكان ذلك مما أثار غيظ ألمانيا وحمل امبراطور ألمانيا على المجىء بنفسه الى طنجة واعلان أن استقلال المغرب لا يمكن أن يمسه أحد ولو لم يكن السلطان عبد الحفيظ قد قبل الحماية الافرنسية من نفسه لبقيت ألمانيا متمسكة بمبدأ استقلال المغرب التام . وهذا الذى دعاها قبل الحرب العامة بقليل الى ارسال بارجة الى مرسى أغادير يوم ثار الخلاف بينها و بين فرنسا وكادت الحرب بينهما تنشب الا أن ألمانيا نكصت أوانئذ عن الحرب لكون انجلترة وعدت فرنسا بجعل الأسطول الانجليزى تحت ارادتها فيما اذا نشبت حرب بين فرنسا وألمانيا . وقد كانت هذه من أمهات المسائل التى أوجبت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ ومقصدنا من ذكر هذه المقدمة أن ايطاليا بعد أن رأت تقسيم انجلترة وفرنسا لأفريقية واستئثار كل منهما بممالك و بلدان طويلة عريضة واحتلال فرنسا للمغرب واعطاء قسم منه لاسبانيا اسكاتاً لها عن الاعتراض قامت فطالبت فرنسا وانجلترا بحصة لها فى أفريقيا واقترحت أن تنزلا لها عن طرابلس الغرب و برقة وتم الاتفاق على ذلك بين هذه الدول الثلاث سرا و بعد ذلك هاجمت ايطاليا طرابلس الغرب بغتة بدون أدنى سبب سوى أن فرنسا وانجلترا تقاسمتا افريقيا وأنها هى ايطاليا دولة كبيرة فلا يمكنها أن تبقى بدون حصة من هذه القارة ولما هاجمت ايطاليا طرابلس الغرب أبلغت تركيا أنها ان رضيت أن تتخلى لها عن طرابلس و برقة تعوض عليها بعض تعويضات مالية وتبقى للسلطان العثمانى السيادة الدينية ولكن العالم الاسلامى يومئذ ثار ثائره لهذا الاعتداء الفظيع واضطر الدولة الى المقاومة . نعم انه لم يكن للدولة قوة فى طرابلس أكثر من أربعة آلاف عسكرى على حين ان ايطاليا جهزت لاحتلال ذلك القطر مائة ألف عسكرى الا أن الاهالى ثاروا بأجمعهم ورأى الباب العالى أنهم قوة قادرة على مقاومة الطليان فأمدهم بما أمكن من الأسلحة وجاء أنور متنكراً ودخل الجبل الأخضر من الحدود المصرية وجاء على فتحى ودخل طرابلس من الحدود التونسية وكان بلغ أهالى مصر وتونس استعداد أهالى طرابلس و برقة للحرب فأرسلوا اليهم بالأرزاق وأمدوهم بما أمكن من الأموال وكانت الحمية الاسلامية فى ذلك الوقت غير ما آلت اليه بعد الحرب الكبرى فرأت ايطاليا و رأى العالم الأوروبى كله من مقاومة الطرابلسيين مالم يخطر لهم على بال . ولقد كانت ايطاليا تعتقد ان احتلالها لذينك القطرين يتم فى خمسة عشر يوماً . وأتذكر أنى

قرأت بيانات للورد كتشنر ان هـذا الاحتلال أصعب مما يظنون وانه قد يأخـذ مدة ثلاثة أشهر ... فـكان من مقاومة الطرابلسيين أن استمرت الحرب بينهم و بين ايطاليا عشرين سنة تامة بدلا من ثلاثة أشهر ولم تنقطع الا فى السنة الماضية بعـد أسر الشهيد عمر المختار . وقد بلغت خسائر ايطاليا فى هذه الحرب مدة العشرين سنة مائة وخمسين ألف قتيل وثلثمائة مليون جنيه ذهب ولو تيسر للاهالى السـلاح اللازم والعدة لـكان يستحيل أن تتقـدم ايطاليا من ساحل البحر الى الداخـل ولو مسافة بضعـة كيلو مترات ولـكن الذى فت فى أعضاد الأهالى هو فقد السلاح والذخيرة كما لايخفى . وكان نزول الطليان فى طرابلس النهار الرابع من اكتوبر سنة ١٩١١ وخرجت الحكومة العثمانيـة من طرابلس ومعها العسكر بقيادة نشات بك وخيموا فى جهات غريان وكانوا ينتظرون الأوامر من البـاب العالى بالتسليم وكانت ايطاليا تنتظر ذلك لعـدم تصور العقل امكان ادنى مقاومة . ورأى الأهالى أن الدولة تركتهم فخضعوا فى أول الأمر للطليان وهؤلاء أخـذوا يوزعون الأمـوال على وجوه الاهالى فى طرابلس وناحيتها وفى بنغازى وفى درنه واستجلبوا كثيراً منهـم وكان من جملة من خـدم الطليان من أعيان بنغازى المعروفين منصور الـكاخيا وكان منهم ابن المنتصر فى مصراطه . وفى ذلك الوقت بينما ظن الطليان أن الأمر اسـتوثق لهم قام سليمان البارونى زعيم الاباضية الذى هو اليوم وزير امام الأباضية فى مملـكة عمان وقام معه فرحات وغيرهم من زعماء طرابلس واستنفروا الأهالى فأتوا بالسلاح وهددوا العسكر العثمانى المنسحب الى خارج طرابلس بالقتال ان لم يصلِ الطليان الحرب فاشتد عزم العثمانيين وعلم الباب العالى أنه يقـدر أن يعتمد على الاهالى وفى أواخر شـهر اكتوبر المذكور كان المتطوعون منهم قد تـكاثروا جداً فزحف العسكر العثمانى والمتطوعون الى مدينة طرابلس وقاتلوا الطليان قتالا شديداً وفى أحـد الأيام ظنوا أنهم مستولون عليها لا محالة . ولـكن مدافع الطليان من البر والبحر حالت دون تحقيق هذه الأمنيـة . وكان قد لحق بالجيش العثمانى أهالى ترهونه وأهل الساحل والمنشيه والرجيجات تحت قيادة على بك الشابى الذى امتاز فى معركة بيرطبراس والتحق أيضاً بالجيش أهالى تاجوره بقيادة على محمد كرموس وجاء أيضاً الطوارف والفزانيـة وأهالى زليطن وتاورغه وزمتان ورجبان ومزده وأهالى غريان وأورفله ومصراطه وناوير والزاوية وزنزور والعجيلات وغيرهم وبدأت الحرب

وجاء خمسمائة فارس من أولاد أبى سيف وهم سنوسية يسكنون فى سكنه وكان جميع هؤلاء الأهالى مقبلين على الحرب كأنهم مونضون الى أعراس واستردت الأهالى جميع النواحى التى حول مدينة طرابلس حتى دخلت سيدى الهانى وسيدى المصرى فشاهد العالم بأجمعه من بسالة هذه الأقوام ما قضى بالعجب العجاب ولكن الطليان ضاعفوا قواتهم ومعداتهم وفى ٢٦ نوفمبر استرجعوا سيدى الهانى وسيدى المصرى ثم بدءوا بتلك الأفعال الفظيعة وقد ذكرنا فيما تقدم مذبحة المنشية التى تبقى عاراً على ايطاليا أبد الدهر . ولولا مدافع الطليان ومعداتهم ما كان يمكنهم أن يثبتوا فى مدينة طرابلس فضلا عن أن يتقدموا الى الداخل وكان جميع المدافع التى فى المعسكر العثمانى سبعة مدافع فقط معها ثلاثون من المدفعية ولهم قائد اسمه أحمد شكرى قاوم جميع مدافع الطليان بمدافعه هذه ووصل الى مسافة كيلو مترين فقط من الطليان والى مسافة ستة كيلو مترات من المدينة وكانت قنابره تسقط فى حديقة البلدة وفى واقعة قارقاريش قاوم أحمد شكرى هذا بأربعة مدافع جميع مدافع الطليان الهائلة وفى واقعة عين زاره بقى يقاوم مدافع الطليان مدة عشر ساعات إلى أن تمكن العثمانيون من الرجوع بانتظام . وقد وصل الينا ونحن فى معسكر درنه المسيو دريمون مراسل جريدة الألستراسيون المصورة فحدثنا عن وقائع الحرب التى شهدها فى طرابلس وقال إنه لم يجد قوما عندهم شغف بالقتال واستخفاف بالموت كهؤلاء القوم . وقرأت له مقالة فى الالستراسيون أنه شاهد فى المعسكر العثمانى أمام طرابلس متطوعة من الطوارق ومن فزان ومن جبل غريان وزليطن وأورفلة وترهونه ومن الساحل قال : «واذا سمع هؤلاء نداء الحرب قامت قيامتهم وتدفقوا إليها كالسيول من الجبال وبالجملة فالحرب عندهم أشهى لذة تتصورها عقولنا» ثم إن الدولة العثمانية جعلت معسكرا آخر فى مصراطه بقيادة خليل بك عم أنور ونورى أخى أنور واشتعلت الحرب بينهم وبين الطليان الذين كانوا فى قصر حمد على البحر . وأما من جهة بنغازى فان الحرب بدأت بعد ١٨ يوما من إعلان ايطاليا الحرب على تركيا . وفى الليلة الثانية من نزول الطليان فى بنغازى هجمت عائلة ابراهيم والبراغثة بغتة على محلة يقال لها الصابرى وسط نخيل بنغازى كان الطليان أرسلوا إليها جانبا من جيشهم فحصلت معركة شديدة انهزم بها الطليان الى محل يقال له الزرايب وتلف منهم ذلك اليوم نحو من تابورين . ووقعت واقعة أخرى يوم نزولهم اسمها وقعة جوليانة قتل منهم فيها

ثلاثمائة ومن العثمانيين سبعون وكان الطليان يضربون بنغازى بمقذوفات مدافعهم من البحر فقتل من الرجال والنساء والأطفال نحو أربعمائة وتمكنوا بمدافعهم من النزول الى البر لأنه لم يكن عند العثمانيين مدافع تحمى البلدة فنزلت عساكر الطليان واحتلت الثكنة العسكرية فقاتلها الأهالى وسقط من الطليان جماعة فى ميدان الثكنة . وخرجت الجنود التى كانت فى بنغازى مع قائدها شاكر بك الى سيل الهوّارى على مسافة أربعة كيلو مترات من المدينة و بقيت خمسة عشر يوما فى الهوارى وكانت أربعمائة جندى فقط ثم تأخرت هذه القوة الى الأبيار على مسافة ثلاثين كيلو مترا . وكان سيدى عمران السكونى شيخ الزاوية السنوسية فى قصبة المرج وقد عرفته يوم ذهبت الى بنغازى فرأيت فيه صنديداً من الصناديد رحمه الله وأكثر من مثله فهذا الرجل استنفر قبيلة العرفا التى هو شيخ على زاويتها وقبائل أخرى والتحق بالجند العثمانى الذين بقيادة شاكر بك وزحفوا الى الطليان فكسروهم الى مدينة بنغازى ومن ذلك الوقت لبثوا فى بنغازى تحت حماية اسطولهم . وأقام المعسكر العثمانى ومعه العرب بالمحل الذى يقال له الرجه . وكان الطليان قد قصدوا قرية الكويفية على مسافة ساعة ونصف الى الشرق من بنغازى وعلى ربع ساعة من شاطئ البحر ولم يكن فى الكويفية الا نزر من المقاتلة وكان الطليان عدة آلاف فانهزم الطليان وقتل منهم مئات وغنم منهم العرب بنادق ومسدسات وأعتدة كثيرة

وفى ١٥ يناير سنة ١٩١٢ بعد حضور عزيز بك المصرى قائداً للمعسكر العثمانى فى بنغازى جرت وقائع كثيرة نذكر منها أن أربعمائة عربى هجموا على استحكام اسمه شويليك دخلوه من شاطئ البحر فذبحوا الطوبجية الطليان على المدافع وأحضروا المكاتيب التى فى جيوبهم من أهلهم اليهم وفى ١٦ الشهر المذكور دخل سبعون عربياً الى استحكام الفويهات وقتلوا وغنموا مقداراً من البنادق وفى ١٨ منه جرت وقعة الزريرعية اذ دخل من العرب ليلاً ٣٥٠ رجلاً بين استحكامين من استحكامات الطليان وقعدوا فى حفرة وقعد ٥٠ عربياً من الجهة الأخرى فسار الطليان فوقعوا فى الحفرة بغتةً ونشب قتال شديد بين الفريقين وكانت أربع بوارج طليانيــة تطلق القنابر من البحر منعاً للعرب من امداد ذويهم ولكن أصيب الطليان ذلك اليوم برزايا فادحة وقتل منهم مئات وقيل ١٥٠٠ جندى وقتل من العرب ٣٥ مجاهداً وجرح ثمانون . ومن بعد هذه الوقعة ازداد اهتمام الطليان

بالاستحكامات ووضعوا حولها الأسلاك الشائكة

وفى ٣١ ديسمبر سنة ١٩١١ ذهب ٥٠ عربياً من قبيلة الفوارس ودخلوا استحكام الفويهات وغنموا وقتلوا وقتل منهم ١٠ رجال وجرح ١٢ رجلا

وفى ٢٢ فبراير سنة ١٩١٢ هجم العرب من جهة اللثامه على الاستحكام الطلياني الذى هناك فغنموا خيلاً قتلوا فرسانها وغنموا بنادق وأدوات

وفى ٢٦ منه اجتهد الطليان فى احتلال « غريونس » على شاطئ البحر جاءوها من جهة شويليك فردهم العرب وغنموا منهم ١٩ بندقية

وفى ١٢ مارس ١٩١٢ جرت وقعة الفويهات الشهيرة وكان سببها أن ٢٠٠ عربى دخلوا بين استحكامَى الفويهات والبركة فثار فى وجوههم الطليان واشتدت الحرب وأحاط الطليان بهذه المائتى مجاهد من العرب وقصد عزيز بك المصرى ومن معه من العرب امداد هؤلاء فلم يتمكنوا من ذلك بسبب القنابر التى كانت تتساقط كالمطر من البر والبحر . فلبث هؤلاء العرب يقاتلون مستميتين الى الظلام وعند ذلك نجا فلّهم ولحقوا بالمعسكر العربى بعد قتال استمر طول النهار ويقال انه نجا ٨٠ رجلاً من المائتين . وأما الطليان فقتل وجرح منهم ألف وخمسمائة مقاتل منهم ٢٨ ضابطاً برتب مختلفة وجنرال برتبة لواء وأصيب بالجنون عدة ضباط من هول تلك الوقعة . وكانت هذه الواقعة قد شقّت كثيراً على العرب وقامت النوادب تندب أولئك الأبطال الذين حالت مدافع الطليان دون امكان نجدتهم . وبينما العرب فى مأتم على قتلاهم اذ وردت برقية من أنور القائد العام فى درنه الى عزيز على المصرى قائد مجاهدى بنغازى عن برقية من الاستانة عن برقية من برلين عن برقية من رومة تفيد أن وقعة الفويهات هذه كانت من أشد المصائب على الطليان خسروا فيها ألفاً وخمسمائة مقاتل ومنهم ضباط كثيرون قتلى وجرحى ومنهم من أصابهم الجنون من هول ذلك اليوم . فلما بلغ العرب ذلك شفى من حرقتهم على أبطالهم وتحوّل حزنهم سروراً

وفى ٤ ابريل اشتبكت دورية من العرب مع ثلاثة آلاف جندى طليانى فى الفويهات أيضا فانكشف الطليان بغير انتظام وخسروا ٨٠ قتيلا ولم يقع من العرب الا قليل من القتلى والجرحى

وحصلت بين الفريقين وقعة اسمها وقعة السلمانى وذلك أن ٦٠ عربياً هجموا على

استحكام السلماني فخرج الطليان ودارت رحى الحرب ووردت نجدات للعرب فكسروا الطليان وألزموهم داخل الاستحكام بعد أن تركوا مئات من القتلى على الحضيض . ثم وقعة البركة وهي أن الدرسه والعبيد دخلوا ليلاً بين الاستحكامات في راس عبيدة وكانوا ثلاثمائة مقاتل فدارت رحى الحرب طول الليل وأصبح الصباح عن ٣٠٠ قتيل من الطليان ولم يقتل من العرب سوى ثمانية مجاهدين وجرح ١٢ مجاهداً . وفي ١٩ يونيو جرت وقعة مع دورية الكويفية وكانت ٥٥ مجاهداً لا غير فتلاقت مع الطليان في سواني عثمان وكان هؤلاء تابورين من المشاة والاى من الفرسان ومعهم بطارية مدافع جبلية و بطارية صحراوية وثبت العرب مع قلة عددهم نحواً من ساعتين الى أن وصلت اليهم النجدات فعند ذلك انهزم الطليان ونقلوا عشر عربات وثلاث سيارات كهربائية ملأى بالقتلى والجرحى منهم ثلاثة ضباط وغنم العرب أسلاباً كثيرة

وهكذا كانت وقائع بنغازي في بداية الغارة الطليانية واستمرت بعد ذلك بدون انقطاع الى أن جرت الحرب العامة وخدع الطليان بالاتفاق مع الانكليز السيد ادريس السنوسي نجل سيدي المهدي واعترفوا به أميراً على برقة وانقطع بذلك القتال وصارت الامرة في البركه للامير ادريس و بقي كذلك سبعاً الى ثماني سنوات اذ جاء الفاشيست ونكثوا بالمعاهدة واستأنفوا الحرب ففر الأمير ادريس الى مصر وتولى قيادة المجاهدين زعماء متعددون أشهرهم الشهيد عمر المختار الذي ثبت الى الآخر و بلغت مدة جهاده عشرين سنة

وأما مبدأ نزول الطليان في درنه فهو أنهم جاءوا ودمروا فيها بيت التلغراف اللاسلكي ثم ضربوا المدينة بالقنابر . وكان في درنة ٦٠ جندياً عثمانياً لاغير تحت قيادة البيكباشي شاكر بك فانضم اليهم بعض الأهالي وجاء على افندي العوا كلي قائم مقام قصبة المرج ومعه عشيرته العوا كلة و بعض عائلة غيث فقاوموا الطليان بشدة لكن أهالي درنة اختاروا التسليم . وخرج شاكر بك بجنده الى عين « ماره » وأخذ الطليان يستجلبون الأهالي بالمصانعة ووزعوا أموالاً وكاتبوا مشايخ الزوايا السنوسية ورؤساء القبائل ومع هذا فالعرب بقيت تابى طاعتهم فأخرجوا تابور بحرية وثلاثة توابير مشاة و بطارية مدافع وصعدت هذه القوة الى رأس نبع درنه في الوادي المعروف بوادي الشواعر فصدمهم على افندي العوا كلي بقومه وتوافت اليه الاعراب فهزموا الطليان هزيمة شنعاء قتل منهم فيها

مئات وجرح مئات بعد أن استمر القتال ١٢ ساعة وغنمت قبيلة الشواعر ٨٠ بندقية والعوا كله ١٢٠ بندقية ومن الحيوانات وقرطاس البنادق شيئاً كثيراً . ولم يسقط من العرب الا ١٢ مجاهداً من العوا كله وستة من الشواعر . فاشتدت بهذه النصرات عزائم العرب وتقوت قلوبهم وكان أنور قد وصل الى « دفنا » يوم جرت واقعة وادى الشواعر هذه فكاد يطير فرحاً وعلم أنه يقدر أن يقاتل برجال كهؤلاء . وقبل واقعة وادى الشواعر لم يكن حصل الا مناوشتان مع العرب بنى جازيه من العبيدات قتل فيهما ٥٠ طليانياً . أما بعد وصول أنور فان الطليان امتنعوا عن الخروج مدةً واعتصموا باستحكاماتهم وأخيراً خرجوا بقوة عظيمة وصارت الواقعة المسماة بواقعة « الضَبط » وألحوا على معسكر أنور ولكن العرب هزمتهم وتركوا مئات من القتلى والجرحى وغنم العرب ١٣ بغلاً موقرة ومئات من البنادق واستشهد من العرب ٤٠ مجاهداً . وكانت هذه المعركة فى ٣١ ديسمبر ١٩١١

ثم فى ١٧ يناير سنة ١٩١٢ جرت وقعة بين الطليان وجيش العرب الشرقى أى المخيم شرقى درنه فتقهقر العرب وقتل منهم ١٨ مجاهداً وأسرع الجيش الغربى لنجدته فوجد فى طريقه تابورين من الطليان فهزمهما وقتل منهما ١٥٠ جندياً . ثم فى ٣٠ يناير هجمت قبيلة البراعصة على استحكام سيدى عبد الله ليلا وهو ملآن بالمدافع الهائلة الكبيرة وكان هجوماً بجرأة نادرة المثال فى تواريخ الحروب الا أن البراعصة لم يقدروا على الاستحكام ووقع منهم ٧١ شهيداً . وجرت وقعة فى ٣٠ مارس ١٩١٢ استمرت طول النهار وانهزم الطليان وقتل منهم أربعمائة منهم ثلاثة ضباط كبار وقتل من العرب ٣٧ وجرح ١٥٠ مجاهداً وغنموا ١٥٠ بندقية وثمانية صناديق ملأى بالمقذوفات

وفى شهر مارس جرت واقعة كنت أنا السبب فيها لأنى كنت وصلت مجاهدا ومعى خمسة رجال من أخصائى من جبل لبنان باق منهم فى الحياة واحد هو عجاج أغا عبد الصمد من عماطور فلما وصلت الى معسكر عين منصور تقابلت مع أنور ومصطفى كمال وغيرهما من القواد وصرت مترقباً نشوب واقعة لأشهدها . فمضت أيام ولم يحصل شئ سوى مناوشات بين الطلائع . فبينما أنا أتحدث الى رشيد بك ابن المشير فواد باشا الجركسى (١) قال لى :

(١) استشهد رحمه الله فى حرب البلقان عند استرداد العثمانيين لادرنه سنة ١٩١٢

ان شئت نريك وقعة غداً . فذهبت أنا واياه الى ضلع جبل مناوح لاستحكام سيدى عبد الله و بينهما واد عميق وجميع تلك الهضاب مكسوة بالأشجار من عفص وغيره وقررنا أن تكون الوقعة هناك وجررنا مدفعين صغيرين من خمسة مدافع صغار هى كل ما كان فى جيش أنور ووضعناهما بازاء استحكام الطليان . وثانى يوم بكرنا الى ذلك المكان وجثمت العرب فى المتاريس بازاء الاستحكام . وذهبت أنا وتقدمت وجثمت مثلهم وراء متراس . ثم جاء مصطفى كمال وكان يومئذٍ قائد ألف وثانى أنور فى القيادة فجلس بجانبى . ثم جاء أنور رحمه الله ثم جاء رشيد بك ابن فؤاد باشا ثم جاء ضابط دمشقى ذهب اسمه من بالى ثم جاء ضابط ألمانى اسمه البارون غومبنبرغ من أنبل عائلات مونيخ وهو لا يزال فى الحياة ومن أعز أصدقائى . و بعد أن أخذنا مقاعدنا بدأنا برمى القنابر من المدفعين الصغيرين اللذين كنا وضعناهما هناك قبل الوقعة بيوم . فما كادت أصوات قنابرنا تدوى حتى انفتحت أفواه مدافع استحكام الطليان المسمى بسيدى عبد الله تقصف قصف الرعود وأخذت القنابر تتساقط علينا كالمطر وهى من نوع الشرابنل واشتد رمى الرصاص من العرب . فاستمرت الواقعة من الصباح الى الظلام لكن بقى كل فريق فى أرضه فلا نحن زحفنا اليهم ولا هم زحفوا نحونا . ولما انتصف النهار اشتد بنا الجوع وكان مع مصطفى كمال رغيف من الخبز فقسمه بيننا وكنا خمسة وراء ذلك المتراس فاصاب كلاً منا فرزدقة . وكان الهلال الاحمر المصرى قد جعلنى مفتشاً على بعثاته الطبية فى تلك الحرب فلما رأوا فى مخيم الهلال الاحمر انه انتصف النهار والحرب مشعلة ولا نقدر أن نبرح المصاف أرسلوا لنا غداء تاماً فيه ما يكفى من الخبز والجبن والزيتون والعسل وارسلوا زمزمية ماء وجاء شاب صفاقسى اسمه على كنت استخدمته عندى ومعه الطعام فاخذ يدب بين المتاريس الى أن وصل الينا فنفجنا السفرة وأكلنا وقد نال منا الجوع كل منال فلم أعهد فى حياتى انى أكلت أكلة أشهى منها . و بعد الطعام غلب علىّ النعاس لأنى نهضت ذلك اليوم من الفجر لحضور الواقعة فاشار علىّ مصطفى كمال بان أبيت فى ظل شجرة عفص صغيرة على مسافة ٢٠ متراً من المتراس . فذهبت واضطجعت على التراب ومن شدة النعاس غلب الكرى علىّ برغم قصف المدافع وأغفيت نحواً من ٢٠ دقيقة واذ بكتلة تراب غمرتنى فجأةً فاستيقظت مذعوراً فاذا بكرة شرابنل سقطت بجانبى وانفجرت فاصابنى منها التراب الذى اطارته من الارض فقمت

ورجعت فجلست الى جانب مصطفى كمال وانور وراء المتراس . واخذ البارون غومبنبرغ بالفتوغرافيا صورنا جميعاً ونحن هناك ولا تزال هذه الصورة محفوظة . ذكرت هذه القصة لأنها من ألذ ذكريات حياتى ولأن رفاقى ذلك اليوم صاروا فيما بعد من رجال التاريخ أحدهم أنور أشهر من أن يذكر والثانى الغازى مصطفى كمال رئيس جمهورية تركيا الحالى ولم يقع منا فى تلك الوقعة الا نزر من القتلى والجرحى

ثم جرت وقائع فيما بعد أشهرها واقعة قصر اللبن استشهد فيها من العرب ٤٠٠ وقتل من الطليان أكثر من هذا العدد . وما زالت المعارك هناك تتوالى الى أن نشبت حرب البلقان فألح الأتراك على أنور بالرجوع الى الاستانة فرجع مكرهاً وسلم القيادة الى عزيز بك المصرى الذى واصل قتال الطليان . ثم لما عقدت الدولة الصلح مع ايطاليا رأى عزيز بك نفسه مضطراً الى ترك القتال فسحب العسكر النظامى الذى كان فى برقة وكانوا زهاء أربعمائة وأخذ الأسلحة التى أمكنه أخذها وسار قاصداً الحدود المصرية . وهو بهذا لم يعمل الا بحسب الأصول الدولية ولكن المجاهدين السنوسيين نقموا عليه انه عطّل المدافع التى بقيت عندهم ودفن القراطيس والقذائف فى الأرض . وهذه روايتهم التى رووها لجميع الناس وحرروها وقدموها الى الاستانة والله أعلم بها . ثم ان عزيز بك أبى أن يسلم العرب البنادق التى مع عسكره وذلك وفقاً للأصول الحربية التى تقضى بعد انعقاد الصلح بين تركيا وايطاليا أن لايسلم العسكر العثمانى أسلحة لأعداء ايطاليا . ولكن العرب لم يقبلوا هذا العذر أيضاً ولم يفهموا كيف أن الدولة بعد أن عقدت الصلح مع ايطاليا مكرهة مرغمة بسبب حرب البلقان تعود فتسحب هذه القوة الضئيلة التى كانت باقية لها فى برقة ثم تأبى أن تترك لهم البنادق التى كان يحملها الأربعمائة عسكرى الذين مع عزيز بك ؟ ولذلك أصرّوا على عزيز بك فى تسليمهم البنادق وبدأوا أولاً معه بالجدال وانتهوا أخيراً الى الجلاد . فوقعت حادثة مؤسفة مؤلمة نرى من واجبات الأمانة التى تلزم المؤرخ عند ذكر الوقائع أن لاندعها مسكوتاً عنها كيف كان الخطأ فيها . وذلك أن الاعراب بجهلهم عند ماقطعوا أملهم من تسلم البنادق بالرضى أطلقوا الرصاص على العسكر العثمانى وكان قد خيّم فى « دفنا » غربى السلوم ولم يبق الا أن يصل الى الحدود . ولعلهم قتلوا أو جرحوا بعضاً من العسكر . فأمر عزيز بك بمقابلتهم بالمثل فنشبت معركة سقط فيها أكثر من ستين قتيلاً من العرب و بضعة

عشر قتيلاً من الجند . وعنـد ذلك امتدّ صريخ العرب بعضها الى بعض وأقبلت من كل صوب تريد الانتقام من عزيز بك وعسكره . وهذا كله فى دفنا والأراضى المسماة بالبطنان . واخذت العرب تجتمع لمهاجمة الجند النظامى . وكان السيد أحمد الشريف السنوسى فى الجبل الأخضر وقد سفر الجو بينه و بين عزيز بك المصرى بسبب سحب هـذا للعسكر النظامى وتخليته لبرقة ولـكنه لم يكن ليرضى بأن تـكون النهاية قتل المسلمين بعضهم بعضاً وان يوقع العرب بجند الدولة التى كانت تحافظ على بلادهم . فارسل السيد السنوسى الأكبر الشهيد السيد عمر المختار لتلافى الشر ومنع الأعراب من الهجوم فقطع عمر المختار مسافة أربعة أيام فى يوم واحد مواصلاً الاغذاذ الى أن أدرك العرب قبل هجومهم فحجز الشرّ وابلغهم مافى مقاتلة عسكر الدولة من الفضيحة والشماتة وسوء القالة وسد أبواب عواطف الدولة على عرب طرابلس ومازال بهم حتى اقنعهم بأمر السيد السنوسى أن يتركوا ثأرهم و يعدّوا هذه الواقعة كأنها لم تـكن . و بمقابلة ذلك أخذ لهم فيما سمعت البنادق التى كانت مسئلتها هى سبب الشر الذى وقع . ولـكن عزيز بك على المصرى وصل الى مصر ثم الى الاستانة وقد امتلأ صدره وغراً على السنوسية كما أنهم هم أيضاً قدموا الشـكوى بحقه الى الدولة بعد أن صار أنور ناظراً للحربية واتهموه بأشياء كثيرة أحالته الدولة من اجلها الى المحاكمة . ثم خلّت بعد ذلك سبيله بشرط أن يغادر تركيا فغادرها الى مصر وطنه فى خبر ليس هذا محله لأنه يتعلق بموضوع الحركة العربية على تركيا أكثر مما يتعلق بطرابلس الغرب

و بعد أن خرج عزيز بك من برقة أصبحت القيادة الفعلية بيد السيد أحمد الشريف السنوسى كبير الطريقة السنوسية وكان أكثر اعتماده فى الأمور الجهادية على عمر المختار . واهتبل الطليان غرة الحرب البلقانية مع تركيا فأوجفوا عـلى السنوسية بقوتهم لعلهم يدوخون ذلك القطر بتخلى الأتراك عنـه فلم ينالوا أرباً لأن السنوسيين صدّوهم من كل جهة . ولبث الطليان منحصرين فى المدن الساحلية . فلجأ الطليان الى الخديوى السابق واقنعوه بالتدخل فى القضية لعل السنوسى يخضع لايطالية بواسطته — ولغط الناس يومئذ بأن الطليان وعدوا الخديوى بأن يشتروا منه خط حديد مريوط الذى كان يخصه والله أعلم فأرسل الخديوى رسلاً من قبله عدة مرات يقترح على السنوسى الاتفاق مع ايطالية فاعتذر السنوسى عن قبول ذلك حسبما حدثنى هو بفمه وأجاب الخديوى بأنه هو لايملك ذلك القطر

لينزل عنه لايطالية وان الاسلام يمنعه من تسليم البلاد للطليان مادام فيه عرق ينبض . ولعل الخديوى السابق أراد بهذا التوسط تخفيف الشر ولم يكن لهمقصد فى ضرر السنوسية الا أن قضية بيع سكة مريوط من الطليان قد دارت على الألسن سواء كانت صحيحة أم لم تكن خدشت وجه الوساطة وأصمّت آذان السنوسية عن سماع الكلام . ثم ان الطليان لم يتمكنوا من شراء سكة مريوط نظراً لمعارضة الحكومة المصرية لذلك بالتواطؤ مع الانكليز سراً .

ولقد أشار جيوليتى رئيس نظار ايطالية الشهير فى «مذكراته» الى مساعدة الخديوى السابق لايطالية فى الحرب الطرابلسية ولكنه لم يذكر شيئاً من قضية سكة مريوط وانما قال : « إن عباس حلمى الخديوى السابق كان مساعداً لنا من أول هذه الحرب وبواسطته أمكننا الاتفاق مع الادريسى فى عسير ويقول الخديوى انه أراد بما فعله مكافأتنا على حسن المعاملة التى لقيها منا أبوه عند ما كان منفياً من مصر وأقام بنابولى »

ومن هذه الجملة يعرف القارئ ان جيوليتى لا يؤخذ كلامه قضية مسلّمة افلا ترى انه يخلط بين والد الخديوى وجدّه اسماعيل باشا الذى كان هو المنفى الى ايطالية لا والد الخديوى ولا عجب فى هذا فان جيوليتى حرر مذكراته بعد أن ناهز الخامسة والثمانين من العمر ومن علت سنه الى هذه الدرجة فأحر به أن يروى عن زيد ما يكون أحياناً صدر عن عمرو . والله أعلم بالحقيقة

ونعود الى خبر برقة بعد أن تركها الاتراك فنقول ان السيد السنوسى أسس فيها حكومة سنوسية وبقى يجاهد فيها الطليان ويقمعهم فى الثغور البحرية بنغازى ودرنه الى الحرب العامة اذ بعث اليه أنور بأخيه نورى ومعه الاوامر بالزحف الى مصر لمشاغلة الانكليز فيها . وكان السيد غير مرتاح الى هذه الغزاة خوف الفشل وكان الانكليز كتشنر وماكسويل وغيرهما يصانعونه ويقدمون اليه الهدايا اللطيفة يكتفون بها شره عليهم وقرأت عنده كثيراً من رسائل اللورد كتشنر والجنرال ماكسويل وهما يبالغان فى تعظيمه واسترضاء خاطره ومما استجلب نظرى أكثر من الجميع مكتوب بالعربى من اللورد كتشنر محرر بعبارة بليغة وباسجاع رشيقة وبخط لم أجد أبدع منه فى حياتى يخاطب فيه اللورد كتشنر السيد أحمد الشريف كما يخاطب الملوك ويلقبه بسلالة النبى الأعظم ﷺ وكل هذا مداراةً منهم له ليكف عن مهاجمة مصر . ولم يكن السنوسى قد تلكأ عن الزحف الى مصر بسبب هذه المصانعات

الانكليزية وانما كان يعوقه ان القوة التى كانت بيده لم تكن كافية وكان يخشى أن تدور عليه الدائرة فلما رأى ما رأى من الحاح أنور ونورى وتوبيخ الوطنيين من المصريين اياه على التثاقل اختار الزحف وكان من الأمر ما كان من الفشل الذى قد توقعه مما قد استوفينا شرحه فى صفحة ١١٤ وصفحة ١١٥ وصفحة ١١٦ الى صفحة ١٢٩ من الجزء الاول من الطبعة الاولى من هذا الكتاب فمن شاء فليراجع هذا المبحث هناك ولكننا هنا ننشر مما وجدناه بين أوراقنا كتبا واردة من السير مكماهون معتمد انجلترة بمصر ومن اللورد كتشنر ومن الجنرال مكسويل القائد العام للجيوش الانكليزية بمصر الى السيد السنوسى أحمد الشريف أخذنا نسخها من نفس السيد المشار اليه وهى من أهم الوثائق التاريخية المتعلقة بالحرب العامة

هذا وأحسن تاريخ عربى لطرابلس الغرب هو « المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب » تأليف أحمد بك النائب الاوسى الانصارى الطرابلسى أصله من جالية الاندلس فى القرن السابع للهجرة وهذا التاريخ مطبوع فى الاستانة العلية سنة ١٣١٧ هجرية

وأول رحلة قام بها أوربى الى طرابلس الغرب المسيو لومير قنصل فرنسة فى طرابلس جوّل فى تلك البلاد وكتب عنها رحلة بأمر لويس الرابع عشر ملك فرنسة . ثم اقتفى أثره بولس لوكاس فزارها سنة ١٧١٠ ثم سنة ١٧٣٣ ثم الدكتور توماس شاو زارها سنة ١٧٣٨ ثم فى سنة ١٧٦٠ جاءها من مصر فرنسى معلم طبيعيات اسمه غرانجه وفى سنة ٧٦٨ و ١٧٧٢ زارها جس بروس السائح الى الحبشة

وفى أوائل القرن التاسع عشر المسيحى ساح فيها الدكتور سرفلى الايطالى وتحرير ذلك أن والى طرابلس يوسف باشا القرمانلى سيّر جيشاً لعقاب ولده الذى كان فى درنه وعصاه . فكان فى هذه الحملة الدكتور سرفلى وحرر أشياء مهمة نشرتها جمعية فرنسة الجغرافية . ثم عصى بعض العرب فى جهة المرج بالجبل الأخضر فسرح اليهم الوالى جيشاً كان فيه طليانى آخر اسمه « دلاسلاً » فكتب رحلة ترجمت الى الانكليزى سنة ١٨٢٢ ثم زار برقة والجبل الأخضر الأب باسيفيك جاءها من طرابلس . وسنة ١٨٢٠ أراد جنرال بروسيانى أن يعمل سياحة فى هذا القطر فاستصحب علماء وكتّاباً وسار اليه من مصر لكنه فقد ثلاثة من أصحابه قبل أن وصل الى الجبل الأخضر فرجع أدراجه . وسنة ١٨٢١

ساح القبطان بيشى فى بر طرابلس وصور المواقع بالضبط وسنة ١٨٢٤ و ١٨٢٦ خرج باشو الفرنساوى وقام برحلة فى القطر الطرابلسى وكتب عنه أربعة مجلدات . وكان المسيو دوبورڤيل قنصلا لفرنسة فى بنغازى وذلك سنة ١٨٤٨ فجمع كثيرا من الآثار القديمة التى وجدها فى الجبل الأخضر وهي الآن فى متحف اللوفر . ثم ان الدكتور برث ساح فى طرابلس قبل أن ساح الى تنبكتو . وسنة ١٨٥٥ ساح المستر جس هاميلتون من بنغازى الى أوجله الى سيوه الى مصر

وسنة ١٨٦٠ و ١٨٦١ أجرى هذه السياحة القبطان مردوك سميث والكومندور بورشر الانكليزيان وكتبا كتابا طبع سنة ١٨٦٤

وكان للقطر الطرابلسى من الصولة والمنعة وهبوب ريح العز فى البحر المتوسط ما للقطر التونسى وللقطر الجزائرى وللقطر المراكشى وكانت له الأساطيل القاهرة وكان ولاة طرابلس يأخذون الجزى من الدول الاوربية وتدفعها هذه لهم . وقد روى صاحب كتاب « المنهل العذب » السالف الذكر فى حوادث سنة ١٢١٣ ما يأتى :

« وفى هذه السنة كلف يوسف باشا [1] دولة الاسويج بدفع مائة ألف فرنك عطية وثمانية آلاف فرنك سنوية فرفض قنصلها هذا الاقتراح فأرسل يوسف باشا الأساطيل لمهاجمتها وبث السرايا على سواحلها والقبض على مراكب رعاياها التجارية فغنموا سبع سفائن فالتجأوا الى نابليون بونابرت وهو وقتئذ بمصر . وسنة ١٢١٣ انعقد الصلح بواسطة مندوب بونابرت على أن تدفع السويج ثمانين ألف فرنك غرامة وثمانية آلاف فرنك سنوية وتترك تلك السفائن للحكومة المحلية وتعاد أسارى الاسويج »

وذكر بعد ذلك وقائع كثيرة كانت تحصل بين دولة نابولى وطرابلس و بين دولة سردانية [2] وطرابلس من أجل استنكافهما عن دفع الهدية السنوية لولاة طرابلس . وتلك الأيام نداولها بين الناس

(١) أي القرمانلى والى طرابلس

(٢) دولة آل ساڤوى ملوك ايطالية الحاليين

الكتب الواردة

على السيد احمد الشريف السنوسى

من اللورد كتشنر والسير مكماهون والجنرال مكسويل

* (١) *

من مصر القاهرة فى ٢٢ صفر ١٣٣١

بسم الله قبل كل شئ

من عبد الله المتوكل على الله سبحانه وتعالى لورد كتشنر المعتمد السياسى لجلالة جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى بالقطر المصرى

الى مهبط اسرار الحضرة الربانية ومصدر صفوة الارشادات اللدنيّة صاحب التجليات الأنسيّة والنفحات القدسيّة قطب دائرة أهل الفضل والكمال وخلاصة أرباب الحجا والجلال المتحلى بروحانيه اسلافه الطيبين الطاهرين والمتجمل بصفات أهل الجمال واليقين والمتخلى عن أوضار الاغيار فى مهيع عبادة رب العالمين دوحة الشجرة الهاشميّة وبضعة السلالة العلوية خليفة صاحب ذلك النور القدوسى سيّدى أحمد الشريف السنوسى رضى الله عنه وايّده بروح منه

أما بعد فان الفرصة التى دعتنى الآن لمكاتبة السيد الجليل أحسبها من أشرف الفرص وان كانت قصتها الداعية اليها ليست من أحسن القصص على أن السيد الجليل والشريف النبيل خليفة ذلك الامام المهدى العظيم وولى الله الكريم قد يسره أن ترفع اليه الظلامات ليحقق آمال رافعيها وأن تصل اليه أصوات الضراعات ليكون ملجأ ضارعيها ولهذا يسرنى أن أكون الواسطة لديكم لرفع مظالم قد ارتكبها من لم تخالط هدايتكم قلوبهم ولم تستأصل ارشاداتكم العالية من نفوسهم الخاطئة ذنوبهم ولذلك أكتب لمقامكم الجليل بما يلى :

قد ورد لى من سعادة حاكم السودان العام أن جماعة من عربان الكبابيش التابعين لحكومة السودان ويبلغ عددهم تسعة وعشرين رجلا قصدوا بير النطرون التابع لمديرية دنقلا وبينما كانوا عند البئر اذ انقضّ عليهم عدد عظيم من العربان بينهم نحو مائة من

أهل فزان أتباع الطريقة السنوسية الشريفة والباقون من أهل زغاوة والبديات واعتدوا عليهم شر اعتداء وكان دافعهم الى هذا الشر وداعيهم اليه قبل كل أحد زعيم الفزانين واسمه الشيخ محمد أبو دوشي الفزانى أحد الخاضعين لسلطانكم والمستظلين بظل حمايتكم واحسانكم اذ ذهب برجاله الى عربان غزاوة والبديات وطلب منهم الانضمام اليه لمقاتلة الكبابيش وحرضهم على ذلك حتى انصاع اليه جمع منهم فبلغ ذلك عدد عصابته التى أغار بها على ذلك النفر القليل زهاء مائتين وسبعة وأربعين رجلا . أغار بهذا العدد الكبير على أولئك النفر القلائل ولم يخف سطوة الله عز وجل ولم يذكر أن عمله المنكر فضلا عن دونه يغضب الله وملائكته سيجلب عليه سخطكم وغضبكم الذى هو من سخط الله وغضبه وكأنه لم يكفه أن يكون عدده كثيراً كالجيش الجرار بازاء جماعة الكبابيش الذين كانوا عند البئر بل أخذهم غدراً وفاجأهم على غرة منهم فبينما كانوا آمنين لا يحسبون للشر حساباً اذ أطلق عليهم رجاله من بنادقهم ناراً حامية كادت أن تحصدهم حصداً فلما رآهم قد وقفوا أمامهم برهة من الزمن حملوا عليهم بسيوفهم ورماحهم فطعنوهم فى صدورهم أنكى الطعنات وقتلوا بذلك ثمانية وجرحوا ثلاثة وأسروا اثنين وسلبوا ما كان معهم من سلاح ومتاع ثم استاقوا جمالهم وعددها مائة وواحد وأربعون بما عليها من الاحمال غير مبالين بأن يعدوا فى شريعة الاسلام من العائثين فى الأرض فساداً وأن جزاءهم فيها اذا وجدوا قضاة عدولا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض الخ الآية الكريمة فيرى السيد حفظه الله ووفقه لاجراء عدله على حكم الله وسنة رسوله الأمين أن جماعة الفزانين الذين ينسبون أنفسهم لطريقتكم الشريفة ويعتزون فى طول البلاد وعرضها بعزها قد خانوا الله وخانوا محجة رسول الله البيضاء وخانوا عهد طريقتكم السمحاء ولم يبالوا بغضب الله ولا بغضبكم ولم يذكروا اليوم الآخر وحسابه و بطش الله وعقابه وهذا غريب جداً أيها السيد الكريم مع ما يعلم القصى والدانى من خضوع هؤلاء الأقوام لسطوتكم وائتمارهم بأوامركم ومع ما سارت الركبان والأمثال من أخبار عدلكم المشهور وشدة بأسكم على أهل البغى والعناد وما تحلى به شخصكم الكريم من صفات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى انتهت اليكم تراثا عن أسلافكم العظماء الأكابر ذوى البأس الشديد والتاريخ المجيد فكيف مع هذا يجرؤ قوم أشداء كثيرو العدد

من أتباع طريقتكم الشريفة على الاعتداء على قوم مستضعفين قليلى النفر فيقتلون منهم الأنفس ويسلبون الأموال والمتاع وهم مع هذا يرون أنهم من أتباعكم خليقون بحمايتكم وحسن رعايتكم

لقد كان فى وسع حكومة جلالة الملك أن تتخذ فى مثل هذا الحادث اجراءات أخرى عظيمة التأثير والأثر على أمثال أولئك الطغاة البغاة وتضرب بهم الأمثال للناس وهى لا تعدم الوسيلة لذلك ولكنى بما أعرفه عن سيادتكم من حب العدل والانصاف والغيرة على اقامة معالم الشريعة الغراء فى البلاد والجهات التى يصل لها نفوذكم وتمتد اليها سطوتكم قد فضلت أن أراجع مقامكم السامى فى هذه النازلة لرفعها طبق ما يقتضيه العدل الاسلامى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

فاذا شاء السيّد حفظه الله تحقيق آمالى فى عدله وانصافه فما أسهل على حضرته أن يأمر تابعيه بكف الاذى عن جيرانهم واخوانهم فى الدّين وأن يكلف اولئك المعتدين بردّ الجمال والاجمال التى سلبوها مع دفع التعويضات كما يراها السيّد بالحق الدية للمقتول والتعويض للمجروح ظلما وعدوانا ولست أظن انه يوجد من الموانع ما يحول دون توقيع هذه الجزاءات على مستحقيها عند فضيلة السيّد ولكن اذا كان هناك مانع لا اعرفه فاننى أرجو من حضرته الكريمة أن تشرفنى بافادتى عن الطريقة التى يحسن اتباعها للوصول الى تلك الغاية من غير ان يمسّ كرامتكم التى اودّ أن أحافظ عليها دائما وأطلب من الله المزيد فيها

وقد أرفقت بكتابى هذا بيانا مشتملاً على أسماء الاشخاص المعتدى عليهم من عرب الكبابيش ومن قتل ومن جرح منهم لتكونوا على بيّنة من الامر ولتجروا العدل فيهم كما أمر الله جعلكم الله ملاذا أعلى لتحقيق عدله بين خلقه وامدكم بروح منه مادامت احساناته اليكم متواصله وعنايته بكم شامله ونفعنا الله ببركاتكم على الدوام آمين

(اللورد كتشنر باشا)

* (٢) *

مصر القاهرة فى ١٥ يناير سنة ١٩١٥ — ٢٩ صفر ١٣٣٣

قطب دائرة أهل الفضل والكمال وخلاصة أرباب الحجى والجلال أمام المصلحين وقدوة المرشدين الاستاذ الاعظم والملاذ الافخم السيد أحمد الشريف السنوسى أعزه الله

سلام الله الاسنى وتحياته المباركة الحسنى تخص مقام السيادة و بعد فانى بحمد الله ومعونته وصلت الى مصر نائباً عن جلالة الملك جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى وامبراطور الهند الذى أعلن حمايته على هذا القطر السعيد ليحفظ سلطنته من اعتداء المعتدين ويرقى به و بأهله فى معارج التقدم والفلاح . ولما كانت علاقة حكومة هذا القطر على الدوام ودية مع سيادتكم رأيت أن أبلغكم وصولى وأؤكد لكم ان العلاقات الوديّة التى كانت لكم ولاسلافكم الكرام مع الحكومة المصرية ستستمر فى هذا العهد الجديد كما كانت عليه من قبل من الود والسلام

الامضاء

السير مكمهون   المهر الرسمى

* (٣) *

مصر القاهرة فى ٣ ديسمبر سنة ١٩١٥ - ٢٥ محرم سنة ١٣٣٤

حضرة الاستاذ الأعظم السيد أحمد الشريف السنوسى الخطابى الادريسى الحسنى دام وجوده الكريم

تحية وسلاماً و بعد فقد أدهشنى ما وجدته بعد عودتى الى مصر من زيارة الجيوش المتحالفة فى غليبولى — ان العلاقات بيننا قد حدث فيها تغيير . وان اتباع سيادتكم قد ارتكبوا أعمالاً عدائية ضد الحكومة المصرية .

وقد سمعت بارتياح انكم أرسلتم كبيراً من مستشاريكم الى البرّانى ليسعى فى ارجاع بعض اتباعكم الذين عصوا أوامركم ولكنى تعجبت اذ سمعت ان هؤلاء الاتباع قد تمادوا فى العصيان حتى انهم لم يطيعوا الأوامر فقط بل أطلقوا الرصاص فعلا على جعفر أفندى . هذا وقد بلغنى أيضاً ما همنى وهو أن سبعين رجلا من رعايا الدولة البريطانية الذين نجوا من مركب غرّقته غوّاصة العدو قد حجزوا غرب حدودنا . فأسألكم برهاناً على العواطف الودّية التى أظهرتموها لنا أن ترسلوا هؤلاء الرجال المنكودى الحظ حالاً بدون اذى الى مرسى مروح .

هذا و يظهر ان نفوذ نورى بك وأصدقائه الألمان عليكم يشبه نفوذ أنور باشا على جلالة سلطان تركيا . وهذا النفوذ الضارّ هو الذى زجّ تركيا فى هذه الحرب المهلكة والتى

ستنتهى حتما بزوال دولة الأتراك من الوجود إنكم تعلمون أن الحكومة المصرية والحكومة البريطانية عاملتا سيادتكم بكل اهتمام واحترام وأما الآن فقد اضطررت بسبب المقاصد السيئة التى تحيط بسيادتكم أن استدعى رجالى من نقطة السلوم وأتخذ لهم مركزاً فى مرسى مطروح . وعليكم الآن أن تبينوا بأعمالكم وأعمال اتباعكم اذا كنتم تحبون بقاء العلائق الوديّة أم لا .

ومن الآن فصاعداً كل رجل من أتباعكم يتعدّى الحدود حاملا سلاحه أضطرُّ أن أعده كمن له مقاصد عدائية وأعامله كذلك . لقد سألتكم أن تظهروا مقاصدكم الوديّه بابعاد الأشخاص الذين معكم الآن المعروفين بعداوتهم لنا وأتأسف أن أرى أنكم لم تتمكنوا الى الآن من ابعادهم .

انى لا أشك فى أن السيد محمد شريف الادريسى قد سلمكم كتابى وفاوضكم فى جميع الشؤون التى وكّلتُ اليه مفاوضتكم فيها ولا أشك فى أنه بين لكم ان مقاصدنا نحوكم وديّة محضة وان ما أوجب التغيير فى العلاقات بيننا هو اعمال صدرت من جهتكم لا من جهتنا .

ولا يسعنى الا الظن بأن الدساسين قد نقلوا اليكم أخباراً كاذبة عن الحرب الأوربية والحقيقة هى ان خسارة امبراطور الألمان وحلفائه بطيئة ولكنها أكيدة على جميع خطوط القتال والمستقبل يريكم ما أراده الله .

وانى أسألكم ان تنعموا النظر فى الأمر وتعتبروا انه اذا اتخذتم لسوء الحظ خطة عدائية فانكم لا تجلبون عليكم ايطاليا فقط بل فرنسا وانكلترا ومصر وتتحملون مسئولية جميع النفوس التى تضيع فى هذا السبيل وتعرّضون بلادكم للجوع اذ تُسَدّ عليكم طريق الزاد والمؤونة براً وتحصر الشطوط البحرية . واذا كان مستشاروكم يعتمدون على غواصات الأعداء فاعتمادهم قائم على لا شئ وانى أبسط لكم ذلك كله ليس بقصد التهديد بل بقصد النصيحة كصديق . والأتراك يقضون بكم مأربهم ثم ينبذونكم نبذ النواة وراء ظهورهم .

ان الحالة الحاضرة لا يمكن أن تبقى على ما هى عليه الآن ولذلك فانى أسألكم أن تبرهنوا حسن مقاصدكم بالأعمال وليس بالأقوال وأن ترسلوا حالا الى مرسى مطروح الرجال

الانكليز الذين نجوا من مركبهم وهم الآن غرب حدودنا. وأن تعيدوا العلاقات الودية معنا وتخرجوا من بلادكم المستشارين الأتراك والألمان أى نورى بك ومانسمان وغيرهما من الذين لا شك فى أنهم يجلبون عليكم وعلى بلادكم بلاءً عظيماً .

ولى الرجاء انكم توفون هذه المسائل حقها من الاهتمام قبل أن يقع ضرر لا يمكن تلافيه والسلام

الجنرال السيرجون مكسويل
القائد العام لجنود جلالة ملك بريطانيا العظمى بمصر

* (٤) *

مصر فى ٤ جمادى الأولى سنة ١٣٣٤ الموافق ٨ مارس سنة ١٩١٦

حضرة صاحب السيادة الأستاذ السيد أحمد السنوسى الكبير

تحيةً وسلاماً وبعد فقد وصلنى كتابكم المرسل بيد رسولكم موسى وليس لى أن أزيد فى الرد عليه عماقلته فى كتبي السابقة . انى كنت دائماً أحذّركم من خطر الاصغاء الى نصائح نورى بك وجعفر وغيرهما لأن مصلحة هؤلاء تناقض مصلحتكم على خط مستقيم . فانكم بالاصغاء الى نصائحهم قد أثرتم حرباً على مصر ونسيتم جميل بيت محمد على باشا الكبير الذى يمثله صاحب العظمة السلطان حسين سلطان مصر الحالى .

إنكم تعدّيتم الحدود ودخلتم الأراضى المصرية برجال مسلّحة ومدافع وقد أطلقتم نيرانكم على العساكر المصرية والانكليزية . وأظهرتم بكل جلاء ووضوح أن مقاصدكم عدائية .

تقولون انى صدقت مقالة سنو بك ولم أصدّق ماقلتموه أنتم . فما هو الصحيح ؟

إن جماعات من المحافظية المسلحين كانت على الدوام تأتى الى الأراضى المصرية امابعلم منكم أو بغير علم منكم وتسيء معاملة العرب الذين تحت إدارتنا وتأخذ منهم ضرائب بالقوة وقد أطلق أتباعكم النيران على الغواصات الانكليزية لغير ماسبب . وأنزلت الغواصات الألمانية الأسلحة والعساكر وغيرها بقرب بردية وأطلقت نيرانها على طرادٍ لخفر السواحل وأغرقته وأتباعكم لم يطلقوا النار على الغواصات الألمانية بل استقبلوها بالترحاب .

ثم انكم حفظتم فى الأسر جماعة من رعايا الدولة البريطانية الذين غرق وابورهم ولجؤا الى سواحلكم . وقدهاجم أتباعكم نقطنا فى البرّانى والسبيل وأسروا عساكر الحرس

وسرقو بنادقهم وقطعو خطوطنا التلغرافية وهددو نقطنا بالسلوم حتى اضطررت أن أصدر الأمر الى سنو بك بالرجوع الى مرسى مطروح وفى الوقت الذى كنتم فيه تصرحون بأن علاقاتكم معنا على غاية الوداد كنتم تستبون وترسلون مع رسلكم كتبا كالتى أرفقها بكتابى هذا وإنى مرسلها اليكم لتعلمو الحقيقة .

أرى انكم لازلتم تذكرون أمر معاهدة عقدت مع الطليان ووجدت بين أوراق سنو بك . وأنا أعود فأكرر القول ان ذلك غير صحيح لسببين . الأول لأنه لم نعمل معاهدة مثل هذه قط والثانى لأن سنو بك لم يكن عنده السلطة لأن يعقد معاهدة كهذه .

ان جعفر الذى هو الآن أسير حرب يقول ان الانكليز الذين نجو من الوابور والآن فى الأسر عندكم هم فى شقاء عظيم وليس عندهم مايلزم من الثياب اوالطعام . وانتم تقولون انهم على أتم الراحة والأمان . فأى القولين أصدق .

إنكم تشكون من أنى حجزت رسلكم هنا وأنا لم أفعل ذلك الا بعد أن بادأتمونى بالعداء . إن الله وحده يعلم بالخفايا وما هو فى ضميركم . وكل ما يمكننى أن أقوله لكم ان أعمالكم كلها دلت على عدم تبصر وروية ويلزم أن تحصدوا الزرع الذى غرستموه .

إنكم بأعمالكم قد وقفتم موقف العدو ومادام فى الأراضى المصرية رجل مسلح من رجالكم فانى أعتبركم عدواً وقد سبقت فأخبرتكم عن الشروط التى بها وحدها يمكننى أن أبدأ بالمفاوضة معكم . وهذه الشروط أرسلتها فى كتاب مؤرخ فى ٢٨ صفر سنة ١٣٣٤ الموافق ٤ يناير سنة ١٩١٦ وهى كما يأتى :

(١) أن تردو بسلام جميع الأسرى البريطانيين أوالهنود أوالأوربيين الذين فى يدكم .

(٢) يجب أن تبعدو كل الأتراك أوالألمان الذين عندكم . وإن كنتم تجدون صعوبةً فى إبعادهم فيمكنكم أن تسلموهم لى أسرى حرب .

(٣) يجب أن تخرجو جميع رجالكم المسلحين من الأراضى المصرية وتتعهدوا بعدم دخول رجال مسلحين الى الأراضى المصرية و إذا دخلو عوملو معاملة أعداء حيثما وجدوا .

(٤) يجب أن تجلو جلاءً تاما عن سيوه والسلوم وعن جميع البلاد التى الى الشرق منها وتقيمو بسلام فى الجغبوب فاذا كنتم الآن تجيبون هذه المطالب وتظهرون بالأعمال أنكم تريدون أن تكونو على الوداد فانى مستعد للتساهل معكم أكثر مما تؤملون .

المهر الرسمى — الجنرال السرجون مكسويل

القائد العام لجيوش جلالة ملك بريطانيا العظمى

ماسبق فى التاريخ من استيلاء الافرنج
على طرابلس الغرب

للأمير شكيب

عند ما ضعف شان العرب فى صقلية وطردهم منها الملك رجار النورمندي واختلت إدارة أمورهم فى تونس وطرابلس فكر رجار فى غزو طرابلس والمهدية فبعث بأسطول نازل طرابلس آخر سنة ٥٣٧ للهجرة فنقب الافرنج سور طرابلس وكادوا يستولون عليها إلا أن العرب انحدروا من الجوار فهزموا الافرنج وغنموا أسلحتهم ودوابهم ورجعوا خائبين . ثم ان رجار لم يقطع الأمل من تلك البلاد وصار يترقب الفرصة لغزوها وفى سنة ٥٤٣ للهجرة أرسل أسطوله بقيادة جورجى أمير البحر عنده فاستولى على المهدية بثلاثمائة مركب ثم استولى على صفاقص وحصلت فى طراباس مجاعة أصاب الناس منها شدة عظيمة واختلت الأحوال وفنيت الحامية فاهتبل الافرنج الغرة وجاء أسطول رجار ونازل طرابلس وقاتلها الافرنج برا وبحرا وكان أهل طرابلس قد اختلفوا فيما بينهم وأخرجوا الأمير الذى كان عليهم محمد بن خزرون وولوا عليهم أميرا من لمتونه وحصلت بينهم فتنة استفاد منها الافرنج فتمكنوا من البلدة وأثخنوا فى القتل والنهب ونجا كثير من أهل طرابلس الى الداخل وبعد أن تمكن الافرنج من البلدة نادوا بالأمان فتراجع المسلمون إليها وأقاموا تحت حكم الافرنج وانقرض أمر بنى خزرون من طرابلس ثم ولى الافرنج أبايحيى رافع بن مطروح على طرابلس وأخذوا رهنا منه على الطاعة ونادوا فى صقلية بالمسير الى طرابلس كما ينادى الآن موسولينى بالمسير إليها لأجل استعمارها فسار إليها أناس كثير من الافرنج واستولوا على بلاد الساحل كلها وضربوا على أهلها الجزية وصار لهم من طرابلس الى قرب تونس ولم يزالوا الى أن استنقذ تلك البلاد كلها منهم عبد المؤمن بن على سلطان دولة الموحدين وكان ذلك سنة ٥٥٥ إذ نقض يحيى بن مطروح طاعة الافرنج واستنصر عبد المؤمن بن على الذى طرد الافرنج من المهدية بعد حصار شديد

ثم إن الافرنج رجعوا فغزوا طرابلس بعد ذلك بمائتى سنة . وكان فيها أمير اسمه ثابت بن محمد فجاءها الجنوية سنة ٧٥٥ وكانوا جمعاً غفيرا فنزلوا بالبلدة أولا كأنهم آتون للتجارة ثم بيّتوها ذات ليلة وصعدوا الأسوار وملكوها على الأهالى وهتف هاتفهم بالحرب ولبسوا السلاح فاستيقظ الأهالى من مضاجعهم فرأوا بلدتهم بيد الافرنج فلم يكن منهم إلا النجاة بأنفسهم فاستباحها الافرنج ونهبوها ثم داخلهم أبوالعباس أحمد بن مكى صاحب قادس فى فدائها فاشترطوا عليه خمسين الف مثقال من الذهب العين فجمعها الأهالى من قابس والحامة و بلاد الجريد ودفعوها الى النصارى وأخرجوهم من طرابلس و بقيت أيضاً نحوا من مائة وخمسين سنة خالية من الافرنج . ثم غزاها الاسبنيول سنة ٩١٦ وكان أهلها قد استناموا الى الدعة وأهملوا الدفاع عن بلدتهم فلما جاء الافرنج لم يكن منهم إلا الفرار و بقى الاسبانيول فيها الى زمان بنى عثمان فأرسل أهالى طراباس وفداً سنة ٩٢٦ الى الاستانة العلية يستمدون السلطان سليمان القانونى رحمه الله لأجل إخراج الاسبانيول من طراباس وكان الوفد الطرابلسى قد سهلوا الأمر على السلطان فأرسل معهم رجلا اسمه مراد آغا ومعه قليل من الجند فنزل مراد آغا فى قرية تاجوره على اثنى عشر ميلا شرقى طرابلس وحاصر طرابلس فعجز عن فتحها بتلك القوة القليلة ثم كان أهالى نابولى وجنوة غزوا المهدية واستولوا على جزيرة جربة فأرسل السلطان سليمان أساطيله فأوقعوا بهم وطردوهم ثم فى سنة ٩٥٨ قدم طرغود بك أمير البحر الى طرابلس فى مائة وعشرين سفينة وحاصرها وفتحها وجاء مراد آغا من تاجوره وتولى الأمر فيها و بعد ذلك رجع طرغود بك الى الاستانة ثم فى سنة ٩٦٢ جاء طرغود بك بالأساطيل ونازل وهران وأخرج الاسبانيول منها ثم نازل بنزرت وأخرجهم أيضاً منها ثم غزا ميورقه وكورسكه ورجع الى الاستانة بغنائم وافرة

عرب طرابلس

(خاتمة : كنت رغبت الى حضرة الوجيه الأخ الفاضل السيد عبد الستار الباسل أحد كبار قبيلة الرماح بالفيوم ومن سراة بر مصر أن يكتب لى خلاصة عن عرب طرابلس لأن صاحب البيت أدرى بما فيه فأرسل لى بالخلاصة التالية نثبتها حرفياً) :—

فى القرن الخامس من الهجرة رحلت قبيلة هلال من جزيرة العرب الى مصر . ورحل معها بطن من سليم خؤولته فى بنى هلال . أقاما فى مصر ما أقاما ثم رحلا الى افريقية وكانت اذ ذاك تابعة لخلافة الفاطميين فى مصر

سبب الرحيل الى افريقيا

كان فى تونس عامل للفاطميين يدعى ابن باديس نخلع طاعة الفاطميين وخطب للخليفة العباسى ببغداد ورفع شعار العباسيين على دور الحكومة . كلفت حكومة مصر هاتين القبيلتين بالذهاب الى افريقية ومحاربة ابن باريس وفعلا رحلا الى تلك الجهة وحاربا ابن باديس ونصراءه من البربر وكانت زعامة قبائل البربر اذ ذاك فى زناته . انتصرت هاتان القبيلتان على ابن باديس ومن معه وفتحتا البلاد وأرسلتا الى مصر بخبر هذا الفتح . ولبداوتهما لم يطمعا فى الحكم ولا فى الملك . بل سلما البلاد للفاطميين واكتفتا بأن تعيشا فى الصحراء كما كانتا تعيشان من قبل . ثم اقتسمتا الصحارى والمراعى بينهما فأخذت سليم صحراء طرابلس وأخذت هلال صحراء تونس . فى هذه القسمة غبن على سليم لأن صحراء تونس أخصب من صحراء طرابلس . والسبب فى ذلك أن سليم أقلية وهلال كثيرون لأن سليم لم ترحل من جزيرة العرب كلها كما رحلت هلال بل رحل بطن واحد منها وهو الذى خؤولته فى هلال أما باقى سليم فبعضها فى الجزيرة الى الآن وبعضها فى السودان المصرى وهو ما يسمونه الآن (بعرب بقارة سليم)

سليم طرابلس

تقسم سليم فى طرابلس الى فخذين كبيرين . الكعوب وأبو الليل . أما الكعوب فهم ما يسكنون بين قصر سرت شرقا وحدود تونس غربا وتشمل الكعوب قبائل « المحاميد »

« وترهونه » و« أولاد سليمان » و « الرفلة » وقبائل أخرى صغيرة بعضها سكن مدن السواحل و بعضها اندمج فى هذه القبائل الكبيرة

أما أبو الليل فهؤلاء المسمون الآن بالسعادي نسبة الى امرأة تدعى سعدى من قبائل زناته بنت عظيم من عظمائهم أخذت فى حرب ابن باديس وتزوج بها زعيم سليم اذ ذاك (أبو الليل) وهؤلاء كانوا يسكنون بين قصر « سرت » غرباً وعقبة السلوم شرقاً .

يقسم أولاد سعدى هذه الى ثلاث قبائل (١) براغيث (٢) عقاقرة (٣) سلالمة

١ ـ السلالمة أو بنى سلام يكونون الآن ثلاث قبائل جميعها تسكن مصر وهم (١) الهنادى (٢) بنى عونه (٣) الجبالية

٢ ـ العقاقرة أو بنى عقار . يكونون الآن أولاد على وهم جميعاً بمصر . والحرابى وهذه القبيلة يتكون منها خمس قبائل وهى البراعصة والعبيدات والدرسة والحاسة وأولاد فايد وهؤلاء فريق منهم فى مصر وفريق فى طرابلس

٣ ـ البراغيث وهم يكونون (١) الفوائد وهذه جميعها بمصر (٢) الرماح (قبيلتنا) وهذه غالبيتها بمصر وقليل منهم فى طرابلس (٣) الجبارنه أو أولاد جبريل وهم ثلاث قبائل (١) العواقير وجميعها بطرابلس (٢) الجوازى وجميعها بمصر (٣) المغاربة وجميعهم بطرابلس

٤ ـ العبيد وجميعهم بطرابلس

٥ ـ العرفاء أو أولاد عريف وكلهم بطرابلس

هذه هى قبائل سليم التى سكنت طرابلس وأول مجئ بعض هذه القبائل الى مصر فى أواخر القرن الثانى عشر من الهجرة وأول من جاء منهم بنو سلام ثم بعدهم جاءت قبيلة أولاد على من العقاقرة . ثم فى أوائل القرن الثالث عشر جاءت بعض القبائل الأخرى وكان ذلك بسبب حروب وقعت بينهم و بين اخوانهم الذين بقوا فى طرابلس الى حرب الطليان

هذا ياسيدى الأمير مختصر تاريخ هذه القبائل بعضها أخذته من ابن خلدون وصبح الأعشى . أما بعد القرن التاسع من الهجرة فهى روايات تتناقلها الأبناء عن الآباء أخذتها من الشيوخ نقلا عن شيوخ قبلهم مدعمة ببعض أشعارهم وأغانيهم

السنوسية

للأمير شكيب

سبق ذكر مجمل الدعوة الوهابية ، وانها اصلاح دينى وانابة الى عقيدة السلف الصالح لولا ماأصابها من الغلو والافراط . أما السنوسية[١] فهى طريقة عمل بالسنة والشريعة بدون شرط ولا قصور . مؤسسها سيدى محمد بن على السنوسى الخطابى من عيون أعيان القرن الثالث عشر للهجرة ، أصله من الجزائر من قبيلة مجاهر من جهات مستغانم ، جده سيدى عبد الله بن خطاب المجاهرى . واطلعت لهم على نسب ينتهى الى على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء رضى الله عنهما ويقال ان عدد أبناء هذا الحى يبلغ ٧٠ ألف نسمة وانه ينتمى اليهم وينضوى حولهم نحو ٢٠٠ ألف أكثرهم فى (عمالة) و (حران) بجوار نهر شلف . وقرأت أن رئيس هذه القبيلة اليوم هو سيدى أحمد الشارف بن تلوك[٢] وان سيدى احمد الشارف هو شيخ الطريقة السنوسية بالقطر الجزائرى . والذى أعامه أن الحكومة الفرنسية فى المغرب لا تسمح بنشر الطريقة السنوسية التى تعدها خطراً عظيما على الاستعمار ، وأنها تسمح لسائر الطرق مع المراقبة اللازمة لها لكنها لا تقبل صرفاً ولا عدلا من جهة السنوسية التى تعلم من قوتها ومن مقدرتها العملية ما تعلم .

أما سيدى محمد بن على السنوسى فقد كان عالماً عاملا ، كبيراً مجتهداً ، خرج من الجزائر عند ما احتلها الفرنسيس . وطاف بالبلدان وحج البيت الحرام ولقى كبار الأشياخ من جلتهم والد الادريسى القائم بعسير . ويظهر أنه رأى القطر الطرابلسى أكثر استعداداً من غيره لقبول دعوته فابتدأ بتأسيس طريقته فى طرابلس وعاونه على ذلك سيدى أبو القاسم العيساوى والد الشيخين الاجلين سيدى أحمد العيساوى شيخ زاوية السنوسى ببنغازى ، وصديقنا سيدى عبد العزيز العيساوى الذى أوفده السادة السنوسية ثلاث مرات الى الاستانة فيما يعرض لهم من الأشغال لدى الدولة ، آخرها فى أثناء الحرب العامة . وقد

(١) راجع صفحة ٣٠٠ من الجزء الاول

(٢) ولا أعلم درجة قرباه من صديقي سيدى محمد الشارف ابن عم السادة السنوسية وشيخ احدى زوايا دفنا من جهة السلوم

وفق الاستاذ السنوسى الأعظم الى نشر طريقته فى أكثر بقاع طرابلس و برقة ، ولا سيما برقة فان أهلها فى الحواضر وقبائلها البادية بأجمعهم سنوسية مجاهدون وفى كل بلدة زاوية وعند كل قبيلة زاوية . واذا تعددت أفخاذ القبيلة فلكل فخذ منها زاوية ، وكذلك زوايا السنوسى ممتدة الى مصر ، فلهم زوايا عظيمة فى سيوة والواحات الدواخل الى الفيوم ؛ وزواياهم متسلسلة مطردة من بنغازى الى اسكندرية وعندهم نحو ١٢ زاوية فى نفس الحجاز لها تبع كثير من قبائل حرب وغيرها وزواياهم كثيرة فى السودان وانما أشهر زواياهم زاوية جغبوب على مسافة يومين أو ثلاثة من الحدود المصرية الى الغرب وهى بلدة تامة فى عظمها واتساعها وعدد سكانها . وكانت جغبوب واحة مالحة يأوى اليها الدعار واللصوص ولا تجسر القوافل أن تمر بها من جراء العيث فى أنحائها فلما اختارها سيدى محمد بن على السنوسى مقراً له و بنى بها زاويته الكبرى صارت مهد امان ، ومركز عبادة ومشرق أنوار ومعلم هداية فغرس بها الأشجار ، ونسق الجنان واستنبط العيون ، وتوسع فى البناء ، وأسس مدرسة لتخريج مريدى الطريقة ، أجلس للتدريس فيها جلة العلماء . وكان مركزه بادئ ذى بدء فى الزاوية البيضاء من الجبل الأخضر على مقربة من شحات ، وهى قرية مبنية على خربة « سيرنا » عاصمة برقة أو « سيرنا ييك » فيها بقايا آثار من ايام يونان ومن قبلهم ومن بعدهم ، وموقع سيرنا هذه أوشحات على جبل عال مشرف اشرافاً قائماً على علو ثلاثمائة الى اربعمائة متر ومن حذاء هذا الجبل الى البحر مسافة ساعتين وهناك مرسى اسمه سوسة ولا مبالغة اذا قيل ان هذا الموقع هو من أبدع ما خلق الله فى أرضه ، لمحة منظر ، وحسن هواء ، وطيب نجعة ، لا سيما وفى أعلاه مغارة تنبجس منها عين فياضة بمياه كذوب اللجين ، تنحدر من هناك فى مثل شلال الى أسفل الجبل حيث تسقى البساتين والغياض ، وأما الزاوية البيضاء فليست فى شحات بل فى هذه زاوية أخرى لقبيلة الحاسة [1] يديرها سيدى محمد الدردفى ولكن الزاوية البيضاء على مسافة ساعة من شحات الى الجنوب مبنية فى وسط غابة من غاب الجبل الاخضر على مسافة خمس دقائق من مقام سيدى رافع الانصارى أحد الصحابة الذين فتحوا تلك البلاد ، وقد كان سيدى محمد السنوسى بناها وجعلها مقره ، وقد رأيتها رأى العين فى اثناء جهادى

(١) التى ينتسب اليها عقيلة الحاسى الشهير فى مرج ابن عامر من ديار فلسطين

بتلك الديار سنة ١٩١١ و بت مرة بتلك الزاوية فاذا هي عبارة عن مدرسة تحيط بصحنها الغرف لاقامة الطلبة وفيها جامع حسن ، وهي اليوم زاوية قبيلة البراعصة المشهورة بالشجاعة والنجدة ، وعهدي بمشيخة البراعصة ورئاسة هذه الزاوية لسيدي محمد العلمي الغماري من ذرية سيدي عبدالسلام بن مشيش المدفون في جهات طنجة من المغرب الأقصى ولكن هذه الزاوية فقدت كثيراً من رونقها بعد تحول السنوسي عنها الى جغبوب ، ويقولون انه كان قد شعر بدنو استيلاء الاجانب على تلك الديار فاختار الايغال الى الجنوب والاقامة بالصحراء فعمر زاوية جغبوب وتوفي بها رضي الله عنه وله فيها ضريح يزوره السنوسية من جميع الديار ، وولد له بالزاوية البيضاء سيدي المهدي والد سيدي ادريس أمير برقة الحالي وسيدي الشريف والد سيدي أحمد الشريف نزيل الأناضول عند كتابة هذه السطور وامام الطريقة السنوسية كلها ، ولقد استخلف السنوسي ولده المهدي وأنبأ بأنه سيكون له شأن عظيم . وصدقت فراسته فيه فانه أكمل عمل والده ، و بنى زوايا عديدة ، وذاع ذكره في الأقطار وحسبت له دول الاستعمار حساباً كبيرا وحاولت أن تتقرب اليه بأنواع الوسائل ، وأصناف الالطاف ، فأعرض عن كل هذه المداخلات ، وعكف على عمله الذي هو بث الدعوة وايقاظ الأمة ، وتأسيس الزوايا وربط الأهالي بها ، حتى هال أمره السلطان عبد الحميد فأراد أن يكتشف حقيقته و يستطلع طلع حاله ، فأرسل اليه بمقره في جغبوب وفداً كان فيه صديقي المرحوم صادق بك المؤيد من آل العظم في دمشق وأحد حجاب السلطان ، فحدثني رحمه الله عن تلك الرحلة وعما لقوه في جغبوب وان السيد السنوسي لم يكن الا داعياً مرشداً ، وانه دائماً يدعو الله بتأييد الدولة العثمانية وتوفيق الحضرة السلطانية ثم ان سيدي المهدي السنوسي تحول من جغبوب الى الكفرة ، وهذه هي واحة كبيرة تسكنها قبيلة اسمها زوية في وسط الصحراء تبعد مسافة ٢٥ يوماً عن بنغازي الى الجنوب ، يمر السائر اليها في طريقه على بلدتي جالو وأوجلة اللتين هما في أول الصحراء على مسيرة ثمانية أيام من بنغازي فاختلفت الأقوال في أسباب ترك السيد السنوسي مركزه الذي فيه قبة المقدس والده ، والمدرسة التي شادها مبعثاً لأشعة أنوار الشريعة والطريقة ، واختياره الانزواء في الكفرة بمكانها من البعد عن العمران ، فقال بعضهم انه لما استقرت قدم الانكليز بمصر أجفل السنوسي ووضع نصب عينيه الايغال في الصحراء ، وانتجاع واحة تكون أقصى من جغبوب مكاناً وأعز منالاً ،

وقال آخرون بل السنوسى منذ زمن مديد كان يتكهن بوقوع الحرب مع النابوليتان (الطليان) وان هؤلاء لابد فى يوم من الايام ان يغزوا طرابلس وبرقة ، فشرع يهيء اتباع طريقته للمقاومة ، ويعلم فضائل الجهاد ، مما ظهر أثره فى حرب ايطالية سنة ١٩١١ ظهوراً أدهش الشرق والغرب ، وأثبت أن الطريقة السنوسية هى عبارة عن دولة بل كثير من الدول لا تملك ما تملكه الطريقة السنوسية من الوسائل الحربية وذلك بكونها طريقة عملية لا تعرف سوى العمل بالكتاب والسنة والاقتداء بسلف هذه الامة ، ومن جملة ما فكر فيه أن يجعل مركزه بعيداً ما أمكن عن مطارح انظار الدول الاستعمارية ليخلو له الجو فى تجهيز قومه وبث دعوته ، فانتبذ هذا المكان القصى من الصحراء فى النقطة الوسطى بين ساحل البحر المتوسط والسودان . وقال آخرون بل ساءته معاملة بعض مأمورى الأتراك فى التحرى والتنقيب عن السلاح وكبس زوايا السنوسية فى الجبل الأخضر وشاع أن الدولة أخذت تشتبه فى أمره ، وتتوجس خيفة ادعائه الخلافة فقصد أن يعتزلها الى الصحراء الكبرى ، ولعل هذه الاسباب جميعها متوفرة فى قضية تحوله الى الكفرة يضاف اليها انه من الكفرة كان يقصد القرب من السودان وبث دعوته فى تلك الاقطار ونشر الاسلام فى أواسط افريقية من طريق واداى ، وبرنو ، وكانم ، وادامو ا ، والداهومى ، وغيرها من أواسط افريقية وغربيها مما كان ولا شك فيه للسنوسية اليد الطولى ، فضلا عن كون اقامته بواحة الكفرة سببت عمران تلك الواحة وازدياد الغراس والفلاحة فيها وترقية عقول أهليها ، فبنى فيها زاوية عظيمة سماها التاج وجعلها مقرّه وبنى فى أماكن أخرى من تلك الواحة ، وفى واح قريبة منها زوايا أيضاً وأسس مثلها فى واحات الوجنقات التى تقع وراء دارفور الى الشمال ، وأخرى فى واحة ونّ وواحة قرو وزاوية فى عين كلك التى وقعت فيها الحرب بين السنوسية والفرنسيس الذين قصدوها من واداى. وزوايا عديدة عمر بها واحات الصحراء الكبرى وآنس بها وحشتها ، ونضر غبرتها ، وأيقظ غفلتها ، وشغل أفكار الدول الاستعمارية من كل جهة ، فانكلترة تحسب حسابه من جهة السودان المصرى ، وفرنسا من جهة واداى ومستعمراتها فى أواسط افريقية وشماليها وغربيها . وايطاليا كانت تتزلف اليه لعلها تنال سعوته فيما كانت تنويه من الغارة على طرابلس . ولم يخل الأمر من كون السلطان عبد الحميد الذى كان لا يهدأ له بال قد أراد أيضا معرفة مقاصد

السنوسى من انتباذ ذلك المحل القاصى . فبلغنى أنه أوفد اليه مرة ثانية المرحوم صادق بك المؤيد الى نفس الكفرة فأخذ منه الجواب بأنه لا يقصد سوى خدمة الاسلام ، وأبث الدعوة لطاعة السلطان . هذا ولم يزل سيدى المهدى السنوسى يبث طريقته ويكمل أهبته ، الى أن مضى الى ربه منذ نحو ٢٠ سنة فخلفه سيدى احمد الشريف ابن أخيه الذى اشتهر أثناء الحرب الطرابلسية وقام فيها المقام المحمود الذى لم يقمه أحد ، ولولاه لم يمكن انور ولا غيره من أبطال الدفاع عن بر طرابلس أن يعملوا شيئاً ، واتصل جهاده من الحرب الطرابلسية الى ما بعدها فلم تخمد له نار الى الحرب العامة ، الى ان دخل الانكليز والطليان فى المفاوضات مع ابن عمه سيدى ادريس ابن سيدى المهدى وأقنعوه بالاتفاق معهم على أن يكون هو أميراً على داخل برقة ويكون الحكم للطليان فى مدينتى بنغازى ودرنه ، ويكون لهم احتلال بعض المراسى فانعقد الاتفاق على شروط معلومة كانت خلاصتها ما تقدم . ولما رأى سيدى احمد الشريف ذلك وكان الوئام بين أبناء البيت السنوسى من القواعد المقدسة لم يستحسن فى باطنه خطة ابن عمه ولكنه لم يشأ أن يجاذ به الحبل وصبر على المرّ ، وأرسل الى المرحوم أنور ناظر الحربية يومئذ وذلك سنة ١٩١٨ يطلب منه ارسال غواصة لنقله الى الاستانة فاستقلها بحاشيته الى تريسته ومنها ركب قطار الحديد الى فينا ومنها جاء الى الاستانة واستقبله أهلها استقبالا فائقاً ، وأعظم السلطان محمد وحيد الدين قدومه وصادف ذلك بداية جلوس السلطان على عرش آل عثمان ، فاختار السيد المشار اليه لتقليده السيف فى الحفلة المعتادة لذلك فى جامع أبى أيوب الانصارى فى الخليج وهو الذى يسميه الاتراك جامع سلطان أيوب . ولما دخل الحلفاء الاستانة أقام ببروسة ثم لما احتلتها اليونان تحول منها الى قونية ثم ذهب الى حدود العراق العربى داعياً الى الوحدة الاسلامية . ولم أحصل الى هذا اليوم على شرف معرفته شخصياً وان كنت أمتّ اليه بصداقة أكيدة وكانت المراسلة بيننا متصلة منذ سنين عديدة . أيده الله وأبقاه ونفع هذه الأمة على يده

بعد تحرير ما تقدم بشأن السادة السنوسية ، أسعف القدر ، ووفى الدهر ، بعد أن غدر ، بتحقيق الامنية التى طالما كنت اتمناها ، وادراك الغاية التى كنت من سنين عديدة أتوخاها ، وهى مشاهدة الحضرة السنوسية ، واجتلاء تلك الأنوار الأنسية ، بعد ان حال بيننا و بينها طول السفار وتباعد الاقطار ، واحتلال الاعداء بعد الحرب الكونية أكثر

الديار . فلما كنت فى معسكر الجبل الاخضر ، بعين منصور فى ظاهر درنة سنة ١٩١٢ كان الاستاذ الأكبر سيدى أحمد الشريف نجل سيدى محمد الشريف ، نجل سيدى محمد بن على السنوسى مؤسس الطريقة السنوسية وخليفة عمه سيدى محمد المهدى رضى الله عنهم جيعاً ، لا يزال فى واحة الكفرة الواقعة فى وسط الصحراء على مسافة ٢٥ يوماً الى الجنوب من مدينة بنى غازى ، ترد منه الافادات والأوامر الى الادوار المرابطة فى وجه الطليان (١) وهو بعدُ فى زاوية التاج مركز السادة السنوسية ، ثم تقدم السيد من واحة الكفرة الى واحة الجغبوب ، ليكون أقرب الى ميدان الحرب ، ولتشتدّ به عزائم المجاهدين . فكان فى ذلك الوقت قد وافق سفر هذا العاجز من الجبل الاخضر ، قاصدا الاستانة لمذاكرة رجال الوزارة الجديدة وهى وزارة مختار باشا وكامل باشا وحسين حلمى باشا ، فى أمر طرابلس وثنى عزمهم عن التساهل فيها مع الطليان كما كان شائعاً . فلم يقسم لى القدر فى تلك الآونة ملاقاة الاستاذ السنوسى المشار اليه ، و بقيت العلاقات فيما بيننا بالمراسلة ، الى أن شبت الحرب الكبرى ، فانقطعت قليلا ثم استؤنفت ببرد الغواصات التى كان المرحوم الشهيد أنور ينفذها الى سواحل طرابلس .

ولما قدم السيد الى الاستانة العلية بالغواصة سنة ١٩١٨ صادف وجودى بألمانية بمهمة التاليف بين العثمانيين والألمان ، فيما شجر بينهم فى بلاد القافقاس . فلما وصل السيد الى العاصمة لم يكن انتهى شغلى فى برلين ، وما انتهى شغلى هناك الا وقد طلب البلغار الهدنة وبدأ الانهيار فى أجرف ألمانية وحلفائها . فأبرق الىّ أنور ببرقية رقمية بواسطة سفارة الدولة ببرلين يترجانى سرعة الاوبة . فذهبت قاصداً الاستانة من طريق رومانية ، وركبت الباخرة من مرسى برايلا على الطونة ، ومنها الى ميناء كوستنجه ، حيث تلقت الباخرة أمراً بعدم دخول البوسفور والانصياع الى اودسا . فذهبت مكرهاً وضاق صدرى جداً بهذا التأخير ، والمسافر عليل دواؤه الوصول . ولكن قد يكون الخير فيما كره الانسان ، « ولو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع » . اذ لو أكملت الباخرة الشقة الى الاستانة ، لم يلبث الحلفاء

(١) أهالى طرابلس الغرب يسمون المعسكر دوراً ، وأصل هذه التسمية ــ والله أعلم ــ أن قبائل العرب تأتى الى الحرب بالمناوبة ، كل قبيلة تفرض عليها خدمة كذا من الأيام أو من الاسابيع ، أو من الاشهر ، فتقوم بها أو ترسل عدداً معيناً يقوم بها ، ثم تذهب الى مناجعها ويأتى الى محلها غيرها ؛ وهكذا بالتعاقب الى أن تكون نوبتها ثانية ، وهلم جرا ، فسمى المعسكر الذى تخيم به تلك القبائل دوراً

أن قبضوا على مع رفاقى ، وغربونى الى مالطة . فكان فى نكوص الباخرة عن اكمال الجرى الى دارالسعادة ، وذهابها الى اودسا ، وملاقاتى ثمة المرحومين الاستاذ الشيخ عبدالعزيز جاويش والاستاذ الشيخ صالح التونسى ، والأستاذ الشيخ خضر حسين التونسى ، ورفاقهم من مصريين وتوانسة ، وما علمته منهم من انسلال انور وطلعت وغيرهما من الاستانة ، ما غير وجهتى واعادنى مغرّباً بعد أن كنت مشرقاً ، مما سبق تحريره فى موضع آخر .

فلهذا لم يتيسر لى وقتئذ لقاء سيدى احمد الشريف . و بقيت أ كاتبه من اوربا الى الاستانة، ثم الى الاناضول . فلما يسر الله الاجتماع فى هذه الايام الاخيرة ، حدثنى هو بنفسه عن أمور كثيرة وحوادث جرت معه ، آثرت أن الخصها لقراء هذا الكتاب ، لكونى سمعتها من فمه ، وأحسن التاريخ ما أخذه الانسان من فم صاحبه ، وأروى الروايات ما استقاه المؤرخ من رأس نبعه .

ذكر لى السيد ، حفظه الله ، خلاصة رحلته من طرابلس الى الاستانة ، الى الأناضول، الى أن حصل فى مرسين التى يقيم بها اليوم . وذلك أن أنور كان أنفذ أخاه نورى أثناء الحرب الكونية الى طرابلس الغرب قائداً عاماً ، وعززه ببعض ضباط وأسلحة ونقود ، وأمره باقناع السادة السنوسية بمهادنة الطليان ، ومهاجمة الانكليز فى مصر ، حال كون سيدى أحمد الشريف اعتقد عكس هذه السياسة ، وهو مهادنة الانكليز ومطاردة الطليان . فشرع نورى يغادى سيدى أحمد و يراوحه فى أمر الزحف صوب مصر ، والسيد ثابت فى رفضه . حتى وقع الخلاف بينهما . وليس من المظنون أن يكون أنور أمل فتح مصر بتلك القوة الضئيلة ، وانما يغلب انها كانت سياسة المانية ، المقصود منها تحميل انكلترة خسائر جديدة ، وتحويل جانب من قوتها الى جهة السنوسية ، اذ كل مايتحول من قوة الانكليز نحو الأقوام الاسلامية كان يخف عن الألمان . حتى ان كثيراً من أركان الحرب يذهبون الى أن حملة الترعة نفسها لم تكن على أمل كبير بافتتاح الديار المصرية ، وانما كان هدف الألمان منها تحويل جانب كبير من قوة انكلترة لحماية الترعة ، التى هى مجرى نفس هذه الدولة . أما سيدى أحمد الشريف ، فلم يكن يعتقد بصواب الهجوم على مصر ، أولا : لأنه كان يريد حصر قوة العرب فى مجاهدة الطليان ، وعدم الاشتغال بغيرهم . ثانياً : انه كان يخشى فيما لو هاجم مصراً ، أن يقع الفشل فى صفوفه ، لما كان يعلمه من عظمة الاستعدادات

الانكليزية . فاذا فشلت حملته على مصر ، فترت عزائم العرب ، وضعف فألهم . ثالثاً : انه كان يهمه بقاء الطريق مفتوحة بين مصر والجبل الأخضر ، خوفاً على العرب من الجوع ، ويعلم أنه لوهاجم مصراً لسد الانكليز طريق مصر ، ووقع العرب فى حيص بيص . وكان الجنرال ماكسويل الانكليزى يصانع السيد كثيراً ، ويراسله دائماً ، ويتحفه ببعض الكتب ، ويتزلف اليه بكل الوسائل ، اتقاء غارة من جهة السنوسية على مصر ، كما أن السيد كان يصانع الجنرال ماكسويل ، ويؤمنه من جهة السنوسية ، ويستخدمه فى قضاء أغراضه ، وكان يستصنع فى مصر ألبسة لتوابير الجيش السنوسى ، وغير ذلك من لوازمه ، ولا يجد من جهة الانكليز حرجاً . فكل من الفريقين كان فى الواقع يتقى الآخر ، ووقعت فى يد السيد أسرى انكليز ، نجوا الى بر طرابلس من بارجة انكسرت عند مالطة ، فقيدوا من ساحل طرابلس الى السيد وهو فى السلوم ، فألبسهم وأكرمهم وبعثهم هدية الى الجنرال ماكسويل . وكان هذا ينفذ اليه من وقت الى آخر بعض كبار ضباطه ، ممن يعرفون سياسة العرب ، ويعرض على السيد محالفة انكلترة ، ويطمعه فى مغانم كثيرة ، بشرط أن السيد يطرد نورى أخا أنور من السلوم ، ويترك الأتراك . فكان السيد يصم أذنه عن هذه الاقتراحات ، ولايعد الجنرال ماكسويل الا بالمسالمة فحسب . ولكن أنور كان يصدر الأمر تلو الامر الى أخيه ، بأن يتحرش بالانكليز ، ويستقدح زناد الحرب بينهم وبين السنوسية ويكتب الى السيد ملحاً عليه بشد عضد نورى ، وأنه لا يقبل له عذراً فى التباطؤ . ولما تلكأ السيد عن غزو مصر وقع الخلاف بينه وبين نورى ، وشرع نورى يتحكك بالانكليز ، بدون معرفة السيد ، ويضرب بالقنابر سفائنهم التجارية ، التى كانت تأتى بالبضاعة والأرزاق الى السلوم . فاغتاظ السيد من عمله ، وبين له سوء مغبة ذلك ، فلم يأبه لكلامه وبقى على عمله ، بل كتب الى أخيه فى الاستانة بأن سيدى أحمد الشريف لايريد معاداة الانكليز ، بل انه ممالئ لهم سراً ، وغير ذلك من الأقاويل . ثم أرسل نورى سعاة الى مصر يقولون ان السيد يأبى الزحف الى مصر مداراة للانكليز ، مع انه هو حضر من الاستانة لأجل اعداد حملة على مصر ، وانقاذها من أيدى الانكليز . فصارت تتوارد من مصر الرسل الى السيد ، تعاتبه على موقفه هذا ، وتبين له مايخالج المصريين بحقه من الظنون ، بسبب تخلفه عن الزحف . عند ذلك استدعى السيد نورى وقال له : هوذا أنا

حاضر للسير ، فلاتقدر أن تقول ان العائق كان منى ، وانما اذا فشلت هذه الحملة فلا أكون أناالمسؤول . وركب السيد وسار بالجيش ، ومعه نورى قائداً أول ، وجعفر العسكرى قائداً ثانياً[1] وكان عدد كل ماجمعوه من الجند أربعة آلاف . ولما أحس الانكليز بالحركة أخلوا منطقة السلوم ثم بقبق ،وانكفأوا الى الوراء . ولكنهم بعثوا الى السيد ونورى انكم إن تجاوزتم سيدى برّانى الى الشرق ، فليس بيننا و بينكم الاالحرب . فتجاوز العرب سيدى برانى ، ومازالوا حتى خيموا بزاوية أم الرخم غربى مرسى مطروح . وليلة ما كانوا هناك جاءأميرالاى انكليزى يحسن العربية متزيياً بزى بدوى متجسساً فدخل على نورى وأركان حربه ، فلم يعرفوا حقيقة أمره ، ونظر فى القوة التى معه ، فرآها ضئيلة ، وفى جوف الليل انسل من المخيم ، فأخبر قومه بالواقع . فكانت انكلترة جهزت ثلاثين الف مقاتل ، ومعها عدد كبير من المدافع ، وفيها كثير من كوا كب الفرسان ، فصمدت الى القوة التى مع نورى ، فلم تقف هذه لها ، وتراجع المجاهدون الى الوراء واحتشد منهم ألفان فى محل يقال له بئر تونس ، فطمع الانكليز فى أسرهم ، وساقوا عليهم ١٣ الف مقاتل ، فأرادوا أن يحيطوا بهم ، فخابوا ، وثار فى وجههم العرب ودحروهم وألحقوا بهم خسائر جمة . وكان السيد أحمد الشريف بنفسه فىهذه المعركة . فلما ارتد الانكليز الى الوراء ، رجع بمجاهديه هؤلاء الىالسلوم . وأما الانكليز فقصدوا الباقى من القوة التى تحت قيادة نورى فهزموها ، وأخذوا جعفرالعسكرى أسيراً ، وأفلت نورى من أيديهم بأعجوبة . ثم سار السيد الى سيوه، وتقدم الى الواحات الدواخل على مسيرة سبعة أيام من سيوه نحو الفيوم . فجهز الانكليز قوة عظيمة لقتاله ، فاضطر أن يرجع أدراجه الىسيوه ، فتعقبوه الىسيوه ، فدافع عن نفسه فىسيوه دفاعا شديداً ، ودحرهم وخرب عدداً من دباباتهم المصفحة والطرابلسيون يسمونها بالكهربات ــ جمع كهربا ، لكونها تسير بالقوة الكهربائية ــ و بعد أن ارتد الانكليز الىالوراء أجاز السيد من سيوه الى الجغبوب ، وهى مسيرة ثلاثة أيام وتحصن بها . وكان الانكليز بعد أن قطعوا الأمل من سيدى أحمد ، شرعوا فى مخاطبة ابن عمه سيدى ادريس ابن سيدى المهدى فى الصلح ، والاعتراف بامارته على برقة ، والجبل الأخضر بشرط أن يطرد نورى ومن معه من الاتراك ، و يشير الى ابن عمه سيدى أحمد الشريف بالخروج

(١) هو جعفر باشا العسكرى رئيس وزراء بغداد بالأمس ومن أعضاء الوزارة اليوم وهو من أعز أحباء الانكليز

من تلك المنطقة ، وأبلغوه أنه ان بقى سيدى أحمد فى الجغبوب فانهم يهاجمون الجغبوب ويستولون عليها . فارسل سيدى ادريس بالخبر الى سيدى أحمد ، ففارق الجغبوب مغذاً السير الى جالو ، واوجله ، وهى مسيرة ١٢ يوماً من الجغبوب ، فى صحراء يباب تيماء ، لاعشب ولاماء ، وصادف رحيلهم حمارّة قيظ فكادوا يهلكون من العطش ، ولم يتوقف السيد أحمد فى جالو واوجله اتقاء الخلاف مع ابن عمه سيدى ادريس ، وهو أحرص الناس على الوفاق بين السنوسية ، لاسيما بيت الرئاسة ، الذى هو القدوة لجميعهم . فقصد السيد الغرب ، ونزل بسوكنه من بر طرابلس ومعه ثلاثة آلاف مقاتل . واعصوصب حوله السنوسيون الذين بتلك الديار ، مثل بنى سيف النصر وغيرهم ، أماسيدى ادريس فلما رأى الضيق الذى وقع فيه العرب بين الانكليز من جهة ، والطليان من جهة أخرى . والمخمصة التى أصابتهم على أثر سد الطارق ، بين الجبل الأخضر ومصر ، جنح الى الصلح ، وعقد مع ايطالية وانكلترة الاتفاق الذى اعترفتا له فيه بامارة برقة والجبل الأخضر ، وتقلد بموجبه ادارة أمورها ، ماعدا مدينتى بنغازى ودرنة ، وتعهدت ايطاليا بدفع الرواتب لجنوده . وهو الاتفاق الذى نقضته ايطاليا ، بعد حكم وزارة الفاشيستى مباشرة ، وجدّت من بعده الحرب ولما كان شرط هذا الصلح الأصلى هو اخراج نورى والأتراك من هناك ، خرج هؤلاء من برقة الى الغرب لاحقين بمصراطة . وكان استبدّ بأمر مصراطة رجل أصله من غمار الناس اسمه رمضان شتيوى ، ساد بشجاعته وحزمه ومضائه ، وكان فى خدمة ايطاليا أولا ، ثم انقلب عليها ، واستخلص من يدها مصراطة وما جاورها ، بعد الواقعة الشهيرة المسماة بالقرضابية ، التى انهزم بها الطليان شر هزيمة سنة ١٩١٥ ، وكان مبدأها بين الطليان والسنوسية . فالطليان استنفروا لمعاونتهم رمضان شتيوى وقومه ، فزحف ببضعة آلاف من رجاله ، فلما وجد السنوسية وهم الف وخمسمائة مقاتل قد وقفوا فى وجه ١٢ الف مقاتل من الطليان ، وأذاقوهم مرّ الكفاح ، هجم هو على الطليان من الوراء ، وهم على غير انتظار ، فلم ينج من ذلك الجيش الايطالى كله سوى خمسمائة شارد فروا الى جهة البحر ، وغنم العرب جميع أثقال ذلك الجيش . واسترجع العرب بعد هذه الواقعة جميع بر طرابلس ، سوى مدينة طرابلس المحمية بالبوارج الحربية ، واستمر ذلك من سنة ١٩١٥ الى سنة ١٩٢٣ ، اذ جهزت وزارة الفاشيستى جيشاً جراراً استرجع مصراطه ، ومسلاته ، وترهونه ، وغريان ،

وغيرها . ثم كر العرب عليها وأخذوها ، ثم زحف الطليان ثانية واسترجعوها ، والأحوال بين الفريقين لاتزال مدّاً وجزراً . وقد مثل دوراً عظيما فى هـذه الوقائع رمضان شتيوى هـذا الملقب بالسواحلى ، وجاهـد فى الطليان حق الجهاد ، ولـكنه كان صعب المقادة ، أشوس ، مر العداوة ، وكانَ يناصب السنوسية العداء . فلماقدم عليه نورى مغتاظاً مما فعله سيدى ادريس ، تلقاه براً وترحيباً ، وعزّز به مركزه ، مما كان يرد على نورى من نظارة الحربية بالاستانة من الأموال والاعتاد ، وعلت كلمته بانتسابه الى الدولة ، وقبوله نورى قائداً وواليا ، وان كانت فى الحقيقة الـكلمة بقيت لرمضان فى الأمر والنهى . وقد وفق الله طرابلس فى أمر ، وهو أنه كان الاستاذ عبدالرحمن عزام ، من آل عزام بالجيزة ، ومن شبان مصر الناهضين (١) ذوى الحصافة والنجابة ، يجمع حنكة الشيوخ الى حماسة الشبان ، قدالتحق بمجاهدى السلوم يوم زحفوا لقتال الانـكليز ، شهد الوقائع ثم غرّب مع نورى الى طرابلس ، ولما دخل نورى مصراطه ، كان عبد الرحمن يده اليمنى ، فعرف كيف يأخذ رمضان بالحسنى ، ولين بقـدر الامكان من شـدته ، وأصلح بينه وبين أهالى ترهونه ، وزليطن ، واورفله ، وغيرها ، وشـكلوا حكومات متحالفة ، مركزها مصراطه، وعلى رأسها نورى باشا . وكان القائم بأعبائها عبدالرحمن عزام المؤمأ اليه . ثم لما استدعى أنور أخاه نورى الى الاستانة ، وولاه قيادة جيش القافقاس ، استصحب معه الى الاستانة الآستاذ عبد الرحمن عزام ، وقال لى نورى مرة هـذه الجملة ، واستدللت منها على عقـله وانصافه : « لولا هذا الشاب ، ما كان يمكننى أن أوفق فى طرابلس » .

ثم لما أرسلت الدولة الأمير عثمان فؤاد ، ابن الأمير صلاح الدين ، ابن السلطان مراد ، ابن السلطان عبد المجيد خان ، الى طرابلس أميراً وقائداً عاماً عليها ، مكان نورى باشا ارسلت معه عبد الرحمن عزام المصرى مستشاراً ومديراً ، فلما انتهت الحرب الـكبرى وانعقدت المتاركة ومن جملة شروطها اخلاء الأتراك لطرابلس ، صدرت الارادة السلطانية الى الأمير عثمان فؤاد بترك تلك البلاد . فذهب الى تونس ، وسلم نفسه الى الفرنسيس ، وهؤلاء سلموه الى الطليان الذين أفرجوا عنه . ولـكن بقيت الحـكومة الوطنية فى طرابلس على ما كانت عليه ، وهى حكومة حلفية ، مركزها مصراطه ، وعبدالرحمن عزام هو الذى يدير

(١) وهو من أعضاء مجلس النواب المصري فى عهد الوزارة الوفدية

أمورها ، ويرتق فتوقها ، ويؤلف بين الجهات المتنافرة ، حتى يتسنى لهم بالاتحاد حفظ استقلالهم . الا أن شرة رمضان السواحلى ، كانت غالبة عليه ، فقصد مرة قتال اورفله ، فعطل أهل اورفله فى وجهه الآبار ، وأنشبوه فى معاطش هلك فيها أكثر زجاله ، وقيد فيها أسيراً . ولما أرادوا احضاره الى عبد النبي بلخير زعيم اورفله ، قال هذا لقومه : « لاتدعوه يصل الىّ خوفاً من أن يغلبنى الحياء فأستحييه » . ففهموا منه انه يرجح قتله فقتلوه ، و بعد رمضان المذكور جعل الطرابلسيون رئيساً على حكومتهم الوطنية الحلفية أحمد بك المريّض وهو زعيم ترهونه ، وظل رئيساً مقيما بمعسكر المجاهدين جنوبى البلاد التى استرجعها الطليان .

ثم نعود الى سيدى أحمد الشريف . فنقول انه لما فارق برقة ، تفادياً للخلاف مع ابن عمه الذى صار أميراً على برقة ، غرّب الى سوكنه كماسبق فأرسل اليه رمضان السواحلى قوة تقاتله ، عليها ضباط من الترك ممن كانوا مع نورى باشا أخى أنور . فالسيد هزم القوة التى جاءت تقاتله ، وقتل فى تلك الواقعة الضابط المدعو برتو توفيق . ولكن اشتدت الأزمة بالسيد لانقطاع المدد عنه من كل الجهات ، فالانكليز أصبحوا أعداءه وضبطوا أملاكه ، وزواياه ، فى سيوه والواحات الدواخل ، وذلك لانقياده الى الاتراك ومسيره مع نورى لمهاجمة مصر . والأتراك تركوه أيضاً ، لانحياز نورى باشا الى رمضان السواحلى فى مصراطه ، واعتصامه به ، وهذا كان عدوًّا للسنوسية . فوصل الأمر بالسيد وعساكره التى كانت نحو ثلاثة آلاف ، أن أخذوا يقتاتون الحشائش ، وأن مات منهم خلق كثير جوعا ، وهو صابر على هذه البلية صبر الكرام ، والازمة تزداد به و بأجناده يوماً فيوماً ، وهو لا يقدر أن يعود الى الجغبوب ، خوفا من الخصام مع ابن عمه ، واتقاء التحرش بالانكليز . ولا يقدر أن يدخل مصراطه والبلاد التى حولها ، لكون رمضان السواحلى وغيره من أعداء السنوسية له بالمرصاد . قال لى السيد من فمه : « بلغ بى الضيق من هذه الحالة ، وأنا أرى رجالى امام عينى تموت جوعاً ، أن وصلت الى درجة اليأس ، وقررت فى نفسى الصلح مع الانكليز مستخيراً الله ، وفى تلك الليلة رأيت فيما يرى النائم ، استاذى سيدى أحمد الريفى يقول لى : قد عرف الاخوان مرادك ، فلم يرضوا لك بما عزمت عليه ، فارجع الى ما كنت عليه واستأنف العمل ، فلما استيقظت من النوم أقلعت عن تلك الفكرة وحررت الى

أنور كتابا ، بعثت به ضمن كتاب الى نورى قائلا له : احذر أن تؤخر ارسال كتابى الى أخيك . فأرسل بالكتاب الى الاستانة ، وجاءنى من انور الجواب » .

وكان السيد قبل ذلك ، بعث الىّ ، انا محرر هذه السطور ، بكتاب يشكو لى به من معاملة نورى ، أيام كانا فى السلوم ، ويبدى لى شيئاً من التعتب على انور ، ولكن لم تقع له فرصة لارساله ، وبقى محتفظاً بذلك الكتاب الى أن جاء الى الاستانة العلية ، وانتهت الحرب ، وشرعت أراسله من اوربا الى مكانه ببروسه ، فارسل الىّ بذلك الكتاب بعينه ، بعد فوات وقته ، كأنه يريد أن يطلعنى على تلك الماجريات الماضية ، ولولا كون هذا الرقيم فى أوراقى التى تركتها فى أوربا ، لكنت أكملت هذه القصة بنشره . ومن الغريب ، انى مع كون هذا الكتاب من السيد لم يصلنى يومئذ ، فقد قمت تجاه السيد بما لم أكن لاعمل زيادة عليه فيما لو وصلنى كتابه اذكنت بدأت اشم من معية أنور رائحة الوحشة من سيدى احمد الشريف ، وأسمع بعض رجال الدائرة المسماة بدائرة « التشكيلات » التابعة للحربية يلمزون السيد ، ويعزون اليه امورا ، كنت على يقين انها بهتان محض . مثل كونه يريد الخلافة لنفسه ، ومثل أنه غير مخلص للدولة وما أشبه ذلك.وكان أنور دعانى مرة للافطار معه فى رمضان فقلت له : « ان بعض بطانتك بدأوا يغمزون السيد احمد الشريف ويشيعون عنه أراجيف يصعب تصديقها ، وهذا الأمر يمس جانبك أنت ، ولا ينحصر فى السنوسية ، لأن أكثر مظهرك كان بهؤلاء الجماعة . فان ظهر بعد ذلك انهم خائنون ، لا سمح الله ، فتكون أنت الملوم ، ويستدل الناس بذلك على كونك فائل الرأى . وان كان عندك شئ راهن بحقهم ، فصرح لى به لنعلم درجة الخبر من الصحة » . قال لى أنور رحمه الله : « حاشا ، ما يقدر أحد أن يتهم سيدى أحمد الشريف بالخيانة ولكن الانكليز كانوا يخدعونه أحيانا » . قلت له : « ان سيدى أحمد الشريف لم ينخدع للانكليز ، وانما كان يصانعهم كما يصانعونه ، وما تلكأ عن محاربتهم الا خشية الفشل ، إذكان يعلم أن القوة التى لديه غير كافية للدخول الى مصر ، أفلا ترى كيف أن الانكليز بمجرد زحف الأربعة الآلاف مجاهد الى مرسى مطروح ، رموهم بثلاثين ألف مقاتل ، وبالمدافع ، والطيارات ، والدبابات ، ولولا لطف الله بهم لوقعوا جميعاً أسرى وأخوك من الجملة ... » قال لى انور : « أنا أعطيتهم أوامر بأن يتجنبوا المعارك الفاصلة » . فقلت له : « ياسبحان الله ! انت

عسكري صنعتك الحرب وأدرى مني بهذه الامور ، أفاذا هاجم الانسان من هو أقوى منه مراراً ، أفيبقى له الاختيار فى الكرّ والفرّ ؟ . » وانتهت هذه المحاورة باقتناع أنور ، وتركه مؤاخذة السيد . ثم أخذت منه الاذن لسيدى عبد العزيز العيساوى ، الذى كان معتمداً للسادة السنوسية فى استانبول ، وهو من الفضلاء الاجلاء ، أن يواجهه فى نظارة الحربية ، بعد أن بقى محجوباً عنه عدة أشهر ، ثم أن يعود الى وطنه بالغواصة . فأذن له وأعاده معززاً مكرماً ، وكتبت معه كتاباً الى السيد . وما مضت مدة حتى جاء مكتوب السيد الى أنور ، حسبما تقدم . فأنفذ أنور يوسف بك شتوان بالغواصة ، فتلاقى مع السيد وتقرر مجيء السيد الى الاستانة بالغواصة ، فركب من مرسى العقيلة من ساحل سرت ، قاصداً بحر الادرياتيك .

قال لى السيد : « قبل ركوبى الغواصة ، تحادثت مع الضباط الألمان الذين فيها ، وسألتهم عن خطر ركوبها فقالوا لى : لا يخلو الأمر من الخطر ، ولكننى ما باليت بذلك لأننى كنت رأيت أستاذى سيدى احمد الريفى فى المنام فقال لى : الشيء الفلانى ستأخذه من «بولا» ففى اليوم التالى سألت الضباط هل يوجد محل اسمه بولا ؟ فقالوا لى : « نعم ان المرسى الذى سننزل فيه من بلاد النمسا اسمه « بولا » فاعتقدت أننا بالغو هذا المكان ، بحول الله وقوته » قال لى : « وقد عرضت لنا الهلكة ثلاث مرات ، ونحن فى البحر : أول مرة صادفنا بوارج للعدو فغصنا تحت الماء ، ورأيت مراكب العدو بعينى ، بواسطة مرآة يرى الانسان بها من تحت البحر ما هو فوق البحر ، وما زلنا متوارين عنهم حتى مضوا . ومرة ثانية أصاب الآلة المحركة تعطيل ، فكنت أرى ضباط الغواصة يجيئون ويذهبون ، وهم فى حيرة عظيمة ، فلم يخبرونى بالحقيقة الا بعد أن أصلحوا الآلة . ومرة ثالثة نام قيم الآلة ، فصادمت الغواصة صخراً وكادت تغرق ، ولكن كنا على مقربة من « بولا » وقد فصل سيدى أحمد الشريف من مرسى العُقَيْلة بساحل سرت فى ٧ ذى القعدة سنة ١٣٣٦ ، ووصل الى « بولا » من ساحل النمسا فى بحر الادرياتيك بعد أسبوع من ركوبه وسافر من « بولا » الى فينا ومعه حاشيته ، ويوسف بك شتوان . ولما حصل فى فينا أرسل الامبراطور يبغى مشاهدة السيد ، فاجاب شتوان معتذرا عن امكان هذه الملاقاة قبل أن يذهب السيد الى الاستانة ويقابل السلطان . ولكن هذا

الجواب وقع بدون اطلاع السيد ، ولما اطلع عليه فيما بعد لم يستحسنه اذ رأى أنه كان يليق مقابلة الامبراطوار فى عاصمته لا سيما أنه طلب ذلك . ثم سافروا الى الاستانة ، فاستقبل فى محطة « سركه جى » بمزيد الاجلال والا كرام ، وكان أنور باشا فى المحطة بنفسه . وأقبل علماء الترك عليه ، وهنأوه بالقدوم ، وتبركوا بمعرفته . وأنزلته الدولة بسراى « طوب قبو » مقر السلاطين القديم . وصادف وقتئذ الاحتفال بتقليد السلطان محمد السادس السيف ، فى مسجد أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه ، الذى يقول له الأتراك : « سلطان أيوب » . وكانت العادة أن الذى يقلد السلطان السيف عند جلوسه ، هو الشلبى شيخ الطريقة المولوية وسلالة مولانا جلال الدين الرومى ، قدس الله سره . فاختار السلطان السابق محمد السادس ، الاستاذ السنوسى لتقليده سيف السلطنة فى ذلك المحفل المشهود ، وأنعم عليه برتبة الوزارة السامية ، وبالنشان المرصع ، واحتفى به كثيراً ، هو وولى العهد الأمير عبد المجيد ابن السلطان عبد العزيز خان ، الذى تولى الخلافة بدون سلطنة بعد انتصار الأتراك على اليونان ، وخروج محمد السادس من دار السعادة . ثم خلعته الجمهورية التركية أخيراً وأقصته هو وجميع آل عثمان عن المملكة ، والسلطنة وأسقطتهم من التابعية التركية .

وكانت الحرب أوشكت أن تنتهى ، وأيقن الأتراك أن الدائرة ستدور عليهم وعلى الألمان فتكلم أنور مع السيد السنوسى ، فى لزوم رجوعه بالسرعة الى طرابلس ، وقال له كلاماً يدل على كون آماله فى مسلمى افريقية صارت أكثر منها فى سائر العالم الاسلامى . وصرح له أن السلطان نفسه ، يريد أن تعود الى بلدك لتقوى بك عزائم المجاهدين ، ونحن حاضرون أن نقويك بالمال والعتاد والسلاح . وقرر أنور اعطاء السيد (١٢) ألف بندقية مع عدتها ، و (١٠) مدافع و (٣٠) رشاشاً و (٢٠٠) ألف جنيه . فساله السيد قائلا « بلغنى من بعض الضباط الطرابلسيين الذين فى خدمة الدولة ، انكم تبغوننى أقاتل ابن عمى سيدى ادريس ، لكونه اتفق مع الانكليز والطليان » . فقال له أنور : « معاذ الله أن نبغى منك ذلك ، لأننا نعلم أنه لم يبق للاسلام فى افريقية حصن أحصن من هذا البيت السنوسى الكريم ، وانه ان وقع لا سمح الله الشقاق فى هذا البيت فسد الأمر واضمحلت القوة السنوسية التى عليها معول الاسلام فى افريقية . فكن على ثقة باننا نبغى اتحادكم قبل كل شئ ، نصحاً بالاسلام وضناً باستقلاله ، وان معاونتنا لكم

انما هى محض حمية على الاسلام ، لأن تركيا من جهتها لم يبق لها أدنى أمل باسترداد طرابلس ، ولكننا لا نحب أن نرى اخواننا مسلمى افريقية تبعة للاجانب » . وكان أنور كما هو مشهور عنه ، متمسكا بوحدة الاسلام ، يغار عليه فى أى بقعة كانت ، ولا يفرق بين عربى وتركى وهندى الخ ، وطالما اختلف مع زملائه من أجل هذه السياسة .

و بعد أن أجمع السيد الاوبة الى طرابلس ، جاء من قال له ان الغواصة ستنزلك فى ساحل مصراطة ، وهى بيد رمضان السواحلى اليوم ، فلا يجوز أن تأمن جانبه ، فأخذ السيد يفكر فى كيفية النزول الى البر بحيث يطأ ساحلا لا يكون فيه عليه يد لا من الطليان ولا من رمضان شتيوى ، واذ ذاك صارت تتتابع الحوادث بسرعة البرق ، فتغيرت الوزارة ، وسقط أنور ، وندم السيد على تأخره عن السفر ، وحاول الانسلال من الاستانة الى النمسا ، حتى يركب منها الغواصة قافلا الى وطنه فلما أحس محمد السادس وحيد الدين بذلك ، أخذ يداوره عن عزيمته هذه ، ويقول له : « يعز علينا أن تفارقنا فى هذه الآونة الحرجة » . والسيد يظن أنه أثناء عقد الهدنة مع تركيا شدد الحلفاء على السلطان فى ملاوصة السيد عن الابحار الى طرابلس ، حتى اذا دخلوا الاستانة كان السيد فى قبضة يدهم ، أما أنور فكان السيد يختلف اليه بعد سقوطه فكان يداور السيد فى السفر معه الى أوربا ويقول له : « لا يجوز أصلا بقاؤك فى الاستانة والحلفاء على وشك دخولها . » وأما الصدر الأعظم ، المشير احمد عزت باشا ، فلما كان السفر بالغواصة ممكناً من بحر الادرياتيك ، أشار على السيد بالسفر خفية واللحاق ببلاده ، وبان لا يبالى بكلام السلطان . فلما انعقدت المتاركة ، وصار السفر بالغواصة متعذرا اشار على السيد فى الذهاب الى بروسه ، وكان هذا رأى وحيد الدين ايضا . فتحول السيد من الاستانة الى بروسه ، وقامت الحكومة العثمانية بكل ما يلزم له . وكان السلطان يديم السؤال عنه وكلما تعين وال لبروسه يتلقى الامر بالذهاب الى السيد قبل كل شئ ، والوقوف عند خاطره ، والمبادرة الى مراضيه . فالسيد السنوسى من أول يوم قدم فيه الى تركيا ، الى هذه الساعة ، لقى من بر الاتراك وحفاوتهم واجلالهم ، سواء من حكومة الاستانة مع تقلب وزرائها ، أو من حكومة انقره فى مختلف صفحاتها ، ما لم يطرأ عليه أدنى تغيير ، ولا اوجب التبرم فى قليل ولا كثير . حتى كأن جميع الايام التى قضاها بين اظهرهم يوم واحد . فكانت الامة التركية اينما حل وكيف

ارتحل ، تهرع اليه على اختلاف الطبقات ، بدون تكلف ولا تصنع ، ولا انتظار أوامر حكومة ، بل بشعور عام أوجده فيها اتحاد الكلمة على نزاهة هذا الرجل ، وتجرده عن المآرب الشخصية ، وعزوفه عن حظوظ الدنيا وانصراف همه كله الى الذب عن بيضة الاسلام بدون غرض سوى مرضاة الله ورسوله ، وحفظ استقلال المسلمين . فكان كثير من الترك ، والكرد ، والجركس ، والارناؤوط ، يقصدون زيارته لمجرد التبرك بتقبيل يده ، والاقتداء بهديه وتلقي وارداته الروحية ونفحاته القدسية ، وكثير منهم اخذوا عنه الطريقة السنوسية . وكانت مدة مقامة ببروسه ما يقرب من سنتين تأسست خلالها الحكومة الانقروية ، فارسل اليه رئيسها مصطفى كمال باشا يدعوه الى الانحياز الى انقرة ، شداً لعضد الاسلام ، وترجيحاً لكفة الجهاد على كفة القعود . وكانت القوى الملية التي مركزها انقرة ، هي فى الحقيقة آخر ما بقي من قوة الدولة الفعلية ، فاعمل السيد الروية فى هذا الامر ، فرأى ان حكومة الاستانة ، لا سيما فى ايام الداماد فريد ، اصبحت كالحلس الملقى ، لا تملك ضرا ولا نفعا ، ولا تقدر أن تذود عن حق مسلم ، فضلاً عن كون بقائه فى بروسه مع دنو اليونان منها ، يعرض شخصه للوقوع فى ايدى الحلفاء . فأزمع السيد التحول الى الاناضول ، واول بلدة نزل بها اسكى شهر ، حيث وافاه مصطفى كمال باشا ومعه رهطه باجمعهم ، وتلقوه براً وتكريما ، واحتفلوا بمقدمه احتفالا عظيما . ثم ان بعض الترك ، ممن لا حاجة الى بيان اسمائهم ، استطلعوا رأيه فى أمر الخلافة ، وارادوه عليها ، وأبدوا واعادوا فى اقناعه بها ، فاعتذر عن ذلك وأفهمهم ان لا سبيل الى قبوله هذا الأمر ، لاسباب عددها . فتركوا مراجعته فى هذا المشروع ، وخيروه فى الاقامة بأى بلد يريده فاختار قونية ، وأقام بها عدة أشهر . وأثناء إقامته بقونية ثارت تلك الثورة على الحكومة الانقروية ، لأسباب ليس هنا موضعها ، فبذل السيد كلمته فى اخماد الثورة ، ونصح الأهالى بطاعة الحكومة الملية ، وصعد المنبر يوم الجمعة ، فحث الناس على اجتناب الفتنة ، و بصرهم عواقب الشقاق بينما العدو آخذ منهم بالخناق ، و بين لهم كيف أن أنقرة هى ثمال الاسلام ، وثمالة ما بقى فى حوضه فى هذه الأيام ، فلا يجوز لهم والحالة هذه الخروج عليها ، وتوهين قوتها ، حتى لقد عاتبه كثيرون من أهل قونية فى تشيعه لأنقرة ، وغضب آخرون . ولو لا احترامهم لمقامه العظيم ، ونسبه الكريم ، لمسه السوء يوم سالت الدماء فى أسواق قونيه ،

وما زال فى الوعظ والارشاد ، حتى وصلت العساكر الملية فبددت شمل الثائرين وقبضت على مئات منهم وحاكمتهم فى ديوان حرب ، وصلبت كثيراً منهم ، وكادت تبطش بالشلبى شيخ المولوية وسلالة مولانا جلال الدين الرومى البكرى الصديق قدس الله سره . فكان السيد واسطة خير وشفيعاً له ولغيره . فأنقذ كثيرين ولطف مصائب كثيرة ، بحسن شهادته ولطف مواعظه ، فى هذه الفتنة التى كسائر الفتن لا تصيب الذين ظلموا خاصة . ثم انتدبته الحكومة الملية للذهاب الى بلاد الاكراد ، لاخماد بعض الفتن ، واعمال نفوذه الدينى فى نصيحة العشائر التى كانت غير راكنة . فذهب السيد الى ديار بكر ، وأقام بها و بماردين و باورفا ، مدة وفدت فيها عليه زعماء القبائل العربية والكردية الضاربة فى هاتيك الديار ، وراودوه على الاقامة بينهم ، وأظهروا له من الطاعة لأمره والانقياد لكلمته ما هو فوق الوصف ، ولكنه أبدى لهم استحالة ذلك عليه وكونه مقيداً ببلاده ، لا بد له من الرجوع الى الغرب ، وانما نصح لهم فى الاتفاق مع الحكومة الملية ومظاهرتها توحيداً لكلمة الاسلام واتقاء الفتنة ، التى انما يستفيد منها العدو أثناء حرب لاقح لايدرى ما تلد . وكان يشدد عزائم الناس ، ويحثهم على الجهاد . واحدى المرار بينما هو فى ماردين ، قال : « ان هجوم الأعداء سيبدأ بهذين اليومين وسيكون نصيبهم الخذلان » فلم يمض يومان حتى ورد عليه برقية من الغازى مصطفى كمال باشا قائلا له : « ان العدو بدأ بالهجوم نسألك الدعاء . فكان ذلك مدعاة لدهشة الضباط الأتراك ، الذين سمعوا من السيد أن العدو سيهاجم بهذين اليومين وقيدوا ذلك بالورق يوم قاله لهم ، فكان الأمر طبق ما قال . وكان الغازى فى برقيته طلب أيضاً من السيد قراءة البخارى الشريف تبركا واستنزالا للنصر على جيوش الاسلام ، فذهب الى المسجد الجامع بماردين ، وشرع بالقراءة ، وداوموا عليها الى أن وردت البشائر بكون العدو ارتد خاسراً من وقعة سقاريا . ثم أقام السيد بطرسوس فراراً من برد الأناضول . وفى أثنائها تم الظفر الأخير بالعدو ، وأخرج من كل أقسام تركيا ، وجاء مصطفى كمال باشا الى ولاية أطنه ، وزار السيد فى منزله بطرسوس ، فبالغ السيد فى الاحتفال به ، وقدم بعض هدايا نفيسة للسيدة الخاتون حليلته . وبعد ذلك ذهب الى أنقره لتهنئة الحكومة بظفرها الأخير ، واستتباب الأمر وعقد الصلح ، وكانت زيارات السيد لأنقره ثلاث مرات : أولاها يوم توجه الى بلاد الأكراد بطلب من الحكومة

الملية . والثانية أثناء الحرب بعد هزيمة العدو فى سقاريا . والثالثة بعد نهاية الحرب وعقد الصلح . وفى هذه المرة الأخيرة كان معه عجيمى باشا السعدون ، أمير المنتفق الذى لم يفارق جيش الدولة وترك وطنه العراق حباً بها ، ومداومة على مبدئه . وقد كان السيد فى جميع زياراته لأنقره يلقى من الغازى ومن هيأة الحكومة جميع ما هو أهله من الاجلال والاكرام . وآخر مقامه كان بمرسين ، التى آثرها على طرسوس ، فنزل بقرية « خريستيان كوى » التى كان يسكنها الأروام قبل المهاجرة ، وهى على مسافة نصف ساعة

وكان كولونل ايطالى قد وافى أنقره آخر مرة من زياراته لها ، واستأذن السيد فى ملاقاته ، فأذن له ، فتكلم مع السيد فى حقن الدماء فى طرابلس ، والاتفاق على أساس للصلح . فاجابه السيد بأنه لا يكره الصلح ، على شرط استقلال وطنه الحقبقى و بعد الاخذ والرد ، أحال السيد أخذ خلاصة الاقتراحات الايطالية الى الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش . وكان السيد قبل أن رضى بالاخذ والرد مع هذا الكولونل سأله : « أعندك تفويض من حكومتك بالدخول معى فى حديث الصلح ؟ » فقال له الكولونل : « كلاً . وانما يمكننى الحصول على التفويض من اليوم الى شهر » . فقال له السيد : اذا ، بعد الحصول على الاذن من حكومتك ، تفيض بما تريد بيانه الى الاستاذ الشيخ جاويش » . وأوعز السيد الى الشيخ جاويش بان يعيد عليه الجواب . فبعد مدة جاءه الشيخ بخلاصة الشروط . فوجدها السيد غير موافقة وقال للشيخ جاويش : « قل لهم لا نقبل أن تكون القوة العسكرية فى أيديهم ، ولا أن تكون الشرطة منهم ، وكل ما نتسامح معهم فيه هو الامتيازات الاقتصادية ، واستثمار البلاد حقا لهم دون غيرهم من الاجانب . فاما حقوق الملكية فلا ننزل عن شئ منها ، وسلاحنا لا بد أن يبقى فى أيدينا ، وعلى غير هذه الشروط فلا سلام ولا كلام ، لأن طرابلس و برقة ليستا ملكى لأجود به على الطليان ، بل هما ملك أهلهما » . فلما عاد الشيخ الى الطليان بالجواب علموا أن لا سبيل الى الصلح ، فاذاعوا فى الجرائد أن خبر مفاوضتهم للسيد السنوسى بالصلح غير صحيحة . والحال أنه قبل هذه الاذاعة بقليل ، كان ورد الى السيد الخبر من الشيخ جاويش بان الكولونل الايطالى قادم الى مرسين لمواجهته ، كما أن هذا الكولونل لما واجه السيد وشافهه بأمر الصلح فى أنقره ،

أخبر السيد الغازى مصطفى كمال بما جرى فاشار عليه بالصلح ان طاب له ووافقته شروطه .

عند ما قدمت الى الاستانة فى أواخر سنة ١٩٢٣ ، وهى أول مرة دخلتها بعد الحرب قررت لأجل الاستجمام من عناء الاشغال وترويح النفس بعد طول النضال ان أسكن ببلد صغير تتهيأ لى فيه العزلة وتسهل الرياضة ، ويكون دانياً من وطنى سورية للاحظة شغلى الخاص ، وتعهد أملاكى فيها ، فاخترت مرسين ، والقيت مرساة غربتى فيها . وكان السيد السنوسى بلغه قدومى الى دار السعادة ، فكتب لى يرغب الىّ فى سرعة المجئ ويرحب بى . فلما جئت الى مرسين ذهبت توراً لزيارته ؟ فأبى الا أن انزل عنده ، ريثما اكون استأجرت منزلا فى البلدة ، وقد رأيت فى هذا السيد السند بالعيان ، ما كنت اتخيله عنه بالسماع وحق لى والله أن أنشد :

كانت محادثة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت اذنى بأحسن مما قد رأى بصرى

رأيت فى السيد حبرا جليلا ، وسيدا غطريفا ، وأستاذا كبيرا ، من أنبل من وقع نظرى عليهم مدة حياتى ، جلالة قدر ، وسراوة حال ورجاحة عقل ، وسجاحة خلق ، وكرم مهزة وسرعة فهم ، وسداد رأى ، وقوة حافظة ، مع الوقار الذى لا تغض من جانبه الوداعة ، والورع الشديد فى غير رئاء ولا سمعة . سمعت أنه لا يرقد فى الليل أكثر من ثلاث ساعات ، ويقضى سائر ليله فى العبادة والتلاوة ، والتهجد ، ورأيته مراراً تنفج بين يديه السفر الفاخرة اللائقة بالملوك فيأكل الضيوف والحاشية ويجتزئ هو بطعام واحد لا يصيب منه الا قليلا ، وهكذا هى عادته . وله مجلس كل يوم بين صلاتى الظهر والعصر لتناول الشاى الأخضر الذى يؤثره المغاربة . فيأمر بحضور من هناك من الأضياف ورجال المعية ، ويتناول كل منهم ثلاثة اقداح شاى ممزوجاً بالعنبر . فأما هو فيتحامى شرب الشاى لعدم ملاءمته لصحته . وقد يتناول قدحا من النعناع . ومن عادته أنه يوقد فى مجالسه غالبا الطيب ، وينبسط السيد الى الحديث ، وأكثر احاديثه فى قصص رجال الله وأحوالهم ورقائقهم وسير سلفه السيد محمد بن على بن السنوسى ، والسيد المهدى ، وغيرهما من الاولياء والصالحين واذا تكلم فى العلوم قال قولا سديداً ، سواء فى علم الظاهر أو علم الباطن . وهو يذهب الى تعظيم الاولياء ، ويرى فيهم الوسائل بين الله والعبد . وينكر على القائلين أن لا وسيلة

بين الخالق والمخلوق ، بل يقول ان الانبياء ، صلوات الله عليهم ، ان هم الا وسائل الى الله . ويقول اذا وقع خلاف فى مسئلة بين علماء الشرع ، و بقيت غامضة ، فالمعول فيها ما يقوله علماء الباطن أهل التصوف . وهو شديد الاعتقاد والاقتداء باثنين : الاول عمه سيدى محمد المهدى الذى لا يرى فوق طبقته احداً الا سيد الكائنات ، ﷺ . والثانى استاذه ومرشده سيدى احمد الريفى ، من أكابر السادة السنوسية ، وأركان هذه الطريقة ، ويقول انه كان علامة بحراً فى جميع العلوم . قرأ فى فاس وأتقن العلوم بأسرها حتى الفلك والاسطرلاب ، والهندسة ، والرياضيات . وهو يعتمد على كلامه له ، ومن جملة ذلك أنه قبل وفاته ، رحمه الله ، بأيام قال له : أمامكم جهاد طويل عريض ، فينبغى لك أن تجاهد ولا تقعد ، وان الجهاد ينتهى بنصركم . وانما لا تجعل لنفسك مركزاً معيناً تلازمه ، ولا تكن مهاجماً للنقاط المحكمة بل قف دائماً على قدم الدفاع . واياك والصلح »فسأله السيد «اين يكون هذا الجهاد ؟» وكان ظن انه يعنى حرباً تقع بين السنوسية والفرنسيس فى جهة واداى ، لانه كان القتال مستمراً بين الفريقين على عين كلك . فأجابه سيدى احمد الريفى : « كلا ! هذا جهاد ضد عدو يأتيكم من جهة البحر ، وهو الطليان » . قال له : « وستأتيكم النجدة من استانبول . » فما مضى على وصاة سيدى الريفى شهران ، حتى نشبت حرب طرابلس وتحقق كل ذلك . فالسيد متمسك بكلام استاذه لا يحيد عنه . وقد لحظت منه صبراً قل أن يوجد فى غيره من الرجال وعزماً شديداً تلوح سيماؤه على وجهه ، فبينا هو فى تقواه من الابدال ، اذا هو فى شجاعته من الأبطال . وقد بلغنى أنه كان فى حرب طرابلس يشهد كثيراً من الوقائع بنفسه ، ويمتطى جواده بضع عشرة ساعة على التوالى بدون كلال ، وكثيراً ما كان يغامر بنفسه ولا يقتدى بالأمراء وقواد الجيوش الذين يتأخرون عن ميدان الحرب مسافة كافية ، أن لا تصل اليهم يد العدو فيما لو وقعت هزيمة . وفى احدى المرار أوشك أن يقع فى أيدى الطليان ، وشاع أنهم أخذوه اسيراً . وقد سألته عن تلك الواقعة فحكى لى خبرها بتفاصيله ، وهو أنه كان ببرقة فبلغ الطليان بواسطة الجواسيس أن السيد فى قلة من المجاهدين ، وغير بعيد عن جيش الطليان ، فسرحوا اليه قوة عدة آلاف ومعها كهرباة[1] خاصة لركوبه . اذ كان اعتقادهم أنه لا يفلت من أيديهم تلك المرة . فبلغه خبر زحفهم ،

(١) سيارة كهربائية

وكان يمكنه أن يخيم عن اللقاء أو أن يتحرف بنفسه الى جهة يكون فيها بمنجاة من الخطر ، أو يترك الحرب للعرب تصادمهم فلم يفعل . وقال لى « خفت انى ان طلبت النجاة بنفسى ، أصاب المجاهدين الوهل ، فدارت عليهم الدائرة ، فثبت للطليان وهم بضعة آلاف بثلثمائة مقاتل لا غير ، واستمات العرب ، وصدموا العدو ، فلما رأى هؤلاء وفرة من وقع من القتلى والجرحى ، ارتدوا على اعقابهم ، وخلصنا نحن الى جهة وافتنا فيها جموع المجاهدين . » قال لى : « وفى هذه الوقعة جرح الضابط نجيب الحورانى ، الذى كان من أشجع أبطال الحرب الطرابلسية ، كان قائداً ولكنه كان يغامس بنفسه فى كل واقعة ، فجرح مرتين واستشهد فى الثالثة رحمه الله . ولم يحزن السيد على أحد حزنه عليه ، لباهر شجاعته وشديد اخلاصه . وكان السيد يكتب لى من الجبل الأخضر وافر الثناء عليه ، وهو اليوم دائم الترحيم عليه . والشهيد المذكور هو نجيب بك بن الشيخ سعد العلى ، من مشايخ بلاد عجلون ، ترك فى بلاد الغرب ذكراً خالداً .

والسيد أحمد الشريف سريع الخاطر ، سيال القلم ، لا يمل الكتابة أصلاً . وله عدة كتب منها كتاب كبير أطلعنى عليه فى تاريخ السادة السنوسية ، وأخبار الاعيان من مريديهم والمتصلين بهم ، ينوى طبعه ونشره فيكون أحسن كتاب لمعرفة أخبار السنوسيين وانما يفهم الانسان من مطالعة أخبار سيدى محمد السنوسى ، و ولده سيدى المهدى ، ومحادثة سيدى أحمد الشريف ، ان طريقتهم طريقة عملية ، تعمل بالكتاب والسنة ، ولا تكتفى بالاذكار والاوراد ، دون القيام بعزائم الاسلام ، كما كان عليه الصدر الأول . ولذلك وفقوا للجهاد ووقفوا فى وجه دولة عظيمة كدولة ايطالية ، منذ ثلاث عشرة سنة ، لولاهم كانت سيدة لطرابلس و برقة منذ أول شهر من غاراتها عليهما . ويذكر الناس ان الطليان قدروا لتدويخ طرابلس و برقة كلهما مدة خمسة عشر يوماً ، من أول نزولهم . وان قواداً من الانكليز المحنكين فى حروب المستعمرات والبوادى ، قالوا ان الطليان افرطوا فى التفاؤل بظنهم الاستيلاء على بر طرابلس فى ١٥ يوماً ، والحقيقة انه قد تأخذ هذه المسئلة معهم ثلاثة أشهر ... فلينظر الانسان كيف ان المدة التى قدرها أركان الحرب فى ايطالية ١٥ يوما وقدرها أركان الحرب فى انكلترة ثلاثة أشهر ، تطاولت ثلاث عشرة سنة كاملة ، والحرب اليوم هى كما كانت فى بدايتها . وكل هذا بفضل السادة السنوسية ، ولا سيما هذا السيد

العظيم سيدى أحمد الشريف . وكان الاوربيون فى عهد السلطان عبد الحميد يشكون الى السلطان حركة السنوسى ، ويتوجسون خيفة من تشكيلاته وحركاته ويرون فيه أعظم خصم للدعوة الاوربية فى افريقية ، وطالما ضغطت دول أوربا على السلطان لاجل أن يستدعى سيدى المهدى الى الاستانة ، ويأمره بالاقامة بها ، ولا يأذن له بالعودة الى وطنه ، ليخلو للأوربيين الجو فى تقسيم أواسط افريقية ، وخضد الشوكة الاسلامية فى تلك الديار. فكان السلطان يماطل هاتيك الدول ، ويعتذر لهم بصنوف الاعذار ، بل كان يلاطف السنوسى كثيراً بالهدايا والكتابات ، الى ان اشتد الضغط على السلطان فى قضية السنوسى ، فارسل رجلا اسمه عصمت بك الى بنغازى ، ومنها الى جغبوب ، بمأمورية سرية ، فبلغ المهدى ما هو عليه السلطان من الارتباك من جهة ضغط الدول عليه فى أمر الدعاية السنوسية ، فاجابه السيد المهدى بحسب ما قرأت فى التاريخ الذى تقدم ذكره ، بكلام لا يتضمن نفيا ولا ايجابا ، وانما تلا له آيات كريمة فى معنى الاتكال على الله ولكن السيد المهدى لم يعتم بعدها ان فارق جغبوب الى واحة الكفرة ، وبنى فيها زاوية التاج ، وعمر الكفرة عمارة جعلتها جنة فى وسط الصحراء . والأغلب ان سبب تحوله من واحة الجغبوب ، القريبة من مصر وبرقة ، الى واحة الكفرة ، التى هى فى أواسط الصحراء الكبرى ، ثم توغله من الكفرة الى ناحية قرو التى اختاره الله فيها ، وهى على أبواب السودان هما من ارتياحه الى العزلة ، وميله الى التنائى عن مراكز السلطة الرسمية ، والخروج من مناطق تأثير الدول الاستعمارية ، بحيث انتبذ مراكز محاطة بالفيافى والقفار ، مأهولة باقوام لا يزالون على الفطرة ، فاصبح حراً فى بث دعوته لا تصل اليه يد بضغط ، ولا تعلو فوق كلمته كلمة ، وعكف على تهذيب تلك الأقوام ، ونشأهم فى طاعة الله بعد ان كانوا يتسعكون فى مهامه الجهل فبدلت به الأرض غير الأرض ، وانقلبت به أخلاق هاتيك الأمم انقلاباً حير العقول ، ولم يقف فى الدعاية الروحية على واحات الصحراء ، واطراف السوادين ، بل بث دعاته فى أواسط افريقية فكان منهم مثل الشيخ محمد بن عبد الله السنى ، والشيخ جودة المقعاوى ، والسيد طاهر الدغمارى . ورجالات آخرون جابوا السوادين مبشرين وهادين ، فكان السيد المهدى هو المزاحم الاكبر لجمعيات المبشرين الاوربية ، المنبثة فى قارة افريقية كلها ، وعلى يده وبسبب دعايته الحثيثة اهتدى للاسلام ملايين من الزنوج ، فلهذا جمعيات المبشرين باسرها

تشكو حزنها ، و بثها من نجاح الاسلام فى أواسط افريقية ، مثل بلاد النيجر ، والكونغو والكامرون ، وديار بحيرة تشاد ، وتوجه أكثر شكواها الى الطريقة السنوسية ، كما طالعنا ذلك فى مؤلفات أوربية عديدة : هذا من جهة القوة الروحية وأما من جهة القوة المادية ، فقد كان السيد المهدى يهدى هدى الصحابة والتابعين ، لا يقتنع بالعبادة دون العمل ، و يعلم ان أحكام القرآن محتاجة الى السلطان ، فكان يحث اخوانه ومريديه دائماً على الفراسة ، والرماية ، و يبث فيهم روح الأنفة والنشاط ، و يحملهم على الطراد والجلاد ، و يعظم فى أعينهم فضيلة الجهاد ، وقد أثمر غراس وعظه فى مواقع كثيرة ، لا سيما فى الحرب الطرابلسية التى أثبت بها السنوسية أن لديهم قوة مادية تضارع قوة الدول الكبرى وتصارع أعظمها جبروتا وكبراً ، وليست الحرب الطرابلسية وحدها هى التى كانت مظهر بطش السنوسيين بل سبقت لهم حروب مع الفرنسيس فى مملكة كانم ومملكة وادای من السودان استمرت من سنة ١٣١٩ الى سنة ١٣٣٢ هجرية ، وحدثنى السيد أحمد الشريف ان عمه المهدى، كان عنده خمسون بندقية خاصة به ،وكان يتعاهدها بالمسح والتنظيف بيده ، لايرضى أن يمسحها له أحد من اتباعه المعدودين بالمئات ، قصدا وعمدا ليقتدى به الناس ويحتفلوا بأمر الجهاد ، وعدته وعتاده . وكان نهار الجمعة يوما خاصا بالتمرينات الحربية ، من طراد و رماية ، وما أشبه ذلك . فكان يجلس السيد فى مرقب عال ، والفرسان تنقسم صفين . و يبدأ الطراد ، فلا ينتهى الا فى آخر النهار . وأحياناً يضعون هدفاً ، و يأخذون بالرماية حتى كنت ترى طلبة العلم والمريدين أكثرهم فرساناً ورماة ، لكثرة ما كان يأخذهم بهذا المران . وكان يجيز الذين يسبقون فى الطراد أو يقرطسون فى الرمى بجوائز ذات قيمة ، ترغيباً لهم فى فضائل الحرب . كما أنه كان يوم الخميس من كل أسبوع مخصصاً عندهم للشغل بالأيدى ، فيتركون فى ذلك اليوم الدروس كلها ، و يشتغلون بأنواع المهن من بناء ، ونجارة ، وحدادة ، ونساجة ، وصحافة ، وغير ذلك ، لا تجدَ منهم ذلك اليوم الا عاملا بيده والسيد المهدى نفسه يعمل بيده لا يفتر حتى ينبه فيهم روح النشاط للعمل . وكان السيد المهدى ، وأبوه من قبله ، يهتمان جد الاهتمام بالزراعة ، والغرس تستدل على ذلك من الزوايا التى شادوها ، والجنان التى نسقوها بجوارها ، فلا تجد زاوية الا لها بستان أو بساتين ؛ وكانوا يستجلبون أصناف الأشجار الغريبة الى بلادهم من أقاصى البلدان . وقد أدخلوا

فى الكفرة وجغبوب زراعات وأغراساً لم يكن لأحد هناك عهد بها . وكان بعض الطلبة يلتمسون من السيد محمد السنوسى أن يعلمهم الكيمياء فيقول لهم : « الكيمياء تحت سكة المحراث » . وأحياناً يقول لهم : « الكيمياء هى كد اليمين وعرق الجبين » . وكان يشوق الطلبة والمريدين الى القيام على الحرف والصناعات ، ويقول لهم جملاً تطيب خواطرهم ، وتزيد رغبتهم فى حرفهم ، حتى لا يزدروا بها أو يظنوا أن طبقتهم هى أدنى من طبقة العلماء ، فكان يقول لهم : « يكفيكم من الدين حسن النية ، والقيام بالفرائض الشرعية ، وليس غيركم بأفضل منكم » . وأحياناً يدمج نفسه بين أهل الحرف ، ويقول لهم وهو يشتغل معهم : « يظن أهل الاوريقات والسبيحات انهم يسبقوننا عند الله لا والله ما يسبقوننا » . يريد بأهل الاوريقات العلماء وبأهل السبيحات العابدين والقانتين فكأنه يريد أن يقول للمحترفين والصناع لا تظنوا أنكم دون العلماء والزهاد مقاما ، بمجرد كونكم صناعا وعملة ، وكونهم هم علماء وقراء . هذا ليزيدهم رغبةً وشوقا ، ويعلم الناس حرمة الصناعة التى لا مدنية الا بها .

هذه الفرقة فرقة عملية لاتعتمد على مجرد التلاوة والذكر دون العمل والسير . فهى تجمع بين العمل الشرعى بحذافيره ، والتجرد الصوفى الى أقصى درجاته ، وتنظم بين الظاهر والباطن ، نظما لم يوفق اليه غيرها . ويظهر أن مؤسسى هذه الطريقة السيد محمد بن على بن السنوسى ، وولديه السيد المهدى ، والسيد الشريف ، وكبار أعوانهم مثل سيدى أحمد الريفى ، وسيدى عمران بن بركة ، وسيدى أحمد التواتى ، وسيدى عبدالرحيم بن أحمد ، وسيدى عبدالله السنى ، وسيدى أبى القاسم العيساوى ، وغيرهم كانوا على أخلاق عظيمة ومدارك سامية ، تدل عليها أقوالهم وأفعالهم . حدثنى سيدى أحمد الشريف أن عمه الأستاذ المهدى كان يقول له :« لاتحقرن أحدا ، لا مسلما ولا نصرانيا ولا يهوديا ولا كافرا ، لعله يكون فى نفسه عند الله أفضل منك . اذ أنت لاتدرى ماذا تكون خاتمته » . وبمثل هذه الآداب كانوا يأخذون أولادهم ومريديهم ، فكان من هؤلاء أقطاب وأبطال ، يتجمل التاريخ بذكرهم . وواسطة عقدهم اليوم هو السيد أحمد الشريف الذى نحن فى ترجمته .

وقد ذرف السيد المشار اليه على الخمسين ولكن هيئته لاتدل على وصوله الى هذه السن ، لندورة الشيب فى شعره ، وهو رائع المنظر ، بهى الطلعة ، عبل الجسم ، قوى

البنية ، لا يمكن أن يراه أحد بدون أن يجله و يحترمه [١].

بقي علينا شيء لابد من الاشارة اليه وهو ان الذين يقرأون هذه السيرة من الناشئة الجديدة يرون فيها مالا يوافق مشربهم ، من القول بالولايات والكرامات ، والاعتقاد بالكشف ، و بمافوق الطبيعة ، مما يرونه حديثاً ماضياً ، لايليق بالتربية العصرية التي ينبغي أن تكون مبنية على محض الحقائق الفنية . وقلما يعظم فى أعين هذه الناشئة رجل ينطوى على هذه العقائد ، مهما كان عظيماً . بل قصارى ماهناك أنهم يحترمونه لحسن نيته وخلوص اعتقاده لاغير .

واننى أحب أن أجاوب هذه الطبقة التى قد توجه مثل هذا الانتقاد الى هذا المقام بأن العالم المتمدن لايزال حتى هذه الساعة منقسما الى فريقين : روحى ومادى ، وأن الفريق الروحى هو أكبر جداً وأحصى عدداً من الفريق المادى ، بل يوجد فى أوروبا وأميركا واليابان عدد لايحصى من فحول علماء الطبيعة ، يعتقدون بوجود العالم الروحى ، وآخرون يعترفون بأن مشكل الروح لم ينحل بعد ولا أكنه سر الروح واتصالها بالجسد أحد . واذا رأينا أناساً مثل فلاماريون الفلكى الشهير وفيكتور هوغو أكبر شعراء الفرنسيس ، وسواهما من صيابة العلماء ، يعتقدون باستحضار الأرواح و يشهدون بوقوع المحاورات بينهم و بين الأموات ، وعرفنا أن جمعيات لاتعد ولاتحصى فى أوروبا مؤلفة خاصة للمباحث الروحية ، واثبات الحوادث التى لاتعلل الا بوجود شيء وراء المادة ، لم يحق لنا أن نعجب من اعتقاد بعض العظماء بالخوارق والكرامات والمناسبات الروحية . واذا علمنا أن رجالا مثل باستور بمكانه من العلم والاكتشافات الكيماوية التى لم يسبق اليها أحد ورجالا مثل غلادسطون فى الشهرة ، و بتوقد الذهن كانوا من أشد الناس تمسكا بالدين ومن الموقنين بأن السيد المسيح اله وانسان معاً ، ظهر لنا أن الالحاد التام أو الرفض للاعتقاد بكل ماهو خارج عن المادة ، ليسا بشرط فى علو درجة العقل ، ولابدليل على التبحر فى العلم . وماأوتيتم من العلم الاقليلا .

(١) لقد كتب سعادة أمير البيان هذا الفصل من عهد بعيد وحدث فى أثناء طبع الكتاب المرة الثانية أن وافتنا أخبار الحجاز بوفاة السيد أحمد السنوسى فى المدينة المنورة فى منتصف ذى القعدة سنة ١٣٥١ والعشر الأول من مارس سنة ١٩٣٣ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح رياضه « الناشر »

الجزائر والامير عبد القادر وفرنسا

للأمير شكيب

ليس هنا محل سرد تاريخ المغرب الأوسط من أوله الى آخره ، وانما نذكر بمناسبة الامير عبد القادر الحسنى الجزائرى سبب استيلاء فرنسا على الجزائر ، وأوليات ذلك ومصايره ، تمهيداً للدور الذى قام به هذا المجاهد الكبير فى الديار المغربية فنقول :

لا يخفى انه عندما استولت فرنسا على الجزائر كان هذا القطر من جملة أجزاء السلطنة العثمانية التى افتتحته منذ سنة ١٥١٦ وأجلت الاسبانيول عن أكثر مدنه البحرية التى كانوا احتلوها وامتدوا الى ما وراءها . وكان القائم بهذا الفتح هو عروج الريس البحرى التركى ، ثم أخوه خير الدين الملقب بربروس ، أى ذى اللحية الحمراء ، الذى وصلت القوة البحرية الاسلامية فى أيامه الى أوجها الأعلى بحيث أصبحت هى سيدة البحر المتوسط بلا مراء ، وتضاءلت أمامها جميع أساطيل النصرانية . وكان مركز خير الدين هو مدينة الجزائر ، وقد مد منها جناح سلطته باسم السلطان العثمانى على سواحلها ودواخلها ، فصارت تلمسان وما يليها ، وقسطنطينة وما يتبعها ، داخلة تحت الحكم العثمانى . وقد توالى بعد خير الدين الولاة من قبل الدولة على تلك البلاد يتولون أمورها على شكل ادارة داخلية مستقلة أشبه بادارة تونس ومصر . وكان هؤلاء الولاة فى شغل دائم ونصب مقيم من مكافحة الدول المسيحية فى البحر المتوسط ورد غاراتها المتوالية على سواحل المغرب . ولما كان أساس نزول خير الدين بهاتيك الديار هو القوة البحرية فقد بقيت تلك الايالة مركز قوة بحرية عظيمة مدة ثلاثة قرون ، استفحل فيها شأنها طيلة القرن السابع عشر وأدرك أمرها الهزال والضعف فى القرن الذى بعده . وكانت الدولة العثمانية تتوكأ دائماً فى حروبها على أسطول الجزائر ، وتجعله ردءاً للاسطول العثمانى فى كل موقف خطير ، الى أن انقلب أسطول الجزائر من الجهاد الى اللصاص ، ومن الدفاع الشريف عن حوزة الاسلام الى الاعتداء على الناس والسبى والنهب والاسترقاق ، مما لم يزل يتمادى ولا تنجع فيه الوسائل حتى ضاق بذلك ذرع دول النصرانية ، وآل الأمر الى تولى احداهن (فرنسا) كبر اسقاط تلك القوة واستئصالها

من شأفتهـا ، والاستيلاء على العش الذى درجت منه . فقد صارت لصوصية البحر ، أو القرصنة ، فى أواخر القرن السادس عشر مورد رزق وواسطة كسب لحكومة الجزائر ولأهلها وأصبح هؤلاء يؤلفون الشركات ويبنون السفن ويجهزونها بالعدد اللازمة ، ويبثونها فى البحر تغزو وتعيث ، فتأخذ السفن غصباً وتنهب البضائع التى فيها ، وتسطو على ركابها فتسوقهم أسارى من رجال ونساء وأطفال وتبيع بعد ذلك الأموال والأرواح فى أسواق الجزائر ، فتأخذ الحكومة من ذلك نصيباً معلوماً ويتقسم الباقى على أصحاب السفن والبحرية . واذا كان الأسير من أسرة ذات ثروة أو وجاهة فنعم الغنيمة اذ كان أقارب الأسرى وحكوماتهم المتبوعة وبعض رهبانيات النصارى يفكون الأسرى بمبالغ طائلة . واستمرت هذه الحال دهراً حتى عيل صبر الدول الاروبية لا سيما فرنسا وانكلترة وضربتا الجزائر بالمدافع سنة ١٦٥٩ وسنة ١٦٦٤ وتكرر ذلك سنة ١٦٨٢ و ١٦٨٣ ثم سنة ١٦٨٦ الى أن تمكنت دولتا انكلترة وفرنسا من صيانة سفائنها من اعتداء قرصان الجزائر وصارت تجول فى البحار بدون معارض . أما الدول التى من الدرجة الثانية مثل السويد وهولندة والدانمرك ونابولى الخ فكانت مضطرة أن تدفع لحكومة الجزائر جزية سنوية تشترى بها حرية سير سفائنها .وكانت دولة أوستريا والمجر معفاة بوصاة خاصة من الباب العالى. ومازال الأمر كذلك حتى أيام نابوليون ، فانتهز قرصان الجزائر فرصة الحروب التى اشتعلت يومئذ فى كل أوربا وضاعفوا عيثهم فى البحر المتوسط ، فارتفع العويل من كل جهة ، ولما تقرر الصلح قررت الدول فى (اكس لاشابل) منع الجزائريين بتاتاً من التعرض لأى سفينة ، فلم يسمعوا لأحد كلاماً فأطلق الانكليز مدافعهم على الجزائر انتقاماً .

وفى سنة ١٨٢٧ حصلت منافرة بين حسين داى والى الجزائر ودفال قنصل فرنسا فمد يده الداى الى القنصل وضربه بالمروحة ، فحصرت فرنسا سواحل الجزائر واغتنمتها فرصة لفتح تلك البلاد ، فاحتلت الجزائر فى ٥ ايلول سنة ١٨٣٠ وكان ذلك لعهد الملك كارلوس العاشر ، وكان مراد الفرنسيس فى الأول الاحتفاظ ببعض المدن البحرية وتقرير نظام لادارة البلاد الداخلية بالاتفاق مع الدول ، ثم انقلبت الأفكار وتألفت لجنة اسمها « اللجنة الافريقية » للمذاكرة فيما اذا كان الاولى ترك الجزائر تحت شروط معلومة ، تفادياً من الكلف الباهظة التى يقتضيها فتح القطر الجزائرى أو الاستمرار على سياسة الفتح والاحتلال

الى النهاية . مسئلة شبيهة جداً بمسئلة سورية اليوم بين الحزب الذى يرى تركها لأهلها خوف التورط فى حروب مستقبلة اما مع العرب أو مع الترك أو مع غيرهم ؛ والحزب الذى يرى التمسك بسورية والسيطرة عليها لأجل نفوذ كلمة فرنسا فى المشرق مهما كلف ذلك من المشاق . وفى سنة ١٨٣٤ رجح رأى الاستيلاء ، وتعين حاكم عام للجزائر ، ولكن بقى الفرنسيس مترددين فى قضية الزحف الى الداخل ، وجعلوا يدخلون المدن تدريجاً ، فاستولوا على وهران ومستغانم وعنابة وبجاية . وسنة ١٨٣٦ قصدوا قسطنطينة ، وكان فيها أحمد بك فهزمهم . فأعدوا حملة ثانية فى السنة التالية ففتحوها وامتدوا من هناك الى الصحراء . وفى سنة ١٨٤٤ كانوا فى بيسكرة

أما فى الجهة الغربيــة فان المقاومة كانت أطول أمداً ، وأصعب مراساً ؛ وذلك أن الأهالى اختاروا لهم أميراً قاتلوا تحت لوائه وهــذا الأمير كان رجلا من أعاظم الرجال وهو عبــد القادر بن محيي الدين الحسنى . أصل سلفهم من المغرب الأقصى ومن آل البيت فيما يقال . هاجروا من هنــاك الى نواحى وهران ، واشتهر منهم رجال بالورع واقتــدت بهم الناس ولا سيما السيد مصطفى بن محمــد المختار ، والسيد محيي الدين والد المترجم . وكانت ولادة المترجم سنة ١٢٢٣ الموافقة لسنة ١٨٠٨ ونشأ فى مهد العلم والتقوى ، واعتنى بالتحصيل جد الاعتناء ، حتى تفوق بالأدب والفقه والتوحيد والحكمة العقليــة ؛ وكان مع ذلك لا يهمل المثاقفة بالسلاح وركوب الخيل بحيث نبغ من جهة عالمــا فاضلا ، ومن جهة ثانية ثقفاً فارساً فجمع بين السيف والقلم . وفى سنة ١٨٢٧ وقعت مشاحنة بين والده السيد محيي الدين و بين حسن بك حاكم وهران التركى ، فانتهى الأمر بجلاء السيد محيي الدين عن وطنه ، فأزمع الرحلة الى المشرق وحج البيت الحرام وكان معه ولده عبد القادر . و بعد سنتين من غيابهما عادا الى وطنهما ، فـكانت بعــد ذلك الحرب بين أتراك الجزائر والفرنسيس فيقال ان عبــد القادر منع والده من الانضمام الى حسن بك حاكم وهران فسلم الحاكم البلدة الى الفرنسيس ، ودارت رحى القتال بين الحامية الفرنسوية و بين الأهالى ؛ فتولى قيادة هؤلاء السيد محيي الدين ، وظهر فى أثناء هذه الحرب من بسالة عبد القادر و إقدامه ورباطة جأشه واصالة رأيه ، ما جمع له محاب القلوب وعقد به آمال الناس . ولما أراد أهالى تلك البــلاد مبايعة السيد محيي الدين أميراً عليهم ؛ اعتذر بعلو سنه ، وأشار عليهم بولده عبد القادر فى

٢١ تشرين الثانى سنة ١٨٣٢ فبويع بالامارة ، وقيل بالسلطنة أولا ، فتحاشى لقبها مراعاة لسلطان فاس ، واكتفى بالامارة . ونص هذه المبايعةمنشور فى كتاب « عقد الاجياد فى الصافنات الجياد » تأليف أكبر أولاده الأمير محمد باشا .

فجعل عبد القادر عاصمته مدينة المعسكر ، ورتب جنوده وباشر القتال ، ولم يكن قتاله قاصرا على جهاد الفرنسيس فحسب ، بل اضطر ان يقاتل حساده ورقباءه من أهل البلاد أنفسهم ، فقام بجميع ذلك أحسن قيام ، حتى دانت له كل عمالة وهران تقريباً ، وفى ٢٦ شباط سنة ١٨٣٤ انعقدت بينه وبين الفرنسيس المعاهدة المعروفة « بمعاهدة دميشل » التى بها تعترف فرنسا لعبد القادر بجميع العمالة الوهرانية خلا مدينة وهران وآرزاو ومستغانم وكان له الحق بموجب هذه المعاهدة ان يعين معتمدين (قناصل) فى وهران والجزائر ومستغانم وغيرها ، وان يستورد الاسلحة من أى جهة أراد . فعظم شأن عبد القادر وتأثل سلطانه . وصار الامير الشرعى لجميع أهالى الجهات الغربية من المغرب الاوسط . ثم مد رواق ملكه على البلاد التى لم تكن داخلة فى ضمن حدوده ، مثل ميدية ومليانة ، ورتب فيها المسالح بالرغم من احتجاج حاكم الجزائر العام ، ولما كان الحسد والمنافسة هما أقتل أمراض المسلمين . بحيث لا تثقل عليهم سلطة الغريب كما تثقل سلطة أخيهم ، ثار على الامير قبيلتا الدوائر والزمالة وانضمتا الى فرنسا فطلب تسليم رؤسائهم اليه فأبى الجنرال « تريزل » ذلك فبرز عبد القادر الى القتال وانتصر على الفرنسيس فى يوم المقطع (٢٦ تموز ١٨٣٥) فجردت فرنسا جيشاً كثيفاً استولى على عاصمته المعسكر تحت قيادة المارشال « كلوزل » وكانت بقية من الاتراك لا تزال فى قلعة تلمسان فناوشوه من الوراء . فانهزم هزيمة ثانية فى حرب مع الجنرال الفرنساوى « بوجو » ولكنه بقى ثابت العزم متوفر القوة . وتمكن بدهائه السياسى ان اصطلح مع الفرنسيس على شروط تضمن له أحسن مما ضمنته معاهدة (دميشل) وذلك فى معاهدة « التفنة » (٣٠ ايار ١٨٣٧) التى اعترفت فرنسا له فيها بجميع عمالة وهران وقسم كبير من عمالة الجزائر . فلما انتهى الخصام بينه وبين فرنسا شرع يقوى سلطته على البلاد التى ادخلت حديثا تحت حكمه . ورتب مسالح فى لاغوات وميجانة وزيبان وخضع له أهل هاتيك الاطراف ما عدا المرابط محمد التيجانى الذى أبى الاعتراف بامارته . فزحف عبد القادر بنفسه الى (قصر عين ماضى) وحصره وبعد

حصار خمسة أشهر افتتحه مع أنه حصن منيع لم يتمكن الاتراك طول مدة حكمهم فى الجزائر أن يدخلوه ثم رتب عبد القادر جيشاً منظماً على نمط جيوش الدول ، وقسمه الى مشاة وفرسان ومدفعية ، واستجاد لتعليمه وتدريبه ضباطاً من الجيش التونسى ومن الجند التركى الذى بطرابلس ومن الفارين من الجيش الفرنساوى . وسن لهذا الجيش نظاما يتعلق بمأكله وملبسه ورواتبه ومدة التعليم وشروط الترقى فيه ونيل الاوسمة وغير ذلك . وجعل دهاليز لادخار الحبوب وانابير للاقوات ومعامل للسلاح ، ورمم القلاع ، ولم يغفل عن شئ مما يلزم لتاسيس الحكومات الشرعية

ولما كانت معاهدات الدول الاستعمارية مع أهالى الاقطار التى تضع نصب اعينها الاستيلاء عليها هى فى الغالب محاط استراحة بين الحلة والحلة . ومنازل استجمام بين مراحل الحرب لا غير بحيث لدى توفر القوة لا تعدم عذراً فى نقض تلك المعاهدات التى لم تبرمها منذ البداية الا على نية النقض ، وكانت فى الواقع مصدقة لقوله تعالى فى هؤلاء « وما وجدنا لاكثرهم من عهد » شرعت فرنسا بالتعلل من جهة تفسير بعض فقرات معاهدة التفنة ، وارادت التفصى منها ، حال كون الامير يتقاضى العمل بها فنشبت الحرب بين الفريقين . لأن فرنسا كانت اعدت عدتها والامير ابت نفسه النزول عما خوله اياه المعاهدة ، فزحف المارشال « فالى » و « الدوق دومال » من جهة ، واغارت عساكر الامير على متيجة من جهة اخرى . ونادى الامير بالجهاد وذلك فى ٢٠ تشرين الثانى سنة ١٨٣٩ فاستمرت الحرب من ذلك التاريخ الى سنة ١٨٤٣ بدون انقطاع . وقام فيها الامير عبد القادر مقامه المحمود الذى طبق ذكره الآفاق . وان كان عدم تكافؤ القوتين المتقابلتين آل أخيراً الى سقوط اكثر حصونه ، واستيلاء العدو على اكثر مدنه ، مثل تاغدمت والمعسكر وتازة ووادى الشليف . فانكفأ الى الغرب ، فزحف العدو الى تلمسان ونواحى ندرومة واحتلها فتحول الأمير الى الجنوب وهناك ايضاً كبس (الدوق دومال) محلته (ما يسميه الأتراك بالقراركاه) وغنم أكثرها ففت هذا الحادث فى عضده وخذله أكثر أنصاره ففر الى المغرب وسعى فى حمل سلطان المغرب على اصلاء الفرنسيس الحرب فكانت بين جيش المغرب والجيش الفرنساوى « واقعة ايسلى » (١٢ أغسطس ١٨٤٤)

ولما كان المغاربة لا يملكون من آلات القتال ما يملكه الفرنسيس انتصر الجنرال « بوجو » على الجيش المغربي ، وكانت بوارج فرنسا ضربت بالمدافع ثغري طنجه ومغادور ، فضيقت فرنسا على سلطنة المغرب من البر والبحر . وأجبرت السلطان مولاى عبد الرحمن صاحب الغرب على عقد الصلح (١٠ ايلول ١٨٤٤) بالشروط التي تريدها . وأولها منع عبد القادر من تجاوز حدود الجزائر . فلبث هذا نحو سنتين متربصاً منتظراً غرة من العدو ليهتبلها . فلما لاحت له فى ثورة سنة ١٨٤٦ انقض على بلاد الجزائر ثانية وأوجف فى الغارة حتى بلغ بلاد البربر المسماة عند الفرنسيس (كابيلى) ، وأعاد الأمر كما بدأ. الا أن قوة عبد القادر كانت هذه النوبة قد تناقصت ، وقدم الفرنسيس فى الجزائر قد رسخت . فلم تستمر غارته وأحاطت به الجيوش من كل جهة . فأسرع الاوبة الى الحدود المراكشية فعادت فرنسا تتقاضى مولاى عبد الرحمن تسليمه . وما زالت تلح فى ذلك حتى ساق عليه السلطان قوة عظيمة . فلما رأى نفسه بين نارين وان اخوانه المسلمين قد صاروا عليه البأ مع الفرنسيس ، اشتد به الغضب وسلم نفسه الى الفرنسيس على يد « الجنرال لاموريسيار » (٢٣ كانون الأول ١٨٤٧) . ووقع الاتفاق على أن يخرج بعائلته من الجزائر ذاهباً الى الاسكندرية أو عكا

وعلى رواية أخرى وهي التي مال اليها صاحب « تاريخ الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى » لما يئس الأمير عبد القادر من الفوز على الفرنسيس بقوته الخاصة ، حدثته نفسه بتقلب سلطنة المغرب ، والجلوس على عرش فاس ، فأوجس السلطان عبد الرحمن خيفة من دسائسه ، وأرسل تلك القوة لمطاردته وخضد شوكته ، قبل أن يستعصى أمره . ولذلك صاحب الاستقصا بعد أن أثنى أولا على جهاده وعلو همته ، عاد فرماه أخيراً بسوء النية والفساد فى الأرض . وهو فى كلتا الحالتين لم يلقبه بالأمير بل « بالحاج عبد القادر بن محيي الدين »

فأخذ الأمير الى طولون حيث كان المراد تسفيره الى الشرق بحسب العهد الذى انعقد . الا انه فى تلك الايام حصلت فى فرنسا ثورة سنة ١٨٤٨ وسقط الملك لويس فيليب فاعتلت الحكومة الموقتة فى اطلاق سراحه وأبقته فى بلادها أسيراً الى سنة ١٨٥٢ اذ بشره لويس نابليون بنفسه انه تقرر اخلاء سبيله . فذهب الى الاستانة ثم أقام ببرصا. وسنة ١٨٥٥

استاذن فى الذهاب الى الشام بمعرفة الحكومة الفرنسوية فأذنت الدولة العلية له بذلك . ولما حصلت فى دمشق الحادثة المؤلمة المسماة بحادثة سنة الستين . التى كان منشأها من رعاع القوم ، اهتم الأمير عبد القادر بوقاية المسيحيين وأنقذ منهم عدداً وافراً . وان لم يكن هو المنفرد بذلك بل شاركه فى هذه المبرة كثير من أعيان دمشق مثل محمود أفندى حمزة ، و بنى العابد ، و بنى المهايني وغيرهم ، فاستحق بهذا الفعل الجميل ثناء الجميع وجاءته الأوسمة مع عبارات الشكر من فرنسا وأكثر الدول الأروبية . وقضى بقية حياته فى مثافنة العلماء واسداء الخيرات ، وكان كل يوم يقوم الفجر و يصلى الصبح فى مسجد قريب من داره فى محلة العمارة . لا يتخلف عن ذلك الا لمرض . وكان يتهجد الليل و يمارس فى رمضان الرياضة على طريقة الصوفية وما زال مثالا للبر والتقوى والاخلاق الفاضلة الى أن توفى رحمه الله سنة ١٨٨٣ فدفن بمقام الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربى فى الصالحية . وترك من الولد الأمراء محمد باشا ، ومحيي الدين باشا ، والهاشمى ، وابراهيم ، وأحمد ، وعبد الله ، وعلى وعبد الرزاق ، وعبد المالك ، فالأمير محمد باشا وشقيقه محيي الدين انتقلا الى الاستانة وجعلتهما الدولة فى مجلس الأعيان الى ان توفيا وكان الثانى منهما شاعراً أديباً ، عالى الهمة ، وذهب سنة ١٨٧٠ بدون علم أبيه الى الجزائر ليترأس الثورة القبائلية التى اشتعلت يومئذ فلما بلغ الخبر أباه أعلن سخطه عليه لأن الامير بعد أن أعطى عهده لفرنسا حافظ على قوله الى الممات واما الهاشمى فمن ولده الامير خالد الذى هو على رأس الحركة الوطنية الحاضرة فى الجزائر وأما الامير عبد الله فهو فى قيد الحياة بدمشق ، وأما الامير على فقد كان مبعوثاً عن الشام منذ سنة ١٩١٤ فى مجلس الأمة بالاستانة ، وكان محرر هذه السطور قد انتخب عن حوران أيضاً وسفرنا يومئذ الى دار السعادة معاً ، فلما افتتح المجلس وصارت المذاكرة فى انتخاب الرئيس ونواب الرئيس وكانت العادة أن يكون الرئيس الاول تركيا والرئيس الثانى من أبناء العرب ، واستشارنى طلعت بك حينئذ ، وكنت العضو العربى الوحيد فى القلم العمومى لمجلس الامة ، وطلعت هو الرئيس ، فاتفقنا على دعوة المبعوثين لانتخاب الامير على رئيساً ثانياً ، وهكذا كان ، ولما شبت الحرب العامة أرسلته الدولة الى ألمانية حيث قابل الامبراطور غيليوم وأمضى مناشير ألقت بها الطيارات الالمانية على العساكر المغربية ، تحثهم على ترك العسكر الفرنساوى . والالتحاق بالالمان حلفاء الدولة العلية ، فأخذ الفرنسيس حذرهم من

مفعول هذه المناشير ، وصاروا يؤخرون المغاربة الى الوراء بعد ان كانوا يضعونهم دائما فى الأمام وقوداً للنار . و بعد أن قضى الامير على مدة فى ألمانية عاد الى الاستانة ومنها الى سورية اذ وجد أخاه الامير عمر محبوساً مع من حبسهم جمال باشا قائد الجيوش فى سورية اثناء الحرب لأوراق وجدت عليه فى قنصلية فرنسا ، فتشفع الى جمال فى أخيه فلم يقبل شفاعته ، ونفاه هو أيضاً مع أولاده وسائر أسرة الامير عبد القادر الى برصا ، ولم يرع حرمة جهاد والده ولا خدمة الامير على فى ألمانية ولا قبل ذلك فى حرب طرابلس الغرب ، فاشتد عليه الغم ولم يلبث ان مرض ونقل الى الاستانة وتوفى بها رحمه الله . وأما الامير عمر فكان من جملة الاعيان المشنوقين . وطالما راجعنا فى أمرهم وطلبنا عنهم العفو أو تحويل جزاء القتل الى النفى فلا أمر يريده الله أبى جمال باشا الا ازهاق الانفس ، فكانت من الاغلاط الكبرى التى ذاقت الدولة العلية مرارة مغبتها وسهلت طريق الاجانب . ومما أتذكره ان جمال باشا سألنى عما اذا كنت انكر ممالأة الامير عمر لفرنسا مع انه هو لم يقدر على الانكار . فأجبته لست ممن ينكر ذلك ولكن أرى وجوب الصفح عنه حرمة للمرحوم والده الذى لا يخفى ماله من المكانة فى العالم الاسلامى فقال لى جمال بالتركية (بكانه) أى وماذا يجيئنى من ذلك . وأما الامير عبد الرزاق فذهب شاباً وكان نادراً فى الذكاء وجمال الصورة والسيرة . وآخر أولاد الامير عبد القادر هو الامير عبد المالك قضى بضعة عشرة سنة مجاهداً فى المغرب بين القبائل الثائرة على فرنسا وعلى اسبانية . ولم يزل فى تلك الديار يتحرك تارة و يسكن أخرى الى كتابة هذه السطور

وكان المرحوم الامير عبد القادر متضلعاً من العلم والادب ، سامى الفكر ، راسخ القدم فى التصوف ، لا يكتفى به نظراً حتى يمارسه عملا ، ولا يحن اليه شوقاً حتى يعرفه ذوقاً . وله فى التصوف كتاب سماه (المواقف) فهو فى هذا المشرب من الافراد الافذاذ وربما لا يوجد نظيره فى المتأخرين وله كتاب آخر ممتع اسمه (ذكرى الغافل وتنبيه الجاهل) فى الحكمة والشريعة . وقد ذكر مؤرخو الافرنجة أن مملكته العلمية والدينية كانتا من أكبر أعوانه على تأسيس الحكومة التى أسسها وانه كان ينال باللسان ما قد يعجز عنه بالسنان . ولم ينكروا عليه حفاظه للعهود لكنهم زعموا انه كان لا يتوقف ان يخفرها فيما لو رأى فى ذلك مصلحته المندمجة فى مصلحة الاسلام . قال فى دائرة المعارف الاسلامية

الفرنسوية : « كان عادلا لكن على الطريقة الشرقية ، براً رؤوفا ، لكن يجوز أن ينقلب سفاكا للدماء جاسياً اذا رأى ضرورة ايقاع الرعب فى قلوب الاعداء »

قلنا يظهر ان الافرنج يريدون أن يحفظوا مزية خفور العهد لدى تبين المصلحة لأنفسهم دون سواهم ، وكذلك سفك الدماء لأجل القاء الرعب عند الضرورة . وحبذا لو حصروها فى دائرة الضرورة ، بل اعمالهم فى غاراتهم الاستعمارية ثم فى الحرب العامة الاوربية قد فضحت أمورهم وأثبتت أنهم يسفكون الدماء فى ضرورة وفى غير ضرورة . وليس مثلهم بمن يحق له أن ينتقد فى هذا الباب رجلا شهدت له جميع أعماله بالوفاء كالامير عبد القادر . ولنختم هذه الترجمة بشئ من شعر الامير الذى يدل على علو نفسه :

تسائلنى أم البنين وانها لأعلم من تحت السماء بأحوالى
الا فاسألى جنس الفرنسيس تعلمى بأن مناياهم بسيفى وعسالى
ومن عادة السادات بالجيش تحتمى وبى يحتمى جيشى وتمنع أبطالى

الجزائر وقبائل البربر

للامير شكيب

بعد أخذ الأمير عبد القادر أسيراً وانعقاد معاهدة الصلح بين فرنسا والمغرب (١٨٤٥) تحددت الحدود بين الجزائر ومراكش ، وعلت كلمة فرنسا فى القطر الجزائرى ، فأخذت العساكر الفرنسوية تتقدم الى جهات الصحراء وتبنى فيها المخافر وتؤسس المسالح توطيداً لقدمها فى البلاد ، فثار ثائر يقال له أبو زيان فى واحات زيبان من الصحراء ، فكان نصيب ثورته الفشل فثار زعيم آخر اسمه الشريف محمد بن عبد الله فسيقت عليه العساكر الفرنسوية فافتتحت مدينه لغوات وزحفت الى ورغله (١٨٥٤) وفر الشريف شريداً .

وكانت البلاد المسماة (كابيلى) أى القبائلية ، اشارة الى قبائل البربر التى تسكنها ، لا تزال مستعصية على الفرنسيس شامخة بانفها ، لا تعطى المقادة ، فوالى هؤلاء عليها الزحوف بقيادة «الجنرال بوجو» و «الجنرال سانت آرنو» و «الجنرال راندون» فما زالوا يغادونها القتال ويراوحونها من سنة ١٨٤٤ الى سنة ١٨٥٧ والدماء جارية من الفريقين حتى خضعت تلك القبائل فى وادى الساحل ووادى سيباو ، وانهزم أبو بغلة الذى اشتهر فى تلك الحرب وبقيت قبائل الجرجورة مدة حافظة استقلالها ، الى أن أذعنت هى أيضا ولكن على شرط حفظ تشكيلاتها الادارية وعاداتها وعرفها ، فولت فرنسا على بلاد القبائل رؤساء مسلمين يراقب عليهم ضباط فرنسيس بجانبهم ، وجعلت أقلاماً عربية فى تلك الادارات ، وسمحت للقبائل بالمحافظة على عاداتهم وأوضاعهم مما هو سنة الدول الاستعمارية فى الأقوام التى تبلو منها شدة البأس وصعوبة المراس ، الى أنَ تكون تمكنت منها بطول عهد الحكم وازالة ما بقى من أسباب المقاومة ، فتعدل حينئذ الى اجراء الأحكام الاستعمارية على وجهها الأكمل ، ولكن الثورات فى الجزائر لم تكن انتهت لذلك العهد بل كان على فرنسا أن تخمد ثورات أخرى ، كلما انطفأت نار احداها اشتعلت أخرى . ففى عام ١٨٥٩ كانت ثورة بنى سناسن على حدود المغرب الأقصى ، فكلفت فرنسا حملة عسكرية .

وفى جنوبى وهران كانت ثورة أولاد سيدى الشيخ التى استمرت ثلاث سنوات متتابعة . واضطر بها الجنرال « فيمفن » الى تعقب الثوار الى وادى الجير من عمل المغرب، ولم تسكن هذه الفتنة الا سنة ١٨٦٧ . ولكن لما انكسرت فرنسا فى الحرب مع المانيا سنة ١٨٧١ كانت الثورة الكبرى اذ لاحت الفرصة للجزائريين ورأوا الصيد سانحاً، فثار المقرانى قائد ميجانه ، وضافره على الحركة مرابط يقال له الشيخ الحداد مع ولده سى عزيز ومعهم أتباع الطريقة الرحمانية ، فاشتعلت الفتنة فى جميع القبائل ، وامتدت الى بعض أعمال قسنطينة واتصلت ببعض عمل الجزائر ، ولكن العمالة الوهرانية فى تلك الآونة بقيت ساكنة لم تشارك سائر اخواتها ، أما الثائرون فأحاطوا بجميع الحصون الفرنسوية التى فى بلاد القبائل وخربوا قرية « بالسترو » وكادوا يستولون على متيجة ، فجردت فرنسا جيوشاً جرارة عقدت عليها للاميرال « غويدون » لشهرته بالصرامة والمضاء ، فدارت رحى القتال ونشبت هناك ٣٤٠ واقعة انتهت أخيراً بسبب التفوق الفرنساوى فى فن الحرب ووفرة اعتادها بخمود نار الثورة ، وسقط المقرانى قتيلا فى وادى سفلات ، فخلفه فى الزعامة أخوه أبو مزراق ، فما زال هذا يكافح حتى وقع أسيراً بمحل يقال له الرويسات فى ٢٠ كانون الثانى سنة ١٨٧٢ وكان ذلك ختام الثورة فاقتصت فرنسا من القبائل أولا بأن الغت لهم استقلالهم الادارى ، ثانيا بأن اغتصبت من أراضيهم ٤٥٣ الف هكتار (الهكتار ١٠ آلاف متر مربع) سلمتها الى المستعمرين الفرنسيس الذين يقال لهم « الكولون » ، ثالثا بان ضربت عليهم غرامة حربية فادحة تجعلهم دائما رازحين تحت أوقار الديون ، ومن بعد هذه الثورة لم يحصل من مقاومات الجزائريين مايستحق الذكر الا ثورة أبى عمامة سنة ١٨٨١ ، ومن ثمة ساد السكون فى ذلك القطر وانقطع الأمل من القيام بالسيف ، لاسيما بعد أن لحق القطر التونسى ثم القطر المراكشى بالقطر الجزائرى وصارت كلها مستعمرة واحدة يلقبها الفرنسيس بافريقية الفرنسوية . الا أن الحرب العامة انشأت روحاً جديدة فى بر الجزائر لم تكن موجودة من قبل ، وهى ان الجزائريين قدموا لفرنسا جزراً للسيوف وقوداً للكرات النارية أكثر من ٢٠٠ الف مقاتل فى الحرب العامة قتل منهم نحو ٦٢ الفا كانوا فداء لفرنسا بأرواحهم ، وكان الفرنسيس يوم نشوب الحرب العامة واحتياجهم الى عضد المستعمرات قدبالغوا فى التملق للاهالى ، وتبدلوا جلود النمور بأصواف النعاج ، وطافوا

على الجزائريين يقولون انما هو وطن واحد ندافع عنه جميعا حتى اذا فزنا بما نرجوه قسمنا حقوقه بالمساواة بدون تمييز لفرنساوى عن جزائرى ، ولا لمسيحى عن مسلم ، وان ادارة الجزائر بعد الحرب ستكون شكلا آخر لا يشبه شيئا مما كان الى ذلك الحين ، وان المسلمين سيتمتعون بجميع الحقوق التى تتمتع بها الامم المستقلة ، الى غير ذلك من المواعيد التى كانت فرنسا وسائر دول الحلفاء توزعها جزافا على الأمم المهتضمة ، ترغيباً لها فى القتال الى جانب الحلفاء ، مما يعرفه عرب آسية اكثر من سواهم ، كيف لا وهم الذين وعدهم الحلفاء بأنهم اذا انحازوا الى صفهم فى الحرب العامة أعادوا لهم السلطنة العربية بحذافيرها ، والخلاصة مواعيد بدون حساب يبذلها أناس كانت تجول فى محاجرهم دموع التماسيح ؟ وهم يقولون هلموا ايها الاقوام الى القتال فى جانب الحلفاء لنصرة الحق على الباطل ، وانفروا خفافاً وثقالا لمكافحة هذه الامة الالمانية الغاشمة التى تريد استعباد الامم ، حال كون مقصد الحلفاء من هذه الحرب هو رفع سلطة القوى عن الضعيف ، وايتاء كل امة قسطها من حق الاستقلال . فما زالت هذه المواعيد تبذل ، وتلك الالفاظ تتكرر وتصقل ، حتى استوسق للحلفاء النصر وانتهت الحرب ، وقضى الأمر فقلب الحلفاء لتلك الامم ظهر المجن ، وتناسوا جميع تلك الوعود ، ونكثوا بعامة هاتيك العهود ، وادرك اولئك الاقوام الذين بذلوا ارواحهم فى سبيل نصرتهم أن هذه النصرة انما كانت عليهم لا لهم ، وانهم انما اعانوا على انفسهم ، وشاركوا فى تخريب بيوتهم بايديهم . ومن جملة هذه الامم اهل الجزائر ، فثارت خواطرهم وغلت قلوبهم وتنجزوا فرنسا ما سبق من وعودها ، وذكروها بالاثنين والستين الف قتيل الذين ذهبوا منهم فى سبيلها ، فبعد اللتيا والتى اعطتهم فرنسا حق الانتخاب بمعنى أن تقبل اصواتهم فى الانتخابات البلدية ، وكذلك حق الترقى فى الدرجات العسكرية . بعد أن كانت لهم دائرة معينة لا يتجاوزونها مهما بلغ من نصح خدمتهم . وكذلك تساووا مع المستعمرين فى الاموال الاميرية ، بعد أن كان هؤلاء يدفعون مالا والجزائريون يدفعون أمثاله عن الارض الواحدة . وكل هذه الحقوق الجديدة ليست شيئا مما كان الفرنسيس يمنونهم اياه اثناء الحرب ، وما هى الا فك بعض حلقات من تلك السلسلة الطويلة التى هم راسفون بها منذ نحو قرن . فلذلك قاموا يناصبون الفرنسيس الحرب المعنوية التى بدأت تتجلى فى الانتخابات والاجتماعات ، واخذت تمتد بينهم الحركة الفكرية النازعة الى

الاستقلال ، وانتهز حزب الشيوعيين فى فرنسا فرصة القنوط والغضب اللذين استوليا عليهم ، فبثوا فيهم الدعوة الاشتراكية الشيوعية . فتلقاها كثير من عملتهم وصعاليكهم وربما من المتمولين منهم ؟ لا رغبة فيها بذاتها بل فيما يصاحبها من تخفيف السلطة الحاكمة والوطأة الاستعمارية .

ولقد كان الفرنسيس يظنون ان الواسطة الوحيدة لنزع فكرة الاستقلال من رؤوس الوطنيين ، واماتة روح المقاومة ، هى ملاشاة التعليم الاسلامى ، وطمس معالم الشريعة التى يظنونها هى وحدها موقداً للحمية الاهلية ، ومنزعا للتماص من الحكم الاجنبى ، فلهذا كانت سياستهم فى الجزائر من الاول الى الآخر سياسة تساهل دينى فى الظاهر ، مع التحامل فى الباطن ، فانهم متعوا ليس الفرنساوى فقط ، بل الايطالى والاسبانيولى ، بل اليهودى والمالطى ، بحقوق لم يسمحوا بها للجزائرى المسلم . وجعلوا المسلمين هم الطبقة الدنيا فى السياسة والادارة والاجتماع وكل شئ . وقصروا امتاعهم بالحقوق ـ التى يتمتع بها كل الخلق من سواهم ـ على تجنسهم بالجنسية الفرنسوية ، وقبولهم القانون الفرنساوى الذى يصادم الشريعة فى كثير من الاحوال الشخصية ، بحيث لا يقدر المسلم ان يقبل العمل به الا بعد أن ينزل عن اسلامه . وجعلوا كثيراً من التمتع بالنعم والأعطية والمكافئات موقوفاً على التنصر . ولم يرق الجنرال يوسف رتبة جنرال الا على هذا الشرط . ومنذ سنتين طلب أحد النواب الأحرار فى البارلمان فى باريز الغاء القانون الذى تمنح بموجبه فى الجزائر الهبات العقارية للاوربى ولليهودى والجزائرى الذى يرضى أن يتنصر . وهو قانون سنته الحكومة الفرنسوية منذ نحو ثلاثين سنة لا غير أى على عهد الجهورية التى تزعم ان الاديان عندها سواء ، وقد أجاب ممثل الحكومة يومئذٍ موافقاً على استهجان هذا القانون ، ومعلنا نية الحكومة الغاءه ، لا سيما بعد التفادى الذى تفاداه المسلمون فى هذه الحرب ، ولكن لست على ثقة من كونهم قرنوا القول بالفعل اذ طالما قالوا ولم يفعلوا ، ولم يجتزئ الفرنسيس بهذه الوسائل الرسمية لتزهيد المسلمين فى الاستمساك بعروة شريعتهم ، بل فسحوا المجال للبعثات الدينية ، وعضدوا « الكردينال لا فيجرى » فى بث مرسليه الملقبين بالمرسلين البيض ، والتقطوا كثيراً من أطفال الفقراء من المسلمين وأيتامهم ، ونشأوهم فى المدارس الدينية ، وقد جمعتنى الاقدار فى احدى مدن ايطالية بقائد الف فى

الجيش الايطالى كان يرغب الىّ أن أرسله الى احدى الحكومات الاسلامية لاجل الخدمة فيها فسالته عن سبب هذا الحنين ، فاجابنى انه مسلم مغربى ، وكانت سحناؤه تدل على ذلك ، فقلت له وكيف صار ضابطا فى الجيش الايطالى ، فقال لى انه تربى فى احدى تلك المدارس على أن يجحد الاسلام ، ويتجنس باحدى الجنسيات الثلاث الكاثوليكية : الفرنسوية ، والايطالية ، والأسبانيولية . فهو يومئذ اختار الايطالية ولكنه اليوم يبغى الرجوع الى أصله

وبالجلة فانه وان كانت الحكومة الفرنسوية غير دينية فى بلادها الأصلية ، فهى فى الخارج سائرة على قول غمبتا : « عداوة الدين ليست من بضائع التصدير » . وهذا مرجعه الى سببين أحدهما أنها تعتقد أن الدعوة الدينية قد تكون عضداً للحركة الاستعمارية،ومن هذا الباب كان جذب فرنسا بضبع الجزويت فى سورية ، مع أن الجمهورية تناصب هؤلاء العداوة فى فرنسا ، والثانى أن أكثر النفوذ فى المستعمرات انما هو للقوة العسكرية ، وأكثر أمراء الجيش تجدهم من الحزب الكاثوليكى . ومما لا ينبغى أن ننساه أن الفرنسيس قلبوا كثيراً من مساجد الاسلام فى الجزائر كنائس . فجامع القشاوة فى نفس مدينة الجزائر هدموه وبنوا محله كنيسة ، والمسجد المسمى بمسجد «ميزوّمورتو» حولوه كنيسة ، وكثير من الجوامع حولوها ثكناً عسكرية وانباراً ، وكان فى مدينة الجزائر يوم فتحوها ١٧٦ مسجداً وزاوية فلم يبق منها الا ٤٨ فقط . وأما الأوقاف وما استولوا عليه منها فذلك شرحه طويل ، لا يسعه هذا المكان ، وقد تقرأ فى التآليف الرسمية عن حالة الجزائر ما يخيل لك أنه وان كان لا أثر للمساواة بين الأوربيين والمسلمين فى الادارة ، ولا فى القضاء ، ولا فى الهيئة الاجتماعية ، فهناك شىء من الاعتناء بحالة المسلمين ، ومن النظر فى رفاهيتهم وسعادتهم ولكن اذا سألت هؤلاء أو قرأت مؤلفات الأحرار من الفرنسيس أنفسهم ، تعلم من الحقائق ما يسوء كل ذى وجدان سليم ، وفى العام الماضى ذهب المسيو « فاليان كوتوريه » أحد النواب الشيوعيين فى البارلمان ، وساح مدة طويلة فى الجزائر وتونس فنشر فى جريدة « الأومانيته » مقالات متعددة عن درجة اهتضام أولئك الاهلين لا يبقى معها أدنى مجال للمكابرة . وحسبك أن ستمائة ألف ولد من أولاد الجزائريين لايجدون مكتباً يتعلمون فيه القراءة ، من أصلهم ستة آلاف فى نفس مدينة الجزائر ، فكيف يقال ان الحكومة تعتنى بهم .

وقد لجأ الفرنسيس الى وسيلة أخرى لتمكين قدم استيلائهم فى المغرب ، وهو زرع الخلاف بين العرب والبربر ، واقناع البربر بكون أصلهم من سلالة أوربية ، وان لغتهم غير عربية ، فلا ينبغي ان يتعلموا العربى . ومما لا يكتمه بعضهم ان على فرنسا قصر اللغة العربية ضمن حدود معلومة ، وحمل جميع من أصلهم بربر على اللغة البربرية ، وهذا ينافى دعواهم ، من كونهم انما يتوخون فى الاستعمار نشر المدنية ، لأنه مما لامشاحة فيه أن البربرية لا تصلح للمدنية بخلاف اللغة العربية التى تعد فى الدرجة الأولى من لغات الأرض شرقا وغرباً ، وانما هناك سبب آخر نأتيك منه بشاهد واحد :

قال « فيكتور بيكه » الفرنساوى فى كتابه المسمى (مراكش) Le Maroc, Par Victor Piquet الذى ظهر سنة ١٨١٨ ما ترجمته :

« ان البربر كان منهم مجوس و وثنيون و يهود ، وفى صدر النصرانيــة قبلوا الدين المسيحى لـكنهم نسوه عنـد ما تمكنوا من الاستقلال . ثم دانوا بالاسـلام الذى ببساطة قواعده يستميل العقل و يرسخ فى جميع الأمم التى تدين به » .

ثم قال : « ان البربر أسلموا اسلاماً لا يزال مشوباً بأحوال وأوضاع خاصة بهم »

ثم قال : « ان العالم الاختصاصى فى أمور البربر المسيو « دوته » الذى جال بين قبائل البربر نوه بمحاسن سجايا هذا الشعب البربرى . وقال ان به مناط الآمال فى شمال افريقية »

ثم قال : « انه شعب يظهر عليــه الميل من نفسه الى المدنية الفرنسية . لذلك يجب علينا قبل كل شئ أن لا نعربه أكثر مما هو . ولأجل بلوغ هـذه الغاية يجب أن يحمل البربر على الثقافة الفرنسوية ، وأن يتكلموا بالفرنساوى قبل وصول الثقافة العربية واللسان العربى اليهم . وعلى هـذا الشـكل يتحقق بلا ريب ـ أكثر ممـا هو مظنون ـ خيالنا العظيم بمراكش فرنسوية » .

ثم قال فى صفحة ٣٠٢ من كتابه :

« وفى النية تأسيس مكاتب فرنسوية بربرية فى الجهات التى لم تستعرب من بلاد البربر . وهـذا تصور حسن جداً لـكننا لسوء الحظ قد تأخرنا فى انفاذه . فاذا كانت بلاد القبائل من الجزائر ليس فيها الا بعض أقوام من البربر . فان قسما عظيما من أهل المغرب الأقصى لا يعرفون العربيــة أو يتـكلمون باللغتين البربرية والعربيــة ، وليس لنا أدنى

مصلحة أن ننشر بينهم اللغة العربية — لغة الجامعة الاسلامية — بل بالعكس » .

ولسنا ممن يقول ان جميع المفكرين من الفرنسيس هم على هـذا الرأى من مناصبة اللغة العربية والشريعة الاسلاميـة بالوسائل الممكنة ، كلا فان فئة منهم تجنح الى الحرية التامة ، وتناضل دائما عن حقوق الأهالى ، وتعتقد عقم تلك الوسائل الاستعمارية ، ولـكن مع الأسف لا تزال هذه الفئة هى الفئة القليلة ولا تزال الدولة لاولئك ، وأنت ترى أنه مع كل مساعى الفرنسيس فى مناصبة العربية والشريعة لم يقدروا أن يمنعوا الحركة الوطنية التى تتقوى يوماً فيوماً فى الجزائر ، مع أن أكثر القائمين بهـا هم ممن حصلوا جميع علومهم باللغة الفرنسوية »

ونود أن نلخص هنا فصـلاً من كتاب « البسيكولوجيا السياسية » للفيلسوف الافرنسى الشهير غستاف لوبون وذلك فيما يتعلق بسياسة فرنسة الاستعمارية فى الجزائر . قال فى صفحة ٢٢٨ مايلى :

« إننى لاأتوخى هنا انتقاد الأشخاص وانما أريد انتقاد الآراء والمبادىء التى ينفذها الأشخاص بقطع النظر عنهم لأنى أعلم أن الضرورات السياسية لا المبادىء والنظريات هى التى تدير أعمال رجال السياسة . فليس على الأشخاص إذاً يجب توجيه الاعتراض فان هؤلاء مقيدون بمبادىء وأوضاع معلومة وان تغييرها فى غاية الصعوبة . ومن نظر الى ظاهر الشعب الافرنسى حسبه أشد الشعوب نزوعاً للثورة ولـكن الشعب الافرنسى فى الحقيقة هو فى نفسه محافظ أكثر من كل شعب آخر

« فجزائر الغرب قطر مساحته كمساحة فرنسة ولـكن سكانه قليلون بالنسبة الى سعة أرضه . وفيـه خمسة ملايين من المسلمين تؤكد التقارير الرسمية أنهم مخلصون للحكومة الفرنسوية إلا انهم برغم اخلاصهم المزعوم يحتاجون الى ستين الف عسكرى لتقيمهم على الطاعة أى إلى جيش بمثله تقريباً تخضع انكلترة ٢٥٠ مليوناً من الهنود من هؤلاء ٥٠ مليوناً من المسلمين أشد مراساً من الجزائريين(١)

و بين هذه الخمسة الملايين من مسلمى الجزائر ثمانمائة ألف أوربى نصفهم افرنسيون

(١) غستاف لو بون عول على احصاءات قديمة والحقيقة أن عدد أهل الهند اليوم ٣٢٠ مليوناً منهم ٧٧ مليوناً مسلمون

والنصف الآخر طليان واسبانيون وغيرهم . وهؤلاء الأور بيون لا يختلطون فى النسب مع المسلمين وانما يختلطون بعضهم مع بعض بحيث يتكون منهم فى المستقبل شعب قائم بذاته

«أما المسلمون فثلثاهم بربر والثلث عرب والفوارق بينهم قليلة أهمها انقسامهم الى حضر وبدو

«ولقد كتب المسيو « لوروا بوليو » Leroy Beaulieu من أساتيذ مدرسة «كوليج دوفرانس » كتاباً مهماً عن مسئلة الجزائر هو زبدة التعبير عن الرأى السائد فى فرنسة بشأن الجزائر والجزائريين وهو أنه يجب علينا « أن نفرنس المسلمين »

أما الكيفية التى يريدون أن يفرنسوا بها هؤلاء المسلمين فهى قريبة من طريقة الأمريكيين الأوائل فى اغتصابهم أراضى الأقوام الحمر فى أمريكا وتركهم اياهم أحراراً أن يموتوا جوعاً

«نعم هذه هى طريقتنا الادارية فى الجزائر وانظر كيف يصفها المسيو « ڤينيون » Vignon فى كتابه الذى هو من أهم الكتب فى هذا الموضوع . قال :

«لما رأت الادارة أن الولاة كانوا بعد كل ثورة يضبطون جانباً من أراضى القبائل رأت أنه يمكن أيضاً اعتيام أحسن الأراضى وتسليمها للمستعمرين « الكولون » ودحر القبائل الى الصحراء . وكلما كان العنصر الأوربى فى الجزائر ينمو كانت القبائل تخرج بالقوة من أراضى آبائها وأجدادها وتُدحَر الى الصحارى حتى خرجت قبائل بأسرها من بلاد كانت هى أوطانها ومساقط رؤوسها . ولا جرم أن نتيجة هذه السياسة التى استمرت نحواً من ثلاثين سنة على وتيرة واحدة لم تكن غير المنتظر . فان العربى المدحور بدون انقطاع الذى ليس آمناً ولاساعة أن يجنى ثمرة تعبه قدفترت همته وأصبح لايعتنى بحرث ولا زرع . ولو فرضنا أنه حرث وزرع فلم يكن له أن يسترجع البذر الذى زرعه فى الأرض لأن القبائل كانت قد أُخرجت من الأراضى الصالحة الخصيبة ودُحرت الى أراض جرداء محرومة من المياه لاتخرج مايقوم بقوت الزراع ولا ما يكفى لعلف مواشيهم . وهكذا كانت تزداد بغضاء الوطنيين للمستعمرين وتزداد الهوة الفاصلة بينهما عمقاً

«ولما قرر المجلس الاستشارى سنة ١٨٦٣ أن أصحاب الأملاك يلبثون متصرفين بالأملاك التى كانت فى أيديهم لم يمنع ذلك من تتبع سياسة دحر الأهالى الى الصحراء وانما

لجأوا فيها الى طريقة ثانية وهي تغيير الصيغة والاسم . فهي الآن تسمى « بالاستملاك لأجل المصلحة العمومية » وطريقة هـذا الاستملاك تمتاز بأمرين أحـدهما انها لاتجد أراضي للمستعمرين الامن أراضي المسلمين وانها تحدث دوائر استعمارية خالصة للأور بيين لايحق لأهالي الجزائر المسلمين أن يسكنوا فيها كذوي أملاك[١] الثاني أن المسلم يأخذ تعويضا عن الأرض التي نُزعت من يده ٥٠ أو ٦٠ فرنكاً عن كل هكتار[٢] فاذا كان الجزائري المسلم يملك ٣٠ أو ٤٠ هكتاراً خرج منها بألف وخمسمائة فرنك . هذا كل مايحوزه لمعيشته طول حياته وهو مبلغ لا يقوم بأوده أكثر من سنتين » . اه

قال : « ومن أغرب الحوادث التي جرت في الجزائر وتجلى فيها استبداد الحكومة بافظع شكل الاستعمار الرسمي الذي أورد له المسيو ڤينيون أمثلة من أعاجيب الدهر من قبيل توزيع أراضي على أناس يعرفون من الزراعة بقدر ما يعرفون من لغة السنسكريت و بناء دور لم يبقَ فيها الآن ديّار وذهبت نفقاتها كلها سدىً . ولم تفد هذه التجار يب رجال حكومتنا أدنى عبرة لأنه من عهد قريب كان والي الجزائر يطلب من الحكومة ٥٠ مليونا لينزع بها أراضي من أيدي العرب ويبني قرى للمستعمرين مكان قرى كانت قد خربت ولكن مجلسي البرلمان والسنات لحسن الحظ رفضا هذا الاقتراح خشية أن يؤدي تنفيذه الى ثورة

« فلا عجب اذا كنا بأعمال كهذه أنفقنا على استعمار الجزائر أربعة مليارات من خزانة فرنسة فضلاً عن دخل بلاد الجزائر

«فاننا مذ احتللنا الجزائر لم يوجد عندنا في أمرها الا رأيان أحدهما أن نطرد العرب الى الصحراء ونأخذ أراضيهم والثاني أن نفرنسهم ونصبغهم بصبغتنا . فأما العرب فلم يتهيا طردهم كما كان المظنون لأن الصحراء لاتنبت مايعيش به هؤلاء وهم ملايين من النسم ولأن طردهم قولا واحداً لا يمكن بدون مقاومة منهم . وكذلك لم يتيسر لنا أن نفرنسهم كما ظننا لأن نقل أمة من عقلية نشأت عليها الى عقلية أخرى غريبة عنها شديد الامتناع

«فكل من هاتين الطريقتين مذمومة ولامصلحة لنا بها . ولاتزال فرنسة باستعمالها

---

(١) أي يسكنون فيها كفعلة لاغير

(٢) ثلاث ليرات عن مساحة ١٠ آلاف متر مربع فتأمل

تخسر وتضيع الى أن تفهم أن أمثل الطرائق هي ترك أهالى الجزائر على عاداتهم وعقائدهم وطرز معيشتهم كماهو عمل الشعوب المستعمرة كالانكليز والهولانديين فى مستعمراتهم فهى أبسط الطرق وأقلها خساراً وأعلاها حكمة

«ولكن الرأى العام فى فرنسة ضد هذا الأسلوب فى الاستعمار . وعندنا الناس لا يعرفون أهمية الأوضاع الدينية فى الشرق وان الحياة عند أتباع محمد كما عند أتباع سيوا (معبودالهنود) واتباع بوذا (معبود الصينيين) هى كلها جارية وفق أوامر دينية . وليس عند الانكليز من يعتقد أنه لأجل حياة مبدإ يجوز أن تموت بلاد .

«فنحن كان يجب أن تكون سياستنا تعزيز الديانة الاسلامية ورجالها بدلا من مناصبتها العداء وكذلك كان يجب علينا احترام العادات والمنازع والأوضاع العربية التى هى عند هذه الأمة من الدين . فالمسيو « لوروا بوليو » يسفه هذا الرأى ويقول « ان احترام منازع العرب وتقاليدهم وقواعدهم يوجب خروج جيشنا ومستعمرينا من افريقية . ولعمرى لم نجد تعليلا معقولا لهذه الدعوى . وهانحن أولاء نرى الانكليز يحترمون قواعد المسلمين وعقائدهم فى الهند وليس فى نية الانكليز أن يجلوا عن الهند» اه

ثم يذكر غستاف لوبون رأى « لوروا بوليو » فى البربر وزعمه انهم أوربيون وانه من الممكن كثيراً أن يتفرنسوا . وهو يهزأ برأيه هذا ويرد على زعم « لوروا بوليو » ان العرب كلهم رعاة وبدو ويقول ان القبيلين فيهما بدو وحضر بحسب طبيعة الأرض وان من العرب حضراً فى الجزائر كما فى سورية ومصر وجزيرة العرب . وان قابلية العرب للتمدن ثابتة بالحضارة الزاهرة التى كانت لهم ولم يكن مثلها للبربر

قال :« ثم يذكر « لوروا بوليو » من الأمور التى أوجبت تأخر العرب تعدد الزوجات ولا أريد الآن الخوض فى هذا المبحث ولكنى أكتفى بالقول ان تعدد الزوجات الشرعى عند المسلمين أفضل من تعدد النساء بدون صورة شرعية عند الأوربيين وماينشأ عن ذلك من الولادات غير المشروعة . ولقد أعطيت هذا البحث حقه فى كتابى « تاريخ مدنية العرب » وأثبتُّ أنه فى ممالك العرب تعلمت نسوة تحت الحجاب ونبغ منهن مثلما نبغ من مدارس الاناث فى عصرنا »

ثم قال : « لقد تحقق الآن ان تعدد الزوجات لم يكن فى يوم من الأيام سبباً فى جمود المسلمين . أيلزم أن ننبه قومنا الى أن العرب وأن العرب وحدهم هم الذين عرّفونا بالعالم اليونانى اللاتينى وان جامعات اوربة ومن جملتها جامعة باريز بقيت مدة ستة قرون متوالية تعيش بتراجم كتب العرب وتطبيق قواعدهم العلمية . نعم لقد كانت المدنية العربية من أبهر المدنيات التى عرفها التاريخ ولقد ماتت كما مات غيرها ولكن تعليل موتها بكونه من نتائج تعدد الزوجات ليس فيه شئ من التدقيق »

ثم قال : « وقد عدّ « لوروا بوليو » الثقافة اللاتينية من جملة العوامل التى يجب أن نعتمد عليها فى استجلاب العرب الينا . وهذا هو الرأى السائد فى فرنسة اليوم وقد كنت أنا نفسى من القائلين به ولم أعدل عنه الا باسفار ومراقبات كثيرة . ومع انى لا اؤمل أن أهدى طريق قارئاً افرنسياً واحـداً فانى أرى الموضوع أجل من أن لا اصارح فيه بكل أفكارى . ولقد خصصت الفصل الآتى من كتابى هذا بهذا المبحث وسيجد القارئ أن الثقافة الاوربية بعيدة عن اصلاح حالة الشرقيين بل هى أجدر بأن تزيدهم بؤساً فى مادتهم ومعناهم . فان هذه الثقافة التى هى نتيجة احساساتنا واحتياجاتنا نحن منذ قرون وأعصر لم تكن لتطابق احساسات أقوام آخرين واحتياجاتهم فتكون نتائج تطبيق ثقافة مخالفة لأذواقهم وشواعرهم واحتياجاتهم هى تجريدهم دفعة واحدة سواءً كانوا عرباً أو هنوداً أو شرقيين آخرين من أفكارهم وعقائدهم الموروثة التى عليها قائم بناء وجودهم. فان صح حلم « لوروا بوليو » وأمثاله ممن يشيرون بتنشئة العرب فى الثقافة الاوربية فان الجزائر تكون لنا ما كانت البندقية لاوستريا وايرلاندة لانكلترة والالزاس لالمانيا

« ان مؤرخينا يندبون فقدنا الهند بعد أن كنا فتحنا جانباً منها. وأنا أقول : لاينبغى لنا كل هذا الأسف لأنه لو بقيت لنا الهند وأخذنا نديرها كما ندير سائر مستعمراتنا الآن أى بالمبادئ والطرق التى يشير بها « لوروا بوليو » لما طال الأمر حتى اشتعلت بها الفتنة وعم الخراب وخرجت من يدنا .

« ولقد طبقوا فى الهند الصينية وفى السودان والسنيغال هذه السياسة بعينها أى حمل الأهالى الوطنيين على أوضاعنا وقوانيننا فجاءت باقبح النتائج وكرّهتنا الى أولئك الأقوام

وأفقدتنا الأموال والرجال »

الى أن قال : « لقد أثبت التاريخ ان مدنيتين مختلفتين تمام الاختلاف لاتندمجان وأنه ماروئيت الأمة المغلوبة مندمجة فى الغالبة الا اذا كانتا متشابهتين من الأصل . فالشرقى يندمج فى الشرقى أما فى الغربى فلا . وهذا هو سر نفوذ العرب فى الشرق وفى الصين وفى الهند وفى افريقية فانهم كانوا كيفما تقلبوا طبعوا تلك الأمم بطابعهم وأعطوها صبغتهم وحيث حلت حضارة الاسلام ظهر أنها استقرت وثبتت . فهى فى الهند قد غلبت على حضارات أقدم منها وهى فى مصر قد عرّبت بلداً دخل فيه الفرس والرومان واليونان ولم يؤثروا فيها الا قليلا . واننا لنجد الاسلام يتقدم فى الهند والصين وفى القارة الافريقية وهذا برغم معاكسة المبشرين بالانجيل المنبثين فى كل مكان .

« ان الاوربيين مستعمرون ماهرون بدون نزاع ولكن من بعد رومة العظمى لم يأت ممدنون بالفعل أقدر من المسلمين الذين تمكنوا من أن يحملوا أمماً كثيرة على دينهم وشريعتهم وصناعاتهم

« والاوربيون نظير الانكليز فى الهند يقدرون أن يتغلبوا على شعوب شرقية هى متأخرة عنهم فاما محاولة تغيير عقلية هذه الشعوب فليست مما ينال لأن الفرق بينهم و بيننا فى الأذواق والمشارب والشواعر والاحتياجات عظيم جداً لايتأتى قطع مراحله الا بأعصر طويلة ولأن مايلزم لهم لايلزم لنا . ولقد كنت أقضى العجب من أن أرى المتأدبين الشرقيين الذين زاروا أوربة هم أقل الشرقيين افتتاناً بحضارتها . وكنت أجدهم يرون دائماً الشرق أسعد وأصلح وأقوم من الاوربى مادام لم يتصل به » انتهى ببعض اختصار

وفى الصفحة ٢٥٣ قال غستاف لوبون :

« ان الرأى الذى أنا مبديه فى استحالة صبغ العرب بصبغتنا واقامتهم على ثقافتنا ليس هو رأياً خاصاً بى بل تجده عند جميع الاوربيين الذين ساحوا فى الجزائر واطلعوا على امورها حق الاطلاع ونظروا الى الحقائق كما هى لا كما هو الهوى . وهو أيضاً رأى الأدباء الراسخين من العرب . ولقد شافهت من المسلمين عدداً لايحصى من مراكش الى أقصى آسية ورأيتهم مجمعين على أن التربية الاوربية للمسلمين تزيدهم عداوة لاوربة وقد تكون

عداوتهم من قبل فاترة أو غير موجودة . ولقد أكد لى أرباب المعرفة من المسلمين الذين حادثتهم ان النتيجة الوحيدة لتعليمنا ناشئتهم هى افساد أخلاقها ، وايجاد احتياجات لم تكن بضرورية لها وايجاد روح الثورة فيها . وأنا على ثقة ان التربية الاوربية ان تمت وعمت فى الجزائر تسعون نتيجتها صوتاً صارخاً من جميع مسلميها : «الجزائر للعرب» . وذلك كما ان جميع الهنود المتعلمين يصرخون بصوت واحد الهند للهنود » اه

وفى الصفحة ٢٦٣ يتكلم غستاف لوبون عن عقم مساعى المبشرين المسيحيين وكيف ان عدد الذين نصّر وهم هو قليل جداً بالقياس الى الملايين والملايين التى بذلوها وان المتنصرين لايكونون الا من أدنى الطبقات . و يفيض فى هذا الموضوع . ثم يذكر على سبيل الاستشهاد الأربعة آلاف يتيم مسلم الذين رباهم الكردينال لافيجرى فى الديانة المسيحية فقد كانوا فى محيط منقطعة فيه جميع علائقهم مع المسلمين وقد تلقوا التربية المسيحية بكل معناها وما بلغوا الرشد حتى عادوا الى الاسلام دين آبائهم الا النادر منهم » اه

بلاد الطاغستان والشيخ شامل

لالأمير شكيب

على الضفة الغربيــة من بحر الخزر بين ٤٣ و ٤١ من العرض الشمالى بــلاد يقال لها طاغستان مساحتها نحو ٢٩٧٦٣٠ كيلو متر مربع وعــدد نفوسها سبعمائة ألف ، أما اذا انضم اليها جميع بلاد القوقاس الشمالية فيقال ان أهلها يبلغون مليونين الى ثلاثة . وقد فتح العرب فى خلافة هشام بن عبد الملك الطاغستان سنة ١٠٥ للهجرة و وطد أخوه مسلمة الحــكم العربى فى تلك الديار ، وكانوا يلقبونها بالدر بنــد ، وكانت ثغرا من ثغور العرب ومنها انتشر الاسلام فى تلك الاقطار ، وكان الاهالى من قبــل وثنيين ونصارى ويهوداً . وروى المؤرخون ان احــد ملوك تلك الامة صاحب مملــكة خيدان كان يقيم شــعائر الملل الثلاث فيصلى يوم الجمعة مع المسلمين والسبت مع اليهود ، والاحــد مع النصارى . وكان فى تلك الاقطار عدة ملوك يلون عدة شعوب صغيرة معروفة باسم اللازقيين ، ولما اجتاح المغول بلدانهم كان أكثر هؤلاء صاروا مسلمين ، ولما كانت غارة تمرلنك (سنة ١٣٩٥ مسيحية) كان أشهر شعوب الطاغستان قبيلين أحــدهما القايتاق ، والآخر القومق ويقال لهم غازى قومق ، وكان حكم القايتاق الذى يلى الدر بنــد فى يد السلطان طوقتاميش شرف الدين اليزدى ، وكان ملك القومق يسمى بالشامكال أشبه بلقب كسرى لفارس وفرعون لمصر ، وكان هؤلاء من أشد أنصار الاسلام وأحسبهم فى بث دعوته . وفى سنة ١٥٧٨ استولى على هاتيك البقاع الاتراك العثمانيون ولــكن لم تطل فيها مدتهم . وأكثر أشراف الطاغستان يدعون انهم من أصل عربى وان آباءهم قدموا مع مسلمة بن عبد الملك واحياناً يخلطون معه أبا مسلم ويجعلون قبره فى مدينــة غنزاق ويقولون انه هو بانى الجامع الأول فى بلاد القمق . وقد صادفت فى الروسية بعض أشراف الطاغستان فقالوا لى ان أصلهم من العرب يوم فتحوا الدر بند وهم يفتخرون بذلك . واشتهر من ملوك القايتاق السلطان أحمد خان المتوفى سنة ٩٩٦ هجرية أى ١٥٨٧ مسيحية وهو الذى يقال انه بنى مدينة « المجالس »

لأنه كان يجتمع فيها شيوخ الأمة و يتفاوضون فى الأمور العامة . وفى سنة ١٦٤٠ انفصلت فرقة من القايتاق وانتجعت الأراضى الواقعة جنوبى الطاغستان وأمرت عليها حسين خان ، فجعل مركز امارته ساليان وكوبا ، ومن هذا الفرع ظهر فى القرن الثامن عشر فتح على خان أمير كوبا والدربند

وقد طمع الروس فى الاستيلاء على الطاغستان منذ أواخر القرن السادس للمسيح فلم يفلحوا وهزمهم أولاد الشامكال وأخرجوهم من بلد سولاك التى كانوا احتلوها ، ثم سنة ١٦٠٤ كروا ثانية على الطاغستان وقصدوا بلدة طاركهو فلم يفوزوا بطائل

وكان الشامكال قد خضع لآل عثمان ، وتبعه أمير تابازاران ، والأمير الآخر الملقب بالعصمى ، فلما زحف الشاه عباس سلطان العجم على هذه البلاد سنة ١٦٠٦ انحاز اليه العصمى رستم خان و بقى الشامكال متمسكا بالعثمانيين الا أن رستم خان انحاز أخيراً الى هؤلاء فخالفه الشامكال الى سلطان العجم ولما ضعف أمر الدولة الصفوية فى فارس ثارت أهالى الطاغستان ونبذت طاعة الفرس ، واستقل سركاى خان بامارة القومق . ثم تحالف هو والأمير الملقب بالعصمى ، والمدرس الحاج داود ، ممن كان مطاعا بين العامة واستولوا على شامكى ثم أرسلوا الى استانبول يطلبون من الدولة أن ترسل اليهم خلع الولاية وتعرفهم من رعاياها . فاحتج بطرس الأكبر صاحب الروسية بأن ثلاثمائة تاجر روسى قد قتلوا يوم فتح شامكى وساق جيشاً استولى على الدربند وسائر سواحل الخزر الغربية (١٧٢٢) الا ان نادر شاه صاحب فارس غزا هذه البلاد واسترجع أكثرها من أيدى الروس (١٧٣٥) وزحف تتر القريم التابعون للدولة العثمانية على الطاغستان فى تلك الأثناء ففشلوا ؛ وبقى الحكم هناك للعجم لكن المملكة الفارسية بعد نادر شاه تضعضع أمرها ، فتقلص ظلها عن الطاغستان ، و زحف الروس ثانية فاجتاحوا البلاد سنة ١٧٧٥ وفى سنة ١٧٨٤ خضع لهم الشامكال مرتضى على و بعد ذلك استولوا على القوقاس ، فتمكنت قدمهم فى الطاغستان ولما استولى آل قاجار[1] على فارس أحبوا أن يستردوا حقوق فارس على الطاغستان فاشتعلت الحرب بينهم و بين الروس ولم تنته الا سنة ١٨٠٦ اذ فاز الروس بالاستيلاء على هذا القطر ، وسنة ١٨١٣ نزل لهم العجم عن كل حق لهم فيه

(١) الأسرة المالكة فى ايران عند كتابة هذه السطور

ولما تخلى الترك من جهة والفرس من جهة عن الطاغستان ، عقد أمراء البلاد محالفة فيما بينهم على مناهضة الروس فاشتبك القتال بين الفريقين ، وتجشمت الروسية كلفا عظيمة الى أن تمكنت من تدويخ البلاد فألغت لقب العصمى من أمراء قايتاق (١٨١٩) ولقب المعصوم أمير تبازاران (١٨٢٨) وجعلت لدى الأمراء الباقين ضباطاً روسيين يأخذون على أيديهم ، فاستسلموا جميعاً للحكومة الروسية ، فثار الشعب على الروس وعلى الأمراء وتولى كبر الثورة علماؤهم وشيوخ الطريقة النقشبندية المنتشرة هناك ، وكأنهم سبقوا سائر المسلمين الى معرفة كون ضررهم هو من أمرائهم الذين أكثرهم يبيعون حقوق الأمة بلقب ملك أو أمير ، وتبوء كرسي أو سرير ، ورفع علم كاذب ، ولذة فارغة ، باعطاء أوسمة ومراتب ، فثاروا منذ ذلك الوقت على الأمراء وعلى الروسية حاميتهم ، وطلبوا أن تكون المعاملات وفقاً لأصول الشريعة لا للعادات القديمة الباقية من جاهلية أولئك الأقوام ، وكان زعيم تلك الحركة غازى محمد الذى يلقبه الروس بقاضى ملا ، وكان من العلماء المتبحرين فى العلوم العربية ، وله تأليف فى وجوب نبذ تلك العادات القديمة المخالفة للشرع اسمه « اقامة البرهان على ارتداد عرفاء طاغستان »

وفى ٢٩ تشرين الاول سنة ١٨٣٢ بعد جهاد طويل احيط بغازى محمد فى قرية جيمرى ، واستشهد فى معمعة القتال رحمه الله ، فخلفه حمزة بك الذى استشهد أيضا رحمه الله بقرب غنزاق بعد ذلك بسنتين ، فتولى زعامة الثورة الشيخ شامل افندى المقصود بهذه الترجمة . وهو على نمط الامير عبد القادر الجزائرى ، خرج من المشيخة الى الامارة ، وتناول السيف من طريق القلم . ولم يدن الشيخ شامل فى سعة علم سلفيه ولكنه كان احسن منهم ادارة للامور ، و بصيرة بالحروب ، فشمر عن ساق الجهاد والتف ذلك الشعب الأبى من حوله ، فذب عن حوض ملته نحو ٣٥ سنة ظفر فيها بالروس فى وقائع عديدة والقى الرعب فى قلوبهم . وجلاهم عن جميع البلاد الا بعض مواقع ثبتوا فيها فى الناحية الجنوبية وكانت أعظم الدبرات التى والاها عليهم هى فى سنتى ١٨٤٣ و ١٨٤٤ حيث افتتح جميع الحصون التى كانت لهم فى الجبال وغنم منهم ٣٥ مدفعاً وأعتاداً حربية ومؤناً وافرة ، وأخذ عدداً كبيرا من الأسرى ، فجردت الروسية بعظمة ملكها وسلطانها جيوشا جرارة ونادت هى بالجهاد فى الطاغستان . ونظم شعراء الروس القصائد فى وصف تلك الحروب ،

وما زالت توالى الزحوف حتى تمكنت من البلاد ولكن بقى الشيخ شامل عشر سنوات يناوشها القتال فى الجهات الغربية من الجبال ولم يسلم هذا المجاهد العظيم للروس الا فى ٦ ايلول سنة ١٨٥٩ فعمد الروس على أثر تسليمه الى اعادة سلطة الأمراء ليتمكنوا بهم من خضد شوكة العلماء الذين لم تحن المقاومة الا بهم ومنهم . ولكن لما استتب لهم الامر بواسطة هؤلاء الامراء عادوا فخلعوهم هم أيضا كما هى العادة بأن هذه الدول تبدأ اولا باستعمال نفوذ الامير الوطنى فى اغراضها . وتصريفه فى حاجاتها ، حتى اذا قضتها كلها رجعت اليه ونبذته نبذ الحصاة ، وذهب يقرع سن الندم على استرساله اليها واعتماده عليها ، ففى عام ١٨٦٢ استأصلت الحكومة الروسية جميع ماكان بقى من جرائيم الامارة الاهاية وأنزلت اولئك الامراء حتى عن كراسيهم الوهمية . و بقى الامر كذلك الى سنة ١٨٧٧ اذ نشبت الحرب بين الروسية والعثمانية فثار الطاغستانيون وافتتحوا قلعة القومق ، ورفع ابناء البيوتات التى كانت مالكة من قبل أعلام الثورة ، واستعادوا لقب العصمى ، ولقب المعصوم ، ولكن لما دارت الدائرة على الدولة العثمانية فى تلك الحرب ، تمكن الروس من قمع الثورة بدون عناء كبير

ولما انحلت الحكومة الروسية القيصرية ، وقامت الحكومة البولشفيكية سنة ١٩١٧ محلها وأعلنت استقلال الأمم المهضومة ، وخيرت الشعوب التى كان القياصرة الروس قد أخضعوها بحد السيف بين أن تبقى منضمة الى الروسية الأصلية ، أو تنفصل عنها ، كان أهالى بلاد القوقاس أجمعين ممن أعلنوا استقلالهم التام ، فتألفت جمهورية فى كرجستان ، وأخرى فى الطاغستان ، والثالثة فى آذر بيجان ، والرابعة فى أريفان ، وأوفدت كل من الجمهوريات الأربع وفودها الى الاستانة لمفاوضة الأتراك والألمان فى الاعتراف بهذه الجمهوريات الاربع ، وصار الحديث فى ارتباطها بعضها ببعض بشكل حلفى ، وكان الوفد الطاغستانى الجركسى مؤلفاً من عبد المجيد بك ، وعلى بك ، وحيدر بك بامات الذى كان ناظر الخارجية الطاغستانية . وما مضت مدة قصيرة حتى داخل الكرج الدولة الالمانية وطلبوا حمايتها فاعترفت لهم بالاستقلال دون غيرهم واحدث ذلك خلافا بين الاتراك والالمان لان تركيا تقاضت حليفتها المانيا الاعتراف باستقلال الجمهوريات الثلاث الباقية حتى ان طلعت باشا الصدر الأعظم يومئذ سعى لدى ألمانيا فى معرفة استقلال جمهورية اريفان الارمنية التى كانت

تتقرب من الدولة العليــة ، وكان رجال الدولة يريدون بمساعدتها اصلاح ذات البين بينهم وبين الأرمن فتقدم أنور باشا الى هذا العاجز أن أذهب الى برلين وأتكلم فى هذا الموضوع وأقنع نظارة الخارجيــة الألمـانية بلزوم المساواة بين جمهوريات القوقاس كلها ، والا لم يكن مناص من الاختلاف . وكلفنى الوفد الطاغسطانى أيضاً أن أهتم بقضيتهم نوعاً لأنهم حسبوا أن الترك قد يصرفون معظم عنايتهم فى مصلحة جمهورية أذربيجان التركيــة فقط فبذلت فى تلك الأيام جهدى مع نظارة الخارجية فى برلين فى تمهيد الخلاف ، وكان أكثر الكلام مع فون روزنبرغ الذى كان مديراً للامور الشرقية ، وهو هو اليوم بينما أحرر هذه الأسطر ناظر الخارجية الألمـانية . ولم يلبث أن حضر الى برلين طلعت باشا والكونت برنستورف سفير ألمـانيا فى الاستانة ، واشتركنا فى حل هذه المسائل جميعاً وتم الاتفاق لو لا أن الحرب فى الجبهة المقدونية جاءت بمـا لم يكن فى الحساب . وطلبت بلغاريا الهدنة ، وابتدأت نهاية الحرب فوقف كل شئ من جهــة ألمانيا وتركيا ، واحتل الانكليز القوقاس ، وعلق القوقاسيون عامة آمالهم بانكلترة أنها تعترف باستقلالهم وتوطد لهم حكوماتهم ، لا سيما أنهـا كانت تعطف على الطاغستانيين قديماً أثناء مقاومتهم الطويلة للروس فكان الأمر بالعكس اذ حصرت انكلترة جهودها فى مناهضة البولشفيك واعادة الحكم الامبراطورى على أصله وأمدت الجنرال دنيكين عدو هؤلاء بالمـال والسلاح ، فما بدأ الجنرال بالحرب مع البولشفيك حتى غزا الطاغستان وحاول القضاء على استقلالهم فجرت بين الفريقين الوقائع الداميــة ، وما زالت الى أن انقضى أمر دينيكين ، واستتب الأمر للبولشفيين أنفسهم ، فجرد هؤلاء جيوشاً على جمهوريات القوقاس الأربع . فقبضوا على أزمتهـا وألحقوها بحكومة موسكو خلافاً لوعدهم الأول ، وثار أهالى الطاغستان عليهم فتغلبت الحكومة البولشفية على الثوار وقبضت على بعضهم وألقتهم فى السجون ، وشرد قسم من رؤساء الحكومة المستقلة ، ومنهم عبد المجيد بك وصديقنا حيدر بك بامات الى أوربا ، حيث يواصلون مساعيهم لأجل قضيتهم القومية الى يومنا هذا .

وبلاد الطاغستان متعددة اللغات فمنها لغة الآقار ، ولغة القومق ، ولغــة القايتاق ، ولغة الدارغا ، ولغة تابازاران ومنهم من يتكلم بلغة فارسـية ، وفى الدردبند والسواحل يتكلمون بالتركيــة الاذرية أى الجغطاى ، وهى أرقى جداً من اللغات السابقة الذكر ،

ولكن لسان العلم فى جبال الطاغستان هو اللسان العربى ، وهو اللسان الذى يتكاتب به أعيان تلك الأمة ، وقد صادفت سنة ١٩١٩ الوفد الطاغستانى الجركسى فى « برن » قاعدة سويسرة ولزمتهم مكاتبات الى رؤساء بلادهم ، فكلفنى حيدر بك بامات بتحريرها لهم بالعربية الفصحى ، وكثير من علماء طاغستان معدودون من علماء العربية .

قد حرر تاريخ الطاغستان كثير من مؤرخى الألمان والروس والفرنسيس مذكورة أسماؤهم فى دائرة المعارف الاسلامية الفرنسوية ، ولصديقنا الاستاذ عزيز بك مكير ناموس السفارة التركية الحالية بموسكو وأحد فضلاء الأمة الجركسية ، رسالة باللغة الفرنسوية وافية بأخبار تلك الأمة . ولميرزا حسن افندى ابن الحاج عبد الله افندى الأقدرى الطاغستانى تاريخ باللهجة الآذرية اسمه «كتاب آثار طاغستان» طبع فى بطرسبرج سنة ١٨٩٥ ولم يسمح الروس بنشره الا سنة ١٩٠٢ بعد رفع المراقبة عن المطبوعات ، ومحرر هذا التاريخ كان ممن اشترك بثورة ١٨٧٧ ونفاه الروس مدة مديدة .

وقد عرفت فى المدينة المنورة قبل الحرب العامة بأشهر كامل باشا حفيد المرحوم الشيخ شامل ، وانعقدت بيننا الصحبة لما رأيت من حسن أخلاقه ، ولما نشبت الحرب الكبرى استدعته الدولة الى الاستانة وكانت له مواقف فى خدمتها تليق بمن كان حفيدا لذلك الجد الأمجد .

المهدى المنتظر

للأمير شكيب

اتفقت الأديان السماوية الثلاثة على ظهور واحد فى آخر الزمان . فاليهود لايزالون منتظرين المسيح الذى يجدد ملكهم قبيل انقراض الدنيا . والنصارى يرون فى عيسى عليه السلام المسيح الذى بشرت به الأنبياء ويقولون برجوعه فى آخر الوقت لابادة الدجال الذى ينبئ به يوحنا . والمسلمون أيضاً عندهم المهدى الذى يظهر قبل قيام الساعة ليملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت جوراً وظلماً . ويروون عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال مامعناه لاتقوم الساعة حتى يخرج من ذريتى رجل اسمه كاسمى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ويظهر الاسلام على الدين كله . وبعضهم قال ان المهدى الذى سيظهر فى آخر الزمان هو عيسى عليه السلام . وبعضهم قال بل هو على بن أبى طالب . والشيعة الامامية يقولون انه محمد الحجة ابن الحسن العسكرى ، بن على النقى ، بن محمد التقى ، بن على الرضا ، بن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق ، ابن محمد الباقر ، ابن على السجاد زين العابدين ، ابن الامام الحسين السبط ، ابن سيدنا الامام على رضى الله عنه وعنهم جميعاً ، وان محمد الحجة هذا دخل مع أمه صغيراً سرداباً بالحلة من أرض العراق واختفى فهم ينتظرونه الى الآن . قال القلقشندى فى صبح الاعشى : ويقال أنهم فى كل ليلة يقفون عند باب السرداب ببغلة مشدودة ملجمة من الغروب الى مغيب الشفق ، ينادون أيها الامام قد كثر الظلم ، وظهر الجور ، فاخرج الينا . وروى ياقوت أنهم كانوا فى قاشان من بلاد العجم يركبون كل صباح الى لقائه ، وذلك فى أواخر القرن الخامس للهجرة . وروى ابن بطوطة انه لما مر بالحلة رأى مسجداً مسدولا على بابه سجف من الحرير ، وأنه كان يأتى كل يوم مائة رجل متقلدين السلاح فيصلون العصر ، ثم يذهبون الى قائد البلد ، فيعطيهم بغلة ملجمة مسروجة فيطوفون بها ، وهم يطبلون ويزمرون ، حتى اذا انتهوا الى باب ذلك المسجد نادوا : ياامام الزمان اخرج فان الظلم قد ظهر ، والفساد قد كثر .. الخ

والفرقة الكيسانية يجعلون المهدى محمداً بن الحنفية[١] و ينتظرونه و يقولون انه لم يمت وانه مختف فى جبل رضوى ، بين المدينة و ينبع . وكان عند ملوك الصفوية فى العجم عادة ، وهى اسراج رأسين من الخيل معدين دائما فى القصر لاستقبال المهدى وعيسى المنتظر مجيئهما كل ساعة . وهذا يشبه عمل بعض المتهوسين من الافرنج الذين يقيمون بالقدس منتظرين مجىء السيد المسيح ويوم الدينونة . روى هوارت Huart الفرنساوى صاحب تاريخ العرب المطبوع سنة ١٩١٣ أن انكليزيا ورد بيت المقدس وأقام بالوادى الذى يقال انه ستكون به الدينونة ، وشرع كل صباح يقرع الطبل منتظراً الحشر . وسمعت أن امرأة « انكليزية فيما أظن » جاءت القدس وكانت تغلى الشاى كل يوم لأجل أن تقدمه للسيد المسيح ساعة وصوله وحدث لامرتين الشاعر الفرنسوى العظيم فى رحلته بجبل لبنان أنه زار فى قرية جون السيدة استيرستانهوب ابنة أخى بيت Pitt الوزير الانكليزى الشهير فرأى عندها فرساً مسرجاً دائماً ليكون ركوبة للسيد المسيح المنتظر وصوله .

وقد استخدم قضية المهدى كثير من الدول الاسلامية لترويج دعواتها فالدولة الفاطمية عند ماظهرت بتونس ادعت أن عبيدالله مؤسسها هو المهدى . ومحمد بن تومرت لما قام بمصمودة فى المغرب قام بالدعوة الى المهدى ، وبها تأسست دولة الموحدين بنى عبد المؤمن . وقام فى أيام الدولة المرينية بفاس رجل اسمه التويزرى أصله من توزر من تونس وادعى أنه المهدى واعتصم برباط حصين اسمه (ماسا) بالسوس الأقصى . واعصوصب حوله رؤساء صنهاجة فقتله المصامدة. وكذلك ظهر رجل آخر اسمه العباس بين سنتى ٦٩٠و٧٠٠ للهجرة فى نواحى الريف من الغرب وقال انه المهدى وثار معه جماعة فقتل وانتهى أمره . وظهر فى السنيغال سنة ١٨٢٨ ميلادية رجل ادعى أنه المهدى وأحدث ثورة ثم انكسر وذهبت ريحه . ولما احتل الفرنسيس مصراً فى زمان بونابرت قاتلهم بين دمنهور ورشيد رجل مغربى من طرابلس ادعى أنه المهدى ومازال يقاتلهم حتى قتل .

وبعد ثورة أحمد عرابى بمصر ظهر فى السودان رجل اسمه محمد أحمد ادعى أنه المهدى ويقال ان والده كان يسمى عبدالله وأمه كانت تسمى آمنة ، وكان له أخوان أكبر منه يصنعان السفن فى النيل الأبيض ، فأرسلاه يحصل العلم فى نواحى الخرطوم ، ولما بلغ الخامسة

(١) أحد أولاد سيدنا على

والعشرين من سنه انقطع الى العبادة فى أحد الكهوف ، وظهر من ورعه وزهده ماتحدث به الناس فاتبعته قبيلة البقارة وهى قبيلة عظيمة عربية الأصل من جهينة فنصرته وقالت انه هو المهدى . وأعلن هو ذلك سنة ١٣٠٠ هجرية . وكان رؤوف باشا والى السودان المصرى أرسل ٢٠٠ جندى للقبض عليه ، فقتلهم جماعة محمد أحمد جميعاً ، وانحاز هذا الى جبل هناك والتف حوله السودانيون فجردت الحكومة المصرية جيشاً تحت قيادة جيفلر باشا البافارى فهاجمه نحو ٥٠٠٠ الف سودانى وأبادوه ، ولم ينج من المصريين سوى ١٢٠ رجلاً ، فدخل المهدى الأبيض سنة ١٨٨٣ فى ١٧ كانون الثانى وجعلها كرسى حكمه . فجردت الحكومة المصرية جيشاً آخر بقيادة هيكس باشا فأباده السودانيون أيضاً وأخيراً أبادوا قوة غوردون باشا فى الخرطوم ، واستولوا على السودان كله . وبعد موت المهدى خلفه التعايشى أحد زعماء قبيلة البقارة ، واستفحل أمره فأشار الانكليز على مصر « والاشارة هنا بمقام الأمر » أن تتخلى عن السودان وتتركه وشأنه ، ولم يكن ذلك الاتوطئة لفتوحهم هم للسودان ، فانهم مالبثوا أن جردوا جيشاً من المصريين يقوده ضباط انكليز رئيسهم الجنرال كتشنر فاستفتحوا السودان برجال مصر ومال مصر ، وعادوا يقولون للمصريين ان السودان مشترك بيننا وبينكم ، والحقيقة أن لاحق لهم بهذه الشركة ، لأن السودان كله لمصر ولاتستغنى عنه مصر طرفة عين فضلا عن كون هذه الشركة هى اسمية ، لأن كل شئ فى السودان هو فى يد انكلترة ، ومن ولى أمر السودان فقد أخذ بمخنق مصر ، لاتملك هذه معه أن تصعد نفساً ، ولذلك مسئلة السودان هذه هى العقدة الكبرى المعضلة الواقفة فى وجه حل المسئلة المصرية بين انكلترة ومصر ، واذا تخلت مصر عن السودان فقد تخلت عن نفسها .

افغانستان

للأمير شكيب

هنا موقف عظيم من أعظم مواقف الاسلام فى العالم ، ومعترك شهير من أجل مقاماته فيما حدث ، فضلا عما تقادم ، ولعمرى لولم يبق للاسلام فى الدنيا عرق ينبض ، لرأيت عرقه بين سكان جبال الهلايا والهندكوش نابضاً ، وعزمه هنالك ناهضاً ، ألا وانه من هناك غزا الفاتح العربى محمد بن القاسم فى صدر الاسلام الهند ، وفتح السند (٧١٢ ميلادية) ووصل الى حدود الملتان ومن تلك الجبال انحدر ذلك المجاهد الكبير اسكندرالاسلام ، وحامى المعارف والعلوم فى عصره ، السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى التركى ، فى أوائل القرن الحادى عشر للميلاد ، ودوخ الهند من أقصاها الى أقصاها ، وتألب عليه رجاوات (ملوك) لاهور ، وانانغبال ، ودهلى ، واجير ، وقنوج ، وغفاليور ، وكالنجار ، واودجين ، حزمةً واحدةً ، ووقف العالم البراهمى بازاء العالم الاسلامى ، واصطفت الاقران ، وانتصب الميزان ، فادال الله للعالم الاسلامى من العالم البراهمى فى واقعة «باتنداه» ، وتمزق شمل الراجاوات كل ممزق ؛ وفتح محمود كشمير ودهلى ، واقام ولاة من قبله فى لاهور ، وجعل راجا قنوج من أتباعه ؛ واكمل توطيد ملكه فى جميع البنجاب ، وغزا كالنجار تلك المدينة الموصوفة بمنعتها ، فانقاد له ملوك تلك الديار صاغرين وقصد كوجرات وحطم الصنم الأعظم المعروف بسومنات وفتح بهاضية ذلك الفتح الذى تحدثت به الركبان ، وكتب فيه تلك الرسالة الطنانة شيخ الكتاب أبو الفضل بديع الزمان ، فقال انه « الفتح الذى تضاءلت أمامه الفتوح ، وأثنت عليه الملائكة والروح » الخ وذكر عن الهند وعجائبها وعظمة الخلائق التى فيها ، ماعرف بقدر تلك الفتوحات التى أتاحها الله للاسلام على يد أمين الدولة ويمين الملة[1] قال المسيو رينه غروسه René Grousset صاحب تاريخ آسية الذى ظهر سنة ١٩٢٢ فى ثلاثة مجلدات متحصاً من روايات أكابر المحققين ، وذلك فى بحث الهند لعهد الاسلام ، مايأتى تعريبه :

(١) هو لقب السلطان محمود الغزنوي

« ان محمودا قام بصليبية اسلامية (١) استمرت الى القرن الثامن عشر وكانت كسائر الصليبيات ، جامعة بين روح الدعوة الدينية ، وروح الطمع فى السحت ، وان محموداً بقيت صورته العالية مشرفة على ثمانية قرون ملأى بالفتوحات ، لأن الجهاد الذى كان هو أول أبطاله ، لم يبلغ حد النهاية الا فى فجر العصر الحديث بعد أن عرفت أرض البراهمة من جبال حملايا الى سواحل كور وماندل ، اسم الله تعالى ودانت لسلاطين الترك المغوليين »

واقتفى أثر محمود بن سبكتكين التركى ، محمد الغورى الأفغانى ، الذى استولى على سلطنة آل سبكتكين وغزا مثلهم الهند ، وشتت فى واقعة « تانسوار » الثلاثمائة ألف فارس والثلاثة آلاف فيل التى حشدها اغتياله ملوك الهند ، وافتتح دهلى ، وقنوج ، وميرات ، وآغرا ، وضمها الى ممالكه (١١٩٤ ميلادية) وأتم عمله مملوكه آيبك التركى الذى فتح بنارس ، وضرب الجزية على ملوك كافالبور ، ومالقا ، وافتتح كوجرات ، وكالنجار ، وضم الى المملكة بوندلكاند . ثم القائد بختيار الأفغانى ، الذى افتتح مغدلا ، والبنغاله ، وأزال الدولة البوذية من تلك الأقطار فكان عمل هؤلاء الفاتحين مقدمة لسلطنة اسلامية عظمى قاعدتها دهلى وقد بسطت جناحها على الهند بحذافيرها ، واستتبت من القرن العاشر للمسيح الى أوائل القرن التاسع عشر اذ هرمت وعجزت وانقرضت على أيدى الانكليز كما هو معلوم . وليس المرادهنا تاريخ الدول الاسلامية التى تعاقبت من ذلك الوقت على الهند ، ولكن المراد هو ذكر العلاقة الشديدة التى بين اسلام الهند و بلاد الأفغان التى منها انحدر الفاتحون المسلمون سواء كانوا من العرب ، أو من العجم ، أو من الترك ، أو من الأفغان واثبات ان تلك الجبال كانت ولم تزل على ما يعلوها من الثلوج مستوقد حماسة ، ومثار حمية ، وموطن فتوة ، ومعدن فروسة ، واليك ملخص تاريخ علاقاتها مع الانكليز منذ وضعوا أيديهم على الهند الى يومنا هذا : ـ

قال المسيو لومارشان Le Marchand أحد ضباط الجيش الفرنساوى ومن أعضاء الأكادمية العسكرية فى كتابه « حرب الانكليز مع الأفغان » الذى ظهر سنة ١٨٧٩ ما ياتى تعريبه ملخصا :

(١) يعنون بذلك سلسلة حروب أشبه بحرب الصليب

« ان مبدأ علاقة انكلترة مع افغانستان كان فى القرن التاسع عشر، وذلك عندما أرسل نابليون الأول « الجنرال غاردان » لمفاوضة العجم فى عقد محالفة بينها و بين فرنسا، لأجل فتح الهند، فلما بلغ الانكليز ذلك أسرعوا بارسال وفد الى كابول ليتخذوا من الأفغان ردءاً ضد العجم، وكان يومئذ فى كابول أمير عليه لقب شاه مثل شاه الفرس فحصلت عليه ثورة، واستولى على الملك أخو الصدر الأعظم الذى كان عند ذلك الشاه وفر أخو الشاه الأفغانى الى الهند، ملتجئاً الى الانكليز مستمدا نصرتهم لاسترداد ملكه كما ان أمير الأفغان الجديد، وهو المسمى دوست محمد خان، عقد حلفاً مع الروس فكان عمله هذا كافيا لتجريد حملة انكليزية على افغانستان ١٨٣٩ . وكان قد سبق الحملة الى كابول السائح الانكليزى المشهور برنس Burnes ليقاوم فيها دسائس الضابط فيكوفيتش الروسى فلما رجع برنس الى الهند أقنع « اللورد اوكلاند » بوجوب الزحف واعادة الشاه القديم شجاع الملك، ولكن ما أعيد الشاه المذكور حتى وجد الانكليز حاجة ماسة الى تعزيزه بجيش عظيم، لما كان قد انتشر فى البلاد من الفوضى، وظهر من عدوان الأهالى للانكليز. وفى سنة ١٨٤١ شبت نار الثورة فى كابول، وقتل فيها المعتمد البريطانى، وعدد من ضباط الانكليز، ثم اضطر القائد الانكليزى، بالنظر الى تحرج موقعه، الى طلب الأمان على نفسه وعلى جنده، على أن يخرج من البلاد بدون توقف لا يلوى على شئ، وهكذا خرج فى أشد زمهرير الشتاء، وكان ما كان من الملحمة المشهورة التى استأصل فيها الأفغانيون ١٦ ألف أو ١٧ ألف جندى انكليزى ليس منهم سوى ٤ الى ٥ آلاف مقاتل، وذلك فى كمين نصبوه لهم فى « خورد كابول » فلم ينج سوى الطبيب العسكرى « بريدون » Brydon الذى فر الى جلال آباد ليخبر قومه بالفادحة العظمى . ثم ان الأفغان تقدموا وحصروا جلال آباد التى كانت فيه حامية انكليزية، فقاومتهم زهاء شهرين الى أن زحف « الجنرال بولوك » من الهند فأنقذها . ثم بعد مدة زحف الانكليز بحملة عظيمة على كابول ونسفوا قلاعها، ودار الملك وأخذوا بثارهم عما سبق (قال) : وقد أردنا الاشارة الى هاتين الحملتين اللتين تقدمتا للانكليز فى افغانستان لما لهما من العلاقة بالحرب الحاضرة [1] كما أنه لا يخلو من الفائدة معرفة ما يعترض جيشاً أوربياً يريد التوغل فى تلك الديار من العقبات

(١) أى حرب سنة ١٨٧٨ الى سنة ١٨٨٠

الصعاب وما يستجلب النظر من كون كتائب العساكر الأفغانية التى كان الانكليز قد كتبوها واستخدموها وظنوها أصبحت من جملة جيشهم قد انقلبت عليهم وكانت أشد أعدائهم وطأة فى تلك الحرب » انتهى

نقول ما أستأصل جيش أوربى قوة وطنية فى آسية أو افريقية ، وخطر ببال مؤرخ أوربى أن يذكر ما هناك من الاعذار المشروعة ، والاسباب المعقولة ، التى قضت بالطائلة للاوربيين على الوطنيين ، مع ما بين الفريقين من التفاوت فى الأعتاد الحربية ، والاختراعات الفنية ، والمعرفة بعلم التعبية ، وأصول القتال ، فاذا أتاح الله واقعة بالعكس قضى فيها بغلبة الوطنى على الاوربى أسرع المؤرخون الأوربيون الى تمويه تلك الدبرة بالتماس الأسباب المخففة ، وانتحال الأعذار المتنوعة ، التى لا تكاد تخلو منها هزيمة، وذلك حرصاً على الشرف الاوربى أن يمسه نقص ، وعلى المكانة الافرنجية أن تتزعزع فى نظر الوطنيين . فالجيش الانكليزى فى خورد كابول وهو ١٧ ألفاً قد أفنى على بكرة أبيه ، سواء كان كله مقاتلين أم كان بعضه مقاتلا والآخر حاملا للذخيرة . والانكليز قد تعلموا من تلك الواقعة أن ينظروا الى الأفغان بغير العين التى ينظرون بها الى جيرانهم الهنود وعرفوا ان الأفغانى لا ينام على الثار ، ولا يقبل أن يطأ الاجنبى وطنه ولا يواطىء العدو على استقلال بلاده ، كما حصل من كثير من أمراء المسلمين الذين كان الواحد منهم يسعى بين يدى القوة الأجنبية ، ويذلل أمامها مناكب قومه ، طمعا فى أن تلبسه تاجا موهوما، أو تركبه عرشاً اسميا ، كلا . ان الافغان منذ أول احتكاكهم بالانكليز أفهموا بأعمالهم هؤلاء أنهم ليسوا من طينة غيرهم من جيرانهم ، وأن المنافسة فيما بين أمرائهم على الملك لاتصل الى حد الاجتزاف بالاستقلال ، والمسامحة بأمور الملك ، وأن الوفاء بالعهد عندهم لا يبلغ درجة تواطؤ الرجل مع الاجنبى على قومه ، ومقاتلة الجندى الافغانى جنديا افغانياً آخر يذب عن حوض وطنه ، بسبب كون الاول يأخذ جراية من ذلك الاجنبى ؟ كما فعل كثير من سلاطين الاسلام ورؤسائه واجناده ، واغتروا بالنعمة الزائلة والجائزة الموقتة التى لم تلبث أن ألفحت بكاءهم دما ، واكلهم اناملهم ندماً ، بعد انقضاء الوطر ، واستتباب الأمر للفاتح الغريب ، مما لا تحصى ولا تعد أماثيله ، سواء فى آسية أو فى افريقية . ونقول مع الأسف ان الاسلام لما يبل تماما من هذا المرض ، وانه ان كان ورد فى أثره الشريف انه لا

يلدغ المؤمن من جحر مرتين فتراه اليوم يلدغ من جحر واحد مائة مرة و لا يتوب . وقد رأينا أن أكثر فتوحات اوربا فى بلاد المسلمين والشرقيين عموما انما اتسقت لها على أيدى المسلمين والشرقيين ، فاوربا اعتادت أن تستعين عليهم بهم وأن تضرب الأخ بالأخ وان تقرع النبع بالنبع ، وان تجرد على الاقطار التى تنوى استعمارها جنوداً من أهالى المستعمرات ، تخلطهم بنزر من جنود اوربية ، وتضع على رأسهم قواداً اوربيين ، وتنال بذلك مناها ، وفى حرب افغانستان هذه ، وفى التى تليها . قد استعملت من أجناد الهند ورجالها وجاها وأقيالها ، ومن العساكر المتقدمة من ملوكها وأقيالها ، حتى من نفس ملوك الاسلام فى الهند ، ما لا حاجة الى احصائه هنا ، كما انه فى ثورة الهند الكبرى سنة ١٨٥٧ وهى التى اشفت انكلترة فيها أن تخسر الهند بأسرها ، يعترف المؤرخ المتقدم ذكره وغيره أنه لم يكن بقى فى جميع الهند سوى ١٠ آلاف جندى انكليزى لحفظ ١٩٠ مليوناً [1] يردفها لواء واحد من متطوعة البنجاب ، وانه فى تلك الأزمة ظهرت مهارة اللورد لورانس باستنفار بعض الزعماء لتكتيب جنود من الأهلين ، اجتمع منهم فيما بعد فيلق جرار ، كان هو السبب فى حفظ انكلترة لا للبنجاب فقط بل لجميع الهند . فالهنود هم الذين فى الحقيقة فتحوا أنفسهم بأنفسهم لحساب انكلترة أولاً وآخراً ، وقد حاولت هذه الدولة أن تجرى على هذه الطريقة فى أفغانستان فلم تتسق لها لا أولاً ولا آخراً ، ولو كان الأفغان مثل الهنود أو البلوج أو غيرهم من الأمم التى علقت فى الحبائل الاوربية لكانت أفغانستان اليوم ولاية من ولايات الهند، أو امارة يليها بالاسم أمير من أهلها والحكم الحقيقى فيها للوزير المقيم أو للمعتمد أو للعميد كما يسمونه ، ولم يكن فى عرض البلاد وطولها بندقية واحدة يتقى بها أفغانى ذل العبودية ، بل الشعب كان يومئذ كله أعزل مقلم الأظفار ، والقوة العسكرية التى تكون عنده يومئذ عبارة عن حامية انكليزية مؤلفة من بريطانيين وهنود وأفغان يخدمون فى بلادهم على بلادهم ، بدراهم معدودات . هكذا كان شأن الأفغان لو اتبعوا خطة غيرهم من الأمم الشرقية الغافلة ، أو لو اقتدوا بنوابى « ايسا كل » و « تانك » و « تاونا » وخان « خطا » السير خوجه محمود وغيرهم من أمراء الهند الذين كانت لهم اليد الطولى فى قمع الثورة الهندية الكبرى . بل تجد المسيو لومارشان يقول فى الصفحة ٢٨٩

(١) عدد سكان الهند فى ذلك الوقت

من المجلد الأول من تاريخه « ان القبيلة الدورانيـة التى هى ثلث الأفغان ومنهـا الأسرة المالكة عندهم من الاعتزاز بنسبتهم وقومهم ما يجعلهم مؤثرين لأى أمير كان مهما كان سئ السيرة ، على الحكم الأجنبى ، ولم يكونوا يأسفون على سقوط الأمير وتشريده مع عترته على شرط أن يكون لهم الخيار فيما بعد فى اختيار حكومتهم »

ثم نعود الى ذكر غزاة الانكليز فى بلاد الأفغان فنقول : ورد فى دائرة المعارف الاسلامية المحررة بالفرنسوية بقلم المسيو هوتسمه Houtsma ورفاقه خلاصة تاريخ الأفغان مستخلصة من نحو مائة مصنف بالعربية والفارسية والانكليزية والفرنسية والألمانية ومن جملة ما فيها أن الانكليز بعد أن دخلوا بلاد الأفغان للاخذ بثأر جيشهم سنة ١٨٤٢ وحاولوا اجلاس الشاه شجاع الملك على عرش تلك المملكة ، رأوا ما هناك من صعوبة المراس ، وتعذر البقاء . وهجم على شجاع الملك من قتله ، فأزمع الانكليز الخروج من تلك البلاد وأخذوا معهم فتح جنك ابن الشاه المقتول ، ثم عمدوا الى مصالحة دوست محمد خان الذى علموا أنه هو الملك الوحيد الذى يمكنه أن يضبط زمام الأفغان ، فانعقد الصلح بين الفريقين على شرط أن الانكليز يحترمون حدود الأفغان ، وانصرف دوست محمد خان الى تحصين بلاده ، واسترد بلخ ، وكولم وقندز ، وبذخشان . ولما اشتعلت الثورة الهندية الكبرى سنة ١٨٥٧ التزم الحياد ، ولم يهتبل تلك الغرة لمقاتلة الانكليز . ومات دوست محمد سنة ١٨٦٣ فثار الخلاف بين أولاده وتقاتلوا مدة طويلة ، والانكليز ينظرون اليهم من بعيد معتزلين الخلاف كله لعلمهم أنهم لو أنشبوا أظفارهم فيه لتعرضوا لخسائر لا تحصى كالتى عرفوها من قبل ، ولكان آل الأمر الى اتحاد الأفغان كلهم يداً عليهم ، فلم يزالوا متربصين الى أن استوسق الأمر لشير على خان أحد أولاد دوست محمد خان ، وأطلق أحد أدباء الانكليز كلمة « عزلة رئيسية » على خطة الحكومة البريطانية يومئذ وسارت مثلا . فلما أجمع الأفغان على طاعة شيرعلى اتفق معه اللورد لورانس أولا ثم خلفه اللورد مايو فأيد اتفاق سلفه على شروط معلومة ، أولها أنه لا يدخل عسكرى انكليزى واحد بلاد الأفغان لأجل اطفاء ثورة أو تدويخ قبيلة عاصية [1] وأنه لا يرسل ضابط انكليزى معتمداً فى مدينة من مدن الافغان

(١) هـذا خلاف طلب الذين تواثقوا مع الانكليز على أن يدخـل هؤلاء بلادهم ويخمدوا لهم الثورات ويخضعوا لهم العصاة ثم بعد استتباب الطاعة يجلون عن البلاد بزعمهم

وأنه لا يكون للامير راتب معين من انكلترة مشاهرة ولا مسانهة . وقد توارث أولاد دوست محمد خان هذه الغيرة الشديدة من رؤية الأجنبي فى بلادهم من والدهم الذى كان يقول للورد لورانس سنة ١٨٥٦ ما يأتى : « ان كنتم تريدون أن نبقى أصحاباً فلا تكرهونى على قبول ضباط انكليز فى بلادى » .

و يقول المؤرخ لومارشان السابق الذكر « انه قد بقيت العلاقات بين الانكليز وشيرعلى سائرة على هذه الوتيرة ، الى أن دخل الروس خيوه سنة ١٨٧٢ فراع ذلك شير على خان ، وأوفد من قبله من يسبر غور الحكومة الهندية فيما لو وصل الروس فى الاعتداء الى بلاده ، فورده الجواب بقبول رأى انجاده ان جرى عليه اعتداء بدون حق من جهة الروس ولكن الشروط التى وضعت لأجل القيام بتلك النجدة لم تكن لترضيه » .

قلنا : ان صاحب حرب تاريخ الانكليز والأفغان أغفل ذكر هذه الشروط عمدا لأنه من أول هذا التاريخ الى آخره مؤيد لسيرة انكلترة ، الا أنه بالبداهة يدرك القارىء أن الشروط التى وضعها الانكليز ولم تعجب شير على فى حال احتياجه اليهم لا بد أن تكون مرة المذاق على أمير يهمه أن تبقى مملكته بكراً لا تطمثها قدم أجنبى ، ولا شك ان أول شرط منها كان اقامة مسيطرين انكليز فى افغانستان ، ووضع حاميات انكليزية فى بعض المواقع الافغانية وربما يكونون اقترحوا عليه قبول الحماية البريطانية ، ليصبح كأحد نوابى الهند أو نظام حيدر آباد ، ظانين أنهم يستفيدون من فرصة أزمته هذه لبسط حماية لا تزال تحدثهم أنفسهم بها . ولكن لننظر الآن ماذا فعل شير على خان . يقول لومارشان

« انه لما ورده جواب الانكليز نفر وامتعض وصارت علاقاته مع الانكليز فى فتور مستمر ، وأبى السماح بالمرور لضابط انكليزى أرادوا انفاذه الى حدود شمالى افغانستان للفحص عن حالة الحدود ، وكذلك لم يأذن للسير دوغلاس فورسيت Douglas Forsyth العائد من كاشغر الى الهند . ورفض قبول مبلغ من النقود كان الانكليز بعثوا اليه به و بعكس ذلك كانت علاقته ودية مع الحاكم الروسى فى تركستان . ووقع هذا الجفاء فى أواخر أيام اللورد نورثبروك ، فلما جاء اللورد ليتون خلفا لنورثبروك بذل الجهد المستطاع لتأليف ذات البين مع شير على ، واقترح عليه ارسال جرى من قبل انكلترة هو السير بلى Pelly ليفاوضه فى كابول فى رغائبه ومراضيه ، فأبى شير على قبول هذا المعتمد ، واقترح هو ارسال معتمد الى بشاور للمفاوضة فى النقاط

الواقع الخلاف عليها ، وهى تدخل انكلترة بينه و بين ابنه يعقوب خان (١) وخطتها فى مسئلة حدود سجستان ، بين افغانستان والعجم ، وارسال حاكم الهند هدايا رأساً الى أحد أمراء الافغان ، مع أنه تابع لمملكة شير على ، ورفض انكلترة رأى التحالف معه والاعتراف بتولية عهده ابنه عبد الله خان الى غير ذلك . فرضيت انكلترة بهذه المفاوضة فى بشاور ، لكنها لم تجب شير على الى مطالبه واعتلت عن كل منها بسبب ، فلم يسفر ذلك المؤتمر عن أدنى طائل . ثم ان هناك مسئلة القبائل الافغانية العاتية المحادة للهند فان هذه القبائل بأجمعها تعترف برئاسة الامير ، وليس منها واحدة خلا قبائل البلوج التى الى الجنوب تقر بسلطان انكلترة عليها أو ترضى باختيارها وطأة قدم انكليزى لأرضها . وان جميع ما عند الانكليز من المعلومات عن هذه القبائل أو عن منازلها لم يتيسر لهم الا بواسطة الجغرافيين والمخططين الذين كانوا تابعين للجيش أثناء الحملات العديدة التى حملها الانكليز على تلك الديار ، ومن الغريب أنه مع شدة غيرة هذه الأقوام على بكارة بلادهم ، وحرصهم على أن لا تطأها قدم انكليزى تجدهم يجولون من بلدة الى بلدة فى الهند و يتجرون بما يريدون فى أسواقها ، و يخدمون جنوداً فى الجيش البريطانى ، وتجد منهم عند الانكليز عمالا ومأمورين ينتقدون الرواتب الجزيلة . فلا يبالغ الانسان اذا قال انه لا يكاد يخلو الاى فى البنجاب من ضابط أو من ضباط متعددين من أبناء هذه القبائل ، وترى منهم ضباطاً فى مدارس و بمباى وحيدر آباد . و بالرغم من كل هذه الأسباب التى كان ينبغى أن تجعل اللحمة بينهم و بين الانكليز شديدة ، فلا بد من الاعتراف بأن هذه الحالة منذ استولى الانكليز على البنجاب وجاوروا تلك القبائل لم تتغير تقريباً » .

قلنا ان الوطنيين فى أكثر البلدان ، الا من رحم ربك ، عودوا المستعمرين أنهم متى قبلوا وظائفهم وانتقدوا رواتبهم جاروهم فى جميع مقاصدهم وتبعوهم فى كل مراميهم ، حتى فيما هو على الضد من مصلحة قومهم ، وفيما يمس استقلال وطنهم ، وأكثر ما سقطت البلدان المستعمرة تحت السلطة الاوربية انما كان على أيدى مأجورين من أنفس الأهالى ، يبيعون أوطانهم بخسيس الحطام وقليل المتاع ، ولهذا تجد المؤرخين الأوربيين نظير لومارشان هذا يقضون العجب من صنيع هذه القبائل الأفغانية المحادة للهند كيف أنها مع شدة اختلاطها

(١) كان ثار عليه وأخذت انكلترة تحميه

بالانكليز وارتفاقها بأموالهم ووظائفهم لم تواطئ الانكليز على بلادها ، ولم تمكن لها فى أرضها كما صنع كثير من غيرها ، فهؤلاء قد خالفوا العادة الجارية من غيرهم ، وهذا الأمر يدهش الاور بيين كثيراً .

ويقول هذا المؤرخ « ان القبائل البلوجية هى على خلاف ذلك فلهذا ادارة السند كانت دائماً أرفق وأهنأ من ادارة البنجاب. أما القبائل التى بين جبال ماهابون وجبال بوزدار فانها نحو خمس عشرة قبيلة ، منها ثلاث عشرة سالت الدماء غزاراً بينها و بين الانكليز ، وساق عليها هؤلاء لا أقل من ٣٠ حملة [1] فمن هذه القبائل قبيلة الجادون يسكنون المنحدر الجنوبى من جبل ماهابون وقوتها تقوم بنحو ٥٠٠٠ مقاتل ، وكانوا اذا شنوا الغارات على الأراضى الهندية اكتفى الانكليز بحصرهم ، وسنة ١٨٦٣ جردت عليهم حملة بقيادة السير فايلد فما عادت العساكر أدراجها الا عادوا هم الى الثورة . ثم قبيلة البونارفال وهم من أشجع أعداء الانكليز وقعت الحرب بينهم و بين الانكليز سنة ١٨٦٣ فخسر الانكليز فى مصارعتهم ٩٠٠ رجل بما بلوه من مر كفاحهم . و بعدهم قبيلة السواتى الذين ساق عليهم الانكليز حملة سنة ١٨٤٩ ويقدر مجموع هاتين القبيلتين بنحو ٢٥ ألف مقاتل . ثم قبيلة الرانيزاى وقد غزاهم الانكليز مرتين سنة ١٨٥٢ وعددهم ٣٠٠٠ مقاتل . ثم قبيلة عثمان كيل [2] وعددها ١٠ آلاف رجل اشتدت وطأتهم على الانكليز ، حتى جردوا عليهم ثلاث حملات الواحدة عام ١٨٤٩ بقيادة الكولونل برادفورد ، والثانية عام ١٨٥٢ بقيادة السير كولين كامبل ، والثالثة سنة ١٨٦٦ بقيادة الجنرال دونسفورد . ثم الى الجنوب من هؤلاء قبيلة الماهموند الكبيرة وهى تقدر أن تحشد ٢٠ ألف مقاتل ، وقد ناجزها الانكليز سنة ١٨٥٠ و ١٨٥٢ ثم بعد ذلك بسنتين تجددت الفتنة بينهم و بين أحد أفخاذها وسنة ١٨٦٤ نشبت بين الفريقين معركة فى سهل شو بكودور

«وجميع هذه القبائل تنزل شمالى مضيق خيبر الشهير بالجبال التى تتاخم الهند الانكليزية ويوجد الى الجهة الغربية ، قبائل أخرى لا تقل عن هذه شدة بأس ، وصعوبة مراس ، مثل الباجورى والشنيفارى وغيرها ، ولكن مرادنا الكلام على القبائل التى بجوار لتخوم الهند كانت الحروب متواصلة بينها و بين الانكليز . فبين مضيق خيبر وكوروم منازل

(١) هذا الى عام ١٨٧٩ فما ظنك بما جرى من الحملات منذ ٤٥ سنة الى اليوم

(٢) معنى كيل فصيلة أو رهط

قبيلة الافريدى التى تعد ٢٥ ألف محارب ، وهى على ما يظن أهم قبائل التخوم وقد تبارزت مع الانكليز مراراً عديدة ، وساقوا عليها زحوفا سنة ١٨٥٠ و ١٨٥٣ و ١٨٥٥ وأخيراً سنة ١٨٧٧ بقيادة الجنرال كايس والجنرال روس

«وكذلك قبيلة الميرانزاى التى تجهز نحو ٥٠٠٠ محارب تبارزت مع الانكليز سنة ١٨٥١ و ١٨٥٥ و ١٨٦٩ وقبيلة التورى وهى تعادل الأولى فى العدد ، غزاها الانكليز عام ١٨٥٦

«ثم الى الجنوب من هذه تجد قبيلة الاوراكزاى من ١٥ الى ٢٠ ألف مقاتل حمل عليها الانكليز سنة ١٨٥٥ و ١٨٦٨ و ١٨٦٩ بقيادة شامبرلين وجونس وكايس . و بين مضيق كوروم وغومول ، تسكن قبيلة الدافارى قاتلها الجنرال كايس عام ١٨٧٢ ، ثم قبيلة الوزيرى الشهيرة التى زحف عليها الانكليز سنة ١٨٥٢ بقيادة نيكولسون وسنة ١٨٥٩ بقيادة السير نفيل شامبرلين ، وسنة ١٨٦٩ بقيادة كايس لردعها عن الغارات والعاديات على حدود الهند.

« وعلى جانبى غومول تسكن قبيلة المحسود وزيرى التى طالما أقلقت راحة التخوم الهندية ثم قبائل البوزدار ، والكازرانى ، والشهورانى ، التى هى دائماً فى جدال مع الجنود الانكليزية

«ولكن الى الجنوب من هذه قبائل أخرى كانت دائما فى وئام تام مع الانكليز مثل الكتران ، والكوزاه ، واللاغارى ، والغورشانى ، والمارى ، والبوغتى ، ويقول لومارشان ان سبب هذه المسالمة هو حب هذه القبائل للمال وايثاره على ماسواه ، فالانكليز عالجوهم بالدواء الذى رأوه الانجع فيهم » انتهى

ومما لا يجوز أن ننساه أن الاحصاءات التى أوردها هذا المؤرخ عن عدد هذه القبائل انما هى عن الوقت الذى كان فيه عدد سكان الهند ١٩٠ مليوناً بدلا من ٣٢٠ مليوناً عند كتابة هذه السطور فلاجل صحة الحساب ينبغى اضافة ٣٥ فى المائة على الأقل الى الأعداد التى أوردها ، كما أنه قد وقعت منذ ٤٠ سنة معارك كثيرة بين البريطانيين وهذه القبائل من بعد الوقائع التى ذكرها ، واليك شاهداً ما جرى مع الافريدى :

ورد فى دائرة المعارف الاسلامية الآنفة الذكر «أن الافريدى هم عدة أفخاذ وهم الآدم كيل ، الذين منهم الجافاكى المجاورون لمضيق كوهات ولقبيلة خاتاق ثم الآكا كل

المتدة منازلهم من آكور الى باراه . ثم الكوكى كيل والكمبركيل والزاكاكيل ، والمالكدين كيل ، والكامركيل ، والسيباه ويقال لهؤلاء الافريدى الخيبريون ، ينتجعون فى الصيف الميدان فى ناحية تيراه ، وينزلون فى الشتاء الى السهول ، وهؤلاء الخيبريون معدودون فى أشد القبائل عتواً وتوحشاً ، وأصعبهم مقادة ، ولا يزالون يشنون الغارات على السهول ولا سيما الزاكاكيل الذين هم أقبحهم سيرة . وكانوا الى تاريخ سنة ١٨٩٧ يتباهون دائماً بأن أرضهم لم تطأها قدم فاتح ، ولكنهم فى تلك السنة نفسها رأوا العساكر الانكليزية الهندية تجوس خلال ديارهم كلها[١] »

ثم يقول « انهم كانوا ينتقدون مبالغ من المال لأجل أن يتركوا المضايق مفتوحة للسابلة ، وبعد أن استلحقت انكلترة بلاد بشاور لم تتعرض لاستقلالهم ، وبقيت تؤدى اليهم هذه الأعطيات لأجل حرية المرور ، ولكن مضيق كوهات كان أكثر الاحيان مسدوداً بسبب المنازعات التى بينهم بحيث ان الانكليز غزوا الجافاكى منهم فى شرقى مركوهات سنة ١٨٧٧ و ١٨٧٨ ولكن لم تطل مدة الاحتلال[٢] ثم انه فى سنة ١٨٩٧ أعلن أحد المشايخ الجهاد فى بلاد الشينفارى ، فاتصل الصريخ بالافريدى والماهموند ، وهاجم الثائرون قلعة لاندى كوثال وافتتحوها ، وكذلك دخلوا عنوة المواقع العسكرية التى فى جنوبى بلاد الاوراكزاى ، فجرد الانكليز جيشاً بقيادة السير لوكارت ، فاصطلت معارك حامية دامية ، وأصيب الجيش بخسائر ثقيلة ، ولكن جميع زوايا الديار قد جيست ، وجميع الفصائل العاصية قد اقتص منها . وبعد موقف طويل فى ناحية الميدان ، عاد الجيش الى سهول بارا . ثم جردت حملة ثانية الى أودية خيبر وبازار ، وبعد ذلك أطاع الافريدى كافةً وصاروا ينتظمون فى جيش الحدود ، ولكن سنة ١٩٠٨ عاد الزاكاكيل الى عيثهم المعتاد فسبق عليهم جيش الى أودية بازار وبارا ونكل بهم »

ثم ورد فى دائرة المعارف «أنه بموجب المعاهدة المنعقدة سنة ١٨٩٣ بين انكلترة والامير عبد الرحمن خان ، تخلى الامير عن بلاد الافريدى وسنة ١٨٩٧ أرسل هؤلاء وفوداً الى

---

(١) ينبغى أن يعرف أن محرر هذا الفصل من دائرة المعارف هو انكليزى .

(٢) لا بد أن يكونوا لقوا منهم عذاباً واصباً ؛ لأن عدم اطالة الاحتلال لا سيما فى نقطة كهذه لا تنطبق على عادة الانكليز

كابول يستنصرونه على الانكليز فلم يلب نداءهم » انتهى

فيظهر أن حالة هذه القبائل ومرودها على العيث والاخلال براحة الحدود الانكليزية منذ استولى الانكليز على الهند ، ولا سيما على البنجاب وديار بشاور كانت تدعو الحكومة البريطانية الى التحرش بأمير الأفغان لتناجزه حرباً تكون عاقبتها اعترافه لها بالسلطة على منازل هذه القبائل لتتمكن بذلك من الاخذ بنواصيها . وهكذا حصل فان الانكليز حشدوا جيشاً عظيما عام ١٨٧٨ وقاموا بتجهيزات لا يقدر عليها غيرهم ، وتطوّع معهم كثير من أمراء الهند ومن المرتزقة من القبائل التى فى شمالى البنجاب ، ومن أمة السيك الهندية المشهورة بالبسالة والتى لاتقل فى شدة البأس عن قبائل الباتان السابقةالذكر وزحفوا بعدد وعدد تضمن لهم نجاح الحركة ، فبعد وقائع عديدة دخلوا كابول بقيادة اللورد دو برتس ، وفرّ شير على خان الى مزار شريف فى القسم التركى من مملكته حيث مات سنة ١٨٧٩ وكان شير على قد غضب على ولده يعقوب خان لمقاومته له ، وحاربه فى هراة ، فلم يقدر عليه ، فأمهله ريثما صرف جنوده ، وأظهر له العفو عما سلف ، فاستدعاه الى حضرته وأمنه ، فلما قدم اليه ألقاه فى السجن و بقى مسجوناً الى أن دخل الجيش البريطانى الهندى كابول فأخرجوه من سجنه ، ونصبوه أميراً وعقدوا معه معاهدة غاندامق التى تخلى لهم فيها عن بعض الأراضى بجوار مضيق بولان ووادى كورام ، وتعهد بقبول بعثة بريطانية تقيم بعاصمة الأفغان فلم تمض على هذه المعاهدة أشهر قلائل حتى جرت ثورة فى هذه العاصمة ، وذبح الأهالى أعضاء هذه البعثة بأجمعهم ، فعاد اللورد روبرتس بجيشه ودخل كابول ثانية ، الا أن الافغان جمهروا من خلفه وجاءوا لحصروه فى كابول ، لخلع الانكليز يعقوب خان وأشخصوه الى الهند وداخلوا الامير عبد الرحمن خان بن أفضل خان بن دوست محمد خان فى قبول الامارة ، وكان جيش انكليزى فى قندهار ، فزحف الى كابول على أن يكون من هناك جلاء جميع الجيوش الانكليزية عن افغانستان ، فلاقاه فى الطريق قبيلة أحمد كيل وأذاقوه علقم القتال فلم يخلص منها الا بشق الانفس ، ثم حشد أيوب خان ابن شير على جيشاً فى هراة وزحف به الى قندهار فالتقى بعسكر انكليزى فكسرهم ، فأسرع اللورد روبرتس الى قندهار واصطلت الحرب مع أيوب خان ، وأدرك الانكليز بهذه التجربة الثانية انه ما كل حمراء تمرة وان الاولى اخلاء افغانستان بأسرها فاتفقوا مع الامير

عبد الرحمن على أن يكون هو الامير وجلوا سريعاً عن البلاد . فأدار الامير عبد الرحمن الامور بحكمة سلم له بها أهالى الشرق والغرب ، ورمّ فتوق بلاده وأقام العدل وأرهف الحد فى المفسدين ، ووطد نفوذ الحكومة وأسس معملا للسلاح ، وأصلح بقدر امكانه تدريب الجيش ، ووسع حدود البلاد من جهة الشرق ، واستولى على ولاية كافرستان التى هدى الله أهلها على يده الى الاسلام فسماها نورستان ، وبالاجمال فقد ذاقت مملكة الافغان فى زمانه طعم الراحة ، وعرفت معنى الوحدة . ومازال يسدد أمورها الى أن قبضه الله اليه سنة ١٣١٩ هجرية وفق ١٩٠١ ميلادية . وهو معدود من أفضل ملوك هذا العصر فى سداده وحكمه ومضاء عزيمته وبلغنى أن له تاريخاً مطولا بالفارسى ذكر فيه ماجريات حياته . وخلفه ولده الأمير حبيب الله خان الذى خاطبته الحكومة البريطانية بلقب ملك ، وان كان لم يتمكن من تأسيس علاقات خارجية مع غيرها مما بقى معه استقلال افغانستان مشوباً بشىء من القصر لم ينفك قيده الابهمة ولده من بعده .

ولما نشبت الحرب العامة أحب الأتراك والألمان أن يجتذبوا الأمير حبيب الله خان الى جهتهم وسارت بعثة ألمانية الى كابول وخاطبته فى ذلك فكان يعتقد أنه لوخاض غمرات هذه الحرب لجنى على نفسه وعلى وطنه فلم يأت بأدنى حركة تغيظ الانكليز ، وقد يعد عمله هذا مستحسناً لأن حفظ العهود أمر محمود ، والنظر فى العواقب من أجل المناقب . الا أنه عفا الله عنه ، كان يقدر أن ينتهز تلك الفرصة لمطالبة انكلترة بكثير من حقوق الافغان التى التهمتها أثناء ما كانت أفغانستان فى الضيق وذلك نظير أخذ البلاد التى ابتزتها اياها بدون حق والحجر الذى وضعته عليها فى الأمور السياسية الخارجية وكمنعها من الحصول على ثغر بحرى تكون حرة فيه بوارداتها وصادراتها . فأهمل الأمير حبيب الله ذلك ، ومشى فى سياسته على مقتضى مكارم الأخلاق الشرقية التى تأبى مهاجمة العدو فى حالة ضيقه ، لا على مقتضى السياسة العملية الأوربية التى لاتعرف هذه المكارم بل تعدها من قبيل الخيالات الشعرية ، أومبادىء الفطرة الأولى التى ليست فى شىء من مبادىء المدنية الحاضرة المبنية على الحقائق الراهنة ، وذلك بخلاف مايدعى الأوربيون من كون الشرقيين لايحترمون سوى القوة ولا يتأخرون عن نقض العهود اذا آنسوا من عدوهم الضعف . فيرمون الشرقيين بما هو فى الحقيقة دأب الغربيين . ولقد ذهبت أمانة حبيب الله خان مع انكلترة سدى اذ

بعد أن وضعت الحرب العامة أوزارها لم ينل من الانكليز أدنى مكافأة على وفائه وكيف ينال وجميع الحلفاء صاروا بعد الحرب غير ما كانوا أثناء الحرب ونسوا عهودهم مع كثير من الأمم التى نصرتهم فى الحرب نصراً عزيزاً . وفى سنة ١٩١٩ وجد حبيب الله خان فى مشتاه بجلال آباد مقتولا ولم يعرف قاتله ، ولا سبب قتله ، وتنوعت الأقوال ولم يزل سر هذه الغيلة مجهولا ، وسمعت أن مصطفى الصغير الجاسوس الهندى الانكليزى الذى افتضح أمره أخيراً فى انقره بعد أن قدمها جاسوساً فى ثياب صديق ، قد زعم أثناء محاكمته التى آلت الى قتله أنه هو الذى دبر مؤامرة اغتيال حبيب الله خان باشارة من الانكليز ، ولا أعتقد بصحة ذلك اذلا يمكن أن دولة عظيمة كدولة انكلترة تقدم على أفعال كهذه ليس فيها شئ لامن حفظ الكرامة ولامن الحكمة ، والانكليز موصوفون بهذين الأمرين . وفضلا عن هذا فالمرحوم حبيب الله خان كان للانكليز صديقاً وفيا . ولبث بهم طول مدة ملكه براً حفيا ، فلا يعقل أن تكون هذه الضربة منهم بل الأليق بالعقل أن يكون قتله وقع بمؤامرة أناس متحمسين نقموا عليه شدة محافظته على ولاء الانكليز ، واضاعته فرصة الحرب العامة التى كان يمكنه فى أثنائها أن يسترد كثيراً من حقوق الافغان المغتصبة . وان الذين عرفناهم من رجال الدولة الافغانية يكذبون زعم مصطفى الصغير ، ويقولون ان هذا لم يكن يومئذ هناك ولا الأمير قتل فى المكان الذى عينه من جوار كابول ، بل استشهد رحمه الله فى جلال آباد . وقد ثبت أن مصطفى الصغير هذا افترى روايات كثيرة فى تضاعيف استنطاقه فى انقرة ، لايعلم الانسان مقصده منها ، ومن جملتها اقحام نفسه فى حديث هذه المؤامرة . ثم ان الأمة الافغانية بعد استشهاد الأمير عولت على مبايعة جلالة ولده أمان الله خان ، مع كون ولى العهد هو نصر الله خان أخاه الأكبر ، فمن حسن الحظ أن عدول الأمة عن ولى العهد الى أخيه لم يحدث شيئاً من القلق ، ولاصحبه شئ من الكوارث مما يدل على تعقل كل من الأميرين الأخوين اللذين أحدهما لم ينهض الى الحسام ، ولا أسرع الى الفتنة لأجل الملك ، والثانى لم يعامل أخاه الاباالحسنى ، ولاحمله الحذر منه على التضييق عليه ، كما كان يفعل الملوك السابقون . فاستتب أمر الدولة الافغانية على أحسن مايرام ، واتفقت الكلمة ، ولكن الأمير الجديد لم يستو على عرش كابول حتى أرسل الى الانكليز بمطالب أمته التى منها اعادة الأراضى التى اغتصبوها من ضمن حدود أفغانستان الجنوبية ، والتفرغ عن مرفأ بحرى

تكون الدولة الافغانية فيه حرة ، وحق تأسيس العلاقات الخارجية رأساً مع سائر الدول مما كان الأفغان لايفتأون يطالبون به ، فأبى الانكليز التسليم بهذه الشروط وجرّ ذلك الى زحف الجيش الافغانى ومن ضافره من قبائل البوتان السابقة الذكر ، واختراقهم حدود الهند ، ودارت رحى الحرب فكانت سجالاً ، وصادفت خروج بريطانيا العظمى من الحرب الكبرى وملل الشعب الانكليزى من سفك الدماء وبذل القناطير المقنطرة ، وعلم الانكليز ما أمامهم من العقبات فى حرب الافغان وانها ستكون أشد عليهم من الحروب السابقة فجنحوا الى السلم ، وعرضوا على الافغان الهدنة ، وذهب محمود ترزى خان ناظر الأمور الخارجية فى كابول الى الهند واتفق مع الانكليز على متاركة السلاح ، وأوفدت انكلترة وفداً الى عاصمة الافغان للتفاوض على شروط الصلح أثناء كون الجيوش من الطرفين مرابطة على العهود ، فانعقد الصلح فى سنة ١٩٢١ على شروط . أولها استقلال الافغان فى الأمور الخارجية كما كانت مستقلة فى الأمور الداخلية والثانى حق امرار السلاح من طريق الهند والثالث تحديد منطقة متحايدة من بلاد قبائل البوتان لاتكون ملكاً لا للانكليز ولاللافغان . ولم ينتظر شاه افغانستان عقد المعاهدة لتأسيس سفاراته لدى الممالك الاسيوية والأوربية بل قبل الصلح أرسل سفيراً الى طهران ثم سفيراً الى أنقرة ، وعقد مع الأتراك معاهدة متينة للسلم والحرب ، ثم معاهدة مع حكومة موسكو ، وأرسل اليها سفيراً هو أول سفرائه فى أوروبا ، وهو الفاضل النبيل محمد خان . ثم أوفد الوزير الجليل الجنرال محمد ولى خان ببعثة فوق العادة الى أوروبا لتأسيس سفاراته فى عواصمها فبدأ بفارسوفيا عاصمة بولونيا ثم قدم برلين ، ثم ذهب الى رومة ، ثم الى باريز ، ثم الى أميركا ، وأثناء مقامه بواشنطون دعاه سفير انكلترة فيها باسم حكومة بريطانيا العظمى أن يزور لندن فلبى الدعوة ، ولما جاء الى العاصمة استقبله رجال حكومتها براً وترحيباً ، الا أنه رأى وزير المستعمرات يفاوضه فى بعض المسائل ، فأبى محمد ولى خان الدخول فى أدنى مفاوضة مع وزير المستعمرات ، كما سمعت ذلك من فمه ، وقال : لاشغل لنا الامع نظارة الخارجية . فاعتذروا له عن هذا الخطأ غير المقصود ، وشرعت الخارجية تفاوضه فى عقد معاهدة الصلح فأجاب : انما ذلك هو عائد الى الحكومة الافغانية فى كابول ، وهى فى مذاكرة مستمرة مع الوفد البريطانى الذى هناك . ولما تم عقد الصلح أرسلت الحكومة الافغانية عبد الهادى

خان من أنبه نبهاء شبانها سفيراً الى لندن ، كما انها جعلت غـلام صديق خان من أنجب نجبائها أيضاً سفيراً ببرلين ، والامير شير أحمد خان سفيراً فى رومة ، ثم عند ما استقال الوزير الجليل الفاضل محمود ترزى خان من نظارة الخارجية التماساً لترويح النفس فى أوروبا ، بعد ان التاث مزاجه لكثرة الاشغال التى عاناها عينه الامير سفيراً له فى باريز ، وهو ممن قاموا بخدمات جلائل لا ينساها له تاريخ الافغان . فانتدب الامير لنظارة الخارجية محمـد ولى خان السابق الذكر . ثم ان ممن قام بخـدمة الحكومة الافغانية فى أوروبا محمـد أديب خان من أجـل أدباء دمشق اذ كان هو الممثل للدولة الافغانية فى برلين لاول تأسيس السفارة الى أن تعين مؤخراً معتمداً لها فى وطنه الاصلى دمشق . وقد كان لمحرر هذه السطور حظ معرفة هؤلاء الاماثل باجعهم ، وعند ما قدم الوفد الافغانى برلين ، احتفلنا بهم فى النادى الشرقى الذى برئاسة هـذا العاجز ورأينا من ذكائهم وشهامتهم وحميتهم ما صدّق لنا التواريخ المأثورة عن جنسهم ، أما الوزير محمود ترزى خان فقد سبقت لنا معرفته منذ مدة مديدة اذ كان وقع بين والده المرحوم غلام خان و بين المرحوم الامير عبد الرحمن خان نفور أدى الى هجرة غلام خان وطنه واقامته بالشام وهناك أسعد الحظ بمعرفته عرضاً فكان له نحوى عاطفة أبوية ، وأهدانى مرة تذكاراً نفيساً وهو مديح نظمه بالفارسى فى شمائل الحضرة النبوية ، عليها أفضل الصلاة وأزكى التحية ، وكتبه مذهباً بخطه الانيق . وكان رحمه الله من صناديد الكتائب والكتاب ، وابطال الحرب والمحراب ، وذرّف على التسعين ، وهو يقوم الفجر ويصلى فى الجامع الاموى ، لا يتخلف يوماً واحداً ، وكان معه ولده محمود ترزى خان الذى هو اليوم سفير افغانستان فى باريز ، وهو الوطنى الذى حرر مدة طويلة جريدة « سراج الاخبار » وجاهد فى ترقية ادارة بلاده وتثقيف قومه بالفنون العصرية ، بقلمه البليغ ورأيه الاصيل ، ما لم يوفق الى مثله غيره .

ولقد باشر شاه الافغان الحالى تنظيم ادارة البلاد الملكية ، وتعليم الجيش وتسليحه على الطرق الحديثة وتوسيع معمل السلاح الذى فى كابول ، وأرسل عدداً وافراً من الطلاب للتحصيل فى أوروبا ، من جملتهم أولاده واخوته الصغار ، فجعل قسماً منهم فى برلين والقسم الآخر فى باريز ، وانتدب عدداً من ضباط الاتراك لتدريب الجيش ، وعـدداً من الاساتذة والمتخصصين الاوربيين لترقية التعليم والادارة ، واستدعى طائفة من المهنـدسين

لتخطيط الطرق الحديدية ، واستخرج المعادن واستثمار خيرات البلاد فالمملكة الافغانية سائرة فى أيام الامير امان الله خان الشاه الحالى سيراً حثيثاً الى الامام بحيث يحكم العارفون أنه لا تمضى ٢٠ سنة على أفغانستان ، حتى تصير أعز دولة فى آسية الوسطى ، وتعود ركنا للشرق والشرقيين . وهى الآن تحتوى على نيف وتسعة ملايين من السكان ، ولما انعقدت المعاهدة بين كابول وموسكو سنة ١٩٢١ كان من جملة شروطها تخيير ولاية كوشكه فى الرجوع الى الأفغان ، وهى ولاية على حدود تركستان كان الروس اغتصبوها منذ نحو أربعين سنة ، وصبر عبد الرحمن خان على ذلك خشية أن يتهور فى حرب مع دولة عظيمة كالروسية لا طاقة له بها . فبعد استرداد أفغانستان لهذه الولاية يناهز عددها ١٠ ملايين نسمة وعلاقات الدولة الأفغانية جيدة مع جميع الدول ، الا أنها متضامنة مع تركيا تضامناً تاماً ، حمل الأمير أن يصرح لسفير انكلترة عندما عقد الصلح معه فى كابول وأن يخاطب نفس ملك الانكليز ، بأن أفغانستان لا يمكنها أن تخلص الود لانكلترة ما دامت هذه تنصب العدوان لتركيا ملجأ الخلافة الاسلامية . ولعمرى انه لا يوجد فى العالم الاسلامى فرد فيه ذرة من العقل الا وهو يتمنى الوئام بين انكلترة و بين تركيا ، وأفغانستان ، ومصر ، و بلاد العرب ، وسائر بلاد الاسلام ، لما لانكلترة من المصالح الشابكة والعلاقات الكثيرة فى الشرق ، وما فى الائتلاف بين هذين العنصرين من المنافع الجزيلة لهما معاً . ولكن ما دامت انكلترة سائرة على الطريقة التى اتبعتها منذ ٤٠ سنة ، وهى السعى فى تفكيك أوصال الاسلام ، واباحة حماه من كل جهة ، استئصالاً لشأفة قوته السياسية ، وتقليما لجميع أظفاره أن تحدثه نفسه بأدنى وقوف فى وجه قوة استعمارية ، وما دامت هى آخذة على نفسها القيام بمعظم هذه العداوة ، فان أمد الصراع بين هاتين القوتين لا يزال طويلا ، وليس من المرجح أن الانكليز هم الذين سيربحون فى هذه التجارة .

أما القبائل المار ذكرها فقد ازدادت الوقائع بينها و بين الانكليز بعد الحرب العامة ولا يمضى شهر واحد حتى تأتى جوائب الأخبار بمعركة أو واقعة ، وقد عول الانكليز على قتال هذه القبائل بالطيارات القاذفة من عل بالكرات المحشوة ديناميتاً ، وهى طريقة عمدت اليها أوربا بعد الحرب الكبرى التى ترقى فيها فن الطيران الى هذا الحد ، فصار لكل دولة مستعمرة أسراب من هذه الطيارات مرصد أكثرها للتنكيل بالأقوام التى تثور على

السلطة الاستعمارية أو تطالب بحق استقلالها ، أو لا تريد أن تطيع الأحكام الجائرة الجارية عليها . ولا ينحصر عمل هذه الطيارات بالفريق الثائر أو العصابة الخارجة ، بل الطريقة المتبعة هى أنه عند ما تبدو من ناحية علامة عصيان أو مقاومة ، ترسل الطيارات فوق القرى أو المدن فتقذف عليها أحمالا من الديناميت تنسف الديار ، وتقتل النساء ، والأطفال ، ولو لم يكن لأحد من أهالى تلك المدن أو القرى أدنى صلة مع الثائرين انما هو الارهاب ، والقاء الرعب فى القلوب ، واجراء المثلات بهؤلاء ليخشى أولئك . وقد وجدت دول الاستعمار هذه الطريقة أقرب منالا وأقل نفقة من تجريد العساكر وتعقب الثوار الى مكامنهم . ولانكلترة وزارة خاصة بالطيران تنفق سنوياً خمسة ملايين جنيه انكليزى على طيارات الشرق التى هى مرصدة لقبائل البوتان وأهل الهند وأهل جزيرة العرب والعراق ومصر الخ . كما ان عند فرنسا ألوفاً مؤلفة من هذه الطيارات تستخدمها فى المغرب وسورية . ومع هذا فكل من هاتين الدولتين تدعى أن استخدام هذه الوسائل الجهنمية وقتل النساء والأطفال انما هما لأجل المدنية . . . .

* * *

من بعد صدور هذا الكتاب طبعته الأولى جدّت فى بلاد الافغان حوادث ذات بال خلاصتها ان الشعب انتقض على أمان الله الملك الذى تولى المملكة بعد والده حبيب الله خان وهزم الثوار جنده فالتجأ أمان الله الى الفرار من كابول الى قندهار ومنها الى الهند حيث ركب البحر من بمباى وجاء الى أوربة واختار الاقامة برومة . وتولى عرش الأفغان من بعده نادر خان الذى كان ناظر الحربية لأوائل عهد أمان الله ثم صار سفيراً لأفغانستان فى باريز ثم استعفى واعتزل وأقام مدة سنوات بمدينة طولون

وتحرير القصة ان أمان الله تولد فيه الميل الى التفرنج والاقتداء بالاوربيين فى كل شئ وأعجبه فى هذا الباب مسلك مصطفى كمال المستأثر بأمور تركيا ووجد فى مصطفى كمال حجة على من خالفه فى هذا الرأى وكثر كلامه فى القضاء على العادات الاسلامية القديمة ولا سيما حجاب النساء . وكان يزعم ما يزعمه رجال انقرة اليوم من أن التمسك بهذه العادات هو الذى أفضى بالاسلام الى هذا الضعف وأن طريق النجاة الوحيد للمسلمين هو الاقتداء بالاوربيين فى مآخذهم ومتاركهم ولباسهم وطعامهم وجميع ما عولوا عليه . وبالاختصار فكل ما رآه الافرنج حسناً فهو حسن ولولا أن يكون الافرنج أقدر على معرفة

الحسن من غيره ما كانوا نجحوا هذا النجاح الباهر الى غير ذلك من التعليلات الانقرية الواهية المردودة بالبداهة و بحجة ان علماء الافرنج أنفسهم معترفون بأن رقى الامم المادّى لا يتم لا ضمن مقوماتها الروحية ومشخصاتها الاجتماعية و بدليل أن الافرنج تقدموا هذا التقدم فى العلوم والمعارف والفنون والصناعات ولبثوا عاضّين بالنواجذ على تقاليدهم المسيحية لا يخرجون عنها وقد يكونون أشد اعتصاماً بها من المسلمين بتقاليدهم

فأمان الله خان أعجبته خطة مصطفى كمال فى هذا الموضوع ويقال ان محمود ترزى خان الذى هو أبو زوجته وناظر الخارجية عنده كان يزين له هـذا المسلك وان العلاقة الوثيقة التى كانت بينه و بين الحكومة التركية الكمالية هى التى كانت أكثر السبب فى جنوحه الى هذه الخطة

وسنة ١٩٢٨ أراد أمان الله أن يقوم بسياحة فى أوربة والبلاد الشرقية فجاء الى مصر ومعه زوجته الملكة ثريا و وافاه اليها محمود ترزى خان حموه قادماً اذ ذاك من أنقرة. و يظهر ان مصطفى كمال كان أرسل الى أمان الله بوجوب الظهور فى مصر بمظهر التفرنج الذى كان الغازى قد حمل عليه أهل تركيا وجاء ثقيلا على الشعب التركى ورأوا أنفسهم منفردين عن العالم الاسلامى فكان من جملة سياسة مصطفى كمال أن ينشر عادة سفور النساء ولبس القبعة وعادة الرقص المختلط وغير ذلك من الأمور التى أوجبها على الأتراك وأن يحمل عليها المسلمين من غيرهم كما جرى منه مؤخراً فى تقاضيه من سفير مصر بانقرة عبد الملك بك حمزة أن يخلع طربوشه فى حفلة رسمية مما أدّى الى منازعة بين مصر وتركيا وصارت مسئلة دولية بينهما. فلا شك فى أن محمود ترزى وصل الى مصر متزوداً تعليمات مصطفى كمال باشا الى أمان الله خان بأن يبدأ بنبذ التقاليد الاسلامية من مصر لأن الناس لحظوا ان الملكة ثريا دخلت الى مصر متحجبة على عادة نساء المسلمين وانها بدأت بالسفور فى مصر. وكذلك بدأ أمان الله بلبس القبعة فى مصر وأفضى الى الصحفيين بحديث معناه وجوب عدول الشعوب الاسلامية عن أزيائها الحاضرة. وذهب أمان الله خان الى الجامع الأزهر بالقبعة فبعد ان كان العلماء قد اجتمعوا هناك اعظاماً لقدومه عند ما شاهدوه آتيا بالقبعة انصرفوا مشمئزين ولكن ملك الأفغان لم يكن عنده يومئذ الا الرغبة فى تقليد مصطفى كمال وهذا الذى هوى به عن عرشه

ثم جاء أمان الله الى أور بة مع الملكة ثريا وزار عاصمة ايطاليا ثم عاصمة فرنسة ثم عاصمة سويسرة ثم عاصمة ألمانيا ثم موسكو ثم انقرة وغيرها ولقى فى كل مكان اكراماً وحفاوةً الا انه كانت أخبار تفرنجه وسفور زوجته قد وصلت الى افغانستان وهاجت عليه رجال الدين والشعب الأفغانى

ولقد كان أمان الله يكره علماء الشرع الاسلامى فى مملكته ويحب خضد شوكتهم اقتداء بجدّه عبد الرحمن خان لكن جدّه كان يقهر رجال الدين ويحطّ من مكانتهم وفى الوقت نفسه يحافظ على الدين من حيث هو وعلى العوائد الاسلامية فلهذا أمكن عبد الرحمن خان ان يقهر علماء زمانه بدون أن يتعرض لخطر الثورة فى بلاده بخلاف حفيده الذى باقدامه على ما أقدم عليه من نبذ العوائد الاسلامية والتشبُّه بالافرنج فى الكلى والجزئى قد هاج عليه حنق العلماء وأوجد لهم عليه طريقاً فهاجوا عليه القبائل وأشاعوا أن الملك استخف بالدين واستهتر واقتدى بالافرنج فى مآخذه ومتاركه و بدأ الهيجان على أمان الله فى غيابه الا أن الثورة لم تشتعل عليه الا بعد أوبته الى كابول ولم تنحصر أسبابها فى التفرنج وحمل النسوة على السفور بل اتهم الملك أعداؤه بأنه غلّ من مال الدولة وذهب الى اوربة يتنزّه و ينفق على لذاته بينما قد مضى أشهر على الجند وهم لا يقبضون أرزاقهم ولا رواتبهم فتغيرت عليه قلوب عسكره . وعند ما أثار العلماء قبائل الافغان على الملك كان أكثر الناس قد انفضوا من حوله ونشبت الحرب فانكسر الجند الذى كان بقى معه وثار رجل اسمه ابن السقا أصل أبيه سقاء من رعاع الناس وهو نفسه كان من قطاع الطرق فاعصوصب حوله كثير من الدعار وممن كانوا يتربصون بالملك الدوائر وهاجوا كابول وكادوا يدخلونها ففر الملك الى قندهار التى هى مركز عشيرة الدرّانية التى ينتسب اليها بيت الملك وترك الملك لأخيه الأكبر عناية الله خان ظانا أن المشكل ينحلّ بنزوله هو عن العرش . وبايع رجال الحكومة أخاه و بقى ملكا نحواً من ثلاثة أيام اذ دخل ابن السقا هذا بأعوانه فخلعوه ايضاً ولحق بأخيه وتسلم ابن السقا زمام الأمر وقتل وفتك وحرض القبائل على قتال أمان الله والزحف اليه فى قندهار فأحس هذا بثقل الحالة وفرّ بالطيارة الى الهند ومنها أبحر الى اوربة وأول مدينة صعد اليها رومة واستقر بها لسبب لا نعلمه

أما ابن السقا فقد عضده رجال الدين واستوسق له الأمر و بقيت الامرة بيده عدة أشهر وربما كان قد طال حكمه لولا ماحدثته به نفسه من مبايعة الناس له أميراً غير مكتف

بالوزارة . ولم يكن الافغان ليقبلوا السقا أميراً فجنى بذلك على نفسه . وذهب نادر خان من طولون ومعه اخوته وزحف الى كابول بالقبائل الموالية لبيت الملك وعضده رجال الدين الذين كانوا لا يرضون بالسقا اميراً ولكنهم يخشون رجوع امان الله فهزم جنود السقا وقبض عليه وقتله ومزق شمل اتباعه واستوسق له الامر وسار بالرعية سيرة الامير العادل الحازم فى غير عنف ، الشفيق فى غير ضعف واقتفى سنتى امان الله فى الاعتناء بالعلم والتعليم وتنظيم الجيش وترقية وسائل العمران الحقيقى لكن بدون تعرض للمسائل الاجتماعية ولا تشبث باحداث انقلابات فى الازياء والعوائد والتقاليد كما أراد أن يفعل ابن عمه امان الله . ولقد خرجت بلاد الافغان من هذه الثورة منهوكة القوى فشرع نادر خان يرأب الصدوع و يضمد الجروح ونرى جميع الناس يتمنون له النجاح ويرجون الخير والفلاح لهذا الشعب الباسل المجيد الذى هو فى طليعة الشعوب الاسلامية فى الذكاء والحمية وكرم المهزة وشدة البأس

اما امان الله فبقى مدة يترقب ان يدعوه نادر شاه الى الاستواء ثانية الى العرش ولكن نادر شاه احتفظ بالعرش لنفسه لا لمجرد حبه الامارة ولا مطاوعةً للنفس الامَّارة بل نزولا عند ارادة الاهالى وعلماء الشرع . فكان ذلك مما أحفظ امان الله خان وأحدث بين الملكين السابق واللاحق من الجفاء ما كل انسان يود زواله

ولما كانت الحودث التاريخية التى تهم التاريخ العام أقرب الى الثقة فيما اذا استقاها الراوى من منابعها الاصلية وحدث فيها عن اصحاب الشان رأساً رأيت ان اختم هذا المبحث عن افغانستان برواية ما جرى من الحديث بينى و بين جلالة امان الله بعد نزوله عن العرش الافغانى

كنت جد معجب بامان الله فى الدور الاول من امارته كما يتضح من الفصل الذى كتبته عنه فى الطبعة الاولى من هذا الكتاب وذلك لكونه تمَّم استقلال الافغان واجتهد فى ترقية شؤون تلك الامة وكانت لى علاقة بسفرآئهِ ورجاله يوم كنت رئيساً للنادى الشرقى فى برلين سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٢٣ ولما تألفت جمعية المانيةٌ افغانية فى تلك العاصمة وانتخب لها رئيس أول من الالمان انتخبت أنا لها رئيساً ثانياً . وكانت ترد لى الكتب من كابول متضمنة الشكر من جانب امان الله خان عما كنت ابذله من الجهد فى خدمة الدولة الافغانية .

ولهذا لما سمعت بخبر قدومه الى الغرب كنت متحفزاً لاستقباله وتقديم الواجب لجلالتهِ كرجل سبقت له معه علاقة الا انى لما علمت بما ظهر منه من مصر ثم فى اوربة من مشايعة

السياسة الانقرية التى لم أوافق ولن أوافق عليها وعلمت ان الملك فؤاداً نصحه بالمحافظة على أوابد قومه وعوائدهم ولم يسمع نصح جلالة الملك فؤاد أمسكت عن السلام عليه حتى بعد مجيئه الى لوزان حيث كنت مقيماً وتسرر عتاب حاشيته لى على ذلك ولم أفعل . وكنت متوقعاً ان لا تطول امارة امان الله بعد هذه المظاهر التى ظهر بها فى بلاد كافغانستان أهلها شديدو الاستمساك باوضاعهم الدينية والقومية .

ففي شهر رمضان سنة ١٣٤٩ جاء الملك امان الله الى سويسرة ومعه أديب خان الاديب الدمشقى الذى لى معه صحبة من ايام برلين وهو خال الملكة ثريّا ونزلا فى مونترو وكالمنى أديب خان بالهاتف لاجل السلام على الملك فذهبت من لوزان الى مونترو وسلمت عليه وتلطف هو فاعاد لى الزيارة بمنزلى بلوزان . وجرت بينى و بينه عدة مجالس تخللنا فيها جميع المسائل التى أوجبت الانقلاب الذى جرى فى افغانستان ولم اكتم عنه شيئاً من الانتقادات التىوجهتها علىسياسته وحررت بها بعض مقالات فىالجرائد العربية فكان جوابه عن ذلك انه قسم ماعزى اليه من الامور الى ثلاثة أقسام قسم أقرّ فيه بالخطأ والتسرّع وقال ان مجلس وزرائه لم ينبهه له . وقسم قال انه جرت فيه مبالغة كثيرة بحسب عادة الرواة فى المبالغة . وقسم أنكر وقوعه منه بتاتاً وقال انه من باب الافتراء عليه . واخذ يذكر لى متعدد خدماته للامة الافغانية . وأجبته بان هذه الخدمات لم ينكرها أحد ولكن الناس يتمنون لو اتفق مع ابن عمه نادر خان حباً براحة هذه الامة التى أتعبتها الفتنة التى وقعت فيها واستمرت اكثر من سنة .

ثم ذكر لى رغبته فى اداء فريضة الحج الشريف وقال ان الوقت لم يسمح له بادائها يوم جاء الى أوربة ماراً بالشرق الادنى معانها كانت فى نيته فبينت له ان ذلك كان أيضا من جملة ماآخذ الناس عليه ولكن من الممكن تلافى هذا الأمر . فابدى لى رغبته فى الكتابة لجلالة ابن سعود فى عزمه على الحج ذلك العام . فقلت له ان مثل جلالته يلقى فى الحرمين الشريفين كل الاجلال اللائق بامثاله وان الملك ابن سعود من أحسن خلق الله وفادةً ومعاملة لكل قادم فكيف اذا كان القادم ملكاً من ملوك الاسلام . ومع هذا فقد كتبت الى جلالة ملك الحجاز ونجد بنيّة الملك أمان الله الحج تلك السنة . ولما توجه الى الحجاز لاداء الفريضة عامله الملك ابن سعود معاملة الأخ لاخيه وعاد الملك امان الله من مكة الى رومة حيث هو مقيم الآن وحيث لا يرى الناس لاقامته بها وجها .

المسلمون فى الصين

للأمير شكيب

مسلمو الصين[1] كأنهم ليسوا من هذه الدنيا فالمعلومات عنهم قليلة والروايات بشأنهم متناقضةوالى هذه الساعةلم يعرف المؤرخون كيف كانوصول الاسلام الى الصين. أوصل اليها بحراًمن طريق الهند أم وصل براً بطريق تركستان وما وراء النهر كما أن الجغرافيين وعلماء الاحصاء الى اليوم لم يتفقوا على عدد المسلمين الصينيين فنهم من يجعله عشرين مليوناً ومنهم من يجعله خمسة وعشرين مليوناً ومنهم من يقول ثلاثون ومنهم من يقول أربعون وكثيرون أكدوا القول بأن فى الصين ٦٠ مليون مسلم ومن هؤلاء بعض علماء من مسلمى الصين جاءوا الى الاستانة ومصر وأكدوا أن المسلمين هناك لا يقلون عن ستين مليوناً وكذلك روى لى مستشار سفارة الصين فى برن قاعدة سويسرة وبخلافه قال غيرهم فأكدوا أن مسلمى الصين لا يزيدون على عشرة ملايين وان بعثة أولون Mission d'Ollone التى أرسلت بمساعدة نظارة المعارف الفرنسية وجابت بعض أقطار الصين لا تجد المسلمين يزيدون على خمسة ملايين فى جميع بلاد الصين وان كانت تقول انها لا تقدر أن تجزم بشئ.

وأما دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية ، فتقول انه لا يمكن الاعتماد على قول وثيق من جهة العدد ولكن برومهال Broumhall أرسل سؤالا الى نحو ثمانمائة شخص من أهل الصين فجاءه نحو ٢٠٠ جواب من أماكن مختلفة فأستخلص ما يأتى :

ولاية كانسو أقل ما يقدر فيها مليونان من المسلمين ومعظمه ثلاثة ملايين ونصف مليون . والمسلمون فى كانسو كثيرون فى غربى هذه الولاية ومواليدهم تزيد بالنسبة على مواليد الصينيين ويوجد نواح خلت من الاسلام بعد الثورات التى جرت ففى « ليانغ تشوفو » لم يبق سوى ٧٠ مسلماً . وفى « هسى نينغ فو » يوجد ٢٥٠ ألفاً وفى « لان تشوفو » قاعدة الولاية ٢٥ ألفاً ولهم جوامع عظيمة وربما منعوهم بسبب الثورات الأخيرة من السكنى فى داخل المدن فسكنوا فى الضواحى وكانت لهم جوامع فيها كما هو الحال فى

(١) راجع صفحة ٢٩٣ و ٣٠٠ من الجزء الأول

« نينغ هسيا » و « بينغ ليانغ » .

ولاية « شنسى » كان فيها قبل الثورات مليون مسلم ولا يظن أنه باق فيها اليوم أكثر من خمسمائة ألف . ويوجد فى « سنغان فو » سبعة جوامع وفى (تشونغ فو) ثلاثة

ولاية شانسى يقال ان فيها ٢٥ ألف مسلم

ولاية (تشيهلى) الاحصاآت تختلف كثيراً فمنها ما يجعل مسلمى هذه الولاية ٢٥٠ ألفاً ومنها ما يجعلهم مليوناً وفى باكين من ٣٠ الى ٤٠ جامعا ومنها المسجد الأعظم (نين شيه) الذى يدرس فيه على رضا التركى . ويقدر عدد المسلمين فيها بعشرة آلاف . وفى أرباضها مسلمون كثيرون . كذلك فى الشمال من جدار الصين الكبير عدد وافر من المسلمين .

ولاية « شانتونغ) هم فيها من ١٠٠ الى ٢٠٠ ألف نسمة .

ولاية (هونان) هم فيها أكثر من ٢٠٠ ألف نسمة ففى مدينة (هوى شينغ فو ») أربعون ألفاً والقرى المجاورة كلها مسلمة وفى (شنغ شو) عشرة آلاف وأهالى « هوى تين شى » كلهم مسلمون ومساجدهم كثيرة .

ولاية (كيانغ سو) مظنون أن فيها ٢٥٠ ألف مسلم . وفى « نانغ كينغ عشرة آلاف لهم ٢٥ جامعاً

ولاية « ستشوان » ليس عندنا معلومات راهنة الا عن قسم منها فيه ٥٠ ألف مسلم والمظنون أن الولاية كلها تحوى ٢٥٠ ألفا . ومركز الاسلام هو فى الشمال الغربى من البلاد مثل (سونغ بان تينغ) وينمو الاسلام كثيراً على حدود التيبت . وبلدة (كيوشياو) فيها ١٢ اماماً و ١٠٠ اهونغ (أى عالم)

ولاية (كوى تشوا) لا يوجد فيها أكثر من عشر آلاف مسلم ولهم أربعة مساجد .

ولاية (ينان) يختلف الاحصاء فيها من ١٦٠ ألفا الى مليون . وقد نسفت الثورات من بلاد الاسلام فيها جانبا كبيراً وان مدنا كثيرة صارت قاعا صفصفا . ويقال ان مسلمى ينان يخفون عددهم الحقيقى اجتناباً لمخاوف الحكومة الصينية . ولا يختلف مسلمو ينان عن الصينيين لا فى الزى ولا فى الفكر ويظن دافيز Davies أن المسلمين فى السهول هم أضعاف

مضاعفة عماهم فى الجبال وانهم ثلاثة فى المائة أى ثلاثمائة ألف نسمة لا غير . وأما سوليه Soulié فى مجلة العالم الاسلامى سنة ١٩٠٩ حزرهم من ٨٠٠ ألف الى مليون وكذلك المبشر رود يقول ان فى ينان مليوناً من المسلمين وعلى كل حال لحساب تيرسان Thiersant صاحب كتاب (المحمدية فى الصين Le Mahamétisme en Chine) بأن مسلمى ينانهم أربعة ملايين هو بعيد .

ولاية « هو به » ليس فيها أكثر من عشرة آلاف وفى (فوشانغ) ثلاثة مساجد وفى (هانكو) مسجدان

ولاية (كيانغ سى) هم أكثر قليلا من ٢٥٠٠

ولاية (آن هوى) فيها أربعون ألفا ويكثرون فى شماليها وفى العاصمة (انكينغ) ستة آلاف ومسجدان

ولاية « تشيكيانغ » فيها ٧٥٠٠ فقط . ومدينة (هانغ تشوفو) التى يذكرها جغرافيو العرب وشاهد فيها ابن بطوطة محلة اسلامية عظيمة غنية لم يبق فيها اليوم الا مئات من العائلات ونحو أربعة مساجد .

ولاية (كوانغ تونغ) فيها ٢٥ ألفا وأما خانسو التى يسميها جغرافيو العرب الخنساء وابن بطوطة يقول لها (سينى كالان) فلم يبق فيها سوى ١٠ آلاف مسلم وخمسة جوامع .

ولاية (كوانغ سى) فيها من ١٥ الى عشرين ألفا منهم ثمانية آلاف فى العاصمة (كوى لين) وفى هذه المدينة وفى (فوتشو) ستة جوامع .

ولاية (فوكيين) فيها ألف مسلم فقط ولهم مساجد فى (آموى) وفى (فوتشو) وفى (تشانغ تشوفو) ولا يوجد فى آموى أكثر من أربعين الى خمسين مسلما هم من طبقة مأمورى الحكومة .

ولاية منشوريا فيها ٢٠٠ ألف مسلم منهم فى مدينة موكدن ١٧ ألفا .

ولاية مونغوليا : المسلمون فيها هم فى الجنوب واحصاؤهم متعذر .

أما التركستان الصينى وان لم يدخل هنا فالاحصائيون يجعلون فيه من مليون الى مليونين وأربعمائة ألف مسلم .

ونتيجة هـذه الاحصاءات ان حدها الأصغر هو ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف وان حـدها الأعظم هو سبعة ملايين وار بعمـائة ألف . ومن أغرب الغرائب ان المبشرين الاور بيين يناقض بعضهم بعضا فى الشهادات فى مثل ان بعضهم يذكر وسطا اسلامياً عظيما فيــه المدارس والمساجد والآخرين يقولون اننا لم نشاهد من ذلك شيئا . « انتهى بتصرف عن الانسيكلو بيدية الاسلامية » .

على أن تيرسان صاحب كتاب (المحمدية فى الصين) الواقع فى مجلدين يحصى المسلمين ٢٥ مليونا فى الصين وكذلك الجغرافى الفرنسى الشهير اليزه ركلوس يقول فى جغرافيتـه العامة ما يأتى :

« ان المسلمين لهم بال كبير فى المملـكة الصينية وقد حزرهم سكاتشكوف بعشرين مليونا ولـكن هـذا العـدد يظهر ضئيلا بالقياس الى أقوال مؤرخين آخرين من الصين ففى ولاية كانسو كان المسلمون هم الأكثرية كما أنهم كانوا فى كثير من نواحى شمالى الصين نحو ثلث السـكان ويجب أى نحسب معهم الدونغان وسائر مسـلمى دونغارية وكولجه وتركستان الشرقى لأجل أن نعلم أهميتهم ويراهم الانسان أعلى درجة من سائر أبناء وطنهم وأعز نفوساً وأصرح نظرا وفى ولايات غربى الصين يتقلدون السـلاح وهم لايشربون المسكرات ولا التبغ ولا الافيون فتجدهم أصح اجساما من أبناء الملل الأخرى ويوجد بينهم تضامن يجعلهم أسعد حالا وأعظم ثروة من غيرهم ويفرضون على جماعاتهم ضريبة معلومة نظير العشر من الدخل لأجل انفاقه فى مصالح الجماعة وهذا فى ولايات كانسو وشنسى وفى بلاد يتان عندهم مدارس يتعلمون فيها العربية ويفهمون معانى القرآن كما ان الصلاة هى فى كل مـكان بالعربية وفى كانسو يوجد مئات من الجوامع ثم ان التجارة فى الشمال تـكاد تـكون منحصرة فى أيديهم لاسيما تجارة المواشى فتجدهم هم الذين يميرون باكين وسائر المدن الشمالية الساحلية الخ » .

وقد همت مسألة إسلام الصـين دول أوربا كثيراً لأنها توجست ولا تزال تتوجس خيفة من انتشار الاسلام فى الصين الى حد أن يصير هو الغالب عـلى تلك المملـكة التى عددها يزيد على اربعمائة مليون فاذا قدر الله دخول هذه المئات من الملايين فى الاسلام حصل انقلاب فى وجه العالم .

الاسلام فى الصين

والاسلام قديم الهجرة فى بلاد الصين يذكر الصينيون أن أول ظهوره بين ظهرانيهم كان لعهد السلطان (تايتسونغ) وذلك فى القرن السابع للمسيح وان أول داخل من المسلمين الى تلك الديار رجل من عصبة النبي يقال له ابن حمزة جلا الى الصين بثلاثة آلاف مهاجر ونزلوا فى (سنغان فو) وانه جاء على أثرهم مسلمون آخرون من طريق البحر وأقاموا بجهات يونان . ويذكر مؤرخو الصين انه فى نواحى سنة ٧٥٨ اقبل على بحر الصين متلصصة من العرب يأخذون كل سفينة غصباً فعاثوا فى تلك البحار وجاسوا خلال الديار واكتسحوا ضواحى كنتون واحتووا على مافى الاهراء السلطانية التى هناك . وهذه تباشير دخول العرب لتلك البلاد بحسب ماورد فى تواريخ الصين .

ولم أجد الى الآن فى الكتب التى طالعتها من كتب العرب أثراً لقصة ابن حمزة هذا ولا ما يوافقها وانما روى المسعودى فى تاريخه قصة تحكيها من بعض الوجوه نؤثرها بالاختصار . وهى أن رجلا من قريش من ولد هبار بن الأسود ، خرج الى مدينة سيراف ، وكان من أرباب البصيرة وذوى الأحوال الحسنة . ثم ركب منها فى بعض مراكب بلاد الهند ، ولم يزل من مركب الى مركب ، ومن بلد الى بلد ، الى أن انتهى الى بلاد الصين الى مدينة (خانقو) ثم دعته همته الى أن سار الى ديار ملك الصين ، وكان الملك يومئذ بمدينة حمدان وهى من كبار مدنهم فأقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر انه من أهل بيت نبوة العرب ، فأمر بعد هذه المدة الطويلة بانزاله فى بعض المساكن وازاحة العلة بما يحتاج اليه . وكتب الى الملك المقيم بخانقو يأمره بالبحث عنه ، ومسألة التجار وعما يدعيه من قرابة نبى العرب صلى الله عليه وسلم . فكتب صاحب خانقو بصحة نسبه ، فأذن له بالوصول اليه ووصله بمال واسع وأعاده الى العراق .

ويظهر من كتب العرب ، ان أول صقع عرفوه من بلاد الصين هو كاشغر . وذلك منذ سنة ست وتسعين للهجرة اذ غزاها قتيبة بن مسلم الباهلى فى خلافة الوليد بن عبد الملك الأموى . قال ابن الأثير الجزرى فى تاريخه انه سار وحمل مع الناس عيالاتهم ليضعهم بسمرقند فلما عبر النهر استعمل رجلا على معبر النهر ليمنع من يرجع الا بجواز منه ،

ومضى الى فرغانة وأرسل الى شعب عصام من يسهل الطريق الى كاشغر ، وهى ادنى مدائن الصين ، فغنم وسبي وأوغل حتى بلغ قريب الصين ، فكتب اليه ملك الصين أن ابعث الى رجلا شريفاً يخبرنى عنكم وعن دينكم . فانتخب قتيبة عشرة رجال لهم جال وألسن و باس وعقل وصلاح فأمر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشى وكان منهم هبيرة ابن مشمرج الكلابى فقال لهم اذا دخلتم عليه فأعلموه انى قد حلفت أنى لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبى خراجهم . فساروا وعليهم هبيرة فقال لهم ملك الصين قولوا لصاحبكم ينصرف فانى قد عرفت قلة أصحابه والا بعثت اليكم من يهلككم . قالوا : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون . وأما تخويفك ايانا بالقتل فان انا آجالا اذا حضرت فاكرمها القتل لسنا نكرهه ولا نخافه . وقد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم و يختم ملوككم وتعطوا الجزية . فقال فانا نخرجه من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيطأه ونبعث اليه بعض ابنائنا فيختمهم ونبعث اليه بجزية يرضاها . ثم اجازهم و بعث بما ذكر الى قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم و وطىء التراب . فقال سواد ابن عبد الملك السلولى :

لاعيب فى الوفد الذين بعثتهم للصين ان سلكوا طريق المنهج
كسروا الجفون على القذى خوف الردى حاشى الكريم هبيرة بن مشمرج
ادى رسالتك التى استدعيته فأتاك من حنث اليمين بمخرج

و وصل الخبر الى قتيبة فى هذه الغزاة بموت الوليد ثم قتل قتيبة فى السنة نفسها ولا يبعد انه لو بقى حيا لاستأنف الكرة على الصين لما هو معهود من بعد همته فى الجهاد . ولا شك أن الاسلام كان قد دخل فى البلاد منذ ذلك الوقت وكثرت أتباعه ومازالوا على نمو وازدياد يلحظ ذلك من تضاعيف الحوادث المذكورة فى تواريخ العرب فقد ذكر ابن الأثير انه فى سنة أربع وستين ومائتين ظهر ببلاد الصين انسان لايعرف جمع غماراً من العامة وأهل الشر وقصد بهم مدينة خانقو وحصرها . قال وهى حصينة ولها نهر عظيم وبها عالم كثير من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس وغيرهم من أهل الصين . هذا فى القرن الثالث للهجرة وأما بعد ذلك فترى الأخبار عن مسلمى الصين كثيرة : نقل الامام أحمد القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ عن الشريف حسن بن الجلال السمرقندى وكان من السفار وممن جال الآفاق

ودخل الصين وجاب آفاقه وجاس خلاله انه قال ان من عجائب مارأى فى مملكة القان (أى الخان) انه مع كفره فى رعاياه من المسلمين أمم كثيرة وهم عنده مكرمون محترمون ومتى قتل أحد الكفار مسلماً قتل القاتل الكافر وأهل بيته ونهبت أموالهم وان قتل مسلم كافرا لايقتل به بل يطلب بديته ودية الكافر عندهم حمار لايطلب بغيره .

ولم يدخل الاسلام بيت الملك فى تلك البلاد الا ما كان ببلاد المغول فى ذرية جنكيزخان وفى كاشغر . قال ابن خلدون فى الجزء الخامس من تاريخه عند ذكر الترك انه كانت لهم دولة ببلاد تركستان وكاشغر وان ملوكهم أسلموا بعد صدر من الملة على بلادهم وملكهم وكان بينهم و بين بنى سامان القائمين فيما وراء النهر بدولة بنى العباس حرب وسلم .

قال يحيى بن أحمد بن على النسابى كاتب جلال الدين خوارزم شاه فى تاريخ دولته ان مملكة الصين منقسمة من قديم الزمان على تسعة أجزاء كل جزء منها مسيرة شهر و يتولى كل جزء منها ملك يسمى بلغتهم خان ويكون نائباً عن الخان الأعظم وكان جنكيز أحد الخانات المذكورين فتغلب عليهم جميعاً وصار الملك الأعظم . وفى كتاب ابن فضل الله محكيا عن الصاحب علاء الدين عطاء ان دينه ودين قومه كان المجوسية حتى ملكوا الأرض واستفحلت دولتهم بالعراق والشمال وماوراء الهند فأسلم من ملوكهم من هداه الله للاسلام .

وذكر ابن خلدون فى الكلام على ملوك بنى جغطاى بتركستان وكاشغر وما وراء النهر انهم كانوا أولا كلهم على دين المجوسية يعضون عليها بالنواجذ فلما صار الملك الى ترماشين منهم أسلم سنة خمس وعشرين وسبعمائة وجاهد وأكرم التجار المترددين .

وذكر الملك المؤيد صاحب حماه فى تاريخه فى خبر الملوك بنى دمرش خان وهو من أولاد جنكيز خان انه لما مات دوشى خان ولى مكانه ابنه ناطو خان ثم مات و ولى بعده طرطو خان ثم مات فولى بعده ابن أخيه واسمه بركة فأسلم على يد شمس الدين الباخورى وكان مقيما ببخارى كتب اليه يدعوه الى الاسلام فأسلم وان بركة هذا أعمل الرحلة الى لقاء شمس الدين فلم يأذن له فى الدخول حتى تطارح عليه أصحابه وسهلوا الاذن لبركة فدخل وجدد اسلامه وعاهد الشيخ على اظهار الاسلام وأن يحمل عليه سائر قومه فحملهم واتخذ المساجد والمدارس فى بلاده وقرب العلماء والفقهاء ثم ذكر المؤرخون اسلام أزبك بن طغرلجاى من سلالتهم واسلام تكدار بن هولاكو وخربندا بن ارغو ثم أحمد بن هولاكو.

وفى مختصر الدول لأبى الفرج الملطى صورة كتاب كتبه الى سلطان مصر فى ذلك الوقت جاء فيه « بقوة الله باقبال قالن فرمان أحمد . أما بعد فان الله تعالى بسابق عنايته و بنور هدايته قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا و ريعان الحداثة الى الاقرار بربو بيته والاعتراف بوحدانيته والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوته (الى أن قال) وأنفذنا أقضى القضاة قطب الدين والاتابك بهاء الدين وهما من ثقات هـذه الدولة القاهرة ليعرفاهم طريقتنا و يتحقق عندهم ماينطوى عليه لعموم المسلمين جميل سنتنا و بينا لهم أنا من الله على بصيرة وأن الاسلام يجبّ ماقبله الخ ».

وقال القلقشندى (فى صبح الأعشى) ان أول من أسلم من ملوك هـذه المملكة ترماشيرين فأسلم وأحسن اسلامه وأخلص وأيد الاسلام وقام به حق القيام وأمر به أمراءه وعساكره وذكر أيضاً عن بكدار أنه أسلم .

وقد بقى الاسلام فى أعقاب الاويغور طائفة جنكيزخان الى يومنا هـذا . فى جغرافية اليزه ركلوس أن الاويغور والطانغون سكان بلاد كانسو كانوا قديماً من عبدة اللاما ومن النساطرة فأسلموا وأسلم بهم جميع سكان الشمال والغرب من مملكة جغطاى ثم ازداد عـددهم بمهاجرة المهاجرين من أهالى التركستان الشرقى ومسلمى المغول الذين بقوا من عهد تمرلنك و بهذا صارت الأغلبية للاسلام فى هذا القسم من مملكة الصين .

ولما دخل ابن بطوطة الصين على ماذكر فى رحلته كان الاسـلام فيها غضا وافراً حسب مايفهم من كتابه فهو يقول فى الجزء الرابع من رحلته : وفى كل مـدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون فيها بسكناهم ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها وهم معظمون محترمون .

ولما ذكر مدينة زيتون قال : وهـذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان والأرض وداره فى وسطها كمثل مافى بلدة سجلماسة فى بلادنا و بهذا عظمت بلادهم والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة . ثم قال عمن تعرفه من صدور تلك البلاد وجاء الى قاضى المسلمين تاج الدين الأردويلى وهو من الأفاضل الكرماء وشيخ الاسـلام كمال الدين عبدالله الأصفهانى وهو من الصلحاء وجاء الى من كبار التجار فيهم شرف الدين التبريزى أحـد التجار الذين استدنت منهم حـين قدومى على الهند وهؤلاء التجار لسكناهم فى بلاد

الكفار اذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح وقالوا جاء من أرض الاسلام وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنيا كواحد منهم .

وقال عند ذكره مدينة صين كلان ان ببعض جهاتها بلدة المسلمين لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ولهم قاض وشيخ ولابد فى كل بلد من بلاد الصين من شيخ الاسلام تكون أمور المسلمين كلها راجعة اليه وقاض يقضى بينهم وكان نزولى عند أوحد الدين السنجارى وهو أحد الفضلاء الأكابر وذوى الأموال الطائلة .

وذكر عند وصوله الى مدينة قنجنفو ان المسلمين فيها يسكنون داخل السور الثالث وانه نزل عند شيخهم ظهير الدين القرلانى وقال عن الخنساء انها ست مدن كبار وان بالمدينة الثانية منها مسكن اليهود والنصارى والترك وبالثالثة مسكن المسلمين وبها المساجد ولأولاد عثمان بن عفان المصرى وهم كبراء المسلمين فيها زاوية تعرف بالعثمانية وبها طائفة من الصوفية والمسلمون كثيرون فى هذه البلدة .

والظاهر أن الاسلام ما برح ينتشر فى آفاق الصين حتى بلغ عدد أهله عشرات من الملايين . زعم سكاتشوف أنهم عشرون مليوناً فقط وذهب الأكثرون الى أن عددهم فوق هذا بكثير وأحصاهم صاحب كتاب (Le Mhaométisme en Chine المحمدية فى الصين) خمسة وعشرين مليوناً وزعم بعضهم انهم أربعون مليوناً وقال آخرون انهم يربون أيضاً على ذلك وان السواد الأعظم فى ولاية كانسو هو منهم وهناك مدينتا سالار وكنكيابو محطا رحال الطلاب والمتفقهين من جميع أقطار الاسلام الصينية . وقد أحصى عدد المساجد فى بعض مدن كانسو فبلغ مئات وهو مالم يعهد الا لعواصم الاسلام الكبرى مثل الاستانة العلية ودمشق والقاهرة وان كثيراً من ولايات الصين الشمالية ثلثها من المسلمين وهم أهل التجارة والكد والعمل ولذلك تجد حالتهم أجمل وأزين من حالة بقية الصينيين وكثيراً ما يأخذون أولاد الفقراء من الوثنيين ويربونهم فى حجر الاسلام خصوصا عند حصول المجاعات الشديدة . وقد شدد فقهاؤهم عليهم فى أداء الزكوات فيجمعونها فى صناديق لكل بلد ينفقون منها فى شدائدهم ويسدون بها عوز محاويجهم فتجد المعدمين منهم قليلين ولهم بعضهم على بعض حنان ورأفة وحفيظة فيما بينهم وعلى عدوهم لا توجد فى الأمم التى تساكنهم كذلك بسبب تجافيهم الأفيون وأنواع المسكرات تجد أجسامهم أحسن

من اجسام غيرهم فهم يفوقون جيرانهم الصينيين صورة ومعنى و يسميهم الصينيون «هواى هواى » وهذا لقب طائفة الاو يغور فى الماضى وأما هم فيؤثرون أن يسموا « كيا ومن » اى أهل الدين عطفاً على « ان الدين عند الله الاسلام » . ومسلمو بلاد يونان الجنو بية يعرفون باسم «بانطى» وجميع المسلمين هناك يتميزون عن سائر الأهالى بملامحهم وشاراتهم و وحدة ملابسهم و يلوح عليهم من النعرة والأنفة مالا يلوح على سواهم وكلهم من أهل السنة والجماعة ولكنهم فى الفقه فئتان الحنفية والشافعية وهم يكرهون جداً الاختلاط بالوثنيين ولا يز وجونهم وانما يأخذون من بناتهم فى الأحايين شراء بالدرهم .

وقد وقعت لمسلمى الصين فى هـذا القرن مع أهل تلك المملكة حروب تشيب لها الأطفال اذا استقصى خبرها المؤرخ لم تكفه فيها المجلدات وملخصها أن اول ثو رة حصلت هناك هى فى بلاد يونان بسبب عملة من الفريقين كانوا يعملون فى أحد المعادن فأسفر القتال عن الغلب للمسلمين وتكررت الحوادث والظهور لهم حتى بلغ الحنق من ولاة الصين مبلغه فاستنفروا اليهم الوثنيين قاطبة ونادوا باستئصال شأفتهم وتعفية آثارهم وذلك فى يوم معين من شهر ايار (مايو) أحد شهور سنة ١٨٥٦ فاستشعر المسلمون ذلك قبل وقوعه وأخذوا له أهبتهم وجزروا واستلأموا فلما وقعت الواقعة توفرت الطائلة لجهتهم ولم تنل الحكومة منهم مأرباً الا فى القرى التى مسلموها قليلون . وتكررت الوقائع وصمد الفريقان بعضهم لبعض من أكثر جهات البلاد والمسلمون فى غلبة وظهور حتى افتتحوا عنوة مدينة « طالى فو » وهى منيعة حصينة من الطراز الأول فى حصون الصين وفتحوا منها طريقاً الى برمانيا يسربون منه اليها الميرة والسلاح ثم استولوا على مدينة «يونان فو» حاضرة البلاد ومضى على دولتهم هذه وهبوب ريحهم بتلك الأرض ثلاث عشرة سنة والصين لا تزداد أمامهم الا انخذالا حتى أيقنت أن لا قبل لها بقهرهم بذباب السيف فمالت الى اعمال الحيلة والدسائس وجاذبت زعماءهم حبال الرشوة ومنتهم الأمانى وأدرّت عليهم العطايا الوافرة سراً وولتهم الأعمال الخطيرة حتى فصمت عرى اتحادهم وحلت بنفثات سحرها عقدة جامعتهم بل استمالت بعض رؤسائهم الى أن وقفوا فى صفها يقاتلون بنى ملتهم فبديهى أن تنحل بعد ذلك عصبتهم وتفشل ريحهم وأن يزرع الصينيون فيهم الانتقام حتى يهلك منهم ثلاثون الفاً بحد السيف و يلحق اقوام منهم بمملكة برمانيا .

أما فى شمالى الصين فاستطار شرر الفتنة سنة ١٨٦٠ وذلك فى « هواتشيو » شرقى « سينغان فو » وكانت الدائرة على الصينيين وتأثرهم المسلمون فى كل سهل وجبل يقتلون ويسبون ولكنهم عجزوا عن دخول « سينغان فو » لمناعة أسوارها ثم امتد لهيب الثورة فى تلك البلاد ونادى منادى الاسلام بيا للثارات فقاموا قيامة الرجل الواحد وفر الصينيون والمغول من أمامهم وانهال المسلمون فى أثرهم يشلونهم شلا ويستقصونهم أسراً وقتلا وامتلأت ولايات شانسى وكانسو عيثاً ودمارا والتجأ الوثنيون الى الكهوف والمغاور وظنوا أنها ما نعتهم فلم تكن بمانعتهم واشتمل الخراب على تلك البلاد حتى لم يبق قرية الا خوت على عروشها ولم يذر المسلمون الا على المسيحيين ولم يبق عامراً من تلك الجهات الا الأمصار الكبيرة بما أدير عليها من سياج الأسوار. وقدّر عدد الذين هلكوا فى هذه المعمعة بالملايين. وحدث بعض مؤرخى الافرنج أن من المسلمين من بلغ منه الحنق أن قتل أولاده وامرأته ليتوفر على الجهاد. والحاصل أن هذه الفتنة كانت من أكبر الفتن واستمرت خمسة عشر عاماً كاد ينقطع أمل الصين فى خلالها من استرداد البلاد ولكن لم يلبث الشقاق ان دخل بين المسلمين فأدخل عليهم الوهن وتشظت عصاهم قطعاً فنالت منهم عساكر الامبراطور واسترجعت الشانسى ثم الكانسو ثم معاقل تيان شان وبددت شمل الباقين من الثوار فى دز ونغاريا ولكنهم لا يزالون الى الآن أهل صولة وشوكة وشأنهم على ازدياد وجدهم فى صعود ومنهم كثير من الحكام وقواد الجيش. وكثير من المؤرخين الأوربيين يظنون أن لهم وحدهم مستقبل السلطان فى الصين. وقد بعثت الدولة الروسية مرة بعثا علميا جال فى الصين وجاب آفاقها واطلع على دخائل أمورها فكان من جملة ما قرره تحذير الروسية من مستقبل الاسلام فى تلك المملكة لأنه ينمو ويتقدم واذا أخذ يوماً بزمام الدولة انقلبت هيئة الشرق الأقصى انقلاباً عظيما لأن الصين اسلامية ليست كالصين وثنية (وأنتم الأعلون إنْ كنتم مؤْمنينَ) (١)

(١) كان محرر هذه السطور قد نشر مقالات متتابعة فى مجلة المقتطف عن الصين وأحوالها فى سنة ١٩٠١ وعقد فصلا خاصاً بالاسلام فى الصين يغنى اعادة نشره عن البحث والتنقيب فى كتب ورحلات كثيرة لأنه تمحص تمحيصاً جيداً (وهو هذا الفصل المتقدم) فلذلك نقلناه بعينه عن مجلة المقتطف جزء تموز (يوليو) سنة ١٩٠١. ونضيف اليه التحقيقات التى جدت بعد هذا العهد مثل أقوال بعثة اولون وكلام الانسكلوبيدية الاسلامية مع ملاحظاتنا عليها.

***

ولقد ذهبت بعثة أولون الفرنسوية فجالت فى كثير من بلاد الصين من سنة ١٩٠٦ الى سنة ١٩٠٩ ونشرت عن مشهوداتها وما اتصلت اليه من المعلومات كتاباً ذكرت فى مقدمته أن أصل ارسالها كان من نظارة المعارف لأجل فحص عام عن أحوال الصين . ولكن بعض العلماء استجلبوا نظر النظارة المشار اليها الى موضوع اسلام الصين بنوع خاص . فلذلك وجهت همها الى التحقيق عن أحوال المسلمين فى الصين ونشرت ذلك الكتاب الذى تضمن خلاصة تدقيقاتها .

وهى ان المسلمين لم يكونوا يؤلفون فى كل ولاية وحدة مستقلة قائمة بذاتها وان بين مسلمى الصين مذاهب مختلفة خلافا لما كان يظنه السياح من قبل وان الطرق الصوفية معروفة لديهم . وظهر لبعثة اولون هذه فى آخر أيام سياحتها وجود علاقات سرية بين مسلمى الصين ومسلمى الشرق الادنى .

و بعد تحرير بعثة اولون ما حررته عن مسلمى الصين ظهر كتاب انكليزى اسمه (الاسلام فى الصين) لسائح اسمه بر ومهال وذلك فى ٢٥ يناير سنة ١٩١١ وهو كتاب قضى صاحبه ١٩ سنة فى السياحة فى الصين والبحث والتنقيب وأخذ عن نحو ٢٠٠ رجل أمدوه بمعلوماتهم . فتهافت على قراءته رجال بعثة اولون لعلهم يجدون شيئاً لم يحصوه فى كتابهم فاذا به بزعمهم لم يكشف شيئاً جديداً فاتهم واذا هو لايخرج عن كتاب تيرسان Thiersant الفرنسى .

و بحسب تحقيقات بعثة اولون كان ظهور الاسلام فى ولاية ينان و ربما فى كل الصين على يد الرجل الملقب « بالسيد الاجل » وهو سيد شريف من آل البيت اسمه شمس الدين عمر دخل فى خدمة دولة الصين ونصح لها وكان من أفراد الرجال فى جميع المزايا فتقدم فى الدولة وتولى المناصب العالية وانتهى الامر بأن السلطنة عهدت اليه بولاية ينان فأفاض الخير ونشر الامان ووزع العدل وأتى من المآثر مالا يزال الصينيون يلهجون به الى هذا اليوم وكان دخول الاسلام الى ينان فى عهده .

وجاء فى تاريخ « كيوسين تانغ شو » انه فى صدر الاسلام ورد الصين عسكر عربى عدته ثلاثة آلاف ومن ذلك الوقت دخل الاسلام فى الصين ويظن ان هذا الحادث وقع سنة ٧٥٦ مسيحية .

ويقال ان أصل مجئ المسلمين الى الصين هو لأجل معاضدة سلطان مخلوع من سلاطين الصين . ومن ذلك الوقت صاروا يخدمون قواداً وأجناداً فى بلاط السلاطين و بقيت هذه العادة الى عصرنا الحاضر فيجد الانسان توابير تامة من المسلمين يقودها أمراء من المسلمين فى دولة الصين .

وأما السيد الاجل فقد اطلعوا فى ينان على تاريخ محرر فى سنة ١٦٨٤ يقال فيه انه لما زحف جنكيز خان الى الغرب جاء السيد الاجل عمر بألف فارس وقدم له الطاعة فأكرمه وجعله من بطانته (١٢٠٦ — ١٢٢٩) ولما آل الأمر الى السلطان أوغوناى (١٢٣٠ — ١٢٤٢) ولاه ثلاث ولايات وهى « فونغ » و (تسينغ) و (يون ناى) ثم استدعاه الى باكين وعهد اليه بمنصب عال . ثم لما تولى السلطان نانغو (١٢٥١ — ١٢٥٩) عهد اليه بادارة ست نظارات بالاشتراك مع (تا اول هوان) ثم جعله مديرا عاماً لمقاطعة (يان كينغ) فأحسن الادارة جداً فعهد اليه بنظارة الاستخبارات . ثم لما زحف السلطان الى بلاد (نسو تشوان) جعله ناظرا للميرة العسكرية فقام بها أحسن قيام فلما تولى السلطان قو بيلاى أعطاه رتبة الوزارة وجعله عضواً فى مجلس أمانة السر الاعلى . وكان كلما تقلد عملا ظهرت فيه فضائله وحاز رضى السلطنة . وسنة ١٢٧٤ تقدم اليه السلطان فى ان يقبل ولاية ينان وكانت أحوالها مختلفة وكان أهل ينان شديدى الغباوة والجهل فلما ذهب الى هناك وجد القيادة فى يد أمير من بيت السلطنة نخاف هذا منه واراد أن يجاذبه الحبل الا ان السيد الاجل بحكمته وحسن سياسته استماله اليه وصيره صديقا . وكانت تلك الولاية فى غاية الانحطاط والبلاد خرابا فنشر السيد الاجل العلم و بنى المدارس واعتنى بتهذيب الاخلاق وكذلك وجه همته الى عمارة الارضين فمهد الطرق و بنى المعابر والجسور والسدود لاجل المياه مما تلافى به خطر القحط فكانت بعض الانهار تطغى على الاراضى فتذهب بها زروع الفلاحين فجعل لها حواجز تقى من ضرر الطغيان . وكانت أراضى أخرى تعطش فى الصيف من قلة المياه فبنى خزّانات وحياضا احتياطا من وراء العطش . وأزال المغارم والمظالم وأبطل السخرة وشيد ملاجئ للايتام والعجزة وخفف المكوس وأحدث انموذجات زراعية يحتذى على مثالها وحفر الآبار وأقام الأسواق وأدخل فى طاعة الدولة مالا يعد ولا يحصى من الأقوام وأثناء وجوده فى تلك الولاية عمر مساجد للاسلام ولكنه شيد أيضاً هياكل لكونفوشيوس

ولبوذا . وكانت ولايته تضم عشرين مقاطعة فيحدها من الشرق سونغ ومن الغرب بيرمانيه ومن الشمال التبت ومن الجنوب آنام. وبحسن سياسة السيد الاجل خضع ملوك التونكين وآنام لسلطان الصين .

ومن نوادر حكمته أن ملك لوبان ثار على السلطنة ، فصدر الأمر الى السيد الاجل بالزحف اليه فلما سار بالجيش رآه الناس حزيناً كئيباً فسألوه عن سبب كآبته فأجاب : لست كئيبا لمونى ذاهباً الى الحرب بل لكونى أتصور منكم كثيراً سيهلكون فى هذه الملحمة بدون ذنب اقترفوه وأنهم سيقتلون وينهبون أناساً كثيرين موادعين لا ذنب لهم أيضاً . ولما وصل الى مكان الثورة أرسل الى الثوار يعرض عليهم التسليم فلبثوا ثلاثة أيام لا يجاوبون فهاج العسكر وطلب القواد الاذن بالهجوم فلم يأذن لهم بل راجع رئيس الثوار فى أمر التسليم فأظهر هذا الطاعة لكنه لم يسلم البلدة فوثب رؤساء الجند على البلدة فغضب السيد الاجل واستدعاهم وقال لهم : ان ابن السماء أمرنى أن أتولى بلاد يونان وأحكم فيها بالعدل والأمان لا بالقتل والعدوان فلا أرضى أن تهاجموا البلد ما دام الثائرون وعدوا بالطاعة فان أبيتم الا سفك الدماء فجزاؤكم القتل . ثم أوثق الضباط الذين أرادوا الهجوم خلافا لأمره . فلما سمع الثوار بما حصل جاءوا وسلموا وسكنت البلاد وأطاعت على بكرة أبيها .

وكان سائر العمال يقتدون بسيرة السيد الاجل ويتباهون بأعماله فأمنت السوابل واستراحت الرعية وساد العدل وفاضت الخيرات وعمرت البلاد وصار يقال هنيئا لبلاد يونان . أما آثاره فى الزراعة فلا تزال بقاياها الى الآن وان كثيراً مما بناه من الجسور لا يزال قائماً الى يومنا هذا .

وكانت بلاد « تشاوتيان » تطغى عليها الأنهر فتتحول الى بحيرة ، فحفر السيد الأجل نهراً حدر اليه تلك المياه كلها فصرفها عن الأراضى التى كان الماء يغمرها من قبل . وحفر ترعا كثيرة وخلجا لسقيا البقاع المحتاجة الى الرى . وجعل بريداً مؤلفاً من ٣٦٠ فارساً وحراساً بقدرهم يسهرون على السدود بحيث اذا حصل فتق فى أحدها أسرعت البرد باخبار الحكومة فجمعت الحكومة الاهالى ونهضوا لرتق الفتق .

ومات السيد الاجل رحمه الله سنة ١٢٧٩ (مسيحية) فكان له مأتم عم الصين

بأسرها و بكاه أهل ينان كما يبكى الاولاد أباهم . وعم الحداد البلاد المجاورة الى بلاد سونغ وتبت وغيرها وذبحت القرابين فى البلاط السلطانى .

وخلف خمسة أولاد و ١٩ حفيدا فكان خلفه فى الامارة ابنه ثم ابن ابنه وتداول أحفاده الامارة وكانوا جيعا أعضادا للسلطنة .

وفى أيام دولة «مينغ » راجع السلطان « تاى تسوكاو هوانغ تى » (١٣٦٨ — ١٣٩٩) تراجم وزراء الدولة السابقة فلم يجد بينهم فى الحكمة والعدل والرفق بالرعية ووفرة آثار العمران مثل السيد الاجل فأمر بتسجيل سيرته فى كتاب خاص بقيد المآثر اسمه « ين تشه شو » وأن يدرس هذا الكتاب للطلبة و ينشر فى المملكة وقد ثبت هذا السلطان لقب السيد الاجل وهو « الأمير الأمين المحسن » وأمر ببناء هياكل تذبح فيها القرابين عن روحه .

وسنة ١٤٠٥ صدر أمر الحكومه الصينية بتأليف سيرة للسيد الاجل بقلم« تسينغ هو» ويوجد فى بلاد ينان هيكل باسم الامير « هيان يانغ » وهو لقب السيد الاجل عند الصينيين . ولا تزال أعقاب السيد الاجل الى اليوم وأسرته معروفة منذ ٨٥٠ سنة . وأما أولاده الخمسة فأولهم نصير الدين والصينيون يقولون له « ناسولا تينغ » صار وزيرا للدولة ثم واليا على شنسى ثم على ينان ومات سنة ١٢٩٢ والثانى حسن صار قائدا عاما لجيوش « كوانغ تونغ » والثالث حسين صار وزيراً للدولة ثم والياً على ولاية « كيانغ سى » ثم والياً وقائداً عاماً لولاية ينان بعد أخيه نصير الدين والرابع شمس الدين عمر كان مديراً عاما لمقاطعة « كيين تشانغ » من ولاية كيانغ سى والخامس مسعود والصينيون يقولون له « ماسوهو » وصار وزيراً ثم والياً على ينان .

أما أحفاده فأشهرهم « بايان فنتشان » من أولاد نصير الدين صار وزيراً للعدلية ثم والياً عاماً على ينان بعد عمه الحسين وقد نال ألقاب جده كلها وأسرع لنجدة الامبراطور فى باكين فنال لقب الأمير الأمين المجتهد . وهو الذى رمم المسجد الأعظم فى سينغان فو ونال للدين الاسلامى من الدولة الصينية اسم « الدين الطاهر الحق » . ومن أولئك الاحفاد عمر والصينيون يقولون له « قوما أول » وكان من وزراء الدولة وصار واليا على « كيانغ تشو »

ومنهم جعفر كان قائدا عاماً لعساكر « كينغ هو » ومنهم حسين صار وزيراً للدولة وخلف أخاه بايان تشيان على ولاية ينان . وشادى صار حاكما فى احدى مقاطعات ينان . وأيوب والصينيون يقولون له « ايونغ » وكان مدير قلم التشريفات فى دار القرابين . و بيانتشار صار وزيراً للقلم الأعلى ولقبه الامبراطور بالجابى الأكبر . و برهان وصار حاكما فى « يونان سين » و « كولى » وكان قائداً عاماً لعساكر هونان

ومن أحفاد أحفاد السيد بعده بسبعة بطون رجل يقال له حاجى والصينيون يقولون له « سى هاتشى » أدى اليه سلطان الصين مبالغ من النقود بنى بها مساجد فى نانكين وسينغان فو . ومن أعيان هذه الاسرة رجل اسمه يوسف بينه و بين السيد الأجل ١٤ بطناً ولد فى نحو سنة ١٦٠٠ والصينيون يسمونه ماشيكونغ وكان عالماً فاضلا ذهب الى باكين سنة ١٦٦٥ واستشاره الامبراطور فى الأمور الدينيــة والعسكرية وصار مدرساً فى مدرسة « كووتسوكيين » وسنة ١٦٨٥ نشر كتاباً اسمه « بوصلة الاسلام »[1] ومنهم فى عصرنا هذا أمير ألاى كان فى الجيش الصينى سنة ١٩٠٧ . ومنهم رئيس جماعة مسلمى « ينان فو » وناظر أوقافهم . ورأس هذه الأسرة اليوم هو « نافاتسينغ » امام جامع ماشوكيا .

و يوجد أسر أخرى هاشمية فى الصين فان كتاباً اسمه « حياة محمد » ألفه صينى اسمه « ليوتشيه » فيه مقدمة من قلم رجل يقال له سايو من ذرية الرسول ﷺ وتاريخ هذا الكتاب سنة ١٧٧٥ .

وسنة ١٤٤٥ كان فى مدينة سينغان فو أسرة شريفة نبوية منها حافظ بن كولى محمد ابن الشريف بدر الدين بن شمس الدين . والذى يظهر أن الثورات التى قام بها المسلمون فى القرن الماضى قد أضرت بهم وأوقفت تقدمهم ولولاها كانت لهم الكلمة العليا فى حكومة الصين . وقد ظهرت لبعثة أولون آثار الفتنة الأخيرة ورأت بعينها الخراب الذى أصاب الديار ولحظت النقص الذى لحق بالنفوس والثمرات وعرفت أن كثيرين من المسلمين لا يزالون تحت المراقبة . وقد سألت بعثة أولون أحد أدباء « لان تشيو » واسمه « قوق ين » قيل لها انه أعلم من يوجد بأخبار هذه الثورة فقص لها ما يأتى : ــــ

(١) البوصلة ابرة المغنطيس التى يعتمد عليها البحارة

«سنة ١٨٦٤ ثارت فتنة فى الشرق والغرب من الصين أصلها اثنان « مياوباى لين » و « ماهوا لونغ » فأخذا يعيثان فساداً فى كانسو واتصل الثانى منهما بثوار كانوا عصوا فى جنوبى شنسى وشماليها فأثار أهالى «تينغ هيا» وأهالى «شان هوا» وأهالى «منينغ تيا واينغ» وهذه هى مدينة فى شمالى سور الصين فساقت الحكومة جيوشاً على نينغ هيا وحاصرتها وقتلت خلقاً كثيراً ثم افتتحتها عام ١٨٦٥ بعد حروب طويلة . الا أنه سنة ١٨٦٨ عادت الثورة فاشتعلت فساقت الحكومة جيوشا وسفكت دماء كثيرة واستردت كثيراً من المدن العاصية . وسنة ١٨٧١ أسرت ماهوالونغ وزعيما آخر اسمه ماباتسياو وصلبتهما وهاجت مدن هوتشيو وسينينغ وسوتشيو وأخذت الثورة فى جميع بلاد شنسى وكانسو . وسنة ١٨٧٤ زحف جيش « ليوكين تانغ » وجيش « كين شوان » قاصدين الزعيم الدينى « باى ين هو » وهاجا « نغان تسى ين » أو كاشغر فانهزم الزعيم الى أرض الروس وقتل ملك كاشغر وتحددت حدود « سين كيانغ » أى التركستان الصينى من الشمال والجنوب . ونصبت الصين ليوكين تانغ والياً عاماً على كاشغر» انتهى

فظهر من هنا أن ماهوالونغ الثائر المسلم حمل كبر الثورة مدة ست سنوات ولولاه لم يتمكن يعقوب بك سلطان كاشغر من يعمل شيئاً وأن سلطنة كاشغر لم تستمر ١٣ سنة الا بفضل ثورة ماهوا لونغ المذكور وقد لعب الدور الأعظم فى قتال المسلمين الجنرال « تونغ فوسيانغ » وهو هو الذى ترأس ثورة البوكسر الشهيرة على الأورببين سنة ١٩٠٠ ولما طلبت دول أوروبا من الصين تسليمه فر الى كانسو وتخبأ بها . وكانت له قصور شاهقة وأراض واسعة ومات سنة ١٩٠٧ وأعيدت اليه بعد الموت الألقاب التشريفية التى كانت دولة الصين نزعتها منه اجابة لطلب الدول وكانوا يظنون فى أوربا هذا الجنرال مسلماً وذلك لوجود عساكر كثيرة من المسلمين يلبسون العمائم فى جيشه فالتبس عليهم الأمر والحقيقة أن هذا الجنرال كان أعدى أعداء الاسلام وأنه من شدة خبثه ومكره ضرب بعضهم ببعض وأوقع بأسهم بينهم لا سيما بواسطة القائد المسلم « مغان لينغ » الذى فتك كثيراً بأبناء ملته .

وأما ثورة ينان فاستمرت من سنة ١٨٥٥ الى ١٨٧٣ وانتهت بالويل على المسلمين . وسبب انكسارهم اختلاف رؤسائهم وعدم تذكرهم قوله تعالى « وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » فان الثائر « توفنسيو » نودى بهسلطانا فى « تالى » ولكن الزعيمين

« ماتوسين » و « ماجولونغ » قاتلاه وانتصرا لحكومة الصين . وكان للثائر ماهوا لونغ شيعة يقولون انه قطب الوقت وان القطبانية انتقلت بعد وفاته الى خلفائه . وقد خلفه صهر « ماتاهى » وفى سنة ١٩٠٨ كان عمره ٥٥ سنة وحفيده « ماأول هى » وكان عمره ثلاثين سنة تبع كلا منهما حزب الا أن حزب الصهر أعظم . ومركز الصهر « شاكيو » ومركز الحفيد « تانغ كياوتشوان » وهذه هى ناحية عظيمة الشأن فى اسلام الصين فيها مدرسة كلية لهم فى « بينغ لينغ » وهذه الفرقة تلقب سائر المسلمين بالظاهرية . ويقولون فى كانسو ان الخلفاء الراشدين الأربعة أسسوا كل منهم طريقة فأبو بكر طريقته الخفية يذكرون بصوت منخفض والثانية الجهورية يذكرون بصوت عال وهى طريقة عمر والثالثة الكبارية أو الكبروية وهى طريقة عثمان لأنه كان كبيراً مسنا والرابعة القادرية وهى طريقة على . والحاصل أن الانقسام الذى يراه السياح الأوربيون ورواد حكوماتهم بين مسلمى الصين ويؤولون له التأويلات بحسب عادتهم هو عبارة عن فرقة القائلين بالشريعة المحضة بدون نظر الى التوصف وفرقة القائلين بالتصوف والآخذين بالطرق على أنها لاتنافى الشريعة . فالأوربيون مثل بعثة اولون يرون فى ذلك ديانتين .

ومن عادة مسلمى الصين أن يشتروا أولاد الوثنيين ويربوهم فى الاسلام روى ذلك تيرسان صاحب « المحمدية فى الصين » وغرونارد Grenard وقالت بعثة اولون انها لما مرت من هناك كانت فى الصين مخمصة شديدة فكان الصينيون يبيعون أولادهم والمسلمون يشترونهم لأن المسلمين بتماسكهم أيسر حالا من الصينيين . وفى ثورة البوكسر قتل ألوف من المسيحيين ونهبت أموالهم وبيعت نساؤهم وأولادهم فاشترى مسلمو « نينغ هيا » عدداً منهم وهذا محقق لأن مطران مغولية كان يسعى فى استردادهم .

وفى شمالى نينغ هيا عاد الاسلام ينمو ويزداد وجميع المسلمين يتجرون بالجلد والصوف وكل نواتية الأنهر لاسيما النهر الأصفر هم منهم . والمدينة التى على هذا النهر المسماة « باوتار » شغلها كله فى أيديهم . والمدينة المسماة « كوكوكوتا » أى الزرقاء التى فيها من كل الأجناس يسكنها ٢٠٠٠ أسرة مسلمة . ويقول اولون انه صادف فيها رجلا مسلما يعرف وجود الخليفة فى الاستانة لأنه كان ذهب الى باكين وتلاقى مع على رضا وحسن حافظ ورجع ومعه صورهما وصورة راية الخليفة . قال أولون : على أنه اذا انبثت هذه الدعوة هناك

دخل الاسلام الصينى فى طور جديد . ولكن أولون لو انتظر الى هذه الأيام لعرف أن كثيراً من حزب التجدد فى الأتراك يرون الخلافة ضرراً عليهم ولذلك قد ألغوها وأخرجوها من الاستانة .

وكان السلطان عبد الحميد أرسل من الاستانة حسن حافظا وعلى رضا فأسسا مدرسة فى مسجد نيوكياى كان فيها ١٢٠ طالبا وأقبل المسلمون عليهما لا لكونهما قادمين من قبل خليفة المسلمين لأن هؤلاء فى الصين لم يكونوا يعرفون هذا الأمر وانما احتفلوا بهما لأنهما آتيان من الآفاق التى ظهر فيها النبي صلى الله عليه وسلم ولقد بث هذان الداعيان روح الانضمام الى الخلافة ورفعا العلم العثمانى و زارا بلاد هونان ونغان هواى وكوانغ تونغ أعظم الحواضر الاسلامية ونشرا فى الصين الجرائد الاسلامية منها عثمانية أو تركية ومصرية وروسية و بلغارية ويوجد اليوم جريدة اسلامية فى باكين اسمها « تشنغ تسونغ نغاى كوباو » أى الجريدة الوطنية .

وفى باكين ٢٩ جامعا أكبرها « نيوكياى » ومنها جامع « سيتان باى ليو » كان هيكلا وثنياً الى سنة ١٩٠٠ فلما ثارت ثورة البوكسر جعلوه مركزا لهم فلما زحفت جيوش الدول الى باكين خاف الصينيون أن يحرقوه فعرض أحد علماء المسلمين أن يحوله جامعا ويرفع منه الأصنام حتى يظنه الأوربيون مسجدا للاسلام فلا يتعرضوا له فرضى الصينيون بذلك ولما انتهت الحرب أبقوه جامعا وهو من أعظم جوامع باكين .

أما بلاد كاشغر فبعد أن خمدت فيها الثورة أخذت الدولة الصينية ادارتها بيدها وجعلت فى كل من مدنها الكبار مفوضاً امبرطورياً وقائداً عسكرياً . فمدن غربى كاشغر هى كاشغر و باركند و يانغى حصار وقوطان . وأما مدن شرقى هذا القطر فهى أوش واكسو وكوتشار و بيدجان وهالى وطورقان وهار اشار . والجميع احدى عشر مدينة كل منها يتبعها مدن عديدة فعين لكل منها قاض لفصل قضايا المسلمين ولا بد لكل هؤلاء أن يذهبوا كل سنة مرة الى العاصمة كما أنه يأتى كل سنة مفتشون من العاصمة للتفتيش عن أحوال المسلمين .

أما الانسيكلوبيدية الاسلامية فتذكر ما ملخصه : أن أصل دخول الاسلام فى الصين هو لأجل التجارة لأن المسلمين بعد أن تأثلت دولتهم فى بغداد سارت سفنهم من خليج

فارس الى الهنـد والصين وعرفوا ثغور الصين من صدر الاسلام كما أنهم من الجهة الأخرى دخلوا الى شمالى الصين بواسطة الـترك من زمان جنكيز خان وأعقابه فان جنـكيز لم يكن يعبأ بالدين وكان يجمع حواليـه من جميع الملل ودخل فى جنده كثير من الترك والأفغان والبا تتان وأناس من الفرس وفى زمان قو بيلاى خان دخل جماعة من الفرس فى خـدمة دولة الصين وذكر منهم ابن بطوطة أناساً فى رحلته وأشار اليهم السائح الايطالى ماركو بولو وكان كل هؤلاء مسلمين فنشروا الاسلام فى الصين . وكان فى زمن جنكيز اتصل بخـدمة بلاطه رجل من بخارى يدعى أنه من آل البيت اسمه السيد الأجل ولهذا الرجل تراجم عديدة ذكرتها الأنسيكلو بيدية ونقلت منها نتفاً وقالت ان ماركو بولو تـكلم على ابنه نصير الدين وروت كثيراً من أخباره عن رحلة أولون واليه والى ابنه هـذا تعزو ظهور الاسلام فى ينان .

أما حالة المسلمين الاجتماعية فهى كما هى فى سائر بلاد الاسلام والعمل انما هو بالشرع الشريف . على أن تيرسان يروى أن مسلمى الصين مضطرون فى أمر الزواج أن يتقيدوا بقانون المملـكة الصينية ولو خالف الشرع ولا نعلم مبلغ ذلك من الصحة . ويقول أولون ان الحجاب غير معهود عند نساء المسلمين فى الصين بل النساء يخرجن سافرات وهكذا يقول غره نار الا أنه يستثنى من ذلك نساء الأغنياء ، وفى هوتشو يتنقب النساء المسلمات بنقاب أسود تحت الاعين. وعادة وضع القدم فى القالب لتصغيره معروفة عند المسلمين كما عند سائر الصينيين وفى كانسو يتنافس بها المسلمون اكثر من سواهم . ويتزوج المسلم بالصينية بل يستحب أن يأخـذ غير مسلمة لعل الله يشرح صدرها للاسـلام ولـكن لا يحل لمسلمة أن تتزوج بغير مسلم . ومع التشديد فى منع ذلك يوجد حوادث مستثناة فان الامبراطو ر « شيسين لونغ » كان متزوجا بأميرة تركية مسلمة . أما العفة وطهارة العرض فهما محفوظتان عنـد المسلمين اكثر مما هما عند سائر الصينيين .

واحترام الآباء والاجـداد معروف عند مسلمى الصين ، وتراهم يحفظون شجرات الانساب كسائر أهل الصين . ولا يوجد عندهم تفاوت فى الطبقات الاجتماعية الا ما كان من تعظيم آل البيت وتمييزهم ولـكن مسئلة ادعاء النسب النبوى غير فاشية هناك كما فى سائر بلاد الاسلام لذلك عدد أصحاب هذه الدعوى قليل وكان منهم الزعيم الثائر ما هوالونغ . أما

سحنة مسلمي الصين فهي في الغالب كسائر أهل الصين وانما يجد فيهم الرائي كثيراً من السحنات العربية والتركية بسبب المهاجرة ومجيء الطرّاء . وعلى كل الأحوال فالسواد الأعظم من مسلمي الصين هم من السلالة الصينية ولغتهم هي لغة الصين وكتابتهم هي كتابة أهل الصين وان كان يوجد في لهجة نطقهم مالا يخلو منه مكان من الاختلاف بحيث يعرف الصيني المسلم من الصيني الوثني من لهجته . ولا شك أن اختلاف الدين أوجد بين الصيني المسلم والصيني الوثني تبايناً كبيراً فالمسلمون يرون أنفسهم أعلى جدّاً من الصينيين وهؤلاء يلقبون المسلمين باسم « هوى هوى » والمسلمون يكرهون هذا اللقب ويحبون أن يقال لهم « باى شان » أي أصحاب العمائم البيض . ويوجد في الصين جنس من الاسلام هم مباينون لسائر مسلمي الصين وللصينيين في اللغة والسحناء وهم قوم يقال لهم « السالار » يسكنون على الضفة اليمنى من « هوانغ هو » وما جاوره فهؤلاء يشبهون أتراك كاشغر في الخلقة ولغتهم من التركي المحرّف ومذهبهم حنفي ويعرفون الحروف العربية ولا يوقدون البخور ولا يضعون أسماء سلاطين الصين في جوامعهم وهم يجهرون في الصلاة وقد ظهر بينهم مرشد في نحو سنة ١٧٥٠ اسمه « مامينغ هسين » أو محمد أمين وهو الذي يقلدونه الى الآن .

ويمتاز مسلمو الصين على سائر الصينيين بعلو الهمة وقوة الجسم فتجدهم من أجل ذلك مشغوفين بالخدمة العسكرية وتجد عدداً كبيراً من ضباط الجيش الصيني مسلمين ومنهم كثير في المناصب المدنية الا أنهم في المناصب العسكرية أرغب . وأما المهن فان بعضها يكاد ينحصر فيهم وذلك نظير المكاراة وقيادة المواشي ويقال لصاحبها « مافو » فان هذه المهنة هي فيهم خاصة وكذلك حرفة الخانات والاماكن المعدة للمسافرين فهي مما يختص بهم . وبالاجمال تجد الصينيين أقوم من المسلمين على الزراعة وتجد المسلمين أقوم من الصينيين على تربية المواشي

وأهل الصين ينظرون الى المسلمين بعين الحذر ويعتقدون أنهم يريدون تأسيس سلطنة ضمن السلطنة ولذلك تجد المسلمين يميلون الى الاوربيين بعض الميل ويحسبونهم اخواناً بازاء الصينيين . وان كنت تجد في قواد الجيش الصيني من المسلمين من اشتهروا ببغض الاجانب فالعامل فيه هو غطرسة الاجانب الاوربيين لا التعصب الديني . ومما لا ينكر أن مسلمي الصين يلجأون الى جميع الوسائل لاجل زيادة عددهم فيشترون في المخامص مئات

ألوف من أولاد الوثنيين ويربونهم فى الاسلام ويجذبون الى دينهم كثيراً من الصينيات بواسطة الزواج . وضباط الجيش من المسلمين يهدون الى الاسلام كثيراً من جنودهم . وقد أخبر أولون أنه صادف جمعا من الذين أسلموا حديثاً . نعم ان ثورات المسلمين الاخيرة وقفت سير الاسلام بعض الشئ ولكن مما لا نزاع فيه ومما اتفق عليه جميع سياح الاوربيين الذين سبروا غور الصين أنه لا يعد مستحيلا دخول الصين فى الاسلام لا سيما بعد أن أعلن الصينيون المجددون سنة ١٩١٢ كون الماندشو والمغول والمسلمين والتيبتيين والصينيين كلهم متساوون ويذهب بعض الاوربيين الى امكان حصول ديانة جديدة يمتزج فيها الاسلام بعقيدة كنفوشيوس لا سيما أن فى العالم الاسلامى حركة دينية ظاهرة نحو التجدد .

أما الحركة الدينية الحاضرة فى اسلام الصين فهى عبارة عن أن « ماهوالونغ » الذى تقدم ذكره قام بطريقة خاصة من قواعدها الجهر فى الصلاة وارخاء الأيدى بدل القبض والاعتقاد بالأولياء وزيارة القبور وتزعم بعثة أولون أن المسلمين الصينيين انقسموا بذلك الى قسمين : أصحاب الديانة القديمة ويقال لها « لاوشياو » وأصحاب الديانة الجديدة وتسمى « سين شياو » وعقبت على ذلك الانسيكلوبيدية الاسلامية بقولها ان هذه الحالة هى فى سائر بلاد الاسلام فان هناك من يتمسك بالأولياء والأقطاب ويعتقد بتصرفهم فى الكون باذن الله ، ومنهم من لا يعتقد بذلك ولا يخرج عن ظاهر الشرع

ثم ذكرت الانسيكلوبيدية أن السلطان عبدالحميد فكر فى الاستفادة من مسلمى الصين بايجاد علاقات معهم باسم الخلافة فأرسل الى الصين سنة ١٩٠٠ أحد القواد وهو أنور باشا(١) لهذه الغاية فأخفق اخفاقا تاما . ثم أن الاهونغ (٢) وانغ هاوزان الياس عبد الرحمن مفتى باكين قدم الى الاستانة فالتمس من السلطان ارسال بعثة اسلامية الى الصين فأرسل اثنين هما على رضا وحافظا فأسسا مدرسة سنة ١٩٠٧ وجالا فى بعض بلاد الاسلام « ولكن الحكومة الصينية قضت على الدسيسة التركية » فالتجأ ذانك التركيان الى سفارة المانية فى باكين ووعدت سفارة المانية فى الاستانة بأن تحمل سفارة المانية فى الصين على حمايتهما ولكن الحكومة الصينية لم ترد أن تسمع كلاما فلما رأى المرسلان المذكوران أن السلطان

(١) غير أنور باشا الشهيد ناظر الحربية

(٢) الاهونغ عند أهل الصين العالم المسلم

تركهما التجأ الى سفارة فرنسا لحمتهما ثم عادا الى الاستانة ولا يزال فى تركية الدستورية
نية تأسيس سفارة فى باكين وهى جنة ليست على ما يظهر قريبة التحقيق (كذا) .

ثم أردفت ذلك بقولها : انه وان كان المستقبل لا يأذن بالتكهنات . فيمكن مع ذلك أن يقال ان استيلاء الاسلام على الصين وظهوره على سائر أديانها هما شبح لا يفيد المسلمين سوى الخراب والخسار . ولكن اذا كان بتسلسل حوادث غير منتظرة تحققت آمالهم فى هذ الأمر ولو لمدة موقتة فتكون مصيبة على الصين لأن الاسلام ليس بدين مدنية والاسلام هو قبل كل شئ عدو للمدنية الافرنجية حال كون استعداد الصين انما هو لاقتباس هذه . فان كان المسلمون يريدون الاشتراك فى حركة التجديد الصينى فلا بد من أحد أمرين : اما أن ينقادوا الى الأفكار الجديدة ويسيروا مع دعاة الاصلاح الصينيين الى تجديد مملكة صينية على قاعدة القومية الصينية وبذلك يكونون غير مجرمين . واما أن تبقى فى قلوبهم نيات التسلط على سائر الصينيين فبمجرد ظهور هذه النيات يسحقهم الصينيون سحقاً لأن المسلمين عددهم قليل جداً فى وسط رؤساء الحركة الاصلاحية وان الأمة الصينية تحسن عملا فى الحذر من العناصر الاسلامية التى فى داخلها وفى منع نمو الاسلام فى الصين بشراء أولاد الصينيين . انتهى بالحرف .

وقد يأخذ القارئ العجب كيف ان دائرة المعارف الاسلامية تصرح بمثل هذه الأقوال التى فيها من التحامل والبغضاء وسوء النية بحق المسلمين مالا يمكن المراء فيه . ولماذا ارسال السلطان عبدالحميد بعثة تهذيبية الى باكين يعد « دسيسة » وبعثات الدول الأوروبية التى هى مالئة الصين والشرق والغرب لاتعد « دسائس » ؟ ولماذا وجود سفارة تركية فى باكين يعد جنة حال كون أولى الأمم بأن تكون لهم سفارة عند الصين هم الترك نظرا لتجاور الترك مع الصينيين ولوحدة الأصل ثم لماذا يجب على الصين هذا الحذر كله من الاسلام والاسلام دين قسم وافر من أهلها ولايجب عليها الحذر من الافرنج الذين مانشبوا أصابعهم فى مكان الا انتهى الأمر باستيلائهم عليه واستعبادهم لأهله ولماذا الدين الاسلامى عدو المدنية وقد شهد كثير من أعاظم أوربا ونخبة المستشرقين انه خدم المدنية ؟ وأخيرا لماذا يغار هذا الكاتب على الصينيين أكثر من غيرتهم على أنفسهم فانهم تسامحوا مع المسلمين فى تركهم يأخذون أولادهم فى المساغب ويربونهم فى حجر الاسلام وهذا الكاتب

لايسامح فى ذلك .

ولكن من علم أن محرر هذا الفصل من الانسيكلو بيدية الاسلامية الفرنسية هو الاستاذ المستشرق مرتين هارتمان الألمانى بطل عجبه . فان هذا الأستاذ قضى حياته فى محاربة الاسلام والاجتهاد فى اظهار معايبه والتحامل عليه فى كل فرصة وهو أشبه بلامنس اليسوعى بكون كل منهما استشرق فى مدينة بيروت ووقف عمره على مجادلة الاسلام وأسلس فى هذه السبيل العنان لهواه واحنة صدره . عرفت هارتمان هذا وأنا طالب فى مدرسة الحكمة فى بيروت لم أتجاوز الخامسة عشرة سنة من عمرى ثم لقيته بعد ذلك باثنين وثلاثين سنة فى برلين وهو يحرر فى مجلة « الشرق الجديد » أثناء الحرب . وكان يتردد الىّ ولم أكن أعرف حقيقة مشربه ولااطلعت على كتاباته اذ ذاك الاأنه قيل لى مرة ان الأستاذ هارتمان كان من ألدّ أعداء الأتراك لايفتر عن الطعن فيهم فما باله عاد الآن يحمد طريقتهم أترى ذلك من أجل كون الترك حالفوا الألمان ؟ فبحثت عن السبب فعلمت أنه رضى عن الأتراك بمجرد ماعلم أن فئة منهم تسير فى خطة غير اسلامية ولهذا كان معجبا بمبادئ ضيا كوك ألب وأمثاله . وحدثنى المرحوم الشيخ صالح التونسى أنه جرى اجتماع فى برلين أثناء الحرب حضره كثير من المسلمين فقام هارتمان وعرّف الجهاد عند الاسلام بكيفية تقشعر منها الأبدان فانبرى له الشيخ صالح وتكلم فى حقيقة معنى الجهاد وفند دعوى هارتمان فى الأمور التى زعم أن الشرع يجيزها للمجاهد فأجاب هارتمان أن مايقوله الشيخ صالح هو شئ جديد غير مافى الشريعة . فرد عليه الشيخ صالح بقوله بل هذه هى أحكام الشريعة وان هارتمان يجهل الشريعة وطالت المشاحة بينهما وفصل بينهما الاستاذ المستشرق ميتفوخ وقال ان حد الجهاد هو ماقاله الشيخ صالح لاماقاله الشيخ هارتمان .

ومن أغرب شواهد التهور الذى كان عليه هارتمان هذا فى احتقار الاسلام أنه فى مقالاته عن الصين هذه أشار الى الحديث النبوى الذى نقله المستشرق المجرى غولد سيهر وهو : « اتركوا الترك ماتركوكم » فهزأ به وزعم أنه حديث موضوع يقصد به اضافة العلم الى النبي ﷺ وتعظيم قدره والحال أنه قديكون محمد لم يسمع بذكر الترك فى حياته . ولولا كون هارتمان قد مات بعد الحرب بقليل وقبل أن اطلعت على جملته هذه لكنت أظهرت له مافيها من قلة المعرفة وعدم التمييز وفساد الاستشراق واثبت له أنه لايصح أن يعد مستشرقا

من يعتقد أن سيداً من سادات العرب — بصرف النظر عن النبوة — لايعرف وجود الترك فى الدنيا مع أن العرب فى الجاهلية كانوا يعرفون الترك والروم كما يعرفون العجم. وكان اسم الترك معروفاً لديهم وارداً فى أشعارهم ولم يكن جهل العرب واصلا الى حد أنهم يجهلون وجود الترك . وانما القول بأنهم كانوا بهذه الجهالة هو عين الجهالة وقلة العقل والظن بأن محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب ربما لم يسمع فى حياته بوجود أمة اسمها الترك هو منتهى الصغارة والضعة ولا يشابهه الا أقوال لامنس اليسوعى التى يأسف من يقرأها على تصدر أناس أعماهم الغرض الى هذا الحد لدعوى الاستشراق وتصديهم للكتابة عن الشرق والاسلام . وقد صنف المسيو دينه Dinet وسليمان بن ابراهيم كتاباً بالفرنسية اسمه « انك فى واد وأنا فى واد » أظهرا فيه مافى تآليف لامنس من السخافات والآراء الخيالية التى لاتشين الا صاحبها ولاتنقص الا كاتبها .

هذا ونعود الى موضوع الاسلام فى الصين فنقول ان أحد أدباء الصين ورد مصراً فى العام الماضى فنقلت جرائد مصر عنه أحاديث عن بلاده من جلتها أن فى الحكومة الصينية الحاضرة أربعة وزراء مسلمين وهم الجنرال محمد كاشونغ ناظر الحربية ثم الجنرال محمد شيسانغ ناظر الطرق وناظرين آخرين أحدهما وزير الزراعة والثانى وزير الأمور الدينية الاسلامية الذى هو بمثابة شيخ الاسلام . وقال هذا السائح ان مسلمى الصين متفقون مع حكومة الصين فى مبدأ تعزيز الرابطة الشرقية . وذكر أن عدد المسلمين فى الجيش الصينى هو نحو نصف مليون منهم ٥٠٠ ضابط وأخبر عن وجود جريدة اسلامية فى الصين اسمها « راية الاسلام » والله أعلم .

* * *

ولقد اطلعنا على كتاب اسمه « مسلمو يُنّان » Les musulmans du Yunnan لكاتب افرنسى أقام بجنوبى الصين عدة سنوات اسمه المسيو « كورديه » Cordier من أعضاء اكادمية علوم المستعمرات قال فيه ان مسلمى الصين يبلغون عشرين مليوناً أى واحداً من عشرين من الأمة الصينية لكن لهذه الاقلية الاسلامية هناك شأن لا يستهان به

ولما كان صاحب هذا التأليف عالما مؤرخاً فيما يظهر من كلامه أحببنا ان نأثر عنه بعض معلومات تتم بها فائدة هذا البحث

فهو يرى أن دخول الاسلام فى الصين بدأ من القرن الاول للهجرة وذلك ان الفاتح العربى قتيبة كان بين سنة ٧١١ و ٧١٤ قد وصل بفتوحاته من سمرقند الى كاشغر وانه قد وجد فى المجموعة الكبرى الصينية صور الكتب التى وردت من ملوك بخارى وسمرقند وتركستان الى عاهل الصين لذلك العهد يستصرخونه لانقاذهم من العرب . ومنها يستدل على الرعب الشديد الذى حلّ بالترك أوانئذ من سطوة العرب (١) وان قتيبة بعد أن حل تلك الشعوب التى أطاعته على الاسلام أرسل الى ابن السماء برسالة يدعوه الى الاسلام و يشرح له عقيدة القرآن و بحسب قول مارغوليوث قد راع عاهل الصين الاخبار التى جاءته عن قوة العرب فارتضى بأن يرسل الى قتيبة بالجزية

والمسيو كورديه يشك فى تأدية عاهل الصين للجزية نظراً للعهود من كبرياء ملوك الصين ولكنه يرى محققاً أن عاهل الصين أعجب جداً بشجاعة العرب واقدام قائدهم قتيبة لانه سنة ٧٥٦ كان ثار أحد العصاة المسمى « آنلوشان » على العاهل « سوتسونغ » واستفحل أمر الثائر هذا فأرسل العاهل الى الخليفة أبى جعفر المنصور يستنجده على الثوار فأمدَّه بجيش أربعة آلاف مقاتل من العرب فذهبوا الى الصين وأخمدوا الثورة وأعادوا الى الامبراطور ملكه بعد ان كاد يذهب من يده . ولما سكنت الحال استقر هؤلاء الجنود العرب فى بلاد الصين وتزوجوا وتولدت منهم طبقة خاصة وهذه بلا نزاع النواة الأولى للاسلام فى الصين

وهل كان مجئ هذه النجدة العربية للامبراطور « سوتسونغ » بحراً أم براً ؟ الجواب هذا غير معلوم الا أنه مما لا شك فيه ان مدينة كانتون كان فيها مسلمون من القرن الأول للاسلام مؤلفون من تجارة العرب والعجم الذين كانوا فى تردد دائم على سواحل الصين وقد كثر عددهم الى حد انهم سنة ٧٥٨ ثاروا على الحكومة بسبب ضريبة أرهقتهم فنهبوا البلدة وأحرقوها وخرجوا . ثم لم يطل الأمر ان رجعوا الى هناك لأن العلاقات التجارية لم تنقطع بين سيراف وكنتون وكانت المحطة بينهما جزيرة سيلان

وسنة ٨٧٢ وصل الى كنتون السائح العربى ابن وهب وقصد بلاط العاهل وأراه هذا صور الأنبياء نوح وموسى وعيسى ومحمد وصور حكماء الصين . و بعد هذا التاريخ بسبع

(١) راجع الصفحة ٨ من كتاب كورديه

سنوات ثار ثائر اسمه « هوانغ تشاو » ونهب كنتون وقتل فيها مائة ألف مسلم

وبعد ذلك تسكت التواريخ الصينية عن ذكر المسلمين فى الصين الى زمن ثوراتهم الأخيرة اهـ

قلت : اما ارسال قتيبة بن مسلم الباهلى فاتح بلاد الترك رسالة مع وفد انتخبه الى ملك الصين فقد ذكره ابن الأثير تفصيلاً كما سبق لنا نقل ذلك فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب والذى يظهر هو أن ملك الصين راعه الامر ووجد العرب قد كادوا يطأون بلاده فأرسل الجزية الى قتيبة خلافا لما ذهب اليه كورديه من أن كبر ملوك الصين أعلى من ذلك . ولو كان الكبر يمنع مثل هذا الامر لما استنجد عاهل الصين أبا جعفر المنصور وبينهما مسافة بضعة أشهر

وأما ذهاب ابن وهب من البصرة الى كنتون ثم الى بلاط ملك الصين وكون هذا أراه صور الأنبياء والحكماء فهذه القصة واردة فى كتب العرب

والذى يظهر أن العرب كثروا جدا فى كنتون صدر الاسلام وكانت السفن لاتنقطع بين مرافئ الاسلام ومرافئ الصين

جاء فى كتاب « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » قال .

« حدثنى القاضى احمد بن سيار قال حدثنى شيخ من التجار بعمان قال : كنت بالابلة أريد الخروج الى البحر فرأيت سائلا بباب الجامع فصيح اللسان مليح المسألة فرققت له وأعطيته دراهم صالحة وخطفت فى الوقت الى عمان فقضيت بها شهورا ثم قضى لى ان مضيت الى الصين فدخلتها سالماً فاذا أنا يوما أطوف فاذا الرجل بعينه قائماً فى السوق يتصدق فتأملته فعرفته فقلت له : ويحك سائلا بالابلة وسائلا بالصين . فقال : قد دخلت الى هذا البلد ثلاث دفعات وهذه الرابعة اطلب المعيشة فلا أجدها الا من الكدية فأرجع الى الابلة ثم أرجع الى ههنا . قال فعجبت من شدة حرمانه » اهـ

والذى أريد استخلاصه من هذه النكتة أن كنتون كانت لعهد دولة العرب أشبه ببمباى الهند اليوم بالنسبة الى البصرة أو الى الكويت أو الى البحرين الخ

وكورديه يرى أن الاسلام دخل الصين من الطريقين البحرى والبرىّ . اما مقاطعة « يُنّان » فيذهب هذا الرجل الى ان الاسلام جاءها من الشمال عن طريق مقاطعة

« شانسى » كما أنه يجوز أن يكون جاء المسلمون من الهند الى بيرمانيا الى ينان . ولكن هذا الاحتمال ضعيف . وبحسب الروايات المأثورة فى الصين دخل الاسلام فى ينان فى أيام دولة «تانغ » ثم ازداد فى أيام جنكيز خان الذى غزا جنوبى الصين وكان فى جيشه مسلمون فاستوطنوا تلك البلاد . وكان السيد الاجل مغولياً مسلماً من هؤلاء فاعتنى بتمكين المسلمين هناك ولهذا لما وصل السائح الايطالى الشهير الى « يونان فو » ذكر أن أهلها مزيج من وثنيين ونصارى نساطرة ومسلمين . وزعم الجنرال « فيتش » Fytche فى مجلة « ادنبورغ رڤيو » ان الامبراطور « هويو تسونغ » من عائلة « تانغ » عند ماحصلت عليه ثورة « نغالوشان » استنجد العرب فى قمع الثورة فأرسلوا اليه عشرة آلاف مقاتل أخمدوا له الثورة ولكنهم لم يرجعوا الى بلادهم فأسكنهم الامبراطور فى ينان . ولم يذكر الجنرال مصدر هذه الرواية . وذهب «جون آندرسون» John Anderson الى أن مسلمى ينّان هم من سلالة العرب ومعهم عنصر تركمانى هبط اليهم من شانسى وكانسو

وذهب « بورن » Bourne الى أن مسلمى ينَّان هم قسمان : جماعة «تاليفو» وجماعة « لينغان » فالأوائل هم سلالة عسكر جنكيزخان . والأواخر هم من مهاجرى شانسى . قال وقد أسكن الأوائل فى غربى ينان الأمير « هيان يانغ ڤانغ » المعروف بالسيد الاجل

وذهبت مادام ڤاسال Madame Vassal فى كتابها على « ينانغو » الى أن أصل مسلمى ينان هو من الملاحة العرب الذين جاءوا الى كنتون فى القرن السابع المسيحى ونهبوا هذه البلدة ثم تفرقوا فى جبال ينَّان . ولكن كورديه يقول : كيف لم يترك هؤلاء آثاراً اسلامية فى طريقهم بين كنتون وينان

قال كورديه : وكيف كان أصل وجود الاسلام فى ينان فالمسلمون لم يزالوا ثمة فى ازدياد بصورة منتظمة ولولا الذين ذهبوا منهم فى الثورة الأخيرة من سنة ١٨٥٦ الى سنة ١٨٧٣ لكان عددهم عظيما جداً . أما عدد الذين ذهبوا منهم فى المذابح التى وقعت فى المدن الكبار مثل « كين تسينغ» و « تشنغ كيانغ » و « سين هينغ » و « كوانغ ى » ولا سيما « تالى » فيظن أنه ثلاثمائة ألف نسمة . وقد قتل فى تالى وحدها ٣٠ ألفاً . وهذا هو تعديل الأب بورياس Pourias الذى كان معاصراً للثورة .

أما عدد مسلمي ينان في الوقت الحاضر فغير معروف بالتمام فبعثة «اولون» D'ollon[1] لاتزيدهم على مائتين وخمسين الفاً . وقال « داڤيس » Davies انهم ثلاثمائة الف . وقال « كاراي» Carey انهم ثلاثمائة وخمسون ألفاً وقال « سوليه » Soulié انهم من ثمانمائة الى تسعمائة ألف . وجعلهم « تيرسان » Thersan من ثلاثة الى أربعة ملايين . قال كورديه : أما أنا فقد سألت المسلمين أنفسهم محلة محلة و بلداً بلداً وقابلتها مع المعلومات التي عندى من المبشرين المسيحيين فوصلت الى عدد يتراوح بين ٣٠٠ الف و ٤٥٠ ألفاً

وأهم المراكز الاسلامية هى « ينانسن » و « شاتيين » و « تشاوتونغ » و « تونغ تشوان » و « سين هينغ » و « تالى » و « يونغ تشانغ » و « بوويل » و « بووهى » و « سماو » و « يون تشيو » . ثم حرر كورديه جدولاً تقريبياً عن عددهم فى كل بلد ثم قال : ولا أضمن مع هذا ان هذا العدد هو الصحيح اذلابد لمن أراد أن يعرف ذلك أن يقيم فى ينان مدة سنتين بالأقل وهو يفحص فى كل ناحية وفى كل كورة

ثم ذكر كورديه انه قد اختلف السياح كثيراً فى هذا الأمر وان « موير » Muir ذهب الى أنه يوجد مسلمون منتشرون الى حدود التبّت . والحال أن مسلمى ينان اكدوا لكورديه انه لايوجد مسلمون وراء « لى كيانغ » وقال « موريسون » Morrison انه يوجد قرى اسلامية متعددة فى الجبال . و يقول ان فى « تشاوتونغ » ثلاثة آلاف عائلة مسلمة وان فيها شارعاً ملآن بالمساجد وكلها نظيفة وان تجارة الجلود فى تلك الناحية كلها بأيدى المسلمين

وقد ذكر موريسون أنه صادف فى أحد الجوامع « مُلاّ » أى شيخاً يقرئ بعض الاحداث فأخذ يحادثه فوجد أنه لايعلم شيئاً عن الخارج . وسأله عما اذا كان جامع قرطبة وجامع القرويين بفاس أجل أو أكبر من جوامع تشاوتنغ ؟

ثم قال كورديه : ان الاسلام انتشر فى وقت واحد فى « كوانغ تونغ » و « ستشوان » و« شانسى » و«شنسى» و«كانسو» و«ينان» ولكن ثورات المسلمين لم تقع الا فى المقاطعات الثلاث الأخيرة . وليس ذلك الالأسباب طبيعية . فولاية « كانسو » هى قطعة مستطيلة بين « الغوبى » و « التبت » يحدها الجبل من جهة والمفازة من أخرى . فالصينيون يهمهم

(١) التى تقدم الكلام عليها فى حواشى الطبعة الأولى

أن تبقى هـذه الولاية بأيديهم لأنها نقطة الاتصال بين الشرق والغرب ومنها يتمكنون من ردع قبائل التركمان عن التجاوز . والمسلمون أيضاً تهمهم هـذه الولاية لأنهم بها يتصلون باخوانهم مسلمي التركستان وفي الوقت نفسه بمسلمي ستشوان و ينّان . و يأملون أن يركبوا سلطنة من هذه الولايات الثلاث . فمن هنا كثرت الثورات فيها

و ينّان نفسها معدودة كأنها قطر منفصل عن الصين تحدها أعالي التبّت وحراج بيرمانيا والتونكين العليا والمسلمون فيها يقدرون أن يكونوا على اتصال بمسلمي الهند

ولكن هذه التعليلات لايقبلها الجميع ومن الناس من يقول ان ثورات مسلمي الصين لم يكن لها منشأ الا الظلم . فالأب داود يقول ان مسلمي شانسي لايفكرون أبداً في انشاء حكومة ولايريدون الاالذب عن حياتهم ومالهم وأن يعيشوا بسلام وأمان وان كانت الثورة امتدت واشتدت فما ذلك الامن عسف العسكرية ونهبهم للأهالي . ثم قال : « وليس مسلمو الصين متعصبين كمسلمي الغرب وجميع اسلامهم الاعتقاد ببعض مبادئ اسلامية والختان والامتناع عن أكل الخنزير . وقليل من شيوخهم حجوا الى مكة واذا قرأوا القرآن لم يفهموه » وذهب جون أندرسون الى أن ثورة ينان كان سببها ظلم ولاة الصين . وهكذا قال « برومهال » Broomhal قال ومن سنة ١٨٣٤ الى سنة ١٨٤٠ نشبت ثورة أساسها قتل حاكم « شوانغ نينغ فو » لألف وستمائة مسلم في « مونغ ميان تينغ »

وذهب « كارنيه » Carnè الى عكس ذلك و وصف مسلمي ينان بالشدة والقسوة والافراط في العصبية ومزيد الجرأة وقال انهم هم البادئون بالشر . وهكذا زعم الاب بورياس الذي كان سنة ١٨٦١ في ينان فأكد ان المسمين هم الذين أشعلوا الحرب وطمحوا الى الاستقلال وان بلاد ينان كانت تقريباً في أيديهم وكانت طاعتهم للحكومة اسمية وكان الصينيون يتقون شرهم فأنت ترى اختلاف الآراء وتناقض الروايات في هذه المسئلة . وقال فرنسيس غارنيه Francis Garnier ان المبشرين الكاثوليك أعطونا عن أسباب الثورة معلومات يعارض بعضها بعضاً بحسب الاماكن التي كانوا فيها

وقال « كولبورن بابر » الانكليزي : ان مسلمي ينان هم من أصل واحد مع البوذيين وغيرهم من الصينيين الاصليين . وقال الكاتب جونستون وغيره من السياح ان التعصب الديني لم يكن السبب في الثورة

ولقد كانت ذكرت بعثة « اولون » أنها لم تحب فى ينان كثرة الاختلاط بالمسلمين والاحفاء فى الاسئلة خشية ايجاد الوساوس عند حكومة الصين التى لا تطمئن اليهم

وقد أدهش كورديه هذا الكلام . وقال انه بعد سفر بعثة اولون بقليل جاء الى ينانغو وخالط المسلمين وذهب الى الجوامع وأخذ صوراً فوتوغرافية وأحفى ما شاء فى أسئلة شيوخ الدين وطلبتهم ولم يثر ذلك أدنى شبهة عند مأمورى حكومة الصين . وربما أثار الشبهة بحق بعثة أولون أن رجالها كانوا كلهم عسكريين . ومرة أراد أحدهم وهو بزى مدنى أن يزور دار السلاح فى ينانغو ووجد من سار به اليها أشبه بمتفرج . وكان مدير دار السلاح أراد أن يطلعه على كل ما فيها الا أن هذا الضابط لم يلبث ان عرف بنفسه وصرح بكونه ضابطاً وان رتبته كذا . فعندها اشتبه مدير دار السلاح بالامر وبعد ان قدموا الى المتفرج الافرنسى الشاى والحلواء بحسب العادة اعتذروا له عن اطلاعه على المعمل بحجة ان العملة كانوا فى العطلة وما أشبه ذلك

ثم قال كورديه — ويظهر انه هو كان هناك مدير مدرسة — انه لم يجد أدنى فرق فى السحناء بين الصينيين المسلمين والصينيين البوذيين وانه كان عنده فى المدرسة ٢٥٠ طالبا منهم ٥٠ كانوا مسلمين ومع شدة تحديقه وتدقيقه لم يجد فى خلقتهم فرقاً . فهو يرى انهم باجمعهم من سلالة واحدة . وأما الاب داود الذى ساح كثيراً فى ينان فيقول انه برغم وجود دم عربى ودم تترى فى مسلمى ينان فالغالب عليهم السحنة الصينية

ثم ذكر كورديه ان مسلمى ينان يدخنون ومنهم من يشرب الأفيون ومنهم من يشرب المسكرات لكن سراً . وهم فى هذا كسائر الصينيين لكن الاجماع عندهم واقع على اجتناب لحم الخنزير

قال : وليس للمسلمين هناك مهن خاصة بهم بل هم أرباب أشغال وحرف مختلفة كغيرهم . وقد كانوا فى القديم يحبون الجندية وكان القواد المسلمون يستكثرون منهم . فلما تحول الجيش إلى النسق الجديد قل عددهم فيه لأنه فى الجيش لا يقدر الجندى المسلم ممارسة شعائر دينه فى الوقت الذى يريد اذ كانت الخدمة المنظمة تقيّده بواجبات أخرى

وقال كورديه : كل من يعرف الجزائر يحار من شدة المشابهة التى يجدها بين هيئة بيوت مسلمى الجزائر وهيئة بيوت مسلمى ينان . فجميعها مساكن تحيط بدار فى الوسط

وأمام المساكن أروقة يمر بها الانسان من محل الى محل بدون أن تصيبه الشمس أو المطر

وليس للجوامع طرز بناء خاص يميزها عن غيرها الا ماندر كما على باب جامع ينانغو الذى فيه شئ من الزينة مع كتابة عربية. وليس للجوامع مآذن كما فى سائر البلدان. قال كورديه: وفى ينانغو ستة جوامع. ويقال ان فى تالى ١٥ جامعاً وان فى شرقى ينان و وسطها ٣٥ جامعاً. ثم قال: ان بين جوامع المسلمين وهياكل البوذيين بوناً عظيما من جهة النظافة فان هيا كل الصينيين ليس فيها شئ من النظافة التى تجدها فى مساجد الاسلام سواء فى ذلك داخل المسجد أو صحنه. ولعل السبب فى هذا ان المساجد هى دائما مشغولة بالمصلين على حين أن الهيا كل لا يأتيها أهلها الا فى الأعياد. قال: واذا دخل الانسان جامعا لم يقدر الا أن يشعر بخشوع اكيد لا سيما إذا قايستها بمعابد الوثنيين بما فيها من أدوات ومواعين وأصنام بشعة المنظر وآلهة سمجة المبسم. وأشد ما يكون الخشوع اذا اجتمعت جماعة المؤمنين للصلاة يدخلون بثيابهم البيضاء فيتركون نعالهم عند الأبواب و يتوضأون وهم يقرأون شيئاً بصوت منخفض ثم يتقدمون رويداً الى الصلاة صفوفا وراء « الاهونغ » (الامام) الذى يؤم بهم

والاهونغ لا يمارس الامامة عندهم الا ثلاث سنوات فقط. ولكن ان شاءت الجماعة تمدد له هذه المدة. وامام الجامع الأكبر فى ينانغو مضى عليه ٢٥ سنة وهو فى هذه الخدمة. ومعاشات الأئمة هى من جماعة المؤمنين لا يستثنى منهم الا الفقراء. وعلى الاهونغ خدمة ثانية وهى تعليم الاحداث العقيدة الدينية واللغة العربية ففى جانب كل جامع مكتب للاولاد. وفى بعض المساجد يوجد مدارس تعلّم فيها الآداب الصينية وغيرها من مواد برامج المدارس الابتدائية.

وليس لهذه المدارس امتحانات رسمية لكن متى رأى الأهونغ تلميذه قد أتمّ دروسه يامره فى أحد الأعياد أن يفسر آية من القرآن أمام جماعة المؤمنين. ومن ثمة يحق لهذا الدارس الذى أتم تحصيله أن يلبس الثوب الأخضر و ينتعل نعال المخمل الاسود و يتعمم بعمامة بيضاء تدور بطربوش ذى قنزعة. وهذه الحوائج يشتريها له جماعة المؤمنين أو الذين انفقوا على تحصيل هذا الطالب الى أن صار منتهيا. ثم ان هذا يعود فيقرئ غيره العقيدة والعربية

وليس للائمة معاش محدد بل معاشاتهم تابعة لدرجة غلة أوقاف المساجد التي يقومون عليها . وقد يخصص للامام مقدار من الارز من غلة اراضى المسجد . ثم ان المؤمنين يؤدون اليهم شيئا عند عقد الأنكحة وفى الجنائز

وتسعة أعشار المسلمين هناك لا يعرفون من العربية الا « سلام عليكم » و « بسم الله » و « الله أكبر » و بعض كلمات . وأما الأئمة فليسوا بعلماء فى العربية

قال كورديه : حدثنى أحد الاهونغات ان ٢٠ فى المائة من المسلمين يقرأون العربى بدون أن يفهموه . وخمسة أو ستة يقرأون العربى ويفهمون بعض الصلوات . وواحد فى المائة يقرأ العربى ويكتبه ويفهمه كما يلزم . لكن ليس فى الالف واحد يقدر أن يتحدث كما يريد باللغة العربية . ويقول كورديه انه لم يلحظ عند الائمة اجتهاداً فى نشر العربية كأنهم يخشون بنشرها المزاحمة على وظائفهم

قال كورديه : وكل مرة كان الاهونغات يتشهدون لى بآية من القرآن كانوا يتلونها باللغة الصينية . ويقال للاستاذ منهم فى علم التوحيد « هوليفو » ثم اذا ارتقى قيل له « اهونغ » وهو من « اخوند » بالفارسية . واذا ذهب الى الحج قيل له «اولتش» والشيوخ الكبار من هؤلاء يقال لهم « سوفو » ويوجد من يقال لهم « أوسوتو » أى الاستاذ . وهؤلاء هم الذين حصلوا العلم فى « تاوتشيو » أو « بين لينغ » من مدن كانسو وهناك مدارس أساتيذها من خريجى الأزهر بمصر . وليس فى ينان الا أستاذان من هذه الدرجة أحدهما درس العربية مدة ١٨ سنة منها ١٠ سنوات فى كانسو . وهو الآن مدرس فى « شاتيين » . وقال كورديه انه يعرفه

ثم قال ان مسلمى الصين هم سنّيون على المذهب الحنفى . و بلاد « هينكيانغ » و « كانسو » و « ينان » أهلها هم أشد المسلمين تمسكا بالسنة

قال كورديه : ولم أرهم يتوضأون بالتدقيق الذى يتوضأ به مسلمو المغرب والجزائر لأن الصينى بفطرته يكره الغسل والاغتسال . وهذه الامة الصينية بأجمعها هى كما قال الدكتور « سڤيفت » Swift الانكليزى أمة قذرة (كذا)

قال : والصدقة والزكاة جاريتان . وجميع الشرقيين بفطرتهم يحبون الصدقات الا أنهم لا تجدهم يجرون أحكام الزكاة الشرعية بحروفها . فالحكم الشرعى هو أن على المسلم أن

يؤدى للزكاة واحداً من ٤٠ من نقوده ورأس بقر من كل ٣٠ رأسا وخروفا من كل ٤٥ من الخراف والخمس من المعادن الخ الا أن مسلمى ينان أفقر من أن يقوموا بكل هذا وان كانت هذه الامور جارية فى سائر بلاد الاسلام . والضيافة أيضا أمر مقدس عند المسلمين وكل غريب أو ابن سبيل يقدم الى محل يقال له ضيف الله و يطعم ولا يسال . وكان محمد ﷺ يوصى بالصدقات الخفية ولكن غلب على المتصدقين حب الظهور

قال : وأقل أركان الاسلام نفوذاً فى الصين الحج نظراً لبعد المسافة الى مكة فلا يستطيع الحج الا الأغنياء المترفون . ومن كل ينّان لا يحج فى السنة الا خمسة أو ستة . ومن كانسو عشرة . ومن « ستشوان » عشرة

نعم ذهب سنة ١٩٢٣ من ينان ١٠ حجاج الى مكة وفى السنة التى بعدها بلغ عددهم ٢٣ حاجاً

ثم ذكر كورديه شيئاً غريباً وهو أنه قد بلغ مسلمى ينّان أن فرنسة أحسنت معاملة اخوانهم مسلمى تركيا أكثر من انكلترة فمالوا الى فرنسة وسنة ١٩٢١ جاء منهم ٢٢ شخصاً فأخذوا تواصى من قنصلية فرنسة ولم يذهب الى قنصلية انكلترة الا واحد فقط

وطريق الحج من ينان الى التونكين حيث يبحرون من « هونغ كونغ » الى سنغافوره الى جدة

ثم ذكر كورديه بعض عادات المسلمين هناك فقال : اذا ولد المولود استدعوا الاهونغ فقرأ له بعض الأدعية وأعطاه اسما عربياً ولأجل أن ينتخب الاسم يفتح كتاب الله و يقلب الصفحات سبعاً بسبع ثم ينتخب الكلمة السابعة من السطر السابع . و بعد ثلاثة أيام من الولادة يكون ما يسمونه بالحمام الثالث . و يومئذ يقدم الأصحاب هدايا من ثياب وعقود للمولود و يعمل أهله خبزاً خاصاً من دقيق وسكر معجوناً بالزيت . وأما سنة الختان فيجرونها اذا كان الولد فى السابعة أو الثامنة . وأما فى الزواج فلا فرق فى الأعراس عن البوذيين غير أنه فى ليلة الزفاف يأتى خمسة من الاهونغات و يجتمعون الى العروسين و يلقون عليهما نصائح و يدعون لهما

وأما الجنازة فعند ما يحتضر الانسان يستدعى الاهونغ ليقرأ له ما تيسّر و بعد الموت يوضع فى نعش هو النعش العام لجميع الموتى من المسلمين . وعند الخروج بالميت يكون

محمولاً على الأكف الرأس الى الامام والأرجل الى الوراء لكنهم فى الطريق يعكسون الأمر ويجعلون الأرجل الى الامام . وعند الدفن يكشف الاهونغ عن وجه الميت ويوضع فى الحفرة والوجه متجه الى مكة . وبعد الموت بثلاثة أيام يوزعون فى بيت الميت خبزاً معجوناً بالزيت

وعلى وجه الاجال لا تجد ـ مسلمى يونان شدة التمسك التى عند مسلمى تركيا أو افريقيه باسلامهم ولا ترى ما تراه فى الجزائر مثلا وهو أنه متى جاء وقت الصلاة أينما وجد المسلم خر ساجداً

وفى يونان طائفتان من المسلمين « كوكياو » و « سين كيايو » واختلافهما انما فى بعض الآراء الدينية لافى الشعائر . والفئة الثانية هى الضعيفة والفئة الاولى هى الجاعة

والحرية الدينية تامة فى الصين وقد أعلنت رسميا فى القانون الأساسى الذى أعلن سنة ١٩١٣ وبعد ذلك نشرت الحكومة وصايا أدبية فى كتب خاصة فيها : «إن الصينيين والمغول والمندشو والتبتيين والمسلمين كلهم أبناء جهوريتنا الصينية بدون تفريق بين أجناس ولا أديان . ولكل أن يعتقد ببوذا أو عيسى أو محمد فليس للدولة ديانة رسمية بل الديانة حرة والحرية هى عبارة عن مجموع الحقوق المدنية لكل إنسان فى شخصه وأمواله وشرفه وعقيدته فكل ذلك يحميه القانون»

وبرغم هذا فقد أحدث الانقلاب الجمهورى فى الصين ثورة فى الافكار والمبادئ نشأ عنها اعتداء على الاديان والعقائد . وأراد بعض دعاة التجدد جعل مذهب كنفوشيوس هو دين الدولة الرسمى وهدموا هياكل للديانة البوذية والديانة الطاويه وأقفلوا هياكل ومنعوا شعائر . ولم يسلم المسلمون من بعض الاذى وحملت بعض الجرائد عليهم . ولكن هذه الثورة عادت فسكنت (١) ورجع البوذيون يبنون هياكل ويقيمون شعائرهم وكذلك المسلمون تمتعوا بتمام حريتهم فى اقامة شعائرهم الدينية ورجع الولاة فى الصين ورجال الدولة يعززون مذهب بوذا

ولقد استفاد المسلمون من هذه الحرية الدينية وصاروا يجاهرون بشعائرهم آكثر من ذى قبل وصاروا ينقشون على أبواب المساجد الآيات بالحروف العربية والاعلانات بأن

(١) هذا شئ شبيه بما جري فى فرنسة يوم الثورة الكبرى سنة ١٧٨٩

هنا مدرسة لحفظ القرآن وهنا جمعية خيرية وهلم جراً

يقول كورديه : لو أن الحكومة الصينية أظهرت من التسامح الدينى منذ مائة سنة ما أظهرته منذ سنة ١٩١٣ لما كان جرى شئ من هذه الثورات التى ثارها المسلمون فى كانسو وتركستان ويناًن

ومما لا شك فيه أن المسلمين تساهلوا فى كثير من شعائرهم فى الماضى مراعاةً للحكومة الصينية ولدين الأكثرية . ومن الجملة اصطلاحهم على عدم بناء المآذن فى جوامعهم . لم يكن لهذا سبب سوى ضعفهم . ولهذا يمكن القول بأن الانقلاب الذى حصل فى الصين قد أفادهم

وفى اوربة كانوا يحبون أن يعرفوا كيف كانت حركة المسلمين بازاء هذا الانقلاب فى الصين ؟ والحقيقة أن هذا الانقلاب لم يدخل فيه غير رجال العسكرية وأن الشعب سواءً كان بوذيًّا أو مسلماً لزم الصمت وكان الناس قابعين فى بيوتهم من الخوف أربعة أيام الثورة ولما استوسق الأمر للجمهورية واستقر الحكم الجديد زين الناس منازلهم وقدموا التهانئ للحاكم . وكان المسلمون من الجملة فقد زينوا البيوت والجوامع واشتركوا بالافراح

ويميل كورديه الى القول بأن سكون مسلمى ينان الزائد ولزومهم العزلة التامة أصلهما الخول الذى كان عكس فعل الثورة التى أبادت خضراءهم منذ خمسين سنة . ومن ذلك الحين صاروا لا يتعرضون لشئ من الأمور العامة . نعم لهم بعض رؤساء من الاهونغات أو من التجار نالوا هذه الرئاسة اما بصفتهم الدينية أو بخدمتهم لجماعتهم أو بلونهم من حجاج البيت الحرام . وقد عرفت من هؤلاء الزعماء رجلاً موسراً اسمه « ماسين كين » عمره ٣٨ سنة ليس لزعامته سبب غير ثروته . أما سرواتهم القدماء الذين كان لهم الحول والطول فى الماضى فلم يبق منهم أحد

ثم ذكر لجمود مسلمى ينان وخمولهم اسباباً أخرى هى قلة اتصال بعضهم ببعض وبسائر مسلمى الصين ثم استيلاء الفقر عليهم مما يعرف من الأرزاق التى يقدمونها للائمة وخدمة المساجد فانها كلها ضئيلة وأكثرها من الحبوب والارز والزيت والنقد نادر . وكثير من المساجد فى حال الخراب وقبر السيد الأجل الشهير هو بحال الخراب أيضا وليس من يرممه

وبالجملة فخمول مسلمى ينّان ناشئ عن خوفهم من السلطة الصينية لقرب عهدهم

بالثورة الكبرى التى جرفت منهم نحواً من ثلاثمائة ألف نسمة

ثم ان نظام الحرية فى الصين أفاد المسلمين من جهة أخرى وهو أنه نشأ عندهم كما نشأ فى تركيا وغيرها من بلاد الاسلام فكرة التأليف بين العلم والدين وبين العقائد القرآنية والمنازع العصرية وان القائمين بهذه الفكرة وان كانوا لا يزالون فئة ضعيفة فانهم ماضون فى عملهم يرون أن بقاء المسلمين على هذا الجمود الذى هم فيه يؤدى الى تلاشى الاسلام

ورأس القائمين بهذا العمل هم المسمى « شا » امام جامع باب الجنوب فى « ينانغو » والمسمى « ما » مدير المجلة الاسلامية المنشورة فى ينان

وهذه المجلة هى لسان هذه الفئة الناطق بالاصلاحات التى يريدونها

و برنامجهم هو ما يلى :

(١) تأليف جمعيات اسمها « جمعيات الترقى » وقد تألف منها فى ينان ستون جمعية لكنها فى غير ينان لا تزال قليلة

(٢) ايجاد علاقات بين هذه الجمعيات كلها لتوحيد المساعى

(٣) نشر جرائد اسلامية بقدر الامكان . وكان فى الصين ثلاث جرائد اسلامية الأولى فى بكين والثانية فى شنغاى والثالثة فى ينان . والاوليان احتجبتا و بقيت الثالثة [١]

(٤) تأسيس مدارس منظمة يقوم عليها مديرون مسلمون

(٥) ايجاد وحدة تامة فى العمل واشتراك فى السعى والوصول الى تأسيس شئ أشبه بجمعية الشبان المسيحيين

ويقول السيد « ما » ان الذى أبقانا بحال التأخر ولم يساعدنا على تبوّء المقام اللائق بنا هو أن المثقفين فى حزبنا قليلون واننا أشبه بمبشرى الكاثوليك لم نقدر أن نستجلب الينا الا الطبقة الدنيا من الشعب . فيجب علينا العمل لبث المعارف بكل جهدنا حتى يتسنى للمسلمين أن يرشحوا لمناصب الحكومة رجالاً أكفاء فانه فى ينان اذا استثنينا الجنرال « ما تسونغ » وثلاثة من معاونى الحكام يبقى جميع المامورين المسلمين شاغلين وظائف صغيرة .

(١) المسموع أن قد صدرت الآن مجلات وجرائد اسلامية جديدة

ثم قال كورديه : ان كلام السيد « ما » هو الصحيح فالملة التى لا تتألّف الا الجهلاء تبقى فى حال الانحطاط . ثم قال كورديه :

ان الاسلام انتشر فى أوربة بالقوة القاهرة بادئ ذى بدء [١] لكنه ما لبث أن نبغ من أبنائه علماء وفلاسفة كانوا هم الوصلة بين العالم اليونانى اللاتينى القديم والعالم المسيحى الجديد وكان لجامعات العرب العامية فى قرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة تأثير عميق فى المدنية الاوربية . ثم قال : أما جيوش جنكيز خان فانتشرت فى ممالك آسية بدون أن تعنى بشىء من الفتوحات العلمية أو الأدبية أو الصناعية

ثم ذكر أن انتشار الاسلام فى الصين كان بواسطة طبقة الجند فانحصر فى أوساط غير راقية وأبى به الجود على منازعه وعوائده القديمة الانتشار فى جميع الأوساط ولا ينكر أنه وجد قواد مسلمون كثيرون فى الجيش الصينى ولكنه لم يوجد ولاة وحكام كثيرون

ونقل كورديه عن مجلة العالم الاسلامى الافرنسية أن الجمود هو الذى أوقف سير الاسلام فى الهند أيضاً وهذا الجمود كان مصدره الآداب الاسلامية (؟)

ثم قال ان تأخر الصين كلها كان منشؤه الآداب الصينية أيضاً لأنه كما قال « ركلوس » Reclus (الجغرافى الافرنسى) أخذ أدباء الصين بقواعد كنفشيوس فلا يقدرون أن يتصوروا وجود أحسن منها ولا أن يعدلوا عن البحر الى السواقى بزعمهم . وما زالوا على هذه الأفكار الى أن بدأت تذهب بالتعليم الجديد

ثم قال ان لجنة « شا » و « ما » هذه وان لم يكن عملها عظيما الى الآن فليس مما يستخف به . وهى ماضية فى توحيد الحركة الاسلامية الصينية . ومذ الثورة الجمهورية الصينية تحمّس مسلمو الصين كما تحمس غيرهم من أبناء وطنهم وأنشأوا لجاناً كل منها مستقلة بذاتها لكنها فى صلة دائمة مع أخواتها . وقد كان رئيس الجمعية الاسلامية فى يناننغو الجنرال « ڤانغ » ثم صار مكانه الجنرال « ماتسونغ » ولهذه الجمعية فروع فى النواحى . وللرئيس اثنان معاونان ثم للجمعية مدير ادارة وهو اميرالاى الآن و بيده ادارة دار السلاح . ولهذا معاون أيضاً وهو اليوم أحد تجار الملح واسمه « ما »

ولهذه الجمعية نفاذ عظيم فى جماعة الاسلام هناك فهى التى تزيد أو تنقص عدد الأئمة

(١) هذا من كورديه وهم وعدم تحقيق

وتؤسس المدارس وتفصل الخصومات الشرعية

وكان السيد « ما » القائم بحركة التجديد قد أصدر مجلة اسمها « مجلة الجوامع » وتوقفت مرتين بسبب قلة المشتركين وهى الآن تظهر للمرة الثالثة (سنة ١٩٢١)

ثم قال ان لهذه المجلة ملحقاً اسمه « السراج المتلألئ » وذكر أن الجريدة تقبل جميع ما يكتب اليها العلماء والمفكرون والفقهاء ولا تؤدى اليهم بمقابلة مقالاتهم شيئاً سوى أن الجريدة ترسل اليهم مجاناً وان الجريدة تنشر رسوماً وتصاوير وتكافئ من ينقشها وانه ان أعان الجريدة أحد بشىء تكتب اسمه وتشكره على مبرته وان كان مبلغ الاعانة طائلاً تنشر صورته

ثم نقل كورديه بعض أنموذجات من منشورات هذه المجلة . مثلاً : أن نفوذ الوعظ فى الجمهور هو على نسبة تبحر الواعظ فى المعارف فعلى المسلمين أن يتعلموا

واليك مثالاً آخر : ان المعارف فى أوربة ما نمت وترقت الا بعد ظهور البروتستانتية . ولو لا الاسلام كانت أوربة قبلاً فى جهل وكانوا يقصدون بلاد العرب للتعلم

واليك مثالاً آخر : بينما المسلمون فى الغرب مظلومون مقهورون نحن معاشر الاسلام فى الصين أحرار نتمتع بالحقوق التى يتمتع بها سائر أبناء وطننا . فلنعكف على التعلم والتهذب وبذلك نكون جاهدنا لأجل عظمة الصين

واليك مثالاً آخر : اذا كنا لا نتعلم الا العربية أصبحنا كالصم البكم فى بلادنا . وان كنا لا نتعلم غير الصينى لم يتيسر لنا أن نتفاهم مع الخارج . فيجب علينا اذاً تعلُّم اللغتين . ان مدرسينا لا يعرفون الصينى كما يجب فلذلك ان خسروا وظائفهم صعب عليهم تحصيل معيشتهم

وفى أحد الأعداد يدعو الى ارسال مرشدين لوعظ النساء ولارشاد الأحداث الذين يجهلون القراءة

وفى عدد آخر يعلن أن الجريدة فقيرة تعيش من الاعانات وان من النفقات ما لا بد منه فيجب على المشتركين أن يؤدوا ما عليهم

وفى عدد آخر يقول : تفتأون تذكرون « توفنسيو » زعيم الثورة اليننانية (١)

(١) من سنة ١٨٥٦ الى سنة ١٨٧٣

وتنسون أنه ما قام الا ليخلع سلطنة المانشو وأنه كان فى جميع أحواله يحذو حذو الملوك القدماء الخ

وفى أحد الآعداد يتساءل : هل يلزم تعليم البنات ؟ فيجيب بالايجاب قائلاً ان قوة الأمم الاوربية ناشئة عن كون الجميع متعلمين نساءً ورجالاً

وفى أحد الأعداد يقول انه ليس للاديان أن تعنى بالمظاهر الجذّابة بل يجب أن تعنى بتعليم الحقائق .

قال : ولهذا فأقوى الأديان البوذية والبروتستانتية والاسلامية

قال كورديه : وان لجنة ادارة المجلة كانت مؤلفة من الجمعية الاسلامية ومن مجالس الأوقاف ومن جمعية طلبة المسلمين القدماء ومن جماعة المدرسة العربية فى عاصمة ينان ومن أئمة المساجد ومن ذوى الحمية

لقد أحببنا أن نلخص هذا الكتاب الذى ألفه المسيو كورديه فى التعريف بمسلمى ينان لأنه أشبه بصورة مصغرة عن مسلمى الصين بأجمعهم ولأن ينان ولاية من ولايات الصين والبلاد هناك متشابهة والمسلمون بخاصة يشبه بعضهم بعضاً أكثر من جميع الأمم ولو تباينت أصولهم . ثم اننا نقلنا أماثيل من كتابات جريدة المسلمين فى «ينان» لأن الجرائد من أدلّ الأمور على عقليات الشعوب وطرز تفكيرها وعلى اختلاجاتها الروحية

ورأينا فيما أثرناه عن هذا الكتاب مافيه كفاية عن تلك البلاد بالنسبة الى مايلزم القرّاء معرفته عنها . وبقى من هذا الكتاب القسم المتعلق بثورة ينان العظيمة الشهيرة فهذه قد اكتفينا منها بالخلاصة التى أسلفناها(١) وبالاختصار كان المسلمون قد غلبوا على ولاية ينان واستبدوا بأمرها وأصبح زعيم الثوار سلطاناً بالفعل واستمر استقلالهم ثلاث عشرة سنة الى أن تمكن الصينيون من ضرب بعضهم ببعض وايقاد الفتنة فيما بينهم فتنازعوا وفشلوا وذهبت ريحهم كما حصل فى كثير من مواطنهم وانتهى الأمر بمجزرة قلّما سمع التاريخ بمثلها . والى اليوم لم يقم مسلمو ينان من هذه المجزرة التى أبادت منهم مئات ألوف

ولقد ختم كورديه كتابه هذا بلمحة دالة على الاسلام فى الصين بازاء البانيسلاميسم أى الجامعة الاسلامية ولم يقتصر فيها على مسلمى الصين فحسب بل تناول مسلمى الهند ومسلمى

(١) راجع صفحة ٢٢٧ من هذا الجزء

الجاوى وتوابعها ومسلمى الفيلبين. ونحن ملخصون رأيه فى حالة الاسلام بهذه الأقطار الأربعة

رأى كورديه فى حالة الاسلام
فى الصين والهند وجاوى والفيلبين

قال: ان حركة ابن عبدالوهاب فى قلب الجزيرة العربية خيلت لأوربة ان هناك نهضة عربية واسعة النطاق لاستئناف عظمة السلطنة العربية الا أن جيوش محمد على قضت عليها

ثم قال: ان كثيرين من المؤرخين الأوربيين وفى مقدمتهم « لوتروب ستودارد » يذهبون الى أن « العالم الاسلامى فى مخاض شديد وان المائتين والخمسين مليون مسلم المنتشرين من مراكش الى الصين ومن تركستان الى الكونغو يختلجون تحت تأثير أفكار جديدة وانهم سيدخلون فى طور جديد قد يحدث انقلاباً فى العالم كله » يقول كورديه: ان فرنسة لاينبغى لها أن تراقب حركات مسلمى الجزائر وتونس ومراكش فقط بل حركات مسلمى آسية أيضا. نعم ان المسلمين الذين فى مستعمر. فرنسة فى الهند الصينية هم عدد قليل الا أن مركز هذه المستعمرة الكبيرة هو واقع بين الصين والهند وماليزيا والفيليبين والاسلام فى جميع هذه الأقطار راسخ القدم كما لايخفى فيجب على فرنسة أن تراقب سير الأفكار الاسلامية فى آسية لتعرف مابينها من اتصال لأن أكثر الثورات انما تنشأ عن اتجاهات فكرية جديدة

ثم ذكر كورديه حركة الاسلام فى الهند وقال: ان المسلمين فى الهند كانوا وقفوا بازاء الهندو الذين يتطلبون الاستقلال التام وينادون « بانديمتاران » أى سلام على الوطن الأم. وذلك لأن معنى هذه الجملة عند الهندو هو اخراج كل غريب من الهند والاسلام من الجملة. ولذلك كان المسلمون فى البداية عضداً للانكليز. فلما حصلت الحرب الكبرى وانتهت بتقسيم الانكليز لتركيا ورأى المسلمون ان انكلترة أرادت القضاء على الخلافة وابادة تركيا غضبوا وانضموا الى الهندو. وهى أول مرة اتحد فيها هذان الفريقان بسوء سياسة انكلترة

فأما فى بلاد اندونسيا أى المستعمرات الهولاندية جاوى وسومطرة وتوابعهما فبعدأن ذكر كورديه تاريخ دخول الاسلام فيها وصل الى الحالة الحاضرة التى عليها مسلمو هذه الجزائر فقال: ان اسلامهم ليس بشديد الصبغة وان العالم الاسلامى لم يزدد بهم الا زيادة عدد

فقط . وان ادارة هولاندة هى من التسامح بحيث لاتجعل لاتتقاضهم سبيلا . قصارى الأمر ان مسلمى اندونسيا ينشدون العلم والتعلم ويجتهدون بواسطة العلم أن يحصلوا على حق ادارة أنفسهم بأنفسهم . ولم يخلُ الأمر من وقوع ثورات هناك كما جرى فى بلاد «اتشين» وهذا فيها قديم يقال ان أصله من أغلاط الهولانديين وأخذهم البرئ بذنب المجرم وارتكابهم فى تلك البلاد الظلم وسفك الدماء

ثم ذكر اسلام الفيلبين فقال : ان ظهور الاسلام فى تلك الجزائر التى يقال لها «مينداناو» وفى أرخبيل سولو كان فى وقت ظهور الاسلام فى بورنيو . يقال ان تجار العرب نشروا الاسلام هناك فقيل لهم « المورو » كما كان يقال لمسلمى الأندلس . وعم من بعدها مسلمى الفيلبيين . وقد بدأ وجود الاسلام فى هذه الأماكن من قبل سنة ١٥٠٠ وكان سلطان بورنيو تزوج بابنة سلطان ميندانا و فأسس سلطنة سولو التى استفحل أمرها . ولما كان بين الاسبانيول وبين المورو عداوة من عهد الأندلس فقد غلظوا على المسلمين وأحرجوهم فبدأت الثورة فى « لوسون » من سنة ١٥٧٦ وصارت الحرب متصلة بين الفريقين فمن جهة المسيحيين الحرب الصليبية ومن جهة المسلمين الجهاد فى سبيل الله

وكان سلطان سولو أشد أمراء المورو مقاومة فاعترف الاسبانيول باستقلاله سنة ١٨٣٦ لكنهم عادوا فقاتلوه سنة ١٨٤٤ و ١٨٥٠ ثم تصالحوا سنة ١٨٦٠ ولم يكن لهم فى سلطنة سولو الى حد سنة ١٨٧٦ الاسيادة اسمية

أما اميريكيو الولايات المتحدة فلما انتزعوا الفيلبين من أيدى الاسبانيول استخفّوا بأمر سلاطين المورو فعرفوا عاقبة خطئهم لأن هؤلاء كانوا لايتناهون عن العيث والقتل والفساد فى الأرض حتى ملّت الحكومة الاميريكية منهم . وكان الامريكيون يرجون بواسطة التعليم وفتح المدارس أن يصلوا الى السلام ولكنهم أسرعوا فى التفاؤل وكانوا وعدوا الفيليبين بالاستقلال الداخلى لكنهم استعجلوا فى الوعد[1]

قال كورديه : ان جميع هذه الثورات لم تنشأ عن بانيسلاميسم ولاعن ارتباط عام بين المسلمين ولاعن مجرد بغض وشنآن للأجانب . بل هذه ثورات منشؤها نهوض الأهالى بطلب حقوقهم من الأمم التى تسلطت عليهم . ولايوجد مسلم واحد لاعالم ولاجاهل يحلم بجمع

(١) قلنا انه فى أواخر هذه السنة المنصرمة سنة ١٩٣٢ قرر مجلس النواب الأمريكى استقلال الفيلبين

بلاد الاسلام تحت سلطة أمير واحد واستئناف دولة الخلفاء . نعم لما كان أكثر المسلمين وقع تحت عبودية الأجانب فتجدهم يحنون بعضهم الى بعض بسبب اتحاد العقيدة والتشابه فى المصيبة الأجنبية الواقعة عليهم . ولانرى أدنى عجب فى هذا الأمر

ثم عاد كورديه الى ذكر منشأ الاسلام فقال : انه لم توجد ديانة من الديانات الكبرى لا الزرداشتية ولا البوذية ولا النصرانية انتشرت بسرعة انتشار ملة محمد . فانها بدون عضد امتدت فى ثلاثة قرون من البيرانه الى حملايا ومن قلب آسية الى قلب افريقية . ولم تكن أسباب سرعة هذا الانتشار سوى ضعف مملكتى بيزنطية وفارس وحماسة العرب الفائقة وفروسيتهم الباهرة وسذاجة العقيدة التى نشروها . ثم باختلاط الغالبين بالمغلوبين تولدت هذه الحضارة الاسلامية التى لمعت لمعاناً شديداً بينما كان الغرب هائماً فى الظلمات (١)

الا أن لمعان الاسلام لم يكن طويل الأمد . بل بدأ بالانحطاط من القرن العاشر (المسيحى) الى أن قال : انه من سنة ١٠٧١ تغلب الترك على القدس وانتهت دولة العرب ومع أن الترك كانوا محاربين أشداء فلم يكونوا أهل ملكة عمرانية . وفى سنة ١٢١٣ سقطت خلافة قرطبة بتغلب النصارى . ثم فى سنة ١٢٥٨ سقطت بغداد فى أيدى المغول فاضمحلت القوة الاسلامية . ثم استأنف الترك السلطنة وأخذوا بيزنطية و بلاد البلقان والمجر وشمالى افريقية والشرق الأدنى فصار لهم من فارس الى مراكش . الا انهم من بعد فشلهم أمام اسوار ڤينا (سنة ١٦٨٣) تراجعوا القهقرى

وكان جاء عصر التجدد فى أوربة « رنيسانس » واهتدى الأوربيون الى كشف أمريكا فاتسعت موارد ثروتهم وامتد ظل سلطانهم . ومن ثمة لم يكتفوا بدفع المسلمين عن بلدانهم بل تجاوزوا عليهم وأخذوا يفتحون بلاد الاسلام قطراً قطراً فانفصلت بلاد اليونان ثم رومانيا ثم بلغاريا عن تركيا . واستولت انكلترة على مصر والهند . واستولت الروسية على القوقاس وآسية الوسطى . و بسطت فرنسا يدها على شمالى افريقية . وهلم جرا وعند نهاية الحرب العامة لم يكن بقى مستقلاً من ممالك الاسلام غير تركيا . وهذه أيضا كانت معاهدة ڤرساى أخنت على استقلالها

لكن ان كانت قوة الاسلام العسكرية والسياسية قد سقطت فان قوته الأدبية لم

(١) قال هذا كورديه بالحرف

تسقط ومن القرن السابع عشر الى الآن نراها على ازدياد

ثم مثّل كورديه نمو قوة الاسلام المعنوية بالوهابية ثم بالسنوسية التى هى أقوى الفرق الاسلامية بعد الوهابية . وذكر ان امامها الحالى هو السيد أحمد الشريف ابن شقيق سيدى المهدى

وعاد فختم كلامه بذكر اسلام الصين قائلا ان ثورات شانسى ويتان هى كما قال غارنيه والأب داود واندرسون وغيرهم لم تحصل عن تعصب دينى بل عن حسّ المحافظة على النفس . وكذلك ثورات كانسو سنة ١٨٦٤ و ١٨٩٥ كانت للأسباب نفسها وانتهت صلحا . و بقيت مقاطعة ستشوان التى هى بين شانسى وكانسو ساكتة ساكنة مع اشتعال أربع ثورات من عن جوانبها

قال : ولقد كثر تكهن العلماء والمؤرخين على مستقبل اسلام الصين وكل منهم أدلى بدلوه وقال « ڤاسيليف » سنة ١٨٦٧ : اذا انتشر الاسلام فى الصين كما انتشر مذهب بوذا ينقلب وجه العالم

وقال « دوترسان » صاحب كتاب « المحمدية فى الصين » انه ان تقسّمت الصين وفقدت وحدتها السياسية استفاد المسلمون فى المقاطعات التى أكثرها منهم واستقلوا . وتكون مدة استقلالهم بحسب حسن ادارتهم ومشيئة الله . وان ترقّت الصين فى العلوم والمعارف وصارت دولة من أعظم دول الكرة الأرضية كان لا مناص لها من أن تترك أضاليلها وعقائدها الوثنية وأن تأخذ بديانة تعبد بها الواحد الأحد ولن تجد لها حينئذٍ أقرب من الاسلام الذى يدين به عشرون مليوناً من أبنائها . ولكن لتكن أوربة من حادث كهذا على ثقة انه لن يحدث انقلاباً لأن اسلام الصين سيكون مصطبغاً بصبغة مسيحية (؟) لا يهمه الا السلام ونشر المدنية الحق (؟) . وقد انتقد كورديه هذا الكلام وقال : هذا حلم من الأحلام . فمن يقول ان اسلام الصين سيصطبغ بصبغة مسيحية ؟

وممن تخوفوا من مصير الصين الى الاسلام الكاتب الانكليزى آرنولد

قال كورديه . وقد مضى خمسون سنة على هذه الآراء ولم يتقدم الاسلام فى الصين شبراً وذلك لأن الأمة الصينية ليست بأمة ذات اشتغال بالعقائد وانما هى أمة مادية لا يهمها الا الحياة الدنيا

وقال « اولون » ان الثورات كثيرة فى الصين والانقلابات مستمرة فان وصلت النوبة الى قائد مسلم وتمكن من الاستواء على العرش لا يبعد أن يتحول قسم كبير من أهل الصين الى الاسلام

وهذا أيضاً خطأ بحسب رأى كورديه لأن الجنرال « ماتسونغ » فى يَنّان هو مسلم وهو القائد الأول فيها وما أسلم على يده واحد. وكذلك الجنرال « ما » المشهور

والنهاية بحسب رأى كورديه ان مسلمى الصين يقبلون على تيار التجدد نظير أبناء وطنهم الصينيين وان جميعهم مع ذلك يغلب عليهم السكون بمقتضى فطرتهم. انتهى

* * *

تعليقات على مبحث مسلمى الصين

مقالات وأَحاديث للصينيين أنفسهم

أحببنا لأجل زيادة شفاء الغليل من مبحث اسلام الصين أن ننشر خمس مقالات احداها ظهرت فى جريدة الأهرام تاريخ ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣١ والثانية ظهرت فى الأهرام أيضا سنة ١٩٢٣ والثالثة والرابعة فى جريدة الفتح تاريخ غرة رمضان و ٦ ذى القعدة سنة ١٣٥١ والخامسة فى الجامعة العربية بتاريخ ٢٤ شوال سنة ١٣٥١

فالأولى تتضمن حديثاً لرئيس البعثة الصينية فى الجامعة الأزهرية والثانية تتضمن حديثا لعالم صينى نزيل تكية الكلشنى بمصر والثالثة هى محررة بقلم السيد محمد مكين الصينى من المجاورين بالأزهر

حديث لرئيس البعثة الصينية الازهرية

الاسلام والمسلمون فى الصين

قصدت فى صبيحة أمس الى الدار التى اعدتها وزارة الاوقاف ليسكن فيها اعضاء البعثة الصينية التى أوفدتها حكومة الصين لدراسة العلوم الدينية والمدنية فى الجامعة الازهرية وسألت عن أعضائها وعن رئيسهم فأخبرت بان ادارة المعاهد الدينية قد أعدت هذا اليوم لاختبارهم فى اللغة العربية وفى القرآن الكريم وفى الخط العربى والاملاء والانشاء، فذهبت الى مقر لجنة الامتحان فى الجامع الازهر وظللت أنتظر حتى انتهوا، ثم تقدمت الى مدير البعثة وطلبت منه أن يحدثنى عن الحالة الاجتماعية فى الصين وعن الاسلام والمسلمين فى تلك الديار النائية القاصيه فابتسم وقال لك عندى كل شئ وانى على استعداد لان أتحدث معك فى كل شئ إلا السياسة فانى لا أعرفها ولا أكاف نفسى عناء الغوص فى اسرارها و بواطنها واكناهها، فقلت له وهل محظور عليك ان تتكلم فى السياسة. وهل السياسةعندكم شئ ثانوى أو كمالى لا يعنى بها لا بمقدار، وهل بلغت الصين فى السياسة شأوا بعيدا ونالت كل ما تصبو اليه الامم من الحضارة والمدنية فأضحت لا تنظر الى السياسة الا كما تكون اللحية عند الرجل الدينى المتعمق فى معانى الايمان ؟؟ فنظر الى رئيس البعثة نظرة ذات طابع صينى وقطع على حديثى وقال : انى يا سيدى رجل دينى فقط : وأرأس بعثة دينية فقط، وهناك فوارق متعددة بين الدين والسياسة، ولقد درسنا الدين فى بلادنا الى درجة محدودة وجئنا نطلب المزيد هنا، وما اتصلت ولا اتصل أحد من أعضاء البعثة بالسياسة ولا جالسنا أحد الرجال السياسيين لاننا نرعى فى مزرعة وهم يرعون فى مزرعة أخرى. وما أبعد الفارق بين المزرعتين. وسكت. فقلت وهل لنا أن نتحدث عن الناحية الاجتماعية والدينية فى الصين، فقال لك هذا، وجلس، وجلس حوالينا أعضاء البعثة وجرى بيننا هذا الحديث :

قلنا — ما هو عدد المسلمين فى الصين وما هو عدد غيرهم من الطوائف الاخرى ؟

وهل هناك تنافس دينى بين المسلمين وغيرهم من تلك الطوائف ، ولاى سبب يرجع ذلك التنافس ، اذا كان موجودا ؟

قال — أما عدد المسلمين فى الصين فخمسون مليونا ، وعدد السكان أربعمائة مليون ، والمذاهب الدينية فى الصين متعددة كالكونفوشيسية فالبوذية فالمسيحية ومع ذلك فان أكثر أهل الصين لا دين لهم ، وهم يعبدون أشياء متعددة ، كالجبال والنور والنار ، و بعضهم يعبد الماشية والدواب ، وهناك مذهب دينى قليل الانتشار يسمى « التوصينية » نسبة الى رجل يقال له « لوتزا » وأصحابه هم المتصوفة المتقشفون الزاهدون الذين لا يتزوجون طوال أيام حياتهم ، ولا ينظرون الى المرأة ولا يتصلون بها أى اتصال وانى أقرر لك ان بين المسلمين و بين أفراد الطوائف الاخرى تنافسا دينيا بعيد المدى شديد الاثر ، وذلك لان الطوائف غير المسلمين تمقتنا وترمينا فى اعتقادنا الدينى ، وهم متعصبون ضدنا كثيرا ويرجع السبب فى أغلب المعارك الدموية الداخلية الى ذلك التعصب الدينى ولكن الاديان فى الصين أمام القانون سواء وحرية المعتقدات مكفولة والحكومة لا تناصر طائفة على طائفة ولا تؤازر مذهبا دون مذهب فهى لا دينية ولا تتبع خطط دين معين

قلنا — وهل يوجد بين الموظفين فى الحكومة أفراد مسلمون ؟ وما هو عددهم ؟ ؟

قال — نعم يوجد بين الموظفين فى الحكومة أفراد مسلمون . منهم خمسة قواد فى الجيش ومحافظ لاحدى عواصم المقاطعات ، و بعضهم يشغل وظائف فى المجالس البلدية والمحلية و بعضهم فى وظائف التدريس ، وهناك مسلمون كثيرون فى الجيش كجنود لانهم مشهورون بالشجاعة والاقدام . واما فى الوظائف الملكية المدنية فعددهم قليل جداً .

قلنا — أليس هناك قانون عام للتجنيد ، وكيف تكون أكثرية الجنود من المسلمين مع أن القانون عام ينفذ على الجميع ؟ ؟

قال — المسألة نسبية . والقانون حقيقة عام ولكن عدد المسلمين فى بعض المقاطعات الصينية أكثر من عدد أية طائفة من الطوائف الأخرى لانى اذا قلت لك ان عدد المسلمين فى الصين خمسون مليونا لوجب أن يكون عدد كل طائفة من بقية الطوائف الاخرى أقل من ذلك بكثير وفى الصين أكثر من خمسين دينا ومذهبا

قلنا — هل لك ان تحدثنى عن نظام الزواج والطلاق عندكم ؟ ؟

قال — ان جميع المسلمين يتزوجون ويطلقون وفق ما جاء به القرآن الكريم والزواج عندنا لا يتم الا بعد موافقة الزوج والزوجة ورضائهما عن بعضهما رضاء تاماً موثوقاً به . ووثيقة الزواج واشهاد الطلاق عندنا تسجل أمام المجالس البلدية والمحلية . ومن يتزوج أو يطلق من غير أن يثبت زواجه أو طلاقه أمام تلك المجالس يعاقب بالسجن

قلنا — يؤخذ من هذا أن ليس هناك محاكم شرعية لكى تفصل فى المنازعات الزوجية التى تحدث بين الزوجين المسلمين بمقتضى أحكام الشريعة الاسلامية ؟ ؟

قال — لا ، لا ، ليس عندنا محاكم شرعية لمثل هذا النوع من القضايا ، بل ان المنازعات الزوجية عندنا وما اليها من المشاكل الشخصية تدخل ضمن المسائل المدنية . ويفصل فيها مجلس قضائى مؤلف من أعضاء متعامين ومنتخبين انتخابا حرا عن طريق التصويت المباشر وهو يصدر احكامه فى المسائل المدنية التى تدخل ضمنها مسائل الزواج ، والحكومة ملزمة بتنفيذ أحكامه

قلنا — أليس للمسلمين فى الصين رياسة دينية ؟ ؟

قال — نعم ليس للمسلمين عندنا رياسة دينية وليس لنا رئيس دينى ، وليس هناك من يشرف على التقاليد والأصول الاسلامية غير الجمعيات الأهلية المحلية وانى لأذكر لك هنا أن لمسلمى كل مقاطعة نوعاً من التقاليد مصطلحاً عليه ، ومقاطعة يونان فو ، هى أشد المقاطعات حرصاً على الاسلام ، وغيرة على آدابه وتقاليده

قلنا — هل المسلمون فى الصين مثقفون تثقيفا علمياً عصرياً يسمح لهم بان يزاولوا أو يتقلدوا الوظائف المدنية الراقية ، وما هى نسبة المتعلمين منهم ؟ ؟ وهل أحوالهم المالية تسر على وجه العموم ؟ ؟

قال — إنى آسف لان اقرر هنا ان عدد المسلمين المتعلمين تعلما عصريا قليلون جدا ، والاغلبية منهم أمية ، واما نسبة المتعلمين فهى اثنان فى المائة أو أقل من ذلك فى بعض المقاطعات ، والمسلمون فى الصين فقراء كثيرا وحالتهم المالية لا تسر على وجه العموم

قلنا — هل الذى يرتكب جريمة هتك العرض مثلا ، يعاقب عقابا دينيا ام مدنيا ؟ ؟

قال — ان الذى يرتكب أية جريمة جنائية يحاكم أمام المحاكم الجنائية التى لها قانون مدنى أهلى

قلنا — وهل المسلمون متمسكون بدينهم ، وهل هناك مساجد للصلاة

قال — أعود فاكرر الاسف إذ أقول ان مسلمى الصين لا يفهمون الاسلام على الوجه الصحيح ، وذلك يرجع الى جهلهم وعدم تعليمهم ، وعندنا مساجد كثيرة بنى بعضها منذ دخل الاسلام فى الصين ، وأول من بنى مسجدا هو الملك « طان » الذى أسس مسجد كوانتونج ، ومع أن المساجد كثيرة إلا انها خربة لا يؤمها إلا القليلون

قلنا — ما هو مركز مصر الدينى عند مسلمى الصين ، وما هو مقام الازهر عندهم ؟ ؟

قال — ان مركز مصر الدينى عندنا هو مركز كبير لا يسمو عليه أى مركز فى الوجود ، واننا نحب مصر من قلو بنا ونعدها قبة الاسلام ، وبخاصة لانها بلد الجامع الازهر الذى نعتقد فيه أنه منبع الاسلام الصحيح

قلنا — وهل المرأة الصينية متحجبة أم سافرة ، وهل لها حقوق مدنية مقررة فى دستور البلاد ؟

قال — ان المرأة الصينية سافرة وحالتها الآن أحسن بكثير من ذى قبل وهى تتمتع بالحقوق المدنية التى يتمتع بها الرجل . اذ ان لها حق الانتخاب والتوظيف فى القضاء والادارة وفى المجالس البلدية والمحلية

***

وانتهى الحديث بنا الى هذا القدر وشعرت انه متعب فاستأذنت فى الانصراف وشكرته وودعنى بما يبدو عليه من الحياء والتواضع

أحمد عبد الحليم العسكرى

حديث عالم مسلم صينى

نزيل تكية الكلشنى فى مصر

فى صباح الخميس أول يوم من عيد الفطر المبارك قصدنا نحن الثلاثة زيارة هذا العالم الذى قرأنا بعض أخباره وآثاره فى الجرائد والمجلات المصرية . فلما بلغنا شارع تحت الربع صعدنا الى باب التكية واستقبلنا مقام الكلشنى و به وجهة مصنوعة من الفسيفساء الجميلة الألوان المتقنة الصنع ثم اتجهنا ذات اليمين وصعدنا درجاً فسيحاً و بالدور الأعلى وجدنا غرفة عليها منظر البساطة والزهد و بها سريران وصندوق مملوء بالكتب والأوراق وفى وسطها رجل فى نحو الستين من عمره قصير القامة نحيف البنية أصفر الوجه عالى الجبين بارز الفك الأعلى لا نبات بعارضيه و يكاد يكون شعر شار به عذارا و بجواره فتى فى نحو العشرين من عمره لحييناهما باللغة العربية فرد العالم تحيتنا بعربية فصحى وأظهر سروراً عظيما بزيارتنا فى هذا اليوم المبارك ثم أجلسنا وقدم لنا الشاى الصينى الحقيقى فى آنية صينية ثم قدمنا اليه أسمائنا ودار بيننا الحديث الآتى . قال العالم : —

« اسمى « واى ون كين » وترجمته بالعربية سعيد إلياس وصناعتى عالم اسلامى وامام بلدى تنسين ومحرر جريدة تنسين وقد سافرت من بلدى منذ عام وغايتى من هذه السياحة الاطلاع على أحوال الأقطار الاسلامية والاستنارة بالأفكار الجديدة الموجودة فى الشرق الأوسط والشرق الأدنى فزرت بلاد الهند وها أنا فى مصر وسأزور سوريا والأناضول والاستانة ثم أعود الى وطنى »

قلنا — كم عدد المسلمين فى بلادكم وما هى حالة تعليمهم وشئوونهم الاجتماعية

أجاب — يبلغ عدد المسلمين فى الصين نحو سبعين مليوناً وكلهم يقومون بواجباتهم الدينية وفى بلدى نحو أربعين مسجداً ومعظمهم يقرأون الكتب العربية بنطق صينى ما عدا العلماء الذين يتعلمون العربية منذ الصغر . ويؤدون الصلاة باللغة العربية . وتعدد الزوجات وان يكن مباحاً بالشرع فى الدين الاسلامى الا أنه مفقود من عاداتنا فلكل رجل امرأة واحدة بحكم عاداتنا والطلاق نادر جداً ويكاد يكون معدوماً . وقد درست فى صغرى

و شبانى الفقه والحديث والسنة وعلوم الـكلام والتصوف والتوحيد وآداب اللغة العربية

سألناه — هل يوجد لبوذا وكونفوشيوس أتباع كثيرون فى الصين

أجاب — ان بوذا متبع فى بلاد الهند فقط وذكره عندنا قليل أما كونفوشيوس فله أتباع كثيرون فى الصين ويطلق عليهم اسم « أصحاب كونفوشيوس » ولم يكن هذا الزعيم المصلح نبياً مرسلا ولم يقل بذلك هو نفسه أو أحد من أصحابه بل كان حكيما وكل تعاليمه خاصة بشؤون هذه الدنيا وتدبير الأمور المادية والسياسية والادارية وأصحابه ليسوا مقيدين بعبادة إله معين فهم يعبدون ما يشاءون كأجدادهم فيعبدون الأشجار والانهار وبالجملة فانهم مشركون .

سألناه — وما حالة الصين منذ دخول الحكم الجمهورى فى البلاد ؟

أجاب — ان الشرق عامة محتاج الى حكم قوى يكون مصدره العدل والحكمة وحب الخير ولكن الحكام الذين من هذا القبيل لا وجود لهم فى هذا الزمان وأفضل مثال لهم الخلفاء الراشدون فى صدر الاسلام ونحن المسلمين فى الصين نعتقد فى أن الاسلام دين شورى وديموقراطية وقد جاء فيه « وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ »

سألناه — هل حصل تقدم فى البلاد فى الأعوام الاخيرة ؟

أجاب — نعم فقد أبطلت عادات كثيرة من العادات الرديئة مثل تقييد أقدام الفتيات ومنعها من النمو ظناً بأن هذا أثر من آثار الجمال وأصبح هذا الفعل معاقباً عليه وبدأت بلاد الصين تشعر بوجودها القومى وتسترد المقاطعات التى كانت اغتصبتها منها بعض الدول الاجنبية وهى سائرة ببطء لانها أمة عظيمة وملكها مترامى الأطراف .

سألناه — وما هو شعوركم نحو الدول الاجنبية

أجاب — ان اليابان وان كانت من جنسنا الا أنها دولة قوية وميالة لالتهامنا فهى كلما وجدت فرصة للانقضاض علينا فلا تتأخر وهذا دليل على أن اتحاد الجنس والدين لا يقف فى سبيل المصلحة السياسية فنحن نبغضها . أما الدولة المحبوبة لدينا فعلا فهى الولايات المتحدة وهى التى ننسج على منوالها كل شئ وهى تظهر لنا المحبة وكل معاملتها معنا كانت بالاقوال والكتابات لا بالافعال الهمجية كغيرها مثل الحرب أو الاستيلاء على بلادنا

سألناه — ما رأيك فى علماء مصر ممن زرتهم وزاروك

قال — لم يزرنى أحد منهم ولا أعرف الا اسماعيل بك رأفت والشيخ طنطاوى جوهرى. وقد عرفت كثيراً من العلماء بالكتب مثل الشيخ محمد عبده وأظنه كان من أعظم رجال العالم قاطبة ولا ينتظر أن يجود الزمان بمثله فى الوقت الحاضر فقد كان عالما دينياً وسياسياً واجتماعياً وليس فى مصر من يخلفه. واسم مصطفى كامل باشا معروف جداً لدينا فى الصين لأنه أسس الحركة الوطنية فى مصر كذلك اسم مصطفى كمال غير أننى غير مشتغل بالسياسة ولا يهمنى أمرها الا من حيث تهم ترقية شؤون قومى وقد ترجمت كتباً كثيرة من اللغة العربية الى اللغة الصينية مثل تاريخ مصر القديم أما التاريخ الحديث فليس معلوماً لدينا ولم تصلنا كتب عنه ونحب أن تكون علاقة مصر بمسلمى الصين قوية

سألناه — هل تستطيعون وتودون أن تلقوا محاضرة باللغة العربية عن حالة المسلمين بالصين من الوجهة الدينية والاجتماعية فى جمهور من المتعلمين المصريين

أجاب — أستطيع ذلك على شرط أن أؤلفها بالكتابة أولا ثم أقرأها لأننى لا أستطيع أن أرتجل خطبة. فشكرناه واستأذناه فى الانصراف ونرجو من وزارتى الأوقاف والمعارف وعلماء مصر وأدبائها أن يعتنوا بزيارة هذا العالم واكرام وفادته فقد قال لنا عند ذكر مصطفى كامل انه يعلم أن شعار المصريين هو — « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا »

(الأهرام) ا. رؤوف — ح. رمزى — لطفى

الاسلام في الصين ـ غابره وحاضره

— ١ —

يسالنى دائماً اخواننا المسلمون عن أحوال الاسلام فى الصين ، و يسرنى غاية السرور عنايتهم بالدين و رغبتهم فى العلم ولوفى الصين . فأكتب بحول الله هذا الكلام الوجيز لقضاء حاجتهم الشديدة وتوطيد التعارف والتفاهم بين شعوب الاسلام وأسأل الله تعالى أن يوفقنا لما فيه الخير وهو القريب المجيب

تاريخ دخول الاسلام فى الصين

متى دخل الاسلام فى بلاد الصين ؟ هذه مسألة غامضة فيها روايات متعددة مختلفة وعلى الرواية المشهورة عند المسلمين الصينيين أنه فى سنة ٦٣٧ م (قبل وفاته عليه السلام) وعلى رواية أخرى كان ذلك فى سنة ٥٩٩ م (قبل الهجرة النبوية) وعلى تحقيق حجة التاريخ الاسلامى الصينى البروفسور جنيون أن أول وافد من الدولة الاسلامية الى الدولة الصينية أوفد سنة ٦٥١ م (فى عهد سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه) وقال البروفسور : ان مناط الاختلاف فى ذلك تباين التقويم الصينى مع التقويم العربى لأن السنة الصينية سنة قمرية شبيهة بالسنة الشمسية فى كل سنة بسيطة ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً كالسنة القمرية تماماً ، وأما السنة الكبيسة فيزاد فيها شهر واحد وتكبس السنة مرة فى كل ثلاث سنوات ومرتين فى كل خمس سنوات وسبع مرات فى كل تسع عشرة سنة لتتفق مع السنة الشمسية ، واستعملت الحكومة الصينية التقويم العربى سنة ١٣٨٤ م وهى توافق سنة ٧٨٦ هـ فطرحت ٧٨٦ سنة من التقويم الصينى ليعرف مبدأ التقويم العربى بالنسبة الى التقويم الصينى ، فوقع الخلاف ، وهذا كلام معقول مرجح عندنا . والله أعلم

العلاقة بين الدولتين الاسلامية والصينية

ذهب فى عهد الخلفاء الراشدين الى الصين الوفود الاسلامية والتجار المسلمون من العرب والفرس متعاقبين ، وكانت الجالية الاسلامية فى عاصمة الصين وحدها عددها أربعة

آلاف شخص وهى أكثر من الجالية الافرنجية الموجودة الآن فى بكين ، وعلى احصاء البروفسور جنيون بعثت الى الصين فى عهد اسرة «تان» وأسرة « سون » من سنة ٦٥١ الى سنة ١٢٠٧ م الوفود الاسلامية ٧٦ مرة واستنجد سنة ٧٦٢ م عاهل الصين بالمسلمين على الثائر الفاتك شيچويى

العظماء المسلمون المتقدمون

كان عواهل الصين يجاملون المسلمين . وفى عهد أسرة «يون» وهى أسرة جنكيزخان (سنة ١٢٧٧ - ١٣٦٧ م) كان للمسلمين منزلة عالية سياسية واجتماعية ، والأعيان المسلمون المسجلة أسماؤهم فى سجل طبقة الأعيان الملكى كانوا أكثر من مائة نفر . وكان السيد جاسر الدين والياً عادلا على ولاية يونان ، وحفر فى نواحى عاصمتها قنوات كثيرة مازالت باقية مفيدة ، و بنى فيها لأهليها الكافرين هيكلا للفيلسوف الأكبر كونفوشيوس ، وهو أول هيكل بنى له فى ولاية يونان . وللسيد جاسر الدين ذكر خالد عند سكانها فأقاموا تمثالا له فى هيكل الحكماء (الباتيون) فى عاصمتها وقد تولى ابنه السيد بابن رئاسة الوزراء سنة (١٣٣٣ — ١٣٤٠ م) . وألف الأديب المسلم جنس بضعة عشر مؤلفا ، ومازال ديوان البار المسلم دنهاتنى منتشراً حتى الآن . وكان يَحْدير مهندساً فى بناء سور القصور فى بكين ونال سنة ١٣٣٣ م عشرةٌ من الأدباء المسلمين الشهادة العامية الملكية العليا وفى أسرة « مين » (سنة ١٣٦٥ — ١٦٤٣ م) استعمل التقويم العربى فقام الشيخ محمود بترجمة الكتب التقويمية العربية وأرسل العاهل سنة ١٤٠٦ م الطواشى المسلم جِنها قائداً الاساطيل الصينية المؤلفة من ٣٧٠٠٠ بحرى الى جزائر الهند الشرقية وسيلان وسواحل الهند الجنوبية والعراق وسواحل جزيرة العرب وساحل أفريقية الشرقية ليدعو سكانها لأداء الخراج لعاهل الصين واهداء التقادم ، ومن رفض دعوته هدده بالقوة والسلطنة . وجده وأبوه كانا حاجين ، ومسقط رأسه فى ولاية يونان . وصنف العلامة صالح ليوجاين (رحمه الله) فى آخر القرن الثامن عشر باللغة الصينية كتاب (سيرة سيد المرسلين) وكتاب (شريعة الاسلام) وكتاب (أسرار الاسلام) وهذه المؤلفات هى التى تيقن بها الصينيون أن الاسلام دين حنيف لايخالف مبادئ الفيلسوف كونفوشيوس بل يؤازرها ، فأدخلت فى دار الكتب الملكية فانكشفت ستور الاسلام فى الشرق الأقصى . ومسقط رأس العلامة صالح ليوجلين

ومدفنه فى نانكين عاصمة الصين الجديدة وقد زرت روضته الطاهرة سنة ١٣٤٧ ﻫ وألف العلامة يوسف مافوسو (رحمه الله) باللغتين العربية والصينية مؤلفات مفيدة فى العربية والعلوم الاسلامية وطبع مولفات العلامة صالح ليوجلين (رحمه الله) بعد التصحيح فازدهر الاسلام مرة أخرى . وطلع عقبه المعلم العظيم الحاج نورالحق ماجبان (رحمه الله) فتخرج فى مدرسته العلماء العاملون أفواجا ، ومسقط رأسهما فى ولاية يونان

ثورة المسلمين

كان طغاة الأسرة المنشورية (سنة ١٦٤٤ — ١٩١١ م) قد اضطهدوا المسلمين وساموهم خسفاً وزاد عليهم فى اضطهاد المسلمين الأمراء المنشوريون الظالمون فى ولاية سنكيانج (التركستان الصينية) فأخذوا أموالهم وفضحوا عيالهم ، فقام المسلمون يدافعون عن أنفسهم وأعراضهم ، فوقعت الثورة الهائلة فى مائة سنة تقريبا (سنة ١٧٥٨ – ١٨٧٣م) خمس مرات وناهيك بالكتب التاريخية الأميرية فى هذه الثورات وعدد أجزائها كالآتى :

(١) تاريخ ثورة سوسيسان فى ولاية كنسيو (سنة ١٧٥٨ م) ٢٠ جزءاً

(٢) تاريخ ثورة مامذسين فى ولاية كنسيو (سنة ١٧٦٨ م) ٢٠ جزءاً

(٣) تاريخ ثورة جنقغ فى ولاية سنكيانج (سنة ١٨٢٥ — ١٨٢٧ م) ٨٠ جزءاً

(٤) تاريخ ثورة سليمان دوونسيو فى ولاية يونان (١٨٥٥ — ١٨٧٣) ٥٠ جزءاً

(٥) تاريخ ثورة يعقوب فى ولايات شانسى وكنسيو وسنكيانج (سنة ١٨٥٥ — ١٨٧٥ م) ٣٣٠ جزءاً

آثار الاسلام

هى كثيرة ، وأهمها ما زرته سنة ١٣٤٦ وهى كالآتى :

(١) ضريح سعد بن أبى وقاص فى خارج ربض مدينة كنتون بنى هذا الضريح وسط القرن السابع تقريباً

(٢) مسجد مدينة كنتون ، وهو أول مسجد فى الصين أسس وسط القرن السابع تقريباً أيضاً وفيه منار شامخ عليه مسحة من جمال الفن العربى

(٣) المسجد الأعظم فى عاصمة ولاية شانسى بنى بنفقات الخزانة الملكية سنة ١٤٤٣م

على نحو ماوصفه النصب التذكارى الحجرى الموجود الآن فيه

(٤) مسجد نانكين بنى سنة ١٣٨٨ م بنفقات الخزانة الملكية أيضا

أسباب انتشار الاسلام فى الصين

انتشر الاسلام فى الصين انتشاراً سريعاً مدهشاً والأسباب فى ذلك أربعة وهى :

(١) تجارة المسلمين : هى سبب دخول الاسلام فى الصين الأصلية فى عهد أسرة « تان » (سنة ٦١٨ – ٩٠٥ م) وازدهار الاسلام فى عهد أسرة « سون » (سنة ٩٦٠ – ١٢٧٦ م) وأسرة « مين » (سنة ١٣٦٨ – ١٦٤٣ م)

(٢) الفتوح الاسلامية : هى سبب اسلام سكان ولاية سنكيانج (التركستان الصينية)، فى عهد أسرتى « سون » و « مين » فضلا عن أنها كانت سبباً فى اسلام التركستان الروسية فى عهد أسرة « تان »

(٣) تناسل المسلمين : هو سبب ازدهار الاسلام وازدياد المسلمين فى الصين الأصلية بعد أسرة « يون » (سنة ١٢٧٧ – ١٣٦٧ م) وأسرة « مين »

(٤) اختلاط الكافرين بالمسلمين وتأثرهم بآدابهم : هو سبب اسلام أبناء التتار فى التركستان الصينية والروسية

لاعجب فى السببين الأول والثانى وأما السبب الثالث فهو من خواص الاسلام اذيحرم المسلمون النكاح بينهم و بين الكافرين ليحفظوا اعتقاداتهم التوحيدية وعاداتهم الاسلامية فتوارثوا دينهم جيلا بعدجيل ، بخلاف الكافرين اذ يمكن أن تعتنق أفراد أسرة من أسرهم أدياناً مختلفة فاذا مات المعتنق انقطع دينه عن أهله. وجواز تعدد الزوجات عند المسلمين من أهم أسباب زيادة أنسالهم أيضا . وأما السبب الرابع فلايوجد الا فى الاسلام مثلا تغلب فى القرون المتوسطة الميلادية التتار بسيوفهم على المسلمين وأسلم أبناؤهم من بعد بتهذيب وتأثير المسلمين ، وماأعجب قوة تأثير الاسلام

ويوجد فى ذلك سوى الأسباب السابقة السببان الآتيان :

(١) عدم اذاعة الدعوة الى الاسلام . لأجل هذا مامنى الاسلام بحسد الكافرين ، فلم يوجد قط فى تاريخ الاسلام فى الصين ماحصل بين التروية والبوذية زمن الأسر الست (سنة ٤٢٠ – ٥٨٨ م) وأسرتى « تان » و « يون » من النزاع الشديد ، ولم يصب الاسلام

ماأصاب الأديان الأخرى من اضطهاد كما حصل (سنة ٨٤١ - ٨٤٦ م) اذ حتم أتباع كنفوشيوس هدم الأوثان . وليس فى الاسلام أوثان يلزم هدمها . وزد على ذلك أن الكافرين لم يقاوموا المسلمين كما قاوموا أصحاب الأوثان لأن المسلمين ما كانوا يدعون الناس الى الدخول فى دينهم كما كان يفعل أصحاب الأوثان فظهرت عند أتباع الفيلسوف كنفوشيوس فكرة هدم الأوثان خشية أن يكثر معتنقوها

(٢) عدم نقد مبادئ الفيلسوف كنفوشيوس : المسلمون لم ينقدوا مبادئه التى تثبت وجود الملك الحق وتعلم الناس بمكارم الأخلاق ، بل أسس السيد جاسر الدين هيكله لمن لم يتأدبوا بآداب هذا المعلم المعظم واستدل العلامة صالح ليوجلين (رحمه الله) بمبادئه على بعض أسرار الاسلام ، ولذلك تعايش المسلمون مع أتباع كنفوشيوس بالألفة والمودة فلم يسمع أحد ينقد الاسلام كما نقدت البوذية فى عهد أسرة « تان » والمسيحية فى عهد أسرة « مين » والحمد لله الحكيم العليم

***

— ٢ —

عدد مسلمي الصين ومساكنهم

المسلمون فى الصين يزداد عددهم عاما بعد عام حتى بلغوا خمسين مليوناً يتفرقون فى الولايات كلها وأكثرهم فى ولاية كنسيو ثم ولاية يونان ثم ولاية هانان ثم ولاية شانتونغ ثم ولاية هابى . وعدد سكان الصين أربعمائة مليون فالمسلمون ثمنهم

لغة مسلمى الصين ومذهبهم

المسلمون فى ولاية سينكيان يتكلمون باللغة التركية لأنها منشأ الأتراك ، والمسلمون فى الصين الأصلية يتكلمون باللغة الصينية . وأما الكتب الدينية فأكثرها العربية وتليها الفارسية ولذلك يعرف رجال الدين هاتين اللغتين ولكنهم فى المطالعة أقوى منهم فى المخاطبة و بعبارة أخرى انهم يفهمون كثيراً و يعبرون قليلا . والسبب فى ذلك أنهم يتوارثونها من أساتذتهم الصينيين الذين يعلمونهم الترجمة ولا يعلمونهم الانشاء ، وانهم ينقطعون عن المتكلمين بهما فلا يجدون فرص الممارسة . و زد على ذلك انهم يقرأون الكتب الدينية

ولا يقرأون الكتب الأدبية ، فضعفت الثقافة العربية يوما فيوما بطبيعة الحال . وأما مذهبهم فكلهم أحناف

مهنة المسلمين

المسلمون فى المدن يعالجون التجارة وأهم تجارتهم فى شنغهاى و بكين وتينجين جواهر وحجارة كريمة وتحف قديمة . وفى الولايات المجاورة لسور الصين الكبير فراء وأصواف وأوبار وخيل ومواش . وفى ولاية يونان جلود وأرز وفحوم شجرية . والمسلمون فى القرى والارياف يشتغلون بالزراعة وتجارهم وزراعهم مشهورون بالاجتهاد والاقتصاد

مكانة مسلمى الصين

الأدبية والاجتماعية والسياسية

المسلمون هناك أكثرهم لا يملكون من الرزق إلا كفاف حاجتهم . والسبب فى هذا ان فى مشاركتهم مع الكافرين عسراً فى الأكل والشرب ، مع أن رؤساء دينهم ينصحونهم دائماً بالزهد والقناعة ، فيكفّون عن التكاثر والتسابق . و يعيبون درس اللغة الصينية لاعتقادهم أن اللغة العربية لغة الكتاب والسنة فيجب على كل مسلم أن يدرسها و يقدسها وأما اللغة الصينية فهى لغة الكفرة لا تسلم من العناصر المخالفة لديننا حتى قال بعضهم من قرأ الكتب الصينية فقد كفر والنتيجة من ذلك ان صار رجال الدين فى الصين أميين فى اللغة الرسمية إلا نادراً ومن يعرف القراءة والكتابة من المسلمين واحد فى المائة أو أقل ومن الكافرين تسعة فى المائة أو أكثر فكيف يمكن المسلمين أن ينافسوا غيرهم فى معركة الحياة وان قررت فى الدستور الصينى حرية الدين ومساواة الشعوب فى الحقوق

الجمعيات الاسلامية الصينية

أنشئت (جمعية التقدم الاسلامية الصينية العمومية) سنة ١٣٢٩ ﻫ فى بكين عاصمة الصين والجمعيات الفرعية لها فى عواصم بعض الولايات ، واضمحلت هذه الجمعيات الفرعية سنة ١٣٣٢ ﻫ لسبب من الأسباب السياسية فما بقى منها الا ما فى ولاية يونان ، فمثل جمعية التقدم الاسلامية الصينية كمثل شجرة ذابلة فروعها الا فرع واحد لولاه لحكم على الشجرة

باليبس وهذا الفرع الناضر هو (جمعية التقدم الاسلامية الصينية) فى عاصمة ولاية يونان وقد أنشأت فيما يسكنه المسلمون من المدن والقرى فى ولاية يونان جمعيات فرعية كثيرة ، وأنشأت أيضاً واحدة فى حدود ولاية كويجو وواحدة فى حدود ولاية سيچيوان وواحدة فى رنجون (ميناء بروم) وفيها ادارات للمعارف والهداية والصلح والافتاء ، ولها نفوذ ماض على جمعياتها الفرعية بأسرها وثقة كاملة عند الحكومة المحلية حتى انها تستشيرها فيما يتعلق بالمسلمين ووكلت اليها تسوية الخلاف بين المسلمين وهى الصلة الوحيدة بين الحكومة والمسلمين فهى ترفع شكاية المسلمين وعرائضهم الى الحاكم وتبلغ قوانين الحكومة وأوامرها إلى المسلمين وتصدر منها (مجلة المنبه الاسلامى) باللغة الصينية بنفقات جمعياتها الفرعية الشهرية وهى أول جمعية اسلامية صينية استأذنت صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشريف فى ارسال أعضاء البعثة الصينية الأولى الى الجامعة الأزهرية ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم فما يرجع الفضل فى مجىء البعثات الصينية الأزهرية متعاقبات الا الى رحابة صدر الأزهر الشريف وجهد هذه الجمعية العظيمة ولما رجع فضيلة الأستاذ الجليل الحاج هلال الدين هاديجين من مصر الى الصين أنشأ مع زملائه فى شنغهاى سنة ١٣٤١ ﻫ (الجمعية العلمية الاسلامية الصينية) لاذاعة دعوة الاسلام وإحياء العلوم الدينية وتنشيط التعليم الاسلامى وتوطيد كتلة المسلمين بوساطة مجلتها وأنشأ المرحوم الجنرال مافوسيان وبعض كبار المسلمين فى نانكين عاصمة الصين المحروسة سنة ١٣٤٥ ﻫ (نقابة المسلمين) باذن الحكومة المركزية

المدارس الاسلامية الصينية

لمسجد كل ريف يسكنه المسلمون مدرسة دينية أولية يدرس فيها الأولاد بالحروف الهجائية العربية ، ثم بعض السور القصيرة ثم كتاب يشتمل على الدعوات الكثيرة الاستعمال فى العبادات ، ثم بضعة أجزاء من القرآن الكريم ، ثم كتاب فى أسئلة الايمان وأجوبتها يسمى (أربعة فصول) وكتابان فى الفقه الحنفى يسمى أحدهما (المهمات) والآخر (عمدة الاسلام) . وهذه الكتب الثلاثة كلها باللغة الفارسية ، وكذلك دروس مدرسة البنات التى تدرسها المعلمات ، الا أنه يدرس فيها بعض الحكايات والقصص الاسلامية مثل قصة موسى عليه السلام وقصة عيسى عليه السلام وقصة زواج نبينا محمد عليه السلام

بخديجة رضى الله عنها ، وقصة زواج ثابت والد الامام الأعظم أبى حنيفة وما شا كل ذلك

ولمسجد كل قرية أو مدينة يسكنها المسلمون مدرستان ثانوية وعالية يؤمهما الطلبة من الأرياف والقرى ويدرس فى الثانوية الصرف والنحو وكتب الدراسة فى الصرف (قسم الصرف) للعلامة يوسف مافوسوا ، و (مفتاح المراح) للحاج نور الحق ماجيبان ، و (مراح الأرواح) لأحمد بن على . وفى النحو (قسم النحو) للعلامة يوسف مافوسوا ، و (حواصل النحو) للحاج نور الحق ماجيبان و (الكافية) لابن الحاجب . ويدرس فى العالية النحو والمنطق والبلاغة والتفسير والفقه والكلام ، وكتب الدراسة (شرح الكافية) و (قسم المنطق) و (قسم البيان) و (شرح التلخيص) و (تفسير الجلالين) و (شرح الوقاية) و (شرح العقائد النسفية) والمدرس هو إمام المسجد غالباً ويسكن هو والطلبة فى أروقة المسجد ينفق عليهم الأغنياء من المسلمين الغيارى . واذا أتم الطالب دروس الأقسام بعد بضعة عشر سنة خلع عليه أستاذه خلعة ، وهى جبة خضراء من الجوخ ، وأهدى اليه الموسرون نفقات السفر فرجع الى وطنه ظافراً مفتخراً ، فأقام له أهل بلده حفلة التكريم بعد أن استقبلوه خارج البلد ووكلوا اليه منصب الامام أو الخطيب أو المؤذن أو المدرس . وأما الذين لم يحظوا بمنصب من المناصب الدينية فمنهم من يشتغل بالزراعة ومنهم من يعيش بالصدقات من تلاوة القرآن الكريم فى المآتم . هذا هو نظام المدارس الاسلامية القديمة فى وطنى ولاية يونان ، ويقرب من ذلك ما فى سائر الولايات ، بيد أنه يدرس فى مدارس ولاية كنسيو (تفسير البيضاوى) و (تفسير حسين) باللغة الفارسية و (الدر المختار) وكتاب فى أصول الدين يسمى (المكتوبات)

ولما شعر حضرات رؤساء جمعية التقدم الاسلامية الصينية فى ولاية يونان بنقصان النظام القديم أنشأوا فى عاصمتها سنة ١٣٢٦ هـ القسم الأولى والقسم الابتدائى للمدرسة الاسلامية وقسمها الثانوى سنة ١٣٣٩ هـ وتدرس فى هذه المدرسة اللغة الصينية واللغة العربية والعلوم الدينية والعصرية اللازمة وقد قرروا منهاج الدراسة ونظام الامتحان ومدة الدراسة ، وسجلت وزارة المعارف العمومية الصينية اسمها فى سجل أسماء المدارس القانونية سنة ١٣٢٩ هـ . وأنشأ المرحوم الجنرال مافوسيان على هذا النظام (مدرسة المعلمين الاسلامية الثانوية) فى عاصمة ولاية شانتونغ سنة ١٣٤٣ ثم نقلت فى السنة التالية لسبب من الاسباب

الى بكين عاصمة الصين المنسوخة سنة ١٣٥٠ ﻫ وكذلك أنشأت الجمعية الكلية الاسلامية الصينية فى شنغهاى سنة ١٣٤٥ ﻫ (الأكاديمية الاسلامية) التى تخرجت فيها سنة ١٣٥٠ ﻫ بعد ما أخذت شهادة المدرسة الحكومية الثانوية فى عاصمة يونان سنة ١٣٤٣ ﻫ . وأنشأت فى ولاية سيجوان سنة ١٣٤٥ (مدرسة المعلمين الاسلامية الثانوية) وهذه المدارس الأربع هى المدارس الجديدة لتدريس اللغة العربية والدين الاسلامى ، وتقوم كلها على الصدقات والهبات الشخصية ، وأما المدارس القديمة فما زالت باقية فى القرى والمدن . وأما المدارس الالزامية فكلها على قانون وزارة المعارف العمومية وقد يعلّم فيها شئ قليل من المعلومات الاسلامية وتكاد تعم القرى والمدن التى يسكنها المسلمون

المجلات الاسلامية الصينية

لما سمع اخواننا الصينيون أنباء النهضة الاصلاحية فى المهد ، الاسلامية قاموا يتسابقون ويتفاخرون باصدار المجلات لاشاعة هذه النهضة ، فتظاهرت متتابعة كما تورق الأشجار بعد مطر الربيع ، ولكن قلة المال وأدت بعضها قبل البلوغ وأشهر باقيتها (نضارة الهلال) فى بكين و (المنبه الاسلامى) فى يونان و (نور الاسلام) فى تينجين و (مجلة العلوم الاسلامية) فى كانتون وهذه المجلات ما زالت ضعيفة بسيطة بالنسبة الى سائر المجلات الصينية لقلة التغذية المالية والعلمية ولو صافحتها اليد البيضاء لكانت الصلة الوثيقة لاتحاد المسلمين فى الصين مع إخوانهم فى الدنيا مشارقها ومغاربها

النهضة الجديدة والخلاف بين المسلمين

كان العلماء فى الصين يبالغون فى ثواب النوافل ، فاشتغل المسلمون بها عن الواجبات وأكثرهم لا يصلون ولا يصومون ولا يزكون ولا يحجون ، بل يهتمون باقامة المآتم ويدعون اليها رؤساء الدين والمتعلمين ليقرأ كل واحد منهم سوراً من سور جزء عمّ أو جزءاً من أجزاء القرآن الكريم ، وليصلوا على النبى عليه السلام بالترجيع والتغريد ، ثم تقدم اليهم الوليمة الفاخرة والصدقات الجزيلة ، واذا جاء مولد النبى عليه السلام أو مولد السيدة فاطمة رضى الله عنها أقاموا حفلة الذكرى بصدقات المسلمين وعملوا الولائم فى أروقة المسجد يحضرها المسلمون والمسلمات جميعاً يسمعون القرآن والصلوات والوعظ واذا حان

وقت الصلاة صلى بعضهم و بعضهم يأ كلون و يشربون . فلما وجد بعض علماء الدين الخطر فى هذه العادات المستبشعة نصحوا المسلمين بأداء الواجبات بدلا عن النوافل ، وأخذوا يحرمون الطعام والصدقة لأجل تلاوة القرآن ، فعارضهم المتعصبون والمنتفعون بهذه الحال ، وانشقت عصاهم و وقعت الفتنة بينهم غير مرة ، وهذه الخصومة تميل الآن الى الضعف والنقصان بحول الله ، وأسأله تبارك وتعالى أن يوفقنا للاتحاد و يعصمنا من كل خصام وشقاق انه جواد كريم

كتب أحد سفلة الكتّاب الكفار فى (مجلة الآداب الصينية) حكاية فكاهية بهيمية خلاصتها أن المسلمين لا يأ كلون لحم الخنزير لأنهم أبناء الخنزير وطبعت المطبعة الحديثة بشنغهاى هذه الحكاية كتاباً مستقلا ، فقام المسلمون فى شنغهاى يتشاورون فى الجمعية العلمية الاسلامية الصينية فى هذا الأمر الخطير فاتفقوا على أن يقدّموا احتجاجاً على ادارة المجلة ، فوعد رئيس تحريرها أن ينشر فى الجرائد اليومية المشهورة اعتذاره الى المسلمين و يصحح الغلط فى الحكاية فى العدد الأخير من نفس المجلة ويضمن أن لا يقع فيها مثل هذه الحادثة مرة أخرى و يحرّق بحضرة المسلمين الباقى من العدد الذى فيه الحكاية . ولكن المسلمين فى بكين لم يقتنعوا بهذه التسوية ، فاجتمعوا وتشاوروا فى لجنة الدفاع عن الاسلام و فى أثناء الاجتماع قطع السيد الغيور «ليهيتين» سبّابته فسال الدم منها فكتب بدمه هذه الكلمة : « دافعوا عن دينكم ! » فبلغت حماسة المسلمين الحاضرين ذروتها ، وغطت الغيوم سماء المجلس ، فتحالف الحاضرون أن يدافعوا عن دينهم الى النهاية مهما كلفهم الأمر ، وأجمعوا على أن يبرقوا الى المسلمين فى البلاد كلها و يوفدوا أربعة مندوبين الى نانكين ليشكوا الى الحكومة الصينية المركزية ما فى هذه الحكاية الخبيثة ، وقد شاركهم فى ذلك المندوبون من قبل المسلمين فى شنغهاى ، والرسائل البرقية طارت الى الحكومة الصينية المركزية بشكاية المسلمين من أقطار الصين فأمرت [1] الحكومة الجمهورية الصينية بمعاقبة الكاتب الملعون وتعطيل مجلة (الآداب الصينية) و إغلاق (المطبعة الحديثة) وسنّت قانوناً خاصاً لحماية الأديان توطيداً لما فى الدستور من حرية الدين ومساواة الشعوب فى الحقوق ، وأعلنت أن المسلمين من العناصر المهمة للامة الصينية ولهم تاريخ مجيد فى خدمة

(١) فى ٨ نوفبر سنة ١٩٣٢ م

الوطن و يحترمهم أبناء الأمة كل الاحترام ، فانتهى الأمر بذلك واستقبل المسلمون فى محطة سكة الحديد بشنغهاى المندو بين وأقاموا لهم فى الجمعية العلمية الاسلامية الصينية حفلة التكريم شكراً لهم على جهدهم و إخلاصهم للدين الحنيف والكرامة الاسلامية جزاهم الله عنا وعن دينه خير الجزاء

هذا ولأجل أن يقف قراء الفتح على مبلغ ما كان لهذا الحادث من الأثر فى الصين ننقل لهم من تعليقات جريدة « شينبو » أكبر جرائد الصين اليومية العبارة الآتية :

قد ورد فى أمر مجلس التنفيذ للحكومة الجهورية الصينية «المسلمون عناصر خطيرة للامةالصينية وقد اشتهروا بخدمة الوطن واحترمهم أبناء الأمة جميعاً »،وانى لمعجب باتحاد كلمة المسلمين وحماستهم الفائقة فى الدفاع عن دينهم ، وانى لمعتقد أن أبناء وطننا لو كان لكل واحد منهم فى الدفاع عن الوطن مثل هذه الروح لكانت مكانة وطننا السياسية أحسن مما هى عليه الآن ، ولما سقطت منشوريا فى أيدى اليابانيين ، وان اخواننا المسلمين ما صاروا عناصر خطيرة للامة الصينية الا بتأديب القرآن،وقد قال الله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة « وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ » ، لم يكن اعتداء اليابانيين فى منشوريا أشد من القتل ! لو قام ولاة الأمور منا يدافعون أعداءهم كما أوصانا القرآن لما شهق اليوم ثلاثون مليوناً من اخواننا تحت حوافر خيول اليابانيين . فأرجو من اخواننا المسلمين أن يعملوا بأمر الله تعالى فى الدفاع عن الوطن كما يدافعون عن الدين ، لترسم مآثرهم ومفاخرهم فى تاريخ الأمة ولتحترمهم أمم العالم جميعاً . انتهى كلام الجريدة الصينية

يأيها القراء الكرام جاهدوا فى سبيل الله على حسب الامكان بعد ما تعرفون قدر الجهاد مما تقدم !

محمد مكين الصينى

المسلمون فى الصين

وأحوالهم الاجتماعيـــة والسياسية

حديث طريف للوفد الصينى المسلم مع مندوب « الجامعة العربية » بالقدس

«و بينما كنا نحرر هـذا الـكتاب قدم وفد من علماء مسلمى الصين الى مصر ومعهم عدة من الطلبة الجدد يريدون ادخالهم فى الجامع الأزهر وأقبل على هـذا الوفد مندوبو الجرائد يستعلمون منه عن أحوال مسلمى الصين . وقد جاء رجال الوفد المذكور الى القدس الشريف وأخذت منهم جريدة الجامعــة العربية المعلومات الآتية نأثرها هنا لأنها أحدث حديث فى الشرق الأقرب عن مسلمى الشرق الأقصى» . أما المذابح التى أجراها الجنرال الصينى المسيحى فونغسيانغ واستأصل بها ألوفاً وألوفاً من المسلمين فقد كنا أول من نبّه الناس لهـا يوم وقوعها وذلك بمقالات فى جريدة الشورى بمصر واقترحنا حينئذ على المسلمين أن يرفعوا احتجاجاتهم الى دولة الصين والى الدول وعلى جمعية الرابطة الشرقية أن تفحص عن هذه الفادحة وتتوسط لدى الصين والدول وكل هذا لم يحرك من أحد سا كناً و ياللاسف واننا لا نقدر أن ننكر هذه الحقيقة المؤلمة»

أما حديث الوفد الصينى للجامعة العربية فهو هذا :

اغتنمت فرصة وصول الوفـد الصينى المسلم الى القـدس المؤلف من السيدين الحاج عبد الله الصديق جاو بين سكرتير مدرسة المعلمين الاسلامية فى بكين ومدير مطبعتها ومكتبتها ومحرر مجلة نضارة الهلال فى بكين ، والحاج عبـد الرحيم ما سون تين إمام جامع تو نسيبا لو فى بكين و وكيل مدرسة المعلمين الاسلامية فيها . فتقدمت اليهما باسم جريدة « الجامعــة العربية » حيث يقيمان بالزاوية النقشبندية ملتمسا منهما ان يتفضلا على قرائها بحديث عن رحلتهما وعن حالة اخواننا مسلمى الصين ، فاجابا ملتمسى بكل بشاشة وسرور . وقد ازداد ابتهاجهما عنـدما أطلعتهما على العدد الاخير من الجامعــة العربية المشتمل على مقال عن مسلمى الصين و بعض معلومات عنهم . والى القراء موجز الحديث الذى اشترك فيه السيدان المذكوران :

غادر السيدان الحاج عبد الله الصديق جاو بين والحاج عبد الرحيم ماسون تين مدينة

بكين عاصمة الصين السالفة فى أول شهر شعبان الماضى على رأس بعثة صينية مؤلفة من خمسة طلاب من مدرسة المعلمين الاسلامية فى بكين فوصلوا الى القاهرة فى الثالث من شهر رمضان المبارك ليدخلوا البعثة المذكورة فى الازهر الشريف لتعلم العلوم الدينية الاسلامية والقرآن الكريم واللغة العربية .

أما أعضاء هذه البعثة العلمية فهم : سعيد ونجش مين ، على خان خون كوى ، شعيب جندان كوى، اسماعيل ماجن بوم ، سليمان جنبنتو . وقد دخلوا فى الازهر الشريف ولقوا كل مساعدة من الحكومة المصرية والشعب المصرى

والسيدان المذكوران ينويان زيارة بلاد الحجاز لقضاء فريضة الحج ، وذلك من أسباب رحلتهم الرئيسية كما ان من أسبابها أيضا زيارة بيت المقدس والمدينة المنورة والتعرف على اخوانهم المسلمين فى هذه الاقطار والوقوف على أحوالهم

ويبلغ عدد المسلمين فى الصين نحو خمسين مليونا وهم آخذون فى الازدياد بالتدريج وأكثرهم يقطنون فى الولايات الغربيـة والشمالية وفى ولاية « يوننان » فى الجنوب . أما حالتهم فحسنة وتقدمهم مطرد . وحالتهم المادية متوسطة وحالتهم العلميـة بالنسبة الى أهـل الصين عامة فى المقام الاول . واكثر أهـل الصين بوذيون وكونفوشيوسيون وقليل منهم اعتنقوا الديانة المسيحية ولكن عـدد النصارى آخذ فى الازدياد بسبب كثرة الارساليات الدينية الاجنبية والوسائل المادية التى تلجأ اليها هذه الارساليات . والمسلمون والنصارى فى الصين فى درجة علمية واحدة وهم أرقى على وجه العموم من البوذيين . أما الكونفوشيوسيون فهم متعلمون اكثر من الجميع .

ومن الغريب فى المذاهب الصينية ان البوذى أو الكونفوشيوسى الذى يعتنق النصرانية ، يقوم بالطقوس الدينيه المسيحية فى الكنائس ثم يقوم أيضا بالطقوس البوذية والكونفوشيوسية فى المعابد الوثنية ، فهم يخلطون بينهما خلطا عجيبا . والكتب الدينية النصرانيـة كالتوراة والانجيل مترجمـة الى اللغة الصينية . أما المسلمون فهم مستقلون فى شؤونهم الدينية معتصمون باسـلامهم و بصلاتهم و بصيامهم و بزواجهم وعباداتهم ومعاملاتهم وتقاليدهم الاسلامية . ولا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر ، والنكاح فيهم محصور بالمسلمين والمسلمات ونادر من المسلمين الذين يتزوجون من غير المسلمات ، واذا حدث

حادث مثل هذا فلكى يحمل المسلم زوجته غير المسلمة على اعتناق الاسلام وهى بعد زواجها منه لا بد أن تصير مسلمة كما أن المسلمين لا يستعملون الآنية التى يستعملها غير المسلمين

والمسلمون فى الصين غير مكروهين من قبل بقية الطوائف الصينية وهم وطنيون بكل معنى الكلمة و يعيشون مع مواطنيهم بكل وفاق و يتعاملون معهم أحسن التعامل

وعلماء المسلمين فى الصين يقرأون القرآن وكتب الفقه والحديث والتفسير والتوحيد و بقية العلوم الدينية والاسلامية باللغة العر بية و يفهمونها ولكنهم لا يحسنون التكلم بها ، وكذلك يدرسون علوم الصرف والنحو والبلاغة بالعربية ويدرسونها فى المدارس و يستعملون الحروف العر بية ، كما أنهم يقرأون اللغة الفارسية .

ولهم مساجد كثيرة . و فى كل مسجد مدرسة ابتدائية . أما المدارس الثانو ية والعالية فقليلة عندهم . ومدرسة المعلمين الاسلامية فى بكين تتألف من ٦ صفوف ابتدائية و ٦ ثانو ية. على أن هذه المدارس خاصة بالمسلمين يجمعون أموالها من أنفسهم . وهم فى الوقت نفسه يتعلمون فى مدارس الحكومة العمومية .

وهم يقيمون الصلاة بواسطة الاذان ولكن مآذنهم غير مرتفعة والوضوء عندهم يكون بالماء الساخن والمساجد تحتوى على ماء ساخن للوضوء . وهم يعنون بالنظافة . وأ كثرهم يشتغلون بالتجارة والزراعة

وقبل نحو سنتين عند ما اشتد ساعد الجنرال فونغسيانغ الصينى الملقب بالمسيحى الذى قام ضد حكومة الصين وشق عصا الطاعة وقاد الجيوش للزحف عليها ، ظل مسلمو الصين على ولائهم لحكومتهم وصمدوا فى وجه الجنرال فونغسيانغ السفاح الذى حاول اجتياح ولاية كانسو الاسلامية وذبح كثيراً من أهالى المسلمين وارتكب فيهم شتى الفظائع وكان هذا هو السبب الظاهرى لتلك المذابح . أما السبب الحقيقى فهو تعصب الجنرال المذكور ومقته للمسلمين ليس الا .

ومسلمو الصين أهل نجدة وشجاعة ، وهم رجال حرب وقتال وكثير منهم جنود فى الجيش وفيهم قواد وجنرالات كبار مثل الجنرال عماد الدين ماحون كوى حاكم ولاية كانصو الذى تحت امرته جيش مؤلف من خمسين ألف مسلم صينى . ومثل الجنرال ماشن جن حاكم ولاية شنغاى — كوكونور — فان جيشه مؤلف من ثلاثين الف جندى مسلم ، ومثل

الجنرال ماخو بين حاكم ولاية تنغشاى فان جيشه مؤلف من عشره آلاف جندى مسلم ، وغيرهم . ومسلمو الصين يشاركون مواطنيهم غير المسلمين فى مقتهم لليابان التى اتخذت ظلم الصين والاعتداء عليها ديدنا لهم . وهم لا يوافقون على استقلال منشوريا الذى تم بمساعدة اليابان وفصلها عن جسم الصين

والمرأة المسلمة فى الصين لا تحتجب وهى تتمتع بالحقوق التى يتمتع بها الرجل وحالتها آخذة بالتقدم

ورئيس الجمهورية الحاضر غير مسلم ولكن ليس فى دستور الحكومة الحاضرة ما يمنع من أن يكون الرئيس مسلما . وفى الوزارة وزيران مسلمان أحدهما محمد ماتوشيان وزير منغوليا والتيبت وقد توفى الى رحمة الله وهو والد الجنرال عماد الدين ماخون كوى حاكم ولاية كانصو . والثانى وزير المعارف واسمه ماجنغ وو .

وليست للمسلمين فى الصين رئاسة دينية وانما تقوم الجمعيات المحلية بالاشراف على التقاليد الاسلامية .

وقد ختم السيدان الفاضلان حديثهما باظهار شديد رغبتهما باتخاذ الاسباب والوسائل الكاملة لحفظ الصلات وتوثيق الروابط بين مسلمى الصين الذين هم اكبر كتلة اسلامية بعد مسلمى الهند ، وبين بقية اخوانهم المسلمين فى العالم الاسلامى .

ثم أثنيا الثناء المستطاب على سماحة المفتى الاكبر السيد محمد أمين أفندى الحسينى وقالا إن أعماله الباهرة وخدمته للمسلمين قد تطايرت أنباؤها الى الصين وانهم هناك معجبون بسماحته كل الاعجاب ، ثم تمنيا أن تقترن مشروعاته الجليلة بالخير والفلاح

مسلمو الروسية

فى عهد البلاشفة

للأمير شكيب

عند ما ذهبت الى موسكو فى حزيران أو يونيو عام ١٩٢١ ، لتفحص الأحوال ، عن قرب ومعرفة ما اذا كان ممكناً فعلا انتفاع الشرق من الروسية الحاضرة ، وما هى درجة هـذا الانتفاع ، سألت عن أحوال المسلمين فى الروسـية ، وتلاقيت مع بعض أدباء الطاغستانيين والقازانيين ، فاستقصيت منهم عما أريده وقيل لى : ان بموسكو بضعة عشر ألف تترى لهم مسجدان جامعان ، وكذلك فى بتروغراد كان نحو عشرة آلاف منهم ، ولهم جامع بديع البناء . وكنت فى احدى الجمع أديت الصلاة فى أحد جامعى موسكو ، حيث يؤم فى الجماعة الشيخ عبد الودود فتاح الدين قاضى المسلمين فى موسكو و بتروغراد ، و يتبعه فى القضاء المسلمون الذين فى ولايات « باراسلوله » و « توير » و « يقالومنـه » و بلدتى « ايفانو » و « جنيسنسكى » والأخيرة بلدة معامل ، فيها عملة مسلمون كثيرون . و يقولون له هناك « حضرة عبـد الودود » و يسمونه المحتسب . ومعنى المحتسب عندهم ، هو الذى ينظر فى الأمور الدينية ، و يرجع اليه أئمة المساجد . فالاسـتاذ عبد الودود فتاح الدين هو المحتسب فى جميع البلدان المار ذكرها . ومرجعه المجلس الاسلامى الأعلى الذى بمدينة أوفا . وقد رأيت منه عالماً فاضلا ، مطلعاً على الأمور ، بصيراً بأمور قومه ، وقبل أن تحادثت معه سمعت خطبته فى صلاة الجامع ، فالعادة عندهم هى أن يبدأ الخطيب بخطبة بالتركية القازانية لسان القوم ، يعظهم فيها و يتـكلم فى أهم الأمور التى تناسب الحال ، فاذا انتهى من هذه الخطبة صعد المنبر ، وخطب الخطبة الرسمية بالعربية . فحضرة عبـد الودود وقف بحذاء المنبر وشرع يخطب بالتركية ، و بقى يتـكلم أكثر من نصف ساعة ، ومع كون تركية التتر تختلف بعض الاختلاف فى الألفاظ وتصريف الأفعال عن تركيـة العثمانيين فقد كنت أفهم كل ما يقوله تقريباً ، وأعجبنى جداً وعظه ونسق خطابه ، وعلمت أنهم مدركـون الاحتياجات

العصرية ، متنبهون لما يجب أن يتنبهوا اليه . ولما انتهى من خطبته بالتركى صعد المنبر أخوه ، وهو مثله من العلماء فخطب بالعربية بالتسجيع على نمط خطباء بلادنا ، ولكن باعراب صحيح ولفظ فصيح لا تفرقه عن لفظ خطباء العرب فى شئ ، مما حملنى على الظن أن هذا الخطيب كان مجاوراً فى مكة أو فى المدينة مدة طويلة ، حتى أمكنه أن يخرج الحروف العربية مخارجها كأحسن المجودين من العرب ، اذ لم أعرف فى أمة الترك من يقدر على ذلك الا من نشأ منذ صغره فى بلاد العرب ، فانه قد يتقن القارئ التركى علم التجويد ، ولا يزال معروفاً من لفظه أنه تركى ، ولا يبرح عاجزاً عن اخراج الحاء والعين والواو ، مثلا ، مخارجها الصحيحة الا اذا ربى بين العرب. فأما خطيب جامع موسكو ، فسمعت منه لفظ خطيب عربى ، فدهشت عندما عرفت أنه لا يعرف بلاد العرب ، وانه انما تعلم التجويد فى قازان ، وقد ازددت دهشاً لما سمعت بعض القراء يقرأون كقراء العرب نغمة وترتيلا ، بدون أن يكون أحد منهم جاور فى الحرمين ، ولا عرف البلاد العربية . مع أن اخواننا الترك العثمانيين يتعلمون التجويد ويحفظون القرآن ، ويتقنون كل ذلك ، وتبقى نغمتهم على ما هى عليه .

سألت حضرة عبد الودود بعد الصلاة وقد دعانى الى الشاى فى منزله المناوح للمسجد ، عما هم عليه فى عهد البولشفيك ، وما هو الفرق بين الادارة القيصرية السابقة والادارة الشيوعية الحاضرة ، فأخذ يقص لى المحاسن والمساوئ الا أنه قال : « أما من جهة الحرية الدينية فقد صرنا فى بحبوحة عظيمة ، اذ أن البولشفيين لا يسألون الانسان عن عقيدته ، ولا يعرفون الا كلمة « روسى » أياً كان دينه ، وكان الدخول فى الاسلام ممنوعاً لعهد الحكومة السابقة أما الآن ، فالحكومة لا تعترض أحداً ، وان كثيرين فى هاتين السنتين أسلموا على يدى . بل كان أهالى مائة قرية من جوار قازان قد حملتهم الحكومة القيصرية على النصرانية قسراً منذ مائتى سنة وحولت مساجدهم كنائس وأرسلت اليهم القسوس ، وكانوا لا يزالون فى الباطن مسلمين ، لكن لم يقدروا أن يظهروا اسلامهم الا بعد أن سقطت القيصرية وجاء البولشفيك ، فعادوا الى الاسلام وأعادوا مساجدهم الى أصلها » .

ثم سألته عن تشكيلاتهم الشرعية فقال : ان قازان وسيبيريا و بلاد الباشقرد والغرغيز والمدن التى فيها مسلمون من جوار موسكو ، هذه لها مجلس اسلامى أعلى مركزه بمدينة أوفا . وهذا المجلس مؤلف من أربعة قضاة ، يرأسهم المفتى لأعظم . والمفتى الأعظم اليوم هو

العلامة جان بارودى بن محمد بارودى ، وهذا الرجل هو من فحول العلماء وله تصانيف ، وكان أصلح أصول التدريس الاسلامى فى الروسية ، وأيقظ المسلمين ، فلهذا نفاه القيصر الى سيبيريا ، ولم يعد من منفاه الا بعد سقوط القيصرية ، فانتخب مفتياً أعظم فى أيام البولشفيك أما القضاة الأربعة اليوم فهم ، العلامة رضاء الدين بن فخر الدين من المشهورين فى البلاغة والتاريخ ، وكشاف الدين ترجانى امام قازان سابقاً ، وصابر جان الحسنى امام أوفا والسيدة مخلصة بوبيا ، وهى سيدة عالمة فاضلة قد اقترحت الحكومة البولشفية ادخالها فى المجلس الأعلى بقولها : ان النساء هن نصف البشر ، وانه من العدل وجود امرأة فيه للمحافظة على حقوق المسلمات (١) . فهذا هو المجلس الاسلامى الأعلى ، وفيه تنحل جميع المسائل الشرعية . ويتبع هذا المجلس تسعون ناحية ، كل ناحية منها فيها محتسب مثل الاستاذ عبد الودود ، فالمحتسبون مرجعهم المجلس الأعلى ، والأئمة فى المساجد مراجعهم المحتسبون .

وأما تركستان فلها تشكيلات دينية ، ومفت أعظم مركزه طاشقند . وكذلك يوجد مفت أعظم لمسلمى القوقاس ، ومفت لمسلمى القريم .

سألت حضرة عبد الودود عما يقال من عدد مسلمى الروسية كلها فقال لى : « فى ولايات قازان ، واورنبورغ ، وأوفا وتوابعها ، مع الباشقرد ٥ ملايين . والغيرغيز ٥ ملايين . وتتر سيبيريا نصف مليون . وولايات تركستان ، طاشقند ، وسمرقند ، وخوقند الخ ١٢ مليوناً . وبخارى مليونان وخيوه مليون واحد . فهذه ٢٥ مليوناً ونصف مليون . » فقلت له ، وفى القوقاس ثلاثة ملايين الى أربعة طاغستانيون ، وجركس . وثلاثة ملايين فى اذربيجان وكرجستان . ونصف مليون أو أكثر فى القريم . فهذه نحو ٣٣ مليوناً . فوافقنى على هذا القول ، وسألت غيره حتى ممن كانوا من أعضاء مجلس الدوما الروسى ، فقالوا ان عدد مسلمى الروسية نحو ٣٥ مليون نسمة .

وفى بولونيه نحو ١٥ ألف نسمة مسلمون ، يقطنون عدة قرى . وفى مملكة ليتوانيه من ممالك البلطيك المستقلة بعد الحرب نحو ١٠ آلاف نسمة ، لهم بعض قرى ، وعندهم مساجد ، ولكنهم لا يعرفون لا العربية ، ولا التركية ، وانما يتكلمون بالليتوانية والروسية وكان يحسن أن يؤخذ منهم بعض طلبة الى الاستانة وآخرون الى مصر لأجل تعليمهم العربى والتركى . وكان منهم طالب أديب فى برلين ، جعلناه عضواً فى النادى الشرقى .

---

(١) روى الطبرى أن كثيراً من الفقهاء أجازوا قضاء المرأة

السيد جمال الدين الافغانى

حكيم الشرق

الامير شكيب

فيلسوف الاسلام ، وعلم الاعلام ، وكوكب الاصلاح ، الذى أطلعه الله فى افق المشرق بعد أن اشتد به الظلام ، حجة الشرق الناهضة ، وآية الحق الباهرة ، الذى قال عنه ارنست رنان ، الفيلسوف الفرنسى المشهور بعد أن عرفه : «كنت أتمثل أمامى عند ما كنت اخاطبه ابن سينا ، أو ابن رشد ، أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين» . قد بلغ من شهرته ، واللهجة بذكره ، والضراوة بعبقريته ولاسيما بمصر والشام ، وسائر البلاد العربية ، ان ترجمة حاله تكاد تكون احدوثة الجميع ؛ فلا حاجة الى الاطالة بجميع تفاصيلها ، ولا الى الاحاطة بغررها وحجولها ، قصارى مافى الأمر ان هناك حوادث لم تكتب الى اليوم ، وان الروايات تضاربت فى أمرين أحدهما ، هل هو أفغانى مولود فى افغانستان ، أم فارسى مولود فى همذان كما زعم بعضهم ، والثانى ، هل هو فيلسوف الهى أم مسلم ، أم فيلسوف مادى معطل . وعلى الأمر الأول نقول : ان كل من عرفوا السيد جمال الدين علموا منه انه من افغانستان ، وانه من سادات كنر الحسينية المشهورين فى تلك الديار ، ووالده السيد صفتر وكان مولده فى اسد آباد بقرب كنر سنة **١٢٥٤** هجرية وفق **١٨٣٨** ميلادية وكذلك عرّف به كبير تلاميذه ، الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، مفتى الديار المصرية ، فى صدر رسالة الدهريين تأليف السيد جمال الدين . ولقد لقيت فى المدينة المنورة قبل الحرب العامة بأشهر السيد حسيناً أحد ولاة افغانستان ، ومن سادات كنر المشار اليهم ، ومن أفاضلهم ، وعلمت منه ان السيد جمال الدين رحمه الله هو منهم ، كما انى سمعت ذلك من جميع رجال الدولة الافغانية وسفرائها ، الذين جمعتنا بهم التقادير فى اوربا بعد تأسيس سفاراتهم بها ، فلا أعلم كيف تتفق كل هذه الروايات من أهل تلك الديار ، على كون المترجم

أفغانى الدار علويا حسينيا ، من أسرة نسبتهم كالشمس ، ومقامهم فى بلاد الافغان أشهر من أن ينوه به ، ويكون فى الحقيقة من همذان ومولوداً بها ؟ ونقول على الثانى : ان الاستاذ الشيخ محمد عبده تعرض الى ادحاض هـذه التهمة أكثر من مرة وعرب من الفارسية بمساعدة عارف افندى أبى تراب الافغانى رسالة « النيتشريين » أى الطبيعيين التى يرد فيها السيد جمال الدين على الملحدة والمعطلة ، ويقيم العقيدة الالهية على أساطين المنطق ، والحكمة العقلية ، ويثبت صحة الوحى ، وينتهى الى ايضاح البراهين المحمدية ، كل ذلك بملكة قلّ أن تتاح قوتها لفيلسوف غيره ، ولكن بعض الناس — ولا سيما العلماء الحشوية — أبوا أن يروا فى الفلاسفة الا ملحدين ومعطلين ، ومن هذا جاء قولهم العامى : من تمنطق تزندق . وبمثل هذه المبادئ السخيفة والكلمات المحزنة ، أضلوا العوام ، ووضعوا عقائدهم فى خصومة دائمة مع الحقائق العلمية ، وجنوا على الاسلام جناية كبرى ظهر أثرها فى الانحطاط السياسى والاجتماعى ، الذى نراه عليه الآن . واذا قام مصلح أو مجدّد يتكلم باسم الحكمة والعلوم العالية ، ويحث على النظر ، وينهى عن التقليد ، ويبين مضار الجمود ، كان أول مايتسرعون اليه رميه بالزندقة ، واتهامه بوهن العقيدة . وقد يصادف ذلك هوى فى افئدة من يميلون الى التعطيل فعلا ، فيلقفون مايسمعونه من هذا القبيل بدون تثبت ، ويسارعون الى اذاعته بين الناس ، لأن من أحب شيئاً أحب أن يرى كبار الرجال شركاء له فيه ، ولهذا صدر الاستاذ الشيخ محمد عبده رسالة الدهريين ، التى أسلفنا ذكرها ، بمقدمة فى ترجمة حال استاذه السيد جمال الدين قال فيها تقريباً مايأتى : « يحملنا على ذكر شئ من سيرة هـذا الرجل مانراه من اختلاف آراء الناس فى أمره ، وتضارب أقوالهم فى حقيقة حاله ، حتى كأنه قوة روحية قامت فى كل ذهن بما يلائمه ، أو حقيقة كلية نزلت فى كل عقل بشكل يشاكله ، والرجل على صفاء جوهره ، وزكاء مخبره لم يتناوله وضع الوضاعين ، ولا حزر الخرّاصين الخ » . ثم شرع بترجمته على الوجه الصحيح ، الذى هو أدرى به من كل مترجم غيره ، بمكانه من خلطة السيد الاستاذ ، وماله به من تمام الخبرة ، ومعه من طول العشرة . فذكر نسبه ، وحسبه ، ومولده ، ومنشأه ، ورحلته ، ومذهبه فى السياسة ، ومذهبه فى الفقه ، وقال فى هذا : « انه حنفى حنفى مع ميل الى مشرب السادة الصوفية ، رضى الله عنهم » . وذكر عن مذهبه السياسى انه كان جل اجتهاده ، فى أن

يرى احدى الدول الاسلامية ، فى صف كبريات الدول الاوربية . وأطال فى وصف مواهبه العقلية ، وقدرته العامية ، الى أن قال : « وبالجملة فلو قلنا ان ما أوتيه من الذكاء ، هو أقصى ماقدّر لغير الأنبياء ، لكنا غير مبالغين » . ووصف شمائله الباهرة ، وأخلاقه العظيمة ، وهممه العالية ، وشجاعته التى لاتعرف للموت معنى ، وعدم مبالاته بالدنيا ، وانتهى الى قوله فيما أتذكر : « وهو حليم يسع حامه ماشاء الله أن يسع ، الى أن يدنو أحد ليمس دينه ، أو شرفه ، فينقلب الى غضب ، تنقض منه الشهب ، فبينما هو حليم أواب ، اذا هو أسد وثاب » . قلت وسترى عاقبة غضبه عندما أهانه الشاه ناصر الدين ملك العجم ، والصورة الفجيعة التى انتهى بها ذلك الخلاف ، مما سنرويه لك فى آخر هذه الترجمة . وقد اتفق أرباب النظر فى هذا العصر ، على أن قدوم السيد جمال الدين الافغانى الى مصر كان مبدأ الحركة الفكرية ، التى بدأت فى البلاد العربية وسائر الشرق الأدنى ، ولم تزل تنمو الى الآن ، رامية الى تحقق الشرق بالمعارف التى ساد بها الغرب ، ورفع سيطرة هذا عن ذاك ، واعادة الشرق سيرته الأولى من الرقى . ولم يقرأ السيد جمال الدين على أحد بالأزهر ، ولكنه كانت له حلقة خاصة فى منزله انتظم فيها عدد من أدباء القطر ، يستفيضون بحر حكمته ويستمطرون صوب صوابه ، اشتهر منهم الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، وابراهيم افندى اللقانى ، والسيد وفا القونى ، وسعد باشا زغلول ، الذى قيل لى انه أدرك أخريات أيام السيد بمصر ، ولازمه ثلة من أدباء الشام ، النازلين بمصر مثل أديب اسحاق ، وسليم النقاش ، وسعيد البستانى ، وغيرهم واندفع مريدوه وحملة علمه ، يكتبون ويخطبون ويبثون الى الملأ ماالتقطوه من فوائده ، وانتظموه من فرائده ، وكان ذلك لسانا عاليا لاعهد للناس بأمثاله ، وأسلوباً راقياً انقطعت منذ قرون عديدة نسبة رجاله ، فأحدث فى الأمة حركة أفكار لم تكن من قبله ، ونفخ فيها روحا سرية ظهر عليها طابع عرفانه وفضله ، فنشطت همم واستجدت عزائم ، وهبت قوى وفاضت قرائح .

وقال الشيخ محمد عبده فى وصف تلك الحركة ما يأتى تقريبا : — لأن نص كلامه ليس بيدى الآن — فاستنارت الألباب ، واستضاءت البصائر ، وانحلت عقل الأوهام عن قوائم العقول . الى أن قال انه لم يكن بمصر للكتابة قبل جمال الدين شأن يذكر ، ولم يكن يعرف من الكتاب سوى عبد الله باشا فكرى ، وخيرى باشا ، وفلان على ضعف

فيه ، وفلان على اختصاص فيه ، وبقية من بقي فاما ساجعون في المراسلات الخاصة ، واما مؤلفون في بعض الكتب الأدبية الخ ، ولم تكن الثورة التي أحدثها السيد جمال الدين في السياسة بأقل منها في المعارف ، ولعمري هاتان توأمان ، فقلما انتشر العلم في مكان الا هتف بالحرية. وأول أثر ظهر لجمال الدين في ميدان السياسة ، هو الحركة التي هبت في أواخر أيام الخديوي اسماعيل باشا وآلت الى خلعه من الخديوية ، وكان للسيد اليد الطولى فيها ولما جلس توفيق باشا على كرسي مصر شكر لجمال الدين مساعيه ، لكن لم يطل الأمر حتى دبت عقارب السعاية في حقه ، وجاء من دس الى الخديوي الجديد أن السيد لن يقف عند هذا الحد ، وقد تحدثه نفسه بثورة ثانية ، وباقامة حكم جمهوري وما أشبه ذلك ، مما لا يعيي تنميقه السعاة والمتملقين ، فصدر الأمر فجأة بنفي جمال الدين وأخرج الى السويس ، ومنها ذهب الى الهند ، ولم يدخل بعدها مصر . وجرت الحركة العرابية في غيابه ، واحتل الانكليز مصر . ومما لا مراء فيه أن المبدأ الوطني ، الذي رأس تلك الحركة كان من زرعه هو ، وان كان هب على ذلك الزرع ، من سموم الجهل ونقصان التربية السياسية ، ولفحه من الدسائس الأجنبية ماصوح نضرته ، وأذهب ثمرته ، شأن تلك الدسائس على كل نهضة تحدث في الشرق أو حركة اصلاح تشفق من ورائها الدول أن تتمزق حجب الغباوة التي هي أصدق عوامل الاستعمار الا أن ذلك الزرع لم تذهب بزرته من الأرض ، وعاد فأخرج شطأه ، ومازال ينمو حتى استوى على سوقه ، يعجب جمال الدين لو عاش الى اليوم ، ويغتاظ به الذين لا يبرحون مماطلين في الجلاء عن مصر ..

وفي سنة ١٨٨٥ ذهب جمال الدين الى أوربا ، وأول مدينة صعد اليها لندرة ثم تحول منها الى باريز حيث وافاه الشيخ محمد عبده أكبر تلاميذه ، وأكمل وعاة علومه ، فأصدرا فيها « العروة الوثقى » التي بلغت من ايقاظ الشرق وهز أعصاب العالم الاسلامي ، مالم تبلغه صحيفة سيارة قبلها ، ولا بعدها ، ولكن لم يسعفهما الوقت أن يصدرا منها الا بضعة عشر عدداً ، فعاد الشيخ محمد عبده الى بيروت حيث كان منفاه على أثر الحادثة العرابية ، وبقي جمال الدين في أوربا يجول في مدنها ويثافن أهل العلم فيها الى أن تلاقى بالشاه ناصر الدين صاحب فارس بلغني أنهما تصادفا في منيخ عاصمة بافاريه ، فدعاه الشاه أن يكون بمعيته لما شاهده من وفرة علمه وفضله ، وتقدم اليه في الذهاب معه الى طهران ، فابى السيد دعوته ،

وأكرم الشاه نزله فى عاصمة فارس ، ومازال فى علياء عنده ، حتى نفس عليه الحساد منزلته هذه لدى الشاه ، ولما كان السيد جمال الدين لا يكتم فكره ، ولا يحتاط من قوة نفسه ، أن يجهر بكل ما يجيش به صدره . وكان بعد ذا وذا يجد فى ادارة أحكام العجم ، مالا يطيق عليه صبراً أقل منه بكثير ، فى الهمة ، واباء الضيم ، وصحة الوجدان فما ظنك برجل نظيره . لم يصعب على أولئك المفسدين ، أن يحكموا الوشاية ، و يوقعوا العداوة بينه و بين الشاه حتى انتهى الأمر باعتقاله وحبسه ، ثم باخراجه مهاناً من فارس الى بغداد ، حيث خاطب المجتهد الكبير ، ميرزا محمد حسن الشيرازى رأس الشيعة فى وقته بكتاب شهير ، عدد فيه مساوئ الشاه ، واستيلاء العته على عقله ، وشرح فيه مضرة امتياز شركة التنباك ، الذى يقضى باستئثار الأجانب بأهم محصول بلاد العجم ، فكان هذا النداء ، من أعظم أسباب الفتوى التى أفتاها ذلك الامام ببطلان هذا الامتياز ، واضطرت الحكومة الفارسية خوف انتقاض العامة الى الغائه . ولكن السيد جمال الدين لم يشف غليله بهذه الحركة وحدها ، وأخذ يعاكس الشاه وحكومته بكل وسيلة ، وكان كلما تذكر اهانة الشاه له ، و بين جنبيه تلك النفس العظيمة ، التى لو قلنا ان أنفس الملوك فى جنبها تعد أنفس سوقة ، لكنا غير مغالين هاج به هائج الانتقام ، وتقصد الأخذ بالثار ، لا سيما أنه كان رأى بعينه فى ايران ، من آثار الاستبداد والظلم وفجائع العسف والغشم وذهاب مصالح الأمة العامة فى سبيل اهواء افراد ، وشهوات آحاد ، مامكن فى خلده فكرة العمل لقلع الشاه من مركزه . وصادف بعد ذلك أنه ذهب الى لندرة مرة ثانية ، فحرر فى مجلة سماها « ضياء الخافقين » مقالات على أحوال فارس تقيم وتقعد ، وكان السلطان عبد الحميد قد دعا السيد جمال الدين الى الاستانة وذلك فى سنة ١٨٩٢ فجاءها وكانت هذه المرة الثانية لدخوله هذه العاصمة . اذ كان قد عرف الاستانة مرة قبلها فى زمن السلطان عبد العزيز . هذا ولما كانت سبقت لمحرر هذه السطور معه مراسلات بواسطة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده كان أول من سألت عنهم عند سفرى الأول الى أوربا سنة ١٨٩٢ المذكورة ، هو المرحوم السيد جمال الدين فقيل لى انه قصد الاستانة وأظهر لى التخوف على مصيره فى الاستانة هنرى روشفور ، الكاتب الفرنسى الشهير ، الذى عرفته وهو منفى بلندرة . وكان روشفور يحب السيد جمال الدين و يحترمه ، وقد وصفه فى كتابه « ماجريات حياتى » بقوله هكذا على أسلوبه الخاص به فى الكتابة :

« السيد جمال الدين الأفغانى من سلالة النبى ، والمعدود هو أيضاً أنه أشبه بنبى » ثم قال : « اننى شعرت نحو هذا الرجل بعاطفة الحب التى أجدها تربطنى بكل داع الى ثورة أو مقاوم لسلطة . »

ولما ورد السيد جمال الدين الاستانة أنزله السلطان منزلا كريما ، فى دار ضيافة خصه بها فى نشان طاش ، وأجرى عليه الأرزاق الوافرة ، وكان يدخل على السلطان ويصلى صلاة الجمعة معه . ومضت مدة وجمال الدين حظىّ عند أمير المؤمنين ، لا خوف عليه ولا هو يحزن وكان الجو لم يسفر بينه و بين السيد أبى الهدى الصيادى فنسأ ذلك أجل القصص بحقه الى السلطان ، وانما كانت تلك فترة لايعبأ بها ، اذ ماعتم الأستاذ الصيادى أن وجه عليه حملاته عند مولاه ، واندفع يتهم جمال الدين بالكفر والزندقة ، كما هو ديدن هؤلاء فى شأن كل من أرادوا تنقصه من الحكماء . وقد اطلعت على نشرة من جانب السيد أبى الهدى تتناول ثلاثة من أعدائه وهم السيد فضل العلوى الحضرمى أمير ظفار ، والشيخ ظافر المدنى الطرابلسى شيخ الطريقة الشاذلية ، والسيد جمال الدين الأفغانى ، وثلاثتهم كانوا من المقربين الى السلطان ، وكان لكل منهم نصيب وافر من الشتم والوقيعة فى هذه النشرة ، وحصة السيد جمال الدين كانت تهمة الالحاد وفساد الاعتقاد . ومن جملة الشواهد على ذلك كونه قال مرة : « أنا أطوف بأشجار البندلر طواف الحجيج بالكعبة » . والبندلر هى السدود بالتركية وذلك أنه يوجد محل نزهة بظاهر الاستانة قد سد السلاطين العظام فيه أودية بحيث تكونت منها بحيرات لسقيا العاصمة ، وقد أحاطت بتلك البرك غابات ملتفة بديعة ، فغاية مايقال ان جمال الدين عبر عن نزاهة ذلك المكان بعبارة شعرية ، فاستخرج منها أبو الهدى الحاداً وكفراً . وكان جواسيس السلطان يحصون عليه جميع حركاته وسكناته ، ليقدموا ذلك الى السلطان . فما يروى أنه كان هو وعبد الله نديم الكاتب المصرى المشهور فى متنزه « الكاغد خانه » ، فصادفا الجناب الخديوى عباس حلمى ، وسلم بعضهم على بعض ، وتحادثوا نحو ربع ساعة تحت شجرة هناك . فيقال ان السيد أبا الهدى قدم تقريراً للسلطان بأن جمال الدين وعبد الله نديم تواعدا مع الخديوى على الاجتماع فى الكاغد خانه . وهناك عند الاجتماع بايعاه تحت الشجرة . لكن السلطان بحسب قول جمال الدين لم يحفل بهذه الوشاية . ولكن هذا الخلاف مع أبى الهدى لم يزعزع مكانة جمال الدين

من السلطان وربما زاده لديه زلفى ، وانما أدى الى وحشة الخليفة منه ، استمراره فى مجالسه التى كانت تنتابها الناس دائماً على القدح فى شاه العجم مما حمل سفير ايران على رفع الشكوى الى السلطان ، فاستدعى السلطان اليه السيد جمال الدين وقال له : « ان سفير العجم ترجانى أن أتكلم معك فى الكف عن الوقيعة فى الشاه وأنا بناء على أملى فيك وعدته بأنك تكف عنه » وقد روى لى السيد رحمه الله هذه القصة عند مارجعت من أوربا الى الاستانة فى أواخر سنة ١٨٩٢ . فقال لى هكذا بالحرف : « فقلت للسلطان ما كنت ناويا أن أترك شاه العجم حتى أنزله فى قبره ، ولكن بعد أن أمر أمير المؤمنين بالكف عنه ، فلابد من طاعته . » بمثل هذا كان المترجم يخاطب الملوك ولا يبالى عن موقع مثل هذا الكلام منهم ، مع أن أشدهم حذراً ووسواسا كان السلطان عبد الحميد ، فلا عجب ان وقع فى نفسه شئ منه . ولكن ليت السيد كف بالفعل عن أذى الشاه ، اذ لم يلبث أن عاوده الغضب الذى هو العيب الذى عوذ الله به حسناته العديدة ، والذى جرّ عليه كثيراً من المصائب ، حتى قال الشيخ محمد عبده فى وصفه : « وكثيراً ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة » . ففى أحد الايام قدم على جمال الدين رجل من العجم ، بابى المذهب ، اسمه رضا آقا خان ، صادف أنه وجد مع جمال الدين فى حبس واحد فى قزوين عندما اعتقله الشاه ، فحصلت بينهما صحبة أكيدة ثم تفارقا عندما أخرج جمال الدين من الحبس ونفى الى بغداد ثم أخلى سبيل رضا آقا هذا ، ولما بلغه مجئ السيد الى الاستانة جاء يزوره فيها ، فسر به السيد كثيراً ، وكان دائما يحادثه ويتكلمان على شقاء الأمة الايرانية بسوء ارادة سلطانها ناصر الدين . فقال رضا آقاخان يوماً انه هو حاضر أن يفدى نفسه لتخليص أمته فقال له جمال الدين : « ان كان كذلك فاذهب وافعل » فذهب رضا آقاخان ، وبعد أشهر بينما ناصر الدين شاه فى جامع عبد العظيم فى طهران اذ دنا منه هذا الرجل وقتله غيلة وقال له : « بدى از جمال الدين » أى خذها من يد جمال الدين ووردت الأخبار الى الاستانة وتحدث بها الناس كما لا يخفى ، فأبدى السيد جمال الدين مزيد سروره بهذا الخبر وشرع يقول : « قد تحقق الآن أن الأمة الفارسية لم تمت وانها أمة لم تنقطع منها الآمال ، لأن الأمة التى يقوم من أبنائها من يأخذ بثارها و يفتك بالطاغى الذى على رأسها ، لا تكون قد فقدت جراثيم الحياة» . وكلاما من هذا القبيل كان يردده . ثم لما ورده عدد من مجلة «الايلوستراسيون»

التصويرية الفرنسية ، وفيها صورة القاتل رضا آقاخان مصلوباً معلقاً ، والناس ينظرون من حوله هتف : «علو فى الحياة وفى الممات . وقال : انظروا كيف علقوه عالياً عليهم حتى يكون ذلك رمزاً الى أنهم كلهم كانوا من دونه » . وكان الجواسيس ينقلون الى السلطان كل كلمة يفوه بها السيد ، فلم يشك عبد الحميد فى كون قتل الشاه كان بسبب جمال الدين ، وانه مازال وراء الشاه حتى « أنزله فى قبره » كما قال . ومن الغريب أن الشاه بعد أن خلى سراح جمال الدين ، وذهب هذا الى أوربا بلغ الشاه أن المترجم كان يسعى فى تدبير مكيدة مع بعض الايرانيين ، لخلع الشاه أو لقتله ، فندم جداً على افلاته ، ويقال انه هو الذى بعث الى السلطان عبد الحميد يرجو منه استقدام جمال الدين اليه ، ووضعه تحت المراقبة أماناً من شر غوائله ، فاستقدمه السلطان بكتاب من قلم أبى الهدى . ولما ورد الاستانة أمر بالمبالغة فى برّه واكرامه ، ليلهيه عن عداوة شاه العجم ، فكان مع ذلك ما كان ، ولا يمنع حذر من قدر . فلما تحقق السلطان كيفية قتل الشاه غضب غضباً شديداً . وأمر بتشديد المراقبة على المترجم ومنع أى أحد من الاختلاط به الا بارادة سلطانية ، فأصبح السيد فى قصره محبوساً . وكانت الحكومة الايرانية شرعت فى تحقيق حادثة القتل فثبت لديها اغراء جمال الدين لرضا اقاخان بالاشتراك مع شخص فارسى آخر اسمه رضا آقاخان أيضاً ، وشخص بغدادى اسمه الشيخ ابراهيم . فطلبت الدولة الايرانية من الباب العالى تسليمها هؤلاء الثلاثة ، فالسلطان عبد الحميد أبى تسليم جمال الدين ، ولكن الشخصين الآخرين بلغنى أنه جرى تسليمهما وقتلا فى ايران بحجة اشتراكهما بالمؤامرة . ثم ان التضييق بلغ حده على المترجم حتى أرسل الى فيس موريس مستشار سفارة انكلترة يلتمس منه ايصاله الى باخرة يخرج بها من الاستانة ، فحضر فيس موريس اليه وتعهد له بما طلب ، واذ ذاك بلغ السلطان الخبر ، فأرسل اليه أحد حجابه يستعطف خاطره باسم الاسلام أن لايرضى بمس كرامة الخليفة الى هذا الحد ، ولايلتمس حماية أجنبية . فثارت فى أنفه حمية الاسلام ، وبعد أن كان زمّ حقائبه للسفر قال لفيس موريس انه عدل عن السفر ، ومهما كان فليكن . ولكن المراقبة عليه كانت لم تزل باقية ، وكل من أراد أن يشاهده فلابد له من اذن خاص . وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر فى حنكه مرض السرطان واشتد عليه ، فصدرت الارادة السنية باجراء عملية جراحية يتولاها قبور زاده

اسكندر باشا ، كبير جراحى القصر السلطانى ، وكان هذا مقربا جداً الى الحضرة السلطانية، فأجرى له العملية فلم تنجح ، ومالبث الا أياما قلائل حتى فاضت روحه رحمه الله وعفا عنه . وهنا تقوّل الناس أشكالا وألواناً فى قضية هـذا السرطان وهذه العملية الجراحية ، لقرب عهد المرض بحادثة قتل الشاه ، وما كان معروفا من وساوس عبد الحميد . فقيل ان العملية الجراحية لم تعمل على الوجه اللازم لها عمدا ، وقيل لم تلحق بالتطهيرات الواجبة فنا : بحيث انتهت بموت المريض . وحدثنى صديق الكونت لاون أوستروروغ ، المستشرق العلامة ، مترجم كتاب الأحكام السلطانية للماوردى ، وحديثه هذا كان لى فى هـذه الأيام الأخيرة فى لوزان (شهر يناير سـنة ١٩٢٣) . أن المترجم كان صديقه فدعاه اليه بعد اجراء العملية الجراحية وقال له ، ان السلطان أبى أن يتولى العملية الا جراحه الخاص ، وانه هو رأى حاله ازدادت شدة بعد العملية ، فيرجو منـه أن يرسل اليه جراحا فرنسويا ، مستقل الفكر ، طاهر الذمة ، لينظر فى عقب العملية . فأرسل اليه الدكتور لاردى ، وهو رجل لايزال حيا واقامته بجنيف من سويسرة ، فوجد ان العملية لم تجر على وجهها ، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة ، وان المريض قد أشفى بسبب ذلك ، وعاد الى أستروروغ ، وأنبأه بهـذا الأمر المحزن ، ومامضت أيام حتى فارق جمال الدين الحياة . وقال لى واحد ممن كانوا فى خدمة عبد الحميد وقد رويت له هـذه القصة : أن قمبور زاده اسكندر باشا كان أطهر وأشرف من أن يرتكب مثل تلك الدناءة ، ولكن كان رجل عراقى اسمه جارح طبيب أسنان يتردد كثيراً على جمال الدين ويعاين له أسنانه ، وكانت نظارة الضابطة قد استمالت جارح هـذا بالدراهم وجعلته جاسوساً على المترجم ، فصار له عدواً فى ثياب صديق . قال لى صاحب هذه الرواية : فأردت مرة أن أمنع جارحاً من الاختلاط بجمال الدين فأشار الىّ ناظر الضابطة اشارة خفية بأن اتركه ، وفهمت من الاشارة انه يذهب الى هناك ويطبب أسنان السيد بعلم من النظارة والسيد لايعلم بشئ من ذلك ، ويستخلص جارحاً ويثق به . قال فلا أعلم ماذا فعـل جارح بواسطة طبه وثقة جمال الدين به ، قصارى ما أعلم انه لم تمض عدة أشهر عـلى حادثة الشاه ، حـتى ظهر السرطان فى فك السيد من الداخـل ، وأجريت له عملية جراحية فلم تنجح ، وجارح هـذا ملازم للمريض . وبعد موته كنا نراه دائماً حزينا ، كئيبا ، كاسف البال ، واجم الوجه ، خزيان ، مما جعلنا نشتبه أن يكون ذا يد فى افساد الجرح بعد العملية ، أوفى

توليد المرض نفسه من قبل بوسيلة من الوسائل ، فلما مات السيد آخذ يعذبه وجدانه على خيانته هذا الرجل العظيم ، الذى كان وثق به . قال ولا أجزم بكونه هكذا فعل ، ولكننى أجزم بأنه كان جاسوساً على السيد والله من وراء العلم . وكانت وفاته رحمه الله فى ٩ آذار سنة ١٨٩٧ وصلى عليه فى جامع التشويقية فى نشان طاش ، ودفن فى مقبرة على مقربة منه. ولى فى جريدة الاهرام يومئذ مقالة بين يدى فقده ليست فى يدى الآن لمراجعة تاريخها . وكنت لما عدت من أوربا الى الاستانة سنة ١٨٩٢ ، ذهبت اليه فى نهار وصولى ، فاستقبلنى براً وترحيباً ولزمته تلك المدة الى أن اضطررت الى السفر الى وطنى سورية ، ففارقته آسفا وأنا أمنى نفسى بالعودة الى الاستانة ، لمشاهدته والاستفادة منه . وسألنى مرة عما شاهدته فى أوربا وأى نتيجة استخلصتها من حال أولئك القوم ، لأنه كان فيلسوفا تاما لايرى الجزئيات الامن خلال الكليات ، فلما أردت أن أبدى له مايعن لى فى هذا الباب ، وكنت يومئذ فى أول شبابى لم أجاوز الثانية والعشرين من العمر ، غلبتنى مهابة حكمته وخشيت أن لا أصيب المحز ، فتحوطت لكلامى بشئ من انكار النفس واستكبار أن يكون مثلى ممن يجوز أن يتكلم بحضرة مثله ، فما رأيته الانهض وأمسك بيدى وهتف قائلا : « أنا أهنئ أرض الاسلام التى أنبتتك » . فسمع الناس هذه الجملة وما زالوا يتناقلونها ، وماخاله قصدبها الا الجذب بضبعى الى الأمام ، وجبر مانقص من قوتى المعنوية . وحكيت له مرة أن احدى جرائد اميركا بحثت فى موضوع اكتشاف تلك القارة ، فقالت يروى أن العرب خاضوا الاوقيانوس الاطلانتيكى ناشدين البر الذى وراءه ، وسالت هل عند مؤلفى العرب شئ من هذا الخبر ، فعربت ذلك جريدة النشرة الاسبوعية فى بيروت ، وألقت السؤال نفسه على علماء العرب وكنت فى باريز ، فلما اطلعت على القضية لبيت ذلك النداء وراجعت فى المكتبة الوطنية كتب الشريف الادريسى الجغرافى العربى الشهير ، ونقلت من كتابه نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق ، خبر الاخوة المغرورين ، الذين ركبوا سفينة من أشبونه وجعلوا فيها كل مايلزمهم من الزاد والماء ، وخاضوا بها بحر الظلمات الى الغرب حتى وصلوا بعد مسيرة شهر الى جزيرة خالية لم يجدوا بها الا الوحوش ، فركبوا البحر متجهين الى الجنوب ، و بعد نحو شهر أيضا نزلوا بجزيرة فيها أناسى وملك يحكم عليهم ، فقفلوا من عنده متجهين شرقا ، حتى نفذوا بعد مدة الى مرسى اسفى بالمغرب الأقصى . فلما اكملت له الرواية

وانى حررتها جوابا على النشرة الأسبوعية ، وقد أثرتها عنها جميع الجرائد العربية ، التفت الى قائلا : « لا أريد أن أسرّ المسلمين بكلمة . هؤلاء قوم كلما قال لهم الانسان : كونوا بنى آدم . أجابوه : ان آباءنا قد كانوا كذا وكذا . وعاشوا فى خيال مافعل آباؤهم غير مفكرين بان ما كان عليه آباؤهم من الرفعة ، لاينفى ماهم عليه اليوم من الخمول والضعة . قال : ان الانسان اذا بنى قصرا مستوفيا جميع شروط البهاء والنيقة ، ولم يفته فيه شئ من الرفاهة والفراهة ، فهو يفكر حينئذ بأن يأتى الى قصره بالرياش الفلانى النادر من القطر الفلانى ، ويكمل زينة قصره بالآنية الفلانية التى لايملكها الا القليلون ، وأن يجعل فى حديقة القصر هذه الزهرة البديعة وتلك الريحانة العجيبة . فأما وهو قصر متداع الى السقوط ، والجص نازل الى الأرض ، والسقوف قد هوت من كل جانب ، وهو لايقدر على ترميمها ، فهل يخطر بباله أن يأتى لا كمال زينة قصره بهذه الآنية ، وتلك الزهرة ، وهاتيك الديباجة ، كلا ، لعمرى ان من أعوزته الضروريات ، لاحاجة به الى الكماليات ». قال لى : « وأنا لا أقول لك لماذا حققت عن قضية جد العرب لاكتشاف أميركا ، ولكننى أقول لك ان الشرقيين قد أصبحوا بهذه المثابة ، وهى كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر ، قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالا ، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم . فلايليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم الا أن تفعلوا فعلهم » . وكأنه ينظر بهذا الى قول القائل :

نبنى كما كانت أوائلنا ... تبنى ونفعل مثلما فعلوا

وكان من شدة مايجد من الالم لحال الاسلام، تخطر له خواطر نادرة فى هذا الموضوع ، فقال لى احدى المرار : « قد فسدت اخلاق المسلمين الى حد أن لا أمل بأن يصلحوا ، الا بأن ينشأوا خلقا جديداً ، وجيلا مستأنفا ، فحبذا لو لم يبق منهم ، الا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر ، فعند ذلك يتلقون تربية جديدة تسير بهم فى طريق السلامة » . وقال لى نوبة أخرى : « لم يبق فى الاسلام أخلاق ، فهذا محمود سامى (البارودى الشاعر الكبير ، رئيس النظار أثناء حرب عرابى) عاهدنى ثم نكث معى ، وهو أفضل من عرفت من المسلمين» . وقال لى أيضا : « ان المسلمين قد سقطت هممهم ، ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شئ واحد فيهم وهو شهواتهم » . وكان يندد هذا التنديد كله لما كان فيه من الوجد لاسترداد الاسلام مجده القديم ، ولما كان يراه من غفلة المسلمين عن الاخذ باسباب

الرقى ومن السبات العميق الذى أمعنوا فيه ، على حين صاح صائح الجد بسائر الامم هيا على الفلاح . ومن قرأ مجموعة العروة الوثقى التى كانت ترجمان أفكاره ، بقلم تلميذه الشيخ محمد عبده رأى انه أنبأ منذ أربعين سنة بما سيؤول اليه حال الاسلام ، وما ستكون معه سياسة الدول المستعمرة ، مما تحقق كله فيما بعد ، حتى كأنه كان ينظر الى الحوادث المستقبلة فى مرآة . وكان فى أطوار حياته ، فيلسوفا كاملا ، عالما عاملا ، فلا يقول ما لايفعل ولا يكتفى من الحكمة بالنظر دون العمل ، كما هو شأن كثير من العلماء الحفاظين الذين قلوبهم فى واد وألسنتهم فى واد . فكان يفطم نفسه عن الشهوات ، ولا يرى من اللذات الا اللذة العقلية العالية . وقد حاول السلطان عبد الحميد أن يعلق قلبه بالمال والبنين ، ويشغله بزينة الدنيا وراوده على الزواج ، فأبى وأعرض ، وقال له : قضيت حياتى مثل الطير على الغصن ، فلا أريد فى آخر أيامى أن أتعلق بعائلة . وكنت سامراً مرة عنده وعنّ هذا الموضوع ، فقال له أحد الدمشقيين : يا مولاى لماذا لا تتأهلون ويكون لكم الذرّية الصالحة ؟ فلم يعجبه قوله ، ولما انصرف الرجل أقبل علىّ السيد وقال « لم تدخل روح الفلسفة فى هذه الامة » . وليس مراده بذلك التزهيد فى الزواج ، وانما تقرير حقيقة وهى أن الفلسفة لا تبالى بالنسل والذرّية ، وان الفلاسفة قلوبهم فى شغل شاغل عن ذلك ، وكان ينظر الى المال نظره الى التراب فلا يدّخره ، ولا يعرف معنى تثميره ، ولا يتناول منه الا ما هو ضرورى للحياة . ولما كان فى الاستانة ، كان عنده قهرمان هو الذى بيده الحساب والقبض والصرف ، أما هو فلا يدرى من ذلك شيئاً ، وحاول السلطان أن يعطيه رتبة علمية كرتبة قاضى عسكر مثلا ، فأبى أن يقبل الرتبة ، وأن يلبس كسوتها المزركشة بالقصب ، وكذلك رفض قبول الوسام مهما كان عالياً ، فسألته عن ذلك فقال : أ أكون كالبغل يحمل على صدره الجلاجل ؟ وبالجملة فلم يكن يؤخذ لا رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد كان راغبا عن الدنيا بحذافيرها عيوفاً عن زينتها معرضاً عن زخرفها كما مر بك . وأما الرهبة فلم يكن يعرف الخوف الى قلبه سبيلا ، وفيما سردنا لك من قصصه ما فيه مقنع . وعرض حديث أجريت فيه ذكر الشيخ محمد عبده فقلت ، انه من الأفراد بمصر ، فاجابنى : « لا يوجد مثله بمصر » . وكان هذا قبل أن صار الاستاذ فى منصب افتاء الديار المصرية ، ونال تلك الشهرة العظمى .

تحرينا فى ترجمة حال هذا الحكيم الكبير ، هذه الدقائق لأنه مما لا مشاحة فيه ،

أنه هو الموقظ الأعظم للشرق ، وان طريقته ستزداد انتشاراً ، ومبادئه ستطبق فى يوم من الأيام الشرق بأجمعه ، فيسأل الخلف عن أحوال حياته ، و يستقصون عن خواطره ، و يجدّون فى جمع آثاره ، كما نرى الاور بيين اليوم يحرصون جد الحرص ، على اكتشاف أقل شئ يعزى الى عظيم من عظمائهم ، سواء من خبر أو أثر . ومن غريب ضرائب البشر أنهم لا يحرصون على آثار عظمائهم فى حياتهم معشار ما يحرصون عليها بعد ذهابهم ، وكنت أسأل مرة مارسل كاشين ، وجان لونفه ، وجماعة من رؤساء الاشتراكيين الفرنسيس ، عن جوريس نابغة السوسياليست فى هذا العصر ، فبعد أن حدثونى عنه ساعة قالوا لى : « لم نكن نقدره قدره فى حياته كما نقدره قدره اليوم » وأظن الحال كذلك مع رنان ، ومع فيكتور هوغو ، ومع سبنسر ، ومع بسمارك وجميع الأعاظم . فان أقدارهم تزداد بالوفاة ، والولع بآثارهم يتضاعف مع تقادم العهد . وهكذا شأننا مع جمال الدين ومحمد عبده ، وغيرهما من كبار المصلحين ، كلما تقادم عليهم العهد ، حرص الناس من آثارهم على اللفظة الشاردة ، والكلمة الفاردة ، ليكتبوها عنهم بماء الذهب . ولجمال الدين تاريخ للافغان ، ومقالات متفرقة كان عندى منها مجموعة ، سطا عليها لص علم ، وآخر ما نشر له ، رسالة الدهريين التى سبق ذكرها . و بالجملة فلم يكن يحفل بوفرة التصانيف ، وانما كان مؤلف أمم ومصنف ممالك .

* * *

ومن ترجم السيد جمال الدين ، العلامة غولد سيهر المستشرق المجرى المشهور ، شيخ المستشرقين فى العلوم الشرعية ، وصاحب التصانيف العديدة . فقد رأينا له فى دائرة المعارف الاسلامية ، المحررة باللغة الفرنسوية ترجمة خاصة بالمرحوم السيد جمال الدين ، جاء فيها ما ترجمته :

« السيد محمد بن صفتر ، من أعاظم رجال الاسلام فى القرن التاسع عشر ، كان بحسب رأى براون فيلسوفاً ، كاتباً ، خطيباً ، صحفيا . وقبل كل شئ ، كان رجلاً سياسياً يرى فيه مريدوه وطنياً كبيراً ، وأعداؤه مهيجاً خطيراً . وقد كان له تأثير عظيم فى حركات الحرية ، والمنازع الشوروية ، التى جدت فى العشرات الأخيرة من هذه السنين ، فى الحكومات الاسلامية وكانت حركته ترمى الى تحرير هذه الممالك من السيطره الاوربية ، وانقاذها من الاستغلال الاجنبى ، والى ترقية شؤونها الداخلية بتأسيس ادارات حرة .

وكذلك كان يفكر فى جمع هذه الحكومات بأجمعها ومن جملتها ايران الشيعية ، حول الخلافة الاسلامية . لتتمكن بذلك الاتحاد من منع التدخل الاوربى فى أمورها . فجمال الدين بقلمه ولسانه ، كان أصدق ممثل لفكرة الجامعة الاسلامية . وأسرته الشريفة تنتمى الى الحسين بن على بن أبى طالب بواسطة المحدث الشهير الترمذى ، فهو من أجل ذلك يلقب بالسيد . »

ثم يقول انه بعد اكمال تحصيله بكابل ، ذهب الى الهند ، ثم حج البيت سنة ١٢٧٣ ، أو ١٨٥٧ وبعد اوبته من الحج ، دخل فى خدمة دوست محمد خان أمير الافغان ، ورافقه فى حصار هراة ، ولما توفى دوست محمد خان ، دخل فى خدمة محمد أعظم الذى استوزره الى أن كان سقوطه واستيلاء شير على خان على المملكة . فرحل السيد جمال الدين الى الهند (١٨٦٩) ومنها قدم القاهرة حيث أقام أربعين يوماً ، ومنها قصد الاستانة ، فاقبل عليه وزراؤها وعلماؤها ، وأجلوا قدره ، وعرفوا فضله ،وعينته الدولةعضواً بمجس المعارفوصار يلقى بعض الدروس فى أياصوفيا والسلطان أحمد، ودعى مرةالى القاء خطبة فى دار الفنون على فوائد الصناعة ، فذكر النبوة من جملة الوظائف الاجتماعية [١] فأدى ذلك الى أن حسن افندى فهمى شيخ الاسلام رماه بالزندقة ، واضطر الى مغادرة الاستانة قاصداً مصر . فأجرت الحكومة المصرية عليه معاشاً شهرياً ١٢ ألف غرش بدون أن تكلفه إلقاء درس خاص ، وانما كان يقرأ على حلقة من الطلاب فى منزله ، واجتمع حوله كثير من العطاش الى مناهل العلوم العالية الخ .

وذكر غولد سيهر سائر ما يعرف من أحواله مما حرره الشيخ محمد عبده ، فى صدر رسالة الرد على الدهريين ، وما هو بمعنى ترجمتنا له فى هذا الكتاب ، الا أنه يقول انه لما نفى من مصر الى الهند جعلوا اقامته بحيدر آباد الدكان ، وهناك كتب رده على الدهريين ، وانه قد زعم ويلفريد سكافن بلونت وهو مما لم يذكره غيره من مترجميه ، أن جمال الدين ذهب

---

(١) حقيقة هذه القصة أن السيد يومئذ شبه الاجتماع الانساني بجسم أعضاؤه الصناعات المختلفة ، فشبه الصنعة الفلانية باليد ، والفلانية بالرجل ، وهذه بالعين ، وتلك بالأذن ؛ ثم قال وأما الرأس المدبر لهذا الجسم ، فهو اما النبوة أو الحكمة ، والفرق بينهما أن النبوة وحى إلهى معصوم من الخطأ ، وان الحكمة وضع بشرى قد يخطىء وقد يصيب. وكان حسن فهمى افندى شيخ الاسلام يومئذ ، ناقماً على الأفغانى قراراً سابقاً فى مجلس المعارف ينال من رزقه ، فانتهز فرصة هذا الخطاب ليقول ، ان الأفغانى جعل النبوة من جملة الصناعات

من الهند الى أمريكا ، وانه منها جاء الى لندرة سنة ١٨٨٣ .

وذكر غولد سيهر مناقشة جمال الدين مع رنان ، فى أمر قابلية الاسلام للعلم ، فقال ما يأتى بالحرف :

« وقد فتحت له أشهر الجرائد وأعظمها نفوذاً أبواب المراسلة ، فنشر فيها مقالات ممتعة ، عظيمة القيمة على السياسة الشرقية ، التى كانت تتنازعها انكلترة والروسية ، وعلى أحوال تركيا ومصر ، وعلى معنى حركة المهدى السودانى . وفى ذلك الوقت جرت بينه و بين ارنست رنان ، المناظرة التى أساسها محاضرة ألقاها رنان فى السوربون على الاسلام والعلم . فجمال الدين أراد تفنيد مزاعم رنان بعدم قابلية الاسلام للتوليد العامى ، وذلك فى مقالة بجريدة « الدبا » ترجمت أيضاً الى الألمانية . ثم بعد ذلك بقليل ، ترجمت محاضرة رنان ، مصحوبة برد من قلم حسن افندى عاصم الخ » .

ثم ذكر غولد سيهر العروة الوثقى ، وكيف شددت الحكومة الانكليزية بمنعها من أول عدد صدر منها من الدخول الى مصر والهند . وقال انه سنة ١٨٨٥ ، بالرغم مما اشتهر به المترجم من عداوة انكلترة ، داخله الانكليز باشارة المستر بلونت فى أمر ايجاد حل لمسألة المهدى السودانى ، ولكن لم يقترن شئ من ذلك بالعمل . ثم زعم أن الشاه ناصر الدين دعاه بالبرق سنة ١٨٨٦ الى حاضرة ملكه طهران ، وأكرم مثواه و بالغ فى الاحتفاء به ، ولكن خشية الرقباء حملت جمال الدين على الاستئذان من الشاه والذهاب الى الروسية ، حيث أقام مدة وصارت له علاقات كثيرة ، وان لقاءه للشاه فى منيخ كان فى المرة الثانية ودعاه هذا الى الرجوع الى طهران ، وذلك سنة مجئ الشاه الى معرض باريز (١٨٨٩) وذكر غولد سيهر أن سبب الفتنة بين جمال الدين والشاه كان الصدر الأعظم ميرزا على أصغر خان الملقب بأمين السلطان ، نفاسة على جمال الدين بالمكانة التى أحرزها فى ايران ، وان جمال الدين التجا الى مقام عبد العظيم الذى هو أشبه بحرم من دخله فهو آمن ، وأقام به سبعة أشهر والناس تتردد عليه ، الى أن أرسل الشاه كتيبة ٥٠٠ فارس ، اخترقوا حرمة الحرم وأخذوا السيد منه عنوة ، وساقوه مكبلا بالحديد الى خانقين [1] .

ثم استوفى بقية خبره ، وكيفية معاكساته لحكومة الشاه ، ثم مجيئه الى الاستانة ، وموته فيها على الوجه الذى حررناه .

---

(١) على حدود العراق

الاسلام والجنود السوداء

مقالة روجر لابون والتعليق عليها

لالأمير شكيب

١ — الاسلام الاسود
٢ — الاسلام عند السنغاليين
٣ — الخلاصة
٤ — الجنس الاسود والاسلامية

انه مما يجدر بأن يطلع عليه الشرقيون عامة والمسلمون خاصة ، مايصدر فى أوروبا فى الأحايين من الكتابات المتعلقة بهم ، والتصانيف الباحثة عن مصيرهم ، والمقالات المصورة لأحوالهم وشؤونهم بلون مخيلات الكتاب الذين حرروها ، الناطقة عن هوى الأحزاب التى ينتمى هؤلاء الكتاب اليها ، بحيث يعرف منها الشرقى أو المسلم أو المستضعف المغلوب على أمره كائناً من كان ، ماذا يطبخ له فى الخفاء ، وماذا يدس بحقه تحت الستار ، وماذا يدبر عليه بدون علمه مما لا يطلع عليه الا فى الندرى ، ومما هو رام الى ادامة استغلاله ، والاحتياط من وراء اساره ، وتأمين رسفانه الأبدى فى سلاسل العبودية . فمن هذا القبيل ومما نورده مثالا ، مقالة مشبعة ظهرت مؤخراً فى مجلة من أشهر المجلات الفرنسية هى مجلة باريز Revue de Paris فى عدد أول ابريل سنة ١٩٢٣ ، لكاتب فرنساوى اسمه روجر لابون[١] Roger Labonne عنوانها « الاسلام والجنود السوداء » كشف فيها النقاب عن جميع ما ينوى بعضهم فى حق المسلمين الذين تحت نير الافرنجة عامة ونير الفرنسيس خاصة ، وتوخى عدم حصر ذلك فى الميدان السياسى والادارى ، بل تجاوزه الى الميدان الدينى والاجتماعى ، مما لا يجوز التهاون به ولا الاغضاء عنه ولو لأجل العلم به على الأقل . وقد جرت عادة المضللين والماحكين ومخدرى الأعصاب من الاوربيين ، عندما يحدثهم انسان بشأن مقالة

---

(١) راجع الصفحة ٣٠٦ من هذا الجزء

كهذه أو مصنف من بابها ، أن يكون جوابهم أبداً بأن هذه هى آراء أفراد ، لا يؤبه لها ولا يلتفت اليها ، وليست الحكومات المستعمرة لتقيم لها وزناً ، وكلمات كلها من هذا النمط ، فليحذر الشرقيون وجميع المسلمين من قبول هذه الأقاويل ، والاسترسال الى هذه التمويهات ، لئلا يندبوا عاقبة سذاجتهم وحسن ظنهم . ان المبادئ والآراء التى فى المقالة الآتى تعريبها ، وفى مئات بل فى ألوف من أمثالها الصادرة تباعاً فى العالم الأوربى هى عقيدة حزب كبير جداً فى أوروبا ، بل يمكننا أن نقول هى عقيدة السواد الأعظم من أهالى الممالك الاستعمارية ، لا يخرج عن هذه العقيدة سوى الاحزاب الاشتراكية ، والشيوعية ، وغلاة الراديكال ، ومن ند لعلة من العلل من جمهور الأحزاب الأخرى المتوسطة والمتيامنة ومن يليها ، وذلك كعالم كبير طاهر الوجدان ، أو فيلسوف عامل واسع الفكر صادق الانسانية ، أو سياسى محنك راجح العقل يغلب ادراكه هواه ، ويعلم ما فى هذه الأفكار من التهور وما يترتب عليها من الاخطار ، وما يكون لاجرائها بالفعل من سوء العاقبة . وما عدا من ذكرناهم ، فالغالب من القوم هو على هذه العقيدة فلا ينبغى أن نخادع أنفسنا ، وأن نتغابى عن الحقيقة لذة بالتغابى كمن يكتم مرضه ، فانه اذا كان قبيحاً بالمرء أن يغش غيره ، فأقبح منه أن يغش نفسه . فمن الأمور التى لا يجوز أن نغش أنفسنا بها ، الذهاب الى كون هذه المبادئ الضارة بالشرق وبالعالم الاسلامى هى مبادئ الفئة القليلة ، وأن تلك الحكومات غير ماشية بموجبها . والحقيقة أن ليس هناك الا الفرق بين عدو عاقل يمنعه عقله ، وتربأ به رويته ، عن المجاهرة بمكنون فكره ، واقلاق خواطر الأمم المستضعفة بصراحة نيته ، وعدو متهور غلبت عليه حرارة صدره وشدة طمعه ، حتى باح بكل ما ينويه لتأبيد عبودية تلك الأمم المقهورة ، لا سيما المسلمين ، الذين يرونهم أشد خطراً من الجميع بما ينفث القرآن فى روعهم ، من روح العزة وتهوين الموت ابتغاء الحياة الكريمة . وهذا القسم الثانى هو نظير روجر لابون هذا الذى نأتيك بمقاله معرباً بالحرف قال :

— ١ —

لمحة على حالة الاسلام الحاضرة

« نجد الناس فى فرنسا ينظرون بدون قلق ، الى القلاقل والى حركات العصيان

البادية فى العالم الاسلامى . بل ربما ينظرون اليها مع شىء من الشماتة أو السخرية ببعض جيراننا : الذين لا يوصفون بخلوص النية ، ولا يكرهون أن تشتد وتمتد عندهم هذه الحركات ، ويعتقدون أن مجرد التزلف الى الشعوب الاسلامية ، وادعاء المحافظة على حقوقهم ، هما مما يزحزح عنا نحن هذا الخطر الذى يتهدد غيرنا . ثم انهم لا يريدون أن يسمعوا كلام المتشائمين ، الذين تهجس فى صدورهم علاقات الاناضول مع التونسيين والجزائريين والمراكشيين ، والدسائس الجارية على الحدود الشرقية من سلطنتنا الافريقية . بل يقابلون مخاوفهم هذه بتصريحات الاتراك ، الداعية الى الركون والطمأنينة . ويعتمدون على الفشل الذى لقيه اعلان تركيا الجهاد فى الحرب العامة بمعاونة المانية . ثم يسليهم الفرح ، الذى يبديه لنا المسلمون من جراء خطتنا الحاضرة ، وينخدعون بكل سهولة بظاهر الشرق ، الذى من شأنه كتمان سريرته تحت ستار الادب الغض ، والكياسة الزائدة . وينسون أن الاسلام المبنى على قاعدة الخضوع للقوة الغالبة ، تصلح له الصراحة وسياسة الحزم ، اكثر من سياسة التودد والمراماة عن حقوقه .

نعم ان السكون الذى نرى رواقه الآن ممتداً على ممالكنا الاسلامية ، قد يصوب الخطة المتبعة عندنا ، لانه على ضد ما هى الحالة فى الريف الاسبانيولى ، وبرقة الايطالية ، ومصر الانكليزية . ولكن النار توشك أن تصل الينا ان كنا لا نريد أن نلتفت جهة الشرق الذى منه انبعثت الحرب ، والذى حوادثه الحاضرة ليست الا مقدمات لما هو أعم وأطم .

سنة ١٨٩٧ أثبت كوپولانى ودپونت Coppolani et Depont فى كتابهما على الطرق الدينية الاسلامية ما كان من التأثير لانتصار الترك فى تساليا ، فقالا ان الامم الاسلامية كلها مادت طربا لبشائر النصر الذى أحرزه أبناء ملتهم . ولكن هذا الغليان لم يكن يومئذ ذا بال . لان اوربا كانت يومئذ قوية ثابتة متحدة ، وكان المارد الروسى ملقيا بكلكله الثقيل على جميع العالم الشرقى والاسلامى ، فلم يكن ليجرأ أحد من المسلمين على أقل حركة بالرغم من دسائس عبد الحميد ، ومن مظاهرات غليوم الثانى الولائية للاسلام فى الارض المقدسة . أما الآن فقد تغير كل هذا ، فان أوربا قد ضعفت ، وجرأة المقلقين قد تضاعفت ، والحركة القومية تعمل عملها فى الشعوب ، وموسكو بدلا من أن تكون هى ذات اليد الضاغطة على المسلمين اذا هى التى تعضد هذه الحركة وتظاهر أصحابها على التملص من النير الاجنبى .

ان الاهتمام الذى يراقب به العالم الاسلامى حركات الثائرين من مسلمى آسية ، لاجل التخلص من ربقة الغرب ، هو ارهاص لا يجوز الاستخفاف به . فان فوز شعب اسلامى على حكومة اوربية لا يخلو أبداً من رد فعل يمتد الى أقصى البلدان عن مرزح المعركة ، فلو رأيت جرائد الاستانة أيام انكسار الاسبانيول فى الريف كيف كانت تهلل وتكبر ، وتنشر فى صفحاتها الاولى بشائر نصر المراكشيين المسلمين ، وخرائط ميادين الحرب ، لقضيت العجب ، وانك لترى أقل اضطراب يقع فى برقه أو تونس أوسورية أو الهند مبالغا فيه أشد المبالغة فى الصحف التركية .

مع ذلك سياسة محاسنة الاسلام لا تزال ماشية ، على ما فيها من تضليل الافهام . ونبذ النصائح المبنية على التجارب ، ولا يبرح بعضهم معتقدين أن لا خطر من هذه السياسة . وان كان ثمة من خطر فيكون على جيراننا فقط . ولقد اشتدت مجارى الحب والبغض بعد الحرب ، الى حد أن أصبح الانسان يرى الصواب فى عدم اقتحام غمرتها . وبدلا من أن يبين الخطأ الفظيع الذى دلّ عليه الاختبار الطويل ، تجده يجتزئ بالتعديل الخفيف ، منتظراً أن تأتى الحوادث بما يبرّد حرارة تلك الاهواء .

واننا فى هذه الدسائس التى يوشك أن يصل الينا أذاها ، نحس بتأثير برلين ، فهناك النادى الشرقى المؤسس سنة ١٩٢٠ ، تحت حماية مجلس برلين البلدى والجنرال لودندورف . يصدر جريدة لواء الاسلام بالعربى والتركى والفارسى ، التى الغاية منها بث الدعوة ، وتفسير حوادث اوربا وآسية بالشكل المناسب . ويضاف الى هذه العوامل الناشئة عن حالة الحرب ، عوامل أخرى للهيجان ، هى غير واردة توّاً ، بل هى من فطرة الاسلام نفسه . فقد تكرر مراراً ان ديانة النبى تحتم على أتباعها الاستسلام للقوة ، وأنها تجعل القوة خاصة الهيبة تجب طاعتها ولو كان صاحبها كافراً ، فالقوة من الله ومن ذا الذى يقدر أن يناهض قوة الله .

وان هذا المشرب المخالف لديدن الاوربيين ، الذين يندفعون بعامل العاطفة ، هو السبب الوحيد فيما نجده من انقياد أشد الأمم الاسلامية للفاتح الاجنبي . واكثر مايحدث من

الاغلاط فى سياسة هـذه الأمم ناشئ عن الجهل بهذه الحقيقة ، [١] فالاسلام لايخضع بفطرته الا للسلطة القاهرة . والسلطة والعلاء عنده توأمان . وعند ما كانت أوروبا متحـدة وكان هناك ما يسمونه بالمجتمع الدولى ، كانت مكانة أوروبا فوق أن تنازع ، وكانت الشعوب الاسـلامية واحداً بعـد واحد تلق السلاح ، ولم يكن ثمـة منها الا بعض حركات عارضة ، وثورات منحصرة ، فـكانت قوة الثائرين ، من مهـدى وزعيم لا تنبسط ولا على جميع القبائل المجاورة . ولما جاءت الحرب الـكبرى ، كنت ترى بنجابيى لاهور ، وهنود البنغاله ، وكافنبور ، ومصريى وادى النيـل ، والاعراب ، والبرابر ، والمراكشيين ، والبامباره [٢] يتجندون تحت رايات دول الحلفاء ، وان مليونا ونصف مليون مقاتل من المسلمين ، قاتلوا بمزيد البسالة عساكر خليفة استانبول وقيصر برلين . وهـذا النفوذ التركى الذى يعدونه الآن عنصراً ضروريا للنظام والسكون فى العالم الاسلامى ، لم نجد له أدنى دور يذكر فى الحرب العامة ، ولا استجلب للألمان أدنى حليف من المسلمين ، ولا أحـدث أدنى مشاقَّة للحلفاء . بل تبارى المشايخ فى مراكش والمغرب ، على نشر الفتاوى المضادة لابناء ملتهم من الأتراك . فلما أمضيت متاركة مودروس ، ووقف جيش الحلفاء الظافر عند الدانوب ، وجيش الانـكليز عند الفرات . كانت ديار آل عثمان تموج بالعساكر الاسلامية المقاتلة تحت ألوية الحلفاء ، وفتوى شيخ الاسلام ودعوة الجون ترك لم يسمعهما أحـد . وكان الشرق كله يتوقع أحكام أوربا التى أبطأ صدورها ، وكان موطناً نفسه على الطاعة ، لـكن لم يطل الأمر حتى انصرفت الجيوش ، وظهر الضعف والتردد فى عزائم الحلفاء . فعادت الحركة الى الشرق وعاشت آمال أهله ، وعرفت ذلك احدى جرائد انقرة بقولها : « ان أوربا حل بها الوهن بسبب التنازع ، ويد الله أخذت على أيدى الصليبيين الغالبين ، بينما كانوا على وشك اغراق المؤمنين بسيلهم » فنشط الاسلام ، ونزعت تركيا ومصر والعراق وأفغانستان والهند الى الثورة ، وعجل فى ذلك التحالف مع البولشفيك ، وشعرت الدول الغربية على أثر الخسائر التى أولدتها الحرب بخور القوى ، وبالحاجة الى مداخلتها الثائرين فى أمر الصلح ، وجنح الجميع الى الهوادة . فانـكلترة مالت الى الرفق بافغانستان وفارس

(١) أى كون الاسلام عبداً للقوة

(٢) جيل من أوائل بلاد السودان ينزلون بين صحراء افريقية من الشمال وأعالى السنيغال من الجنوب

والعراق . وفرنسا أبدت التساهل فى كيليكيا . وايطالية سلكت مسلك التؤدة فى طرابلس الغرب والبانية . فسكنت الأمور وهدأت الأحوال ، ولكن سقط جاه أوربا فى نظر الاسلام وتشجع الثائرون . ورأيت هذه الثورات بأجعها مطبوعة على غرار واحد ، فانه يوجد على رأسها دائماً بعض مفكرين ، ينحون بزعمهم المناحى الغربية ، آخذين ببعض معلومات قرأوها ، وأساءت هضمها عقولهم مع قلة الخبر وشدة الكبر ، ثم من تحتهم أمة جاهلة ليست على سوية واحدة ، ذات أخلاق حسنة ، لكنها لا تحسن شيئاً غير اظهار احتياجها الى النظام والسلام . على أن لها من يثير ثائر عصبيتها ، من المشايخ والمرابطين المستولين على العقول والافئدة .

وفى مصر ازداد عدد المتعلمين من أطباء ومحامين ومهندسين وصحفيين ، ممن يريد تحرير بلاده ، وينتظر أن يحل محل الانكليز الموظفين ، فتحرج بذلك مركز انكلترة . ومما لا شك فيه ، أن مبادىء الوطنيين جديرة بالاحترام ، لكننا نراهم لا يريدون أن يعترفوا بفضل الاحتلال الانكليزى ونجدهم متمسكين بكلمات فارغة غير متوقفين عن انتقاد الأحوال الضرورية التى هى بنات التجربة ، ولا متجنبين أخطار التعصب وعداوة الاجانب ، بل مجتهدين فى تلقين مبادئهم هذه ذلك الفلاّح الذى أثرى ببيع قطنه ،ودائبين فى اثارته ، على ادارة ذاق بها طعم الراحة والسعادة .

هذا هو تاريخ الحركة المصرية ، وهذا ما يمكن أن يكون غداً سير حركة الاستقلال فى بلدان تهمنا أكثر من مصر . فان المسئلة الوطنية القومية قد بدأت تنمو وتتقوى عند جميع شعوب الشرق ، لا سيما العرب .ومن العبث أن نتجاهل ذلك ، ونحن الآن بعد مضىّ مائة سنة على فتحنا افريقية ، أخذنا ندرك الخطأ الذى ركبناه ، فى طريقة ضمنت لنا الفتح الحربى والفوز السياسى ، لكنها أهملت الفتح المعنوى الذى كنا نراه من القسم المستحيل . ومن اهمال هذا الفتح المعنوى ، تأتى المتاعب كلما اشتد الهيجان فى العالم الاسلامى . ففى الجزائر بالرغم من الصداقة والأمانة اللتين أظهرهما الجيش الوطنى أثناء الحرب كانت نتيجة انتخابات ١٩١٩ مما يوجب قلق الفكر فان الستمائة ألف وطنى ، الذين آتيناهم حق الانتخاب بموجب أمر ٤ شباط ، رشحوا بأجمعهم كل من عرف ببغض فرنسا ، وكان

من جماعة الأمير خالد (١) وكذلك الشبان ، الذين حصلوا العلم فى مدارسنا وتلقوا تربية أوربية ، كانوا أشد الناس مناهضة لقضية تجنيد الوطنيين . فاما العامة ، فهى باقية بعيدة عنا جداً من الجهة المعنوية ، ومنذ خفق العلم الفرنساوى فوق مرسى الجزائر ، تكوّن بين هذه الأمة وئام لم تعرفه من قبل .

لقد عظمت الأغلاط التى ارتكبها ولاة الأمور الذين تسلموا مقاليد الجزائر ، بالغائهم العمل بعادات البربر وعرفهم القديم ، وحملهم طراً على شريعة القرآن . ومن المسموع ، أنه كان فى ذلك الوقت ٨٠٠ ألف بربرى غير مسلمين ولا مستعربين . فالولاة من الفرنسيس مراعاة للشرط الذى وقع عند تسليم الجزائر ، من عدم مس الشعائر الاسلامية ، تجنبوا الى حد المبالغة ، الاخلال بكل ما يخالف هذا الشرط ، وظنوا أنه صار من واجباتهم حمل البربر على أحكام مخالفة لعاداتهم وعرفهم . وبدلا من أن يجعلوا هذه العادات القديمة الباقية للبربر من عهد الرومان قوانين مرعية نافذة ، عدلوا بهم عنها الى أحكام الشرع التى بأيدى القضاة والمرابطين ، وهكذا أوجدوا وحدة دينية قومية ، عجز فاتحو شمالى افريقية (٢) منذ ١٢ قرناً عن ايجادها . ولقد دخلت الاهواء والعواطف فى هذه المسئلة ، فلم يبدأ احتكاكنا بالاسلام ، حتى جعل الاسلام يستفيد من أصحاب العقول الشاذة عندنا ، ومن دعاة البدع والأمور الغريبة ، الذين أخذ بعقولهم ما فى حياة اتباع محمد من الكرامة والرصانة ، وما فى الصلاة فوق ركام الرمل ، من السذاجة المقرونة بزعمهم بالوقار والهيبة . وكانوا يستحلون تلك الحركات البسيطة الجليلة ، التى تزيدها جمالا وجلالا فى نظرهم ، هيئة برانس المسلمين أثناء صلاتهم . نعم اشتغل هؤلاء المفتونون بحب العرب بالأمور الصورية عن الأمور المعنوية ، وتناسوا حالة العربى النفسية ، وما عنده من الكراهة لكل مخلوق غير مسلم ، وما هناك من عقيدة القضاء والقدر التى هى عقيدة الجمود ، والتى لا تمتزج مع الاحتياجات العصرية .

ان هؤلاء المفتونين بالاسلام ، الذين يمرون بأقطاره سراعا ، يذكرون دين الرسول

(١) ابن الأمير الهاشمى ابن الامير عبد القادر
(٢) الفاتحون المسلمون

بتزيد الاطراء [١] وسنة ١٨٣٨ نهت جريدة « الدبا » عن تنصير المسلمين بحجة أن ذلك يفقدهم صبغتهم المحلية ، وأن ذلك مخالف للمصلحة . وفى أيامنا هذه كاتب شهير [٢] يلوم على تنصير البنات المسلمات فى سان لويس (فى السنيغال) ، بحجـة أن الراهبات يغيرن لهن ملابسهن الوطنية التى هى أليق بهن . فأحكام كهذه مستعجلة ، لا تزال تقوى عاطفة الميل عند الأمة الفرنسـية الى المسلمين ، الذين منهم عـدد عظيم فى تبعية فرنسا ، وتحول دون رؤية عيوب الدين الاسلامى ، المستورة بظواهره الشعرية ، فلفظة اسلام ومغرب وحجاز وما أشبه ذلك ، كادت تـكون ألفاظاً صوفية تأخذ بلب بعض الناس .

على أننا لا نـكون هجمنا على الاسلام ، ولا تعرضنا لهذه الشعوب الاسلامية فى عقائدها المحترمة اذا كنا ننبه الناس الى أخطار ديانة ، من جملة برنامجها الحرب المقدسة ، وعداوة غير المسلم ، والتوحيد بين الشرع الدينى والقانون المدنى ، مما يجعل الامتزاج صعبا . وناهيك أن الشرع الاسلامى بمنعه الزواج بين المستعمرين الأوربيين والنساء المسلمات ، قد وقف سداً دون كل اختلاط بين الفريقين ، مع أن الجنس اللاتينى هو غير الجنس الانـكلوصا كسونى ، فان الجنس الصا كسونى حينما حل بأمريكا وزيلانده الجديدة واستراليه لاشى العنصر الأصلى هناك ، أما اللاتينى فهو يهوى الامتزاج مع العناصر التى يجدها أمامه ، فجيوش تراجانوس اللاتينى امتزجت بأقوام الدانوب وتـكونت منها أهالى رومانيا الحاضرة ، وأما بربر شمالى افريقية الذين هم ذوو قربى مع اللاتين ، فلم يكن بينهم وبين هؤلاء امتزاج أصلا ، بل تجد الفروق تتسع يوماً فيوماً بين الفريقين . كذلك ترى التقدم بطيئاً جداً ، فى الأمم الاسلامية التى فى شرقى أوربا وآسية ، لأن فقد حرية البحث يقضى على روح الانتقاد ، ويعزز عقيدة الاستسلام والرضى بأى شئ كان . لا نـكون أهنا الدين الاسـلامى اذا بينا حالة التأخر التى عليها الأمم التى دانت به ، لاسيما اذا تركت وشأنها . فان الاسلام يعارض التقدم العصرى بحواجز قوانينه المدنية والدينية ، وحصون شرائعه الاجتماعية ، وما هناك من الأوامر والنواهى . فلو كان بربر أفريقية يتبعون غير

---

(١) وذكر الـكاتب هنا اسم رجـل من هذا النفر اسمه دوكاسـترى De Casteries له مؤلف فى الاسلام

(٢) ذكر اسمه وهو المسيو آدم P. Adam ؛ فى كتاب اسمه قرطاجنة Cartage

دين الاسلام لكان مركزنا هناك أقوى مما هو اليوم ، واذا قررنا هذه الحقيقة فلا يكون مرادنا منها الاقتداء بروسيا في حملها الأمم المغلوبة على قبول ديانة الفاتحين .

ان تلك الآراء الفاسدة المتعلقة بالاسلام ، هي عبارة عن استنتاجات غير صحيحة ، من مقدمات واهية صارت عند البعض حقائق كلية . ومن جملة هذه النتائج الباطلة ، كون المسلم لا يصبأ عن دينه . فهذه الفكرة مع خشية فوران التعصب مما هو وهم بحت ، حمل رجال الحكومة الفرنسوية في الجزائر منذ بداية فتح فرنسا لهذا القطر ، على معارضة مساعي جمعيات التبشير الفرنسوية ، الرامية الى تنصير المسلمين . حتى انهم كانوا يجعلون حرّاساً على أبواب الكنائس لمنع المسلمين من غشيانها . وكان قسيس عربي من سورية دخل الجزائر وصار له نفاذ عظيم بين أبناء جلدته [1] فطردته السلطة الفرنسوية من هناك . وبالجملة فقد حملوا الأهالي على الخضوع لأحكام القضاة القرآنية ،وتوقف بذلك سير حركة التنصير ، التي كانت قد بدأت بين البربر غير المتدينين . ثم لقيت مجاهيد الراعي جالابرت (Le Pasteur Galabert) في مدينتي القصور وبجاية ، ومساعي الكردينال لافيجري في افريقية لأجل التقريب بين الوطنيين والأمة الفاتحة حذراً شديدا وأصبحت تلك المشروعات على شفا السقوط ، ولم يفهم بعضهم فوائدها ولا غاياتها الانسانية ، بل كانوا من شدة خوفهم أن تكون حركة دينية ، يضعون العراقيل في وجه هؤلاء المبشرين ويطعنون في المتنصرين ، ويصمونهم بجميع عيوب قومهم ، مضافة اليها عيوب الأمة التي دخلوا في دينها فزعموا أن الرجال من المتنصرين هم من طبقة السكيرين المدمنين ، وأن النساء المتنصرات هن من الغانيات المتهتكات ، وغاب عنهم ان الهيئة الاجتماعية الاسلامية مع ماهي عليه من شدة التستر، فيها عيوبها ، وأن عيوب المتنصرين ، كان تخفّ جداً لو كثر سوادهم وصاروا جماعات .

بعد أن مضى قرن على فتح فرنسا للجزائر ، تضاعف عدد الوطنيين فيها واضمحلت العداوة التي كانت بين العرب والبربر . وترانا لانقدر أن نعتمد على أقلية غير مسلمة كما يعتمد الانكليز على القبط بمصر . ولهذا مثيل في مستعمرات هولانده ، التي صار فيها مركز هذه الدولة حرجاً ، فقد كان مسلمو الجاوى وبورنيو وسومطره لأول فتح هولانده تلك الجزائر ، خمسة ملايين ، فصاروا اليوم ٣٠ مليوناً ، ولم يكن للاسلام ثمة بادئ ذي بدء الا

(١) أي عرب الجزائر

تبع قليل ، فصار الاسلام فى هذا الزمان سيد تلك البلاد . وتجد المسلمين هناك تحت ادارة فئة قليلة مستنيرة من ذوى الاطماع ، متحفزين لرفس وصاية هولانده الأبوية . فأما أرخبيل الفيلبين الذى أهله تنصروا لعهد الاسبانيول ، فان مطالبهم الاستقلالية بادية بشكل معقول بخلاف بلاد الاسلام التى تلاقى حركة الرقىّ فيها ، روح الفوضى والاختلاط التى هى من خاصيات الجماعات الاسلامية اذا تركت وشأنها . ان شبان الاسلام فى آسية الغربية ، يريدون أن يشبهوا قابليتهم للترقى بقابلية اليابان ، ويدّعون أنهم يقدرون على ماقدر عليه اليابان فى الأمور الاجتماعية والاقتصادية ، وينسون أن اليابان لم تكن لترقى هذا الرقىّ العجيب لو بقيت مقيدة بأثقال العقائد القدرية ، ويغفلون عن أن التجدد السياسى لابد أن يسبقه التجدد الاجتماعى .

ماعدا مدة قصيرة للأمويين فى اسبانية وللعباسيين فى بغداد ، لم يوفق الاسلام فى وقت من الأوقات الى تأسيس مدنية خاصة به ، بل جميع أجيال أمة محمد لم تلاحق مجهودا يأذن لها بتوليد عقول كبيرة . بل ان الخصائص التى اشتهرت بها هى خصائص التدمير ، سواء للمدنيات التى وجدتها أمامها ، أو التى حصلت فى داخلها . ومادام السيف فى يد الاسلام كان الاسلام قادراً أن يجرى أحكامه ، فلما قضت الأيام بأن تصحب قوة السيف قوة أخرى هى قوة العلم ، سقط الاسلام . واليوم لأجل أن يزحزح نير الغرب عن عنقه ، نراه يدرك قيمة العلم ويقدر قدر الثقافة الأوربية ، ولكن أكثر مايريد أن يأخذ من أوربا هو صنعة السلاح . ثم اذ علم أن صناعة الأدوات الحربية لاتكفى ، عاد يطلب الاسلحة المعنوية فصارت المطبوعات للمسلم سيفاً ذا طبع آخر يستله فوق رؤوس غير المؤمنين . وتجد الجرائد الاسلامية تتكاثر بمصر ، وتركيا ، والهند ، والجاوى ، والمستعمرات الانكليزية والفرنسوية وكذلك جرائد أخرى تصدر فى الولايات المتحدة ، والبرازيل ، والارجنتين ، عربية سورية وأرناؤوطية . وفى برلين يظهر لواء الاسلام ، وفى باريز ولندن ورومة تصدر جرائد اسلامية جديدة أيضاً ، تبحث فى الشؤون الاسلامية . ومنازع هذه الصحف تختلف باختلاف المراكز التى تصدر فيها ، فجرائد الشرق وجرائد أميركا وبرلين تمتاز بشدة اللهجة وفرط العداء ، وأما جرائد العواصم الأخرى فمزيتها ، لطف اللهجة وبراعة الطلب والكلام المعقول ، ولكن الهدف واحد ولو تنوعت الأساليب ، وهذا الهدف هو تقوية روح

التكافل بين الأمم الاسلامية ، ونشر الاسلام وتحرير أبنائه وزرع بذور الشقاق بين الدول الغربية لأجل تيسير فوز المشرق .»

— ٢ —

الاسلام الأسود

قال بينغر Binger : ان درجة حرارة المسلم الأسود هي على قدر ظاهر لونه ، فالعصبية الدينية العميقة التي تجدها عند المغاربة والأقوام السامية الأصل ، الساكنة في جهات نهر النيجر وبحيرة تشاد ، لاتجدها عند المسلمين من أبناء اللون الأسود ، مثل الامباره Bambara والسيره Serès والبورو Boros ، الذين عندهم تساهل عجيب في ممارسة شعائر دينهم . وماعدا حركات محدودة من آثار دعوة المرابطين ، ومن اجتهادات الحاج عمر واحد و بين السنيغاليين والفولبي Fulbés ، والسونينكه Soninké ، الذين فيهم شيء من الدم البربري ، لم نصادف في افريقية السوداء حربا دينية ، ولا مقاومة أصلها عقيدة القضاء والقدر .

وان عقيدة السنة والجماعة في افريقية الغربية ، مختلطة عند الأهالي مع عاداتهم القديمة ، ومع الأوضاع الفتيشية كالطلاسم والرقى . وقد أورد بينغر مثلا على ضعف حرارة المسلم الأسود قضية ساموري ، الذي بالرغم من كونه مسلماً ديناً ، أكل بدون تحرج من لحم ثور ذبحه العسكر السنيغالي ، على شكل يخالف الأوامر القرآنية ، فمثل هذه المخالفة تعد اثماً كبيراً عند مسلمي الشمال . ثم ذكر بينغر مثلا آخر وهو أنه كان أسود مسيحي يظهر الاسلام أحياناً ليستفيد من الرخص المعطاة للمسلمين في عيد المولد النبويّ أو العيد الكبير .

فهذا الفتور في تمسك الزنجي بديانة يتمسك بها بأقصى الشدة ، الساميون والتورانيون ، يعده بعضهم دليلا على انحطاط عقل الزنجي وفقد قوة التمييز عنده ، والصحيح هو غير ذلك . بل الزنجي رجل حليم ، واسع المشرب ، سهل القياد ، قريب المأخذ ، مع حسّ صادق ومنزع عملي ، وميل الى الخير يجدر بابناء ملته من البيض والصفر أن يقتدوا فيه به . وهو يمتاز بعدم التشدد في اقامة شعائر دينه ، و بالتساهل مع أبناء الأديان

الأخرى . وفطرته السليمة تمنعه أن ينظر الى الأبيض نظره الى رجل ذاهب الى النار ، بل هو يرى الأوربى من الرقى والتفوق ، بحيث لايصدق أبداً ان مثل هـذا الأبيض يمكنه أن يخطئ . ولاشك فى انه بحسب ميله للانقياد والانطباع لو صار به قليل عناء ، لـكان يتقبل دين سيده الأبيض ، الفاتح لبلاده ، بشرط أن هذا الفاتح يدعوه لذلك (!) وان كنت تراه يدين بالاسلام فهذا لظنه أنه ينال بذلك رفعة ، مع أنه أولى به أن يتنصر اذ الأوربى عنده أعلى من المسلم ، ومهما كان يرى من عزة المسلم ، فهو يعلم أنها ليست شيئاً بالقياس الى عزة أوربا .

وعليه فينبغى أن نعلم أن اسلام السودان هوسطحى قائم بصور ظاهرة فقط ، ولأجل تعليل هذه القضية التى لاتوجد الائمة ، زعموا وجود علل أخرى غير ذهنية الزنجى نفسه ، فذكروا تأثير الاقليم والعادات والبيئات ، وقالوا ان البـلاد الشمالية من الـكرة هى غـير مساعدة على انتشار الاسلام ، لأن طول النهار المفرط وقصر النهار المفرط يحدثان اختلاطاً عظيما بعـلم الميقات القرآنى ، فصلاة الظهر وصلاة العصر تختلطان مع صلاة المغرب وصـلاة العشاء هناك ، فيتطرّق الشك الىقلب المؤمن . ففى أواسط افريقية الحالة أيضاً هى مشابهة لتلك الحالة ، فالأنهار والشجر الـكبار التى يعد بها القرآن المؤمنين ، هى فى هذه الأصقاع من الـكثرة بحيث يصبح هذا الثواب لاقيمة له . فالاسلام لأجل نجاح دعوته محتاج الى صحارى واسعة تتجلى بها عظمة الله تعالى كصحارى آسية الوسطى ، أما فى خط الاستواء فالاسلام مركزه قلق ، لأنه ينحصر ثمة فى الآفاق الضيقه بين الغابات الملتفة ، حيث يصعب على المؤمنين معرفة القبلة ، فيعدلون عن شعائر الدين . على أنه مهما فرضنا كون شعائر الاسلام سليمة فى الظاهر نتساءل ، هل يوجد لنا مصلحة فى تمـكينه يمتد و ينتشر بين هذه الأقوام ، لابل فى أن نعترف به ديناً رسميا لمن دان به منهم . سيحصل لعمرى فى غربى افريقية ماقد حصل فى الجزائر ، و يمتد الاسلام و ينتشر بسببنا (!) وتحت حماية أسلحتنا عند أقوام أشداء لم يزالوا منـذ قرون يرفضون الاسلام ، الذى يأتيهم به تجار الرقيق من العرب ويحبطون فتوحاتهم الدينية والعسكرية . ونحن كلما أوغلنا فى تلك الديار ازداد الاسلام بسطة . وقد أرادوا تأويل ذلك بأسباب عديدة منها ، كون العربية لسان الرسول القرشى هى لسان التجار الجائلين بتلك الأقطار ، ومنها أن مبادئ الاسلام تطابق عقيدة

الاستسلام للقدر التى عليها الزنجى ، ومنها أن هذا يميل الى بساطة الاعتقاد وتجذبه سذاجة الشعائر ، وقالوا ان ممارسة هذه الشعائر ، سهلة طبعية ، ثم هناك لذات النعيم التى يحبها هؤلاء الهمج عامل آخر ، ومعلوم انه لأجل أن يكتب المرء مع السعداء يكفيه لفظ كلمة لااله الاالله ، فانه بها يصير مسلما بدون أن يشعر . وعززوا هذه الأقوال بأن عقائد الأوربيين تنافى البساطة ، وان شعائرها صعبة ، وان آدابهم كثيرة التجريد ، وفيها تحريج كثير على اللذات الحسية ومنع لتعدد الأزواج ، وبالجملة فقالوا ان الاسلام وجد ديناً موافقاً للزنجى كما وجد موافقاً للعربى ، ومن العبث الاجتهاد فى وضع دين آخر محله فى تلك الأصقاع . فهذه الظنون التى صارت قضايا مسلمة لم توضع موضع الحك والنقد ، ولو محصت لثبت أن ليس بصحيح كون الاسلام هو العقيدة التى تلائم الأسود الخالص أكثر من سواها ، فان أقلية مهمة من السنيغاليين قد أمكن تنصيرها . وبلاد الأوغانده صار أهلها كلهم نصارى . أما كون العرب والبربر يأبون كل دين غير الاسلام ، فلنا من القبط والحبشة مثال كاف لاثبات كون الاسلام ليس ذا تأثير عليهم الى ذلك الحد .

فثلاثة أرباع الحبشة وهم جنس آمهاره Amharas ومعهم أقلية بربرية وزنوج ، لبثوا متمسكين بالنصرانية بالرغم من تلاطم أمواج الاسلام فى جوانبهم . وأحسن من ذلك أن بلاداً بأسرها مثل هرر كانت أسلمت بعد ثورة الدراويش ، فعادت الى النصرانية بعد ظفر النجاشى منليك بالأمير عبدالله سنة ١٨٨٤ . ولقد بقيت الديانة المسيحية والقومية الحبشية متحدتين كما هو الشأن فى الشرق ، بأن الديانة والقومية تسيران معاً ، وحفظتا استقلالهما أكثر من الف سنة . وبينما قبائل بربرنا فى الجزائر وأمم البويل Peuls والفولبى Fulbés ، الذين هم من جنس بربر الحبشة مشتتون هباء منثورا بسبب عقيدتهم الدينية ، الداعية الى الكسل والخمول ، رأيت الحبشة بأمانتها لدينها ، واقفة فى وجه الفتح العربى . وتمكنت المسيحية ان تعيش فى وسط هذه الأمم الزنجية والبربرية ، وان كانت شعائرها هناك لاتزال معقدة ، لأنها ممتزجة بعقائد يهودية ، وعادات بيزنطية ، فالاكليروس (طبقة القسيسين) له فى الحبشة نظام صارم ، وهو تابع للكنيسة الأرثوذكسية فى الزواج ، وعزوبة الكهنة ، ويخرج القسيس فى المراسم الدينية بالأثواب المزركشة بالقصب بين قرع الطبول ونقر الدفوف . فالحبشى بهذه العادات هو بعيد اذاً عن سهولة الشعائر الاسلامية

وهو يصوم صوم المسامين الشاق ، واذا بلغ الكبر يترهب فى دير . فمن هنا يظهر بطلان قول البعض « ان النصرانية شديدة التعقيد ، شاقة التكليف ، كثيرة المعانى المجردة بالنسبة الى مدارك الزنجى الساذج ، فهى تخالف ظروف حياته وتبطل نظام اجتماعه ، ولذلك فالأسود المتنصر هو أسود مقلوع من أصله ، حال كون الأسود المسلم هو مسلما بطبعه . »

فانت ترى أن النصرانية قد رسخت عند الامهاره ، الذين هم من قبيل السنيغاليين والبربر والبويل بدون أن يكونوا مقلوعين من أصلهم ، وتجدها تنمو هناك كما ينمو الاسلام ، وعقيدة أو توخيوس (١) تتلوّى هناك مع الزمان والمكان كالاسلام الذى يناسب الامم الفطرية مثل الأمم السوداء : واذا كان عمل المبشرين شاقا فى البلاد السودانية والاسلامية ، فانما هو لكونهم يريدون وضع عقيدة امم راقية جدا محل عقائد أقوام هم فى أدنى الدركات (تأمل) ، أما النصرانية ، كما كانت فى القرون الأولى ونصرانية الحبشة الحاضرة ، فنشرهما ممكن بسهولة نشر الاسلام ، الذى كان نجاحه بسبب المستوى العقلى الذى عند ناشريه ، لا لسبب معالى عقائدهم (تأمل أيضا) .

لا شك ان الزنجى عند ما يدين بالاسلام يتقدم تقدماً محسوساً ، فبعض أرباب الخيالات الذين لا يحبون أن يروا الا المحاسن ، يجدون فى الاسلام الامتناع عن المسكرات ، وتهذيب الاخلاق ، وترقية سوىّ الحياة ، واعلاء حال المرأة فى الاجتماع ، فيشيرون بالسعى فى نشر الاسلام بين أمم الفتيش فى مناطق خط الاستواء ، وكأن من طبيعة هذا العصر ، ان الناس يقدرون قدر المذهب بنسبة درجة نجاحه بدون تأمل فيما يجر اليه من العواقب ، فحمل الزنجى على الاسلام هو من باب الرفع الى أسفل ، وهو من قبيل المداواة بالطلاسم والرقى ، مما هو وخيم العاقبة (تأمل) . ان اساس الدين الذى يدين به المسلم وتصطبغ به نفسه مهما كان حليما ، والذى لا يعرفه الا ذوو الخلطة والخبرة الطويلة ، ان هو الا عامل ثورات مستقبلة ، من مصلحتنا ان لا نتركها تفعل مفعولها . حتى ان هؤلاء المتهوسين بالاسلام أنفسهم ، يقفون حيارى احياناً عند ما يرون من الجماعات الاسلامية ، تلك المطامح التى لا تقف عند

(١) عاش فى القرن الخامس للمسيح وكان يقول ان ليس فى المسيح سوى طبيعة الهية ، خلافاً لقول نسطور ، الذى كان يقول أن ليس فيه الا طبيعة بشرية وكما حرمت المجامع قول نسطور ، حرم المجمع الخلقيدونى قول اوتوخيوس وقرر الطبيعتين ، ولكن القبط والحبشة تابعون لمذهبه

حد ، وهاتيك الاحقاد المتأصلة فى نفوسهم .

أما البعض الآخر فقد هالهم هذا النزوع الاسلامى الى الثورة ، فانتقدوا طريقتنا فى بناء المدارس والمؤسسات الاسلامية والترغيب فى لغة القرآن ، وأوضحوا عظيم الخطر الناشئ من تضامن الشعوب الاسلامية ، ودهشوا من قضية ارسال معلمين جزائريين لتعليم العقائد الدينية فى جنة وتمبكتو [1] وهؤلاء النفر يقولون انه لا يكون من باب مس كرامة الاسلام ، ولا من السعى فى نقض مبانيه ، ولا من حجز الحرية الدينية اذا اتخذنا التحوطات اللازمة بازاء أخطار الحالة الحاضرة ، لا سيما ان هـذه المسامحات التى لا يجبرنا عليها أحد لا تقربنا زلفى الى الأمم الاسلامية ، وانه ليس للحكومة أن تدخل فى حياة رعاياها الخاصة ، بل عليها أن تأخذ حذرها من ديانة ، هى فيما عدا بعض مبادئ نادرة فيها شئ من السماحة ، يمكنك أن تختصرها بهذه الجملة « قاتلوا الكفار واستعبدوهم واطرحوهم فى الارض »[2]

فبين آراء المقاومين المتشددين وآراء المتهوسين الميالين الى الاسـلام ، يوجـد مكان لعمل معتدل حازم ، وهو انه لا ينبغى أن يسار على سياسة اسلامية واحدة ، بل على سياسة متعلقة بالظروف و بالبلدان و بدرجة حرارة الاهلين ، فيمكن تنكب طريق قهر الاسـلام بدون السعى فى تأييـده . واذا أيدنا فى مستعمراتنا سلطة ادارتنا الملكية ، وجعلناها فوق الشريعة الاسلامية ، كان ذلك خطوة أولى فى منع انتشار الاسلام بين الاقوام ، التى لم ترسخ قدمه بينهم . ولـكن مادام القاضى الاوربى يرسل القضايا المعضلة ، التى يعجز عن حلها الى القاضى المسـلم ، وفى المسائل التى يتناكر فيها الخصمان ولا تمكن معرفة الصحيح بينهما ، يحيـل القضية على اليمين كما فى القرآن ، وهى طريقة بسيطة تـكفى أولئك القضاة مؤونة التدقيق لتهيئة الحـكم ، فنـكون قد جعلنا للقضاء الشرعى نفوذاً ليس من الحـكمة فى شئ ولا سيما فى هذا الوقت . كذلك تتحتم المراقبة الخفية للمشايخ والمرابطين ، الذين بين الزنوج المستعدين لقبول الدعوة الى الثورة ، فانه كما قال سنة ١٩٠٥ الحاكم العام بونتى Ponty :

---

(١) تمبكتو فى أول السودان الغربى مشهورة ، اما جنة فهى مدينة بالسودان على مسافة ٣٠٠ كيلو متر الى الجنوب الغربى من تمبكتو ، وعلى ١٦٠ كيلو متراً الى الشمال الشرقى من سيغو وسيكورو ، وأول أوربى دخل جنة هو رجل فرنساوي اسمه رينيه كاليه سنة ١٨٢٨

(٢) أين وجد هذا ؟

زيارات الغرباء القادمين من المشرق بحجة الصدقات مضرة ، اذ هؤلاء يجوبون بلاد السنيغال والبو يل والسونينكه ، دعاة كثيراً أو قليلا الى الجامعة الاسلامية ، ويدّعون انهم شرفاء ، ويلبسون عمائم خضرا ، وكلما حدث هيجان اسلامي كانوا هم المشحذين لغراره ، والمذيعين للاراجيف . ولا ننس حج مكة فانه فى الآونة الحاضرة ، يؤثر تأثيراً مضرّاً بنا بين رعايانا المسلمين ، ومع هذا ، فالبعض غافلون عن منع حج رعايانا الى مكة وعما يحدثه هذا السفر من أسباب تشويش اذهانهم ، لما يستمعون فيه من الأخبار الملفقة عن وقائع البلاد الاسلامية ، فتى آبوا الى ديارهم عادوا أقل ميلا الينا . فان الحاج يسمع فى الحجاز أنباء عن جميع العالم لم تطبع فى صحيفة والاوربى مصوّر فيها بشكل ظالم غاصب (استغفر الله ...) لا تحصى سيآته والمسلم مصور بشكل غالب ظافر لا بد أن يأخذ بثاره . كما ان الطوائل التى أحرزها بعض الشرقيين تروى هناك بالمبالغة والغلو ، ويتفاءلون فيها بعودة الايام ، التى كان فيها العلم الاخضر منصوراً خفاقا فوق رؤوس الامم ، المغلوبة . وهناك المشعوذون المترنمون بنصرات الغازى (أى مصطفى كمال) واهلاكه الكفار كما أهلك المسلمون قريشاً يوم بدر . وكل هذه الوقائع تبرز فيها قوتها المخيلة الشرقية بشكل رائق رائع ، فيذهب الحاج من مستعمراتنا أمينا لنا ويعود غير ما ذهب ، بل تتبدل نفسه ، ويصير مبتهجا بنصرة أبناء ملته ، وتقوى فيه روح التضامن الاسلامى ، فيفرح بفوز أتباع محمد ، ويتمنى لهم الظفر النهائى . وبعد ايابه الى وطنه يستحيل أن لا يلقى الى بعض أهل بلده ولو نجيا ما سمعه فى مكة ، وحيث يكون نال لقب حاج فلا بد له من الاجتهاد فى اثبات أهليته لهذا اللقب ، هذ عدا ما يحمله معه من القصائد والجرائد والحماسيات التى يوزعها على أبناء وطنه ، وان كان ممن يعرف الكتابة راسل من تعرف بهم من الحجاج مكرراً لهم آيات الكتاب المقدس حول الحجر الاسود .

وينضم الى هذه التأثيرات السيئة نفوذ الطرق الصوفية فان دورها مهم . وربما كان لها القول الفصل فيما لو هبت العاصفة المتهيئة دائما للهبوب فى جو الاسلام . فان أتباع عبد القادر الجيلانى ولى بغداد مالئون افريقيتنا ، وهم هؤلاء التيجانية ، الذين كانت لهم اليد الطولى فى ثورة السينيغامبيا عندما قام بها الحاج عمر . ولهم زوايا فى باماكو ، وبافولاب ، وسيغو ، وجنة ، وتمبكتو ، ولهم وسيلة مع السنوسى فى طرابلس ، فكل هؤلاء المتحمسين

دعاة ثورة وعداوة للاوربيين . لا ينكر أن بعض الطرق قد أفادتنا فى الجزائر ومراكش وغربى افريقيــة ، وكان نفوذ رجالها السامى موافقاً لنا ، وهؤلاء مثــل الشيخ سيديا ، والشيخ ســعد بو ، والمختار الكنتى ، الذين هم فى موريتانيا (غربى مراكش) و بلاد النيجر . فقد كانوا معنا فى فتح تلك البلاد ، ولكن مساعداتهم هذه هى نوع من الأعمال التجارية ، التى يريد أصحابها دائما بقاء التوازن لأجل استدرار فائدته . وأما الخطر الأعظم ، فهو خطر الطرق الاســلامية التى مراكزها الأصليــة فى غير مستعمراتنا ، كبــلاد العرب والعراق وطرابلس لأنها خارجة من يد نفوذنا .

هذه على وجه الاجمال العوامل المضرة التى سلطنتنا الافريقية معرضة لها . ولاتقاء ضررها وصف الناس أدوية كثيرة ، منها علاج جمع كل الآراء وهو نشر اللغة الفرنسوية ، فهو أمر ضرورى وهو رأى لوشاتليه Le Châtelier الذى يقول : « يوم لا يبقى اللسان العربى هو لغــة التجارة فى افريقية ، لا يبقى خطر من جهــة الاسلام لأن مدارسه تصير قفرة » . وهذا هو رأى پول برت Paul Bert الفسيولوجى المعروف القــائل : « حل المسألة العربية هو فى الكتاب ، وأتمنى أن أرى فى كل قرية مغربية معلماً عربياً ومعلماً فرنسياً » وهو أيضاً رأى الرحالة قاتل أمور افريقية عامــاً بينغر . وهو كذلك مشرب الكردنيال لافيجرى مؤسس جمعيات التبشير الذى قال : « لا حاجة بنا الى الدعوة لنفس الدين ، بل الحاجة هى الى التعليم والتمريض »

واذا نظرنا الى درجة انتشار لغتنا فى الشرق بين أولئك الأقوام والأمم المختلفــة ، نأسف كيف لم نقدر أن ننشرها فى مستعمراتنا كما هى منتشرة فى الشرق ، وأغرب منه أنه لو كان علمنا انتشر فى مستعمراتنا بالسهولة التى انتشر بهــا فى السلطنة العثمانية ، لربما كان أناس يحتجون على ذلك قائلين ، يجب على حكومتنا أن تبقى متحايدة . مع أنهم يرون أن البعثات الفرنسية فى البلاد الاسلاميــة ، التى كالأناضول وكردستان والعراق وفلسطين قد نجحت نجاحاً تاماً بدون ايراث أقل قلق فى سلطنة آل عثمان الكريمة ، الرحبــة الصدر ، وقد حصرت همها فى تعليم لغتنا للروم والأرمن والكرج واليهود والمسلمين والكاثوليك ، وجميع هذه الأجناس التى جمعتها فى عالم ثقافتنا . ولم يثر ذلك فى البلاد التركية ، ولا العربية ولا الفارسية شيئا من العصبية التى خيف من اثارتها فى الجزائر . ثم هــذه مصر التى هى

تحت الحكم البريطانى ، تعرف لغتنا كما تعرف لغتها العربيـة . أما الجزائر فانها تجهل لغتنا تقريباً . ليس مقصدنا بهذا أن نوجد فى مستعمراتنا نخبة علماء ومفكرين ، اذ يجوز أن ينبغ فيها أدباء راسخون ، وأرباب عقول سامية ، لكن يخشى أن يظهر من هم متعلمون نصف تعلم تكون لهم مطامع ومآرب (تأمل) انما المقصد هو وضع لغتنا التى هى عامل مدنيتنا موضع لغة أخرى ، (أى العربيـة) هى قاعدة ثقافة أخرى وفكرة أخرى ، ان فرض معرفة العربى على عمالنا فى المستعمرات هو حسن ، لكن اغناءهم عن العربى بتعميم اللغة الفرنسية كما فى الشرق هو أحسن .

* * *

— ٣ —

الاسلام عند السنيغاليين

تجد السنيغالى فى بيته كما هو فى تابوره ، من الأفكار بعيداً عن التدين المشهود عند الجزائرى والمراكشى ، اعتقاده بالخرافات أكثر من اعتقاده بالدين ، مهتم الا ماندر بأمور معيشته أكثر من اهتمامه بالمذهب الدينى . وترى أنه فى جميع مواطن الحرب لم تفلح لدى السنيغاليين دعوة الجامعة الاسلامية ، وقد احتك هؤلاء بالاسلام فى البلاد العربية[1] ولم يحدث بذلك عندهم أقل انحراف ، بل بقى السنيغالى بسيطاً ، طيب السريرة أمينا لرؤسائه ، ولم تؤثر فيه تحريكات شيوخ الدين ، الذين طالما أثروا بعساكر الهند الانكليزية وفر هؤلاء على أثرها ، فالسنيغاليون لم يفر منهم ولا واحد الى العدو ، لا فى سورية ، ولا فى كيليكيا ، ولا فى جميع الشرق الأدنى .

ان العرب والتورانيين يزدرون بالاسود ، وهذا الاسود يقابلهم على ذلك بالانفصال عن دياناتهم عندما يختلط بهم ، وهذا أمر واقع سواء في الشرق أو فى شمالى افريقية. وترى السنيغاليين فى الاستانة والأناضول لا يدخلون الجوامع ، ولا يخالطون المشايخ ، ولا المفتين ولا يحملون فى حقائبهم أوراقاً مضرة ، ولا بطائق من وارد بلاد الاسلام متضمنة مدائح الغازى غالب الكفار . وان العداوة بين الأهالى والسود فى شمالى افريقيـة وان لم تاخذ

(١) أى فى سورية والأناضول والاستانة

شكلا حاداً ، هى السبب الكافل عدم امتداد دعوة سياسية بينهم . وفى نفس السنيغال لا فى الجيش فقط ، لم يمكن التعصب الاسلامى احداث أقل عدوان لفرنسا ، بل بالعكس ، الاسلام فى تلك البلاد الى الوراء لا الى الأمام .

على أنه اذا كانت سذاجة هذا الجنس وسلامة عقولهم ، لا تجعلان فى جيشنا خوفا من دعوة الجامعة الاسلامية ، فلا يجوز أن نهمل التحوطات اللازمة لاتقاء روح سارية فى أماكن أخرى . فالأطباء يعلمون أن أحسن واق من أمراض المستعمرات ، هو تعاطى الاسباب المانعة لظهورها ، فكما أن العمال فى بلادنا الاسلامية يجب أن يعلموا منازع ديانة الأقوام الذين يولون عليهم ، كذلك القواد الذين دأبهم تعليم الجنود المسلمين يجب أن يعرفوا القواعد المبنى عليها الاسلام ، وماذا يوجد فى أدمغة أتباعه . وعلى القائد أو الضابط أن يميز جيداً بين الاسود الذى هو مسلم حقاً ، من الاسود الذى اسلامه سطحى . فينبغى أن نعرف عناصر الاسلام المختلفة فى ممالكنا الافريقية ، لتمييز بين العناصر القابلة منها للاثارة ، والتى هى غير قابلة لها ، ثم أن نعمل فى السنيغال احصاء نجدده كل مدة للأجناس والأديان ، لنعلم تطورات الاسلام هناك ، والميول الروحية التى عند عساكرنا السنيغالية . ومن المهم أن نعرف ما هو اعتقاد الجزائريين بالسنيغاليين ، لأن هؤلاء فى نظر أولئك ، هم القوة التى وكل اليها توطيد السكينة فى شمالى أفريقية ، ولا ترى ذلك محدثاً عندهم أدنى غضب لأن من طبيعة المسلم أن يطيع دائماً القوة القاهره ولا يحنق من التدابير المتخذة بحقه ، والجزائري ولو كان يحتقر الاسود ، ينظر بدون حقد ، بل بعين الرضى الى ترتيب توابير السنيغاليين و بالاجال المسلم السنيغالى فى سلك الجندية لا يمارس فرائض دينه . وقد جرت العادة الى اليوم بان لا يعارض فى أمر دينه كصوم رمضان ، والاحتفال بالأعياد ، واقامة الصلوات ، وأن يترك هذا كله لارادته . وكلما قل التعرض له فى هذه الأمور كان خيراً . وكذلك لحظ أنه من العبث حمله على مراعاة فروض دينه ، أملا باستمالة المسلمين بهذه الواسطة ، فالمسلم أثناء الخدمة يفهم الضرورات التى تمنعه من أداء تلك الفرائض ، وهو يتعجب من اهتمام الأوربى بديانة المسلم أكثر من اهتمامه بديانة نفسه . انه من الواجب اذاً أن يراقب من العساكر السينغالية من يفرطون فى مراعاة شعائر

دينهم[1] ولعمرى ، أى فرصة أحسن من وجودهم فى الخدمة العسكرية لتعلم لغتنا ، إنها أحسن من كل المعلمين الذين يريد يبنغر ارسالهم الى غربى افريقية . والذى حصل الى اليوم من النجاح فى هذا الباب ليس بقليل فاذا كان الضباط فى الجزائر مضطرين أن يتعلموا لغة جنودهم ، ففى السودان الضباط يجهلون لغة جنودهم ، فهؤلاء مضطرون أن يتعلموا لغة الضباط ثم هناك ضرورة أخرى لتعلم الفرنساوى ، وهى جهل الجنود أنفسهم بعضهم لغات بعض لأنهم من أصناف وألسن مختلفة ، فلا حيلة لهم أن يتفاهموا الا باللغة الفرنسية .

ومما جرت عليه القيادة ، اجتناب تكتيب الكتائب ، على صورة يكون فيها العنصر الاسلامى غالباً ، فتجد السنيغاليين مشتتين بين الجماعات الفتيشية والمسيحية . وهاك على ذلك مثالا : فى مدينة فيلبفيل بالجزائر يرابط الآلاى الخامس عشر السنيغالى ، الذى عدده ١٧٠٩ جنود ، فتجد فيه ٥٤٢ مسلما و ١٣٢ مسيحيا و١٠٣٣ فتيشيا أو غير تابع لمذهب خاص . والتابور ١٣٦ الذى بمدينة الجزائر ، الذى عدده ٤٨٩ جنديا فيه ١٤٥ مسلما و١٨٢ مسيحيا و١٦٤ فتيشيا ، فازدياد عدد المسيحيين من يوم الى آخر هو ثمرة مساعى المبشرين والمؤسسات الخيرية . وتجد فى بيسكرة (بالجزائر) راهبات مستشفى لافيجرى يربين صغار السنيغاليين . انه الى يومنا هذا لم تدخل حكومتنا بصورة رسمية فى قضية تنصير السنيغاليين ولا تزال مظهرة الحياد فى هذا الموضوع ، لكن مع ملاحظتنا الوجهة السياسية فقط ، يحق لنا أن نتساءل هل من مصلحة مستقبلنا سوق الجماعات الفتيشية الى الاسلام أم الى النصرانية وعلى كل حال ، فقد دلت التجربة فى الجزائر ، على ان المجرى الدينى الاسلامى دخل فى حكم هذه القواعد البدهية التاريخية التى يتلقاها الخلف عن السلف بدون أدنى تحريف ولا تبديل ، فعساكرنا السنيغاليون ، مع كونهم غرقى فى بحر جماعات كلهم مسلمون ، لم يبدوا حتى اليوم أقل انجذاب الى المحمدية . ولقد شهدوا مواطن حربية عديدة كان الهياج الاسلامى فيها شديداً ولم تتزعزع صداقتهم ، مما هو جدير بكل تقدير ، وهو مما يبعثنا على الاكثار من تجنيدهم ، وعلى تأمين طرق مكافآتهم المالية ، واعطائهم رواتبهم فى أوقاتها

انه عندما انتصر الترك فى ازمير ، أشار الدكتور اسماعيل صدقى بك أحد كبار الوطنيين المصريين الى الحفلات التى اجريت يومئذ بمصر . والاجتماعات التى تداعت اليها

(١) انظر الى هذه الدناءة ...

الأهالى على صوت الطبل فقال : « هذا الطبل ، يؤذن بان أبناء مصر يقدرون أن يحرروا مصراً ، مثلما حرر اخوانهم الترك بلادهم » .

فنحن لنا الثقة التامة فى شعوبنا العربية الكريمة ، ولا نعتقد انها تتحرك بما يسوله لها المهيجون فى يوم من الأيام ، ولكن لا شك بأن أمانتهم تكون أمتن ، اذا صارت مبنية على قوة ، لا يمكن الدعوة ، ولا الديانة أن تزعزعها .

الخلاصة

ان أحد المؤلفين البلجيكيين المدعو المسيو كولله Collet ، بعد أن أتيح له أن يدقق تدقيقاً عميقا فى حالة تطور الاسلام ، فى الهند النيرلاندية [1] ألف كتاباً قال فيه : « ان التفاؤل الى حد التأميل بأنه يمكن احتكار قوة الاسلام الحيوية فى سبيل منفعة دولة أوربية هو حلم لذيذ ، لكنه غير مبنى الا على مطالعات كثيرة من ذوى العقول السطحية».

فهذه الكلمات هى ذات أهمية فى هذا الزمن ، الذى يظن فيه بعضهم ان التودد الى الاسلام هو العلاج الأفضل . ولقد سبقت ألمانيا الى هذه الفكرة ، لكن لا تصريحات غليوم الثانى فى الأرض المقدسة بصداقته للثلاثمائة مليون مسلم ، ولا سياسية برلين التركية لم تحدثا أقل اضطراب فى مستعمرات الحلفاء الاسلامية ، ولا انضم شعب اسلامى واحد عدا تركيا الى ألمانيا ، بل جميع البلاد العربية انضمت الى الحلفاء ثم بعد المتاركة حاولت ايطاليا أن تعلن صداقتها للاسلام ، ووضع الدكتور انريكو انساباتو Enrico Insabato مصنفاً فى ذلك قائلا : « ان دولة غير مسلمة ، اذا عرفت أن تنهج خطة ولاء للمسلمين وتعطف عليهم ، أمكنها أن تصير صديقة لكل البلاد الاسلامية » فلم تلبث نتيجة هذا التأميل أن ظهرت بالعكس ، اذ بعد أشهر قلائل فسر زعماء طرابلس الغرب بحسب أهوائهم القانون السمح ، الذى جادت به عليهم ايطالية ، وطالبوا بالاستقلال التام ، فعدلت عندئذ ايطالية الى طرق أخرى عبر عنها المسيو آماندولا وزير المستعمرات الايطالية بقوله : « أرجو أن يعمد العصاة الى المقاومة ليكون ذلك واسطة لتدويخ القطر ، ولكن الحكومة لن تعاملهم كذى قبل » .

---

(١) مستعمرات هولانده

وقد سارت فى البانيـة الحوادث سيراً مشابها لهذا . ولا ننكر أن مبادئ المسيو انساباتو ، يمكنها أن توجد بين أمة أوربية والاسلام ، علاقات حسنة مبنية على حرمة متبادلة ، وعاطفة متقابلة ، لكن هذا يجب أن يكون مبنيا على فكرة نظام ثابت ، وراحة موطدة . وهذا هو رأى المستشرقين الحقيقيين ، الذين سبروا غور أفكار المسلمين باقامتهم سنين طوالا فى بلاد هؤلاء ، نابذين الأغراض الشخصية والخيالات المرسلة بدون تحقيق ، فقد قال أحد هؤلاء : « ان القوة هى وحدها علة بقائنا ، واذا أتينا بأقل علامة على نقص قوتنا ، فتحنا على أنفسنا باب الثورات » . وقال آخر : « نحن المال ، والسلاح ، والعقل ، والعدل ، فاذا خسرنا هذه المستعمرات نكون خسرناها برضانا » . فهؤلاء المحققون الذين استبطنوا ثنايا دخائل النفس المحمدية فى غير الكتب والحكايات ، لا يستحسنون فرح الاسلام الفرنساوى بنصرات الأتراك الأخيرة . فان جداول التبرعات التى جرى الاكتتاب بها فى الجزائر وفاس ودا كار [١] وتاماتاف [٢] لاعانة الترك الغالبين والأدعية فى المساجد بفوزهم ، والتهانى التى وردت على أنفرة من ٣٠٠ مليون مسلم ، هـذه كلها مقدمات لحوادث تالية . وكذلك هال هؤلاء المدققين ، ما شاهدوه من تأثير الوقائع التركية فى تونس ، وصفاقس ، والقيروان ، وسوسه . فقد وردت برقية من المهدية تفيد أن الشعور الذى كان يحصل من تلك المظاهر الحفيلة ، هو أن الشعب التونسى معجب جداً بشعب كالشعب التركى يأخذ حقه عنوة بقوة المدفع . أى أن التونسيين يطمعون ، بان يأخذوا هذا الحق قريباً بالواسطة نفسها . ليس عامة الوطنيين هؤلاء الساذجون طيبو السرائر . المقدرون قدر السعادة التى هم راتعون فى بحبوحتها . والعارفون فضل الأمان والأطمئنان . هم الذين نحن منهم على حذر . بل ليس الاسلام نفسه ، الذى عرف أثناء الحرب العامة أن يعلى نفوس رعايانا هؤلاء ، الى أن تحملوا ما تحملوه من الرزايا الفادحة بصبر الأبطال ، هو موجب عدم ركوننا . بل حذرنا انما هو من تلك الفئة القليلة ، التى عليها مسحة التربية الأوربية ، والتنشئة الغربية ، الذين قرأوا ما هضمته عقولهم هضما سيئاً ، غلبت عليهم المآرب ، واستغواهم التعصب ،

---

(١) أحد موانى السنيغال

(٢) مدينة بحرية فى ماداغسكر

وأحبوا وطنهم ، ولكن أحبوا أكثر منه منافعهم الشخصية . فهؤلاء الشبان المسلمون لا يقلعون عن غيهم مهما جرى ، ومهما أعطوا من الحقوق . ومهما أجرى معهم من التسامح ، فلا يكون ذلك الا طريقا لتوقيف الأوربى عند حده ، وأخذهم مكانه .

ففى وجه التضامن الاسلامى ، الذى يزداد كل يوم كلما ازداد نجاح اتباع الاسلام ، نجد الحصن الذى كان الغرب يمتنع به بدأ ينهار ، وعلاقات أوربا بعضها مع بعض تسوء . فاذا كنا لا نقدر على تلافى هذا النزاع الغربى ، فعلى الأقل يجب علينا فى وسط مستعمراتنا أن نوحد الجبهة بازاء المهيجين والمقلقين[1] بتدابير عامة شاملة ، ويلزم أن نمنع سريان العدوى الى الجيش ، فان السكون الحاضر فى مملكتنا الافريقية ، لا يجوز أن يصرف أنظارنا عن مشاهدة الغيوم المتلبدة فى الشرق .

ان صور أبطال الاسلام مالئة أسواق مصر وبيوت فلاحى الأرياف ، فهذه حالة روحية ، قد تسرى الى مستعمراتنا لا سيما تونس شمالا ، وممالك بحيرة تشاد جنوبا ، واذا نالت مصر استقلالها صارت مركزاً لتحرير الاسلام .

لا أحد يمكنه أن يتكهن على درجة هذه الحركة ، لكن من راقب الحوادث الجارية تهيأ له الاستنتاج بأنه لا يجوز التفاؤل المفرط ، كما لا يجوز التشاؤم بدون سبب . فالحالة تستدعى الاكتراث وان لم تكن التهلكة محققة الوقوع ، فعلى أىّ الأحوال يتعين حفظ القوة العسكرية التى لا يعتبر المسلم شيئاً غيرها ، هذا مع الحزم والعدل ، وبسط الأمان وتيسير المنافع المادية . انتهى

* * *

إدحاض الأباطيل والمفتريات

اعتنينا بتعريب هذه المقالة بحرفها حتى لا نترك مجالا للمكابرة ، ولا محلا للمناكرة . وكنا نود لو تركناها كما هى تكفى بنفسها مؤونة الرد عليها ، لولا أن يكون فى الشرق لسوء الحظ ، من يتلقى كلام كل أوربى تقريباً حقيقة رياضية ، أو قضية مسلمة ، ولولا أنه لا يزال عندنا من حسن الظن فى هؤلاء القوم ، ما يجعل التنبيه فرضا ، والتمحيص حتما . نعم ان افتتان الناشئة من الشرقيين بعدل أوربا ، وانصافها ، ومعالى نزعاتها ، قد خف كثيراً بعد الحرب العامة عند ماتجلت عرائس الحقائق على مناص المذابح ، وقشعت رياح الحوادث غيوم الأوهام ، التى كانت متلبدة فى الشرق ، من جهة تلك الفضائل وهاتيك المعالى ،

(١) أى طلاب الحرية ...

ولكن مع الأسف نقول ، انه لم تبرح لهذا المرض عندنا عقابيل كافية للضرر ، و بقايا جازية للارتكاس فى الخطأ ، والانتكاس فى المرض ، فلم نر مندوحة من ادحاض ما فى هذه المقالة من الأباطيل ، واظهار ما فيها من التناقضات ، لا اكتراثا بنفس محررها ، بل بكونها نظرية الأكثرين فى قومه وأمثال قومه ، ولو كان بعضهم يكتمها والبعض الآخر يعلنها .

بدأ الكاتب بتخطئة الاوربيين ، الذين يشمت بعضهم ببعض عندما تقوم على فئة منهم ثورة اسلامية ، قائلا ما معناه : ان كل ثورة اسلامية هى خطر على جميع دول اوربا ، فالتى لم تصل اليها النار حالا تصلها فيما بعد . فهو من أنصار توحيد الجبهة الاوربية فى وجه الاسلام والشرق أجمع . والحال أن هذه المسئلة غير محتاجة فى أوربا الى تنبيه من حضرته ، بل هى قاعدة أساسية ماشية عليها الدول الاستعمارية ، منذ وجد الاستعمار ، وانبسطت يد الغرب الى الشرق . فانها مهما اختلفت هذه الدول وتنابذت فى أوربا ، تقف صفا كالبنيان المرصوص فى وجه الشرقيين ، لاسيما المسلمين منهم . ولو شئنا استقصاء الشواهد والأدلة على ذلك لم تكفنا المجلدات ، فلا نعنى أنفسنا بالاستشهاد بتواريخ لاتنتهى وانما نقول اذا طرأ بعض الأوقات عوارض بسيطة تخالف هذه القاعدة الاستعمارية الكلية ، فتكون عوارض جزئية محدودة لأسباب مجبرة لا مناص منها ، وضمن الدائرة التى لا تخل بالتضامن الأوربى العام فى وجه الشرق ، وهو التضامن الذى لا يزال دستور الاستعمار الأعظم . مثلا : لما أسقطت فرنسا الحكومة العربية فى الشام وطردت الملك فيصلا خلافاً للمعاهدات التى كانت بين فرنسا وانكلترة ، و بين هاتين الدولتين والعرب ، ارتفع عويل العرب الى السماء ، واشتدت مشاحنتهم لانكلترة ومطالبتهم لها بمنطوق المعاهدات ، وصادف أثناء ذلك ، أن مسئلة العراق أعضلت وعز حلها ، فأرسلت انكلترة فيصلا الى العراق قياما بجزء مما تعهدت به للعرب ، وتوفيراً للمال والرجال على نفسها ، لأنها بقيت تقاتل فى العراق مدة سنتين بمائة وعشرين ألف جندى والنار لا تزداد الا اشتعالا . فكان نصبها لفيصل ملكا على العراق مخالفا لهوى فرنسا ، التى قابلت هذا العمل بعقد اتفاق مع الأتراك بشأن كيليكيا ، وأعادت تلك الولاية الى تركيا بدون أن تستشير فى هذا الوفاق حليفتها انكلترة . فعد بعضهم هذه السياسة من الحليفتين مخالفة لقاعدة التضامن الأوربى الاستعمارى ، وليس

الأمر كذلك ، فان انكلترة لم يكن ليمكنها أن تستخف تماما بالعهود التى قطعتها للامة العربية ، والى حد أنها لا تفكر أن ترضى هذه الأمة بشئ ، مع استمرار الحرب فى العراق وامكان نشوبها فى أماكن أخرى ، ومع ما كان يبدو لها من علامات تقرب العرب الى الترك لا سيما بعد أن خذلت العرب فى الشام ، ولم تبد على اسقاط فرنسا للحكومة العربية بدمشق أدنى اعتراض ، فكان ارسالها فيصلا الى العراق نوعا من الكفارة لبعض تلك السيئات . وكذلك فرنسا أنفقت على كيليكيا نحو مليارين ، وخسرت فيها بضعة عشر ألف جندى ورأت نفسها مع حرج الحالة المالية وانصرافها الى تقاضى ألمانية ، التعويضات التى ليس استيفاؤها بالأمر السهل ، عاجزة عن متابعة الأعمال الحربية فى كيليكيا . ولحظت من جهة أخرى ان انكلترة تستثمر لحساب نفوذها فى الشرق مجاهيد فرنسا فى قتال الأتراك . فعدلت عن تلك الخطة الأولى وجنحت الى مسالمة الترك ، وتركت لهم ولاية هى فى الواقع تركية ، وكان من أصعب الأمور على فرنسا أن تقدر على حفظها بدون جيش جرار . وبذل المليار بعد المليار . فلا الانكليز حاولوا ارضاء العرب فى العراق حباً بالعرب . ولا الفرنسيس حاولوا ارضاء الترك حبا بالترك . بل التزاما من كل من الفريقين لمصلحته تحت ضغط الحوادث . ومع هذا . فلم يحدث انفراد كل منهما بسياسته هذه أدنى ثلمة فى جدار التضامن العام بازاء الشرق . لأنه لا الانكليز عضدوا العرب على فرنسا مع كثرة ما ناداهم العرب للمحافظة على عهودهم المقطوعة للعرب . ولا الفرنسيس أعانوا الأتراك على الانكليز فى شئ يذكر مما ظهر فى مؤتمر لوزان ، المنعقد أثناء تحرير هذه السطور ، اذ جبهة الحلفاء كانت فيه واحدة من الأول الى الآخر فى وجه الترك والعرب والمصريين الخ . وكل ما جرى فى أثناء هذا المؤتمر من الاختلافات الآوربية وأولها مسئلة الرور ، لم يزعزع فى شئ بناء التضامن الغربى بازاء الشرق . وبالاختصار فكل ما يقع من اختلاف النظر بين الدول الغربية بشأن المسائل الشرقية ، يبقى محصوراً فى دائرة ضيقة ، لا يمكن أن يكسب صفة عامة وتبقى القاعدة عندهم ، هى ، ان نجاح أى غربى فى أى بقعة كانت من الشرق هو نجاح للجميع والعكس بالعكس .

أما الذين يشير اليهم روجر لابون من كونهم يشمتون بجيرانهم ، أى الفئة التى من الفرنسيس تفرح بمشكلات انكلترة فى مستعمراتها الاسلامية ، فهؤلاء أكثرهم من

الشيوعيين والاشتراكيين وهؤلاء كما تقدم أضداد الاستعمار ، لأنهم يقولون ان الاستعمار قضية عائدة على الطبقة المتمولة ، وهم لا يريدون أن يسفكوا دماءهم فى افريقية وآسية ، ويموتوا بحميات هاتيك الاصقاع النائية لأجل زيادة ثروة المتمولين فى بلادهم ، ناهيك أن طبقة العملة تشبه أهالى المستعمرات بكون الفريقين مستضعفين هؤلاء من الخارج ، وأولئك من الداخل ، فبين الفريقين جاذب التضامن الذى بين الضعفاء والمظلومين ، وما عدا هؤلاء ، فيوجد غلاة الحزب الشمالى الذين يحبون الحرية كما لا يخفى ، وجميع هؤلاء لا يعدّون الا فئة قليلة بالقياس الى بقية الأحزاب ، وان وجد من غيرهم من الفرنسيس من يشمت بالانكليز فى مشكلاتهم الاستعمارية اما حسداً أو نفاسة ، أو على أثر اختلاف دولى اشتد بين الامتين ، فلا يتعدى ذلك بعض كلمات فارغة ، ولا ينشأ عنه شئ بالفعل أبداً ولا يدخل أصلا فى برنامج الحكومات السياسى .

فبعد أن تقرر وجود هذا التضامن المتين بين جميع الأوربيين فى وجه الاسلام والشرق بأسره ، لا عجب أن يكون هناك تضامن بين الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصا لاسيما أن بين هؤلاء رابطة دينية ، لا يمكن زوالها غضب روجر لابون أم رضى . وقد كان يمكن أن تتراخى هذه الرابطة الاسلامية بالعدل والاحسان من قبل الدول المستعمرة ، اذ كان لايوجد شئ تستصلح به قلوب الأعداء مثل العدل ، وكان الانسان كما يقولون أسير الاحسان من أى جهة أتى . فالدول المستعمرة بدل العدل والاحسان ، لم تعرف فى مستعمراتها سوى الضغط والظلم ، وامتهان الوطنيين والكيل لهم بمكيال وللاوربيين بمكيال آخر ، والحجر على حريتهم ، والتصرف بحقوقهم ودمائهم ومرافقهم ، وابتزازهم أراضيهم ، وهذا ماامتازت به فرنسا أكثر من غيرها بدليل نسق استعمارها بالجزائر وتونس مما لايحتاج الى بيان ، ومن شاء زيادة الوقوف فليقرأ كتاب «تونس الشهيدة» ليعلم ماذا يجرى هناك أوفليقرأ بعض كتابات الفرنسيس أنفسهم ومن جملتها ما كتبه المسيو فاليان كوتوريه Vaillant Couturier أحد أعضاء البرلمان الفرنسوى من الحزب الشيوعى ، على أثر سياحة طويلة فى الجزائر وتونس أجراها فى العام الماضى ونشر خلاصة مشاهداته فى جريدة الاومانيته ، بل فلينعم النظر فى المبادئ التى يوصى بها لابون نفسه والمرء مؤاخذ باقراره فيعلم درجة الضغط الواقع على أولئك المساكين ، وبأى نظر تنظر الأمة المستعمرة اليهم ، فليست اذاً الرابطة الاسلامية وحدها

هى التى تجمع قلوب الجزائريين والتوانسة والمراكشيين وغيرهم الى قلوب أهالى الأناضول بل هناك رابطة المستضعفين بعضهم مع بعض ، ورابطة الأخ الذى تحت نير العبودية مع خيه الذى تمكن من رفع ذلك النير عن عنقه . هذه لعمرى روابط طبعية لا تزول ولا تخف ، لا بالسهر ولا بالمراقبة ولا بالحجر ولا بالحجز ، ولا بمنع القضاء بالأحكام القرآنية كما يشير به لابون ولا بالتعب فى تنصير المسلمين كما يريد اذ كل هذه التدابير لا يكون لها نتيجة سوى أن تزيد النار اضطراما . بل الواسطة الوحيدة لا لازالة تلك الرابطة لأنها لا تزول أبداً ، بل لحصرها ضمن حدود لا تضر فيها بمصلحة فرنسا ، هى معرفة فرنسا حقوق الوطنيين المسلمين ، ومعاملتهم على سوى واحد مع الاوربيين وعدم التذرع بأىّ الوسائل لوضع اليد على أملاكهم ، وتجنب استغلالهم كما يستغل الانسان حرثه ، وعدم القذف بهم فى الثغور والمهالك ، ليكونوا فداء عن أبناء فرنسا وهم غير متمتعين بشىء من حقوق المساواة مع أبناء فرنسا الى غير ذلك من الشروط التى لو توفرت لعاش الوطنيون المسلمون فى دعة وراحة مع الفرنسيس ولم يضمروا لهم الحقد ، ولكانوا ارتبطوا معهم برابطة محبة أكيدة بخلاف ما هى الحالة الآن ، اذ الرابطة الوحيدة التى تربط شمالى افريقية بفرنسا هى قوة السلاح ، وهذه كما لا يخفى مهما طال وجودها ، فقد يأتى يوم يخونها الدهر فيه ، فتذهب وتحل محلها قوة أخرى ، والدهر لا يدوم لأحد .

ثم يقول « يتسلون بالفرح الذى يبديه لنا المسلمون من جراء خطتنا الحاضرة »

فلم نفهم ما هى خطتهم الحاضرة التى تستوجب كل هذا المنّ على المسلمين ؟ هل هى اعادتهم كيليكيا الى تركيا ؟ فهذا قد بينا أسبابه ، وان فرنسا لم يمكنها أن تعمل غير ذلك فى الآونة الحاضرة أم اعطاؤها حق الانتخابات لمسلمى الجزائر ، وهو أدنى ما يمكن أن يكافأ به قوم قدموا لها نحو ٣٠٠ ألف مقاتل فى الحرب العامة ، تلف منهم ٦٢ ألفا . فبدلا من أن تسويهم باليهود أو المالطيين على الأقل ، كان أقصى ما منحتهم من الحقوق أن يكونوا ناخبين لاعضاء المجالس البلدية . أم سماحها بزيادة عدد الوطنيين فى الندوة التونسية ، لكن بشرط أن لا يكونوا الاغلبية وان لا يكون لهم الحق فى التعرض للامور السياسية أبدا ، وان لا يمسوا بشئ المبادى الاستعمارية الماشية عليها حكومة تونس ؟ أم أخذها لسورية التى ثلاثة ارباعها مسلمون نقضا لكل عهد وميثاق ، وتعديا على حقوق الامم وخلافا

لنصريحاتها اثناء الحرب ، ثم معاملة سورية بصفة مستعمرة ، واستزاف أموالها ، والخلل بوحدتها ، واثارة الاحقاد الدينية التى كانت ساكنة فيها منذ زمن طويل ، وحبس مفكريها ونبهائها لمطالبتهم اياها باستقلال بلادهم ، واعتبار سورية أرضا فرنسوية مع الهزؤ بأهلها بأنهم هم مستقلون ، وانها هى انما انتدبتها جمعية الأمم للوصاية عليهم لترشدهم وتعلمهم كيف يديرون فيما بعد أنفسهم بأنفسهم . . . أم الحرب القائمة بينها و بين أهالى مراكش والتى لولا حسن ادارة المارشال ليوتى بنفسه ، لكانت غير منحصرة فى بعض جهات تلك السلطنة بل كانت عامة لجميعها ؟ ما هى خطتهم الحاضرة اذاً ، وماذا فيها من هذه الأيادى البيضاء على المسلمين ؟ لما انتصر الاتراك على اليونان لم ترد فرنسا أن تنتصر لليونان كما أراد لويد جورج ، لكونها من النزاع مع المانية فى شغل يستغرق كل قوتها فمالت الى الصلح ولم تكن فى ذلك وحدها ، بل كان رأى الجميع والانكليز أنفسهم الذين أسقطوا لويد جورج وضع حد لهذه الحرب فى المشرق ، ومع هذا فقد أحمد الناس كلهم — الا اليونان فقط — سياسة الدول السلمية وسياسة فرنسا من الجملة ، وأظهر لها مسلمو المغرب الشكر على سداد هذه السياسة ، التى هى كلها فى مصلحة نفسها فى الواقع ولكن لم تلبث أن تقاضت بدل مسالمتها هذه التى لم تكن فيها بالمنفردة مطالب اقتصادية ثقيلة على الاتراك ودعاوى خارجة عن العدل والنصفة ، ومن جملتها التحريج على الترك فى النزول لها عن حق سيادة الدولة العثمانية على سورية .

اذاً بماذا تمن فرنسا وتعتد على المسلمين ؟ حتى يقرّع لابون بعض عقلاء قومه بانهم كانوا مسرورين من مظاهر الرضى التى أبداها مسلمو المغرب .

ثم يحذر أبناء جنسه من الاغترار بظاهر الشرقى الذى يخفى الحقد و يبدى الولاء . ولا ننكر أن هذا من الأمور التى يتجاوز بها الشرقيون الحد المعقول ، والتى كانت السبب فى كثير من المضار ، لأن الافرنجى من شأنه أن لايحمل الإفراط فى الكياسة الا محمل الضعف وانه كلما تواضع الانسان أمامه احتقره واستصغر شأنه ، هذا مجرب فيهم الاماندر . ولكن الشرقيين مفطورون على المجاملة ، فتراهم يظهرون التودد الى أقوام استولوا على بلدانهم واستعبدوهم ، فهؤلاء الذين عرفوا جيداً ماذا فعلوا بهم و يعرفون أن سياستهم معهم لاتوجب أدنى مودة ، يعتقدون أن هذه الظواهر هى كلها كذب وملق ورئاء ، وانه كامن

وراءها الحقد والبغضاء اذلا يعقل أن الانسان يحب من أساء اليه . فليحذر الشرقيون والمسلمون من أن يأتوا بتصداق كلام هذا الرجل ، وليجعلوا للمجاملة حداً لئلا يتهموا بالرئاء والخداع . فلقد كان من الافراط بهذه المجاملة من النتيجة السيئة فى احتلال سورية ، وادعاء أن أهلها هم الذين طلبوا ذلك ماليس هنا محل بيانه وما طالما نبهنا اليه . أما دعواه بأن الاسلام مبنى على الخضوع للقوة القاهرة فكذب محض ، واختلاق منه ، فان الاسلام أمر بأوامر ونهى عن نواه لابد للمسلم أن يجرى عليها اذا أراد أن يبقى مسلماً ، مهما وقف فى طريقه ولو ذهبت بذلك نفسه . وهذا مبسوط فى كتب الشريعة التى يفترى عليها لابون بدون علم ولا حياء ، وليس للمسلم أن يتقى فى دينه الافى بعض نقاط لا يكون فيها خطر على وجود الاسلام ، ولو كان المسلم مأموراً بالاستسلام للقوة الغالبة ، لما قاوم الرسول صلى الله عليه وسلم قريشا وهى أقوى منه ، ولاقاوم الخلفاء الراشدون تلك الأمم كلها ودوّخوها وهم لم يكونوا شيئاً بالقياس الى ما كانت عليه تلك الأمم . كلا ، فالاسلام مبنى على العزة وعدم المبالاة بالحياة ولابالمال فى الذب عن شريعة الاسلام ، وان القرآن ملآن بذلك والحديث الشريف مستفيض به ، وما سقط الاسلام الابعد أن فتر عمل أهله بتلك الآى ، وغلبت عليهم « كراهية الموت وحب الدنيا » وفقاً للحديث النبوى الذى أنبأهم بالحالة التى وصلوا اليها و بالأسباب الداعية الى حصولها ، وهو حديث « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل جانب تداعى الأكلة على القصاع الخ » .

ثم يقول ان ابتهاج الاسلام بعضه بفوز بعض لم يكن من قبل ذا بال ، نظراً لقوة أوربا واتحادها فى وجهه بخلاف ماهى اليوم ، والروسية التى كانت أعظم ضاغط على الاسلام صارت فى هذه الآونة تناصره وتشد أزره . والجواب أن تضامن أوربا كلها على الاسلام ، كاف بدون الروسية ، ولاشك أن الحرب العامة قد استنزفت قوى أوربا والروسية ، وكرّهت الحرب الى السواد الاعظم من العالم فاستفاد الشرقيون كلهم من هذا الضعف بدون نزاع وهبوا للمطالبة باستقلالهم ورفع الانيار عن أعناقهم ، ومن يلومهم على ذلك الا الذين لاوجدان لهم مثل هذا الكاتب والحزب الذى هومنه ، على أنه لوفرض أنها لم تحصل الحرب العامة لما كان الشرقيون راضين بأن يبقوا عبيداً الى الأبد .

أما ابتهاج الاتراك بل المسلمين أجمع بنصرة المراكشيين على الاسبانيول فليس فيه

شئ من العجب ، فقد كان الاوربيون كلهم مبتهجين بانتصار البلقانيين على الاتراك ابتهاجاً أنساهم كل ماارتكبه البلغار واليونان والصرب من الفظائع فى تلك الحرب ، وكان أحلى مايروق للانكليز يومئذ وقائع الجبل الأسود التى تجلت فيها بسالة ذلك الشعب الصغير الأبى ، أفلا يحق للمسلمين أن يبتهجوا بنصر فئة قليلة من المغاربة ، كلهم قبائل متطوعة ، على دولة عظيمة ساقت عليهم ٢٠٠ ألف مقاتل ، فاستأصلوا منهم نحو ٣٠ ألفا وغنموا ١٧٠ مدفعاً و٧٠ ألف بندقية وانتهى الامر بان عاد الاسبانيول كما جاءوا لم يفوزوا بطائل . ان فرنسا وقتئذ مع بغضها لاسبانية والمنافسة بينهما على طنجة وغيرها ، لم يسرها فوز الريفيين ، بل أوجست منه خيفة وعاونت اسبانية بما أمكنها . وان الأمير محمد عبد الكريم أرسل وفداً الى لندن يلتمس وساطة انكلترة فى الصلح ، فلم تقبل انكلترة هذه الوساطة ، مع شدة ادعائها محبة السلام . فلماذا لعمرى ؟ الجواب بسيط ، وهو لأجل التكافل الأوربى فى وجه الاسلام . وكذلك المسلمون يفرحون بظفر الريفيين ، أولا ، لكونهم اخوانهم فى الدين ، ثانياً ، لكونهم فئة قليلة مظلومة ، غلبت فئة كثيرة قوية ظالمة ، طامحة الى استعباد تلك الفئة القليلة العدد الأبية للضيم .

أما ما ادعاه من كون النادى الشرقى ببرلين هو من مراكز دعوة الجامعة الاسلامية ، وانه يصدر جريدة لواء الاسلام لبث هذه الدعوة ، فلما كان محرر هذه السطور هو رئيس النادى الشرقى ببرلين قد نشرنا فى بعض الجرائد تكذيبا لدعواه هذه ، ولكون النادى هو تحت حماية مجلس برلين البلدى والجنرال لوندوروف ، كما افترى علينا كذبا وبهتانا ، وبينا أن النادى هو محفل اجتماعى ليس له شغل بالسياسة ، تأسس مجتمعا للشرقيين من كل الأجناس والأديان ، ففيه أتراك ، وعرب ، وجركس ، وتتر ، وافغان وفرس ، ومصريون وهنود ، ومغاربة ، وفيه مسلمون ، ونصارى ، ويهود ، وبراهمة الخ . وأن جريدة لواء الاسلام ليس لها أدنى علاقة بالنادى الشرقى . فاذا كانت كل معلومات لابون هى من قبيل هذا الخبر فيكون مقصده التهييج فقط ، لايهام أبناء جلدته وجود حركة اسلامية ألمانية ، يتوسل بها الى زيادة الضغط على المسلمين .

ثم زعم أن ليست نتائج الحرب العامة هى العاملة فقط فى هياج المسلمين ، بل هناك عوامل من طبيعة الاسلام نفسه ، لأن الاسلام لايخضع بزعمه الا للقوة . فكرر هذيانه

الأول الذى لم نعلم على أى شئ بناه ، اذسنة الأمم كلها انها تخضع للقوة وتنشز عند فقدها ، لم يختص الاسلام وحده بذلك . بل الاسلام والشرق فيهما بقايا من كرم الأخلاق ، والعفو عند المقدرة والسجاحة ، وترك الانسان حقه لمجرد علو الهمة ، والميل الى المساكين وهذه كلها مناقب يهزأ بها الغرب ولا يفهم لها معنى ، بل يسمعون ويقرأون نوادر كثيرة عن الشرقيين لا سيما العرب منهم ، وينقلونها فى كتبهم من باب الكرم العريض والايثار على النفس وعفو الموتور عن الواتر بمجرد دخوله بيته ولو كان قاتلاً ابنه فلذة كبده ، وكم من والد سامح بقتل ولده و والدة سمحت بقتل ولدها لمجئ القاتل الى بيتهم مستصفحاً ، وكم من تجاوز عن القود وعن الدية معاً ، فهل سمعنا أو قرأنا أن فذاً أوربيا فعل مثل ذلك مما يقع عند العرب كل يوم تقريباً ؟ وكم فى التاريخ للاسلام من نوادر عفو عندالقدرة ، قدعرف منها الافرنج شيئاً كثيراً باحتكاكهم مع عرب الأندلس ، وفى أثناء الحرب الصليبية مع صلاح الدين الأيوبى الذى كانت سيرته بهم بعد سيرتهم بالاسلام عند دخولهم القدس سبب عار لا يمحى للصليبيين ،(١) كما أقر بذلك المؤرخون المنصفون من الافرنجة ، لأنها أظهرت ما هناك من سعة الفرق فى علو النفس ، ورقة الاحساس ، بين الأمم الاسلامية والأمم الأوربية . أفيقال بعد هذا ان المسلمين لا يخضعون الا للقوة القاهرة ، وانهم لا يؤثر بهم حسن المعاملة ولا العدل ، بل العامل الوحيد الذى يؤثر بهم ويكفل طاعتهم هو ارهاف الحد ؟ كبرت كلمة تخرج من أفواه هذا الكاتب وأمثاله ، ان يقولون الا كذبا .

والحقيقة هى أن القوة المسلحة هى العامل الوحيد الذى يؤثر بالافرنج ، وأقرب شاهد على ذلك مثل الترك الذى لا حاجة لبيانه اذ كل أحد يعرفه ، فقد أصمت أوربا آذانها عن جميع ما نادوها به من العهود والمواثيق والمتاركات والحقوق الدولية ، الى أن أثبتوا قوتهم بالغلبة على اليونان وغيرهم ، فعرفتهم حينئذ بشراً ، ورضيت أن تجالسهم فى مؤتمر لوزان وأخذت تصانعهم وتداريهم . وهناك مثل اليابان التى لم تعتبر عندهم دولة متمدنة الا بعد أن قهرت الروس ، وأثبتت قوتها العسكرية . كان أحد كبار الوزراء اليابانيين يحادث على

(١) قتلوا ٧٠ ألفاً فى المسجد الأقصى ولم يعفوا عن النساء ولا الأطفال ، فلما استرد صلاح الدين القدس لم يقتل منهم أحداً

نظامى باشا سفير تركيا فى رومة مؤخراً فقال له : « ان شئتم أنتم الأتراك أن تكونوا متمدنين فى نظر أوربا ، فاجتهدوا أن تكونوا أقوياء لا غير . فاننا نحن اليابانيين كنا بلغنا مبلغهم ، وتجاوزنا أمدهم فى العلم والصناعة ، وصرنا نصنع من الأمتعة ما يضاهى الذى يصنعونه ، ونبيعه بأثمان أرخص من أثمانهم ، ولبثوا يعدوننا مع البرابرة . الى أن هجمنا فى يوم من الأيام على الروسية ، ونسفنا لها بوارج بدون اعلان حرب منا مخالفين بذلك الحقوق الحربية الدولية ، ثم تابعنا الحرب الى أن انتصرنا على الروس نهائياً ، وعرفوا أننا نعرف أن نقتل ونهلك وندمر مثلما يقتل الأوربيون ويدمرون ، صرنا عندهم دولة عظيمة وصاروا يعدوننا متمدنين » . هذا كلام وزير يابانى كان تولى الصدارة فى اليابان ، وان شاء الشرقى أن يفهم جيداً ما هى أوربا فليستظهر دائما هذه الامثولة . ويعلم الله أننا لم نكن لنوضح كل هذا من شأنهم فى تقديس القوة المادية والتنمر على الضعيف والتبصبص للقوى ، لو لم يكونوا دائماً يقذفوننا بهذه التهمة عينها ، فقد تكررت منهم هذه الكلمات بحق الشرقيين الوفا من المرار . وعند كل مناسبة ، تجدهم يقولون : الشرقيون لا يعرفون الا القوة . الشرقيون لا يفهمون الا بلغة السيف . الشرقى لا يأتى الا بالارهاب . لا تنس أنك تخاطب أمة شرقية . اعلم أنك فى الشرق . وما أشبه ذلك ، والحق أن القوة المادية هى معبود الغربيين قبل الشرقيين . ثم ذكر أنه فى الحرب العامة ، انقادت أكثر الأمم الاسلامية الى الحلفاء ، وقاتل منها مليون ونصف مليون مقاتل تحت راياتهم ، ولم يعبأوا باعلان الخليفة الجهاد ، وتبارى علماء المغرب فى الفتيا بعدم وجوب الحرب فى جانب الأتراك والألمان الى غير ذلك .

والجواب عليه ان كان يعنى بالأمم الاسلامية البامباره والسنيغاليين وأمثالهم فهؤلاء مساكين لايقدرون على شئ ، ولا يعرفون شيئاً ، بل تراهم كالأنعام يساقون الى المجزرة ولا يشعرون حتى يصل السكين الى أعناقهم ، ولم تترك فرنسا فى سبيل ابقائهم فى أدنى دركات الجهل والحيلولة بينهم وبين الشريعة الاسلامية واللغة العربية واسطة الا استخدمتها لأجل أن تلعب بهم الكرة ، وتقتلع منهم كل شئ اسمه ارادة ، فهؤلاء لا كلام فيهم . أما الجزائريون والتونسيون والمراكشيون ، فمع كون الجهل أيضاً مخيما على عامتهم ان لم يكن فى نسبة السنيغاليين فقريبا منها ، ومع كونه لايصعب على فرنسا شراء ضمائر كثيرين منهم

فقد طاف عمال الفرنسيس عليهم يخطبون و يعظون و يعقدون المجامع و يحادثون العلماء والزعماء أثناء الحرب وفى كل أحاديثهم وخطبهم ، يصرحون بأن هذه الحرب هى حرب تحرير الأمم ، فكل من قاتل فيها وبذل دمه نال بعد الحرب استقلاله ، وكل من تخلف عنها لاحظ له من الحرية ، وان هذه النوبة هى نوبة الجزائر وتونس لنيل الحكم الذاتى بحيث لا يبقى بينهما و بين فرنسا الا صلة حلف فقط . وان الألمان الذين هم أشد أعداء الاسلام ، قد خدعوا تركيا ، بل استمالوا فرقة الجون ترك فقط . وهى الغالبة على الأمر والآخذة على يد السلطان الخليفة ، فأعلنت هذه الفرقة الحرب بدون علم الخليفة و بلا علم الأمة ، وكذلك الفتوى بالجهاد هى تزوير من فرقة جون ترك ، هذه التى هى مارقة من الاسلام تهين الدين وتجاهر بعدوانه (١) وسيكون نصيب تركيا فيما لو انتصرت ألمانية ، السقوط بين أيدى الألمان الذين سيقضون على الاسلام القضاء المبرم بعكس الحلفاء الذين هم أحباء الاسلام ، ولا يريدون بأهله الا خيراً (!) فبعد أن يتسق النصر للحلفاء ستمنح فرنسا الحكم الذاتى الى جميع مستعمراتها الاسلامية ، وستعطى انكلترة مصرا استقلالها التام وسيساعد الحلفاء العرب على تأسيس سلطنة عربية ، تتألف من سورية وفلسطين والعراق وجزيرة العرب ، وعلى استئناف مجد الخلافة العباسية . وقالوا لأهل الهند انهم سينالون الحكم الذاتى بأجمعهم ، وأقسموا لهم جهد أيمانهم انهم ولو انتصروا على تركيا ، فلا ينال تركيا من الحلفاء أدنى سوء ، بل كل ما يريدونه من تركيا هو الانفصال عن هذه الدولة الألمانية التى تنوى وضع اليد على تركيا . هذه التصريحات والتأكيدات كررها الحلفاء ألوفاً من المرار على أهالى مستعمراتهم الاسلامية ، لا سيما الجزائر وتونس ومراكش ومصر والهند ، وعلى الامة العربية ، ولبثوا يكررونها الى السنة الرابعة من الحرب العامة ، اذ قوى أملهم بالنصر النهائى فعند ذلك تغيرت نغمتهم ، وبدأت تلك الامم التى انقادت لوساوسهم تلحظ انها انما وقعت فى شرك ، وانها كانت من تمويهاتهم فى غرور مبين . ولقد أصابت احدى الجمعيات السورية فى أمريكا بوصفها الحلفاء أثناء الحرب العامة وهم يبثون الدعوة لقضية تحرير الشعوب بزعمهم . فقالت فى منشور أذاعته بعد الحرب : «فلو رأيت الحلفاء ودموعهم

---

(١) واستشهدوا على ذلك بأشياء

تسيل ، وهم يستنهضون الأمم لنصرتهم فى هذه الحرب التى لم يتابعوها بزعمهم الا لأجل تحرير الأمم كافة ، وقهر التسلط الألمانى الخ » نعم بقى الحلفاء يبثون هذه الدعوة ودموعهم تسيل رقة وحناناً (!) الى أن قضوا وطرهم ، فقلبوا ظهر المجن لكل من عاونهم وقاتل فى صفوفهم ، وجفت دموعهم اذ ذاك ، وعادوا ذئاباً بعد أن كانوا حملاناً ، وتناسوا كل ما تعهدوا به أثناء الحرب بدون أدنى خجل ولا وجل ، فلذلك هاجت أحقاد تلك الأمم التى خدعوها بزخرف القول وختلوها بمواعيد ، لم تعد مواعيد عرقوب عندها شيئاً ، وقاموا عليهم من كل جهة ، فنهضت مصر تطالب باستقلالها التام ولم تزل ناهضة ، وحنق أهل الجزائر من خلف المواعيد الفرنسوية حنقاً دل عليه صنيعهم فى انتخابات ١٩١٩ ، التى لم يرشحوا فيها واحداً موالياً لفرنسا . ولا تزال الحركة الوطنية تقوى فيما بينهم بفضل سوء السياسة الاستعمارية لا بدسائس الأناضول ولا بتحريكات الجامعة الاسلامية ، وازدادت ثورة المراكشيين اشتعالا ، وهى منذ خمس سنين مضت من بعد الحرب العامة لم تسكن يوما واحداً ، وثارت الهند ثورات مختلفة الأنواع ، منها بالسلاح كما فى شمالى الهند وكثورة المو بلاه فى المليبار وغيرها ، ومنها بالسياسة كالمؤتمر الوطنى الذى انعقد ممثلا من جميع شعوب الهند وأديانها ، وكاتحاد المسلمين والهندوس ، وكقيام جمعية الخلافة ، وكمقاطعة المتاجر البريطانية بحيث نقصت فى الهند نحو ٣٠ فى المائة . ثم قام أهل العراق فى وجه الانكليز ، الذين كانوا أعلنوا لهم يوم دخولهم بغداد سنة ١٩١٧ ، أنهم لم يأتوا ليملكوا بلادهم ، بل ليعيدوا اليها الحكم العربى كما كان ، فلما استوسق الظفر لانكلترة حاولت الاستيلاء على العراق والحاقها بالهند ، فثار العراقيون بها مدة سنتين أذاقوها فيها عرق القربة ، ولم يضعوا السلاح حتى مكنتهم من تأسيس حكومة عربية ، اشترطوا أن تكون مستقلة استقلالا تاماً ، ولن يبرحوا حتى يروا استقلالها تاماً ، وأما أهل تونس فنترك القول لهم ، فقد ورد فى كتاب « تونس الشهيدة » المطبوع فى باريز سنة ١٩٢٠ فى خلاصة الكتاب ما يأتى :

« كانت مفاداة الشعب التونسى بجانب فرنسا ، فى الحرب التى اكتسحت العالم المتمدن ٦٥ ألف مقاتل و ٣٠ ألف فاعل من أمة لا تزيد على مليونين من النفوس ، وقد قتل وجرح من الخمسة والستين ألف مقاتل ٤٥ ألفاً ، وكانت لنا ثقة تامة فى الحصول

على أمانينا القومية على أثر ظفر الحق (!) والعدل بين الأمم ، وتنفيذ مبدأ تعيين الشعوب لمصيرها ، الذى كان أعظم رجال الدول نادوا به ووعدوا به هذه الشعوب أمام الله والناس. فهذه الثقة هى التى حملتنا على القيام بواجب المشاطرة الوجيعة بدون قيد ولا شرط فى الحرب العظمى العائدة لخلاصنا فكان ديناً على فرنسا اعطاؤنا حريتنا من وجهين، الأول الخسائر التى تحملناها من أجلها ، والثانى المواعيد الشهيرة التى قطعتها لنا ، فقد نالت الشعوب الصغيرة حتى من التى كانت فى صفوف الأعداء حريتها ، أما نحن فقد ادخرت لنا فرنسا لأجل المكافأة على خسائرنا طريقة من أغرب ما يتصوره العقل ، وذلك بتهيئة برنامج استعمار جديد زيادة على القديم ، تتمكن به من غصب أملاكنا وهضم حقوقنا ، فقد اعتزمت ايطان فئة من صعاليك الفرنسيس ومعتريهم ومحاويجهم فى بلادنا ، وتيسير أسباب معايشهم من مالنا وتقديم الأراضى اللازمة لهم من أرضنا . فما هى فائدة فرنسا لعمرى من متابعة خطة هى من سنة ١٨٨١ ، وعلى الخصوص من سنة ١٨٩٢ حتى اليوم مصدر كل عمل تأتيه فى تونس وبدلا من أن تعدل عنها ولو على وجه المكافأة لرزايانا من أجلها ، تكون النتيجة ؛ أنها بعد انتهاء حرب الحق والعدل (!) تزداد فيها توسعاً وتفنناً الخ » .

لا نطمع أن ننقل هنا كل ما ورد فى « تونس الشهيدة » من الحقائق الرسمية ، التى تثبت الى أى حد وصل الفرنسيس من استعمار تلك البلاد ، واستعباد أولئك العباد ، وكما تقدم كانت مكافأتهم على الخمسة والأربعين ألف رجل الذين فقدوهم فداء لفرنسا ، أن قررت الحكومة الفرنسوية ارسال كل المحاويج والسفلة والأفاقين الذين فى بلادها الى تونس ، واعطاءهم أراضى فيها من أملاك الحكومة التونسية وأوقاف التونسيين ، والانفاق عليهم لعمارة تلك الأراضى بواسطة قرض يعقد باسم تونس ، ويدفع فائضه أهل تونس .

وبالجملة فاذا شاهد المسيو روجر لابون ومن على شاكلته هيجاناً فى العالم الاسلامى فليبحث عن أسبابه فى مظالم الحكومات الاستعمارية ، ونكثها بمواعيدها ، وخبطها هذه الشعوب بعصا العسف ، واستئثارها بأراضيهم ، وأموالهم ، ووضعهم تحت أقدام المستعمرين حقارة واهانة فالشعوب الاسلامية والشرقية مهما بلغ بها الضعف فلن تقر فى يوم من الأيام على العبودية للاوربيين ، يلزم أن يرفع الأوربيون خيال تأبيد هذه العبودية من رؤوسهم وأما زعمه أنه بعد معاهدة مودروس كان الاسلام بأسره قد استخذى ، وصار منتظراً أى

حكم يصدر من أوربا ليطيعه ، وان السبب فى كونه رفع رأسه فيما بعد ، واستأنف آماله ، وعاد الى المخاصمة ، هو ما رآه من انصراف الجيوش من الشرق ووقوع المنازعات بين الحلفاء فهذا كذب محض ، وبهتان بحت ، ينقضه التاريخ وتكذبه القيود الرسمية ، فقد وضعت الحرب أوزارها ، ومصر والاستانة والعراق والأناضول والقوقاس وسورية ملأى بجيوش الحلفاء التى لبثت مرابطة فى هذه البلدان مدة طويلة . وعندما أهالى مصر نهضوا لطلب استقلالهم كانت مصر تموج بالجيش الانكليزى . وان أهل العراق هبوا لمقاومة انكلترة غير هيابين المائة والعشرين ألف جندى ، التى ساقتها عليهم ، كما أنه لما نهض مصطفى كمال فى الأناضول كانت الجيوش الانكليزية فى الاستانة والأناضول والقوقاس بعشرات الألوف ، وكان جيش فرنساوى نحو ٤٥ ألفاً فى كيليكيا ، وجيش آخر فى الاستانة وجوارها ، وكان جيش للارمن فى حدود أرضروم ، وبعد ذلك زحف ١٥٠ ألف يونانى ، فأطبق الأعداء على الأناضول من كل جهة ، ومع هذا فلم يزد الترك ذلك الا ثباتا . فكيف يقال انهم تشجعوا بانصراف الجيوش عنهم . وأما فى سورية فبلغ عدد الجيش الفرنساوى ٧٠ ألف مقاتل ولم يمنع ذلك أهلها من مقاتلة الفرنسيس ، ولا صرفهم الخوف من كثافة الجيوش عن طلب حقهم الذى لا يزالون يطالبون به ، وأما شمالى الهند فلما زحفت عليه القبائل الأفغانية وجيش كابول ، أرصد الانكليز لمقابلتهم ٣٠٠ ألف مقاتل ، فكيف يكون المسلمون قد طمعوا وتجرأوا بانصراف الجيوش عن بلدانهم . وكذلك فارس أجبرت الانكليز على الجلاء عن بلادها ، والجيش البريطانى منتشر فى أكثر البلاد .

ثم يقول كان أكثر الناس مناهضة لقضية تجنيد الوطنيين هم الذين حصلوا العلم فى مدارس فرنسا . اذاً فالفريق الذى تلقى تربية اسلامية والفريق الذى تلقى تربية أوربية كلاهما واحد فى طلب الحرية ، وهذا أمر بدهى ، اذ لا الاسلام يرضى لأبنائه بهذا الاهتضام ، ولا أوربا تجيزه على أمة من أبنائها ، وكلا التعليمين ملتقيان فى نقطة الاستقلال وان السفسطة التى معناها أن المسلم لا بد أن يكون تحت حكم أوربى لاجل انتظام سير المدنية التى ديانته تمنعه منها ، هذه لا يقبلها المسلم العتيق ولا الجديد ، بل لا يقبلها أوربى عنده وجدان سليم ، وما هى الا أكذوبة خلقت لتسويغ الاستعمار واقناع الأحرار من الاوربيين ، الذين يقولون : « ما لنا ولهؤلاء القوم نهضم حقوقهم ، ونتحكم فيهم ، ونذهب

فنقاتلهم فى عقر دورهم » فيريد حزب الغزو والاستعمار أن يجاوبهم : « ان هذا ليس فى شى من الظلم ، لأن هؤلاء القوم لا يزالون عصاة على المدنية ما داموا مسلمين » . ثم يقول وهو من أغرب ما سمع فى باب القحة انه « منذ خفق العلم الفرنساوى فوق مرسى الجزائر تكوّن بين هذه الأمة وئام لم تعرفه من قبل » . وفى محل آخر يندب قصور عمال فرنسا فى تأريث نار الشقاق بين العرب والبربر كما كان من قبل . وقلما سمعنا أن قوما يدّعون أنهم فى أرقى طبقات المدنية يأسفون من كونهم لم يحسنوا التفرقة ، ولم يحكموا العداوة بين الأمم التى ساء بختها بسقوطها تحت أيديهم ، ويعلنون أسفهم وندمهم من جراء هذا الاهمال . على أن كلامه هذا هو كذب محض ، فان عمال فرنسا فى الجزائر لم يهملوا وسيلة لشحذ العداوة بين العرب والبربر الا توسطوا بها ، ولكن الذى جمع بين العرب والبربر هو رابطة الاسلام ، ورابطة الظلم المحيط بالفريقين . واذا كان عمال فرنسا منذ أول احتلالهم لسورية أى منذ سنة ١٩١٨ الى ساعة تحرير هذه السطور ، لم يفتروا يوما واحدا عن تأريث الضغائن الدينية بين المسلمين والنصارى فى سورية وبين النصارى والدروز فى لبنان ، بعد أن كانت هذه الضغائن والاحول قد سكنت وتلاشت تقريبا ، فتجد سورية ولبنان اليوم فى أسوء حال من هذه الجهة مما بذرته يد الاحتلال ، التى ظنت انها لا تمتد الا على بساط شقاق ، ولا تتمكن الا من خلال فتنة ، فما ظنك بما كان يفعله عمال فرنسا فى الجزائر من تحريك الاحن بين العرب والبربر الذين ليسوا فى مستوى أهل سورية ، لكن فرنسا لا تكلم بيد الا وتأسو باخرى ، فكل ما زرعه عمالها من الشقاق بين ذينك الجيلين فى المغرب ذهب بفضل الظلم والغصب والامتهان وسوء الادارة ، التى وحدتهما . وهذا شان كل من حاق بهم خطر عام . وليس بصحيح انه لما دخل الفرنسيس الجزائر كان فيها ٨٠٠ الف بربرى غير مسلمين ، فالاسلام دين البربر قاطبة منذ أكثر من الف سنة ، واللسان العربى هم يعرفونه جميعا الا ما ندر من جهلائهم . وقد اجتهد عمال فرنسا كثيرا فى فتنتهم فى دينهم ، ووفقوا الى بعض ما قصدوه وذلك بأن أدخلوا عليهم الشكوك فى عقائدهم ، فاصبح بعضهم معطلين أو ملحدين ، ولكن لم يتمكنوا من نقلهم من الاسلام الى النصرانية ، ولا ينكر أن كثيرا من الفرنسيس ومن عمالهم أيضا ، هم من ذوى الوجدان والاستقامة وارباب العقل والحكمة فتنهم عن استقامة طبع وطهارة وجدان ، تأبوا أن يزعجوا مسلمى

الجزائر فى دينهم وان يتمسكوا بعهد المحافظة على حرية الدين الاسلامى ، ومنهم عن حسن تدبير ، و بعد ادراك تجنبوا أن يتعرضوا للجزائريين فى عقائدهم وشريعتهم خوفا من انتقاضهم ، وتفاديا من زيادة نفورهم ، فهؤلاء هم الذين روجرلابون لا يزال يندد بهم ، ويقبح عملهم ، ويزعم أنهم كانوا يعزّزون الاسلام ، و يعاونونَ على تأييده ، وليس الأمر كذلك فما من فرنسوىّ على وجه الأرض عزز الاسلام أوسعى فى نشره ، وانما هناك فئتان احداهما ، ترى التعرض للمسلمين فى كل شئ حتى فى دينهم ، وأخرى ترى ذلك من قبيل اللعب بالنار وتتوجس من ورائه الثورات والفتن ، فلا تحب أن تتعرض للدعوة الدينية ، ولا أن تثير هذا الساكن ، وان رضيت بشئ من ذلك تنكبت فيه الطرق الرسمية . على أن تمييز غير المسلم على المسلم فى شرقى افريقية وسائر مستعمرات فرنسا ، ليس مما تمشى فيه فرنسا الضراء ، وناهيك انه من نحو عامين فقط ، اقترح أحد نواب السوسيا ليست فى البرلمان الفرنساوى الغاء قانون ، بمقتضاه لاتعطى مكافئات عقارية لذوى الخدمة النصوح الاللمسيحيين واليهود ، ومن يتنصر من المسلمين . وهذا قانون ليس بقديم العهد ، بل وضعه مجلس نواب فرنسا منذ ثلاثين سنة ، وقد أجابت الحكومة على اقتراح النائب الاشتراكى بأنه يليق الغاء هذا القانون بعد الخسائر الجليلة التى تحملها الجزائريون فداء لفرنسا . فأنت ترى كذب دعوى هؤلاء ، الذين يزعمون أن الحكومة الفرنسوية قصرت فى احتقار الاسلام واهتضامه فى الجزائر . نعم هناك فئة قليلة من الفرنسيين ترى هذا الضغط بئس التدبير ، ولعمرى كل عاقل فى الدنيا يحكم لهذه الفئة بالصواب فى رأيها .

ثم يفترى على الاسلام بقوله انه مادان به شعب الا تأخر وتقهقر ، وانه مانع ، بقوانينه الدينية من الترقى الاجتماعى . والحال أن الاسلام ليس فيه شئ يمنع الترقى ، ولا توجد شريعة فى الدنيا تقدس العلم وتعلى شأن العرفان وتجعل العلماء تلو الأنبياء كشريعة الاسلام ، واذا كانت الأمم الاسلامية قدانحط شأنها فى القرون الأخيرة لأسباب عديدة من جلتها : تكالب أوربا على بلادها ، وتظاهرها على استئصال قوتها فلم يكن نفس الاسلام هو باعث القهقرى بل كانت لذلك بواعث أخرى لم تخل منها أمة ومثال ذلك أن أوربا بقيت منحطة جاهلة ، متغشمرة ، ملفوفة فى حنادس الهمجية ، من بعد ماتنصرت بألف سنة . و بلغ من جهلها وانحطاطها أن مائة عربى افتتحوا قسما من ايطالية وقسما من سويسرة

فى أوائل القرن العاشر ، واستولوا على أكثر الجبال والمضايق ، و بنوا القلاع والأبراج ، وجاذبوا الحبل جميع ملوك تلك الأطراف ولبثوا مالكين هاتيك الحصون والقلاع ، ضار بين على أهالى تلك البلاد الذلة والمسكنة نحو قرن تام ، ولم يكن عددهم أنمى ماتموا وأكثر ماكثروا ليزيد على ألف رجل ، نجتزىء بهذا الفتح العجيب عن ذكر فتوحات العرب للاندلس والجنوبى فرنسا وجنوبى ايطالية الخ وتهذيبهم أهالى جميع الممالك التى احتلوها وغلبوا عليها . فكما أن همجية أوربا لذلك العهد لم يكن السبب فيها الدين المسيحى ، فانحطاط الاسلام اليوم ليس السبب فيه الشرع المحمدى . وانما هى أدوار تتعاقب ، وتارات تتناوب ، وكل مملكة أوكل مدنية تطرأ عليها أحوال من داخلها ومن خارجها ، فتشقى وتسعد ، ثم تعود فتشقى ثانية ، ثم تعود فتسعد ثانية وهلم جرا . ولقد سعدت قرطاجنة ثم شقيت وكان دينها واحدا ، ولقد علت رومة فى أيام الوثنية ثم سقطت فى أيام النصرانية ، فهل كان الدين المسيحى هو السبب فى سقوطها ؟ كلا . ثم هذه اسبانية منذ أربعمائة سنة ، كانت أقوى مملكة وأزهر مملكة ، وكانت اكتشفت أميركا وصارت فى بسطة مستعمراتها نظير انكلترة الحاضرة ، ثم لم تزل ترجع الى الوراء حتى عادت كالعرجون القديم ، وصارت تعجز عن قبائل الريف ، ولما كانت فى عنجهية عزها كانت نصرانية ولما وصلت الى حالتها بقيت نصرانية . وكان التتر غالبين على الروس وملوك الروس يؤدون الجزية الى أعقاب تمرلنك احقابا متطاولة ، ثم أصبح التتر كلهم رعايا الروس ، وصارت الملوك الباقية لهم اتباعا وخولا لقيصر الروسيا ، ولما علا التتر كانوا مسلمين ولما انحط الروس كانوا نصارى والآن تغيرت الأحوال ، وكل باق على دينه . والدولة العثمانية الاسلامية وصلت الى بولونيه ، واستولت على المجر ، وحاصرت فينا ، وصارت ملاذاً لفرنسا وناهضت أوروبا بأجمعها قروناً عديدة ، وكانت هى مسلمة ، وكانت أوربا نصرانية أكثر مما هى اليوم . فمن العبث أن نقول ان الدين المسيحى أو الدين الاسلامى ، هو سبب تأخر هذه المملكة أوتقدمها وانما التأخر أو التقدم تكون له مقدمات وأسباب تتراكم فتعمل عملها ، وناهيك أن اليابان أمة شرقية وثنية ، بلغت باجتهادها وصدق عزيمتها أن ضارعت أقوى دولة أوربية لا بل ، قهرت أقوى سلطنة مسيحية وهى الروسية ، فلما كانت لم تزل فى دور الانحطاط جاهلة مجهولة عللوا ذلك فى أوربا بكونها أمة غير أوربية ، وغير مسيحية ، كما يعللون اليوم أسباب تأخر

ممالك الاسلام فلما نهضت اليابان نهضتها هذه ، وكذبت فلسفتهم المبنية على الاهواء والمآرب ، لم يقدروا أن يدعوا أن اليابانيين تنصروا حتى أمكنهم أن يتقدموا ، ولولا تنصرهم لما بلغوا هذه الدرجة فزعموا أن اليابانيين وان لم يتنصروا فقد تفرنجوا ، ولولم يتفرنجوا لم يصيروا الى هذه الرتبة . و بعضهم لم يجرؤ أن يقول ان اليابانيين تفرنجوا فقالوا : ان اليابانيين قاموا بانقلاب اجتماعى فى داخل بلادهم حتى رقوا هذا الرقى . ان هذا لعمرى كلام فارغ ، فان كل أمة تعتمد على العلم والعرفان ، وتعمم المدارس فى بلادها ، وتنشد الأنوار من حيث أتت ، يحصل بها انقلاب اجتماعى بطبيعة الحال ، فاليابان نشدت العلم وأخذت ماعند الأوربيين من المعارف والفنون ولكنها بقيت شرقية فى كل شئ ، بل بقيت على دينها مذهب سينتو مع مذهب بوذا ، لم تحد عنهما ، ويخطئ من يظن أن اليابان بعد أن تعلمت وترقت ، أصبحت بلادين أواستخفت بالدين . فان كان من أهلها دهريون أو قائلون بالطبيعة ، أو بوجود قوة مبدعة فحسب ، فهؤلاء يوجد منهم فى كل أمة . و بالاختصار فيمكن الاسلام أن يرقى رقى اليابان ورقى أوربا ويبقى مسلماً ولكن الفئة المستعمرة من الافرنج يريدون أن يلبثوا متسلطين على بلاد الاسلام ، فلا يزالون ينتحلون لديمومة سلطتهم عليها أعاليل ومعاذير ، من جملتها أن الاسلام دين جمود أومثار فوضى وخلل فلايترك وشانه ، كما كرر ذلك هذا الرجل عدة مرار كذبا وميناً .

ومن غريب مارواه ان قسيسا عربيا من سورية جاء بلاد الجزائر وصارت له مكانة عند أبناء جلدته عرب الجزائر ، فأولو الأمر من الفرنسيس هناك حرصا على عدم تنصير المسلمين طردوه من الجزائر ، والذى يظهر لنا ان كانت هذه الحكاية صحيحة ان هذا القسيس بسبب كون لغته هى العربية ، أراد أن يدخل مع المسلمين فى مباحثات ومناظرات دينية ، وربما يكون تجاوز الجدل الى النيل من الاسلام مما أدى الى هيجان الأفكار ، ورفع بعض المسلمين القضية الى أولى الأمر ، فخافوا الفتنة وطردوا الكاهن المذكور وبرهنوا بطردهم اياه على عقل وحكمة . ولو أن داعيا مسلما دخل بين جماعة من النصارى الذين تحت حكم الاسلام ، وطفق يجادلهم فى دينهم ويثير خواطرهم ، وكنت واليا فى ذلك المكان لطردته ، وكان فى ذلك عين المصلحة . أما قول هذا الفرنسوى أن الكاهن السورى كان عند أبناء جلدته عرب الجزائر فهوغريب فان الفرنسيس بعد دخولهم سورية جعلوا العرب

غير السوريين والسوريين غير العرب ، واجتهدوا فى اثبات كون السوريين هم من سلائل الآراميين والفينيقيين وانهم ليسوا من العرب ، حال كون السوريين هم فى الأغلب من العرب الذين أوطنوا سورية قبل الاسلام و بعده ، والذين هم من أصل فينيقى هم عرب أيضا لثبوت هجرة الفينيقيين من جزيرة العرب والذين هم من سلائل الآراميين عدا كونهم ساميين أبناء عم العرب قد ذهب الأكثرون من محققى علم التاريخ فى أوربا ، ان آباءهم الآراميين جاءوا أيضا من جزيرة العرب مهد الأمم السامية بأسرها .

ثم ادعى أنه لم تتسق للاسلام مدنيــة تذكر الا مدة قصيرة أيام الأمويين بالأندلس والعباسيين فى بغداد أى نحو ثمانمائة سنة فى الأندلس ، ونحو خمسمائة سنة فى بغـداد .... فهـذه الأدوار رآها قصيرة لتعزيز برهانه الساقط ، مع أنها أطول على كل حال من مدنيــة أوربا ، التى لم تبـدأ الا منذ أربعمائة سنة وفى القرون الوسطى كانت كمدنية أوربا اليوم . و بعد أن اتهم الاسلام بالجمود والخمول ، وعدم القابلية للنباهة ، زعم أنه أخذ اليوم يتوسل الى العـلم ، و يجتهد فى صنعة السلاح ، ولم يقف عند السلاح المادى بل تجاوزه الى السلاح المعنوى ، الذى هو الطبع والنشر وصارت له جرائد كثيرة فى الشرق والغرب قائمة بدعوة اتحاد الاسلام . اذن الاسلام لم يكن جامـدا كما يدعى هؤلاء الناس . ثم يتـكلم على اسلام السودان وانه مشوب بخرافات فتيشية ويتفاءل بذلك خيراً ، وأكثر هؤلاء على هذا النمط من التفاؤل بعدم تحقق السودان بالاسلام الحقيقى" ، فلا أكاد أقرأ لـكاتب أو سائح أوربى كلاما على اسلام الزنوج أو الجاوى أو الصينيين أو غيرهم ممن أسلموا حديثا الا رأيته يجتهد فى اثبات كون اسلامهم ليس تاما ، وانه لا تزال عنـدهم عقائد وثنيـة أو عادات وثنيـة . وكأن هؤلاء الأوربيين يسلون أنفسهم بذلك من قبيل ، اللهم اننا لا نسألك دفع القضاء ولـكن نسألك اللطف فيه . فعداوتهم لمذهب بوذا ومذهب سينتو ودين براهما ، بل لعبادة الصنم نفســه ، ليست بدرجة عداوتهم للاسـلام ، الذى كله توحيـد وتنزيه . وأما قوله ان الزنجى لم يسـلم الا لينال رفعة ، ولمـا كان يرى الأوربى أعلى من المسـلم كان الأولى أن يتخذ دين الاوربى لنفسـه . فنحن لا يسؤنا أن الاسود الفتيشى يصـير نصرانيا كما يسؤ أكثر الاوربيين صيرورة الفتيشى مسلما ، لاننا نعلم أن النصرانية ترقى عقله وخلقه ، وترفع سويته الاجتماعيــة عما كان . ولـكن الزنوج الفتيشيين بالرغم عن جمعيات التبشـير التى

لا تعد ولا تحصى وعن نفوذ أوروبا الذى يكنفها سواء من الدول الكاثوليكية أو البروتستانتية ، وعن « كون الاوربى هو أعلى وأقوى من المسلم » فى نظر الزنوج ، فلا يزال هؤلاء يرجحون الاسلام ، ونحو ٤٠ مليونا من هؤلاء دانوا به فى القرن الماضى ، وفى هذه المدة ، بدون بعثات ، ولا جمعيات ، ولا دول تعضد الجمعيات. ولا ننكر ان كثيرين من هؤلاء الزنوج الفتيشيين تنصروا ، وقد أحسنوا بذلك صنعا ، لكن هؤلاء فئة قليلة فى جانب الذين أسلموا كما يعترف بذلك سياح الاوربيين ، الذين جالوا فى افريقية وكتبوا عنها ، وأنفس المبشرين والرهبان الملقبين بالرهبان البيض وغيرهم ، ممن كتاباتهم ملأت الدنيا بهذه القضية .

ثم قال : ان البلاد الضاربة فى الشمال هى غير مساعدة على انتشار الاسلام فيها ، لأن طول النهار المفرط وقصره المفرط ، يحدثان خللا بمواقيت الصلاة ، فيتطرق الشك الى قلب المؤمن . الى غير ذلك من التهكم والرقاعة مما كنا نحب أن لا نجاوبه عليه لسخفه ، ولكن قلنا حيث اننا خضنا فى هذا الموضوع فلنتناوله بأطرافه فنقول :

ان أحكام الصلاة والصوم جعلت لأغلبية البلاد التى فيها النهار نهار والليل ليل ، فلا يضر تلك الأحكام بعض أقسام من الكرة هى من النادر الذى لا يعتد به . على ان الفقهاء قرروا انه فى مثل هذه الاصقاع النادرة ، التى يطول فيها النهار هذا الطول المفرط أو يقصر هذا القصر المفرط ، يكون العمل فى الصلاة والصوم مقيساً عليه فى أقرب بلد من تلك الجهات ، وانحل بذلك الاشكال ، وليس فى الاسلام حرج بل هو أوسع وأسمح مما يتخيله هؤلاء القوم أو مما يريدون أن يخيلوه لأبناء جلدتهم . وان القرآن الكريم ليس بكتاب جغرافية ولا قوسموغرافية ، بل كتاب توحيد وتنزيه ، وتهذيب نفوس ، وتطهير أخلاق ومع هذا فلم يرد فيه شئ يخالف قواعد العلم بل وجدت فيه آيات بينات يحار غير المؤمن بالوحى من شدة مطابقتها للتحقيقات الحديثة سواء فى علم الفلك ، أو فى علم تكوين الأرض مما كان فى عهد نزول القرآن مجهولا ، وذلك مثل آية « أوَ لم يرَ الذينَ كفرُوا أَن السمواتِ والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعَلنَا مِنَ الماءِ كُلَّ شىءٍ حىٍّ » ، تأمل مافى هذه الآية من الانطباق على جميع النظريات العلمية الحديثة التى معناها ان الأرض والاجرام الفلكية كلها كانت كتلة واحدة فانفصل بعضها عن بعض ، وكذلك ان الحياة بدأت فى

المياه . ثم تأمل هذه الآية « وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » التى تثبت انه لا يوجد فى الفلك جرم غير متحرك على الاطلاق مع أن الفلكيين فى عصر القرآن كانوا يقولون بالسيارات والثوابت حتى التجأوا يومئذ عند تفسير هذه الآية الى التأويلات والاحتمالات البعيدة ، الى أن تقرر فى علم الهيئة الجديد كونَ الاجرام الفلكية بأجمعها متحركة ، وصدقت الآية بدون أدنى تأويل . وانظر الى قوله تعالى «مِنْ كل زَوْج بهيج » وكيف كرر ذلك مراراً حتى يفهم الانسان ان الخلق كله من حيوان ونبات وجماد ، مبنى على الازدواج حتى النبات فيه ذلك ، والجماد فيه القوتان السلبية والايجابية مما لم يكن شئ منه معلوما فى زمن البعثة ، فلم يفهم العلماء بعد مرماه الى أن تكفلت به التحقيقات العصرية . وأمعن النظر فى قوله « وَتَرَى الجبالَ تحسبها جامدةً وهى تمر مرّ السحاب » مما هو المثل اللازم لكيفية دوران الأرض مع سكونها الظاهر وتدبر قوله « اللهُ نُورُ السَّموَاتِ والأرْض مَثَلُ نُورِهِ كمشكاة فِيهَا مِصْبَاحٌ » الآية التى يشير فيها الى القوة الكهربائية وغير ذلك من الآيات التى تدهش القارئ المتعلم ، بما فيها من الحقائق العلمية بشرط أن يكون ذا ملكة عربية ، يقدر بها أن يتدبر عمق غور تلك الآيات لا أن يكون أجنبياً عن أدب العربية . وقد ألف العلامة الفلكى العظيم ، المنقطع النظير فى علم الفلك والطبيعة والتقويم المرحوم الغازى أحمد مختار باشا كتاباً فى تطبيق الآى القرآنية على العلوم العصرية ، جمع فيه نحو تسعين آية كريمة ، وأوضح ما جمعت من القواعد العلمية بأوجز لفظ وأقصر تعبير يعجز عن مثله البشر ، كما أنه شرح هذه النظريات كلها حسبما اتفق عليه علماء العصر الحاضر ، وأخرج منها وجوه المطابقة طالعة كالشمس ، و بلغنى ان أحد الضباط الأتراك ممن نبغ فى علم الفلك والهيئة ، نبوغا باهراً قد ألف كتابا ممتعا جليلا أجاد فيه الى الدرجة القصوى تطبيق قواعد هذا العلم على القرآن ، فعلمت بكتابه هذا بعض جمعيات التبشير المعهودة ، فأخذوا يراودونه فى أن يبيعهم إياه بثمن جزيل لأجل أن يحرقوه ، ويخفوا من الارض كتابا فنيا يستدل به على فضل القرآن المجيد ، وانطباقه على العلم . وليس هذا ببعيد عن هذه الجمعيات المتهوسة . ولولا كوننا نتجانف عن المناقشات الدينية ، وننكرها ونعتقد ضررها ، ونوجب حرمة الكتب السماوية التى تتمسك بها أديان محترمة كالدين المسيحى وشريعة موسى ، لأوردنا فى مقابلة تهكم هذا الرجل بالقرآن أقوال العلماء المحققين من أبناء جلدته الفرنسيس

فى ابطال نظريات التوراة من جهة تكوين الارض وبدأ الخلق ولكننا نؤثر اجتناب كل قول يمس عواطف هذه الملل الكريمة التى نرى أعظم خدمة للانسانية ايجاد الوئام بينها وبين الاسلام ، ولكن ان أبى الا المراء نحيله على كلام أكبر فلكى فرنساوى المسيو فلاماريون الشهير ، فى خاطراته من صفحة ١٧٠ الى صفحة ١٧٨ حيث يذكر أنه كان مؤمنا معتقداً ناشئاً نشأة دينية ، وبقى كذلك الى الثامنة عشرة من عمره ، اذ بدأت تخالجه الشكوك وذكر أسباب هذه الشكوك وأظهر أن أصلها هو عدم الانطباق بين الفن والدين ، وأتى هناك على قصة كوبرنيك ، ثم غاليله الفلكيين العظيمين ، والحرم الذى صدر بحق الاول ثم الثانى . وان شاء التوسع فى ذلك فليقرأ كتاب « اختلاف العلم والدين » للعلامة درابر الاميركانى وغيره مما لا شأن لنا فيه ، لاننا نحن هنا فى مقام سياسى لا نحب أن نخرج عنه ولاننا نكره المناقضات الدينية ، ولسنا على رأى التهافت على الكتب السماوية بالانتقاد والتخطئة كلما وردت فيها عبارة تخالف قاعدة علمية أو حقيقة فلكية قمنا نفندها ، فان هذه الكتب انما هى لغرض آخر أخروى ، ولا بد من أن ينظر فيها الى طاقة العوام فى الفهم والآفات الغرض المقصود منها ، فضلا عما فى آيات هاتيك الكتب المقدسة من الكنايات والمجازات المألوفة فى اللغات التى جادت بها ، فلابد لقارئها من أن يلحظ هذا الأمر .

ثم قال ان الاسلام لم يوجد ليمتد الا فى صحارى آسية الواسعة التى تتجلى فيها عظمة الله ، ولا يصلح بين الأنهار والشجر الكبار التى تجد الافق بينها ضيقا كما فى بلاد خط الاستواء حيث تصعب معرفة القبلة . وأيم الله قد وصل هذا الكاتب من الرقاعة ، الى حد أن صار الانسان لا يتنزل الى الجواب على كلامه أصلا ولقد ثبت أن الاسلام منتشر فى خط الاستواء أكثر من كل مذهب آخر ، ولكن قد ظهرت نيته من هذه المماحكات ، وهى أن يحمل الحكومة الفرنسوية على عدم الاعتراف باسلام السود ، ومعاملتهم كزنوج فتيشيين تتصرف الحكومة بهم كما تشاء فى العقيدة كما أنه يوجد فى جزيرة ماداغسكر قبائل كثيرة أسلمت بواسطة الطارئين على تلك الجزيرة من عرب زنجبار وجزر القمر ، فلم تشا الحكومة الفرنسوية المسيطرة على الجزيرة أن تعرفهم بصفة مسلمين ، بل بقيت تعدهم وثنيين ولا تعتبر مسلمين الا المسلمين الغرباء النازلين بالموانى ، وما المقصود من انكارها اسلامهم الا التعرض لهم فى عقائدهم وردهم عن الاسلام قسرا .

ثم لاجل ترغيب الحكومات الاوربية فى تنصير الزنوج ومنع انتشار الاسلام قال ، ان أقليــة ذات بال من السنيغال صارت مسيحية ، وان أهالى الاوغانده صاروا كلهم نصارى ، فليس الاسلام هو الدين الطبعى للسود كما يقال دائماً . ونحن نجاوبه انهم ان كانوا نصارى ، فهو أفضل جداً عند الاسلام من أن يبقوا فتيشيين يعبـدون الوثن أو النار أو مظهرا من مظاهر الطبيعة فان النصرانية تزلفهم من الانسانية وتبعث فيهم روح الفضـيلة ، وتنتاشهم من ذلك التوحش الذى كانوا فيه . وذلك بخلاف ما يتمنى كثير من الأوربيين ، الذين أعمى الغرض قلوبهم من أن يبقى الزنوج على الفتيشية ولا يصيروا مسلمين ، مع أنهم فى دخائل ضمائرهم يعلمون مزايا الاسلام العالية ورغبة أهالى افريقية فيه أكثر من غيره . أما قوله ان جميع أهالى الاوغانده صاروا نصارى ففيه مبالغة وهو مثل قوله ان بلاداً بأسرها مثل هرر صار أهلها نصارى . وهاك ما ورد عن الأوغانده فى انسيكلو بيدية المسيو موريس فال Maurice Wale التاريخية الجغرافيــة ومؤلفها من فحول علمــاء فرنسا ، وهو مفتش المعارف العمومية فى المستعمرات أى خبير بأحوالها فهو يقول عن الأوغانده : « انها قطر فى الشمال الغربى من بحيرة فيكتوريا نيانزا ، مساحتها ١٥٠ ألف كيلو متر مربع وأهلها مليون نسمة ، قد حصلت فيها قلاقل على أثر موت الملك متيزا بسبب المناظرات الدينية بين المسلمين والـكاثوليك والبروتستانت ، وقد تغلب البروتستانت على الآخرين بعضد ضباط الانـكليز لهم ، والاوغانده هى تحت حماية انـكلترة » انتهى . قلنا ان الانكليز اقتطعوا الاوغانده من أصل السودان المصرى استبداداً من عند أنفسهم وضموها الى مستعمراتهم ، ولم يرضوا أن يبقوها من جملة السودان المصرى ، لأن السودان المصرى هو بزعمهم تحت حكم مشترك بين انكلترة ومصر فالانكليز مضطرون أن يقبلوا ولو بالاسم بقاء حصة لمصر فى حكم السودان المصرى ، لـكنهم يريدون أن ينفردوا وحدهم بملك الأوغانده ، وقد عززوا البعثات البروتستانية هناك بكل قوتهم ، ولـكنهم لم يقدروا أن يستأصلوا الاسلام من تلك الأرض . وأما عن هرر فيقول المسيو فال «انه قد افتتحها منليك نجاشى الحبشة سنة ١٨٨٧ ، وكانت من سنة ١٨٧٥ تابعة لمصر ، وان أهلها ٣٥ ألف نسمة مسلمون شيعة . أما فى دائرة المعارف الاسلامية فيقول ان أهلها ٥٠ ألف نسمة ، منهم الثلث من أهل البلاد الأصليين ، والباقون بين سوماليين وأحبــاش وهنود وسوريين وأرمن وروم وأوربيين . الى أن يقول ان

الاسلام دخل هرر منذ سنة ١٠٠٠ للمسيح ، فهو فيها قديم جداً ولا يزال يطرأ عليها أناس من جزيرة العرب ومصر ويبثون دعوة الاسلام من هرر فى بلاد غالا Galla الوثنية ، وقد نقصت هذه الدعوة قليلا بعد مجىء الحبش المسيحيين ، لكن مسلمى هرر لا يزالون معدودين من المتشددين فى دينهم » وقد ذكر المسيو موريه Morié الفرنساوى فى كتابه تاريخ الحبشة المطبوع سنة ١٩٠٤ . أن الامبراطور منليك بعد أن فتح هرر وبدد جمع الأمير عبد الله على عبد الشكور ، هدم الجامع الأعظم فى هرر وأقام محله كنيسة . ولم يقل ان أهل هرر تركوا الاسلام ، ولا أحد قال انهم تركوه .

ثم قال انه كان عمل المبشرين شاقاً فى البلاد الاسلامية ، فهذا من أجل كونهم يحاولون وضع عقيدة أمم راقية جداً محل عقائد أقوام هم فى أدنى الدركات . فنحن نمسك القلم عن الرد على هذه الفقرة التى لا تدل على شىء سوى قحة كاتبها على حين أن الاسلام يهزأ بهذه المطاعن على أن لابون يجعل نصرانية القرون الأولى [١] أيضاً من قبيل الاسلام فى ملاءمته للمستوى العقلى المنخفض ، فليتأمل الانسان وليتدبر فى قحة هؤلاء الناس حتى على الدين الذى ينتمون اليه ، ويريدون بث دعوته بزعمهم .

وبعد أن أشار بالتضييق على التعليم الاسلامى ، ومراقبة من يواظب على صلاته من مسلمى السنيغال ، وبين مضار الحج ، وحرض على جميع هذه التدابير ، التى يعلم منها مبلغ احترام هؤلاء القوم للحرية الدينية ، عاد فأشار بالطرق الآئلة الى قلع اللغة العربية من شمالى افريقية ، وجعل الفرنساوية لغة الأهالى .

ومن الغريب أنه استشهد على وجوب هذه الطريقة ، بكلام بول برت الذى يقول : ان حل المسألة العربية هو بالكتاتيب ، وأتمنى أن أرى فى كل قرية من قرى المغرب معلما عربياً ومعلماً فرنسوياً ، فكلام بول برت كلام رجل عاقل مجرب لا غبار عليه ، وليس منا من يكره أن يتعلم مسلمو المغرب وافريقية اللغة الفرنسوية ، بل نود ذلك من صميم أفئدتنا . وانما الذى يعارضه المسلمون بكل قوتهم هو أن تحل اللغة الفرنسوية محل اللغة العربية ، وتصير هى لغتهم القومية ، اذلا يوجد فى الدنيا قوم يرضون بسلب لغتهم مهما كانت ، فما ظنك بالناطقين بالعربية التى يفتخر بها كل منسوب اليها ، ويجل قدرها

(١) أى النصرانية التى هى قريبة العهد من السيد المسيح والحواريين

حتى الغرباء عنها . وأما استشهاده بانتشار اللغة الفرنسوية فى الشرق وزعمه أنه قد تعلمها الأكراد والترك والعرب والأرمن والكرج الخ ، فمع كونه بالغ فى دعواه هذه مبالغة عظيمة اذ ليس الامر كما يقول ، وان تعلم الفرنسوية منحصر فى الطبقة الراقية فقط ، فانه لا ينطبق على الغرض الذى يتوخاه ، لأن مقصود هذه الفئة المستعمرة أن تمحوا اللغة العربية تدريجاً من المغرب ، وتحمل الناشئة الاسلامية منذ الصغر على اللغة الفرنسوية توسلا بذلك الى محو الاسلام ، القائم هناك باللغة العربية . مع ان الأمم الشرقية التى يذكر أنها كلها تعلمت اللغة الفرنسوية لم تجعل هذه اللغة لسانها القومى ، بل جعلتها فى مقدمة اللغات الأجنبية التى يناسب تعلمها لاغير ، فلذلك لم يحدث من تعلم الفرنسوى أدنى محذور ما دام تعلما اختيارياً لا يضر باللغات القومية ، بل يزيدها علماً . ولكن متى حاولت فرنسا عمداً وقصداً قلع اللغة العربية رأسا أو تدريجا ، وقصر المغاربة على الفرنساوى ، قامت عليها القيامة فى جميع تلك الأقطار وفى غيرها ، وأظن أن العقلاء فى فرنسا يدركون استحالة ذلك .

ولقد تقدم فى هذه العجالة ما يكفينا مؤونة الرد على سائر كلامه ، الذى تجده كثيرا ما ينقض بعضه بعضا ، ومن جملة تناقضاته أنه بعد كل حملاته الشديدة على الاسلام يقول انهم لا يحذرون فى تونس من عامة الأهالى الراتعين فى السعادة والامان [(١)] ولا يحذرون من الاسلام نفسه ، الذى أعلى نفوس هذه الأقوام ، حتى تحملت ما تحملته من الخسائر الفادحة . فعرف هنا أن الاسلام يعلى النفوس ، وينهض بالهمم . قال ولكنهم يحذرون من تلك الطبقة المتعلمة الذين قرأوا أشياء فاساءت هضمها عقولهم . ولعمرى ما من أمة فى الارض قام بتحريرها الا نبهاؤها والطبقة المتعلمة منها فلماذا اذا قام الأروام أو البلغار أو الصرب أو الأرمن أو الكرج الخ ، بطلب استقلالهم كانت الطبقة الناهضة منهم محل اعجاب اوربا وثنائها ، وعطفت جميع تلك الدول المتمدنة عليها ، فاذا جاء الدور الى أمة مسلمة تطلب تحريرها ، قامت أوربا سداً فى وجه مطالبها ولو كانت هى اليوم أرقى من هاتيك الأمم عند ما نهضت للاستقلال ؟ لماذا كل ما هب قوم من الشرقيين والمسلمين لطرح نير

(١) كما هم راتعون أهل سورية الآن بل أهل سورية لا يزالون أسعد حالا لأن اليد لما تمتد الى غصب أراضيهم وأوقافهم

العبودية عن أعناقهم رموا بالتعصب والتعنت ، وكراهية الأوربيين ، وقيل ان ذلك هو من عمل القرآن فى قلوبهم ، ومن تحريض رجال الدين . وان كان المطالبون منهم هم من الفئة التى طلبت العلم فى اوربا ، واتصفت بعدم التدين ، قيل انهم طبقة قد قرأت أشياء لم تحسن هضمها ، هذه الجملة التى لا نزال نجدها فى كلامهم بكرة وأصيلا ، كلما تكلموا عن أمة اسلامية أو شرقية يطالب نبهاؤها بتحريرها قالوا عنهم هذه الجملة : قرأوا أشياء أساءوا هضمها .

اجمال الكلام أنهم غلبوا على هذه المستعمرات واستعبدوا هذه الأمم ، فيريدون أن يحتاطوا لأجل تأبيد سلطانهم عليها بجميع الوسائل ، ولايقفون عن شئ فى سبيل احكام سلاسل هذه العبودية ، ظانين أنهم يحفظونها راسفة فى هذه الأصفاد الى الأبد ، فتراهم يفكرون فى تهيئة الأسباب لاستئصال كل مايخشون وقوفه فى وجه مآربهم السيئة ، من دين ، ولسان ، وقومية و وطنية وماهم بقادرين على شئ من هذه المكايد الشيطانية ، التى لايزيدهم استعمالها الا خبالا . وان كان ثمة أمل بحسن العلاقات وتمكن الألفة بينهم و بين تلك الأمم ، فلا يكون الا بسياسة العدل والمساواة ، واحترام دياناتهم ولغتهم ، والعدول عن تلك الأساليب الاستعمارية الخبيثة مماهو برنامج أحزاب الشمال منهم .

وان كان ظن هؤلاء الجماعة أن تنصير السودانيين أوالمغاربة ، يؤمنهم أبديا على تلك المستعمرات ، ويكفيهم شر استقلالها مما صرح به بقوله : « لسنا فى الجزائر كالانكليز بمصر اذهم يعتمدون فيها على أقلية قبطية ». فهذا وهم عريق فى البطلان ، لأن هؤلاء الأمم سواء كانت مسلمة أو نصرانية ستطلب استقلالها وتأخذه وأنت ترى أن أمما كثيرة ثارت على أمم كانت تسودها ، ولم يمنع من ذلك اشتراك السائد والمسود فى الدين ، ولديك امبراطورية النمسا أعظم شاهد ، وان قيل ان ذلك يكون فى أوربا المتمدنة لافى أفريقية أتينا لك بمثل الحبشة مع انكلترة ، ثم مع ايطالية ، أفتحملت الحبشة حكم الطليان لكونهم نصارى وكونها هى نصرانية ؟ كلا . ثم يقول لسنا كالانكليز الذين يتوكأون بمصر على أقلية قبطية . فهذه لعمرى مكابرة فى المحسوس ، اذ يكاد أن يكون الأقباط بمصر أشد تمسكا باستقلال مصر وجلاء الانكليز عنها من أنفس المسلمين ، فأى توكؤ توكأته انكلترة عليهم ؟ وأعجب من هذا أن الزنوج الذين تنصروا فى غربى افريقية يكرهون الأوربيين

كما يكرههم الزنوج المسلمون وتجد الفريقين متحابين يود بعضهم نجاح بعض ، وقد تلاقى بعض المسلمين مع بعض كبار السودانيين النصارى فى لندن ممن هم حكام فى بلادهم تحت سيطرة الأوربيين ، فوجدهم يتمنون فوز المسلمين كما يتمنون فوز أنفسهم . وفى العام الماضى تقابلنا فى جنيف باثنين من رجال جهورية ليبريا فى غينية[1] وكانا من الأوربيين يمثلان ليبريا فى جمعية الأمم ، فأخبرانا ان هذه الجهورية التى تأسست سنة ١٨٢٢ للعبيد الذين تحرروا فى أميركا ، واعترفت الدول باستقلالها سنة ١٨٤٧ ، يسكنها اليوم مليون ونصف مليون نسمة ، منهم مليون ومائتا الف مسلم ، وثلاثمائة الف مسيحى وبينهم ٥٠٠ أوربى فقط . والمسلمون والمسيحيون هناك يعيشون كالاخوة ، ويغارون جميعاً على وطنهم . فهذا سيكون مصير افريقية فى يوم من الأيام بازاء المستعمرين ، ولاينفع الأهالى كون أهل افريقية من هذا الدين أو ذاك الدين .

* * *

ولنأت بشاهد آخر على نيات الفرنسيس بحق مسلمى مستعمراتهم ، وهو كتاب للمسيو بريفيه J. Brévié والى بلاد النيجر الفرنساوى ، الذى عليه صفة رسمية ولا يمكن أحداً أن يمارى بقوله انه كاتب منفرد برأيه الخاص ولا انه خال من الصبغة الحكومية ، فانظر ماذا تقول جريدة الاوفر L'œuvre ، المعروفة انها من الجرائد الحرة ومن حزب الراديكال فى عددها المؤرخ فى ٢٢ يونيه سنة ١٩٢٣ . تحت عنوان :

الجنس الأسود والاسلامية

قدنشر المسيو بريفيه حاكم مقاطعة النيجر كتابا ممتعاً ، يشرح فيه المقاومة الناجحة التى تبديها الأمم السوداء للاسلام فى السنين الأخيرة ، حال كونه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، غلب الاعتقاد بأن جميع الأجناس الزنجية صائرة الى الاسلام لامحالة ، فالآن مشهودة حركة بالعكس ، وبالرغم من الوعظ والارشاد اللذين يقوم بهما المبشرون المسلمون تجد الزنوج متمسكين بعقائد آبائهم وعادات أسلافهم .

فالمسيو بريفيه فى كتابه المسمى « الاسلامية ضد الطبيعية . فى السودان الفرنساوى » Islamisme contre Neturalisme au Soudan Français يعترف أنه مهما كان من تدنى الفتيشيين فى درجات الحضارة فليس من المستحيل عليهم الترقى والتمدن ضمن دائرة

(١) افريقية الغربية

قوميتهم وخارجا عن الاسلام . ففى السنين الأوائل من استيلاء فرنسا على غربى افريقية كان عمالنا بسبب معرفتهم المدنية الاسلامية يميلون الى دعاة الاسلام الذين أمكنهم هكذا ان يبثوا بكل أمان تعاليم هى فى الظاهر أرقى من عقائد الفتيشيين (تأمل) أما الآن فتقهقر الدعوة الاسلامية ، أمر لم يبق فيه شك . وان احصاء عدد الناشئة المتعلمة من المسلمين يتناقص فى بلاد النيجر ، كما انه لم يتقدم الى الأمام فى سائر البلدان التى امتد اليها الاسلام من قبل . وقد عزا المسيو بريفيه هذا التقهقر الاسلامى الى تناقص عدد الزعماء ، والى تزايد عدد مدارسنا التى زاحمت مدارس المشايخ المرابطين ، والى الغاء تجارة الرقيق التى هى من الأركان الاقتصادية عند تجار المسلمين ، والى الأمر بعدم مراجعة قضاة الشرع .

فالآن سياستنا عاملة بهذه المبادىء ، وقد توزع بلاغ على مأمورى الادارة مصرح فيه بما يأتى : « يجب التزام الحياد مع الانتباه التام بحيث ان كلا من فريقى الاسلام والفتيشية يمكنه أن يترقى وينمو فى وسطه بدون تسلط هذا على عقيدة هذا » .

وقد وجد الأنسب حفظ تلك الهيئة الاجتماعية ، التى كان لها فى الماضى زعماء تمثل عاداتها ، والتى هى الصورة الحقيقية لمنزع ذلك العرق الأسود . وابقاء تشكيلاتها البلدية المبنية على مبدأ المشيخة ، والعمل بأحكام قضاتها ، الذين كان يضرب بعدلهم المثل حتى يقال فى الحكم الذى قد استوفى شروطه : « هذا حكم من أحكام البامبارة القدماء . »

والحقيقة أن الغرض هو احياء عادات الزنوج القديمة وتقاليدهم الموروثة التى نشأوا عليها ويقول المسيو بريفيه : « انه يوجد من ذلك قواعد قضائية كافية لأجل حل المشكلات الاجتماعية وفصل الخصومات الفردية ، وهى من وجود كثيرة لاتقل متانة عن الشرع الاسلامى . وانه يجب علينا أن نجمع تلك الهيئة الاجتماعية ، التى توشك أن تنحل ، والتى هى متفرقة أشتاتا حول تلك الأصول القديمة . انتهى .

فليسمح لنا القارىء أن نأخذ من هذا الكلام النتائج الآتية :

أولا — ان كتاب حاكم مقاطعة النيجر الفرنساوى ، والمنشور الرسمى الذى أشار بصدوره الى مأمورى الادارة يدلان دلالة واضحة على كون فرنسا قد بدأت تقاوم انتشار الاسلام بنفوذ الحكومة ، وان عبارة وجوب الحياد مع الانتباه لمنع تسلط عقيدة أمة على أخرى ، هو من قبيل التمويه ، فانه ولا فى وقت من الأوقات تسلط الاسلام بالقوة فى المستعمرات

الفرنسوية عـلى عقائد الفتيشيين ، كما أنه ولا فى وقت من الأوقات روج عمال الحكومة الفرنسوية فى المستعمرات الدعوة الاسلامية ، بل غاية ماهناك ان عمال الادارة الفرنسوية لم يكونوا يناصبون الدعوة الاسـلامية العداء ظاهراً ولم يجتهـدوا فى منع انتشارها كما هم مجتهدون اليوم ، وذلك كان منهم عملا بمبدأ الحرية الدينية المشهور ، فالآن لما هالهم تقدم الاسلام بين الزنوج قرروا توقيف نموه فعلا ، بحجة أنهم لايسمحون بتسلطه على عقائد الفتيشيين . وتحت هـذه الجملة « منع تسلط عقيدة على أخرى » ، يعملون ما يشاءون لمنع المشايخ المرابطين من بث دعوة الاسـلام بين السودانيين ، واقفال المدارس التى يمكن أن يفتحها المسلمون فى قرى الوثنيين ، وغير ذلك من التـدابير التى ليس على الفرنسيس فيها من رقيب ولا حسيب هناك ، ولا ينتظر القارئ أن يجدها مكتوبة على الورق وان كانت جارية بالعمل . ولا شـك ان اغتباط حاكم النيجر بعدم تقدم الاسلام ، فى هذه السنوات الأخيرة فيما بين الزنوج ، وتفاؤله بحسن المستقبل ، هما من آثار التـدابير الحكومية التى اتخذتها فرنسا لمنع انتشار الاسلام ، والتى يشير بها روجر لابون وأمثاله ، لوقف الدعوة الاسـلامية فى غربى افريقية وأواسطها . ولقد ظهر هنا اننا كنا على صواب فى قولنا ان آراء روجر لابون لم تكن آراء فرد مستقل بفكره ، بل هى آراء الحزب الأغلب بفرنسا بدليل كتاب المسيو بريفيه هذا ، والأوامر الرسمية الصادرة فى هذا المعنى .

ثانياً ـ يظهر جيدا من قول الحاكم المذكور ، وكلام جريدة الاوفر ، أن الفرنسيس عولوا عـلى احياء عادات الفتيشيين وعقائدهم ، واجراء الأحكام بموجبها ، ومعلوم انه لم يكن ذلك اعجابا بها ولا اعتقادا بأنها تشبه الشريعة الاسلامية فى شئ ، بل من باب اختيار أهون الشرين عليهم ، فانهم لما رأوا دعوة التبشير الأوربى غـير ناجحة بين الزنوج كما يرومون ، وانه لانسبة بين ما يكسبه الاسلام وما تـكسبه النصرانية فى افريقية ، بسبب كون الأسود يكره الأوربى فطرة وينفر من تقليده فى دينه ، عادوا فرأوا ان بقاء الفتيشيين على عقائدهم الوثنية هو أوفق لمصلحة فرنسا من تدينهم بالاسـلام ، فوجدوا الاحزم أن يعملوا لتاييد الفتيشية ، ويجعـلوا عاداتها وعرفها قوانين جارية معمولا بهـا ، ويعترفوا باقضية الفتيشيين ، وبالجملة فـكل شئ يهون عند الأوربى ـــ الا النادر الاندر ـــ بالنسبة الى فوز الاسلام ونجاح دعوته .

ثالثا ـ من كلام المسيو بريفيه يتبين أنهم بدأوا بقصر القضاء الشرعى الاسلامى ، لقوله ان من جملة أسباب تناقص النشء الاسلامى ، هو «الأمر بعدم مراجعة قضاة الشرع» فانت ترى مافى ذلك من الاخلال بمبدأ الحرية الدينية ، ومن معارضة المسلمين رأسا بأمور دينهم ، على حين ان الفرنسيس فى الوقت نفسه يريدون احياء أقضية الوثنيين ، ويجعلون اصطلاحاتهم القديمة قوانين وأصولا يرجع اليها فى الأحكام . ولا يبعد أن يكونوا قد اجبروا أنفس المسلمين على مراجعة قضاة الوثنيين توهينا لنفوذ الشريعة الاسلامية ، الذى هو هدفهم المرمى المتجلى وراء كل حركة من حركاتهم وتدبير من تدابيرهم . وان لم يكونوا اجبروا جميع المسلمين على ذلك ، فلا بد أن يكونوا ساقوا الى ذلك الزنوج ، الذين أسلموا حديثا ، لأنه ظهر ان الحكومة الفرنسوية عولت على ان لاتعترف باسلام من يريد أن يدخل فى الاسلام من الآن فصاعداً من الأمم السوداء ، وقد أسلمت قبائل كثيرة فى ماداغسكر ، فلم ترض السلطة الفرنسوية فى تلك الجزيرة أن تحصيها فى المسلمين ، ولا أن تعتدها مسلمة بوجه من الوجوه ، واحتجت لعملها هذا المخالف لكل حرية دينية ، بأن اسلام تلك القبائل هو خليط بعقائد وثنية . وربما يكونون اجبروا على التقاضى عند قضاة القبائل الوثنية من كان قد أسلم من هاتيك القبائل بحجة أنهم كلهم من أصل واحد ، فأمة « البامباره » هذه المنتشرة فى السودان الفرنساوى ليست بأجمعها وثنية ، بل منها قسم كبير لاسيما أهل كارتا Kaarta مسلمون . والا فما معنى قول المسيو بريفيه ان من جملة أسباب تناقص الناشئة الاسلامية ، الأمر بعدم مراجعة قضاة الشرع الاسلامى ؟

رابعا ـ قد نوه المسيو بريفيه حاكم النيجر وتابعته جريدة الاوفر بمحاسن قضاء البامباره ، ومتانة أصولهم وأوضاعهم ، وظهر أن الفرنسيس يريدون أن يجعلوها دساتير للاحكام وصرح الحاكم المذكور انها لاتقل عن الشرع الاسلامى متانة ، وغير ذلك من المزاعم التى حملهم عليها مجرد رغبتهم فى منع العمل بالشريعة الاسلامية . والحقيقة انه ليس عند البامبارة شىء من هذا ، فالبامباهُ جيل من السودان الفرنساوى يحد بلادهم شمالا السودان الذى يسكنه المغاربة من كولودوغو Kulodugu الى تامباكاره Tambakara وجنوبا السنيغال الأعلى من مدين Medine الى بافولابه Bafoulabe أى بين ١٢ الى ١٤ من العرض الشمالى و ٦ الى ١٠ من الطول الغربى (من باريز) وهم أهم أجيال الجنس

الماندى . وقد وصفهم السياح الأوربيون بالعمل والحرص ، والاقتصاد ، أما عاداتهم وأوضاعهم ففطرية ، اذ الأب هو رئيس العترة والمتصرف بها كما يريد ، والأولاد الى سن الرشد ارقاء له ، وهو يزوج بنته بدون علمها كما أن البنت متى تزوجت صارت أمة لبعلها ، والطلاق عندهم مباح ، كذلك تعدد الزوجات ، والارث ينتقل من الاخ الى الاخ . وكانوا ينقسمون الى طبقات ثلاث ، الاشراف وهم المحاربون ويقال لهم تونتيغى ومعنى تونتيغى قوّاس ، ثم الفلاحون ، ثم العبيد ، أما الآن فيرأسهم الاسر الملوكية القديمة مثل بنى « كاروبالى » و « دياره » و « ماساسى » ويأتى بعدهم طبقة يقال لها «نومو » أى الحدادون ، ثم طبقة يقال لها «غارانغوى » أى صناع الجلد ، ثم طبقة السحرة ، ثم الارقاء

وكل قرية من قراهم ، لها زعيم يفصل فيها الخصومات بموجب أصول يتوارثها الخلف عن السلف . وهذه القرى المرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً واهياً لاتشتد أواخيه فيما بين البامباره الا عند قتال عدو عام ، كما حصل فى حروبهم مع الاسلام . وللبامباره لغة اسمها « البامانا كا » هى من جملة لغات امة الماندى ، وهى فى منتهى الاختصار ، فليس من حالات للاسماء ولا للأفعال ، بل هى تلزم حالا واحدة فى المفرد والجمع والمذكر والمؤنث والحاضر والماضى والمستقبل . والكتابة عندهم قليلة وانما يستعملون لها الحروف العربية ، وليس للغتهم آداب ، وانما هى أخبار وقصص لاتنتهى الى أبعد من القرنين الأخيرين ، وبعض أغانى يرقصون عليها . وأما ديانتهم فهى وثنية محضة ، وكل عائلة عندهم لها حيوان معبود اسمه تنه Tenné لايقدرون ان يقتلوه ، ولا أن يأكلوه ، ولاأن ينظروا اليه اجلالا له . ويعتقدون ان الاسلاف ، هم حافظون للاخلاف ، لذلك يدفنون موتاهم فى دهاليز بيوتهم ، ويضعون اشارات على مدافنهم كصور وجوه أو أيد ، ويقدمون عليها القرابين ، ومن قبل كانوا يذبحون الاسرى . وكثيراً ما يعبدون أشجاراً يذبحون أمامها الحيوانات قربانا ، من غنم وكلاب وديكة ، وربما قدموا لها الفواكه والحبوب . وهم يسيجون مثل هذه الاشجار المقدسة بالعليق . وأما السحرة ، فهم عندهم بمثابة الكهنة يخرجون من طبقة الحدادين . ولهم جمعيات سرية ، ويتكهنون بالمغيبات ويفحصون احشاء الحيوانات التى تقرّب بذبحها ، ويطوفون فى الليالى بين القرى مرتدين البسة مخيفة يقصدون بها القاء الرعب . وليس للبامبارة تاريخ معروف سوى انهم كانوا من جملة الاجيال

التابعة لسلطنة مالى الاسلامية ، فلما سقطت هذه السلطنة أصبحوا مستقلين بأنفسهم ، وأسس أحد زعمائهم المسمى « كالاديان كور و بارى » على البلاد الواقعة على ضفتى النيجر مملكة واسعة ، وقام من بعده أولاده فتنازعوا فيما بينهم حتى آل الملك الى أحد احفاده المسمى « بيتو » ، فجمع تحت حكمه جميع بلاد البامباره وملك مدة ٣٠ سنة ، وخلفه ابنه فوسع ملكه ، ثم جاء ملك اسمه « نغولو » فبسط ملكه حتى حدود تمبكتو . وفى النصف الاول من القرن التاسع عشر كان منهم ملوك أعزة فى «سيغو» و «مانسونغ» و«دودياره» تغلبوا على بومبارية « كا آرتا » وضربوا الجزية على أهل «ماسينا» و « فوتا » (١٨٣٠) وكان لهم امارة أخرى فى « الكا آرتا » أسسها فى أواسط القرن السابع عشر « سا كابا » ابن كلاديان كار و بارى ، ثم انتقل الملك من أعقابه الى امارة أخرى صاحبها « سيه ماسا » استمرت فى أعقابه الى أواسط القرن التاسع عشر فى « نيورو » هذا هو ملخص تاريخ البامباره .

وفى أواسط القرن التاسع عشر ، ظهر الحاج عمر الشهير ملك «التيكولور » فاستولى على الكا آرتا وأزال ملكها ، و زحف الى مملكة سيغو ، وكان ملكها قد تحالف مع ملك ما سينا لصد الاسلام ، فسقط كلاهما ودخل الحاج عمر الى سيغو فى ١٠ مارس سنة ١٨٦١ وأقام بكر أولاده ملكا عليها . ولكن البومباره انتقضوا عدة مرار على المسلمين ، وفاز منهم قوم « البليديغو » بالاستقلال ، وقطعوا ما بين سلطنة التيكولور ومملكة سيغو ، ودام ذلك النزاع الى سنة ١٨٩١ ، اذا وصلت الجيوش الفرنسوية واحتلت البلاد وأزالت سلطنة التيكولور الاسلامية . وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية الفرنسوية ، ان البومباره يمثلون فى السودان الفرنساوى ، العنصر المخاصم للاسلام . وقد أيد هذا القول كلام حاكم النيجر فى كتابه السابق الذكر ، وسياسة الحكومة الفرنسوية التى يظهر انها تريد لتحيى العداوة التى كانت عند هذه الأمة للاسلام . وتجعل البامبارة سداً فى وجه المسلمين . فأما الأصول والعاداة التى أشار المسيو بريفيه الى متانتها من تقاليد البومباره ، فقد مر بك من مجملها ما تعلم به انحطاطها وانحطاط عقائد أولئك القوم ، الذين يعبدون الحيوان والشجر وما أشبه ذلك ، ولا يخجل المسيو بريفيه من أن يقول : « انها لا تقل عن الاسلام متانة وان تعاليم الاسلام هى ــ فى الظاهر ــ أرقى من تعاليم الفتيشيين » . ومتى كان الوالى من

ولاة الفرنسيس على تلك الديار ، يبلغ به التعصب وموت الضمير حد أن يقول مثل هـذا القول ، فماذا تأمل من عدله وانصافه بين هاتيك الرعية ...

خامساً ـ تحقق هنا بالرغم من تمويه الأمر الرسمى الذى يوصى بالمساواة ، أن فرنسا تحاول هناك بنفوذها وقوتها وكل وسيلة لديها ، أن تمنع انتشار الدعوة الاسلامية ، وتفضل ، أن يبقى الزنوج على عبادة الحجر والشجر والكلب والهر وغير ذلك ، على أن يدينوا بهذه الديانة السامية النقية ، التى هى الاسلام . وهذا لعمرى منتهى الغلو فى العدوان ، اذ لايشك أحد فى كون المسلمين يريدون ان كان هؤلاء الزنوج لم يشرح الله صدرهم للاسلام ، أن يدين هؤلاء بالنصرانيـة ، ويردوا شرعة تهـذيبها ، ولا يستمروا على تلك العقائد التى لا تليق بالانسانية . ولقد تذكرنا بهذه القضية قصة رواها المؤرخون ، ونقلها المستشرق الفرنساوى العـلامة البارون « كارادوفو » Kara de Vaux فى كتابه « ابن سينا » وهو أن الخليفـة المأمون العباسى بينما كان مرة غازيا بلاد الروم ، مر ببلدة حرّان ، فالتقاه أناس بزىّ غريب وأثواب ضيقة يرخون ذوائبهم فسأهم : من أنتم ؟ فقالوا : حرانيون . فقال ، أأنتم نصارى ؟ قالوا ، لا . قال أفيهود أنتم ؟ قالوا لا . قال أفعنـدكم كتاب الهى أو لـكم رسول ؟ قالوا لا . قال لهم ، ان كنتم لا ترغبون فى الاسلام ، فتنصروا ، أو تهودوا ، واتخذوا ديناً يعرفه الاسلام . فأنت ترى أن المسلمين لا يضيق صدرهم بنصرانية الوثنيين ، ولـكن الأوربيين يفضلون كل انحطاط فتيشى على كل معالى الاسلام ، وهم مع هذا يدعون خدمة الانسانية والمدنية .

ونختم هذا المقال بكلام قاله الحاج عبـد الله الجزائرى نزيل برلين ، فى مقالة نشرها فى مجلة العالم الاسلامى الألمانيـة [١] وذلك على « الآباء البيض » الذين أسس رهبانيتهم الـكردنيال لا فيجرى ، وأرسـلهم يطوفون فى بلاد الاسلام بافريقية بزىّ المسـلمين ، ويدخلون فى كل ناد ويتحكـكون بكل عائلة ، ويتوسلون بكل وسيلة لاجل بث دعوتهم بين الناشئة الاسلامية ، متسلحين لذلك بنفوذ الحـكومة الفرنسوية ، التى هى عضدهم أينما ذهبوا وكيفما انقلبوا . فبعد أن أفاض الحاج عبـد الله الموما اليه ، وهو من خيرة رجال العلم والادب ، والمتمكنين من اللغة الفرنسوية فى ذكر الفتن التى أحدثها هؤلاء الآباء البيض

(١) التي كان يصدرها أثناء الحرب الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش والاستاذ عبد الملك بك حمزة

فى وسط الأسر الاسلامية بالمغرب ، والعقائد التى تخلخلت على أيديهم ، والبثوق التى انفتقت بواسطتهم ، وكيف أن الحكومة الفرنسوية - التى يقولون انها لا تقوم بدعوة دينية - كانت تميز المتنصرين على غيرهم، وتعفيهم أحياناً من العقوبات ، وتستثنيهم مما لا تستثنى منه غيرهم ترغيبا لهم، فى أن يصبأوا عن دينهم قال ما يأتى : « نحن لا نريد أصلا بهذا أن نوجه أدنى طعن على الدين الكاثوليكى ، ونحن نعلم أن جميع الاديان جيدة ، وأن كلا منها يدعو المتمسكين الى الفضيلة وحسن التربية ، ولا نعترض فيما لو كان المسلم يصبأ عن دينه باقتناع وجدانه ، وانما دعوة الآباء البيض لها شكل آخر ، فانهم يهجمون على الاسلام فى كل مكان ويحولون بين الأب وابنه ، والأخ وأخيه ، ويخربون نظام العائلات فيضطر الاب أن ينكر ولده ، والاخ أن يهجر أخاه ، والعشيرة أن تبرأ من بعض أبنائها . وغالباً يخرج مثل هؤلاء الذين اجتذبهم الآباء البيض مفسدين لا هم من الجياد لا فى الاسلام ولا فى النصرانية . »

ونحن نرى أن ارخاء العنان للآباء البيض فى بث الدعوة الدينية بين مسلمى افريقية وتحرش فرنسا بهذه المسائل ولو من تحت ستار مما يضرها فى سياستها ، ويجر عليها من المتاعب أضعاف ما تتوخى ربحه ، فانه لا يهيج الاحقاد ولا يورث الضغائن شىء مثل المنازعات الدينية ، التى لا يفلح قوم جعلوها قطب رحى سياستهم .

الاسلام فى افريقية [1]

للأمير شكيب

من أعظم الكتب المؤلفة فى هذا الموضع كتاب
« الاسلام والنصرانية فى افريقية » تاليف المسيو بونه مورى
L'Islamisme et le Christianisme en Afrique G. Bonet Maury

وقد نقل عنه المستر ستودارد بعض أشياء ، ونحن نلخص منه ما يأتى ، لأنه جمع فاوعى فى تاريخ مسابقة الاسلام والنصرانية فى القارة الافريقية . قال :

« ان الاسلام انبسط على افريقية الشمالية الغربية ، فتحولت هذه الاقطار دار اسلام رغبة أو كرهاً ، لكنه افتتح افريقية الشرقية سلماً . وكان مبدأ ذلك بواسطة تجار العرب والهنود الذين كانوا يفدون على تلك الديار زرافات ، فوصلوا الى رأس Guardafui والى جنوبى Capricorne . ولقد وجد منذ القرن الألف بعد المسيح مسلمون فى كيلوان ، على أكثر من ٢٠ من العرض الجنوبى أدنى من زامبازه Zambèze » الى أن يقول :

« فى أواخر القرن الحادى عشر (للمسيح) طمست أكثر الكنائس الارثوذكسية التى كانت ممتدة على ساحل افريقية الشرقية ، ومن مصر الى المغرب الا بعض جماعات لبثت أشبه بجزر صغيرة مجهولة ، فى وسط الاقيانوس الاسلامى . ولكن هناك كنيسة بقيت قائمة على صخرة المتانة معتصمة بجبالها ، وهى الكنيسة الحبشية التى بمركزها وشجاعة أبنائها الجبليين ، صدت جميع غارات الاسلام . وقد كان هؤلاء الأحباش من أتباع الكنيسة المنشقة ، لايعرفهم الكاثوليك الرومانيون ، ولا الارثوذكس البيزنطيون » .

ثم قال : « بعد أن وطد دعاة الاسلام دعائم هذا الدين فى جميع سواحل افريقية الشمالية ، قصدوا داخل البلاد ضاربين الى الصحراء التى يسكنها البربر ، وفاقوا فى ذلك أساقفة افريقية اللاتينية الذين فى أوج عزهم وسلطانهم لم يفكروا فى نشر الدين المسيحى فى تلك الجهات . فزنوج السودان تلقوا القرآن من جهتين احداهما البربر المسلمون ، والثانية قوافل العرب ، التى كانت تخترق فزان والواحات الى تمبكتو . فسلاطين دولة المرابطين

(١) راجع صفحة ٣٠١ و ٣٠٢ من الجزء الاول

وكانوا متحمسين جداً فى الاسلام ، خرجوا من مراكش قاصدين أواسط افريقية لحمل أهالى بلاد غانة ومالى على الاسلام ، فظهر أبو بكر بن عمر من أعوان الملك سنى على ، وهو بربرى الأصل ، وشيد مملكة السونغاى فى غانة سنة ١٠٨٧ ميلادية. وهؤلاء السونغاى هم من الجنس النوبى ، رحلوا من مصر العليا عند الفتح العربى ، وكانت لهم دولة لم تبدأ بالانحطاط الا فى زمن فتح المنصور (السعدى) سلطان مراكش للسودان .

فمد رواق سلطانه الى أبعد من زاوية النيجر ، وجميع البلاد المعروفة الآن بساحل الذهب ، والداهومى ، و بلاد نيجريا ، الى بحيرة تشاد . وقد كانت هذه السلطنة تنقسم الى أربع ممالك ، وكانت قاعدتها جنة Djenné التى كنت ترى فيها التجار والعلماء من المغرب الأقصى والجزائر ومصر ، وكانت سفائن هذا السلطان تسرى فى النيجر ، وقوافل الصحراء تحمل البضائع الى أطراف هذه السلطنة ، فتنقل الذهب والعاج والنحاس والمسك ، ودين محمد . وانبث المرابطون فى القرى ، يعلمون القرآن والكتابة بالعربية . وكان أبناء المشايخ يأتون الى تمبكتو لتحصيل العلم ، فلم تكن تمبكتو سوقاً لتجارة أواسط افريقية فقط ، بل كانت دار علم انتشر ذكرها حتى سواحل البحر المتوسط . ولما مات أبو بكر بن عمر فى سنة ١١٢٠ ، كانت بلاد النيجر أو نيجرينيا الى حدود الكونغو اسلامية .

هذا ما كان من جهة البربر وأما العرب ، فان احدى فصائل بنى هلال تقدمت من نواحى طرابلس الى واحة « ودّان » ومن هناك الى « والانه » ثم تقدمت نحو السودان ، فتلاقت مع البربر الآتين من الشمال الغربى واختلطت بهم ، وصارت تمبكتو التى اختطها الطوارق فى سنة ١٠٧٧ ، مركزاً للدعوة الاسلامية تنبث منها الى كل الجهات .

وفى الجنوب الغربى وصل الاسلام الى البامباره bambarras والمادينغ Madinges والبله Peulls ، الذين فى القرن التاسع عشر صاروا أشد حماته وأجهد دعاته ، فى بلاد النيجر والسنيغال الأعلى . وكان فى بلاد المادينغ المسماة بلاد الملّ Melle قد أسلم الزعماء والأشراف والتجار منذ القرن الثانى عشر ، و بقى العامة فتيشيين . ووصل الاسلام فى الجنوب الشرقى الى بحيرة تشاد ، فى القرن الثالث عشر . وأما فى الشمال الشرقى ، فكانت الغاله Gallas والنوبة ، قد دخلوا فى الاسلام بين سنة ١٣٠٠ وسنة ١٣٥٠ » .

ثم قال تحت عنوان « مساعدة الاسلام على تمدين افريقية » ما يأتى :

« لم ننظر الى الآن نتائج الفتح العربى الامن الوجهة الدينية ، مع انه يجب أن نعرف هل كانت للمسلمين فى هـذه الصفحة الأولى من استيلائهم (٦٣٨ – ١٠٥٠) يد فى مدنية افريقية الشمالية أم لا ، وهل كان لهم سهم فى نشر العلوم والآداب والصناعات ، أم لا . ففى هذا المقام يلزم أن نفرق بين مصر والمغرب ، لأن الفرق بين مدنيتى هذين القطرين الذى أولهما أخذ عن اليونان ، والثانى عن الرومان ، لم يخل من التأثير فى ثقافته الاسلامية .

فلننظر أولا الى مصر وقبل كل شئ يجب أن نصحح خطأ شاع طول القرون الوسطى ، وهو أن العرب أحرقوا مكتبة الاسكندرية بأمر الخليفة عمر . والحال أن العرب فى ذلك العصر كانوا أشد اعجاباً بعلوم اليونان وفنونهم ، من أن يقدموا على عمل كهذا . كما انه معلوم أن قسما من تلك المكتبة ، كان احترق فى أثناء ثورة الاسكندريين ، التى احترق فيها أسطول قيصر ، وأن قسما آخر أحرقه المسيحيون فى القرن السادس . واختط العرب الفسطاط وتركوا للقبط ممفيس ، ولم يعترضوا القبط فى دينهم ولا عاداتهم ، وأطلقوا لهم الحرية فى انتخاب البطريرك ، و بناء الكنائس . وغاية ما أبطل عمرو من العادات القديمة ، هو ما كانوا جارين عليه من زمان الوثنيين ، من رمى فتاة فى النيل كل سنة التماساً لفيضانه .

و بعـد أن انفصلت مصر عن بغداد ازدهرت المعارف والفنون فى مصر ، وتأسست بمصر المدرسة الجامعة الباقية الى اليوم ، وهى الأزهر . وكان لها مكتبة فيها ٦٠٠٠٠ مجلد ، وكرتان تمثلان الأرض ، وبنى مرصد فلكى ، اشتغل فيه علماء من الطبقة الأولى مثل ابن يمين صاحب الزيج الحاكمى . وصحح العرب بمعارفهم الفلكية و بتدقيقات سياحهم ، أكثر نظريات الجغرافيين اليونانيين ، ويكفيك ذكر المسعودى وابن حوقل وابن بطوطـة وأبى الحسن لاظهار شأو العرب فى علم الجغرافية ، وان من الأسباب التى دعت الى احتفال العرب بهذا العلم ، ما فرضه القرآن من الحج ولو مرة واحدة الى مكة . أما فى صنعة البناء فمع كون العرب احتذوا شيئاً على مثال البيزنطيين ، لا ينـكر أنهم تركوا فيها آثاراً خالدة مثل قصر الخلافة فى القاهرة ، ومثل القبة ، و زيزه بقرب بلرمو (فى صقلية) ، ولا تنس من المساجد جامع الحسن ، وجامع عمرو ، والأزهر » . الى أن قال :

أما انتشار العلوم والآداب فى المغرب ، فقـد كان بطيئاً فى البـداية بسبب مقاومة البربر لها ، والفتن التى وقعت بين أمراء الاسلام . ولـكن فيما بعد شيدت المدارس والمساجد

فى القيروان ، وبجاية ، وتلمسان . وكان فى بجاية فى القرن الثانى عشر علماء نوابغ ، وفيها كان المتصوف الكبير أبو مدين ، وفيها تعلم ليونارد بوناكسى الحساب والجبر والهندسة . وكان فى تلمسان أيضا مدرسة شهيرة أقرأ فيها ابن خلدون وغيره . وفى القرن الماضى تخرج فيها محمد السنوسى . وهناك جوامع شهيرة فى الحسن مثل جامع سيدى عقبة ، المبنى على مرقد الفاتح المذكور ، وجامع سيدى أبى مدين فى ضواحى تلمسان ، ثم الجامع الكبير فى القيروان . وكل هذه لا تدانى فى الرونق والبهاء جوامع مراكش . (وأطال فى وصفها)

وخلاصة فصله هذا هو ما يأتى :

« ان حصة الاسلام فى مدنية افريقية كانت أقل من حصة النصرانية فيما يتعلق بتثقيف الأهالى وتربيتهم ، ولكنها أهم فى العلوم الصحيحة وصنعة البناء » .

ثم قال تحت عنوان « قيام النصرانية لأخذ الثار » ننقله ملخصاً لطول شرحه :

« فى القسم الاول من القرون الوسطى ، أهملت أوربا المسيحية افريقية ، الا ما كان من مساعى بعض الباباوات . ولكن تألفت فيما بعد الرهبانيات وجدّت الحركة الصليبية ، وكانت سيرة مسلمى المغرب ومصر والشام الى ذلك الوقت تجاه النصارى ، سيرة تسامح وتساهل ، لا بل سيرة ولاء واحسان ، بخلاف الأمم المسيحية التى كانت سالكة تجاه الاسلام خطة البغض والعدوان ، بدون رحمة ولا هوادة . ثم لما وقعت الحرب الصليبية استمد مسلمو المشرق مسلمى المغرب لقتال الصليبيين . فتخلف المغاربة عن هذه النجدة لسببين ، أحدهما كون المغاربة بربراً أكثر مما هم عرب ، فلذلك كان اسلامهم فاترا ، الثانى كون جيرانهم الفرنج ذوى علاقات تجارية معهم ، ولم يكونوا يطالبونهم بممالك و بلدان كما كانوا يطالبون مسلمى الشرق و يتقاضونهم أن يتخلوا لهم عن بيت المقدس . ثم بلغت العلاقات بين ملوك المغاربة والافرنج ، أن كان أمراء تونس ومراكش يستخدمون فى جيوشهم جنداً من الافرنج يأذنون لهم باقامة شعائر دينهم علنا ، فى الثكن التى ينزلون بها [1] ، وكانت قد انعقدت عدة معاهدات بين الأوربيين والمغاربة فى القرن الثانى عشر والثالث

(١) يقال ان المأمون أحد سلاطين الموحدين كان عنده عشرة آلاف جندى افرنجى ، وكان قد شيد لهم كنيسة فى عاصمة مراكش

عشر ، أشهرها معاهـدة بين جمهورية بيزا ، وسلطان المغرب ، وأمراء تلمسان ، وجزر الباليار — عند ما كانت للعرب (٢٥ يونيه ١١٣٣) — . ومعاهدات بين جمهورية جنوى ، والسلطان عبد المؤمن (١١٣٥). فكانت هذه المعاهدات تضمن للفرنج دماءهم وأموالهم، وتبيح لهم أن يتحاكموا عند قناصلهم، وان يقيموا شعائر دينهم جهرا وكان ملوك الاسلام هم الذين يعطونهم عرصات الارض اللازمة لبناء الكنائس والمقابر . ومن الوثائق المشهورة الشاهدة بعظم التسامح الذى كان عليه ملوك الاسلام لذلك العهد ، المعاهدة التى عقدها أبو عبد الله المستنصر صاحب تونس مع فيليب الجرئ ملك فرنسا ، وشارل دوق انجو ، وتيبو ملك نافار سنة ١٢٧٠ وذلك بعد وفاة القديس لويس ملك فرنسا ، والتى جاء بها فى الشرط السادس « ان الرهبان والقسوس المسيحيين ، يمكنهم أن يقطنوا فى ممالك أمير المؤمنين وتعطى لهم الارض اللازمة ، لبناء الكنائس والاديرة ، ودفن الموتى . وللرهبان المذكورين أن يقيموا شعائر دينهم ، ويلقوا المواعظ علناً كما لو كانوا فى بلادهم » . فكثر بذلك عدد النصارى فى بجاية وسردونية بقرب القيروان ، وكذلك فى المغرب الاقصى ، حتى كان لهم مطران يقيم بفاس . ثم تحول الى مراكش (١٢٢٣) وبقى هناك كرسى للمطران الى القرن السادس عشر . ولما استولى جوان الاول ملك البرتغال على سبتة (١٤١٨) ، جعل هناك اسقفية ثانية . وكانت كنائس كاثوليكية عديدة فى وهران ، وتلمسان ، وعنابة ، وبجاية والمهدية ، وتونس ، وطرابلس وكان يخدم فيها الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان ، ولكن بث الدعوة المسيحية بين المسلمين كان محظوراً .

وكما كان عند بعض سلاطين الموحدين جند من النصارى فكان أيضاً عند السلاطين المرينيين أخلافهم مثل هذا الجند ، حتى طمعوا أن يستأثروا بحراسه بعض الثغور البحرية مثل طنجة ، وسبتة ، وسلا. وكتب البابا اينوشنسيوس الرابع (١٣٤٦) الى السيد ملك المغرب كتاباً طويلا ، حاول فيه اقناعه باعطاء الجند الافرنجى الذى عنده قلعة من هذه القلاع البحرية تكون فى عهدتهم ، وذلك بأن للملك المشار اليه أعداء أقوياء يمكنهم أن يباغتوه ، ويسلبوا ملكه ، وان أصدق أنصاره هم الجنود النصارى الذين عنده وما داموا فى خدمته ، فالدول النصرانية كلها تنصره ، ولكن قد تطرأ حوادث غير منتظرة وتتغلب

الكثرة على الشجاعة ، فكان من المصلحة أن يعطى لهؤلاء الأجناد المسيحيين بعض المدن البحرية المسورة ، ليعتصموا بها عند الضرورة فالسلطان السيد لم يسمع كلام البابا وجاء مطران مراكش الى رومة (١٣٥٠) وجدد السعى ، فكتب البابا الى السلطان المرتضى خلف السيد يلح عليه فى إجابة ذلك الطلب والا فهو يمنع المسيحيين من الدخول فى خدمته فلم يعبأ سلاطين المغرب بهذا الوعد ولا ذلك الوعيد ، ولا رضوا بأن يسلموا المرتزقة الافرنج الذين فى جيشهم قلعة على ساحل البحر ، و بقى مع هذا عندهم أجناد كثيرة من الافرنج .

أما سيرة مسلمى الشمال الشرقى من افريقية ، فكانت تخالف فى هذا الموضوع سيرة مسلمى الشمال الغربى ، اذمن المعلوم أن الزحفة الصليبية الخامسة التى كان أكثر رجالها من المجار والالمان ، والزحفة السابعة التى قام بها القديس لويس ملك فرنسا كانت وجهتهما مصر ، فأثارت الحفيظة الدينية عند أهلها بعد أن كانوا أولا فى غاية التساهل مع المسيحيين فلما استرد المصريون دمياط (١٢٢٨) ، هدموا كنيسة مارمرقس فى اسكندرية وهدم السلطان قلاون عند توليه عرش مصر جميع المدن البحرية ، من الاسكندرية الى طرابلس الغرب وطرد الافرنج من هذه المدينة . بعد أن كان مضى عليها نحو ١٤٠ سنة وهى فى حوزة امراء النورمانديين أصحاب صقلية . وفى ذلك الوقت استقر فرسان ماريوحنا المطرودون من فلسطين ، ومن افريقية ، فى جزيرة رودس . و بلغ البغض أقصاه بين المسيحيين والمسلمين واضطر نصارى النوبة والغاله Gallas أن يدخلوا فى الاسلام فى القرن الرابع عشر . ولكن الأحباش ازدادوا تمسكا بالنصرانية ، وأرسل النجاشى زيرا يعقوب وفدا من قبله الى مجمع فلورنسه (١٤٥٢) يلتمس توحيد الكنيسة الحبشية مع الكنيسة الرومانية ، ولما كان التعصب المذهبي شديدا بين الشرقيين والغربيين ، ترصد الأقباط هذا الوفد عند مآبهم من ايطالية وقتلوهم .

وكان كثيرون من أسارى الافرنج أرقاء فى بلاد الاسلام ، يشتغلون فى مزارع كبار المسلمين وهم فى أقصى درجة من الفاقة ، حتى كان بعضهم يصبأ عن دينه طمعا فى الخلاص من الرق . فأنشأ الفرنج جمعيات رهبانية لفداء هؤلاء الأسارى ، أشهرهم العصبة المسماة بالفقراء Alfakker من رهبان ماريعقوب الاسبانيوليين ، وطائفة الثالوثيين Trinitaires

ورهبان سيدة مرسى Notredame de la Mercy وهاتان الطائفتان من الفرنسيس .وقد كان تأسيس نظام الثالوثيين سنة ١١٩٨ ، على يد رجل اسمه يوحنا متى من البروفانس فى جنوبى فرنسا ، وكان أتباعه يمشون على أقدامهم ولا يؤذن لهم بالركوب الا اذا مسهم الاعياء ، فيركبون الحمير ، ولهذا لقبوا بالاخوان ذوى الحمير . وانتشرت دعوتهم فى كل أوربا ، وكان لهم فى فرنسا وحدها ١٥٠ ديراً . وقيل ان عدد من أنقذوا من أسرى المسيحيين من سنة ١١٩٨ الى القرن الثامن عشر يبلغ ٩٠٠ الف . وأما النظام الثانى المنسوب الى سيدة مرسى ، فكان غرضه منع الأسرى الفرنج من الدخول فى الاسلام وهم فى الأسر ، وكان من مبادئ أصحابه استعمال السيف اذا الجأ الأمر لأجل الدفاع عن النصرانية ، وقبول الأسر والبقاء رهناً عند العدو ، لأجل منع الأسرى من التحول عن دينهم . وكثير منهم ألقوا بأنفسهم فى التهلكة ، وعاشوا سنين فى الأقياد والأصفاد عند امراء الاسلام ، لأجل المحافظة على ديانة أسرى قومهم و بلغ عدد أسفارهم الى مدينة الجزائر وحدها من جراء فداء الأسرى ٧٣ رحلة ، وعدد من أنقذوه ١٢ الفا وخمسمائة أسير ولكن بعض الرهبان تجاوزوا حدود الحمية الى التهور وقام فى أذهانهم دعوة المسلمين الى النصرانية فلم يقدروا على تنصير مسلم واحد ، ووقعوا من أجل ذلك فى البلاء . ومنهم من ذهب قتيل خفة عقله ، وهؤلاء مثل انطون ر يفولى ، ودانيال بلفيدير ، وريموند لول ، وهو أشهرهم . وكان يعقوب الأول ملك أراغون قداسترد جزيرة ميورقة من أيدى العرب سنة ١٢٦٩ ، فوجد لول هذا هذه الجزيرة مركزا صالحا لبث الدعوة المسيحية فى المغرب، وبنى ديرا للفرنسيسكانيين فى الجزيرة وجعل الغرض منه تدريس العربية لامكان بث الدعوة ، وكان هو متضلعا فى العربية وقصد تنشئة مبشرين فى هذا الدير،يقذف بهم فى بلاد الاسلام للغاية المذكورة. وذهب هو بنفسه الى تونس، وأخذ يناظر علماء الاسلام .و يقذف بالرسول أمامهم فالقوه فىالسجن ولولا رأفة أمير تونس به ، لأوردوه حتفه.و بعد ذلك خلوا سبيله،فجاء الى الجزائر مبشرا، ثم الى بجاية حيث ضاق ذرعهم به فقتلوه(٢١ يونيو ١٣١٥). وبالجملة ، فان النصرانية أمكنها بواسطة المعاهدات التجارية وحسن المعاملة ، أن تطأ أرض المغرب ، ولا تجد النفرة التى وجدتها فى مصر وطرابلس الغرب على أثر الحروب الصليبية

مما يدل على كون اللطف والمحاسنة ، أوفى بالمقصود من العنف والمخاشنة .

وفى تلك الأيام حصلت حركة دينية عند البربر ، وظهرت عندهم الطرق الدينية المشابهة للرهبانيات عند النصارى ، وترجع هذه الحركة الى سببين ، أحدهما ، عقيدة التصوف التى ترمى الى الفناء فى الاله ، والثانى دعوة أهل البدع والاهواء ، وغير المسلمين ، الى الاسلام . وأتباع هذه الطرق يشبهون الرهبان فى الانقطاع للعبادة ، وكثرة الصلاة ، ومنهم من هم نظير الرهبان العسكريين ، يعتقدون أنهم مكلفون باستعمال السيف لنشر الدعوة ، ولكنهم يفترقون عن رهبان النصارى بعدم البتولة ، وعدم فطم النفس عن النساء[١] ويقال لمحل اجتماعهم رباط ، ولرئيس الطريقة مرابط . ولذلك لما قام عبدالله بن ياسين ، بالدعوة الدينية لهداية البربر من لمتونة وغيرها ، اجتمعت حوله عصابة سموا بالمرابطين ، وكانت لهم دولة وصولة بلغت أوجها فى زمان يوسف بن تاشفين (١٠٥٠) . وقام مقام المرابطين الموحدون ، وكانت لهم دولة عظيمة ، وكان الشرفاء أعقاب ادريس ، من أتباع العقيدة الصوفية ، وكانت هذه العقيدة تقرأ فى فاس وتونس ، وهما أعظم مراكز العلم بافريقية ، وقد أخذ بها خلق كثير . وكان عبد القادر الجيلانى المولود فى جيلان من فارس ، متصوفا عظيما زكىّ النشأة كثير التعظيم لسيدنا عيسى ، متساهلا مع النصارى الذين كان يقول انهم أهل كتاب وان الله سينير عقولهم يوماً ، فأخذ بالوعظ والارشاد ومات فى بغداد سنة ١١٦٦ ميلادية ، وله أتباع لايحصى عددهم ، و وصلت طريقته الى اسبانية ، فلما زالت دولة العرب من غرناطة انتقل مركز الطرية القادرية الىفاس . و بواسطة أنوار هذه الطريقة زالت البدع من بين البربر ، وتمسكوا بالسنة والجماعة . كمان هذه الطريقة هى التى فىالقرن الخامس عشر ، اهتدى على يدها زنوج غربى افريقية . أما الطريقة الثانية فهى الشاذلية نسبة الى أبى الحسن الشاذلى ، أخذ عن عبد السلام بن مشيش ، الذى أخذ عن أبىمدين ، وكانت ولادة أبى مدين فى اشبيلية سنة ١١٢٧ ميلادية وقرأ فى فاس ، وحج البيت الحرام ، ثم استقر يعلم التصوف فى بجاية . وتبعه خلق كثير انقسموا بعده الى ثلاث فرق ، الأولى الشاذلية المنتشرون فى الجزائر والثانية الدرقاوية الذين مركزهم فىمراكش

(١) لارهبانية في الاسلام كما لايخفى

والثالثة المدينية الذين هم كثيرون فى طرابلس الغرب. قال : (و بعد أن أفاض فى بحث الطرق والزوايا وتشكيلاتها وأوضح المشابهة التى بينها و بين الرهبانيات فى القرون الوسطى)

ان العرب لم ينتظروا تشكيل الطرق حتى يبثوا الدعوة القرآنية فى السودان ، بل منذ أواخر القرن السابع كانوا اخترقوا فزان ودخلوا السودان، وكانت فى غانة لأوائل القرن الثامن للميلاد اثنتاعشرة مدرسة للقرآن ، ولكن الاخوان (اتباع الطرق) هم الذين تم على يدهم اسلام القسم الأعظم من مسلمى أواسط افريقية ، وهم الذين أوقدوا الحمية الدينية بعد أن كادت تفتر ، وأدخلوا معظم السودان فى الاسلام بالارشاد والتعليم ، و بالأخذ والعطاء ، و بالمصاهرات مع ملوك الزنج . وقد تقدم ذكر أبى بكر بن عمر اللتونى الذى امتاز بنشر الاسلام فى السودان ، حتى دانت له جميع الأقطار السنيغالية والنيجرية الى الكونغو . كذلك بنو حسن من عرب بنى هلال ، توجهوا جهة ودّان جنوبى طرابلس وتقدموا منها فى الصحراء الى والاته ، فتلاقى هناك العرب مع البربر وامتزج بعضهم ببعض ، وجاءت من هذا الاختلاط القبائل المسماة بالمشدوف (هذه القبائل ليست هى المشدوف فقط بل المشدوف والدويش وغيرها وقد الف على هذه القبائل المسيو جورج پوله Georges Poulet كتابا اسمه « مغاربة افريقية الغربية الفرنسوية » بحث فيه عن تاريخها الماضى والحاضر ، وعن أحوالها الاجتماعية من كل نوع ، ونظراً لكون المؤلف من مأمورى المستعمرات فقد أتيح له أن يطلع على وثائق لايطلع عليها غيره ، فجاء كتابه بغاية التدقيق). والمغاربة المذكورون منهم من أعقاب بنى حسن الهلاليين ، ومنهم من صنهاجة وغيرها من البربر ، و بينهم اشراف ينتمون الى آل البيت ، ومجالاتهم من الساقية الحمراء جنوبى السوس الأقصى ، الى نهر السنيغال ، وهم خمس طبقات الأولى ، أهل الحرب وهم بنو حسن . والحراثون وهم أشبه بالرعية ، لكنهم أحرار . والمرابطون أى طلبة العلم . وصنهاجة الذين يدفعون الضرائب . ثم العبيد . وأشهر القبائل المذكورة الطرارزة وهم نحو ٨٠ ألف نسمة ، كان أميرهم لعهد تأليف كتاب المسيو پوله سنة ١٩٠٤ ، هو أحمد بن سلوم . ثم البراكنة وهم أولاد عبد الله وعددهم ٤٠ ألفاً ، وأميرهم أحمد وولد سيدى على .

ثم الابكاك وعددهم ١٦ ألفا ، وأميرهم بكار ولد سويدى أحمد . ثم الشراطيط وهم ٢٠ ألفا ، وأميرهم المختار ولد أحمد . والقبائل الساحلية منها آل سيدى محمود وهم ٤٠ ألفاً ، وأميرهم سيدى المختار ولد محمد محمود . ثم أولاد مبارك وهم ١٨ ألفا ، وهم مع أولاد ناصر من سلائل بنى حسن الهلاليين ، وعدد أولاد ناصر ١٢ ألفا . ثم الكونته وهم خمسة آلاف . ومن قبائل الساحل المشدوف وهم أكثرها عددا ، وينقسمون الى عدة فرق لكل منها زعيم ، وزعيم الزعماء محمود مختار وهناك قبائل ساقية الحمراء مثل أولاد دليم ، والرغيبات ، والعروسى ، والفيلالى ، والصماليل ، ورئيس هذه القبائل الشيخ ماء العينين المشهور . وقد خمن المسيو بوله عددهم جميعا بثلاثمائة ألف ، وكانت بين امرائهم وبين فرنسا معاهدات لذلك العهد ، اظن انها صارت الأن فى خبر كان لاسيما ماكان مع امراء القبائل التى فى السنيغال) .

ثم قال المسيو مورى تحت عنوان « اكتشافات البرتقاليين على سواحل افريقية واستئناف البعثات الكاثوليكية » :

لايخفى ان العرب ومن معهم من البربر كانوا افتتحوا اسبانية ، واجتازوا جبال البيرانه ، واوغلوا فى بلاد الغال (فرنسا) ولولا انتصار شارل مارتل عليهم فى پواتيه ، لكانت فرنسا اسلامية ، ولاصاب الكنيسة الغالية ماأصاب كنيسة افريقية وكنيسة اسبانية على أنه فى نفس اسبانية ، كان البرتقاليون ، وأهل نافار ، واستوريه ، لايزالون يقاومون العرب . ولاسيما البرتقال ، فقد كانوا أول من طرد العرب من بلادهم . ولم يكتفوا بذلك بل شنوا الغارات على العرب فى أرضهم ، فافتتحوا سبتة ، وطنجة ، وتطاون . ثم امتدوا على ساحل افريقية الغربية حتى عرفوه كله . وأشهر من قام منهم بهذه الاسفار والفتوحات ، هو الأمير هنرى ابن الملك جوان الأول الذى كانت أمه أميرة انكليزية ، فانه ترك اشبونة دار الملك وانتبذ لنفسه مكانا فى ساغر بقرب رأس سان فنسان ، يحيط به بعض اليهود وبعض علماء المغاربة من فاس ومراكش ، الذين كانوا علماء العالم لذلك الوقت وأخذوا ينقبون فى جغرافيات العرب وغيرها حتى عرفوا امكان الدوران حول افريقية . ورسم الأمير هنرى هذا الرجل العظيم الذى كان له الفضل على جميع أوربة ، خطة سير السفن عليها ، فاجتازت ، رأس بوجادور (١٤٤٢) ، والرأس الأخضر (١٤٤٤) على أنوار غابات

مادار Madères ، التى استمر بها الحريق سبع سنين الى أن بلغت سياره ليون Sierra Léone . وسنة ١٤٧١ بعد موت هنرى أيضا ، واظب البرتقاليون على الايغال فى الاقيانوس حتى قطعوا خط الاستواء وجازوا زايير (الكونغو) ، ثم رأس الزوابع الى ميناء آلغوا (١٤٨٦) . وفى ٨ يوليو عام ١٤٩٧ وصل فاسكو دوغاما الى موزامبيق ، ومنها الى ماليندى وثانى سنة نزل فى كاليكوت من الهند الشرقية .

ولما تمت هذه الفتوحات ، شرع البرتقال بنشر الدين المسيحى وتأسيس الاسقفيات واختاروا لهذا الأمر الجزر البحرية ، لما فيها من الوقاية . فجعلوا كرسياً أسقفيا فى احدى جزر الخالدات ، وآخر فى جزيرة مادر ، وآخر فى جزيرة امام الرأس الأخضر . وآخر فى جزيرة بازاء زايير ، ومنها صعد الدومينيكيون الى بلاد الكونغو وبثوا دعوة الانجيل ، ونجحوا نجاحاً حمل البابا على وضع أسقف فى صان سالفادور (١٥٩٥) . وبعد ذلك بخمس وعشرين سنة أرسل ملك الكونغو الفارس الثالث ، بعثة الى البابا يلتمس بها مبشرين فارسلوا اليه الكبوشيين فكان نجاحهم باهراً . وخلفهم الجزويت ، فأسسوا مدارس فى صان باولو ، وصان سلفادور (١٦١٩) وصاروا يتقدمون الى داخل البلاد حتى بلغوا كازانغى على ٦٠٠ ميل من الساحل ولكن هذه البعثات كلها سقطت فى أواسط القرن الثامن عشر لاسيما عند الغاء رهبانية الجزويت ، وحاولت جمعية البعثات الخارجية فى باريز (١٧٦٠) أن تقوم مقام الجزويت فى الكونغو ، فلم تفلح . مع هذا بقيت لذلك التعليم آثار ، وكان ألوف من الزنوج يقرأون ويكتبون .

وبعد قرن كامل من انقطاع التبشير هناك جاء « آباء الروح القدس » واحيوا ما كان درس من آثار الجزويت والدومينيكيين (١٨٦٧) ، وساعدوا على الغاء تجارة الرقيق وعلى الاكتشافات الجغرافية ، وأدخلوا فى هاتيك الاصقاع زراعات وصناعات كثيرة وكان البرتقاليون قد بشروا بالانجيل فى افريقية الشرقية ، واتخذوا مركزاً للدومينكيين فى موزامبيق (١٦١٤) وأقام القديس فرانسيس كسافارس مدة فى موازمبيق ، وفى مالينده ، وفى جزيرة سقطرة . وأسس فاسكودوغاما ديرا للتبشير فى جزيرة زنزيبار ، وامتدت منه البعثات الى مومباسه ، والساحل ، ونمت هناك رعويات مسيحية عديدة فى القرن السادس عشر والسابع عشر ، ولكن سنة ١٦٩٨ جاءت غارة عربية من مسقط

اخنت على تلك الكنائس ، ورفعت علم الاسلام وحده . وسنة ١٧٢٨ ، حاول المبشرون استئناف العمل ففشلوا ، ولزم انتظار القرن التاسع عشر لأجل الرجوع الى بث الدعوة المسيحية فى هاتيك الاقطار .

وكان جوان الثانى ملك البرتغال سنة ١٤٨٧ انفذ اثنين من رجاله الفونسو بايفا ، و بير و كوفيلهام ، من طريق مصر الى الهند للبحث عن رجل هندى مسيحى يزعمون أن اسمه القسيس يوحنا ، فمات أحدهما المسمى بايفا بمصر وذهب كوفيلهام الى الهند ، ثم عاد الى افريقية و وصل الى الحبشة ، فأكرم النجاشى موصله ، ولكنه لم يسمح له بالخروج . فأخذ هذا الرجل يراسل بلاده ويخبرهم بمارأى ، فأرسلت حكومة البرتقال وفداً من الأشراف والكهنة ، ومعهم عدد من الحدادين ، والنجارين ، والبنائين ، والاطباء الى بلاد الحبشة ، واستمرت هذه العلاقة بين المملكتين دهرا طويلا ، حتى ان راهبا يسوعياً برتقالياً اسمه بايز حول النجاشى سوسينيوس الى الكثلكة (١٦٢٤) . وقيل ان أكثر الاحباش كانوا مستعدين للانضمام الى الكنيسة الرومانية لولا عناد بطرك اللاتين ما ندز Mendez الذى لم يأخذهم بالتؤدة ، بل حاول حملهم على جميع العقائد والشعائر اللاتينية دفعة واحدة وأراد تأسيس ديوان تفتيش ، لمراقبة الذين يأبون الانقياد . فجرت من ذلك ثورة ذهبت فيها حياة المبشرين البرتقاليين ومن تابعهم من الحبش (١٦٤٠) ، وحاول الفرنسيس التبشير فى الحبشة تحت حماية قناصل فرنسا ، فلم يفلحوا ، وقتل المبشرون الذين أرسلوهم الى سواكن ، ومصوع . ولكن الفرنسيسكانيين الطليان أسسوا مراكزهم فى بلاد الغاله (١٨٣٩) ، ثم توجه اخوان فرنسيان انطون ، وأرنولد آبادى ، ومعهما راهب عازارى اسمه سابيتو من قبل مدرسة البروباغنده فى رومة ، التى أردفتهم بثلاثة آخرين فأقام أحدهم جاكوبيس فى عدوه بقرب النجاشى ، وذهب سابيتو الى غندار للتبشير فى بلاد الآماره . وكان أحدهم مونتيورى قاصداً للسودان المصرى ، فبعد خمس سنوات من وصولهم ، أسسوا عدة كنائس . وفى سنة ١٨٥٣ كان عدد الحبش الكاثوليك خمسة آلاف ، بالرغم من مقاومة أبونا سلامة رئيس الكنيسة القبطية الحبشية . و بقيت هذه البعثة ناجحة حتى تولى النجاشى تيودوروس ، فأراد استئصالها وحمل جاكوبيس على الأدهم ، فمات فى الحبس سنة ١٨٦٠ . و بعد وفاته قام مقامه المطران بيانشسى ومعه

المطران ماساية ، و وجها عزمهما الى التبشير فى بلاد الغاله ، و بواسطة الحكومة الفرنسوية مع الباب العالى أخذا فرماناً بتأسيس مركز فى جزيرة مصوع (١٨٦١) ، واستؤنف العمل الدينى فى الحبشة . ولكن لم يطل الامر حتى وقعت المنافسة بين فرنسا وايطالية فى هاتيك الجهات،وأسست ايطالية مستعمرة الاريتره ، وجعلت مركزها مصوع وأفردتها بأسقفية ، وطردت منها المبشرين الفرنسيس ، ولم يبق لهؤلاء سوى رعويات فى تيغرى ، وبلاد الآماره. وكانوا شادوا مدارس ، ومستشفيات ، ودوراً للصناعات ، وملاجئ ، للايتام والمجاذيم .ونشر الطليان الدعوة المسيحية فى بلاد الغاله ، وهم جيل أذكياء أشداء يسكنون بين الحبشة وبحيرة فيكتوريا نيانزا . وصارت هناك رعويات مسيحية زاهرة وامتدت الى بلاد كافا . ثم دخلت الى هرر ، بالرغم من معارضة أمراء الاسلام هناك . ولننظر الى الدعوة المسيحية فى جهات أخرى فنقول ، ان مار فنسان دوبول الفرنسوى كان وجه همته نحو جزيرة ماداغسكر ، التى بسطت يدها عليها فرنسا فى أيام الوزير ريشليو ، فانتشر فى سواحلها تجار الفرنسيس وأرسل الرهبان العازريون اثنين منهم سنة ١٦٤٨ ، فأخذا بالتبشير وصبرا على المكاره ، ومناخ تلك الجزيرة لم يؤاتهما ، فماتا بعد أن نصرا ٦٠٠ نسمة من الوطنيين . ثم ذهب بدلا عنهم أربعة آخرون فماتوا بالحمى . فما ثنى ذلك عزم الرهبان ولا سيما عزيمة مار فنسان دوبول ، الذى بقى يحرضهم على السفر للتبشير ، فذهب آخرون وزرعوا هناك الانجيل ، وتحملوا من الانتقام والعذاب ما تحملوه ، ولكنهم تغلبوا على الوثنية مع تمادى الايام ، فالآن الجزويت ، والبروتستانت ، الفرنسويون ، والكويكرس ، والنورويجيون يستغلون ما زرعه العازريون من مائتى سنة فى تلك الجزيرة العظيمة .

ثم تألفت رهبانية آباء الروح القدس ، وسنة ١٧٧٨ أبحر الابوان بيرتو وغليكور الى السنيغال ، فأخذوا ينصرون الزنوج فى سان لويس وجزيرة غورى Gorée وفى سنة ١٨٤٨ اندمجت هذه البعثة فى بعثة قلب مريم الاقدس تحت ادارة يهودى متنصر اسمه ليبرمان ، أحسن التدبير ، وربط الدعوة الكاثوليكية بالحكومة المدنية ، فاتسعت مؤسسات هذه البعثة فى افريقية تدريجا ، فتجد لها مراكز فى الكونغو البرتغالى ، وفى غامبية ، وفى مستعمرة سيرا ليونه الانكليزية ، وزنجبار ، ولها فى المستعمرات الفرنسوية اسقفية ، كرسيها داكار Dakar التى فيها ١٥ آلف متنصر . ومركز فى كيتا Kita فى السودان

السنيغالى ، وآخر فى كونا كرى من غينية الفرنسوية . واسقفية فى غابون Gabon من الـكونغو الفرنسوى . وأخرى فى أوبانغى Oubangui من الـكونغو الأعلى . ولم يقتصر هؤلاء الرهبان على التبشير بالانجيل بل نشروا العلم ، وأحيوا الزراعة ، وأتوا بنباتات جديدة ، وأدخلوا حيث وجدوا صناعات مفيدة ، وهذبوا الأخلاق وأبطلوا كثيراً من قبيح العادات .

ثم أتى بعد رهبانيتي العازريين والروحيين ، بعثة ليون الافريقية و بعثة الآباء البيض . ففى سنة ١٨٥٦ أسس المطران دوماريون براز يلاك أصله من الدعاة فى الهند الشرقية ، مدرسة لتخريج المبشرين المراد ارسالهم لتنصير الزنوج . ثم عين هو أسقفاً فى سيارا ليون ، فذهب ومعه عدد من الرهبان فهلكوا بالحمى الصفراء ، فتطوع غيرهم للقيام مقامهم ، وما زالوا صابرين ثابتين حتى أفلح عملهم ، فترى لهم اليوم كراسى فى ساحل العاج ، والنيجر الأدنى ، وساحل الذهب ، والداهومى ، و بنين . وقد وفقوا توفيقاً كبيراً فى ساحل العاج وفتحوا تسع مدارس منها مدرسة دينية فى دابو وقد أحمدوا طباع أهل تلك البلاد من السكينة وحب العمل ، بخلاف أهالى داهومى ، الغلاظ الشداد ، المتعصبين للفتيشية ، ثم أسسوا مدرسة زراعية فى توكبو ، وأسقفية فى بنين Benin

وآخر رهبانية تأسست لنشر الدين المسيحى فى افريقية هى الآباء البيض ، أسس هذه الجمعية الـكردينال لا فيجرى مطران الجزائر سنة ١٨٦٩ ، وعاكسه فى هذا المشروع المارشال ما كماهون ، الذى كان رأيه أشبه برأى الشركة الانـكليزية فى الهند من تجنب الدخول فى قضية التنصير ، لئلا يحصل مشكلات للادارة الفرنساوية ، فالـكردنيال كان يرى غير هذا الرأى ، ويقول انه يجب الامتزاج بالأهالى واستجلابهم الينا ، لئلا يلبثوا على عقيدة القرآن ، التى تجعل بيننا و بينهم فاصلة كبرى . فما زال الـكردينال مصراً على فكره حتى أنشأ هذه الرهبانية وراعى فيها عادات القوم ، وأردفها برهبانية أخرى للنساء اسمها « الراهبات المبشرات لسيدتنا العذراء » [1]

---

(١) الحقيقة ان كلامن رهبانيتى الآباء البيض والراهبات المذكورات ، نالت عضد الحكومة الفرنساوية فى كل شىء وارتفعت منهما شكوى الجزائريين ، وغيرهم من سكان المستعمرات الفرنساوية بدون فائدة ، وليس هنا مقام تفصيل ذلك

وميادين عمل الرهبان البيض هى أولا الجزائر وتونس . ثانيا الصحراء والسودان . ثالثا بلاد خط الاستواء من افريقية . رابعاً بلاد نياسا غربى الموزامبيق التى فيها كرسى أسقفية (١).

و بلاد خط الاستواء الافريقية و بلاد نياسا كلتاهما ، من المستعمرات البريطانية والبرتقالية ، فلا تهماننا الا فى الدرجة الثانيــة . ولكنهما مع ذلك لا تخلوان من العمل ، فيما يتعلق بمقاومة الاسلامية ومنع الرق (٢) . فان قرار مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥ بمنع الرق ، قد قاومه تجار العرب بالسلاح واضطرت الدول الى قمع ذلك بالقوة (٣)

أما فى الجزائر وتونس ، فلما كان الحكم لفرنسا لم يكن من حاجة الى استعمال القوة فرهبانية الآباء البيض تلجأ الى الوسائل السلمية لا غير . فهى تؤسس بقرب كل محطة مستوصفا طبيا ، وصيدلية . الأول منهما ، يصف العلاجات والثانى يعطيها مجانا ، ثم مدرسة ودار أيتام . وليس الا بعد وقت طويل و باذن أهل الأولاد ، يلقن الآباء هؤلاء الأولاد

(١) لسائل أن يسأل : لمــاذا يعملون فى تونس والجزائر ولا يعملون فى المغرب الأقصى ؟ والجواب دور الآباء البيض وراهبات التبشير ، يأتى في المغرب الأقصى بعــد أن يتم اخضاع الثائرين فى جبال الاطلس ونزع الســلاح من أيدى القبائل ، أما الآن والثورة لا تزال ثائرة ، فالحكومة الفرنساوية تمهل فى هذا الامر وان كانت لا تهمل .

(٢) ان الرق ليس من الاســلامية بل ان الرق عادة قديمة عرفتها النصرانية والاسلامية وغيرهمــا ، وما حبب الاسلام شيئاً الى الناس أكثر من تحرير الرقيق الذى هو من أفضل القربات شرعا . ثم لما منعت أوربا تجارة الرقيق ثارت فى وجهها شعوب مسيحية كثيرة مثل البوير فى جنوبى افريقية ، وكل أحــد يعلم أن أمريكا انقسمت قسمين فى أمر العبيد ، وثارت الحرب بين الفريقين أربع سنوات ، فاجتهاد بعض مؤلفى أوربة بالصاق الرق بالاسلام خاصة ، هو من حملة التحامل على الاسلام ، كما انى وان كنت أحمــد صنع الدول التى ساعدت على إلغاء الرق ، لا أنــكر أن معاملة العبيد السود فى بلاد الاسلام ، هى أفضل بكثير من معاملات الأمم المستعمرة لرعاياها البيض ، نعم ان هــذه الأمم لا تبيع أهالى الجزائر ، وتونس ، وتونــكين ، وغيرهم ارقاء فى الأسواق ، ولــكنها لا تعرف لهم أدنى حق بازاء الأوربيــين ، وهى تضع يدها على ما شاءت من أراضيهم ومعادن بلادهم ، وتستثمر أرضهم ودمهم وعرق جبينهم قسراً بدون أن يكون لهم بذلك أدنى خيار فهل الرق سوى هذا ؟ .

(٣) يذكر المؤلف هنا مقاومة العرب وينسى مقاومة الجنس الأوربى فى الترنسفال .

التعليم الديني[1] أما اليتامى فيعلمون التعليم الديني فرضاً . وقد تقدم الآباء البيض الى الداخل فضارت لهم مؤسسات فى لاقوات (١٨٦٨) وفى أوارغله (١٨٧٣) ، وفى توغورت (١٨٧٨) الخ ولما دخلت العساكر الفرنسوية مدينة تمبكتو سنة ١٨٩٤ فى ١٠ يناير تحت قيادة الكولونل بونيه والقومندان جوفر ، أسس الآباء البيض مركزاً فى تمبكتو وستة أخرى فى جوارها .

وخلاصة ما قامت به الرسالات الكاثوليكية من برتقال ، وطليان ، وفرنسيس ، فى القارة السوداء ، هى انها هاجت هذه القارة من الجانب الغربى ، ومن الصحراء ، ومن الكونغو ، ومن جهات البحيرات الكبيرة ، نعم انها لم تقدر أن تمزق العصبة الاسلامية ، لكنها هذبت قسما عظيما من الأمم الفتيشية ، وتوفقت الى ابطال كثير من عاداتهم البربرية .

ثم ذكر المؤلف ، اشتراك السياح والمبشرين فى تهذيب افريقية فقال : ان لفنستون فى أحد تقريراته يقول : « ان نهاية الاكتشاف الجغرافى هى بداية العمل التبشيرى . وهذه حقيقة كلية اذ من المحال أن نكتشف أراضى جديدة بدون أن ينبه ذلك فينا شوق دعوة أهلها الى الانجيل ، هذه البشارة التى أعطتنا السلام والعزاء والرجاء » . فلقد رأينا المبشرين الكاثوليك ، يتعقبون آثار البحارة البرتقاليين والفرنسيس والطليان ، ويؤسسون أوطانا مسيحية فى سواحل افريقية الغربية والشرقية ، متخذين هذه المراكز فى سواحل شرقى افريقية محاطّ فى طريقهم الى الهند ، ولكن كل هذا ما عدا الذى جرى فى الحبشة ، لم يتجاوز مناطق معلومة من سيف البحر . ولكن جاء فيما بعد ذلك السائحون الجوابون فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر والأرباع الثلاثة من القرن التاسع عشر فدخلوا من مصابّ الأنهر . وتوغلوا فى البلاد ومنهم من ذهب قتيل جرأته فكانوا هم طلائع المبشرين ، وعلى آثارهم سار هؤلاء ، وبالاجمال فمداخل افريقية التى تولج منها هؤلاء الجوابون الى باطن هذه القارة ، هى أربعة أو خمسة ، أولها النيل لامتداد طريقه من مصر الى أقصى منابعه . الثانى نهر الغامبية ثم نهر السنيغال . الثالث ، رأس الرجاء المعروف

(١) غير معقول أن يسمح المسلمون أهل الأولاد بتلقينهم تعليما دينياً غير الاسلام بمجرد رضاهم ، بل هنا أحد أمرين ، اما أن يكون أهل الأولاد لا يجسرون على الاعتراض أو يكونون هم أنفسهم تركوا الاسلام

بالكاب نظراً لأهمية هذا الموقع التجارى . الرابع ، الجزائر منذ استولت عليها فرنسا ثم طرابلس . الخامس ، جزيرة زنزيبار بسبب علاقاتها مع السواحل التى تحاذيها .

وأول من توغل فى افريقية من جهة النيل هو جيمس بروس James Bruce الاكوسى المتوفى سنة ١٧٩٤ ، وصل الى مصر سنة ١٧٦٨ ، وصعد الى الاقصر وشاهد آثارها ، ثم الى اسوان ومنها الى القصير ، ومنها أجاز الى جدة وركب البحر من جدة الى مصوع ، ومن هذه صار الى الحبشة مزوداً بتوصية من بطريرك القبط فى مصر الى الرأس ميشل ، وأقام مدة بمدينة غندار قصد منابع النيل وظن أنه وصل الى رأس نبع النيل الأزرق ، والحقيقة أنه لم يصل الا الى العبادى ، وهو ملتقى أنهر من النيل لا أصل نبعه . ثم عاد الى مصر من طريق اسوان . وبعد ١٢ سنة من سياحة بروس هذا جاء الى مصر فولناى الكاتب الفرنساوى الشهير ، ولفت أنظار قومه الى وادى النيل قائلا : «يجب للاستيلاء على وادى النيل ثلاث حروب : الأولى مع انكلترة . الثانية مع العثمانية . الثالثة وهى أشدهن مراسا مع الاسلام . لأنه هو السائد فى هذا الوادى . وربما كانت هذه العقبة غير قابلة الجواز» (كذا) وكان نابليون بونابارت قد قرأ كلمات فولناى ، فكانت مما استفزه الى غزو مصر . ولم يكن تجسيم فولناى صعوبة هذه الحملة الا ليزيد فيها رغبة بونابرت ، فى غرامه باقتحام الصعاب وعشقه للمجد ، فكانت تلك الغزاة الشهيرة التى ظهر فيها من مزايا نابليون العسكرية ماظهر ، وانما لم يقدر الناس قدر مهارته السياسية ، استجلابه خواطر المسلمين وامتزاجه بهم فى عقائدهم وعاداتهم ، وقد كانت غزاة مصر هذه من سنة ١٧٩٨ الى ١٨٠١ ، مبدأ لاسفار ورحلات صوب منابع النيل استمرت الى ١٨٤١ وقد حذا حذو نابليون بونابرت فى سبيل الاكتشاف والبحث ، أمير مصر الكبير محمد على فى زمانه ، وصل فريد ريك غاليو Gailliaud الى طيبة وواحة سيوه ، ثم صعد مجرى النيل الى أن وجد خرب العاصمة القديمة مرويه Meroé (١٨١٨ الى ١٨٢٠) الى ان بلغ الدرجة ١٠ من العرض الشمالى . وبعد هذا ببضع سنين وصل عالم المانى الى النوبة العليا ، وكان أول أوربى دخل كردوفان غربى النيل الأبيض ، ثم أنفذ محمد على بعثة وصلت الى درجة ٤ من العرض الشمالى فى غوندوكورو . وامتد عمل السياح الى الحبشة وبلاد شوا وبلاد الغالا ، فكان ممن اشتهروا بذلك روشه ديريكور

Rochet d'Hericoure وتيوفيل لوفا بفر Théophile Lefebvre (١٨٣٩ الى ١٨٤٣)، وأبناء آبادى D'Abbadie (١٨٣٣ الى ١٨٣٨) وهؤلاء من الفرنسيس ثم الانكليزى شارل بيك Beke والالمانيان كرابف وايزنمان ثم ان الالمانيين أرهاردت وريمان ، هما اللذان توغلا فى اصقاع البحيرات الكبر ، ووصلا الى قنن الثلج من بلاد كينيه Kenia والكيلمانجارو Kilmandjaro (١١ مايو ١٨٤٨) ومن هناك انفتحت الطريق التى انطلق منها سموئيل باكر (١٨٦٤ الى ١٨٧٣) و الكولونل غوردون ، وأمين باشا ، ولينانت بك وغيرهم . وكان لهؤلاء السياح أثر بعيد الصيت فى تهذيب الزنوج ، واجتهد سموئيل باكر وأصحابه بالغاء الرق ، مستظهراً على ذلك بأمر الخديوى ، وهلك غوردون فى الخرطوم بيد المهدى ، بعد أن أقام بضع عشرة سنة يرقى من أخلاق السودانيين .

ولم يكن شئ يشابه همة هؤلاء السياح الأبطال فى شرقى افريقية ، سوى همة أعضاء تلك الجمعية الانكليزية المسماة African Association التى تأسست سنة ١٧٨٨ فى لندرة وكانت الاطالس الجغرافية الى ذلك الحين لا تمثل أواسط افريقية الا برقعة بيضاء متسعة ، لأن الجغرافيين لم يكونوا يعرفون عنها شيئا . وكما كان السياح الذين ساروا من مصر غرضهم منابع النيل ، كان السياح الذين صعدوا من نهرى السنيغال والسنيغامبيه يقصدون تمبكتو ، تلك المدينة الشهيرة عند العرب . فالماجور دانيال هوغتون Hougton ركب نهر السنيغامبيه ، ووصل الى مدينة Médina ، ومنها الى عاصمة بامبوك Bambouck (١٧٩١)، لكنه لم يبلغ نهر النيجر ، وانقطع خبره . أما مونغاو بارك Mungopark الاكوسى ، فصعد من بلاد غامبيه ، فوصل الى النيجر عند سيغو Segou وعاد من حيث أتى ، ثم بعد تسع سنوات ، عاد فصعد النيجر ووصل الى تمبكتو ، ثم أوغل الى بوسانغ ، وهلك قتيلا سنة ١٨٠٦ . وكان رفيقه الفرنساوى موليان Mollien قد اكتشف منبع نهر السنيغال ، ومنابع نهر الغامبية وريوغرانده سنة ١٨١٨ .

ثم ان رينيه كاليه Rene Caillié الفرنساوى ، لم يزل يجوب تلك الأقطار حتى وصل الى تمبكتو بعد مشاق لاتوصف ، وذلك فى فبراير سنة ١٨٢٨ ، و بعد أن أقام بها مدة

لحق بقافلة مغربية عائدة الى فاس ، فوصل الى هذه العاصمة فى ١٢ اغسطس ، ومنها ذهب الى الرباط وأبحر الى فرنسا ، وأكرمته الحكومة والجمعية الجغرافية ، لكونه أول أوربى وصف تمبكتو وصفا عن عيان (١) .

وسافر الضابط لنغ Laing الاكوسى من طرابلس الغرب ، قاصداً تمبكتو فى ١٦ يوليو ١٨٢٥ ، فبلغها فى ١٨ أغسطس ١٨٢٦ ، ولكنه قتل أثناء ايابه . وأما الاكوسى كلابرتون Clapperton فاكتشف بحيرة تشاد ، ومملكة الفلاّته ، وزار مدن كانوا ، وكازينال ، وسوكوتو ، ومات فى سوكوتو سنة ١٨٢٧ وكان معه رفيق اسمه ريشاد لاندر فاكتشف مصب النيجر ثم أكمل اكتشاف مجرى النيجر الدكتور بايكى الاكوسى ومعه جماعة ، وذلك من سنة ١٨٥٤ الى سنة ١٨٦٤ .

فهؤلاء السياح وأمثالهم هم الذين بقصص أسفارهم هاجوا شوق مبشرى الكنيسة الانكليكانية والمتيودية الانكليزية ، وكان الانكليكانيون منذ سنة ١٨٠٤ أسسوا مراكز لهم فى سيراليون Sierra Leone واقتدى بهم الميتوديون بعد ١٠ سنوات من ذلك التاريخ ، وفى سنة ١٨٦١ ، كانت لنصارى الزنج فى تلك الأقطار كنيسة مستقلة بذاتها .

وأما طريق الكاب فهى الطريق الثالثة التى دخل منها المبشرون الى باطن افريقيه ، والمبشرون هنا لم يسبقهم السياح بل كانوا هم السابقين ، بدأ بذلك جورج شميد سنة ١٧٣٧ ، ويانسن سنة ١٨٠٠ ، فوصلا الى بلاد الهوتنتوت ، ثم ان الدكتور تيودور فان دير كمب الهولاندى ، ذهب الى بلاد الكافر من ناحية بور اليزابت . ثم الدكتور فيليب الانكليزى وصل الى بلاد البوشمن Buschmen ، الذين هم أشد أولئك الأقوام توحشا ، وقد تكلم هؤلاء المبشرون عن قسوة طائفة البوير نحو السود ، ولا سيما الدكتور فيليب هذا ، الذى كانت له اليد الطولى فى الغاء الرق بتلك الديار ، وكان هو السبب فى اعطاء الهوتنتوت حقوق رعايا المستعمرات .

وممن ذهب للتبشير فى بلاد الكاب بيسو Bisseux الفرنساوى أحد دعاة البعثة الانجيلية البارزية ، وصل الى وادى شارون Charron فوجد هناك أربعة آلاف مستعمر

(١) أما العرب فكانوا يعرفون تمبكتو منذ قرون ، وبقيت هذه المدينة والممالك التى تجاورها أعصرا طويلة جزءا من سلطنة المغرب الأقصى ، ووصول السائح العربي الى تمبكتو ، لم يكن له من الشأن أكثر من وصوله الى احدى مدن المغرب .

فرنسى من أعقاب الهوغنوط (برتستانت الفرنسيس) ، جلوا الى هناك عند طردهم من فرنسا ، ولكنهم كانوا نسوا اللغة الفرنسية تماما ، ولم يبق عندهم من آبائهم الا بعض نسخ فرنسية من التوراة . ثم ان اثنين من بروتستانت باريز لمير Lemire ورولان Roland وصلا سنة ١٨٣٣ الى لسوتو Lessouto . وصار هذا القطر من ذلك الوقت مركزاً للدعاية البروتستانتية الفرنسوية . و بعد هذا التاريخ بخمسين سنة ، تقدم أوجين كويليار Eugene Coïllard الفرنسى الى بلاد زمبازه العليا ، ونصر كثيراً من زنوج الماروتزى Marotsé .

ولكن الاكوسيين أحرزوا قصب السبق فى تهذيب أهالى تلك الأقطار ، اشتهر منهم موفا Moffat الذى قضى زهاء نصف قرن ، يجتهد فى تنصير أمة البيتشوانه Betchouana وترجم التوراة الى لغة السيتشوانه Sitschouana ، فأوجد فى لغة أولئك المتوحشين أدباً لم يكن معروفا ، وازوج موفا ابنته ، من ليفنستون الشهير المولود سنة ١٨١٥ ، وكان هذا رحالة ومبشراً معا ، بدأ سياحته بين نهر الاورانج وزمبازه ، ثم دخل أواسط القارة الافريقية ، ومنها خرج فى لواندة Loanda بساحل الكونغو ، ومنها ذهب الى كايمان Quelimane بساحل الموزامبيق ، وهو أول أوربى اطلع على مجرى نهر زمبازه ، وهذه رحلته الأولى من سنة ١٨٥٣ الى ١٨٥٦ ثم باشر رحلته الثانية (١٨٥٨ الى ١٨٦١) فعرف بها مجرى النهر الأدنى ، ودخل بلاد الشيرى Chiré ، واكتشف النياسا Nyassa من البحيرات الكبر فى أواسط افريقية . وأما فى رحلته الثالثة ، فجاب الاقليم الواقع بين بحيرة نياسا و بحيرة تنغانيكا ، وعرف طرف التنغانيكا الجنوبى ، وسنة ١٨٦٨ اكتشف بحيرة بانغفلو Banguvlo ، وفى هذه السنة انقطعت أخبار لفستون المذكور ، فقلق بال الناس عليه نظراً لباهر اقدامه وجرأته ، فأرسل مدير جريدة النيويورك هرالد أحد الأخباريين المدعو هنرى ستانلى لتعقب آثار لفنستون ، فسافر ستانلى من باريز سنة ١٨٧١ ، فالتقى لفنستون بعد ١٠ سنوات فى محل يقال له أوجيجى على ضفة بحيرة التغانيقا ، ومات لغنستون بعد ذلك بسنتين أى عام ١٨٨٣ على ضفة بحيرة بانغفلو . وكانت للفنستون هذا همة عالية ، وعزمة راسخة ، استخدمهما فى الغاء الرق ومنع تجارة الرقيق ، وتعرض من أجل ذلك مراراً للاخطار .

أما الطريقان الباقيتان الى داخل افريقية فهما (الجزائر وطرابلس) اللتان كانت تذهب

منهما القوافل الى باطن القارة السوداء ، وكانت هذه القوافل تحدّث عن بحيرة عظيمة فى الداخل يقال لها وانغاراه ، وكانت جمعية الشركة الافريقية فى لندره أرسلت الماجور پدّى Peddie والضابط ليون بين سنة ١٩١٦ وسنة ١٩١٩ فهلك الاول،وعجز الثانى عن تجاوز فزان ولكن قنصل انكلترة فى طرابلس كان يؤكد لتلك الشركة أن الطريق من طرابلس الى برنو هى مفتوحة نظير الطريق من لندرة الى ادمبرغ .[1]

فأرسلت الشركة الافريقية بعثة عقدت عليها للماجور دنهام ، فسارت من طرابلس فى آخر مارس عام سنة ١٨٢٢ فمرت من فزان و وصلت الى كوكا عاصمة برنو فى ١٧ فبراير عام ١٨٢٣ وتوغل كلابر تون أحد اعضاء هذه البعثة الى بحيرة تشاد و زار كانو ، وسكوتو . ثم أرسل الانكليز بعثة ثانية تحت قيادة جس ريشار دسون ، وكان معه الالمانيان أوفرفغ Owerveg وبارت Barth فساروا من طرابلس فى خريف سنة ١٨٥٠ ، واخترقوا فزان الى العاير و وصلوا الى بحرة تشاد . وسنة ١٨٥٢ مات الالمانى اوفرفغ ولكن زميله بارت لم يفتر عزمه بل أوغل فى بلاد الاداموه فى الجنوب وعرف أن نهر بينوى Binoué هو من شعب نيجر . ثم ذهب الى سيكوتو فى الغرب ، ومنها صعد وادى النيجر الى الشمال الغربى حتى بلغ تمبكتو فاقام بهذه المدينة من سبتمبر سنة ١٨٥٣ الى مايو من السنة التالية وعاد من تمبكتو ، الى برنو ، ومنها عاد الى أوربا سنة ١٨٥٥ .

وأما الفرنسيس فبعد فتح الجزائر ، بدءوا يجوبون الصحراء، فكان اسماعيل بودر يه ترجمان القلم العربى فى «الاقوات» أول من أتى بالمعلومات الحقيقية عن الصحراء وعن التوارق الذين بين واحة وارغله ، وغات وذلك فى نحو سنة ١٨٥٠ وعقبه فى سنة ١٨٥٩ هانرى دوفا فيه فجاء بمعلومات كثيرة عن التوارق . و بعد ذلك بسنين أرسل الكردينال لافيجرى رهبانه الاباء البيض الى أقاصى الصحراء ، حيث أسسوا مراكز للتبشير وفتحوا

(١) الحقيقة أن هذه الرحلات التى قام بها السياح الاوربيون فى باطن أفريقية ، وعدها أهل أوربا مآثر عبقرية ، ووضع أصحابها فى صف أعاظم الدهر ، كان العرب من سياح وتجار ودراويش ، قاموا بأضعاف أضعافها منذ قرون ، ولكن بدون بأو ولا فخر ولا ضوضاء عظيمة بل بكل بساطة لا يرى الواحد منهم فى الذهاب الى بحيرة تشاد او الى الكنغو من الغرابة ، أكثر مما يرى فى الذهاب من تونس الى غدامس . ولما وصل الاوربيون الى تلك الأقطار التى ظنوا أنها مجهولة عند كل العالم ، لم يجدوا من مجاهلها مكاناً الا فيه عرب ، أو آثار للعرب واللغة العربية .

مدارس للتعليم .

ومن المداخل المهمة التى كانت للاكتشاف والتبشير جزيرة ممباسا Mombaça وتوابعها ، وقد كانت مستعمرة برتقالية أو برتغالية ، فاستولى عليها امام مسقط ، ثم سلطان زنجبار . ولما كانت منفذاً للقوافل الواردة من الداخل رأت فيها جمعية التبشير الانكليكانية محلا مناسبا لبث الدعوة . وسنة ١٨٤٤ جاء رجل المانى من ورتمبرغ اسمه كرايف . فسكن فى راباى بقرب ممباسا ، ثم انضم اليه جواب آخر المانى اسمه ربمان ، فأزمعا السير والنظر فى داخل البلاد ، وكان أهم ما اكتشفاه ، جبلان مغطاة قننهما بالثلج الا بدى جنوبى خط الاستواء ، وهما كينيا وكيليما نجاروا (١) وتقدم هذان الرحالتان فى بلاد جاقا Djagga وكان أهلها من أشد الزوج توحشا يأكلون لحوم البشر فاخذ كرايف وربمان يرشدانهم ويهذبان من أخلاقهم ، وفى احدى المرار أراد أحد ملوك تلك الناحية أن يكافئ كرايف على هدايا قدمها له فوهبه عاجا ومواشى وعدداً من العبيد فقال له كرايف : أما العبيد فلا أقبلهم لان العبودية هى خلاف القانون الالهى ، وأما المواشى والعاج ، فما جئت الى بلاد اوزامباره لاجل حطام الدنيا ، فاذا شاء الملك يعطينى بعض أولاد غير ارقاء آخذهم معى الى رباى وأربيهم . ولما علمت جمعية لندن الجغرافية باكتشافات هذين الجوابين أرسلت بعثة عقدت عليها لضابطين من الجيش الانكليزى الهندى وهما ريشارد بورتون ، وسبيك ، فسافروا من زنزيبار سنة ١٨٥٨ واكتشفوا بحيرة تانغانيكا (٢) ثم بحيرة نياسا التى لم يروا الا قسما منها واطلقوا عليها اسم بحيرة فكتوريا ثم توغل سبيك ورفيق آخر معه فى شمالى خط الاستواء الى الغرب ، فصادفا نهراً ظنا أنه من أصول النيل ، ثم سارا فى نحو الشمالى فوصلا الى غوندوكورو فى بحر الجبل ، وتلاقيا مع صموئيل باكر وأمرأته اللذين كانا يبحثان عن منابع النيل آتيين من الخرطوم .

وبعد عشر سنين من هذا التاريخ تلاقى هانرى ستانلى مع ليفينغستون فى أوجيجى على شاطئ التانغانيكا . والضابط كامرون خرج من زنزبار سنة ١٨٧٣ فلقى فى الطريق قافلة الزنوج الامناء ، التى كانت آتية بجثة ليفينغستون وأوراقه الثمينة ، وسار

(١) ١١ مايو عام ١٨٤٨

(٢) ١٣ فبراير ١٨٥٨

من الشرق الى الغرب مخترقا جميع قارة افريقية واكتشف مجرى لوكايا Loukaya ولوالا به Loualaba ونفذ الى ساحل بنقويله Benguela على سيف الاطلانتيك (١٨٧٨). ثم ان هانرى ستانلى تمكن من نقل مركب بخارى الى بحيرة فيكتوريا نيانزا ، فجال فى جميع أقسام هذا البحر الداخلى وأقام مدة ببلاد اوغاندا Ouganda ، ثم ضرب الى الغرب ، فوصل الى أعلى نهر الكونغو وعرف الشلالات التى سميت منذ ذاك الوقت باسمه . وأما الضابط البرتقالى سربا بنيتو Serpa-Pinto فاخترق هذه القارة من الغرب الى الشرق ، اذ سار من بنقويله فى ١٢ نوفمبر سنة ١٨٧٧ ، وأوغل فى مجاهل نانو ، وهيرامبو ، و بيهى ، و وصل الى الزامبيز الاعلى ومنها الى بلاد الماتيليبه Matelébe ، والترانسفال .

فاسفار هؤلاء السياح هاجت شوق جمعيات التبشير الى بث الدعوة الدينية ، لا سيما كتاب ستانلى الى مسيحيي انكلترة الذى حرره من مقرمتيسه Mtesa ملك الاوغانده (١٨٧٨) فقد أحدث هياجا عظيما ، ورأيت جمعيات كليات اكسفورد ، وكامبريدج ، ودبلين ، وجمعية الكنيسة الانكليكانية ، والا باء البيض ، والمبشرين الالمان ، يتسابقون الى رود هاتيك الارجاء والدعاية فيها .

وهذه الاسفار أيضا كان لها التأثير الأكبر فى اهتمام الدول الأوربية بمنع تجارة الرقيق المخجلة [1] وكانت انكلترة هى السابقة فى هذه الحلبة ، ولما كانت جزيرة زنزيبار هى أعظم مركز لهذه التجارة فقد اجبر الانكليز سلطان زنجبار عام ١٨٧٣ على امضاء تعهد بمنع تجارة العبيد ، وأخذت مراكب انكلترة تضبط جميع مراكب العرب التى تجد فيها عبيداً ، وكثر عدد هؤلاء المستنقذين ، فعمروا لهم مكانا يشتغلون فيه قصاد جزيرة ممباسه وسنة ١٨٧٦ انعقد مؤتمر جغرافى فى بروكسل ، انتخب فيه ليو بولد ملك البلجيك رئيسا للشركة الشعوبية لتحضير افريقيــة ، وهذه الشركة ، هى التى أوجدت حكومة الكونغو الحرة .

وسنة ١٨٨٥ ، انعقد فى برلين مؤتمر لتقسيم افريقية بدعوة البرنس بيسمارك ، وخرج فى نصيب المانية حصص صالحة مثل مستعمرات الكامرون ، وتوقو ، وزنجبار ، وتقرر بين الدول التشديد فى الغاء الرق ، والتعهد بحماية رسالات التبشير الساعية فى تهذيب

(١) اوافق على أنها مخجلة

السود بدون تفريق بين المذاهب والأجناس ، كما ان حرية الأهالى الدينية بقيت مضمونة وقد أيد قرارات مؤتمر برلين هذا مؤتمر انعقد فى بروكسل عام ١٨٨٨ ، تداعت اليه جميع الدول النصرانية وأرسلت اليه بعض الدول الاسلامية مثل تركية ، وايران ، وزنجبار معتمديها ، وتقرر انشاء دائرة دولية فى زنزيبار لمراقبة ابطال الرق .

الرسالات البروتستانتية فى افريقية

لم تصل البعثات التبشيرية الى افريقية الا بعد البعثات الكاثوليكية بقرنين ونصف قرن ، وهو أمر طبيعى لأن البروتستانتية قبل أن تفكر فى نشر دعوتها فى خارج أوربا ، كان عليها أن توطد قدمها فى داخل أوربا . ولكن البروتستانتيين بعد أن بدأوا فى التبشير سبقوا أقرانهم الكاثوليك فى الاجتهاد والنجاح . وكانت الدول المسيحية بادئ ذى بدء أرادت حمل الزنوج على التنصر بنفوذ الحكومات ، وسارت زمانا على هذه الخطة ، ولكن دول انكلترة وهولانده ، والدانمارك ، رفضت فى التالى هذه الطريقة خشية حدوث الثورات فى مستعمراتها ، وتركت ايتاء مهمة التنصير للجمعيات غير الرسمية .

وان أكثر الأمم رسالات دينية فى افريقية هى الأمة الانكليزية ، فانها تنفق بقدر ثلثى نفقات الرسالات البروتستانية باجمعها . ولكن الذين بدأوا بالتبشير لم يكونوا الانكليز بل الألمان والدانمركيين . وقد كان أول من اقتحم هذه الأخطار من الالمان هو الموراقيين حاولوا الدخول من أربعة أبواب معا : الجزائر ، والقاهرة ، وساحل غينية ، والكاب . ففشلوا فى الثلاثة الأبواب الأولى بسبب تمسك أهل الاسلام بدينهم ، وبما فتكت بهم الحمى فى غينية ، فقد كانوا يرسلون الفوج بعد الفوج ، فتحصدهم الحمى تباعا حتى عدلوا عن رسالة غينية ، ولم يستأنف العمل هناك الا بعد ستين سنة بواسطة جمعية (بال) من سويسرة الالمانية . أما فى بلاد الكاب ، فقد كانت لهم اليد الطولى فى تهذيب الهوتنتوت والكافر Kafres ، وتخفيف آلام المجذومين . ولما توطن المبشر الألمانى جورج شميد فى بافيانس كلوف على ٥٠ ميلا شرقى الكاب ، كان الفلاحون الهولانديون « البوير » يحتقرون الهوتنتوت الى حد أنه هو قرأ امام عدة كنائس الاعلان الآتى « ممنوع دخول الهتنتوت والكلاب الى هنا » . وسنة ١٧٩٢ أسس الموارافيون فى تلك البلاد مركزاً أطلقوا عليه اسم وادى الرحمة Gnabental ، وفى سنة ١٨٠٠ صار هذا المركز قرية ذات ١٢٠٠ نسمة

فيها صناعات وأشغال مفيدة ، واليوم هى من أزهر بلاد الكاب ، وفيها ثلاثة آلاف هوتنتوتى مسيحى . ثم أوغل المورافيون فى بلاد الكافر الى مسافة ٦٠٠ ميل شرقى الكاب . وعاقت أعمالهم حروب الانكليز مع أمة الكافر ، لكنهم ثبتوا فى موقفهم وصبروا على الشدائد من سنة ١٨٢٨ الى سنة ١٨٨٥ ، اذ وفقوا الى تأسيس مركز فى شمالى بحيرة نياسه Nyassa فى الجنوب الغربى من المستعمرة الألمانية الشرقية . وكان للبعثة المورافيه عام ١٩٠٢ نحو ١٢ مركزا ، و٢٢ مدرسة ، و٢٠٠٠ تلميذ ، ونحو ١٠ آلاف متنصر وعلموا الأهالى البناء والحرث . ولكن أهم عمل قاموا به هو معالجة المجاذيم ، فان الانكليز منذ سنة ١٨١٨ بنوا مستشفى لمجذومى الهوتنتوت وسلموا خدمته الى المورافيين ، وكان مستشفى واسعاً ذا جدران عالية وباب واحد ، فلبثوا يخدمون هذا المستشفى ٤٤ سنة ، وكان الدكتور لابتز مدير المستشفى متعزيا عند وفاته ، بأنه وجد من المجاذيم ٩٥ رجلا قبلوا الدين المسيحى .ولما أرادت الحكومة الانكليزية استبدال قسوس انكليز بهم ، خرجوا من ذلك المعهد الصحى باكين ، ومن الغريب انه لم يصب ولا واحد من المورافيين بالجذام مع شدة عدوى هذا المرض .

ويأتى بعد المورافيين دعاة جمعية بال (أو بازل بالألمانية) فقد نطحوا افريقية سنة ١٨٢٨ بطلب ملك الدانمرك ، فذهبوا الى ساحل الذهب وكانوا سبعة ، فمات منهم خمسه بالحمى ، والتجأ أحد الاثنين الباقيين الى أحد الجبال حيث الهواء نقى ، فجعل هناك مركز رسالة ومصحة معاً ، وسنة ١٨٣٥ أسس فى اكروبنغ كنيسة لنصارى السود ، وكانت مبادئ العمل فى غاية المشقة اذ مضت ٣٤ سنة ولم يتنصر سوى ٨٠٠ شخص ، ولكن منذ سنة ١٨٥٧ أخذت الرسالة تنجح وعدد المتنصرين ينمو ، حتى كان مجموعهم سنة ١٩٠٢ نحو ١٨ ألفا . وهذه الرسالة اليوم ممتدة الى بلاد الاشانتى التى قاعدتها كوماسى ، والى حدود مستعمرة طوغو الألمانية . ولها أيضا تسعة مراكز فى مستعمرة الكامرون الألمانية ، حيث يلتف حولها نحو ثلاثة آلاف نصرانى كامرونى ، وعندها فى الكامرون ١٣٧ من الكتاتيب ، يختلف اليها نحو ٣٢٠٠ ولد . وقد ترجم رجال هذه البعثة التوراة الى اللغة المسماة دوالاّ Doualla

ثم جمعية برلين الافريقية وهى احدى جمعيات برلين الانجيلية ، أسسها ديستلكامب

Diestelkamp سنة ١٨٨٦ للتبشير فى شرقى افريقية ، فأرسلت دعاتها الى الجنوب الغربى من مملكة الاورانج ، والى غربى غريكا ، والى بلاد الباسوت فى الترانسفال ، والى شمالى بحيرة نياسه ، فيوجد لها فى هذه الأيام ٢٧ مركز دعاية و ٢١ ألف متنصر ، وازهر مؤسساتها مدينة بوتشابيلو ، التى عدد سكانها ٤ آلاف كلهم نصارى ، وفيها صناعات ومهن فى غاية الفائدة .

ثم جمعية الكنائس الانجيلية فى بلاد الرين أرسلت دعاتها للتبشير فى بلاد الهوتنتوت ، ثم نطحت بلاد الناما Namas ، والهريرو Herreros الذين هم من أشد القبائل عتواً والاوفامبو الذين بين نهر الاورانج والكونيين ، ثم إن أحد البيوتات التجارية الالمانية من برآم أسس محلا تجاريا فى اوتجيمبنغه Otijimbinge فامتد هناك الالمان وجعلوا لأنفسهم مستعمرة سموها مستعمرة الجنوب الغربى الافريقى ، فالرسالة الانجيلية الرينية عندها فى هذه الأيام فى مستعمرة الكاب ٢٥ مركز دعاية ونحو ١٦ ألف متنصر ، وفى مستعمرة الجنوب الغربى المذكورة ٢٤ مركزا ونحو ١٢٥٠٠ متنصر .

ثم جمعية شمالى ألمانية التى مركزها برآم ، وجمعية هرمانسبورغ التى مركزها هانوفر هما أيضا تشتغلان فى الدعاية بافريقية ، فالأولى تخدم هذا المقصد فى ساحل العبيد وعندها نحو ٣ آلاف مريد ، والثانية تشتغل فى بلاد الباسوتو شمالى الترانسفال ، والباسوتو قوم كان البوير يعاملونهم معاملة أرقاء . ثم تقدم دعاة هذه الجمعية الى بلاد الزولو ، وشرعوا فى التعليم والتبشير ، فمن نصف قرن الى اليوم صار عندهم نحو ٤٣ الف متنصر .

ثم تأتى جمعيات السويد والنورويج ، فللسويد جمعية تبشر فى مستعمرة ايطالية بالاريتره ، وفى بلاد كونانه ، ومقاطعة حمازه ، شمالى الحبشة الى الغرب ، وكان عندها سنة ١٩٠٢ عشرة مراكز و ٥٠٠ مريد و ١٤ مكتباً للصغار . أما النرويجيون ، فقد أسسوا فى ماداغسكر رسالة فى غاية العظم ، فانتخبوا مقاطعة بتسيليو للعمل بالاتفاق مع جمعية لندن التبشيرية ، ثم تقدموا الى بلاد ساكالاف فى الساحل الغربى من ماداغسكر ، والى الساحل الجنوبى الشرقى . وبعد جهد استمر ٣٠ سنة ، كان عندهم سنة ١٩٠٠ خمسمائة مكتب ، وواحد وخمسون ألف وثلثمائة مريد ، ولهم أيضاً مدرسة علمية عالية ، ومدرسة لاهوتية ، ومدرسة طبية تابعة لمستشفاهم بتاناناريف .

ثم الجمعيات الهولاندية ، وأول من اعتنى منها بالتبشير ، جمعية تاسست سنة ١٧٩٧ فى روتردام ، اسمها جمعية جنوبى افريقية لتوسيع مملكة المسيح . وكان بطلاها تيودور فان دركامب وكيشرر ، فذهبا الى بلاد الكاب وباشرا العمل فى بلاد الهوتنتوت وعند ذلك اشتدت عزيمة الكنيسة الهولاندية فى الكاب ، فقامت بمايجب عليها من التبشير بين زنوج بلاد الأورانج والترانسفال . ولما دخلت بلاد الكاب تحت سلطة انكلترة سنة ١٨١٥ ، انطلقت أيدى الجمعيات التبشيرية الانكليزية فى العمل لاسيما جمعية التبشير بالانجيل المعروفة بهذه الأحرف الثلاثة S.P.G فقد بثت الدعاية بين الأهالى بهمة المطران غراى ، وسنة ١٨٦٤ دخلت هذه الجمعية ماداغسكر ، وأسست كرسى اسقفية فى تاناناريف ، وصار عندها ١١ الف مريد .

ثم برزت الى الميدان جمعية رسالات الكنيسة الانكليزية المؤسسة عام ١٧٩٩ ، وكان معظم همها مصروفا نحو افريقية ، وكانت كلمتها « ينبغى رجال ذوو عقل دينى لا كمال عمل روحى » وفى البداية كانت تكتتب أكثر دعاتها فى ألمانية ، فقد أخذت من مجمع مدينة بال وحده ثمانين داعياً كلهم من الطراز الأول . وكان ميدان عملها الكاب ووادى النيجر الأوسط ثم مومباسه ، ثم الأوغانده حيث وقع الخلاف بين المبشرين الكاثوليكيين والمبشرين البروتستانتيين وجر الى معارك دموية ، ومع هذا ، فان هذه الجمعية جمعت حولها ١٦٤ الف متنصر فى الأوغانده وحدها وكان يوجد هناك نحو ٢١٢ الف زنجى كاثوليكى ، و٤٠ ألف مسلم . ولا يزال نحو ٣٨٠ الف زنجى على عبادة الأصنام[1] فالرسالة الانكليزية بواسطة هذه الجمعية تمكنت من تأسيس خمس عشرة اسقفية وهى ما يأتى : اسقفية الكاب (١٨٤٧) سيراليون (١٨٥٢) ناتال (١٨٥٣) ، غرامستاون (١٨٦٣) ، بلومفونتن (١٨٦٣) ، الزولو (١٨٧٠) سان جان فى بلاد الكافر (١٨٧٣) تاناناريف بمدغسكر (١٨٧٥) ، بريتوريه (١٨٧٨) ، زنزيبار وشرقى افريقية . خط الاستواء . بلاد النيجر . نياسه وماشونه فى روديزيه Rhodésia . ويضاف الى هذه الاسقفيات مدارس للعلوم والمهن كالحدادة ، والنجارة ، وجر الأثقال ، وغيرها ، وأشهر هذه المعاهد الذى فى غراهامستون ، ثم الذى

---

(١) قرأت فى بعض الكتب الفرنسوية أن الانكليز عززوا قوة الدعاية الانكليزيه بالسلاح فى الأوغانده وضايقوا الكاثوليك والمسلمين

فى بلاد الـكافر ، ثم الذى فى جوار الـكاب ، ثم الذى فى كيبوزى .

ولقد اعترف بجلائل أعمال هذه الجمعيات أبعد الناس عن الدعوة الدينية . فقال اليزه ركلوس الجغرافى الفرنسى الشهير : انه بتأثير دعاية الجمعيات الانـكليزية دخـل كثير من زنوج سيراليون فى النصرانية وصار منهم أكثر الوعاظ والمبشرين ، وأقبل الناس على التعلم وتحرر الأرقاء ، وتأسست مملـكة سوداء حرة .

ثم جمعية رسالات لندن المؤسسة سنة ١٧٩٥ ، أرسلت دعاتها الى بلاد البوشمن فى الأورانج الأعلى ، والى ما بين بلاد الـكاب وبحيرة ناقامى ، والى جزيرة ماداغسكر ، وأسست سنة ١٨٧٧ مراكز بقرب تنقانيكا ، واورامبو ، واوجيجى . وقد كان مريدو هذه الجمعية بلغ عددهم سنة ١٨٥٠ فى بلاد الـكاب، ٣٥ الف نسمة ، وأما فى سنة ١٩٠٢ فـكان عددهم ٩٦ ألفاً عـدا رعية كنيسة ناتال . وتنصر على يد ليفنستون أحـد أولاد ملوك بامانقواتو المدعو كاما ، فمنع استعمال الأشربة الـكحولية بين الأهالى .

وقد اقتدت بالـكنيسة الانـكليكانية الـكبرى الـكنائس التالية ، فالـكنيسة المعمدانية نشرت دعوتها فى خليج غينيـة وجعلت لنفسها مركزاً فى جزيرة فرناندوبو الاسبانية ، ثم بثت دعاتها فى الـكامرون حيث بنت مدينة فـكتوريا التى صارت قاعـدة مستعمرة الـكامرون الألمانية ، وتركت فى تلك البلاد مآثر عظيمة من تزكية الأخلاق . والغاء الرق وابطال السحر واسقاط السحرة الى أن صاروا يتوارون فى الغاب وصارت الفتيشية سخرة يهزأ الجميع منها . ولما استولى الألمان على الـكامرون لم يرتاحوا الى وجـود المبشرين الانـكليز فيها ، فتخلى هؤلاء عن مؤسساتهم لجمعية بال الألمانية (١٨٨٧) ، ولبث النصارى الوطنيون مستقلين بكنائسهم . وتحولت الجمعيـة المعمدانية من الـكامرون الى الـكونغو حيث كان البرتقاليون قد أدخلوا كثيرين فى الـكثلكة ، فاجتهد الانـكليز المعمدانيون فى استمالة قسم من أهل الـكونغو ، ولـكن الى اليوم لايزيد عدد المتنصرين على أيديهم على أكثر من ٦٠٠ نسمة (١٩٠٦) .

ويرجع الى هؤلاء المعمدانيين الفضل فى تنبيه الأفـكار ، الى ما كان يجريه عمال البلجيك فى الـكونغو من المظالم والفظائع ، التى تشمئز منها الطباع ، والتى شاع ذكرها فيما بعد ، فصدر أمر ملك البلجيك ليوپولد حينئذ بالتحقيق عن هذه الفظائع ، وثار من أجل

ذلك غضب أولئك المستخدمين الذين افتضحت أعمالهم لكن المبشرين قاموا بواجبهم تجاه النصرانية والانسانية جميعا .

ثم الكنيسة المسماة بالميتودية Wesleyenne ou Méthodiste [1] بدأت بالتبشير فى سيراليون سنة ١٧٩٦ ، ونجحت نجاحاً عظيما حتى يعد مريدوها اليوم بنحو ٧٥٠ ألف نسمة منهم ١٥٠ مبشراً زنجيا وعندها فروع ممتدة من غامبيه الى النيجر . وللكنيسة الميتودية هذه رعية فى بلاد الكاب ، والكافر ، والزولو ويحصى مريدوها هناك بنحو ١٠٠ ألف نسمة . وفيما بين الزنوج الميتوديين ظهرت الحركة المسماة بالاتيوبية Ethiopisme التى معناها نزوع المسيحيين السود من أمة البانتو Bantous فى جنوبى افريقية الى ادارة الكنائس الأهلية بدلا عن الأوربيين ، عملا بقاعدة « افريقية للافريقيين » ، وقد بزغت هذه النزعة سنة ١٨٩٦ فى الترانسفال ، وأخذت اسم الاتيوبية بحجة ان أصحابها يريدون الانتماء الى الكنيسة الاتيوبية أى الحبشية ، لأنها كنيسة مسيحية أصلية فى افريقية تأسست منذ أيام الحواريين . وهم يرمون المبشرين الأوربيين بكونهم غالبا يجعلون التبشير مصيدة للدنيا ، وغرضا من أغراض السياسة والتجارة ، ولا يفهمون حقيقة احتياج الروح السوداء ، فرماهم تأسيس كنيسة افريقية حرة لا تحت سيطرة المبشرين الأوربيين ، ولكن أصحاب هذا المشروع كان ينقصهم العلم اللازم والقوة الكافية لتحقيقه ، فراجعوا الكنائس السوداء بأمركا لأجل مساعدتهم ، فلم يفوزوا بطائل يذكر فانضموا سنة ١٩٠٠ الى كنيسة الكاب الانغليكانية ، واتخذوا لقب الجمعية الحبشية وعددهم نحو ١٠ آلاف ، [2]

ثم الكنيسة البرسبيترية L'Église Presbytérienne فى بلاد الايكوس لها مراكز دعاية فى بلاد ناتال ، وعندها مدرسة فى بليتسفورد . وكذلك الكنيسة الايكوسية الحرة لها مراكز فى بلاد الكافر ، والزولو ، وعندها مدرسة صناعية فى لوفيدال ، فيها نحو ٥٠٠

---

(١) كنيسة پروتستانية أسسها فى اكسفورد يوحنا وسلى John Wesley سنة ١٧٢٩

(٢) يعلم القارئ المفكر من هنا ان نزعة الاستقلال عمت جميع الأمم حتى السوداء ، وصارت الى المسائل الدينية أيضاً فما كاد قسم من الزنوج يتنصرون على أيدى الأوربيين حتى نهضوا يطلبون استقلالهم الكنسى ، ويحنون الى الحبشه النصارى ، ملتمسين الانضمام اليهم لأنهم افريقيون فى الجنس .

طالب ، و يتبعها مزرعة انموذجية ، تبلغ غلتها كل سنة ألف قنطار من الحبوب

و بالاجمال فالرسالات الألمانية امتازت بالتدقيق فى اللغات الافريقية ، و بالثبات وحفظ النظام ، ولكن الرسالات الانكليزية والايكوسية امتازت بالجرأة و بعد الهمة ، و بالصدق فى تحرير الزنوج ، ومنع المظالم الواقعة عليهم من المستعمرين ، على ان كلا الفريقين ادخل فى افريقية الشغل اليدوى ، والصناعة والزراعة ، مقرونة بالتعليم الدينى والتهذيب ، فصرت ترى من هؤلاء السود زراعا وعشقاً [١] وممرضين وميكانيكيين وقوامين على التلغراف .

أما البروتستانتيون الفرنسيس فقد أرادوا الاقتداء بغيرهم من أبناء سائر الكنائس الانجيلية ، وتأسست لهم جمعية تبشير فى باريز سنة ١٨٢٨ ، وأرادت بث دعاتها فى العالم الوثنى مبتدئة فى ذلك بالمستعمرات الفرنسية مثل جزر الانتيل ، والبونديشيرى ، ولكن الكاثوليكيين أبوا ذلك ، فلم يسمح كارلوس العاشر ملك فرنسا للبروتستانت الفرنسيين بالتبشير فى تلك الأصقاع ، فاعمل هؤلاء همتهم فى بلاد الكاب لا سيما عند جيل يقال لهم الباسوتو Bassoutos وقد مضى على دخولهم تلك البلاد سبعون سنة هذبوا فيها أخلاق هذا الجيل ، وأوجدوا بينهم العلوم والمهن ، وأسسوا مدارس وكتاتيب ومطابع ، وعندهم الآن ٣٠ ألف مسيحى من الأهالى و ١٢ ألف ولد فى كتاتيب الجمعية ، وقد جمع المبشرون لغة هؤلاء القوم فى معجم ، وألفوا لها نحواً وصرفاً وآدابا ، وترجموا لها التوراة .

ولما تأسست فى فرنسا الحكومة الحرة أذنت لهم بالتبشير فى المستعمرات الفرنسية ، فذهبوا الى السنيغال سنة ١٨٦٢ ، والى الكونغو الفرنسى ، والى زمبيزية العليا ، والى ماداغسكر . فأما الرسالة السنيغالية فكان عليها أن تجادل خصمين عنيدين . المناخ الوبى ، والتعصب الاسلامى . وبالرغم من ذلك ، تمكنت من تأسيس مركزين أحدهما فى سان لويس والآخر ، فى بونديبور . أما فى الكونغو الفرنسى فكان أولا المبشرون الامريكيون من الكنيسة البرسبيترية ، فلما قضت الحكومة الفرنسية بتعليم اللغة الفرنسية بصورة اجبارية دعا المبشرون الاميريكيون جمعية التبشير البروتستانتية الفرنسية لأخذ مراكزهم (١٨٩٢)

(١) جمع عشيق أو عشوق وهو الذى يسوى رياحين الحدائق

وأسسوا أربعة مراكز جديدة ، وشرعوا فى الوعظ بين قبيلين أحدهما يقال له الغيلوه Galoas والثانى الباهوين Pahouins . وأما فى زمبيزية العليا فانهم جعلوا ميدان عملهم بلاد الباروتزى Barotsis ، فنجحوا نجاحاً عظيما ، ومن لم يتنصر من هؤلاء القوم ، فقد تهذبت أخلاقه بالاحتكاك مع المبشرين ونشر التعليم المسيحى ، ومنهم لفانيكا ملك البلاد الذى أمر بمنع الأشربة الكحولية فى مملكته ، فالبعثة الفرنسية الانجيلية عندها هناك ستة مراكز ، مع مدارس وكنائس عديدة . ولكن بدأت تزاحمها منذ سنوات فى ذلك القطر الجمعية الحبشية المار ذكرها ، والتى مبدأها « افريقية للافريقيين » .

ولما استولت فرنسا على ماداغسكر بتمامها سنة ١٨٩٥ ، كان التبشير فى هذه الجزيرة الكبرى فى يد الجمعية النورويجية ، ورسالتين انكليزيتين احداهما ، رسالة لندن ، والثانية رسالة الكويكرس . فلما زحفت العساكر الفرنسية ، اتهم بعض دعاة رسالة لندن بتحريض أمة الهوفا Hovas على المقاومة ، فطلبت الحكومة الفرنسية تخلى رسالة لندن عن قسم من مؤسساتها لرسالة فرنسا الانجيلية ، وكان لرسالة لندن حينئذ خمسمائة كنيسة ، وثلثمائة وخمسة وسبعون كتابا للاولاد . ولم يخل هذا الأمر من احداث شكوك وشبهات فى افكار الماداغسكريين المتنصرين حديثا فاهتبل الجزويت هذه الغرة لتحذير الحكومة من البروتستانية ، وزعموا ان بروتستانتى هو مرادف انكليزى ، وان كاثوليكى مرادف لفرنسى أو محب لفرنسا ، فبمساعدة بعض ضباط الفرنسيس ألقوا فى السجون عدداً كبيراً من القسوس الانجيليين من الوطنيين ، وانتزعوا منهم نحو مائة كنيسة ومدرسة ، وسلموها الى الرسالة الكاثوليكية . وما زال هذا الاعتداء واقعاً حتى تولى الجزيرة الجنرال غاليانى ، فأبطله . والآن تحت يد البعثة الفرنسية الانجيلية فى ماداغسكر فى مقاطعة ايميرينه Imérina ٣٤٢ كنيسة يختلف اليها ٧٧٧٥٨ مؤمناً وفى مقاطعة بستيليو Bestileo ١٨٧ كنيسة يختلف اليها ٣٣٣٢٩ مؤمنا ، هذا عدا المدارس الابتدائية والعالية ، ودور المعلمين والمعلمات ، ومستشفى للمجاذيم .

ولا ننسى مساعى الكنيسة الانجيلية المتيودية الفرنسوية فى بلاد البربر Kebylie من جزائر الغرب ، فقد ذهب الى هناك مبشر اسمه جالابرت عظيم الثبات والمهارة فجعل مركزاً فى المتن Matheu ، وآخر فى القصور ، وأخر فى بجاية ، ونصر عدداً من المسلمين

أكثرهم من البربر ، فظهر أن تنصير المسلمين لاسيما من أمة البربر ، ليس من الصعوبة بالدرجة التى كانوا يظنونها .

ثم ان الامريكيين قد تعاطوا أيضا التبشير فى افريقية وذلك ، أن سود امريكا اهتموا باخوانهم سود افريقية من قبيل تضامن الجلدة ، وان البيض تذكروا انهم هم الذين كانوا قد أتوا بهؤلاء السود واستخدموهم واستعبدوهم ، وأذاقوهم العذاب ألوانا ، فرسالتهم التبشيرية الى افريقيه ، هى تكفير جناية الاعتداء على الانسانية مما ارتكبه آباؤهم بحق الافريقيين .

فللامريكيين فى افريقية ثلاث رسالات : الرسالة المتيودية ، والرسالة المعمدانية ، والرسالة البرسبيترية . فلما تأسست مستعمرة ليبيرية فى ساحل غربى افريقية وجاءها الزنوج من اميركا (١٨٢٠) أرادت الكنيسة الميتودية أن تؤسس فى ليبريه مركزاً فلم تتمكن من ذلك ولكن سنة ١٨٥٨ أسست أسقفية وجد فيها وعاظ مشهورون مثل بورنس وتايلر . (١)

---

(١) سنة ١٩٢٢ كان محرر هذه السطور من جملة الوفد السورى ، المطالب باستقلال سورية فى جنيف لدى جمعية الأمم ، فحسب العادة كنا نطلب من جميع الوفود الدولية بدون استثناء ، الملاقاة معهم لبسط القضية السورية لهم ، فكانوا فى الغالب يجيبون سؤالنا ولما كانت جمهورية ليبريه هى من جملة أعضاء عصبة الأمم ورد لنا الجواب من مندوبيها أيضاً بتعيين موعد للملاقاة ، فذهبت أنا وزميلى احسان بك الجابرى . وتذكرنا ساعة ذهابنا ، كيف ان حكومة أمة سوداء زنجيه تكون حرة مستقلة وعضواً فى جمعية الامم ، وان قطراً مثل سورية وفلسطين هما من أقدم وأشرف أقطار العالم ، وأمة كالامة العربية تكون محرومة استقلالها ، ولا يكون لها حق أن تساوى هذه الامة الزنجية الصغيرة ، فى الجلوس على كرسى في عصبة الامم . ولما وصلنا الى المحل الذي فيه مندوبو ليبريه التقانا اثنان اوربيان ، تكلما معنا بالفرنسية ، وعرفنا منهما انهما مندوبا تلك الجمهورية ، فشرحنا لهما قصتنا والتمسنا منهما كالعادة ضم أصواتهما الى أصوات الذين يطالبون باستقلال الامم ، فاعتذرا بأنهما يخافان الضرر من غرمائنا الفرنسيس والانكليز فيما لو رفعا أصواتهما باسعافنا فى مطالبنا ، اذ قالا لنا ان جمهورية ليبريه صغيرة ومجاورة لمستعمراتهم ، فيمكنهم الانتقام من الليبريين ، ونحن في الباطن عذرناهما ، ولكنهما قالا لنا ، انهما يتمنيان نجاح قضيتنا ونجاح كل البلاد الاسلامية فسألناهما وهل فى جمهورية ليبريه مسلمون ؟ فالتفت أحدهما وقال مؤكدا : « ان جمهورية ليبريه سكانها مليون وخمسمائة ألف نسمة ، منهم ثلاثمائة ألف نصارى ، ومليون ومائتا ألف مسلمون . فسألناه وكم عدد الاوربيين فى ليبريه ؟ فقال : الاوربيون التابعون لليبريه هم ٥٠٠ نسمة لاغير . فلم نزد فى السؤال على ذلك ، ونظن ان ازدياد عدد المسلمين هناك أمر حديث العهد . »

أما الرسالة المعمدانية الاميركية فلها مراكز فى مونر وفيه ، وسيراليون ، وفى ليبريه ، وفى بلاديو روبه ، وقاعدتهم فى هذه لاغوس على ساحل غينيه . وقد عضدهم فى مساعيهم كلها مبشرو الجمعية المعمدانية السوداء .

وأما الكنيسة البرسبيترية الامريكية ، فقد وجهت نظرها من الأول الى مصر (١٨٥٤) ، وساعدها الخديوى سعيد باشا فى مشروعاتها ، فشادت مدارس فى القاهرة والاسكندرية وسنة ١٨٦٣ ، اسست الكنيسة القبطية الانجيلية وصارت لها شعب فى أسيوط ، والاقصر ، والمنصورة ، وسنة ١٨٩٥ ادخلت النصرانية فى اسوان بعد أن كانت انقرضت من هناك منذ ١٢ قرنا ، فالاقباط الانجيليون اليوم (١٩٠٦) يبلغ عددهم ٢٥ ألفاً

وانهى المسيو بونه مورى كلامه الملخص هنا بقوله ، ان نجاح هذه البعثات الانجيلية كلها فى افريقية ، دليل على كون قوة الدعاية النصرانية لاتغلب فيما لو تجردت من الأغراض السياسية ، فانه لايوجد آفة على التبشير أعظم من المآرب الاستعمارية ، اذ بذلك الأهالى يجعلون التبشير لجميع الآثام والموبقات ، التى تصدر من عمال الحكومات المستعمرة .

نهضة الاسلام فى افريقية وأسبابها

ووسائل دعوتها

(١٧٩٠ — ١٩٠٠)

قال : ذكرنا مجاهيد الرسالات الكاثوليكة والبروتستانتية فى افريقية ، سواء ، لأجل اعادة الاقباط والاحباش الى حظيرة الكنيسة الرومانية ، أو لأجل تنصير الزنوج ، وبقى علينا استئناف الكلام على امتداد الاسلام فى افريقية .

فقد رأينا كيف ان الاسلام بين سنة ٦٣٨ و ١٠٥٠ مسيحية فى دوره الأول فتح سريعاً شمالى افريقية وأدخلها فى دينه ، وامتد من ساحل البحر المتوسط الى السودان امتداداً كان بطيئا ، لكنه كان أمينا . وقد توقف سير الاسلام قليلا فى القرن العاشر بسبب ثورات البربر ، وحروب الروم ، وفتن ملوك المغرب بعضهم مع بعض ، ولكنه استأنف همته وأدخل فى حظيرته نصارى النوبة ، وأمم الغاله ، والسواحليين (سواحل زنجبار) ، وقبائل الصحراء ، ثم أسس فى السودان ممالك عزيزة ، ومراكز

عظيمة لبث الدعوة ، وهذا فى دوره الثانى .

أما فى الدور الثالث من سنة ١٧٥٠ الى ١٩٠١ فقد نهض نهضة ثالثة ، على أيدى مشايخ الطرق أو الاخوان ، وذلك انه فى أواخر القرن الثامن عشر ، لما دخلت الدعوة البروتستانتية من كل نوع الى افريقية ، وضاعفت الكنيسة الكاثوليكية فيها مجاهديها بسائق المنافسة ، كان لابد من أن يتنبه الاسلام لمقاومة النصرانية ، وان يشتد الصراع بين هاتين القوتين المتقابلتين ، مقرونا ذلك بالاهواء السياسية ، التى تزيده شدة وحدة .

وأكثر أسباب هذه النهضة الأخيرة ، راجعة الى التصوف ، والاعتقاد بالأولياء ، وبظهور المهدى .

ثم ذكر المؤلف كيفية دخول التصوف فى الاسلام مما لم نأثره ، لأن مؤلفى الاسلام أدرى بهذا الموضوع ، وأشار الى عقيدة الأولياء قائلا ، انها مخالفة أشد المخالفة لروح القرآن وان نبى الاسلام ﷺ كان نظره عاليا جدا الى السماء ، ومجتهدا أن يعلو الى آفاق بعيدة بانظار المؤمنين وبصلواتهم ، ولكن المؤمنين لم يلبثوا أن شعروا بالاحتياج الى الوسيلة عند الله ، واتخاذ متوسطين لديه تعالى ، يكونون أقرب متناولا . فلم يأت القرن الثالث من الهجرة حتى ظهرت فى الاسلام العقيدة بالأولياء ، وابتدعت زيارة قبورهم ، وصاروا يعتبرون لهم خصائص ، ويعزون اليهم الكرامات والخوارق وأصبح لكل منهم أتباع ومريدون ، وأشبهت القضية العقيدة الكاثوليكية من هذا الوجه ، فالولى الفلانى يشفى من الرياح كما كان القديس فياكر يشفى مرض الباسور . والشيخ محمد أبو طالب ، يقصده الناس لأجل لقيان الحوائج الضائعة ، كما كانوا فى النصرانية يقصدون القديس انطوان بادو والامام الشافعى ، يستغيث به طلاب الأزهر ، للنجاح فى دروسهم والولى الفلانى هو شفيع المحامين مثل القديس ايف Ives . والآخر مستغاث السياح ، يقيهم من اللصوص فى الطريق .

وأفاض المؤلف فى ذكر الأولياء والقبور ، والقبب المشيدة للزيارات وأداء النذور مما لايحتاج القارئ الى معرفته ، ثم وصل الى عقيدة المهدى فقال :

معلوم الدور الذى أخذته عقيدة المسيح المنتظر فى اليهودية وظهر فيما بعد أنها مستعارة من الفرس . كذلك المسلمون يعتقدون بظهور رجل فى آخر الزمان يقال له المهدى

يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلماً وجورا ويستدلون على ذلك بأحاديث للنبي ﷺ .

ثم ذكر المهديين الذين ظهروا فى الاسلام أوادعوا المهدوية فعدّ منهم ابن تومرت ، الذى ظهر بدولة الموحدين فىالقرن الثانى عشر للمسيح . ثم قال ان كثيرين من مسلمى الهند اعتقدوا فى أكبر خان المغولى سلطان سلاطين الهند فى القرن السادس عشر انه المهدى المنتظر ثم قال انه سنة ١٨٦٢ ظهر واحد من أمة البله Peulh من بلاد ماسينا فى أواسط افريقية كان درويشا من أتباع الطريقة التيجانية ، فزعم انه المهدى وأسس فى السودان مملكة مستقلة ، الا وهو الحاج عمر الذى سيأتى ذكره (١)

قال وأشهر المهديين فى عصرنا محمد أحمد الذى ظهر فى السودان سنة ١٨٨١ فحشد خمسين الف مقاتل من المؤمنين المتحمسين، وهزم العساكر المصرية المرسلة لقتاله فى عدة وقائع ، واستولى على الأبيض قاعدة كردوفان وعلى بربر مفتاح بلاد النوبة ، ثم حصر الخرطوم عاصمة السودان المصرى الواقعة فى الزاوية المتشكلة من فرعى النيل الأبيض والازرق ، وكان فيها قائد أكوسى اسمه غوردون فدافع عنها دفاع الأبطال ، ولكنه لم يقدر على المهدى ، فدخل هذا الخرطوم وقتل غوردون وأطاع له جميع السودان (١٨٨٥) لكنه لم تطل حياته بعد هذا الفتح فمات فى ٢٨ يونيو سنة ١٨٨٥ تاركا سلطنة عظيمة ممتدة من اسوان الى النوبة الى دنقلة الى كردفان الى واحات دار فور . وخلفه عبد الله التعايشى فوسع الفتوح التى كان فتحها المهدى وما زال حتى تغلب عليه الجنرال كيتشنر فى ٣ اغسطوس سنة ١٨٩٩ فى واقعة أم درمان ، و بقيت للمهدى أشياع تقاتل فى الأطراف ، الا أنهم انقرضوا شيئاً فشيئا .

ولم يعترف جميع مسلمى افريقية بمهدوية محمد أحمد وكان من جملة المعارضين له رئيس الفرقة السنوسية ، (٢) ثم قال المسيو بونه مورى مصنف الكتاب الذى نقلنا عنه كل هذا نقل ما ياتى ملخصا :

---

(١) هو الحاج عمر الفوتى قال لى سيدى احمد الشريف انه كانت له صلة مع السنوسية وانه زار الجغبوب

(٢) هذا صحيح فان المهدى السودانى محمد احمد دعا سيدى محمد المهدى السنوسى للاتحاد معه ووعده بأن يجعله مقدم رجاله ، فرفض دعوته واحتج على دعواه ، وبينهما مراسلات فى هذا الشأن أثبتها سيدى احمد الشريف فى تاريخ جده وعمه الذى سينشره ، وقد اطلعني السيد المشار اليه عليه فى هذه الأيام الأخيرة

انه فى القرن الثانى عشر والثالث عشر للمسيح تأسست طرق الدراويش كأنها من نوع المقابلة للرهبانيات النصرانية فى القرون الوسطى ، وللحروب الصليبيــة . وفى القرن الثامن عشر والتاسع عشر حصلت نهضة جديدة عند أتباع الطريقتين القادرية والشاذلية ووجدت طريقتان هما التيجانية والسنوسية .

القادرية

القادرية مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلانى المتوفى فى بغداد (١١٦٦) ، وكان له حرمة حقيقية للسيد المسيح وكان يقول : « يلزم أن ندعو لا لانفسنا فقط ، بل لكل من خلقه الله مثلنا » . فلذلك امتاز أتباعه بروح التسامح مع النصارى واليهود . والقادرية كثيرون جداً فى المغرب وزاويتهم الكبرى فى « عزاوات » أسسها الشيخ مختار الكبير . و بعد وفاته انقسمت القادرية الى ثلاث فرق: الاولى القادرية البكائية الذين مركزهم الزاوية المذكورة ، وقد انتشروا الى تمبكتو . الثانية القادرية الذين فى آدرار[1] ، الثالثة القادرية الذين فى والاتة وقد انتشروا الى السودان الغربى فلهم مراكز فى كانكان وتيمبو ، من بلاد فوتاجالون [2] وفى مورساردو من بلاد الماندنيق ، [3] ومن هذه النقطة امتــدوا الى الجهات المجاورة فعمروا ديار بلال الله ، وذكير الله ، ومدينــه . وما زالوا حتى وصلوا الى مقاطعة سيراليون [4] وبالاجمال فالقادرية هم أحمس مبشرى الدين الاسـلامى فى غربى

---

(١) آدرار واحة من الصحراء الغربية شرقى الرأس الأبيض على مسافة ٤٠٠ كيلو متر شمالى السنيغال أهلها بربر وعرب وأهم قراها ، شنقيط ، ووادان ، واتار ، عرفها الاوربيون منذ سـنة ١٨٥٠ بواسطة ليوبولد بانه

(٢) أحد أقسام السودان الفرنسى واقع بين غينية الفرنسية والسودان المعروف بهذا الاسم والسنيغال وغينية البرتقالية وهو بلاد جبلية لكن ارتفاع أعلى قممها عن سطح البحر لايزيد على ١٣٠٠ متر . ومنها تنبع أنهر النيجر والسنيغال والفالمى والغامبية . ومناخها لابأس به . وفيها معادن ومن حاصلاتها الزيت والقطن والمغط أى الكاوتشوك ، وأهلها ستمائة الف نسمة من جنس الجالونقه والبله والتريقولور ، وكلهم مسلمون وامراؤهم يقال لهم المامى من جنس البله . وعاصمة البلاد تيمبو وهى تحت حماية فرنـسا ، يشرف عليها والى غينية الفرنسية . عن معجم موريس فال Maurice Wahl مفتش المعارف فى المستعمرات الفرنسية

(٣) جيل من الزنج فى غربى افريقية ينسب اليهم قبائل البامباره والمالينكه والسويتكه

(٤) مستعمرة انكليزية على ساحل غينية يحدها غينية الفرنسية شمالا والسودان الفرنسى من الشمال الشرقى والشرق ، وجمهورية ليبريه من الجنوب ، والاقيانوس الاطلانتيكى من الغرب ، عـدد سكانها ١٢٦ ألف نسمة ، ومناخها وبى لكثرة مستنقعاتها

افريقية من السنيغال الى بنين ، التى بقرب مصب النيجر . وهم ينشرون الاسلام بطريقة سلمية أى بالاستعمار والتجارة والتعليم ، وتجد التجار الذين من السونينكه والماندجوله المنتشرين على مدن النيجر وفى بلاد كارتا Kaarta وماسينة Macina ، كلهم من مريدى الطريقة القادرية ومن مريديهم من يخدمون فى مهنة الكتابة والتعليم ويفتحون كتاتيب ليس فى زوايا الطريقة فقط ، بل فى كل القرى فيلقنون صغار الزنج الدين الاسلامى أثناء التعليم ، ويرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا الى مدارس طرابلس والقيروان ، وجامع القرويين بفاس ، والجامع الأزهر بمصر فيخرجون من هناك طلبة مجازين أى أساتذة ، ويعودون الى تلك البلاد لأجل مقاومة التبشير المسيحى فى السودان .

الشاذلية

أما الطريقة الشاذلية فقد تأسست فى النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد ، وهى من أوليات الطرق التى أدخلت التصوف فى المغرب ، ومركزها بو بريت فى مراكش . وكان من أشياخها سيدى العربى الدرقاوى (المتوفى سنة ١٨٢٣) ، الذى أوجد عند مريديه حماسة دينية شديدة امتدت الى المغرب الأوسط ، وكان للدرقاوية دور فعال فى مقاومة الفتح الفرنسى . ومما امتاز به الدرقاوية هو شدة الطاعة لمشايخهم ، فان الدرقاوى المار الذكر كان يوصيهم ساعة موته قائلا : « يجب على الاخوان أن يكونوا فى يد المرشد كالجثة بين يدى الغاسل » . فما أشبه هذه المبادئ حتى فى صيغة التعبير نفسها بمبدأ رهبانية اغناطيوس دولويولا .

التيجانية

وهناك الطريقة التيجانية ، مؤسسها أحمد بن محمد التيجانى المتوفى فى فاس سنة ١٧٨٢ ، وكان يتظاهر بالتسامح مع غير المسلمين ، ومع هذا ففى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لم تقف التيجانية عن استعمال القوة فى مخاصمة أقرانهم ، ونشر العقيدة الاسلامية [1] . وأهم مراكز التيجانية عين ماضى على ٧٠ كيلو متراً فى الجنوب الشرقى

---

(١) اذا لحظ القارئ ان تغيير طور التسامح الذى كان عليه التيجانية لم يقع الا فى النصف الثانى من القرن الماضى ، علم أنه لم يكن الا من أثر تكالب الآباء البيض جماعة لا فيجرى وأمثالهم ، فما لامشاحة فيه أن التسامح يولد التسامح ، والتكالب يهيج التكالب

من اللاغوات ، وفى تياسين . وهم كثيرون فى مراكش ، ولقد تبع الطريقة التيجانية عدد كبير من أهالى ماسينه فى السودان وأهالى فوتاتورو Fouta-Toro وفوتاجالون وامة البله وصاروا من أشد أنصار الاسلام وانضموا حول راية الحاج عمر ، فكانوا طيلة أربعين سنة هم سادة السودان من تمبكتو الى الاقيانوس الاطلانتيكى .

وكان الحاج عمر هذا ابن شيخ مرابط ولد سنة ١٧٩٧ فى قرية الفارمن بلاد ديمار[١] فرباه أبوه وعامه ، ثم حج البيت الحرام وزار المدينة ، وقرأ مدة فى الأزهر وعاد الى بورنو سنة ١٨٣٣ ، ثم ذهب الى بلاد الهاوسه وأخذ يعظ الناس بالرجوع الى عقيدة السلف ويطعن فى تساهل القادرية . وفى أثناء ذلك جاء أخوه أحمد ومضى به الى بلاد فوتا من السنيغال ، فعرج على بلاد البامباره وحصلت معه هناك حوادث وعوارض كثيرة ، لكنه تغلب عليها ، وانضم اليه فى بلد كنكان[٢] رجل يقال له محمد وسار على طريقته وادخل فى الاسلام فرقة من البله يقال لهم الواسولونكه Ouassoulonké .

ولما علت كلمة الحاج عمر ونظر اليه الناس نظرهم الى المهدى ، حشد جيشاً صغيراً وأثار جميع مسامى بلاد غابون[٣] وهزم البامباره الوثنيين شر هزيمة فى تومبا ، واستولى بعدها على كونيا كارى[٤] وسنة ١٨٥٤ جعل مقره العام فى نيورو Nioro[٥] ثم استولى على مملكة سيغو[٦] وعلى بلاد ماسينه . وكانت وفاة الحاج عمر سنة ١٨٦٥ وهو فى حرب مع زنوج ماسينه ، وقد خلف للطريقة التيجانية سلطنة اسلامية عظيمة فى وسط بلاد الزنوج الفتيشيين .

---

(١) ناحية من قطر السنيغال على الضفة اليسرى من النهر بين والو من الغرب وتورو من الشرق

(٢) مدينة من السودان الفرنسى جنوبى النيجر الأعلى أهلها خمسة آلاف نفس

(٣) ناحية من بلاد الكونغو الفرنسى أشهر مدنها ليبرفيل وغلاص Libreville et Gllass وبلاد أوللى Oulli وبلاد الريب Rip ، ووطد فيها دعائم الطريقة التيجانية . وسنة ١٨٤٧ عاد الى نواحى فوتاجالون ، وبنى قلعة حصينه فى دينقيراى Dinguiray ناحية من السودان الفرنسى شمالى النيجر أهلها من التوكولور والزنوج المالينكه

(٤) من بلاد غينية الفرنسية

(٥) من السودان الفرنسى شمالى السنيغال الأعلى عاصمة احمدو الاولى أهلها من البله ، افتتحها الفرنسيس سنة ١٨٩٠

(٦) من السودان الفرنسى على الضفة اليمنى من متوسط النيجر قاعدة ملك احمد وافتتحها الفرنسيس سنة ١٨٩٠

ثم خلف الحاج عمر ابن أخيه ومريد آخر له اسمه احمدو شيخو بن عمر ، وحاولا توسيع فتوحات الحاج عمر، وأثارا أهالى فوتاتورو والسونينكه الذين فى بلاد كاآراته Kaarta والتوكولور الذين فى السنيغال على فرنسا [١] ، فصار وجودهذه السلطنة التيجانية فى وسط السودان خطراً عظيما على سيادتنا .

وكان تحريرالخلاف هو هذا : هل يتم تمدينالسودان الغربى على يد فرنسا وضباطها والمبشرين المسيحيين ، أم على يد التيجانية ورسل الاسلام ؟

فالكولونل ارشينارد باخذه جنه Djenne [٢] و بندجاقار [٣] أوقف غارة التيجانية فى هذا القسم من افريقية و يسر فتح السودان بين يدى المدنية الاوربية . ثم عقب ذلك فتح الكولونل دورغنيس ديبورد Dorgnis-Desbordes لبلدباماكو Bammakou واستلحاق القومندان غالييني Galiéni لبلاد فوتاجالون ، وافتتاح الكولونل ارشينارد لبلاد ماسينه ، وتتوجت جميع هذه الفتوحات باحتلال تمبكتو (١٠ يناير ١٨٩٤) مما خلد أعظم الشرف للعساكر الفرنسية ، وأعاد ذكرى ظفر شارل مارتل فى پواتيه Poitiers ، بسبب ما كان يترتب من النتائج العظام لمستقبل افريقية ، فيما لو لم يتم هذا الظفر [٤]

السنوسية

ثم السنوسية وهم أشد عداء للاوربيين من جميع طرق الدراويش ، وقاعدتهم الجهاد فى الكفار وجمع كلمة المسلمين أجمعين على العدو العام ، وكان مع هذا ، مؤسس هذه الطريقة سيدى محمد بن على السنوسى مستقلا فى رأيه غير متقيد بالمذاهب . [٥]

(١) لايخفى أن كل قوم يحافظون على استقلالهم فهم ثائرون عصاة فى نظر المستعمرين

(٢) بلدة من السودان الفرنسى الى الجنوب الغربى من تمبكتو عدد أهلها ستة آلاف نسمة احتلها لفرنسيس سنة ١٨٩٣

(٣) من السودان الفرنسى فى بلاد ماسينه لاتبعد كثيراً عن ضفة النيجر اليمنى

(٤) يشير الى أن افريقية كانت تكون كلها اسلامية لولا قضاء فرنسا على سلطنة التيجانية هذه ، كما ان اوربا كانت تكون اسلامية لولا انتصار شارل مارتل على العرب فى پواتيه وهى الكلمة التى يتفق عليها مؤرخو الافرنج .

(٥) سأل محرر هذه السطور سيدى أحمد الشريف خليفة سيدى محمد بنعلى السنوسى ، وحفيده ، عن حقيقة هذه الرواية ، فأنكر ذلك ، وانما قال ان جده كان متبعاً للسلف . وقد لحظت ان الأستاذ المشار اليه يقبض فى الصلاة مثل الحنفية وغيرهم ولا يرسل يديه مثل المالكية فسألته عن سبب مخالفته فى ذلك

ولد محمد بن على السنوسى بقرب مستغانم [١] سنة ١٧٩١ ، وقرأ العلوم فى فاس [٢] ثم حج السيد محمد السنوسى بيت مكة (١٨٢٩) وفى أثناء طريقه تلقى اجازات كثيرة ، ودخل فى عدة طرق ، وعاد الى المغرب واقرأ فى لاغوات . وسنة ١٨٣٩ عاد الى الشرق ، وأخذ يقرأ فى الازهر ولكن أحد المشايخ راعه ما هو فيه من استقلال الفكر ، والنزوع الى الاجتهاد ، فافتى بمخالفته للشرع [٣]

وكذلك حصلت ريبة فى أمره بمكة ، لميله الى بعض المبادئ الوهابية [٤] ، ولكنه وجد فى اتفاق تام مع السيد أحمد بن ادريس الفاسى شيخ القادرية ، وعند وفاة هذا الاستاذ أسس طريقة جديدة وذهب الى افريقية ، وجال فى برقة ، و بنى الزاوية البيضاء ، أول زاوية له [٥] . وكثر أتباعه فى واحة الفرافرة ، وفى القطر الطرابلسى ،

للمالكية مع أنه مالكي فأجاب ، أن جده كان يعترض على السادة المالكية فى ذلك ، ويقول ان الذي ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم هو القبض ، وان الذين نقلوا اسبال اليدين عن الامام مالك اخطأوا .

(١) بمحلة يقال لها الواسطة

(٢) سيدى أحمد الشريف يقول ان ولادة جده كانت سنة ١٢٠٢ هجرية وفى الترجمة التى ألفها لجده ذكر ما تلقاه من العلوم وقرأ من الكتب ، وأسماء من أخذ عنهم من الأشياخ ، وهو شيء هائل بالمرة قل أن يوفق أحد لمثله ، ومما يجدر بالذكر أنه أخذ عن السيد أحمد بن ادريس دفين صبيا فى عسير ، والسيد أحمد بن ادريس المشهور بالولاية أخذ عن سيدى عبد الوهاب التازى المعمر الذى عاش ١٣٠ سنة وأدرك الولى الكبير سيدى عبد العزيز الدباغ وأخذ عنه ؛ ويظهر أن أبناء البيت السنوسى كلهم منتسبون الى العلم ، فان والد السيد محمد السنوسى وجده وأعمامه وأبناء أعمامه ، وكثيراً من نسائهم مثل جدته لأبيه السيدة الزهراء وعمته السيدة فاطمة كانوا علماء ؛ وأكثر تربية السيد السنوسى كانت على يد السيدة فاطمة المشار اليها ، وكانت من فضليات أهل زمانها . متبحرة فى العلوم ؛ منقطعة للتدريس والوعظ . يحضر دروسها ومواعظها الرجال . وقد اعتنت كثيراً هذه السيدة بتربية ابن أخيها لما توسمته فيه من باهر النجابة ، أما والده السيد على فكان قد توفى شاباً فى سن الخامسة والعشرين . وكان يجمع الى العلم والصلاح الفروسية والرماية الى الدرجة القصوى . . لذلك تجد السنوسية ينزع بهم عرق الى السيف كما ينزع بهم عرق الى القلم .

(٣) لعله يشير الى الشيخ عليش الذى بلغته أشياء لم يقف فيها على حقيقتها . فأصدر فتوى بحق الشيخ السنوسى ، وقيل انه لما فهم جلية الأمر رجع عنها .

(٤) هذا ما ينكره السنوسية

(٥) ان بعض معمرى الجبل الاخضر يقولون، انهم سمعوه يقول وهو يبنى البيضاء هذه ان الافرنج سيأتون يوماً الى هناك ، ويهدمون قبة الصحابى سيدى رافع رضى الله عنه ، ويربطون خيولهم فى مسجد الزاوية البيضاء ، ويأخذون حجراً من بنيان البيضاء قديماً منحوتاً مكتوباً عليه ، عبارات لاتبينبة . وان هؤلاء

وفى التوات[١] وفى السودان حيث له عشرون زاوية[٢] ، ثم سنة ١٨٥٥ أسس مركز طريقته فى جغبوب وهى سوفا القديمة، على مسافة ثلاثة أيام من سيوه، وصارت أعظم مدرسة لمبشرى الاسلام فى أواسط افريقية. وكان المؤدى الى بحيرة تشاد طريقان أحدهما، شرقى من سوكنه الى مرزوق ، والثانى غربى من غدامس والعاير ، فالسنوسيه نشروا طريقتهم فى وادى والباقيرمى و بوركو وتبعوا نهر ينوى الى أن بلغوا النيجر الادنى حيث تجدهم يهدون تلك القبائل الى الاسلام و بواسطة السنوسية صارت نواحى بحيرة تشاد هى مركز الاسلام العام فى أواسط افريقية . و يقوّم عدد مريدى الطريقة السنوسية بار بعة ملايين ، وطريقة هؤلاء الجماعة فى التبشير ، هى أن يشتروا الارقاء صغارا من السودان و يربوهم فى جغبوب ، وغدامس ، وغيرهما ، ثم متى بلغوا أشدهم وأكملوا تحصيل العلم أعتقوهم ، وسرحوهم الى أطراف السودان ، يهدون أبناء جلدتهم الباقين على الفتيشية ، وهكذا يرحل كل سنة مئات من مبشرى السنوسية لبث دعاية الاسلام فى جميع افريقية الداخلية من سواحل الصومالى شرقاً ، الى سواحل السينغامبية غرباً ، ولقد حذا سيدى محمد المهدى وأخوه سيدى محمد الشريف حذو والدهما فى السعى الى الغرض الذى توخاه ، الا وهو تخليص الاسلام من النفوذ الأجنبى ، واعادة الامامة العامة كما كانت فى عصر الخلفاء .

و بالاجمال ، فان مريدى هذه الطرق هم الذين سعوا فى نشر الاسلام و وفقوا اليه فى افريقية ، قال كو بولانى Coppulani ان هؤلاء تارة بهيئة تجار وطوراً بهيئة مبشرين ، يهدون الى الاسلام الأقوام الفتيشيين ، وتجدهم يبنون زوايا جديدة فى هذه الاقطار الواسعة الشاسعة الممتدة من شمالى افريقية الى اقصى أقاصى السودان ، وأحيانا يؤسسون ممالك مثل سلطنة رابح ، واجدو ، وساموري . انتهى ملخصا

ثم انتقل المسيو بونه مورى الى ذكر تشكيلات الزوايا ، والمدارس ، والجوامع ، والجامعات ، مثل الأزهر فى مصر والقرويين فى فاس ، والزيتونة فى تونس ، وغيرها ، و برامج التعليم فيها . وقال «ان العلوم التى فيها تنقسم الى قسمين الاول ، العلوم الاعدادية (مايسمونه بالآلات) كالنحو والصرف والبيان والمنطق والقراءة والعروض والحساب والجبر

المعمرين الذين سمعوا منه هذا الكلام رأوا مصداقه كله فى آخر حياتهم . لأن الطليان جاءوا وهدموا قبة سيدى رافع — وان كانو جددوا بناءها بعد ذلك — وربطوا خيلهم فى مسجد البيضاء ، وأخذوا الحجر الذى عليه اللاتينى من الجدار

(١) غربى الجزائر

(٢) مجموع زوايا السنوسية اليوم ثلاثمائة زاوية

والثانى ، العقائد وأدب الدين وأسباب التنزيل والحديث والفقه ـ (قال) : ويقرأون فى بعض مدارس فاس ، الكيمياء والطب والهندسة والانشاء والتصوف والموسيقى (قال) : ولم أجد ذكر الفلك فى العلوم التى يعلمونها هناك ولا فى محل مع ان علم الفلك كانت به عناية عظيمة فى المغرب . »

قلنا لعل هذا خطأ ممن أطلعه على برامج التعليم أو سهو ، أو ان علم الفلك أهمل فى هذه السنين الأخيرة ، فانه من العلوم التى كانت تعلم فى فاس وغيرها من مدارس الاسلام بالاعتناء الزائد ، واليك مثالا على ذلك ماقرأنه فى سيرة سيدى محمد بن على السنوسى نفسه ، وهى مخطوط الفه حفيده سيدى أحمد الشريف ، يذكر الشيوخ الذين أخذ عنهم فى فاس فيقول : « ومنهم العلامة الهمام سيدى محمد بن الطاهر الفيلالى الشريف العلوى قرأت عليه مختصر السعد ، وجمع الجوامع ، والسلم ، وجملة صالحة من مختصر الشيخ خليل ، وهو يروى عن الحافظ ابن كيران ، والعلامة الزروالى ، وشيخهم العلامة ابن شقرون ، باسانيدهم السابقة ، وغيرهم من أماثل علماء فاس . ومنهم العلامة المتقى الماهر المتفنن أبو المواهب سيدى أبو بكر بن زيان الادريسى ، حضرته فى علوم كثيرة ، وقرأت عليه الفرائض والحساب ، والأربعين وصناعتهما ، والأسطرلابين وصناعتهما ، والعلوم الأربعة الرياضة والهندسة والهيئة والطبيعة والارتماطيقى ، وأصول قواعد الموسيقى ، والمساحة ، والتعديل ، والتقويم ، وعلم الأحكام والنسب (بكسر النون) والوفق والقواعد الجفرية ، والأصول الزايرجية ، والبسط والتكسير ، والجبر ، والمقابلة وغيرها الخ . »

فانت ترى أن الهيئة كانت تدرس فى فاس فى القرن الماضى وأخبرنى السيد أحمد الشريف أن أستاذه سيدى أحمد الريفى كان بارعها بهذه العلوم ، و بعلم الهيئة والاسطرلاب ، وكان تلقاها عن السيد العلامة ابن السنوسى ، وكانت عندهم الآلات المتعلقة بهذا العلم ، والكرات والازياج وغيرذلك .

ثم ذكر المسيو بونه مورى برنامج الأزهر وأشار الى أن أول مصلح لتعليم الأزهر ، هو الشيخ المهدى العباسى وذكر ما أدخله فيه من الاصلاحات لعهد الخديوى اسماعيل ، وان المصلح الثانى ، هو الشيخ محمد عبده الذى ادخل فى برنامج الأزهر الجغرافية ، والتاريخ ، والتاريخ الطبيعى ، والرياضيات ، والفلسفة ، وغير ذلك فنفخ فى الأزهر روحا جديدة . (قال) وقاومه بعض العلماء الجامدين وغيروا عليه قلب الخديوى ، فأثرت هذه الحوادث فى صحته وتوفى فى رمل الأسكندرية سنة ١٩٠٥ .

الزوايا السنوسية

لما كان قد تقدم ذكر الزوايا السنوسية فى عدة مواضع وكان عندنا أسماء القسم الأشهر منها آثارنا الحاق هذا الجدول بما تقدم من خبر هذه الطريقة وهى : —

زاوية التاج ، فى واحة الكفره ، مقر السادة السنوسية ، ذرية سيدى محمد بن السنوسى .
« الجغبوب ، فى واحة الجغبوب المقر الثانى للسادة المشار اليهم وفيها المدرسة الكبرى لتخريج تلاميذهم
« طرابلس الغرب ، وشيخها سيدى عبد الوهاب العيساوى .
« الرجبان ، فى جبل يفرن من عمل طرابلس ، وشيخها سيدى محمد العيساوى .
« مزده ، فوق قصبة غريان ، شيخها سيدى عبد الله السنى .
« طبقه ، بقرب زنتان ، اشياخها أولاد سيدى محمد الأزهرى .
« الحرابة ، بين نالوت وفساطو بالجبل الغربى .
« سيناون فوق نالوت — زاوية درج فوق سيناون .
« غدامس ، على حدود ايالة تونس ، شيخها سيدى أحمد الحبيب .
« مصراطه ، شيخها السنوسى بن عبد العال .
زاوية ثانية ، فى مصراطه ، شيخها عبد الله بن شنيشيع .
« مسلاته — زاوية القطرون .
« مراده ، بين جغبوب وفزان فى الصحراء ، شيخها سيدى محمد الرويعى .
« مرزوق ، قاعدة فزان شيخها سيدى عبد اللطيف بن عبيد .
« هون ، فى البلاد التى على أبواب السودان ، شيخها سيدى مصطفى الهونى .
« سوكنه ، فى البلاد الواقعة بين طرابلس وفزان ، شيخها سيدى الشريف حامد بن بركات .
« واو فى جنوبى طرابلس نحو السودان ، شيخها سيدى محمد الأشهب .
« غات شيخها الحاج أحمد الغاتى — التوات جنوبى عمالة الجزائر .
« الهوارى فى واحة الكفره على مسافة خمس ساعات شمالى مقر السادة ، وشيخ زاوية الهوارى سيدى الفضيل السوسى .

زاوية الجوف فى نفس واحة الكفره ، شيخها سيدى عبد الهادى الفضيل .

» تزربو عن زاوية التاج على مسيرة ستة أيام ، شيخها القطب الصالح السيد المدنى من تلاميذ سيدى ابن السنوسى الكبير .

» ربيانه على ثلاثة أيام من الكفره ، شيخها سيدى حسين بزامه .

» الوجنقه الكبرى فى أوائل السودان على خط دارفور على مسيرة ١٧ يوما الى الجنوب من الكفرة ، شيخها سيدى عبد ربه البرعصى .

» الوجنقة الصغرى ، شيخها سيدى عبد الرازق الفاخرى .

» قرو عن الوجنقة الكبرى على مسيرة ثلاثة أيام الى الغرب ، شيخها الفاضل الأديب سيدى محمد بن عبد الله السنى أحد دعاة الاسلام فى أواسط افريقية . أصله من بلاد سنار فى الحبشة عباسى النسب .

» البرقوات — زاوية زندر فى السودان .

» برضى على أبواب السودان ، شيخها ابراهيم الغربى — زاوية كانو فى بلاد النيجر .

» قانت بالقرب من غات ، شيخها السنوسى الغاتى الانصارى .

» عين كالك التى جرت الحرب عليها بين السنوسية والفرنسيس على مسيرة ستة أيام غربى قرو ، شيخها الفاضل سيدى عبد الله الفضيل الزوى . وعين كالك هذه فيها أنهار جارية ومن أخصب بقاع البسيطة .

» ون" قبلى" زاوية عين كالك على مسافة يوم ونصف يوم مائلة الى الشرق وهى على مسافة نحو ٢٠ يوما من مرزوق فزان ، وشيخ الزاوية هذه سيدى المهدى السنى ولد سيدى محمد السنى .

» بنى غازى شيخها الاستاذ العلامة سيدى أحمد العيساوى .

» أم شخنب على مسيرة ٧ ساعات الى الجنوب من بنى غازى كان شيخها الأديب سيدى محمد على بن عبد المولى

» الطيلمون على مسيرة ١٠ ساعات من بنغازى الى الغرب شيخها سيدى محمد على المحجوب

» مسوس قبلى الطيلمون وشيخ هذه الزاوية سيدى سنوسى الاشهب

» اجدابية غربى بنغازى شيخها سيدى عبد اللطيف الزوى .

زاوية القطفية على مسيرة ٤ أيام الى الغرب من بنغازى شيخها الزروالى بن عبد اللطيف .

» النوفلية غربى القطيفة بمسافة ٦ أيام شيخها سيدى أحمد بن ادريس .

» الزعفران غربى النوفلية على مسافة يوم ونصف يوم بجوار قصر سرت شيخها ابن شفيع

» زليطن فى محل اسمه زوو شيخها سيدى محمد بن عثمان بن بركة .

» زويله من فزان .

» زله شرقى زاوية سوكنه شيخها سيدى الخريصى .

» أوجله شيخها سيدى عبد الله الفضيل .

» جالو وتسمى زاوية العرق وشيخها سيدى عبد الله التواتى .

» اللبة فى أوجله أيضا وشيخها الحاج محمد فريطيس .

» شنحره فى بلاد جالو وأوجله شيخها سيدى محمد صالح .

» سيوه وهى الزاوية الأولى تخص السادة رأسا والوكيل عليها سيدى يوسف بن عبد الله بن أحمد .

» سيوه المنسوبة الى آل معرف شيخها سيدى محمد بن عبد الله الزوبى رفيق سيدى أحمد الشريف الأستاذ الأكبر فى سياحته الى الاستانة والأناضول .

» سيوه الثالثة تخص السادة رأسا والوكيل عليها أحمد الجبيرى .

» سيوه الرابعة شيخها الشيخ أحمد أبو غالى .

» حطية الزيتون على مسافة ٦ ساعات الى الشرق من زاوية بنى معرف وهى تخص السادة رأسا والوكيل عليها سيدى الحسين الشريف .

» القاره على مسافة ١٣ ساعة على الفارس الى الشرق من حطية الزيتون وهى تخص السادة رأسا والوكيل عليها صالح ولد سيدى يوسف .

» الفرافرة على مسافة ستة أيام الى الشرق شيخها سيدى السنوسى بن خالد .

» القصر الى الشرق من الفرافرة فى الواحات شيخها ابن سيدى محمد الموهوب .

» الواحات البحرية شيخها سيدى صالح السعدى .

» الواحات البحرية الثانية شيخها سيدى المبروك القطعانى .

» منديشة الى جهة صحراء الفيوم شيخها سيدى عبد المالك الموهوب .

» القلمون فى الواحات أيضاً. وكل هذه الزوايا فى سيوه والواحات فى عيون ونخيل وكروم

زاوية الفيوم وشيخها سيدى عبد العال السنوسى .
» الزينية بالصعيد المصرى فيها أولاد الولى الكبير سيدى أحمد بن ادريس .
» سيدى ابراهيم الريس الفاسى فى الصعيد
» حوش ابن عيسى بجهة الاسكندرية شيخها سيدى محمد بن مالك
» الغيط عند العامرية فى مديرية البحيرة شيخها سيدى مرتضى الغريانى
» بهيج وشيخها سيدى موسى العقارى
» سيدى يادم الابيرش على مسافة ساعتين من بهيج
» سيدى عبد العاطى بن محيفظة على مسيرة نصف يوم من زاوية سيدى يادم
» الضبعة ويقال لها زاوية شنينة وشيخها سيدى عبد المنعم أبو شنينة وهى على مسيرة يومين من زاوية سيدى عبد العاطى
» قريوة على مسافة يوم من شنينه وشيخها سيدى عبد الرحيم الفاخرى
» فوكه على مسافة ثلاث ساعات من قريوه شيخها سيدى عبد الرحيم التهامى
» محطة فوكه وشيخها سيدى موسى بن موسى .
» بقوش وشيخها سيدى هارون بن بدر القناشى وهى على ساعتين من فوكه
» سيدى على بن مورد الى الغرب من زاوية بقوش بساعتين
» أم الرخم غربى مرسى مطروح وشيخها أبو القاسم الطيب
» نجيله الى الغرب بيوم من أم الرخم وشيخها سيدى عبد القادر بن عمر
» شماس على ٣ ساعات من نجيله الى الغرب وشيخها سيدى عمر الاوجلى
» عليم الجلول على مسافة ثلاث ساعات الى الغرب من زاوية شماس وشيخها سيدى محمد الشريف
» برانى على مسافة يوم الى الغرب من هذه وشيخها سيدى الشريف بن ميلود
» سيدى عمران بن ابراهيم على مسافة يوم من زاوية برانى ومن زاوية سيدى عمران ابن ابراهيم الى السلوم مسيرة يوم . وهذه الزوايا من الاسكندرية الى السلوم كلها فى بلاد أولاد على
» جبيل على مسافة ثلاث ساعات الى الغرب من السلوم شيخها سيدى محمد الشارف من أولاد عم السادة
» أم ركبه فى موقع دفنة على ٣ ساعات من زاوية جبيل وهى زاوية سيدى على بن عبد الله

زاوية سيدى حسين الغرياني فى دفنة أيضا على ثلاث ساعات من أم ركبه
» المرصص فى غربى مرسى طبرق على مسافة يومين من التى قبلها وشيخها سيدى صالح الشريف
» أم الرزم أو أم ارزم [1] على مسيرة يومين من المرصص وشيخها سيدى مرتضى فركاش وعندها عين نضاخة و بستان جليل
» سيدى محمد بن فارس على ساعتين من أم ارزم الى البحر
» مرطوبة على مسافة ساعتين الى الغرب من التى قبلها وشيخها سيدى عبد الله فركاش وفيها عيون عذبة جارية من الجبل الذى فوقها و بساتين
» درنه فى نفس المدينة شيخها السنوسى الغرياني
» العزيات من درنة الى الجنوب على مسافة يوم شيخها سيدى السنوسى الجبالى
» المخيلة على مسافة يوم من العزيات شيخها محمد بن الحسين
» بشاره على بضع ساعات الى الجنوب الغربى من درنه وشيخها سيدى عبد القادر فركاش وعندها عين جارية و بساتين
» ماره الى الشرق من بشاره وشيخها سيدى عبد الله أبو سيف وهى على رأس نبع ماره من انزه وأعذب ينابيع الدنيا وعليه البساتين والطواحين
» ترت الى الغرب من بشارة وشيخها كان سيدى محمد الغزالى . وكل هذه الزوايا فى بلاد قبيلة العبيدات الكبيرة
» نقا شرقى ترت شيخها سيدى الحبيب بن جلول — زاوية العوينة بهاتيك الجهات أيضا
» الفائدية المنسوبة الى قبيلة فائد وشيخها سيدى صالح بن اسماعيل
» شحات أى مدينة سيرنا القديمة وهى بلدة عالية فى رأس جبل مشرف على البحر تنبع المياه من مغارة بأعلاه وتسقط فى شلالات بديعة ولها منظر من أجمل مناظر الدنيا وشيخ زاوية شحات سيدى محمد الدردفى . والزاوية هى زاوية قبيلة الحاسة
» ماسه وهى الزاوية البيضاء التى كانت أول ما أسسه السنوسى الكبير تبعد عن شحات نحو ساعتين الى الغرب وهى على بضع دقائق من مقام سيدى رويفع الانصارى رضى الله عنه وشيخ الزاوية البيضاء الآن سيدى محمد الغمارى . والزاوية زاوية البراعصة
» الحامة غربى الزاوية البيضاء على ساحل البحر وشيخها سيدى السنوسى الغمارى
» الحنية غربى الحامة وشيخها سيدى أحمد بن العيساوى
» القصرين قبلى زاوية الحامة وشيخها سيدى محمد العربى

---

(١) أم ارزم معناها الريح

زاوية العرقوب شرقى زاوية القصور وشيخها سيدى جاد الله الجبالى

» القصور شرقى قصبة المرج وشيخها البطل المشهور القائد للمجاهدين فى حرب الطليان سيدى عمر المختار وهى زاوية قبيلتى العرفا والعبيد

» اسقفه غربى دريانة وشيخها سيدى الأمين الغمارى

» دريانة غربى طلميثه وشيخها الشريف الغمارى

» المرج على أربع ساعات قبلى طلميثه وهى زاوية سيدى عمران السكورى

» كرسا تبعد عن زاوية ماره السابقة الذكر بمسافة ساعتين صوب البحر وجماعتها التراكى وشيخها سيدى يوسف العجال

» الأثرون على ٤٠ دقيقة من زاوية التراكى وشيخها سيدى الحبيب الجلول

» كفنطه على ساعتين ونصف ساعة الى الجنوب من زاوية الحنية السالفة الذكر وشيخها سيدى حميده بن عمور

» ميراد مسعود بحرى زاوية القصرين وشيخها سيدى محمد بن حوا

» الحامدية غربى ميراد مسعود وشيخها سيدى عبد الله الكايلى

» عائلة دغار على مسافة نصف ساعة من الحامدية الى الغرب وشيخها سيدى محمد الغالبى

» نيان شيخها سيدى العربى الغمارى

» طلميثه على أربع ساعات بحرى قصبة المرج وشيخها التواتى الكليلى

» توكره غربى طلميثه وشيخها سيدى عبد الله الجيلانى

» برسس غربى توكره وشيخها ابن سيدى عبد الله الجيلانى . وأكثر هذه الزوايا فى بلاد قبيلة الدرسا

» مستغانم فى القطر الجزائرى وشيخها سيدى أحمد بن تكوك

» سيدى محمد بن صادق فى بلاد الجريد من مملكة تونس وفى تلك البلاد خمس زوايا أخرى تحت نظارة الشيخ المذكور

» جدة فى الحجاز تحت نظارة شيخ زاوية أبى قبيس بمكة

» أبى قبيس بمكة المشرفة شيخها سيدى حامد ـ زاوية الطائف وهى تحت نظر الشيخ المذكور

» الجديدة فى طريق المدينة ـ زاوية بدر الشهداء وشيخها سيدى محمد الغمارى

» المدينة المنورة وشيخها سيدى مصطفى الغمارى ـ زاوية ينبع البحر

» ينبع الوجه ـ زاوية الحمراء ـ زاوية الصفراء ـ زاوية رابغ ـ زاوية صبح

» العيص . وهذه كلها فى الحجاز وجملة ما هو مقيد عندنا من هذه الزوايا ١٣٠ زاوية ولا تزال زوايا كثيرة فى المغرب والسودان والحبشة والصومال مجهولة عندنا .